مقالات وبحوث الدكتور عبد الكريم بكار

جمعها ونسقها
الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذه مجموعة طيبة وممتنعة من مقالات وبحوث الدكتور عبد الكريم بكار حفظه الله

وهي بحوث فكرية عميقة حول أمراض المجتمع الإسلامي ، وكيفية علاجها بشــكل دقيق ، بعيــدا عن الصــخب والضــجيج ،وهي منوعة وشاملة

وقد قمت بجمعها – لأهميتها البالغة - من مواقع كثــــيرة أهمها موقعان :

موقع المسلم اليوم

وصيد الفوائد

هذا وقد بلغت حوالي مائة وتسعة عشر مقالا

وقد قمت بوضعها في الشاملة وفهرستها

وكذلك فقد قمت بفهرستها على الورد

ووضعت ترجمة مختصرة في البداية للدكتور حفظه الله

قال تعالى :

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَـةٌ بِقَـدَرِهَا فَاحْتَمَـلَ السَّـيْلُ زَبَـدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّـهُ الْحَـقَّ وَالْبَاطِـلَ فَأَمَّا الزَّبَـدُ فَيَـذْهَبُ جُفَـاء وَأَمَّا مَا يَنفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّـهُ الأَمْثَـالَ} (17) سـورة الرعد

هــذه الآية الكريمة في جملتها تــبين أن الــذي يصح ويبقى في هــذه الحياة، وينتفع به الناس غاية الانتفاع إنما هو الحــق. وبالمقابل فـإن كل ما كــــان خلاف ذلك من أنــــواع الباطل لا وزن له ولا قيمة ولا اعتبار، وسرعان ما يزول ويضمحل .

فهذه الآية تضمنت مثلين حسيَّين، يراد منهما إيصـال فكـرة واحـدة، مفادهـــا: أن الحق هو المنتصر في النهايـــة، وهو صـــاحب الكلمة الفصل في معركة الحيـــاة، وأن الباطل هو الخاسر والمنهـــزم في المحصلة؛ فالمثل الأول وهو قوله تعـالى: { أنــزل من الســماء مـاء فسـالت أودية بقـدرها فاحتمل السـيل زبـدا رابيا } مضـروب للمـاء الذي يُنـزله الله من السماء، فيتدفق في الأرض، فيملأ الأودية الـتي تشـكل سـيولاً جارفـة، تحمل معها كل ما تصـادفه في طريقها من القش والورق والفضلات وغير ذلك مما لا قيمة له في الحقيقــة. ثم إن هـذه السـيول الجارفة تشـكل على سـطحها رغـوة بيضـاء على شـكل فقاعـات، سـرعان ما يتلاشى شـكلها، وينطفئ لونهـا. ويبقى المـاء وحـده هو الـذي ينتفع به النـاس، حيث يرفد الأنهـار، ويغـذي الينابيع، ويحمل معه الخير، فيحـلُّ الخصب بعد الجـدب، والنمـاء بعد القحط، والخير بعد الشح .

والمثل الثاني هو قوله تعالى: { ومما يوقدون عليه في النـار ابتغـاء حلية أو متاع زبد مثله } ضـربه سـبحانه للنـار الحامية الـتي تعـرض عليها المعادن بأنواعها، ومنها الـذهب والفضـة، بقصد إزالة شـوائبها وما خبث فيها، وفي أثناء عرضها على تلك النار تطفو على سـطحها طبقة سائلة أشـبه بـالرغوة البيضـاء الـتي تطفو على سـطح المـاء، لكنها سـرعان ما تتلاشى في الهـواء وتضـمحل هنا وهنـاك، ويبقى جوهر المعدن الأصيل الذي ينتفع به النـاس، فيصـنعون منه أدواتهم، ويستعينون به على قضاء حوائجهم .

كـذلك الحق والباطل في هـذه الحيـاة؛ فالباطل قد يظهـر، ويعلـو، ويبدو أنه صاحب الجولة والكلمة، لكنه أشـبه ما يكـون بتلك الرغـوة البيضـاء الـتي تطفو على سـطح مـاء السـيل، والمعـدن المـذاب، سرعان ما تذهب وتغيب، من غـير أن يلتفت إليها أحـد. في حين أن الحق، وإن بدا لبعضهم أنه قد انزوى أو غاب أو ضـاع أو مـات، لكنه هو الذي يبقى في النهاية، كما يبقى الماء الذي تحـيى به الأرض بعد موتها، والمعدن الصافي الذي يستفيد منه الناس في معاشـهم حلية أو متاعاً .

على أن في الآية الكريمة - غـير ما تقـدم - وجهـاً آخر من التمثيـل، ذكره بعض أهل العلم، وهو أن الماء الـذي ضـرب الله به المثل في هذه الآية، إنما المراد منه العلم والهدى الـذي يبعثه الله على عبـاده عن طريق أنبيائه ورسله ودعاته، فيأخذ الناس منه حظهم، بقــدر ما ييسرهم الله له، ويوفقهم إليه. فتكون عناصر التمثيل في هـذه الآية - بحسب هذا الوجه - وفق التالي:

الماء مراد به العلم والهدى. والأودية مراد منها القلوب التي تتلقى العلم والهـدى. وسـيلان الأودية بقـدرها مـراد منه حظ القلـوب في قبــول وتلقي ذلك العلم. والزبد الــذي يطفو على ســطح المــاء والمعادن مراد منه الأباطيل والشكوك والشـبهات والشـهوات الـتي تنتــاب الإنســان. وما يبقى من المــاء الصــافي بعد مضي الســيل، والمعـدن النقي بعد عرضه على النـار مـراد منه الحق الـذي يبقى على مر الأيام والسنين؛ لأن من صفاته الثبات ومن خصائصه البقـاء .

ووجه التمثيل - وفق هـذا المسـلك - أن السـيل الجـارف والمعـدن المذاب كما يذهب زبدهما هنا وهنـاك، من غـير اكـتراث ولا اهتمـام، فكذلك الأباطيل والشـكوك تـذهب من قلب المـؤمن وتتلاشى ليحل مكانها الإيمان والهدى، الذي ينفع صاحبه، وينتفع به غيره .

وقد روى الطـبري (20311)عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قوله في هذه الآية: هذا مثل ضربه اللـه، احتملت منه القلـوب على قـدر يقينها وشـــكها. فأما الشك فلا ينفع معه العمـــل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: { فأما الزبد فيذهب جفاء }، وهو الشك، { وأما ما ينفع النـــــاس فيمكث في الأرض }، وهو اليقين، كما يجعل الحلي في النار، فيؤخذ خالصة، ويترك خبثه في النـار. فكـذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك . (وهو حديث حسن لغيره))
وعلى نحو هذا التمثيل في الآية جاء قوله صـلى الله عليه وسـلم: « مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَـلِ الْغَيْثِ الْكَثِـيرِ أَصَـابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْـبَ الْكَثِـيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَـكَتِ الْمَـاءَ ، فَنَفَـعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَـرِبُوا وَسَـقَوْا وَزَرَعُـوا ، وَأَصَـابَتْ مِنْهَا طَائِفَـةً أُخْـرَى ، إِنَّمَا هِىَ قِيعَـانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِى دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَـهُ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًـا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ » أخرجه البخاري برقم(79).
والذي يستفاد من التمثيل الوارد في الآية جملة أمور:
أولها: أن العاقبة للمؤمـنين، وأن الحق منتصر لا شك في ذلـك، وإن كان الواقع يدل على غير ذلك؛ وأن الباطل لا محالة زائل، وإن كـان في يوم من الأيام ممسكاً بالراية ورافعاً لها .
ثانيها: أن العمل الصـالح هو الـذي يبقى لصـاحبه، وهو الـذي يـرجى منه الخـير في الـدنيا والآخـرة، وأن العمل السـيئ يـذهب ولا يفيد صاحبه شيئاً .
ثالثها: أن العلم والهدى هو الذي ينفع المؤمن في هـذه الحيـاة، وأن الشك والباطل لا يغنيا ولن يغنيا من الحق شيئاً .
أخيراً، يقول ابن القيم رحمه الله :
إن من لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعـرف ما يـراد منهما فليس من أهلهما .
وقد قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القـرآن فلم أفهمـه، بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقـول: { وما يعقلها إلا العـالمون } (العنكبوت:43) [1].

===================

أسـأل الله تعـالى أن ينفع به جامعه وناقله وقارئه والـدال عليه في الدارين

---

[1] - http://www.islamweb.net/ver2/archive/readArt.php?id=138862

جمعه وأعده
الباحث في القرآن والسنة
علي بن نايف الشحود
في 17 شعبان 1428هـ

سيرة ذاتية

أ. د. عبد الكريم بكار
عبد الكريم بن محمد الحسن بكّار
سوري الجنسـية، من مواليد محافظة حمص عـام 1951م / 1370 هـ.
مقيم في الرياض.
الدراسة والشهادات العلمية
1- إجازة في اللغة العربية (درجة البكالوريوس)، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (1973م/ 1393هـ).
2- درجة (الماجسـتير)، قسم "أصـول اللغـة"، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (1975م/1395هـ).
3- درجة (الدكتوراه) بمرتبة الشرف الأولى، قسم "أصول اللغـة"، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (1979م/1399هـ). وكـان عنـوان الرسالة: "الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي ".
التدرج الأكاديمي
1- محاضـر، جامعة الإمـام محمد بن سـعود الإسـلامية، بريـدة - المملكة العربية السـعودية (1396هـ - 1401هـ / 1976م-1980م).
2- أستاذ مساعد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسـلامية، بريـدة - المملكة العربية السـعودية (1401هـ - 1406هـ / 1980م-1985م).
3- أستاذ مشارك، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بريـدة - المملكة العربية السـعودية (1406هـ - 1410هـ / 1985م-1989م).
4- أسـتاذ مشـارك، جامعة الملك خالـد، أبها - المملكة العربية السعودية (1409هـ - 1412هـ / 1989م - 1992م).

5- أســتاذ، جامعة الملك خالــد، أبها - المملكة العربية الســعودية (1412هـ-1423هـ/1992م-2002م).
6- أســتاذ، الجامعة العربية المفتوحــة، الريــاض - المملكة العربية السعودية (2003م-2004م).
الأنشطة الأكاديمية
o قمت خلال سنوات عملي الأكاديمي بالتـدريس في حقلين : حقل اللغويات وحقل الثقافة الإسلامية.
درّست في حقل اللغويـات المـواد التاليـة: المعـاجم اللغويـة، دلالة الألفـاظ، الأصـوات اللغويـة، اللهجـات العربيـة، القــراءات القرآنية واللهجات، النحو، الصرف، المدارس النحوية وتاريخ النحو.
درست في حقل الثقافة الإســلامية: الثقافة الإســلامية والحـــديث النبوي الشريف.
o رئاسة قسم النحو والصـــــرف وفقه اللغة في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بأبها (1989-1993م/1409هـ - 1413هـ).
o المساهمة في وضع منـاهج برنـامج (الماجسـتير) في كلية التربية للبنات بأبها عام 1993م/ 1413هـ.
o رئاسة عدد من اللجان العلمية والفنية مثل لجنة (تقـويم الإرشــاد الأكــاديمي) في الكلية ولجنة (الأســئلة) ولجنة (تطــوير المنــاهج) ولجنة (نشاط أعضاء هيئة التـدريس)، والعضـوية في عـدد كبـير من اللجــــان مثل اللجنة العلمية ولجنة الأســـئلة، واللجنة التحضـــيرية لمجلس الكلية.
o الإشــراف على مئـات البحـوث النظرية والعملية على المســتوى الجامعي، بالإضافة إلى تقييم بعض البحوث المعـدة للنشر في بعض المجلات المحكّمة، ومناقشة رسالة دكتوراه.
الإنتاج العلمي والفكري والثقافي
الكتب والدراسات المتخصصة
1- "أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري"، بحث غير منشور (1984م/1404هـ).
2- "ابن مجاهد شــيخ قــراء بغــداد"، بحث، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم (1984م/1404هـ).
3- "القواعد والإشــارات في أصــول القــراءات" للقاضي أحمد بن عمر الحمـــوي (تحقيـــق)، الناشـــر: دار القلم، دمشق (1986م/ 1406هـ).

4- "الصـفوة من القواعد الإعرابيـة". الناشـر: دار القلم، دمشق (1987م-1407هـ).
5- "رد الانتقاد على الشافعي في اللغة" للإمـام الـبيهقي (تحقيـق). الناشر: دار البخاري، بريدة (1987م/ 1407هـ).
6- "أثر القـراءات السـبع في تطـور التفكـير اللغـوي"، الناشـر: دار القلم، دمشق (1990م / 1410هـ).
7- "المهـــدوي ومنهجه في كتابه الموضـــح"، الناشـــر: دار القلم، دمشق (1991م / 1411هـ).
8- "ابن عباس مؤسس علوم العربية"، الناشر: دار السـوادي، جـدة (1991م / 1411هـ).

الكتب والدراسات الفكرية والثقافية

9- "إنشاء مركز لتعليم اللغة العربية"، دراسـة، نـدوة (اللغة العربية وآفاق المستقبل)، كلية اللغة العربية بأبها (1993م/1413هـ).
10- "فصـول في التفكـير الموضـوعي"، الناشـر: دار القلم، دمشق (الطبعة الثانية: 1994م / 1414هـ).
11- "نحو فهم أعمق للواقع الإســلامي"، الناشـــر: دار المســـلم، الرياض (1415هـ/1995م).
12- "من أجل انطلاقة حضــارية شــاملة"، الناشــر: دار المســلم، الرياض (1415هـ/1995م).
13- "مقـدمات للنهـوض بالعمل الـدعوي"، الناشـر: دار المسـلم، الرياض (1416هـ/1996م).
14- "مدخل إلى التنمية المتكاملة"، الناشر: دار المسلم، الرياض (1417هـ/1997م).
15- "في إشراقة آية"، الناشر: دار هجر، أبها (1417هـ/1997م).
16- "من أجل شــباب جديـد"، بحث منشــور في وقــائع المـؤتمر، المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمّـان-الأردن (1998م- 1418هـ).
17- "حول التربية والتعليم"، الناشر: دار المسـلم، الريـاض (1419 هـ/1999م).
18- "العولمة"، الناشر: دار الأعلام، عمّان (1419 هـ/ 1999م).
19- "القـــراءة المثمـــرة"، الناشـــر: دار القلم، دمشق (1420 هـ/ 2000م).
20- "عصرنا"، الناشر: دار القلم، دمشق (1420هـ/2000م).

21- "العيش في الزمــان الصــعب"، الناشــر: دار القلم، دمشق (1420هـ/2000م).
22- "رؤى ثقافيــة"، الناشــر: دار المســلم، الريــاض (1421 هـ/ 2001م).
23- "تجديد الـــــوعي"، الناشـــــر: دار القلم، دمشق (1422هـ/ 2002م).
24- "اكتشاف الذات"، الناشـر: دار الأعلام، عمّـان (الطبعة الثانيـة: 1423هـ/2003م).
25- "دليل التربية الأسـرية"، الناشــر: دار الأعلام، عمّــان (الطبعة الثانية: 1423هـ/2003م).
26- "خطـوة نحو التفكـير القـويم"، الناشــر: دار الأعلام، عمّــان (1423هـ/2003م).
27- "تشكيل عقلية إسلامية معاصرة"، الناشر: دار الأعلام، عمّان (1423هـ/2003م).
28- "جدد عقلك"، الناشر: دار الأعلام، عمّان (1423هـ/2003م).
29- "بناء الأجيال"، الناشر: المنتدى الإسـلامي، الريـاض (1423هـ/ 2003م).
30- "لمتحدث الجيد"، الناشر: مركز حـوار الأجيـال، الريـاض (تحت الطبع).

مقالات وفعاليات ثقافية

1- أكـــثر من 150 مقالة علمية ومقالة رأي في مجلات وصـــحف عربية، منها:

o مجلة الفيصل (الريـاض)، المجلة العربية (الريـاض)، مجلة البيـان (لندن)، مجلة المعرفة (الريـاض)، مجلة الـدعوة (الريـاض)، جريـدة المسلمون (لندن).

2- أكثر من 50 محاضـرة عامة ومتخصصة في عـدد من الجامعـات والمراكز الثقافية، ومنها:

o جامعة أم القرى (مكة المكرمـة)، جامعة الإمـام محمد بن سـعود الإسـلامية (بريـدة وأبهـا)، كلية المعلمين (المدينة المنـورة)، جامعة الملك خالد (أبهـا)، جمعية الإصـلاح الاجتمـاعي (الكـويت)، المراكز الصـيفية في المملكة العربية السـعودية، النـدوة العالمية للشـباب الإسلامي (الرياض)، صندوق الحج (ماليزيا)، نادي أبها الأدبي (أبهـا)، الغرفة التجارية الصناعية بالقصيم (بريدة).

3- أكثر من 80 حلقة تلفازية وإذاعية بثت في كل من:

o المملكة العربية السـعودية: التلفزيـون السـعودي (بريـدة)، إذاعة القرآن الكريم (الرياض)، قناة المجد (الرياض).
o مصر: قناة المجد (القاهرة).
o تركيا: إذاعة بورصة (بورصة).
الهيئات والجمعيات
1- عضو المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإســــــلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض).
2- عضو الهيئة الاستشارية بمجلة "الإسلام اليوم" (الرياض).
شهادات التقدير
حصلت على عـدد من شـهادات التقـدير من عـدد من الجهـات على مشاركتي في مختلف الأنشطة، ونلت لقب (الأستاذ المثـالي) عـام 1995م/ 1415هــــ على مســـتوى كلية اللغة العربية والعلــــوم الاجتماعية بجامعة الملك خالد (أبهــا)، ومن الجهـــات المصــــدرة لشهادات التقدير: جامعة الإمـام محمد بن سـعود الإسـلامية، جامعة الملك خالد، جامعة أم القرى.
للمراسلة والاتصال:
المملكة العربية السعودية - الرياض 11393 ص. ب 365480
هاتف وفاكس: 4503248 (1-966+)
جوال: 4748926 (5-966+)
البريد الإلكتروني: bakkar2002@msn.com
وأسأل الله التوفيق لما هو خير وأبقى ،،،
مع خالص التحية والتقدير
=====================

النقد البنّاء

في حياتنا العامة والخاصة عــدد كبــير من الجــدليات، حيث يكــون الشيء في وجوده أو اسـتقامته أو بـواره متوقفًا على وجـود شـيء آخــر. ويتنــاوب الشــيئان على الوظيفة نفســها، كتلك العلاقة الــتي نلمسها بين المرض والفقر، إذ يهيء الفقر صاحبه للتعرض للمرض، كما أن المرض من جهته يسبّب للفقير المزيد من الفقر وهكذا.
هذا يعني أن خصائص كثير من الأشياء لا تستمد من ذاتها، وإنما من العلاقات التي تربطها بغيرهـا. ومن المؤسف أن اكتشـاف العلاقـات الجدلية على الــرغم من تأثيرها الكبــير، لا يلقى من معظم النــاس الاهتمام، وبالتالي فإن معرفتنا بها تتسم بالقصور والسطحية!

بين البنـــاء والنقد علاقة جدليـــة، عظيمة الأهمية إلى درجة أن كلاً منهما يتغذى على الآخر بصورة جوهرية. ولا نستطيع أن نعرف مدى حاجة كل منهما إلى الآخر إلا إذا قطعنا الحبل السريري الـذي يربط بينهما. ولعلي أبسط القول في هذه المسألة المهمة عبر المفردات الآتية:

1- إن القرآن الكـريم نـزل منجمًا في مـدة طويلة نسـبيًا، هي مـدة حيـاة النـبي -صـلى الله عليه وسـلم- بين البعثة والوفـاة. ويلاحظ الناظر دون عناء أن معظم ما ينزل من الذكر كـان يرتبط بوجه من الوجوه بحركة المجتمع الإسلامي. إنه يوجه المسيرة، ويوضح ملامح الطريق، كما أنه يـذكّر السـائرين بالمقاصد النهائية لسـيرهم. وحين يقع خطأ بسبب اجتهاد أو ضـعف بشـري، فـإن القـرآن الكـريم ينبه المسلمين إلى ذلك الخطأ بقطع النظر عن مقام المنتقد ، وعن نوع موضـوع النقد ، هل هو عـام أو هو خـاص بشـخص من الأشـخاص، على نحو ما نجـده في قـول سـبحانه: "ما كـان لنـبي أن يكـون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخـرة والله عزيز حكيم" [سورة الأنفال: 67-68]، وقوله: "عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صـدقوا وتعلم الكـاذبين" [سـورة التوبة: 43]. وقوله: "وإذ تقـول للـذي أنعم الله عليـه، وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه" [سورة الأحـزاب: 37]، وفي السنة النبوية الكثير الكثير من النصـوص الـتي تنتقد بعض تصـرفات الصحابة، وتدلهم على ما هو أفضل وأصـوب. وقد وعى المسـلمون المغزى العميق لذلك، ومارسـوا النقد بصـيغ عديـدة ، ولطالما كـان النقد البنّاء عامل تحرير للأمة من كثير من الزيغ والخطأ على ما هو معروف ومشهور.

2- لو تساءلنا: مالذي يعطي المشروعية للنقـد، ويجعل منه شـيئًا لا غنى عنه لاستقامة الحياة، لوجدنا أن ما يمكن التحدث عنه في هـذا الشأن كثير، لعل منه:

أ - حين نخطط لأمر من الأمور، أو نحـاول اكتشـاف مـيزة عمل من الأعمال، فإن من الواضح أننا لا نسـتطيع الإحاطة بالاعتبـارات الـتي تجعل قراراتنا صـــائبة على نحو قـــاطع. هنـــاك دائمًا حقـــائق غائبة وأجزاء مطموسة، ومعلومات غير متوفرة، ولهذا فإن علينا أن نبـني خططنا ونظمنا ومناهجنا على أنها أشـياء قابلة للمراجعـة، ومحتاجة للتصحيح والتطوير ، ولن نكـون موضـوعيين إذا فعلنا غـير ذلـك. إن

الطـــبيب حين لا يتأكد من تشــخيص مــرض من الأمــراض، يصف لمريضه علاجًا مؤقتًا إلى أن تخـرج نتـائج الصـور والتحاليـل، فيصف العلاج النهـــــائي؛ لأن خبرته الطبية دلته على الســـــلوك العلاجي الملائم، إن ما هو مطلـوب من المعرفة لاتخـاذ القـرار الصـحيح هو دائمًا أكثر من المتوفر، ولهذا فإننا ونحن نخطط، وننظِّر نتحـرك في منطقة هشة، ونستند إلى معطيات غير كافية. إن علينا أن نعتقد أننا نقوم بعمل اجتهادي، قد يتبين أنه صـواب، وقد يتـبين أنه خطأ . وإن كثيرًا من الذين ينفرون من النقد، لا ينظـرون إلى هـذا المعـنى، ولا يهتمون به، ولو أنهم أدركوه بعمق لرحبوا بالنقد بوصفه كـرة أخـرى على صعيد الاستدراك على قصور سابق .

ب- هنــاك دائمًا مفارقة بين النظرية والتطــبيق، فنحن حين ننظــر، ونخطط، نقوم بذلك في حالة من الطلاقة التامة ، وكما يقولون: إن الأحلام لا تكلّف شيئًا ، لكن حين نأتي للتنفيـذ، يتجلى لـدينا القصـور البشــري بأوضح صــوره، فنحن نتحــرك داخل الكثــير من القيــود الزمانية والمكانيــــة. وكما أن أعمارنا محـــــدودة، كــــذلك إمكاناتنا وقــدراتنا وعلاقاتنا أيضًــا محـدودة، مما يجعل وجــود فجــوة بين ما نريده وبين ما نفعله أو نحصل عليه أمرًا متوقعًـا. في بعض الأحيـان لا ننفذ ما خططنا له ليس بسبب العجز، ولكن بسبب تغير الرأي، أو بسبب الاختلاف بين أعضاء فريق العمل، أو لأي سبب آخـر... وهـذا كله يجعل النقد أمرًا سائغًا، بل مطلوبًا.

جـ - في بعض الأحيان تـأتي مشـروعية النقد من الأخطـاء الـتي تقع أثناء التطبيق أو بسبب مغايرة ظروف الاسـتمرار لظـروف النشـأة. وإذا تأملت في أوضاع الأمة وجدت أن كثـيرًا مما يحتـاج إلى إصـلاح وتصحيح يعود إلى هذين السببين، فالتقصـير في الواجبـات والوقـوع في المنكـــرات من أكـــثر العوامل تـــأثيرًا في تخلف الأمة وتــأزم أوضاعها. وهما يعودان إلى انحراف وقصـور في الممارسـة. كما أن تجـدد معطيـات الحيـاة المعاصـرة لتكـون شـديدة البعد عن حيـاة أسـلافنا ، أوقعنا في أزمـات فكرية كثـيرة ، بسـبب عـدم تـوفر ما يكفي من الاجتهـاد للتعامل معهـا. وهـذا من جهته يثـير الكثـير من الحيرة والكثير من النقد.

مــاذا يحـدث حين يتوقف التفاعل بين النقد والبنـاء ؟ ومـتى يكـون النقد مفيدًا وبنّاءً ؟

هذا ما سنتحدث عنه في المقال القادم بحول الله وطوله.

================

إمكانات متزايدة

إن الله -جل وعلا- خلق الـدنيا دارًا للابتلاء، فـوفّر فيها كل شـروط الابتلاء، وإن من تمـام الابتلاء أن يمكّن الله عبـاده من الوصـول إلى ما يطمحون إليه ما دام في إطار سننه في الخلق، وقد عبر القـرآن الكريم عن هذا المعنى بوضوح تـام؛ حيث قـال -تبـاركت أسـماؤه-: (من كـان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشـاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مـدحورًا، ومن أراد الآخـرة وسـعى لها سـعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشـكورًا كلاً نمد هـؤلاء وهـؤلاء من عطاء بك وما كان عطاء ربك محظورًا) [الإسراء:18-20]

إن إرادة الله -تعالى- طليقة، فهو يوجه عطاءه إلى من يسـعى إليه -إن شاء- ويطلبـه، ويأخذ بأسـبابه بقطع النظر عن كـون المطلـوب أمـرًا دنيويًا أو أخرويًـا. وهـذا ما نشـاهده اليـوم على أوسع نطـاق ممكن؛ حيث إن التقـدم التقـني والعلمي واتسـاع المـدن ووفـرة الأموال - بين يدي شريحة واسعة على الأقل- وتلون فنون العيش - قد أدّت إلى بسط غير مسـبوق في إمكانـات النـاس وقـدراتهم. إن المجال المتاح لِرجل يعيش مع إبله في البادية أو مع شـجره وزرعه في القرية محـدود جـدًا. إن الوسـائل المتاحة له كي ينفع وكي يضر وكي يدفع بالمسـيرة إلى الأمـام أو يكـون حجر عـثرة في طريقها - محدودة للغاية؛ وذلك بسبب ضعف التمدن وتخلف العمران في كل من البادية والقريـة. وإذا قـارنت ما يمكن لعشـرين راعيًا للغنم أن يتركوه في الناس من آثار في سلوكهم مع ما يمكن أن يفعله اليـوم عشرون شخصًـا يعملـون في قنـاة فضـائية، لأدركت حجم الإضـافة التي حدثت في الخمسين سنة الماضـية. ما الـذي حـدث فعلاً خلال هذه المدة على صعيد توسع الإمكانات، وما مدى تـأثيره في الـوعي والخلُق والسلوك؟

بمقاربة أولية يمكن أن نقول الآتي:

1- كلما زادت الإمكانـات التقنية والمادية بين أيـدي النـاس اتسـعت مساحات الحركة أمامهم، وزادت الخيارات والبدائل مما يزيد الناس قوة إلى قوتهم. ويزيد مع كل هذا ابتلاء الله -تعالى- لهم.

2- يكـثر أهل الخـير ويعظم تـأثيرهم، ويكـثر أهل الشر والباطـل، ويعظم أيضًـا تـأثيرهم، وذلك بسـبب كـثرة الوسـائل الـتي يمكن أن يستخدمها هؤلاء وهـؤلاء. وبعض النـاس لا يـدرك هـذا؛ فيتحـدث عن الشر المستطير الذي يقلقه، ولا يتحدث عن الخـير الـذي يحيط بـه. وبعض الناس يفعل العكس.

3- تنحسر الاجتهـادات والـرؤى السـابقة وتقصر عن توفـير التغطية الثقافية والتوجيهيـــة، ويجد أهل العلم والفكر أنفســـهم في حاجة ماسّة إلى التوصل إلى فتـاوى واجتهـادات ونظريـات جديـدة. وهـذا يعني بداهة أن تكثر المسائل المثيرة للجدل.
4- تضعف الرقابة الاجتماعية، وتتسع مساحات الخصوصيات، ويذوق الناس طعم الرفاهيـة، ويصـبح لجم النفـوس عن مشـتهياتها أشـق. وكل هذا من تصاعد الابتلاء مع تصاعد القدرة والمُكنة.
5- تصبح إمكانات الحركة أكبر من إمكانـات ضـبطها، وتقييـدها، كما تكبر الفجوة بين إمكانات الغش والتزوير وإمكانات كشفه وحصره.
6- يظهر على نحو مفاجئ كل ما كـان ملغيًا أو متجـاهلاً أو مكبوتًـا، ويأخذ ظهـوره شـكل الانفجـار، وأحيانًا شـكل تعـويض ما فـات، أو شكل الانتقام ممن تسبب في التهميش والإلغاء.
7- حين يأخذ التقدم المادي هيئة الطفرة فإن الناس يعيدون تـرتيب أولوياتهم من غير وعي منهم. ويكـون ذلك -في الغـالب- تعبـيرًا عن الانحياز إلى المصلحة على حساب المبدأ.
8- يحدث صراع مكشوف بين الثقافة بوصـفها رمـزًا لعـالم المعـنى وبين الحضارة بوصفها مطلبًا لراحة البدن. وكثيرًا ما تغلب الحضارة الثقافة، كما يبدّد الامتدادُ الاتجاه، والمكان الزمان.
إذن كان هذا التشخيص صحيحًا، فما الذي يجب عمله؟
9- لا ينبغي أبدًا الاستسلام لليأس والانسحاب من الساحة بسبب ما نـرى من كـثرة الشر والفسـاد، وعلينا أن نتأمل بعمق لـنرى كـثرة الخـير بالمقارنة مع ما كـان قبـلُ، ولـنرى أيضًـا الإمكانـات الكـبرى لتكثيره ونشره. لقد كان أهل العلم قديمًا يغبطون العــالم إذا اجتمع في حلقته مائة طالب يكتبون ما يقوله. واليوم صار في الإمكـان أن يستمع للعـالم الواحد مئـات الملايين في وقت واحـد، كما صـار في الإمكان الاطلاع على كثير من الجهود الخيّـرة الـتي تُبـذل في سـائر أنحاء العالم.
10- الإســلام مجموعة من المبــادئ والمثل والقيم، وهــذه مجتمعة تتـأبّى على الفـرض والإلـزام. إن القيم لا تُفـرض، لكنها تجـذب من خلال تجسّـدها في سـلوكات الأفـذاذ والأخيـار. وإن وعي النـاس قد تقــدم إلى درجة جعلهم لا يكــترثون بــالكلام المنمّق عن الفضــائل والمحامد. وصار الإيحـاء الـذي تشـعه الأوضـاع الجيـدة والسـلوكات المستقيمة والراقية أعظم تأثيرًا في نفوس الشباب وعقولهم، وهذا يحمّلنا مسؤولية تمثّل القيم الإسلامية في حياتنا الشخصية والعامـة،

وإن كل واحد منا يســـتطيع -لو أراد- أن يقـــدم نموذجًا يقتـــدي به الناس في جانب من جوانب الحياة الفاضلة، أو مسـلك من مسـالك الطريق القويم.
11- إذا لم يكن لك روح عصر كانت لك كل شروره. أن تكون فقيرًا بين فقراء أو جاهلاً بين جَهَلة أو فوضويًا بين فوضويين... فـذاك أمر يظل محدود الأضرار. لكن أن يكون المرء جاهلاً بين علماء أو فقيرًا بين أغنيـاء أو فوضـويًا بين منظمين.... فهـذا يعـني أن كل مشـاكل أولئك ستُحلّ على حسابه. وهكذا فإن الضريبة التي سـندفعها نتيجة عــدم فهم روح العصــر، ونتيجة عــدم الاســتجابة لتحدّياته ســتكون مضاعفة أضعافًا كثيرة!
12- لنقلّل من الشـكوى قـدر الاسـتطاعة، ففي زمـان العولمة تقل فائـدة الشـكوى، ويقل وجـود الـذين يمكن أن نشـكو إليهم، ولنعمل دائمًا على محاصرة الشر بالخير، والباطل بالحق، والهزيمة بالنصــر. ولنكن ملء السمع والبصر.
13- التقدم الحضـاري يـتيح الكثـير من الفـرص، فلنحـاول اقتناصـها والاســتفادة منهــا. وأولو العــزم من المؤمــنين يتجــاوزون ذلك إلى صـناعة الفـرص حيث تكشف الإرادة الصـلبة والعزيمة الماضـية عن الإمكان الحضاري المستتر تارة، وتصنعه تارة أخرى.
ولله الأمر من قبل ومن بعد.
ذكرت في المقال السابق بعض المعاني والمفاهيم الـتي تشـير إلى التغــيرات الــتي يحــدثها التقــدم العمــراني، وأشــرت إلى أن تلك التغيرات تصبّ في اتجاه توسـيع مجـالات الإدراك والفهم ومجـالات العمل والحركة، واليوم أذكر -بـإذن اللـه- المزيد من تلك المفـاهيم، لعلي أســتطيع تغيــير قناعــات بعض أولئك اليائســين من الإصــلاح والمحبطين من رؤية الضغوط والتعقيدات المتزايدة:
6- في حالات التخلف يـزداد الشـبه بين النـاس والأشـياء والأوضـاع لأن العمل والحركة وقبل ذلك الفكر النشيط هي الـتي تنتج ما يزيل التشابه الفطري الموروث فيما ذكرناه. حين تنظر إلى عشـرة آلاف نائم فإنك تدرك ما أعنيه. وفي المقابل فإننا حين سنسير في شارع مـزدحم، ونحـاول فهم دوافع النـاس وأهـدافهم في حـركتهم الدائبة نــدرك مــدى التنــوع والتفــاوت النــاجم من الســعي في الأرض واسـتخدام الوسـائل المختلفـة. على مـدار التـاريخ كـان (التفـاوت) مصــــدر تعليم وتطــــوير. إننا من خلال اختلاف ســــوياتنا ورغباتنا ومصالحنا نجد سبلاً للتعـاون وسـبلاً للـنزاع أيضـاً. من خلال اختلاف

فكر الفـــرد وذوقه مع الذائقة الثقافية الســـائدة في المجتمع ومن خلال اختلاف مصـلحته مع مصـالح النـاس من حوله –تقـوم أعظم عمليات التغيير والتطوير للفـرد والمجتمع معـاً. وهـذا كله يـأتي من وراء النقد العمراني والازدهار الحضري. التفاوت النـاتج من التقـدم يـــدعم حاسة المقارنة لـــدى النـــاس، ومن خلال المقارنة يكتشف النـاس جـزءاً من أنفسـهم وجـزءاً من دافعهم أيضـاً؛ ومن هنا فإننا نجد أن القـرآن الكـريم كثـيراً ما يجعل الحـديث عن الجنة مقرونـاً بالحـديث عن النـار، كما يجعل الحـديث عن الـذين آمنـوا مقرونـاً بالحديث عن الذين كفروا... التفاوت الذي يولده التقـدم العمـراني، يـتيح المزيد من النمو من خلال فتح شـهية النـاس نحو التقليـد. ولا يخفى أن كثـيراً من الـدول الناهضة اليـوم بـدأت بتقليد منتجـات غيرها، ثم أخذت في إبداع منتجات عليها بصمتها الخاصة. وسـيكون في إمكان كل واحد أن يفعل ذلك؛ حيث إن من الممكن أن نتعـرف على أسـباب تفـوق عـالم من العلمـاء -مثلاً- من خلال الـدخول إلى عالمة الشخصي من أجل فهم ما جعله متفوقًا من ســــــــمات وخصائص وبرامج ووسائل ... ثم محاولة تقليـده في ذلك أو بعضـه. وسـيكون في إمكـان المؤسسـات والشـركات والهيئـات العادية أن تـــرتقي بـــذواتها ومنتجاتها من خلال تقليد نظيراتها المتفوقة باتبـــاع النظم والمعايير والأساليب الـتي تعـدّها عوامل أساسـية في نجاحها وهكـذا... في حـالات التقهقر والجهـود الحضـاري يكـون الجميع في حاجة إلى التعلّم، لكن يكـــون المعلِّم غـــير موجـــود أو يكـــون نصف جاهل، أو يكـون النـاس غـير مـدركين لما يمكن أن يفعله العلم في حياتهم، وهذا ما تعاني منه اليوم شعوب إسلامية كثيرة!.

7 – يـتيح التقـدم الحضـاري المزيد من فـرص العمـل، ومع أن ذلك ليس من غـير ضـريبة يجب دفعها إلا أن من المسـلّم به أنه ما كـان للأرض أن تتحمل هـــذا العـــدد الهائل من البشر لو لا ما فتح الله به على الناس من علوم ومخترعات ولو لا الجهـود المنظمة والعظيمة الـــتي بـــذلها ملايين الجنـــود المجهـــولين في التعليم والتـــدريب والتطـوير.. لننظر إلى فـرص العمل الـتي أتاحها اخـتراع الحاسـوب والجـوال. ولننظر إلى ما أتاحه من ذلك صـنع السـيارة والطـائرة والمخترعـات الكهربائية والإلكترونية من قبـل. وسـنعرف فضل كل هذا لو قدّرنا –جـدلاً- أن النـاس سـيعودون في معيشـتهم وأعمـالهم إلى المستوى الذي كان عليه آباؤهم قبل قرنين من الزمان؛ لا شك أن أكـــثر من نصف القـــوى العاملة ســـتجد نفســـها في بطالة قاتلة

بسـبب الاسـتغناء عن المنتجـات الـتي تقـوم على تحضـيرها. وعلى المستوى الثقافي والدعوي فقد زادت إمكانات التواصل بين النـاس ونشر الأفكـار بما لم يكن واردًا حـتى في الخيـال. إن هنـاك أعـدادًا كبــيرة من العلمــاء الــذين ألّفــوا كتبًا نفيسة لكن لم تغــادر أدراج مكاتبهم لعدم وجود المال المطلوب لطباعتها ونشرها. وهناك مئات الألوف من طلاب العلم الـذين حـدّثوا أنفسـهم بتـأليف بعض الكتب لكن أحجمـوا لأنهم غـير واثقين من التمكن من طباعتها أو نشـرها، فقد كـان تـداول الكتـاب وانتقاله من دولة إلى أخـرى في المرحلة الماضية صعبًا للغايـة، وكـان تـداول بعض الكتب يشـبه في مشـقته تداول المواد المخدرة، وكان كثير من الدعاة يشـكون عـدم القـدرة على الوصــول إلى المــدعوين في بلــدانهم وفي البلــدان الأخــرى بسبب القيود الأمنية أو بسبب عدم توفر المال المطلوب للانتقال... إن كل هـــذا قد انتهى اليــــوم بفضل وجــــود (الإنـــترنت) و(البث الفضائي). قد صار في إمكان أي مثقف أن يبني لنفسه موقعًا على (الإنترنت) ويقوم ببث ما لديه من معارف وخبرات وإرشــادات على ذلك الموقع وبتكلفة لا تكـاد تـذكر. وصـار في إمكـان كل داعية أن يوصل كلمته إلى مئـــات الملايين من النـــاس في شـــتى أنحـــاء المعمورة دون أن يغادر بيته. بل إن شيئًا مذهلاً قد حـدث على هـذا الصعيد، هو أنه في الماضي لم يكن في الإمكان لشخصين يجلسـان في غرفـــتين متجـــاورتين أن يطّلعا على كتـــاب واحد في آن واحد بسبب الشروط الصارمة للرؤيـة؛ أما اليـوم فإننا إذا وضـعنا كتابًا أو مقـالاً على (الإنـترنت) فـإن في إمكـان ملايين البشر الإطلاع عليه ونسخه ونشره في آن واحد! وهذا أمر مثير حقًا. إذا كان الأمر على هذه الصورة؛ فلماذا نجد إذًا عشرات الملايين من الشـباب المسـلم المثقف واللامـع، لا يقـدم لدينه ودعوته أي شـيء ذي قيمـة، ويعتقد أنه إذا صار مستهلكًا للثقافة فهذا كافٍ بل يعده مفخرة له؟!

إنه القصور التربوي والثقافي الـذي نعـاني منه والـذي طالما تحـدثنا عن مخـاطره. قد طـوّر لنا الآخـرون الوسـائل الـتي تسـاعدنا على الانتشار السريع والفعال، لكننا لم نستفد من ذلك كثيرًا لأننا لم نقم بتطوير أنفسنا وصقل استعداداتنا، ولم نقم بتحطيم الأوهام والقيـود التي تشل حركتنـا، وهـذا ما لا يسـتطيع أحد أن يقـوم به بالنيابة عنا وحــتى نعـرف كيف اسـتفاد غيرنا من الوســائل الحديثة فيكفي أن نعلم أن الأوربـيين أنشـؤوا شـبكة معلومـات أنزلـوا عليها نفـائس المكتبـــات الأوربيـــة، وقد بلغت الكتب الـــتي تم وضـــعها على تلك

الشـبكة نحـوًا من (مليـارين ومئة مليـون كتـاب) وقد نهض بهـذه المهمة قرابة ربع مليون شخص. فماذا علمنا نحن؟!

وللحديث صلة

عرضت في المقالَيْن السابقيْن بعض الإمكانات الجديدة الـتي وفّرها التقـدم الحضـاري، واليـوم أسـتعرض أيضًـا المزيد منها على أمل تكوين صورة متكاملة عن هذه المسألة.

8 – حين يتحرك الإنسان، ويسـعى إلى تحقيق مآربه وقضـاء حاجاته الكثـيرة يجد نفسه مكبّلاً بقصـوره الـذاتي وطاقاته المحـدودة، إن عينه لا ترى إلا إلى حدٍّ معين وضـمن شـروط معينـة، كما أن قـدرة يده على التعامل مع الأشياء أيضًا محدودة، وقل مثل هذا في لسانه وحاسة شـمّه ورجله وأذنـه... التقـدم العلمي والتقـني والحضـاري عامة يزيد في سلطان الحواس، وإمكانات الجسد إلى درجـات كـان مجرد تخيلنا أمرًا عسيرًا. إن وسائط النقل من الدراجة إلى الطائرة زادت في سلطان الرِّجل. وإن كل أنواع العتاد التي يسـتخدمها أهل الحرف وموظفو الصـيانة زادت في سـلطان اليـد. وزاد الهـاتف في سـلطان اللِّسـان والأذن؛ حيث صـرنا نسـمع مَن يتحـدث في مكـان بعيد جدًا عنّـا، ونوصل كلامنا إلى من هم أيضًـا بعيـدون. أما الهـاتف (الجـوّال) فقد جعل إمكانـات التواصل العـالمي شـبه مطلقـة، وسيكون لذلك آثاره الثقافية الخطيرة في المستقبل وهكذا...

وقد أدّى كل ذلك إلى اختصـار الـوقت وتحسـين الإنتاجية وتخفيف العبء عن البدن. ومع تقدم والوسائل والآلات، تولد معـايير جديـدة للتحضّر؛ فالإنسان المتخلف اليوم كثيرًا ما يكون كذلك بسـبب عـدم رغبته أو عـدم قدرته على اسـتخدام الأدوات الـتي يسـتخدمها معاصروه. وهذا يعني أن الأمم التي تقود حركة الإنتاج العـالمي هي التي تصنع مواصفات التقدم والتخلف، وهذا مع كل المميّـزات الـتي حققها، يزيد في أعباء الأمم الفقـيرة الـتي لا تسـتطيع إنتـاج الآلات، ولا تجد المال الكافي لاستيرادها، وهـذه الوضـعية تغـذي حالة الفقر وترسخها. إننا سـوف نـدهش إذا تأملنا في الـوقت الـذي تـوفَّر لربة المنزل بسبب وجود الآلات الحديثـة، لكن معظم النسـاء صـار وقت الفراغ وبالاً عليهن ومصدرًا كبيراً للإزعاج لهنّ، وذلك بسبب مواكبة التقدم الإنساني للتقدم التقني والصناعي.

9 – في الماضي كانت أوصال العالم مقطّعة، وكانت الصّور الذهنيّة التي تكوّنها الشعوب عن بعضـها مشـوّهة ومشوّشـة، بل إن أذهـان الشـعوب مملـوءة بالخرافـات والترّهـات حـول الأوضـاع والعـادات

الســـائدة في المجتمعـــات المغـــايرة والبعيـــدة، وبســـبب نقص المعلومـات فـإن كل وجهـات النظر الـتي كـانت يسـمها شـعب عن شـعب آخر كـانت تُتلقى على أنها حقـائق قاطعة لا تحتمل الجـدل. وقد تغير كل ذلك بسبب سـهولة الانتقـال وسـهولة الاتصـال، والبث الفضـــائي اليـــوم يضع بين أيـــدينا كل ما نريد معرفته عن شـــعوب الأرض على نحو لم يسبق له مثيل. هذا كله يعني أن الوعي الـذاتي آخذ في التحســـن؛ إذ إن رؤية الآخـــرين على ما هم عليه في واقع الحال تحسّن مستوى رؤيتنا لأنفسـنا، وهـذا يشـكل مكسـبًا عظيمـاً، لكن الـــذي يحـــول دون الاســـتفادة الكاملة من معرفة الآخر هو ما نعانيه من ضعف وقصور في محاكاتنا العقلية، وفي قوى الاستبصـار ونظم الإدراك والتفسـير، ولكن هـذا لن يـدوم، وسنشـهد مع الأيـام الكثير من التقدم في كل هذا.

10- التطـوّر المـذهل في وسـائل الاتصـال آخذ في تخفيف الحاجة إلى السفر والانتقال، فهناك اليـوم إمكانية ممتـازة لعقد اجتماعـات بالصوت والصورة بين أشخاص يعيشون في قارات مختلفـة. كما أن من الممكن للمرء أن يتلقى تـدريباً جيـداً، ويحصل على شـهادة في علم من العلوم دون أن يغادر بيته وذلك عن طريق (الإنـترنت)، كما أن في إمكـان المـرء أن يـبيع ويشـتري في أسـواق تبعد عنه آلاف الأميـال. والتقـدم في بـرامج الترجمة الآليـة، يخفف من مشـكلات التباين اللغوي، ويجعل الاتصال المعرفي أسهل.

11- مع التقدم الحضاري المتسارع يعود شيء من الاعتبار للقدرات الذاتية والمهارات الشخصـية، وصـار في إمكـان أعـداد متزايـدة من الناس أن يصبحوا أصحاب ثـروات عريضة دون أن يكونـوا من أبنـاء الأسر الغنية أو ممن ورثوا عن آبائهم المجد والمال.

إذا امتلك الشاب فكرة لمشـروع نـاجح، فـإن في إمكانه أن يبيعهـا، ويصبح من وراء ثمنها في عداد الموسرين، وإذا نمّى الشـاب ملكاته وإمكاناته الإدارية فـــإن في إمكانه أن يحصل على دخل عـــالٍ من وراء إدارة جيدة لمشروع جيد.

إن التمويل لأي مشروع صـار اليـوم سـهلاً، وصـارت الفكـرة الذكية والقدرة على الإشراف والمتابعة محوراً مهمـاً للنجـاح. وفي إمكـان كثـير من الشــباب التأهل لـذلك والإبـداع فيه من غـير الحاجة إلى المال.

لا أريد أن أفيض أكثر فـأكثر في الإمكانـات المتزايـدة، لكن أريد أن أوضح الشـــروط الجوهرية للاســـتفادة من كل ذلـــك، وهي ليست كثيرة.

ولعل من أهمها الآتي:

1- التخلص من الأفكـــــار القديمة والســـــائدة حـــــول الممكن و(المستحيل العادي) والقريب والبعيد والسهل والصعب، والاحتفاظ بقدر جيد من الانفتاح على المعطيات الجديدة. والنظر بعين الاتهـام إلى معلوماتنا الحالية تجاه ما يمكن لنا الاستفادة منه.

2- الاعتقاد بأن ما لدينا من نظم وترتيبات وأساليب.. يشوبه النقص -كما هو شأن كل ما ينظمه البشر- ويظلّ قابلاً للتطوير والتحسـين. ومع أن هذه النظرة مكلفة جـداً إلا أنها شـرط أساسي في مقاومة التكلّس.

3- تـرتيب أوضـاعنا الخاصة والعامة على أسـاس أن لـدى الآخـرين شـيئاً يمكن أن نتعلمه منهم. والنظر إلى الآخر المنـاوئ والمخاصم بأنه يشكل تحدّياً، كما أن لديه في الوقت نفسه شيئاً من الحـلّ لما نعاني منه.

4- إدخـال عنصر الـوقت في حل أي مشـكلة تواجهنـا، وفي تخفيف أي إنجاز نريد تحقيقـه، وعـدم النظر إلى الأمـور من زاوية معطياتها الحالية، وإنما من أفق تطورها واتجاهات سيرورتها.

5- تنظيم الذات والتحفز المستمر نحو استيعاب الجديد والبحث عنه والتغيير في الرؤية وفق معطياته.

6- إن شـرط كل الشـروط وأسـاس كل الأسس هو الإرادة الصُّـلبة والقدرة على الاستمرار والمثابرة في الأداء والعطاء. وشيء بــدهي أن يســـتعين المســـلم في كل ذلك بالله -جل وعلا- ويخلص له في أمره كله

================

الأشياء الصغيرة

في أحيان كثيرة يجد الناس أنفسهم يعملون وفق معـادلات خاطئـة، أو يجدون أنفسهم وقد قعدوا عن العمل بسبب تنـافر إمكانـاتهم مع طموحاتهم. شـيء جميل وعظيم ألا نرضى بالقليـل، وأن نتطلع إلى الكثـير من الخـير لنا ولأمتنـا، ولكن بشـرط ألا تعظم الفجـوة بين المطلــوب والممكن إلى درجة نفقد معها الحماسة للعمـــل، ونزهد معها في الممكن، فيضـيع من أيـدينا إذ ترنو أبصـارنا نحو العسـير والمستحيل!

في مجال الأعمال يقولون: فكر عالمياً، وتصرف محلياً. وهذا قول حكيم، يمكن أن نستفيد منه في المجال الدعوي والمجال الحضاري عامة. لنمتلك الرؤية الشاملة والواسعة، ولنحاول أن نعرف موقعنا بدقة على الخارطة العالمية والمحلية. ولنلامس في تصوراتنا آفاق المطلوب والمتاح، وآفاق القريب والبعيد، والسهل والمرهق، ولكن لنركّز جهودنا دائماً في دوائر التأثير، حيث لا يدخل في الرصيد في نهاية المطاف إلا تلك المنجزات الصغيرة والقابلة لوضع اليد عليها. الأشياء الصغيرة تظل دائماً قابلة للتنفيذ، لأنها قابلة للتصديق، والأشياء الكبرى كثيراً ما تبقى في حيز الأمنيات، لأننا نشك عادة في قدرتنا على القيام بها.

كثير من الشباب المسلم حائر في توظيف وقته وطاقاته في المجال المثمر والملائم؛ فهذا شاب يرغب في أن يكون داعية وطبيباً. وهذا شاب يرغب في أن يكون مهندساً وفقيهاً. وهذا شاب ثالث يرغب في أن يكون مدرساً ورجل أعمال...

شباب كثيرون ابتعثتهم حكوماتهم إلى بلاد الغرب ليدرسوا بعض التخصصات العلمية المهمة، فما كان منهم إلا أن تركوا تخصصاتهم، وانتقلوا إلى المجال الدعوي. وكثيراً ما تصادف في الولايات المتحدة الأمريكية شاباً مسلماً يعمل إمام مسجد، وقد كان تخرج في قسم الكيمياء أو الفيزياء. وهذا رجل يحمل الدكتوراة في الأدب الإنجليزي ترك التدريس في الجامعة ليدرس في مدرسة عربية هزيلة هناك...

في بلادنا شباب ورجال كثيرون لا يحبون الوظائف التي قضوا فيها شطراً مهماً من أعمارهم، إنهم ينظرون إليها على أنها خط رزق احتياطي، أو أنها مصدر تُستمد منه الوجاهة الاجتماعية. إن تطلعاتهم وتفاعلاتهم ومستقبلهم ليس في هذه الوظائف والأعمال ولهذا فإنهم لا يعطونها إلا القليل من اهتمامهم وجهدهم! هذا مدرس يعمل في تجارة العقار، وهو يجد في تجارته من المردود المادي أضعاف ما يجده في وظيفة التدريس، ولهذا فإنه لا يحضر دروسه، ولا يكلف طلابه بكتابة ما ينبغي أن يكتبوه من الواجبات أو ما ينبغي أن يحلوه من التمارين؛ لأنه لا وقت لديه للتصحيح. وإذا دُعي إلى اجتماع مسائي في المدرسة فإنه لا يحضر فذلك في نظره اجتماع لغو، ولا وقت لديه لمثل ذلك! وهذا ليس أكثر من نموذج صغير لبلاء كبير!

وأود أن أضع النقاط على الحروف في الإضاءات التالية:

1- لن يكـون في المسـتقبل ما يسـمى "بـالأمم العظيمة والـدول العملاقة" ولكن سيكون هناك دوائر تضم أعداداً من الأبطال الصغار الذين يهتمون بإتقان الأشياء الصغيرة التي بين أيديهم وهم يشكلون -حيثما وجـدوا بكثافـة- بـؤراً متفوقة ونافـذة ومـؤثرة، إنهم يعملـون بصـمت ومن غـير عنـاوين كبـيرة إنهم أشـبه بقطـرات المـاء الـتي يتشـكل منها النهر العظيم، وأشـبه بحبـات الرمل الـتي يتكـون منها الجبل العظيم، حبة الرمل ليست بشيء، لكن لـولا حبـات الرمل لم يكن هناك الجبل العملاق!

من المهم أن ندرك أن كل موقع يحتله واحد منا هو ثغـرة من ثغـور الإسـلام، ومن خلال نوعية تصـرفنا وأدائنا في ذلك الموقـع، نسـهم في رفع راية الإسلام وحماية حرماته، أو نسهم في ذهـاب ريح الأمة وجعلها عالة على غيرها من الأمم. إن أمهر البنـائين لا يسـتطيع أن يشيد صرحاً متيناً من لبنات هشة. وإن أعظم الحكام لا يستطيع أن يبني مجتمعاً أقوى من مجموع أفراده.

كان (بنجوربون) يقول: إن إسرائيل لن تقوم بناء على قرار تصـدره المنظمة الصهيونية العالمية، ولكننا سنبنيها لبنة لبنة، سنضم البقـرة إلى البقرة والمزرعة إلى المزرعة والمصـنع إلى المصـنع والجامعة إلى الجامعة، وبذلك وحده يصبح لنا دولة بما تعنيه الكلمة.

هـذا المنطق هو المنطق القابل للتطـبيق، وأعتقد أن مسـاعينا في دفع الأمة في دروب النهضة ينبغي أن تـتركز في شـيئين أساسـيين: تقديم النماذج وبناء الأطر.

إن عقولنا تنطـــوي في أعماقها على ميـــول نحو الاســـتحالة، واستصـعاب الأمـور والنمـاذج العملية هي الـتي تـزرع في تصـوراتنا ومشـــاعرنا الميـــول نحو الممكن إن كل مثقف مســـلم بقليل من الـوعي وقليل من الجهد يسـتطيع أن يقـدم في جـانب من جـوانب حياته نموذجاً صغيراً يجذب إليه بعض النـاس، فيقلدونه ويترسـمون خطاه، وبذلك يكثر الخير، وتترسخ تقاليد ثقافية مثمرة.

وهنـاك في الأمة رجـالات فيهم سـمات قياديـة، ولهم همم عالية وهـؤلاء لا يكتفـون بتقـديم النمـاذج، لكنهم يبنـون الأطر الـتي تجمع الجهود المتفرقـة، وتوجه الأنشـطة وتحـرر الطاقـات الكامنـة. ومن النماذج والأطر تتشكل فيزياء التقدم.

2- الأمم الفقيرة ليست هي الأمم الـتي لا تملك المـال، لكنها الأمم التي يتلفت أطفالها يمنة ويسرة، فلا يجدون حولهم سوى رجال من الدرجة الثالثة أو الرابعة، فتتجه أبصارهم نحو رجالات الأمم الأخـرى

باحثة عن القـدوة والمثل وعن حقل جديد للممارسـة. وبـذلك تنشأ الفتنة الثقافية!
3- هنـاك علاقة عكسـية بين الكيف والكم. وبما أن جهودنا وطاقاتنا مهما بلغت هي في النهاية محـــدودة فـــإن ما ننجـــزه يخضع لتلك العلاقــة: الكم دائمــاً على حســاب الكيــف. والمتأمل في (حــديث القصعة) وفي واقعنا اليوم يجد أن الأمة تعاني من مشكلة (كيف) لا مشكلة (كم) ولو اتجهنا إلى جعل الإحسان والإتقان السـمة الـتي لا نتنازل عنها في جميع أعمالنا لتحسنت النوعية وارتقت الأمة.
أملي أن نكف عن الهـروب إلى الأمـام والـذي طالما مارسـناه من خلال الحـديث عن الأشـياء الكبـيرة كيلا نتحمل مسـؤولية الأشـياء الصغيرة ومن الله تعالى الحول والطول.

===============

محاصرة الشّرور

مضت سنة الله -تعـالى- في الخليقة أن يظل الصّـراع مشـتعلاً بين الحق وأهله من جهة وبين الباطل وأهله من جهة أخرى. وحين هبط آدم -عليه الســـلام- وزوجه من الجنة هبط معهما إبليس بوصـــــفه المسؤول الأكبر عن إشاعة الشرور.
إن وجود إمكانيّة لاقتراف الشر والوقوع في الرذيلة، يشكل مظهراً هاماً من مظاهر ابتلاء الله تعالى لعبـاده، وكلما درجت البشـرية في سبيل العمران والتحضر اتسعت الإمكانـات أمـام أهل الخـير وأمـام أهل الشـر؛ لكن بما أننا نعيش في ظل حضـارة ماديّة إلحاديّة فـإن اكتشاف مساحات نشر الخير تحتاج إلى نوع من الإبــداع، على حين أن الشر يطرق الأبواب، وكثيراً ما يدخل من غير استئذان!
الخبرة القديمة لـدينا في مقاومة الشــرور، كـانت تعتمد على النهي والزجر والتشنيع على المفسدين ومعاقبتهم. وهذا الأسلوب سـيظل مطلوباً، لكن التجربة التاريخية علّمتنا أن الضـغط الاجتمـاعيّ إذا لم يصحبه تربية جيّدة وتنمية أجود للوازع الداخلي، فـإن آثـاره سـتكون أقرب إلى السلبيّة منها إلى الإيجابيّة، إنه يساعد على إخراج مجتمع ظــاهره الصــلاح والاســتقامة والامتثــال لآداب الشــريعة، وباطنه المروق والفسوق.
إذا كنا نريد معالجة نظيفة للانحراف فـإن هـذا يتطلب معالجة تقـوم على النعومة والجاذبيّة والتفـاهم، واسـتخدام الحد الأدنى من القـوة والسلبيّة.

إن من شأن التقدم الحضـاري أن يوسّـع مسـاحة الحريّة الشخصـيّة لكل واحد من النـاس، وهكـذا فما كـان يُظن شـيئاً عامـاً يـؤثر في الحيـــاة الاجتماعيّة -ومن ثم فإنه يمكن نقـــده -صـــار في جملة الخصوصيّات الفرديّة.
وتتكـون الآن أعـراف تجعل نصح الجـار لجـاره والرجل لأحد أقربائه من الأمور غير المستساغة. ولهذا فإن مساحة القـول في محاصـرة الشر تضيق يوماً بعد يوم. ومع هذا الانكماش أخذ المبـدأ الإسـلامي العظيم (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر) يـذبل ويفقد منطقيّته وأنصاره على نحو مخيف ومخجل!
في الماضي كـان عـدد كبـير من المسـلمين يعـوّل على الدولة في محاصرة الفساد والحد من انتشار الانحراف بوصفها الجهة الوحيـدة الـتي تملك سـلطة رادعة ومنظمة معترفـاً بهـا. وقد كـانت الدولة تقوم فعلاً بشـيء من ذلـك، لكن لا بد أن نلاحظ عـدداً من الأمـور، منها:
إن الدولة حين تكون مشروعة، فإنها تستطيع الحد من صور انتشـار السوء كثيراً، لكن كما أشرت قبل قليل فإن الـردع من خلال القـوة يكون قليل الجدوى إذا لم يُصحب بعمل توجيهيّ إيجابيّ.
ونحن نعرف أن كثيراً من المنحرفين تحوّلوا إلى مجـرمين كبـار من خلال سجنهم مع فئة ضالعة في الإجرام أو مع أشخاص من أصحاب السوابق. أما إذا كانت الدولة غير مشروعة أو كانت لا تخضع لرقابة شـعبيّة جيـدة فـإن قـدرتها على حماية الآداب العامة وحفظ ظـاهر المجتمع تكون شبه معدومة؛ لأنها هي نفسها تحتـاج إلى الكثـير من الإصلاح. وهناك نقطة هامّة لا ننتبه في العادة إليها، وهي أن مطالبة الدولة بالمزيد من التـــــدخل لحماية الأخلاق والآداب والأعـــــراف الحميدة، سـيعني على نحو آلي منحها المزيد من الصـلاحيّة والنفـوذ في التـدخل في حيـاة النـاس، وهـذا يتطلب تضـخم أجهـزة الدولـة، وهذا ليس في صـالحها ولا في صـالح شـعبها. إن الدولة مثل القلب ومثل الكبد إذا تضخم فسد، وإذا فسد تضخم. وقد صـدق من قـال: الدولة وليدة عيوبنا، والمجتمع وليد فضائلنا.
إن المجتمع الفاضل في الرؤية الإســلامية هو الــذي يقــوم بمعظم شـــؤونه دون أن يطلب المعونة من أي دولة أو ســـلطة بســـبب استغنائه بمبادراته ومؤسسـاته وارتباطاته الأهليّة والشـعبيّة. وأعتقد أننا الآن وصلنا إلى بيت القصيد ومربط الفـرس في مقالنا هـذا. إن العالم يعيش حالة فريدة من التضاغط والـتزاحم العمليّ، وفي حالة

كهـــذه تتعـــاظم قيمة الفعل ويتضـــاءل وزن الكلام، كما أن كـــثرة المغريات والمحفزات على الانخـراط في الشـأن الـدنيويّ أضـعفت قـــدرة النـــاس على المقاومة للشـــهوات على مقـــدار ما أضـــعفت فزعهم إلى الآخرة وإلى عالم المعنى على نحو عام. المستقبل في الحث والتأثير والكف والزجر سيكون للبيئة والجو والسـياق والحالة العامة.
إن البيئة الجيـــدة تـــؤثر في الشخصـــية عن طريق (اللاوعي) وتقلل الميول إلى الشرور بشكل سلس. السياقات الحسنة تُبنى من خلال الألوف من الأعمال الخيرة والمبادرات الكبـيرة، ومن هنا فـإن على أهل الـدعوة والغـيرة على مسـتقبل الأمة أن يفكـروا بطريقة جدّية وعمليّة في كيفيّة الحصـول على حضـور متـألق في كل المجـالات وعلى كل المستويات. إن الطبيعة -كما يقولون- تكره الفراغ.
ومن ثم فـــإنّ علينا أن نتوقع أن كل فـــراغ سياســـيّ أو تربـــويّ أو اقتصاديّ أو إعلاميّ.. لا يقوم الصالحون بملئه فسيملأ بسـرعة هائلة من قبل غيرهم.
ونستطيع أن نتعلم من حركة اليهود في العالم أكثر من درس بليـــغ، حيث اســـتطاعوا أن يتحولـــوا وبصـــمت عجيب ومن خلال العمل الـــدؤوب من أقلية مضـــطهدة مكروهة إلى أقلية ســـاحقة ومهيبة ومسيطرة، ومهما قلنا عن محابـاة الغـرب لهم فـإن الصـحيح أيضـاً أنهم قد أبـدَوْا براعة نـادرة في التنظيم والتخطيط والجهد المتتـابع وتلمس مكـامن القـوة ونقـاط الارتكـاز، بالإضـافة إلى الإحسـاس المبكر بأهمية العلم في تكوين النفوذ...
حين تكـون على درجة عالية من الكفـاءة تكـثر أعـداد الـذين لهم مصـلحة عنـدك، وأعـداد الـذين يحتاجونـك. ومن خلال الحاجة إليك يمنحونك الفرصة تلو الفرصة، لأن تكون مؤثراً وفاعلاً، حتى أعداؤك فإنهم يضطرون إلى مصانعتك من أجل الاستفادة منك.
ملء الفـراغ وإحـداث التـأثير المتمـيز يحتـاج إلى عـدد من الأمـور المهمة، منها:
1- الكفـاءة العاليـة، والـتي يـأتي كثـير منها من وراء التعلم الجيد والتخصص والتدرب الممتاز والمثابرة في اكتساب الخبرة.
2- الأمانة والاســتقامة وشــعور المــرء بالمســؤوليّة الأخلاقيّة عن العمل الذي بين يديه.
3- التضحية وجعل التبرّع والعطاء المجاني انتظـاراً للمثوبة من الله تعالى.

4- فن التفريق بين الجـوهري والهامشي وبين المـرض وأعراضـه، وأعتقد أن انتشار الشرور في المجتمعات الإسلاميّة يعـود إلى عـدد من الأســباب الجوهريّة والــتي منهــا: حبّ الــدنيا، ضــعف التربية الأسـرية، وهن الإيمـان والجـانب الـروحي، الإعـراض عن القـراءة والاستمرار في التعلم، عدم كفاءة القوانين والنظم الإداريّة.
5- الشـعور بالمسـؤولية الشـرعيّة عن انتشـار المنكـرات وشـيوع الفواحش، ولنا أن نتأمل قول الله -جل وعلا-:(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْـرائيلَ عَلَى لِسَـانِ دَاوُدَ وَعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ ذَلِـكَ بِمَا عَصَـوْا وَكَـانُوا يَعْتَـدُونَ*كَـانُوا لا يَتَنَـاهَوْنَ عَنْ مُنْكَـرٍ فَعَلُـوهُ لَبِئْسَ مَا كَـانُوا يَفْعَلُونَ) [المائدة:78-79]. وفي حـديث الشـيخين أن النـبي -صـلى الله عليه وســـلم- دخل على زينب بنت جحش -رضي الله عنهـــا- فزعاً، يقـول: "لا إله إلا الله ويل للعـرب من شر قد اقـترب" قـالت زينب:"يا رسـول الله أنهلك وفينا الصـالحون؟"، قـال:"نعم، إذا كـثر الخبث".
أي زمان كزماننا غير المباشر أهم من المباشـر، ويكـون الـردع عن طريق الفعل أقوى من التـأثير عن طريق الكلام، كما تكـون الحركة الإيجابيّة أهم من الموقف السلبيّ الشاحب والمحتج. وللنية الحسنة والنشاط المسـتعر قيمة في كل زمـان، ولا يكـافئ فضـيلة الإخلاص إلا كرم التوفيق

=================

الكِفاح المستمرّ

خلق الله تعالى الـدنيا داراً للابتلاء، فـوفّر فيها كل شـروط: الأغنيـاء والفقــراء، والأذكيــاء والبلهــاء، والشــرفاء والوضــعاء، والأقويــاء والضعفاء.. كل واحد من هؤلاء مقيم في وضعيّة اختبار بما آتـاه الله من مكنة وبما سلبه من نعمة.
إن على كل واحد منا أن يعمل أفضل ما يمكن عمله في إطــــــار وضعيّته العامة والإمكانات والأدوات التي بين يديــه. كما أن عليه أن يتمتع بروح الممانعة والتأبّي على كل ما يصرفه عن وجهته وهدفــه. ليس في هذه الدنيا منطقة آمنة نلقي فيها مراسـينا، ونـركن إلى ما بلغناه من تقوى وورع وتماسك خلقيّ ونفسـيّ، إننا جميعـاً واقفـون على أرض متأرجحة وفي منطقة تجــاذب بين الصــحيح والخــاطئ والخيِّر والشـرير. وإن أيّ تـراخٍ أو ترهل في الحاسة الأخلاقيّة يمكن أن يقذف بأحدنا في محيط الضياع أو الانحراف. إن كل سـاعة تمـرّ

علينا تشكل تحدّياً جديـداً. علينا أن نواجهه ومن أجل مواجهتـه، فإننا نحتاج من الله -جل وعلا- أمرين: الهداية والمعونة.
وإن سورة الفاتحة التي يُطلب من المسـلم أن يقرأها في كل ركعة تشتمل على المعنيين:(إيـاك نعبد وإيـاك نسـتعين)، (اهـدنا الصـراط المستقيم)، ولم يلمح هذا المعنى المفسرون الـذين قـالوا المعـنى: ثبّتنا على الصراط المستقيم. إن الاستقامة على أمر الله تحتاج إلى نوع من الكفـاح المسـتمر والمجاهـدة الدائمـة، ولا سـيما أننا نعيش في ظروف صعبة وحرجة؛ إذ المغريـات الكثـيرة بالميل ذات اليمين وذات الشمال. إن المجتمعات الإسلامية بـاتت متخمة بأولئك الـذين يقدمون نماذج سيئة للأجيـال الجديـدة ، والأكـثر إثـارة للأسى أن ما يمكن فعله اليـوم من أمـور منكـرة وشـرّيرة دون التعـرّض للعقوبة آخذ في التنـوّع والاتّسـاع ، وكـثرت المعـاذير المختلفـة: كل النـاس يفعلـون هـذا.. نحن مضـطرون لأن نعطي ضـمائرنا إجـازة بسـبب الضغوط.. لو كان هذا العمل سيئاً ما فعله فلان، أو لما سـكت عليه فلان، أو ما سمحت به الحكومة..!!
هناك إلى جانب هذا فيض من الرسائل الـتي تتـدفق من كل اتجـاه. ومضمون تلك الرسائل واحـد، وهو أننا نسـتحق أكـثر مما نلنا ، وأن هنـاك وسـائل سـريعة للحصـول على ما نريـد. وليس من حقك أن تبحث عن مشـروعيّة تلك الوسـائل، فـالبحث فيها صـار قيـداً على الانطلاقة الكبرى التي على كل واحد منا أن ينهض لها!
واضح جــداً أن ضــمائرنا تتعــرض لــترويض عــنيف كي تخفّف من حساسيتها تجاه الطرق غير المشروعة للنجاح والثراء.
إن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بلـزوم الاسـتقامة حين قال جل وعلا :(فَاسْـتَقِمْ كَمَا أُمِـرْتَ وَمَنْ تَـابَ مَعَـكَ وَلا تَطْغَـوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُــونَ بَصِــيرٌ) [هــود:118]. قــال ابن عبــاس -رضي الله عنهمـا-:"ما نــزل على رســول الله آية هي أشد ولا أشق من هــذه الآيـــة"، ولـــذلك قـــال لأصــحابه حين قـــالوا لـــه: أســـرع إليك الشيب:"شيّبتني هود وأخواتها".
وهذا منه -صلى الله عليه وسلم- شعور وإعلام بجوهريّة الاسـتقامة في حياة المسلم، وكونها أساس الأصالة في الشخصيّة الإسلاميّة.
وقد أثبتت الخــبرات العالمية المتراكمة أن الاســتقامة هي الشــيء الأفضل في العمــل، وفي العلاقــات الاجتماعيّــة، وفي العلاقــات الدوليّــة، والشــيء الأفضل في ضــبط المجتمع والســيطرة على الجريمة... ولم لا تكون كذلك وهي في معناها العميق تعـني ملازمة

الحق والاعتراف به والبنـاء عليه . هنـاك أشـخاص لا يُحصَـوْن عـدداً يملكون الكثـير من مقوّمـات التقـدم والنجـاح والتفـوق، لكن منعهم الانحــراف والالتــواء من التواصل مع أعمــاقهم، في عمق الإنســان المسلم طيبة وسكينة وتحفّز نحو الخير، لكن عـدم الاسـتقامة لـدى كثـيرين منا يحـول دون الاسـتفادة من ذلك وتوظيفه في الحصـول على تقدم شخصي واجتماعي واضح، إن المعاصي حين تصبح جزءاً من السلوك اليومي للمرء تشكّل اتجاهه العام على نحو يحــول بينه وبين تقـديره لذاته وثقته بنفســه. كما أنه يفقد المصـداقية أو كثـيراً منها في نظر الآخـرين، وهـذه الأمـور كافية لإطفـاء جـذوة التـألّق الروحي والاجتماعي في آن واحد.

إن الاستقامة في دلالتها على أصالة الذات، شـيء لا يقبل التجزئـة؛ إذ لا يُقبل من المرء أن يكون مستقيماً إلا قليلاً أو أن يكون صــادقاً في معظم الأحيان، أو أن يكون عفيفاً أمام المال القليل دون المال الكثـير.. إن الاسـتقامة - بوصـفها الطـابع العـام للشخصـية - شـيء شديد الحساسية؛ فهي إما أن تكون وإما ألاّ تكون، وجهادنا اليــومي ينبغي أن يصب على صيانتها أولاً وعلى تعميقها ثانياً.

ولا أجد حرجاً في القول: إننا حتى نكون مستقيمين فعلاً نحتـاج إلى أن نكــون أكـثر تــأملاً وأكـثر نشــاطاً وأكـثر تضـحية مما نحن على استعداد لتقديمه اليوم.

وهــذا يعــني أن التقــدّم على طريق الاســتقامة يتطلب نوعــاً من التطوير الشامل للذات. وهذا التطوير حتى يصبح حقيقة يحتــاج إلى العزيمــة، والإصــرار على الســير في طريق التغيــير. إن الســلوك الممتاز يتشكل من مجموعة غير كبيرة من العـادات الممتـازة. وإن المــرء إذا عقد العــزم على أن يتخلى في كل ســنة عن عــادة أو عادتين من عاداته السـيئة. وإذا فعل ذلك فإنه لن يمضي عليه أكـثر من خمس سنوات حتى يجد نفسه وقد تحـوّل من زمـرة الأشـخاص العاديين إلى فئة الأشخاص الجيدين أو الممتازين.

وإني لآمل أن ننظر إلى ضــعف الاســتقامة على أنه يشــكل التربة الـتي تنبت فيها جـذور معظم مشـكلاتنا النفسـيّة والاجتماعيّـة. وإذا تأمّلنا في الكثـير من الصـعاب الـتي نواجهها في الحيـاة لوجـدنا أنها تعـود إلى الأخطـاء الشخصـية المتكـررة؛ إذ إن الانحـراف سـيلحق الأذى بصاحبه في نهاية المطاف بصورة من الصور. إنه طريق يؤدي إلى ممرٍّ خلفي ضيق ومظلم، وذلك الممـرّ سيفضي في النهاية إلى ممرٍّ مسدود، ولكن قد نحتاج إلى وقت أطول حتى ندرك ذلك.

بالاستقامة نحرّر أنفسنا من هيمنة الرغبات غير المشـروعة، ونحـرّر إرادتنا من ربقة العبودية ومن أوهام التفـوق المكـذوب. بالاسـتقامة نتخلّص من القلق والاضـطراب الـداخلي، ونحصل على الانسـجام الـــذاتي من خلال اطمئناننا واعتقادنا بأننا نفعل ما ينبغي علينا أن نفعله.

إن الاسـتقامة تـوفّر لصـاحبها قـدراً هـائلاً من الشـعور بالسـعادة والقوة، وإن النظام اللغوي سيظلّ قاصراً عن التعبير عن ذلك.

في عالم كثير التغيّر والتحوّل يكون احتفاظنا بجـوهر يستعصي على التغيير شيئاً يعادل بقاء نجم في مداره وقلباً على نظام حركته.

هل يكـون ما خططنـاه صـرخة في واد أو نقطة تحـوّل من حقل الأشواك إلى حقول الورود؟

ليس عندي جواب، الجواب عند القارئ.

================

مشكلات المثقف

من سنن الله تعالى في الخلق أن يكون أسوأ ما يتعـرض له النـاس شـيئاً من صـنع أيـديهم ونزعـات قلـوبهم، ولـذا فـإن علينا دائمـاً ألاّ نسـلّط الـوعي على الحجـارة الـتي تُوضع في طريقنـا، وإنما على الحفر التي نحدثها بمعاولنا.

ومن الملاحظ في هــذا الســياق أن كثــيراً من المثقفين يملكــون البراعة والعــدة البيانية الكافية الــتي تمكّنهم من الظهــور بمظهر الضحية، وتمكّنهم من التنصل من المسؤوليات الملقـاة عليهم، لكن ما لدى المسلم من حبّ للحقّ، وما لديه من إخلاص وصدق وحرص على بلــوغ الأحســن، يدفعه دفعــاً نحو وضع شــؤونه الخاصة تحت المجهر، ومحاولة رؤيتها بقدر جيّد من الموضوعيّة.

والحقيقة أن المشـكلات الـتي يتعـرّض لها المثقف المسـلم وصـانع الخطاب الدعوي مشكلات كثيرة جداً، ومن الصعب الإلمام بهـا، ولو على نحو سريع، فلنعرض إذاً إلى بعض ما نراه مهماً منها:

1- ثمة داء واسع الانتشار يتعـرض له كل من يهتم بالشـأن الثقـافي ومن كل الاتجاهات والتيارات، وذلك الداء يتمثل في الرغبة الجامحة في الطفـوّ على السـطح، وتعجّل الظهـور أمـام النـاس بغضّ النظر عن مدى امتلاكه للأدوات المعرفيّة وبلورته للمنهج الفكري والعلمي الذي سيسـير عليه في صـياغة خطابـه. هـذا التعجّل يتم في أحيـان كثـيرة بسـبب ضـعف شـعور المثقف بمسـؤولية التصـدي لمهـام التثقيف والقيادة الفكرية للناس. ومن وجه آخر فإن هذا التعجّل يتمّ

بسبب الإغـراءات الكثـيرة الـتي يقـدّمها الإعلام، ويقـدّمها المجتمع أيضاً لكل من يُظن أنه أضحى (شخصية عامة)، أو نجماً تلفازياً.
المشكلة أن صانع الخطاب اليـوم إذا كـان ناجحـاً فإنه قد يـؤثر في الملايين من الناس. وهو عبر رسائله المستمرة يشكّل لديهم اتجاهاً ثقافيــاً، له محكّاته وملامحه ومطالبــه.. ثم إذا به يكتشف أن مذهبه الفكري والإصلاحي الذي نشره على أوسع نطاق، يحتاج إلى تعــديل وتهذيب، وربما إلى تغيير جـذري، وفي هـذه الحالة فـإن كثـيرين منا يخشَوْن أن يُدخلوا -من خلال التعديل- الاضطراب على تلك الأعــداد الهائلة التي شكّلوا وعيها. وأحيانـاً لا يكـون هـذا هو الهـاجس، وإنما النقص في الشجاعة الأدبية المطلوبة للنقد الذاتي، والتبرّؤ من رؤية أو مذهب أو اتجاه.. ومن ثم فإن الذي يتم هو كتم الأفكـار الجديــدة في الصــدور، أو إشــاعتها في وسط ضــيق عن طريق الأحــاديث الشخصـية والخاصـة. وهـذا على المسـتوى الأخلاقي شـيء خطـير للغاية، هناك مثقفون كثيرون لا ينظـرون إلى شـيء من هـذا وذاك، ومن ثم فإنهم ينتقلـون من أقصى اليمين إلى أقصى اليسـار، ولكل يمينه ويساره مما يجعل قـرّاءهم وطلابهم عـاجزين عن فهم المنهج الــذي يسـيرون عليــه؛ فتكـثر الأقاويل والتفسـيرات، ويشـيع الغمز واللّمز.
ويحــدث ما هو أخطر من هــذا، وهو ضــعف الثقة بالقيــادة الثقافية والفكرية، والزهد في أي خطاب تـوجيهي، وكلنا يـذكر ما جـرى من التحوّل المفاجئ لأعداد كبيرة من المثقفين على امتـداد العـالم من النقيض إلى النقيض، وذلك حين انهـار (الاتحـاد السـوفيتي)؛ إذ رأينا الكثــيرين ممن كــان يُنَظّر لتحكم الدولــة، والاقتصــاد الاشــتراكي، وحقوق العمال، وقد صاروا بين عشـية وضـحاها من دعـاة الليبراليّة والتعدديّة وحقــوق الإنســان واقتصــاد الســوق، وبعضــهم فعل ذلك بفجاحة وغلظة غير مدرك خطورة ما أقدم عليه!
وفي الساحة الإسلامية رأينا كثيرين من الكتاب والمفكرين اشـتغلوا ردحاً من الزمن بالحديث عن انهيار البلد وتفاقم الأوضـاع وضـرورة الإسراع في الإصلاح قبل فوات الأوان... وبعد مدة إذا بهم يعرضون عن كل ذلك، ويشرعون في الحديث عن التربية وتعليم الناس أمور دينهم وأهمية النهوض بـالفرد.. وصـار إلى جـانب ذلك لا يـألو جهـداً في إيجاد المسوّغات للأوضاع السائدة!
وكم من مثقف كــان الحــديث عن الشــعر والأدب والنقد شــغله الشــاغل، فــإذا به يتحــول عن ذلك إلى التحــدث في الشــؤون

السياسية والقضايا الإستراتيجية والتنموية.. لا شك في مشروعيّة الترحال والتحوّل الثقافي؛ إذ إنه يعبر عن استمرار النمو والنضج لكن بشرط ألاّ يتم ذلك بدوافع مصلحية وانتهازية. ومع هذا فإنه يجب أن يتم بوضوح تام، ويجب أن يشرح المثقف لأولئك الذين كوّن وعيهم، وأثّرت فيهم ملامح رؤيته الجديدة، وأسباب انتقاله وتقويمه للمرحلة السابقة.

وهذا في الحقيقة لا يحدث إلا قليلاً؛ إذ إننا تعودنا دائماً الحديث عن إنجازاتنا وفتوحاتنا الفكرية والثقافية، ونجد في الوقت نفسه صعوبة بالغة في الحديث عن الأشياء التي لم نفهمها والأخطاء الثقافية التي وقعنا فيها. وهذا يعود إلى البيئة الاجتماعية التي لا تفتأ تلحّ على الظهور بمظهر الكمال في كل الظروف والأحوال!

لا يخفى أن كثرة اختلاط المثقف بالناس وانفتاحه عليهم على نحو مسرف، يحرمه من العثور على الوقت المطلوب للتأمل في تحوّلاته الفكريّة، ولتجديد ثقافته والتواصل مع المنتجات الفكرية الجديدة، مما يجعل ما لديه من أفكار ومقولات معرّضاً للتقادم والتآكل، والذي ينتج عنه التكرار المملّ.

الخلاصة أن علينا التريّث في الظهور والاستعداد له على نحو مناسب، وإذا وجدنا أنفسنا مغمورين بالأضواء، فلنتعلم كيف نخطو خطوة إلى الوراء حتى نظل على تواصل مع مصادر التثقف، وعلينا إلى جانب هذا أن نحدس بالتطورات الثقافية القادمة من أجل المزيد من الوعي بالموقف الفكري الذي يجب أن نتخذه منها، وذلك بقصد تجسيد العلاقة بين الحاضر والمستقبل وإضفاء المنطقية على حركة الفكر خلالهما.

2- المثقف المسلم مهدد دائماً بأن تتحول مهمته التبليغيّة والإرشادية من رسالة تملأ العقل والروح، وتشغل البال إلى حرفة أو وظيفة أو التزام أمام فلان وعلان. إن الذي يصنع خطابه وهو موقن بشرف المهمة التي يتصدى لها، وبأهميتها في إصلاح الناس، يتكلم ويكتب ويحاور، وهو مشتعل حماساً وحيوية وأملاً ببلوغ مراضي الله تعالى، ونيل توفيقه. إنه يجعل من طاقته ووقته وقوداً حياً لتحريك المجتمع في الاتجاه الصحيح.

وإن من شأن هذه الحالة أن تولّد الإبداع والفاعلية والاستمرار في العمل، إنه بسبب إخلاصه وصدقه وحماسته يظهر قدراً كبيراً من الفرادة والتميّز، ويعبّر عن تجربة فذة وغنية، وسيكون الأمر مختلفاً جداً حين يتكلم الإنسان لأنه خطيب جمعة. وحين يعظ لأنه عُيّن

على وظيفة واعظ وإلا لما وعـــظ. وحين يكتب يوميـــاً لأن هنـــاك عمـوداً يجب أن يقـرأه النـاس يوميـاً وقد طـرّز اسـمه.. إن العمل حينئذ سيكون رتيباً وكئيباً، ويكون عند الحد الذي يسـمح باسـتمراره ليس أكـثر. وهـذه المشـكلة واسـعة الانتشـار إلى درجة أنها تصـلح مفسراً -مع تفسيرات أخـرى- لحالة عـدم الفاعلية الـتي نراها لـدى كثير من الكتاب والدعاة. قد نكون في هذه المرحلة بحاجة إلى عدد كبير من الأبطال الذين يرفعون الرايات، ويقـدمون النمـاذج الرفيعة في الحـــرص على التـــأبّي على التحـــوّل من موقع الرائد إلى موقع الموظف أو المنتفع. وما أشدّ الفرق بين النائحة والثكلى!

تحدثنا في المقال السـابق عن مشـكلتين من أهم المشـكلات الـتي يتعـرض لها المثقف المسـلم أو صـانع الخطـاب الإسـلامي. واليـوم نحـاول إتمـام الحـديث بـذكر ثلاث مشـكلات أخـرى نسـوقها في الحروف الصغيرة الآتية:

1- التحزب أو الانحياز الفكري خطر آخر يهدد المثقف المسلم وغير المسـلم. إن عظمة الأفكـار تكمن في قـدرتها على الرفرفـة، وفي طلاقتها وقـدرتها على التعبـير عن الكرامة الشخصـية والتعبـير عن حرية الإدراك والقرار.

وهـذه السـمات تشـكل الأسـاس الـذي نمنح بنـاء عليه المصـداقية للمجتهد والمفكر والداعيـــة. إن المفكر الحر لا يســـتند في حريته الفكرية إلى التـــأبي على المســـاومة والتوظيف من قبل أصـــحاب المـال والنفـوذ فحسـب، وإنما يملك إلى جـانب ذلك المنهج الـذي يمكنه من مقاومة (التأطير) الذي يهدد كل صـانعي الخطـاب. هنـاك فرق كبير بين مفكر اتخذ من مبادئه وعقيدته وخلاصة تجربته خلفية فكرية وثقافية توجهه، وإطاراً يتفاعل معه، ويتحرك في داخله، وبين مفكر انتسب إلى حزب أو جماعة أو مؤسسة، أو صار موظفاً لـــدى دولة، فأصبح ولاؤه الجديد عبارة عن إطـار داخل الإطـار الإسـلامي، وأحياناً يتحـول إطـاره من إطـار صـغير إلى إطـار كبـير يتـداخل مع الإطار الإسلامي، وهذا يعني أن ذلك المثقف أو المفكر صار منحازاً إلى رؤية جزئية أو اجتهاد فئوي، أو صار معبراً عن مصـالح ضـيقة لا تتطابق مع مصالح الأمة.

ليس هناك خطورة كبيرة في الأصل في أن يجد المـرء نفسه ميـالاً إلى اجتهاد دعـوي أو إصـلاحي دون غـيره، لكن من المهم أن يكـون على وعي بأنه مهدد بالتقزم الفكري والانحسـار في الفهم للخريطة الفكرية والثقافية الـــتي يجب أن يـــدركها، ويستحضـــرها عند تحليله

وتقويمه للأشـياء. وحين يتـوفر هـذا الـوعي فـإن المثقف المسـلم سيعمل دائماً على محاولة التحـرر من قيـود ثقافته وانتماءاته وذلك من خلال رؤية الأشـياء من زوايا متعـددة، ومن خلال الحـرص على تفهم طروحات الآخرين والحرص على إنصافهم.

2- كثيراً ما يشعر المثقف أنه يـرى ما لا يـراه غـيره ممن يحيطـون به، وهذا كثيراً ما يولّد لديه مشاعر نرجسـيّة صـفويّة، كما يولّد لديه الاعتقـــاد بإمكانية فهم الواقع ومعرفة همـــوم النـــاس من غـــير مخـالطتهم، وقد لاحظنا أن تشـكيل ثقافة النخب قد تحـول إلى ما يشبه الصناعة المغلقة؛ فصور الواقع يرسـمها المثقفـون، ويقومـون بتحليلهـا، ويتـداولونها بينهم، وهم وحـدهم الـذين يبتكـرون الحلـول للمشكلات ويشخّصون الخارج من الأزمـات، وكثـير منهم تكيّفـوا مع أفكـــارهم، ويتوحّـــدون مع ذواتهم لاعتقـــادهم أنهم يعيشـــون في مجتمعات جاهلة وفاسدة، وهذا ما يجعلهم يشعرون بالغربة والعزلة الهامشية. وقد انعكس ذلك على طروحـاتهم التغييريـة، فهي ما بين سوداء ورماديّة!

إن الشعور بالتفوق شيء يصعب الاحتراز منه، وكـون المثقف يـرى ما لا يراه غيره صحيح نسبياً، لكن لا ينبغي لهذا وذاك أن يحرمنا من التغذية الراجعة وقراءة ردود أفعال الناس على ما نخاطبهم به، كما لا يصح أن يحجبنا عن ســبر الواقع عن طريق الإحصـــاء والمعايشة الفعلية وعن طريق الحـــوار مع النـــاس العـــاديين المســـتهدفين بالرسالة التثقيفيّة.

3- إذا عـــدنا إلى الـــوراء مئة ســـنة من الآن، فســـنجد أن المثقف النخبـوي كـان هو الأكـثر أهمية على السـاحة، ونخص بالـذكر طلاب العلم الشرعي وحـاملي الثقافة الشـرعية. إنهم يشـكلون المرجعية للناس، ويـؤثرون فيه ويعيشـون معهم ألـوان معانـاتهم اليوميـة. أما اليوم فقد اختلف كل هذا على نحو جذري، وهذا الاختلاف يعــود إلى وجود خطابات عديدة تنـافس الخطـاب الإسـلامي، وتشـوّش عليـه، كما أن وظيفة الثقافة العليا إسـلامية وغــير إســلامية، في صــياغة الثقافة الشـــعبيّة وتوجيهها قد تـــراجعت إلى أدنى مســـتوياتها. وما نســـمع عنه اليـــوم من متابعة وتصـــويت لبعض الـــبرامج المخجلة والتافهـة، يوضح لنا أن تنظـير المثقفين ومعالجـاتهم بـاتت في واد، وبات معظم الناس في واد آخر.

إن الخطاب الثقافي النخبوي وكذلك الخطـاب السياسي يفقد زخمه وتأثيره وجاذبيته على سـبيل التـدرّج بسـبب التغيّـرات العالميـة، ولا

سيما ما حدث على صعيد الثورة التقنية في مجـال البث والاتصـال. والحقيقة أن التغيرات الـتي حـدثت خلال السـنوات العشر الأخـيرة؛ وذلك بسـبب بـروز مـؤثرين جـدد في الحيـاة الاجتماعية من خـارج الدوائر التقليديّة لصناعة الفكر والمعرفة.
وقد صار لرجـال الأعمـال والإعلام ومهندسي الحاسـبات ومصـممي الأزياء ونجوم الطرب والكـرة- حضـور قـوي ومتابعة شـعبية كثيفـة، تفوق متابعة رافعي مشاعل المعرفة وموقدي مصابيح الفكــر. ومن المؤسف أنك حين تلتقي بكثير من صانعي الخطـاب الإسـلامي تجد أن طروحاتهم ورؤاهم وآمالهم في الإصلاح والتجديد والنهضة بعيـدة كل البعد عن اعتبــار المعطيــات الجديــدة، وذلك لأنهم يكفــرون بالطريقة نفسها التي فكر بها أسلافهم قبل ثلاثة قرون.
وقد صار لمن كانوا يُسمّون بالعامة والغوغاء وضعيّة عامة تـؤثر فيها الأفلام والمطـاعم الأمريكيّـة، والأذواق والأزيـاء الأوروبيّة على نحو طاغٍ ونافذ، ولم يشعر كثيرون منا بهذا، ولا حاولوا التكيف معه على نحوٍ إيجابي.
إن على المثقفين أن يـدركوا حـدودهم الجديـدة، وأن يعيـدوا النظر في المفاهيم والمقولات التي كانوا يـدركون من خلالها الواقع العـام للأمـــة. كما أن عليهم أن يــــدركوا على نحو دقيق ما تبقّى لهم من دوائر التأثير، ويحاولوا الاسـتثمار فيها بشـكل مكثـف، بالإضـافة إلى إدراك المســؤوليات الجديـــدة الــتي فرضـــتها التغيّــرات الإيجابيّة والسلبيّة الحديثة.
إن التأمل هو التفكير ، وليس هناك شيء أولى بتسليط نـور الـوعي عليه من الوضعيّة الـتي صـار إليها أولئك الـذين عليهم أن يشخّصـوا أدواء الأمة، ويصفوا لها العلاج

================

الحسّ الدعويّ

هناك خوف مسـتمر من أن يـؤدي طـول الأمد وامتـداد الزمـان إلى حرف الاتجاه وتضييع الأهداف الكبرى؛ إذ إنّ أي انحراف صغير يكبر مع مرور الأيام ليصبح انحرافاً كبيراً. لا نجادل اليوم أن هناك اتجاهـاً كبيراً في كل عالمنا الإسلامي إلى التغيير.
وفي أحيان كثيرة يشعر الناس بشيء من الإصلاح. وهذا يحــدث في غالب الأحيان بسبب الأوضاع الجديدة الناجمة عن التطـور التقـني - ولا سيما في عالم البث والاتصال- وانفتاح العــالم بعضه على بعض. وهـذا كثـيراً ما يغـري شـريحة واسـعة من النـاس بالانغمـاس في

الحـديث عن الإصـلاح والمطالبة بـه. ونحن أمة نحتـاج في الحقيقة إلى إصـلاح كل النظم الـتي لـديها: التربوية والتعليمية والاقتصـادية ومن بينها النظام السياسي؛ فأوضـاع معظم البلـدان الإسـلامية في المسـائل الحقوقية والنزاهة المالية وحسن تصـريف الأمـور الإدارية هي أوضاع أقل ما يُقال فيها: إنها مخجلة! لكن من المهم أن نكـون على وعي بشـيء آخـر، هو ضـرورة الاحتفـاظ بـ (الحسّ الـدعويّ) النقيّ والمبرَّأ من شهوة الحصول على منافع شخصـية عاجلـة. وأودّ هنا أن أبدي الملاحظات الآتية:

1- يُلاحظ اليـوم أن طـابع المنـاداة بالإصـلاح يرتـدي حلّة المطالبة بالحقوق أكثر من أي شيء آخـر. فهـذه جماعة تريد أن تحصل على حرية التعبير، كما هو شـأن المشـتغلين بـالإعلام. وهـذه فئة تطـالب بالسماح لها بتشكيل حـزب سياسـي. وهـذا فريق يطـالب بتحسـين الأجور... الخ

ومع أن كثيراً من هذه المطالب صحيح إلا أن الإصلاح يظل -بوصـفه الحاضـر- نزّاعـاً إلى أن يكـون الحصـول على شـيء مـا. إن طابعه العام هو الأخذ، وعلى الآخرين أن يعطـوا، ويقـدموا، ويتنـازلوا... أما الداعية الحقيقي، أو من يغلب عليه الحسّ الـدعويّ الحقيقي فـإن الطـابع العـام لأنشـطته هو العطـاء غـير المشـروط، والعطـاء المصحوب بالحُرقة على عموم الخلق. وهذا هو شأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إن شعارهم العملي -كما أخبر الله تعالى عنهم هو: (ما أسألكم عليه من أجر). إنهم يدعون الصـغير والكبـير والشـريف والوضيع والغني والفقير، يـدعونهم إلى ما فيه صـلاحهم في شـأنهم الديني والأخروي أولاً وصلاحهم الدنيوي ثانياً. أما الذين يـدعون إلى الإصـلاح اليـوم فـإن الـذي يغلب عليهم هو المطالبة بإصـلاح أمـور تمسّ الأمور الدنيوية والمعيشية في المقام الأول. وهم شيئاً فشيئاً بدؤوا ينظرون إلى مسائل التقوى والورع وأداء الشعائر والكـفّ عن المعاصي على أنها مسائل شخصية، يتصرّف فيها النـاس بحكم أنهم مسـلمون واعـون ومخلصـون. مع أن الـذي يتأمل في النصـوص الكريمة يجد أن صـلاح السـلوك الشخصي للمسـلم يشـكل أهم المحاور التي ذهبت باهتمام الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام واهتمـام من تبعهم بإحسان من أتباعهم وحوارييهم.

2- حين يمتلك المـرء الحسّ الـدعويّ فإنه يجد نفسه منـدفعاً في اتجاه جميع الناس على اختلاف مواقعهم الاجتماعيـة، وعلى اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم. إنه يبلغ رسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام،

ويجعل من صـوته امتـداداً لأصـواتهم. ومن ثم تصـبح الـدعوة أداة لتمتين اللحمة الاجتماعية، وأداة لتجميع النـاس على قضـايا محـددة وبسـيطة: قضـية الإيمـان والتقـوى والعمل الصـالح وفعل الخـير والنجاة في الآخـرة. وكل هـذه المفـردات تشـكل حاجـات أساسـية لعموم الناس. وتجد في هذه الحالة نوعاً من الاهتمام الخـاص يوجّه للفقــراء والضــعفاء. وكل أولئك المحتــاجين إلى العــون. وهــؤلاء يشـكلون البنية الأساسـية لأتبـاع الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام، والبنية الأساسية لكل الصحوات الإسلامية المتتابعة.

أما حين يضعف الحسّ الـدعويّ فـإن الخطـاب آنـذاك تصـوغه نخب متحالفة أو متشاحنة، ويصبح الطرح الإصـلاحي أداة لتقسـيم النـاس إلى خاصة وعامــــة، وأداة لتنمية الـــروح الحزبيّة وروح الفرقـــاء المتشاكسين الذين يتحـدثون من أفق المجاملة الفكرية والسياسـية والثقافية والطائفية...

ويســتهدفون باســتمرار تحقيق مكاسب حزبية أو تســجيل مواقف تاريخية أو إثبــات الأهلية للــدخول في تحالفــات نقية وغــير نقيــة. وتسود أجواء من ضعف الثقة وضعف المصداقية، ويصـبح التشـكيك والاتهام من أدوات التنمية الثقافية والسياسية. ويضيع في غمرة كل ذلك الحسّ الأخلاقي العميق والالـتزام بتعميق التـديّن لـدى عمـوم الناس!

3- حين يضعف الحسّ الدعويّ في مجتمع من المجتمعات المسلمة تسود درجة كبيرة من البطالة في صـفوف الشـباب؛ لأنهم يفقـدون المحــرك الــداخلي لبــذل النصح وهداية الخلــق، ويفقــدون الأفق الفكـري الـذي يـؤطّر حـركتهم الاجتماعيـة. ويجـدون أنفسـهم في الوقت نفسه عـاجزين عن اسـتيعاب الطروحـات الإصـلاحية -والـتي يصـوغها في العـادة صـفوة -وشـرحها للنـاس لأنهم يشـعرون أنهم أصبحوا كمن هدم بيته ليبني في مكانه قصراً مشيداً لكن بعد الهدم وجد أن تكـاليف بنـاء القصر تفـوق كثـيراً ما لديـه، ولهـذا فإنه وجد نفسه في العراء!

المجال الدعوي بطبيعته رحب الأرجـاء؛ حيث نجد كل من لديه أدنى علم مؤهَّلاً لقـول كلمة خـير في سـياق نصـيحة أو أمر بمعـروف أو نهي عن منكر أو حث على فضـيلة. أما المجـال الإصـلاحي بوصـفه صــــناعة نخب فإنه لا يتّسع إلا إلى أقل القليل من الشــــباب، لكن معظم النـاس لا يـدركون هـذا، ويأخـذون في الحـديث عن أمـور لا يعرفون عنها الكثير، ولا يجنون من وراء الحـديث فيها أي شـيء ذي

قيمـة، ولو نظرنا إلى مجـادلات الشـباب اليـوم حـول الديموقراطية والعلاقة بـالغرب وحقــوق المــرأة وفوائد تشــكيل النقابــات ونشر الحريات لتأكدت من صحة هذا القول.
من المهم أن يشتغل بالقضايا الإصلاحية واحد أو اثنان في المئة من أهل الخــير والعلم. وعلى البــاقين أن ينشــغلوا بحماية المجتمع من التحلّل الخلقي، وينشــغلوا بنشر العلم وتربية الناشــئة وإعــدادهم للمستقبل، وإلا فسيجد كثير من الناس أنفسهم مشغولين بالإصــلاح بوصفه (حديث مجالس) وطقطقات صحفية ليس أكثر.
إن من مهـام أهل الفكر والعلم أن يرقبـوا وجـوه الخلل في تـوازن المسيرة الدعويّة، ويحاولوا إعـادة الأمـور إلى مجراها الصـحيح، وإلا فإن من شأن الامتداد أن يقتل الاتجاه، كما يقتل المكانُ الزمان.
ولله الأمر من قبل ومن بعد.

=================

الذّهنيّة المُقَوْلبة

كلما تقـدّم البحث العلمي وتـراكمت الخـبرات المنهجيّة تـبيّن لنا أن قدرات العقل تعي أقلّ مما كان يُظَن. ولا أقصد بالقدرات ما يمتلكه العقل من إمكانـــات هائلة على صـــعيد معالجة المعلومـــات، وعلى صعيد التنظيم وإعادة تشكيل الصيغ، وإنما أقصد قدراته على صـعيد إصدار الأحكام في الشؤون الإنسـانيّة وفي تحديد الأهـداف الكـبرى والغايات النهائيّة. إننا نكتشف يوماً بعد يوم أهمّية المعرفة في هـذه الأمور وضـآلة الـدور الـذي يمكن أن يقـوم به الـدّماغ. وقد تـبين أن الفراغ المعرفي والمعلوماتي هو البلاء الأكـبر الـذي يمكن أن يـنزل بساحة العقل. ومن هنا تتبين الحكمة البالغة في الحثّ على القراءة والاطلاع وطلب العلم. إن عمل العقل وهو يفكر يشـــبه من يســـلك طريقاً صحراوياً طويلاً من غير أيّ خبرة سابقة بـذلك الطريـق. إنّه يعـرف أنّ عليه ليس أن يصل إلى هدفه فحســب، وإنما عليه أيضـاً أن يحفظ تضاريس الطريق حـتى يتمكن من العـودة إلى وطنـه، ولا يهلك في متاهـات الصـحراء, ولهـذا فإنه طيلة الرحلة يحـاول تلمّس العلاقـات والـدّالات الـتي يتمكن بسـببها سـلوك الطريق في رحلة الإيـاب. ولهـذا فإنه مشـغول بحفظ الجبـال الـتي يمـرّ من جانبها الطريـق، ويحفظ مسـافات انعطافاته ذات اليمين وذات الشـمال... هكذا العقل حين يبدأ بتكوين المرتكزات الـتي سـيقوم عليها عملـه. إنه يجمع الفكــرة مع الفكــرة والملاحظة مع الملاحظة والمقولة مع المقولة.. حتى يتمكن من بناء منطقيّته الخاصة وأنساقه الشخصـيّة،

وهو يتشـــبّث بما ينتهي إليه من ذلك كما يتشـــبّث ســـالك الطريق الصحراوي بالعلامات التي استطاع الحصول عليها.
إذا أراد سالك ذلك الطريق القيـام برحلة أخـرى فإنه سـيجد أن من السـهل عليه سـلوك عين الطريـق، حيث زادت خبرته بـه، وصارت إمكانية العــودة منه أكــبر، كما نشــأت بينه وبين ذلك الطريق ألفة نفسيّة تقترب من الحنين. ولهذا فإنه إذا نُصح بسلوك طريق أقــرب من ذلك الطريق أو مزوّد بخدمات أفضـل... فإنه سـوف يسـتوحش من ذلــك، ويتّبع الحكمة الشــهيرة: "الــذي تعرفه خــير من الــذي ستتعرف عليه". طبعاً سـيكون موقفه من الطريق الجديد المقـترح مختلفــاً تمامــاً فيما لو أنه قبْل الشــروع في أي سَــفَر اطّلع على خارطة جيدة توضّح له كل الطـرق الـتي يمكن أن يسـلكها ومـيزات وعيــوب كل واحد منهــا. إنه في هــذه الحالة يغيّر من طريق إلى طريق بسهولة؛ لأن الطريق الذي سلكه كـان قد سـلكه وهو يعـرف أنه ليس هو الطريق الوحيـــد، وليس هو الطريق الحـــائز على كل المـيزات والمـبرَّأ من كل العيـوب. هكـذا العقل حين يفكر ويشـتغل في حالة شحّ معرفي ونقص في المعطيات الجيـدة. إنه يعـدّ كل ما توصل إليه من مقـولات ومرتكـزات وأنسـاق شـيئاً ثمينـاً ونـادراً، لا يمكن الاستغناء عنه أو مسّه بأي تعديل.
لقد أصبح العقل أسيراً لمقولاته، مكبّلاً بأغلال صـنعها بيديـه، وبـاتت تتحكم بعمله. وسيكون الأمر مختلفاً لو كان أمام العقل عند بـدايات عمله مخــزون معــرفي جيــد. إنه حينئذ ســيدرك أنه يتّبع خيــارات، وليس يخضع لحتميات ولهذا فإنه يكون عقلاً مرناً متجدّداً مستوعباً للجديد دون أن يفقد صــلته بالقــديم. هــذا كله يعــني أن علينا أن نستمر في أمرين جوهريين:
الأول: هو الـــتزوّد من العلم، فنحن لا نعـــرف إلا القليـــل، بل أقل القليل، وما نجهله أكثر بكثير مما نعرفه. وبما أن المعارف تتضاعف كل عقد أو عقدين، فهذا يعني أن جهلنا جديد.
الأمر الثـاني: هو التحـرّر العقلي الـدائم. إن علينا أن نختـبر مقولاتنا وطرق تفكيرنا، ونحـاول مراجعتها وتعـديلها بما يتـواكب مع مسـيرة النضج الــتي نمضي فيهــا. بعض النــاس يعتقد أننا نعيش في أســوأ زمان مـرّ على أمة الإسـلام بسـبب ما يـراه من انتشـار المعاصـي، وســيطرة الأعــداء على الأمـــة... ومن هنا فإنه انطلاقــاً من هــذا المعتقد يرى بعيني صقر كل السلبيات الماثلة في حيـاة المسـلمين وكل المشــكلات الــتي يعــانون منهــا. وإذا ذُكر أمامه شــيء من

الإيجابيـات هـوّن من شـأنه أو وجد له نوعـاً من التأويل يجعله في مصافّ السلبيّات!
قسم آخر من النـاس لديه اعتقـاد أن الأمة بخـير، ولهـذا فـإن عقله الباطن يساعده على اكتشاف ما لا يُحصى من الإيجابيّات، والتهوين من شأن السلبيّات، فريق آخر من الناس انطلق في تحليله لأسباب ما نحن فيه من منطلق (القصـــور الـــذاتي) فهو يعيد كل أشـــكال التخلّف في حياة الأمة إلى التحلّل الداخلي، وعدم قيـام المسـلمين بفروضـــهم الشـــرعيّة والحضـــاريّة. وهو لا يقيم لتخـــريب الأعـــداء وتآمرهم أي وزن! هناك قسم آخر يقف في الضفة المقابلــة, فهو لا يـرى إلا تـآمر الأعـداء وتـدخّلهم السـافر في شـؤوننا، وهو يعتقد أن الأمة لو تُـركت وشـأنها لما عـانت من أي مشـكلة وهكـذا... ومن الواضح أن الرؤية الصـحيحة تقع بين ما يـراه هـذان الفريقـان من المسـلمين. لو تسـاءلنا كيف يكـون في إمكاننا التخفيف من القولبة الذهنيّة في حياتنا الشخصـيّة، وفي حيـاة النـاس من حولنا فقد نجد أن علينا أن نفعل الآتي:
1- الأشخاص المُقولبـون ذهنياً يميلـون إلى الصـرامة والعنـاد. وهم يُعـدّون من الأصـناف الـتي تتصف بالصـراحة المتناهية والميل إلى فــرض أفكــار غـير متّفق عليهـا. وقــدرتُهم على تــرويض أنفســهم للتعامل مع الآخــرين بعــدل محــدودةٌ، كما أن قــدرتهم على تجزئة الفكرة واتخاذ مواقف متدرجة من الأفكار المطروحة أيضاً محدودة. ويجب أن نتعامل على هـــذا الأســـاس، ومن المهم أن نـــدرك أن القولبة الذهنيّة ليست شراً خالصـاً؛ إذ إنّ المقولـبين ذهنيـاً يحـدّون من اندفاع المتهوّرين في مسائل التجديد والتطوير، ويمنحون العمل الذي يكونون فيه درجة من الصلابة والمتانة، كما أنهم يلمّون شتاته، ويبثون القوّة في النفوس المتردّدة. إنهم عنصر أمان وعنصر توازن في الوقت نفسه.
2- التعامل مع المقولـــبين ذهنيـــاً يحتـــاج إلى الكثـــير من الحكمة واللطف والحذر؛ إذ من السهل أن تزيد في درجة عنادهم وتقوقعهم على أنفسهم، وذلك إذا اتهمتهم بالعنـاد أو ضـيق الأفـق. وقد يكـون من الملائم اتبـاع طريقة (بلــورة المزايا والعيــوب) في مجــادلتهم. نقــول: ما مزايا قولــك؟ ما براهينــه، وما مســتنداته المنطقيّــة؟ ما العيوب التي تغشـاه، وما نقـاط ضـعفه؟ ويُطلب منه أن يَطلب ذلك أيضاً من مخالفيه.

إن هذه الطريقة تفتح باباً للجدل، وتخفّف من لغة التحـدي، كما أنها تجعل المقـولب ذهنيـاً يعتقد أن للحـوار إيجابيـات، ويعـترف أيضـاً بإمكانية وجود درجة من الصحّة والقوّة للأقوال المخالفة.

3- من المهم في تعاملنا مع المقـــــولب ذهنيـــــاً أن نتعلم حسن الاســتماع، وأن نطلب منه ذلــك، وألاّ نلحّ في الوصــول إلى نتــائج فوريّـة. إن جـزءاً من صـلابته تُشـكّل بطريقة غـير واعيـة، وسـوف ينتهي أيضاً بالطريقة نفسها.

4- المقولب ذهنياً لا يملك الحساسية الكافية للتفريق بين ما يشكل رؤية شخصـــية اجتهادية ظنيـــة، وبين ما يُعـــدّ من قبيل الثـــابت والقطعي، وما يُنظر إليه على أنه حقيقة مســــــتقرة، انقطع حولها الجـدل. وأعتقد أن ضـعف هـذه الحساسـية يشـكل جـزءاً من البنية المعرفية لكل البيئـات الـتي ينتشر فيها الجهل والفقر المعلومـاتي، ولهذا فإن من المهم أن نثري تقنيات التفريق بين الظني والقطعي، والشخصي والعام في عالم الأفكار والآراء.

5- المقولبون ذهنياً يعطون للعقل دوراً بارزاً من أجل التعويض عن الثغرات المعرفيّة في منظومـات الاسـتدلال لـديهم. وهنا يكـون من المهم التوضـيح بـأن العقل من غـير معرفة جيـدة كثـيراً ما يكـون عاجزاً عجزاً شبه تام عن رسم الأولويّات وعن إصدار أحكـام حـول العديد من الأمور الجوهرية مثل: اللائق وغـير اللائـق، والمهم وغـير المهم، والآمن والخطر، والمستعجل والمؤجـل... ونقـوم إلى جـانب هــذا بتوضــيح دور المعلومــات في بنــاء الأفكــار والآراء والمواقف والاتجاهات.

6- القولبة الذهنيّة نتـاج تعليم مشـوّه وبيئة يغلب عليها الجهـل، وإن التقدّم على هذين الصعيدين، سوف يساعد على التخفيف من غلواء هذه المشكلة، ومن الله تعالى الحوْل والطّوْل.

=================

إدارة الثقافة

لو عدنا إلى أدبيّاتنا عبر القـرون الماضـية لوجـدنا أن معظم تنظيرنا للشـؤون الثقافية كـان ينصـبّ عليها بوصـفها علومـاً واختصاصـات معرفيّة منظمة.

وربما ســادت تلك النظــرة بســبب قلة ما في أيــدينا من المعــارف والمعطيات المتعلقة بالإنسان باعتباره كائناً متعدّد الجوانب ومتعـدّد الاحتياجات.

أما اليـوم فـإن المفهـوم (الأنـثروبولوجي) للثقافة آخذ في الانتشـار والرسـوخ؛ حيث إن هنـاك اعتقـاداً متزايـداً بمحدوديّة تـأثير (العلم المجـرّد) في صـياغة السـلوك الإنسـاني، وفي توجيه حركة الحيـاة اليومية. الثقافة كما بلورها علماء الإنسان هي ذلك النسيج المكـون من العقائد والمفـاهيم والنظم والعـادات والتقاليد وطُـرُز الحيـاة السائدة في بقعة محدّدة من الأرض. إنها طريقة عيش شعب بعينه، أو هي ما يجعل الحياة جـديرة بـالعيش، وكثـير من مكونـات الثقافة يستعصي على التخطيط والتنظيم؛ لأنها تشـكل الخلفيّة (اللاواعيـة) لكل تخطيط وتنظيم. إن تنـوع العناصر المكونة للثقافة يمنحها قـوة هائلة في مواجهة الوافـدات الأجنبيّـة، وما يمكن أن تتعـرض لها من ضـغوطات داخليّـة. إنه حين يتعـرض أحد أنسـاق الثقافة للهجـوم أو الهـون، فإنها تعتمد في اسـتمرارها واسـتعادة حيويّتها على بـاقي أنساقها، لكن نقطة قوة الثقافة هذه هي أيضـاً نقطة ضـعفها؛ حيث يعرّضها تنوّع مكوّناتها في أحيان كثيرة إلى ما يشـبه الانقسـام على الذات بسبب التصـادم بين بعض أنسـاقها؛ وهـذا ما يجعلنا في حاجة إلى ما سميناه (إدارة الثقافة).

أودّ هنا أن أدلي بالملاحظتين الآتيتين في هذه القضية:

1- في كل مجتمع نوعان من الثقافة: ثقافة عليـا، وثقافة شـعبيّة أو ثقافة نخبة وثقافة جماهيريّـة. الثقافة العليا تتكـون بطريقة واعية وتكـون أكـثر دراية ببنيتها العميقـة، وذلك لأننا نتملكها عن طريق القـراءة والتأمل والحـوار الرفيع والمقارنة وطـرح الأسـئلة.. أما الثقافة الشـعبيّة فإنها ليست كـذلك، إنها تتكـون بطريقة غـير واعية وغـير مقصـودة، حيث يتشـربها أبنـاء المجتمع ويتشـبعون بها كما يتنفسـون الهـواء. ونقطة ضـعفها هـذه هي نقطة قوتهـا؛ حيث إن اختراقها من قبل الثقافات الأجنبية يكون عسيراً بسـبب عشـوائيّتها وكتامتها ورقابة المجتمع المشـدّدة عليهـا. أما الثقافة العليا والـتي نبدأ بنشرها منذ الصف الأول الابتدائي إلى ما لا نهايـة. هـذه الثقافة هي التي تمثل الأمة أمام الأمم الأخـرى، وهـذا ما يجعلها على درجة حسـنة من المرونة والقـدرة على التكيف وتمثل الرمـوز الثقافية الأجنبيـة، أي أن كثـيراً من الاقتبـاس والتطـوير يـأتي عن طريقهـا. تنظيمها وتمثيلها الخارجي لثقافة الأمة يعرّضها لأمرين مزعجين:

الأول: سـهولة اختراقهـا؛ حيث إن طريقة اكتسـابها الواعية تفتح الطريق لغزوها وبالتالي تحويرها وتهجينها.

الثاني: جفول الوعي الشعبي من أصحابها والشعور بأنهم يتجاوزون حدودهم إلى درجة يسوغ معها اتهـامهم بخيانة الأمة وبيعها للغربـاء. ومع أن شـــيئاً من هـــذا ينطبق فعلاً على بعض المثقفين إلا أن المشكلة أن الثقافة الشعبيّة لا تملك المعايير المنهجيّـة، ولا الأسس المنطقيّة التي تمكنها من الحكم الراشد على تصرفات النخبــة، مما يجعل موقفها شـاعرياً أكـثر من أن يكـون عقلانيـاً. وهي بـدافع من الخوف من الانقطـاع تلجأ في كسب قضـيتها إلى التيـارات النخبويّة الأكثر محافظة وتقليديّة لتقـدم لها العـون في كبح انـدفاع التيـارات المتحرّرة والمتطلعة إلى التحديث. وهذا يجعل من الثقافة الشــعبيّة عاملاً مهماً في زيادة الانقسام بين تيارات الثقافة العليا.

يمكن القــول: إن تطــوير الثقافة الشــعبيّة وتخليصــها من العــادات والسلوكات الخاطئة يقع على عاتق الصفوة أصـحاب الثقافة العليـا، لكن من الصعب أن يحصلوا على الاستجابة لمناشداتهم وطروحاتهم ما داموا موضع شك وريبة من أولئك الذين يحتاجون لخدماتهم.

في العالم الإسلامي قامت الثقافـات الوطنية والمحلية منذ أمد بعيد بإفراغ طاقاتها على الحضّ والكفّ في الثقافة الإسـلاميّة المسـتندة إلى الكتـاب والسـنة، واجتهـادات الفقهـاء، وصـار من غـير الممكن المضي قدماً في تطـوير أيّ شـأن محلي بعيـداً عن مـدلولات هـذه الثقافة ورمزيّاتها وتحديداتها. وهذا يعني أن ثقافة النخبة لا تســتطيع أن تصبح قوة محرّكة للناس ما لم تتشرب روح الدين، وما لم تلتزم بقطعياته وأُطُـره العامــة. إننا في مرحلة حرجة يحتــاج فيها كل من يروم الإصلاح إلى ولاء الناس وحماستهم وتضـحياتهم؛ لأن المفكر لا يملك أكــثر من ناصــية التنظــير، والجمــاهير الــتي ســتتحمل عبء التنفيذ؛ ولهذا فلا بدّ من الاستحواذ على رضاها وإعجابهـا. وســتكون النخبة في وهم كبير إذا ظنّت أنها تسـتطيع إحـداث تغيـيرات كـبرى من غير مساندة حقيقية من طيف واسع من أبنـاء الأمـة. وقد أثبتت التجارب الكثيرة الإسـلاميّة وغـير الإسـلاميّة أن كل حمل يتم خـارج رحم الأمة هو أشـــبه بالحمل الكـــاذب. وحين يجـــافي أهل الرؤية والخـبرة روح الـدين فـإنهم يسـلمون زمـام الأمة إلى عناصر تملك الكثـــير من الحماسة والانـــدفاع والقليل من البصـــيرة والفهم لمتطلبات المرحلة.

إن طاقة ثقافة الأمة تكمن في المسـتوى الشـعبي منهـا، على حين أن عقلها ورشدها في المستوى الصـفوي. وهـذا التفـاوت هو دائمـاً مصدر للتوتر والنزاع، لكن في الـوقت ذاته يمكن أن يكـون مصـدراً

للتطوير نحو الأحسن والأقوم إذا أدرنا العلاقة بينهما بما هو مطلوب من الذكاء والوعي.
2- إن تنوع الأنساق المكونة للثقافة يحيل دائماً على إمكانية حدوث الصدام والـنزاع، كما هو الشـأن في التنـوّع والتعـدّد. ويبـدو أن أشد أنواع التوتر تلك التي تقع بين الثقافة بوصفها (هُوِيّة) وسمات خاصة بالأمــة، وبين الثقافة بوصــفها تعبــيرات عن نَزَعــات اســتهلاكية أو تعبيرات عن تحرّكات لتلبية حاجات الجسـد، أو تعبـيرات عن التكيف مع ظــروف ومعطيــات شــديدة القســوة. وكلّما أوغل النــاس في مدارج الحضارة اشتد أوار الصــراع بين هـذين النسـقين من أنسـاق الثقافة؛ ذلك لأن ثقافة الهُويّة تتسم بالتعالي عن الانشغال بــالواقع، وتــنزع نحو المطلــق. على حين أن التحضر يزيد وعي النــاس نحو مصــالحهم، ويفتح شــهيّتهم على الاســتهلاك، مما يفضي في نهاية المطاف إلى تضخم الثقافة المتعلّقة بتسيير الحيـاة اليومية وتحقيق المنافع الشخصية، وهذا يجعل الناس يشعرون ويظهرون بأنهم أكـثر دنيويّة، وهو ما يثير حساسـيّة الترمـيزات العميقة للهُويّة في الثقافة الإسلاميّة.
من الواضح اليــوم أن ثقافة ما بعد الحداثة تشــجع على انبعــاث الهُويّـات في كل أنحـاء العـالم من خلال عمل غـير مقصـود، وهو المناداة بالنسـبيّة الثقافيّة والتأكيد على انعـدام الأطر والمرجعيّـات، وجعل الحقيقة شــيئاً تابعــاً للثقافــة. وتكمّل العولمة المهمة حين نعتمد نظام التجارة أداة أساسية في تسليع كثير من مظاهر الحياة، وجعلها أموراً جاهزة للمتاجرة والمساومة. إن هذا الدفق الهائل من الرموز والصور الاستهلاكيّة يساعد -على نحو استثنائي- على انتشار الهُويّــات المقاتلة دفاعــاً عن الوجــود، وقد لا يكــون أمامنا لإدارة الصـراع المحتـدم في عمق الثقافة على هـذا الصـعيد إلا أن نـدعم الأنشطة الروحيّة والأدبيّة والاجتماعيّة ذات النفع العـام، وأن نحـاول إضــفاء المعــنى على الأنشــطة الدنيويّة من خلال الحــرص على شـرعيتها، وشـرح ما يمكن أن يجعلها موصـولة بالأعمـال الأخرويّـة. وما لم نفعل ذلك فإننا سـنعاني من الانقسـام والتمـزق في أعمـاق ثقافتنا، وسنشعر بالكثير من تشتت الجذور وضياع الأهداف الكبرى.
==============

محاور للتربية الاجتماعيّة

نستطيع القول: إننا نعيش في مرحلة كونيّة فريدة، بسبب ما أحدثته ثـورة الاتصـالات والبثّ الفضـائي من تـداخل واختلاط بين البيئـات

الثقافية المتباينة. كان الناس في الماضي يربّون صغارهم في بيئات مغلقة، ووفق معـايير ومفـاهيم تربوية محـدّدة وخاصـة، ولهـذا فـإن الأطر التربوية السائدة كانت في موضع إجماع، أو ما يشبه الإجماع. ومن ثم فإن الأزمـات التربوية كـانت تفسّـر على نحو دائم على أنها بسبب مشكلات في التنفيذ وقصور في التطبيق ليس أكثر. النمـاذج والقدوات في المجتمعات المختلفة كانت ترمز باسـتمرار إلى نجـاح الأصول التربوية المشتركة وتغري بالدفاع عنها.

لا يعني هذا كله بالطبع أن الأمـور كـانت على ما يـرام، كما لا يعـني أن التطـورات الـتي قلبت تلك الأوضـاع رأسًـا على عقب كـانت من الشر الخالص، لكن ذلك يعني أننا أمام فرص وتحـدّيات جديـدة. أما الفـرص فتتجلّى في كسر العزلة الـتي كـانت سـائدة بين الشـعوب المختلفة، وكسر حـدّة البرمجة المحلية -والـتي تتسم غالبًا بالتشـوّه والقصـور- للعقـول والنفـوس كما تتجلّى في تـوفّر قـدر هائل من الخــــبرات المتقدمة والمطلوبة لتحقيق قفـــزات نوعية في تنمية الأفراد والمجتمعات، إلى جانب إنعاش حاسّة المقارنة.

أما التحـدّيات فتتجسد أساسًـا في إضـعاف المحـاور والأسس الـتي كـانت تقـوم عليها التربية في المجتمعـات الإسـلامية، مما أدّى إلى نــوع من الانقســام في الــوعي، وإلى إربــاك عــام في الأســاليب التربوية الموروثة.

في حــال الانفتــاح وتعــدد المحكّــات والنمــاذج الــتي تتم الإحالة الشـعورية واللاشـعورية عليهـا، تكـون المشـكلة الجوهرية في فقْد الأرضية المشتركة، مما يدفع في اتجاه التناحر والتفكّك الاجتمـاعي، يحــدث كل هــذا في الــوقت الــذي يتمّ فيه تهميش ســلطة الدولة والمدرسة والأسرة والمجتمع لصالح سـلطة المـال والإعلام. أي إن التربية تواجه تحـدّيين في وقت واحـد: سـحب الكثـير من الصـلاحية والتأثير من المؤسسات التربوية المهمة، وصيرورة الأسس التربوية موضع جدل ونزاع واعتراض. وهذا شيء خطير للغاية.

في حالة كهـذه يكـون علينا أن نسـتنبط من عقيـدتنا وثوابتنا محـاور أساسية ننسج حولها مئـات المفـاهيم والرمـوز التربوية ذات الدلالة الاجتماعية، ونحاول نشـرها وتعميمها على أوسع نطـاق ممكن. ومع أنــني أكــره المبالغة في كل شـــيء، وأعتقد أن من اليســير على التربية أن تنجح فيما أخفقت فيه السياسة والاقتصـــــــاد والإعلام والتعليم إلا أنني أظل أميل إلى أن التربية الأسرية تظل قادرة على ممارسة فن الممكن أي إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

استطاع علماؤنا القدامى من خلال نظرهم الثاقب، واستقرائهم لمجمل أحكام الشريعة الغراء -أن يستنبطوا مقاصد أساسية سموها (الكليات الخمس)، وهذه الكليات هي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والعرض وحفظ المال. وأوجدوا بعض الترتيبات بين هذه الكليات، حيث يُضحّى بالأنفس من أجل حفظ الدين، ويُضحّى بالمال من أجل سلامة الأنفس والأعراض. ولم يتحدث الأصوليون عن هذه الكليات بوصفها منطلقات وأسسًا لتربية اجتماعية راشدة ومتماسكة؛ لأن هذا كان خارج اهتمامهم واختصاصهم. لكن نستطيع نحن اليوم أن نقوم بذلك من أجل جعل تربيتنا الاجتماعية أشد تمحورًا حول قطعيّات الشريعة، وأشد استجابة لمقتضيات التديّن العميق، ولعلي أبدي هنا الملاحظتين الآتيتين:

1- إن التربية الاجتماعية على أساس هذه الكليات، توفّر لنا الحدّ الأدنى من وحدة الاتجاه، ووحدة المعايير التربوية، فالمسلم مطالب بالمحافظة على تديّنه والتزامه من خلال ممارسة الشعائر. ومطالب أيضًا بالدفاع عنه بالوسائل المشروعة والممكنة وبالمجادلة عن مبادئه وأدبيّاته. وهو في الوقت نفسه مطالب بأن يساعد إخوانه المسلمين على الالتزام من خلال تقديم العون لهم، ومن خلال أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. والمسلم مطالب بالمحافظة على نفسه من خلال توفير أسباب الصحة ودفع الأذى والضّرر عنها. وهو مطالب بالمحافظة على نفوس المسلمين. وعليه أيضًا أن يحافظ على عقول المسلمين وأعراضهم، وأموالهم، كما يحافظ على عقله وعرضه وماله. تصوّر معي أماً تتحدث في تفاصيل تربوية تتعلق بالجانب العقلي لأبنائها، ماذا كانت تقول؟

ستقول لهم: العقل نعمة كبرى من الله -تعالى- وشكر هذه النعمة يكون في المحافظة عليها واستخدامها على أحسن وجه ممكن. الكذب حرام؛ لأنه يؤذي العقل إذ يمدّه الكاذب بمعلومات خاطئة. والمسكرات، والمخدرات تؤذي العقل؛ لأنها تضعف ارتباطاته السببيّة. التقليد يؤذي العقل؛ لأنه يحرمه من التفتّح ومن التحفيز على إبداع آراء ونظريّات جديدة... إنها تقول هذا في مجال التربية الفردية. فإذا أرادت لمس الجانب الاجتماعي قالت: بيع المسكرات وتهريب المخدرات حرام؛ لأن على المؤمن ألاّ يُلحق الضرر بإخوانه المسلمين، وألاّ يساعدهم على الوقوع في المعاصي. وتقول أيضًا: إن الكذب على الناس ينطوي على نوع من الغشّ والخديعة لهم.

وعلى المســلم كما يكــره أن يُخــدع من قبل الآخــرين أن يتجنّب خديعتهم وهكذا..
وتصوّر معي باقي الأمهات في البلدة يتحـدثن بهـذه المفـاهيم أمـام صغارهن، ماذا يعني هذا؟
إنه يعني أن المربيات صرن يتحدثن لغة واحدة، وصرن يؤكـدن على مفـاهيم واحـدة. ويعـني أيضًـا توليد وحـدة فكرية وشـعورية عظيمة ورائعــة، إن العولمة تنشر معــاني الأنانية والخلاص الشخصــي. أما التربية القائمة على الكليات الخمس فإنها تؤكد للناشـئة أن الخلاص إما أن يكـون جماعيًا أو لا يكـون، وإنّ من غـير الممكن للمسـلم أن يعيش آمنًا هانئًا في جزيرة يحيط بها الشقاء من كل مكان.
2- إن الترتيب بين الكليات الخمس -كما أشرت إليـه- ينطـوي على مغـزًى تربـوي كبـير؛ إنه يشـكّل خطًا أساسـيًا في الرؤية الإسـلامية للكثير من جوانب الحياة. إن فـداء الـدين بـالنفوس والأمـوال يعـني الارتبــاط المطلق بالهــدف الســامي والنهــائي لوجودنا على هــذه الأرض، وهو الفـوز برضـوان الله -تعـالى- وفـداء النفـوس بـالأموال يعني التعزيز لمركز الإنسـان في الكـون، ويعـني الـرد على الهجمة المادية الحديثة الــتي تجعل من المــال المحــور الأســاس للحيــاة، وتجعل من الإنسان أداة لتحقيق المزيد من الثراء لأصحاب الحظـوة والنفوذ.
نحن حــــتى نتمكن من جعل (الكليـــات الخمس محـــــاور للتربية الاجتماعيـــة، نحتــاج إلى صــبّها في قــوالب تربوية حديثة وإغنائها بالتفاصـيل والمعـاني الجزئيـة. وهـذا يحتـاج إلى بحث معمّق وجهد تربــوي متمــيز. لكنّ شــيئًا من هــذا لن يحــدث إذا ما ظلّت الدونيّة تسيطر على نظرتنا لكل هو اجتماعي وعام.
إننا إذا أدركنا أن التقـــدّم الحقيقي هو في جــــوهره تقـــدم روحي واجتماعي أكثر من أن يكون تقدمًا عمرانيًا، فإننا سنبذل الكثــير في سبيل الارتقاء بالمفاهيم التربويّة، وسيتغير بذلك الكثير من الأشياء
=============
النمط العزيز
شـيئان جوهريّـان يسـيطران على تفكـيري وتـأمّلي، هما التـوازن والتكامل.
التكامل يعني: القبض على رؤية عميقة وشـاملة لكل الأشـياء الـتي يجب أن نراهـا، وبالطريقة الـتي يجب أن تُـرى بها تلك الأشـياء. أما التوازن فيعني إعطاء جوانب الحيـاة وجـوانب الشخصـية على -وجه

الخصوص- حقها من الرعاية والتنمية والاهتمام من غـير إفـراط في جانب على حساب جانب آخر. وربما أمكننا القول: إن امتلاكنا لرؤية حســنة لنوعية التكامل المطلــوب هي الــتي تتحكم في نهاية الأمر بشـكل التـوازن الـذي نسـعى إليـه. كما أن من الممكن القـول: إن عناصر الصــورة الذهنية عن (التكامــل) قد تختلف من شــخص إلى آخر. وقد ينحو بعضها نحو التغيّر، كما ينحو بعضها الآخر نحو الثبـات، في الــدائرة الإســلامية نمط من النــاس يُتّهم بصــفاء روحه ونقــاء نفسه، ومستوى تعبده -على مقدار خبرته- جيد، ولديه طيبــة، تتصل في بعض الأحيـان بطـرف من الغفلة الـتي تصل إلى حد السـذاجة، وكثـير من هـؤلاء - إن لم نقل أكـثرهم- يأخـذون عن عابد أو جماعة تقاليد وطرقًا في التعبـــد، ويحفظـــون عن ظهر قلب مقـــولات، يسـيرون في ظلال دلالاتها وكأنها مفـردات دسـتور، لا يمكن إدخـال أي تعديل على أية مادة من مواده.

ومشكلتهم أنهم كثيرًا ما يفقـدون التـوازن، ونصـاب الحد الأدنى من التوزيع لاهتماماتهم وأنشطتهم. وينظرون إلى الأقوال المــأثورة عن شيوخهم وأسـلافهم على أنها أدوات لفهم كل الأوضـاع والتعامل مع تحديات كل العصور.

ويميل هــذا النمط من عبــاد الله إلى العزلة الشــعورية، ويجــدون حالات عظيمة من انشراح الصدر وبرْد اليقين، ويملكون طاقة هائلة على البذل والإصرار على الدعوة إلى ما يشعرون أنهم ظفـروا بـه, وتتسم معــاملاتهم بالنعومة واللطــف، ويميلــون إلى حسن الظن، رؤيتهم للواقع عتيقة، ونظرتهم للمستقبل قاصرة ومشوشة، وبينهم وبين التحليل والتفلسف ما يشبه العداوة، لكن لـديهم روح متفائلـة، وكثـيرًا ما تكـون تطلّعـاتهم محـدودة، والتـدقيق في صـفاء العقيـدة وصحّة التصورات، لا يشـكّل لـديهم هاجسًـا، ومعظم هـؤلاء عـاديون في أعمالهم وإنجازاتهم؛ والناجحون فيهم قليلــون كما أن المحقّقين منهم ليسوا كثيرين.

في الدائرة الإسلامية نمط ثـانٍ من النـاس يقف في الجهة المقابلة للنمط الأول مع وجـود الكثـير من الأشـياء المشـتركة بينهمـا. هـذا النمط يحــرص حرصًــا شــديدًا على اســتقامة تفكــيره، ويكــثر من النقـــاش حـــول ما يعتقد أنه يشـــكل انحرافًا عن المنهج القـــويم، يتحدثون باستمرار عن المهم والمهم جدًا، والخطـير والخطـير جـدًا، ويفرقــون في تنــاول التفاصــيل المتعلقة بالأمة وبالشــأن العــام. كثــيرون من هــؤلاء فتحــوا على أنفســهم بابًا عريضًــا من ممارسة

النقد، إنهم يتحـدثون باسـتمرار عن المصـائب والـويلات الـتي حلّت بالأمة، ويكثرون من المقارنة بين ما لدينا، وما لدى الآخرين، وتكون النتيجة في الغالب لصالح الأمم الأخرى، ولاسيما الغربية منها وكثـير من أفراد هذا النمط نـاجحون في أعمـالهم على نحو مقبـول، وهـذا يشجعهم على أن يقترحوا على غيرهم المشروعات، ويــدلّوهم على طـرق للارتقـاء وآليـات للتقـدم، يشـغلهم المسـتقبل عن كل شـيء وطموحاتهم كبيرة وأحلامهم عريضة. من أكبر همـومهم فهْمُ الأمـور التي تجعل النـاس يعيشـون حيـاتهم وفق تعليمـات دينهم، لكن هـذا النمط كثيرًا ما يشكو من برودة الـروح وخمـود الانفعـالات، وهو مع حرصه على اســتبانة الوجهة وتحديد المســار إلا أنه لا يهتم كثـــيرًا بتوليد (الطاقـة) المطلوبة للمضـيّ بهمة وعزيمة إلى آخر الطريـق، عباداتهم كثـيرًا ما تكـون عند الحد الأدنى، وبعـدهم عن الشُـبه ليس بــالكبير. وكثــيرًا ما يعــانون من تمزّقــات داخلية بســبب المســافة الكبيرة التي تفصل بين وعيهم ودرجة تألّق إيمانهم، هذان النمطــان رئيسيان في الجمـاهير الملتزمة وهنـاك أنمـاط فرعية تتشـعب من كل واحد منهما.

في الدائرة الإسـلامية نمط ثـالث يمكن أن نسـميه (النمط العزيـز) إنه عزيز -نسـبيًا- في وجـوده، وعزيز أيضًـا على قلوبنـا. هـذا النمط جمع ثلاث صفات أساسـية، هي الـوعي العميـق، والإيمـان الراسـخ، والنجاح الباهر. وهذا شرح موجز لهذه الصفات.

يمتـاز هـذا النمط بالأصـالة الخلقيـة، حيث السـجايا الحميـدة عميقة الجـــذور في النفس، وتجسّـــدها في الســـلوك يتم بطريقة عفوية ومستمرة، وهو مكين التـدين، والإيمـان لديه يتجـاوز صـفاء المعتقد إلى الحيوية والتـــألّق، إن أفـــراد هـــذا النمط يعملـــون وفق (ربي وعبـــدك) إن الواحد منهم في نهــاره يــراقب الله في عمله وجميع أنشطته، هذا العمل يرضي ربي، وهذا العمل يقربـني من ربي، هـذا العمل لا يرضى عنه ربي إن صـــلته بالله -تعـــالى- توجّه حركتـــه، وتصوغ مواقفه وعلاقاته، ومن تلك الصـلة القدسـيّة يسـتمد الطاقة على العمل وعلى الصـمود في وجه المغريـات، أما في ليله فكثـيرًا ما يردّد: عبدك بحاجة إليك. عبدك راجٍ لفضلك. عبـدك خـائف منـك. عبدك عبدك....

2 - رســالة هــذا النمط في الحيــاة واضــحة إنها العيش للإســلام وبالإسـلام. من يُنسب إلى هـذا النمط يعتقد أن لكل امـرئ ديـنين:

ديناً معلناً ظاهر يمنحه نوعًا من التميّز والانتماء الشكلي، وديناً حقيقياً، ودين المرء الحقيقي هو الدين الذي يكرّس حياته من أجله.
يقرأ هذا النمط الماضي لإصلاح الحاضر، ويتخذ من معطيات الحاضر وقودًا لبلوغ الأهداف العظمى، التفكير لديه إستراتيجي، والرؤية واضحة، وهو مع ميله للإيجابية، وتشبّعه بروح الرجاء يدرك أعباء المرحلة، ويعرف العلامات الدالة على الطرق المسدودة، يجد معرفته ومفاهيمه، ويتهم نفسه، ويمتلك القدرة على السماع والاقتباس.
3 - هذا النمط ناجح في عمله، متفوق في أدائه، يقدم القدوة والنموذج في الكثير من جوانب شخصياته وسلوكاته. إن لديه إدراكًا عميقًا، بالحاجة إلى تحقيق النجاح الباهر؛ حيث مضى زمان الأشياء العادية، وحيث تتطلب الديون المتأخرة على الأمة مضاعفة الإنتاج وبذل المزيد من الجهد.
هذا النمط جمع -باختصار- بين القوة والأمانة، كما قالت ابنة شعيب: (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين).
ينتسب هذا الطراز من الرجال إلى الإمام الكبير عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- ويحاول باستمرار إحياء خطّه وبعث مسيرته.
وإني لأرجو أن نعمق دراستنا المستقبلية حول هذا النمط، كما أرجو أن نجعل الدخول إلى عالمه شيئًا موضع تطلّع وتشوّق، إنه نمط آسر، ويثير الإعجاب، ولمَ لا، وقد اجتمع فيه أفضل ما تفرق في غيره؟!

==============

هدايا الغرباء

الشاغل الأول للثقافة الشعبيّة بما هي عادات وتقاليد ونظم ورمزيّات يتمثل في تحقيق أكبر قدر ممكن من التلاحم الأهليّ والتواصل الأخويّ وهي في سبيل تحقيق ذلك تجد نفسها مضطرّة إلى التغاضي عن كثير من الأخطاء الاجتماعية، والقبول بالكثير من الأوضاع والأشياء السيئة والضارة. إنها تجعل من نشاطها مركزاً للتسويات، وتبدي براعة نادرة في إبداع أنصاف الحلول وإمساك العصا من الوسط.
إن الناس يلوذ بعضهم ببعض في الرأي والموقف كما تلوذ الطير ببعضها أيام الصقيع.
إن التقليد والحرص الدائم على التوافق والتطابق، يعطي دائماً إشارات الرّضا عن الأوضاع السائدة؛ لأنه يساعد على ذبول ملكة

التميـيز والتفريق بين الأشـياء، ويجعل القـدرة على النقد في أوْهَى حالاتها.
إن الثقافة الشعبية السائدة في أي مجتمع تدفع بالنـاس نحو التوحّد الشكلي بسبب الصندوق الذي تضعهم فيـه. وذلك الصـندوق مملـوء بـالتّحيّزات والأهــواء والــرؤى الجزئيّة المبتســرة، كما أنه مملــوء بالمعــايير والمقــاييس غــير العلمّية وغــير الموضــوعيّة. وفي كل الحـالات يكـون الخـروج من ذلك الصـندوق أو محاولة النظر إلى ما في خارجه -على أقل تقـدير- شـرطاً أساسـياً لامتلاك رؤية أصـيلة ونظرة جديدة للذات وللعالم.
إن الوحي بما هو شيء منفصل عن إنجـازات البشـر، يُخـرج أفـذاذاً من النـاس من صـناديقهم الثقافيّـة، ليقومـوا بعد ذلك هم وأتبـاعهم بكسر الاتّساق والمنطق الشكليّ الذي يشـعر به سـكان الصـندوق؛ لكن ذلك لا يكـون من غـير ثمن، يقـول الله - جل وعلا-:(إِنَّ الـدِّينَ عِنْـدَ اللَّهِ الْإِسْـلامُ وَمَا اخْتَلَـفَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ إِلَّا مِنْ بَعْـدِ مَا جَـاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيـاً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُـرْ بِآيَـاتِ اللَّهِ فَـإِنَّ اللَّهَ سَـرِيعُ الْحِسَابِ) [آل عمران:19].
العلم هو الذي أخرج إبراهيم -عليه السـلام- من التّبعيّة لأبيه ليصـبح هاديـاً له ومرشـداً (يَا أَبَتِ إِنِّي قَـدْ جَـاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِـكَ فَـاتَّبِعْنِي أَهْـدِكَ صِـرَاطاً سَـوِيّاً) [مـريم:43]. والثمن الـذي يدفعه الأنبياء -عليهم السلام- وكل أولئك الذين يسـيرون على منهجهم في الخروج على المألوف وإرساء قواعد جديدة للحياة -إن الثمن الــذي يدفعونه هو القتل والإيذاء والاضطهاد والطّرد من الديار.
والحقيقة أن التفكــير العميق والمنهجي هو الآخر يقــوم بخلخلة ما يبدو متصلاً ومنسجماً، ويقوم بإيجـاد الفراغـات وفتح الفجـوات فيما يبدو ممتلئاً ومتماسـكاً، إنه يـزرع روح التحـديث في جسد التقليـديّ والمستمر. وبذلك يلتقي نتاج الفكر بثوابت الوحي وحقائق العلم، أو قل: يعمل العقل، ويشتغل على قطعيّات الوحي ومسلمات العلم.
حيث تغادر بلدك بجسدك، فإنك تكـون أمـام فرصة حقيقيّة للتخلص من كل المفــاهيم البالية والضــغوط الاجتماعيّة الخاطئــة، ومن كل الأهواء التي تُشبع بها أولئك الذين ما زالوا يقيمون في ذلك الوطن، وتُتــاح لك فرصة أقل من هــذه الفرصة حين تملك فضــيلة التــأبي وفضـيلة التميـيز بين الصـواب والخطأ والحسن والقـبيح، ولو كنت تعيش بين أهلك وفي مدارج صِباك. إنه الانفصـال العقليّ والـروحيّ الناتج من الامتلاء بالهدي الرّبانيّ: في كلتا الحـالتين سيشـعر المـرء

بالغربة، وبشيء من العُزلة والتفـرّد، وسـيواجه ضـغوطاً وأزَمـات لا يجــدها أولئك المقيمــون في أوطــانهم، وأولئك المشــتغلون بلقمة يومهم، الراضون بالفُتات والفاقدون للتّمييز. وقد قـال عليه الصـلاة والسلام: "بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء".
دين واحد بمفــــرده يحتفظ بنقائه واتجاهه وأهدافه بين عشــــرات الأديــان والمــذاهب والتيــارات؛ إنه لشــرف عظيم ومهمة صــعبة. ومسلمون غرباء، يحاولون الاحتفاظ بنقـائهم -أيضـاً- ويعملـون على إصلاح ما تفسده الجماهير العريضـة. هـؤلاء المسـلمون طـوبى لهم ثم طوبى!!
حين تغترب ببدنك أو بعقلك ومشاعرك فإنك تضع نفسك على رأس طــريقين: أن تعيش على الهــامش تجــترّ آلام الغربــة، وتبكي من الوحـدة، وتبـذل كل جهـدك من أجل الاسـتمرار في الحد الأدنى من العيش تأكل وتشـرب وتتكـاثر وتتنفس، وإلى جـانب ذلك تغـرق في الحديث عن محاسن وطنك الذي فقدته ومساوئ البلد الذي حلَلْتــه، أو تغـــرق في ذكر مثـــالب النـــاس الـــذين يخالفونك في اتجاهك وانتمائك ورؤيتك للحيـاة. وتغـرق في الحـديث عن العامة والـدهماء والغوغاء، وما أنعم الله -تعالى- عليك به إذ لم تكن واحداً منهم.
أما الطريق الثـاني: فهو أن تنطلق من نعمة الخـروج من الصـندوق والتحرّر من قيـود الاسـتكانة لما هو سـائدٌ وطـاغٍ. وحينئذ فستشـعر أنك تملك ما لا يملكه غــيرك من ثقــوب النظر والقــدرة على رؤية الأشياء من زوايا مختلفة. وستشعر أن في إمكانك أن تكون صاحب رسـالة، تعيش من أجلهـا، وتعيش بهـا، وبهـذا وحـده يكـون للغربة -بشقّيها- معنى، وتكون لها ميزة.
إن المسـلم الملـتزم والـواعي بشـجون عصـره سـيواجه من الآن فصـــاعداً المزيد من الشـــعور بالغربـــة، وإن عليه أن يعـــدّ نفسه للاسـتفادة من هـذا الشـعور كي يجعل منه وقـوداً روحيـاً في حركة التحرير: تحرير الذات وتحرير الأمة وبناء المستقبل.
أمّة الإســلام -على كــثرة عــددها- غريبة بين الأمم، وأصــالتها في غربتها ودورها المسـتقبلي في تقـديم شـيء للعـالم يكمن في هـذه الغربــة. فكيف يمكن لها أن تقـدّم هـداياها للنـاس، وما طبيعة تلك الهدايا؟
في ظل الاتصــال العــالمي، وفي ظل ســيطرة العولمة وانتشــار مفاهيمها أخــذت مشــكلات العــالم شــرقاً وغربــاً في التجــانس والتشــابه، أي يمكن القــول: إن حاجة الإنســان في الغــرب على

المستوى الروحي والعقلي والأخلاقي لا تبتعد كثيراً عن حاجات مسلم يعيش في الشرق، لكنه ضعيف الالتزام وغارق في شؤونه اليومية. وعلى هذا فإننا يمكن أن نقول -مع شيء من التجاوز والتعميم- : إن ما يمكن أن يقدمه الداعية والمفكر المسلم لإخوانه في ديار الإسلام يقترب شيئاً فشيئاً مما يمكن أن تقدمه أمة الإسلام للأمم الأخرى مع بعض الخصوصيات والاستثناءات. وعلى هذا فإن هدايا الغريب المسلم تتقارب مع هدايا الأمة المسلمة. شيء مهم أن نعرف ماذا نهدي، لكن حتى نعرف ذلك فإن علينا أن نعرف شيئين: ما الذي لا نستطيع إهداءه، وما الذي يحتاجه أولئك الذين سنقدم إليهم هدايانا ومن حسن الطالع أن يكون -في أغلب الأمر- ما لا نستطيع إهداءه هو ما لا يحتاجه الآخرون.

من الواضح أننا لا نملك بإمكاناتنا وأوضاعنا الحالية أن ننشئ دورة حضارية عالمية ذات صبغة إسلامية تعقب الدورة الحضارية الغربية السائدة الآن، وتعكس هيمنة القيم والأفكار والاعتقادات ومناهج العمل والتفكير الإسلامية. نحن لا نستطيع هذا الآن لأننا لا نملك الوسائل والقوى المطلوبة لذلك.

أيضاً نحن لا نستطيع الآن أن نُحدث طفرة علمية وتقنية وبحثية تدفع بما هو متوفر عالمياً نحو الأمام، ونسدي بذلك للإنسانية خدمة تحسِّن في رفاهيتها واستغلالها لخيرات الأرض؛ لأننا لم نستوعب إلى الآن ما هو موجود ولا نسهم إلا على نحو محدود جداً في تطويره.

ونحن اليوم لا نستطيع أن نقدم نظاماً تربوياً أو تعليمياً أو إدارياً يتفوق على النظم الموجودة حالياً، لأننا لم نطور نظمنا القديمة، ولا استخدمنا الموجود بكفاءة. لكن في إمكان الفرد المسلم المتميز أن يقدم لأمة الإسلام أشياء مهمة في كل ما ذكرناه، إذا عرف أن (الغربة) تعني التفوق والتقدم على الصفوف، وليس الضعف والعزلة.

العالم الذي تبنيه العولمة اليوم، وتبشر به الرأسمالية والليبرالية يفتقر إلى رؤية تركيبية توليفية، يشعر الإنسان من خلالها بالاطمئنان إلى مصيره بعد الموت، وتوفر له في الوقت نفسه الإطار التوجيهي في حركته اليومية. ونحن الذين نملك هذه الرؤية.

وعالم اليوم مشبع بالوحشة والنفور واليأس والاستقلال الذاتي العدائي والعنجهية. وهو يحتاج حتى يتخلص من هذه الوضعية البائسة إلى من يقدم له قيم الأخوة والمباشرة والمؤانسة

والتواضع والتضحية والتعاون. وهذا ما تؤكده المنهجية الاجتماعية الإسلامية.
عالم اليوم يستثمر أموالاً هائلة في السياحة والترفيه واللهو وكل ما من شأنه خدمة البدن. ولم يخطر في باله أن ينفق أي شيء في خدمة (الروح) وذلك لأنه أسلم قياده لثقافة لا تعرف عن الروح شيئاً، سوى أنهم يعدون (الخمر) مشروباً روحياً!! والمسلمون الملتزمون هم الذين يعرفون كيف يكون غذاء الروح، وكيف يُبنى الإشراق الروحي المسلمون مشغولون بأداء حقوق الله تعالى والبحث عن مراضيه، ويفهمون حقوق الإنسان والحيوان في إطار فهمهم لحقوق خالق الإنسان والحيوان وعلى هدي تعاليمه. أما حضارة اليوم فإنها تتحدث عن حقوق المرأة والطفل والعامل والسجين، كما تتحدث عن حقوق الكلاب والقطط ونظافة البيئة، لكنها لا تتحدث أبداً عن حقوق الله تعالى ولا تقيم لها أي وزن. ونحن نملك الرؤية الكاملة لتوجيه الحضارة في هذا الشأن. العالم الذي اتخذ من الصراع ناموساً للبقاء يملك ويكتسب الكثير الكثير من (العلم)، ويفقد مع الأيام ما تبقى لديه من (حكمة) عالم كثير علماؤه قليل حكماؤه. وما ذلك إلا لأنه لا يعادل غناه بالوسائل سوى فقره في الغايات. وأمة الإسلام وحدها هي التي تعرف الغاية من وجود البشر على هذه الأرض، كما يجب أن تكون المعرفة.
إن قارة (أوروبا) أسست الحضارة الحديثة، وما زال لها موقع متقدم في قيادتها، وهي تقدم الدليل تلو الدليل على قصور البناء الذي وضعت قواعده، وشيدت أركانه. وهل هناك دليل على ذلك أقوى من أن يستحي أي زعيم من زعمائها وأي رئيس من رؤسائها من أن يجري اسم (الله) على لسانه؟!
إن عالم اليوم لا يحتاج إلى التسامح فحسب، لكنه يحتاج أيضاً إلى من يدله على طريق الهداية، ويساعده على أن يقترب من الله تعالى شبراً أو ذراعاً، وهذا ما نملك القيام به.
هذه الوضعية تحملنا مسؤولية كبرى لأننا نملك فعلاً ما العالم في أمس الحاجة إليه.
لكن يجب أن نكون على وعي بأننا لن نستطيع أن نقدم للعالم على طبق من ذهب شيئاً نستخرجه من الكتب، ونسطره على الورق، ثم نذيعه في فضائية أو ننشره على شبكة (الإنترنت)، إننا لو فعلنا ذلك فحسب فإننا نكون كمن لم يفعل أي شيء.

إن القيم والأسس والمبادئ والمعاني التي لدينا، مهما كانت عظيمة وسامية فـإن العـالم لن يتقبلها إلا إذا تفاعلنا نحن معها أولاً، وقـدمنا البرهان تلو البرهان على أن المنهج الذي استطاع إنقاذ أمة الإسلام وارتقى فعلاً بهـا، قـادر على أن يفعل ذلك مع الأمم الأخـرى. إن العـالم يحب أن يـرى شـيئاً على الأرض، ولا يأبه كثـيراً للكلام، فلنساعده على أن يرى.

هنا يـأتي دور الغربـاء، وهنا يتجسد جهـادهم العقلي والـروحي والسـلوكي فهل نسـتطيع أن نجعل من (الغربـة) هوية قـادرة على بعث حركة ريادية داخل أمة الإسـلام؛ كي نـرى الأمة وقد أصـبحت القوة العظمى التي تقوم بالدور نفسه على مستوى العالم؟ هـذا ما نرجوه ونطمح إليه.

==============

ممانعات

مكافحة العماء و (اللاتكوّن) هو العمل الذي لا يكفّ بنو الإنسان عن ممارسته في كل زمان ومكان. وذلك لأن الحقيقة -أية حقيقـة- ذات أغوار وأبعاد متتابعة. وكلما اكتشفنا غورًا أو بعـدًا بـرز لنا غـور آخـر، يتطلب سـبره وفهمه معرفة جديـدة، تكـون في العـادة أبعد منـالاً وأكـثر خفـاءً من المعرفة الـتي احتجناها لاكتشـاف الغـور السـابق، وهكـذا فإنه طالما غَمَرنا شـعور عـام بـأن المعرفة أشـبه بالمـال، المعروض منها دائمًا أقل من المطلـوب. نحن في حاجة إلى المزيد من العلم والمزيد من الخبرة من أجل أمرين جوهريين:

1- أن نتعـرف على حقـول الممارسة المتاحـة، وأن نفتح حقـولاً جديدة منها ملائمة لما هو متوفر من إمكاناتنـا، وما نصـبو إلى بلوغه من غايات وأهداف.

2- أن نكتشف السـنن الربانية الـتي تحكم طبـائع الأشـياء والمنطق الذي يحكم تطورهـا. ومهمة هـذا الكشف هو توفـير الـوقت والعنـاء الـذي نتكبـده نتيجة جهلنا بالممانعـات الناشـئة من صـلابة الأشـياء وتأبيها على التشكل الذي نريد. إن العقل بتكوينه الأساسي الفطري لا يستطيع إدراك تلك الممانعـات من غـير معرفة يمـدّه بها المجتمع والواقع المعيش. ولا يســتطيع المجتمع الحصــول عليها من خلال التأمل المجــرّد، وإنما عليه أن ينغمس في التجربة والممارسة أولاً، وبعد ذلك ســيكون في إمكانه اســتخراج بعض الــدلالات والمستخلصات حول الطرق المسدودة وحول العلاقـات القائمة بين الأشياء، والتي تحكم الكثير من وجوه الانتفـاع بها وإعـادة تشـكيلها،

ويمكن أن نقول في هذا السياق: إن عقولنا ستظل متأزمة ومرتبكة وستظل تنتج الفروض الشكلية والبعيدة عن ملامسة المشكلات - ما لم نمتلك الروح العملية، ونحاول تضييق الهوة القائمة بين ما نقول وما نفعل. صحيح أن العقول هي التي ترسم الخطط النظرية؛ لكن إذا ما كانت الأيدي في أزمة وفي عطالة فإن العقل سيجد نفسه يتخبط حيث الافتقار الشديد إلى الأطر التي يعمل داخلها، والمعطيات التي يشتغل على أساسها، ولنضرب بعض الأمثلة على ما نقول:

أ- من غير الممكن في مؤسسة يسودها الظلم وهضم الحقوق جعل العاملين يعملون بحماسة وأريحية. إنهم سيبذلون الحدّ الأدنى من جهودهم بما يكفي لتأمين سير العمل عند حدوده الدنيا. ولكل قاعدة فيما نقول شذوذات لا تجرح صفاء هذه المقولات بمقدار توكيدها لها.

ب- من غير الممكن تكوين ضمير أخلاقي رادع في مجتمع يسوده الخروج على النظم المرعية على نحو سافر وواسع، القانون يولّد ثقافة . والثقافة حين تتشكل تحمي القانون إلى حد عدم الحاجة إليه في الضبط الاجتماعي، أي تتحول الثقافة إلى قوة ضابطة تحل محل القانون.

ج- لا نستطيع قطع دابر الخلاف في أي قضية وقع بيننا خلاف في تعريفها، وإذا عرفنا أننا لا نستطيع تفادي (الانتقائية) في كل أو معظم التعريفات، عرفنا لماذا يصعب حسم النزاع في الكثير من القضايا الإصلاحية والتربوية.

د- لا تستطيع أن تكون معتزًا بنفسك أو نسبك أو انتمائك إلى شيء بعينه دون أن تعرِّض نفسك لسوء الفهم والنظر إليك على أنك متعجرف ومتكبر. كما لا يستطيع الحليم أن يمنع الناس من تفسير حِلمه على أنه جبن وخَوَر.

هـ - لا تستطيع الوصول إلى حلول كاملة في وسط غير كامل، وإذا عرفنا أن المعروض من المعرفة ومن المال والأدوات والمتوفر من الظروف هو دائمًا دون ما هو مطلوب عرفنا أن حلولنا ستكون دائمًا ناقصة، وسيكون النصر النهائي شيئًا بعيد المنال.

و- كلما زادت الرقابة الاجتماعية على الأفراد ضعف لديهم الوازع الداخلي؛ وذلك لأن الشعور بالمسؤولية يتطلّب قدرًا من التفويض وقدرًا من الحرية. وهذا يعني أن التدقيق الشديد في حياة الأفراد

يــدفع بهم دفعًا إلى أن يكــون لهم ســلوكان، خيرهما الــذي يظهر للناس.
ز- من العســير جــدًا أن نســتطيع توليد مشــاعر جميلة في مكــان تجتاحه الفوضى أو القـذارة أو مكـان ضـيِّق، لا يسـتوعب الشـاغلين له.
ح - في ظل الفسـاد الإداري، يمكن للاقتصـاد أن يتقـدم، ولكن إلى حـــــــدود، حيث إن النمو الجيد يتطلب دائمًا درجة عالية من الثقة والمصداقية. وهذا ما يصـعب توفـيره آنـذاك. الفسـاد الإداري يـدفع بالناس إلى القيام بموازنـات وإجـراء حسـابات كثـيرًا ما تفضي بهم إلى سحب أموالهم من الدورة الاقتصادية.
ط - الأنشـــطة السياســـية والتربوية والتعليمية والدعوية والتجارية والإدارية، تتم في إطار (نظم مفتوحة) أي في بيئـات تسـمح بوجـود تأثيرات أجنبية خارجة عن إرادتنا وسيطرتنا. ولهذا فـإن التنبؤ بنتـائج هذه الأنشطة يظل غير دقيق، وهـذا على عكس الأنشـطة الـتي تتم وفق نظم مغلقة.
ي- إذا كــان الشــيء ذا وسط متــدرج لم نســتطع أن نصــدر عليه أحكامًا قاطعـة، وكـان علينا أن نقنع بالأحكـام التقديرية والتقريبيـة، كما هو الشأن في (الصفات) والسبب في ذلك عـدم قـدرة النظـام اللغوي على مواكبة التـدرج الموجـود في الأشـياء. وهـذا هو مصـدر ارتباك العقل في التعامل معها.
ك- من الصعب اليوم أن يتعشق شعب المعرفة، ويبــذل من أجلهــا، أو ينتج معـــارف متقدمـــة، وأكثريته تعمل في مهن بدائية وحـــرف يدوية.
ل - من كانت ملكة النقد لديه نامية أكثر مما ينبغي فإنه لا يســتطيع أن يتفادى التعرض للجفاف الروحي.
م - الحرية قــدرة على الاختيــار. ولا اختيــار من غــير بــدائل. وليس لشعب أن يدّعي أنه حرّ كريم والضرورات تحيط به من كل جانب.
ن - ما دامت قــدراتنا -مهما عظمت- تظل محــدودة فــإن الكم في أعمالنا، لا يكون إلا على حساب الكيف. والتقدم الحضـاري كثـيرًا ما يتطلب تفوق الكيف لا الكم. إن هــذه الممانعــات تملي علينا المزيد من التبصر والفهم العميق للعلاقــات الــتي تربط بين الأشــياء. وإن فقه الأولويات الـذي كـثر كلامنا فيه لا ينمو على النحو المطلـوب إلا إذا زادت حصيلتنا من هذه المفاهيم والمدركات.

س - الانخراط في العمل والاهتمام بالإنجاز واحترام الممارسة -كل ذلك مما يحسن رؤيتنا لما هو ممكن، وما هو في حـــيز المســـتحيل والعســـير والبعيـد. وإن تجاهل طبـائع الأشـياء والسـنن الربانية في تطور الأمـور يظل مكلفًا جـدًا مع أن صـلابة السـنن الاجتماعية أقل من صلابة السنن الطبيعية. وإني أشـعر أن فقه الطـرق المسـدودة ما زال لدينا يميل إلى الفجاجة والضآلة، وإن إنضاجه قد يكون شـيئًا مهمًا لتقدم الوعي الدعوي والإصلاحي.

===============

حتى لا يتأخر النصر

هل طــال النفق الــذي نســير فيه أكــثر مما ينبغي وأكــثر مما هو متوقع؟ وهل طال انتظارنا للنصر الكبير والإصلاح الشامل والازدهار العام أكثر مما كنا نظن؟

أعتقد أن ذلك صحيح. ويمكن لكل ذلك أن يستمر عقـوداً أو قرونـاً. وهناك إمكانية للانتكاس والارتداد على الأعقاب؛ فالتدهور لا قعر له، ولا حدود تجعله يتوقف.

لماذا لا يقدُم البشير وينبلج الفجر الجديد؟

ربما كـان السـؤال الأكـثر دقـة: لمـاذا يقـدُم البشـير ويلـوح النصر الحاسم؛ ونحن لم نغيِّر في أنفسـنا وسـلوكاتنا وعلاقاتنـا، ولا نشـعر أننا نتقدم بخطى ثابتة في الاتجاه الصحيح؟

إن التخلص من وضـعية الشَّـرْذَمة والانكسـار والـوهن يحتـاج إلى الكثير من العمل والكدح، ويحتـاج إلى الكثـير من العلم والفهم، كما يحتاج إلى التوقف عن الممارسات السيئة أو بالغة السـوء. وأود هنا أن أشير إلى الملمحين الآتيين:

1 - علينا أن نكف عن ممارسة دور الضحية ودور المظلومين الـذين اعتُدي عليهم، وسُـلبت حقـوقهم. الأمة تعـزو تخلفها إلى الاسـتعمار القـديم والجديـد، والمـدارس تعـزو إخفاقها في تخـريج جيل يعـرف ويحب المعرفة إلى تقصـــير الأسر أو تقصـــير الجهـــات العليا في إمــدادها بحاجاتهــا، والموظف المفصــول من وظيفته يشــكو ظلم رؤسائه... وهكذا فإنك لا تواجه إلا المظلومين، ولا تواجه ظالمين أو معتـدين. كل واحد فينا يـذكر محاسن ذاتـه، ويتحـدث عن الأعمـال العظيمة التي قام بها... ومن النادر أن نجد فرداً أو جماعة أو فريقاً يتحدث عن إخفاقاته أو أخطائـه، ومن النـادر جـداً أن تجد كاتبـاً من كتّابنا يتحدث عن قصور معالجته لمسألة من المسـائل أو يقـول: إن هـذه المسـألة لم تتضح في ذهنه على النحو المطلـوب. كل شـيء

على ما يرام. كلنا ضحايا. نحن لم نفعل إلا ما يجب فعله. والآخرون دائماً هم المذنبون وهم المطالبون بالتغيير!!

لا شك أن شيئاً مما نقوله صحيح، لكن الأصح منه هو ما لا نقوله. الحقيقة المؤكدة هي أن إساءاتنا لأنفسنا هي أكبر بكثير من إساءات الآخرين لنا، بل لا يستطيع الغرب والشرق وكل الخصوم والمنافسين أن يفعلوا بنا أسوأ مما فعلناه بأنفسنا، والله ـ جل وعلا ـ قال لمن هم أكرم منا وأتقى وأنبل: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ} [آل عمران: 165].

2 - من غير الممكن الحصول على الازدهار الروحي والعمراني من غير ترسيخ فضيلة (الصدق) في حياتنا، ومن أهم مظاهر الصدق ولوازمه تحمل المسؤولية بأريحية عن أعمالنا. ولهذا فنحن في حاجة إلى أن نرسخ في تقاليدنا الثقافية وفي أعرافنا ونظمنا وقوانيننا سهولة الاعتراف بالخطأ، والاستعداد لتحمل النتائج المترتبة عليه عوضاً عما هو سائد اليوم من القول: كلنا مسؤول، وكلنا مقصِّر، وعلى الجميع أن يصلح شؤونه، إن هذا الكلام صحيح في مجمله، ولكن التعميم الزائد عن الحد يُفضي إلى عكس المطلوب؛ حيث تكون المحصلة النهائية عدم وجود مسؤول تمكن محاسبته. عدم تحديد المسؤولية يعني عدم الخوف من وقوع العقوبة، وعدم الخوف من وقوع العقوبة يعني استمرار الأخطاء واستفحالها، وربما كانت حرية التعبير المنضبط بضوابط الشريعة الغراء هي الشرط الأساس لذلك. إن أجواء الكبت والقهر لا تساعد أبداً على تكوين الأشخاص النبلاء ولا تنشئة جيل يبادر إلى الخير، ويتحمل مسؤولية ما عمل. والله الموفق.

==============

إرشاد الأسئلة

كلمة (النهضة) من الكلمات الأكثر استخداماً في حياتنا المعاصرة. وحين يشيع استخدام كلمة على نطاق واسع فإنها تجتذب الكثير من المعاني والدلالات الفرعية، ويصبح العمل على لمّ شعث تلك الدلالات ومراجعتها من الأمور المهمة، حيث يتوقف على ذلك الكثير من الأشياء.

نحن في حاجة إلى طرح الأسئلة من أجل إعادة تحديد التعريفات والمصطلحات ومن أجل إضاءة حقول الممارسة الدعوية والإصلاحية.

وكل ذلك من أجل الشعور بأننا ما زلنا نعمل في المسار الصحيح.

إن الأسئلة هي وليدة التأمل العميق. التأمل هو التفكير في التفكير أي تسليط نور الوعي على ذاته كي يصبح على دراية أفضل بملاحظاته ومقولاته.
الفقر في الأسئلة سيعني قطعاً الفقر في الإجابات لأن السوية الذهنية المطلوبة لكل منهما واحدة. وأشعر أننا لا نميل إلى طرح الكثير من الأسئلة حول ما ننظِّر له خشية أن نجد أنفسنا وقد حوصرنا بأسئلة لا أجوبة لها. إن أي حقيقة هي ذات طبقات متعددة، وإن اجتراح أي طبقة وفهم كنهها وجوهرها يحتاج إلى معارف ومفاهيم أكثر تفصيلاً ودقة، وإن براعتنا في طرح الأسئلة تعني أننا بدأنا نتحسس الطبقات الأكثر عمقاً في مسائل التخلف والنهوض الحضاري.
وقد أدرك المثقلون بالهمِّ الدعوي والإصلاحي ذلك منذ وقت مبكر؛ فهذا الكواكبي يعقد مؤتمراً وهمياً في مكة المكرمة، حيث يتخيل قدوم وفود من كل أصقاع العالم الإسلامي من أجل التداول والتفاكر والتذاكر في الأزمة الحضارية التي يعاني منها المسلمون.
وقد رأى المؤتمرون -كما سجل ذلك الرجل في كتابه (أم القرى)- أن تتركز مداولاتهم في العثور على أجوبة لسؤالين أساسيين هما:
السؤال الأول: ما العلل والأدواء التي تفتك بالأمة الإسلامية حتى انتهت إلى الوضعية التي هي فيها؟
أما السؤال الثاني فقد كان: ما الأدوية والعلاجات التي تحتاجها الأمة حتى تبرأ من أدوائها؟
وبالطبع فقد ذكر المؤتمرون -كما تخيل الكواكبي- الكثير من العلل، ووصفوا الكثير من العلاجات. والذي يبعث الأسى في النفس أن يظل معظم ما نطرحه اليوم من أسئلة، وما نقدمه من الأجوبة قريباً جداً مما ذكرته الوفود الإسلامية قبل ما يزيد على قرن من الزمان!!
هذا يعني أن قدرتنا على حسم الأسئلة والنزاع من كثير من الأجوبة ما زالت محدودة.
نحن هنا نريد أن نطرح بعض الأسئلة التي نظن أنها ستحرض الوعي لدينا على الانتقال من الإدراك العام إلى إدراك أكثر عمقاً وأكثر تفصيلاً:
- حين نتحدث عن نهضة الأمة الإسلامية وعن الدور الحضاري الذي يمكن أن تقوم به، فهل نريد أن نحسِّن مواقعنا داخل المنظومة الحضارية السائدة، فنتحول في إطار الأصول والشروط الحضارية

التي وضعها الغـرب من أمة تسـتهلك المنتجـات الحضـارية إلى أمة تســهم في إنتاجهــا، مما يعــني تــدعيم الحضــارة الحالية وتعزيز اســتمرارها مع إنكارنا للقواعد الــتي قــامت عليها وإنكارنا لأدبياتها ورمزياتها؟

- إذا كــان هــذا غــير ملائم لنا لأنه يوقعنا في نــوع من التنــاقض المنهجي، فهل نريد إذًا أن نؤسس حضارة جديدة تحاكي في أصولها ومنطلقاتها وأهدافها الحضارة الإسلامية التي وضع لبنتها الأولى نبينا -صلى الله عليه وسلم-؟

- إذا كان هذا هو المقصود، هل يتم هذا في ظل اسـتمرار الحضـارة الغربيـة، مما يعـني إنشـاء حضـارة منافسة تسـتلهم عقائد ومبـادئ ومثلاً مغـايرة لما في الحضـارة الغربيـة؟ أو أن المقصـود هو دورة حضـارية جديـدة تعم العـالم، يكـون للعـرب والمسـلمين فيها دور الريادة والقيادة، مما يعـني أن الحضـارة الـتي نريد لها أن تقـوم لن تقوم إلا على أنقاض الحضارة الغربية؟

- الخيار الأول يعـني أن علينا أن ننشئ نظمـاً جديـدة في المجـالات السياسية والاقتصادية والتعليمية والتربوية والصناعية والإداريــة؛ لأن ما لدينا من نظم تراثية موروثة في هذه المجالات غير كاف لتســيير دفة الحيــاة العصــرية، وبعضه غــير ملائم ولا صــالح. فهل نملك الإمكانات للقيام بهذا العمل الكبير؟ ومن أين تكون البداية.

أما الخيـار الثـاني فإنه يعـني أن المطلـوب منا الآن هو العمل على هزيمة الحضارة الغربية وهدم أركانها تمهيداً لتشييد حضارة إسلامية تحل محلها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل مثل هذا العمل ممكن أم أنه من الأمور شبه المستحيلة بالنسبة إلينا وإلى غيرنا؟

- وفي كل الأحـوال هل يمكن للعـالم الإسـلامي أن ينشئ حضـارة منافسة أو بديلة عن الحضارة الغربية وهو مشـرذم ومـوزع على ما يزيد على خمسين دولـة؟ وبالتـالي فهل يكـون علينا أولاً أن نسـعى إلى توحيد المسلمين وجمع كلمتهم قبل أن نفكر في إنشاء حضـارة بديلة أو منافســة؟ وإلى أي حد يمكن القيــام بهــذا الأمر في ظل التخلف الموجــــود الآن وفي ظل الارتباطـــات الوثيقة القائمة بين معظم الدول الإسلامية والدول الغربيـة، حيث إن العلاقـات التجارية بين الدول الإسـلامية أضـعف بكثـير من العلاقـات القائمة بينها وبين الدول الغربية؟

- علينا بعد هذا أن نتساءل: لمـاذا لم نسـتطع عـبر قـرن ونصف من الزمـان اسـتيعاب التطـورات الحضـارية والتقنية والصـناعية الـتي

حدثت في العالم من حولنـا، وما العوامل الـتي أدت إلى بقائنا على هامش الحضارة عوضاً عن أن نكون في لجتها؟
هل كان ذلك بسـبب بعـدنا عن الإسـلام؟ أو كـان بسـبب الاسـتعمار وتآمره علينا؟ أو كان بسبب عـدم وقوفنا من الغـرب موقف التلميذ النجيب كما فعلت اليابـان؟ أو كـان بسـبب تمسـكنا بعـادات وتقاليد بالية وموروثة عن عصور الانحطاط؟
إذا كان الجواب إن واحداً منها هو السـبب فكيف يتم التغلب عليـه؟ وإذا كـانت هـذه الأسـباب تقف مجتمعة وراء ما نحن فيـه، فما وزن كل سبب منها في تعثر النهضة؟
في كل الأحوال كيف يمكننا أن نعمم هذه الأسـئلة وأشـباهها، وكيف يمكن إيصال ما يتبلور من أجوبة عليها على أمة تشـكل اليـوم أكـثر من خمس سكان العالم؟
لم أرد من هـذه التسـاؤلات بعث اليـأس والـدفع في اتجـاه مغلـق، وإنما أردت أن أوضح أن ما نظنه بدهياً وسهلاً لا يكون دائماً كذلك.
(2/2)
ذكرت في المقالة السابقة أن في إمكاننا جعل الأسـئلة الـتي نلقيها على أنفســنا مفــاتيح للفهم وأدوات لإيقــاظ الــوعي. والحقيقة أن المسـيرة العلمية والبحثية تعتمد دائمــاً على حركة جدلية مسـتمرة بين التحديات والاستجابة لها. التحديات كثـيراً ما تتبـدى في أشـكال من الأســئلة والتســاؤلات. والاســتجابة لها تتبــدى في محــاولات اكتشـاف الأجوبة الصـحيحة لهـا. وإن كل خطـوة يخطوها العلم نحو الأمام تنطوي في أعماقها على طرف من الأسـئلة وطـرف آخر من الأجوبة. وهكذا فبعد كل جواب هناك سؤال جديـد. ومن خلال جدلية السؤال والجـواب تـرتقي المعرفة وتتكشف سـنن الله -تعـالى- في الخلق، ويتحسَّن الفهم في حركة حلزونية صاعدة.
المنطق يقضي أن نطـــرح أولاً الأســـئلة الكـــبرى، ثم نتـــدرج نحو الأسئلة الصغرى. وفي مجال التخلف والنهوض هناك سؤالان كبيران -كما سبق أن أشرت- الأول هو: لمـاذا تخلف المسـلمون؟ أو لمـاذا تخلّف المسلمون، وتقدم غيرهم؟
والسؤال الثاني: ما الذي علينا أن نقوم به من أجل النهوض بالأمـة؟ وفي إطار هذين السؤالين لـدينا بحر من الأسـئلة الصـغيرة. وأعتقد أن علينا حتى ننعم بخيرات التساؤل فإن علينا أن نجعل منه عنصراً مهمــاً في تكــوين الجو الأســري في الــبيوت والجو التعليمي في

المدارس. وحتى يتم شيء من ذلك على نحو مقبول فإننا في حاجة إلى شيئين أساسيين:

1- قـــدر ملائم من الحرية الفكرية والعلميـــة، حيث تحـــاول جهـــات عديدة إضفاء نوع من الاتساق الشكلي على الواقع السائد، والإيحاء بالتالي على أن ما هو قائم طبيعي أو الإيحاء بأنه (ليس في الإمكان أبدع مما كان). والتساؤل يكسر ذلك الاتساق.

2- الشعور بعدم الاكتمال وأن الكمال شـيء نرومه ونناهزه، وليس شيئاً نستحوذ عليه. والتساؤل أداة مهمة على طريق السعي نحو تلك المناهزة.

والآن لنطـــرح بعض التســـاؤلات الجزئية مع ذكر بعض ما يمكن أن يشكّل إجابات لها:

- لماذا فقدت كلمة (الأخوة الإسلامية) رونقها إلى درجة تكاد تصـــبح معها خالية من أي مضمون؟!

هل لأن هذا هو الشيء الطبيعي في ظل تفتح الوعي على المصالح الخاصة؟ أو لأن تصويرنا لمعـنى (الأخـوة) كـان يشـتمل دائمـاً على نوع من المبالغة؟ أو أن هذا يحدث بسبب ضعف الرابطة الإســلامية على المســـتوى السياسي فـــانعكس على المشـــاعر والمواقف الشـعبية؟ أو أن السـبب الحقيقي يعـود إلى الانكفـاء على الـذات القطرية الذي نشاهده اليوم على مستوى العـالم الإسـلامي؟ أو أن السـبب يكمن في ضـعف الإيمـان وضـعف الالـتزام حيث لا معـنى للأخـوة الإسـلامية في ظل وهن الأسـاس الـذي تقـوم عليـه؟ أو أن حساسيتنا نحو التنوع الثقافي عالية، مما يسبب لنا النفور من بعضنا بسبب ما لدينا من خصوصيات وأنماط سلوكية؟

- لماذا نجد الفساد الإداري في معظم البلاد الإسـلامية متفشـياً إلى حد أنه أصبح وباء متوطناً؟ ولماذا تعجز معظم الدول الإســلامية عن إجـــراء انتخابـــات نزيهة تعكس إرادات النـــاس واختيـــاراتهم مع أن المفترض في كل من يرجو الله ويخشى عقابه أن يكون على خلاف ذلك؟ هل هـذا يعـود إلى أننا أخفقنا في إرسـاء تقاليد إدارية تحـترم النزاهة وتجرِّم الخـروج على النظم والقـوانين السـارية؟ أو أن هـذا يعـود إلى رواسب عهـود الانحطـاط حيث الصـولة للقـوي والهـوان للضعيف؟ أو أن هذا يعـود إلى هشاشة التربية المنزلية في مســائل الشعور بالواجب وأداء الحقوق والخضوع لـرأي الأغلبية فيما هو من قبيل الاجتهـاد؟ أو أنه يعـود إلى عـدم وجـود العقوبـات الرادعة لكل من يمـــارس الـــتزوير، ويأخذ الرشـــوة؟ أو أن ذلك يعـــود إلى قلة

القدوات التي تقدم نماذج رفيعة في النزاهة والاستقامة الماليـة؟ أو ماذا...؟.
- لمــاذا أخفقنا في حياتنا التعليمية في تحــبيب الناشــئة للقــراءة والكتابة، فالإنسان المسلم اليـوم لا يقـرأ -في المتوسـط- أكـثر من ست دقـائق، على حين يقـرأ الفـرد في الـدول الصـناعية يوميـاً ما معدله ثماني وثلاثون دقيقة؟!
هل هــذا يعــود إلى بلاء التخلف العــام الــذي نعيش فيه حيث لم تسـتطع السياسـات المختلفة اعتمـاد العلم مـدخلاً للنمو والارتقـاء وحل المشــــكلات؟ أو أن ذلك يتطلب عناية خاصة في الــــبيوت والمــدارس، وتلك العناية غــير ممكنة في ظل ازدحــام الفصــول الدراسـية وفي ظل انتشـار الأمية لـدى الآبـاء والأمهـات، ووجــود مستوى متدن جداً من التحصيل المعرفي؟ أو أن هذا يعود إلى غلبة النزعة التجارية على حياتنا العامـة، حيث يُلقى في روع الطـالب أن الدراسة للنجاح، والنجـاح للشـهادة، والشـهادة للوظيفـة، والوظيفة من أجل المال، والمال من أجل المتعة والرفاهيـة، مما يشـجع على السعي للحصول على النجاح بأدنى جهد ممكن؟
- لمــاذا نجد أن معظم المســلمين فقــراء أو تحت خط الفقر مع اعتقادنا أننا نمتلك أفضل منهجية للتعامل مع المــــال واســــتثماره وتنميته؟ هل سبب هذا هو الجهل الضارب أطنابه في زمـان يشـكل العلم شـيئاً جوهريـاً في ثـراء الأمم؟ أو أن السـبب يعـود إلى فقر البيئة وقلة الموارد؟ أو أن السـبب الجـوهري يكمن في سـوء إدارة الموارد المتاحة وتبديد الـثروات؟ أو أن ذلك يعـود إلى الإخفـاق في إقامة مؤسســات ومشــروعات صــناعية كــبرى تــؤمّن ما يحتاجه الشباب من فـرص عمـل؟ أو أن ذلك يعـود إلى عـدم مواكبة خطط التنمية للزيـادة السـكانية؟ أو أن سـبب ذلك هو فقد روح المبــادرة لدى كثير من المسلمين وحلـول التواكل في محل التوكل والفوضى في محل التنظيم والانحراف في محل الاستقامة.
إن هناك الكثير من الأسئلة الإضافية حـول كل ما ذكر وحـول غـيره مما لم نذكره. وهناك أيضاً الكثير من الأجوبة المحتملة.
ولا يسوغ في الرؤية الإسلامية تفسير الظواهر الكبرى بعامل واحد، مما يعني أن خلف كل مشكلة من المشكلات التي نعاني منها عدداً من الأسـباب المتنوعــة. وحين نتأكد من ذلك فـإن علينا أن نحــاول معرفة وزن كل سبب من تلك الأسـباب، ومعرفة أولويـات المعالجة وبم تكون البداية. والله الهادي.

=================

المناعة الفكرية

زود الله -تعالى- أجسامنا بجهاز للمناعـة، يسـاعدها على المحافظة على آلية عملها، وعلى صيانتها من الوافدات الأجنبية التي يمكن لها أن تضـرَّ بهـا، وتقضي على سـلامتها. وجهـاز المناعة لـدى الإنسـان قوي إلى حد مدهش، فالجسد بسبب ذلك الجهاز يظل يقظاً حيـال ما يدخل في نسيجه مهما طال الزمان، فالذي تُزرع له كلية - مثلاً - يظل في حاجة إلى أن يأخذ أدوية لتثبيط المناعة في الجسم مـــدى الحياة!.

نحن على المسـتوى الفكـري في حاجة إلى جهـاز مناعة مماثل من أجل حماية فكر الأمة من التـــــدمير، ومن أجل إبقائه في حالة من النشاط المكافئ للتحديات التي تواجهنا. وعلينا أن نسلِّم منذ البداية بأننا لن نحصل على نظــام لحماية تفكيرنا وأفكارنا كالنظــام الــذي زوّد الله - تعالى- به أجسـامنا، فهـذا هبة تامة كاملـة. أما ما سنصل إليه باجتهادنا فإنه جهد بشــري فيه كل نقــائص البشر وكل أشــكال قصــورهم. وإنما علينا أن نصل إلى أفضل ما يمكن الوصــول إليــه. وإذا تأملنا في هــذه القضــية وجــدنا أننا في حاجة إلى فهم أمــور والعمل بها، إلى جانب حذر أمور واجتنابهـا. ولعلي أتحـدث في هـذه وتلك بما يقرَّب هذه القضية إلى الأذهان على نحو ملائم.

أولاً: الأمور التي ينبغي استيعابها:

إن الفكر الإســلامي هو عبــارة عن مجموعة الــرؤى والتحديــدات والطروحات والاجتهادات الـتي توصل إليها العقل المسـلم من خلال اشـتغاله على النصـوص والأحكـام والأدبيـات الشـرعية والإسـلامية، وذلك بغية استيعاب الواقع الموضوعي والارتقـاء به وحل مشـكلاته. والأفكار هي ثمرات تشغيل العقل، وهي أشبه بالزبـدة الـتي يحصل عليها الفلاح حين يقـوم بخضّ اللبن. والتفكـير هو ذلك الخضّ الـتي تقوم به عقولنا لمجموعة ما نملك من مبـادئ ونعـرف من نـواميس وسنن ومعلومات ومعطيات معرفيـة. إنه بعبـارة أخـرى انطلاق من معلــوم من أجل الوصــول إلى مجهــول. ومن المهم أن نــدرك أن إحاطة عقولنا بما نعدّه معلومـاً من مبـادئ ومعـارف... تظل إحاطة ناقصة وقاصــرة، كما أن الجهــود العقلية الــتي نبــذلها في ســبيل التوصل إلى بلورة رؤى ومفاهيم جديدة تظل هي الأخرى نسبية في اكتمالها ونضــجها؛ مما يعــني أن عمليــات الاجتهــاد يجب أن تظل مستمرة؛ لأنها لن تبلغ في أي يوم من الأيام المستوى الــذي ينقطع

عنده الجدل، وتظهر فيه الحقائق على نحو كامل. ويعـني هـذا أيضـاً شيئاً آخر هو تفـاوت الآراء والاجتهـادات الـتي سنتوصل إليهـا. وهـذا التفاوت ناتج من تفاوت إدراكنا لجوهر المعطيات التي تشتغل عليها عقولنا، ومن تفاوت عمليات التفكير التي نقوم بها، حيث لا نملك ما يمكن أن يجعلها موحدة ومتجانسة. ومن هنا فإن اتفـاق النـاس في الفروع و الجزئيات لا يكون أبداً فضيلة أو شيئاً يُطمأن إليه. إنه يدل على أن العقول توقفت عن العمل لتقف على أرضـية مشـتركة من التلاشي والعدم فالحياة دائماً متنوعة وملوَّنة . أما السكون والموت فهو شيء واحد بإطلاق.

ومن هنا فـإن الاختلاف في إطـار المبـادئ والقواعد الكـبرى يعـبرّ دائمـاً عن حيوية فكريـة، نحن في أمس الحاجة إليهـا. ولكن علينا دائماً أن نسعى إلى جعل الخلاف يقوم على أصول عقلية وشـرعية معتبرة ومعترف بها.

كما أن علينا أن نشـجع الحـوار والنقد المـؤطر والمحلى بـالأدب والخلق الإسـلامي الرفيـع، بعيـداً عن التجـريح والاتهـام ومحاسـبة الناس على نواياهم. ومن المهم في هذا السـياق أن نحـذر شـيئين: الجهل والظلم. كما أن من المهم كـذلك أن نفصل بين المعطيـات والأمنيات وألا نطلق العبارات الرنانة إذا كنا لا نملك من البراهين ما يوفر لها تغطية منطقية واستدلالية مقبولة. إن هذا يساعد مسـاعدة كبيرة على بنـاء جـدار المناعة الفكرية الـذي علينا جميعـاً أن ننهض لتشييده.

إن العقل في الرؤية الإسلامية عبارة عن قوة إدراكية عظمى، امتنّ بها البـارئ - جل ثنـاؤه- على بـني الإنسـان. ومع أنه يملك بفطرته مجموعة من المبادئ التي تساعده في إنجـاز بعض المهمـات إلا أنه يظل غـير قـادر على الاسـتقلال بنفسه في محاكمة الأشـياء ورسم طريق المستقبل، بل إنها نفسية يسـهل خـداعها، واستسـلامه أمـام الخبرة العريقة مشاهد وملحوظ.

إن العقل لا يستطيع من غير إرشاد من خارجه الوصـول إلى معرفة العلل الأولية ولا الغايات النهائية للوجود. وهو لا يملك محكّات جيـدة لتحديد المهم من غير المهم، ولا يستطيع الفـرز بين النـافع والضـار والخـير والشر وتحديد ما هو نـافع حـالاً ضـار مـآلاً في كثـير من الأحيان... وقد شبَّه بعض علمائنا القدامى العقل بوصفه آلة الإدراك بالعين بوصفها آلة الإبصار. وكما أن العين مهما كانت سليمة وجيـدة لا ترى الأشياء إلا إذا غمرها النور، فإن العقل لا يـرى الأشـياء إلا إذا

غمرتها المعرفـة، ولهـذا فرؤية المشـكلات تحتـاج إلى معرفـة، ولا مشـكلات بـدون معرفة كما أن لا حلـول لها أيضـاً من غـير علم. الأشياء لا تُرى إلا إذا وجدت العين ووجد النور، والأمور لا تدرك على النحو المطلـوب إلا إذا وجد العقل ووجد العلم. والمعرفة دائمـاً هي خبز الدماغ الذي يقتـات عليـه. ومن غـير ذلك الخـبز تنهـار عمليـات الـدماغ، وتنحط إلى المسـتوى الأدنى. وحين نفكر في مسـألة دينية محضة فإن المعرفة المطلوبة آنـذاك تكـون معرفة إيمانية شـرعية. وحين نفكر في مسـألة دنيويـة، فإننا نحتـاج بالإضـافة إلى ذلك إلى معرفة فنية مهنية متخصصة. وهذه الرؤيا للعقل والـتي تمت بلورتها قبل ما يزيد على عشرة قرون هي آخر ما توصل إليه العقل والعلم في العصر الحديث، حيث يجري اليوم تشبيه العقل البشـري بالعقل الإلكتروني أو الحاسب الآلي والذي قال فيه أحدهم إنه في آن واحد أذكى وأغـبى آلة اخترعها الإنسـان. وكما أن الحاسب الآلي لا يعمل من غير بـرامج نحمّلها عليـه؛ فـإن العقل البشـري لا يعمل من غـير معرفة جيدة نزوده بها.
وقد قال أحد المفكرين - بحق-: إن الـذكاء لا ينفع الـذين لا يملكـون سـواه شـيئاً. وكما أن الحاسب الآلي لا يسـتطيع إدخـال تحسـينات جوهرية على الـبرامج الـتي نـزوده بها ويشـتغل عليهـا، فـإن العقل البشـري كثـيراً ما يقف عـاجزاً عن القيـام بعمليـات نقدية شـاملة وعميقة للأصول والمعطيات التي نـزوده بها ولهـذا شـرح طويـل، لا يتسع المقام لبسطه.
وقد وقع الخلل لـــــــــــدينا في طبيعة الموقف من العقل من قبل طـــائفتين كبـــيرتين : طائفة وثقت بالعقل وثوقـــاً مطلقـــاً، فحملته مســـؤوليات، لا يســـتطيع القيـــام بهـــا، ووصل الوثـــوق إلى درجة الإعراض عن هدي الشريعة الغراء في بعض الأحيان وكـانت النتيجة هي استناد العقل إلى معارف واجتهـادات وخـبرات بشـرية متراكمة وإلى العـادات والتقاليد والمألوفـات السـائدة. ولا يمكن لهـذه وتلك أن تـؤمَّن للعقل حاجاته الأساسـية من المبـادئ الكـبرى والمعـارف الصُّلبة والحكمة البالغة والرؤى الشاملة.
أما الطائفة الثانية فإنها استهانت بدور العقـل، وبخسـته حقـه، حيث ظنت أنها من خلال معرفتها بالمنهج الرباني الأقـوم - تسـتطيع فهم الواقع الموضوعي وتطويره والاستجابة لمتطلباته وابتلاءاتــه.وهي لا تدرك - في غالب الظن- الفارق الجوهري بين المنهج الربـاني وفقه الحركة به، وهو فقه يعتمد أساساً على تشغيل العقل بطريقة جيدة

وعلى النفاذ إلى الاطلاع على القوى الأساسـية الـتي تشـكل الواقع وتـدفع به في اتجـاه دون اتجـاه. كما أن هـذه الطائفة ربما كـانت لا تدرك أن المبادئ والأحكام التي تشـكل رؤيتنا الشـرعية والحضـارية للحياة، لا تعمل في فراغ وإنما تحتـاج إلى بيئة وشـروط موضـوعية محددة. وتأمين تلك البيئة وهـذه الشـروط من مهامنا نحن، وليست من مهام المنهج الرباني.
بالعقل الذكي المسلح بالمنهج وبالخبرة والمعرفة الممتازة نستطيع توظيف المنهج وتوفير الأدوات التي تمكنه من ترشيد حركة الحياة.
في المحصلة النهائية لموقف الطائفتين وإن اختلفت على المستوى الشـــرعي والأخلاقي لكنها على المســتوى العملي متقاربـــة، وهي وجـود الانفصـام النكد بين أمـور الـدنيا وأمـور الـدين، وبين الرؤية النظرية والواقع العملي على ما هو مشـــــاهد في معظم أصـــــقاع عالمنا الإســلامي . وفي حالة كهــذه يكــون الحــديث عن المناعة الفكرية ضرباً من التفاؤل غير المسوَّغ، حيث لا تحصل الأفكار على الصـلابة المرجـوة إلا من خلال تـوازن عميق ودقيق بين المعقـول وبين المنهج وآليات تطبيقه وتوظيفه .
(2)
إن كثيراً من القضايا التي تشغل المفكرين المسـلمين اليـوم تتصل على نحوٍ ما بالواقع الذي تعيشه أمّة الإسلام. وهم يعملون على نحو أساســيّ في إيجــاد حلــول للمشــكلات السياســيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة من أفق ثوابت الإسـلام ومبادئه الكـبرى، وإنّ أولئك المفكـرين لن ينجحـوا في مسـاعيهم النجـاح المنشـود إلا إذا استطاعوا إيجاد تيـار شـعبيّ يتجـاوب مع طروحـاتهم، ويشـارك في علميات التغيير والإصلاح التي يقومون ببلورتها ورسم حدودها. وهذا في الحقيقة يتطلب -فيما يتطلب- أمرين أساسين:
الأول: أن يتمكن المفكّــرون المســلمون من إبــراز أفضل وأوضح صورة ممكنة للواقع الذي يريدون معالجته، تماماً كما يفعل الطّبيب قبل أن يصف أيّ دواء. وإنّ بعض الأمــراض يســتغرق شــهوراً من هيئة طبية متخصصة حــتى يتمّ تشخيصه وتحديــده على نحو جيّــد. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبــــار أن تشــــخيص الــــدّاء الأخلاقيّ أو الاجتماعيّ... هو أصعب -بما لا يقارن- من تشخيص الدّاء الجسـديّ. وذلك يعود إلى أنّ أيّ توصيف لوضعيّة اجتماعيّة أو أخلاقيّـة... يعتمد أساساً على التعريف لتلك الوضعيّة. والتعريفات في الشأن الإنسانّ تعـاني دائمـاً من القصـور الـذاتّي، وتعـاني من الانتقائيّة والنسـبيّة

والغمـوض. ومع هـذا فإنّنا حين نتعامل مع مشـكلاتنا بعقل مفتـوح وبمرونة ذهنيّة جيـدة؛ فإنه يمكن الاسـتدراك والتلافي لكثـير من النقص في عمليات التّشخيص والتقويم.

الأمر الثاني: يتجسّد في بلـورة خطـاب يمكن وصـفه بأنه من قبيل السّـهل الممتنـع. خطـاب يصـور الواقع بعمق الفكـرة وبسـاطة الأسـلوب. وعمق الفكـرة يـأتي من الفهم العميق والشّـامل لـذلك الواقـع. وتـأتي بسـاطة الأسـلوب من فهم مسـتويات المخـاطبين، وخلفيـاتهم الثّقافيـة، ومن المهـارة في تطويع الكلمـات والـدلالات، وسوقها على نحو يلامس المفاهيم السائدة في أذهان المُخَاطبين.

إن من الصّـعب في أجـواء شـديدة العمليّة وشـديدة المصـلحيّة - المحافظة على مناعة تفكيرنا إذا لم نُثْبِت أنّنا نملك الأفكـار والطّروحات والبدائل التي تخفف من وطأة المشكلات الـتي يعـاني منها النـاس، وإذا لم نُثبت أنّ الأفكـار الـتي نقـدّمها لا تجـافي روح العصر إلى حدّ بعيد، أو قل لا تتجاهل تشـوّقات النـاس وطموحـاتهم على نحو كامـل. وإنما أقـول هـذا الكلام لأنّ النـاس - ولو كـانوا ملتزمين- إذا لم يجدوا لدينا ما يحسَّن مسـتوى عيشـهم وأوضـاعهم الأدبيّة والماديّة؛ فإنهم سوف يلتمسون ذلك لدى الآخـرين، وسـوف يدفعنا ذلك -بالتالي- إلى تقديم تنازلات غير مؤصـلة وغـير منضـبطة بضوابط الشريعة. وإني ألمح شيئاً من هذا يجري اليوم في عدد من المجالات!

الإبداع في الحلول، وعدم تـرك المشـكلات تـتراكم، والشّـجاعة في تقـديم البـدائل.. شـروط أساسـيّة لإبقـاء أنظـار الجمـاهير متعلقة بالرُّؤية الإسـلاميّة للإصـلاح، ومتعلقة بمن يقـدمون تلك الرؤية من مفكرين وعلماء ومصلحين.

هـذا يتطلب أول ما يتطلب فهْم الواقع الـذي نريد علاجـه؛ فأحكـام الإسـلام وآدابه ومراميه الحضـاريّة ورُؤاه الإصـلاحية موجـودة في عقولنا ومكتباتنا، تماماً مثل الألوف من أنـواع الأدوية الموجـودة في (الصيدليات) ومخازن الأدوية. والطّبيب الماهر هو الذي يأمر بإخراج دواء من تلك المخازن دون دواء بحسب رؤيته لداء مريضه.

إنّ كثـيرين منا - ولا سـيّما الشـباب- يسـارعون إلى الإدّعـاء بفهم الواقع والإحاطة بـه، مع أنهم لم يبـذلوا أيّ جهد متمـيز في فهمه ومقاربته، ولا يُعرف لهم أيّ اختصاص دقيق في معالجة شؤونه!

إن الواقع أشـبه بمـادة هُلاميّة فهو شـديد الطّواعية والقابليّة للتّشكيل؛ لكن تلك الطواعية خادعة؛ فهو يطاوعنا حتى نظنّ أنّنا قد

سـيطرنا عليه سـيطرة تامـة؛ وهو في حقيقة الأمر محتفظ بطبيعته الخاصـة، تمامـاً كما تفعل ذلك المـواد الهلاميّـة. إنّ الواقع العـام يحتفظ بقدرته على البقـاء في حيّز الغمـوض والتعقيد والتشـابك والتّـداخل، إنه أشـبه بـأخطبوط له ألف رأس وألف رجل وألف يـد. وتكـون ثمـرة كل ذلك القابليّة للقـراءات والتـأويلات والتفسـيرات المختلفة. ومن هنا تـأتي صـعوبة التعامل معـه. وتسـتطيع أن تـدرك ذلك بسهولة إذا سألت خمسة من الـدّعاة أو العلمـاء أو المصـلحين أو المفكرين - توصيف وضـعيّة معينة في أحد المجتمعـات أو إحـدى البيئات الإسلاميّة، كالالتزام أو العدل أو العفة أو الحرية....

وأنا لا أريد من وراء هـذا الكلام سـوى شـيء واحد هو إدراك حجم المهمات التي نُقْدم عليها؛ فلا نتهاون ولا نتعسف ولا نتعجَّل.

إذا صحَّ هذا التحليل وهـذا التنظـير؛ فـإن السـؤال الـذي يقفز أمامنا هـو: ما الأدوات وما المنـاهج الـتي يجب أن نسـتخدمها حـتى نحصل على صور مقاربة لحقيقة الأوضاع التي نريد معالجتها؟

في تصوُّري أنّ أيّ جواب سأقدّمه عن هذا التساؤل سيكون قاصراً؛ لأنّ النّظام اللغويّ الذي نستخدمه في تصوير ما نريد تصويره يظـلّ دائمـاً في حالة من القصـور الـذاتّي؛ إنه ناقل غـير جيّد وغـير كُفء. فـإذا أضـفنا إلى ذلك أن تصـوري عن المنـاهج والأدوات الـتي يجب اسـتخدامها في اجـتراح ذلك الواقع هو الآخر غـير تـام وغـير واضح وغـير دقيق - فإنك سـتدرك كم يحتـاج جـوابي إلى تكميل وإلى نقد وتمحيص. لكن لا بد أن نقول ما توصّلنا إليه، وسنعتبر ذلك أفضل ما هو ممكن إلى أن يتوفر لدينا ما هو أفضل منه.

1- نحن نحتـاج في بداية الأمر إلى تعريف ما نريد معرفتـه، فـإذا كنا نريد أن نُعَـرَّف سـوية الالـتزام في مجتمع من المجتمعـات - مثلاً-؛ فإن علينا أن نُعرَّف الالتزام وأن نذكر مقصودنا من هذه الكلمـة. إنّ الذي ضاع منه ولده في إحدى الأسـواق الكـبرى، ويطلب مسـاعدة الناس على العثور عليه في حاجة -كي يستطيعوا مساعدته- إلى أن يذكر لهم اسمه وحِلْيته من لون وطول وشكل، وأن يـذكر لهم لـون ونوع الثّياب...؛ وإلا فإنهم قد لا يستطيعون تقديم أي خدمة له.

ونحن بسبب الطريقة التي تعلمنا بها في المدارس والجامعات - قد أدمنَّا الحلول السَّهْلة؛ ولذا فإننا لا نملك رصـيداً ذا قيمة على صـعيد التّعريفات والمصـطلحات؛ لأنّ الوصـول إلى تعريف أو توصـيف جيد ليس بالأمر اليسير، ويمكن القـول: إنّ التّوصـيف الجيّد لأيّ مشـكلة

يشكّل نصف الحلّ المطلوب. ويتمثل النّصف الثّاني في العثور على العلاج الملائم.
سيكون من المفيد جداً أن نبدأ في كل جلسة حوار أو جلسة تفكـير وعصف أو إمطـــار ذهنّي وفي كل معالجة لقضـــية شـــائكة- بـــذكر التّعريف لما نريد بحثه وتحديد معـــــاني المصـــــطلحات الــــــتي سنســـتخدمها أثنـــاء البحث. وعنـــدما نتخذ من هـــذا تقليـــداً ثقافيًّا فسيتَّضح لنا شيئان مهمان:
الأول: صـعوبة وضع التّعريفـات وصـعوبة الحصـول على توصـيفات جيّدة.
أما الثّاني فهو: عظم الفائدة التي سنحصل عليها من وراء ذلك.
وللحديث صلة..
ومن الله - تعالى- الحوْل والطَّوْل..
(3)
ذكــرت في المقــال الســابق أن أول خطــوة علينا أن نخطوها على صــــعيد فهم الواقع والإلمــــام بـــــه، تتمثل في تحديد التعريفـــــات والمصطلحات بوصف ذلك الركـيزة الأساسـيّة لكل ما سـيأتي بعـده من جهد على هــذا الصّــعيد. ولعلي أتــابع في هــذا المقــال بــاقي الخُطوات في هذا الشأن.
أعتقد أن علينا بعد التعريف الجيد للمسألة التي نريد فهمها أن نقوم بتفتيتها إلى أصغر وحدات ممكنة. والحقيقة أن هذا الأســلوب هو ما اتبّعه العالم على مدار التاريخ في التعامل مع الكثير من المعطيات. المعرفة البشـريّة - مثلاً- كـانت واحـدة، ونظـراً لضـخامتها وصـعوبة تعامل العقل البشريّ معها؛ فإنّه تمَّ تقسـيمها إلى علـوم متباينة من أجل أفضل اسـتيعاب لهـا. إذا أردنا فهم أو (تقـييم) الوضع الـتربوي في بلد من البلدان - مثلاً- فإن علينا أن نقوم بالآتي:
1- فصْـــل وضع التربية في الأسر عن وضع التربية في المـــدارس، وعن وضع التربية في الأُطُر الخاصة مثل الجماعـــــات الإســـلاميّة. وعليك أن تقـــوم باستقصـــاء منهجي داخل كل قطـــاع من هـــذه القطاعات لفهم الأداء التربوي فيها على أفضل وجه ممكن.
2- في المـدارس لا بد في سـبيل العلاج وفي سـبيل (التقـييم) قبل ذلك من القيـــام بعملية تفـــتيت للقـــوى والأدوات المســـتخدمة في التربية والتعليم؛ فيتمّ النظر في كـــلٍّ منها على حـــدة. إن حُسْـــنَ التربية في مدرسة من المـدارس لا يـأتي من الكتب المقـررة؛ لأنها موحدَّة على مستوى البلاد في غالب الأمر. ولذا فإن الجودة فيها قد

تأتي بسبب تفوق إدارتها، أو الهيئة التدريسيّة، أو الأنشطة اللاصفيّة، أو بسـبب حُسْـن اختيـار الطلاب ووضع شـروط لقبـولهم لا تضـعها مـدارس أخـرى. وقد يكـون بسـبب البيئة السـكانية للمدرسـة. وقد يكون تفوق تلك المدرسة بسـبب جـودة مبانيها وتجهيزاتها المعمليّة والمخبريّة... وقد يكون بسـبب حسن كل ذلـك. ويمكن القيـام على صعيد التفتيت بنحو ذلك في المجال الأسريّ وفي المجالات التربويّة الأخرى.

من غـير هـذا التفـتيت لن نسـتطيع معرفة أسـباب حسن أو سـوء التربية في أي مدرسة من المـــــدارس. وعلينا أن نلاحظ أننا هنا لا نمـارس إصـدار الأحكـام على كل مـدارس الدولة ولا المنطقة ولا المدينة. فإذا أردنا شيئًا من ذلك فإن علينا -بعد فهم واقع المـدارس في منطقة- أنْ نقوم بعملية حسـابيّة من أجل التوصل إلى المعـدل الوسطي لحال التربية المدرسيّة في تلك المنطقـة؛ حيث يمكن من خلال الـــدرجات الــتي تمنحها كل مدرسة أن نقــول: إن 80% من مدارس تلك المنطقة ممتازة أو جيدة أو سيئة. ومن غير القيام بهذا فإن أحكامنا ستكون تقديرية وجزافية إلى حد بعيـد. ومن هنا نـدرك كم تكـــون درجة تعميمنا عالية وكبـــيرة حين نقــول: إنّ التعليم في العالم الإسـلاميّ هو أسـوأ تعليم في العـالم أو هو أحسن تعليم في العالم أو ... وبسـبب هـذا التعميم تُتِيح دائمـاً مجـالاً للفهم المتعـدّد وللتأويل الخاطئ والحكم البعيد عن الصّواب. إنّ تجزئة أية مشـكلة إلى أصغر وحدات ممكنة يُعَدُّ خطوة أساسيّة ضمن خطـوات البحث المنهجي الموثـوق. البحث المنهجي مكلف جـداً وشـاقّ جـداً. وفي العــالم اليــوم عشــرات الألــوف من مراكز البحث الــتربوي، وكلها يهدف إلى فهم الواقع التربوي على حقيقته، ثم العثور على وســائل لإصلاحه. ونستطيع أنْ نقول بناءً على هذا: إنّ الدول التي لا تملك - وكــذلك الجماعــات والمؤسســات- مراكز بحــوث تربويّة جيّــدة، لا تستطيع التعرف على واقعها التربويّ على النحو المطلوب.

3- بما أنّه ليس هناك تفوق تربويّ مطلق ولا تخلف تربــويّ مطلــق، بمعنى أنه ليس هناك مؤسسة تربويّة كاملة ولا مؤسسة تربويّة كلّها عيوب وسيئات- فـإن علينا في سـبيل رؤية عقلانيّة لواقع المـدارس أن نستخدم (المقارنــة) أداة لمعرفة ما عنــدنا. وقد يكــون أفضل ما نُجـري فيه المقارنة هو مسـتوى الخـريجين. وفي اعتقـادي أن على كل دولة إسلاميّة أن تبلور معايير دقيقة وممتازة لمعرفة مســتويات الخريجين لديها. وعلى مستوى الأمة وعلى مستوى العــالم يجب أنْ

تكــون هنــاك مقارنــات تتعــرف من خلالها كل دولة على ســويّة مُخْرَجـات التعليم لـديها. وأذكر في هـذا السـياق أنّه أقيم امتحـان عــــالميّ منذ بضع ســــنوات لطلاب الصف الثـــــاني في المرحلة المتوسـطة في مـادّتي الرياضـيات والعلـوم. وقد شـارك في ذلك الامتحـان طلبة مختـارون بعناية من أربعين دولـة. ولم يشـارك في ذلك المـؤتمر من العـالم الإسـلاميّ سـوى إيـران والكـويت. وكـان ترتيب طلابهما قريباً من المـؤخرة أي بعد السادسة والثلاثين - فيما أذكــر- وهــذا يعطي مؤشــراً غــير حاسم لوضع تعليم الرياضــيات والعلوم لدى نموذجين في بلدين مسلمين!

ولا أريد هنا أنْ أشـعَّب البحث أكـثر فـأكثر فيما تتم فيه المقارنــة؛ فذاك حديث طويل وشـائك؛ لكن وجـود مراكز أبحـاث تربوية جيـدة لتذلل الكثير من الصعوبات.

يمكن لهذه المنهجيّة في التفـتيت أنْ تُـؤتي ثمارها في أي مجـال أو جـزء من الواقع الـذي نـود التعـرف عليـه. وعلينا ألا ننسى في كل مرحلة أننا لن نخـرج من وراء كل ذلك إلا بنتـائج ظنية تقديريـة؛ لأنّ كل أدوات البحث وكل مفـردات منهجيّته لا تتمتع بالصّـلابة الكافيـة، لكن مع هــذا نرضى بما نحصل عليه من ذلك بوصــفه مســاعداً لنا على اتخاذ القرار الراشد.

من الأدوات الأساسية في اكتشاف الواقع (الإحصاء) والاعتمـاد على الأرقــام. والحقيقة أن دلالة الأرقــام تتمتع ببلاغة عالية جــدًا . وهــذا يعود -أساسًا- إلى أنّ البنية العقليّة للإنسان تتعامل بكفاءة جيدة مع كل ما هو من قبيل (الكم) كما أنها ترتبك إرتباكــاً شــديداً مع كل ما هو من قبيل (الكيْف). وقد قال أحدهم : "أعطني رقمًا أعطِك كتابًا" فــالرقم حين يقع في يد خبــير يشــكل بالنســبة إليه محــورًا هامًّا لاسـتدعاء الكثـير من المعطيـات والـدلالات والتحليلات. حين نقـول لاقتصاديّ - مثلاً- ماذا تفهم من قولنا: إنّ دخل الفرد في أفغانسـتان لا يتجـاوز خمسـمائة دولار في السـنة؟ وذلك الاقتصـادي يعـرف أنّ دخل الفرد في سويسرا يتجـاوز (37) ألف دولار، وفي فرنسا (22) ألف دولار، وفي إســـــرائيل (18) ألف دولار . إنّه يســـــتطيع أنْ يستشــفّ وجــود إدارة سـيئة للمــوارد، ووجــود جهل وأميّة وكسل وفوضى لدى الناس هناك. كما يستطيع أنْ يستشفّ وجود سرقات، ومتاجرة بالممنوعات، وأمورًا سيئة أخرى؛ لأن كل هـذا وذاك يكـون عادة من ضمن أسباب الفقر أو لوازمه أو نتائجه.

في حديث في صحيح مسلم ورد قوله – صلى الله عليه وسـلم- : " أحصـوا لي من يلفظ الإسـلام" أي اعرفـوا عـدد من يلفظ بكلمة الإسلام وهي الشهادة. وكـان جـواب بعض الصحابة: "أتخـاف علينا ونحن ما بين الستمئة إلى السبعمئة". إنّ هذا الطلب منه صلى الله عليه وسلم ينطوي على إشارة هامّة علينا أن نلتقطها بذكاء ووعي.

أمريكا أول دولة في العالم على مستوى توفر الأرقام والإحصاءات. وهـذه الوضـعية أدت إلى حضـورها المتمـيز في كل الدراسـات العالميـة، حيث إن البـاحثين يحتـاجون إلى أرقـام تسـاعدهم في عملهم، وهم كثـيراً ما يجـدون بُغيتهم لـدى الأمريكـيين. في العـالم المتخلف ليس هنـاك أرقـام كافيـة، حيث يكـون الغمـوضُ والإبهـام وسيلةً جيدة لستر الفضائح! والأرقـام المتـوفرة كثـيراً ما تفتقر إلى الدقة والمصداقية. وفي تصوري أن على كل مؤسسة إسلامية مهما كـان حجمها ومهما كـان شـأنها أن تحـاول القيـام بمسح دقيق لأوضاعها وأنشطتها وحاجاتها وميادين عملها حتى تسـتطيع أن تـوفر شرطاً هامّا لتفوقها واطّراد تقدمها.

ولا بـدّ لي من الإشـارة هنا إلى أن الأرقـام – ربما بسـبب أهمتها وحساسيتها- كثيراً ما تتعـرض للـتزوير والـتزييف والمتـاجرة. وعلينا أنْ نكون على وعي من ذلك.

لدينا ملايين الشباب المسلم العاطل عن العمـل، وملايين بل مئـات الملايين من الناس الـذين لا يجـدون عملاً نافعـاً يملـؤون به أوقـات فراغهم. لماذا لا يقوم هؤلاء بتشـكيل دوائر تطوّعيّة بسـيطة لإجـراء مسوحات واستطلاعات للواقع المسلم في بيئتهم الخاصّـة من أجل توفير الأرقام الضروريّة لفهم أوضاعنا وإصلاحها؟!

إني لآمل أنْ ندرك -قبل فـوات الأوان - أنّ هنـاك ضـرورات منهجيّة وبحثيّة تجب مراعاتها بكل شـــفافية إذا ما أردنا - فعلاً - أنْ نعيش عصرنا بكرامة وكفاءة. وإنّ عمل شيء ما في الاتجاه الصـحيح أنفع لنا وللأمة من التّفـرغ للتّشـكي وتوزيع الاتهامـات ولَطْم الخـدود وإطلاق الأُمنيات. وقد قـال شـيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- : إنّ بعض المسـلمين يشـكو وينـوح كما تنـوح الثّكلى إذا رأَوْا تغيّر أحـوال المسـلمين وما هم فيه من كَـرْب. وذلك مَنْهيٌّ عنـه. وإنّ الـواجب على المسـلم أنْ يصـبر ويحتسب ويعمل ويتّكل على الله تعالى.

وللحديث صلة

(4)

الفِكر الإســلاميّ فكر في حالة من التشــكّل الــدائم والصّــيرورة المستمرّة، وهو في تشكّله يتـأثّر بـالواقع ومتطلباتـه، ويتـأثر كـذلك ببعض ما لــدى التّيــارات والوضــعيّات الأخــرى. وهــذا يجعل حركة تطـوّره أسـرع من حركة تطـوّر الفقه وحركة تطـوّر الفتـوى أيضـاً. وهــذا الفكر حــتى يحافظ على مناعته وصــلابته وتميّــزه واســتمرار نمــوه- مطــالب إلى جـانب فهم الواقــع- كما ذكـرت في المقــالين السابقين – بفهم متطلبات الحركة الاجتماعيّة، والتي كثيرًا ما تنبعث من عمق الطبيعة البشريّة، ومن عمق الثّقافة الســائدة اليــوم، فهم متطلبات هذه الحركة يقتضي الانفتاح عليها. وهذا الانفتـاح هو نفسه الذي يطور رُؤانا و طروحاتنا الإصلاحيّة؛ إذْ طالما كـان الانفتـاح على الواقع وتلمس تداعياته وإحالاته مصــدرًا لكل تطــور وتطــوير. وإذا عَجَزنا عن فهم متطلبات تلك الحركة، وعَجَزنا عن الاستجابة لها في صــورة مبــادرات تنمويّة وخدميّــة، فإننا ســنجد أنفســنا نُــدفَع نحو الهـامش شـيئًا فشـيئًا مهما ملكنا من الأصـوات الجهوريّة المدوّيـة، ومهما ملكنا من مواقع الهيمنة الثقافيّة ومن أدوات التأثير والإقناع.
فما الذي علينا أنْ ندركه على هذا الصعيد؟ وما الذي علينا أنْ نعمله أو نساعد على عمله؟
إنّ ما علينا في هذا الشأن كثـير وكثـير جـدًا، لكن لعلّي أُلقي ضـوْءًا خاطفًا على شيء منه عبر المفردات الثلاث الآتية:
-طبائع الناس ثابتة، فأشواقهم وطموحـاتهم وما يرتـاحون إليـه، وما يُشعرهم بالأذى، وما يرجونه، ويخشونه ... كل ذلك ثـابت ومسـتمر، لأنّه متصل بـالفِطرة الـتي فطـرهم الخـالق –جل وعلا- عليهـا؛ لكنَّ وعي النــاس ليس ثابتــاً، إنّه متحــرّك ومتقلّب، وهو كثـيراً ما يكـون صدًى لمصالحهم ورَغَباتهم، إلى جانب حاجـاتهم الروحيّة والجســديّة والمعيشيّة.
وإحساس الناس بالثوابت أو بالحدود -والـتي يجب أنْ تتوقف عنـدها طموحــاتهم وســلوكاتهم - ضـعيف وأحيانًا معـدوم. ومن الواضح أنّنا كلما مضيْنا خُطـوة إضـافية إلى الأمـام في ميـادين الحضـارة، ازداد وعينا تفتّحًا على مصــالحنا، وصــار حرصــنا عليها أشــد. وفي ظل الافتقار الروحيّ والأدبيّ الذي تمارسه العلومة صار الناس يشعرون -كما لم يحـدث لهم في أي وقت مضـى- أنّ مصـالحهم تتجسّـد في المزيد من فــرص العمل والتملّــك، والرفاهيــة، وراحة الأبــدان، والصّــعود الاجتمــاعيّ والبحبوحة الماليّــة... وحين تترسّــخ هــذه

الوضعيّة، وتقـوى جـذورها فـإنّ الفـوارق بين أهل التـدين والالـتزام وبين غيرهم في هذه الأمور لا تزداد مع الأيام إلا تضاؤلاً وانكماشًا.
ما الذي يعنيه كل هذا للمناعة الفكريّة؟
إنّ من شأن المفكر والمصـلح أنْ يحتفظ بمسـافة فاصـلة بينه وبين الناس الذين يوجههم، ويسـعى إلى مسـاعدتهم. وفي تلك المسـافة تتبدّى صلابة المنهج الذي نؤمن به، فنسـعى جاهـدين إلى ردّ النـاس إليه وإلى الجـادّة الصّـحيحة. ويتجلى فيها أيضـاً الفهم الـدّقيق لِعِلَل المجتمع، فيتصرف كما يتصرف الطبيب الخبير الناصح، والرحيم في تقديم الدّواء الناجع بأرفق أسلوب ممكن.
في تلك المســـاحة تظهر لباقتنا وحسن سياســـتنا وقيادتنا وحسن مجادلتنا ومداراتنا. إنّنا نخطو نحو الناس خُطُوات حـتى نجـذبهم إلينا خُطوة.
في تلك المســــافة تظهر المرونة الذهنيّة لــــدينا، ويظهر ترتيبنا للأولويّــات، وفهمنا العميق لطبيعة المطــالب والحاجــات الــتي لا تسـتقيم الحيـاة العامة من غيرهـا، ويـأتي على رأس تلك المطـالب صيانة حقوق الناس وكرامتهم إلى جانب مناصرة الضعيف والوقوف إلى جانبه حـتى يسـترد حقـه. كلّنا يـذكر الاختراقـات الـتي حقّقها المذهب الاشتراكي وفرح كثير من الجمـاهير به أملاً في أنْ يحسَّـن أحوالهم الاقتصاديّة، وأوضـاعهم القانونيّة والسياسـيّة، وحين وجـدوا أنّ الدّعاوى أكـبر من الحقيقة بل ضـدّ الحقيقة المتحصّـلة في كثـير من الأحيان انفضّوا عنه، وثاروا عليه.
2- يحتاج الناس حاجة ماسَّة إلى من يساعدهم على تحقيق التوازن في حيـاتهم الشخصـيّة. إنه يُهيَّأ لي في بعض الأحيـان أنّ التطـرّف والميل عن القصد والاعتــدال، إنما هو شـــيء متوضع في الـــتراث الجيني للبشريّة.
إنّنا نرى فعلاً الكثير من أنشطتنا ومواقفنا وتوجهاتنا قائمًا على ردود الأفعـال أكـثر من قيامه على رُؤية شـاملة ومتوازنــة. إنّ مســايرة الناس في كل ما يتجهون إليه، يُعَدُّ خطأ فادحًـا، ولا يليق أبـدًا بقـادة الفكر والإصـلاح أنْ يتحركـوا وفق رمزيّة (ما يطلبه المسـتمعون أو المشاهدون). إنّ المنهج الربـانّي الـذي أكرمنا الله – تعـالى – به قد ملّكنا الدّليل الذي يرشدنا إلى الوضعيّة الصّحيحة والآمنة. وإنّ الذين يجهرون اليوم بتحقيق رغبات الجماهير – دون تميـيز- يخونـون أمانة الرّيادة العلميّة والاجتماعيّة ويجرّون الجماهير الغافلة إلى حتفها!

في الناس اليوم سعي حثيث للحصول على المكاسب الماديّة، وهذا شــيء لا يُســبّب مشــكلة في الأصــل، لكنه حين يتمّ على حســاب الأنشطة الروحيّة والأدبيّة والإنســانيّة، فإنّه يرمز إلى خَلَل في حيــاة الأمّة. وألمس في كثـير من المثقفين اليـوم حرصًـا منقطـعَ النظـير على التقدّم العقلي وعلى النجاح في الأعمال الدنيويّة، وهـذا شـيء جيّد لولا أنّه يصاحب إهمالاً للفلاح والطّيبة والصّفاء والتألّق الخُلُقي. وفي الناس اليوم اهتمـام واسع النطـاق بالعاجل والمباشر وإهمـال للآجل مما جعل قِصَرَ النظر أحدَ أهمّ الأدْواء التي نُعاني منها. وصرنا عبارة عن مجتمعات لا تعرف ما تريد، ولا تمدّ قرون الاستشعار في جوف المستقبل على نحو ما هو مطلـوب، وعلى نحو ما هو موجـود لدى الآخرين!

وهنـاك أمـور أخـرى من هـذا القبيـل. وإنّ من واجبنا أنْ نطلق من الأفكار والمفاهيم والأدبيّات وصيحات التحذير ما يساعد الناس على استعادة التوازن والاعتدال في هـذه المسـائل وغيرهـا؛ بوصف ذلك خطًّا متّصلاً يجب التزامه والمحافظة عليه في كل الأحوال.

3- إنّ زماننا هـذا هو زمـان البغْي وتجـاوُز الحـدود. وهـذا مفهـوم، فألصــقُ شــيء بــالقوّة هو الطّغيــان. ونحن نعيش اليــوم في عصر القوّة.

يقـول الله – جل وعلا- : (كلا إنّ الإنســانَ ليطغى أنْ رآه اســتغنى) [العلق: 7.6]، ويقـول- سـبحانه- : (ولو بسـطَ اللـهُ الـرّزقَ لعبـاده لبغَوْا في الأرض)[الشورى:27] .

إنّ النـاس بما فطـرهم الله عليه من حب البقـاء يسـعَوْن دائمًا إلى التمـدّد، ويميلـون إلى التغـوّل. وكثـيراً ما تُهـزم المبـادئ الواضـحة والراسخة أمام هذه الغريزة؛ وقد قال عليه الصـلاة والسـلام : " لو كـان لابن آدم واديـان من ذهب لأحبّ أنْ يكـون له ثـالث". ومن هنا فإنّ مستلزمات المناعة الفكريّة أنْ ننتج المفـاهيم والأفكـار والنظم التي تمنع تمدّد ذوي القوة: قوّة المال، وقوّة الجاه، والسلطة، وقوّة العلم، والجســم... إنّنا لا نســيء الظّن بالنــاس، ولكنّ أمــور الأمم- أيضًــا- لا تُبـنى عل حسن الظنّ، وإنما تُبـنى على مُعْطَيـات ملموسة ومنظّمة، ويمكن الاحتكام إليها. ونحن في العالم النّامي نُعاني أكــثر من غيرنا من القهر والإذلال وغَمْط الحقــوق. وذلك لا يعــود إلى أنّ التربية الســـائدة لـــدى الأمم المتقدمة أفضل من التربية الســـائدة لــدينا، وإنما يعــود على نحو جــوهري إلى أنّ من تــدعوه نفسه إلى البَغْي هنـــاك يواجَه بحـــواجز وســـدود منيعة من النظم والقـــوانين

والأعراف والمؤسّسات الـتي توقفه عند حـده، وتُوقع به العقوبة إذا تجاوز ذلك أو احتال عليه.
إنّ التّنمية الجيــدة مشــروطة دائمــاً بســيادة الأمن، والاســتقرار، واحترام النظم، ووقوف كل واحد من النـاس عند الحـدّ الـذي يجب أن يقف عنده.
ولن يستطيع أيُّ فكر مهما كان لونـه، وعمقـه، ورسـوخه أنْ يصـمد لعاديـات الزمـان وتقلّبـات الأحـوال، إذا لم يأخذ هـذه الأمـور الـتي أشرت إليها، وما يشبهها بعين الاعتبار.
والله ولي التوفيق
(5)
قِيمة ما لـدينا من طروحـات وأفكـار إصـلاحيّة لا تنبع من جوهريّة ما نقدّم وصوابه وشفافيّته فحسب؛ وإنّما لا بـدّ - إلى جـانب ذلـك- من كونه ملائمًا للمسـتجدّات الحضـاريّة وللمشـكلات الـتي يعـاني منها النـاس، بالإضـافة إلى تناغمه مع الأشـواق والتطلّعـات الـتي تحملها الأجيال الجديدة نحو المسـتقبل. وإنّ علينا أنْ نـدرك هـذه المسـألة بسـرعة كبـيرة وعلى نحو جيـد؛ لأنّ المناعة الفكريّة الـتي ننشـدها ونحرص على التمتّع بها لن تتوفر من الآن فصاعدًا إلا من خلال فتح العين جيدًا على هذه المسائل.
كنّا في الماضي نفهم الحصــانة الفكريّة على أنّها المحافظة على ما لدينا، وإغلاق كل المنافذ والأبواب التي قد يـدخل منها ما يخـالف أو يعكّر ما نعتقد أنّه أثمن شيء لـدينا، وهو مبادئنا وأصـولنا. وهـذا في أساسه ليس خطـأ؛ لكن كثـيرًا ما كنّا نتوسّـع في هـذا الشـأن حـتى طـــال الحجْر والمنع النقد للفرعيّـــات والخلافيّـــات والسياســيّات والاجتهادات، وصار هنـاك في السـاحة الإسـلاميّة نـوع من المزايـدة في هذا الشأن، فكلّما مال المرء إلى التشدّد مع المخالفين دلّ ذلك على غيرته وصلابة دينه، وزاد -مع ذلك- الوثوق به والرّجوع إليه. إنّ الثوابت يجب أنْ تظلّ مصونة وواضحة، ويجب أنْ نتخذ منها محــاور للتربية الاجتماعيّـــة. أمّا ما هو من قبيل الاجتهـــاد، وما هو من قبيل الخــبرة البشــريّة في تنظيم الحيـاة وإدارة المشـكلات، وما هو من قبيل الأســاليب والأدوات ... فينبغي أنْ يتعــرض (باســتمرار) للنّقد والمراجعة والغربلة؛ وإلا وجدنا أنفسنا ندفع نحو الهامش باسـتمرار.
إني أتطلّع إلى اليوم الذي نلمس فيه إحساسًـا جديـدًا وقويًّا بقصـور اجتهاداتنا ورؤانا وتنظيراتنا وتنظيماتنا ومبادراتنـــــا... كما أتطلّع إلى اليوم الذي نجد فيه في تنظيم كلّ هيئة أو مؤسّسة شيئًا يتحدّث عن

طريقة مراجعة تلك الهيئة، وطريقة نقدها وتطويرها وتنميتهـا... كما أتطلّع إلى اليوم الذي نتعوّد فيه - معاشر الكتّـاب، ومعاشر الـدّعاة، ومعاشر المصلحين، والتربويّين- نتعـوّد فيه الإعلانَ عن النّقـاط غـير الواضحة وعن الأفكار غـير النّاضجة وغـير المختمـرة، وعن الخطط غير المكتملة التي نقدمها ونضعها بين يدي الناس, وهــذا ليس كرمًا ذاتيًّا نفخر بـــه، وإنّما هو شـــيء تفرضه طبـــائع الأشـــياء، ويفرضه الحـرص على مقاومة التكلّس والتحجّر ثم الانهيـار. إنّ جـزءًا أصـيلاً في كل طــرح، وفي كل نظــام عظيم يكمن في قبوله للمراجعــة، والنّقد والإنمـــاء والتّغيـــير. وهـــذا أهم عامل من عوامل اســـتمرار الحضـارة الغربيّة طـوال القـرون الماضـية على ما فيها من نـواقص وانحرافات وأزَمَات...
إنّ من المهم أنْ نــدرك أنّك حــتى تحافظ على الأصــول والثــوابت والأساســيّات، فلا بــدّ لك من حركة لا تهــدأ في تطــوير تنظــيرك وطرحك الفلسـفي، وفي تحسـين الأطر والأسـاليب والأدوات الـتي تخدم تلك الأصول... إنّ كبار المفكرين المسلمين وكبار المصــلحين والدّعاة لا يستطيعون حين يطرحون مشـروعاتهم الإصـلاحيّة، وحين يبلورون رؤاهم في التغيير والتجديد أنْ يقدموا شــيئًا مكتملاً ونهائيًّا؛ وذلك لأنّ عقولنا لا تكتشف الحقائق والمتطلّبـات والمشـكلات، وما ينبغي أنْ نصير إليه إلا على وجه التدرّج. إنّ كلّ شكل، وكـلّ فكـرة، وكل وضـعية تفتح لنا أفقًا جديـدًا ما كـان في الإمكـان أنْ نـراه قبل رُؤية سابقة؛ وهذا هو الأسـاس الـذي يجعل التطـوير والتجديد سـنّة الحيــاة. إنْ أيّ جماعــة، أو دولــة، أو جهة لا تملك آليّـات المراجعة ستجد نفسها في أوحـال الجمـود الـذي لا يـؤدي إلا إلى فقد الـوزن والتحلل الـذاتيّ. أضف إلى هـذا أنّنا حين نفكـر، وننظّـر، ونخطّـط، ونصمم، نقوم بذلك في جـوّ من الطّلاقة الكاملـة، وحين يـدخل ذلك في مضمار التّطبيق والتنفيذ يكـون الأمر مختلفًا جـدًّا، حيث يفـرض الواقع دائمًا حــدودًا للعمــل، فهنــاك الإمكانــات المحــدودة والنّظم والقوانين المقيّدة، وهنـاك الأعـراف والتقاليد الاجتماعيّة الضـاغطة، وهناك المنافسون والخصـوم.... ومن هنا تنشأ مفارقة قد تكـبر وقد تصـــغر بين النظريّة والتطـــبيق، وهـــذه المفارقة هي الـــتي تمنح المشروعيّة الفكريّة والأخلاقيّة للنقد والمراجعة والمحاسبة.
إذا تأمّلنا في أحوالنا وأوضـاعنا وجـدنا حرصًـا كبـيرًا على أنْ تكـون أشــعّة النّقد موجّهة نحو الخــارج، ولــذلك أســبابه المفهومــة؛ فنقد الآخرين سهل لأنّه لا يتطلّب منّا أيّ تغيير في أوضاعنا. ثمّ إنّنا كثــيرًا

ما نستخدمه من أجل إظهار فضـائلنا وجعل أتباعنا يثقـون بما لـدينا. ثم إنّ النقد يسـتخدم أحيانًا جـزءًا من حـرب شـعواء ضد الخصـوم والمخـالفين؛ مع أنّ أدبيّاتنا الإسـلاميّة تحثّنا على أنْ نوجّه أكـبر قـدر من النّقد والفحص لأنفسنا وأوضاعنا، وأنْ ننشغل بعيوبنا عن عيـوب الآخـرين. من المهم في مسـألة النّقد أنْ نحـاول القيـام بثلاثة أمـور جوهريّة:

1- أنْ يكون النقد وواضحًا وأنْ نسـمّي الأشـياء بأسـمائها في إطـار من الأدب الإسلاميّ، وفي إطار الشـعور بالمسـؤوليّة الأخلاقيّـة. إنّ لغة الغمغمة لن تـؤدّي إلا إلى تـأزّم الأمـور. وإنّ كثـيرين جـدًّا لا يفهمون ماذا نريد، وبماذا نطالب، وماذا ننقد، وذلك بسـبب ا لإبهـام المعتمّد.

2- تحديد المسـؤولين عن الأخطـاء و التّقصـيرات الـتي تقع هنا وهناك. في أحيان كثـيرة نكـون واضـحين في بيـان حجم المشـكلة، لكنْ حين يصل الأمر إلى تحديد الأسـباب والمتسـبّبين نجد أنّنا غـير قادرين على وضع النقاط على الحروف. وقد اكتشفنا مؤخرًا أسلوبًا خادعًا في هذا الشأن، وهو القيام بتوزيع المسؤوليّة على أكـبر عـدد ممكن من النـاس، وكأنّنا نحـاول أنْ نفـرّق دم القتيل على القبائل كما كانت تحاول ذلك العرب قـديمًا. ولهـذا فـإنّ كثـيرًا من التقـارير والتّوصـيات وملفّـات المراجعة والمحاسـبة يجعلك تخـرج بانطبـاع الخذلان والإحباط ؛ حيث ينتهي الأمر إلى ضرورة أنْ نقتنع بأنّ الكلّ مسؤول، وبأنّ الكلّ أيضًـا غـير مسـؤول!. إذا كنّا غـير قـادرين على توضيح تقسيم المسـؤوليّة عن أزماتنا على نحو جيّد فهـذا يعـني أنّنا لن نستطيع التخلّص من تلك الأزَمَات ولو بعد حين. ويعني أنّ إيجـاد نظام للمحاسبة عادل ودقيق يشكل إحدى الأولويّات الحضاريّة لأمّة الإسلام.

3- تقديم البدائل وإغنـاء السـاحة بالأفكـار الإيجابيّـة: إنّه لا يكفي أنْ نقول: إنّ في إدارة فلان للمؤسّسة الفلانيّة خللاً كبيرًا. كما لا يكفي أنْ نقول: إنّ هذه اللفظة في بيت الشّـعر الفلاني قلقة ونسـكت. لا بـدّ من أنْ نحـاول أنْ نقـترح ما هو أجمل وأنفع وأفضل مما هو موجود، ويجب أنْ نمتلك القدرة على الشـرّح، والتفسـير، والتعليـل، لما ننقـده إذا أردنا للنّقد ألا يكـون نوعًا من اللّغـو، أو نوعًا من التكميل الشكليّ لحياة فقيرة في معانيها وإنجازاتها.

إنّ المراجعة عبـارة عن مسـاهمات لإعـادة التكيّف والتـأقّلم، وإنّ الهيئات الكـبرى والمؤسّسـات الضـخمة أحـوج إلى التكيّف من أجل

البقاء من غيرها. وإنّ التاريخ ليشـهد على أنّ أنواعًا من الحيوانـات، والأشـجار، الضّـخمة هلكت وانقرضت بسـبب عـدم قـدرتها على التكيّف مع الأحوال المناخيّة الطارئة والجديدة.
نحن في ظروف جديدة كلّ الجِدّة، ولهذه الظّروف متطلبات لا عهد لنا بهـا، وإنّ من جملة تلك المتطلبـات النّظر إلى حاجتنا إلى النّقد على أنّها لا تقل أهميّة عن حاجتنا إلى البنـــــاء، والنّظر إلى الأخذ والتمثّل على أنّه لا يقـلّ أهميّة عن العطـاء، والنظر إلى الانفتـاح وخوض المعركة ببسـالة وإقـدام على أنّه لا يقـلّ أهميّة عن اللجـوء إلى الحصون والاختباء خلف الأسوار.
ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.
(6)
إن ملامح القصـور في العقل البشـري أننا لا نسـتطيع في كثـير من الأحيان وضع حدود فاصلة بين الثبات على المبدأ والتمسك بالأصول والثقة بالمنهج وبين التصلب الفكـري المـذموم، والـذي يعـني -فيما يعنيـه- النقص في تطورنا الـذهني بما يلائم المتطلبـات والتحـديات الجديـدة. وهـذه الوضـعية العالمية الشـاملة تجعل النـاس دائمًا مُهدَّدين بـالعجز عن مسـايرة الواقع والملائمة بين المنهجيـات الـتي يؤمنون بها وبين الأسئلة المطروحة عليهم؛ وإن شـئت فقـل: العجز عن الإجابة عن الأسئلة المطروحة من خلال المنهج الـذي يعتقـدون بصوابه. بعبارة أخرى: أعتقد أن علينا أن نتلمس دائمًا حجم المرونة الذهنية والمرونة في الطـرح وفي الخطـاب وفي بـرامج الإصـلاح والمعالجـة؛ فالضـغوطات الـتي تمـارس علينا من مختلف الجهـات، وأوضاع التأزم والتخلف المختلفة تولّد لدينا الكثـير من الخـوف غـير السائغ، وتدفعنا باتجاه الجمود والانغلاق، كما تدفعنا باتجاه استخدام الضغط وسيلة في ترشيد مسيرتنا عوضًا عن الثقة والإقناع دون أن نشعر بذلك، ودون أن نشعر بعدم ملاءمة هذا لـروح العصر وللذائقة الثقافية الجديدة. ولهذا فـإن الخطـاب الإسـلامي -والـذي يقـوم في مفاصـله الأساسـية على الفكر الإسـلامي المعاصـر- يميل إلى أن يكون سلبيًّا ضابطًا أكثر من أن يكـون مبـادرًا محفِّزًا ومنتجًا للأفكـار والمفـاهيم والمشـروعات والبـدائل؛ مع أن الحضـارات لا تقـوم في أول انطلاقها أبدًا على المنع والسلب والضبط.. إنها تقوم بنـاء على المبادرة والانطلاق والعطاء والمساهمة.. إنها أشـبه بينـابيع صـغيرة، تتجمع فتشكل نهرًا متـدفقًا، ثم نجد أنفسـنا بعد مـدة في حاجة إلى تصفية ذلك النهر وتنقية مائه من الشوائب.

إن الفكر الإسلامي سوف يكتسب من المناعة والحصانة والقابلية للاستمرار على مقدار ما يملك من التوازن في بنيته العميقة بين الثوابت والمتغيرات وبين المثالية والواقعية، وعلى مقدار ما يملك من المرونة في الفهم والاستيعاب وفي تقديم الحلول. إن العواصف الهوجاء تقتلع وتحطم الأشجار العملاقة على حين أن السنابل والحشائش تُبدي قدرة أكبر على الصمود والمقاومة والسبب في هذه المفارقة هو المرونة التي في الأخيرة والتصلب الذي في الأولى. واليوم توضع قواعد وكتل مطاطية في أسفل الأبراج والعمارات الشاهقة كي تقاوم الزلازل الأفقية؛ حيث يمنحها المطاط المرونة الكافية للتجاوب مع اهتزازات الزلازل على شكل امتصاص لها. إن المرونة لا يصح أبدًا أن تعني التنازل عن المبادئ ولا التساهل تجاه المحرمات، كما لا يصح أن تعني إقرار الباطل وممالأة الظلم، ولا أن تعني تغيير الاتجاه... إن هذه الأشياء لا تشكل أبدًا مرونة أو تكيفًا صحيحًا، إنها انحراف واضح تجب مقاومته والتصدي له. إن المرونة المنهجية تعني في نظري الآتي:

1- حسن الاستماع وحسن تفهم ما لدى الآخر. إن الأمة في أزمة متشعبة ولو لم يكن من معالم تلك الأزمة سوى ابتعاد عدد كبير من أبنائها عن جادة الالتزام بتعاليم الشريعة الغرّاء وسوى تدني مكانتها العالمية بين الأمم لكان ذلك كافيًا . حين يكون المرء في أزمة؛ فإن عليه أن يفتح عشر عيون وعشر آذان لالتقاط أي فكرة أو أي حل أو أي أسلوب أو أي أداة في إمكانه أن يخفف من غلواء الأزمة التي يعاني منها. إن مشكلة: كمشكلة البطالة، أو رداءة مستوى خريجي الجامعات، أو مشكلة تسلط الحكومات، أو انتقال السلطة بسلاسة وعلى أسس مشروعة، أو مشكلة ضعف الالتزام، أو تفكك الأسرة المسلمة بالتدريج... أقول: إن مشكلة كهذه المشكلات لن نستطيع الحصول لها على حلول من خلال استعراض التاريخ وتجارب الأجداد والآباء لأن سنة الله – جلّ وعلا- مضت ألا تتسع رحلة حضارية سابقة لمرحلة لاحقة. فالحلول التي عثر عليها الناس لأي مشكلة من هذه المشكلات قبل خمسة قرون لن تصلح لحلها اليوم. كما أن ما نحصل عليه من حلول ناجعة وعبقرية لمشكلاتنا لن تحل عين المشكلة بعد قرنين من الزمان.

ولن نجد حلاً لأي مشكلة من المشكلات آنفة الذكر لدى الغرب أو لدى اليابان أو الصين...؛ لأن أي حل من الحلول يرتكز على نوعية معينة من المعطيات الثقافية والسياسية وهذه النوعية تختلف

اختلافًا واسعًا عن عالمنا الإسلامي وبين الدول غير الإسلامية المعاصرة لنا. لكن سنجد في التاريخ وسنجد لدى الآخرين نواة لحلٍّ؛ تحتاج إلى إنضاج وإنماء أو نجد فكرة ذكية تحتاج إلى تطوير أو أقلمة وتوطين. وهذه وتلك تحتاجان إلى عقل مرن ومحترف في الاقتباس ودمج الأفكار والطرق والمنهجيات المتفاوتة والمتباينة. ولن ينفع الذكاء وحده في الشأن بل لا بد من البحث العلمي المتقن والمتخصص والمستفيض، وهذا ما لم يتم الاعتراف به حتى الآن!

2- تعني المرونة الذهنية والمنهجية -أيضًا- القدرة على إدراك الفرق بين ما هو موجود في حياتنا بسبب الالتزام بالأمر الشرعي وبدافع من الالتزام بأمر الله، وبين ما هو موجود نتيجة عادات وتقاليد أنتجتها ظروف واعتبارات تاريخية، أو أنتجها التوسع في مبدأ (سد الذرائع) بسبب فهم جزئي أو زمني أو مؤقت للمصالح والمخاطر التي تترتب على سلوك معين.

ويقدم لنا وضع المرأة المسلمة نموذجًا لهذا؛ حيث إن كثيرًا مما يحتاج إلى الإصلاح في حياة المرأة المسلمة ومهامها العامة نشأ نتيجة مواصفات اجتماعية معينة مالت بها نحو الغلو أو نحو التفريط والتساهل بعيدًا عن المنهج الرباني الأقوم. قد يكون من الأسس النافعة في تصور إصلاح أوضاع المرأة المسلمة النظر إلى أن الأصل هو تطابق كل ما يُطلب من النساء، وكل ما يحل لهن، وكل ما يصح لهن عمله وممارسته مع ما هو ثابت للرجال؛ إلا ما جاءت النصوص الصريحة بإثبات خصوصية لهن فنصير إليه، ونأخذ به. وإذا اختلف أهل العلم الموثوقون والمتخصصون في مسألة هل هي خاصة بالرجال أو النساء – نظرنا إلى خلافهم على أنه باب من أبواب التوسيع على الأمة ورفع الحرج عنها. ومثل ذلك يقال في اختلاف أهل العلم في كون عمل من الأعمال – يجرّ مفسده أوْ لا. والذي يظن أن الأخذ بالأحوط وبالقول الأشد حذرًا وبالأميل إلى التشدد- يحل مشكلات الأمة أو يساعد الناس على مزيد من الالتزام – يكون واهمًا؛ حيث إن مثل هذا قد يدفع كثيرًا من الناس بعيدًا عن منطقة التدين كلها بما فيها من ألوان صفراء وحمراء، وواقعنا مملوء بالشواهد على هذا.

3- تعني المرونة كذلك القدرة على إعادة ترتيب الأولويات الدعوية والإصلاحية والإنمائية. حين نقول: إن إصلاح هذا الأمر يشكل أولوية فإن هذا يعني أننا ندرك خطورة استمراره، وعظم حاجة الناس

إليه، وارتباط صلاح مسائل أخرى بصلاحه. وهـذه مهمة شـاقة جـدًّا، وتحتاج إلى فهم عميق للسنن الربانية وللتداعيات المنطقية القائمة بين جــوانب الحيــاة المختلفــة. في معظم البلاد الإســلامية تتمثل الأولوية الإصلاحية في تعليم الناس أمــور دينهم ، وفي حل أزمــاتهم الاقتصــادية المتراكمة والمتعاظمــة. وفي بعض البلــدان الإســلامية يشكل الإصـلاح السياسي أولويـة. ويشـكل إصـلاح النظـام التعليمي في بعض الــدول أولوية مطلقة وهكــذا... ولا يعــني القــول بأولوية شـــيء من الأشـــياء تعطيل الاهتمـــام بغـــيره من جـــوانب الحيـــاة المختلفة؛ لكنه يعـني أن نصـرف عليه من الـوقت والجهد أكـثر مما نصرفه في غيره.

موضوع المرونة المنهجية موضوع طويل وقد أعود إليه في يوم من الأيام.

ومن الله الحول والطول.

(7)

الفكر المــنيع فكر قــادر على الاســتمرار ومناعته نابعة من طبيعته ومقوماته الذاتيــة، ومقومـات الفكر الإسـلامي ليست شـيئًا يصـنعه الناس جريًا وراء أهوائهم أو اجتهاداتهم الشخصـية، فـالفكر لا يكـون إسلاميًا إلا إذا كان تكونه في إطار تعاليم الإسلام ومقاصده العامــة، ولا يكــون نمــوه صـحيحًا إلا إذا كـان عن طريق حبل سـري متصل بالمصالح المنضبطة للأمة وبالطبيعة البشـرية، وما نعرفه من سـنن الله -تعـالى- في الخلـق. وشـيء من هـذا الكلام ينطبق على الفكر الإنساني أيضًا؛ حيث إن صناع الأفكار يسـتطيعون أن يقولـوا – على مستوى التفاصيل الدقيقة- الكثـير مما يريـدون، لكن تظل حيوية ما يقال وقدرته على تشكيل الحضارة مرهونة لاتصالها بالسنن الربانية وبتشوقات البشر وتطلعاتهم.

وتأسيسًا على كل هذا يمكن القـول: إن الغلو بكل سـماته وأشـكاله ومظاهره ومنطلقاته يشكل إحدى الآفات والعلل المزمنة والخطيرة التي طالما أصابت الفكر الإنساني والإسـلامي في مقتـل، والحقيقة أن البعد عن القِصد والميل إلى المنــــازع والاتجاهــــات الغالية المتطرفة يشكِّل جزءًا من التراث الحضـاري لكل الأمم؛ وإني لأكـاد أزعم أن ذلك متصل بالتكوين العقلي والنفسي لبـني الإنسـان. وإذا صح هذا فإنه يكون جزءًا من أدوات الابتلاء في هذه الحياة. إن الغلو مصـطلح شـرعي، لكن تطبيقاته واسـعة جـدًا إلى درجة أن بعضـها يتصل بالــذوق وبــالخبرة البشــرية وبالتراكمــات الثقافية المتنوعــة،

ولهذا فإننا حين نتحدث عن الغلو أو الإفراط أو التطـرف أو التشـدد في أمر من الأمور المتصلة بالتـدين والالـتزام فـإن علينا ألا نتجـاوز الأحكـام الشـرعية. وفي هـذا الإطـار فإننا نجد اليـوم في السـاحة الثقافية العامة صنفين ممن يتحـدث عن الغلـو: صـنف يهـرف بما لا يعـــرف، حيث ينطلق من خـــبرة محـــدودة جـــدًا بالشـــريعة وبالفقه الإســـــلامي لكنه يملك جـــــرأة تصل إلى حد الوقاحة في إطلاق الأوصـــاف والنعـــوت النارية على ســـلوكات ومواقف لا ينبغي أن يتحـدث فيها إلا أهل الاختصـاص وهم الفقهـاء، وهـذا شـيء طـبيعي فكما أنه لا يتحدث في الأمور الهندسية الدقيقة إلا مهنــدس، وكما لا يتحـــدث في المســـائل الفيزيائية العويصة إلا فيزيـــائي فكـــذلك لا يتحـدث في مسـائل التـدين والالـتزام والتعبد والسـلوك الإسـلامي عامة إلا فقيه خبـير. أما الصـنف الثـاني فإنه ينطـوي على سـوء نية وعلى انحـــراف في الوجهـــة، إنه يريد من خلال الحـــديث عن الغلو هدم الإسلام ذاته؛ فالذي يمتنع عن إيـداع أمواله في البنـوك الربوية مـــتزمت غـــال، والمـــرأة الـــتي تســـتر وجهها أو تمتنع عن مجالسة الرجال الأجـانب متخلفة ومعقـدة، والمسـلم الـذي يسـتدل بالآيـات والأحاديث في التنظـير للقضـايا حـرفّي محـدود. والمسـلم الـذي لا يستمع للموسيقى غليظ المشاعر، ومفتقر إلى نـوع من التهـذيب لا يأتي إلا عن طريق الموسيقى...!!

وقد كثر هذان الصنفان في الساحة الثقافية والإعلامية، وكثـير منهم يظنون أنهم يساعدون الأمة على النهوض والارتقاء، وهم في حقيقة الأمر يمارسون عملية تخريب واسعة النطاق ولا تظهر آثارها إلا بعد عقد من الزمان.

وعلى كل حـــال فـــإن من واجب المفكـــرين والمنظِّرين وأهل كل الاختصاصـات العلمية أن يشـيعوا في الجمـاهير المسـلمة مفـاهيم الوسطية والاعتـدال والتسـامح واليسـر، وأن يقـاوموا نزعـات الغلو التي تجتاج كل الشرائح والفئات وكل الـدوائر والتخصصـات؛ فهنـاك غلوّ في السياسة وفي الاجتماع وفي التـدين وفي الاقتصـاد والتربية والتعليم والتعامل مع التـــاريخ والتخطيط للمســـتقبل.. وأهل كل تخصص هم الـــذين يقـــررون الاتجاهـــات والأقـــوال الغالية في تخصصـــهم، وهم الـــذين يحـــددون درجة ذلك الغلـــو، وعليهم تقع مسؤولية معالجته وتخليص الناس منه، وهذه نقطة مهمة حيث يظن بعض النـاس أن الغلو عبـارة عن مشـكلة دينية محضـة، وهـذا غـير صحيح. قد كانت الشيوعية مغالية حين أعطت دورًا اسـتثنائيًا للدولة

في إدارة شـــؤون النـــاس، وقد أدى ذلك تهميش المجتمع وتعطيل كثير من وظائفه، وكانت النتيجة هي انهيار الدولة والمجتمع معًا.
ومن المـربين من يغـالي فيجعل دور البيئة حاسـمًا في تقرير ثمـار الجهـود المربيـة. ومن المـؤرخين من فسّـر التـاريخ تفسـيرًا عرقيًا عنصـريًا، ومنهم من فسـره على أسـاس عبقرية المكـان والـدور الحاسم للجغرافيا وهكـذا وهكـذا.. وكلما تقـدم العلم خطـوة إلى الأمـام يتضح لنا أكـثر فـأكثر أن المراهنة المبـالغ فيها على بعد من الأبعـاد أو قـول من الأقـوال أو عنصر من العناصر أو تفسـير من التفسيرات أو دليل من الأدلة معلومة من المعلومـات... هي شـيء بعيد عن القصد وعن الواقع، وقـريب من أن يكـون مجازفة علميـة، فالتعقيد الـذي نكتشـفه اليـوم في طبيعة كل البـنى الثقافية يحتم علينا أن نبلور دائمًا رؤى ونظريات واجتهـادات ذات طبيعة تركيبيـة. والطبائع التركيبية تساعد دائمًا على الحد من الغلو والانجراف خلف وجهات أحادية ضيقة. إننا –كما أخبر سـبحانه- ولا نعـرف إلا القليـل. وكثير من معارفنا هش وغـير مكتمـل، ومنفتح على آفـاق مجهولـة، مما يعـني أن علنيا أن نحـذر أشد الحـذر من الاعـتزاز باجتهاداتنا الشخصـية ومن المغـالاة في انتماءاتنا الحزبية والحركيـة، وأن نظل إلى جـانب ذلك في حالة من البحث المسـتمر عن الـرؤى المتوازنة البعيدة عن الإفراط والتفريط، فالمتقـدم على الصف والمتـأخر عنه يسهم كلٌّ منهما في اعوجاجـه. إن اليهـود فرّطـوا في مـوقفهم من الرسل -عليهم الصـلاة والسـلام- بل من رب العـالمين –جل وعـز- فقد قالوا: يد الله مغلولة، ووصفوه بما لا يليق بإنسان فضلاً عن أن يليق بالخالق، وكذّبوا الرسل وأهـانوهم وقتلـوهم. أما النصـارى فقد أفرطـوا في هـذا الشـأن حيث قدّسـوا عيسى -عليه السـلام- حـتى جعلـــوه إلهـــاً. أما أمة الإســـلام الوســـطية فقد نجت في موقفها العقائدي العام من هذا و ذاك.
ونحن اليـــــــــــوم في حاجة إلى أن نتلمس المزيد من المواقف والتطبيقـات الـتي تعكس وسـطيتها في مجـالات الحيـاة كافـة. وقد ابتلى الإسـلام على مـدى عهـوده المتطاولة بفئـتين من أبنائه : فئة تتفلت من تعاليمــه، وتتقــاعس عن أداء مقتضــياته وواجباتــه. وفئة تحمل النــاس على المكــاره، وتــدفعهم في اتجــاه العسر والحــرج والضـيق. والفئة الأولى خاضـعة غالبًا للشـهوة أما الفئة الثانية فإنها في الغالب خاضـعة للشـبهة. ومن هـذه وتلك تتكـون وضـعية بائسة تجمع بين القصور والانحراف.

وللحديث صلة.. والله وفي التوفيق.

(8)

الإسـلام هو رسـالة محمد -صـلى الله عليه وسـلم- الأخـيرة الـتي تتلقاها البشـرية من الله –جل شـأنه-؛ ولهـذا فهي رسـالة عامة وشاملة، فيها ما يحتاجه صـلاح النـاس مهما اتسـعت أمـداء الزمـان والمكان، ومهما تنوعت الظروف والأوضاع والأحـوال. وهـذا يتطلب بداهة سـعة الأطـر، ورحابة الأحكـام، ومراعـاة شـيء من التنـوع الثقـافي، وتـرك بعض التفصـيلات أو كثـير منها لتقـدير علمـاء الأمة وباحثيها، ليستنبطوا من الأصول العامة للشريعة السمحة ما يغطيها ويوضح للناس أحكامها.

ويلاحظ في هذا السياق ثلاثة أمور مهمّة:

1- معظم نصوص الكتاب والسنة ظنيّة الدلالـة، مما يفتح باسـتمرار مجالاً للاجتهاد واختلاف الآراء. ولو شاء الله –تعـالى- لجعلها جميعـاً محكمة قطعية الدلالـة؛ لكن ما هو ماثل الآن ينسـجم مع خلـود الرسـالة وختمها وعمومهـا. ومن شـأن الاختلاف توفـير إمكانـات واختيارات وبـدائل. كما أنه يعكس رؤى المجتهـدين وتنـوع ثقافـاتهم وتقـديرهم للحالة أو الوضـعية موضع النظـر. وهـذا يضـفي على الأحكـام طـابع اليسر والسـهولة، ويجعلها قريبة من معانـاة النـاس ومشـاعرهم. وكل هـذا جـزء صـغير من رحمة الله –تعـالى- ولطفه بعباده.

2- النصـوص على نحو عـام في المسـائل الـتي تختلف بـاختلاف الزمان والمكان قليلة، وفيها توجيهات عامـة. وقلة النصـوص تـرمي إلى إفسـاح المجـال للمجتهـدين كي ينظـروا ويسـتنبطوا في ظلال المقاصد العامة للشريعة وفي إطار حاجات المجتمع المسـلم. ونجد هـذا واضـحاً في المسـائل السياسـية والإدارية والعلاقـات الدولية والمسـائل التنظيمية عامة وقد عتب الإمـام الجويـني في كتابه (الغيـاثي) على المـاوردي في أنه سـاق في كتابه (الأحكـام السـلطانية) الأحكـام المتعلقة بالسياسة الشـرعية بلغة فيها الكثـير من الجـزم واليقين أو بعبـارة أخـرى: سـاق الظنيـات في مـوارد وسـياقات القطعيـات. وهـذا لا يليق بمجـال، النصـوص فيه قليلة والاجتهـادات كثـيرة مع امتـداد آفاقه وتنـوع مسـتجداته. وهـذه الملاحظة ملاحظة ذكية من عقل كبير.

3- في صميم المنهج الاجتهادي والاسـتنباطي شـيء يثـير الإعجـاب، وهـذا الشـيء هو ما يقـوم به الأصـولي والفقيه من نظر وتفكر

وتحقق قبل إصـــدار حكم في واقعة من الوقـــائع أو وضـــعية من الوضعيات.
إن المجتهد قبل أن يصـدر حكمـاً في واقعة جديـدة، لا نص فيها ولا إجماعاً سابقاً، يحتاج إلى كثير من التأمل والبحث، فـإذا كـان بصـدد قياس الواقعة الجديدة على واقعة سابقة أو كـان في سـياق الحكم على شـيء جديد بعين الحكم الصـادر في شـيء سـابق منصـوص عليـه؛ فـإن عليه أن يكتشف علة الحكم في الأصل وهـذه العلة قد تكـون جلية وقد تكـون غامضـة، وقد يحتمل الحكم في الأصل أكـثر من علة واحـدة، ويكـون عليه آنـذاك أن يقـوم بعملية أطلقـوا عليها (السبر والتقسيم) أو (تنقيح المناط)، وذلك من أجل اكتشـاف العلة المؤثرة فعلاً في الحكم. وهذا العمل عمل اجتهادي عظيم يقـوم به الأصوليون والفقهاء الكبار المتمكنون.
ونتـائج هـذا التمحيص كثـيراً ما تكـون موضع نـزاع وموضـعاً لتبـاين الآراء والاجتهادات. فإذا عُرفت العلة المؤثرة في الحكم، فإن هنـاك عملية أخـــرى لا تقل شـــأناً عما ســـبق، وهي التأكد من أن العلة موجودة في الحادثة الجديدة، وأن الشـروط المطلوبة لجعل الفـرع مساوياً للأصل أو الشروط المطلوبة لصحة إصـدار الحكم موجـودة ومتـوفرة. وهـذا ما سـماه الأصـوليون (تحقيق المنـاط) إذا قلنا إن إنكار شيء من المعلـوم بالـدين بالضـرورة يجعل المنكر كـافراً كما هو الشـأن في منكر فرضـية الصـلاة أو حرمة الزنـا، وإن بلغنا عن شـخص شـيء من ذلـك؛ فـإن علينا قبل الحكم بكفـره أن نتأكد من صـحة ما نسب إليه ودقته في الدلالة على الإنكـار. وعلينا أيضـاً أن نتأكد أنه عـالم بـإخراج ذلك الإنكـار من الملـة، وأنه لم يـتراجع عنه ويتب منه وعلينا وعلينـا... إن تحقيق المنــاط أو التأكد من انطبــاق الحكم على الواقعة يشـــــتمل على رحمة عظمى للأمة حيث جعل الله –تعـالى- شـيئاً من التشـريع في النـوازل إلى الأمة ممثلة في مجتهديها.
إذا تأملنا في الملاحظات الثلاث التي سقناها وجدنا أنها جميعاً تـدفع في اتجـاه واحد هو الرفق واللطف بـالمكلفين، وهو الأنـاة والـتريث قبل إصدار الأحكام. وهو التيسير ورفع الحرج ورفع التشدد والغلو.
وهـذا الاتجـاه في الحقيقة هو سـبيل المؤمـنين الفـاقهين، وسـبيل العـارفين بأسـرار الشـريعة ومقاصـدها، والخـبراء بطبـائع الأشـياء وسنن الله تعالى في الخلـق. إن الغلاة لا يسـاعدون فكر الأمة على الانتشـار، ولا يسـاعدون المسـلمين على بنـاء منطق عـالمي قابل

للشرح والتوضيح وقابل للتفهم من قبل الآخـرين؛ إنهم على العكس من هذا يتركون لدى الناس انطباعاً بأن الدين جاء لأولي العـزم من النـاس وليس لعـامتهم. وهم إلى جـانب هـذا يحيـدون عن قواعد المنهج الرشـيد الـذي بلـوره علمـاء الأمة من أجل فهم كيفية الاستجابة لأمر الله في المناشط والاستجابة له في المكـاره. وذلك المنهج يأخذ بعين الاعتبار حالات الضعف البشـري وحـالات القصـور الإنساني، كما يأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية الـتي يمر بها العبـاد. كيف لا والله تعـالى يقـول في وصف نبيه محمد –صـلى الله عليه وسـلم-: (الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ) ؟ [سـورة الأعـراف:157]. إنه يضع عن أمة الإسلام الأحكـام والتكـاليف الشـاقة الـتي يضـعف عن حملها الإنسان والتي كانت على بـني إسـرائيل من مثل قتل النفس بالتوبة وتحريم الغنـائم. والله تعـالى علم المسـلمين كما في أواخر سـورة البقـرة كيف يدعونه برفع الحـرج عنهم حين قـال: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِـذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَـهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَـةَ لَنَا بِـهِ وَاعْـفُ عَنَّا وَاغْفِـرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُـرْنَا عَلَى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ) [البقـرة:286] وقد ورد في صحيح مسـلم ما يـدل على أن الله اسـتجاب دعـاءهم. وقال عز وجـل: (طـه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْقُـرْآنَ لِتَشْـقَى) [طـه:1-2] وقال: (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْـرَى) [الأعلى:8] قـال ابن كثـير في تفسـيره: "أي نسـهّل عليك أفعـال الخـير وأقواله ونشـرع لك شـرعاً سـمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر".

هذا وللحديث صلة.

(9)

إن العمل الذي قام به فقهاؤنا على مدار التاريخ الإسـلامي هو حقـاً شيء يثير الإعجاب. وتأتي روعته من انضباطه بأصول محـددة ومن حركته داخل النصـوص. تـرى فيه الثبـات والاتفـاق في الأصـول والمسائل الكبار. وترى فيه المرونة والاتساع للتنـوع والاختلاف في الفروع والمسائل الجزئيـة. وأعتقد أن قـدراً غـير قليل من (المناعة الفكريـة) يجب أن يسـتمد من الارتكـاز على روح الإنجـاز الفقهي ورسـومه. وإذا تأملنا في كثـير من الانحرافـات الفكرية لـدى بعض

الطوائف الإسلامية وجـدنا أنها تشـكل نوعـاً من الخـروج على منهج الاستدلال الذي سار عليه الأصوليون والفقهـاء، كما تشـكل خروجـاً سـافراً على الأحكـام الـتي انتهـوا إليهـا. إن الفقيه يقـدم لنا دائمـاً نموذجـاً لاعتبـار الــرأي المخــالف. وكتب الفقه المقــارن مثــل: (المحلى) لابن حزم، و(المغني) لابن قدامة، و(المجموع) للنووي...؛ شاهدة على هذا. وإذا عـدنا مـرة أخـرى إلى (الغلـو) بوصـفه العـدو اللــدود لاســتقامة الفكر ومناعته واســتمراره وجــدنا أن الغــالين يصـدرون في معظم شـأنهم عن تجاهل لقـول غـيرهم واسـتخفاف بالمخالف كائناً من كان. ولا شك أن هناك الكثير من المسائل الـتي يكون الخلاف فيها ضعيفاً حـتى كأنه غـير موجـود، لكن هنـاك أيضـاً الكثير من المسائل التي يعد فيها تجاهل الخلاف وتجاوزه ضـرباً من الجهل العريض والطيش الكبير. وعلى سبيل المثال فقد ذهب بعض الغلاة في عصرنا هذا إلى تحـريم التقليد وإيجـاب الاجتهـاد، وحجتهم في ذلك أن التقليد طاعة مطلقـة. وهـذه الطاعة المطلقة لا تكـون إلا لله، ولذلك فإنهم يكفـرون المقلد لأنه حكَّم غـير اللـه، واتبع غـير رسـول اللـه. وهـذا يـذكرنا بـالخوارج حين أطلقـوا مقـالتهم الذائعة الصـيت: "لا حكم إلا للـه". والقـول بحرمة التقليد يتجاهل ما قـرره علماء الأمة في هذا الشأن ويتجاهل تاريخ الأمة كلـه؛ حيث إن لـدينا ملايين الناس المشهود لهم بـالخير والصـلاح والعلم ومع هـذا فـإنهم لم يجتهدوا، وكانوا يقلدون أحد الأئمة المتبوعين. كما أن هذا القــول يجافي ما تواضع عليه البشر في كل العلوم؛ إذ لا يجيز أي أهل علم أو اختصــاص لأي إنســان مهما بلغ أن يجتهد في كل شــيء لأن في ذلك هــدماً لقطعيــات العلم ومــواطن الإجمــاع فيــه. وإذا كــانوا لا يجيزون الاجتهاد المطلق من القيـود؛ فكيف يوجبه هـؤلاء في أخطر العلـــوم، وهو علم الحلال والحـــرام وتحديد ما يحبه الله –تعـــالى- ويبغضه؟!

ويتجاهل الغلاة الخلاف بين أهل العلم في تحديد بعض المصـطلحات، فيصـيرون إلى فهمهم الخـاص غـير عـائبين بتعريف غيرهم، ويلتزمون بما فهموه التزاماً صارماً، ولا يكتفون بذلك، وإنما يصيرون إلى إلزام غيرهم، ويرتبـون لأحكـام على ذلـك، ويتصـرفون وكـأنهم أمـام نص قطعي الثبـوت.. قطعي الدلالـة؛ هـذا مع أن كل العـارفين بمنـاهج البحث وطـرق الاسـتدلال يعرفـون أن المصـطلح حين يكون هشاً أو انتقائياً أو غامضـاً فـإن المنهجية تقضي بمراعـاة ذلك والأناة في البناء عليـه. والمصـطلحات الـتي أسـاء بعض الغلاة

المعاصـــرين التعامل معها عديـــدة، ولعل منها مصـــطلح (جماعة المسلمين)؛ فقد قـامت مجموعة منهم بتنصـيب أمـير عليهـا، جعلته في مقام أمير المؤمنين، وجعلت نفسها جماعة المسلمين، وصـاروا يعتقدون أنهم جماعة آخر الزمان المجتبـاة قـدراً المعلومة عند الله والمكتوبة في اللـوح المحفـوظ! ويقـول أحد قياديهـا: نحن جماعة المسـلمين، وما عـدانا فليس بمسـلم. وقد جعل من لم ينضم إليهم بمثابة التـارك لدينه المفـارق للجماعــة، والــذي ورد في الحــديث الصـحيح أنه حلال الـدم. مع أن الـذي يعـود إلى كلام أهل العلم في مفهــوم (جماعة المســلمين) يجد أن منهم من ذهب إلى أن جماعة المسلمين هم الصـحابة –رضـوان الله عليهم- على وجه الخصـوص. ومنهم من ذهب إلى أن جماعة المسـلمين هم السـواد الأعظم من أهل الإسلام. وذهب بعضهم إلى أنها أئمة العلماء المجتهدين. وذهب فريق رابع إلى أنها أهل الإسلام في مقابل الكفار...

ومن المعاصرين من لم يدّعوا أنهم جماعة المسلمين، لكنهم أقـرب الجماعات إلى أن يكونوا جماعة المسلمين، ولا ريب أن هذا القــول أخـفّ من السـابق لكنه تـرك على تلك الجماعة آثـاراً سـيئة حيث أصيبت بعقدة الأخ الأكـبر الـذي يُستشـار، ولا يستشـير، ويُطلب منه التعاون ولا يطلبه..

الغلو في التكفـــير مظهر آخر من مظـــاهر اســـتغلال غمـــوض المصطلحات والإعراض عن الشـروط والتعريفـات. وقد ورد الكثـير من النصـوص الـتي تحـذر المسـلم من المسـارعة إلى تكفـير أخيه المسلم، منها قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا قال الرجل لأخيـه: يا كـافر فقد بـاء بها أحـدهما". وقـال: "... ولعن المـؤمن كقتله ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله". إن أهل العلم الثقات العارفين بموارد النصوص والفاقهين لاستخدامات هذه الكلمة يقولون: إن الكفر يَـرِد في الكتاب والسنة ويراد به الكفر المخـرج من الملـة، وأحيانـاً يَـرِد ويراد به كفر لا يخرج من الملة، فكما أن للإيمان شعباً كـذلك للكفر شـعب والأدلة على هـذا أكـثر من أن تحصـى. لكن الغلاة لا يـأبهون للتفصيلات ولذلك حكموا على مرتكب الكبـيرة بـالكفر، وكفـروا كل من لم يحكم بما أنزل الله مع أن الحاكم إذا لم يحكم بما أنـزل الله لأن شهوته حملته على ذلك مع الاعتقـاد بـأن حكم الله ورسـوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ لم يخرجه ذلك من الملـــة، وإن كـــان ارتكب كبـــيرة من أعظم الكبـــائر. والراســـخون في العلم

يحرّجـون كثـيراً في تكفـير شـخص بعينـه؛ لأنه قد يكـون جـاهلاً أو مكرهـــاً أو دخل في موازنة مخلصة يحقق بها ما يمكن تحقيقه من الخير للمسلمين، ويدفع بها من الشر ما يمكن دفعـه. وقد يكـون له إيمان وعمل صالح كثير وقـد... وقـد...، وهـذا مما ينقل الحكم على الحاكم من حيز الكفر الأكبر إلى حيز الكفر الأصغر.

إن الغلاة حملوا أنفسهم على المركب الصعب، وقد وجدوا أنفسـهم في نهاية المطـــــاف في الزاوية الضـــــيقة. وكـــــانت النتيجة هي الاضمحلال والانحسار؛ فمنهم من قُتل، ومنهم من شُـرد، ومنهم من تراجع عن أفكاره، ومنهم من لا يـزال على طريقته الأولى لكنه يجد نفسه دائماً عاجزاً عن تقديم شيء إيجابي تنتفع به الأمة.

وللحديث صلة، والله الموفق.

(10)

ذكـرْت أنّ الغلـوّ قصـير النَفَس، وهو ما دخل فكـرًا أو مشـروعًا أو مؤسّسة إلا شكّل نقطة ضعف فيما توضّع فيه، والسؤال الـذي علينا أن نحـاول الإجابة عنه هـو: لمـاذا ينشأ الغلـوّ؟ وما الخلفيّة النفسـيّة والثقافيّة والبيئيّة التي تساعد على انتشاره وكسبه للأنصار؟

والجواب عن هذا السؤال جواب طويـل، ولكن سـأحاول إجماله في مفردات قليلة.

1- كثـــيرًا ما ينشأ الغلـــوّ نتيجة فهم خـــاطئ للنصـــوص كما حـــدث للخوارج في صدر الإسـلام. وتعـدّد النصـوص في القضـيّة الواحـدة، وكون معظم النصـوص ظنّية الدلالة يسـاعدان على هـذا. أضف إلى ذلك القصور الذي يشكّل ما يشبه العاهة الدائمة للنظام اللّغوي في العالم كله وفي كل اللغـات؛ حيث إن اللّغة ناقل غـير شـفّاف، وهي تُنتج لنا -في معظم الأحيـان- الفهم المتعـدّد بل المتنـاقض، ولهـذا أسباب وحيثيّات يطول شرحها.

2- اعتقاد الاكتمال قبل الأوان سبب من الأسباب القويّة للغلوّ؛ حيث إنك تجد شبابًا يُصدِرون الفتاوى بغاية السـهولة، وبالقليل القليل من الشعور بالمسؤوليّة في أمور توقّف فيها كثير من أهل العلم، وتنازع فيها أهل الاختصاص، وكل هذا بسبب الجهل، وبسبب الغرور وسـوء الطريقة التي تثقّفوا بها.

3- اعتقاد كثير من الشباب بوجود مؤامرة ضخمة وصـريحة وعامـة، يشارك فيها الداخل والخـارج –دفع دفعًا قويًا في اتجـاه الغلـوّ. ومن السهل تكفير حاكم ثبت أنه يضرّ بمصـالح المسـلمين عمـدًا لصـالح الكافر الأجنـبيّ حبًا فيه وولاءً لـه، وهـذا ما يعتقـده كثـير من الغُلاة،

وهو يعبّر عن جهل عريض بطبائع الأشياء، وعن جهل عريض بطبيعة العمل السياسيّ وتعقيداته وموازناته.

4- الضـــغط الخـــارجيّ والهيمنة الأجنبيّة على بلاد المســـلمين ومكتسباتهم وثرواتهم يجعل التـوازن الفكـريّ يختـلّ لـدى كثـير من الناس –ولاسيما الشباب- فتجد الخـانع التـابع الخـائف والبـاحث عن فرصة لإظهار ممالأته للأجنبيّ، وتجد الغالي الذي يريد تحرير العـالم الإسلاميّ بأقصى سرعة وبكل وسيلة.

5- العُزلة وإنضـاج الأفكـار في الظـلّ بعيـدًا عن أجـواء المنـاظرة والحوار والجهر بالدعوة، وإذا تأمّلنا في تـاريخ الـدعوات المنحرفـة؛ فإننا نجد أن السـواد الأعظم منها نشـأ، وترعـرع تحت الأرض بعيـدًا عن الأنظار، وإنّ ضرْب حظر على الأنشـطة السياسـيّة والاجتماعيّة في كثير من البلدان الإسلاميَّة، يدفع كثيرًا من الشباب إلى الاعتقـاد بأن الطريق الوحيد المتبقّي لتحقيق أهدافهم في نُصرة الإســلام هو سلوك طريق العنف والقتال.

ممارسة الأنشطة الدّعويّة والاجتماعيّة والسياسـيّة تُبقي بـاب الأمل للإصلاح مفتوحًا؛ ولذا فـإن المجتمعـات المفتوحة تكـون معاناتها من الغلوّ أقل من غيرها.

6- المثاليّة والنظر إلى الأمـــور بعيـــدًا عن الواقـــع: إن كثـــيرًا من المُغالين لا يـرون إلا جـزءًا من الصـورة، وهو تراجع مسـتوى حكـام المسـلمين عن المسـتوى الـذي كـان عليه حكـام الأمة في صـدر الإسـلام، أو الـذي كـان عليه الصّـفوة من حكـام الأمة على مـدار التاريخ الإسلاميّ. وهم لا ينظرون إلى التراجع الخطـير الـذي حـدث على المسـتوى الشـعبيّ العـام. إنهم يريـدون حُكْمًا راشـديًا على شـعوب بعيـدة عن أخلاق الصـحابة -رضـوان الله عليهم- والـتزامهم الصارم، ويذكّرني هذا بقوْل من قال لعلي -رضي الله عنه-: "إنك لا تسير فينا سيرة الشيخيْن: أبي بكر وعمـر؟ . فقـال: نعم. الشـيخان كانا أمـيريْن على أمثـالي، وأنا أمـير على أمثـالكم". وقـال معاوية -رضي الله عنــه- لابنه يزيد حين عيّنه وليًا للعهــد: كيف ستســير في الناس بُعَيْدي؟ فقال: سأسير فيهم سيرة الشيخيْن: أبي بكر وعمـر، فقال معاوية: حـاولت فيهم سـيرة عثمـان فلم أسـتطع". حين تتجه السفينة نحو القاع فإن الماء يغمر كل أجزائها، وحين تراجع مستوى الالتزام في الأمة لم ينجُ منه إلا القليل، وفي بعض المجـالات وليس في جميعها. إن كثـيرًا ممن يحملـون الفكر الغـالي يملكـون شـعورًا مبالغًا فيه بــالواجب، ويحمّلــون أنفســهم تكــاليف لم تحمّلهم إياها

الشريعة الغرّاء؛ مما أدّى بهم إلى ركوب المركب الصعب، ثم أخذوا يحـاولون جـرّ غـيرهم إلى ما صـاروا إليـه، ولو اقتضى ذلك تكفـير المسلمين وحمل السلاح عليهم.
7- ثبت أن كثــيرًا ممن تُمــارَسُ القســوة في تــربيتهم، تنشأ في نفوسهم أحقادٌ دفينة، وتميل طبيعتهم إلى القسوة، ويُظهرون قــدرًا أقلَّ من التسامح مع المخالِفين، ومع الأفكار المباينة لأفكارهم.
8- استُخْدِم العنفُ الشديد ضدّ بعض الشباب، واستُخْدِمت أنواعٌ من التعـذيب تمسّ الكرامة الإنسـانيّة، وتؤكّد لهم أنه لا يُعقل أن يقـوم بذلك أناس يخافون لقـاء الله أو يؤمنـون بـه. وهـذا قـدّم برهانًا قويًا للقائلين بالتكفير وبنظريّة المؤامرة.
9- لم يسـتطع كثـير من الإعلاميّين، وكثـير من المنـاوئين للشـباب الـذين يحملـون أفكـارًا غالية -أقـول لم يسـتطع هـؤلاء أن يظهـروا بمظهر الخصْم الشـريف؛ فألصـقوا بهم أشـياء لم يفعلوهـا، ونسـبوا إليهم أقوالاً لم يقولوها، وبعضهم اسـتغلّ موجة الهجـوم على الغلـوّ ليجعل من كلامه هجوماً على الإسـلام، وهـذا زاد في غلـوّ الغـالين، وأكّد لديهم صدق معتقداتهم في اتّهام الخصوم.
إننا هنا لا نسـوّغ لأحد الغلـوّ، ولا نقـدّم عـذراً للغـالين، ولكن نحـاول فهم جذور هذه الظـاهرة ومنطلقاتهـا.وأعتقد أن فتح أبـواب الحِـوار سيسـاعد كثـيراً في امتصـاص هـذه الظـاهرة، وقد ثبت من تجربة بعض الحكومــات العربيّة في هــذا الشــأن نجاعة التعامل بــاحترام وتقـدير، وانفتـاح وعقلانيّة ومصـداقيّة مع حَمَلة الفكر الغـالي. وهي تجربة قابلة للتّكرار. ...

================

مملكة الروح

أرواحنا وليست عقولنا هي مكمن وجودنـــــــا، وهي البعد الأرحب والأعمق في شخصـــياتنا. في أرواحنا تجتمع الروعة مع الغمـــوض، ومنهما معاً تتولد الحيرة، والعالم حائر في أمر الروح اليـوم، وحـائر في التعامل معهـا. وقد مسّ أمة الإسـلام في أيامنا هـذه شـيء من هذا وذاك. ليست مهمة الإيمان مقصورة على رسم الفضاء النظري لمعتقـداتنا ورؤانـا، وإنما أيضًـا منحنا التمـيز في عـالم فقد الإيمـان ودخل عالم الشك والضـياع. إن الإيمـان بالله -تعـالى- يمنحنا مـيزة فورية هي صعوبة سجننا داخل معطيـات مادية محـدودة. إنه يخرجنا فورًا من العالم المحدود والمحسوس إلى عالم من غير حدود.

وذلك العـالم عـالم الـروح وعـالم الغيب. في العـالم المـادي يشـعر الإنسان دائمًا بالانكماش والضعف، ويجد نفسه محاصرًا بالضرورات ومهددًا بنفاد الطاقة. لكن في عالم الروح الأمر مختلـف، كل شـيء يتمدد، ويتسع، ويكبر؛ فيشعر المؤمن بمـدد لم يحسب حسـابه يغمر كيانه كله بالنور والحبور.

هدفنا الأعظم نحن المسلمين أن نفوز برضوان الله -تعـالى-، وهـذا الفوز يشكل مرجعية وأولوية بالنسبة إلينـا، بمعـنى أن الـذي يـدخل البهجة على نفوســنا، ويغمر أرواحنا بالســرور النقي يجب أن يظل دائمًا في إطـار محبوبـات الله -تبـارك وتعـالى-، كما أن كل أشـكال الارتقاء المادي وكل المغانم والمكاسب التي نحاول الحصـول عليها يجب أن تتم داخل ذلك الإطار.

وهـذه نقطة مفاصـلة بيننا وبين الأمم الأخـرى. إن الأمم الـتي تقـود الحضــارة اليــوم قد أسست منذ مــدة لوضــعية فيها الكثــير من المجافــاة للــروح؛ حيث الأولوية لرفاهية الجســد، وحيث الحكم لمنتجـات العقل ومعطيـات الخـبرة والممارسـة. وليس في إمكـان القــوم على المــدى القــريب فعل أفضل من ذلك ما دامــوا فقـدوا المفاهيم والرمزيات الـتي تجعل اسـتمداد الـرؤى من الـوحي شـيئًا معقـــولاً أو مقبـــولاً. إن الإيمـــان يجعلنا ننظر بجدية إلى أن كل التحسينات التي نـدخلها على بيئاتنا وعلى أوضـاعنا العامة لا تشـكل غاية في حد ذاتهـا، وإنما هي وسـيلة لمسـاعدتنا على تعميق صـلتنا بالله -تعــالى- وعلى النجــاح في الابتلاء الــذي كتب علينا في هــذه الحياة.

إن مما يدعو إلى الأسف أن هذا المعـنى المحـوري قد لحقه الكثـير من الحيف في هــذه الأيــام؛ حيث تعمل العولمة على إغــراق وعينا بجزئيــات وفرعيــات وتفصــيلات لا نهاية لهــا. ومع أن الاهتمـــام بالتفاصيل يظل علامة على الارتقـاء؛ إلا أن ذلك يجب أن يكـون في إطار الأصول والمبادئ الكليـة، وإلا تحـول إلى عامل يطمس ملامح توجهنا العام، فنفقد الغاية العظمى، وتصبح حركتنا في الحياة أشـبه بكوكب فقد مداره. الخلاصة أن مواصفات زماننا التي تزداد رسـوخًا وتعميمًا لا تخدم عالم الروح، ولا تلائم متطلبات الإيمان، وهذا يعـني أن على المســلم الــذي يريد أن يحيا وفق مبادئه وعقيدته أن يعـوّد نفسه السـباحة ضد التيـار، وأن يمتلك طاقة اسـتثنائية على التحمل والممانعة، ولدينا العديد من الآثار التي تدل على ما يلاقيه المتمسك

بدينه في زمـــان كزماننا من عنت ومشـــقة، كما ورد ما يـــدل على عظم الأجر وجزالة المكافأة التي أعدها الله -تعالى- له.
لا يخفى علينا أننا في عـالم يقـدّس القـوة على حسـاب الرحمـة، ويحتفي بالمـادي على حسـاب المعنـوي، وينخـرط في العاجل على حساب الآجل، وينظر إلى الطيبة على أنها نوع من السذاجة، وينظر إلى الحـــديث عن الأخلاق على أنه شـــيء يـــنزع إلى المثاليـــة، والمتحدث عنها يستحق شيئًا من الإشفاق!. وفي عـالم كهـذا تكـون الأحاديث حول الرجاء والخوف والمحاسـبة والمناجـاة والشـوق إلى الله -تعالى- وتذكر الصراط والميزان والكوثر وشـقاء جهنم... شـيئاً يـدل على العيش خـارج العصر وبعيـدًا عن دوائر الاهتمـام. وهـذا بالضبط ما يجعل مملكة الروح تبدو موحشة ومهجورة!.
إن المسلم في هذه الحيـاة يحتـاج إلى أمـور كثـيرة، لعله يـأتي في مقـــدمتها أمـــران: رؤية راشد مســـددة للواقع بفرصه وإمكاناته وتحدياته... وطاقة تساعده على قطع طريق طويل مملوء بالصعاب والعقبات.
التفكير والتأمل والتثقف والحوار... أمور تساعد على تكـوين الـرؤى الجيدة. ويبقى علينا أن نتعلم كيف نحصل على مفتـاح منجم الطاقة والقدرة المطلوبة.
إن الإيمان بالله -تعالى- حين يتجـاوز وضـعية القناعة العقلية ليصـبح مصـــدرًا للشـــعور بمعية الله -تعـــالى- والأنس به والتوكل عليه والاستعانة به والثقة بما عنده... فإنه يصـبح آنـذاك المولّد الأساسي لـــروح المقاومة وروح المبـــادرة وروح الاســـتمرار لـــدى الإنســـان المسلم.
الإيمـان حـتى يكـون كـذلك فإنه يحتـاج إلى شـيء غـير الفكر وغـير الثقافة، إنه يحتـاج إلى التعبد والتنفل والإكثـار من ذكر الله -تعـالى- ومناجاتـه... ولا ريب أن من يفعل هـذا يكـون في الأسـاس قد صـار أداء الواجبات وترك المعاصي شيئًا مالوفًا في حياته وموضع الـــتزام صارم.
في هذا الإطار يقدم لنا شهر رمضان المبارك الذي نتفيأ ظلاله هـذه الأيام الفرصة الذهبية لاستعادة شيء من أمجاد الـروح السـليبة. إن الصـيام في حد ذاته هو إعلان من المسـلم بأنه قـادر لمـدة شـهر كامل أن يفتح قوسًـا في سلسـلة أنشـطة تسـتهدف خدمة الجسـد، وذلك من أجل إنعاش الروح. إن عـالم ما بعد الحداثة يـدفع بالنـاس للعيش في وسط مائع خال من القيود وغـير محـدود بحـدود. ويـأتي

الصوم بحرفية توقيته من الفجر إلى المغـرب ليمنح المسـلم فرصة التأكيد على أن التـدين الصـحيح يـوفر للمسـلم تريـاق المناعة ضد موجات التحديث الـتي تسـتهدف تفكيك المنظومة الفكرية والخلقية التي تساعدنا على أن نظل بشرًا أسوياء.
إن الاعتكاف قد بات بين السنن التي هجرها كثير من المسلمين مع أنه يـــوفر فرصة عظيمة لالتقـــاط الأنفـــاس اللاهثة خلف مكاسب مؤقتـــة، كما يـــوفر فرصة نـــادرة لإرواء أرواحنا الظامئة وتحريك عواطفنا الجامدة.
إن في إمكاننا أن نتخذ من رمضـان مناسـبة لمراجعة أحـداث عـام كامل ومن خلال تلك المراجعة فقد نتمكن من العــــودة إلى مملكة الروح ومغادرة عالم الوهم والسراب؛ فهل نحن فاعلون؟
==============

على المدى البعيد

كنت قد تحدثت في مقالين سابقين عما يجب عمله في كل الأحوال والظروف إيماناً مـني بـأن هنـاك شـيئاً ما يمكن القيـام به من أجل نجاح العبد وفلاحه في أمور دنياه وآخرته. وأود في هـذا المقـال وما يليه من مقـالات أن أتحـدث عن نوعية الوسط أو البيئة الـتي يجب العمل على المـــدى الطويل من أجل بنائهـــا؛ كي يتـــوفر للإنســـان المسـلم الجو الملائم لأفضل عطـاء وأفضل إنجـاز ممكن. والحقيقة أن أية أمة لا تستطيع استنفار طاقاتها والسـيطرة على أوقاتها على وجه مقبول من غير رؤية (اسـتراتيجية) لماهية البيئة الـتي يجب أن تحيا فيها أجيالها القادمــة. ونحن بوصــفنا أمة مســلمة لها منهجيتها ورؤيتها وتطلعاتها الخاصـــة، نعتقد على نحو جـــازم أن كل أشـــكال التنمية وكل أشكال التغيير والتطوير يجب أن تستهدف شيئاً واحــداً هو توفير بيئة تساعد الإنسان المسلم على القيام بأمر الله -تعـالى- على أفضل وجه ممكن، وهذه الرؤية نهائية وواضحة، وهي مستمدة من مجموعة العقائد والمفـاهيم الكـبرى الـتي نحملهـا، وهي رؤية متفردة، ليست لأي أمة من أمم الأرض اليوم، وهي إحدى سنن الله علينا.
إذا كان من غير الممكن -في عالم الأسباب- توقع حصـول مسـتقبل مغاير مغايرة كبيرة للواقع؛ فإن علنا - إذا ما أردنا تكوين البيئة التي نريد - أن نحسَّـن ونرشَّـد القـرارات اليومية الـتي نتخـذها في كل صــعيد وعلى المســتويات كافـــة؛ إذ إن تشـــييد البنيـــات الثقافية

والأخلاقية والاجتماعية يحتـــــاج إلى أزمنة متطاولة وهو لا يتم على النحو الصحيح إلا من خلال العمل الحكيم والجذري والمتدرج.
البيئة تعـني مجموعة المفـاهيم والأخلاقيـات والتقاليد والظـروف والمعطيات والنظم المتوفرة والسائدة في بلد من البلدان .
وإن البيئة ذات دوائر متسعة منفتحة، والدائرة الأضيق بالنسـبة إلى كل واحد منا هي الأكثر تأثيراً في حياته؛ فالأم هي أكثر من يؤثر في الطفل ثم الأسرة عامة، ثم الأقرباء وأهل الحي وهكذا...
والبيئة من وجه آخر أشـبه بحبل غليظ مكـوَّن من ألـوف الخيـوط والشعيرات الدقيقة، وكل عـدد من تلك الخيـوط والشـعيرات ينتمي إلى مجال من المجـالات الروحية والمعنوية والماديـة. وقد دخل في نسيج ذلك الحبل في مرحلة من مراحل تكوّن ثقافة الأمة والأوضاع العامة التي تحيا فيها. وهناك تقريب للفكـرة وإشـارة إلى بعض تلك الخيوط والشعيرات في عدد من الأحاديث النبويـة، منها قوله صـلى الله عليه وسلم: "كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يـوم تطلع في الشـمس تعـدل بين الاثـنين صـدقة، و تعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشـيها إلى الصـلاة صـدقة، وتميط الأذى عن الطريق صـدقة"، وقوله : " الإيمـان بضع وسـبعون أو بضع وسـتون شـعبة، فأفضـلها قـول: لا إله إلا اللـه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريـق، والحياء شعبة من الإيمان" وقوله: "كل معروف صدقة".
إن قول الله - جل وعلا -: (فمن يعمل مثقال ذرة خـيراً يـره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يـره) يـدل على رؤية النـاس لجـزاء أعمـالهم في الآخرة، ويمكن أن نهتدي به في القول: إن ما يفعله النـاس من خـير وصـلاح ومعـروف وتنمية جيـدة - إن كل ذلك يرونه في نوعية الأوضاع والظروف العامة التي يعيشـون فيهـا، والـتي سـتعيش فيها ذراريهم من بعدهم؛ كما أنهم جميعاً سيرون آثار ما يصـدر عنهم من شـرور وآثـام وأخطـاء وخطايا على شـكل صـعوبات ومشـكلات ومعوقات في وجه الحياة الطيبة التي يسعون إليها.
وإني أعترف هنا -وقبل كل شيء- أنني لا أملك الإمكانية الذهنية ولا المعرفة الكافية لرسم ملامح خطة شاملة وبعيدة المـدى تسـتهدف توفـير بيئة تسـاعد الفـرد المسـلم والدولة المسـلمة على النهـوض بأعباء الاسـتخلاف في الأرض، لكـني سـأبذل جهـدي في وضع بعض النقـاط على بعض الحـروف الكبـيرة، ومن الله - تعـالى- الحـول والطول.

1- قلما وجّه الـدعاة والمصـلحون لـدينا اهتمـامهم إلى نوعية البيئة الـتي يحتـاج إليها المسـلم كي يحيا زمانه بفاعلية ودرجة من الراحة في إطار العقيدة والقيم والآداب التي يؤمن بها، فقد كان الاهتمام -وما زال- بما يجب قوله أو بشـروط الداعية النـاجح دون النظر إلى الشروط الـتي تجعل المـدعوين أقـرب إلى التفاعل والاسـتجابة مع أن تأثير الظروف والمعطيات السـائدة في توفـير خيـارات الحركـة، وفي حفز الناس على تحديد اتجاهاتهم ومواقفهم تأثير هائـل، وأكـبر بكثير مما نظن.

إن الفـرق بين البيئة المعاكسة والبيئة المواتية للاسـتقامة والرشـاد والعطاء كالفرق بين من يسبح عكس التيـار، ومن يسـبح مع التيـار؛ حين نطلب من شـاب أن يبـدع ويصـبح باحثـاً متمـيزاً في فـرع من فروع العلم، ونجد أنه يعيش مع خمسة من إخوته في حجرة واحدة، وليس معه ثمن مرجع يشـتريه، ولا تكـاليف تجربه يجريهـا، كما أنه ليس في البلد الـــذي يقيم فيه مكتبة عامة ولا مركز تـــدريب ولا جمعية خيرية تمد يد العــون في شــيء.. حين نطلب ذلــك؛ فــإن الاستجابة ستكون في منتهى الصعوبة، وستكون في معظم الأحيـان هزيلــة، وسـيكون المسـتجيبون من الشـباب للتحفـيز على البحث والإبــداع قلة قليلــة، أما البــاقون فــإنهم سيرضــخون للظــروف وسيرضــون بأقل القليل من الإنجــاز. وهــذا ما هو حاصل فعلاً الآن في كل أنحـاء العـالم، وفي كل مجـالات الحيـاة. البيئـات المحطّمة والهشة والجاهلة تحطم قــــوى من يعيش فيهـــا، وتحطم تطلعاته وطموحاتــه، وتجعل آفاقه محــدودة. ولهــذه القاعــدة شــذوذات ملموسة ، لكن الــذي يمنح الحيــاة ملامحها ليست الأمــور الشــاذة والنادرة وإنما الأمور الغالبة والكثيرة.

إن بلداً صغيراً مثل هولندا أو بلجيكا يسجل من براءات الاخـتراع ما يعــادل نصف ما يسـجله العــالم الإســلامي بطوله وعرضــه!، وإن بـراءات الاخـتراع الـتي تسـجل في (إسـرائيل) سـنوياً يزيد على ما يسـجل في الـوطن العـربي ذي الثلاثمائة مليـون!!، وإن ما تنشـره جامعة (هارفارد) من بحوث سـنوياً يعـادل ما تنشـره كل الجامعـات العربية مجتمعة!!.

2- إذا تأملنا في ردود أفعال الأمة على جملة الانحرافات التي كانت تحدث فيها لوجدنا أننا على مدار التـاريخ – مع اسـتثناءات مقـدَّرة – كنا نعالج مشكلاتنا بوسيلتين؛ هما: سنّ المزيد من النظم والقـوانين التي تقيّد حركة الناس وتحدّ من اندفاعاتهم، وقد عبّر عن هـذا عمر

بن عبد العزيز -رحمه الله- حين قال: " يحـدث للنـاس من الأقضـية على مقدار ما يُحدثون من الفجور" أي يحدث نوع من التشـديد في الأقضـية والجـزاءات على مقـدار ما يصـدر منهم من تصـاعد في الانحراف.

والوسيلة الثانية هي: (القـوة) بكل ما تعنيه هـذه الكلمة من معـنى، وقد أشـار إلى ذلك عثمـان – رضي الله عنه – حين أطلق مقولته الشهيرة: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"، ولو أن أبا بكر – رضي الله عنه– قال ذلك لما قُبل منه ولما كان دقيقاً؛ لأن الـردع في زمانه كان بـالقرآن (وهو ما نعـبر عنه اليـوم بالثقافـة) أكـثر من الـردع بالسـلطان (وهو ما نعـبر عنه القـوة)، ومع اضـمحلال دور الثقافة والوازع الداخلي كان اللجوء إلى استخدام الشـدة في إدارة الحياة العامة يتعاظم وينتشر، وقد نقل ابن حجر في فتح الباري عن الشـعبي قولـه: " كـان عمر فمن بعـده إذا أخـذوا العاصي أقـاموه للناس ونزعوا عمامته، فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسـياط، ثم زاد مصـعب بن الزبـير حلق اللحيـة، فلما كـان بشر بن مـروان سمر كفَّ الجـاني بمسـمار، فلما قـدم الحجـاج قـال: هـذا كله لعب فقتل بالسيف".

النتيجة النهائية لهـذه وتلك هي إخـراج المسـلم الخـائف والخـانع والسلبي والإمعة وإخـراج المجتمع الـذي يُظهر ضـروباً من الامتثـال للنظم السارية في الوقت الذي يضمر فيها روح التمرد والتبرم، كما يضـمر الكثـير من السـلوكات والأعمـال السـيئة. ومع إيماننا بأنه لا يمكن لمجتمع أن يعيش من غـير نظم وقـوانين توجه الحركة الاجتماعية وتشـكل المرجعية الأخلاقية والتنظيمية للنـاس، ومع إيماننا بأن الدولة مهما كانت عادلة وفاضـلة وناجحة لا تسـتغني عن استخدام شيء من السـلطة والقـوة؛ إلا أن علينا أن نـدرك أن هـذا الأسلوب في معالجة الأخطاء ليس هو الأسـلوب الصـحيح من وجهة النظر الإسـلامية، ولا هو بالأسـلوب العملي والمنتج والملائم لبلـوغ الأهداف التي نسعى إليها.

على المدى البعيد لابد من العمل على توسيع مجال عمل (الثقافـة) في تحديد مسـارات المجتمع وفي كبحه عن الانحـراف والرذيلة . فجـوهر الإيمـان والإسـلام لا يقـوم على الإكـراه ولا على الامتثـال للضـغط الخـارجي، وإنما يقـوم على الاختيـار والمبـادرة الشخصـية والشـعور بالمسـؤولية. والدولة الفاضـلة هي الـتي تـدير شـؤون مجتمعها بأقل قـدر من القـوانين ومن أدوات القهر والإكـراه،

والفضيلة لا تكون لذلك إلا بتعشق الناس لها واسـتعدادهم للتضـحية من أجلها.
إن كــثرة الســجون وتصــاعد الرقابة الصــارمة، وسن المزيد من القــوانين؛ هو دليل على قصـور التنشـئة الاجتماعيـة، كما أنه دليل على ضـعف الإيمـان وأدبيـات التـدين السـائد في تشـكيل مواقف الناس وسلوكاتهم، ودليل على ضـعف جاذبية الدولة في كسب ولاء النـاس وتجـاوبهم. وقد آن الأوان للتفكـير العميق والعمل الجـاد من أجل تشكيل بيئة يمتنع فيها الناس عن الانحراف والفساد بـدافع من إيمانهم وخوفهم من الله –تعالى- وليس بـدافع من خـوف الدولة أو كلام الناس. ومـداخل مثل هـذا الاتجـاه واضـحة لـدى أهل البصـيرة والخبرة.
فــإن وضع الأمة في بيئة تســاعدها على تحســين إنتاجيتها وتحرير طاقاتها واكتشــاف إمكاناتها الحضــارية الكامنــة؛ يتطلب أن نعطي لمسائل الأمن والاستقرار والسلام والوئام الاجتمـاعي جـلَّ اهتمامنا وعنايتنا.
حين يضــطرب حبل الأمن فــإن الفرصة تصــبح متاحة لظهــور كل أشكال التوحش والهمجية التي اختفت تحت قشـرة رقيقة من طلاء الحضــارة. وقد دلت شـــواهد التــاريخ ومعطيــات الواقع أن أشد الحاجـات إلحاحـاً تتمثل في اهتـداء النـاس إلى طريقة ناجعة لإدارة العنف والتوتر الذي ينشأ نتيجة تصادم رغباتهم ومصالحهم؛ حيث إن اجتمـاع النـاس بعضـهم مع بعض على مقـدار ما يـوفر من المبـاهج والمسرات والمشاعر الحميمة يوفر إمكانات التناحر والتحارب.
حاجة الناس إلى أن يتعايشوا في إطـار نظم وقـوانين توضح مبـادئ حقـوقهم وواجبـاتهم حاجة ماسَّـة؛ لكن هـذه الحاجة لا يمكن تلبيتها في أجواء الحرب الأهلية والتطاحن الاجتماعي.
إن القانون السائد مهما كان غير عادل وغير مكتمل فإنه يظل خيراً من الوضـعيات الـتي لا يحكم فيها أي قـانون حيث يتحـول المجتمع إلى غابة ليس فيها إلا مفترِس ومفترَس وظالم ومظلوم!.
ليست إدارة العنف داخل المجتمعات بالأمر السلس واليسير، فهـذه القضـية دوَّخت العـالم من أدنـاه إلى أقصـاه، والتقـدم الـذي تحقق على صعيدها نسبي وغير مرضٍ في معظم الحالات، ولعلي أقف مع هذه المسألة الوقفات التالية:
1- هنــاك تشــوق إنســاني عميق إلى ما يمكن أن نســميه (تحقيق الــذات) حيث يتطلع الإنســان إلى أن يؤكد لنفسه وللآخــرين قدرته

على القيادة والتـأثير واسـتحقاقه للريـادة والتسـامي نحو المعـالي. وهو في سـبيل ذلك مسـتعد للتضـحية والبـذل كما أنه مسـتعد عند الحاجة لتجاوز كل المبـادئ والقيم؛ بل ارتكـاب الجـرائم إذا اقتضت الضـرورة ذلـك!. الأنشـطة الروحية والأدبية والتطوعية والاجتماعية تساعد المرء على تحقيق ذاته والكشف عن إمكاناته؛ فهذا يحقق ما يتطلع إليه عن طريق تأسـيس رابطـة، وذاك يحققه عن طريق رئاسة جمعية، وثالث يحققه عن طريق الانخـراط في حركة لحماية البيئة وهكذا..، لكن بما أن كل جماعي يؤسس لسلطة جديدة، ويثير حساسية معينة لدى بعض الجهات؛ فإن هنـاك رغبة قوية في ابتعـاد الناس عن كل الأنشطة الجماعية والحرة مهما كانت نبيلة الأهـداف وعظيمة الفوائد والنتائج. ومن هنا فإن انسداد الآفاق أمام الأنشطة المشار إليها أو تضـييقها وانحسـارها إلى حد كبـير؛ دفع بالنـاس إلى أن يجعلـوا تحقيق ذواتهم يتم عن طريق جمع الأمـوال والـثروات واقتنـاص الوجاهة وإظهـار السـيطرة عن طريق التفنن في إنفاقها واسـتخدامها. وبما أن المعـروض من (المـال) هو دائمـاً أقل من المطلوب – حيث لا يملأ فم ابن آدم إلا التراب- فإن منافسة ضـارية قد اشـتعلت في كل مكـان من ديـار المسـلمين وعلى كل المستويات، وعلى مـدار التـاريخ كـانت المنافسة متصـلة بانحطـاط المدنية وسـوء الأخلاق، حيث يـدفع الحـرص على جمع المزيد من المـال نحو الكـذب والغش والخـداع والرشـوة والتضـحية بالكرامة وارتهـان الـذات.. وقد صـرتَ تلتقي بأشـخاص كثـيرين لا تـرى فيهم أبـداً ما يـدل على أنهم يرجـون الله والـدار الآخـرة، أو يقيمـون أي اعتبار لمبادئ الإسلام وقيمه! وفقدت الحيـاة بـذلك أجمل معانيهـا!. إن إطلاق الأنشـطة الروحية والأدبية والتطوعية المختلفة والتحفـيز عليها وتيسـير سـبلها، يخفف إلى حد كبـير من الطلب على المـال، ويخفف بالتالي من حدة التعانف الأهلي والتوتر الاجتماعي.

وأعتقد أن علينا أن نبتكر في إيجاد الأطر والأوعية والنظم التي تتيح للناس الشعور بتحقيق الـذات وإشـباع التطلعـات على نحو لا يتصل بالمال أو أي اعتبار آخر.

2- لن يتحقق السـلام في مجتمعاتنا ولا الأمن ولا الاسـتقرار ولا الشـعور بالانتمـاء للـوطن ما لم يسد العـدل وتكـافؤ الفـرص ونفـاذ القوانين عل الناس دون اسـتثناء ودون اعتبـار خصوصـية لأي كـان. والحقيقة أن الإسـلام عـانى طـويلاً مع العـرب ومع كل المجتمعـات التي تقـوم فيها الروابط على أسـاس العـرف والنسـب؛ وكـان الهمُّ

المســــيطر خلال تاريخنا الطويل – على المســــتوى السياسي والقــانوني- هو نقل المجتمعــات الإســلامية من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الدولـة، أي من مرحلة الــولاءات والتكتلات وتبـادل المنـافع على أساس الولادة ومعطيات التاريخ إلى مرحلة الخضـوع للأحكـام الشرعية والقوانين والنظم السارية. ويجب أن نعترف أنه لم تسجل اختراقــات ذات شــأن على هــذا الصــعيد. وعلى نحو عــام فــإن النجاحات كانت محدودة جداً وهذا الإخفـاق في الانتقـال من مرحلة الدولة كـان السـبب الجـوهري وراء كثـير من الفتن والثـورات الـتي كـــانت تجتـــاح الأمة في العديد من فتراتها التاريخيـــة. وهو نفسه السبب الكامن خلف سلبية الإنسـان المسـلم عامة والعـربي خاصة تجاه المخـاطر المحدقة الـتي تتعـرض لها بعض الأوطـان الإسـلامية إلى درجة أن يقـــوم النـــاس ويحتجـــوا في الغـــرب ضد ممارسة حكومـاتهم تجاهنـا، ونحن سـادرون غـافلون ومنهمكـون في همومنا الشخصية، وكأن الأمر لا يعنينا من قريب أو بعيد!!.

حين سرقت امرأةٌ من بني مخزوم – فخـذٌ من أنبل أفخـاذ قـريش- أهمّ ذلك قريشـــاً: كيف تُقطع يـــدُ مخزومية ؟! وقـــالوا: من يكلّم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا أسامة بن زيد حبُّ رسـول الله؟ فكلّمه أسامة في ذلك، فقـال الرسـول: " أتشـفع في حد من حدود الله ؟! ثم قـام – عليه الصـلاة والسـلام – خطيبـاً في النـاس ليعلن لهم مبدأ من أهم المبادئ التي تقوم عليها الأمم والحضــارات العظيمة حيث قال: " إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضـعيف أقـاموا عليه الحـد!. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

ربما نكون قد قدَّمنا نموذجاً واحداً ثابتـاً وشـاملاً في مسـألة تكـافؤ الفـرص وإشـاعة العـدل والتعامل على أسـاس الكفـاءة الشخصـية وليس على أي أســاس آخــر؛ ذلك النمــوذج هو ما يتم في تشــكيل المنتخبات الوطنية التي تمثل بلاد المسـلمين في الألعـاب الرياضـية الدولية. هنا يتم تحري الأكفأ والأليق دون حساسيات ودون حسابات خاصة ودون اعتبار لمنافع جانبية؛ في الأعم الأغلب. وأنت تلاحظ ما يثـيره هـذا السـلوك الجيد من حمية النـاس وحماسـتهم وتعـاطفهم حيث ينقلب الشخص غير المكترث بذهاب وطن إلى إنسان مشتعل حماساً إلى درجة لا تُصـدَّق بسـبب دخـول كـرة فريقه الوطـني في شباك مرمى المنـافس!، وإني لا أشك أن النـاس سـوف يتفـاعلون ويبـذلون ويهبّـون تجـاه كل المسـائل الكـبرى إذا شـعروا أن الأمـور

تجـري فيها على ما ينبغي، ووجـدوا الإطـار الـذي يعـبرون من خلاله عن ذلك؛ فالخير متأصل في النفوس والولاء لأمة الإسلام وللمجتمع الإسلامي ضارب أطنابه في أعماق شخصية المسلم.

الوطنية في جوهرها شعور بشرف الانتماء لبقعة من الأرض تحكمها نظم وقوانين واحـدة، ويجمع النـاس الـذين يعيشـون عليها الالـتزام بمبادئ وقيم موحدة، والسعي إلى أهداف متقاربة ولا معنى للانتماء إلى أرض لا تتوفر فيها هذه المعاني. وقد قال أحـدهم : لمـاذا أدافع عن وطن لم يؤمّــني من خــوف، ولم يُطعمــني من جــوع، ولم يساعدني على ارتجاع حقي المغتصب؟!.

3- يتطلب اسـتتباب الأمن والشـعور بالسـلام والاسـتقرار إحسـاس الناس بأن لهم نوعاً من المشاركة في إدارة الشـأن العـام. أما في الأمور اللصيقة بهم؛ فلا يُتخذ قرار دون موافقة أغلـبيتهم عليـه. وإن قــول ا لله – جل وعلا- (وأمــرهم شــورى بينهم) يوضح أن بعد الشــورى ليس سياســياً فحســب؛ وإنما لها أبعــاد أخــرى: أخلاقية وتربوية واجتماعية.

على المستوى السياسي من المهم جداً أن يعـرف النـاس أنهم من خلال الشــورى يســتطيعون تحقيق ولايتهم على أنفســهم ، ويستطيعون أن يثقوا أنهم إذا ابتلـوا بحكومة سـيئة، فـإنهم قـادرون على التخلص منها من غــير إراقة دمــاء أو تخــريب للمرافق والممتلكـات العامـة؛ فالسـلم الاجتمـاعي لا يـأتي من خلال الـدعوة إليه، وإنما من خلال فتح طـرق للتغيـير والتطـوير والتحسـين، تبتعد عن التآمر والقتل والتخريب. إننا أحيانـاً نمتنع عن استشـارة النـاس خوفاً من أن يـأتوا بعناصر سـيئة تسـيء للـدين والمصـلحة العامـة، وهذا الخوف مقـدَّر ومعتـبر وقد يحـدث هـذا فعلاً في بعض الأحيـان ولاسـيما في البـدايات أو عند فسـاد التربيـة، لكن هـذا لا يشـكل القاعدة، فالولاء للدين وللصلاح والكفاءة قوي جـداً في الأمـة؛ وفي الإمكـان وضع ضـوابط تحد من مخـاطر هـذا الأمـر. وعلى كل حـال فلن نستطيع أبداً العثور على صيغة في إدارة العنف وتسيير الشـأن العام، تخلو من السلبيات أو الأخطاء. ولا بد في سبيل أن تنال بعض الأشياء من أن تخسر أشياء أخرى. هذا هو حـال الإنسـان الـذي يجد نفسه أبــداً عــاجزاً عن الصــدور عن رؤى كلية وبنــاء تنظيمــات وترتيبات كاملة.

إننا في حاجة ماسَّة حـتى ننهض ونتخلص من أشـكال العنف إلى أن نجعل الشــورى تقليــداً محترمــاً في بيوتنا ومدارســنا ودوائرنا

ومؤسســاتنا وكل مناشط حياتنــا؛ فالقضــايا الكــبرى تظل قضــايا خاســرة ما لم تتصد الأمة لحملها والمســاهمة في إنجاحهــا. وكل حمل يتم خارج رحم الأمة هو أشبه بالحمل الكـاذب. لكن الأمة غـير مستعدة للتضحية ما لم تشعر أنها تشـارك في صـنع القـرار، وأنها ليست عبــــارة عن أدوات للتنفيذ فقـــــط. وعلى علمائنا ومفكرينا وخـبراء التشـريع والقـانون فينا أن يبـدعوا في إيجـاد صـيغ تنظيمية تجعل الشورى أسلوب حياة، كما تجعل منها أداة للإصـلاح والارتقـاء في إطار الأصول والثوابت التي نؤمن بها.

4- إنني أتساءل دائماً: هل يمكن للأمن والنظام والسلام والاستقرار والتعايش السلمي أن يتم في أي مجتمع من المجتمعات دون وجود تنظيم جيد للنقد والمعارضة وتضارب الرؤى والآراء والاتجاهات؟

ليس من المقبول في اعتبـار العقل والشـرع أن يقـول من شـاء ما شاء دون خوف المساءلة القضائية عن صحة ما يقـول، ولا أن يفعل النـاس ما يعنّ لهم ولو كـان ضـاراً بالمصـلحة العامـة. كما أنه ليس من المقبــول أن تكمم الأفــواه، فلا يتمكن أي أحدٍ من إبــداء وجهة نظره في شأن عام، مهما كان رأيه سديداً ورشيداً، فالقرآن الكريم شجّع الناس على ممارسة النقد من خلال معاتبة النبي – صــلى الله عليه وســلم- على بعض اجتهاداته ومعاتبة الصــحابة – رضــوان الله عليهم- على بعض ما وقع منهم؛ حيث يُعد التستر على الأخطاء أكبر مشــجع على تكرارها واســتمرارها، وحيث يُعــدّ النقد والبحث عن أشــكال القصــور وأنــواع الأخطــاء والخطايا من أفضل الوســائل المسـاعدة على الإصـلاح وتخليص النـاس من كثـير من المشـكلات والأزمات ومحاصرة المفاسد والشرور.

إن تراثنا الفقهي لم يســـتوف التنظـــير والتعقيد لضـــوابط النقد والمعارضة وتضـارب الآراء على نحو يغنينا عن النظر والاجتهـاد، بل إن كثيراً من التفاصيل والحيثيات ما زالت غامضة، وأعتقد أن كثـيراً من الاضطرابات الهوجاء والأزمات الخانقة التي مرت بها الأمة كـان بسـبب التطـرف في التعامل مع هـذه المسـألة؛ فالحريصـون على بقاء كل شـيء على ما هو عليه مهما كـان غـير ملائم وغـير صـحيح ضـيقوا أبــواب النقد إلى حد إسـكات النـاس عن قــول أي شـيء. والذين كانوا يشكون من سوء الأحوال كانوا يريدون قلب كل شــيء رأســاً على عقب بعيــداً عن الرفق والتــدرج والمجادلة بــالتي هي أحســن. وقد آن الأوان لأن تتلاحم الصــفوف، وتتشـابك الأيـدي بين الجميع ومن كل المســتويات والمجــالات من أجل العمل الــدؤوب

على إرســاء التقاليد وســنّ القــوانين وتشــييد المؤسســات وإبــداع الأفكار التي تنشر الأمن والسـلام وحب النظـام والالـتزام بالأحكـام الشرعية والأعراف الصالحة والقوانين السارية، وتساعد في الوقت نفسه على نبذ التعــانف والتقاتل واللجــوء إلى القــوة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

فــإن لــدى كثــير من أهل الخــير حساســية خاصة نحو الحــديث عن الاقتصــاد والتنمية والزيــادة الســكانية والبطالــة؛ فهم يشــعرون أن الاهتمــام بهــذه الأمــور لا يخلو من نــزوع نحو الدنيوية والماديــة، وإعطاء الاعتبارات المعيشية أكثر مما تسـتحق من العناية والانتبـاه. وفي تصــوري أن هــذه الحساســية لم تعد ســائغة اليــوم، فأنا مع اعتقـادي بضـرورة تـوخي الحـذر من الوقـوع في شـرك الحسـابات والاعتبارات المادية البحتة بعيداً عن المبادئ والأهداف الإسـلامية إلا أنني أعتقد أن من شأن التقدم الحضاري أن يضـعف إرادة المقاومة لــدى النــاس تجــاه المغريــات، ومن ثم فــإنهم يُظهــرون المزيد من الاسـتجابة لضـغوط البيئة ومتطلبـات العيش، وكثـيراً ما يكـون ذلك على حساب مبادئهم وقيمهم؛ مما يعني أن تحسـين شـروط العيش إلى حدود مقبولة، سيسـاعد النـاس على أن يحققـوا مصـالحهم في إطار مبادئهم وأخلاقياتهم؛ والعكس صحيح.

إن كثيراً من سقم التفكير وتخلف الخطط والمناهج الإصلاحية يــأتي من خلال الانغلاق وصرف الاهتمـام عن التطـورات المتسـارعة فيما يتعلق بحاجات الناس وضرورات وجودهم، ومن خلال عدم الاكتراث بالتحولات في ذائقتهم الثقافية ونظـرتهم إلى الضـغوط والمرفهـات والحقوق والواجبات، وإن مفتاح فهم كل ذلك يكمن في شيء واحد هو الانفتــاح على الواقع والتأمل في تداعياته وإحالاته واتجاهاتــه؛ إذ ما فــتئ فهم الواقع واستكشــافه بإيجابية مصــدراً لتطــوير الذهنية وتوجيه المعرفة ومصدراً لإعادة ترتيب الأولويات.

لا بد من هــذه اللحظة وعلى المــدى البعيد من العمل على إيجــاد تنمية اقتصادية تكافئ الزيادة السـكانية في العـالم الإسـلامي. ومن المهم أن نــدرك أن كل الأمم الــتي اعتمــدت في معيشــتها على الزراعة والرعي خلال القرنين الماضـيين تواجه مشـكلات اقتصـادية متفاقمــة؛ فالنــاس يزيــدون، لكن الأرض لا تزيــد، فهي مع كل جيل تشهد نقلة في التفتت والتضاؤل؛ وعلى سبيل المثال فــإذا قلنــا: إن زيداً من النــاس يملك مئة فــدان من الأرض، وله خمسة من الولــد، فإنه بعد وفاته ستقسّم ليكون لكل واحد عشرون فداناً. فــإذا تــوفي

أولئك الخمسة، وترك كل واحد منهم أيضاً خمسة (فيكون المجموع خمسة وعشرين ولداً) فإن نصيب الواحد منهم سيكون أربعة أفدنة. فإذا قلنا إن أولئك الخمسة والعشرين من الأحفاد توفـوا، وتـرك كل واحد منهم أيضاً خمسة من الولد، فإن عددهم سيكون مئة وخمسة وعشـرين، وسـيكون نصـيب الواحد منهم من تلك الأرض 80% من الفـدان. وعليه أن يأكل من هـذا القـدر الضـئيل وأن يـبيع على نحو يمكنه من شـــراء كل حاجاته المتســـعة ودفع تكـــاليف تعليم أبنائه وتطبيبهم وكسوتهم، حيث إن العولمة تدفع الحكومـات نحو التخلص من كل الخـدمات المجانية الـتي تقـدمها؛ ليواجه كل واحد مصـيره على نحو منفرد!.

وهكذا فعبر قرن من الزمان تنخفض حصة الشـخص من الأرض إلى أقل من 1%! وليس هـذا من صـنع الخيـال، بل هو الواقع المشـهور والملموس وليس الذين يعملون في الـرعي بأحسن حـالاً؛ فالأرضي المخصصة للرعي هي الأخرى تتفتت وتزدحم فيها الماشية، ويزحف عليها العمران، ويقل عطاؤها بسبب تراجع كمية الأمطار في معظم أنحاء الوطن العربي.

إن نسبة الزيادة السكانية في العالم الإسلامي بشـكل عـام مرتفعة إذا ما قسـناها بما لـدى الـدول الأخـرى، فعلى سـبيل المثـال يزيد السكان في الدول العربية سنوياً بنسبة 3% في الحد الأوسط على حين أن الزيـــادة في بريطانيا تبلغ 1.% وفي فرنسا 6.% . أما بلد مثل روسيا؛ فإنه يعاني من نقص في السكان يصل إلى نحو مليـون إنسـان في السـنة، وينقص عـدد سـكان ألمانيا نحـواً من مئة ألف شخص في السنة. وحـتى نعـرف حجم الزيـادة السـكانية، وتطورها السريع؛ فإن من المفيد أن نعلم أن إجمالي سكان الـوطن العـربي كـان عـام 1400هــ نحو من 160 مليـون نسـمة. ويتوقع أن يكـون وصل عام 1420هـ إلى 300 مليـون نسـمة، وإن بلـداً مثل الجزائر يتضـــاعف ســـكانه كل 25 ســـنة، ومن المتوقع أن يرتفع إلى 285 مليون نسمة خلال قرن!.

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبـار أن الشـعوب الإسـلامية شـعوب فتيّـة، حيث إن حوالي نصف السكان هم من الأطفـال والأشـبال دون سن الخامسة عشرة. وهذا يعني أن لـدينا أعـداداً هائلة تحتـاج إلى تربية وتعليم واسـتيعاب نفسي واجتمـاعي، ثم إلى فـرص عمل وخـدمات عامة كثيرة.

ليست الزيــادة الســكانية في حد ذاتها مشــكلة .. على العكس إنها ميزة؛ حيث لا يمكن اليوم لدولة أن تصــبح دولة عظمى إذا لم يصل سـكانها إلى الخمسـين مليونـاً على الأقل . لكن علينا أن نـدرك من وجه آخر أن الازدحام على موارد محدودة وعدم القدرة على تـأمين الحد الأدنى من الحاجات الضرورية، وتـأمين تعليم وتـدريب جيـدين؛ سيجعل من هذه الأعداد الغفيرة من الفتيان والشـباب أشـبه بجيش جرار لم يتلقَّ من التـدريب ولم يجد من التنظيم ولا من التسـليح ما يكفيه؛ إنه في هذه الحالة يصبح هدفاً سهلاً للعدو، إنه يصبح أرقامـاً غير ذات معنى، وبعض العنصريين من الغربيين يقولون باسـتخفاف: إن في العـالم خمسة مليـارات من البشـر، منهم مليـار – أي أبنـاء العالم الصناعي- مواطنون والباقون سكان.

في حــديث القصــعة وصف واضح للكــثرة العددية الفاقــدة للكيف والمضــمون. فقد قــال صــلى الله عليه وســلم: "يوشك أن تــداعى عليكم الأمم كما تـداعى الأكلة إلى قصـعتها. قـالوا: أو من قلة نحن يومئـذٍ يا رسـول اللـه؟! قـال: لا. أنتم يومئـذٍ كثـيرون ولكنكم غثـاء كغثاء السيل...".

إذاً مشـكلة المسـلمين في آخر الزمـان ليست مشـكلة (كم) ولكن مشكلة (كيف) و (نوعية).

عدم وجود تنمية جيدة في معظم أنحاء العالم الإسـلامي دفع بأبنائنا وإخواننا إلى الهجــرة إلى الغــرب، حيث يشــتغل معظمهم في مهن وضيعة يـترفع الأوروبي عن العمل فيهـا. وهنـاك يضـيع نصف الجيل الثـــاني ومعظم الجيل الثـــالث، حيث الانســـلاخ شـــبه الكامل عن العقيدة والهوية. وعيش أبنـائهم في الغـرب على هـامش المجتمـع، دفع بهم إلى الجريمة والرذيلة وإدمان المخدرات، فصاروا يشــكلون نسبة مخيفة من نزلاء السجون هناك!

وتوجُّه فرنسا إلى منع الحجاب يشكّل نوعاً من التعبير القانوني عن الضـيق من جاليـات بـاتت تشـكل عبئـاً على المجتمـع، وهي بـادرة خطيرة، وربما تحدو دول غربية أخرى حذوها، ويصبح الملتزمون من المسلمين في الغرب في وضعية أشبه بوضــعية من وجد نفسه بين المطرقة والسندان.

ومن واجبنا جميعاً أن نحول دون ذلك بكل وسيلة ممكنة.

لا أريد أن أتحدث أكثر من هذا عن الحاجة إلى تنمية اقتصادية تعتمد على أسس ومنطلقــات جديــدة، وإنما أحب أن أركّز على نقطــتين هنا:

الأولى: حتى يتحسن وضع فرص العمل، وحـتى تفتح حقـول جديـدة لكسب الرزق، فإنه لا بد من الارتقاء بـالتعليم وتشـجيع النـاس على أن يتخذوا من التدريب المنهجي مـدخلاً لاكتسـاب المهـارات وتنمية الشخصية.

إن التعليم في معظم أنحاء العـالم الإسـلامي يعد بالمعـايير العالمية قاصـراً عن الوفـاء بحاجـات العصـر؛ فالفصـول مكدسّـة بـالطلاب، وأسلوب التدريس مبني على أن يقوم المـدرس بكل شـيء، ويظل الطالب في موقع المتفرج وليس المشارك والمتفاعل. والتجهيزات المدرسـية معدومة أو عند حـدها الأدنى. والأهم من هـذا وذاك فقد المدرسين والطلاب للحماسة المطلوبة لنجـاح العمل التعليمي . ولا يختلف التعليم الجـامعي في هـذا كثـيراً عن التعليم الأساسـي، مع استثناءات قليلة.

ولا شك أن هنـــاك الكثـــير من الاقتراحـــات والحلـــول المطروحة للنهـوض بـالتعليم، لكن سـتظل الأمـور تـزداد سـوءًا ما لم تحـدث تحـــولات جذرية في أوضـــاع المـــدارس وفي العلاقة بين الـــبيت والمدرســـة. وقد آن الأوان ليســـاهم الآبـــاء في تـــأمين تعليم جيد لأبنائهم من خلال تشكيل عدد كبير من مجـالس التعليم في الأحيـاء والقرى، ويكون لها صلاحيات واسعة جداً في بحث أوضاع المدارس وتوجيهها ومحاولة النهـــوض بهـــا، ولا بد من الآن فصـــاعداً من أن يخصص كل واحد منا جزءاً من ميزانيته الخاصة لمـؤازرة المـدارس في القيام برسـالتها من خلال التوسع في مبانيها وتـدعيم مختبراتها وتجهيزاتها المختلفة.

التعليم الجيد وحـــده هو الـــذي يوجد في نفس الطـــالب الـــولاء لمدرسته ومن خلالها لوطنه وأمتـه. والتعليم السـيئ يجعل الطـالب زاهداً في كل ذلك، وإلى جانب تطوير التعليم لا بد من إرساء تقاليد ثقافية تمجد التدريب على اكتساب المهارات والطـرق الجديـدة في إدارة الأعمال وتنفيذ المهام، فالتطور السـريع الحاصل الآن في كل مجالات الحياة سيجعل كل ما لدى الواحد منا من مفـاهيم وخـبرات ومهارات محدود مدة الصلاحية، حيث تتسـارع إليه الشـيخوخة، وهو ما يزال في طور الصبا. وقد أدركت الأمم المتقدمـة، وصـارت تنفق بسخاء بالغ على التـدريب انطلاقـاً من هـذه الحقيقـة. إن مجمل ما تنفقه اليابـان على التـدريب يزيد على 80 مليـار دولار في السـنة . أما الولايـات المتحـدة فإنها تنفق ما يـتراوح بين 120 مليـار دولار و 180 مليار. ولا بد من الآن فصاعداً من أن نسلك كل سـبيل لإقنـاع

الناس بأهمية التدريب لدخول سوق العمل ثم الاستمرار فيه. ولا بد أن يكون واضحاً في العقود الجديدة تحديد ما ستقدمه المؤسسة أو الشركة أو المصنع أو الجامعة من تدريب وتعليم لمن سيعمل فيها.
الثانية: من المهم أن ندرك أننا في زمان فريد، بات ارتقاء الإنسـان فيه منوطـاً إلى حد بعيد بنوعية المهنة الـتي يعمل والتخصص الـذي تعمق فيـه، فنظـراً للتنظيم والتصـنيف المتنـامي للأعمـال والمهن، ونظراً لتحسّن وعي الناس بواجباتهم الوظيفية، صار الناس يبـذلون جهـوداً كـبرى للوفـاء بمتطلبـات الوظيفة والمهنـة، وما تفرضه من تعليم وتـدريب وتنظيم للحيـاة الشخصـية. ونسـتفيد من هـذا أن تحسـين البيئة ورفع مسـتوى النـاس يتطلب تأسـيس توجـه إلى الأعمال المتصلة بالمعرفة الرفيعة والجهد الـذهني المركّـز. ولك أن تقارن بين العـاملين في القطاعـات المهنية الـتي لا تتطلب أي جهد ذهني أو معرفة راقية مثل قطاع بيع التجزئة وقطاع الزراعة وقطاع الإنشاء... وبين العاملين في قطاع التعليم الجامعي والبحث العلمي وتقنية المعلومات والتدريب... وستجد صدق ما أريد توضيحه.
إن المجال الواعد اليوم هو مجال (تقنية المعلومـات) وكل ما يتصل بمجال الحاسب الآلي وتطبيقاته المتسعة، وهذا المجـال بـات اليـوم القطـــاع الصـــناعي الأول حيث تزيد قيمة الأعمـــال فيه على (التريليون) دولار. ونحن أمة غنية بـالموارد البشـرية. وهـذا المجـال يحتـاج أساسـاً إلى العنصر البشـري المتعلم وإلى البيئة المنظمة تنظيماً جيداً. ولا يحتاج هذا وذاك إلى أموال طائلة.
إن العالم كله اليوم يخوض سـباقاً محمومـاً نحو ترسـيخ أقدامه في هذا المجـال، وقد وضـعت بريطانيا خطة لتطـوير البلد تقنيـاً، قيمتها خمسون مليار جنيهاً. وعلى ضخامتها فقد ذكر أحد الباحثين أنها غـير كافية وجاءت متأخرة !.
ووصــفت إحــدى المنظمــات الدولية الــدول العربية بأنها جائعة معلوماتيًا على حين أنها وصــــفت (إســـرائيل) بأنها دولة نَهِمَة معلوماتيًـا. وقد أضـحت (إسـرائيل) اليـوم الدولة الأولى في أمن المعلومــات، وهي تصــدر منتجــات معلوماتية إلى أوروبا وأمريكا والصين في غاية التطور والتعقيد، وتقبض أثماناً عالية لها.
إن من المهم جداً ألا نتأخر أكثر مما حدث عن الاستثمار في قطـاع المعلومـات والتقنية المتقدمة من أجل الارتقـاء بالمسـلم المعاصر ومن أجل إيجاد فرص عمل للأجيال الجديـدة في مجـال هو الأسـرع نمواً بين مجـالات العمل المختلفـة. وإذا لم نفعل ذلك فـإن الأعـداد

المتزايدة من هؤلاء الذين تدفع بهم الأرحام سوف تتحول إلى قنابل موقوتة تدمر نفسها وبيئتها في آن واحد.
ومسؤولية التقدم في هذا الشأن ملقاة على عاتق الأسرة والمدرسة والدولة ورجال الأعمال. وعلى كل راشد فينا أن يحاول مساعدة نفسه والارتقاء بذاته حيث أعرض الآخرون عن مساعدته .
فقد كان مالك بن نبي – رحمه الله- لاحظ أن المجتمعات الإسلامية تعاني من (فرط تسييس)، حيث إن هناك ميلاً عارماً إلى مطالبة الدول بأن تقوم بكل شيء على حين يظل معظم الناس غافلين عاطلين. وملاحظته – في ظني- في مكانها حيث إن كثيراً من الإصلاحيين على اختلاف مشاربهم يركزون باستمرار على ما على الحكومات أن تقوم به من إصلاح نفسها، وإصلاح غيرها، على حين أن كثيراً منهم لم يستطيعوا المساهمة العملية في نهضة الأمة؛ وكأن اعتقادنا بأن كلام المرء جزء من عمله، جعلنا نظن أننا بالخطب الرنانة والمقالات البليغة والكتب ذوات المئين من الصفحات نستطيع أن نحل مشكلاتنا المستطيلة في الزمان والمستعرضة في المكان!.
في البداية أحب أن أؤكد أن من المهم أن يشتغل بعض الناس في العمل السياسي من خلال نشر الوعي بطبيعة هذا المجال ومن خلال ممارسة النقد ودخول الانتخابات وتشكيل الأحزاب؛ إنني لست ضد هذا، ولا أهوّن أبداً من شأنه، ولكن الشيء الذي لا أرى أنه صواب هو الظن بأنه حين تقوم دولة حسب المواصفات المطلوبة سوف نتخلص من كثير الأزمات والمشكلات الموجودة.
إن هذا أحد أكثر الأوهام انتشاراً. وكثير من الجماعات الإسلامية المشتغلة بالسياسة علقت كل توازنها على الحكومة العظيمة التي ستشكلها في المستقبل حين تصل إلى الحكم. وبما أن المجال السياسي، لا يتسع لكل الناس، ولا يستطيع كثيرون العمل فيه، فإن أعداداً كبيرة من شبابها عاطلون عن أي عمل دعوي أو اجتماعي نافع!.
وجود الدولة في الأصل شيء مكروه من النفوس؛ لأنها تمثل سلطة وقوة، وهي - على المستوى الوظيفي – أميل إلى أن تكون كابحة وضابطة أكثر من أن تكون بانية أو مُصْلحة. وإذا استطاعت الدولة حماية النظم السارية وتطبيقها دون تحيز إلى جانب دعم استقلالية القضاء وتسهيل حركة الفرد مع حد مقبول من المرافق

العامــة؛ فإنها تكــون قد قــامت بأشــياء عظيمة جــداً. ومعظم دول العالم ما زالت تخفق في تحقيق ذلك.
العمل الأساسي الــذي يُنْتَظر من الجميع المســاهمة فيه هو العمل الاجتمــاعي - بأوسع ما تحمله هــذه الكلمة من دلالة -. في العــالم اليـوم قطـاع يسـمونه (القطـاع الثـالث) أو (القطـاع اللاربحي) إنه شيء غير القطاع العـام الـذي تكـون مؤسسـاته ملكـاً للدولة وغـير القطـاع الخـاص المملـوك للأفـراد، إنه القطـاع الـذي تملكه الأمـة. مهـام هـذا القطـاع أوسع بكثـير مما نتصـوره وإن الأمم من خلاله تستدرك على قصور النظم المختلفـة، إنه يشـكّل كـرة أخـرى على طريق العدالة الاجتماعية وإيصـال الحقـوق لأصـحابها. إن أنشـطته تغطي حاجـــات أولئك النـــاس الـــذين لا يقع الاهتمـــام بهم تحت مسؤولية أي وزارة أو مؤسسة حكومية، وإنه يهتم بالقضـايا الـتي لا تهتم بها أي جهة حكومية. وأستطيع أن أقول دون أن أشعر بالحرج: إن اتسـاع هـذا القطـاع يـدل على نحـوٍ قـاطع على خيرية المجتمع وتضامنه وفاعليته واسـتحقاقه باسم (مجتمـع). وعلى مقـدار ضـيق هذا القطاع وضـعفه يكـون ضـعف المجتمع وتفككه وخمولـه. وقد لا يستحق لاسم (مجتمع) ويكون جديراً باسم (تجمع)!
إن ما ينشر من إحصاءات عن هذا القطـاع يـدل دلالة واضـحة على أن العالم الصـناعي يتمتع بمجتمعـات غنية بالمؤسسـات والأنشـطة اللاربحية. وقد استطاع هذا القطاع أن يجمع من الناس في الولايات المتحـدة الأمريكية عـام (2002) مبلغـاً قـدره (212) مليـار دولار. وهو رقم فلكي لا يمكن جمع نصفه أو ثلثه في أي دولة من العــالم. في أمريكا مليـــون ونصف مؤسسة لاربحية وثلاثة وعشـــرون ألف مؤسسة وقفيــة. وفي فرنسا ســتمئة ألف مؤسسة لاربحيــة. وفي (إســـرائيل) ثلاثـــون ألف مؤسسة لا ربحية ويســـتوعب القطـــاع اللاربحي 11% من القــوة العاملة هنــاك في العــالم الغــربي لكل ثلاثمائة شخص تقريباً مؤسسة لاربحية من نوع ما وعندنا في العالم العربي لا يحصل الـ (5000) شخص على أكثر من مؤسسـة، أي إن الفارق يتمثل في خمسة عشر ضـعفاً. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبـار إلى جـانب هـذا أن الـذين يحتـاجون إلى العـون في مجتمعاتنا أكـثر بكثير من المحتاجين في مجتمعاتهم.
إن هناك أشـياء مشـتركة بين الأمم، وهنـاك أيضـاً خصوصـيات لكل أمـــة. إن المجتمعـــات الإســـلامية بحاجة إلى الكثـــير الكثـــير من المؤسسات اللاربحية وسأذكر منها هنا نماذج فقط:

- مؤسسـات ومشـروعات لـدعم الالـتزام والمحافظة على الأخلاق والوقـــوف في وجه التحلل الخلقي عن طريق الاتصـــال المباشر والحوار مع الناس ووضع لوحات في الطرق وإعلانات في الصـحف. بل إن القطـاع اللاربحي يحتـاج في الحقيقية إلى فضـائية وإذاعـات خاصة حتى نؤصل حب العمل الخيري في نفوس النـاس. أضف إلى هـذا تأسـيس جمعيـات لمحاربة العـادات السـيئة مثل الإدمـان على التدخين والخمور والمخـدرات ومثل عـادات الإسـراف والتبـذير في المأكل والمشـرب والملبس والمسـكن وإرشـاد النـاس إلى بعض الطرق الاقتصادية في كل ذلك، كما هو الشأن في كثير من الدول.

- مؤسســـات للاهتمـــام بالأســـرة وتوجيهها في مســـائل التربية ومسـاعدتها على حل المشـكلات الـتي تواجهها وتوفـير مرشـدين تربويين ومرشدات تربويات لإصـلاح العلاقـات الأسـرية وتنمية وعي الناس بأهمية التضامن الأسـري، وتوضـيح مسـؤولية كل طـرف في ذلـك، ونشر عـدد كبـير من الكتيبـات والنشـرات الـتي تعلم النـاس أصول التربية الجيدة، كما توضح لهم الأخطـاء التربوية الـتي يقعـون فيها.

- مؤسسات وجمعيات وروابط لدعم العلم والتعليم، حيث إن الدول ما عـــادت تســـتطيع توفـــير ما يكفي من المـــدارس والتجهـــيزات المدرسـية لهـذه الأعـداد المتدفقة من الأطفـال والفتيـان. والتعليم الخــــاص الحــــالي هو أقل في كثـــير من الأحيـــان من المســـتوى المطلوب، وهو إلى جانب ذلك ينشر الطبقية الاجتماعية والمعرفية، فأبنـاء الأغنيـاء يجـدون مـدارس ممتـازة لأنهم قـادرون على الـدفع، وأبناء الفقراء لا يجدون في بعض الأحيـان حـتى المـدارس السـيئة. وبعض الدول الإسلامية – مثل باكستان- لم تستطع إلى الآن إصــدار تشريعات لجعل التعليم الابتدائي إلزاميـاً بسـبب عـدم قـدرة الدولة على توفير المدارس الكافيـة. وهنـاك دول لا تسـتطيع توفـير الكتب المدرسية لأبنائها – كما هو الشـأن في بلاد عديـدة مثل إندونيسـيا – وهكذا..

قد آن الأوان ليقوم الناس بـدعم التعليم الحكـومي والمسـاهمة في توجيه أنشــطته وممارسة نــوع من الرقابة عليه بما يخــدم التقــدم العلمي في البلـد. كما آن الأوان لتأسـيس عـدد كبـير من المـدارس الخيرية التي يجد فيها أبناء الفقراء فرصاً للتعلم. وفي بعض الــدول – مثل تركيـا- أنشـئت مجـالس كثـيرة جـداً لـدعم التعليم الجـامعي

وتوفـــير منح للطلاب الفقـــراء، حيث إن الجامعـــات الحكومية لا تستوعب سوى 10% من المحتاجين للتعليم الجامعي.
إن من المهم أن تنظم حملات واســـعة من أجل قيـــام الأثريـــاء بتأســيس شــبكات من المــدارس والمعاهد العلمية والتقنية لأبنــاء الفقــراء والمعــدمين والإنفــاق عليها عوضــاً عن تبــذير المــال في السياحة في الغرب أو إنفاقه على مظـاهر كاذبة لا تزيد صـاحبها إلا خبالاً وسأماً!.
- في الأمة اليوم مظالم كثيرة، ولا يكـاد يخلو مجلس من المجـالس من ذكر مظلمة من المظالم! وقد صارت مهمة المحامين في كثــير من الدول الإسـلامية- مع الأسف الشـديد- طمس الحقيقة وإضـاعة الحقــوق والعمل على تأجيل المحاكمــات إلى ما لا نهاية وتســربت الرشوة إلى سلك القضاء مع استثناءات مقـدرة! إن هـذه الوضـعية تستلزم قيام مؤسسـات وروابط ومنظمـات لنصـرة الضـعيف ورفع الظلم عن المظلوم ومؤازرة المضطهد وفضح أشكال الحيــف. وقد أثــنى - صــلى الله عليه وســلم- على حلف الفضــول الــذي أقامته قريش في الجاهلية، وحضره - عليه الصـلاة والسـلام- وقـال: " ولو دعيت إلى مثله لأجبت". وقــال أيضــاً في حــديث صــحيح: " إنه لا قُدِّست أمة لا يأخذ الضعيف حقه فيها غير متعتع".
إن التعليم والقضاء يشكلان محورين أساسين في حيـاة أي أمة وإن في فسادهما فساد الحيـاة كلهـا، فعلينا أن نصـلح من شـأنهما قـدر الاستطاعة ولن يكون ذلك إلا من خلال توفير رقابة شـعبية واسـعة، ولن تكون تلك الرقابة فعالة إذا لم تنظم وتؤطر على نحو جيد.
- الأمية في العــالم الإســلامي ضــاربة أطنابهــا، ومــازال المعــدل الوسطي لها يدور في فلك الـ(40%) وهذا شــيء مخيف في زماننا فقد احتفلت اليابان بتعليم آخر أمي في أواخر القرن التاسع عشــر. ولدينا أناس يعرفـون القـراءة والكتابة لكنهم لا يقـرؤون. وكما قـال أحدهم: ما الفـرق بين الأمي وبين من يحسن القـراءة والكتابة لكنه لا يقـــرأ؟! إن حالة القـــراءة وطلب العلم والحــــرص على معرفة الجديد في حالة من التردي المستمر في عالمنا الإسلامي. والكتاب يفقد في كل يوم جزءاً من أرضه لصـالح ما يمكن أن نسـميه (اللهو المطلي بالمعرفة) وهذا يلقي علينا مسؤولية هائلة. إني أفـترض أن يكون لدينا في كل حي من الأحيـاء مكتبة عامة يضـعها أحد الأثريـاء في زاوية من داره ليرتادها أهل الحي وتكـــون مكانـــاً لالتقـــائهم ومناقشة أمور حيهم. وأتعشم أن يكون هنـاك بـرامج لـدعم الكتـاب

الجيد وأن يكـون هنـاك من حانـات للقـراءة ومكتبـات متنقلة لنشر العلم وإعارة الكتاب. وقد سبقتنا دول كثيرة إلى هذا، ولم يعد لـدينا وقت لإضـاعته. إن من غـير شـغف حقيقي بـالعلم واتخـاذه أساسـاً للتطوير لن نستطيع أن نتجاوز الأوضاع الصعبة التي نعيش فيها.

- العولمة تشجع الحكومـات على أن تنفض يـديها من كل الخـدمات المجانية والرخيصة التي تقدمها، ومنها (العلاج الصحي). والخــدمات الصحية الحكومية في كثير من بلدان العالم الإسـلامي في حالة من التدهور حيث يلجأ الناس إلى الطب الخاص، وهناك تجد أشكالاً من التحايل والابـتزاز مما يـوجب قيـام مؤسسـات طبية لا ربحية يعمل فيها الأخيار من الأطبـاء وتتقاضى أجـوراً تكفي فقط لتشـغيلها. وقد قامت تجارب رائـدة في بعض البلـدان الإسـلامية في هـذا المجـال، إنها تقـــدم أفضل علاج، لكن بســـعر لا يزيد على 30% مما لـــدى غيرها. إني أتصور أن يكون هناك جمعيات للعناية بأصحاب الأمراض المزمنة والمستعصــية وجمعيــات لتوفــير الــدواء لمن لا يجد ثمنه وجمعيات لدعم المستشفيات الحكومية بالأجهزة وهكذا.

ولا أريد هنا أن أتحدث عن قضية الفقر لأنني سأفرد لها حديثاً خاصاً في المستقبل بإذن الله.

إن العمل الخيري التطوعي يستهدف أولاً الارتقاء بنفوس فئة كبيرة من المجتمع وربطهم بالله - تعـــالى- وهـــذه الفئة هي العـــاملون والمحتسـبون في المجـال اللاربحي. ويسـتهدف ثانيـاً سد حاجـات العناصر الضعيفة في المجتمع، وهي في عالمنا الإسلامي كثيرة جداً بل تشـكل النسـبة الأكـبر من النـاس. وسـنظل نعيش على هـامش العـالم ما لم نبـدع في إيجـاد الحلـول للمشـكلات الـتي جـاءت بها الحضارة المعاصرة . والله ولي التوفيق....

===============

في كل الأحوال

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن إنجازاتنا وعطاءاتنا تخضع لثلاثة عوامل أساسية، هي:

1- ما ورثنـــاه عن آبائنا وأجـــدادنا من خصـــائص عقلية ونفســـية وجسمية.

2- البيئة الــتي نعيش فيها بما تشــتمل عليه من مفــاهيم وأعــراف وتقاليد وبنى تحتية ومرافق عامة...

3- الجهود الشخصية والخاصة التي نبذلها في تثقيف عقولنا، وتزكية نفوسنا وصقل مهاراتنا، واستثمار الفرص المتاحة لنا.
ولا يخفى أن بين هذه العوامل الثلاثة علاقة جدلية مستمرة، فالذكاء المتفوق والقدرات الذهنية الممتازة تساعد المرء على أن يستفيد على أحسن وجه من المعطيات التي توفرها البيئة، كما أنها تجعله يدرك بسرعة حدود إمكاناته الحقيقية وطبيعة التحديات التي يلاقيها والطريقة المثلى لمواجهتها والتصرف حيالها.
البيئة الجيدة تجعل عمل الناس أسهل، وتوفر لهم الظروف التي تساعدهم على التفوق والارتقاء وهكذا..
والذي نستفيده من هذا هو أن التفوق في الجهد أو البيئة أو الموروث الجيني، سوف يخفف من أضرار القصور في الجانبين الآخرين. وأن أي قصور في أي جانب أو عامل من هذه الثلاثة سيؤثر سلباً في أداء العاملين الآخرين، وأعتقد أن التكامل والتفاعل بين ما ذكرنا يشكّل مظهراً من مظاهر ابتلاء الله -جل وعلا- لنا في هذه الحياة؛ حيث إن إمكانات الارتقاء والتقدم ستظل موجودة مهما كان الموروث الجيني سلبياً وضعيفاً، أو كانت البيئة صعبة وغير مواتية؛ وذلك من خلال تنمية الإمكانات الشخصية وبرمجة الوقت وتحديد الأهداف واكتساب المهارات، وقبل ذلك كله العبودية الحقة لله -تعالى- والاستعانة به، والتأهل لتوفيقه وفيوضاته غير المحدودة.
ولو أننا تأملنا في سير أولئك الذين صاغوا أمجاد هذه الأمة، وشيّدوا صرح حضارتها لوجدنا صدق ما نقول.
وأحب هنا أن أبلور المفهومات الثلاث الآتية:
أولاً: ما دامت المحصلات النهائية لكل جهودنا الدعوية والإصلاحية والتعليمية خاضعة لموروثاتنا عن الآباء والأجداد، وخاضعة للبيئة التي نعيش فيها وللجهد اليومي الذي نبذله، وما دامت كل هذه الأمور لا تكون أبداً حدِّية وكاملة؛ فإن المتوقع آنذاك أن تكون النتائج التي نحصل عليها مشوبة دائماً بالنقص والقصور، وستظل دائماً أقل مما نريد؛ فأنت لا تستطيع أن تصل إلى حلول كاملة في وسط غير كامل، وستظل هناك فجوة بين طموحاتنا وبين ما يتحقق على الأرض. هذا يعني أيضاً أننا سنظل نشكو ونشكو، وكأن الوعي البشري اخترع الشكوى من سوء الأحوال، ليتخذ منها محرضاً على التقدم.
وإذا تتبعنا هذه السلسلة من الإحالات والاستنتاجات فسنصل إلى الاعتقاد بأنه لن يكون في هذه الدنيا لأي أمة من الأمم أو جماعة

من الجماعــات أو فــرد من الأفــراد - نصر حاسم ونهــائي- لا يقبل الجدل ولا الشك والنقد. ولهذا فإن الـذين يحلمـون بانتصـارات نقية وتامة سيظلون يصابون بصدمات الإحباط وخيبات الآمال!.
ثانياً: إذا كان الأمر على هذه الصورة؛ فهـذا يعـني أننا لن نصل أبـداً إلى اليـوم الـذي نعتقد فيه أننا قد حصـلنا على البيئة المثلى للعمل والإنجاز، ولا على الأدوات الـتي نحتاجها لتحقيق أقصى الطموحـات، وسنظل نشعر بوجود درجة من المجازفة والمخاطرة عند اتخـاذ أي قرار حاسم في أي اتجاه. وهذا يجعلنا نبلور مفهومـاً جوهريـاً، هـو:" اعمل ما هو ممكن الآن، ولا تنتظر تحسن الظروف".
وهذا المفهوم يقوم على مسلّمتين هما:
1- هناك دائمـاً إمكانية لعمل شـيء جيد لأنفسـنا وديننا والنـاس من حولنا.
2- مهما تحسنت الظروف؛ فإنه سيظل هناك من يمكنه أن يظن أن الظرف المطلوب توفره من أجل الإنجاز لم يتهيأ بعد.
ثالثاً: هناك مسلمون كثيرون مصـابون بفقر شـديد في الخيـال، فهم خاضــعون لمقــولات مســتعجلة أطلقها أعلام ومشــاهير لم تنضج رؤيتهم لفيزياء التقدم ولا لطبيعة العلاقات التي تحكم قوى التحــدي والاستجابة، ومن ثم فـإنهم قد صـاروا أشـبه بمن وضع القيد بنفسه في رجليه في أجواء عاصفة وخطرة!.
إن الخيال نعمة كبرى من الله -جل وعلا-، وقد كـان نـابليون يقـول: "إن مؤسساتنا مصابة بمحدودية الخيال، ولولا الخيال لكان الإنســان بهيمــة". ويكفيــني هنا لفت النظر إلى مســألة تتجلى فيها محدودية الخيال وعقمه الشديد:
من الواضح أن جمهـرة غـير قليلة من أبنـاء الجماعـات والـدعوات الإسـلامية يعتقـدون أن تطـورات مذهلة سـوف تطـرأ على الحيـاة الإسلامية إذا قامت الدولة (الحلم) التي تسيّر شؤون النـاس، ولهـذا فإنهم عطلوا الكثير من الجهود، وأضاعوا الكثير من الفرص، وعلّقوا توازن أعداد هائلة من الناس على تحقيق ما يتطلّعـون إليـه!؛ بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى ما هو أسوأ، وهو الاعتقاد بـأنهم لا يسـتطيعون إنجـاز أي شـيء ذي قيمة إلا في ظل دولة إسـلامية راشـدة. وتلك الدولة ينبغي أن تكون من الطراز العمري، فـإذا كـانت من مسـتوى الحكومــات الأموية أو العباســية، فربما كــانت لا تســتحق أقل من الثورة!.

هؤلاء الناس يتخيلون أن الحكومة الراشدة التي يحلمـون بها سـوف تكـون على درجة عالية من الإخلاص والخلق والعلم وحسن التـدبير والحنكة في تحفيز الجماهير على الكدح والعطاء، وعلى درجة عالية من الخـــبرة في حل المشـــكلات الداخلية ومواجهة التحـــديات الخارجية، مع أنهم لا يقولون لنا: أين ستكتسب (الدولة الحلم) هـذه الخـبرات الخطـيرة؟ وفي أي بيئة سـتتكون لـدى أعمـدتها هـذه الصفات والأخلاق والمهارات الفذة والعجيبة؟ وهم ما فتئوا يشـكون من سوء الأحوال وتدهور الزمان!.
في ظل هـذه الدولة سـوف يحـدث ما يشـبه الزلـزال في النفـوس والمجتمعـات والعلاقـات والتوجهـات السـائدة: في ظل تلك الدولة العجيبة سوف ينشط الكسول ويتعلم الجاهل، ويبذل الشحيح، ويقلع بذيء اللسان عن التفوه بالألفاظ القبيحة، ويكفّ مدمنو المخـدرات والمكيفات عن تناولها، وسوف يحـاول المـدرس غـير الكفء صـقل مهاراته وإثـراء ثقافتـه... كما أن العلمـانيين والليبرالـيين وأصـحاب المصالح المضادة سـوف يسـلمون لتلك الدولة (المعجـزة) بالنزاهة والكفـاءة معـاً، ولـذا فـإنهم سـوف يسـلمون لها القيـادة. والـدول المناوئة في الخارج سترى أنه لا فائدة ترتجى من وراء مقارعة تلك الدولة؛ ولذا فإنها سوف تتجاهلها أو تهادنها...
وهكـذا سـتحدث تغـيرات كونية هائلة لم تحـدث في أي مرحلة من مراحل التاريخ! وحتى يحدث كل ذلك؛ فإن مما لا شك فيه أن طينة تلك الدولة ينبغي أن تكـون خاصـة، ولا مثيل لها ما دامت سـتحقق إنجازات عديمة المثيل!.
وأنا أجزم أن تلك الجمهرة من الحالمين ستنقسم تجـاه أفضل دولة إسلامية يمكن أن تقوم في أي مكـان من الأرض إلى أقسـام عـدة: قسم يعمل معها بكفـاءة وإخلاص؛ وهـذا القسم قليل في أي زمـان وأي مكان. وقسم يتمتع بالكفاءة؛ لكن ينقصه الإخلاص والاسـتقامة. وقسم ثالث يخلص؛ لكنه لانعدام خبرته لا يعـرف كيف يخـدم الدولة والأمة. أما القسم الرابع؛ فهو قسم منتفع وصولي، ليس من هـؤلاء ولا أولئـك. والقسم الخـامس قسم معـارض يـرى أن الدولة الـتي سـعى إلى إقامتها قد خـانت رسـالتها، وانحـرفت عن مبادئهـا؛ فهو منهمك في ردها إلى المسار الصحيح.
أما القسم الأخير؛ فهو القسم الثائر الذي صارت أمنيته التخلص من تلك الدولة بـأي وسـيلة من الوسـائل، ولو كـانت اسـتخدام الصـنف وإشعال الحرب الأهلية!!.

هذه الأقسام لم نـأت بها من نسج الخيـال؛ بل هي مما عرفنـاه من سنن الله –جل وعلا- في الخلـق، ومما فهمنـاه من طبـائع الأشـياء، وما وجدناه ونجده عند قراءة أي ثورة من الثورات الـتي تمكنت من الوصول إلى الحكم في بلاد إسلامية أو غير إسلامية.
ولعلي في المقال القادم أشرح شـيئاً مما يمكن القيـام به "في كل الأحوال"، ومن الله تعالى الحول والطول.
1/2
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
فقد ذكرت في المقال السـابق أن موروثاتنا النفسـية والجسـمية... عن الآبــاء والأجــداد وجهودنا الشخصــية بالإضــافة إلى البيئة الــتي نعيش فيها تشـكل المـؤثرات الجوهرية في كل عطاءاتنا وإنجازاتنـا، وذكرت أنه مهما ساءت الظروف، وتعقدت الأوضاع، فستظل هنـاك إمكانية لعمل شيء ما، ومقال اليوم سيكون حول ذلك الشيء.
من المهم أن نعتقد في البداية أن أي جهد يبذله الواحد منا على صـعيد إصـلاح أحواله الشخصـية والارتقـاء بذاتـه، يصب بصـورة من الصـور في مصـلحة أمتـه، حيث لا يمكن أن نبـني أمة صـالحة من أشخاص فاسدين، ولا مجتمعاً قوياً من أفراد ضـعفاء، وإذا أردت أن تعـرف موقع العـالم الإسـلامي على خارطة القـوى العالميـة، وأن تعرف مدى تأثيره الحالي في تحديد وجهة العالم؛ فانظر إلى أوضاع كل دولة من دوله على انفـراد، فـالموج لا يكـون أبـداً إلا من جنس مائه.
نحن اليــوم في حاجة ماسة إلى أن نبلــور ونرسخ ثقافة (الإنجــاز المتجاوز) والتي تعني -فيما تعنيـه- ألا يُـؤخِّر شـيء يمكن عمله الآن من أجل انتظار شيء سيحدث في المسـتقبل، وتعـني كـذلك تعزيز روح المبادرة الفردية لـدى الإنسـان المسـلم وتعزيز روح الإيجابيـة، والتعامل مع المعطيــات الجديــدة بعقل وقلب مفتــوحين؛ حيث إن معظم المسـلمين ما زالـوا يرزحـون تحت وطـأة موروثـات عصـور الانحطـــاط والـــتي يـــأتي في طليعتها الكسل والفوضى والتواكل والخــوف من الجديد والتقليد والتبعية والتفكــير الــذري ومحدودية الطموحات والمجاراة الاجتماعية والمثالية الزائدة.
والآن اسمحوا لي أن أتحدث عن ثلاث قضايا أتصـور أنها ذات أهمية قصوى بين القضايا الكثيرة التي يمكن القيام بها في جميع الأحوال:
1) المجاهدة من أجل تغيير سلم القيم.

هنـاك قيم عالمية مشـتركة تهتم بها كل الثقافـات وكل الحضـارات، مثـل: الصـدق، والأمانـة، والإحسـان، والوفـاء، وإغاثة الملهـوف، والإتقان والتسامح، والعفو، والجدية، والدقـة، والتملـك، والرفاهيـة، والنظافة، والاقتصاد في بذل الجهد.. ويتعامل النـاس مع هـذه القيم في كل زمـان ومكـان على أنها مفـردات في نسق عـام، وهي في تواليها أشـبه بـدرجات السُـلَّم، وتتم التضـحية بـالقيم الـدنيا عند التعارض من أجل الاستمساك بالقيم العليا، فإذا كانت قيمة الصـدق -مثلاً- لدى إنسان أعلى من قيمة المال؛ فإنه يلزم الصدق، ولو كان الكذب يجلب له المال الوفير، وحين تكـون قيمة الخـوف من الله -تعالى- لدى المسلم أعلى من قيمة الخوف من الناس؛ فإنه لا يبالي بغضب النـاس إذا كـانوا لا يرضـون إلا بإغضـاب اللـه، وحين يحـلّ النعـاس بأحـدنا وتكـون قيمة النـوم عنـده أعلى من قيمة تنظيف أسنانه؛ فإنه سينام دون أن ينظفها، وإذا كانت قيمة تنظيف الأسنان أعلى؛ فإنه سيقاوم النعاس إلى أن ينتهي من تنظيفها وهكذا...

المجاهـدة في سـبيل تغـير سُـلَّم القيم ينبغي أن تسـتهدف تحقيق أمرين أساسيين:

1- العبودية الحقة لله -تعـالى- والالـتزام بـأمره في المنشط والمكره.

2- الفاعلية العالية في الإنجاز مع المثـابرة على العمل الشـاق بغية بلوغ الأهداف المرسومة.

وإن التغير في عاداتنا وسلوكاتنا هو الطريق لتحقيق هـذا وذاك، ولو أن المسـلم أخذ على عاتقه أن يتخلص من عـادة سـيئة كل سـتة أشهر لتحل محلها عادة حسنة؛ فإنه يكون قد التزم بإجراء تعـديلات مسـتمرة في سُـلَّمه القيمي بما يحقق العبودية والفاعليـة، ومع أن هذا الأمر ليس بالسهل؛ فإنه بالاستعانة بالله -تعالى- والعزيمة الـتي لا تلين يمكن إنجاز الكثير الكثير. وهـذا التحـدي سـيظل مـاثلاً أمـام كل مسلم في كل الظروف وإلى أن يلقى ربه.

2) المشروع الشخصي:

علينا أن نقـول إن وعينا مفتـون بالإنجـازات الكبـيرة والانتصـارات العظمى، مما زهّـدنا في الاهتمـام بـالأمور الصـغيرة والتفاصـيل الدقيقة، مع أنه من غير الممكن التعامل مع القضايا الكبرى من غير تفتيتها وتنويع المداخل والطرق لحلها، فكرة المشروع الشخصي ما زالت غريبة عن المجتمعات الإسـلامية ولـدى معظم النـاس، مع أنه قد يكون هو السبيل الأكثر يسراً والأقل تكلفة والأكثر نجاعة والأقل

مخـاطرة في إنقـاذ الأمة من الحالة الحرجة الـتي صـارت إليها في ظل قصور الداخل وضغوطات الخارج.

المشروع الشخصي يعني التزام المرء بإنجاز شيء يكـرس له حياته أو جـــزءًا كبـــيرًا منهـــا، وهو من أجل إتقانه وأدائه على أفضل وجه مسـتعد للتنـازل عن بعض الرغبـات وتفـويت بعض المصـالح وذوق طعم العناء.

المشـــروع الشخصي رؤية تتكـــون من الهـــدف والطاقة والإمكانية والبعد الزمـني، ولا قيمة لتلك الرؤية إذا لم يتم تجسـيدها في خطة عملية ومنطقية واضحة ودقيقة، من خلال مشروعنا الشخصي نعـثر على الـدور الأمثل الـذي يمكن أن نؤديه في هـذه الحيـاة، كما أننا نجيب من خلاله عملياً عن الأسئلة الـتي لا يتم التقـدم الحقيقي من غير الجواب عنها.

وأهم تلك الأسئلة سؤالان ضاغطان؛ هما:

1- ما الشيء الذي نستطيع أن نفعله الآن لكننا لا نفعله؟

2- ما العمل الذي إن أديناه بطريقة جديدة تكون نتائجه أفضل؟

ومن المهم أن تكون الأهداف الـتي ننجزها من خلال ذلك المشـروع متصلة بالهدف النهائي الذي على كل مسلم أن يسـعى إلى بلوغـه، وهو الفوز برضوان الله –تعالى-.

سوف تتقدم أمة الإسلام تقدماً بـاهراً إذا تمكن 5 % من أبنائها من تقديم نماذج راقية في العلم والتربية والأخلاق والسـلوك والعلاقـات الاجتماعية والإنتاج والإبداع، فالذي يغير معـالم الحيـاة ليس الأفكـار والحكم والمقولات - وإن كانت تشـكل الأسـاس لأي ازدهـار-؛ وإنما النمـاذج الراقية الـتي يتفاعل معها النـاس، ويتخـذون منها قـدوات يقتدون بها.

الأمم الفقـيرة ليست تلك الـتي لا تملك الكثـير من الرجـال، ولكنها الأمم الـــتي يتلفت أبناؤها يمنة ويســـرة، فلا يـــرون إلا رجـــالاً من الطراز الثـالث أو الرابـع، فيحـدث ما يشـبه الفتنة الثقافية والضـياع السلوكي.

من الصـعب أن يكـون المـرء نموذجـاً في أمـور كثـيرة، لكن من الميسـور أن يكـون عاديـاً أو فـوق العـادي قليلاً في جل شـؤونه، ويقدم نموذجاً رفيعاً في شأن أو اثنين أو ثلاثة.

إذا نظرنا في سير صـفوة الصـفوة من أصـحاب النـبي – صـلى الله عليه وسلم- لوجدنا أنهم من خلال براعة كل واحد وتفوقه في بعض الأمـور تمكنـوا من كتابة تـاريخ صـدر الإسـلام، وتأسـيس المرجعية

الرمزية والشعورية والأخلاقية لأمة الإسلام بطولها وعرضها: هذا يقدم نموذجاً في العدل، وهذا في الأخلاق والتجرد، وهذا في الصدق والأمانة، وهذا في الثبات على المبدأ، وهذا في النبوغ العلمي والفقهي، وهذا في الحنكة العسكرية، وهذا في الكرم والجود، وهذا في البر بوالديه وأرحامه، وهذا في الحياء وللطف والطيبة... وهكذا تم رسم ملامح أفضل مراحل حضارة الإسلام وملامح أكرم الأجيال.

جمال فكرة المشروع الحضاري الشخصي أنه لا يحتاج إلى كثير مال وأحياناً لا يحتاج إلى أي مال. وهو ليس ذا مقاييس صارمة ومعالم محددة، ولذا فإن معظم الناس يستطيعون أن يهتموا بأمر من الأمور يصبحون من خلاله مناراً ومرجعية لغيرهم؛ ومن الذي يمنع المرء أن يقدم نموذجاً في التبكير إلى صلاة الجماعة أو خدمة والديه أو الحرص على الوقت أو التصبر والتحلم وسعة الصدر ...؟

من خلال المشروع الحضاري يحقق المرء لدينه وجماعته ودنياه الكثير من المكاسب، وهو في كل ذلك الكاسب الأول . لكننا نحتاج إلى شيء من البصيرة وشيء من التخطيط وكثير من الهمة والاهتمام وروح المثابرة.

3-المشاركة في الخدمة العامة:

يتجلى الكثير من عظمة الأمم وخيريتها في تمتعها بأعداد كبيرة من المهتمين بالشأن العام والناهضين للقضايا التي لا تدخل في مسؤولية أي جهة من الجهات. وإن في إمكان أي مسلم مهما كانت ظروفه وأوضاعه، ومهما كانت قدراته وإمكاناته أن يسهم في تحسين الحياة العامة وإشاعة الخير محاصرة الشر في البلد الذي يعيش فيه. وسيكون من الخطأ الظن أن الإحسان يقتصر على بذل شيء من المال للفقراء. لا ريب أن هناك مشكلات كثيرة لا يحلها إلا المال؛ لكن أيضاً هناك مشكلات كثيرة جداً لا تحتاج في حلها إلى أي مال. وقد كان عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يخرج إلى السوق مع غلام له، ثم يعود دون أن يشتري أي شيء، وكان غلامه يستغرب، ويتساءل : لماذا كان ذلك ؟! وكان ابن عمر يجيبه أنه خرج من أجل السلام على الناس.

في المسلمين مظلومون يحتاجون إلى مناصرة، وفيهم جهلة يحتاجون إلى تعليم ومنحرفون يحتاجون إلى إرشاد، ومهمومون يحتاجون إلى مواساة... ولو أن كل مسلم بذل ساعة في الأسبوع

في التعاون مع مؤسسة خيرية أو في عمل تطوعي عام لتغـير وجه الحياة في عالمنا الإسلامي.
نحن أمة تتحـدث كثـيراً عن حب الخـير وعمل الخـير، لكن الأرقـام والإحصاءات والنتائج الملموسة تدل على أننا في الأعمـال التطوعية والأنشـطة اللاربحية في مـؤخرة الأمم. ويكفي القـول: إن القطـاع الثـالث والـذي يشـمل الأعمـال الخيرية واللاربحية في (إسـرائيل) يستوعب 11% من القـوة العاملة هنـاك؛ على حين أنه في أقطارنا الإسلامية لا يستوعب ولا واحداً في المئة!.
من خلال حبّات الرمل تتشكل صحارى شاسعة، ومن خلال قطـرات المـاء تتشـكل بحـار ومحيطـات، ومن خلال الأعمـال الصـغيرة والمبـادرات الفردية يتشـكل مسـتقبل أمة إذا امتلكنا ما يكفي من العزيمة والوعي. والله ولي التوفيق.

================

في وجه التبسيط

لا تسـتطيع عقولنا التعامل مع معلومـات كثـيرة متداخلة ومتقاطعة على نحو مباشر ومثمـر، وكثـيراً ما نحـار في إيجـاد حل لهـذه المعضلة. وقد لجأ العقل البشري قديماً إلى تقسيم المعرفة -والتي كانت واحدة- إلى علوم واختصاصات بغية تأمين نـوع من السـيطرة على فوضى المعلومات والوصول بالتـالي إلى تنظيم جديد للمعرفة يتيح لبني الإنسان تعاملاً موضوعياً أفضل مما هو سائد. لكن هذا لم يحل المشـكلة على نحو كامـل، فهنـاك الكثـير من الأوضـاع الـتي لا تمكن معرفة كنهها وتشـكيل رؤية واضـحة لها من خلال أي علم من العلـوم. ومن هنا فقد وجد الكثـير الكثـير من النـاس في سـبك المقـولات المتقنـة، وإطلاق الشـعارات الجذابة وتشـكيل الصـور الذهنية المحـددة أداة مثلى لاجـتراح المجهـول، وتقـريب البعيد من الأحـداث والأحـوال . والواقع أن هـذا العمل يلـبي إلى حد بعيد تشـوقات العامة والجمـاهير العريضة والـتي تبحث عن شـيء يـريح عقولها من مشـاق التأمل والخـوض في التفاصـيل؛ لكنه لا يخـدم الحقيقة الموضـوعية في شـيء ذي قيمـة؛ بل إنه يخـتزل الواقع التاريخي والمعيشـي، ويعطي عنه صـوراً مضـللة ومبتذلة تـوفر من الإزعاج للباحث المدقق على مقدار ما توفره من الارتيـاح والإنشـاء لأنصاف العـوام والمتشـبثين بأذيـال المعرفـة. ومن أجل توضـيح ما أريد قوله سأضـرب مثـالين اثـنين؛ أحـدهما يتعلق بالحاضر والثـاني تاريخي.

بالنسـبة إلى المثـال الأول؛ فـإن من الملاحظ أن الحسّ الإسـلامي يميل في علاقاتنا مع الغـــرب -على نحو عـــام- إلى اتخـــاذ موقف وسـط، يبتعد عن الانغلاق التـام والانفتـاح المطلـق. وقد لخّص أحد المصـــلحين ذلك الموقف بـــالقول: نأخذ من الحضـــارة الغربية ما يلائمنا وينفعنـا، ونُعـرض عن غـيره. وهـذه الصـياغة على المسـتوى النظري مثالية جـدًّا إلى درجة أن معظم شـعوب الأرض لا تحلم في علاقاتها بعضها مع بعض بأكثر ما ترشد إليه هذه المقولة. لكن هــذه العبارة على المستوى العملي تفقد الكثـير من قيمتها بسـبب ضـيق مجـالات تطبيقهـا، والـذي يقف وراء هـذا القصـور عـدم تصـور من سبكها كيفيات التطبيق والتنفيذ. إن صعوبة تطـبيق هـذا القـول تنبع من الاعتبارات والحيثيات التالية:

1- نحن نتعامل مع الغـرب على المسـتوى العـام وعلى المسـتوى الشخصي من خلال قرارات عامـة. وحين يكـون الأمر كـذلك فإننا لا نسـتطيع اتخـاذ قـرار نفي وإيجـابي وملائم على نحو كامل ما دمنا نعيش في وسط غير كامل، وما دامت إمكاناتنا غير كاملة.

2- يختلف الكثـيرون من أبنـاء المسـلمين في تحديد ما يلائمنا من ثقافة الغـرب وأخلاقه ومنتجاته على نحو عـام؛ فما يعـده فلان من المسـلمين مهمًّا وحيويًّا لنـا، ينظر إليه مسـلم آخر على أنه خطر وسيئ .

3- نحن لا نسـتطيع في كل الأحـوال أن نقـوم بعملية الانتقـاء الـتي نريدها فالغرب ليس (سوق خضـار) تتسـوق منه ما شـئت وتـدع ما شئت لأصحابه؛ حيث إن هناك ارتباطـاً وثيقـاً بين الأخلاق والسياسة وبين الأخلاق والاقتصـاد وبين الاقتصـاد والسياسـة، وبين كل هـذه الأشـياء وبين الاجتمـاع والتربية والتعليم. فـإذا أردت أن تقتبس أسلوباً أو نظاماً من أي مجال من هذه المجالات؛ فقد يقتضي الأمر أن نقتبس ما يرتبط به في مجـال آخـر، مما لا يلائمك ولا يرضـيك. ينظر الغرب إلى التعددية الفكرية والسياسـية على أنها أحد مصـادر قوته وتميزه، لكن لولا تجرد الغرب من العقيدة الدينية لما أمكن له الحصول على تلك التعددية على النحو الموجود الآن.

حيوية الاقتصاد الغربي قائمة على الربا والتـأمين والضـرائب العالية وعلى النفوذ السياسي العالمي لدولة وقدرتها على تأمين مواد خام رخيصة وفتح أسواق لمنتجاتها.

المرأة في الغرب تعلمت وأبدعت وعملت في كل المهن والأعمـال وحـازت درجة عالية من الـوعي واسـتقلال الشخصـية... وكـان ذلك

في أحيان كثـيرة على حسـاب كرامتها وحشـمتها وعفتهـا، كما كـان على حساب سلامة البنـاء الأسـري... وهكـذا فـإن أخذ ما ينفعنا من الغــــرب قد يقتضي أن نأخذ معه ما لا ينفعنا ولا تبيحه عقائـــــدنا ومبادئنــا؛ فتفكيك المنظومـات الحضـارية أو تغريق الصـفقة - كما يقول الفقهاء- ليس ممكناً في كل الأحوال، وحين يكون ممكنـاً فقد لا يكون مجدياً، فكيف يكون العمل؟.

4- إذا فرضنا جدلاً أننا تجاوزنا كل المحاذير السـابقة؛ فإننا سـنواجه مشكلة الفجوة بين النظرية والتطبيق- هي فجـوة أبديـة-. فـالتنظير يتم دائمـــاً على نحو طليق من القيـــود، وعلى أســـاس تـــوفر كل الإمكانـات المطلوبة للتنفيـذ، لكن حين نـأتي للتطـبيق فإنه تواجهنا مشـكلات كثـيرة لم تخطر في بـال المنظِّر، كما أن الإنسـان حين يـأتي للعمل يضـطر إلى الـدخول في موازنـات دقيقة لا تُعـرف ولا تُحسب وقت التخطيط. وهذا مثال يمكن أن نلاحظ فيه كل ذلك:

لدينا حكومة إسلامية شديدة الالتزام وعظيمة الوعي بطبيعة العلاقة الــتي تربطنا بــالغرب، وأرادت أن تأخذ قــراراً بشــأن علاقة أبنائها بعلوم الغرب. طبعاً لديها خيار إغلاق باب الابتعاث إلى الغــرب على نحو نهــائي وإذا فعلت ذلك فإنها ستشـــعر ويشـــعر مواطنوها أنهم حرموا من علـوم مهمة للارتقـاء بالحيـاة في بلادهم، وسـوف يـؤدي ذلك إلى تراجع الوضع العلمي والتقـــني في البلــــد. وهي مع ذلك القرار لا تستطيع أن تمنع من السفر أولئك الشـباب الـذين يريـدون السـفر للدراسة على نفقتهم الخاصــة، إلا إذا قــررت تحويل بلادها إلى سجن كبير.

اتخذت تلك الحكومة قـراراً بإيفـاد طلابها للغـرب من أجل الدراسة في تخصصات، تظن أنها ضرورية لتقدمها ونموها وقوتهــا، كما تظن أنها لا تشكل خطورة على عقيدة أبنائها وعلى خصوصيتهم الثقافية، كما هو الشـــأن في دراسة الطب والهندسة والكيميـــاء والفيزيـــاء وغيرها من العلـوم البحتـة. وذهب فعلاً ألـوف الشـباب من أبنائهـا؛ وهناك تشـعر الحكومة أنها فقـدت جـزءاً كبـيراً من السـيطرة على أولئك الشباب؛ حيث إنها ستجد بين أولئك المبتعثين من لم يَـرُق له التخصص الـذي ابتعث إلى دراسـته، فتحـول من الطب إلى دراسة الأدب الإنجلـيزي أو الفلسـفة أو إدارة الأعمـال. وسـتجد بينهم من تعرف على بعض قرنـاء السـوء، فوقع في شـباك الرذيلة ومسـتنقع المخدرات. وستجد أيضاً من عزف عن الدراسة، وانخـرط في مهنة من المهن يكسب منها قوته. وهناك من تزوج نصرانية بدافع الخوف

من الفاحشــة، فصــارت فيما بعد أمًّا لأطفاله ومربية لهم... وهكــذا فلم تســتطع الدولة المســلمة أن تجعل أبناءها يأخــذون من علــوم الغرب ما هو نـافع، ويعرضـون عما هو ضـار؛ لأن المسـألة في غاية التعقيد.

ولك أن تقيس على هــذا التحــالف مع الغربــيين في بعض الأمــور والإقامة بين ظهــرانيهم لكسب الــرزق، حيث وجد كثــير من أبنــاء المســلمين في الغــرب الرخــاء على حين ضــاقت عليهم بلادهم، بالإضافة إلى الاستغاثة بـالغربيين في تنظيم بعض الشـؤون المحلية وغير ذلك.

1/2

كنت قد ذكرت في المقال السابق أني سأقدم مثـالاً تاريخيـاً حـول تبسـيط بعض النـاس لأمـور هي في غاية التعقيـد، واليـوم أحـاول الوفاء بذلك، وسـيكون هـذا المقـال عن شـيء يتعلق بتـاريخ الرجل الكبـير عمر بن عبد العزيز - رحمه اللـه-؛ حيث إن عـدداً غـير قليل من الإسـلاميين يعتقـدون أن الدولة الإسـلامية بإخلاصـها وصـدقها وإمكاناتها الهائلة تحمل معها أينما قــامت مفــاتيح الحلــول الجذرية المذهلة لكل مشــكلات الأمــة. وهم يــبرهنون على ذلك بالإصــلاح الواسع النطاق الذي قـام به ذلك الرجل في فـترة زمنية قياسـية لا تزيد على سنتين إلا قليلاً. وكان من جملة إصلاحاته البـاهرة قضـاؤه على الفقر في الدولة الإسلامية.

ويستندون في ذلك إلى خبر يفيد أن الخير فـاض في زمن عمر إلى درجة أن بعض الولاة أرسـلوا إليه يستشـيرونه فيما يفعلونه بـأموال الزكاة التي جمعوها ولم يجدوا فقراء يوزعونها عليهم، فما كـان منه إلا أن أرشدهم إلى أن يشتروا بهم عبيداً ويقوموا بإعتاقهم .

والحقيقة أنني شخصياً لا أكاد أحصي الذين سمعت منهم هذا الكلام من أبناء زماننـا. وأجـزم أن كل الـذين يقولـون ذلك لم يفكـروا في يوم من الأيام في الآليات التنفيذية . وفي حجم الأموال الهائلة التي يتطلبها القضاء على الفقر في دولة تحكم أجزاءً واسـعة من العـالم خلال مدة زمنية قصيرة جداً في عمر الشعوب والحضارات.

إن هذا الخبر الذي يعتمدون عليه لو صحّ، فإنه في نظري لا يعدو أن يكــون حــدث في حي من الأحيــاء أو قرية من القــرى أو قبيلة من القبائل، وليس هناك أي فرصة موضوعية لوقوعه فيما هو أوسع من ذلك وذلك للأسباب الآتية:

1- إن الخلاص من الفقر في دولة منتشـرة على مسـاحات ممتـدة في آسيا وأفريقيا في سنتين أو عشر سنوات أمر في غاية البعد إن لم نقل إنه في حـيز المسـتحيل العـادي؛ لأنه يسـتلزم أولاً تعريفـاً للفقر تجري على أساسه مسـاعدة الفقـراء. وهـذا التعريف معقد – كما هو الشأن في تعريف البطالة- ولم يكن متيسراً آنذاك.
ويتطلب ثانياً القيام بمسح واسع النطاق لمعرفة مستحقي المعونة، وهذا يتطلب تشكيل مئات ألوف اللجان الـتي تقـوم بـذلك. وبما أن أقـاليم الدولة متفاوتة في الغـنى والفقر تفاوتـاً شـديداً؛ فـإن عوائد الدولة وجباياتها في الأقاليم الفقـيرة لا تسد حاجة الفقـراء، ومن ثم فإن هذا يعني القيام بعمليات نقل واسعة ومكثفة للأمـوال والأشـياء والأرزاق من الأقـاليم الغنية إلى الأقـاليم الفقـيرة. وهـذا كله على افتراض وجود فائض في بعض الأقاليم؛ وهذا غـير ثـابت. وعلى كـلٍّ فليس لـدينا أخبـار تاريخية تـدل على أن ذلك النقل الكـثيف قد تم فعلاً، وهو في أحيان كثيرة لم يكن ممكناً بسبب الحكم (الفيدرالي) الذي كان سائداً، وبسبب صعوبة المواصلات بين الأقـاليم الإسـلامية المختلفة.
2- هناك ألوف الأخبار المنثورة في كتب التاريخ والتراجم والتي تدل على أن رجـالاً كثـيرين من أعلام الأمة وعلمائها وصـالحيها كـانوا يشكون في فترة حكم عمر بن عبدالعزيز من الفقر وقلة ذات اليد. والذين لم يذكر لنا التاريخ عنهم أي شـيء يبلغـون مئـات الأضـعاف لهؤلاء. فهل نصدق خبراً واحداً ونضـرب بتلك الأخبـار الكثـيرة جـداً عرض الحائط؟!
3- بعض فقر الفقراء يحتاج إلى علاج خاص، وبعضه لا يسـتطيع أحد علاجه حين يكون فقر الإنسان بسبب كسله وعدم رغبته في العمل؛ فـإن النـاس يعرضـون عن مسـاعدته، بل يشـعرون بـأن مسـاعدته خطأ. وحين يكون فقره بسبب سفهه وتبـذيره وسـوء إدارته للمـال؛ فإن هذا لا يساعده الناس. وإذا ساعدوه لم ينتفع بمساعدتهم.
بعض الفقراء يكونـون أيتامـاً أو أرامل ومعـوقين، وهـؤلاء يحتـاجون إلى ملاجئ ودور رعاية وجمعيـات خيرية ومن غـير ذلك تصـعب مساعدة العديد منهم.
4- من أين جـاءت الأمـوال لعمر بن عبـدالعزيز – رحمه اللـه- حـتى أغنى الناس، ولم يبق فيهم من يأخذ أو يستحق الزكاة؟
الذين يقولون بذلك يـذهبون إلى أن عمر حسَّـن نظـام جمع الزكـاة والخراج والجزية فصـارت الأمـوال تـذهب إلى خزينة الدولة عوضـاً

عن أن يضيع كثير منها بسبب الرشوة أو بسبب سـرقة الجبـاة. كما أن الله – تعالى- يبارك في الرزق وينشر فضله ومعونته حين يسـوء الصلاح ويتولى الأمور رجال أخيار من نوعية عمر بن العزيـز.. وهـذا الكلام صحيح جزئياً.

وقد كـان إصـلاح الأحـوال في الأقـاليم البعيـدة عن مركز الخلافة – ومعظمها كذلك- أعظم مشقة بسـبب صـعوبة الاتصـال. لكن الهـدر الذي كان يحدث بسبب فسـاد نظـام الجباية لا يشـكل في أي حـال رقماً ضخماً، ينقل الأمة من حال الفقر إلى حال الغنى.

5- علينا بعد هذا أن تساءل هل فريضة الزكاة شرعت أو روعي في مشروعيتها ألا يبقى في المجتمع المسلم فقيراً؟ وهل هـذه النسـبة القليلة كافية لسد حاجات الفقراء في كل الأحوال؟.

لا أعرف آية أو حديثاً فهم منه أئمتنا أن الزكـاة إذا أديت على أكمل وجه في مجتمع أو إقليم تم القضــاء على الفقر فيــه. ولا أعتقد أن من يملك درجة متوســطة من الفقه يُقـدم على القــول بــذلك. إن أفضل عصر أديت فيه الزكـاة، وكـانت الرغبة فيما عند الله أو أوجها هو عصر النبي – صلى الله عليه وسلم-، ثم عصر الخلفاء الراشدين . ولم يتم الفضـاء على الفقر لا في مركز الدولة (المدينة المنـورة) ولا في غيرها. وفي أمريكا أو أوروبا يـدفع المـواطن أحيانـاً ما يصل إلى 60 أو 70% من دخله ضـرائب للدولـة، أي عشـرات أضـعاف الزكاة، ومع هذا فإن في تلك المجتمعات فقراء وبائسين كثر.

إنني أعتقد أن شعيرة الزكاة جزء من النظام الاقتصـادي الإسـلامي وهذه الشعيرة لا تحقق أغراضها بكفاءة إلا إذا اشتغلت باقي أجــزاء النظام مثل: القرض الحسن، والكفارات، وتوفير فرص العمـل، و... على نحو جيــد. والنظــام الاقتصــادي هو الآخر جــزء من النظــام الإسلامي العام، فـإذا كـان هنـاك فسـاد إداري أو سياسـي، أو كـان هناك ظلم اجتماعي فادح، أو تحلل أخلاقي؛ فإن النظـام الاقتصـادي لا يعمل بالكفـاءة المنشـودة. ومع كل هـذا فـإن الأعمـال الخيرية لا تشكل متن الكفاية المعيشية لأحد، وإنما هي عبارة عن كـرّة أخـرى من أجل تلافي قصور النظم السياسية والاقتصـادية والاجتماعية في توزيع العدالة. إنها تساعد النظم المعمـول بهـا، وتسد فجواتها لكنها لا تكون أبداً بديلة عنها. ويجب أن يكون هذا واضحاً.

6- لنا أن نتســاءل: هل قضى عمر بن عبــدالعزيز على الفقر -على رأي من يدعي ذلك- بسبب صلاحه وتقواه أو بحسب حسن إدارتـه؟ إن كان ذلك بسبب صلاحه وتقواه، فالنبي - صـلى الله عليه وسـلم-

ثم الخلفاء الراشدون أفضل منه وأصلح. وإن كان ذلك بسبب حسن إدارته وتـدبيره، فعمر بن الخطـاب حكم أضـعاف مدته وهو الإداري والاســـتراتيجي الأول، ومع هـــذا فلم يتم القضـــاء على الفقر في عهودهم الميمونة.
7- إن اللـه- تعـالى- جعل الحاجة والعـوز ونقص الأمـوال أداة ابتلاء واختبار لعباده، وسوف تستمر هذه الأداة إلى أن تنتهي حيـاة البشر على هـذه الأرض؛ قـال سـبحانه: (ولنبلـونكم بشـيء من الخـوف والجـوع ونقص من الأمـوال والأنفس والثمـرات وبشر الصـابرين) [سورة البقرة:155].
إن هذا التفنيد لتلك المقولة على هـذا النحو من التـدقيق والتفـتيش يســتهدف تمــرين الــذهن على النظر العميق وتحريضه على عــدم الاستسلام للمقـولات الشـائعة، كما أنه يسـتهدف تكـوين بنية عقلية معقدة، تتجافى عن السطحية والتحليلات المستعجلة.
والله الهادي إلى سواء السبيل....
================

أزمة وسائل أم أزمة أهداف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسـلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :
فإنه ما اجتمع لفيف من المهتمين بالـدعوة، والغيـورين على صـلاح النــاس إلا دارت بينهم أحــاديث ومجــادلات وشــكايات حــول عجز الـدعاة عن امتلاك الوسـائل الدعوية الـتي يتمكنـون من خلالها من نشر أفكارهم وتعميم مبادئهم ومقولاتهم. ونحن لا نملّ من المقارنة بين تخلف وسائلنا وتقدم وسـائل الآخـرين من منافسـين ومعـادين، ولسنا في ذلك - في كثير من الأحيان- مخطـئين أو مبـالغين؛ إذ مما لا شك فيه أن العمل الـدعوي يعـاني من نقص ظـاهر في الوسـائل التي يمكن أن تستخدم في تبليغ رسـالة الإسـلام، حيث إنك لا تكـاد تجد فضائية إسلامية ذات تميز واضح وجاذبية عاليـة، كما أنك لا تجد شــــيئاً من ذلك في مجـــــال البث الإذاعي أو في مجـــــال الإعلام المقروء، فالمجلات والجرائد الإسلامية قليلة العدد نسبياً، ومســتوى معظمها على المستوى المهني يـتردد بين المتوسط والضـعيف، ولا يختلف الشأن في (خطبة الجمعة) حيث إن الخطبـاء القـادرين على تشـخيص الحالة الإسـلامية ووصف العلاج لها قليلـون جـداً، لكن مع هذا فالمهم دائماً أن ندرك الأسـباب الجوهرية لما نـرى من ظـواهر ووقائع ومشكلات، ولما نشـكو منه من قصـور ومنغصَّـات وأزمـات.

ومع أن تخلف المسـلمين وضـعف مؤسسـاتهم المختلفة سـينعكس ولا ريب على كل الوسائل التي بين أيـديهم في كل شـؤون الحيـاة، إلا أن ذلك ليس هو السبب الجوهري في تخلف الوسـائل الدعويـة، وإنما يكمن السـبب الأسـاس في أن معظم الـدعاة لا يملكـون الأهداف الواضحة لحركتهم الدائبة. الهدف الجيد الواضح والمدروس يجعل من نفسه أداة لتحـريض الـذين بلـوروه على إيجـاد الأسـاليب والوسائل التي تبلِّغهم إياه، وإن كثيراً من الأهـداف الدعوية لا يفعل ذلك لأنه لا تتـوفر فيه سـمات الهـدف الجيـد، ومن ثم فإنه يُـدرَك بطريقة مبتذلة أو بطريقة غامضة، مما يفقده سمة التحـريض الـتي أشرنا إليها.

أزمتنا الأساسية إذن في فقد الهدف الجيد، وليست في الافتقار إلى الوسيلة الناجحة، وأزمة الهدف الجيد هي نتيجة قصور بـنيوي يعـاني منه العمل الدعوي منذ مدة ليست بالقصـيرة، وذلك القصـور يتمثل في ضـعف فهم نوعية الحركة المطلوبة لهواية النـاس وإصـلاح شـؤونهم ونوعية الخطـاب الـذي تجب صـياغته في كل ذلـك، وهـذا يترتب عليه عدم القـدرة على تحديد الأولويـات الـتي يجب أن توجَّه إليها معظم الجهود والإمكانـات، مما يـدفع النـاس إلى أن يعلـوا في كل اتجاه، وأن يهتموا بكل شيء ولكن دون تحقيق اختراقات جيـدة في أي مجال من المجالات.

إننا إذا امتلكنا الهـدف الجيد فقد نتمكن من امتلاك الوسـيلة المناسـبة، وقد لا نتمكن، لكن إذا لم نمتلكه فإننا قطعـاً لن نعـرف الوسيلة المطلوبة ولن نصل بالتالي إليها.

لو تأملنا في سير المصلحين العظام الذين عدَّلوا في اتجـاه التـاريخ الإسـلامي لوجـدنا أن أكـثرهم - إن لم نقل جميعهم- لم يكونـوا يملكـون أي إمكانية جيـدة أو وسـيلة فعالة لنشر أفكـارهم وإصـلاح الأوضـاع العامة عند انطلاقتهم الأولى، لكن نجد أنهم كـانوا - على مسـتويات مختلفـة- يعرفـون مـاذا يريـدون، وكـانت الأشـياء الـتي يعملون من أجل الوصول إليها تلـوح أمـامهم في الأفـق، ولا يختلف وضع مصـلحي الأمم الأخـرى عن وضع مصـلحينا، فـاليهود الـذين اجتمعوا في سويسرا في أواخر القرن التاسع عشر - كـانوا يعـانون من عزلة عالمية ومن شيء من الاضـطهاد في بعض البلـدان؛ وفي ذلك الوقت توصلوا إلى أنهم يسـتهدفون إقامة دولة لهم على أرض فلسطين بعد خمسين سـنة، والـذي ينظر إلى ضآلة ما بين أيـديهم من إمكانـات وإلى تحقيق ذلك الهـدف في ظل الحكومة العثمانيـة،

يستغرب من ذلك الطموح، لكن العمل الشاق والمثـابر نحو الهـدف المحدد يوجد طبيعة الكثير من الظروف الملائمة، ويـوفر الكثـير من الإمكانات المطلوبة وهذا ما حدث.
بعض الذين يشـتغلون بالـدعوة إلى الله - تعـالى- يغلب عليهم قصر النظر، فهم لا ينظرون إلى بعيـد، ولا يسـتطيعون التأمل في مـآلات الأشياء، وهذا يحرمهم من رؤية ما هو كامن من إمكانات ومعطيـات وعقبات، وهم لهذا مشغولون بما هو ناجز ظانين دوامه واستمراره، مع أن التقدم العلمي والتقني الذي يحدث الآن يجعل ناموس الحياة الأساس في التغير والتبدل، وليس في الثبات والاستمرار.
وهناك ممن يشـتغل بالـدعوة من يغلب عليه الحسّ العملي، وينظر إلى التخطيط وبناء الاستراتيجيات وبلورة الأهـداف على أنه مضـيعة للوقت، وليس هناك ما يدعو إليه، وهو في نظـره قد يكـون مظهـراً من مظـاهر الفـرار من العمل وتحمل المسـؤوليات الكبـيرة، وهـذه الشريحة واسعة جداً وإلى حد لا يُصدَّق!
ومن المؤسف أن فيمن يشنَّع على التخطيط الـدعوي من لا يخطط وينظر، كما أنه في الـوقت نفسه لا يعمل ولا ينتج، فهو في الحقيقة يعاني من عطالة شاملة، ولو سـئل عما قدّمه للأمة خلال أسـبوع أو شـهر مضى لم يجد شـيئاً يتحـدث عنـه! وهنـاك من يعمل من غـير رؤية راشدة ولا أهداف واضحة ولا فقه للأولويات، وهؤلاء أسوأ حالاً من أولئك؛ لأن حركتهم قد تفضي إلى حدوث كوارث!
الهدف الجيد يحتـاج إلى أن نرسم خطة لتنفيـذه، وتلك الخطة يجب أن تشـتمل على الإمكانـات والأوقـات المطلوبـة، بالإضـافة إلى العقبات المتوقعة، وبـذلك وحـده نجد أنفسـنا مضـطرين إلى البحث عن الوسيلة الفعالة والملائمة.
لست ممن تتملكه الرغبة بـإغراء الآخـرين بـالبحث عن المسـتحيل وسـلوك الطـرق الـوعرة لبلـوغ الرغـائب؛ لأن مشـكلتنا الأساسـية ليست مع المستحيل الذي نتمناه، ولكن مع الممكن الذي ضيعناه!.
فيا أيها الـذين خنقهم الواقع بمعطياته الصـعبة، فحرمـوا من رؤية الآفاق الممتدة الـتي تنتظـرهم، ويا من أدمنـوا الشـكوى من ضـعف الحيلة وانعدام الوسيلة، امنحوا أنفسكم الوقت الكافي للعثـور على أفضل تحديد ممكن لما ترغبون في تحقيقه، وسوف تجدون أن ذلك سـيجعل وسـائلكم أكـثر تقـدماً وفاعليـة، كما أنه سـيجعلكم أكـثر واقعيـة، وسـيكون لكم من وراء هـذا وذاك إدارة أجـود للإمكانـات المحدودة التي بين أيديكم. والله الهادي.

================

خطاب تبليغي

إذا كان الخطاب الصفوي خطابًا تنشـئة الخاصـة، وتتداوله الصـفوة؛ فإن الخطاب التبليغي تصـنعه الخاصـة، وتقـوم باسـتخدامه شـريحة متوســطة بين الخاصة والعامـــة، إذ توجهه إلى عامة المســلمين. الخطـــاب التبليغي يشـــكل أداة مهمة لتوحيد الثقافة عند حـــدودها الــدنيا، كما أنه يعد الوسـيلة الأساسـية لتــذكير النــاس بالمبــادئ والأصول والأدبيات الإسـلامية. ولهـذا فـإن رقعة تداوله واسـعة جـدًّا ومن هنا فإنه اكتسب صفة (الشعبية). وشـعبيته هـذه تملي عليه أن يتصف بخصـائص وسـمات، ويتعـرض لأزمـات ومشـكلات يحسن بنا الوقوف عندها، ولعل أهمها الآتي:

1- الوضــوح: من المهم أن يكــون الخطــاب التبليغي واضــحًا غاية الوضـوح، حيث إن تـدني المسـتوى المعـرفي لأولئك الـذين يتلقونه يوجد في أذهانهم الكثير من الالتباس والخلط في التفسير. ولو أنك سـألت عشـرة من النـاس عن خلاصة ما فهمـوه من إحـدى خطب الجمعة لوجدت تفاوتًا بيِّنًا في خلاصـاتهم. إن من الحيـوي أن نـدرك أن ســوء الفهم ليس حادثًا نـــادرًا، وأن الواحد منا لو شـــرح فكرته عشرين مرة، فليس هناك أي ضمان لاسـتيعاب السـامعين لها على النحو الذي يريد.

إن اللغة ناقل غـير كفء، وإن النـاس حين يسـمعون كلامًا يفهمونه في ضوء ما لديهم من خلفيات معرفية، بل إن كثـيرًا منهم يقـرؤون تلك الخلفيات ويبلورونها عوضًا عن الاشتغال بفهم ما سمعوه.

ومن هنا فإن من المفيد أن نحاول التأكد من أن الناس فهمـوا فعلاً ما نقوله لهم كما نعنيه تمامًا . تكـرار بعض المقـاطع، وعـدم تركـيز المعاني في ألفاظ قليلة، وعـدم الإكثـار من ذكر أعـداد التقسـيمات والفوائد والمضـار من الأمـور الـتي تضـفي على الخطـاب طـابع الوضوح، وتجعله قريبًا من تناول الأفهام. وقد كان - صـلى الله عليه وسلم- يكرر بعض الجمل المهمة حتى تُحفظ عنه. والتكـرار يسـاعد الذاكرة، ويخفف العبء عن جهـاز الإدراك والتحليـل. ومن الملاحظ في القـــرآن الكـــريم وفي الســـنة النبوية أن الخصـــال والمـــيزات والأقسـام على نحو عـام لا تتجـاوز الخمسة إلا على سـبيل النـدور، وذلك حتى لا يشق على الناس حفظها.

وأعتقد أن التركيز على شرح التعريفـات يسـاعد النـاس على الفهم الصحيح، وإذا أوردنا مصطلحًا غريبًا فلنحاول تبسيطه قبل تجاوزه.

2- التأثير والإقناع يشكل هـدفًا مزدوجًا للخطـاب التبليغي الشـعبي، وربما كـان طـابع التـأثير ألصق بـه، حيث إنه في الغـالب لا يشـتمل على معلومـات جديـدة، ولا يكشف عن خبايا وقضـايا مجهولـة، إنه يـذكر بالأصـول والحـدود والآداب، ويسـتنهض الهمم للـزوم الجـادة والأخذ بالتي هي أقـوم، كما أنه يحـذر النـاس من عـواقب المعاصي والشـرور الـتي انزلقـوا إليهـا. وهـذا كله جعل حامل هـذا الخطـاب محتاجًا إلى أن يمتلك قـدرًا غـير قليل من الحماسة لمقولاته وقـدرًا من العاطفة الجياشـــة؛ لأنه من غـــير ذلك لا يســـتطيع التـــأثير في عواطف الســـامعين، ولا يظهر الفـــرق بين النائحة الثكلى والنائحة المســـتأجرة- على حد قـــول أحـــدهم-. وهـــذا يملي على الخطبـــاء والوعاظ خصوصًا وحملة هذا الخطاب عمومًا أن يـدخلوا في موازنة دقيقة، بين البقاء أوفياء للحقائق التي يبشرون بها والأدلة والبراهين التي يستندون إليها، وبين كسب القلوب التي يحاولون التـأثير فيهـا، إنهم يجـدون أنفسـهم في حالة من الـتردد بين الحقيقة والعاطفـة؛ وإن التاريخ ليشهد، وإن الواقع لينطق بأن الـذين أخفقـوا ويخفقـون في إقامة هـذه الموازنة أكـثر بكثـير من الـذين ينجحـون. وظـاهرة (القصّـاص الكذبـة) ليست ظـاهرة تاريخيـة، نقـرأ عنهـا، وإنما هي ظاهرة مستمرة، فتذوق منها مرارة يومية. ومن المعروف أن بعض القصّاص والوعاظ وضعوا أحـاديث ونسـبوها إلى النـبي - صـلى الله عليه وســـلم- وكـــان دافعهم - في أحسن الأحـــوال- تكثـــير ســـواء المهتدين. وحين ذُكِّر أحدهم بقول النبي - صلى الله عليه وســلم - : " من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النـار" قـال: نكـذب له لا عليـه!! وفي أيامنا هـذه انتشر في العـالم الإسـلامي وبـاء المبالغة والتهويل في ذكر المحاسن والإيجابيات وذكر المساوئ والسـلبيات. وهذا لا يختلف كثـيرًا عن تضـليل العقـول بالكـذب الصـراح! وهنـاك أشخاص يلبسـون ثيـاب الـدعاة الهـداه، لكنهم لا يملكـون شـيئًا من رشد الداعية ولا تـذمم الفقيـه، وهم ينشـرون الخرافـات والأوهـام والغرائب والشذوذات ويصورونها للناس على أنها من الأمـــور الثابتة والبينة التي لا تقبل الجدل والنظر!

إن تنمية الخطاب التبليغي وتنقيته من الشوائب تعد مسـؤولية عامة لكل أهل الفهم والغيرة، وإن قوله - صلى الله عليه وسـلم-:" بلغـوا عني ولو آية " يفيـدنا أن في إمكـان السـواد الأعظم من النـاس أن يقوموا بواجب البيـان والتبليـغ. وإن هـذا الخطـاب يحمل - على نحو جـــوهري- عبء القيـــام بـــالأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكـــر، مما

يعني أن أعدادًا كبيرة من المسلمين تسهم في تشـويهه، وتسـتطيع في الوقت ذاته - لو أرادت - النهوض به.
إن بداية الطريق لرفع سـوية هـذا الخطـاب وجعله ألصق بـالحق وأقـوم لله - تعـالى- بالقسـط- وربما كـانت تتمثل في أن نضع في أذهاننا جميعًا أن الواحد منا بمجرد التصـدي للوعظ والإرشـاد والأمر والنهي، يضع قدمه على أرض هشة وخطـرة، حيث يعـرّض نفسه للسحب من رصيد الحقيقة لحساب الرغبة في التـأثير في النـاس والعـدول بهم إلى الطريق الصحيح. وحين يترسخ هـذا المعـنى في نفوسـنا وعقولنا فإنه يكـون قـادرًا على توليد حاسة جديـدة نتلمس من خلالها أشكال الزيف وضروب الزيغ.
3- الخطاب التبليغي ينقل رسالة، ويحاكم الحياة العامة إلى نمـوذج إسـلامي نقي وسـام مسـتمد من نصـوص الكتـاب والسـنة وحيـاة السـلف الصـالح، ومقتبس من الصـور الزاهية للنجاحـات الإسـلامية في كل زمان ومكان. وله دور جوهري وعظيم في بقاء الإسـلام حيًّا في النفوس وفي تنمية النزعة نحو التعـالي القيمي والأخلاقي لـدى المسـلمين في أصـقاع الأرض، لكن لصـعوبة تقـدير حجم المسـافة التالة الـتي يجب أن تفصل بين المثـال والواقـع، وما هو كـائن وما ينبغي أن يكون، فـإن الخطـاب التبليغي مصـاب بـالنزوع إلى مثالية مفرطة في قراءة النموذج الإسلامي الذي يمكن لمعظم النـاس أن يكيفـوا حيـاتهم معـه، كما أنه مصـاب بالمثالية الزائـدة في قـراءة الواقع التاريخي حيث يتم أخذ الناس بالعزيمة، كما يتم تصوير حيـاة السلف بناء على تتبع سير رجال محدودين لا يشكلون أكثر من 1% من السابقين. وبناء على الإفـراط في هـذا أو ذاك، فـإن لـدى كثـير من حملة الخطاب التبليغي شعورًا بـالمرارة الشـديدة من انحـراف مسلمي عصرنا وتنكبهم لجادة الاستقامة. وهـذا جعل ذلك الخطـاب يتشح بوشاح من اليأس والإحباط، وينعكس ذلك باستمرار في صور صارخة من التقريع واللوم والعتب. وهذا مع مخالفته لهـدي النـبي – صلى الله عليه وسـلم- في الحث على التبشـير والبعد عن التنفـير؛ فإنه يـزرع في نفـوس النـاس نوعًا من احتقـار الـذات ونوعًا من الضيق من سماع القائمين على أمور الوعظ والإرشاد.
إن بين تعريف المسلمين بواقعهم وبين تنفـيرهم وتيئيسـهم هامشًـا ضيقًا يجب إدراكه بعناية. وإن التشجيع واللغة اللطيفة والقول الليّن تستخرج أنبل ما في نفوس الناس من معـاني الاسـتجابة والانـدفاع للعمل.

4- في ظل موجـات اللهو وفي ظل الـدفق الثقـافي الهائل الـذي يتعـرض له الجمهـور الإسـلامي صـارت معرفة النـاس بـأمور دينهم آخـذة في التقهقر وصـار من المهم بمكـان التركـيز على (المعرفة الفقهية) ولا سيما الأحكام المتعلقة بالسلوك الشخصي للمسلم. إن الفقه في الدين يشكِّل في كل الأحوال فضيلة من الفضائل الكـبرى وباباً عريضاً من أبواب الخير.
وقد قال – صـلى الله عليه وسـلم- : " من يـرد الله به خـيراً يفقهه في الدين".
إن من المهم جداً أن تشكل معرفة الحلال والحـرام قاعـدة الثقافة لـدى الجمـاهير المسـلمة من أجل تأسـيس وعي مرتبط بالشـريعة الغراء وتأسيس وازع داخلي يوجه سلوك المسلم في سـره وعلنـه. وإن خطبة الجمعة تشـكل فرصة ذهبية لمثل هـذا التثقيـف. ولو أن الخطيب عــرض في الخطبة الثانية حكمــاً فقهيــاً مما تمس حاجة الناس إليه لأفاد النـاس بمعرفة نحو من مئـتين وسـتين مسـألة في خمس سـنوات وهـذا يشـكل خلفية فقهية جيـدة إذا تم اختيـار تلك الأحكام بعناية.
إننا لا ننتبه أحيانـاً إلى أن النـاس يتقبلـون الأحكـام الفقهية وكل ما يشكّل معطيات علمية ثابتة أكثر من تقبلهم للوعظ والإرشـاد الـذي يمنح المتحدث نوعاً من التفوق المباشر عليهم. كما أن الحديث في الأمور الفقهية – بوصفها أمـورًا بعيـدة عن التقـدير الشخصـي- يمنح المتحدث مصداقية لدى المستمعين أعلى من المصداقية التي ينالها الوعاظ.
5- اعتـدال الخطـاب التبليغي شـيء جـوهري، فعمل الداعية أشـبه بعمل الطبيب الـذي يـرى أن من الضـروري أن يطلع المـريض على علتـه، وأن يدله على التريـاق، ويفتح أمامه بـاب الأمل في الشـفاء. وهـذا في الحقيقة ينطـوي على موازنة دقيقـة؛ فحين يكـون تنـاول الدواء مزعجاً ومكلفاً فإن الناس يعرضـون عنـه. وحـتى لا يعرضـوا عنه فـإن عليك أن توضح أهميته بالنسـبة إليهم. ولا تسـتطيع بلــوغ ذلك ما لم تـبين لهم خطـورة الـداء الـذي لـديهم، وحين تفعل ذلك فإنك تعرضهم للشعور باليأس والإحباط؛ وهـذا ما يجعلهم يعرضـون عن الدواء!.
قد يكون من المفيد في هذا أن نقرن الحديث عن الأزمات بالحديث عن الحلـول الممكنة لهـا، وأن نحـاول دائمـاً عـدم تضـخيم الأمـور؛ فاللغة بسـبب عجزها الظـاهر عن تحديد الصـفات والكيفيـات تغرينا

بالمبالغة، إذ يمكن دائماً أن نصف كثيراً من الأحداث بأنه نكبة أو كارثة كبرى.
وسيظل بث روح الأمل والاستبشار بالتقدم والازدهار أقرب إلى روح الشريعة الغراء وأعون للناس على النهوض.
6- يحتاج صانعو الخطاب التبليغي إلى إغنائه بالمفاهيم والأفكار التي تدل الناس على دورهم الشخصي في الحياة. في العقود الخمسة الماضية – على الأقل- كان لدينا تركيز مبالغ فيه على المقولات الإصلاحية العامة، حيث كانت هموم الأمة تسيطر علينا سيطرة كبيرة، وكان ذلك ينعكس بصورة مباشرة على خطابنا التبليغي، وصار من المألوف أن يتحدث الخطباء أمام العامة عن انكسارات الأمة وسيطرة الأعداء عليها وسلبهم لخيراتها، كما صار من المألوف المقارنة بين أحوال السلف وما نالوه من المنعة والتمكين وبين أحوالنا وما نحن فيه من ضعف واستلاب. ولم نخرج من ذلك بأي شيء ذي قيمة سوى إشاعة الإحباط وتوفير مادة لجلد الذات!.
إن الحديث عن هموم الأمة وعن الإصلاحات الكبرى والشاملة ينبغي أن يظل -إلى حد بعيد- في نطاق الخطاب الصفوي النخبوي. أما الخطاب التبليغي فالأولى به الاهتمام بدلالة الناس - على نحو مفصل ومسهب- على ما عليهم عمله للارتقاء بذواتهم وتحسين كفاءاتهم ومهاراتهم، وما عليهم عمله لتحسين صلتهم بالله - تعالى- وتحسين علاقاتهم بعضهم مع بعض، وكل ما يمكن أن نطلق عليه (الخلاص الشخصي) .
إن المجال الخاص هو مجال التأثير الحقيقي للإنسان العادي؛ ومن المهم أن يتعلم كيف يتحرك في ذلك المجال. إن الناس في حاجة إلى من يعلّمهم كيف يوجهون إدراكهم، ويسيطرون على رغباتهم، ويحافظون على أوقاتهم، ويديرون الموارد والإمكانات المحدودة التي في حوزتهم وينبغي أن يكون هذا من المهام الجوهرية للخطاب التبليغي.
7- الحصيلة اللغوية لدى العامة وأشباههم ضئيلة، وهذا يعني أن جهاز التفكير لديهم سيكون ضعيفاً، كما أن آفاق الفهم والاستدلال تكون لديهم أيضاً محدودة. وهذا يملي على صانعي الخطاب التبليغي العديد من المهمات، أذكر منها الآتي:
أ- إثراء ذلك الخطاب بالتشبيهات والأمثلة الحسية. وفي القرآن الكريم وفي السنة النبوية الكثير من ذلك. إن التشبيه ينقل الإدراك

من معالجة أمر معنــوي إلى معالجة أمر مــادي ملمــوس. وإدراك المحسـوس أسـهل بكثـير من إدراك المجـرد والمعنـوي. وكثـير من الخطباء اللامعين والمتحدثين المؤثرين صـاروا كـذلك بسـبب وفـرة الأمثلة والتشبيهات الحسية التي يستخدمونها.
ب- البعد عن ذكر الشُّـبه والمآخذ الـتي يوردها المخـالفون وأعـداء الإسلام؛ إذ ما الذي سيستفيده الناس إذا حدثناهم عن شبهة انتشـار الإسلام بالسيف أو شبهة الرق في الإسلام... وهم لم يسـمعوا بكل ذلـك، ولا ينظـرون إليه على أنه يثـير إشـكالية لـديهم. إن الخطـاب الصفوي هو المجال الحقيقي لتداول هـذه القضـايا. ونحن حين نثـير الشبه أمام الناس نضع الإسلام في موقف دفاعي، هو في غنى عنه كما أن هنـاك احتمـالاً لأن تعلق الشـبهة في أذهـان النـاس بسـبب ضـعف الـرد المسـتخدم في تفنيـدها. وقد وصف بعض أهل العلم الفخر الرازي في تفسيره بأنه يسوق الشبه نقداً، ويرد عليها نسيئة. وقد سمعت من أحد من كَتب حـول الشـبه أسـفه لـذلك، وقـال: لو اسـتقبلت من أمـري ما اسـتدبرت ما كتبت ذلك الكتـاب. نعم حين يتحدث الناس عن أمر مغلوط في مجالسـهم ومسـامراتهم، لا يبقى لنا خيار سوى الحديث فيه.
ج- البعد عن الخلافيـات والتفريعـات الدقيقة والتعليلات المتعمقة شـيء أساسي في الخطـاب التبليغي. إن العـامي لا مـذهب لـه، ومذهبه مذهب مفتيـه، وينبغي أن تكـون الفتـوى على قـدر السـؤال وعلى قدر الحاجة، وذكر الخلافيـات - من غـير حاجـة- يؤسس لـدى العامة لعقلية التسـاهل؛ لأنهم لا يعرفـون مـوارد الاختلاف وأسـبابه الموضـوعية. وذكر التفريعـات يربك وعيهم، ويتسـبب في إدخـال الأوهام عليهم.
د- إن بساطة التفكير لدى العامة تجعل الطريق إلى تغيير سـلوكهم يمر أساساً على القلب، وليس على العقل، فلغة المشاعر والأرواح مفهومة لـديهم أكـثر من لغة المنطق والـبراهين. وإن من المهم لكسب عقـول النـاس أن نكسب قلـوبهم. وهـذا يتطلب أن يكونـوا أثناء مخاطبتهم في وضع نفسي مـريح. ولعل مما يسـاعد على ذلك أن نخفف من مسـتوى الجدية في كلامنـا، وذلك بـأن نضـفي عليه مسـحة خفيفة من الطرفة والدعابـة. وقد كـان - صـلى الله عليه وسلم- كثير التبسم، كما كان يمازح أصحابه، ويقبل ممـازحتهم، كما كـان يضـحك لضـحكهم، ويعجب مما يعجبـون منـه. إن المسـلمين مثقلـون بـأنواع الهمـوم، وهم في حاجة إلى درجة من التفـريج

العصـبي، وعلينا أن نـتيح لهم ذلـك. إن الطرفة تُحـدِث تواصـلاً بين المتحدث وسامعيه أشبه بالتفاعل الكيميائي، وإن عيون النـاس حين يضحكون من طرفة سمعوها تلمع بمشاعر الامتنـان لمن أضـحكهم. كما أن الطرفة تكسر الحاجز النفسي الذي يصـنعه موقف الخطيب والواعظ، وهذا ضروري للتأثير في الناس.

إنــني أعتقد أن حاجتنا ماسَّــة إلى الكثــير من البحث والتــداول في خصـائص الخطـاب النخبـوي والخطـاب التبليغي إذا ما كنا نريد فعلاً للجهـــود الدعوية والإصـــلاحية أن تـــؤتي ثمارها على المســـتوى المطلوب.

والله ولي التوفيق،

================

الخطاب الصفوي

نحن في الساحة الإسلامية بحاجة إلى لـونين من الخطـاب. خطـاب صفوي نخبوي، وخطـاب بيـاني تبليغي. والهـدف من تنويع الخطـاب هو القيـام بمهمـتين عظيمـتين: الأولى: العمل على تجديد الخطـاب الإسلامي وتعميقه والارتقـاء بـه. أما الثانية فهي التمكن من إيصـال الرسـالة الإسـلامية إلى الشـرائح المتوسـطة والـدنيا من المجتمـع، على وجه الخصوص. وسـوف أتـرك الحـديث عن الخطـاب التبليغي إلى مقال تالٍ، وأتحدث اليوم عن سمات الخطاب الصـفوي. والـذي أعنيه بالخطاب هنا مجمل المفاهيم والتوجهات والأفكار والآراء التي تعـبر عن الثـوابت والأدبيـات الـتي نـرغب في بلورتها وتعميمها من خلال تــداولها وســوقها في نسق متمــيز محكــوم بقواعد وآليــات منطقية وبيانية معينة.

في ظـني أن الاشـتغال على بلـورة الخطـاب الصـفوي يتطلب منا معرفة حسنة بالمبادئ الكلية للشريعة السـمحة، إلى جـانب معرفة مقاصدها وما هو مجمع عليه من أحكامها، بالإضـافة إلى فهم عميق للاحتياجـات المعرفية والحياتية للنـاس، إلى جـانب تلمس مسـتمر للتحـــولات الـــتي تطـــرأ على الذائقة الثقافية لـــديهم. إن الـــدفق المعرفي الهائل الذي يتعرض له الـوعي المسـلم اليـوم يُـدخل على عقول الناس وعلى اهتماماتهم وطرائق استيعابهم للأمور الكثير من التغيير والتحوير.ولا بد لنا من متابعة ذلك وتطــوير خطابنا بما يتلاءم معه.

وأتصــور أن من ســمات الخطــاب الصــفوي الــذي نحن في أمس الحاجة إليه الآتي:

- هو خطـــاب خـــاص يتداوله العلمـــاء والمفكـــرون والبـــاحثون في مـــؤتمراتهم وبحـــوثهم وحـــواراتهم ومجلاتهم العلمية المتخصصـــة. وسبب خصوصيته أن الأفكار التي يتم تـداولها فيه تكـون في العـادة معقـــــدة ودقيقة وموضع اختلاف وجـــــدل، إنها ما زالت في مرحلة البلـورة والإنضـاج، وليس من الملائم تـداولها ونشـرها في النطـاق العام.

- يشـــتغل الخطـــاب الصـــفوي على مفـــاهيم عميقـــة، ويســـتخدم مصطلحات غير معروفة لدى كثير من الناس والذين جـرت عـادتهم بالتعامل مع المعـــاني الســـطحية والمباشـــرة للكلمـــات، كما أنه يستخدم تشبيهات وتعليلات لا يستخدمها السواد الأعظم من الناس.

- من ملامح الخطاب الصـفوي الأساسـية اشـتماله على رؤية نقدية لأوضاع المسلمين السياسية والأخلاقيـة، والاجتماعية والاقتصـادية... إنه يتلمس مواجع المسلمين وأشكال القصور في حياتهم، ثم يبحث في أسـبابها وفي كيفية معالجتهـا. إننا من خلال الخطـاب الصـفوي نوضح مساحات الجمال والخير في حياتنا العامة، كما نسلط الضـوء على المساحات السلبية والقاتمة، بغية تكـوين أوضح صـورة ممكنة للحياة الإسلامية.

- الخطـــــاب الصـــــفوي خطـــــاب تحليلي، يقـــــوم على فهم طبيعة المشكلات الـتي يعـاني منها المسـلمون، ويبحث بعمق في أسـبابها وجذورها وأعراضـها والعلاقـات الجدلية القائمة بين مختلف جـوانب حياتنا المعاصـــرة. إنه يبحث عن الجـــذور الأخلاقية لأزمة سياســـية حادة، كما يبحث عن الجذور الاجتماعية لوضعية اقتصادية متـدهورة، ويبحث في أثر قصور المفاهيم في ردود الفعل الخاطئة...

- الخطاب الصفوي الذي نحتاجه هو خطاب تنموي، يدل الناس على الدروب المفتوحة، كما يحذرهم من سـلوك الطـرق المسـدودة، إنه يطـــرح الـــرؤى والنظريـــات الـــتي تفتح حقـــولاً للعمل والممارســـة، ويشرح إمكانـات الحركة ومجـالات الإصـلاح والتطـوير الشـامل في الظـــروف الســـيئة؛ إنه يفعل كل ذلك لأنه ينطلق من مقولـــة: كل نظرية تفضي بالناس إلى اليأس والقنوط والقصور عن العمـل؛ هي نظرية خاطئة، ويؤمن بقوة أن الله - جل وعل- ما أنزل داء إلا أنزل له دواء.

- من سماته كذلك البعد عن القطع والجزم في صـيغ التـداول، ومن الحذر من إيراد القطعيات في موارد الظنيات، إنه يسـتخدم صـياغة

احتمالية لأنه يطــرح أفكــاراً لينة وفرعيــة، ويشــتغل على شــرح نظريات وتوجهات اجتهادية، هي موضع جدل ونقاش وأخذ و ردٍّ.
- الخطـــاب الصـــفوي هو خطـــاب منفتح بطبيعتـــه: منفتح على الاجتهــادات داخل المذهبية الإســلامية، كما أنه منفتح على الأفكــار والمفاهيم المتداولة خـارج النطـاق الإسـلامي؛ لأنه يسـتهدف إثـراء ذاته بكل ما يُحسَّن بصيرة المسلمين بما لديهم وبما لدى غيرهم .
- هو خطــاب غـــني بالأدلة والـــبراهين والشـــواهد والاســتنتاجات والتشبيهات العلمية الراقية؛ وذلك لأنه يسـتهدف بلـورة رؤى مركبة وعميقة للماضي والحاضر والمســتقبل، كما يســتهدف التــأثير في عقول مثقفة ومدركة لأشكال النقص الذي يعتري الأعمال التنظيرية عامة.
- يعتمد الخطـــاب الصـــفوي طريقة النظر من الزوايا المختلفة لأنه في الأساس وإن اشتغل على الكثير من ا لمعطيات الجزئيـة؛ إلا أنه يظل معنيًّا ببلـورة رؤى كلية ومقـولات كـبرى. وهـذا يحتم علينا أن نتمتع بالقـــدرة عل تقليب الأمـــور على وجوهها المختلفة ومحاولة فهمها من آفاق متعددة.
- يعتمد الخطــاب الصــفوي الملاحظة الذكية في طروحاتــه، إذ إن قـــراءة ســـنن الله - تعـــالى- في الأنفس والآفـــاق والمجتمعـــات وشفافيته نحو اسـتيعاب منطق الأشـياء، تـتيح للمشـتغلين به دائمـاً نوعاً من النفاذ إلى الحقائق التي لا تدرك على سبيل البداهة أو من خلال النظر العقلي العجـــول؛ ولهـــذا فإنه يتمتع بدرجة حســـنة من الجاذبية، ويستحوذ على بعض الإعجاب.
- هذا الخطاب الذي عرضت لأهم سـماته ضـعيف جـداً في السـاحة الإسلامية بسبب قلة المفكرين العظـام الـذين حظيت بهم الصـحوة الإسلامية في العصر الحديث، وبسـبب قلة المؤسسـات الـتي تعمل على وضع الـــبرامج البحثية وإنتـــاج المفـــاهيم الدعوية والإصـــلاحية المتقنـــة. وبما أن الـــوعي الإســـلامي قد جفل منذ أمد بعيد من كل شيء اسمه فلسفة وتنظير؛ فإن صناعة الأفكار لدينا راكدة، كما أن الجهـات المسـتعدة لإنفـاق المـال على الأعمـال العلمية الممتـازة شـحيحة إلى حد النـدرة، وهـذا كله يصب في مصـلحة الطروحـات المناوئة للفكر الإسلامي.
إنه لا فكر من غير إنتاج فكري، ولا إنتاجًا فكريًّا من غـير مؤسسـات تهتم به وترعاه وتهيئ له ظروف التكوين والانتشار.
================

الكرامة الجريحة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسـلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

نحن أهل كرامة جريحة، وهذا الشعور بذلك يأتينا من مصدرين:

من التاريخ أولاً؛ إذ إننا أمة ظلت صاحبة حضارة مهيمنة مـدة لا تقل عن سبعة قرون، واستمرت إشعاعات عطاءاتها ثلاثة قرون إضافية، ويزيد في إحساسـنا بالإهانة أننا في منتصف القـرن الرابع عشر الهجري واجهنا -بوصـفنا "أمة ذات منهج ورسـالة"- تيـارات عديـدة، يرمي جميعها إلى طمس هذا المعـنى، وجعل وعي الأمة ينفتح على معـان وطنية وإقليمية وقومية وعلمانية ....، بوصـفها بـديلاً عن الانفتاح على أخص خصائصنا، وهو العبودية لله - تعـالى - والاحتكـام إلى الشـريعة في الشـؤون العامة والخاصـة، وفي مواجهة هـذا الاستلاب اجتهد المثقفون والغيورون في تلك المرحلة - وكـانوا فيما ذهبـوا إليه على صـواب إلى حد بعيد - في كيفية مواجهة ذلـك، وانتهـوا إلى قـرار بالـذهاب إلى التـاريخ على اعتبـار أنه الـذاكرة الحضارية للأمة والخزان الأساسي لأمجادها وبطولاتهـا. ونـذكر كيف نشـطت في تلك المرحلة الكتب الـتي تتحـدث عن العبقريـات وعن سير الرجال العظماء والنماذج التاريخية الفذة، والمعارك المظفرة، والإنجـازات العلمية البـاهرة، بالإضـافة إلى بلـورة شـيء من حكمة التشريع وكون الإسـلام لا يتنـاقض مع العلم... وأسـدل السـتار على نحو شبه تام على كل الألوان الرمادية والباهتة التي كانت جزءاً من ألوان ذلك التاريخ، كما تم الإعراض عن الحديث عن الأسـباب الـتي أدت إلى توقف الحضـارة الإسـلامية عن العطـاء؛ لأن الكشف عنها في تلك المرحلة كـان سـيؤدي إلى الإحبـاط، ويجعل النـاس شـبه مجردين من أسلحة المقاومة للتيارات التي أشـرت إليهـا. وقد أدت تلك القـراءات المبتسـرة والجزئية دورها بكفـاءة واقتـدار في إنقـاذ الـذات لمسـلمة والثقافة الإسـلامية من هزيمة نكـراء. وهكـذا فقد ترسخ في وعي الأجيال الحاضرة وفي حسَّها مشاعر عميقة بالظلم الذي يلحقه بنا الآخرون اليوم، وبالهوان إذ خسرنا معظم الإنجـازات التي كنا نفاخر بها في الأيام الخالية.

وأعتقد أن شـيئاً من العلاج لهـذا سـيكون في إعـادة قـراءة التـاريخ على نحو متوازن وبمنهجية سببية واستقصائية ذكية ومتقنة.

المصدر الثـاني لإحساسـنا بجـرح كرامتنـا؛ هو الواقع الـذي نعيشـه، فنحن أمة تملك أفضل منهج - على مسـتوى الأصـول والأسس

والمنطلقـات الكـبرى على الأقـل- لإصـلاح العـالم، لكننا نعيش في أوضـــاع سياســية واجتماعية واقتصــادية عليلة ومتخلفة عن المنهج الذي نؤمن بـه، وعن متوسط السـائد من كثـير من أوضـاع عصـرنا، ونحتــاج إلى الكثــير من الفكر والعمل والجهد حــتى نتجــاوز هــذه الأوضاع.

المسلم اليوم يشعر أولاً أنه يعيش على هامش الحضـارة، حيث إننا دخلناها من بـــاب الاســـتهلاك والتمتع ليس أكـــثر، وينقضي عصر صـناعي بعد عصر دون أن نلج أيـاً منهـا، ومعظم الـدول الإسـلامية مـازال ما لـديها من إمكانـات صـناعية وتقنية أقل مما كـان متـوفراً لـدى أوروبا في القـرن التاسع عشـر. ويشـعر من وجه آخر أنه غـير قادر على حماية أرضه وحقوقه، وغير قادر على تفادي الصفعة التي يوجهها الآخرون إليه ولا على ردهـا، بل يشـعر أحيانـاً أنه غـير قـادر على الشكوى من الألم الذي يشعر به، أو غـير قـادر على جعل تلك الشكوى مسموعة لتكون ذات معنى!!

وهكذا؛ فالإحساس المتضخم بالأمجاد الغابرة جعل إحساسنا بالإهانة الـتي نتلقاها - وهي أشـكال وألـوان- شـديداً أو متفجـراً، لكنه مبهم وغامض حيث لا تعرف الأكثرية الصامتة من هذه الأمة أي تحديــدات لأسـباب ما نحن فيه على نحو منطقي، فضـلاً عن أن تعـرف سـبل الخلاص منه.

وأود هنا أن أبدي الملحوظتين التاليتين:

1- شــيء أساسي أن نشـعر بالإهانة والدونيــة؛ لأننا إذا فقــدنا هــذا الإحســاس فـإن ذلك يعـني خللاً بنيويـاً في رؤيتنا لأنفســنا وللواقع وللعالم من حولنا. وبعض المســلمين حصل على مواقع اجتماعية أو اقتصـــادية جيـــدة، فهو مغتبط بـــالتمتع بثمـــرات الحضـــارة وعقد الصفقات وحصد المزيد من المنافع. وينظر إلى الـذين يشـكون من سوء الأحوال نظرة استغراب، فالأمور تمضي على أحسن ما يــرام، وأن يكون بينك وبين الغرب سبب أو تواصل ما، فهـذا يعـني انفتـاح أبواب إضافية للنعيم والنجاح. هذه الفئة من المسلمين ضعُف لـديها الإحســاس الجمــاعي إلى حد التلاشــي، وهي تشـعر في أعماقها بالدونيـــة، لكنها تجد دائمـــاً ما يوجه وعيها نحو همومها ومكاســبها الشخصية. وهذه الفئة في ظل موجـات اللهو والمتعة والأنانية الـتي تبعث بها العولمة - مرشحة للاتساع - ولا ندري كيف سيكون الحــال بعد عشر سنوات من الآن ؟!

2- من المهم أن نتخذ من كرامتنا الجريحة محفــــزاً على المقاومة واكتســـاب المنعة والارتقــاء والفكــاك من أسر التخلف لا أن نجعل منها منهجاً للعمل. وهذه القضية لا تخلون شيء من الدقـة، وتحتـاج إلى شيء من التوضيح.

حين يشتعل إحساسـنا بـالهوان، ونسـتجيب في توجهاتنا واسـتخدام الإمكانـات الـتي لـدينا لتلك الأحاسـيس والمشـاعر على نحو بـدائي ومتســـرع ووفق رؤية جزئية ومبتســـرة -؛ فإننا نكـــون آنـــذاك غـــير مــــؤهلين لمـــداواة الكرامة المجروحـــة، ولا اســـترجاع الحقـــوق المسلوبة؛ بل إن الاسـتجابة على هـذا النحو سـتجعل جروحنا تـزداد تقرحاً، وتجعل حقوقنا أكثر تعرضاً للاغتصاب والنهب. ولنا فيما جرى خلال العامين الماضـيين من المضـايقة والتحجيم للـدعوة الإسـلامية والمحاربة للمؤسسـات الخيرية والمطـاردة للـدعاة... عـبرة إن كنا قادرين على الاعتبار!

وأي شيء أسوأ من أن يصـبح ذكر الإسـلام والمسـلمين شـيئاً يثـير مشـاعر الخـوف والاشـمئزاز لـدى كثـيرين من أبنـاء أمريكا وأوروبا وغيرهما؟!

إن أمريكا أحسَّـــت بجـــرج عميق في كبريائها حين تعرضت رموزها الاقتصادية والعسـكرية للهجـوم، وردت على ذلك الجـرح الغـائر في كرامتها باتخاذه منهجاً للـرد، فقـابلت الصـفعة بصـفعات في أمـاكن عـــدة من العـــالم، وما زالت مســتمرة في ذلك إلى هـــذه اللحظـــة، فماذا جرى؟

إنها تنتقم من بعض خصومها على نحو ساحق، لكنها لن تسـتطيع أن تحـول دون تكـرار ذلك الهجـوم عليها مـرة أخـرى؛ لأنها لم تسـتطع التوقف لقراءة الأسباب الجوهرية التي أدت إلى الهجوم عليهـا. إنها تربح معركة هنا ومعركة هنـاك إلا أنها تخسر جاذبيتها الحضـارية من خلال عـدوانها على النمـوذج الـذي كـانت تقدمه للعـالم، وتخسر مع كل ذلك الانسجام الداخلي مع القيم التي تروج لها.وهذا ما علينا أن نستفيد منه على نحو جيد.

أما إذا اتخذنا من جرح الكرامة وكؤوس الإهانة حافزاً على الخلاص؛ فـإن سـلوكنا آنـذاك سـيكون مختلفـاً. وأتصـور أننا آنـذاك سـنفكر ونتصرف على النحو الآتي:

- إن حالة ارتباك الوعي التي نعاني منها ليست جديـدة، ولم تتكـون في مرحلة واحدة، وجرحنا الغـائر لم يحـدث بسـبب ما فعله ويفعله بنا الغرب، وإنما بدأ الأمر قبل ذلك بقرون عـدة. وحين انفـرط عقد

الدولة العباسـية لم يكن ذلك بسـبب غـرب أو شـرق، وإنما بسـبب الانحراف عن المنهج الرباني الأقـوم الـذي أكرمنا الله بـه، وبسـبب عدم القدرة على التجدد وحل المشكلات المتأسنة .
ولهذا فإن ما نلقاه اليوم من ازدراء لا يعود إلى أحـوال هـذا الجيـل، وإنما بسـبب الوضـعية العامة للأمـة، وهي وضـعية صـنعتها أخطـاء وخطايا القرون.
- كما أن على أمريكا أن تسـأل بصـدق واهتمـام : لمـاذا يكرهها الآخـرون؟ ولمـاذا يكـون هنـاك شـباب في عمر الـورود مسـتعدين للموت من أجل إلحاق الأذى بها؟. فإن علينا أيضـاً أن نسـأل: لمـاذا يجري كل هـذا لنـا؟ ولمـاذا نحن عـاجزون عن الـدفاع عن أنفسـنا؟ ولماذا لا نساهم في توجيه الحضـارة الحاليـة، ولا نـؤثر في مـوازين القوى فيها؟.
إذا نحن تصـرفنا ضد أعـدئنا وضد أولئك الـذين يوقعـون الظلم علينا بعين الأسلوب الذي يستخدمونه معنا، فما المـيزة الـتي تجعلنا أكـثر أهلية لوضع أسس لحضارة جديدة ومختلفة عن الحضارة السائدة؟
إننا في حاجة إلى أن نعمل على المـدى الطويل حـتى نكـون في وضعية لا يفكر معها أحد في إهانتنا والعدوان علينا؛ لأن ذلك سيكون بالنسبة إليه مكلفاً جداً. والأرقى من ذلك أن يحترمنا الآخرون للقيم والمنجزات التي لدينا، فينشغلون بكيفية الاقتباس والتعلم منا، بـدل الانشـغال بإيـذائنا وظلمنـا. والأرقى من هـذا وذاك أن نفكر ونـدعو ونعمل على تحويل أعـدائنا إلى أوليـاء يـدخلون في ديننـا، وينشـرن مبادئنا وقيمنـا. وهـذا ما قـام به المسـلمون الأوائل حين انتهـوا من مشكلة الآخر الوثني في جنوب شرق آسيا عن طريق نشر الإسـلام وجذب الناس إليه. وإن الغرب على المسـتوى الشـعبي - ينتظر منا هذا الأداء، وهو في أمس الحاجة إليه.
وأنا هنا لا أرمي إلى تمـييع الأمـور، ولا إلى إخمـاد روح المقاومـة؛ لكنني أريد لأعمالنا وجهودنا أن تكون في السـياق المنتج، وأن تعـبر قبل ذلك عن رؤيتنا الكونية للعالم، وليس عن انفعالاتنا ومشاعرنا.
- الصـراع بيننا وبين أولئك الـذين يجرحـون كرامتنا ليس صـراعاً عسكرياً، ولا يمكن للقوة اليوم أن تحسم أية قضية على نحو نهـائي .
وإن أي نصر عسـكري سـيكون مؤقتـاً ومجوّفـاً إذا لم يرتكز على تفوق حضـاري. وإن شـروط الاحـترام ونوعية الـرد المطلـوب على الإهانة - لا تستمد من أدبيات حقبة تاريخية ماضية، ولا يضعها الناس

بحسب أهـوائهم وأمـزجتهم، ولا بحسب معتقـداتهم ومبـادئهم، وإنما يصـوغ ذلك ويحـدده أولئك الـذين يضـعون بصـماتهم على الحضـارة الراهنة، مهما كـانت هـذه الحضـارة ضـالة أو ناقصة أو خاوية وهـذه نقطة جوهرية.

- إن كرامتنا لم تمتهن بســـبب اســـتلاب حقوقنا أو نهب ثرواتنا فحسب؛ وإنما هناك أمور أخرى لا تقل أهمية، فـالتخلف الـذي يخيّم على العديد من جوانب حياتنا أوجد ندوباً ناتئة في نفس كل مسـلم، حيث صار هناك ما يشبه الاعتقاد بأننا غـير مـؤهلين لإنتـاج التقنيـات المتقدمة ولا لتصـــميم النظم المعقـــدة. وإن كثـــيراً من العمـــال المســـلمين في الغــرب لا يجــدون فرصــاً لكسب أرزاقهم إلا في الأعمال الوضيعة أو الشاقة أو غير المجزية، والتي يـترفع عنها كثـير من أهـالي تلك البلاد، وإن مسـلم اليـوم يشـعر أن الأمة عالة على الأمم الأخرى في كل شيء حتى طباعة المصاحف وتشـيد المـآذن! وإن النقلة النوعية في التقنية والصـــناعة وحـــدها هي الـــتي تجعل المســـلم يشـــعر بأنه لا يعيش على هـــامش العصـــر، كما أنه ليس محروماً من الذكاء ولا المواهب التي يقر للآخرين بامتلاكها.

- سيظل من المهم دائماً أن ندرك أن علاقتنا بالأعـداء والمنافسـين والأغيار ستظل فرعاً عن الوضعية العامة التي نؤسسـها في بلادنـا، وإن العلاقـات الدولية أشـبه بسـوق يعـرض النـاس فيه بضـائعهم، ويأخذون منه على مقدار ما في جيوبهم، ولن نستطيع أن ندافع عن حقوقنا ولا أن نرسخ وجودنا على الصـــعيد العـــالمي عن طريق (الفهلوة) والإدعاء والشعارات، فهامش المنـاورة أمامنا ضـيق جـداً؛ وإن الناس يحبـون أن يـروا؛ فلنجعلهم يـرون إذا ما كنا نريد لموقعنا العالمي أن يتحَسَّن.

- علينا أن ندرك على وجه جيد نقطة الضـعف الأساسـية في علاقتنا مع الآخـرين؛ لأننا من غـير إدراكها سـنكون كمن يصـرخ في واد، أو ينفخ في رمـــاد. وأظن أن تلك النقطة لا تتجسد في نقص إمكاناتنا وقـــدراتنا مع أنها محـــدودة، وإنما في تكبيل إرادتنـــا؛ لأن أصـــحاب الإرادة المسلوبة يظلون يشعرون بالعجز والانهزام مهما كانت قـــوة الأوراق التي بين أيديهم.

إن تحرير الإرادة من الخـــوف والتبعية والاســـتخذاء أمـــام الأجنـــبي ســـيظل شـــرطاً جوهريـــاً لتحريك إمكاناتنا في الاتجـــاه الصـــحيح، وشرطاً جوهرياً لاتخاذ قرارات تاريخية ومصيرية .

والله ولي التوفيق.

================

البحث عن التوازان

بث الله - جل وعلا- ف هـذا الكـون توازنًا خفيًّا ينجـذب النـاس إليه كما تنجذب الأشياء في صور وأوضاع كثيرة ومدهشة، نعرف بعضـها ونجهل أكثرهـا. والمهم دائمًا تلمس آفـاق ذلك التـوازن وسـننه في الأنفس والمجتمعات والدعوات والثقافات حتى نتناغم معه و نسعى إلى تحقيقـه، ونعمل في إطـاره. لكل الأمـور طرفـان ووسط وذلك الوسط يتم تحديده في أمـور كثـيرة من خلال الشـريعة الغـراء كما يتم تحديـده في أمـور كثـيرة أخـرى من خلال العـرف والاعتبـارات والمعطيات الجديـدة. الشـجاعة والجبن، والكـرم والبخـل، والحسن والقبح، واللطف والفظاظة والتبـذير والتقتـير، والجـودة والـرداءة، والصلابة والليونة، والغلو والاعتدال، والإفراط والتفريـط، والاهتمـام والإهمـال... كل هـذه المتضـادات والمتقـابلات تقع على خط واحد متدرج. والتغـيرات على ذلك الخط متصـلة وغـير منظـورة ونتعامل معها من خلال رسم فواصل وهمية واعتباريـة، يمكن دائمًا الاختلاف فيها والجدل حولها، فنحن نتخيل صـورة لـ (الشـجاعة) في وضـعها الأقصى لتكـون على أول الخـط. وتلك الصـورة تختلف من شـخص إلى آخر بحسب المفـاهيم المحيطة والخـبرة الشخصـية بهـذه الفضيلة. وتتدرج تصوراتنا للشجاعة إلى أن نصل إلى منتصف الخط - وهو منتصف وهمي تقديري-؛ فنقـول: إن فلانًا من النـاس إنسـان عـادي، لا يوصف بالشـجاعة ولا بـالجبن. ثم نمضي قليلاً في السـير على ذلك الخـط، لنقـول: إن فلانًا لديه شـيء من الجبن. ثم نمضي لنقول: فلان جبان. فإذا اقتربنا أكثر قلنا: فلان من أجبن الناس. فإذا أرتنا خبرتنا الشخصـية بهـذه المسـألة صـورة شـاذة ومتفـردة في الخـوف والهلع قلنـا: فلان أجبن النـاس. ونحن في كل ذلك ننطلق من مفـاهيم وخـبرات ذاتية ومحـددة؛ فلا التعريفـات والمصـطلحات دقيقة وصـلبة بما يكفي لتوحيد التصـورات، ولا الخـبرات موحَّدة بما يكفي لإصدار الأحكـام. والتعبـير عنها هو الآخر يتسّـم بالهشاشـة؛ إذ إن اللغة هي وسيلتنا في التعامل مع هـذه الأمـور، والنظـام اللغـوي يكون شديد الطواعية والمرونة عند التعبير عن المسـائل الإنسـانية. والبنية العقلية للإنسـان على مقـدار ما تعمل بكفـاءة في تصـور (الكم) وتحليله تعمل بارتبـاك وغمـوض في تصـور (الكيـف) والحكم عليه؛ ولهذا فإن من قد تصفه بأنه إنسان عـادي، لا هو بالشـجاع ولا بالجبان، قد يصفه غيرك بأنه شجاع أو جبان ، ومن تصـفه بأنه أجبن

إنســان في التــاريخ قد يصــفه غــيرك بأنه واحد من ملايين الجبنــاء الذين ينطون السهل والجبل. وكثير من الغربيين ينظرون اليوم إلى من نعـــدّه - بحسب معاييرنا وثقافتنـــا- معتـــدلاً على أنه متعصب ومتطـرف. وما يعـده كثـير من الغربـيين حشـمة ننظر إليه على أنه ابتذال؛ وهذا واضح.

مهما اختلفنا في تحديد المفــاهيم؛ فــإن الأطــراف القصــوى تظل أطرافاً؛ إن من الصعب جدًّا في البيئة الواحدة أن ينظر بعض الناس إلى شــخص على أنه أكــرم الكرمــاء، وينظر إليه آخــرون على أنه أبخل البخلاء؛ فالعقول تـدرك الألـوان المتباينة والحـالات المتباعـدة على نحو جيد. ومن ذلك الإدراك يتم الانجذاب نحو الوسط الذي هو مركز التوازن.

النفس البشــرية ميّالة إلى التغيــير غــير المكلف حيث تلتمس في الجديد دائمًا شيئًا أفضل مما هي فيه. وبما أن حـالات التطـرف في كل أمر من الأمور تخل بـالتوازن العـام للشخصـية والمجتمع والأمة فإن الناس - مثلاً- إذا خضعوا في مرحلة من المراحل لقيود شـديدة في حـركتهم واختيـاراتهم، فـإن البحث عن الحرية والانطلاق يصـبح الهمَّ المسيطر عليهم؛ فـإذا فُكّت قيـودهم انغمسـوا في حرية تصل إلى حد الفوضى، وبعد مدة يضيقون بالوضعية الجديدة لما يلمسونه من أذى التفلب المبالغ فيه، ويبدؤون بالمطالبة بالضـبط والصـرامة ومقاومة التسيّب.

حين تشتد وطأة الجوع على أحدنا فإن الحصول على الطعام يصـبح ضاغطًا ومسيطراً، فإذا أكلنا وشـبعنا تغيّـرت نظرتنا للمائـدة وطلبنا رفعها وهكذا...

هـذا يعـني أن قـدرًا غـير هيَّن من معرفتنا بقيمة شـيء من الأشـياء يُستمد من معرفتنا بضده أو من معايشتنا له وقد عرف النـاس هـذا من زمن بعيـد، وعبّـروا عنه بتعبـيرات مختلفـة، وكـان مما قـالوا: " بضدها تتميز الأشياء" ، "الصـحة تـاج على رؤوس الأصـحاء لا يعرفه إلا المرضـى"، " للشــوهاء فضل على الحســناء". ويقــال اليــوم: " الوعي بالـذات فـرع عن الـوعي بـالآخر"، ويمكن أن نقـول : " رؤية الآخر تتم دائمًا من أفق رؤية الــذات". وهكــذا فــالوعي الإنســاني يعمل في أفضل حالاته حين يــرى في كل شـــيء صـــور الإفــراط والتفريط والاعتـدال. وقد كـان عمر - رضي الله عنـه- يتخـوف من الحالة الـتي تصـير إليها الأمة من عـدم معرفة قيمة نعمة الإسـلام حين ينشأ في الإسلام أناس لم يعرفوا الجاهليـة. حين يسـود الرشد

في أمة من الأمم؛ فـــإن معرفتها بالاعتـــدال والاتـــزان هي الـــتي ترشـــدها إلى رؤية صـــور الإفـــراط والتفريـــط. وحين يســـود الجهل والعقم والتخلـــف، فـــإن وعي الأمة يتعـــرف على الاتـــزان من خلال تعرفه على صـــور الإفـــراط والتفريـــط، ويكـــون في ذلك شـــيء من الغموض والالتبـاس، لأنه قـائم على اسـتنتاج لا يخلو من شـيء من تـــركيب الأدلة إذا شـــعر الواحد منا أنه صـــار في حالة مرضـــية من التوازن والاتزان فهذا لا ينبغي أن يدعوه إلى الاطمئنـان والاسـتكانة لتلك الحالـــة؛ لأن ما يســـتجد من معطيـــات وظـــروف واتجاهـــات ومفاهيم وتحديات وإمكانات... يُدخِل الخلل على ذلك التوازن؛ ولـذا فلا بد من البحث عن توازن جديد. ولو أننا تأملنا في أحوالنا الخاصة وأحوال الأمم عامة لوجدنا أن عـدم إدراك أهمية عملية البحث هـذه هو الـذي أدى إلى تـدهور كثـير من الأمـور، حيث يغلب على الـوهم الشعور بجمود الأحوال والمعطيـات، مما يـدعو النـاس إلى الركـون إلى ما لديهم من اسـتجابات وردود أفعـال. وفي زماننا هـذا صـارت اليقظة الفكرية نحو ما نفقده من توازن أكـثر إلحاحًا بسـبب غـزارة تـدفق المعطيـات والمتغـيرات. وإذا لم ننتبه جيـدًا لـذلك فـإن على الواحد أن يتوقع الانتقـــال إلى موقع متطـــرف دون أن يـــدري. وكل واحد منا يستطيع اكتشاف ذلك بطريقته الخاصة.

من خلال العـــرض الـــذي قـــدمناه يمكن أن نستشف أن العلاقة بين الأطراف والمتضـادات هي علاقة جدليـة. ولنا أن نستشف أيضًـا أن العلاقة بينها سببية أيضاً، بمعنى أن المجتمع أو الجماعة أو الفـرد قد يصير إلى حالة سيئة بسبب فقد الأضداد التي تحرضه على التطـوير والتحسـين، وهـذا هو موضـوع المقـال القـادم. ومن الله - تعـالى- الحول والطول.

================

لا مكان للصغار في عصر الكبار

الاقتصاد هو ما تبقى من السياسة اليوم؛ والـدول الـتي لم تنجح في إقامة علاقات اقتصادية جيـدة فيما بينهـا، لا تسـتطيع إقامة علاقـات سياســية فاعلــة؛ لأن الاقتصــاد والتجــارة والمــال والتنــافس على الأسواق الدولية، والمـواد الأولية الرخيصة هي الصـخرة الـتي يمكن أن تتحطم عليها كل التقاربات السياسية، وكل أشكال التنســيق في المحافل الإقليمية والدوليـة. فالمحك النهـائي للتعـاون والتناصر في هذه الأيام، محك اقتصادي قبل أي شيء آخر .

إن المنطق السليم يقرر أن التحديات الكونية يجب أن تواجَه بجهود كونية، وتعاون المسلمين مع بعضهم هو من هذا القبيل؛ فالعالم الغربي المتربص بالشعوب المستضعفة، ينظر إلى العالم الإسلامي على أنه بنية ثقافية واحدة، ومن ثم فإن المعايير التي تمَّ إرساؤها للتعامل مع دوله هي معايير متقاربة. وما اختلفت دولة إسلامية مع دولة غير إسلامية إلا وقف الغرب إلى جانب الدولة غير المسلمة .
إن العالم الإسلامي حين يكون متفرقاً في عالم مجزأ، فإن الأضرار التي تعود عليه من وراء ذلك تكون أخف وطأة، لكن حين يتمزق في وقت يجري فيه السعي الحثيث إلى تكتلات تجمع الدول القوية؛ فإن الأخطار التي تهدد مصالح المسلمين ستكون آنذاك جسيمة! .
ومن الواضح أن بإمكان التجمعات الكبرى - كالسوق الأوروبية المشتركة- أن تمارس ضغوطاً هائلة على العالم الإسلامي في مجالات كثيرة، مثل أسعار المواد الخام، وأسعار الآلات والمصنوعات التي نشتريها منهم؛ كما أن بإمكانها أن تضع القيود التي تناسبها على تدفق العمالة المسلمة ...
لقد بات من المؤكد اليوم أن من العسير على الدول الصغرى أن تهيمن على شؤونها الخاصة، حيث حواشي المناورة أمامها دائماً محدودة، وأسواقها الداخلية أيضاً محدودة. وهي لا تستطيع أن تفتح أسواقاً عالمية لمنتجاتها بسبب ضآلة تلك المنتجات، ولا تستطيع تطويرها بالصورة المناسبة؛ لأن ذلك يتطلب إنفاقاً مكثفاً على البحث العلمي ... وهذا كله لا يتأتى للدول الصغرى. وليس من الشاذ ألا نرى اليوم أية دولة عظمى يقل عدد سكانها عن خمسين مليون نسمة، ومع هذا فالدول العظمى كلها داخلة في أحلاف وتجمعات فعّالة، تزيدها قوة إلى قوتها .
إن كل نوع من المشاريع له طاقة إنتاجية مثالية، فإذا قل عنها كانت منتجاته أكثر كلفة. وعلى سبيل المثال فإن مجمعاً حديثاً للتعدين، وذا دورة إنتاجية كاملة، تكون الصورة المثالية لطاقته الإنتاجية هي أربعة ملايين طن من الحديد الزهر، وخمسة ملايين طن صلب في السنة. وبالنسبة لمصنع إسمنت حديث فإن الطاقة الإنتاجية المناسبة له هي مليون طن سنوياً. وفي إنتاج سيارات الركوب 600 ألف وحدة. وبالنسبة لسيارات الشحن والجرارات في حدود 100 ألف وحدة .

فإذا كانت السوق الداخلية محدودة، ولم تكن هـذه الصـناعات عالية الجودة ورخيصة التكلفة، فإن إنتاجها سيتكبد خسـائر، لا يقـوى معها على الاستمرار !
إن التفاوت الذي نلمسه بين دولة إسلامية وأخرى كان لدى ولايــات كثيرة في العالم، ثم استطاعت أن تشكل فيما بعد دولاً كاملة، فقد كانت الدويلات الألمانية كـذلك، وكـانت الولايـات المتحـدة الأمريكية كذلك، ثم زالت الفوارق والمعوقات. شيء من التضـحيات مطلـوب على المــدى القــريب من أجل الوحــدة لكن الثمــار اليانعة ســوف يقطفها الجميع فيما بعد . والمسألة من قبل هذا، ومن بعده مسـألة مبدأ. والحسابات النفعية لا تُعطى أهمية كـبرى في مجـال المبـادئ، وإنما يجري التحايل عليهـا، وتأويلها في سـبيل الامتثـال لما يجب أن يكون!
حدود التعاون الممكن :
أن من غـــير الممكن الآن تشـــكيل تكتل اقتصـــادي إســـلامي على مسـتوى العـالم؛ لأسـباب كثـيرة، لا داعي لتعـدادها. وفي كثـير من الأحيان يجد المرء نفسه عاجزاً حيـال قضـايا كثـيرة؛ لكنه إذا قـال : مــاذا يمكن أن أعمل حيــال المشـكلات والصـعوبات الكثـيرة خلال عشرين عاماً، لوجد أنه يستطيع عمل أشياء كثيرة جداً !.
وأود أن أؤكد أنه من الصعب إنجاز أشياء كثـيرة في تحقيق التعـاون الإسـلامي بعيـداً عن الشـعوب الإسـلامية؛ فالحمل الـذي يتم خـارج رحم الأمة هو حمل كاذب !
وإن علينا أن نعــــترف أننا لم نقم بواجبنا - ولا على مســــتوى من المستويات- تجاه تأسيس ثقافة تفضِّل السياحة في ديار المسلمين، والتعــرف عليهــا. كما أننا لم نفعل شــيئاً ذا قيمة تجــاه تفضــيل استهلاك المنتجات الإسلامية، وإن كـانت أقل جـودة من غيرهـا؛ وما ذلك إلا لأننا لا نمتلك الــوعي المناسب بخطــورة نظــام التجــارة ، وقدرته على اكتساح كل النظم!
وأيضــاً فــإن جاذبية الغــرب للصــفوة فينا أقــوى بكثــير من جاذبية البلدان الإسلامية؛ ومن ثم فـإن الـولاء للمسـلمين لم يتشـخص في أي تحركات عملية وتبادلية، بل ظل عبارة عن مقولات ومشاعر !!
إن هناك إمكانات هائلة للتعـاون بين المسـلمين حكومـات وشـعوباً، بشـرط أن يُنظر إلى القضـية على أنها قضـية مبـدأ ومصـير في آن واحد. ومن ذلك الإمكانات:

أ. هناك جهل عريض لدى المسلم بأحوال إخوانه المسـلمين، وجهل بالميزات والفرص ولإمكانات الاقتصادية المتوفرة في بلاد الإسـلام. وإن بإمكـان الجامعـات والغـرف التجارية والصـناعية والاتحـادات المهنية أن تقوم بالدراسات والبحوث والمسوحات التي تكشف عن الإمكانات والمـيزات في كل بلد إسـلامي سـواء أكـانت صـناعية أم تجارية أم خدمية، وأن تعمم نوعاً من الثقافة الاقتصادية .
كما أن بإمكان تلك المؤسسـات إلى جـانب الجمعيـات والجماعـات والأندية أن تنظم رحلات استكشـافية وسـياحية، الغـرض منها التعارف وبناء الجسور بين رجالات الأعمال المسلمين.
إن أمة الإسلام لن تنجز الكثـير، ما لم يشـعر كل مسـلم أن بإمكانه أن يصنع شيئاً ولو كان استهلاكاً لسلعة، صُنعت في بلد إسـلامي، أو نشر معلومة تتعلق به، أو لفت الأنظار إلى مشكلة يواجهها .
ب. إن العالم الإسلامي متنوع الإمكانات والميزات والمناخـات؛ وإن لكثير من البلدان الإسلامية ميزات ظاهرة، تشبه التخصـص، ويمكن لها من خلال التعاون مع البلـدان الإسـلامية أن تسد حاجـات كثـيرة، وأن تسهم في النهضة الاقتصادية الإسلامية الشاملة.
إن أندنوسيا وماليزيا من الدول التي تستطيع تنمية صناعات مهمـة، مثل صناعة الورق والإلكترونيات والطـائرات إذا وجـدتا التعـاون من قبل الدول الإسلامية بالإقبال على شراء مصنوعاتهما، وتمويل بعض المشروعات فيهما.
وإن من الممكن جعل السودان مصدراً للغذاء لدول أخـرى عديـدة، لكنه بحاجة إلى المعونة الفنية والمالية لاسـتثمار الإمكانـات الهائلة التي لديه.
وإن بإمكـان دول الخليج أن تقـدم خـبرات ممتـازة، وتقـود مشـاريع عملاقة في مجال صناعة النفط وتسويقه، كما أنه يمكن لبعضـها أن يساهم في تمويل مشروعات إنمائية في دول إسلامية أخرى .
ومن غـير التكـاتف لتوسـيع السـوق الإسـلامي وتعاونها لا يمكن لخيرات الأمة أن تُنمى، ويستفاد منها على الوجه المطلوب.
ج. إن أسـرار التقنية عند مسـتوياتها العليا لا تبـاع ولا تشـرى؛ لأن الوصول إليها مكلف للغاية. وإن كثيراً من الدول الإسلامية مشـغول بصـرف ما لديه من إمكانـات على التوسع في التعليم ومحو الأمية لمواجهة الزيـادة السـكانية. وهي لا تملك الأمـوال الكافية للإنفـاق على البحث العلمي. ونحن نعتقد أن البطالة سوف تزداد، والأزمـات سـتتفاقم، ما لم يتم القيـام بخطـوات جريئـة، أهمها زيـادة الإنفـاق

على البحث العلمي، من أجل فتح الأبواب والمسارات أمـام التقـدم الصناعي. ومن هنا إن بإمكان المسلمين أن يؤسسوا مراكز أبحــاث ضخمة متخصصة، تساهم فيها الدول الإسلامية مجتمعة أو متفرقــة، ثم توزع نتائجها على الدول جميعها بأسعار تشـجيعية وبحسب درجة المشاركة فيها .

وإن من أهم مراكز الأبحاث التي نحتاجها مركزاً للبحث في تقنيــات تحلية مياه البحر، وآخر للاستفادة من مصادر الطاقة المتجددة، مثل الطاقة الشمسـية ، وطاقة الريـاح... ومركـزاً للبحث في (الهندسة الجينيــة) واســتنبات وتهجين بــذور جديــدة تلائم الظــروف المناخية الصعبة، ومركـزاً للمعلومـات والبرمجـة، ومركـزاً للمـواد الجديـدة، وآخر للتحكم عن بُعد والأشعة.

وأعتقد أن هذه القضية بالغة الخطورة والأهميـة، وهي لا تحتـاج إلى تكاليف كثيرة إذا ما اشترك في إقامتها عـدد من الـدول. إنما الـذي نحتاجه دائماً في مثل هذا الوعي والاهتمام والعزيمة!.

د. لا بد لتحسين التعاون الإسلامي من أيجـاد ظـروف جديـدة، تجعل النـاس ينـدفعون إلى التعـاون بصـورة آليـة؛ فحين تمنح دولـةٌ دولـةً أخـرى سـمة (الدولة الأولى بالرعايـة) كما تفعل أمريكا مع الصـين مثلاً؛ فإن ذلك يـدفع النـاس في الـدولتين إلى التعامل والتبـادل من أجل جـني الثمـار الـتي تعـود عليهم. وحين تقـام منطقة حـرة على الحــدود بين دولـتين، أو تـزال الحــواجز الجمركيـة، أو توحَّد التعرفة الجمركية، فإن ذلك كله يـدفع الحركة التجارية والصـناعية والخدمية إلى الأمــام دون الحاجة إلى تــذكير النــاس بأهمية التعــاون؛ حيث المادي أسهل في اللمس من المعنوي !.

إن هناك الكثير من الاقتراحات التي يمكن أن تقال في هذا الصــدد، وقد قيل من قبل الكثير . وهنـاك أمل كبـير ي أن تتحسَّـن الأحـوال في المسـتقبل، ويكتشف المسـلمون أن العـون الصـادق لن يتلقـاه المسلم إلا من المسلم. والله حسبنا.

================

تحدي الرخاء!

ذكـرت في المقـال السـابق أن المـرء قد يفقد توازنـه، ويصـير إلى حالة مزرية إذا فقد المحـــرِّض على التقـــدم والتطـــور. ولا تختلف المجتمعـات والجماعـات في هـذا الشـأن عن الأفـراد، والحقيقة أنه حدث تقـدم كبـير في العصر الحـديث تجـاه النظـرة إلى الصـعوبات والتحـــديات، فقد كـــانت النظـــرة القديمة إلى هـــذه الأمـــور تتسم

بالسلبية الشديدة، وكان الناس كثيراً ما يصـابون باليـأس والإحبـاط عند مواجهة الشــدائد والمشــقات. أما الآن فقد اختلف الأمر على نحو شبه جذري، وصار يُنظر إلى الأمـور المعاكسة على أنها شـرط أساسي لحماية الـذات من الترهل والتفســخ. وقد صــار كثـير من إنجازاتنا مشروطاً بتوفـير بيئة محفـزة ومحرضة على العمـل، وتلك البيئة هي التي لا يجري فيها كل شـيء على ما يـرام، وننـال فيها ما نشتهي، وإنما البيئة التي تتحدى ولا تعجز. إن التحـدي الـذي نواجهه لا يشــكل عقبة بمقــدار ما يشــكل مــورداً لتصـليب روح المقاومة والحث على إبـداع الحلـول الملائمة واسـتنهاض الهمم لبـذل المزيد من الجهد. في الرؤية الجديـدة يشـكّل الرخـاء - كما تشـكّل القـوة- تحديًّا على الناس تجب مواجهته قبل فوات الأوان.

إن بعض علمـاء الحضـارات يُرجعـون تخلف (أفريقيـة) إلى الرخـاء الذي كانت تحظى به، حيث الأنهـار الكثـيرة العذبة والفاكهة الـتي لا تجد من يجمعهــا، وحيث أنــواع كثــيرة من الحيوانــات الــتي يمكن صيدها بسهولة، بالإضافة إلى اعتدال الجو والـذي لا يتطلب التفكـير في توفير طاقة للتدفئة. إن سـهولة العيش في أفريقية جعلت أهلها لا يشعرون بأي حاجة لتطوير مفاهيم وعـادات وسـلوكات يواجهـون بها الشـدائد، كما لم تـدفعهم إلى تـوطين الصـناعة والتقـدم فيهـا، فظلت أفريقية بلداً رعويًّا وزراعيًّا بامتياز. وحين كثر الناس وتنوعت الحاجات وحلَّ الجفاف، وجدوا أنفسهم من غير حول ولا طول.

ويســوق مؤرخو الحضـارات مثـالاً آخر على خيانة الرخـاء هو هـذه المرة (إسـبانيا)؛ فقد ظل هـذا البلد إلى القـرن الخـامس عشر في طليعة البلـدان الأوروبية في الفنـون الصـناعية، لكن عثـور الإسـبان على منــــاجم الــــذهب في العديد من دول أمريكا الجنوبية الــــتي استعمروها بعد ذلك أدى إلى فتور همة القوم وشعورهم بالاسـتغناء عن الجدية في تطـوير صـناعاتهم. وهكـذا انتقلت الريـادة الصـناعية إلى دول أوروبية أخـرى، وصـارت (إسـبانيا) في مكـان قــريب من مؤخرة القافلة الأوروبية ومازالت كذلك!.

وفي العصر الحديث فقدت الـدول في المعسـكر الشـيوعي توازنها في البداية حين ألغت شيئاً اسمه المعارضة السياسية، وحين أخذت الدولة هنـاك على عاتقها تهميش المجتمع ومحاولة الحلـول محلـه، أي ابتلعت الدولة المجتمـع. وكـانت النتيجة العامة لـذلك غيـاب أي تحدٍ حقيقي يـدفع في اتجـاه إصـلاح الأخطـاء ونقد الـذات، مما نجم عنه تمتع الــدول الاشــتراكية بســلطات شــبه مطلقــة. والســلطة

مفسِدة، والسلطة المطلقة إفساد مطلق، وقد أدى كل ذلك في نهاية المطاف إلى انهيار ذلك المعسكر واتجاه كثير من دوله في اتجاه الغرب ليكونوا أعضاء غير مميزين في حلف شمالي الأطلسي.
في مجال آخر هناك دول قليلة في العالم لا يمارس التعذيب في سجونها. ومنع التعذيب أدى إلى إخراج رجالات أمن من الطراز الرفيع حيث لم يبق ثَمَّ وسيلة لكشف الجرائم سوى البحث الدقيق والتحقيق الذكي والتحليل الممتاز للمعلومات المتوفرة .
أما الدول التي أباحت لنفسها ممارسة التعذيب، فقد حرمت نفسها من ذلك - وهذا بدهي- لأنها لا تشعر بالحاجة إليه!!.
إذا عدنا إلى تاريخنا الإسلامي وجدنا ما يشبه هذا، حيث إن مما لا يخفى أننا أخفقنا على مدى قرون في تنظيم المعارضة السياسية وإضفاء نوع من المشروعية عليها. إن من غير الصحيح أن يقول كل من لا يرتضي سياسة معينة ما شاء، وأن يفعل ما يشاء. كما أن من غير الصحيح أيضاً أن تكمم الأفواه، ويتحول الناس إلى قطيع. ولهذا فإن المعارضة السياسية كانت تفتقر - في غالب الأحيان- إلى الاتزان والوسطية. وكان بعض الناس يعبّرون عن سخطهم من خلال الثورات المسلحة التي أنهكت الأمة، وجعلت تاريخها السياسي رمادي اللون. أما الأغلبية فقد كانت ترى في تلك الثورات فتناً مدلهمة، وكان الخيار المتاح أمامها هو الصمت المطبق والخانق.
ونحن إلى يومنا هذا ننظر إلى الحركات الاحتجاجية التي قامت ضد الحكومات الإسلامية على مدار التاريخ بأنها حركات ضالة أو مغرضة أو مأجورة...، ومع أننا لا نزكي كل تلك الحركات، ولا نحكم لها بالبراءة؛ إلا أننا لم نحاول أن نتلمس الأسباب الدافعة لها ولا الدور الذي كان يمكن أن تقوم به في وجه تغوّل الدولة وتسلطها ولو قدر لتلك الحركات أن تسلك المسلك السلمي في معارضتها.
كيف يكون الوضع لو كانت النظرة إلى المعارضة السياسية على أنها جزء من النظام الدستوري للدولة الإسلامية؟ لا شك أن تقدماً سياسيًّا وحضاريًّا باهراً كان يمكن الحصول عليه!.
إذا التفتنا إلى الجانب الثقافي والمعرفي والدعوي لوجدنا أن طلاب العلم الشرعي على مدار التاريخ الإسلامي كادوا ينفردون بالساحة الثقافية دون منافس يذكر، وقد أدى ذلك التفرد إلى ترهل خطاب كثير منهم بل تخلفه؛ حيث إن فقد المنافس نفى الشعور بالاحتياج

إلى التطــوير، كما حُــرم الخطــاب الــدعوي من مــيزة الاقتبــاس والمقارنـة. واليـوم نشـعر بـأن علينا أن نجـري بسـرعة فائقة حـتى نستدرك بعض ما فات.
قد أشـار القـرآن الكـريم إلى نعمة وجـود التحـدي الضد والمعـوق ووجود المصارع والمنافس والعدو حين قال سبحانه: (ولولا دفع الله النـــاس بعضـــهم ببعض لفســـدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين).
إن الله - تعالى- يـدفع بـالمؤمنين شـرور الكـافرين والفاسـقين من خلال الجهـــاد والأمر بـــالمعروف والنهي عن المنكـــر، ومن خلال استخدام الإمكانات والمـوارد المتاحة على نحو يخـدم الخـير ويعـزز الفضــيلة. كما أن وجــود الكــافرين والفاســقين يشــكّل محرضــاً للصــالحين على تحسـين أحـوالهم والتخلص من أخطـائهم. والـذي ينظر في كتب التفسير يجد أن معظم المفسرين قد حادوا عن هـذا المعنى. ولهـذه الآية المباركة مـرمى بعيـد، لم أر أحـداً يشـير إليـه، وملخصه هـو: أنه ما دامت وضـعية المدافعة في الحيـاة تحـول دون فســاد الأرض؛ فــإن على أمة التوحيد أن تعمل على إيجــاد أوضــاع تتحقق فيها المدافعة في كل دوائر الحياة وعلى كل مسـتوياتها: في الأســــــــــــرة والمدرسة والجامعة ودوائر الحكومة والمؤسسة والشارع...، وذلك من خلال إرساء أعـراف ونظم تـتيح النقد الـذاتي والغيري، وتسمح بالمراقبة والمحاسبة لكل من بيده سـلطة عامـة، كما تسمح بمقارعة الحجة بالحجة وتمحيص البحث بالبحث والفكرة بـالفكرة، والنظرية بالنظريـة.. في إطـار ثـوابت الشـريعة الغـراء وقطعياتها. إن هذه الوضعية هي البديل الصـالح لما نعانيه من حركة بندولية ننتقل من خلالها من إفـــــراط إلى تفريط ومن تفريط إلى إفراط بعيداً عن الوسطية والاتزان.
والله وفي التوفيق.

=================

طاقة التحمل!

كلما تأمل المـرء في أسـرار التشـريع وفي طبـائع الأشـياء ظهر له جليًّا أن بـــارئ الخليقة ومرسل الرسل ومــــنزّل الكتب واحد -جل شــأنه-؛ وأظن أننا كلما امتلكنا رؤية أعمق وأشــمل لتاريخنا وواقعنا ظهـرت حاجتنا إلى أن نعمل في ظلال هـدي الشـريعة الغـراء وفي إطـار (طاقة التحمـل) على كل الصـعد الـتي تعرفنا على سـنن الله

في الخلق في مسـائلها وقضـاياها، وذلك حـتى لا نهـدم ونحن نريد البناء، ولا نُفسد ونحن نريد الإصلاح...
في الإمكـان أن نقـول: إن كل شـيء تحمَّله فـوق طاقته فإنك تخسره، أو تكاد. وخسارتنا لما نحمَّله فـوق طاقته أشـكال وألـوان.. فقد تتجلى الخسارة في فقده وانعدامه، كما لو ضـغطنا على كـأس زجاج رقيق أكثر من طاقته على الاحتمال. وقد تتجلى الخسارة في فقـده لوظيفته مع بقـاء مادتـه، كما لو حمّل مهنـدس بنـاء حديد التسليح في عمارة ينشئها أوزاناً فـوق الأوزان الـتي يتحملها عـادة؛ مما يؤدي إلى انهيار البناء بسبب اعوجاج الحديـد. وتتمثل الخسـارة في بعض الأحيان لهذا الذي نحمَّله فوق طاقته في فقد فاعليتـه، أي أنه يؤدي عمله لكن على غير الوجه المطلوب، كما أن النتائج تكـون أقل من المتوقـع. إنك لا تسـتطيع أن تحمَّل مركبة ضـعف حمولتها العاديـة، ثم تسـرع بها كما يسـرع الـذي يقـود مركبة تحمل حمولة عادية. وقد تتجسَّـد الخسـارة في عـدم القـدرة على الاسـتمرار في السعي إلى آخر الطريق كالمسافر الـذي يتنـاول ما لديه من طعـام وشـراب على نحو مسـرف، فإنه سـيجد نفسه في مرحلة من المراحل عاجزاً عن متابعة المسير بسبب تحميله لزاده ما لا يحتمل من الاسـتهلاك، وكالـذي يحمَّل بدنه ما لا يحتمل بـإطلاق العنـان لشهواته، فيجد نفسه هرماً قبل الأوان. وهناك أنواع أخرى للخسارة ...
إن لدينا الكثير من النصوص التي تؤكد مراعاة الشريعة لهذا المبـدأ العظيم، منها قوله - سـبحانه- : (لا يكلف الله نفسـاً إلا وسـعها) [سـورة البقـرة:286]، وقوله : (وما جعل عليكم في الـدين من حرج)[سورة الحج:78]، وقوله : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)[سورة البقـرة:185]، وقولـه: (لا يحب الله الجهر بالسـوء من القـول إلا من ظلم)[سـورة النسـاء:148]، وقولـه: (ولن تسـتطيعوا أن تعـدلوا بين النسـاء ولو حرصـتم فلا تميلـوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)[سور النساء:129]. وقال عليه الصلاة والسـلام: "لـولا أن أشق على أمـتي لفرضت عليهم السـواك مع الوضـوء، ولأخرت العشاء إلى نصف الليل"، وقال لعائشة- رضي الله عنهـا- " لولا حداثة قومك بكفر لنقضت الـبيت، فبنيتُه على أسـاس إبـراهيم، وجعلتُ له خلفاً فإن قريشاً لما بنت البيت استقصرت".
إنه لا يريد أن يحمّل إيمـان قـريش الغضّ أكـثر مما يحتمـل، ولـذلك امتنع عن ذلك العمل الذي قد يهيجهم، ويدفعهم إلى الاستنكار.

إن الشـريعة راعت حـال المكلفين وقـدرتهم على النهـوض بحقـوق الالتزام، ولهذا فليس في ديننا -بحمد الله- ما يشقّ اعتقاده أو يشقّ عملـــه. وحين يعيش المســـلم في ظـــروف خاصة أو طارئة فـــإن الشـــريعة تلمح ذلــك، وتجنح به إلى الرخصة والتيســير، وصــار من القواعد الفقهية المشــهورة أن الأمر كلما ضــاق اتســع. وفلســفة الرخصة في الإســلام تقــوم على أن التخفيف في التكليف يســاعد المسـلم على أن يبقى في إطـار الاسـتجابة لأمر اللـه، وفي إطـار الشــعور بالقيــام بحقــوق العبودية عوضــاً عن الشــعور بالضــيق والمشقة والحرج والسعي إلى التماس الأعذار للتقصـير والإعـراض عن أمر الله بالكليــة. ومن هنا كــانت رخصة قصر الصــلاة وجمعها للمسـافر، وجـواز الـتيمم في ظـروف معينـة، وجـواز الإفطـار في رمضــان للمــريض والمســافر، ورفع القلم عن النــائم والمجنــون والطفل، والإعذار بالجهل في الكثير من المواطن، وعدم المؤاخـذة بما لا يسـتطيعه المسـلم من العـدل بين نسـائه في المحبة والأنس والاستمتاع.

ولدينا العديد من النصوص الـتي توجه المسـلم إلى ألاّ يحمِّل نفسه مالا يطيق حتى لا يقع في شكل من أشـكال الخسـارة الـتي أشـرنا إليها. وهي نصـوص كثـيرة في الحقيقـة، منها ما رواه الشـيخان من قوله صلى الله عليه وسـلم : " إذا نعس أحـدكم وهو يصـلي فليرقد حتى يذهب عنه النـوم؛ فـإن أحـدكم إذا صـلى وهو نـاعس لا يـدري يـذهب يسـتغفر؛ فيسب نفســه" . إن الخســارة هنا واضـحة فحمل النفس على العبـــادة مع شـــدة النعـــاس، قد يـــؤدي إلى عكس المقصود، فيدعو المرء على نفسه عوضاً من الاستغفار. وقال عليه الصلاة والسـلام : " لا ينبغي للمـؤمن أن يـذل نفســه. قـالوا: وكيف يذل نفسه؟!. قال : يتعرض من البلاء مالا يطيق".

بين الكم والكيف علاقة عكســية، وفي معظم - إن لم نقل جميــع- الحالات لا يكون الكم إلا على حساب الكيف، كما لا يكون الكيف إلا على حسـاب الكم.. نعم يمكن نقض هـذه العلاقة إذا كـانت أعمارنا وطاقاتنا وأموالنا... غير محدودة، وأنى لنا بهذا؟

حين يعــرّض المســلم نفسه لابتلاءات قاســية فإنه يضع نفسه على حافة الخطر حيث لا ضـمانة لصـبره على ما جـرّه لنفسه من البلاء، ولا ضمانة لنجاحه في الاختبار الصعب الذي قـرر الـدخول فيـه. وقد رأينا الكثير من ذوي القلـوب الطيبة وقد نكثـوا على أعقـابهم نتيجة الذل الذي صاروا إليه بسبب تحميلهم لأنفسـهم ما لم يحملهم

الله - تعالى- إياه، وكانت النتيجة أنهم انتهوا إلى لا شــيء: لا كم ولا كيف!.
إن المثابرة إحدى الفضائل الإسلامية، وهي لا تكون أبداً إلا إذا جعلنا أنشطتنا في إطار طاقاتنا، وإلا إذا تجنبا إرهاق الأنفس.
تقول عائشة- رضي الله عنها- : " دخل عليّ النبي – صلى الله عليه وسلم- وعندي امرأة . قال: من هذه؟ قلت: فلانة تذكر من صـلاتها- أي تتحدث عن كثرة صلاتها- فقال: مـه. عليكم بما تطيقـون، فوالله لا يملّ الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه".
وفي حـــديث مســـلم عنه – صـــلى الله عليه وســـلم- : " هلك المتنطعون" قالها ثلاثاً. والتنطع هو التعمق والتشدد في غـير موضع تشـديد. الشـريعة الغـراء تـدعو إلى اليسر لأنه من أهم منطلقاتهـا، ولأن التجربة أثبتت أن الإيغـال في أي أمر يكـون في الغـالب على حساب أمور أخـرى؛ ومن النـادر أن تـرى رجلاً صـرف جل اهتمامه وعنايته لأمـور معينة دون أن يقع في التفريط في أمـور أخـرى، لا تقل في أهميتها عما يبالغ في العناية به، فالكيف كما ذكرت لا يكون إلا على حساب الكم.
في المقـال القـادم سـأتناول بـإذن الله – تعـالى- بعض التطبيقـات المعاصرة لمسألة خسران الأشياء التي تحمَّلها فوق طاقتها.
ومن الله الحول والطول.
2/2
ذكــرت في المقالة الســابقة أن لكل شــيء طاقة محــدودة على التحمــل، وأن علينا مراعــاة تلك الطاقــة، وإذا لم نفعل ذلــك؛ فإننا سنخسر ذلك الشيء. ووعـدت بـأن أتحـدث اليـوم عن بعض الأمثلة والتطبيقـــات الـــتي تفسر هـــذا المبـــدأ وتوضـــحه في العديد من المجـــالات. والحقيقة أن قائمة الأمثلة طويلـــة، لكن سأقتصر على خمسة منها في المفردات الآتية:
1- يحاول الناس بصورة شبه دائمة أن يحققوا مصـالحهم في إطـار مبادئهم حتى اللص الذي دخل بيتاً ليسرق المـال فإنه في العـادة لا يقتل إذا أمكنه الحصول على المال دون الاحتيـاج إلى القتـل. وهـذا يعود إلى أن الإنسـان مهما تجـرد من القيم والمبـادئ فإنه يظل فيه شيء من النزعة الإنسانية وشـيء من الحـنين إلى السـمو والنقـاء؛ لكن لهذا حدودًا على التحمل، فإذا وُضع الإنسـان في ظـروف بالغة السوء من الفقر والعـوز والقلة – مثلاً- فـإن جهـاز المناعة الأخلاقي لديه يتعرض للانهيار بسبب الشعور بالظلم الاجتماعي وبسبب قدرة

العقل الفائقة على تأويل القيم إلى حد إفراغها من مضـامينها. ومن هنا فإننا قد لا نستغرب – وإن كنا لا نسـوَّغ ولا نـبيح ولكن نفهم- إذا وجـدنا الفلسـطيني الجـائع والمحاصر والـذي تخلى عنه إخوانه في العالم، وقد مد يده للتعاون مع اليهود إلى درجة وضع علامـات على سيارات قادة المجاهدين حتى تهتـدي إليها طـائرات اليهـود، وتقـوم بقصفها، وقتل من فيها.. وهـذا حـدث في كل البلاد الإسـلامية وغـير الإسلامية أوقات الاستعمار. وقد أشار أحد علماء المسـلمين قـديماً إلى شيء قريب من هذا حين عتب عليه بعض أصدقائه قبوله لهدية من حاكم طاغية، حيث قال: لم أقبل هديته إلا حين حلت لي الميتة. إن الرادع الديني أو الوطني أو الإنساني موجود بنسب متفاوتة لدى جميع الناس، لكنه لدى الأغلبية ينهار، أو يكاد إذا حُمَّل فوق طاقته.

2- نظـرت بعض الجماعـات الإسـلامية إلى نفسـها فوجـدت أنها الأفضل تنظيمـاً والأوسع انتشـاراً وربما الأقـدم في سـاحة العمل الـدعوي، وهـذا –ولا شـك- يمنحها شـعوراً بـالتفوق، ويعطيها على الأرض بعض الحقـوق؛ وهـذا طـبيعي لكن بعض تلك الجماعـات لم تنتبه لنفسها، فتولدت لديها (عقدة الأخ الأكبر) فصارت تتصـرف كما يتصرف الأخ الأكـبر في الأسـرة، حيث على الإخـوة الصـغار السـمع والطاعة وتلقي الأوامر والنصائح، وحيث فقد روح المبادرة للتنسيق والتعاون (بل ضعف الاستجابة) لمحـاولات الآخـرين الإنفتـاح عليهـا. وقد أدى ذلك إلى إعـراض الجماعـات الأصـغر حجمـاً عنهـا، وبـدأ التنـافس، وما يجـره من مظـاهر الانحطـاط المـدني يشـتعل في السـاحة الدعويـة. إن للقـوة دائمـاً حقوقـاً، يقـدرها النـاس، لكن أصحاب القوة كـثراً ما يضـخمون تلك الحقـوق، أي يحمّلـون قـوتهم وامتيـازهم وتفـوقهم ما لا تحتمل من الحقـوق والمـيزات، وكـانت النتيجة خسران الامتيـاز كله بسـبب خسـران العلاقة مع الجماعـات الأخرى والتي يمكن أن تكون معبراً لذلك الامتيـاز. وقد أشـار زهـير إلى معنى يلتقي جزئياً مع ما نقوله حين قال:

ومن يكُ ذا فضل فيبخل بفضله *** على قومه يُستغن عنه ويذممِ

3- قد تعودنا في مجـالات الأعمـال الدعوية والخيرية أن نجد دائمـاً القليل ممن يملك الحماسة المتدفقة والحركة الدائبة والأريحية المتوهجة مع كثرة السواد وتزاحم الرؤوس والأقدام. والـذي يحـدث دائماً هو أن كل القاعدين وكل أولئك الذين يحبون أن يروا الآخـرين يعملون – دون أن يعملوا هم شيئاً- يتجهون إلى ذلك الشخص النبيل النشط المتحـــرك؛ فيلقـــون عليه المزيد المزيد من المهمـــات

والمسـؤوليات، وهو لشـهامته يتقبـل، ويعد ويحـاول ... ولكن بما أن لكل شـــيء طاقة تحمَّل فـــإن النـــاس يبـــدؤون بملاحظة الفوضى والتقصير في عمله وتبدأ سـهام النقد بتناوشـه... وسـبب ذلك يعـود إلى عــدم إدراكه وإدراكهم أن الكم في نهاية المطـاف لا يكــون إلا على حساب الكيف.

4- تشعر الولايـات المتحـدة الأمريكية أنها الدولة الأولى في العـالم على المسـتوى التقـني والاقتصـادي والعسـكري، وليس هنـاك من ينازعها في هـذا. وهـذا الشـعور جعلها توسع مجالها الحيـوي ليصـبح من غير حدود؛ فالعالم امتداد طبيعي لمزرعة (بوش) في تكسـاس. ويشعر اليهود أنهم يشكلون الأقلية السـاحقة على مسـتوى العـالم، ويكفي أنهم مسيطرون على آلية اتخاذ القرار في الولايات المتحـدة ونحن أيضـاً لا نرتـاب في ذلـك. وصـار اليهـود من خلال تصـرفاتهم وتصريحاتهم يرسلون رسائل للقاصي والداني بأنهم لا يأبهون لأحـد، وليس من حق أحد أن يـــراجعهم في شـــيء. اليهـــود الأمريكيـــون يعتمدون في مواقفهم العالمية وفي حركتهم الكونية على ما لـديهم صلات هيمنة بكل مراكز القرار في العالم وعلى ما لديهم من نفـوذ إعلامي طـاغٍ وشـامل. لكن بما أن لكل شـيء طاقة على التحمـل؛ فإن العالم يكتشف الحقائق، وبدأ يتململ على نحو شـديد التهـذيب من الطغيان الأمريكي والإسرائيلي. وقد فجع اليهود بنتائج استطلاع الرأي الذي نظمه الاتحاد الأوروبي حول الـدول الأشد خطـورة على السـلام العـالمي، وقد ذكر الأوروبيـون في ذلك الاسـتطلاع أن (إســـرائيل) هي الدولة الأخطر على أمن العــــالم، تليها حليفتها الولايات المتحدة الأمريكية. ولعل اتخاذ إسـبانيا قـرار سـحب قواتها من العـراق في أسـرع وقت ممكن يشـكل الصـدمة الثانية لأمريكا والمؤشر الأخير في سباق المؤشرات الدالة على أن أمريكا واليهود قد حملـوا نفـوذهم المـالي والإعلامي والسياسي ما لا يحتمل من الجرائم والوقاحات؛ ولذا فإنها بدأوا يحسرون توظيفات ذلك النفـوذ على نحو تدريجي.

5- كثيراً ما شاهدنا صـداقات تتصـدع وتضـمحل، وكثـيراً ما شـاهدنا الأقربـاء وقد فشت فيهم النزاعـات والأحقـاد والبغضـاء. وكثـيراً ما يكون السبب في كل ذلك هو أن الناس حمّلوا الصداقات والقرابات ما لا تحتمل من التبعـات والتكـاليف. نحن جميعـاً نـدرك ونقر أن للقريب حقوقاً وأن للصديق أيضاً حقوقاً؛ لكن الذي يحدث أننا نفاجأ بأن أقرباءنا وأصدقاءنا يريدون من الحقوق والمساعدات ما يتجـاوز

كثـيراً توقعاتنا وأحيانـاً طاقاتنـا. وهنا تبـدأ المشـكلة، حيث الاتهـام بالتقصير من جانب والاعتذار والتنصل والتهرب والابتعاد من الجانب الآخر. إن ما بين الناس من ود ومشـاعر طيبـة، وما بينهم من قرابة ورحم يتحمل - ولا شـــك- طلب المعونة والخدمـــة، ولكن ليس من غير حـدود. إن العلاقـات تـدوم وتـدوم إذا قـامت على قـدر جيد من التكـافؤ والنديـة، فـإذا تحـولت إلى علاقـات لانتفـاع أحد الأطـراف واستغلالها من قبله؛ فأنها تنهار، وقد تنقلب إلى عـداوة مسـتحكمة. إن كل صديق وكل قريب يقـدم لأصـدقائه وأقربائه شـيئاً ما وينتظر منهم شـيئاً؛ ومن المهم ألا ينتظر أكـثر مما قـدم إذا ما أراد للمـودة أن تستمر.

إن الدرس الـذي نخـرج به من كل ما ذكر هو ألا نعلَّق توازننا العـام ولا مستقبلنا ولا صلاح شؤوننا على شيء وحيد وفريد، حتى لا ينهـار ذلك الشيء في نهاية الأمر، ونشعر أننا خُـذلنا في سـاعة كنا أحـوج ما نكون فيها إلى المعونة والمؤازرة. والله مولانا .

================

من طبائع الأشياء

المعرفة هي صناعة الإنسان، والجهل داؤه، والعلم ترياقه.

من خلال الملاحظة وتـراكم الخـبرات والاستبصـار والخيـال وقـراءة الأحداث واكتشاف العلاقات بين الأشياء ومعرفة سنن الله - تعـالى- في الخلق من خلال كل ذلك نبني معارفنا، نكوّن انطباعاتنـا، وننظم بالتالي مواقفنا وردود أفعالنا.

المعرفة عبـــارة عن معلومـــات، والعلم معـــارف منظمة ومبوبـــة. والعالم سواء أكان كبيراً أم صـغيراً يشـتغل على الجزئيـات إدراجـاً واســتنباطاً على الكليــات واستكشــاف القــوانين والوقــوف على الملامح العامة، وشفوف بصناعة المفـاهيم الكـبرى وصـياغة منـاهج البحث ومنـــاهج التفكـــير، وإذ كنا في حاجة إلى كل من العـــالم والمفكر؛ فإن على كل واحد منهما ألا يقلل من شـأن الآخر بل عليه أن يعترف به، ويحاول الاستفادة من عطاءاته.

فقه السـنن وفهم طبـائع الأشـياء، من الأعمـال العظيمة الـتي يحق للمرء أن يغتبط، ويبتهج إذا حقق فيها نجاحـاً عظيمـاً، لأن ذلك يـدل على استقراء ممتاز للوقائع المتفرقة، كما يـدل على شـفافية عالية وخيال خصب قادر على ضم النظير إلى النظير، والخروج من سجن الجزئيات والرؤى الذرية المبعثرة.

وإن مما يؤسف له أن المهتمين بالفهم الكلي قليلون دائماً بسبب مشقة العمل في هذا المجال وحاجته إلى إمكانات ذهنية، قد لا تتوفر لدى كثير من الناس.

فهم طبائع الأشياء قد يحتاج إلى أن نهتم على نحو عميق بملاحظات النابهين جداً من كبار الاختصاصيين، ثم نحاول التفريع عليها وإضافة ما نمكن إضافته إليها. حين نعرف السنن التي تحكم مجالاً أو عملاً أو علاقة ما؛ فإن ذلك يجعلنا كمن يكتشف سبلاً عامة عريضة، تتفرع عنها دروب صغيرة. وآنذاك فإننا نستطيع التفريق بين المطرد والشاذ والمألوف وغير المألوف والطبيعي وغير الطبيعي؛ كما نستطيع التفرق بين المطّرد والشاذ والمألوف وغير المألوف والطبيعي وغير الطبيعي؛ كما نستطيع أن نثمن المعلومات الواردة عن ذلك المجال، وأن نكتشف ما يمكن أن يكون قد دخلها من زيف وتزيد.

وأنا هنا أحاول أن أوضح بعض طبائع بعض المجالات المعنوية والحياتية؛ وينبغي أن يؤخذ كل ما أقوله هنا على أنه مقاربة واستشراف ليس أكثر.

1- المجال الفكري:

التفكير هو: اشتغال العقل على بعض المعلومات من أجل الوصول إلى أمور مجهولة. ومن طبيعة هذا المجال الآتي:

- صدور المفكر عن رؤية جانبية، إذ مهما كان العقل متيقظاً ومدرباً، ومهماً كان خياله واسعاً، وكانت معارفه عميقة وشاملة؛ فإنه لا يستطيع أن يحيط بكل الأمور المتعلقة بالقضايا التي يفكر فيها، أي أن المقدمات التي ننطلق منها إلى بلورة حكم أو الحصول على نتيجة معينة، ستظل مقدمات ناقصة. ولو أننا استشرنا أفضل مركز دراسات متخصص في مشروع من المشروعات أو مشكلة من المشكلات، لما صدر إلا عن رؤية جزئية. ورحم الله الإمام مالك بن أنس حين كان يستشهد عن إفتائه في مسألة من المسائل بقوله- سبحانه - (إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين).

- وجود الأخطاء في المجال الفكري أمر طبيعي وكثير الانتشار، وذلك لأن العقل وهو يعمل على الوصول إلى بعض الرؤى والمحكات والأحكام... يُتيح الأخطاء والأوهام بسبب هشاشة المقدمات والأسس التي يبني عليها أو بسبب سوء التقدير لطبيعة العلاقة التي تربط بين الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج.

وهـذا يتطلب منا أن نكـون دائمـاً يقظين للمنتجـات الجانبية لعمل العقل، كما يجعلنا في حاجة دائمة لمراجعة طروحاتنا وأفكارنا.
- كثيراً ما يصـاب المشـتغلون بالقضـايا الفكرية بالجفـاف الـروحي، ولست أعرف الأسباب الأكيدة لهـذا، لكن ربما كـان ذلك بسـبب أن الإشـــراق الـــروحي يحتـــاج إلى جهد تعبـــدي عملي، على حين أن المشـتغلين بالقضـايا الفكرية يكونـون عـادة مشـغولين بـالتنظير واكتشاف الأسباب والعلل. وأحياناً يؤدي إدمـان التنظـير إلى شـيء من الترهل الـروحي بسـبب أنه يجعل صـاحبه أكـثر تفهمـاً للواقـع، وبالتـالي أكـثر خضـوعاً لـه. وهـذا يـؤدي إلى انخفـاض في درجة التسـامح والـذي يعد حجر الأسـاس في التفتح الـروحي؛ وعلينا أن ننتبه إلى هذا.
- من أعمدة العمل الفكري الاختزال والتخبط، حيث يتشوق المفكر إلى اســـتخلاص بعض القـــوانين والمقـــولات العامة من أكـــوام المعلومات والمعطيات الجزئية، وينتج عن هذا القيـام بتحييد الكثـير من الأقوال والمعلومات الموثوقة؛ فالبناء الفكري بطبيعته - كما هو شـأن البنـاء التـاريخي- هو بنـاء انتقـالي. وأثنـاء عملية الانتقـاء تتم الاستهانة بأمور ومعطيات قد تكون جوهرية وحيويـة. هـذا بالإضـافة إلى أن المفكر بسبب اشتغاله بـالأمور الكلية يزهد عـادة بكل ما هو جــزئي وفــرعي. وأتصــور أن علم (مقاصد الشــريعة) لم يتم، ولم يتبلور بالشكل الكافي؛ لأن الـذين اشـتغلوا على إنضـاجه لم يكونـوا من المشــتغلين بالفلســفة الكلية للتشــريع، كما أن خــبرتهم بفقه الأولويات كانت ضئيلة؛ مما جعل قدرتهم حيال دمج بعض النصــوص الصـحيحة في المـرامي للشـريعة السـمحة محـدودة في المجـال الفكـري يتـألف العقل وتـبرق اكتشـافاته، وهـذا يجعل المشـتغلين بالفكر يشعرون بنـوع من الوثوقية الزائـدة، فيطلقـون الأحكـام في أحيان كثيرة من غير قـدر كـافٍ من الرؤية والتأمـل. وكم عانينا من موجات النقد غير الأصيل وغير المحكم بسبب الإفراط في الثقة بما لـدينا من أفكـار ومفـاهيم، هي في كثـير من الأحيـان تقبل الجـدل والمراجعة.
2- المجال الروحي:
المكمن الحقيقي للذات الإنسانية، هو الـروح والمشـاعر والعواطف وليس العقل والأفكار والمفاهيم. وقد دلتنا الخـبرة على أن المجـال الـروحي شـديد الجاذبيـة، وهو يملك قـدرة هائلة على جعل النـاس يتجاوزون الضوابط والحدود التي يضعها العقل؛ بل تلك التي يضـعها

الشرع أيضاً، وإذا تأملنا في أقوال وسلوكات كل أولئك الذين حـدثنا التـاريخ عن إعـزافهم في المسـائل الوجدانية والروحية وفي قضـايا الأحوال والمقامات والكرامات والتجليات والنفحات...؛ لوجـدنا أنهم - إلا الندر القليل- قد استهلوا تجـاوز النصـوص الشـرعية، أو صـاروا إلى تأويلها على نحو لا يخلو من الفجاجة والتعسف .

إن المشاعر الجياشة التي قد يجدها بعض العباد كثيراً ما تقوم بدور المخدر أو المعطل لملكة العقل، والمعطل لدور النصوص والأحكـام الشـرعية في توجيه سـلوك المسـلم وضـبط مقولاتـه. وهـذا ليس خاصاً بالمسلمين ولا بأهل أية ملة من الملل، بل هو عام يشمل كل أو جلّ من يشـتغل بالمسـائل الروحية والوجدانيـة، وقد عـانت الأمة كثيراً من أهل (الشطحات) الذين كانوا يلقـون بـالكلام على عواهنه استجابة للخواطر والوساوس والأوهام والـرؤى المناميـة. ومن هنـا؛ فإن على كل من يهتم بالشأن الروحي أن يحرص الحـرص كله على أن يظل في إطار المشـروع، وألا يغضّ الطـرف عن الرؤية الفقهية كما يصدر عنه من أقوال وأعمال.

المجـال الـروحي يـوفر لكل من يدخله درجة عالية من الطمأنينة والسرور والانشراح؛ ولا عجب إذ إن الصـلة بالله - تعـالى- ومناجاته والتودد والتذلل إليه لا تأتي بغير هذا؛ لكن الملاحظ أن هـذه الدرجة من الجـور تـدفع من يتمتع بها إلى الانطـواء على نفسه والميل إلى العزلة والاسـتخفاف بما يجـري في المحيط الخـارجي من أحـداث، وقد كان من الأدبيات المشهورة لدى العبـاد والزهـاد أو طائفة منهم على الأقل أن من علامات ولاية الشخص أو من أسس الولاية الذكر والصمت والعزلة والجوع. ومن هنا؛ فإن المسلم مطالب إلى جانب تزكيته لنفسه وتطهـيره لقلبه وصـقله لروحه بـألا ينـدفع من حيث لا يـدري إلى تضـييع الواجبـات الاجتماعية والدعويـة، وحـتى لا يقع في هذه المصيدة؛ فإن عليه أن يتذكر أهدافه وواجباته.

3- المجال الوعظي الإرشادي:

هذا المجال كثـيراً ما يعكس غـيرة المسـلم وخيريتـه، وحرصه على تبليغ الرسـالة، وعلى اسـتقامة المسـلمين وتحسّـن أحـوالهم، وهو مجـال مهم، وله دور حيـوي في إبقـاء الـوعي الإسـلامي متيقظـاً ومنفتحاً على الأوامر والنـواهي. من طبيعة العمل في هـذا المجـال دفع العاملين فيه إلى السحب من رصيد الحقيقة، وتجـاوز الـبراهين والأدلة المتوفرة على حكم من الأحكام أو في قضية من القضايا، أو مقولة من المقـولات؛ فحماسة الداعية للقضـية الـتي يتحـدث عنها

وحرصه على إقناع الناس بما يقول يجعلانه لا ينتبه إلى أنه تجاوز القصد والاعتدال، وأنه صار يسلك مسالك مندوبي الدعاية والتسويق، والذين لا هم لهم سوي أن يبيعوا أكبر عدد من الزبائن بأعلى قدر من الأسعار.
الوعاظ والدعاة اليقظون والورعون جداً هم الذين يستطيعون النجاة من ذلك إلى حد بعيد، ولكن ربما بشكل غير مستمر. وظاهرة القصّاص في التاريخ تحكي في معظم الأحوال هذه الحقيقة، وقد وضع أقوام منهم بعض الأحاديث من أجل حث الناس على عمل ما يعتقدون أنه مهم لفلاحهم، ولما حُذِّر بعضهم من ذلك، وذُكِر لهم الحديث "ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" قالوا: نحن نكذب له لا عليه!.
السحب من رصيد الحقيقة يتجلى أحياناً في التهويل والمبالغة حين يُصوَّر خطأ من الأخطاء أو معصية من المعاصي على أنه كارثة الكوارث. وحين يُصوّر عمل من الأعمال النبيلة على أنه السفينة التي ستنقل الناس إلى بر الأمان. ويتجلى السحب من رصيد الحقيقة في أحيان أخرى في التعليلات الفاسدة والتحليلات السطحية والقول بغير علم؛ وهذا كثيراً ما يتم من غير وعي ولا إدراك، ومن هنا فإن المشتغلين بالوعظ في حاجة إلى طاقة هائلة من أجل ردع أنفسهم عن الانسياق خلف عواطفهم.
4- المجال التجاري:
يُثبت النظام التجاري يوماً بعد يوم أنه أقوى النظم الثقافية على الإطلاق، فإذا كان المرء طبيباً وتاجراً؛ فإن التجارة ستخطفه - في الغالب- من الطب، ويؤول أمره إلى أن يصبح تاجراً بمعنى من المعاني، وكذلك الشأن فيما لو جمع المهندس والمدرس والمزارع والموظف بين مهنته وبين التجارة. وإني أظن أن هيمنة التجارة على حياة الناس نابعة في الأساس من أنها تعيد بآفاق غير محدودة من الربح والثراء، وهذا ما يبحث عنه الإنسان الذي لا يملأ فمه إلا التراب. وقد ورد في الحديث أنه في آخر الزمان تفشو التجارة حتى إن المرأة لتشارك زوجها في التجارة، مما يدل على قدرة هذا النظام على اختراق كل العلاقات حتى العلاقة الخاصة القائمة بين الزوجين.
في المجال التجاري تكثر الأيمان ويكثر المديح للسلعة والتشكي من الخسارة فيما إذا بيعت بأقل من كذا أو كذا. وفي المجال التجاري يكون الغش والدعاية الكاذبة والإعلان المبالغ فيه، كما

يكون فيه إخفـاء العيـوب، ويكـثر بخس النـاس أشـياءهم، وكل ذلك استجابة لضـغوط الشـهوة إلى تكـديس المـال والـتي تسـيطر على نفوس البشر.
في زماننا تقوم العولمة على نحو جـوهري على التجـارة وعلى نشر الأخلاق والمفاهيم والتقنيـات الـتي اعتمـدها النظـام التجـاري، وهي في الغـالب سـيئة. ولهـذا فـإن مجـال التجـارة من أخطر المجـالات على دين المــرء وصــدقه أمانتــه، وقد أثــنى الله - جل وعلا- على أولئك الرجــال الــذين لا يشــغلهم شــاغل عن ذكر الله والقيــام بواجباتهم، وخص الـبيع والتجـارة لشـدة تأثيرها في صـرف الإنسـان عن المسار الصـحيح، فقـال سـبحانه : (في بيـوت أذن الله أن ترفع ويـذكر فيها اسـمه يسـبح له فيها بالغـدو والآصـال رجـال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ...) الآية. وقد ورد أن ابن عبـاس - رضي الله عنهما- قال لأصـحاب الكيل والمـيزان من التجـار: " إنكم وليتم أمرين هلكت فيهما الأمم السابقة قبلكم".(1).
معرفة طبائع الأشياء تعني معرفة السـنن الـتي سـنها الله - تعـالى- وبثها في الأنفس والموجودات؛ وهي معرفة مهمة جداً لفهم أنفسنا وفهم العالم من حولنا. والخروج عن هذه الطبائع يظل في كثير من الأحيـان ممكنـاً، لكنه يحتـاج إلى مجاهـدة وإلى جهد اسـتثنائي حيث السباحة عكس التيار، وحيث الخروج على المعروف والمألوف.
والله الهادي إلى سواء السبيل.
----
(1) قد ورد رفعه بإسناد فيه ضعف
==================

الفكر طبيعته وأهميته

كلمة (الفكـر) والتفكـير والأفكـار من الكلمـات الشـائعة جـداً على ألســنة العامة والخاصة اليــوم ؛ وعند عودتنا إلى معــاجم اللغة نجد أنها تعرف الفكر بأنه :
(إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول) .
ويقولون : فكّر في مشكلة : أعمل عقله فيها ليتوصل إلى حلها [1] .
ولعلنا نعــرف التفكــير بأنه (إعمــال الإنســان لإمكاناته العقلية في المحصول الثقافي المتوفر لديه بغية إيجاد بدائل أو حل مشكلات أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء) [2] .

ومن خلال هذا التعريف ندرك أن الفكر ليس شيئاً مطابقاً للأحكام والمبادئ ، ولا مطابقاً للثقافة أو العقل أو العلم ، وإنما هو استخدام نشط لكل ذلك بغية الوصول إلى المزيد من الصور الذهنية عما يحيط بنا من أشياء وأحداث ومعطيات حاضرة وماضية وتوسيع مجال الرؤية لآفاق المستقبل .

وبناء على هذا فإن العالم غير المفكر ، فقد يكون المرء عالماً ولايكون مفكراً . وقد يكون مفكراً ولايكون عالماً ، وذلك لأن الميدان الأساس للعلم هو الإلمام بالجزئيات ؛ أما ميدان الفكر فهو إبصار (الكليات) والاشتغال عليها ؛ وقليل أولئك الذين يسمح لهم الاشتغال بالجزئيات بالتوجه إلى النظر الكلي ، كما أن طبيعة الاشتغال بالقضايا الكبرى (تزهد) المفكرين في الاهتمام بالمسائل الجزئية ، حيث يرون أنها مندرجة في أنظمة أشمل تتحكم فيها .

ومع افتراق الطبيعتين إلا أن هناك خطوطاً عريضة تجمع بينهما أهمها :

أن كلاً من المعطيات الفكرية العامة والجزئيات العلمية الصغيرة يميل إلى الظن والتخمين والبعد عن اليقين ؛ وذلك بسبب أن الجزئيات هي مناط الاجتهاد ، ونتائج الاجتهاد تكون في الغالب ظنية ، كما أن وفرة العناصر والمعطيات التي تساعد في تكوين الرؤى الكلية تجعلها بعيدة أيضاً عن الصلابة والجزم ؛ لكن (الإحالات الثقافية) والخبرات المتراكمة تنقلها إلى حيز اليقين أو الرفض أو التعديل بعد مدة زمنية معينة .

لكن هذا لايهوّن أبداً من شأن المعطيات الفكرية ؛ فقد أثبتت التجربة التاريخية أنه (لاشيء يضيع) ؛ فالفكرة مهما كانت ، تترك انطباعا معيناً سلبياً أو ايجابياً ؛ فقد تشكك في مسلمة من المُسلّمات ، وقد تعزز ظناً من الظنون ، وقد تنبه إلى شيء منسي ، وقد تنقذ أمة من كارثة محققة ! !

وكثيراً ما يحدث أن تأتي الفكرة قبل أوانها أو في غير محيطها ؛ فلا تحدث اضطراباً في الواقع العملي ، وهي أيضاً لا تضيع لأنها ستشكل الخميرة التي سوف تنبت يوماً ما أفكاراً أو حلولاً حين تجد المناخ المناسب [3] .

وهناك إلى جانب هذا سمة أخرى أساسية للأفكار ، وهي أن الأفكار التي نستخدمها في حركتنا الاجتماعية تكون في العادة ملائمة للظروف والأحوال المحيطة بها ، ومهمة الأفكار إحداث تغيير ناجح في تلك الظروف نحو الأفضل والأسمى ، وهذا التغيير الذي يحدث

يوجب علينا تغيير الأفكار التي نحجت كما تغير الأفكار الـتي أخفقت ، وذلك لأن تغيير الأفكار للظروف يوجـدها في ظـروف جديـدة غـير ملائمة لها ، وهذا مشاهد في الأعمال الإصلاحية الكثيرة التي حدثت في العـالم ؛ فحين تطـرح أفكـار وأسـاليب لتحقيق النظافة العامة مثلاً فـإن تلك الأفكـار تفقد وظيفتها وأهميتها حين تصـبح النظافة عادة للناس ، ويصبح الحث عليها غير ذي معنى ، وحين تبلور أفكـار في ضـرورة إرسـال الأولاد إلى التعليم الجـامعي ، ثم تنجح تلك في تحقيق مقصدها يصبح الحديث عن تلك الضرورة غير مفهوم وهكـذا .. وهـذا يعـني أن كثـيراً من الأفكـار تنتهي صـلاحيته ليس في حالة إخفاقه فقط وإنما في حالة نجاحه أيضا .. وهـــذا مغـــاير بـــالطبع لحقيقة المبـــادئ والقيم العليا الـــتي تتـــأبى على التحقق الكامل ، ويظل بينها وبين التمثل الـــواقعي هـــوة دائمة مما يصـــونه من الاســـتنفاد ، ويجعل الحاجة إليها مســـتمرة ، ويكمن مقتل النهضة الفكرية في كثـير من الأحيـان في التشـبت بأفكـار حققت غايتها ، وفقـــدت وظيفتها ، والزهـــادة في مبـــادئ تـــوجب طبيعتها الخاصة وجـــوب المحافظة عليها ؛ لأنها تمثل محـــور الحيـــاة الفكرية الـــتي لاقوام لها بدونه .

أهمية الفكر :

صدّ تأكيد كثير من مفكـري المسـلمين على أهمية الفكر كثـيراً من الشيوخ والشباب عن الاهتمام بمناهج الفكر وقضـاياه ظنـاً منهم أن ذلك الاهتمام سيكون على حساب العمل والتربيةوالأخلاق والسلوك .. وسـبب هـذا الظن أننا حين نتبـني توجهـاً معينـاً في الإصـلاح نلح عليه إلحاحاً يوهم الأخرين بأننا لانرى سواه . ، وأننا نهمل ماعــداه ؛ ومن ثم فـإنني أبـادر إلى القـول : إن اسـتقامة الفكر ونقـاءه ليس بـديلاً عن التربية ولا الأخلاق ولا أعمـال الخـير ولا الحركة الدعوية ، ولكنه الشـــرط الأســـاس لصـــوابها ورشـــدها ، فمهمة الفكر رسم مخطط الحركة وجعلها اقتصـــــادية ، بحيث تتكافأ نتائجها مع الجهد والوقت المبـذول فيها ، كما أنه يحيّد كل الوسـائل والأسـاليب الـتي ثبت قصـــورها ويكثف الخـــبرات والتجـــارب المكتســـبة في بعض المقولات والمحكات النهائية ، ويساعد على طرح البدائل والخيارات في كل حقل من حقـول العمل ، وهـذا كله لايتـأتى عن غـير طريق الفكر . ويمكننا إلى جانب هذا أن نستجلي مسوغات أخرى للاهتمام بالفكر في المفردات التالية :

1- إن الحضـــارة الغربية ذات منظومـــات متكاملة في المجـــالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولها تصـورها الخـاص في جميع شؤون الحياة ، وهي (الآخر) بالنسبة لنا ، وملاحظاتنا على أنساقها المختلفة ستظل محدودة الأهمية مالم نبلور البديل الأصـلح والأنفع والأكمل في تلك المجالات كافة من منظورنا الخاص لنا [4] ، ولاسيما أنه الأجهر صوتاً والأكثر عتاداً وعـدة ، وإذا كنا نملك قـوة الحق فإنهم يمتلكون حق القوة ، ويطالبون بدفع استحقاقاتها .

وبإمكاننا أن نكون محنة وتحـدياً حقيقيـاً لهم في حالة واحـدة ، هي أن نسـتطيع تقـديم رؤيتنا الكونية بشـكل واضح ، وأن نطـرح بعض الحلول الجذرية المتميزة لبعض الاختناقـات الحضـارية الـتي يعـاني منها بنو البشر اليـــوم ، وهـــذا لايتم إلا من خلال فيض من الخطط والدراســات والنمــاذج المتقنة ؛ وهــذا كله ســبيله الرؤية الفكرية الناضحة والشاملة .

2- من الممكن لكل الأنشـطة الحضـارية أن تمضي في سـبيلها إلى حد معين ؛ فالاقتصــاد في أســرة ، والنشــاط الــزراعي في حقل ، ومسـاعدة ضـعيف في مجتمع ، كل ذلك من الأنشـطة الـتي يتيسر القيام بها دون الحاجة إلى عناء التفكير ، لكن عندما يصل الأمر إلي تنشيط اقتصاد دولة أو التخطيط لمجتمع كبـير أو حل أزمـات حركة أو جماعة في ظروف حاسمة ، فإن التفكـير المركز والمعقد يكـون هو الآلية التي ينبغي استخدامها .

وإني أعتقد أن معانـــاة الأمة من بعض المشـــكلات لمـــدد تصل إلى قــــرون كـــانت بســـبب إهمالها للفكر والنقد والمتابعة والمراجعة باعتبارها مبادئ أساسية في التغيير والإصلاح والارتقاء .

إن من المؤسف حقاً أن بعض الإسـلاميين ينعت الحـديث عن الفكر بالحديث البارد ؛ حتى إذا طرحت مشكلة وطلبت حلاً لها لم تجد إلا الوجوم أو الهروب ! !

3- إن العالم الإسلامي لايعاني من نقص في الإمكانات ولا الوسـائل ، فما هو متوفر لديه إن لم يكن أكثر مما عند كثـيرين لم يكن أقل ، لكن مشـكلته تكمن في أن فاعلية وسـائله ونجاعتها مرتكـزة على الأساليب والطـرق الـتي تسـتخدم تلك الوسـائل ؛ والأسـاليب تظل محـدودة الكفـاءة مـالم تسـتند إلى قاعـدة فكرية صـحيحة ، ترسم خطة واضـحة للعلاج والاسـتطباب من خلال تشـخيص الـداء وتعـيين الأسـلوب الأمثل ومقـدار التـداخل الجـراحي المطلـوب إلى جـانب تحديد أولويات العلاج وتكاليفه وإفرازاته ، وفي هـذا المقـام نجد أن

الأراضي الـتي تكفي لإشـباع قـارة لاتشـبع بلـداً ، وأن وفي الطاقة البشرية الهائلة صارت عبئا بدل أن تكون ميزة تمامـاً كجيش ضـخم لم يلق التـدريب ، ولم يجد السـلاح ، ولا الخطة القتالية الناجعة فهو أكوام من الكتل البشرية المستهدفة للعدو !
إن قليلا من الإمكانــات والوســائل مع كثــير من الفكر والتخطيط والفاعلية التنظيمية والحركية أعـــود على الأمة بـــالخير والنفع من أكداس الأشياء الضائعة والمهملة .
4- عصــرنا هــذا هو عصر الاكتشــاف ، وقد اكتشف الإنســان من الحتميـات والسـنن مـالم يكتشـفه في أي زمن من الأزمنة ، ولكنه إلى جانب ذلك اكتشف من الفرص والخيارات الشـيء الكثـير ، وإن كثـيراً مما كـان يفـرض فرضا صـار اليـوم موضع خيـار ، وإن وجـود حتميات وضغوط وخيارات كثيرة يلزمنا باللجوء إلى التفكـير الفعـال ؛ حتى لانصل إلى طرق مسدودة ، وحتى لا نضـيّع فرصـاً متاحة ، إذ إن كل فرصة بحاجة إلى قرار ، وصاحب ذلك ضعفُ وضمورُ ماكـان يســتخدم في الأصل بـــديلاً عن التفكـــير مثل العـــادات والتقاليد والمذاهب التي توفر في العادة استخدام العقل [5] .
5- الاستقرار النسبي كان سيد الموقف في العصور الماضـية ، وبما أن الأشياء لا تتغير كثيراً فإن التكرار كان البديل الصالح عن التفكير ، كما أن قلة قليلة من الصفوة كانت تملك اتخاذ القرارات ، وكـانت تقوم بالتفكير عن الباقين ، وكان صنع القرارات الشخصية ميســوراً ومحدوداً لكن المجتمع اليوم لاينعم بالاستقرار بسبب معدل التغيـير الذي تغذيه (التكنولوجيا (والطموحات الاجتماعية [6] .
6- حينما تصاب أمة بدمار شديد أو زلـزال مـاحق فإنه يبقى لها بعد انهيـــار بنيانها شـــيئان : مبادئها الســـامية الكامنة في شخصـــيتها الاجتماعية ، وأفكارها وخبراتها التاريخية والحضارية ، وهي تسـتطيع من خلالهما استعادة كل ما فقدته عندما تتوفر إرادة تجاوز المحنة ، فقد دمرت الحرب كل شيء في ألمانيا ، ولم يبق لـديها إلا مخـزون الأفكـار وعزيمة الانتصـار ، فتمكنت من إعـادة بنـاء مصـانعها على ضــوء الشــموع بعد انــدحار الهتلرية [7] وهكــذا فــإن أمة كأمتنا تســتطيع بتوفيق الله أن تنجز الكثــير ، وتســتعيد الكثــير إذا ما استطاعت صياغة أفكارها من جديد ، وتلمس سبل النجاة والفلاح .
وهكذا نستطيع القول بعد كل ما مضى : إن توسيع آفاق الفكر لـدى المســلم ســوف يــؤدي إلى توســيع مجاله الحيــوي ، ويقلل من ضرورات حركته [*] .

(1) المعجم الوسيط ، مادة فكر .
(2) انظر تعريفا آخر في : الأزمة الفكرية المعاصرة : 27 .
(3) كثير من أفكار ابن تيمية وابن خلدون جاء في غير أوانه وفي غير محيطه ، وقد وجد الآن كثيرا مما افتقده ، وأصبح يؤتي أكله أشكالاً وألواناً .
(4) ماتصادمت حضارتان إلا كانت كل منهما محنة للأخرى .
(5) انظر تعليم التفكير : 28 .
(6) السابق : 28 .
(7) مشكلة الثقافة : 61 .
(*) هذا الموضوع للكاتب الكريم هو جزء من كتاب جديد تحت الطبع ، بعنوان : (مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي) ، وهو جزء من السلسلة التي أصدرها الكاتب تحت عنوان : (المسلمون بين التحدي والمواجهة) ، والتي صدر منها : (نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي) ، و (من أجل انطلاقه حضارية شاملة) مجلة البيان .
==================
الاستثمار في الإعلام
كان المفترض أن يقود المسلمون ثورة الاتصالات في العالم حتى يتمكنوا من تبليغ الرسالة ، وحتى يتمكنوا من التواصل والتعاون فيما بينهم ، ولا سيما أنهم موزعون على أرجاء العالم كافة ؛ لكن بما أن ذلك لم يحدث - لأسباب معروفة - فلا أقل من أن نستفيد من الإمكانات الهائلة التي وفرها التقدم التقني على صعيد الاتصالات والبث الفضائي وشبكات المعلومات .
إنني لا أعني ابتداء بالاستثمار استثمار المال فحسب ؛ فالمال ضروري وجوهري ومن دونه لا نستطيع القيام بالكثير من الأعمال ، لكن هناك أمور كثيرة أيضاً لا تحل بالمال ، إنني أعني بالاستثمار في الإعلام إيجاد الاهتمام أولاً بهذا القطاع الحيوي والمهم جداً حيث إن أي مجال أو قطاع لا يرتقي إلا من خلال كثرة المهتمين به ، كما أعني بالاستثمار في الإعلام بذل الجهد والوقت في تفعيل دور الإعلام الإسلامي في النهوض بالأمة وحل مشكلاتها ؛ فبناء مواقع إسلامية على (الإنترنت) يتطلب المال ، ولكنه يتطلب الجهد والتعب أكثر من حاجته إلى المال ، وطبيعة ممارسة الإعلام والدعوة إلى الله - تعالى - على الشبكات المعلوماتية تتسم بالمرونة ، ويمكن أن يسهم في إثرائها الكثير من الشباب

والأشـبال بعد القليل من التـدريب والخـبرة ، إننا بالمـال نسـتطيع إيجاد بنى وهياكل إعلامية لكن بناء الإعلامي اللامع المحـترف يحتـاج إلى وقت وقد يكون عليك أن تصبر عشرين سـنة حـتى تحصل على إعلامي ممتاز ؛ ففهم البيئة الإعلامية واستيعاب الفـرص والتحـديات الموجودة فيها وشق طريق خاص متميز بين شعابها ووهادها يحتـاج إلى الممارسة والمعانـــاة والانخـــراط في لجة العمل الإعلامي ، والزمن عامل مهم في بلوغ كل ذلك .
اليهود يتمتعون بالإدراك العميق لأحوال عصرنا ، وبـالخبرة الواسـعة بمكـامن القـوة فيه ، وقد كـانوا يقولـون : من يملك الـذهب يملك العالم ، وهم يقولون اليوم : من يملك الإعلام يملك العالم .
وهذا القول عميق الدلالة ؛ فالإعلام اليـوم من خلال الإتقـان الفـائق للبرامج التي يقـدمها ، ومن خلال ما يتمتع به من قـدرة كبـيرة على التأثير بات قـادراً فعلاً على أن يصـنع شـيئاً من لا شـيء ؛ إنه قـادر على أن يوجد بيئة كاملة من الأفكار والمشاعر والقيم والاهتمامـات والاتجاهــات لأمـــور تافهة أو هامشـــية مثل الرياضة والفن والطبخ والأزيـــاء .. والملاحظ - مثلاً - أن بعض منتجـــات (هوليـــود) من الأفلام والأعمـال الفنية بـات يركز على إظهـار (البوذية) بوصـفها الديانة الأعمق روحانية والأكثر إنسـانية ، وقد اقتنع كثـير من النـاس في الغـرب على الأقل بـذلك ، والسـبب هو أن اليابـانيين اشـتروا أسهماً في (هوليـود) بعشـرات المليـارات من الـدولارات ، وبـاتوا يتحكمـون في إنتاجها ، وقد قـدموا بـذلك خدمة لـديانتهم كـان من الصعب أن تحظى بها لولا عمليات الشراء تلك !
والإعلام في المقابل قـــادر من خلال تجاهله وتعاميه أن يســـدل الستار على أكثر القضايا والأزمات والنكبـات حيوية وشـناعة ؛ ففي عالمٍ مهموم ومشغول ومشتت يصبح إرباك الوعي وصـرف الانتبـاه أمـراً في غاية السـهولة ، وأكـبر دليل على ذلك ما جـرى ويجـري ساعة كتابة هذا المقال في فلسطين السليبة ؛ حيث بلغت المأسـاة حداً جعل وزير خارجية العدو الإسرائيلي يقول : ما جـرى في مخيم جـنين مجـزرة ، وجعل بعض مـوظفي الصـليب الأحمر يقولـون إن وضع مخيم جـنين يشـبه وضع بـرلين عـام 1945م عقب الحـرب العالمية الثانية !
إن أمة الإسلام غنية بالأحزان وبالصور والمشاهد المؤلمة والمفجعة ؛ وعصـرنا - كما يقولـون - هو عصر الصـورة ، لكن أين الإعلاميـون

المسلمون الذين ينقلـون صـور مآسـينا للعـالم الـذي ضـلله الإعلام الصهيوني والإعلام المتحالف معه ؟ !
بالإضـافة إلى ما ذكر نحن بحاجة إلى تكـثيف الاسـتثمار في الإعلام لسببين جوهريين :
الأول هو : تأدية أمانة التبليغ وإيصال رسالة الإسلام إلى الناس كافة ، والحقيقة أن البث الفضــائي المتــوفر الآن إلى جــانب شــبكات المعلومات قد وفرا وسـائل للتبليغ كـان أسـلافنا عـاجزين حـتى عن الحلم بها ؛ فقد أمكن الآن مخاطبة مئات الملايين من البشر في آن واحد ، وإيصــال ما نريد إليهم ، على حين كـان النـاس في الماضي يغبطون العالم إذا جلس في حلقته ألف من طلاب العلم .
إن هذه السهولة في التواصل العالمي جاءت في الوقت المناسب ؛ حيث إن معظم سكان الأرض قد فقدوا اليـوم الإحسـاس بالأهـداف الكـبرى والإحسـاس بالغاية من الوجـود ، والمسـلمون وحـدهم هم الذين يملكون الرؤية والمنهج اللذين يحتاج إليهما العالم .
الأمر الثاني هو : مقاومة شرور الإعلام الماجن الذي دخل كثيراً من الــبيوت ، وباشر عملية تخــريب واســعة النطــاق من خلال إفســاد الأعـــراف والأذواق والمفـــاهيم ، إنه فعلاً يعيد صـــياغة العقـــول والمشاعر من جديد على نحو بالغ السوء وليس هناك من حل اليوم سوى إيجاد إعلام إسلامي قادر على المنافسة والاستيلاء على جــزء من الجمـاهير ، إن الإعلام يشـكل شـيئاً جوهريـاً في عصـرنا ، وإن التقـــدم على صـــعيده يعد من الشـــروط المهمة لفهم روح العصر والتأثير فيه ؛ وقد قال أحد المفكرين :
(إذا لم يكن لك روح عصر كانت لك كل شروره) .
الإعلام الإسـلامي يواجه تحـديات لا يواجهها أي إعلام آخر ؛ حيث إن عليه أن يجمع بين الجاذبية والالــتزام ؛ ولــذا فإنه لا يســتطيع أن يتغــذى على شــهوات النــاس ورغبــاتهم ، كما لا يســتطيع مخادعة النـاس واسـتغلالهم - كما يفعل الإعلام الآخر - ولكن مع هـذا فـإن ترسـيخ وجـوده في السـاحات العالمية ليس بـالأمر المسـتحيل إذا توفر لدنيا ما يكفي من الوعي والإخلاص والعزيمة .
إن أغنياء المسـلمين مطـالبون ببـذل الأمـوال ووقف العقـارات من أجل إنشاء المؤسسات الإعلامية ، وإن الـدعاة والمثقفين مطـالبون بـأن يسـعوا في بنـاء الأطر الإعلامية وتأسـيس مؤسسـات الإنتـاج الإعلامي وتوجيه الطاقات الشـابة من أجل العمل في هـذا المجـال المهم ، أما جمهور المسـلمين فـإن دعمهم للإعلام الإسـلامي يتمثل

في شراء منتجاته وقراءتها وفي الإعلان في وسـائله ، وفي التفاعل مع الرسالة الإعلامية التي يقدمها لهم .
والله الموفق .

=================

لمن هذه الخيمة ؟

في عقول كثير من النـاس أفكـار لأعمـال خيرية وإصـلاحية كثـيرة ، لكن الـذي يـرى النـور منها قليل جـداً ، والأقل من القليل هو ذاك الذي يحقق نجاحاً ملحوظاً .
كلما نشبت أزمة اكتشف كثير من المفكرين والدعاة أن لـدى الأمة قصوراً أو انحباساً أو مشـكلة في جـانب من جـوانب حياتها ، ويبـدأ كل واحد منهم بالتعامل مع ذلك على طريقته الخاصة : واحد يلقي محاضرة وثان يصدر فتوى ، وثالث يؤلف كتابـاً ، ورابع يشـكل لجنة وهكـذا ... أصـحاب الفتـاوى والكتب والخطب يشـعرون أن مهمتهم انتهت ، وفعلوا ما عليهم أن يفعلوه .
ويبقى أولئك الذين يشكلون اللجان ، والمجموعات للبحث والتنظـير ورسم الخطط .. إنهم كثـيراً ما يشـعرون أن مهمتهم كبـيرة ، وأن الرد على تلك الأزمة أو معالجة ذلك القصـور قد يتطلب ما هو أكـثر من فتـوى أو خطبة ، ويمضي القـوم في اجتماعـاتهم الأسـبوعية أو الشـهرية أو الفصـلية ، ويسـتفرغون جهـدهم وطـاقتهم في إجـراء الدراسات المطلوبة ، وكلما فرغـوا من دراسة جزئية ، نسل البحث جزئية أخرى ، وفي كثير من الأحيـان يُنسى الهـدف الأسـاس الـذي اجتمعوا من أجله ، وتجدّ لديهم أهداف صـغيرة يبحثـون عن وسـائل وأطر لبلوغها وهكذا .. ومع مرور الأيام تأتي الصوارف والشـواغل ، وتفتر العزائم ، ويسود نوع من الشعور بانسداد الآفات وبعدم وجود الأهلية لمعالجة ما تصـدوا لمعالجته . وربما جـاءت أزمة جديـدة ، أنستهم القديمة ، ودفعتهم للانشغال بها !
كثير من أولئك المجتمعين يبحثـون في مسـائل خـارج اختصاصـهم ؛ ولذلك فإنهم يبذلون جهداً هـائلاً ووقتـاً طـويلاً حـتى يسـبروا أغـوار الأزمة أو القضـية الـتي تصـدوا لها ، وحـتى يوجـدوا قاعـدة للفهم المشترك بينهم ، وكثيرون منهم يشعرون بأنهم يحملـون الكثـير من الأعباء ، وأنه ليس لديهم أي طاقة لتحمل أعباء جديدة ؛ ولذا فـإنهم يفيضـون ويطوّلـون في المناقشـات النظرية ، وفي نفس كل واحد منهم تـوجّس خفي من أن ينتهي البحث إلى تكليفه بشـيء عملي ؛ ولذا فإن تلك المناقشات تندفع بالغريزة بعيـداً عن ميـادين العمل ،

وإذا أفْضَت إلى شيء عملي ؛ فينبغي أن يقوم به أشخاص من غــير المجتمعين ، فــالمجتمعون خُلقــوا للتنظــير ، وعلى أشــخاص أقل ســوية أن يتولــوا التنفيذ ! ثم لا يجــدون أولئك المنفــذين ، وتنتهي العاصفة بمجموعة من الأمنيات والمقترحات التي ما تفتأ أن تسقط بالتقادم .

قد يكون من المفيد أن نوضح أن أهم ما يُطلب في هذه المبــادرات الخيّــرة ، هو أن يعتقد في كل مجموعة أو لجنة شــخص واحد على الأقل أن الوصول إلى شيء عملي يُعد أولوية مطلقة بالنسبة إليه ، وكأنه يقول : أنا صاحب هذه الخيمة والمسؤول عنها وحاميها ، ومن أراد التعاون معي فأنا موجود ، وإن لم أجد فسأتابع العمل وحــدي . إنه بــذلك يجعل من نفسه محــوراً يجــذب إليه كل أولئك الــذين يشاركونه هموم ما تصدى إليه . أولوية واحدة تُخدم بشكل جيد خير من أولويــات كثــيرة لا يجد صــاحبها أي طاقة كافية لخدمة أي منها على الوجه الصحيح .

والله الموفق .

==============

قصور العقل

كان من أشد ما يهلك بني البشر على مدار التاريخ احتقارهم لأشياء كبيرة ، وتعظيمهم لأمور صغيرة ، وقد كان العقل البشري من جملة الأشياء الــتي أخطــأت الحضــارة الحديثة في تعاملها معها ؛ حيث إن الغــرب بعد أن نفض يديه من إصــلاح النصــرانية ومن جعلها مصــدراً يعتــدُّ به لتغطية عــالم الغيب عمــدت إلى (العقل) تســتنجد به في توفير مظلة روحية ومادية لكل شؤون البشر واحتياجــاتهم . واليــوم ينسج على منوال الغرب في هــذا العلمــانيون الجــدد الــذين يشــنون حملات منظمة ضد التــدين والمتــدينين ، ويحــاولون تفــتيت مرجعية الوحي ، واختزالها بطرق عديدة .

وأود هنا أن أوضح في مسألة « قصور العقل » النقاط الآتية :

1 - العقل البشــري عقل محــدود ، وهو يــوفر بيئة لنمو الــدلالات والمفاهيم ، كما أنه قــادر على اســتخدام ما تنقله إليه الحــواس في محاولته الوصول إلى بعض الأشياء المجهولة ؛ لكن العقل غير قــادر على الخوض في مســائل لا تتــوفر له عنها معلومــات جيــدة ؛ فهو لا يستطيع تحديد الغاية من الخلق : أي لمــاذا نحن هنا كما لا يســتطيع سن تشــريعات تأخذ بعين الاعتبــار مصــالح جميع النــاس وأوضــاعهم دون أن يقع حيف على بعض منهم . أضف إلى هــذا أنه لا يســتطيع

أن يخبرنا عن الأمـور المهمة في حياتنا والأمـور التافهة ؛ حيث ليس فيه أبواب ندخل منها إلى مجالات كل منها .
والعقل البشـري بعد هـذا وذاك بنية يسـهل خـداعها ؛ فحين نـزوده بمعلومات خاطئة فإنه يقع في الخطأ بسـهولة ؛ إنه عقل قـادر على البحث في الأدوات والأشـكال والأسـاليب وكل الأمـور المحـدودة ؛ لكنه غير قادر على البحث في مصيره الذاتي .
وهو على مقدار ما يبدي من البراعة في التعامل مع (الكم) يبــدي القصـــور في التعامل مع (الكيف) أو ما يســـمى (الصـــفات) .
وتجاهل كل هذه الأمور المحددة لقدرة العقل على العمل يؤدي إلى حدوث أخطاء فاحشة تتعلق بمصير الإنسان على هذه الأرض .
2 - العقل البشــري ليس بنية مكتملة متمــيزة منحــازة معزولة عن الســياقات المعرفية أو عن المشــكلات والقضــايا الــتي يعالجها أو يشـــتغل عليها . وإنما هو إمكانـــات ومفـــاهيم وبـــدهيات ملتبسة بالمعطيـات المعرفية ومتفاعلة معها ، كما أنها ملتبسة بالمشـكلات الوجودية المختلفة ، ومتفاعلة معها أيضاً وهذا يعني أننا ونحن نحاور نـــؤثر ونتـــأثر ، كما أننا حين نعلِّم نتعلم ، كما أن عقولنا تتـــأثر بالمعلومات التي تعالجها والمشكلات الـتي تسـعى إلى حلها . وهـذا كثيراً ما يـؤدي إلى اضـطراب العقل وتراجعه عن كثـير من مقولاته وطروحاته ؛ ولهذا فإنه ليس هناك أي ضمان لاطِّراد تقـدم أي مفكر في خط واحد مهما كان ألمعياً ومتمكناً من الأفكار والمفاهيم الـتي يتبناها ، والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصى ، هذا (هوسـرل) بعد أن كتب ألوف الصـفحات في اسـتجلاء علم (الظاهريـات) محـاولاً الوصول إلى البُنى الموضـوعية للماهيـات المحضة نـراه يتحـول من رجل يبشر بمنهج جديد إلى واعظ يحـذر أوروبا من المخـاطر الـتي تنتظرها إذا هي اســـتمرت في منهجيتها العلمية والفكرية ؛ بل إنه يهــاجم (العقل) ويتســاءل في محاضــرة له عــام 1935م : هل استقال العقل وفقد دوره في الحياة ، أم أنه خلافاً لذلك كشف عن وجهه الحقيقي الانتهازي الماكر والنفعي ؟
هذا يعني أن تفويض كل شؤون الحياة للعقل وسـدنته يشـتمل على مخــاطرة كـبرى ، وليس هنـاك أي حل ســوى العــودة بالعقل إلى وظيفته الأصــلية في الحركة ضــمن أطر ومســلَّمات كــبرى يؤمنها الـوحي بما يصـوغه من أصـول ومبـادئ ، وبما يرسـمه من خطـوط عريضة لترشيد حركة الإنسان وعلاقاته .

3 - العقل البشري أبدع حلولاً كثيرة لمشكلات الناس ، وأسـهم في توفـير الراحة لهم ، وفي تخليصـهم من الكثـير من أشـكال العنـاء ، وهذا موضع تقـدير منا جميعـاً ، ولكن علينا أن نقـول : إن إبـداعات العقل أوجـدت مشـكلات كثـيرة مثل تلـوث البيئة ومخـاطر الطاقة النووية وسيطرة الآلة على حيـاة الإنسـان وفشو أمـراض الحضـارة .... وعقولنا غير قادرة على إبداع الحلول للمشكلات التي أوجدتها ؛ إنها تكشف دائمــاً عن مســاحات فاصــلة بين وجــود المشــكلات والقــدرة على حلها ؛ وما ذلك إلا لأن منتجــات العقــول تــدخل في تعقيدات وملابسات يعجز العقل عن فك رموزها والتحكم بها . وماذا يمكن للعقل أن يفعل لشــخص أدمن الجلــوس إلى (التلفــاز) واستسلم لرغباته فأضاع الكثير من واجباته ؟

وهذا يعني أن الاعتماد على العقل في تصحيح مسار البشرية بعيــداً عن القيم والمبادئ التي يوفرها الوحي مجافٍ للصواب وباعث على خيبة الأمل والخذلان .

4 - أكثر النـاس اسـتخداماً لعقـولهم واسـتثماراً لها هم الفلاسـفة ؛ حيث إن صياغة المفاهيم بواسطة العقل هي شغلهم الشاغل ؛ ومع ذلك فإن كل المشتغلين بالفلسفة يعـترفون أنه ليس من شـأنها أن تمنحنا اليقين ، أو تحدد لنا موطن الـداء في قضـية من القضـايا ، أو تصف لنا الدواء ، أو تقدم لنا مفاتيح حلول المشكلة من المشــكلات ، إنها نشــاط فكــري لا يتوقف عن إثــارة الأسـئلة ، وإعــادة صــوغ المشــكلات ؛ إنها أشــبه بمسلسل ليس له نهاية ، وهي دائمــاً في حركة مسـتمرة من إشـكال إلى إشـكال أعمق وأكـثر تعقيــداً من سابقه . ولست أقصد هنا إلى الإزراء بالفلسفة ؛ وإنما أريد أن أقول : إن النــاس بحاجة إلى اليقين وإلى أطــر مهما تكن واسـعة إلا أنها في النهاية موجــودة وواضــحة . وتلك الأطر تضع حــداً لكثــير من الأسئلة التي يطرحها العقل ، كما ترشد إلى المسار الـذي يمكن أن يسلكه في الإجابة على الأسئلة المطروحة . وهـذه الأطر لن يجـدها الناس إلا في الـدين الـذي جعله الله جل وعلا مسـتوعباً لكل الخـير الذي جاءت به الأديان السابقة .

5 - العقل البشــري عــاجز عن التنبؤ الــدقيق بما يمكن أن يقع في المستقبل ؛ وقد حاول بعض مفكري أوروبا أن يستعينوا على معرفة ما يمكن أن يقع في المستقبل ببلـورة رؤية شـاملة للكـون : بنيته ، وعناصره ، ونواميسه ، على قاعدة :

إذا أردت أن تعرف ما سيحدث في المستقبل فـانظر إلى ما حـدث في الماضي .
والحقيقة أنه لا يعرف الغيب إلا الله تعالى ، وأن عقولنا تستطيع أن تتوقع حدوث أمور صغيرة في المستقبل القريب . أما توقع الأحداث الكبـيرة في أزمنة متباعـدة فهـذا ما يكـون غالبـاً غـير ذي جـدوى ، ويظل في دائــرة الظن أو الــوهم ؛ وما ذلك إلا لأننا عــاجزون عن معرفة كل التغييرات التي ستقع في المستقبل ، والـتي سـتؤثر في نوعية الأحداث والتحولات التي يمكن أن تقع .
أما قراءة التـاريخ لاسـتخراج النـواميس والسـنن الكونية منه ، فـإن عقولنا تكشف عن قصـور مـدهش في هـذا الجـانب ؛ والسـبب في ذلك أن معرفتنا بالأسـباب الحقيقية الــتي أدت إلى ولادة أحـــداث التــاريخ الكــبرى تظل دائمـــاً معرفة ناقصة . وحين نحــاول حصر أسـباب الأحـداث الكـبرى ، ونوفق في ذلك فـإن المشـكلة الـتي تنتظرنا تكمن في تحديد وزن كل سبب وحجم تأثيره في وقـوع تلك الحـوادث ، لكن حين نتأمل سـنن الله تعـالى في الخلق كما وردت في نصـوص الكتـاب والسـنة ، فـإن دائـرة خطئنا تضـيق ، ودرجة اليقين لدينا تكون أكبر .
6 - لا يملك العقل البشـري أي عتـاد حقيقي يمنعه من التـورط في صــناعة الخرافة وقبولها . ولست أبــالغ إذا قلت : إن البنية العميقة لعقول معظم الناس هي بنية خرافية ؛ حتى كأن الخرافة هي الأصل لديهم ؛ إذ بمجرد حـدوث ضـعف في التثقيف الجيد أو وقـوع النـاس في حــالات اســتثنائية من الشـــدة والكـــرب تطفو تلك البنية على السطح .
لو تســاءلنا : من أين تــأتي قابلية عقولنا للســقوط في مســتنقع الخرافة ؟ لوجدنا أننا تجاه حالة لا تخلو من الغموض ؛ لكن يبـدو لي أن مصدر ذلك يعود إلى أمرين جوهريين :
الأول : هو جهلنا بمعظم ما يقع في الوجود من أحـداث ؛ فـإذا قلنا : إنه يقع على الكـرة الأرضـية في الدقيقة مئة مليـون حـدث ، فـإن الواحد منا قد لا يشاهد منها سـوى خمسة أو عشـرة ؛ والبـاقي يقع بعيـداً عن النظر ، أضف إلى هـذا أن خبرتنا بما حـدث في الماضي أيضـاً محـدودة جـداً . ولـدى النـاس إحسـاس بـأن هنـاك عـوالم لا تغطيها حواسـنا ؛ ونحن المسـلمين مثلاً نعتقد بوجـود عـالمي الجن والملائكة ؛ فـإذا ما حُـدِّثنا عن حصـول بعض الأمـور الخارقة أو غـير المألوفة ، فإن عقولنا كثيراً ما تتقبلها على أنها تنتمي إلى عالم من

العوالم التي لا يراها الإنسان ، أو تتصل بالأحداث التي لم يشـاهدها ، وتكون تلك الأمور من الخيال أو من الكذب المحض .
الثاني : هو أن عقولنا تتقبل الأخبار الـتي نسـمعها ما دامت تقع في دائرة المعقول ، وترفضها إذا خرجت عن تلك الدائرة ؛ فـإذا ما قيل لنا : إن الناس في البلد الفلاني رأوا شخصـاً يحمل عشـرة قنـاطير على ظهره ، فإننا نـرفض ذلك ، ونعـده من قبيل الخرافة ؛ لأنه يقع خـارج دائـرة المعقـول بالنسـبة إلينا ؛ لكن المشـكلة هنا أن الـذي يرسم دوائر المعقول وغـير المعقـول في غـالب الأمر ليس العقل ، وإنما الثقافة والخبرة ؛ فإذا ما قال لك شخص : أعطـني ألف دينـار لأتاجر لك به ، وستربح مائة ألف في آخر السنة فـإن القناعة بـذلك وعـدم القناعة به لا يقـودان إلى العقل وإنما إلى الخـبرة والمعرفة بالتجارة وأحوال السوق في تلك السنة ؛ فصاحب الخبرة ربما يقول لك : لا تصدق ذلك ؛ فأمهر التجار لا يسـتطيع اليـوم مضـاعفة رأس ماله مرتين أو ثلاثاً في العام فضلاً عن أن يضـاعفه مئة مـرة ؛ لكن يأتي شخص آخر عديم الخبرة ، أو له خبرة مختلفة بأحوال السوق ، فيقـول : كلام ذلك الرجل معقـول ، وقد حـدث مثل ذلك في العـام الفلاني مع الشـركة الفلانية ، ولا مـانع من أن يحـدث الآن ، وهكـذا فمضاعفة رأس المـال مئة مـرة في السـنة تعد من قبيل المعقـول في خبرة شخص معين ، وتعد من قبيل الخرافة والاحتيال في خبرة شخص آخر ؛ ولهـذا فطالما انقسـمنا تجـاه بعض الأخبـار والأحـداث إلى فريقين : فريق يقول :
هذا معقول ، وفريق يقول : هذا غير معقول .
وهكذا فقد ظُلم العقل مرتين مرة من قِبَل المشعوذين والمخـرِّفين الذين ألغـوا دور العقل ، ومـرة من قِبَل الـذين حرمـوا نعمة الهداية بـأنوار الـوحي ، فـألهوا العقل ، وطلبـوا منه أمـوراً ليس من شـأنه الاشتغال بها .
والله ولي التوفيق .

=============

ثقافة التساؤل

المتأمل في مـداولاتنا الفكرية في وسـائل الإعلام ، وفي مجـالس السمر ، وفي كل مكـان يجد أن ما نـردده اليـوم من شـكوى حـول سوء أوضاعنا ، وما نطرحه من حلول هو عين ما ردده أسـلافنا قبل أكـثر من قـرن من الآن . وإذا شـئت أن تسـتوثق من ذلك ، فـارجع إلى مداولات المؤتمر الإسلامي الـوهمي الـذي صـوره لنا الكواكـبي

في كتابه (أم القـــرى) . ونحن إلى الآن غـــارقون في طــــرح المشروعات الحضارية الـتي نعتقد أنها ستخرج الأمة من مشـكلاتها المتأسنة . وأملي أن نكف عن ذلك مؤقتاً ؛ فقد حصل لـدى النـاس تشـبُّع من الحلـول والمقترحـات النهضـوية ، وقد وصـلوا إلى حافة اليأس والإحباط !

دعونا الآن نخطو في اتجاه طرح الأسئلة حول الحلول التي قدمت :

لماذا نملك قدراً هائلاً من المشروعات والمقترحـات والحلـول لكل أدوائنا ، ونملك مع ذلك أضعف نتائج على الصعيد العملي ؟ !

قد يكـون من المفيد أن نعقد لكل مشـكلة كـبرى جلسـات لعصف الأفكار ، لا تُقدَّم فيها الحلول ، ولكن تثار فيها التساؤلات ، ونتـداول فيها التعليلات بغية فهم أعمق لطبيعة المشـكلات والأزمـات الـتي تعـاني منها الأمة . لا ريب أن طـرح الأسـئلة فن كبـير ، وما يحتاجه من ثـاقب النظر وواسع الخـبرة لا يقل بحـال عما يحتاجه تقـديم الأجوبة والحلـول . وليس من بـاب التشـاؤم القـول : إننا لا نملك الأدوات الفكرية والمعرفية الـتي تمكننا من طـرح أسـئلة عميقة ومعقدة . ونحن إذ ندعو إلى تكـثيف طـرح الأسـئلة نأمل أن نـرتقي في هذا المجال الحي ، ونمتلك عتاده المطلوب . إننا من وراء طرح مزيد من الأسئلة لا نطمع في قطع دابر الخلاف حـول تحديد جـوهر مشـكلاتنا أو تحديد أكثرها خطـورة ؛ فـذاك أمر قد يكـون عسـير المنال في المدى المنظـور ؛ لكن الـذي نطمح إليه هو إيجـاد أسس متينة للخلاف وبنـــاء معقوليـــات وأطر تتحـــرك داخلها أقـــوال المتحـاورين والمنظـرين والمشخصـين ؛ مما يضـيق بـدوره دائـرة الخلاف ، ويقرب بين الأقوال المتباينة .

في جلسات عصف الأفكار يطرح كل واحد من المشـاركين ما شـاء من أسـئلة وتعليلات دون أن ينقـده أو يـرد عليه أحد . ويقـوم أحد المشـــاركين بتلخيص كل ما قيل وتوزيعه على الحاضــــرين ، وفي جلسة تالية يتم القيام بمناقشة حصـيلة الجلسة السـابقة وغربلة ما قيل فيها من أجل تحديد الأسـئلة والتعليلات الأكـثر محورية ، وتلك التي لاقت استحسان معظم المشاركين ، واستبعاد غير الجـوهري . وإذا تم التحضـير الجيد للموضـوعات الـتي سـيتم التسـاؤل حولها ؛ فإن ما يمكن أن نحصل عليه قد يكون أكبر بكثير مما نظن .

لماذا لا نتساءل ؟

طالما حـدثت نفسي عن الأسـباب الـتي تجعل شـهيتنا للتسـاؤل ضعيفة ؛ مما أدى إلى تـراكم المشـكلات وضـعف خبرتنا العامة في

التحليل والوقوف على العلل الخفية التي دفعت بالأمة إلى الوضعية الـتي تعـاني منها الآن ، وقد بـدا لي أن ذلك يعـود إلى عـدد من الأسباب ، أذكر منها :
1 - سيطرة الموروثات والتقاليد الشعبية على مداخل التفكـير لـدى معظم الناس ؛ وتلك الموروثات تنظر إلى الإكثار من طرح الأسـئلة على أنه دليل الجهل وقلة الخـبرة . كما أن المبـادرة إلى الإجابة على أي سـؤال يُطـرح تعطي انطباعـاً معاكسـاً ؛ ولـذا فـإن من الملاحظ أنه حين يطـرح سـؤال يتعلق بالصـحة مثلاً وفي المجلس طبيب فإن أكثر من شخص يجيب قبل أن يتمكن الطـبيب من إبـداء رأيه !
وهذه الوضعية ذاتها تشجع الناس أيضاً على أن يجيبوا أنفسهم على التساؤلات التي تثور في أذهانهم بعيـداً عما في الكتب ، وعما لـدى أهل العلم ، وهذا يؤدي بهم إلى أن يشعروا بنوع من الامتلاء الكاذب ، ويكونون بذلك كمن يتجشأ من غير شبع !
2 - طريقة التعليم السائدة في المدارس تكـرس ما تشـيعه الثقافة الشـعبية ؛ حيث إن أسـلوبنا في تلقين المعلومـات يجعل المعلم يظهر في موقف الإنسان الذي يعرف كل شيء ، أو موقف الفارس الـذي يجـول ويصـول في الحلبة وحيـداً دون أن يحسب حسـاب أي شيء . وتتجلى المعلومات التي يسوقها في شكل معطيـات قطعية ، تجاوزت مرحلة الجدل والنقاش . وبعض المعلمين يزيد الطين بلة ، فيمنع الطلاب من إلقـاء أي سـؤال ؛ لأن ذلك قد يشـير إلى أنه لا يشرح بطريقة وافية ، أو لأنه قد يوقعه في الحرج مما يدفع الطلاب إلى الصمت المطبق !
3 - في المجتمعـات الإسـلامية جمـاهير غفـيرة يعشـقون الغـرائب ويروجون لها لأسباب مختلفة منها إمتـاع السـامعين ، وإظهـار العلم بما يجهله غيرهم ، والتسويق لشخص أو جماعة أو فكـرة أو طريقة .... والارتـزاق من وراء الإثـارة الـتي تحـدثها القصص والحكايـات العجيبة ! من طبيعة الغـرائب أنها لا تعـرف الوقـوف عند أي حد ؛ ولذا فإنها تتطور في كثير من الأحيان لتأخذ شكل الخرافة ، ولتبـني من ثم عقـولاً خرافية . من مخـاطر الغـرائب والخرافـات أنها تمحو في أذهـان النـاس الفـروق بين الطـبيعي وغـير الطـبيعي ، والجـائز والممنـوع ، والقـريب والبعيد ، والممكن والمسـتحيل ... ومن خلال زوال الفروق بين هذه الثنائيات تتهيأ أذهان الناس لقبـول أي شـيء والاستسلام للوضعية الراهنة بوصفها شيئاً لا بديل عنه .

4 - اليأس والإحباط بسـبب سـوء الأحـوال وتـدهور مكانة الأمة بين الأمم الأخــرى ؛ مما يــؤدي إلى الإحجــام عن التســاؤل حيث يفقد المحيط الحيوية الذهنية ، كما يفقد روح الانفتـــاح والتفاعل الـــتي كثيراً ما تتمظهر في التسـاؤل ، فتـؤول الأمـور إلى السـكون التـام وانتظار المصير المحتوم .
5 - جفول الوعي الإسلامي في وقت مبكر من تاريخ هـذه الأمة من (الفلسـفة) بسـبب تجـاوز بعض فلاسـفة المسـلمين للعديد من الأصـول والثـوابت الشـرعية ، وقد أدى ذلك إلى ضـعف صـناعة المفـاهيم لـدينا ، وإصـابتنا بقصـور مريع في عـدد كبـير منها . وحين يتضــاءل مفهــوم ما عن المســتوى الــذي ينبغي أن يبلغه ، ينحط مســتوى العمل ورد الفعل ؛ مما يجعل الانحــدار نحو القــاع أمــراً مقبولاً أو غير مستنكر ، ومن ثم فلا يثار حوله أي تسـاؤل . إذا أردنا لشـــهية التســـاؤل لـــدينا أن تنفتح من جديد ، فلا بد من معالجة الأسـباب الـتي أدت وما زالت تـؤدي إلى اضـمحلالها . والله الهـادي إلى سواء السبيل .

===============

إلى متى

لست أدري مــــتى سنبصر طريقنا إلى التخلص من أدوائنا القديمة التي حولتنا من أمة تقود الأمم إلى أمة تستجدي الشعوب في لقمة عيشــها وفي أمنها وفي تنظيم شــؤونها ؟ ولعل من أدوائنا القديمة الاستسلام للّحظة الراهنة ؛ فنحن نستمتع ونهجع ونأكل ونلعب كلما أتيح لنا ذلك غـير آبهين بما يـأتي به الغد ولا مكـترثين بما يتطلبه ما بعد الغد !
إن القـرآن الكـريم حين أمرنا بإعـداد العـدَّة كـان يسـتهدف إخـراج المسلم من ضغوطات الساعة الحاضرة ، لتنفتح له آفاق المستقبل . والتخطيط في حقيقة الأمر يعـني الحصـول على شـيء من هـذا ؛ حيث إنه يسـاعدنا على توظيف إمكاناتنا الحاضـرة في مشـروعات تستهدف تحسين أوضاعنا في المسـتقبل . وهـذا يسـتوجب ألا نهـدأ حين يتـاح لنا الهـدوء ، ولا نغفل في أيـام الرخـاء . وهـذا ما تفعله الدول العظمى والأفراد المتفوقون .
قد أثبتت كل الأحداث التي وقعت في العقدين الماضـيين أن أعـداء هذه الأمة ومنافسيها يعتمـدون في الكيد لها واسـتغلالها على عقـدة النسيان لديها ، وعلى كون تحركاتها لا تنبثق من رؤيتها للمسـتقبل ، وإنما من مواجهة مشـكلاتها الآنية . ولـذا فإننا أصـبحنا ألعوبة في

أيدي الآخـرين ؛ إذ ما عليهم حـتى يُنسـونا ما نحن منهمكـون فيه إلا أن يخـــترعوا لنا مشـــكلة جديـــدة فننسى القديمة ، وننطلق نحو معالجة الجديدة بنفس الحماسة التي كنا نعالج بها المشكلة القديمة ، وبذلك ننسى الذين ورَّطونا في المشكلة القديمة والذين ورّطناهم أيضاً !

إن كثـــيراً من مشـــكلاتنا الفردية والجماعية ناشئ من قصـــور في المفاهيم لدينا ؛ فنحن كثيراً ما نظن أن توفير أكـبر عـدد ممكن من الأفكار والـرؤى والطروحـات يكفي للإصـلاح والتقـدم . ومع أن مثل هــذا شــرط لا يســتهان به ، لكنه ليس الشــرط الوحيد ؛ فنحن إذا عمقنا النظر في تجاربنا ، وفي تجـارب الأمم من حولنا ، وجـدنا أن أكثر ما يرتقي بالأمم أمران :

النماذج . والمؤسسات .

فعقولنا تميل إلى عدم تصديق ما يطـرح من أفكـار نهضـوية وعـدم الاهتمـام به والتفاعل معه ما لم نـره مجسَّـداً في نمـوذج بشـري ، فينتقل ما كان يُنظر إليه على أنه مثالي جـداً أو صـعب التحقيق من حيز غير العملي إلى حيز الممكن الذي يقع ضـمن المكنة والطاقة ، ولعل هـــذه هي الحكمة من وراء عصـــمة الأنبيـــاء عليهم الصـــلاة والســـلام وتجســـيدهم لما يـــدعون إليه في ســـلوكهم . وهكـــذا المسلمون اليـوم يحبـون أن يـروا نمـاذج راقية تتحـرك على الأرض في كل اتجاه من اتجاهات الحياة : العلم والخُلُق والإدارة والسياسة والإنتـاج والعلاقـات الاجتماعية .. وعلى مقـدار ما يتـوفر من نمـاذج راقية ينـدفع النـاس في طـرق الصـلاح والإصـلاح ، وإن لم يكونـوا مفكرين أو مثقفين أو فقهاء ..

أما المؤسسات فإنها تشكل أطراً لتخـريج النمـاذج ، كما أنها تنسف الجهود المبعثرة ، وتتيح لكثـير من المشـروعات أن يسـتمر فـترات طويلة . وإن في شـباب الأمة الكثـير والكثـير من الرغبة في الخـير والعمل ، ولكنهم لا يجدون المؤسسات التي ترسم الأهداف ، وتمهد الطريق ، وتوفر لهم التدريب ، وتعينهم على أنفسهم .

إذا أردنا لهذه الأمة أن تنهض فلنركز على إيجاد أكبر عدد ممكن من النماذج الرفيعة والمتفوقة ، وأكبر عدد ممكن من المؤسسـات ذات الاهتمامــات الجزئية والمتخصصة ؛ فبــذلك وحــده نتعلم العمل في أيام الرخاء لأيام الشـدة ، وبـذلك تتحـول العواطف النبيلة من كونها فورة مؤقتة إلى وقود لإنجاز الأعمال الجليلة . والله حسبنا .

===============

أفق

إن كلمة (اقرأ) أول كلمة نزلت على نبينا صلى الله عليه وسلم ، وينبغي أن نفقه الدلالة العميقة لذلك في صورة اكتشاف لأهمية العلم والمعرفة في وجودنا المعنوي والمادي ، فنحن بحاجة إلى العلم ليس من أجل الانتفاع بما سُخِّر لنا أو الحصول على فرصة عمل فحسب ؛ وإنما نحتاجه قبل ذلك في فهم أنفسنا ، وفهم طبيعة علاقتنا بخالقنا جل وعلا ، إلى جانب فهم العصر الذي نعيش فيه والتحديات التي تواجهنا .

إن أذهاننا لا تدرك الأشياء على نحو مباشر ، وإنما عبر وسيط معرفي مكوَّن من مبادئ عقلية وعملية ومعارف وخبرات حياتية . وعلى مقدار ما نقرأ ونتعلم ونجرّب ، يتحسن مستوى ذلك الوسيط ، وبتحسنه يتحسن فهمنا للوجود ، ومعه تتحسَّن نوعية الحياة . ومع أن العلم ظل يتمتع بنظرة الاحترام والتقدير على مدار التاريخ ، ولدى كل الأمم المتمدنة ، إلا أنه يكتسب الآن مكانة استثنائية على المستوى العالمي ؛ حيث إن الأمم كانت تنظر إليه على أنه شيء مواز للعقل والحكمة والذكاء الفطري ، وبعض الناس كان يفضّل الذكاء على العلم ، وبعضهم يرجح العلم على الذكاء . وقد كان ذلك في الماضي مقبولاً نظراً لضآلة ما كان متوفراً من المعارف والعلوم ، أما اليوم فإن هذا الكم الهائل من المعارف المتكاثرة قد جعل الموازنة غير واردة ؛ حيث إن كل التراكمات والتنظيمات والترتيبات الحضارية الموجودة الآن مدينة على نحو أساسي للعلم والخبرة والتجربة ، كما أن التعامل مع المعطيات الحضارية والاستفادة منها ومواجهة مخاطرها لن تستقيم من غير المعرفة المعاصرة ، ودور الذكاء الفطري في ذلك هامشي جداً .

إن النظرة الحديثة للعلم لا تجعله في موازاة العقل ، بل تجعله المصدر الأعظم لتكوين العقل بما هو مبادئ ومفهومات ؛ ولهذا فإن تحسين مستوى المعرفة والاطلاع والتثقف لدى الشباب المسلم يجب أن يستحوذ على الكثير من اهتمامنا وجهودنا ، وعلينا هنا أن نعترف أن مؤسساتنا التعليمية قد أخفقت إخفاقاً ذريعاً في إرساء تقاليد ثقافية تمجِّد الكتاب والقراءة ، وترعى حب الاستطلاع لدى الأطفال وتحميه ؛ حيث إن هناك الكثير الكثير من البيوت التي ليس فيها مكتبات خاصة ، كما أن هناك مكتبات كثيرة ليس فيها أي شيء يناسب الأطفال ، ولا يخفى إلى جانب ذلك أن هناك كثيراً من المكتبات التي لا يطالع أصحابُها كتبَها ، فهي في نظرهم جزء من

أثاث البيت ، وجانب من تكميله الشكلي ؛ ولذا فإن الوقت الذي يقضيه الإنسان العربي في القراءة هو تقريباً عُشْر الوقت الذي يقضيه فيها الإنسان في الدول الصناعية . يقول أحد الباحثين : إن تعليم القراءة للأطفال يبدأ منذ سن ستة أشهر . وإذا أردت أن تربي قارئاً جيداً فإن عليك أولاً أن تتعرف على مهارات السرد القصصي ؛ أي أن نتعلم كيف نقدم المعرفة للصغار كما يقدم القاصّ الماهر حكاياته المشوقة والممتعة لمن يقصّ عليهم . والقراءة للأطفال ومع الأطفال ذات أثر بالغ الفعالية في نموِّهم الذهني والوجداني . والمهم ليست الكمية التي نقرؤها لهم ولكن المهم تشجيع الطفل على المشاركة أثناء القراءة وإلا فإن استفادته من القراءة ستكون شبه معدومة .

فهل آن لأمة (اقرأ) أن تجدد علاقتها الفاترة بالكتاب وبالمعرفة ، وأن تتعلم كيف تقرأ ؟ !

================

إدارة التناقض

وجود نوع من التناقض بين الأفراد داخل الأمة ، وبين أمة وأمة ، هو معقد من معاقد الابتلاء في هذه الحياة ، وهو أيضاً مدخل كبير للتطور والتقدم الحضاري ؛ فالوعي يتقدم من خلال اختلاف المستويات أكثر بكثير مما لو ساد الحياة التشابه والتماثل . والتناقض بعد هذا وذاك أداة كبرى للتميز ؛ فمن غيره لا يشعر الأفراد ، كما لا تشعر الأمم بالخصائص والميزات الفارقة بينها .

أمة الإسلام هي آخر الأمم ، ورسالتها هي خاتمة الرسالات ؛ ولهذا فنحن ورثة تراث الهداية في البشرية ، وتاريخ البشرية هو تاريخ الرسل والرسالات والنبوة والأنبياء ؛ وهذا يلقي علينا مسؤولية خاصة نحو العالم ؛ إنها مسؤولية الدعوة والهداية والإصلاح والإنقاذ . وحتى نستطيع القيام بهذه المهمة على الوجه الصحيح فإننا بحاجة إلى العديد من الأمور والتي من أهمها :

1 - السعي المتواصل للمحافظة على الهوية التي تعني دائماً وضوح الميزات التي تميّز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم على مستوى العقائد والأحكام والآداب ، وهذا سيكون قليل النفع إذا ظل وضوحه على مستوى الكلام ، وإنما يجب أن يتجسد في حياة أكبر شريحة ممكنة من المسلمين ، وهذا ما يؤمِّنه الالتزام الدقيق .

2 - ينبغي أن يهيمن على علاقاتنا بغير المسلمين الإحساس بواجب التبليغ ؛ فأمتنا صاحبة حاجة لدى الأمم الأخرى ، وهذه الحاجة تتمثل

في حرصـها على أن تصل دعـوة الإسـلام إذا أمكن إلى كل شـخص في العالم ؛ فأهل عصرنا يعيشون أزمـات صـامتة خانقة ، والإسـلام هو المنقذ الوحيد لهم من تلك الأزمات .
3 - التناقض بين الأمم كثيراً ما يفرض أشكالاً من العداء والصراع ، وهناك شـواهد كثـيرة قديمة ومعاصـرة على أن الصـراع حين يقـوم كثيراً ما يكون قيامه على أسس من الخلاف العقدي أو العنصري أو التـاريخي ... لكنه في الغـالب يتحـول بعد مـدة إلى صـراع من أجل المصالح ، ومن الضروري عند هذه النقطة أن يظل الصراع مرتبطاً بالتنـاقض العقـدي ؛ لأن ذلك ينبه الخصم إلى أننا نصـارع من أجل القيام بـواجب ديـني دعـوي ، وليس من أجل تحقيق مصـلحة مادية خاصة ؛ وحين يأخذ الصـراع طـابع تحقيق المصـالح يفقد الكثـير من مشروعيته ، ويفقد المساندة التي يحتاجها من عموم الأمة .
4 - في حالة التناقض تكون مقـولات المتناقضـين أقـرب إلى الجلاء والوضوح ، وحين يبدأ الصراع كثيراً ما ينطمس التنـاقض المنهجي ، وتسود روح الثأر والانتقام ؛ ولذا كـان من أدبيـات الصـراع المسـلح لـدى المسـلمين أن يبـدؤوا بـدعوة الخصم إلى الإسـلام أولاً إعلانـاً منهم أنه قتـال بسـبب التنـاقض وما يسـتلزمه ، وليس من أجل مصـلحة دنيوية ، وحين أوصى أبو بكر رضي الله عنه جيشه وصـيته المشهورة بعـدم قتل النسـاء والأطفـال إلخ ... كـان يهـدف إلى ألاَّ تضيع ميزات جيش المسلمين وأخلاقياته وأهدافه الأصلية من الجهاد في خضم الصراع ومحاولات الغلب والظفر .

5 - الـدعوة إلى الله تعـالى هي الأسـاس وانتشـارها هو الهـدف . وحتى نتيح للناس سـماعها ، فيجب أن نهيِّئ الأجـواء الملائمة للتبليغ . وحين ينشب صراع فيجب أن يسـتهدف على المـدى البعيد تحقيق تلك الأجواء ؛ ولذا فـإن الصـراع الشـديد والطويل كثـيراً ما يطمس معالم التناقض ، ويحرم الدعوة من الهدوء الذي تحتاجه ، وربما كان قبـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم بشـروط قـريش المجحفة في صلح الحديبية من أجل تأمين الجو الهادئ الذي يتيح لقريش التعرف على الإسلام .
6 - يأخذ الصراع شكل الطفرة وشـكل الانقلاب ، ويتسم القـائمون عليه بالحـدة وقصر النفس ، وتسـيطر عليهم العاطفة ، أما التمـيز المنهجي والحضاري فيأخذ شكل العمل المـتراكم ، ويتحلى أصـحابه

بروح الثورة والاستمرارية والعطـاء على المـدى البعيد ؛ ومن المهم ألا نفقد هذه الروح في حمأة الغضب .
7 - نقطة التفوق الكبرى لـدى أمة الإسـلام اليـوم تتمثل في المنهج الرباني الذي تشرُف بحمله ؛ على حين أنها في الميادين الاقتصادية والتقنية العسكرية ضعيفة وعالة على الأمم الأخرى ؛ ولـذا فـإن من المهم أن نكثّف المجابهة في الساحة التي نملك عناصر القوة فيها ، وأن نكــون على حـــذر ، من أن يجرنا الخصم إلى ســاحة تفوُّقه ، فنفقد ميزاتنا ، وتضطرب أمورنا .
والله ولي التوفيق .

================

مقاربة الحقيقة

ركز الله جل وعلا في فطــرة الإنســان حب التســاؤل والتطلع إلى معرفة المجهول . وتاريخ الإنسانية حافل بالجهود التي يحاول الناس من خلالها الخروج من العمـاء و (اللاتكـوّن) . والإنسـان إذ يحـاول التعرف على الوسط الذي يعيش فيه يسـعى إلى فهم ذاته وتيسـير حركته واسـتثمار طاقاته ، وهو في سـبيل ذلك مطـالب بـأن يعـرف الكثير الكثير من الحقائق ، وذلك لا يتم إلا بــامتلاك المنهج والأدوات الملائمة . إن مما هو مـألوف أن نجد بعض الحقـائق يبـدي طواعية من غير حدود ، حـتى إذا حـاولت القبض عليه واسـتيعابه تـأبّى على التشكل على نحو ما نجده في المادة الهلامية . وهذا ما يخدع كثيراً من الناس ؛ حيث يكون قبضهم إذا يظنون أنهم قبضوا على ما يشبه السراب .
ولعلِّي أسـلط الضـوء على هـذه المسـألة المهمة من خلال النقـاط الآتية :
1 - إدراك الإنســان للمحسوســات والمجسَّـمات أسـهل بكثـير من إدراكه للمعنويات والعقليـات ؛ فنحن نكـاد لا نبـذل جهـداً يـذكر في التعــرف على لــون ثــوب أو مســاحة غرفة أو وزن هــاتف ، أما إذا تحـدثنا عن شـجاعة شـخص أو أثر الرخـاء في حيـاة شـعب ، أو أثر اليتم في حياة طفل ومستقبله ، فإننا سنختلف اختلافاً بينـاً في ذلك ؛ حيث يكون التعامل مع عناصر غير ملموسة ، وبعضها غامض جــداً يصعب الحدس به .
دعونا نقول : إن (الحقيقة) ليست ذات جوهر واحد ، أو ذات طبقة واحــدة ، وإنما هي ذات طبقـات عـدة ، بعضـها فـوق بعض ، وكلما صـرنا للبحث في طبقة أعمق احتجنا في إدراكها والتعامل معها إلى

أسلوب جديد أو وسـيلة جديـدة ، ووجـدنا أنفسـنا على أرض هشة ؛ حيث يشـتد النقص في وسـائل المعرفة ، كما يـزداد الاعتمـاد على عناصر ذات طابع يكاد يكون شخصياً .

حين نـرى (قلمـاً) فإننا نعـرف سـماته الظـاهرة لأول وهلة ؛ فـإذا أردنا أن نعرف (ثمنه) وجـدنا أنفسـنا بحاجة إلى درجة من الخـبرة التجارية وأسـعار الأقلام في السـوق ؛ فـإذا تجاوزنا ذلك إلى معرفة المواد الـتي صُـنع منها القلم ومقـدار كل منها والتقنية المسـتخدمة فيها وجدنا أنفسنا أمام معضلة كبرى ، ووجدنا أن الاقتراب من ذلك يتطلب وجود مختبرات متطورة وتجـارب كثـيرة وخـبرات متخصصة وراقية ؛ ومع كل ذلك ففي الغــالب تكــون النتــائج متواضــعة ، وإلا لأمكن اقتباس أسرار التقنية المتقدمة بسـهولة . ونحن في كل هـذا نتعامل مع شـــيء محســـوس ، لكننا تجاوزنا ما يوقفنا عليه النظر العابر إلى طبقات أعمق من الحقيقة .

2 - في المسائل الصـغيرة والمحـدودة نسـتخدم الحـواس والأخبـار المتواترة والمستفيضة ، ونصل إلى أحكـام قطعية أو شـبه قطعية ، وذلك كحكمنا بأن زيـداً من النـاس موجـود معنا في هـذه الحجـرة ، وكإيماننا بوجود بلد اسمه (الصـين) وشـخص مضى اسـمه : حـاتم الطــائي أو الــذهبي . ونحن لا نســتخدم في إدراك هــذا النــوع من الحقائق والمعارف مقدمات أو عناصر ذهنية ؛ ومن هنا حصــلنا على معرفة يقينية أو شبه يقينية .

أما إذا أردنا الاقتراب من قضية أو حقيقة ذات بنية مركبة فإن الأمر سـيكون مختلفـاً جـداً . وتكـون البنية مركبة إذا سـاهم في تشـكلها عــدد من الروافد المتباينة أوالمتقاربة ؛ وذلك كما إذا أردنا الوقــوف على ما جرى في معركة من المعارك ، والآثــار الرمزية والاجتماعية والاقتصـادية الـتي نتجت عنها . في مثل هـذه الحالة يكـون من غـير الممكن فهم هذه الحقيقة أو الحقائق المركبة على نحو مباشر ؛ ولا بد من اسـتخدام وسـيط معـرفي ، يسـميه بعض البـاحثين اليـوم بــ (الإشكالية) . هـذه الإشـكالية مكونة من عـدد من العناصر ، أهمها معتقداتنا ، بالإضافة إلى الخلفية الثقافية العامة أو ما كان يسمى بــ (الأهلية) ثم المعلومــات المتــوفرة حــول القضــية موضع البحث . فالطبيب الذي لا يـؤمن بوجـود (الجن) أو الـذي لا يـرى (الإصـابة بــالعين) سـوف يُبعد كل ما يتعلق بهـذين الأمـرين عند التشـخيص والعلاج لكل المرضى الـذين يراجعونه ، والـذي خبرته في الاقتصـاد

معدومة يمكن أن يصدِّق من يقول له : إن ثروته يمكن أن تتضاعف كل سنة مائة مرة إذا هو دفع ماله إليه .
والذي لا يعرف الاحتياطات التي تقوم بها الدول النووية نحو السلاح النــووي فإنه يمكن إذا رأى قنبلة في صــحراء أن يصــدِّق من يقنعه بأنها قنبلة نووية ، وهكذا .
الإنسان وهو يستخدم هـذا الوسـيط المعـرفي في اسـتيعاب الواقع الموضوعي لا ينتهي في أكثر الأحيان إلا إلى نتــائج ظنية ؛ وذلك لأن صـلابة الـرأي نابعة من صـلابة المقـدمات الـتي ولَّدته . وعند النظر في خلفياتنا الثقافية ومعلوماتنا حول القضايا التي نحاول فهمها نجد أنها كثـيراً ما تكـون قاصـرة وقابلة للجـدل والنقد ؛ وهـذا ما يجعل تعاملنا مع القضـــايا المركبة والمعقـــدة منطويـــاً على نـــوع من (الاجتهاد) الذي يحتمل الخطأ والصواب .
3 - كثـيراً ما نشـكو من نقص المعلومـات الـتي تسـاعدنا على فهم بعض الأمور ، وكثيراً ما نجد أنفسنا بلا حول ولا طول تجاه الوقــوف على بعض الدوافع لبعض التصرفات ، أو تجاه تقــدير الآثــار المترتبة عليه ، أو تكـوين صـورة جيـدة عن واقعة تاريخية معينة ، وفي هـذه الحالة نلجأ إلى (التفلسف) ، وليس من المبالغة القول :
إنه ما يمر على الواحد منا يـوم دون أن يسـتخدم في كلامه وتأملاته نوعـــاً من التفلسف من أجل التغلب على ما نواجهه من نقص في عتادنا المعرفي .
نحن نســـتخدم (التعليل) في كثـــير من الأحيـــان من أجل جعل تصـرفاتنا وأقوالنا تبـدو منطقية ومنسـجمة ، ونسـتخدم (القيـاس) لسد الفراغــات الــتي تركها الاســتقراء النــاقص ، أو حيث يكــون الاستقراء التـام مسـتحيلاً ، ونسـتخدم (التقـنين) من أجل تسـهيل التعامل مع الأفكار والأشياء والمـواد . والسـنن الـواردة في القـرآن الكــريم والســنن النبوية تهــدف إلى مســاعدتنا على أخذ العــبر والوصول إلى مستخلصات مركزة حول الماضي والمسـتقبل . حين نمارس (التحليل) فإننا نرمي إلى تفكيك المعطيـات المعقـدة بغية النفاذ إلى جوهرها ، وإتاحة الفرصة لأدمغتنا كي تتعامل معها بكفاءة . وحين نتوقع حدوث بعض الأمـور ، ونهجس بالمسـتقبل فإننا نقـوم بعملية استكشاف للعلاقـات بين الأسـباب والمسـببات ، ونفعل ذلك بغية إيجاد نوع من الاستمرارية الشعورية والظرفية ، وتوفير منطقة عيش آمنة وملائمة لحركتنا .

إن كل هــذه الممارســات الذهنية والمعرفية ما هي ســوى طــرق لـترويض الحقـائق ، ومنــاهزة اسـتيعابها . وهي لا تعـدو أن تكـون ضروباً من (المقاربة) لما نبتغيه . وهي جميعاً تعمل خـارج منطقة اليقين والصواب القطعي . وفي هذه العمليات التي أشـرنا إليها يقع الكثير من المجازفة والتعسف والتجـاوز . وتقـدُّم الـوعي الإسـلامي ولا سيما على الصعيد الشعبي ضعيف جـداً في هـذا الحقل ؛ بل إن كثيراً من الصفوة من ذوي الثقافة العليا يسلكون مسلك العامة في بعض الأحيان حيال التعامل مع معطيـات التفلسف والنظر العقلي .
مع أن من الواضح أن (الفلســفة) لا تمنحنا الدقة ، ولا تســاعدنا على التحديد ، وإنما تزيد في درجة شفافيتنا ، وتسـاعدنا على رسم الاتجاهات والتعامل مع المسائل الكلية .
4 - في البنية العميقة للمعرفة الإسلامية مرونة فكرية كبـيرة ، نحن اليـــوم في أمسّ الحاجة إلى التشـــبع بها وتمثلِها في عمليـــات الاســتنباط والاختلاف والتقــويم المختلفة . ومن الملاحظ أن الفكر الحـداثي الغـربي يقـوم اليـوم على ركـائز غاية في التطـرف ؛ فهو شــديد التــأرجح بين الشك المطلق واليقين المطلق ؛ بين العقلانية المطلقة وبين جحود أي ثابت من الثوابت ، وقد تـأثر بهـذا كثـير من الرؤى الحضارية المعاصرة في بلاد المسلمين .
أما الرؤية الإسلامية في هذا المجال ، فإنها تقوم على (الوسطية) المبصرة ؛ فهنـاك اليقين ، والظن القـوي والظن الضـعيف ، والشك القوي والشك الضعيف .
والاقتراب من الحقيقة متفاوت ، كما أن التورط في الخطأ متنــوع ، وحين وضع الأصوليون قواعد تفسير النصوص لاحظـوا هـذا المعـنى بدقة متناهية ؛ ولــذا ذهبــوا إلى أن النص قد يكــون ظــني الدلالة ، فيقبل آنذاك التأويل والفهم المتعدد .
ولاحظـوا على سـبيل المثـال أن الأمر قد لا يفيد الوجــوب ، بل قد ينصرف عند وجـود قرينة إلى الإرشـاد أو النـدب أو الإباحة ، كما أن النهي قد يفيد مجــــــــــرد الكراهة ، وليس الحرمة . العلاقة بين المقــدمات والنتــائج والأســباب والمســببات في كثــير من الآداب الغربية تميل اليوم إلى (التصلب) حيث يحاول كثيرون هناك إضفاء معنى التلازم والاطراد على الارتباط القائم بين حدث وآخر .
وقد بات كثيرون لدينا يستخدمون عبارات الجزم والتأكيد فيما تــأبى طبيعته ذلك . وقد كان من أدب علمـاء المسـلمين أن يقولـوا عقب بسط آرائهم واستنتاجاتهم :

« والله أعلم » ليشـــعروا القـــارئ باحتمالية ما ذهبـــوا إليه وعـــدم استحواذه على اليقين .
وكان من لطيف ما قرروه قولهم : « مذهبنا صـواب يحتمل الخطأ ، ومــذهب غيرنا خطأ يحتمل الصــواب » ولو أنهم قــالوا : « مــذهبنا صــواب يحتمل الخطأ ، ومــذهب غيرنا صــواب يحتمل الخطأ » لما أبعـدوا النجعة ؛ حيث يـرى بعض الأصـوليين أن كل مجتهد مصـيب .
ومن أدب المسـلم وصـفاء اعتقـاده أن يقـول إذا تحـدث عن شـيء مستقبلي : « إن شـاء الله » و « بـإذن الله » ليـذكّر السـامعين أن الأمر كله لله ، وليشـعرهم بوجـود علاقة لينة بين ما نــراه أسـباباً ، وما نــراه مسـببات . إن كل ما نصل إليه من مقــولات وطروحــات يظل أغلبياً يحتمل الكثير من الشـذوذ ، كما يحتمل الـوهم والغلط ؛ وما ذلك إلا لأن إمكانات التجريب في عالم الفكر والشأن الإنسـاني عامة محـدودة ومعقـدة ؛ مما يجعل كل براهيننا على ما نقوله ذات وزن نسـبي ومـدلولات ترجيحية ، ليس أكـثر . وإن من أهم سـمات الرجل العقلاني أنه لا يستمسك بآراء وأفكار ليس لديه ما يكفي من البراهين عليها .

================

تجديد البعد العقلي

الحمد لله حمد الشــاكرين ، والصــلاة والســلام على ســيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :
فإن الشخصية مركّب فذ من الجسد والـروح والنفس والعقل ، ولها بعدٌ اجتمـاعي عظيم الأثر في وجودها . وإن كل نمو إيجـابي في أي جانب من جوانبها ينعكس عليها جميعـاً ، كما أن أي خلل يصـيب أي جانب منها يعود بالضرر عليها جميعاً .
يستمد الاهتمام بالبعد العقلي نوعاً من التمـيز من خلال أن التفكـير الجيد شــــرط لتنمية كل شــــيء في الحيــــاة : التربية والاجتمــــاع والاقتصاد والسياسة والعلاقات ...
ويعد أي تطوير لأي جانب من جوانب الشخصية بـالغ الأهمية ؛ حيث إن الرؤية الإســلامية تؤسس مقولة : (الإنســان أولاً) . أضف إلى هـذا أن التقـدم المـادي والعضـوي قد يكـون محـدداً بأسـوار تجعل المضي فيه أمــراً عسـيراً أو مسـتحيلاً ، على حين أن أمــداء النمو أمام البعد العقلي والروحي فسيحة جداً .
إن العقل البشري نعمة عظمى من الله جل وعلا وله قــدرات هائلة ، هي أكـثر مما يظن . ويمكن القـول : إنه أشـبه بعملاق نـائم ! وقد

دلّت الدراسـات النفسـية والتربوية ، وأبحـاث الكيميـاء والفيزيـاء والرياضـيات أن ما تم اسـتخدامه من إمكانـات العقل لا يزيد على 1% من إمكاناته الحقيقية . الحاسب الآلي (كراي) حاسـوب عملاق يزن سبعة أطنان ، فـإذا عمل بطاقة 400 مليـون معادلة في الثانية مـدة مئة عـام ، فإنه لن ينجز سـوى ما يمكن للـدماغ البشـري أن ينجزه في دقيقة واحدة] فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ [[المؤمنـون : 14] .

يمكن القول : إن لـ (العقل) شكلاً ومضموناً ؛ فشكله تلك القدرات والإمكانات التي زوّد الله تعالى بها أدمغتنا ، مثل القدرة على خـزن المعلومـات واسـترجاعها ، ومثل القـدرة على التخيل والتحليل والـتركيب ... وهـذه متفاوتة بين الأشـخاص متسـاوية على نطـاق الأمم .

ومضـمون العقل منه ما يعـود إلى مجموعة المبـادئ الفطرية العالمية التي لا تختلف بين شـخص وآخر ، مثل إدراك عـدم إمكانية اجتماع الضدين ، وإدراك أن الكل أكبر من الجزء ، وإدراك اسـتحالة القيام بعمل خارج دائرتي الزمان والمكان .

ومنه ما يعود إلى شيء مكتسب مرتبط بالثقافة السائدة ، وهذا في الحقيقة يتشـكل من مجموعة المفـاهيم المترابطة والراسـخة الـتي يحـاول النـاس من خلالها اسـتيعاب الواقع الموضـوعي وتنظيمه وتكييفه مع حاجاتهم ... وهذا النوع من المضـمون مطـلّ بالضـرورة على مبادئ التفكير الفطرية ومرتبط بها .

العقل من خلال شـكله ومضـمونه ينتج شـيئاً نسـميه : (العقلانيـة) . وبما أن (الثقافـة) تختلف في مبادئها وقيمها وجمالياتها ورمزياتها بين أمة وأخرى ، فإن المتوقع من العقلانية أن تتسم بطابع النسـبية ، بسـبب الـدور البـالغ للثقافة في تكوينها . ولـذا فليس ثمة عقلانية صـافية أو محايـدة أو مطلقة . ولعلنا نستشف هـذا من النسق القـرآني ؛ فهو إذا جمع بين الحكمة والـتي هي مـركّب من الـذكاء والمعرفة والإرادة والكتـاب في مـوطن واحد ، يقـدّم الكتـاب أولاً ، وكأنه يرمي إلى ضـرورة تـأطير (الحكمـة) بالكتـاب (الـوحي) حـتى تكتسب نوعاً من المرجعية ، وحتى تتخلص من النسبية التي تضفيها عليها الثقافة .

إن بُنانا الفكرية ليست معصـومة من ريـاح التغيـير العاتية ؛ فهي باعتبـارٍ مّا انعكـاس لما يجـدّ من نظريـات وآراء علمية واجتهادية مبثوثة في جميع مجـالات الحيـاة ؛ ولـذا فـإن علينا أن نمتلك أعلى

درجة من اليقظة والحذر حتى نصون عقولنا من البرمجـات الثقافية والبيئية التي تحول دون استيعاب الواقع على النحو الصـحيح ، ودون التطوير البعيد المدى الذي نحتاجه .
شروط للتجديد :
إن التجديد في أي جانب من جوانب الحياة ، يتضمن دائماً نوعاً من التخلي عن بعض المألوفـات ، كما يـرتب تكـاليف جديـدة ، ويتطلب ضبطاً أكثر للذات ، ولهذا كله كان شاقاً على النفس .
إن أول شرط من شـروط التجديد : هو معرفة (الثـوابت) على نحو جيد ، والتفريق بينها وبين (المتغـيرات)، وتتجلى الثــوابت في الغاية الكبرى للوجود الإنساني ، وفي المبادئ والقيم العليا التي نـؤمن بها ، إلى جانب الأحكام القطعية الواقعة
خارج نطاق الاجتهـاد . إن التجديد المسـتمر كبـير التكلفة ، ومفتـاح معايشــته هو أن يكــون في داخل المــرء (جــوهر) يستعصي على التغيير ، ويمثل الفلك الذي تدور فيه جميع المتغيرات ، وتخدمه .
والشرط الثاني : هو امتلاك ما يكفي من الخيال والوعي للإحسـاس بالنهاية التي نرنو إليها .
والشـرط الثـالث للتجديد : أن يـوقن المـرء أن في إمكانه أن يغـير عاداته الفكرية والنفســية والســلوكية ، وذلك يتوقف على القـــدرة على مجاهـــدة الأهـــواء والأوهـــام والكسل الـــذهني ، والإخلاد إلى المألوفات .
إن التجديد للبعد العقلي يتم بـالتخلص من طـرق التفكـير الخاطئة ، وباكتشـاف الإمكانـات ، والآفـاق الـتي تزيد في كفـاءة تصـوراتنا ، وتحسّن مستوى محاكمتنا العقلية ؛ ولعلي أسوق من ذلك ما يسمح به الوقت على النحو الآتي :
يدّعي معظم الناس أنهم قادرون على عزل أفكارهم عن مشاعرهم ، وأن بإمكانهم أن يحملوا مشـاعر تعاطفية نحو أمر ما على الـرغم من كـــونهم يحملـــون أفكـــاراً ســـيئة عنه . والحقيقة أن أفكارنا ومشاعرنا ، تتناوب التأثير والتأثر في معظم الـوقت ، وهنـاك توافق بينها . والنجاح المتوالي يوجِدُ حالة نفسية تظلل جميع حياة الفــرد ، وتجعله يعتقد أنه ناجح فعلاً . ويحدث العكس عندما تتـوالى أحـداث الإخفاق على الإنسان . في كلتا الحالتين تبـدو الصـورة الـتي نكونها عن أنفسـنا كأنها الصـورة الوحيـدة الصـحيحة ، ونتصـرف بعد ذلك على هـــدي من معطياتها . والحقيقة أن الأمر ليس كـــذلك ؛ فحين يـزور خمسة من النـاس مكانـاً لا يعرفونه من قبـلُ ، فالمـألوف أن

تكون لهم حياله وجهات نظر متعددة ، وسيكون بعضها أكثر مطابقة للحقيقة من بعضها الآخر . كثير من النـاجحين في وظـائفهم أصـيبوا بـأمراض مزمنة كقرحة المعـدة حـرمتهم نعمة الاسـتمتاع بالحيـاة ، وكثـير منهم خسـروا أنفسـهم ، بما أهملـوه من شـأن آخـرتهم .... وبعض من أخفق في دراسته يملك إمكانية هائلة للنمو الحر والنجاح في ميدان تجاري أو وظيفي أو اجتماعي ... ولذا فإن من الحيوي ألا نعتقد أن النجاح الذي حققناه في أي مجال هو الذروة الـتي لا ذروة بعــدها ؛ فــالمهم ليس الصــعود إلى القمة ، وإنما كم يمكن البقــاء عليها ، وألاّ يمكن أن نكـون واهمين في تصـورنا للقمة ، وأن تكـون الحقيقة غير ذلك ؟

في المقابل حـالات الانكسـار والهـزائم الـتي نمر بها لا تعـني نهاية العــالم ، بمقــدار ما تعــني أن علينا أن نفكر بطريقة جديــدة ، وأن نبحث عن مجالات جديدة .

ولذا كان من الضـروري أن يسـأل الواحد منا نفسه : كيف أسـتطيع أن أفكر في هـذا الأمر بطريقة أخـرى ؟ وكيف يسـتطيع غـيري أن ينظر إليه ؟ وما وجهات النظر الأخرى حياله ؟

إن الإجابة عن هـذه الأسـئلة تشـكل تمرينـاً عقليـاً يحسن أن نجرّبه من وقت إلى آخر .

إن الذي يحول بيننا وبين رؤية الخيارات العديدة المغايرة لما نعتقده ونفضــله هو ما اســتقر في نفوســنا من الانحيــاز إلى مشــاعرنا ومألوفاتنا وطـرق تفكيرنا ، وهـذا الانحيـاز مصـدر كبـير من مصـادر الحرمــان من التجديد ، والحرمــان من مشــاركة غيرنا في رؤية الأشياء على نحو أكثر رحابة .

2- النظرة المتعمقة :

إن العقل الذي وهبه الله جل وعلا لنا يتمتع بقـدرات هائلة كما ذكرنا لكنه يظل في النهاية محدوداً . وأكـثر الأفكـار الـتي نمتلكها هو وليد التجربة وثمـرة المعانـاة ، أي هو خـبرة حياتية متولـدة من اشـتباك منظومـات المعـارف والرمـوز والمبـادئ إلى جـانب ألاعيب الهـوى وأنماط السلطة وأشكال تحقيق المصلحة والاهتمام بالذات ... ولـذا فيجب ألا نعتبرها دائمــاً نهائية ، فصــدق الأفكــار يظل مرتهنــاً لما تسفر عنه نتائج إنزالها إلى الميـدان العملي الـذي كثـيراً ما يفقـدها تماسكها ويعيد إنتاجها من جديد على وجه الإثراء والتوسيع ، أو على وجه الانتهـاك والتأويل . وهـذا يعـني أن علينا ألا ننتظر الفـوز برؤية نهائية ، نسترشد بها في مواصلة البناء وتخطي العقبات ؛ فالأعمــال

العقلية المتزايـدة ، لا تـؤدي بالضـرورة إلى تقـدم عقلاني مطـرد ؛ فالنكوص والتراجع من الأمور الواردة بكـثرة في هـذا الميـدان ؛ بل إن للتقدم العقلي مفرزات جانبية شديدة الخطورة ، ولا سيما إذا ما تأتى للعقل أن يتحـرر من القيـود والقيم الأخلاقية ؛ ثم إن المسـيرة الحضـارية لا تمضي على هـدي أفكـار ومخططـات يتخيلها مثقفـون حـالمون متفـائلون بمسـتقبل البشـرية على صـعيد الفهم والعلم والحـوار والرشد والنمو الصـحيح ، وإحقـاق الحق ، وتجسـيد القيم النبيلة ... فهناك أيضاً المصالح والأهواء والشهوات والقصور الـذاتي والظروف المعاكسة ... وكل ذلك يجعل من ميـادين الحيـاة مصـانع سيئة لإنتاج الأفكار وتطبيقها . وهذا يعني أن علينا حـتى نسـتمر في التجديد العقلي أن نسعى دائماً إلى تفحّص برامجنا وقراءة أحوالنا ، وإقامة علاقات نقدية مع ذواتنا وإنتاجاتنا ؛ حيث النقص شـيء ملازم لنا . وليس المطلوب أن تصبح المحاكمة العقلية لـدينا كاملة ، وإنما مداومة فضح الممارسـات الفكرية الخاطئة ، وكشف زغل أعمـال العقل ؛ فالكمال في كل شـأن ليس شـيئاً نسـتحوذ عليه ، وإنما هو شـيء ننـاهزه ، ونحـاول الاقـتراب منه . وما لم نتعامل مع منتجاتنا الفكرية والمعرفية ، ومع تجاربنا وأحداث العالم من حولنا على هـذا النحو ، فـإن كثـيراً من مكتسـباتنا الفكرية والنهضـوية يمكن أن يتعرض للخطر ، أو يصبح موضع تساؤل .

3- التفكير المتوازن :

تجديد البعد العقلي يتطلب أن يدرب الواحد منا نفسه على التفكـير المنهجي المتكامل الذي يستجيب لكل ما يطلبه النجاح في الوصول إلى نتائج جيـدة ، وأحكـام صـائبة . وإذا أراد الواحد منا أن يفكر في موضوعٍ مّا فعليه أن يفعل الآتي :

أ- أن يجهز المعلومات التي تتعلق بموضوعه . ولا بد أن يكـون على وعي بنوعية المعلومـات المتاحة ؛ إذ إن هنـاك طبقـتين من المعلومـات : طبقة المعلومـات الحيادية الـتي تمثل الحقـائق الثابتة الـتي انقطع حولها الـنزاع ، وطبقة المعلومـات المعتقَـدة لبعض الأشخاص ، والتي هي أقرب إلى أن تكون رؤى شخصية لهم .

المعلومات الثابتة تمثل معطيات يجب احترامها خلال عملية التفكير . أما المعلومـات الأخـرى فتسـاعدنا على إضـاءة القضـية وتحسّـن اختيارنا فيها .

ب- لـدى كل واحد منا عواطف حـول القضـية موضع البحث ، ونحن نحاول عدم الاعتراف بها ، وأحيانـاً لا نكـون على وعي بها ، ومن ثَمّ

فإنها تؤثر في التفكير ، وتوجهه على نحو غير سـويّ . المطلـوب أن نُخرِج عواطفنا إيجابية كانت أم سلبية إلى منطقة الوعي ، ونعـترف بها ، ثم نحاول إبعادها عن دائرة التفكير .
ج- لا بد أن نعطي وقتــاً للتفكــير الناقد الــذي يركز على ســلبيات القضــية موضع النظر . والتفكــير الناقد هو تفكــير منطقي ، لكنه سلبي ، وهو كثيراً ما يكون مبنياً على حقائق وصـادقاً ، وإن كـان لا يشترط أن يكون منصفاً دائماً . وعلينا أن نتذكر أن التفكير هو على مســتوى مّا تفكــير بنــائي ؛ حيث لا يســتغني أي عمل جيد عن المراجعة وإعادة النظر ، وفي ذلك شكل من أشكال نموّه . وهذا لا يُنسينا أيضـاً أن النقد شـديد الإغـراء ؛ حيث إنه يمنح صـاحبه تفوقـاً سـريعاً على النظـراء ، ولـذا فينبغي الحـذر من الانـزلاق إليه بحيث نبدو أننا لا نحسن غيره . ولعل خير ضمانة لذلك هو أن يظل التفكير النقدي على علاقة جدلية بتفاعلات القضايا التي نوجهه إليها .
د- في مقابل التفكير الناقد ، هناك التفكـير الإيجـابي ، وهو التفكـير الـذي يركز على الإيجابيـات ؛ ففي حالة التفكـير في إقامة مشـروع تجاري مثلاً يُبرز التفكير الإيجابي كـلّ الأدلة والمعطيـات الـتي تؤكد احتمالات الربح ويتم إسدال الستار على كل ما يشير إلى احتمـالات الخسـارة . تـبرز قيمة التفكـير الإيجـابي حين يسـتطيع الكشف عن الإيجابيات الخفية للقضية . والحقيقة أن الناجحين ينتبهون دائماً إلى جوانب النفع الخفية ، وبذلك يسبقون غـيرهم . إن من الثـابت أنه لا يُغلق بـاب حـتى يفتح بـاب آخر ، لكن قصـورنا الثقـافي والـتربوي يجعلنا نُشغَل بالباب الذي أُغلق عن البـاب الـذي فُتح ! ومع هـذا فلا بد من القــول : إن الخط الفاصل بين التفكــير الإيجــابي والانــدفاع المتفائل المتهــور ، هو خط ضــيق ، ولــذا فإمكانــات الخلط بينهما ستظل متوفرة دائماً .
هــ- لا بد بعد هـذا أن نسـتخدم التفكـير الإبـداعي الـذي يحـاول أن يستخرج من معطيات ناقصة حلـولاً جيـدة ، أو رؤى ناضـجة . ولا بد من القول : إن أكثر التفكير الـذي نتشـبع به في بيئاتنا الثقافية مهيّأ لمعالجة المعلومات ، مثل المنطق والإحصاء والرياضيات ، وتنسـيق المعارف ... أما التفكير الإبداعي ، فإنه يحاول إيجاد أشـكال جديـدة تضاف إلى ما لدينا من تـراكيب نـدرك من خلالها المحيط . التفكـير المبدع يحتاج إلى الوقت ؛ والعجلة هي عـدوه الأول . وقد تعودنا أن نقبل أو نتشبث بالحل الـذي يظهر لنا لأول وهلة ؛ مع أن الثـابت أننا حين نمعن التفكير فإن الأفكار الجيـدة لا تـرد إلى الـذهن أولاً وإنما

في آخر المطاف . والمطلوب هو أن نـوفر الـوقت لاسـتخراج أكـبر قدر ممكن من الرؤى والحلول والاحتمـالات ، ثم نعكف على اختيـار الأكثر مناسبة لاحتياجاتنا وإمكاناتنا .

التفكير المعوجّ :

إننا حين نمـارس التفكـير في أي موضـوع ، نسـتخدم في الحقيقة عـــــدداً من العناصر البالغة التعقيد ، مثل مبادئنا العقلية ، وثقافتنا العامة ، وعاداتنا الفكرية والنفســية ، بالإضـــافة إلى المعلومـــات المتعلقة بالمسـألة موضع التفكـير ؛ ثم إننا لا نسـتخدم كل ذلك في فراغ ، فهنـاك دائمـاً ضـغوط واعتبـارات ظرفية واجتماعية ، تكتنف تفكيرنا في الأمور . وبما أن كل ما ذكرناه لا يكون في العادة كـاملاً ولا نقياً ، فإن علينا ألا نتوقع أن يكون باستطاعتنا دائمـاً النجـاح في الوصول إلى تصورات وأحكام راشدة . ولذا فإننا سنظل بحاجة إلى محاصرة أنماط التفكير الخاطئة على نحو ما يصنع الفلاح حين يزيل الأعشاب الضارة من أرضه قبل أن يلقي بذوره .

وفي اعتقـادي أن الفائـدة من تعلم طـرق تفكـير جديـدة ، سـتظل محــــدودة ما لم نتمكن من تعرية الممارســـات التفكيرية الخاطئة والتضــــييق عليها إلى أبعد حد ممكن . وهي في الحقيقة أشــــكال وألوان ؛ ويمكن أن نسلط الضوء على بعضها على وجه السرعة .

1- المسلَّمات الثقافية :

نحن إذ نفكر ننطلق من مبادئ ومسلّمات ثقافية ، وتلك المسـلّمات ، لا تـؤمّن تسـايل عمليـات التفكـير فحسب ، وإنما تـريح العقل من عنـــاء البحث والتمحيص أيضـــاً ، أي تـــؤمّن له نوعـــاً من العطالة والسكون ، ومن هنا تنبع جاذبيتها وخطورتها في آن واحد . لو فتشنا في عقولنا لعثرنا على مخـــزون ضـــخم من المســـلّمات المتعلقة بالنـاس والأفكـار والأحـداث . وتصـنيفاتُ الأمم والشـعوب بعضـها لبعض نمـوذج حي على ذلك : فالشـعب الفلاني محتـال ، والشـعب الفلاني كســول ، والشــعب الفلاني مــاهر.. ووســائل الإعلام في الغـــرب (العقلاني) تقـــترب من أن تصم كل مســـلم بـــالتطرف والإرهـــاب ؛ مهما تكن درجة التزامه . أما العـــرب في نظرها فهم شـــعوب مهووسة بالتبـــذير والجنس ، تتخبط في الجهل ، وتعشق الفوضى ... وتلك الصـور الذهنية ، تشـكل مشـاعر النـاس ، وتوجه سلوكهم ، وتنظم ردود أفعالهم .

إنســان القــرن الحــادي والعشــرين مع أنه يتحــدث باستفاضة عن العولمة ، والقرية الكونية ، وتلاقح الثقافــات إلا أنه غــير قــادر على

الانعتاق من كثير من المسلّمات الثقافية المتخلّفة ، فهنـاك انجـذاب شـديد نحو الإقليمية والعنصـرية والطائفية ، أي هنـاك انسـحاب من عالمية الرؤية والثقافة والإحساس المشترك في الوقت الـذي تتسع فيه عالمية التجارة ، ويتسايل انتقال المعلومات والأشياء !

2- إسقاط المعلومات غير الملائمة :

حين نكوّن اعتقاداً ما فـإن القـوى غـير الواعية فينا تحشد على نحو غــير مــرئي كل الأدلة والــبراهين الــتي تقوّيه ، وتجعله غــير قابل للنقـاش ؛ وحين تأتينا معلومـات تنـاقض ما انتهينا إليه ، فـإن أكثرنا يحـاول الإفلات من التغيـيرات الـتي تقتضـيها المعلومـات الجديـدة بأساليب شـتى . وعلى سـبيل المثـال إذا بلغنا عن شـخص نثق به ، ونحترمه احترامــاً شــديداً أنه كــان في حياته عاقــاً لوالديه ، فإننا عوضاً عن أن نحـاول التحقق من تلك المعلومة والتغيـير في نظرتنا عند ثبوتها ، فإننا نسلك مسالك عديدة حيالها ، كلها غير سويّ : فقد نقــول : إن الــذين رووا ذلك حاقــدون عليه . وقد نقــول : إن أبويه توفيا وهو صــغير قبل أن يُكلّف . وقد نقــول : إن أبويه كانا يعاملانه بقسوة ؛ فله نوع من العذر فيما فعله . وقد نقـول : إن عقوقه لهما كــان لمصــلحتهما لأنهما لم يكونا على معرفة بها ... وهكــذا فــإن المعلومة المناقضة لما نعرفه عن فلان تُعامَل بإهمـال شـديد ، ومن ثَمّ فإنه لا يتم تخزينها ، ويصــــــبح الأمر كما لو أن العقل ليس فيه (خانة) مسـتعدة لقبـول المعلومة المشوّشة . وهـذه الحالة بعيـدة الأثر في تشويه المركّب العقلي لكثير من الناس . وأعتقد أن كثـيراً من بطء تقدمنا في فهم التاريخ يعود إلى هذه المسألة .

3- الضلال في تفسير الظواهر :

لو تســاءلنا : هل الضـلال الـذي ينشأ من اخـتراع أمـور لا أصل لها أعظم ، أو الضـلال الـذي ينشأ من تفسـير أمـور موجـودة تفسـيراً خاطئاً ؟

لكان الجواب من غير تردد : أن الضـلال الـذي يجتـاح حياتنا الفكرية من وراء التفسـيرات الخاطئة أعظم بكثـير من الضـلال الـذي ينشأ من الكـذب الصـراح . نجد في خبراتنا اليومية من يقـول : إن فلانـاً متفوق ؛ لأن أبـاه لا يكلّفه أي شـيء ، فهو متفـرغ للدراسة . وفلان منحرف ؛ لأنه نشأ يتيماً ، فلم يتلق التربية المناسبة . والبلد الفلاني ثري ؛ لأن فيه أنهاراً غزيرة . والشعوب الإسلامية متخلفة ؛ لأنها تقع تحت ضغوط مؤامرة كبرى ... ولو أجَلنا النظر في هذه التفسـيرات لوجدنا أنها جميعـاً محتملة ، وليست قطعية ، فهنـاك طلاب أثريـاء ،

ومفرّغون للدراسة ، ومع ذلك يرسـبون . وهنـاك أعـداد ضـخمة من الأيتام ذوي السلوك الحسن والسيرة الحميدة ، وهناك وهناك ...
إن تفسير الظـواهر الكـبرى بعامل واحد من أكـثر الأخطـاء الفكرية انتشـــاراً ، وهو الـــذي يقبع خلف عـــدد ، لا ينتهي من التصـــورات والأحكام العوجاء والظالمة .
4- تأثير الهالة :
قـدرة النـاس على مناقشة الأفكـار ومعرفة مزايا الأشـياء على نحو دقيق محدودة ، ولذا فإنهم يتشبثون بأي شـيء يمكن أن يسـاعدهم على اسـتيعاب ما يرغبـون في اسـتيعابه . وحين يتفـوق إنسـان في مجال ما فإنه يكوّن لنفسه (هالـة) ويـترك انطباعـاً بالجـدارة والثقة لدى الآخرين . وبتأثير تلك الهالة ينسى الناس جوهرية (الاختصـاص) ويسألون المعجبين بهم عن أشياء ليس هناك أي دليل على تفـوقهم في معرفتها . وصـــار من المـــألوف اليـــوم أن يُقبل النـــاس على اسـتخدام نـوع من الصـابون أو العطر أو معجـون الأسـنان ... لأن النجم الفلاني يســـتخدمه ، أو ظهر في إعلان عنه . وطالما سُـــئل رياضيون وفنانون عن قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية ، وطالما انفعل الناس بأجوبتهم أكثر من انفعالهم بأجوبة بعض المختصين !
وفي عصـــرنا الحاضر صـــار للحقيقة العلمية هالة كبـــيرة ؛ فنحن نحترمها أشد الاحترام ، ونحاول الاستفادة من مؤشـراتها ، لكن كما أن من السـهل على أي واحد أن يتـاجر بعملة زائفة ، فمن السـهل أيضاً أن يتاجر بعض الناس بالحقائق العلمية .
وقد وقع كثير من الناس ضحية لتنـاول أدوية وعقـاقير تخلصـهم من السمنة أو الصلع أو غير ذلك ... حيث بُهروا بالشرح العلمي لميزاتها وخصائصها . هذا كله يدعونا إلى أن نتعلم المزيد عن كيفية (تقـويم المعلومات) الواردة إلينا ، وأن نسـأل أهل الـذكر في كل علم وفن .
5- المبالغة :
نحن لا نـدرك الأشـياء بطريقة مباشـرة ، وإنما عـبر وسـيط ثقـافي وفكـــري ونفسي أيضـــاً ، مما يجعل رؤيتنا لها قابلة للكثـــير من الخصوصـية ، ومن ثَمّ للكثـير من الانحـراف . المبالغة مـرض واسع الانتشار ؛ والبنية التحتية له بنية فكرية شعورية ؛ فـالإدراك القاصر ، وضعف المحاكمة العقلية ، مما يـدفع إلى المبالغة على النحو الـذي تـدفع إليه المصـالح والأهـواء والأمـراض النفسـية ، والانطباعـات الخاصة والخاطئة .

وللمبالغة تجليات كثيرة ، نستعرض بعضـها من أجل تسـليط الـوعي عليها :
بعض النــاس يميلــون إلى تضــخيم كل الأشــياء ، وكأنها (مجموعة كوارث) فهم يتوقعون الأسوأ دائماً ، فأي ألم مفاجئ يصـيب الواحد منهم ، هو دليل على وجـود مـرض خطـير ، وأي خطأ يقع فيه يمكن أن يحرمه من وظيفته !
- هناك من يميل إلى (تعميم الافتراض) فلأن شـيئاً ما قد وقع فهـذا يعني أنه سـيقع دائمـاً ؛ فـإذا نسي موظف عنـده تنفيذ أحد طلباته ، قـال له : إنك تنسى دائمــاً ما أطلبه منك . وإذا تــبين له أن إحــدى الإذاعات كذبت في خبر من الأخبار ، حكم بأن تلك الإذاعة لا تصدق أبداً !
- تتجلى المبالغة في بعض الأحيان في صورة قـراءة لما في عقـول الآخرين ؛ حيث يعتقد بعض النـاس أنه يملك شـفافية خاصة لمعرفة ما يدور في أذهان العباد ، وما تنطوي عليه سرائرهم ، فإذا تـوجهت إليه شركة بسؤال ظنّ أنها سـألته ؛ لأنها لم تعـثر على شـخص آخر بإمكانه أن يجيب عن أسئلتها . وإذا واجه مشـكلة ، ولم يتـدخل فيها أحد من أصـــدقائه ؛ فـــذاك ليس لأنهم يريــــدون المحافظة على خصوصيته ، وإنما بسبب إهمـالهم له ، أو شـماتتهم به ، وإذا نصـحه شـخص بنصـيحة ، فـذاك ليس بقصد إصـلاحه ، وإنما بقصد تحطيمه أمام نفسه ، وهكذا ...
- تترجم المبالغة في بعض الأحيان شكلاً من أشكال عـدم الاتـزان ؛ فــترى بعض الأشــخاص يتحولــون من النقيض إلى نقيضه بســرعة الــبرق ؛ فبســبب كلمة أو حركة يمكن لأي شــيء أن ينقلب رأســاً على عقب . ويبدو أن هذا النوع من المبالغة ، هو في الأصل ظاهرة نسوية [1] ، لكن للرجال أيضـاً نصـيبهم منها ، وطالما سـمعنا من يقول : إن كنت تستطيع أن تقول ذلك فهذا يعني أن علاقتنا لا تعني أي شيء . ومن يقول : خطأ واحد يفسد الأمر كله .
- كثيراً ما تتجلى المبالغة في ظاهرة الإسـراف في المـدح والـذم ، وهــذه الظــاهرة عالمية ، لكن يمكن أن نقــول هــذه المــرة : إنها ظاهرة عربية في المقام الأول ؛ فنحن من أكـثر أمم الأرض تماديـاً في المدح خاصة وقد تجاوزت المبالغة في المديح لدى بعض الناس مرحلة الكذب الصراح إلى مرحلة الكذب المركب والمعقد ، والــذي يحتاج إلى منهاج خاص من أجل كشفه !

وأعتقد بعد هــذا وذاك أن تحسن مســتوى التفكــير لــدينا ســيظل مرتبطــاً بمــدى ما يســود حياتنا من مناقشة ومصــارحة ، وبمــدى ما تحرزه الأمة من تقدم على الصعد الإنسانية المختلفة .
إن تجديد البعد العقلي ، يحتمل الكثـــير من الكلام ، لكن الـــوقت المتاح لا يسمح بــأكثر مما قلنــاه ، وأســأل الله تعــالى أن يوفقنا لما هو خير وأبقى .

---

(1) ورد في الحديث الشريف : (لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط) .

=================

القراءة .. مدى الحياة

إن فطر الله - جل وعلا - لبـــني الإنســـان على التســـاؤل وحب الاستكشــاف أتــاح لهم أن ينمّــوا كينونــاتهم المعرفية ، وأن ينــدفعوا دائماً نحو معرفة المزيد دون أن يجدوا أي حدود للتشبع أو الارتواء .
كان العلم في القــديم ، يقــوم على (النقــل) ، فكــان التعلم والتعليم عبارة عن أفعــال مقترنة بالزمــان ، حيث يتمــان وفق تتــابع زمــني ، وحين يموت العالم ، فمن الممكن أن يذهب معه أفضل ما يعــرف ، وحين صار للغــات أبجــديات ، وتمتع الإنســان بنعمة الكتابة ، انتقلت المعرفة من حيز الزمان إلى حــيز المكــان ، وصــار الحفظ والتوثيق والاســترجاع والنشر مما هو متــاح على أوسع نطــاق ، وبــذلك أمكن للناس أن يطوروا معارفهم على نحو مدهش ، وصار للبشرية بــذلك تاريخ جديد .
إن هناك دواعي كثــيرة ، تفــرض على الواحد منا أن يتعلم ، ويقــرأ ، ويكتسب الخبرات مدى الحياة ، منها :
1- إن الذي يدعو الإنسان إلى مزيد من التعلم ، هو العلم نفسه ، إذ إنه كلما زادت المعرفة ، اتسعت منطقة المجهــول ، والتقــدم نفسه يعمل على زيــادة حاجة الإنســان الشــديدة إلى المعرفة ، حيث إن التوغل في حقول المعرفة ، يتيح إمكانات ومجــالات جديــدة ، ويولّد دوافع جديــدة للتقــدم الأوسع نطاقــاً . والمثقف الــذي يــرغب في الحفاظ على قيمة ثقافته وكرامتها ، مطالب بأن يعيد تكــوين ثقافته على نحو مســتمر ومتجــدد ، وعنــدما يشــعر بالاكتفــاء بما لديه من معلومات ، سيضع نفسه على شفا الانحطــاط . وإذا كــان متخصصــاً فإن أمواج القفزات العلمية في تخصصه ، ستقذف به نحو الشاطئ ، ليجد نفسه في النهاية خـــارج التخصص . الوضع الـــذهني للرجل

متوسط الثقافة - فضــلاً عن الضــعيف - يسف وينحط بســبب ما يحتشد من النظريــات والأفكــار والمــذاهب الــتي لم يعد بإمكانه المساهمة فيها ، حتى لو أبدى اهتماماً بها .
إن جهلنا ينبسط مع تقــدم المعرفة ، كما ينبسط ســطح التمــاس لكرة ما مع العالم الخارجي عندما يكبر قطرها ، وهذا يشكل تحــدياً متزايداً لكل قارئ .
2- لم يكن لدى الناس قديماً إحسـاس قـوي بارتبـاط كسب الـرزق بمــدى ما يحصــلّونه من علم ، لكن الوضع قد تغــير اليــوم ؛ حيث تتضـاءل على نحو متصـاعد المهن والوظـائف الـتي يمكن للأمــيين ومحدودي الثقافة الاضطلاع بها . وسـوف تجد الأمة الـتي لا يحسَّـن أبناؤها مســتوى معــارفهم - على نحو مســتمر- نفســها مؤهلة لأن تكون تابعة للأمم الأخرى ، ومستغلة لها على كل المستويات !
3- إن ما نمتلكه اليوم من معـارف وخـبرات ، لا يتمتع بقيمة مطلقة ؛ فسكان الأرض يشكلون عالماً واحداً ، وأهمية كل جزء من أجــزاء هــذا العــالم ، تنبع دائمــاً من قدرته على الصــمود والمنافسة وحل المشـكلات ، وما يمتلكه من وزن في السـاحات العالمية . وشـيوع الأمية الأبجدية والحضارية ، قد جلب على أمة الإسلام مشكلات هي أكـبر مما نظن ؛ وليس ذلك على صـعيد المعيشة والإنتـاج فحسب ؛ وإنما على صعيد فهم الإسلام أيضاً ؛ فالإسـلام بما أنه بنية حضـارية راقية ، لا يتجلى على نحو كامل إلا عــبر تجربة معرفية وحضـــارية رائدة ؛ مما يعني أن التخلف الذي نعاني منه قد حال بيننا وبين رؤية المنهج الرباني على النحو المطلوب .
4- إن العقل البشــري ، يميل دائما إلى تكــوين عـادات ورسم أطر لعمله ، وهي مع مرور الوقت ، تشكل نوعاً من البرمجة له ؛ والبيئة - بكل أنواعها - هي الــتي تــوفر مــادة تلك البرمجة . وكلما كــانت ثقافة الإنسـان ضـحلة ، وكـانت مصـادر معرفته محــدودة ، ضـاقت مساحة تصوراته ، وأصبح شديد المحلية في نماذجه ورؤاه ، عــاجزاً عن تجاوز المعطيات الخاطئة التي تشــربها من مجتمعه . والقــراءة الواسـعة ، والاطلاع المتنـوع هو الـذي يعظم الـوعي لديه من خلال المقارنة وامتــداد مسـاحات الرؤية ، وقد كـان علمـاء السـلف ، لا يثقون بعلم العالم الــذي لم يرحل ، ولم يغبِّر قدميه في طلب العلم ، إدراكــاً منهم لمخــاطر البرمجة الثقافية القائمة على معطيــات محلية محدودة .

5- التدفق الهائل للمعلومـات ، وتـراكم منتجـات البحث العلمي في اتساع مستمر ؛ والنتيجة المباشـرة لـذلك هي تقـادم ما بحوزتنا من معارف ومعلومات . وتفيد بعض التقديرات أن نحــواً من 90 % من جميع (المعارف العلمية) قد تم استحداثه في العقود الثلاثة الأخـيرة . وسوف تتضاعف هـذه المعـارف خلال نحو من 12 سـنة . ويقـول أحد الباحثين : إن على المتخصص المعاصر أن يضع في حسـبانه أن نحـواً من 10 -ـ 20 % من معلوماته قد شـاخ ، وعليه أن يجـدده . ويرى أحد الباحثين أن أعراض الشيخوخة تعتري المعلومـات بنسـبة 10 % في اليوم بالنسبة إلى الجرائد ،
و10 % في الســـنة بالنســـبة إلى المجلات ، و10 % في الســـنة بالنسبة إلى الكتب .
6- إن تقادم المعلومـات يتجلى في صـور شـتى ، فتـارة في ظهـور زيفها أو عــــدم دقتها ، وتـــارة يتجلى في عــــدم ملاءمتها للخطط الجديدة ، وأحياناً بتحـوّل الاهتمـام عنها ، لأنها لم تعد ذات قيمة في البناء المعرفي ، وأحياناً بقراءتها قراءة جديدة ، أي :
إنتاجها مرة أخرى على نحو يبعدها عن مضامينها الأولى ...
والعلاج لـذلك كله دوام الاطلاع والمتابعة ، حـتى لا يتـدهور ما لـدينا من معرفة ، وحــتى لا نغــرق في الضــلالات والأوهــام الــتي تنتشر باعتبارها مفرزات جانبية للتقدم العلمي .
القراءة ومصادر المعلومات الأخرى :
عصـرنا عصر انفجـار المعرفة ، فالأعـداد الهائلة من العلمـاء الـذين يشــــتغلون بــــالبحث العلمي ، والوســـائل المتطــــورة في حفظ المعلومــات ونقلها وبثها ، والتواصل الكــوني الفريد والمتزايد ، كل ذلك جعل الناس مغمورين بالأخبار والمعلومات والمفاهيم التي تـرد إليهم كل لحظة من شــتى أصــقاع الأرض . هــذه الوضــعية حملت الناس على طرح سؤال حول ما تبقى من وظيفة للقـراءة والكتـاب ، كما حملت كثـيراً من المثقفين على الجهر بمر الشـكوى من هجر الكتـاب ، والافتتـان بما تعرضه وسـائل الإعلام المختلفة من بـرامج ومـواد ثقافية متنوعة . والحقيقة أن لتلك الشـكوى ما يسـوغها ، إذ إن هناك مؤشرات واضحة إلى إعراض النـاس عن القـراءة واقتنـاء الكتـاب ، والى إقبـالهم على قضـاء أوقـات طويلة أمـام الوسـائل الإعلامية المختلفة .
ويكفي أن نعلم أن متوسط ما يطبع من معظم الكتب في البلاد العربية لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسخة للكتاب الواحد .

وهذا العـدد المحـدود لا ينفد في الغـالب في أقل من ثلاث سـنوات عـادة ، على حين تتجـاوز أرقـام التوزيع في الـدول المتقدمة ذلك بكثير ، بما لا يدع أي مجال للمقارنة !

إن وســائل الإعلام تقــدم بـــرامج على درجة عالية من الزخرفة والإتقـان ؛ مما يعطيها جاذبية عالية . فـاذا أضـفنا إلى ذلك انعـدام البـواعث على القـراءة وانعـدام التقاليد الثقافية المحبـذة لاقتنـاء الكتاب واصطحابه - أدركنا وضعية القراءة في عالمنا الإسلامي !

إن وسـائل الإعلام تقـدم معلومـات متشـظية ، قلما تتصل بالحاجة المعرفية الحقيقية للمتــابع لها ، كما أن المعــروف أن المعلومــات الكثيفة حول أي شيء قد تقف حائلاً دون فهمه على الوجه الصحيح ، تمامــاً مثل الحقــائق والمعلومــات القليلة عنه ؟ فللعقل طاقة محدودة على التحليل والتصنيف والغربلة لما يــرد عليه ، وحين يزيد على طاقته ، فإنه يربكه ويشتته .

من وجه آخر فإن وسـائل الإعلام الحديثة ، قد سـببت أضـراراً بالغة للشعور بالحاجة إلى التفكـير ، فكتَّابها ومعـدُّو برامجها قـاموا بـذلك نيابة عن المتلقين . إن مشـاهد (التلفـاز) ومسـتمع الإذاعة وقـارئ المجلة أو الجريدة .. يتلقى مركَّبـاً كـاملاً من البيانـات والإحصـاءات المنتقاة بعناية ، والمصوغة بأسلوب بلاغي بارع ، مما يدهش القارئ ، ويدفعه إلى نـوع من الاستسـلام لها ، والانقيـاد إلى توجهاتها دون القيام ببـذل أي جهد شخصي ؛ وهـذا كله مغـاير لمتطلبـات التطـور العلمي والاجتماعي الحديث ، والذي يتطلب منا القدرة على الإبـداع ، وترشــيد المحاكمة العقلية أكــثر من الانشــغال باســتيعاب بعض مفـردات المعرفة واسـتظهارها . هـذا كله لا يجعلنا ننكر أن الـدفق الإعلامي والمعلوماتي الهائل ، قد أوجد نوعاً من الاسـتنارة العامة ، ورفع درجة الـــوعي لـــدى النـــاس ، كما أنه ملكهم الكثـــير من المعلومات العامة .

إن الهـامش الـذي يفصل بين التسـلية وبين التثقيف الحق هـامش ضـيِّق ، ومن السـهل أن يكـون ما نسـتمع إليه ونشـاهده ضـرباً من ضروب التسلية ، وتزجية الوقت ، ونحن نظن أننا نتعلم . واعتقد أن الكتاب ما زال هو الوسيلة الأساسية للتثقيف الجيد ، حيث نسـتطيع أن نمارس حريتنا كاملة في اختيار ما نحتاج إليه ، وهو لا يحتـاج إلى آلات مســاعدة للاطلاع عليه ، كما أنه رخيص الثمن إذا ما قـــورن بغيره .

ولست مع هــذا أميل إلي التقليل من شــأن مصــادر المعلومــات الأخــرى ؛ فـالمهم دائمــاً أن تكـون أهـدافنا في التثقيف والارتقـاء المعرفي واضحة ، ثم نبحث عن الأدوات والوسائل الـتي تبلغنا إياها .

والله ولي التوفيق ، ، ،

=================

توسيع قاعدة الفهم

لم تكن الحاجة ماسّة إلى الفهم العميق في يوم من الأيـام كما هي اليوم ؛ فالمعلومات متوفرة إلى حد التخمة ، وصـار الفـارق الواضح بين إنسان وآخر يتمثل في مقدرته على الفهم ، والاستفادة من تلك المعلومـــات على نحو حسن . وهــــذا لن يتم إلا من خلال امتلاك مركّب عقلي جديد ، ذي بنية متميزة . ومهمة التربية أن تساهم في تكوين تلك البنية وصقلها . وسـنذكر هنا بعض المسـائل ذات العلاقة بذلك :

أ - إن أول عمل علينا أن نقــوم به هو أن نقلع الأشــواك من الأرض الطيبة الـــتي نريد أن نزرعها . كثـــيراً ما نعمد إلى محاولة تلقين الطلاب بعض المبـــادئ المنطقية ، أو نشـــرح لهم بعض أســـاليب التفكير ؛ وعند النظر في مدى التـأثير الـذي يتركه ذلك في تصـحيح تصـوراتهم نجد أنه محـدود جـداً . وقد رأينا كثـيراً ممن يـدرِّس علم (المنطق) وكثـيراً ممن درسه ، ورأينا أن تفكـيرهم يفتقر إلى بعض البدهيات التي يحتاجها التفكـير القـويم ! ولـذا فـإن من الصـحيح أن يركز المربي في البداية على إلقـاء الأضـواء الكاشـفة على الأفكـار والرواسب السـابقة ، والمفـاهيم والعـادات العقلية والنفسـية الـتي تحـول دون الرؤية الصـحيحة [1] ، مثل التعصب والمبالغة والرؤية النصـفية ، والميل إلى التبسـيط ، والانغلاق ، والخضــوع للمقــولات الشائعة ، والتعامل مع الواقع على أنه كتلة صــلدة ... وأعتقد أن أثر الأسرة في هذا لن يكـون كبـيراً ؛ حيث إن هـذه المسـائل أعقد من أن ينتبه إليها الأشـــخاص العـــاديون ؛ وإنما المعــوّل في ذلك على الوسائل الإعلامية والمناهج المدرسية والمجالس والنـدوات الفكرية .

ب - إن تقــدم العــالم كــان في الأغلب عن طريق (الأزمــات) وإن القفـزات العلمية والإبداعية جـاءت في الأغلب من خلال الاصـطدام بمشكلات كبيرة ومحيرة .

الذين استطاعوا تجاوز العقبات ، والإتيان بالمبهر العظيم ، ليسوا أولئك الذين استسلموا للمقولات والمفاهيم السائدة في الساحة العلمية ، ولا أولئك الذين يتبرمون بالنتائج التي خالفت توقعاتهم ، وفروض بحوثهم ؛ وإنما أولئك الذين يملكون العقل المنظم الذي يهش ويبش في وجه المسائل المحيرة والمعضلات الغامضة ، ويمنحها الرعاية والملاطفة ؛ حتى يجد مخرجاً أو برهاناً يثبتها على محك التجربة والاختبار[2] . إن كثيراً من أفكارنا لن يبلغ حده الكافي من التبلور والنضج إلا إذا اغتبطنا بالحقائق التي لا تتطابق مع ملاحظاتنا وفروضنا الأولية ؛ حيث من خلالها نستطيع إدخال تعديلات على أفكارنا ، ونجعلها أكثر ملاءمة للتقدم ، وأقرب إلى الدقة والصواب . نحن بشر وتحليلاتنا وملاحظاتنا ، ستظل قابلة للتشذيب والتطوير ، ويجب أن نعلِّم أطفالنا وطلابنا هذه الحقيقة ، ونُريهم من خلال الوقائع والمواقف التطبيقاتِ التي تجعلها تتغلغل في (اللاشعور) منهم .

ج - قالوا قديماً : نصف عالم أضر على الأمة من جاهل . وهذا من الحكم الرائعة ؛ لأن الجاهل يملك بعض الأخلاقيات ، مثل التواضع وحب المعرفة ، والقدرة على الاستماع دون مقاطعة . أما نصف العالم ، فإن لديه قدرة على تكرار الألفاظ ، وطرح الفروض المبتذلة والدارجة ، وعنده حظ من الغرور والتعالم ؛ ولذا فإنه يسدل حجباً سميكة على عقله ، فلا يتقبل الأفكار الجديدة ، ولا يملك من الحماسة ما يكفي لتطوير مفهوماته وطروحاته .

إن توسيع قاعدة الفهم ، يتطلب منا أن نؤكد دون ملل على ضرورة وضع معارفنا وأفكارنا في موضعها الصحيح من جسم المعرفة البشرية المنظمة ، والسائدة اليوم ، وأن ننظر بجدية إلى خطورة ما نجهله حول كل قضية من القضايا المعاصرة . وأرى في هذا السياق أن قدر العالم وفضله لا ينبعان من كثرة ما يعرف ، وإنما من حدسه بما لا يعرفه وتقديره له ، وأخذه بعين الاعتبار عند إصداره الأحكام .

إن صاحب الفهم الصحيح ، يحاول دائماً أن يجعل أفكاره متساوقة مع حجم البراهين المتوفرة لديه ، فعلى مقدار صلابة المعلومات والبراهين تكون صلابة الأفكار ودرجة الوثوق بها . وإذا نظرنا في واقع عالم الأفكار لدى كثيرين منا ، وجدنا أن درجة الوثوق واليقين كثيراً ما تكون متقدمة على ما هو متوفر لديهم من أدلة وبراهين

ومعلومات ؛ مما يجعلهم في حالة دائمة من الاضـطراب والتشـوش ، ومما يجعل خيبة الأمل حليفة لهم !
د - حـتى تتسع قاعـدة الفهم لـدى الناشـئة ، فلا بد من إكســابهم (المرونة) الفكرية ، وسرعة استيعاب المتغيرات الهائلة التي تجتـاح العــالم . إن شــاب الغد يحتــاج إلى أن يكــون مســتعداً للتنقل الجغرافي من أجل طلب الرزق ، فمنطق العصر هو (الترحال) بكل ما تعنيه هـذه الكلمة من معـنى . ويجب أن يكـون أيضـاً مسـتعداً لتغيير اختصاصه ومهنته بحسب ما يتوفر من فـرص العمل . وبحاجة إلى تغيير مفاهيمه عن أشياء كثيرة محيطة به [3] . وهذا كله يحتاج من الشاب أن يمتلك المرونة الفكرية والنفسية . لعل مما يسـاعده على اكتساب هذه المرونة أن ينظر إلى أن الاستجابة للتغيير ليست عبئــاً خالصــاً ؛ فهي بما تتطلبه من التكيف ، تخلص الإنســان من الملل والسأم ، وتخلصه من كثـير من الواقع السـيئ الـذي يعيشه ؛ فالتغيير حين يقوده مسلم ، يكون بإذن الله نحو الأحسن والأفضل .
مما يســهم في تكــوين المرونة الذهنية لــدى الأطفــال ، جعلهم يــدركون جملة الفــروق والاختلاف بين بــني البشر ، وأنه لا يمكن جعلهم نسخاً مكررة بعضهم عن بعض في كل أمر ؛ بل إن الله جل وعلا خلقهم مختلفين ليكمل بعضهم بعضاً على جميع المسـتويات : { وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُـهُم بَعْضـاً سُـخْرِياً } [الزخرف : 32] . ففي الاختلاف ثراء وتنوع وإخصاب وتعـاون ، وهو عامل أساسي في تــوازن الحيــاة العامة . إن فهم النــاس العميق للحيــاة ، بكل ما فيها من تعقيــدات وتشــابكات بهــدي من المنهج الربــاني ، وبتبصــير من الخــبرة ، ســوف يخفف إلى حد بعيد من الشــعور بــالألم ، ومن التلاوم ، وســوف يجعل أحلامهم ممكنة ، وخيـالهم معقـولاً بعقـال ما يمكن توقعه ؛ أي سـيكونون أقـرب إلى الحكمة . وكما كـان يقـول (نيتشـة) : (إن النمو في الحكمة يقـاس بدقة بانخفاض المرارة) [4] .
ولا ينبغي أن نهمل في هـذا الصـدد مسـاهمة معرفة حـدود (الجـائز والممنوع) في مسألة المرونة ؛ فحين يتضح للمرء بجلاء ما هو جائز ، ويتميز عما هو محظور وممنوع ، فإنه يقبل بجرأة كل الأشياء التي تدخل في حيز المباح ، مهما كانت صـورها وأشـكالها ، ومهما كـانت غريبة وغير مألوفة . ومشكلة معظم الشـعوب المتخلفة خلو خبرتها ووعيها من الجـذور الفاصـلة بين الجـائز والممنـوع على المسـتوى القـانوني على الأقل ؛ حيث إن لـديها إلى جـوار كل قـانون مكتـوب

قانوناً غير مكتوب ؛ مما جعل لـدى النـاس أنواعـاً من الخـوف غـير المسـوّغ ، وأحـدث حالة من الإحجـام المبهم ، كما أنه تسـبب في تورط بعض الناس في أمـور ، كـانوا يظنـون أنها من قبيل المبـاح : وهذا هو السر الأكبر القابع خلف سلبية الإنسان لدينا !
مما ينمي خـبرة التفريق بين الجـائزات والممنوعـات ، أن نسـتمع بأذن صـاغية ، وبعقل مفتـوح لكل ما يُطـرح من أفكـار ، وأن نتقبله على أنه اجتهاد ، ما لم يصادم إجماعـاً أو نصـاً قطعيـاً ؛ فالأفكـار لا تنضج ، ولا تتبلور ما لم تلكها ألسنة المناظرة .
من خلال الحـوار والنقـاش والمفاتحة ، ومن خلال الوقـوف على الأهـواء والأخطـاء ، بنصر طريقنا إلى المنظـور الكلي الـذي هو الحقيقة . ولا ريب بعد هـذا وذاك في أن سـعة الفهم ، لا تـؤدي إلى الاتفـاق في الآراء ، لكنها تمنح الأسـاس للاختلاف ، أي تجعل الاختلاف مؤصلاً واضحاً ، وتجعل ما يتم من اتفاق متيناً ؛ لأنه يقـوم على قواعد فكرية ومنهجية صـحيحة . ونسـتفيد من ذلك التسـامح والتعـاطف المتبـادل في حالة الاختلاف ، والتعـاون والمشـاركة في حالة الاتفاق .
إن الإنسـان كـائن قابل للتعلم ، بل إن الإنسـانية كلها ، تظل تتعلم باستمرار ، وإذا تملكتنا هذه الفكـرة ، فسـوف نعـرف كيف نكتسب المرونة ، وكيف نستخدمها في تحسين نوعية الحياة .
هـ- إن الهدف الأساسي من كل ما نتلقاه من تعليم وتـدريب ، ليس أن نتمكن من سـرد المعلومـات عن ظهر قلب ، ولكن أن نحـاول ترشـيد أحكامنا العقلية ، الـتي نسـتند إليها في كل القـرارات الـتي نتخـذها في جميع مجـالات الحيـاة . وهـذا يعـني أن على التربية والتعليم اسـتهداف تكـوين (العقل المثقـف) وهو ذلك الـذي اجتـاز عـدداً كبـيراً من حـالات التـدرب على التفكـير المسـتقيم ، والـذي يستطيع استخلاص نموذج خاص وملامح محددة من خلال استعراض عدد كبير من وجهات النظر المختلفة في المسـألة الواحـدة . وهـذا يعـني الاطلاع على مقـولات كثـيرة في الموضـوع الواحد ، وتـدريب الذهن على الاسـتفادة من تلك الموضـوعات في بلـورة رؤية خاصة متماسكة [5] .
كـان أفلاطـون يـرى أن من الضـروري أن يكـون للعقل نـوع من الاستقلال النسبي عن الوسط الذي يعيش فيه [6] . وهذه الوضعية في تصـوري مما يجب أن تشـملها جهـود توسـعة قاعـدة الفهم ، وتربية العقل المثقف ؛ إذ إن توحد عقـول الناشـئة مع الأوسـاط

والبيئات التي يعيشون فيها ، سـيؤدي بهم إلى أن يصـبحوا (إمّعـات) لا يحسـنون سـوى التقليد ، لكن حين يشـجعون على إبـداء وجهـات نظر مغايرةٍ لما هو سائد ، فإنه سيتكون لديهم عقل ناقد ، وسيكون ذلك مصدراً لتجديد متـوازن . إن تثقيف العقل وتدريبه على إصـدار الأحكام ، يشبه تقوية العضلات ، حيث يمكن بعد تقويتها أن نسـتفيد منها في أي عمل يتطلب القيـــام به اســـتعمالها . إنه يمكن تنمية (العقل المثقف) بطرق عديدة ، منها تهذيب قوى الملاحظة المميزة ، وتقوية ملكة المنطق ليتمكن الفـــــــرد من تتبع الحجة نقطة بعد أخرى ، وبالعمل على إنضاج القدرة على المقارنة .

إن بإمكـان الدراسـات اللغوية والعلـوم الطبيعية أن تنمي عـادات الملاحظة الدقيقة ، وإن الرياضيات هي المـدرب التقليـدي لملكـات التفكـير . أما التـاريخ والدراسـات الأدبية ، فهي تسـهم في تنمية القدرة على الحكم [7] .

---

(1) حاولنا في كتـاب (فصـول في التفكـير الموضـوعي) تسـليط الضوء على شيء من ذلك .

(2) قاموس جون ديوي للتربية : 130 .

(3) العرب وعصر المعلومات : 394 .

(4) قصة الفلسفة : 494 .

(5) انظر الثقافة الفردية وثقافة الجمهور : 83 .

(6) الدروس التي تتعلمها التربية من علم النفس : 138 .

(7) المصدر السابق : 139 .

==================

من أجل إنتاجية أفضل .. أهمية رسم الأهداف

يعيش العالم المتقدم أزمة حضارة بسبب افتقاده الوجهة أو الهـدف الأكـبر الـذي يجـذب إليه جميع مناشط الحيـاة ، ويمنحها المنطقية والانسجام . أما المسلمون فأزمتهم الأساسية ، هي أزمة حركة في العالم ، وأزمة شهود على العصر ؛ فهم في أكثر الأحيـان يتـأثرون ، ولا يؤثرون ، ويأخـذون من الحيـاة أكـثر مما يعطونها ؛ وذلك بسـبب انخفاض إنتاجيتهم ، وضعف إدارتهم لإمكانـاتهم الشخصـية والعامة . نقرأ آيات الاستخلاف وشروط التمكين في الأرض ، وأدبيات النجـاح والفلاح ، لكنّ قليلين منا الـــذين يســـألون أنفســـهم عن وظيفتهم الشخصية في تحقيق كل ذلك !

إن الأماني الوردية حول قيـادة أمتنا للعـالم تـداعب أخيلة الكثـيرين منا ، وتدغدغ مشاعرهم ، لكن لا أحد يسأل عن آليات تحقيق ذلك ، ولا عن الإمكانات المطلوبة للسير في طريقه !

إني أعتقد أن هناك حقيقة أساسـية غائبة عن أذهـان الكثـيرين منا ، هي أننا لا نستطيع أن نوجد مجتمعاً أقوى من مجموع أفراده ؛ ولـذا فإن النهوض بالأمة يقتضي على نحو ما أن ينهض كل واحد منا على صـعيده الشخصي ، وما لم نفعل ذلك ، فـإن الغد لن يكـون أفضل من اليوم .

إن رسم الأهداف نوع من مدِّ النظر في جوف المستقبل ، وإن الله جل وعلا يحثنا على أن نتفكر في الآتي ، ونعمل له : { يَا أَيُّهَا الَـذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحشر : 18] إن المسلم الحق لا يكون إلا مستقبلياً ، ولكننا بحاجة إلى أن نعمم روح الالـتزام نحو الآخـرة على مسـلكنا العام تجاه كل ما يعنينا من شؤون وأحوال .

أهمية وجود هدف :

من الأدوات الأساسية في تحسين وضعية الفـرد أن يكـون له هـدف يسـعى إلى تحقيقه . ونـرى أن حيوية وجـود هـدف واضح في حياتنا تنبع من اعتبارات عديدة ، أهمها :

1- إن كل ما حولنا في تغير دائم ، والمعطيات التي تشـكل المحيط الحيـوي لوجودنا لا تكـاد تسـتقر على حـال ، وهـذا يجعل كل نجـاح نحققه معرضاً للزوال ؛ ووجود هدف أو أهداف في حياتنا ، هو الذي يجعلنا نعرف على وجه التقريب ما العمل الـذي سـنعمله غـداً ، كما أنه يساعد على أن نتحسس باستمرار الظروف والأوضـاع المحيطة ؛ مما يجعلنا في حالة دائمة من اليقظة ، وفي حالة من الاقتـــــدار على التكيف المطلوب .

وقد جرت عادة الكثيرين منا أن يسترخوا حين ينجزون عملاً متميزاً ؛ مما يضـعهم على بداية الطريق إلى أزمة تنتظـرهم . ولــذا فــإن الرجل الناجح ، هو الذي يسأل نفسه في فـورة نجاحه عن الأعمـال الــتي ينبغي أن يخطط لها ، ويقــوم بإنجازها ؛ فالتخطيط هو الــذي يجعل أهمية المـرء تـأتي قبل الحَـدَث . أما معظم النـاس فـإنهم لا يفكــــرون إلا عند وجـــود أزمة ، ولا يتحركـــون إلا حين تحيط بهم المشكلات من كل جانب ، أي يستيقظون بعد وقـوع الحـدث ، وبعد فوات الأوان !

2- إن وعي كثيرين منا بـ (الزمن) ضعيف ، ولذا فـإن اسـتخدامنا له في حل مشكلاتنا محدود . وحين يجتمع الناس برجل متفـوق فـإنهم يضــعون بين يديه كل مشــكلاتهم ، ويطلبــون لها حلــولاً عاجلة متجــاهلين عنصر (الــزمن) في تكوينها وتراكمها ، وطريقة الخلاص منها . ووجود هدف في حياة الواحد منا يجعل وعيه بـالزمن أعظم ، ويجعله يستخدمه في تغيير أوضاعه . إذا سأل كل واحد منا نفسه : ماذا بإمكانه أن يفعل تجاه جهله بعلم من العلـوم مثلاً أو قضـية من القضـايا ؟ فإنه يجد أنه في الـوقت الحاضر لا يسـتطيع أن يفعل أي شـيء يـذكر تجـاه ذلك . أما إذا سـأل نفسه : مـاذا يمكن أن يفعل تجاهه خلال خمس سنين ؟ فإنه سيجد أنه يسـتطيع أن يفعل الكثـير ؛ وذلك بســبب وجــود خطة ، واســتهداف للمعالجة ، وهما دائمــاً يقومان على عنصر الزمن . إني أعتقد أن كثيراً من الخلل المنهجي في تصـور أحوالنا ، وحل أزماتنا ، يعـود إلى ضـيق مسـاحة الرؤية ، ومساحة الفعل معاً ، وذلك كله بسبب فقد النظر البعيد المدى .

3- إن كثـيراً من النـاس يظهـرون ارتباكـاً عظيمـاً في التعامل مع (اللحظة الحاضرة) وذلك بسبب أنهم لم يفكروا فيها قبل حضورها ، فتتحول فرص الإنجاز والعطاء إلى فراغ قاتل ومفسد ؛ وهـذا يجعلنا نقـول : إننا لا نسـتطيع أن نسـيطر على الحاضر ، ونضـبط إيقاعه ، ونســتغل إمكاناته ، إلا من خلال مجموعة من الآمــال والأهــداف والطموحـات ، وبهـذا تكـون وظيفة الهـدف في حياتنا هي اسـتثمار اللحظة الماثلة على أفضل وجه ممكن .

إني أتجــرأ وأقــول : إن ملامح خلاص جيلنا ، والجيل القــادم على الأقل من وهن التخلف والانكسـار قد تبلـورت في أمـرين : المزيد من الالتزام بالمنهج الرباني ، والمزيد من التفـوق ، ولا نسـتطيع أن نجعل هذين الأمـرين حقيقة واقعة في حياتنا من غـير تحديد أهـداف واضحة .

سمات مطلوبة في الهدف :

1- المشروعية :

إن مجمل أهــداف المــرء في الحيــاة ، يعــادل على نحو تــام (اسـتراتيجية) العمل لديه ، ولـذا فـإن الـذين لا يـأبهون لشـرعية الأهداف التي يسعون إلى تحقيقها يحيـون حيـاة مضـطربة ممزقة ، تختلط فيها عوامل البنـاء مع عوامل الهـدم ، وينسخ بعضُـها بعضَـها الآخر . إن الهـدف غـير المشـروع ، قد يسـاعد على تحقيق بعض النمو في جانب من جـوانب الحيـاة ، لكنه يحـطّ من التـوازن العـام

للشخصـــية ، ويفجّر في داخلها صـــراعات مبهمة وعنيفة . وليس المقصود بشرعية الهدف أن يكون معدوداً في (المباحـات) فحسب ، وإنما المقصود أن يكون مندمجاً على نحو ما في الهـدف الأسـمى والأكبر الذي يحيا المسلم من أجله على هذه الأرض ، ألا وهو الفـوز برضــوان الله تبــارك وتعــالى وهــذا يعــني أن الأهــداف المرحلية والجزئية للواحد منا يجب ألا تتنافر معه في وضـعيتها أو مفرزاتها أو نتائج تفاعلها . ولعل من علامات الانسجام بينها وبين الهـدف الأكـبر شـعور المـرء أنه يحيا (حيـاة طيبـة) وهي لا تولد من رحم الرخـاء المادي ، ولا من رحم التمتع بالجاه أو الاستحواذ على أكبر كمية من الأشـياء ، وإنما تولد من ماهية التـوازن والانسـجام بين المطـالب الروحية والمادية للفـرد ، ومن التـأنق الـذي يشـعر به من يـؤدي واجباته .

الهدف المشروع عامل كبير في إيجـاد التطـابق بين رموزنا وخبراتنا ، وهو إلى ذلك مولِّد لما نحتاجه من حماسة للمضي في الطريق إلى نهايته .

2- الملاءمة :

لكل منا طاقاته وموارده المحـدودة ، وله ظروفه الخاصة ، وله إلى جـانب ذلك تطلعـات وتشـوّفات ؛ ومن الواضح اليـوم أن الحضـارة الحديثة أوجـدت لـدى النـاس طموحـات فـوق ما هو متـوفر من إمكانات لتلبيتها ، وهذا يؤدي بكثير من الناس إلى أن يسلكوا طرقـاً غير مشروعة لتلبيتها ، أو يؤدي بهم إلى الشعور بالعجز والانحسار . والهـدف الملائم ، هو ذلك الهـدف الـذي يتحـدى ولا يعجز . ومعـنى التحدي دائماً : طلب تفجير طاقات كامنة أو استخدام مـوارد مهملة ، لكنها جميعـاً ممكنة . حين يكـون الهـدف سـهلاً فإنه لا يـؤدي إلى حشد إمكاناتنا الذاتية ، ولا إلى تشـغيل أجهزتنا النفسـية والعقلية ، كما لو أننا طلبنا من شـخص أن يقـرأ في كل يـوم ربع سـاعة ، أو يستغفر عشر مرات .

في المقابل فـإن الهـدف الكبـير جـداً يصد صـاحبه عن العمل له ، وفي هذا السياق نـرى كثـيراً من أهل الخـير ، يشـعرون بالإحبـاط ، ويشكون دائماً من سوء الأحوال ، وتدهور الأوضـاع ، وهـذا نـابع من وجود هدف كبير لديهم هو (الصلاح العـام) لكن ليس لـديهم أهـداف صغيرة ، أو مرحلية تصب فيه . إن كل هدف صغير يقتطع جزءاً من الهدف الكبير ، ويؤدي إلى قطع خطوة في الطريق الطويل ؛ وعدم وجود أهداف صغيرة ، يجعل الهدف النهائي يبدو دائماً كبيراً وبعيـداً

، وهذا يسبب آلاماً نفسية مبرحة ، ويجعل المرء يظهر دائماً بمظهر الحـائر العـاجز . إنه لا يـأتي بالأمل إلا العمل ، وقليل دائم خـير من كثير منقطع .
3- المرونة :
إن أنشطة جميع البشر ، تخضع لعدد من النظم المفتوحة ، ومن ثم فإن النتائج التي نتطلع إلى الحصـول عليها ، تظل في دائـرة التوقع والتخمين . حين يرسم الإنسان هدفاً ، فإنه يرسمه على أساس من التقييم للعوامل الموجودة خارج طبيعة عمله ، وخارج إرادته ، وهذه العوامل كثـــيراً ما يتم تقييمها على نحو خـــاطئ ، كما أنها عرضة للتغير ، بالإضـافة إلى أن إمكاناتنا الـتي سـوف نسـتخدمها في ذلك هي الأخرى متغيرة ؛ ولهذا كله فإن الهدف يجب أن يكـون (مرنـاً) ، أي : له حـدود دنيا ، وله حـدود عليا ؛ وذلك كـأن يخطط أحـدنا لأن يقرأ في اليوم ما بين ساعتين إلى أربع سـاعات ، أو يـزور ثلاثة من الإخوة إلى خمسة وهكذا .. هذه المرونة تخفف من ضغط الأهـداف علينا ؛ فالناس يشعرون حيال كثير من أهدافهم أنها التزامـات أكـثر منها واجبـــات ، والالـــتزام بحاجة دائمـــاً إلى درجة من الحرية ، وسيكون من الضار بنا تحوّل الأهـداف إلى قيـود صـارمة ، وحـواجز منيعة في وجه تلبية رغبات شخصية كثيرة .
4- الوضوح :
هذه السمة من السـمات المهمة للهـدف الجيد ، حيث لا تكـاد تخلو حيـاة أي إنسـان من الرغبة في تحقيق بعض الأمـور ، لكن الملاحظ أن قلة قليلة من الناس ، تملك أهدافاً واضحة ومحـددة ، ولـذا فمن السهل أن يتهم الإنسان نفسه أو غيره بأنه لم يتقـدم باتجـاه أهدافه خطوة واحدة خلال عشرين سـنة ، مع أنك لا تـراه خلال تلك المـدة إلا منهمكاً ومتابعاً بما يعتقد أنه هدف يستحق العناء !
إنه يمكن القـول بسـهولة : إن كل هـدف ليس معه معيـار لقياسه وللكشف عما أنجز منه ، وما بقي ؛ ليس بهـدف . ولـذا فـإن من يملك أهدافاً واضحة يحدثك دائماً عن إنجازاته ، وعن العقبات الـتي تواجهه . أما من لا يملك أهدافاً واضـحة ، فتجـده مضـطرباً ، فتـارة يحدثك أنه حقق الكثـير الكثـير ، وتـارة يحـدثك عن خيبته وإخفاقه ؛ إنه كمن يضرب في بيداء ، تعتسفه السبل ، وتشتته مفارق الطـرق ! نجد هذا بصـورة أوضح لـدى الجماعـات ؛ فالجماعة الـتي لا تملك أهدافاً واضحة محددة ، تظل مشتتة الرأي في حجم ما أنجزته ، ولا يكـاد خمسة من أبنائها يتفقـون في تقـويمهم لـذلك ! لا يكفي أن

يكون الهدف واضحاً ، بل لا بد من تحديد توقيت لإنجـازه ، فالزمـان ليس ملكـاً لنا إلى ما لا نهاية ، وطاقاتنا قابلة للنفـاد . ثم إن القيمة الحقيقية للأهـداف ، لا تتبلـور إلا من خلال الـوقت الـذي يسـتغرقه الوصول إليها ، والجهد والتكاليف التي نحتاجها . ولهـذا كله فالبـديل عن وضـوح الهـدف ، ووضـوح تكاليفه المتنوعة ، ليس سـوى العبث والهدر والاستسلام للأماني الخادعة !

إن من أسباب ضبابية أهـدافنا أننا لا نبـذل جهـداً كافيـاً في رسـمها وتحديدها ، وهذا لا يؤدي إلى انعـدام إمكانية قياسـها فحسب ، وإنما يؤدي أيضاً إلى إدراكها بطريقة مبتذلة أو رتيبة ، مما يُفقدها القـدرة على توليد الطاقة المطلوبة لإنجازها .

سـنعمل الكثـير من أجل أهـدافنا إذا أدركنا أنه عن طريقها تتم الصياغة النهائية لوجودنا .

ولله الأمر من قبل ومن بعد

====================

وحدة الأمة : معوقات وإمكانات

ظلت الوحـدة المحـور الـذي يجـذب مشـاعر سـلفنا أهل السـنة والجماعة وأنشطتهم على مـدار التـاريخ ، بل إن اسـمهم يـدل على ذلك ، فهم متوحـدون على السـنة ، وقد ضـحوا في سـبيل ذلك بتضحيات كثيرة ، ليس أقلها تحمل عسف الظلمة والطغاة ، وكيفوا كثـيراً من اجتهـاداتهم على نحو يجعل وحـدة الأمة واجتمـاع الكلمة هدفاً أسـمى ، وحاجـةً ملحة ، لكن ضـعف الشـورى وضـعف الدولة المركزية في بغـداد ، وعـدم تطـوير نظـام إداري قـوي مـرن يحقق التوحيد في جـوانب ، ويحفظ الخصوصـيات في جـوانب ، وأسـباب أخرى أدت جميعها إلى تفتت الخلافة العباسية ووأدها على يد التتـار عام 656 هــ ، وقـامت بعد مـدة الخلافة العثمانية ، فجمعت شـمل كثير من الدول والإمارات الإسلامية مرة أخرى . ونتيجة لتـآمر كبـير من الخارج ، وقصـور أكـبر من الـداخل سـقطت الخلافة العثمانية ، وتشـتت شـمل العـالم الإسـلامي ، ووقع كثـير من بلدانه في بـراثن الاسـتعمار الأوربي ، الـذي لم يخـرج حـتى شـوّه كثـيراً من البـنى الفكرية والثقافية لتلك الدول المستعمرة ؛ حتى لا تختلف كثيراً بعد خروجه عما كانت عليه قبله ، بل إن بعضها ازداد حاله سوءاً ! .

لكن على الرغم من كل ما حصل ظلت أشواق الوحدة تضطرم في النفـوس ، وظلت الأبصـار مشـدودة نحو مسـتقبل لأمة الإسـلام ،

يسوده الوئام والتناصر ، ومع كل صدع يصيب كيـان هـذه الأمة على أي مستوى كانت تتصدع قلوب كثير من المخلصين الغيورين .
فما هي العوائق التي مـازالت تحـول دون أي شـكل واسع ذي قيمة من أشكال الوحدة ، والتنسيق بين دول وشعوب العالم الإسلامي ؟
نحن ننظر ابتداء إلى أن عقيدة التوحيد قـادرة على جعل من يـؤمن بها أمـــةً من دون النـــاس يحكمها منهج واحد ، وتنتهي إلى غايـــات واحـــدة ، كما أن تلك العقيـــدة بما يتبعها من أحكـــام ونظم تحـــدد أشـــكال التعامل بين هـــذه الأمة وبين غيرها من الأمم ، وهـــذا كله يجعل تحقيق شكل من أشكال الوحدة بين شعوب العالم الإسـلامي أمراً طبيعياً بدهياً ، ولا سيما أن غير المسلمين ينظـرون إليهم على أن لهم من التجانس والتميز ما يجعلهم جميعاً في خندق واحد .
والعـــالم الغـــربي يســـير اليـــوم بســـرعة مدهشة نحو اعتبـــار كل المسلمين مهما تكن درجة التزامهم أصوليين متطرفين معادين ! .
وإذا كـان الأمر كـذلك فـإن بـروز أشـكال من التعـاون والتوحد بين الشعوب والـدول الإسـلامية قد يكـون مرهونـاً إلى حد بعيد بنضـوج الصـحوة الإســلامية المباركة وانتشـــارها وتمكنها ، لكن هنـــاك من العوائق والصـــعوبات ما يجب تذليله أو التخفيف من غلوائه قبل أن نتمكن من تحقيق ما نريد ، ولعلنا نوجز فيما يلي أهم تلك العقبات :
1- إن حالة السكون والركود التي يعيشـها كثـير من شـعوب العـالم الإسلامي ستنتج دائمـاً التفكك والتمـزق ، فـالانطلاق الراشد يـؤمّن ترابطاً عجيبـاً بين سـائر بُنَى الأمة ومؤسسـاتها ، حيث تتمكن الأمة من حل كثـــير من المشـــكلات كما أنها لا تتـــوهم العنـــاء حينئذ من مشكلات لا وجود لها .
2- هنـــــاك علاقة حساسة بين الوحـــــدة والحرية قد تصل إلى حد التضاد في بعض الأحيان ، مع أن كلاً منهما يـؤمّن حاجـات أساسـية للفرد والأمة ، فالوحـدة قيـود قد تصـادر بعض الحريـات ، وتسـتلب شـــيئاً من المكاسب ، وهـــذا على كل المســـتويات ، والنـــاس حين يتحملـون أعبـاء الوحـدة وقيودها إنما يفعلـون ذلك لما تـوفره من حاجـات ومصـالح ، ولما تدفعه من مخـاطر التشـرذم ، فـإذا أحس متحـدان (شـعبان أو شخصـان) أن أعبـاء الوحـدة أكـبر من منافعها صـاروا جميعـاً إلى التخلص منها ، مهما تكن العواطف قوية نحوها ! وهذا هو أكبر سبب أدى ويؤدي إلى الانفصال بين الدول والجماعات على مـدار التـاريخ (وهـذا هو السـبب الـذي يـؤدي إلى الطلاق بين الزوجين) ، وهذا يعني أن تفكيراً عميقاً ودراســات مستفيضة ينبغي

أن تسبق كل شكل من أشكال التوحد ؛ حـتى لا يصـبح ذلك الهـدف الكبير من أهداف الأمة حقلاً للتجارب المخفقة .
3- تتطلب الوحدة الإسلامية بروز قـدرة حسـنة على (التكيـف) عند أفراد الأمة ؛ إذ إن الوحـدة تتطلب التنـازل عما هو هامشي وصـغير ومؤقت في سبيل تحقيق ما هو أساسي وكبير ودائم ، وهـذا يتطلب وعياً تامـاً بمكاسب الوحـدة وتكاليفها بل إن الأمر يتطلب في بعض الأحيـان موقف تضـحية من قبل بعض الشـعوب والجماعـات كما يضحي الشـهيد بحياته ، ويتنـازل عنها في سـبيل نصـرة دينه ورفعة أمته ، ولن يقدم على هذه التضحية إلا المؤمن الـذي تمكن الإيمـان من قلبه ؛ فـالفهم العميق والإيمـان المكين شـرطان لابد منهما لحصـول ذلك ، والنقص فيهما أو في أحـدهما قد يـؤدي إلى تصـارع فئتين دعواهما واحدة .
4- الفوارق الاقتصادية الكبرى بين كثير من شعوب العالم الإسلامي تجعل تحقيق الوحدة أمراً غـير يسـير ، ويـذكر في هـذا السـياق أن التبـادل التجـاري بين الـدول الإسـلامية لا يتجـاوز 4% من مجمل تجارتها ، أما ال 96% فهو مع دول غـير إسـلامية ، وسـبب ذلك أن الغرب ظل على مدار ثلاثة قرون يكيف حاجات الشعوب الإسـلامية مع فـوائض إنتاجه ؛ حـتى لا يجد المسـلم شـيئاً من حاجاته إلا في الغرب ، أو في بلدان استوردته من الغرب ! .
5- على الصعيد الثقافي ذي الأثر الخطير في العلاقات بين الشعوب نلاحظ أن أكثر مناطق العالم الإسلامي هي مراكز لاجتياح العواصف والأعاصير الثقافية ، فهذا بلد متأثر ببلد مجاور له غير مسلم ، وهـذا متـأثر بمن اسـتعمره ، وآخر بمن أرسل إليه البعثـات ... وهكـذا . والوحـدة حين تقـوم لابد أن ترتكز على عـدد من الركـائز التربوية والثقافية إلى جـانب الركـائز العقدية والاقتصـادية ، وهـذا ما نجـده ضامراً إلى حد بعيد في كثير من بلدان العالم الإسلامي .
6- يفتقد العالم الإسـلامي اليـوم النـواة الصـلبة القـادرة على تبـني الأطر الوحدوية وتعزيزها ، والـتي تمتلك في الـوقت ذاته القـدرات والإمكانات التي تجذب دول العـالم الإسـلامي وشـعوبه نحوها ، وإذا علمنا أن الظواهر الكبرى لا يمكن أن تنشأ إلا حول نواة تَنْشـدّ إليها وتتحـدد من حولها أدركنا الصـعوبات الـتي تواجه الأعمـال التوحيدية في العالم الإسلامي .
7- شهد أكثر بلدان العالم الإسلامي نشاط تيارات ، وطنية ، وقومية ، وإقليمية نبتت لتملأ الفـراغ الـذي خلفه انهيـار الخلافة العثمانية ،

وهذه التيارات أفرزت فلسفات وأدبيـات تمجد الكيانـات الصـغيرة ، وتبحث لها عن أمجـاد خاصة بعيـداً عن الـولاء للـوطن الأكـبر ، مما يستدعي جهوداً فكرية وأدبية وثقافية كبرى تعيد بناء العلاقة السوية بين عالمنا الإسـلامي الكبـير ، وبين الأوطـان الإقليمية الـتي نعيش فيها ، والأعراق والأجناس التي ننحدر منها .
هذه بعض المعوقات التي تقف أمام خطوات توحيد العالم الإسلامي لكن لأن الوحدة في عمومها مطلب شرعي ومصيري فـإن السـعي نحو التقليل من أسـباب الشـتات والفرقة ، وبلـورة بعض الأطر والمؤسسات التوحيدية يظل هدفاً وهاجساً لكل الغيورين على هذه الأمة والمخلصين لهذا الدين .
وبما أن الحـديث موجه أصـلاً إلى هـؤلاء ، فـإن بالإمكـان أن نـذكر بعض الإمكانات المتاحة للأفراد والهيئـات الشـعبية والرسـمية ، مما يعد تمهيـداً لجمع شـمل الأمة على مسـتوى ما ، وبكيفية من الكيفيات على الوجه التالي :
1- تحتل اللغة العربية مكانة هامة بين وسائل التوحيد ، ومن ثم فإن المـدخل الصـحيح لكل أنـواع التقـريب بين المسـلمين هو تعميم العربية بين الشعوب الإسلامية الـتي لا تنطق بها باعتبارها لغة أولى ؛ إذ إن اللغة ليست وعـاء فقط ، لكنها وعـاء ومضـمون وقـوالب للتفكـير في آن واحد [*]؛ وينظر المسـلمون في بقـاع الأرض إلى العربية نظـرة إجلال وتقـدير لكونها لغة كتـابهم ونـبيهم -صـلى الله عليه وسـلم- وتـراثهم الـروحي والثقـافي ، وهـذا يسـاعد كثـيراً في الإقبال على تعلمها ونشـرها ، ومن واجب الجماعـات والمؤسسـات والهيئـات المختلفة أن تسـعى لإدخـال العربية إلى منـاهج تلك الشـعوب باعتبارها لغة ثانية ، كما أن من واجبها العمل على فتح المعاهد والمراكز التي تعلم العربية .
2- من واجب الجماعـات والمؤسسـات الإسـلامية أن تسـعى إلى بلـورة بعض الأطر الوحدوية كالاتحـادات الإسـلامية مثل (اتحـاد المدرسين المسلمين ، واتحاد التجـار المسـلمين) .. وهكـذا ، وهـذا الأمر ليس باليسـير إذا أدركنا أهميته ، وفرغنا له الكفـاءات والطاقات المطلوبة .
كما أن من المطلوب منا أن نسعى في المنطقة العربية إلى إدخال لغة إسـلامية ، كالتركية ، أو الأردية إلى منـاهج تعليمنا ، حـتى نقيم جسور الأخوة والتفاهم بيننا وبين إخواننا .

3- للدعاة الذين يجوبون العالم الإسـلامي دور خطـير في اكتشـاف كل ما ينمي أوجه التعاون والتكامل بين بلـدان العـالم الإسـلامي ثم الكتابة عن ذلك ونشــره ، لتتعــزز معرفة المســلمين بالإمكانــات التوحيدية المتاحة .
4- العـــالم الإســـلامي بحاجة إلى عـــدد من مراكز المعلومـــات والدراسـات المرموقة الـتي تعـنى بتثقيف النـاس بهمـوم العـالم الإســـلامي ، والكشف عن إمكاناته الاقتصـــادية والتجارية وغيرها ؛ بغية حث الناس على توجيه طاقاتهم وتحركاتهم نحوها .
5- في زماننا هـذا قد يكـون الاقتصـاد في كثـير من الأحيـان هو ما تبقى من السياسة ، بل إن السياسة تتجه لتتمحض لخدمة الاقتصـاد ، وفي هـذا الصـدد فـإن من الحيـوي لنمو الصـناعات في العـالم الإسـلامي إقبـال المسـلمين على اسـتهلاكها ، وسد حاجـاتهم بها ، ونحن نقف في كثـــير من الأحيـــان من هـــذه المســـألة الموقف المنكوس حيث ننتظر تحسن الصـناعة حـتى نقبل على اسـتهلاكها ، مع أن من أهم سـبل تنميتها وتحسـينها ارتفـاع مبيعاتها ، ونجد في هـذا الشـأن أن أبنـاء الصـحوة لم يفعلـوا شـيئاً ذا قيمة في طريق تشـجيع النـاس على ش'راء المصـنوعات الإسـلامية : لا عن طريق الطرح في الإطار النظري ولا عن طريق القدوة الحسنة ! .
6- يتطلب توحيد العـالم الإسـلامي المرحلية والتـدرج على مسـتوى المؤسســـات وعلى مســـتوى الأقـــاليم ، والكتل الإقليمية يمكن اعتبارها خطـــــوات إيجابية على الطريق إذا قـــــامت على النهج الإســلامي ، وكــانت مفتوحة ، تشــجع الانضــمام إليها ، وتنمي في الوقت ذاته أدبيات (الكل) الإسلامي المنشود .
وفي الختــام فــإنني أعتقد أن الطريق شــاق وطويل لكنه الطريق الوحيد الــذي لا مفر منه ، وطريق الألف ميل يبــدأ بخطــوة ، وحين يتوفر الإخلاص فإن رحمة الله قريب من المحسنين .

(*) ومع التســـليم بأهمية اللغة العربية إلا أننا نعتقد أن (العقيـــدة) الحقّة المنبثقة من التوحيد الخــالص هي الخطــوة الأولى لأي عمل وحــدوي ، وأهمية إشـاعتها وتصـحيحها مطلب مهم يجب البـدء به ، وهذا ما أشار إليه الكاتب الكريم في بــدايات مقاله ، ولا يُعــارِض ما ذكــره هنا إذ إن العربية هي الوســيلة المثلى لفهم نصــوص الــوحي وتعلم عقيدة الإسلام .

===================

بين المفكر والمختص

يزداد تشعب العلوم يوماً بعد يـوم ، ويصـبح الفـرع فروعـاً ، ويتولد من العلم الواحد علوم ، وتتفجر المعرفة نتيجة الأعداد الضـخمة من المثقفين الـــذين يعملـــون في مجـــالات البحث العلمي ، ونتيجة الوسائل الكثيرة المتاحة لهم ، وعلى رأسها الحاسب الآلي .

وإلى جـانب هـذا فـإن العلم نفسه صـار يفـرز مشـكلات جديـدة ، يوصف كـثر منها بأنه مصـيري ، ويتقـدم العلم ويـزداد تشـابكه مع العلـوم السياسـية والأخلاقية ! مما دفعنا إلى تسـليط الضـوء على هذه القضية .

من هو المفكر ؟

يمكن أن نقــول بإيجــاز : إن المفكر هو من يملك رؤية نقدية ينقل من خلالها تناقضات مجتمعه ومشكلاته إلى حسِّ الناس وأعصابهم ، لتصبح إحدى مفـردات همـومهم اليومية ، وهو بما يعـرف من سـنن الله تعالى في الأنفس والآفاق ، وبما يملك من رؤية شـاملة فاحصة للواقع والتـاريخ يتمتع بـ (حاسة الاستشـعار عن بعـد) ، فـيرى ما لا يراه الناس ، فينذرهم ويوجههم نحو طريق الفلاح . وكثيراً ما تكـون حيـاة المفكر قلقة ، بل قد يـدفع حياته ثمنـاً لما يحمل من فكر ، إذ أن المفكر كثيراً ما يكون سابقاً لمعاصريه ، وهذا يجعل إدراك أبعاد ما يقـول غـير متيسر لأكـثرهم ، كما أن ما يحدثه من استبصـار في مشكلات أمته يتعـارض مع مصـالح فئـات في المجتمع ، تقتـات من وراء وجــود تلك المشــكلات ، مما يثيرها عليه ، ويجعله هــدفاً لها . وقد يكـون المفكر متخصصـاً في أحد فـروع العلم ، وقد لا يكـون . وقليل أولئك الذين يتقنـون تخصصـاً ما ثم تكـون لهم رؤية مجتمعية شاملة .

أما المختص فإنه يكون - في الغـالب - متبحـراً في علم من العلـوم التطبيقية أو الإنسـانية ، فهو لا يصـدر عنه إلا ليعـود إليه ، وكثـيرًا ما يكـون المختص فاقـداً للـوعي الاجتمـاعي ، إذ إن التخصصـات في حالة من التوسع المسـتمر ، كما أن مشـكلاتها في تزايد مسـتمر ، ومهما بــذل المــرء من جهد بغية إتقــان تخصصه وجد أن الــتراكم المعـــرفي يبعـــده عن غايته تلك ، وهـــذا يقتضي منه المزيد من الانهمـــاك فيه ، والمزيد من البعد عن مشـــاكل الحيـــاة اليومية ، وبالتالي فهو يبتعد باستمرار عن الرؤية الشاملة .

وحياة المختص - في الغالب - أقرب إلى السلامة والاسـتقرار ، لأن الفئـات الـتي تـنزعج من المفكـرين تتخذ من الاختصاصـيين وسـائل تساندها - ولو بصورة سلبية - في الوصول إلى مصالحها .
ويمكن أن يقال : إن المختص يشبه طبيبـاً في قافلة كبـيرة ، فهو لا يعــرف الكثــير عن أهــداف المســيرة أو محطــات التوقف ، إذ إن معالجة الأعداد الكبيرة من المرضى تستغرق كل وقته ، أما المفكر فهو قائد القافلة الـذي عنـده معرفة تامة بكل المشـكلات الكـبرى التي تواجه القافلة ، كما أن مخطط السير واضح لديه تماماً ، وهـذا في الغـــالب يجعله لا يتمكن من معرفة التفاصــــيل الدقيقة لكل شؤون الرحلة ، ولماذا يهتم بذلك وهناك المختصون الـذين يعملـون على علاجها وتسييرها .
التخصص ومشكلاته :
يجب القول ابتداء أن مجالات التخصص آخـذة في التفـرغ يومـاً بعد يوم ، والباحثون يشعرون بضيق المجالات الـتي يعملـون فيها وميلها إلى شدة التخصص ، وهذه الحال نفسها هي التي أدت إلى الـتراكم المعــرفي الضــخم الــذي نــراه اليــوم ، حــتى إن بعض المــولعين بالإحصاء يقولون : إن المعرفة تتضاعف فيما بين كل عشر سـنوات إلى خمس عشـرة سـنة ، وهـذا كله ما كـان ممكنـاً لـولا التخصص الـدقيق والـدقيق جـداً ، لأنه وحـده الـذي يسـعف في رفع سـقف المعرفة ، وهو وحده الذي أدى إلى وجود كل هـذه الإنجـازات الـتي نراها . والذين يحاولون إظهار أنهم على معرفة موسوعية يعرضـون - في الغـــالب - معلومـــات ناقصة أو مزيفة ؛ لأن زمـــان المعرفة الموسوعية قد انتهى .
ولكن لابد هنا من القــول : إن ما تم من إنجــاز علمي ، وبــذل في سـبيله الغـالي والنفيس ، إنما وجد من أجل خدمة الإنسـان وتحقيق سعادته ، وعلى المختصين أن يتأكدوا من أن تلك الإنجـازات حققت أهدافها ، وظلت في مأمن من أن تستخدم لتدمير إنسـانية الإنسـان ، بل وجوده كله ! !
ولنضرب لذلك مثالاً واحداً نجلو به ما نرمي إليه .
فقد كــان من المعــروف قبل الحــرب العالمية الثانية أن العلمــاء الألمان قطعوا شـوطاً بعيـداً في محاولة اسـتغلال المعرفة النظرية المتعلقة بالتركيب الـداخلي للـذرة ، وكـان من المسـلم به أن هـذه المحاولات ستسير في المجال العسكري ، وكان هناك خوف من أن تســتغل الطاقة الهائلة الــتي تتولد عن انشــطار الــذرة في تــدمير

الإنســان على يد هتلر الــزعيم النــازي ، ومن ثم فــإن مجموعة من العلمــاء الفــارين من جحيم النازية إلى أمريكا طلبــوا من الــرئيس (روزفلت) رئيس أمريكا آنذاك تخصـيص الأمـوال والوسـائل اللازمة لإنتــاج القنبلة الذرية قبل أن يتمكن العلمــاء الألمــان من صــنعها وجعلها في يد حــاكم مثل هتلر يســتخدمها في فــرض قيم معادية للإنسانية ، وكان في ظنهم أن حيازة أمريكا لها سـوف يـردع هتلر - فيما لو امتلكها - عن اسـتخدامها . وتم ذلك في مـدة قصـيرة حين أجـريت أول تجربة ذرية في عـام 1945 في صـحراء نيفـادا ، ولم تمض سوى فـترة قصـيرة حـتى ألقيت أول قنبلة على (هيروشـيما) في اليابان في الثامن من آب عام 1945 ، وأعقبتها بعد أيام قنبلة أخرى على (نغازاكي) مما عجل بالاستسلام النهائي لليابان .

وقد كـان من رأي العلمـاء الـذين اخـترعوا القنبلة الذرية أن تجـرى تجربة دولية أمــام منــدوبين من مختلف بلاد العــالم لإطلاعهم على مدى القوة التدميرية للقنبلة ، ويطلب من اليابان أن تستســلم على هذا الأساس ، ولكن الحاكم السياسي لأمريكا آنـذاك ، وهو الـرئيس (ترومان) كان له رأي آخر .

وتكفـيراً عن الـذنب أمضى كثـير من أولئك - ومنهم أينشـتين - بقية عمرهم في الدعوة إلى السـلام . ومن العسـير على العلمـاء اليـوم أن يتحكمــــوا في كيفية اســـتخدام علــــومهم وتطبيقاتها حيث إن الشركات والمؤسسات الكبرى هي التي تنفق على أبحــاث العلمــاء في الغـرب ، كما أن الدولة في المعسـكر الشـرقي تـرعى العلمـاء وتنفق عليهم ، مما يجعل إســــقاط حقهم في التحكم فيها أمــــراً مسلماً به مسبقاً .

ولا تقف مشــكلات التخصص المغلق عند هــذا الحد ، فقد وجد مثلاً أن بعض الأمم تولي ثقة للمختصين والفنــيين ، وربما يحثــونهم على القيــام بتشــكيل حكومة تســمى بالحكومة (التكنوقراطيــة) ، أي حكومة الاختصاصيين ، وقد خيب هؤلاء الآمال في كثـير من الأحيـان ، لأنه ثبت أنهم ينظرون إلى المشكلات الكبرى بمنظـور أضـيق مما هو مطلوب ؛ لأن مهنتهم وتخصصهم الــدقيق يغلب عليهم ، ومن ثم فإنهم عاجزون عن تأمل الأمـور من منظـور شـامل . ومن هنا فـإن المجتمع كثيراً ما يلجأ إلى السياسـيين والشخصـيات العامة لإصـلاح ما أفسده المختصون .

إن في المجتمع حوارات داخلية غامضة ، لا يقف عليها إلا من خالط الناس في شرائحهم العديـدة ، ومن ثم يعجز غالبـاً المختصـون عن قيادتهم وتحسس مشكلاتهم .
وقد عزلت التخصصات المغلقة أصحابها عن طبيعتهم الإنسانية حين تحول العلم على أيـديهم إلى مجموعة من الإجـراءات الـتي تقتضي تـدريباً وتعليمـاً مكثفـاً ، ومن ثم فـإن المختص يتباعد تـدريجياً عن رؤية الصــورة الكلية للحيــاة ، كما أن العلم وفق هــذا المنهج يفقد وظيفة من أهم وظائفه ، وهي فقه الـذات والعـودة إليها واسـتكناه أغوارها] وفِي أَنفُسِـكُمْ أَفَلا تُبْصِـرُونَ [[الـذاريات : 21] . ومن ثم فقد بـرز اتجـاه يـدعو إلى ضـرورة خـروج العـالم من تخصصه إلى تخصصات أخرى قريبة منه تتكامل معه وتثريه ، كما نشـأت دعـوات للعلماء التطبيقيين أن يقرءوا في الدراسات الإنسانية ، وأن يعايشوا المشكلات اليومية لمجتمعاتهم - ولو بمقدار - حـتى يحـدث التـوازن في ثقافاتهم وشخصياتهم المجتمعية .
وهذه المشكلات هي مشكلات البـاحث في العـالم المتقـدم ماديـاً ، أما المختصـون عنـدنا فلهم إلى جـانب هـذه المشـكلات مشـكلات أخرى من نوع آخر ، حيث إن الباحثين في ميـادين العلـوم التطبيقية مازالوا إلى هذه اللحظة عند العلوم ، أما التطبيق فإن الأوضـاع في العالم الإسلامي لا تساعد على التطبيق الصـحيح ، ولـذلك فـإن من استطاع من الباحثين الهجرة إلى الغرب هاجر ، ليجد هناك المجــال الـرحب لتطـبيق النظريـات الـتي توصل إليها ، وليضـاف إنتاجه بعد ذلك للحضارة الغربية ، ومن لم يستطع الهجرة توقف النمو العلمي لديه ، ثم تراجع ؛ لأن العلم لا ينمو إلا بالتجربة والتطبيق .
أما البـاحثون في ميـادين العلـوم الإنسـانية عامة فلهم مشـكلة من نــوع آخر ، حيث إن عــدم تنظيم المعرفة لــدينا بالشــكل المناسب وانعدام التواصل بين الباحثين جعل كثيراً منا يجاهد في غـير عـدو ، وذلك لأن البناء المعـرفي أشـبه شـيء ببنـاء ذي طوابق ، مع فـارق واحد هو أن العلماء كلما انتهوا من بنـاء طـابق معـرفي انتقلـوا إليه وتركـوا ما تحته فارغـاً ليشـكل أسـاس البنـاء ومنطلقاته ، وهـذا هو التراكم المعرفي .
والمشكلة أن كثيراً من الباحثين لدينا يرفضون الانتقال من الطــابق الأول إلى ما فوقه ، إما لعـــدم إدراكهم لضـــرورة الانتقـــال ، وإما لعجزهم عنه ، وإما لعدم معرفتهم أن هناك طوابق أخـرى فـوقهم .
وهذا ما نعنيه عند القول : إن المعرفة عند كثير من

باحثينا تفقد صفة التراكم اليوم .
إن كثــيراً ممن يملك أفضل العقــول لــدينا مشــغولون بنشر كتب تراثية أو كتابة بحوث كتب خير منها من أكثر من قرن من الزمــان ، وقد يعمل الواحد من سنوات في تحقيق كتاب مخطوط نقله مؤلفه عن كتاب مطبوع بين أيدينا ، فما الحاجة إلى تكرار غير مفيد ! ! إن ما ينبغي العمل فيه في ميــادين العلــوم الإنســانية هو كل ما يمثل إضـافة للـذات ، أو يسـاعد في حل مشـكلة واقعة أو متوقعة ، وما عدا ذلك فهو هدر لطاقات الأمة بأمس الحاجة إليها .
ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يتجـاوزه إلى أن بعض المختصـين يفـني عمره في حفظ مسائل وقراءة أبواب لا يحتاج إليها الواقع المســلم في شــيء ، ولو أنه التفت إلى واقعه ، ثم أعمل النظر فيما يحتــاج إليه ذلك الواقع ، من فقه ، وفهم ، وتفجــير للنصــوص ، وقــراءة للتاريخ ، لاستطاع عمل الكثير لهذه الأمة .
ومن هنا يــرى بعض المفكــرين أنه لا يمكن تنمية فقه الأولويــات ، وفقه الموازنـــات في وضع حضــاري شــديد التعقيد ، إلا إذا امتلك المختصــون رؤية شــاملة ، وعرفــوا مواضع أقــدامهم ، من خلال معرفة الواقع المعـاش والواقع التـاريخي ، ومن خلال الانفتـاح على الأنشطة الحياتية المختلفة

==================

{ ومَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ }

قصة البشـــــرية هي قصة البحث عن طريق الســـــعادة والأمن والاستقرار ... وقصة البحث عن الفهم والوضوح ، ومحاربة (العماء) و (اللاتكوّن) لكن نتائج ذلك كثيراً ما تكون موضوعاً محزناً للقــراءة !
وهـذه الآية المباركة تفتح أعيننا على السـبب الجـوهري لـذلك ؛ إنه بحث البشرية عن نجاتها بعيداً عن هـدي الله - تعـالى - وبعيـداً عن سـبيله الـذي وضَّـحه لعبـاده في كتبه ، وعلى لسـان رسـله وأنبيائه عليهم الصــلاة والســلام . ولعلنا نقف مع هــذه الآية الكريمة بعض الوقفات التي نستجلي من خلالها بعض ما تشعُّه من معان ومفاهيم ، وبعض ما ترتب على الحيدة عن سبيل الله من مــآس ومهلكـات ، وذلك من خلال الحروف الصغيرة الآتية :

1- تقــرر هــذه الآية المباركة أن ســبيل الهداية هو الســبيل الوحيد الذي على البشرية أن تسـلكه ، وفي حالة تنكبه فليس هنـاك سـبل أخرى للنجاة والفوز والنجاح .
ومعنى الآية : أن من يضلله الله فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا ، وإلى الجنة في الآخرة ، لأنه قد سدت عليه سبل النجـاة . إن الضال يجد سبلاً كثيرة ، لكنها جميعاً توصله إلى غــير ما يؤمِّله ، وإلى غير ما يحقق من خلاله ذاتيته ووجوده ، وهـذا هو الـذي يفهم من قوله - جل وعلا : { وأَنَّ هَـذَا صِـرَاطِي مُسْـتَقِيماً فَـاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام : 153] .
وفي حــديث ابن ماجه عن جــابر رضي الله عنه - قــال : (كنا عند النبي - صلى الله عليه وسلم- فخط خطاً ، وخط خطين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يـده في الخط الأوسط ، فقـال : هـذا سـبيل الله ، ثم تلا هـذه الآية : { وأَنَّ هَـذَا صِـرَاطِي مُسْـتَقِيماً ... }) [2] .
إن هناك دائمـاً الكثـير من إمكانـات الحركة ، والكثـير من اتجاهـات السير ، لكن عدم وجود (الهداية) الربانية يجعل تلك الإمكانات وبالاً على البشرية ، وهذا هو الحاصل الآن .
2- يلمس كل من يعمل فكـــره في واقع البشـــرية وجـــود مفارقة عجيبة بين ما تحـــرزه في مضـــمار الاكتشـــاف والتقنية والتنظيم والســيطرة على البيئة ، وبين ما تحــرزه من تقــدم على الصــعيد النفسي والاجتماعي والأخلاقي والإنساني - عامة - حيث إن التقــدم التراكمي المطرد على الصعيد الأول ، لا يكـاد يوازيه سـوى الحـيرة والارتبـاك ، واتسـاع الخـروق على الصـعيد الثـاني . وهـذا ؛ مع أن الناس يؤملون دائماً أن ينعكس توفر وسـائل الراحة والرفاهية على وضـعهم الــروحي والنفسي والاجتمــاعي ، لكن ذلك - مع الأسف - أمنية لم تتحقق !
في الغرب تساؤلات كثيرة اليوم عن سبب هذه الظاهرة المزعجة ، وتفسيرات عديدة لها ، فمن قائل : إن العــالم لم يوجه من إمكاناته وطاقاته البحثية ما يكفي لسـبر غـور الأبعـاد الإنسـانية والاجتماعية المختلفة ؛ وما بذل من جهد في هذه المجالات أقل بكثـير مما بـذل في المجـــالات الفلكية والطبية والفيزيائية والكيميائية ... ، ولـــذلك فالنتـائج لم تكن غـير متوقعة . ومن قائل : إن المشـكلة تعـود إلى طبيعة العلوم الاجتماعية ، فهي على درجة من الهلامية تجعلها تتأبى

على التشـكيل ، ومهما حاولنا تقـنين أسـاليب التعامل معها ، فـإن النتـائج الـتي يمكن أن نتوصل إليها سـتظل ظنية واحتمالية . ومن قائل : إننا لم نكتشف بعد المنهج الملائم لبحث قضاياها ومشـكلاتها .

والأدوات المعرفية المستخدمة الآن في المجالات الاجتماعية أكثرها مستعار من منهجيات البحث والمعالجة في المجالات العلمية ، ولذا ، فإنها ستظل محدودة الفاعلية ... وهكذا ، فالتحليلات كثـيرة ، لكن لا يبدو أن هناك سبيلاً للخروج من المأزق !

وعندي أن التقدم في مجـالات العلـوم الطبيعية ، يعـود إلى أسـباب عدة . أهمها :

تـوفر الإطـار الـذي تتفاعل فيه الخـبرات والإنجـازات في المجـالات المختلفة ، مما يجعل التقدم الأفقي في المجـالات العلمية المختلفة يســاعد على التقــدم الرأسي في كل مجــال على حــدة . وأمكن التقدم في بلورة هـذا الإطـار وفي تحديد المبـادئ الأساسـية للعمل فيه لسببين أساسيين :

يعــود الأول منهما إلى أن العلم محــدود الطموحــات ، ويشــتغل بالجزئيات ؛ فكثافة إنجازاته من تواضع طموحاته .

ويعـود الثـاني إلى كونه على غـير صـلة مباشـرة بمسـائل الـوحي والروح والاعتقاد ، فكأن الإنجاز فيه في الأصل جزء من سنة الابتلاء في هذه الحياة ، والذي على الناس أن يستخدموا فيه كل مــواهبهم وإمكانــاتهم للنجــاح . أما في مجــال العلــوم الاجتماعية ، فــالأمر مختلف تماماً ، فمهما بـذل النـاس من جهـود ، ومهما اكتشـفوا من مناهج ، فإنهم لن يسـتطيعوا - مثلاً - تحديد الغاية النهائية للوجـود ، كما أنهم لن يسـتطيعوا توفـير المقـدمات الكافية لتحديد ما يحتـاج العقل من مسارات حتى يقوم بأعمال الاسـتنتاج والتوليد ، كما أنهم سيجدون أنفسهم مشتتين حيال تقويم التجارب الكلية .

العقل البشـري - على ما يتمتع به من طاقـات هائلة - تظل وظيفته عند بحث القضـايا الكـبرى أشـبه بوظيفة (المـدير التنفيـذي) الـذي يجهز كل أدوات الرحلة ووسـائلها ، لكنه لا يحـدد أهـدافها ووجهتها ؛ فــذاك من مهــام (القائــد) الــذي يتجسد هنا في المنهج الربــاني المعصـوم . وممن انتهى إلى هـذه النتيجة (أنشـتاين) وهو من أكـبر عباقرة القرن العشـرين عنـدما قـال : (إن حضـارتنا تملك معـدات كاملة ، لكن الأهداف الكبرى غامضة) .

3- حين أعرض الغرب عن (سبيل الله) أخذ يبحث بجدية نــادرة عن السبيل البديلة التي يمكن أن توصله إلى كل أمنياته ، وتحقق له كل رغباته ، وقد كـان (القـرن التاسع عشـر) قـرن التفـاؤل الكبـير ؛ إذ حقق العلم انتصـارات كبـيرة ، واعتقد النـاس في الغـرب عندئذ أن (العلم) سـيكون قــادراً على تحقيق كل شــيء وحل كل معضــلة ، وسيطرت من جراء ذلك النزعة الوضعية أو العلمية المتطرفة الـتي اعتقد أصـحابها أنهم قـادرون على حل لغز الكـون والإجابة على كل الأسئلة التي يطرحها الإنسان ، والمسألة مسـألة وقت ليس أكـثر . وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بالتضـاد بين (العلم) و (الإيمـان) فإما أن تكون عالماً غير مؤمن ، أو مؤمناً غير عالم !

في النصف الثـاني من القـرن العشـرين - على نحو أكـثر وضـوحاً - بدأت النظرة تختلف [3] ، حيث شهد هذا القرن حـربين عـالميتين إلى جــانب أكــثر من 130 حربــاً صــغيرة ، وحيث صــارت البيئة الطبيعية في حالة يــرثى لها ، وأخــذت البــنى الاجتماعية المختلفة بالتـداعي والانهيـار ، وتـبين لصـفوة من علمـاء الغـرب عظم الخطأ الــذي ارتكبه الغربيــون حين ردوا على انحرافــات الكنيسة بالإلحــاد وتأليه (العلم) ، كما تــــبين لهم أن العلم أعجز من أن يـــــدل على طريق النجاة . يقول (بيير كارلي) [4] : (العلم يهــدف إلى تمكيننا من معرفة أفضل بالعالم وعلاقتنا به ، كما أن العلم ينير لنا الطريق في صدد ما يمكن فعله ، وبخصوص الوسـائل والإمكانـات المتاحة ، أو الرهانات والمخاطر . أما (الإيمان) فيقـول لنا ما ينبغي فعله لكي نعطي لحياتنا معنى ، إنه يقدم لنا الغاية من الوجود والقيم وأسـباب الأمل والعمل) [5] .

هــذه الأفكــار صــارت من جملة معتقــدات بعض صــفوة العلمــاء والمفكرين في الغرب ، لكنها ليست في واقع الأمر سـوى خطـوات قليلة في طريق طويل ، والتخريب الذي أحدثته (العلمانية) في بنى الحياة الغربية على مدى ثلاثة قرون شديد الانتشار والعمق ؛ والأمل في الإصلاح على المدى المنظور ضئيل للغاية !

4- إن أمة الإســــلام ما زالت تنعم - بفضل الله - بالهداية ومعرفة (سبيل الله) وهذا ما يوفر للمسلمين اليـوم تمـيزاً ، لا يشـركهم فيه أحد ، كما أنه يخفف الكثير من لأواء الحيـاة ومشـاقها . وأكـبر دليل على هذا عدم وجود ظاهرة (الانتحار) في أي مجتمع إسلامي ، على حين أنها تنتشر في أكثر دول العـالم تقـدماً ورفاهية . لكن لا ينبغي لنا أن نطمئن كثــيراً إلى ما نحن فيه ، فهــذا الفيض من الأفكـــار

والصور والنظم والنماذج التي يبثها في كل اتجاه أكثر من خمسمائة قمر صناعي تدور حول الأرض أربكت (الوعي) لدى كثير من المسلمين ، وبتنا نرى الكثير من الثقافات المحلية العميقة الجذور آخذةً في التحلل والتفكك والانكماش لصالح رموز الحداثة القادمة من الغرب ، وهذا يفرغ الكثير من الأطر والقوالب الإسلامية من مضامينها ، ويدخل مجتمعاتنا في امتحان ليست مستعدة له !

إن الذي يقرأ التاريخ بشفافية يجد أن التقدم العمراني كثيراً ما يكون مصحوباً بانخفاض في وتائر التدين وسويّات الالتزام ، فالقرن الرابع الهجري - مثلاً - كان قمة في التقدم العلمي والعمراني ، لكن الالتزام بتعاليم الشريعة لم يكن كذلك ، فقد كان في القرون التي سبقته أفضل وأرسخ . وهذا معنى تحذير النبي -صلى الله عليه وسلم- لأمته من الانبهار والافتتان بزخارف الدنيا ، وخوفه من أن تعجز عن إقامة أمر الله - تعالى - في ظروف الرخاء والرفاهية .

إن المنتجات التقنية - بالإضافة إلى هيمنة (نظام التجارة) - أخذت تعيد تشكيل حياتنا على نحو لا يعبأ كثيراً بمقتضيات التدين الحق ، وصار من الواجب علينا أن نتدبر أمرنا ونرفع درجة حساسيتنا للوافدات الجديدة ، والا فقد نستيقظ بعد فوات الأوان . وإن على مثقفي الأمة - على اختلاف تخصصاتهم - أن ينهضوا بمسؤولياتهم والوفاء بالعهد المأخوذ عليهم في هذا الشأن ، فالثقافة ليست وجاهة فحسب ، وإنما ريادة ومسؤولية في آن واحد .

ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ، ،

---

(1) سورة الشورى : 46 .

(2) أحمد ، ح / 14853 ، وابن ماجه / المقدمة ، ح / 11 .

(3) انظر كتاب العلم والإيمان في الغرب الحديث : 6 ، 7 تأليف : هاشم صالح ، ضمن سلسلة كتاب (الرياض) عام 1998م .

(4) أستاذ فسيولوجيا الأعصاب وعضو أكاديمية العلوم منذ عام 1979 م .

(5) السابق : 63 .

=================

نسوا الله فأنساهم أنفسهم

يقول الله جل وعلا : { وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ } [الحشر : 19] .

هـذه آية جليلة الشـأن في كتـاب الله تعـالى وهي تضع أيـدينا على حقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود ، وتمنحنا استبصاراً بشأننا العام ، لا يليق بنا أن نتجاوزه دون أن يملأ حياتنا بمعنى جديد !
ولعلنا في الصفحات التالية نقتبس من نور هذه الآية :
1- إن نسيان الله تعالى يكون على مستويين : مستوى ضعف صـلة المسـلم به ، وتبلد أحاسيسه ومشـاعره نحو خالقه جل وعلا ومستوى الإعراض عن هديه واستدبار منهجه .
وفي إطار المستوى الأول نجد أن لدينا الكثـير الكثـير من النصـوص التي تحث المسلم على أن يكـون كثـير الـذكر والمراقبة لله تعـالى حتى يصل إلى مرحلة الحب له وفرح الوعي به ، والاستئناس بذكره ، وقد قال سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [الأحزاب : 41-42] وقـال : { وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } [العنكبوت : 45] .
وفي الحديث الصحيح : (مثل الذي يـذكر ربه ولا يـذكره كمثل الحي والميت) [1] ولو رجعنا إلى ما حثت عليه النصوص من الـذكر ، مما يسمى بعمل اليوم والليلة لوجدنا أن الالتزام بذلك يجعل المسـلم لا يكاد ينفك عن تسـبيح وتحميد وتهليل واسـتغفار وتضـرع ودعـاء ، ما دام مستيقظاً . إن كثرة ذكر لله تعالى تولّد لدى المسلم الحياءَ منه وحبه ، وتنشّـطه للسـعي في مرضـاته ، كما تملأ قلبه بالطمأنينة والأمـان والسـعادة ؛ لينعم بكل ذلك في أجـواء الحيـاة المادية الصاخبة .
إن الفكر يرسم المسـار ، ويرشد إلى الطريق الأصـلح للحركة والعمل ، لكنه لا يكون أبداً منبعاً للطاقة والعزيمة والإرادة الصلبة ، وإن الصلة بالله تعـالى والـتي هي لبـاب كل عبـادة هي الـتي تمـدنا بكل ذلك ، وإن المعانـاة الـتي يشـعر بها المسـلم اليـوم من جـراء الانفصال بين قيمه وسلوكه ، لم تتجذر في حياة كثير من المسلمين إلا بسـبب ما يشـعرون به من العجز عن الارتفـاع إلى أفق المنهج الذي يؤمنون به ؛ وذلك العجز لم يترسخ ، ويتأصل إلا بسبب نضوب ينابيع المشاعر الإيمانية في داخلنا !
إن تيار الشهوات والمغريات الذي يجتاح كل ما يجـده أمامه اليـوم ، لا يقاوم إلا بتيار روحي فيـاض ، يعب منه المسـلمون ما يسـمو بهم عن أوحال الملـذات والمتع الدنيوية ، ويعوضـهم عن نشـوتها . ولـذا فـإن (أدب الـوقت) يقتضي من المـربين والعلمـاء الناصـحين وأهل الفضل ، التوجيهَ إلى إثراء حياة الشباب والناشئة بالأعمـال الروحية

وعلى رأسـها الـذكر حـتى لا يقعـوا في مصـيدة النسـيان واللهو والإعراض عن الله تعالى .
إن مما صار شائعاً أن تـرى بعض العـاملين في حقل الـدعوة ، وقد شُغلوا بضروب من أعمال الخير ، لكن الجانب الروحي لـديهم صـار ذابلاً ، وأقرب إلى الجفاف بسبب إفـراغ طاقـاتهم في السـعي إلى تحقيق أهداف عامة ، كنفع النـاس ، أو الـدعوة إلى الله تعـالى دون أن يستحضـروا النية ، ودون أن يطبعـوا على ذلك اسم الله تعـالى ودون أن يعطـــروه بشـــذى من الصـــلة به ، والإحســـاس العميق بالامتثال لأمره .
وكانت نتيجة ذلك أن فقدت تلك الأنشطة نكهتها وتأثيرها ، وقصّـرت عن بلوغ أهدافها ، بل صار تسرب حظـوظ النفس إليها أمـراً قريبـاً وواردا . إن البنية العميقة للثقافة الإســـلامية متمحـــورة على نحو أساسي حــول تعظيم الله ومرضــاته ، وإن المســلم إذا فقد قــوة الشـعور بالارتبـاط بـذلك ، لن يسـعى في إعمـار الأرض ، وإذا فعل ذلك فإن عمله لن يكون له أدنى تميز ، وسـيخبط ، ويرتع كما يفعل غيره !
2- هناك مسـتوى آخر من نسـيان الله جل شـأنه يتمثل في تخطيط شـؤون الحيـاة بعيـداً عن الاهتـداء بكلماته ، والتقيد بـالقيود الـتي فرضها على حركة عباده . وهذا في الحقيقة هو النسيان الأكبر .
وعند تقليب النظر في واقع أمة الإســـلام اليـــوم نجد أن نســـبة محـــدودة من المنســـوبين لهـــذه الأمة تلــتزم على نحو كلي بفعل الواجبات ، وترك المحرمات . وبما أن الإحصاء حول أي شـيء ليس مرغوباً فيه ، فإننا لا نعرف ، ولا نحـزر الاتجـاه الـذي تسـير فيه تلك النسـبة المحـدودة من الملـتزمين : هل هو النمو ، أو هو الانكمـاش والانحسار ؛ لكن من الواضح أن العديد من القيم والأخلاق الإسلامية العتيـدة بـدأ يفقد التـأثير في ضـبط السـلوك ، وتكـوين المواقف ؛ لأسـباب عديـدة ، ليس هنا موضع ذكرها . وحين تسـمع لكلام كثـير من ذوي النفـــوذ والثقافة في الســـاحات الإســـلامية لا تجد في أحاديثهم وخطابهم العام ما يدل في الشكل أو في الروح على أنهم على شيء من ذكر الله والدار الآخرة ، أو أنهم متأثرون بشـيء من منهجيات هذا الدين وأدبياته ، على الرغم من أنهم يُذكرون في عداد المسلمين !
وإن مما يلاحظ في هـذا السـياق أن تطـوراً مريعـاً قد اجتـاح لغة الخطاب لدينا خلال السنوات العشر الماضية ، فقد كـانت لـدينا قيم

موضـوعية ثابتة ، على من يسـتحق الثنـاء أن يتخلق بها ، وقد كـان الناس يقولون : فلان طيب (ابن حلال) خلـوق ، صـالح ، مسـتقيم ، تقي ، متواضع .. أما اليوم فإن ألفاظ المديح تتمحور حول عــدد من المزايا الشخصــية المرتكــزة على مهـارات معينة ، وعلى علاقـات اجتماعية واسعة ، هي أشبه بما على (مندوبي المبيعات) أن يتقنـوه ! وصار يقال :

فلان ناجح ، شاطر ، اجتماعي (دبلوماسي) حَرِك ، مَرِن ، أثبت ذاته ، وحقق وجوده .

وفي اعتقــادي أن مثل هــذا التطــور ســوف يجعل المجتمع يمــوج باللصــوص والمرتشــين والمحتــالين ما دام النجــاح ، لا الفلاح ، هو المنظم الخفي للتراتيبية الاجتماعية ! وقد نعد هـــذا من أســـوأ ما شــاهدناه من أشــكال التطــور الأخلاقي والاجتمــاعي والــتربوي ، وسوف تكون له آثـار بعيـدة المـدى في البنية الأساسـية للشخصـية المسلمة على مدى عقود عديدة قادمة !

3- إن الآية الكريمة صـريحة في أن نسـيان الله تعـالى كـان سـبباً مباشراً في جعل المرء ينسى نفسه ، وكـأن الـذي يضـيّع نفسه في عاجلها وآجلها ، يضيّع الدنيا فتلفه المشكلات من كل صوب ، ويضيع الآخرة بخسران النجاة والفوز بالجنة .

إن نسيان النفس ليس على درجة واحدة ، وإن الضرر الذي سيلحق الناس سيكون بالتالي متفاوتاً ، وعلى مقدار النسيان والتضـييع لأمر الله تعالى سيكون التضييع للنفس والدنيا والآخرة .

إن خسران الآخرة للذين ينسون الله ، واضح المعالم ، ويستوي في معرفته العامة لــدينا والخاصة ، لكن التضــييع لأمر الــدنيا هو الــذي يحتاج إلى نوع من البيان ، ولعلنا نجلوه في النقطتين التاليتين :

- إن عصر المعلومــات الــذي يظلنا الآن ســيكون والله أعلم أقصر العصور الحضـارية ، وسـوف يعقبه عصر آخر ، هو عصر (الفلسـفة) وبحث المسائل الكلية ، وسـتطرح الأسـئلة الكـبرى : من أين جئنا ، ولماذا نحن هنا ، وإلى أين المصير ، ما حدود الطبيعة البشرية ، وما ماهية الخــير والشر .. ؟ وإنما نقــول ذلك ؛ لأن قــراءة التعاقبــات التاريخية ، تنبئنا أنه حين تصل حالة مّا إلى حدود متقدمة ، تبزغ من الطبيعة البشـرية حالة مضـادة لها ؛ فحين تشـتد العقلانية أو التقنيّة في أمة ، فـــإن أشـــواقاً تنبعث لكســـرها ، فينبثق من العقلانيّ العاطفيّ ، ومن التقنيّ الفلسـفيّ والفكـريّ ، إنه أحد مظـاهر سُـنّة التوازن التي بثها الخالق جل وعلا في هذا الكون !

ولذا فإن الهمجيّين وسوقة السوقة وحدهم ، هم الذين لا يتشـوّفون إلى معرفة مصيرهم النهائي ، وإلى معرفة الغايات الكـبرى للوجـود !
حين تصير البشرية إلى هذه المرحلة ، سيكتشف الذين نسـوا الله ، أنهم لا يملكـون أي جـواب جـازم ، أو مُقْنع على الأسـئلة الكـبرى المثارة بإلحاح ، بل سيجد الغرب على نحو خـاص أنه قد أحـرق كل سـفن العـودة إلى (الـوحي) الـذي يُعد المصـدر الوحيد الـذي يجيب على تلك الأسئلة .
وقد كـان (أينشـتاين) يقـول : (إن حضـارتنا تملك معـدات كاملة ، ولكنها تفقد الإحساس بالأهداف الكبرى) ! .
إن كل إصلاح لشؤون البيئة والاقتصـاد ، وإن أي نـوع من المحافظة على منجزات البشرية ، سيقتضي من اليوم فصاعداً تقدماً ملحوظاً على صعيد (الإنسـان) وما لم يحـدث هـذا التقـدم ، فـإن كل شـيء سيكون في مهب الريح ! !
والملاحظ بقــوة أن الحضــارة الحديثة بصــبغتها المادية ، قد نقلت مجـال السـيطرة من الإنسـان إلى الأشـياء ، حيث أضـعفت إرادة البشر ، وأحاطتها بكل ما يخل بتوازنها ، وهــذا يعــني أن الحضــارة الغربية ببنيتها الحاضرة ليست مؤهلة للنهوض بالإنسان .
إذا كنا نعتقد أن الطبيعة البشـرية واحـدة ، فهـذا يعـني أن غايـات وجودها يجب أن تكون واحدة ، وهذا هو منطوق الوحي ، وهـذا ما لا يبصره الإنسان العلماني اليوم ! !
لن تكون الأسئلة المثـارة أصـيلة إلا إذا كـان لها أجوبة موجـودة عند جهة مّا وهذه الجهة لن تكون أبداً الإنسان ، فمن تكون إذن ؟ ؟
إن العقل البشري خلقه الله تعالى ليكـون في الأصل عقلاً عمليـاً ، وهو في عمله يشبه (الحاسوب) ، وهو كالحاسوب لا يستطيع إدخال تحسينات جوهرية على المـدخلات الـتي يُغـذى بها ، وسـيكون الأمر مضـحكاً إذا عمـدنا إلى تشـغيل العقل البشـري وتحسـين طروحاته وعمله بشيء من منتجاته التي تولى تنظيمها الفلاسفة ، وهم الذين لم يفلحوا في الاتفاق على أي شيء ! ! . إن كل شيء اليوم يتقدم إلا الإنسان فإنه في تـدهور مسـتمر ، وإن مما يثـير الفَـزَع أنه على مدار التاريخ كان التقدم المادي والعمـراني مشـفوعاً بانخفـاض في وتائر التدين والسمات الإنسانية الأصيلة ، مما يدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يوازن بين مطالبه الروحية والجسدية ، دون عون من خالقه .

ولكن المؤسف مـرة أخـرى أننا لا نريد أن نعـترف بـذلك ؛ لأن ذلك يقتضي منا تغييراً هائلاً ، نحن غير مستعدين الآن لدفع تكاليفه !
إن نسيان الله تعـالى قد أفسد النسـيج الإنسـاني كله ، وحين يفسد النسيج العام ، فلن يكون ثمة فائدة تذكر من وراء التعليم والتدريب والتربية ، وكيف يمكن إصلاح خبز أو كعك أو فطير فسد طحينه ؟ !
إن ضعف الإنسان على مدار التاريخ كان من عوامل اسـتمرار بقائه ، أما اليوم فقد اجتمع له القوة الغاشمة مع الطيش الشـديد ، وهـذا ما سيسبب الكوارث ما لم يحـدث انعطـاف كبـير في اتجـاه الرشد والهداية والتدين المبصر الأصيل .
ب - إن المهمة الأساسية للرسل عليهم السـلام أن يبصّـروا النـاس بما يجب عليهم تجاه خالقهم ، وأن يذكّروهم الدار الآخـرة ومطـالب الفوز فيها : { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْـرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ } [غافر : 15] .
ومهمة المصلحين إذا ما أرادوا الاسـتجابة لـدعوتهم أن يُنضـحوا من التعـاليم الإسـلامية ما يمزجونه بالخيـال الخصب والخـبرة البشـرية والملاحظـات الذكية ، من أجل توفـير الظـروف الـتي تجعل النـاس أقرب إلى الالتزام . وإن هذه الدنيا دار ابتلاء ، ولذا فإن علينا دائمـاً أن نختـــار ما يصـــلح أحوالنا ، وإن لكل عصر اختياراته واجتهاداته .
والمشـــكلة أن الفضـــائل والقيم والنظم لا تتفق بعضـــها مع بعض اتفاقــاً كليــاً ، بل إن إقامة كثـير منها قد يتطلب التضـحية ببعضـها الآخر : إذا اخترنا الحرية الفردية ، فقد يقتضي ذلك التضحية بشـكل تنظيمي نحن في أمس الحاجة إليه ، وإذا اخترنا العدالة ، فقد نُرغَم على التضـحية بالرحمة ، وإذا اخترنا المسـاواة ، فقد نضـحي بقـدر معين من الحرية الفردية ..
ومن وجه آخر هل يصح أن نعذب أطفالاً كي ننـتزع منهم معلومـات عن خونة أو مجرمين خطرين ؟ وهل للمرء أن يقاوم حاكماً ظالمـاً ، ولو أدى ذلك إلى مقتل والديه أو أطفاله ؟ ؟
كل هــذا لا يســتطيع العقل أن يعطي أجوبة واضــحة وقاطعة عنه . وننتهي من هـــذا إلى أن كل مجتمع يحتـــاج إلى مقـــدار مّا من تلك الفضـــائل والنظم ، كي يجعل حياته متوازنة ومتســـقة ، فكيف يتم تحديد ذلك المقدار ؟
إن المنهج الربـاني لا يحـدد لنا على نحو دقيق القـدر المطلـوب من التماثل الاجتمــاعي ، ولا القـــدر المطلــوب من الحرية الفردية ، أو العـدل أو الرحمة .. لكنه يضـيق دوائر الاختيـار ، ومسـاحات البحث

والاجتهاد ؛ والفارق بين المهتدي بنـور الله والمحـروم منه كالفـارق بين من يبحث عن إبــرة في صــحراء ، ومن يبحث عنها في غرفة . على الجميع أن يبحث ، ولكن حظوظ العثور على المطلوب متفاوتة تفاوتـاً عظيمـاً ، كما أن إمكانـات الوقـوع في الخطأ ، هي الأخـرى متفاوتة كذلك .
إن العقل بطبيعة تركيبه لا يســــتطيع أن يعمل في أي مجـــــال : فلسفي أو تنظيمي أو تقـني إلا إذا أسـعف بإطـار تـوجيهي يهـيئ له مقدمات ، وبعض المدخلات الضرورية ، وإن المنهج الربـاني عقيـدةً وشريعةً هو الذي يوفر ذلك الإطار .
في مجال التربية الاجتماعية مثلاً نجد أن الشريعة الغراء حــددت لنا محــاور أساســية ، يجب أن ترتكز عليها أنشــطتنا التربوية ، وهي ما ســـماه أهل الأصل بالكليـــات أو الضـــرورات الخمس ، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، وقد تكفّل الفقه الإسـلامي بتوفير الأحكام والأدبيات التي ترسم حـدود الحركة التربوية في ظل هذه المحاور الخمسة ، كما وضـحت المرتبية الـتي يجب اتباعها عند ضـرورة التضـحية ببعضـها لحفظ الآخر ، على ما هو واضح في كتب الأصـول والفقه ؛ فالشـأن الـتربوي لـدينا على علاته أفضل مما هو موجود لدى دول كثـيرة متقدمة عمرانيـاً ؛ وذلك بسـبب وجـود هـذا الإطار التوجيهي ، وهذا كله مع أن أكـثر الشـعوب الإسـلامية تعـاني من أوضاع معيشية قاسية ، والجرائم بأنواعها لدينا أقل ، والتماسك الأسري والاجتماعي أفضل .
إن محنة العقل الذي نسي الله لم يحن أوانها بعــدُ ، ولكن إذا وصل النمو الاقتصــادي إلى حــدوده القصــوى ، وانتشــرت البطالة ، وعم ضـــنك العيش ، فســـوف يـــرى كل المعرضـــين عن دين الله أن الليبرالية والرأســمالية ليست أفضل ما أنتجه العقل البشــري ، وأن الخلاص يتطلب مراجعة جذرية ، من أجل العودة إلى سبيل الرشــاد .
الإنجازات الحضارية وسعادة الأفراد ، ووحدة الكيان الحضـاري ، كل ذلك سـيكون على حافة الهاوية إذا لم يضئ كل منعطفـات الطريق شعاع من الغاية الكبرى ، وإذا لم تتلفع جميعاً بهدي من هـدي الله ؛ والله غالب على أمره .
----
(1) أخرجه البخاري .
==================

{فاستقم كما أمرت}

يقـول الله (عز وجـل) : { فَاسْـتَقِمْ كَمَا أُمِـرْتَ وَمَن تَـابَ مَعَـكَ وَلا تَطْغَـوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ (112) وَلا تَرْكَنُـوا إِلَى الَـذِينَ ظَلَمُـوا فَتَمَسَّــكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَــاءَ ثُمَّ لا تُنصَــرُونَ } . [*]

قضـــية الاســـتمرار في الامتثـــال لأمر الله (تعـــالى) في المنشط والمكره من القضايا الجوهرية في التصور الإسلامي ، ومن القضـايا الجوهرية كذلك في بنية التشريع وأدبياته ، وليس أدل على ذلك من وصية الله (تعالى) لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في هــذه الآية وفي غيرها بـــ (الاســـتقامة) ، الــتي هي : (المداومة على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه) .

وقد قام (عليه الصـلاة والسـلام) بإسـداء النصح بلزومها لمن سـأله عن قول فصل يصلح به جمـاع أمـره ، حيث جـاء في الصـحيح : أن سفيان بن عبد الله (رضي الله عنه) قـال : قلت : (يا رسـول الله ، قل لي في الإسـلام قـولاً لا أسـأل عنه أحـداً غـيرك ، قـال : قل : آمنت بالله ، ثم استقم) [1] .

ولنا مع هذه الآيات المباركة الوقفات التالية :

1- إن في قوله (جل وعلا) { وَلا تَطْغَــوْا } ، وقوله : { وَلا تَرْكَنُــوا إِلَى الَذِينَ ظَلَمُـوا فَتَمَسَّـكُمُ النَّارُ } إشـارة واضـحة إلى ما يعـترض سـبيل الاسـتقامة من ملابسـات السـرّاء والضـرّاء ، وقد أخبرنا ربنا (جل وعلا) أن من طبيعة البسط والتمكن استدعاءَ البغي والطغيـان ، حيث قال (سـبحانه) : { وَلَـوْ بَسَـطَ اللَّهُ الـرِّزْقَ لِعِبَـادِهِ لَبَغَـوْا فِي الأَرْضِ } [الشورى : 27] .

والبغي هو مجـــاوزة الحد ، وهو يتجسد في صـــور متعـــددة : فبغي القوة :

البطش بالضـعفاء ، وبغي الجــاه والنفــوذ : الظلم وأكل الحقــوق ، وبغي العلم : اعتمــاد العــالم على ما لديه من شــهرة ومكانة ؛ مما يدفعه إلى القول بغير دليل ، ورد أقوال المخالفين من غير حجة ولا برهان ، وطغيان المال : التبذير والإسراف والتوسع الزائد في المتع والمرفهات .

والعـــــارض الثـــــاني للاســـــتقامة على خلاف الأول ، حيث تـــــدفع الطموحات والتطلعات المصلحية والضـعف والظـروف الصـعبة إلى مصـــانعة الظـــالمين ومـــداهنتهم وإشـــعارهم بالرضا عما هم فيه ، والاسـتفادة من قـوتهم وما لـديهم من متـاع في تحسـين الأحـوال

وتحقيق المكاسب ... مع أن طبيعة الاسـتقامة والالـتزام في هـذه الحال تقتضي المناصحة ، والهجر ، والضـغط الأدبي ، والتحـذير من التمادي في ذلك ، وهذا كله منافٍ للركـون ؛ لكن الشـيطان يـبرهن دائماً على أنه يملك خبرات مميزة في تزيين الباطل والتلبيس على الخلق ، فهو ينسـيهم أحكامـاً ومواعظ وأدبيـات ومواقف وتجـارب ، ويدفع بهم بعيداً عن كل ذلك !

2- إن الاستقامة في التحليل النهائي ليست سـوى تمحـور المسـلم حـول مبادئه ومعتقداته ، مهما كلف ذلك من عنت ومشـقة ، ومهما ضيع من فرص ومكاسب .

وينبغي أن يكون واضحاً : أن المــرء إذا أراد أن يعيش وفق مبادئه ، ورغب إلى جــانب ذلك أن يحقق مصــالحه إلى الحد الأقصى ، فإنه بـــذلك يحـــاول الجمع بين نقيضـــين ، وســـيجد أنه لا بد في بعض المواطن من التضحية بأحدهما حتى يستقيم أمر الآخر .

إن تحقيق المصـلحة على حسـاب المبـدأ يُعـدّ انتصـاراً لشـهوة أو مصلحة آنيّة ، أما الانتصار للمبدأ على حسـاب المصـلحة فإنه بمثابة (الـتربع) على قمة من الشـعور بالسـعادة والرضا والنصر والحكمة والانسجام والثقة بـالنفس ، وقد أثبتت المبـادئ أنها قـادرة على أن تكرر الانتصـار المـرة تلو المـرة ، كما أثبت الجـري خلف الشـهوات دون قيد ولا رادع أنه يحقق نوعــاً من المتع والمكاسب الآنيّة ، لكنه لا يفتأ أن يرتد على صاحبه بالتدمير الذاتي ، حيث ينمو الظاهر على حســاب فســاد البــاطن ، ويتــألّف الشــكل على حســاب ضــمور المضمون !

إن المبدأ أشبه شيء بـ (النظارة) إذا وضعناها على أعيننا ، فإن كل شيء يتلّـون بلونها ، فصـاحب المبـدأ له طريقته الخاصة في الرؤية والإدراك والتقويم ، إنه حين يرى النـاس يتسـابقون على الاسـتحواذ على منصب يستغرب من ذلك ، ويترفّع ؛ لأن مبـدأه يقـول له شـيئاً آخر غـير ما تقوله الغرائز للآخـرين ، وإذا رأى النـاس يخبطـون في المال الحرام تقززت نفسه ؛ لأنه يعلم ضـخامة العقوبة الـتي تنتظر أولئك ، وإذا أصــيب بمصــيبة فإنه يتجلد ويصــبر ؛ لأنه يرجو المثوبة عليها من الله (تعالى) .

إذا قلّبنا النظر في اهتمامـات النـاس ومناشـطهم اليومية فـإن من السهل الوقـوف على المحـور الـذي يعلقـون عليه تـوازنهم العـام ، ويدورون بالتـالي في فلكه ، وهنـاك تشـاهد من همّه الأكـبر النجـاح في عمله والمحافظة على ســمعته فيه ، كما تشــاهد من يتمحــور

حول المتعة ، فهو يبحث عنها في كل نادٍ وواد ، ومن يتمحـور حـول المـال ، فهو يجـوب العـالم بحثـاً عنه ، ومن يبحث عن السـيطرة والنفوذ ، فهو مستعد لأن يفعل أي شيء في سبيل التمكن والتحكم .. وتجد ثلة قليلة بين هذا الطوفان من البشر استهدفت أن تحيا لله ، وأن تبحث عن رضوانه ، ومن ثم : فإنه يمكن تفسير كل أنشطتها ومقاصدها في ضوء هذا المحور ، وهـذه الثلة هي الـتي أُمِر النـبيّ - صـلى الله عليه وسـلم- أن يفصح عن محورها باعتبـاره رائـدها وهاديها : { قُـلْ إنَّ صَـلاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَـاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ (162) لا شَـرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْـلِمِينَ } [الأنعام : 162 ، 163] .

إن الذين يعلنون الولاء للمبادئ كثـيرون ، بل هم أكـثر أهل الأرض ، ولكن لا برهان على ذلك لدى أكـثرهم ، ويمكن أن يقـال : إن لأكـثر الناس دينين : دينـاً معلَنـاً ودينـاً حقيقيّـاً ، ودينُ المـرء الحقيقي هو الذي يكرِّس حياته من أجله .

إن من طبيعة المبـدأ أنه يمد من يتمحـور حوله بقـوى وإمكانـات خارقة وخارجة عن رصيده الفعلي ، ولذا : فإن التضحيات الجليلة لا تصدر إلا عن أصحاب المبادئ والالـتزام ، وهم أنفع النـاس للنـاس ؛ لأنهم يثرون الحيـاة دون أن يسـحبوا من رصـيدها الحيـوي ، إذ إنهم ينتظرون المكافأة في الآخرة .

التمحور حول المبـدأ هو الـذي يمنح الحيـاة معـنى ، ويجعلها تختلف عن حياة السوائم الذليلة الـتي تحيا من أجل التكـاثر ومجـرد البقـاء ! !

المبدأ هو الذي يُضفي على تصرفاتنا الانسـجام والمنطقية ، ويجعلها واضحة مفهومة .

نحن لا ننكر أن الظـروف الصـعبة تُـوهِن من سـيطرة المبـدأ على السـلوك ، لكن تلك الظـروف هي الـتي تمنحنا العلامة الفارقة بين أناس تشبّعوا بمبادئهم ؛ حتى اختلطت بدمائهم ولحومهم ، وأناس لا تمثل المبادئ بالنسبة لهم أكثر من تكميل شكلي لبشريتهم [2] .

3- لا يمـاري أحد في أن الإنسـان اكتشف في العصر الحـديث من الآيـات والسـنن ما لم يكتشف عشر معشـاره في تـاريخ البشـرية الطويل ، لكن مع هـذا فعنصر المخـاطرة والإمكانـات المفتوحة ما زال قائماً ؛ حيث تتحكم في الظاهرة الواحدة عشـرات الألـوف من العلاقـات الـتي يصـعب معها التنبؤ بنتـائج الاجتهـادات والأنشـطة المختلفة ، ولا سـيما في القضـايا الكـبرى ، كمصـائر الأمم

والحضـــارات ، وقضـــايا التقـــدم والتخلف ، وما تنطـــوي عليه من تفاعلات وتغيرات ، وإن الله (جل وعلا) قد ضمن لنا نتائج الاستقامة في الدنيا والآخرة ، فهي بوجه من الوجـوه وعلى نحو من الأنحـاء لا تكون إلا خيراً ، وإلا في صالح الإنسـان ، وقد قـال الله (جل وعلا) :
{ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف : 128] ،
وقوله : { لا نَسْـأَلُكَ رِزْقـاً نَّحْنُ نَرْزُقُـكَ وَالْعَاقِبَـةُ لِلتَّقْـوَى } [طه : 132] ، وقوله : { وَلَوْ أَنَّ أَهْـلَ القُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف : 96] .
أما من يسـلك دروب المعاصي والفجـور ، ويتبع مغريـات الأهـواء والشهوات فإنه يظل يتوجس خيفة من سوء العاقبة ، لكنه لا يعرف شـــكل العقوبة ، ولا طريقة نزولها ولا توقيتها ؛ ليكـــون الشك والغموض والخوف عاجل جزائه ، ومقدمةً للبلاء الـذي ينتظـره ، ثم تكون الخيبة الكبرى والخسارة العظمى ! !
إن هناك فترة سماحات تطول أو تقصر بين الانحراف وعواقبه وهذا هو الـذي جعل الابتلاء تامّـاً ، كما أنه هو الـذي جـرّأ أهل المعاصي على التمـــاري في غيهم ، لكن العاقل الحصـــيف ينظر دائمـــاً إلى الأمام ويتحسس ما هو آتٍ ، ويضـغط على واقعة من أجل السـلامة في مستقبله .
4- علينا أن نجمع بين النصوص الـتي تـدل على ضـرورة الاسـتقامة والالتزام بالمنهج الرباني ، والنصوص الـتي تفيد رفع الحـرج والعنت عن هذه الأمة ، من مثل قوله (جل وعلا) : { هُوَ اجْتَبَـاكُمْ وَمَا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج : 78] ، وقوله : { لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وسْعَهَا } [البقرة : 286] ، وقوله : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيـدُ بِكُمُ العُسْـرَ } [البقـرة : 185] ، وإذا فعلنا ذلك ، فإننا سنفهم من مجموعها أمرين :
الأول : هو ضرورة تزويد المسلمين بثقافة شرعية تتضح فيها حـدود الواجبـات والمباحـات والمحظـورات ، بما يشـكل خارطة فكرية واضحة لما ينبغي أن يكون عليه سلوك المسلم وعلاقاته .
الثاني : توفير الظـروف والشـروط الموضـوعية الـتي تجعل الـتزام المسلم بدينه ميسوراً ، وبعيداً عن الحرج والمشقة التي لا تُحتمل ؛ إذ إنه لا يكفي أن تكون التعاليم الإسـلامية ضـمن الطـوق ، بل لا بد

إلى جانب ذلك من أن تكـون الظـروف المعيشـية العامة الـتي يحيا فيها المسلم مناسبة ومشجِعة على الالتزام .
إنه كلما تعقدت الظـروف المطلوبة للعيش الكـريم قـلّ عـدد أولئك الذين يتصرفون ضمن مبادئهم ويلتزمون حدود الشرع ، فحين يكون المرتّب الشهري للموظف لا يكفي لسداد أجرة البيت الذي يســكنه فــإن شــريحة كبــيرة من المــوظفين ســوف تلجأ إلى طــرق غــير مشــروعة في تــأمين احتياجاتها اليومية ، وآنــذاك سيشــعرون أن الالـتزام التـام لا يخلو من العنت ، وحينئذ سـيكون عـدد الملـتزمين بالطرق الشرعية في الكسب محدوداً .
إن الحضـارة الحديثة أضـعفت الإرادة بما أوجدته من صـنوف اللهو والمتع ، وجعلت الشـروط المطلوبة للحد الأدنى من العيش الكـريم فوق طاقة كثـير من النـاس ، كما أنها أوجـدت من الطموحـات إلى الكماليات وأشكال المرفِهـات ما يتجـاوز بكثـير الإمكانـات المتاحة ، وهذا كله جعل الاستقامة على الشــرع الحـنيف بحاجة إلى نمط من الرجـال أرقى ، كما جعل من الـواجب على الأمة أن تفكر مليّـاً في توفير ظروف تساعد على الاستقامة ، وتحفز عليها .
إن المنهجية الإســلامية تقــوم دائمــاً على ما يمكن أن نســميه بــ (الحلــول المركبــة) ؛ إذ إن هنــاك من النصــوص والأحكــام ما يرفع الوتيرة الروحية للمسلم ، كما إن هناك ما يزيد في بصيرته ، وهناك ما يدعوه إلى الصبر والجلد ، وهناك ما يحفزه على تحسين ظـروف عيشه وأدائه ، ولا بد أن نمح الفاعلية لكل ذلك حـتى يمكن تجسـيد المنهج الرباني في حياة الناس .
إن الفكر مهما كان قويّاً ، وإن الـوعي النقـدي مهما كـان عظيمـاً ، فإن سلوك الناس لن يتغير كثيراً ما لم تنشأ ظروف وأوضاع جديدة تحملهم حملاً على التحول إلى سلوك الطريق الأقوم والأرشد .
ويؤسفني القول : إننا لم نستطع إلى الآن أن نبلور نظرية إصــلاحية إسلامية معاصرة ومتعمقة في تلمس شروط الاسـتجابة والظـروف الصـــحيحة والمثلى لها ، إلى جـــانب تلمس مجمل الحساســيات والترابطات والتداعيات الـتي تشـكل المنـاخ المطلـوب لقيـام حيـاة إسلامية راشدة ! .
إن جل اهتمامنا ينصب على بيـــــان ما يجب عمله ، أما الــــبرامج والكيفيــات والإجــراءات والأطر والسياســات الــتي يجب اتباعها وتأسيسها من أجل تحويل المبدأ إلى واقع معيش .. فإنها لا تلقى ما تســتحقه من اهتمــام ومتابعة ، والخــبرات لــدينا في ذلك ما زالت

ضئيلة ، بل إن هناك مَن يستوحش من الخـوض في غمـار مثل هـذا النوع من البحث ، ويعد التعمق في ذلك ضـرباً من (الاسـتغراب) أو الجنوح نحو المادية ! ، ومن الدعاة من يدعي أنه عـارف بكل ذلك ، لكن لو نظـرت في إنتاجه المعـرفي لم تقف له في هـذه السـبيل على كتاب أو رسالة ، بل على خاطرة أو فكرة .
(وما أطيب العرسَ لولا النفقة) ! !
ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(*) الآيتين : 112 ، 113 من سورة هود .
(1) أخرجه مسلم .
(2) انظر في ميزان التمحور حول المبـدأ : العـادات السـبع للقـادة الإداريين ، ص 120 .
==================

{ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون }

في هذه الآية الكريمة إخبار عن قاعدة من قواعد الخلق ، ونـاموس من نواميس الوجود ؛ وهي في الوقت نفسه : دليل على أن القرآن من عند اللطيف الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً .
إن المعرفة والتقـدم العلمي الـذي كـان متـوفراً في زمـان النـبي -صلى الله عليه وسلم- لايمكّن على أي نحو من الكشف عن قاعــدة (الزوجية) في الوجود ، بل إن ما كـان في حـوزة النـاس آنـذاك من اسـتقراء واطلاع لم يكن كافيـاً للكشف عن ظـاهرة (الزوجيـة) في (الأحيــاء) فضــلاً عن ميــادين الوجــود المختلفة ، وإن الكشــوفات الكونية المتســارعة ؛ تميط اللثــام في كل يــوم عن أشــكال من الــتزاوج والاقــتران والارتبــاط في ميــادين الحيــاة كافة ، وعلى مسـتويات مختلفة ، ابتـداءً بالـذرة ، وانتهـاءً بـالمجرة ؛ مما يُضـيف شواهد جديدة على صدق محمد -صلى الله عليه وسلم- .
ولنا مع هذه الآيـات وقفـات عـدة ، نوضـحها في الحـروف الصـغيرة الآتية :
1- إن فَطْر الله (جل وعلا) للكون على المزاوجة دليل إضافي على المغايرة بين المخلوق والخـالق المتفـرد في ذاته وصـفاته وأفعاله ؛ حيث إن ما يترسخ في الخـبرة البشـرية على الـدوام من أن الخلق واحد ، ويخضع لقوانين واحدة ، وتحكم حركتَه ونموه وانهياره قواعدُ واحدة .. إن كل ذلك يدل على توحد الخالق (جل ثناؤه) الـذي أوجد كل ذلك التنظيم الدقيق المعجز .

وفي ختم الآية بقوله] لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ [إشـارة واضـحة إلى هـذا المعـنى ، حيث يـدرك النـاس تفـرد الخـالق وأحَديته من خلال ما يشـاهدون من ظـواهر تـزاوج الأشـياء وتركيبها ، وارتباطاتها ، وتوازناتها على نحو يستحيل معه العبث ، والارتجال والمصادفة .
وكـأن في الآية بعد هـذا وذاك إيحـاءً إلى أهمية اسـتثمار المعرفة بسـنن الله في الخلق في غـرس الإيمـان وتقويته ، والارتقـاء في إدراك واجبات العبودية وآدابها .
2- إن ظاهرة الزوجية ليست دليلاً على وحدانية الخـالق (جل وعلا) فحسب ، وإنما هي دليل على نقص المخلوقـات وافتقارها لغيرها ، حيث لا تتحـدد معـاني الأشـياء وقيمها الحقيقية من خلال ذواتها ، وإنما من خلال كونها أجزاءً في تركيبات أعم ، وفي هذا الصـدد فإنه يمكن القول : إنه عند تدقيق النظر لا يخلو شيء عن تركيب ! .
لولا معرفة الناس بالقبح لما كان للجمال أي معنى أو قيمة إضـافية ؛ ولذا قالوا : إن للشوهاء فضلاً على الحسـناء ؛ إذ لولاها لما عُـرف فضل الحسناء .
ما فضل التنظيم لـولا الفوضى ، والـذكاء لـولا الغبـاء ، والغـنى لـولا الفقر ، والفضيلة لولا الرذيلة ، والنهار لـولا الليل ، والحلو لـولا المر ... أشـياء لا حصر لها ، ولا تسـتمد قوامها من ذاتها ، وإنما من خلال غيرها ! !
وهكذا : فالخلق ، وما يَتَغَنّوْنَ به من خصائص فقراء فقراً مزدوجـاً ، فقراً إلى الخالق الموجد ، وفقراً إلى مخلوق آخر ، يجعل له معـنى !
ومن وجه آخر : فـإن طبيعة العلاقة الزوجية تميل إلى المرونة ، وذات أوساط متدرجة ؛ فـالغنى درجـات ، وكـذلك الفقر ، وقل نحو ذلك في الذكاء والغباء ، والجمال والقبح ، والاستقامة والانحراف ... حيث تلامس أدنى درجـات الأول أعلى درجـات الثـاني ؛ مما يشـكِّل منـاطق برزخية متأرجحة ، هـذه الوظيفة للعلاقـات الزوجية تكسر من حـدة تفـرد كل طـرف ، وتجعل الخصـائص الفائقة نسـبية ، فتتطـامن ، وجـوانب النقص اعتبارية ، فتشـمخ ، وكأنها بـذلك تتهيأ للتعاون والاندماج عوضاً عن التنافس والصدام .
وكـأن ذلك يـوحي إلينا بإيجـاد الأرضـيات المشـتركة ، والعـدول عن النفخ في الخصوصـيات الاجتهادية الـذي يحولها إلى حـواجز منيعة وقواطع حقيقية بين أبناء التيار الواحد ، والأمة الواحـدة ! ، وهكـذا : فـإذا كنا عـاجزين عن أن نستشف من النصـوص ما يسـاعدنا على

صـياغة علاقـات ومواقف جيـدة ومنتجة .. فـإن علينا أن نتعلم من إيحــاءات الســنن الكونية ما نُصــلح به حياتنا الاجتماعية ، وعلاقاتنا الأخوية ؛ حيث إننا في نهاية الأمر جزء من الظاهرة الكونية الكـبرى .

3- الإخصاب أوضح نتائج الـتزاوج بين الأشـياء ، وهو أوضح ما يكـون في التقاء الأزواج من الإنسان والحيوان ؛ فمن خلال لقـاء الـزوجين يتم حفظ النوع وإعتاؤه بنسل على درجة كبيرة من التنوع والتعدد .

ولا يقـلّ الإخصـاب في الأشـياء المعنوية والمادية عنه في الكائنـات الحية ؛ فمن عناصر الأرض التي لا تزيد عن المئة إلا قليلاً يوجد بين أيدي الناس اليـوم ما يزيد على مليـونين من المصـنوعات ! ، وعلى الرغم من صرامة القوانين والخصائص الكيميائية يوجد في الأسواق ما يزيد على ثمــانين ألف نــوع من المركبــات الكيميائية ، كما أنه يطرح منها في الأسواق كلّ عام أكثر من ألفي نوع جديد ! .

هذه الخصوبة الهائلة هي نتيجة مباشرة لألوان التزاوج الـتي تتم بين العناصر المختلفة .

ومما لا ينبغي أن يعـزب عن البـال أن اللقــاء الســعيد بين العناصر المختلفة يجب أن يتسم بالمزيد من العناية والدقة والتجربة ، إذا ما أردنا إنجاباً وخصوبة على مستوى عالٍ من الجـودة ؛ ولهـذا السـبب أخذ التقدم في علوم الكيميـاء يعتمد على الرياضـيات أكـثر فـأكثر ، وقد كـــــان من قبل يعتمد على التجربة ، حيث تمنح الرياضــــيات مستويات من الدقة ، لا توفرها التجربة .

وقد أصـبح من مقــاييس التقـدم العلمي الشـائعة : قـدرة دولة من الــدول على إنتــاج (المــواد الجديــدة) ذات المواصــفات الفائقة ، والمواد الجديدة لا تتخلق إلا من خلال التزاوج بين عناصر لم يســبق لقاؤها على النحو الجديد ، وبالنسب الجديدة .

اللقاء بين الأفكار والثقافات لا يقل خصــوبة عن اللقــاء بين العناصر الطبيعية ، وهو الآخر يحتـاج حاجة ماسّـة إلى وعي وفطنة وحـذق ، حتى يكون منجباً ، والقاعدة في هذا : أنه إذا التقت فكرتـان ضـمن شــروط إيجابية ، فإنه ينتج عن ذلك اللقــاء فكــرة ثالثة ، هي أرقى منهما جميعــاً ؛ حيث تــؤدي المزاوجة بينهما إلى نضج وتبلــور كل منهما ، وحيث يتخلص كل منهما من أجزائه المعطوبة من خلال المقارنة ونمو الـوعي النقـدي ، لكن ذلك لا يتم إلا إذا اتّسم حـاملو الفكــرتين بــالكثير من الموضــوعية والشــفافية والهـدوء والمرونة

الذهنية والرؤية المركبة ، ونحن نلاحظ في هذا السياق أن أكـثر من يذهب من إخواننا للدراسة في الغرب ينقسمون إلى فريقين :
فريق يُفتَتَن بما يراه هناك من تنظيم وتقدم صناعي ورعاية لحقـوق الإنسان ، فيشغله ذلك عن إدراك بذور الانهيار في تلك المجتمعـات ، وجــوانب التخلف فيها ، ويــؤدي ذلك به إلى الزهــادة فيما لديه ، والاستحياء من طرحه على مسامع القوم .
أما الفريق الثاني : فإنه بِداعٍ من الكبر أو الخـوف ينغلق على نفسه ، ويتتبع بجدية نـادرة كل الجـوانب السـلبية لـديهم ، لكنه يعجز عن تلمس أسـرار النهـوض والخيـوط الدقيقة الـتي تمد التقـدم المـادي الهائل الذي أحرزوه بالحيوية والاستمرار .
ويعــود هـذا الصـنف في العـادة بنُتَف من المعلومـات والمقــولات والخـبرات الـتي لا تتكافأ أبـداً مع الجهد والمـال اللـذين بُـذلا خلال سنوات عدة ، ولا يلامس هـذا الصـنف أبـداً آفـاق المنهجية الفكرية والتنظيمية والأخلاقية والثقافية التي تقف خلف (الحضارة الغربية) ، فكأنه ما سافر ولا اطلع ولا تعلم !
إن احتكـاك الثقافـات والأفكـار والمنـاهج المختلفة قـديكون عامل انحسار وهدم وتمزيق ، وقد يكـون عامل إثـراء وتصـحيح وتطـوير ، والمهم في ذلك أبـــداً هو شـــروط ذلك الاحتكـــاك والخلفيـــات ، والأسس التي يقوم عليها .. إن العزلة والانغلاق لا يكونان أبداً خياراً جيـداً إلا إذا كـانت شـروط الـتزاوج سـيئة وغـير متكافئة ، وإذا ما اسـتطعنا توفـير الشـروط الجيـدة لـذلك فـإن في تلاقح الأفكـار والثقافات من عوامل التجديد والنفع والغنى ما لا يمكن التعبـير عنه ! .
4- إن قاعــدة اللقــاء في ظــاهرة الزوجية الكونية هي التخــالف ، وليست التوافق ، فاللقــــــــــاء الخصب المنجب يجب أن يتم بين متخــالفين ومتبــاينين ، ومن ثم : فــإن العلاقة بين الرجل والمــرأة تقوم على التخالف ، على المستويات العضوية والعقلية والنفسـية ، وهـذا التخـالف هو الشـرط الأسـاس لوجـود ظـاهرة (التكامـل) والتعـــاون ، حيث يظهر لكل واحد من الـــزوجين : أن كمـــال البنية المشـتركة بينهما وهو الأسـرة لا يـأتي من أيٍّ منهما على انفـراد ، وإنما من خلال اللقاء الإيجابي بينهما ، وتكميل أحدهما للآخر .
ليس إدراك التكامل في ظـاهرة الزوجية في الخلق متيسـرَ الإدراك واللمس في كل وقت ؛ إذ كثـيراً ما تتغلب علينا النظــرة الأحادية ،

فنتعامل مع الأشـــياء على أنها عناصر مفـــردة ، ونغفل عن كونها عناصر في تراكيب أعم !
ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :
أ - إن تضخم الجانب العاطفي لدى المرأة على النحو المعروف يُنظر إليه عادة على أنه الحلقة الأضعف في تركيبها النفسي ، كما أننا ننظر النظرة نفسها إلى ما نحسّه من تضخم (عقلانية) الرجل وبرودة عواطفه .
فـــإذا نظرنا إلى كل منهما على أنه طـــرف في تـــركيب واحد هو الأســرة أدركنا أن ما خلنــاه نقصــاً هو في الحقيقة مظهر كمــال ، وعامل تـــوازن وانســجام ، إذ إن طبيعة وظيفة المـــرأة في رعاية الأطفـــال ذوي الشـــفافية والرهافة المطلقة .. تتطلب مشـــاعر وعواطف كـــالتي عند المـــرأة ، وطبيعة وظيفة الرجل في قيـــادة الأسرة ، ومعاناة طلب الرزق ، وخوض المواقف الصعبة .. تتطلب من قوة الشكيمة وتماسك الشخصية كالذي نجده عند الرجل .
إن دعـاة تحرير المـرأة لم ينظـروا هـذه النظـرة ، فـدفعوها إلى المطالبة بالمســاواة مع الرجل ، وأدى ذلك إلى الإخلال بـــالتوازن الأسري ، وكثرت حوادث الطلاق ، وكُلِّفت المرأة بالقيام بأعمــال لا يتحملها تكوينها ولا جملتها العصـــبيّة ، والأخطر من ذلك : انتشـــار مظاهر الشذوذ واستغناء النساء بالنساء ! !
ب- إننا كثيراً ما نصوِّر (القلـق) على أنه مـرض نفسي ، وهو كـذلك عندما يتجاوز حدوداً معيّنة ، لكن حين نتـذكر أن الطمأنينة كثـيراً ما تكــون زائفة ومبنية على معطيــات موهومة ، وهي حينئذ أخطر من القلق وأشد فتكاً بوجود الإنسان ، ولذا : فـإن بعض صـور القلق ولا سيما (القلق المعرفي) تكون ضرورية لتوازن الشخصـية ، وللـوعي بالمصير وتدارك الأخطار قبل فوات الأوان .
ج- إذا نظرنا نظرة أحادية إلى ثبات المبادئ والتشـبث الشـديد بها ، فسـوف نـراه جمـوداً وعائقـاً في سـبيل التطـور ، وربما دفع ذلك ببعض الناس إلى التفريط بها أو إلى الثورة عليها .
وإذا نظرنا إلى (التطور) على أنه مجموعة من التغيرات المستقلة ، فسوف نراه (تفلتاً) وطيشاً وخيانة للأصالة ...
ولكن حين نسـلك كلاً من الثبـات والتطـور في ظـاهرة (الزوجيـة) الكونية ، فسـوف يتـبين لنا أن ثبـات الأصـول والمبـادئ والنـواميس ليس جمـوداً ولا عائقـاً للتغـير المطلـوب ، وإنما هو سـمة أساسـية لطبيعتها ؛ إذ لا يســـتطيع المبـــدأ أداء وظيفته إلا من خلال ثبوته

واستمراره ، كما أننا سنجد أن جمود المبـادئ شـرط أسـاس لجعل التطور ذا معنى ، ولإبقائه تحت السيطرة ، وفي الاتجاه الصحيح .
والتطور في الأدوات والأساليب والخطط والأشكال ليس تفلتاً ، بل إنه ضروري للمحافظة على المبدأ والجوهر والهدف ؛ إذ إن صروف الأيـام والليـالي تعطب بعض جـوانب المنـاهج والخطط والأشـياء ، وليس هناك حلّ لذلك سوى التخلي عن الأجـزاء المعطوبة ، وإحلال غيرها محلها .
وإن تحويل الأشـياء إلى بنًي ثبوتية في سـياق وسط مـائج بـالتغير والتطور لا يعني سوى التضحية بالأصل والفرع ، والجــوهر والمظهر ، والمبدأ والوسيلة ...
وهكـذا : فما يُظن نقصـاً في بعض الأشـياء يتحـول إلى ضـرب من ضروب الكمال إذا ما نظرنا إليه على أنه جـزء من كل ، وعنصر في تركيب أشمل .
5- خَلَق الله (جل ثناؤه) الدنيا داراً للابتلاء ، فوفّر فيها كـلّ شـروط الابتلاء ، ومن ثم : فإنه حيث يكـون أمـام المـرء مجـال للاختيـار ، يكـــون في الحقيقة منغمســـاً في حالة ابتلاء ، ســـواء أأخذ بأحد الخيارات ، أو ظل عاطلاً عن اتخاذ قرار .
كثيراً ما تتيح ظاهرة (الزوجية) مجالات للاختيار والابتلاء ، وكثـيراً ما يجد الإنسان نفسه مأموراً بالتوازن الدقيق في التعامل مع الظواهر الزوجية ؛ لأن الإخلال به يعــني خروجــاً عن المنهج الربــاني ، وقد يعني ظلماً للنفس أو تفويت مصلحة كبرى .
وحتى يكون الابتلاء تامّاً ، فإن الله (جل وعلا) قد فطر الإنسان على قابلية قوية للانجـــذاب نحو أحد المتقــابلات وإهمــال غــيره ؛ مما يجعلني أذهب إلى أن الإخلال بالتوازن المطلوب في هذه المسألة ، يكاد يكون أصلاً !
ومن هنا : فـإن الموقف الصـحيح كثـيراً ما يتطلب نوعـاً عاليـاً من اليقظة الفكرية والشعورية ، وإلا : فما أسهل الانحـراف إلى طـرف على حساب طرف آخر !
عند تقليب النظر في واقعنا التـــاريخي ، وواقعنا المعيش ، نجد أن عـدم إقامة التـوازن بين الأشـياء المتزاوجة كـان سـبباً لانحرافـات كثيرة ، إذ كثيراً ما نرى جماعة تهتم بالفكر والتنظير ورسم الخطط والتحليل السياسي ، لكنها تهمل جــانب الــروح والأخلاق ، وجــانب السلوك ؛ مما جعلها فقيرة في جنود التنفيذ وأربـاب الهمم العالية ، وجعلها بالتـــالي قليلة العطـــاء والتضـــحية ! .. ونجد في المقابل :

جماعات تركز على مسائل صفاء القلوب وحسن السلوك ، لكنك لا تجد عنـدها أدنى وعي بـأدب الـوقت ومتطلبـات العصر ، وقد يكـون عدد أتباعها عشرات الألوف ، ثم إنك لا تعـثر فيهم على مفكر واحد مرموق ! ، وكثيراً ما يقودها ذلك إلى أن تكون ألعوبة في يد القـوى المتنفذة ، مما يدفعها إلى حتفها ويجعل ضررها لا يقل عن نفعها ! .
في الماضي البعيد قامت مزاوجة في بنية التربية والتعليم بين علوم الشريعة والعلوم الحياتية والكونية ، وقد أنجب ذلك الاقتران حضارة إسلامية زاهية باهرة ، ثم أخذت علوم الحيـاة تنسـحب من المنـاهج والحلق الدراسية شيئاً فشيئاً ، حـتى جهلت الأمة أبجـديات المعرفة في الطبيعة والكـون والصـناعة ، ووصـلت إلى الحضـيض ، واليـوم تـرتكب الأمة الخطأ نفسه على نحو معكـوس ، حيث تَرَاجع نصـيب العلوم الشرعية في المناهج الدراسية في أكثر البلـدان الإسـلامية ، كما تراجعت المفـردات القيمية والأخلاقية في لغة التربية والإعلام ، وكـــان حصـــاد ذلك : أعـــداداً كبـــيرة من البشر تحيط بـــالكثير من المعــارف المختلفة ، لكنها تجهل بــدهيات وأساســيات في عباداتها ومعاملاتها ! ، وصار لدينا اليـوم كمّ هائل من المفـردات الـتي تحث على النشـاط والفاعلية والنجـاح والتنظيم وحيـازة الـثروة وتحقيق الذات .. على حين تنوسيت المفـردات الـتي تغـرس أخلاق الصـلاح والاسـتقامة والبعد عن الحـرام ، والإقبـال على الآخـرة .. ولا بد أن النـــاس بـــدؤوا يشـــعرون بعـــواقب هـــذا الخلل من خلال انتشـــار اللصوصـية وهي أصـناف ، والرشـوة ، والشـره المـادي ، والأنانية ، والانغمــاس في الشــهوات ، وقطع الأرحــام ، ونســيان الله والــدار الآخرة .
6- إذا كانت (الزوجية) تمثل قاعـدة مهمة من قواعد خلق الوجـود ، فإن ذلك يعني أن ننسجم نحن مع تلك القاعدة ، ونحــاول أن نمتلك رؤية مركّبة للأشياء ، ما دام ليس هنـاك شـيء لا ينتمي إلى مـركبٍ ما على وجه من الوجوه .
وامتلاك هذه الرؤية سيكون ضــروريّاً للمحافظة على توازننا العقلي والنفسي ، وضروريّاً لوضع الأمور في نصابها الصحيح ، وعلى سبيل المثــال : فإنه مهما بلغ صــلاح الأفــراد والجماعــات ، فلا ينبغي أن نفسر ما نراه لهم من تصرفات على أساس المبادئ وحدها ، فهناك مبادئ ، وهناك مصـالح أيضـاً ، وليس في هـذه الأرض من يسـتطيع النفض عن مصالحه على نحو كامل .

وفي مقابل هـذا : فـإن السـواد الأعظم يحـاولون تحقيق مصـالحهم في إطار المبادئ التي يؤمنون بها ، ما وجـدوا أن ذلك ممكن ، وبما أن المبادئ والمصالح طرفان في تركيب زوجي واحد ، فإن احتمـال جـور الإنسـان على أحـدهما لحسـاب الآخر ، يظل أمـراً وارداً ، بل يكون في كثير من الأحيان أمـراً لا مفر منه ، ولست أقصد من وراء هذا شيئاً سوى الاستبصار في فهم سـلوك النـاس ، وفهم خلفياته ، ومحاولة تفسيره على أنه يتم وفق موازنات ، وفي سياق ضـرورات وطموحات ، وتحت ضغوط وأحياناً تهديدات ، وهذا مهم في الاقتداء والإعذار وأمور أخرى ..

الرؤية المركبة تجعلنا نبصر القصـــور الـــذاتي إلى جـــانب التـــآمر الخارجي ، وإعطاء كلٍّ منهما وزنه وتأثيره الحقيقي ، كما أنها تجعلنا نشعر بنعمة الرخاء وفيـوض النعم إلى جـانب الإحسـاس بالحسـاب والسؤال عنها يوم القيامة .

بالرؤية المركبة ندرك الصبر وعواقبه ، والظلم ومآلاته ، وبــذلك يتم لنا توســيع مجــال الرؤية ؛ لنقف على طــرفي الموازنة وعنصــري المزاوجة ، وبــــذلك نجسِّـــــر العلاقة بين الأطـــــراف المتنافسة والمتحالفة ، ونحاول أن نرى الأرضية المشتركة التي تجمع بينها .

(*) الآية : 49 من سورة الذاريات .

==================

{ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً }

تشعر أمة الإسـلام اليـوم بغربة حقيقية بين الأمم المعاصـرة ، وتجد نفسها فريدة ومتميزة على مستوى المبادئ والمفـاهيم والأهـداف ؛ وهذا التميز والتأبي على السير في ركاب القوى العظمى جـرّ عليها ضغوطاً أدبية ومادية ، هي أكبر مما نظن بكثير .

إن أدبياتنا تعلمنا أن الأسلوب الصـحيح في مواجهة ضـغوط الخـارج وتحدياته لايكمن في التشاغل بالرد عليها ؛ مما قد يجرنا إلى معارك خاســرة ، وإنما يتمثل في الانكفـاء على الـداخل بالإصـلاح والتنقية والتدعيم ... ولا ريب أن ذلك شـاق على النفس ؛ لأن المـرء آنـذاك ينقد نفسه ، ويجعل من ذاته الحجر والنحّات في آن واحد !

والآية الكريمة الــتي نحن بصــددها معْلم بــارز في التأصــيل لهــذا الانكفاء ، ولعلنا نقتبس من الدوران في فلكها الأنوار التالية :

1- إن كثــيراً من النصــوص يوجهنا نحو الانكفــاء على الــداخل في مواجهة الخـارج بالنقد والإصـلاح والتقـويم والتحسـين ، وإن المتتبع

للمنهج القـرآني في قصِّـه أحـوال الأمم السـابقة يجد أن ما ذكـره القرآن الكريم من أسباب انقراضها وانـدثار حضـاراتها لا يعـود أبـداً إلى قصور عمـراني ، أو سـوء في إدارة المـوارد واسـتغلالها ؛ وإنما يعـود إلى قصـور داخلي ، يتمثل في الإعـراض عن منهج الله (جـلّ وعلا) واسـتدبار رسـالات الأنبيـاء (عليهم الصـلاة والسـلام) ، وهـذه الحقيقة بارزة في جميع أخبار الأمم السابقة ؛ حتى يتأصل في حسِّ القارئ للكتاب العزيز إعطاء الأولوية لصـواب المنهج قبل أي شـيء آخر .

وحين حلّت الهزيمة بالمســلمين في أحد ، وقــال بعض الصـــحابة (رضوان الله عليهم) : كيف نُهزَم ونحن جند الله ؟ ! جاء الجـواب : { قُلْ هُوَ مِنْ عِنـدِ أَنفُسِـكُمْ } [آل عمـران : 165] فالهزيمة وقعت بسبب خلل داخلي ، وليس بسبب شراسة الأعداء ، وكـثرة عـددهم وعتـادهم ؛ إذ لا ينبغي تضـخيم العـدو إلى الحد الـذي يجعل تصـور هزيمته شــيئاً بعيــداً ؛ فالعــدو بَشَــر له أحاسيسه ، وله موازناته ومشـكلاته ، وبالتـالي إمكاناته أيضـاً ، وفي هـذا يقـول (سـبحانه) : { إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ } [النساء : 104] .

2- ترمي الآية الكريمة إلى تدعيم (الذاتي) في مقابل (الموضوعي) ؛ إذ تعلِّم المسلم أنه إذا ساءت الظـروف فـإن عليه أن يُحسِّـن من ذاته ؛ لأن من المعروف أنه حين تسوء الظـروف ، فـإن الغـالب أن يسوء الإنسان نفسه ، ولذلك : فإنه يحدث في حالات الفقر الشديد نــوع من التحلل الخلقي من نحو : الســرقة ، والرشــوة ، وســؤال النـاس ، والـذل ، والتحايل ، والغش ، والبخل ، وقطيعة الـرحم ... والمطلوب من المسلم آنذاك : أن يقف (وقفة رجل) فيضـغط على نفسه ، ويضبط سلوكه ويُلغي أو

يؤجل بعض رغائبه ، ويقتصد في نفقاته ، حــــتى تمر العاصــــفة ، وينتهي الظرف الاستثنائي .

ومن النصوص الواضحة في تدعيم الشخصية عند صـعوبة الظـروف قوله :

(يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة ، فليـتزوج ؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) [1] .

لم نكن على مـدار التـاريخ نمتلك الـوعي الكـافي بهـذه الحقيقة ، فبـدل أن نلجأ إلى التربية والتوجيه والتعاضد والـتراحم ، واكتسـاب

عادات جديدة ، واقتلاع المشكلات من جـذورها .. كنا نواجه التفسخ الاجتمــاعي والانحــراف الســلوكي بــأمرين : القــوة ، ومزيد من القوانين ، حيث كانا أقرب الأشـياء إلينا تنـاولاً ، وأقلها تكلفة حسب ما يبدو وقد عبّر عمر بن عبد العزيز (رحمه اللـه) عن هـذه الحقيقة حيث قال : (يحدث للناس من الأقضـية على مقـدار ما يُحـدثون من الفجور) .

ونحن نقول : إن شيئاً من التوسع في الأنظمة والتشريعات الرادعة يحـــدث عند جميع الأمم ، حين يقع تهديد خطـــير لأمن النـــاس وحقـوقهم ، لكن الجـزاءات والعقوبـات هي أشـبه شـيء بالتـدخل الجـراحي في العلاج الطـبي ، فهو آخر الحلـول ، وعند اللجـوء إليه ينبغي أن يتم في أضيق الحدود ! .

إن العقوبـات الرادعة إنما وجـدت لمن فـاتتهم التنشـئة الاجتماعية القويمة ؛ والعقوبـات لا تنشــيء مجتمعـاً لكنها تحميه . وهـذه رؤية إسلامية جلية ، فآيات الأحكام والعقوبـات جـزء منها لا تشـكل أكـثر من عُشْر آيات القـرآن الكـريم ، أما البـاقي فكـان يسـتهدف البنـاء الإيجابي للإنسان من الداخل . إن التجربة علمتنا أن كـثرة القــوانين وتعقيدها تصب دائماً في مصلحة الأقوياء ، وتزيد في قيود الضـعفاء ! ، وأن البطش لا يحل المشــكلات ، لكن يؤجلها ، فيكـــون حـــال المجتمع كمن يأكل عن طريق الـــدّين ، فهو ينتقل من ســـيء إلى أسوأ ! ! .

إن الدولة الفاضــلة هي الــتي تــدير مجتمعها بأقل قــدر ممكن من العنف واســـتخدام القـــوة ؛ لأنها ترتكز أساســـاً على اســـتخدام الأساليب والأدوات السلمية في الضبط والإدارة .

إن الآية الكريمة تعلمنا مرة أخرى : أن النصر الخـاص يسـبق النصر العــام ، وأن الأمة المنتصــرة على أعــدائها هي أمة حققت نصــراً داخليّاً أولاً ، وحقق كل واحد من أفرادها نصراً خاصّـاً على صـعيده الشخصي قبل كل ذلك .

3- لا ينبغي لنا أن نفهم نصّـاً من النصــوص بمعــزل عن المنظومة التي ينتمي إليها ، ويعـالج معها مشـكلة واحـدة ؛ والنص الكـريم هنا يوجهنا إلى أمرين : الصبر ، والتقوى .

ويعــني الصــبر : احتمــال المشــاق والديمومة في تأدية التكــاليف الربانية ، مهما كانت الظروف قاسية ؛ لأن ذلك نصف النصر ، إذ إن نصف الفــوز يــأتي من جهودنا ، وقبله من توفيق الله (تعــالى) لنا ، والنصف الثاني يأتي من أخطاء أعدائنا .

إن الصبر لا يعني الاستسلام للأحوال السيئة كما هو مفهـوم العـوام لكنه يعني عدم اللجوء إلى الحلول السريعة ، وقد جـرت العـادة أن النـاس حين يـرون إنسـاناً متفوقـاً : يطلبـون منه حلـولاً سـريعة لمشكلاتهم المتخمرة والمتأسنة ؛ والحلول السريعة تفضي في كثير من الأحيـان إلى اليـأس والإحبـاط ، أو إلى الانـدفاع والتهـور ؛ مما يعقّد المشكلة أكثر مما يحلها ! .

إن من المهم أن نـدرك أن ثمة أوضـاعاً كثـيرة لا نسـتطيع أن نفعل حيالها الآن شيئاً ، لكن إذا قلنا : ماذا نستطيع أن نفعل تجاهها خلال عشرين عاماً ، فسوف نرى أننا نستطيع أن نفعل أشياء كثيرة جـدّاً ، فكأن الصبر اسـتخدام للـوقت في الخلاص من أوضـاع لا نسـتطيع الآن أن ننجح في الخلاص منها .

حقيقةُ ضرورة اقتران الصـبر بالعمل والحركة للخلاص من الأوضـاع الصعبة حقيقة قرآنية لامعة ، نطقت بها الكثير من الآيـات القرآنية ، مثل قوله (سبحانه) : { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَـاجَرُوا مِنْ بَعْـدِ مَا فُتِنُـوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 110] ، وقوله (سبحانه) : { يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اسْـتَعِينُوا بْالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة : 153] ، وقوله (تعالى) : { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً } [الإنسان : 24] .

إن احتمال المعاناة دون حركة للخلاص من مسبِّباتها قد يكون ضرباً من اليأس والاستسلام ، وقد يكـون ضـرباً من العجز أو قصر النظر أو ضيق الأفق ... وهذا ما لا يرضى الله (جل وعلا) لعباده المؤمـنين منه شيئاً .

أما التقوى فتعني هنا بصورة أساسـية : نوعـاً من الحصـانة الداخلية من التـأثر بـالظروف السـيئة المحيطة ؛ إذ إن الهـزائم العسـكرية والظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية .. كل ذلك محدود الضرر ما لم يغير من المبادئ والأخلاق والنفوس والسلوك ، بل إنها تصلّب روح المقاومة ، وتُكسِب الخبرة ، وتكشف عن الأجـزاء الرخـوة في البناء الداخلي ، وتحطِّم هيبة العدو في النفوس .

وقد مــرّت أمم كثــيرة بأقصى مما نمر به ، لكنها اســتطاعت عن طريق الانتفاضة النفسـية والشـعورية ، أن تتجـاوز المحن ، وتنبعث من جديد ! .

4- إن المفهـوم الأساسي للصـبر والتقـوى هنا هو : تهـذيب الـذات وتحسـينها ، وتـدعيمها ، والـرقي بها ؛ وهـذا التـدعيم يأخذ أشـكالاً كثـيرة ، منها : المزيد من الالـتزام الصـارم ، ومقاومة الشـهوات ،

والتعاون ، والمفاتحة ، والمراجعة ، والتضحية ، والمواساة لبعضنا بعضاً ، والحفاظ على رأس المال الوطني ، والاقتصاد في الاستهلاك .. إنه يعني اكتساب عادات جديدة ، من نحو تكثيف القراءة الجيدة ، والنظر دائماً إلى المستقبل بعقل مفتوح ، وتحسين العلاقات مع الآخرين ، والإكثار من المعروف والنوافل ، إلى جانب التخلص من أكبر قدر ممكن من العادات السيئة ، مثل عدم الدقة وخلف الوعد ، وتأجيل أعمال اليوم إلى أوقات أخرى ...

5- يركز الخطاب الإسلامي بصورة عامة على تدعيم الذاتي في كل الأحوال ، وقلما يتطرق إلى علاج الظروف العامة التي يعيش فيها المسلم ، ومن ثم : فإننا نجده يؤكد على الصلاح واستقامة السلوك والانتهاء عن المناهي ...

أما تناول الشروط الموضوعية الضرورية لاستجابة المسلم للدعوة فإنه ضعيف ، وعلى بعض الأصعدة معدوم ، وهو على كل حال فقير ، وتنقصه الخبرة والدربة .

إن بين الإنسان والظروف والأوضاع الحياتية العامة التي يعيشها علاقة جدلية فهو يؤثر فيها ويتأثر بها ، ولا بد للدعاة من أن يدركوا أن الفرد المسلم لا يستطيع أن يبتعد مسافات كبيرة عن الوضعية العامة للمجتمع ، وذلك التباعد مرهق ومكلف ؛ فحين يكون كسب القوت الضروري لا يتأتى للسواد الأعظم من الناس إلا عن طرق محرمة أو ملتوية مثلاً فإن الذين سوف يستجيبون لنداء (اللقمة الحلال) سيكونون قلة ، وسوف تظل مبادئهم في حالة اختبار دائم ، وربما أدخلهم ذلك في مشكلات مع أقرب الناس إليهم .

ولهذا : فكما أن محاولات تحسين المستوى الشخصي للمسلم يظل ضروريًّا وحيويّاً ، فإن تحسين المناخ العام ينبغي أن يظل موضع عناية واهتمام ؛ إذ ليس المطلوب تحقيق شروط الدعوة الجيدة ، وإنما تحقيق شروط الاستجابة الناجحة أيضاً .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(*) الآية : 120 من سورة آل عمران .

(1) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح .

=================

{ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً }

يقول الله (جل وعلا) : { يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ } [البقرة : 269] .

وردت كلمة (حكمة) في مواضع عديـدة من الكتـاب العزيز ، وذهب المفسرون إلى تفسـير معناها في كل موضع بحسب السـياق الـذي وردت فيه ، فتارة تُفسر بالسنة ، وتـارة بالموعظة ، وتـارة بـالقرآن ...
أما في هذا الموضع الذي نحن بصدده ، فـإن للعلمـاء في تفسـيرها أقـوالاً كثـيرة ، منها : النبـوة ، والفقه في القـرآن ، والمعرفة بـدين الله ، والفقه فيه ، والاتباع له ، والخشية ، والورع [1] ...
وروى ابن وهب عن مالك أنه قـــال في (الحكمـــة) : إنها المعرفة بالدين ، والفقه في التأويل ، والفهم الذي هو سجية ، ونـور من الله (تعالى) [2] .
ولعل هذا القول هو أقـرب الأقـوال السـابقة إلى الصـواب . والـذي يبدو لي : أن الحكمة تتجاوز المعلومات الجزئية إلى المفاهيم الكلية مع نـــوع من التطـــابق بين معـــارف الحكيم والمواقف العملية له ؛ ومن ثم قيل إن الحكمة تعني : وضع الشـيء في موضـعه ؛ وإن كنا نرى أن ذلك أحد تجليات الحكمة ، وليس جـزءاً منها ، لكنهم لمحـوا أن المواقف الصحيحة الملائمة هي التي تكشف عن حكمة الحكمـاء .
ولعلنا نحـــاول الحـــوم حـــول حمى الحكمة ، وحـــول بعض تجلياتها وتجسيداتها في المفردات التالية :
1- إن تـاريخ الإنسـان هو مكافحة (العمـاء) و (اللاتكـوّن) في داخل نفسه وفي خارجها ؛ فهو يحـاول أبـداً صـياغة المفهومـات والـرؤى التي تمكّنه من فهم مركزه في هذا الكـون ، ومعرفة المحيط الـذي يعيش فيه بغية فهم الموقف الصحيح والخطوة المناسبة .
ومهما بـذل الإنسـان من جهـود في سـبيل الوصـول إلى ذلك فـإن نجاحه يظل نسبيّاً ، كما أن تقدير الناس لـذلك النجـاح سـوف يظل متفاوتاً ؛ حيث إن مبادئ الإنسـان ومعارفه تتحكم دائمـاً في بلـورة رؤيته للأشياء ؛ ومن ثم : فإن موقفاً ما قد يكـون في نظر واحد منا حكيماً ، على حين ينظر إليه آخرون على أنه طائش وخائب ؛ إلا أن الأيام بما تجلّيه من عـواقب ونتـائج وبما تركمه من نمـاذج تسـاعدنا على نوع من توحيد الرؤية والفهم .
2- إذا كنا نختلف حول تعريف الحكمة فإنه سيظل بالإمكـان تحليلها إلى العناصر المكوّنة لها ، وهي على ما يبـــدو لي ثلاثة : الـــذكاء ، والمعرفة ، والإرادة ؛ فالذكاء اللماح ، والمعرفة الواسـعة ، والإرادة

الصُلبة تكـوّن معـاً : (الحكمـة) ، وعلى مقـدار كمـال هـذه العناصر يكون كمالها .
الذكاء بمفرده لا يجعل الإنسان حكيماً ؛ إذ الملموس أن الذكاء دون قاعدة جيدة من العلم والخبرة ينتج فروضـاً ومعرفة (شـكلية) ، كما أن المعرفة دون ذكاء تجعل استفادة صاحبها منها محـدودة ، وتجعل وظيفته مجـــرد الحفظ والنقل ، دون التمكن من غربلة المعرفة أو الإضافة إليها . والأهم من هـذا وذاك : أن المعرفة دون ذكـاء تـؤخر ولادة الموقف الحكيم ، وتجعل الواحد منا يـأتي بعد الحـدث بسـبب ضعف البداهة .
ولا يكفي الـذكاء اللمّـاح ، ولا الخـبرة الواسـعة في جعل الإنسـان حكيماً ما لم يمتلك قوة الإرادة ؛ لأن الإرادة القوية وحدها هي الـتي تجعلنا ننصاع لأمر الخبرة ، وهي التي تنتج سلوكاً يختفي فيه الفارق بين النظرية والتطبيق .
الـذكاء موهبة من الله (تبـارك وتعـالى) ، والمعرفة الواسـعة كسب شخصي ، والإرادة القوية هدية المجتمع النـاجح لأبنائه الـبررة ؛ فهو الــذي يحــدّد العتبة والســقف المطلــوبين للعيش فيه بكرامة على مستوى الإرادة ، وعلى مستوى القدرة ، وهو لا يمنح القــدرة ، لكنه يمنح أفـــــراده إرادة الفعل والكف من خلال نماذجه الراقية ، ومن خلال المراتبية الاجتماعية الـتي يصـوغها تأسيسـاً على الاسـتجابة لأوامره .
3- إن المعرفة مهما كانت واسعة لا تعدو أن تكـون إحـدى مكوّنـات (الحكمـة) ، ومن ثم : فـإن هنـاك فارقـاً بين العـالِم والحكيم ، فقد يكون المرء قمة في تخصص من التخصصات ، لكنه لا يُعدّ حكيمـاً ، كما أن الحكيم قد لا يكون عالماً متبحراً في أي علم من العلوم .
العلم يفكك المعرفة من أجل اسـتيعابها ، فيقـوم بتنظيمها وتوزيعها على مساقات كثيرة ، أما الحكيم : فيقوم بـتركيب المعرفة النظرية مع الخـبرة العملية من أجل بنـاء وتشـكيل المفهومـات العامة في سـبيل الوصـول إلى رؤية شـاملة تنـدغم فيها معطيـات الماضي والحاضر والمستقبل .
العلم يمكننا من صـنع الـدواء ، وصـنع السـلاح ، لكن الحكمة تجعلنا نعرف متى نداوي ، ومتى نحارب .
العلمـاء كـثر ، والحكمـاء نـادرون ؛ لأن تحليل المعرفة أسـهل من تركيبها ، والعمل الدعوي اليوم ليس فقيراً في الاختصاصـيين ، لكنه محتاج حاجة ماسّة إلى الحكماء العظام الذين يمزجـون بين العلـوم

والثقافات المختلفة ، ويخلصون منها إلى محكات نهائية في الإصلاح والنهضة ومداواة العلل المستعصية ...
إن الحكمة أم الوسائل والأساليب ، لكنها أكبر من أن تحصر في أي منهج من المنـــاهج ، إنها معرفة تتـــأبى على التنظيم ، فهي دائمـــاً مرفرفة ، على حين أن العلم معرفة منظّمة ، وكل العلـــوم يبـــدأ تفتحها على أنها حكمة ، وتنتهي إلى أن تكــون فنّــاً ، أي : إنها تفقد طاقتها على التجدد بعد أن يتم سـجنها في قـوالب جـاهزة ، وتصـبح بحاجة ماسّــة إلى أن ترفــرف من جديد ، أي : أن تطعّم بالحكمة .
ومن ثم : فـإن الحكمة تتـأبى على الاسـتنفاذ ، ولـذا : فإنها الخـير الكثير الفياض المتجدد الذي يهيئه الله (تعالى) لمن شـاء من عبـاده .
4- جفل الوعي الإسلامي قديماً من (الفلسـفة) ؛ لأن أكـثر فلاسـفة المسـلمين أخرجـوا الفلسـفة من إطـار الـوحي وإطـار النصـوص والمعطيـات الشـرعية العامة ، فصـارت المفـاهيم الفلسـفية غريبة عن البنية الثقافية الإسلامية ، بل مصادمة لها .
وفي العصر الحديث : لم تنشأ لـدينا مـدارس فلسـفية ، وإنما اتبـاع لفلاسفة الغرب ، ومروّجون لفلسـفة مادية أجنبية محورها الأسـاس : هــدم عقيــدة الألوهية وتــدعيم الإلحــاد ... فاســتمر الجفــاء بين الاختصاصيين (العلماء) وبين ذوي النظر الكلي والرؤية العامة .
إن الناظر في الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة (الحكمة) : يجد أنها ما اقـترنت بــذكر (الكتــاب) إلا كــانت تالية له ، وكــأن في ذلك إشــارة إلى أن الحكمة بما هي مفــاهيم ونظر كلي لا يصح أبــداً أن تتشكل خارج مبادئ الكتاب ومعطياته الكــبرى ؛ إنه القيّم والمهيمن عليها ، وليس في ذلك حد من عطـــــــاء الحكمة وانطلاقها ، ولكنه إمســـاك بها كي لا تفقد اتجاهها ومحورها ؛ فالعقل البشـــري على سعة إمكاناته لا يستطيع أن يعمل بكفاءة إلا من خلال إطار توجيهي يمنحه شيئاً من الثوابت وصلابة اليقين .
وقد آن الأوان لتنشـيط حركة علمية لا تغـرق في التخصصـات لكنها تسـتفيد منها جميعــاً : في تنسـيق الواقع في ضـوء المثــال ، وفي إدراك العلاقــات الخطية والجدلية الــتي تربط بين الأشــياء ، وفي معرفة سنن الله (تعالى) في الخلق ...
آن الأوان لــترك التقــدم العلمي لأهل التخصصــات يغوصــون على مفـردات العلـوم ، ويضـيفون إلى فـروع المعرفة كل يـوم جديـداً ، والسعي إلى تكوين جيل جديد من الحكماء والمصــلحين ذوي النظر

الكلي والثقافة المَزْجية ، الذين يستخدمون المعارف المختلفة في بناء النماذج الحضارية الخاصة والمشروعات النهضية الشاملة .

وفي اعتقادي أن الحاجة إلى (الحكماء) سوف تزداد ؛ إذ إن المعرفة البشرية على وشك إكمال دورتها ، وعصر ثورة المعلومات الذي بزغ فجره سوف يكون أقصر العصور الحضارية ، ثم يأتي زمان الأسئلة الكبرى : أسئلة الهوية ، وعلل الوجود ، والمصير ، وطبيعة الكينونة البشرية وحدودها ، وحقوقها .. أي : إن الفلسفة قد تستعيد مجدها القديم ، لكن ضمن معطيات ومساقات جديدة ، وبلغة شديدة التعقيد ، وعلينا منذ الآن أن نحضّر أولئك ، الذين يستطيعون فهم أسئلة العصر القادم ، ويحسنون الجواب عليها .

5- الإرادة الصُلبة مكوّن أساس من مكونات (الحكمة) كما ذكرنا وهي (الإكسير) الذي يحيل المعرفة النظرية إلى نماذج متحققة في الواقع المحسوس ، إن الحكمة نور داخلي يشكل مفهومات كثيرة متباينة ، ويدمجها في نظم أشمل ، فتبدو منسجمة متناسقة ، لكن الحكيم لا يبدو كذلك ، فهو طراز فريد ، ونموذج خاص ، يصعب تقنين عطاءاته وتوجهاته ومواقفه ؛ لأن طبيعة الحكمة تتأبى على التحقق الكامل ، ومن ثم : فإنها تلوح في بعض المواقف والسلوكات لتدل على فضل الله (تعالى) على أصحابها وتوفيقه لهم . وتلك المواقف تفوق الحصر والعد ، لكن نذكر بعضها من أجل التقريب :

أ- الحكمة نمو دائم ، فالمزج الفاعل بين الذكاء والخبرة والإرادة يجعل مفهومات الحكيم في نوع من الحركة الدائبة ، مفهوم يكبر ، وآخر يضمر ، ونقط تزداد تفصيلاً ، وأخرى تزداد تركيزاً ، أفكار جديدة لديه تفقد بريقها بسرعة ، وأفكار قديمة تنبعث حية لتخط خطّاً جديداً ...

هذه الوضعية تجعل الحكيم في حالة من التألق الدائم ، وهذا التألق قد يفسّر لدى الكثيرين على أنه تناقض واضطراب ، على حين أنه نوع من الاستجابة الناجحة للمرونة الذهنية العالية ، والروافد الثقافية الثرية ، والإرادة الحرة الصُلبة ، لكن كل ذلك يأخذ سمة التغيّر لا التبدّل .

ب- إيثار الآجل على العاجل ، والدائم على الآني ، وما يمليه ذلك من مواقف والتزامات : أكبر سمة من سمات (الحكيم) ، والشرائع السماوية كلها جاءت توجّه الناس نحو هذه الفضيلة ، لكن إغراءات

المنافع والملذات العاجلة صرفت جـلّ النـاس عن الاسـتجابة { كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ } [القيامة : 20 ، 21] .
وعدم تحقق هذه الفضيلة في حياة كثير من الناس ، سـببه : ضـعف في الخـبرة ، أو ضـعف في الإرادة ، أو فيهما معـاً ، والحكمة تجعل الحكيم في منأى عنهما .
وموقف الحكيم هنا يثـير لـدى النـاس الدهشة ؛ حيث يجدونه زاهـداً معرضــاً عما يتقــاتلون عليه ، وربما اتهمــوه بــالعجز أو الكسل أو القصور ، وهو في الوقت نفسه يضـحك في داخله من جهـادهم في غير عدو ومحاولات قبضهم على السراب ! ! .
ج- داخل الحكيم ساحة مَوّارة بالحركة والنشاط ، فهو لا يكـفّ أبـداً عن عمليات المقارنة ، والموازنة ، والتحليل ، والتركيب ، والاستنتاج ، والتشذيب ، والإضافة ، إنها أمـواج وتيـارات في أعمـاق المحيط ، أما السطح فإنه هادئ تعلوه السكينة والوقار .
إن من ملامح الأذكيـاء سـرعة البديهة ، وإطلاق الأحكـام ، وسـرعة تشـكيل المواقف ، لكن الحكيم طـراز آخر من النـاس ، فهو بطيء في تكــوين معتقداته ، وصــياغة مقولاته ، إذ إنه يملك قــدرة خاصة على ضرب كل أشكال المعرفة والخبرة في بعضـها بعضـاً ، ليخـرج في النهاية بزبدة تتميز عنها جميعاً ، لكنها منها جميعاً !
ويفسّــر بعض النــاس ذلك بــالعي والحَصَــر ، لكن الأيــام تثبت أن مقـولات الحكمـاء هي بنـات عواصف فكرية وشـعورية هائلة ، لكنها غير منظورة ! .
د - من أهم تجليــات الحكمة : إدراك حجــوم القضــايا على وجهها الصحيح ؛ فالحكيم يرى الأشـياء الكبـيرة كبـيرة ، كما يـرى القضـايا الصغيرة صغيرة كما هي ، وتقدير القضايا بصورة صحيحة من أخطر المشكلات التي ظلت تواجه البشر على مدار التاريخ ، وهل دُمّــرت الحضارات إلا من وراء مشـكلات وأخطـاء ظنها النـاس تافهة ، فـإذا هي عواصف هوجاء تأتي على كل ما تمرّ عليه ! .
الحكيم : رجل يرى ما قبل اللحظة الراهنة ، ويستشرف ما بعــدها ، وهو لا يــرى نسـقاً أو نظامـاً من التـداعيات الترابطية ، لكنه يـرى أنساقاً ونظمـاً تتـوازى ، وتتقـاطع ، وتتصـادم ، إنه يحسّ بالعاصـفة قبل هبوبها ، فيحــذر قومه وينــذرهم . كلنا نــرى القضــايا بحجمها الحقيقي ، لكن بعد فـوات الأوان ! ، وبعد أن نكتـوي بنارها ، وتفوتنا فرصها الذهبية ، لكن الحكيم يـأتي في الـوقت المناسب ، كما قـال

سفيان الثـوري : » إذا أدبـرت الفتنة عرفها كل النـاس ، وإذا أقبلت لم يعرفها إلا العالم « ! .
العالم (الحكيم) الذي وصفناه ، أما أهل الاختصـاص ، الـذين أذهبـوا العمر في تفـتيق المعرفة حـول شـيء بـالغ الصـغر ، أو حـول (لا شيء) : فهؤلاء جنود التقدم العلمي ، لكن حظوظهم من إشـراقات الحكماء محدودة للغاية ! .
هـــ ترتفع درجة المــرارة في داخلنا على مقــدار فقــدنا للحكمة ؛ والنزق والبَرَم الذي نبديه حول كل ما لا يعجبنا سببه جهلنا بالأسباب والجذور والسـنن وطبـائع الأشـياء ومنطق سـيرورتها . أما الحكيم : فإن مرارته لا تنبع من مفاجآت الأحــداث وفواجعها ، وإنما من غفلة النـــاس واســتخفافهم بالمواعظ الــتي ألقيت عليهم ، ونبهتهم إلى النهايـات المحتومة الـتي ينـدفعون إليها دون أي حسـاب أو تقـدير لفداحة الخطب الــذي سـيواجهونه . إن الآلام الـتي نشـعر بها عند ظهور بعض النتائج تكون مكافئة في العادة للمسرات التي عشـناها يوم كانت (عقولنا مستريحة) ومشـاعرنا غارقة في عـالم الملـذات والأوهام ! .
ما ذكرنــاه من أنــوار الحكمة وفضــائلها غيض من فيض ، ولا يشف عن محاسنها قول كقول الله (تبارك وتعالى) : { وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَـةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً } [البقرة : 269] .
----
(1) الجامع لأحكام القرآن : ج3 ، ص330 .
(2) السابق : ج2 ، ص131 .
================

{ ونبلوكم بالشر والخير فتنة }

خلق الله جل وعلا الدنيا لتكون داراً للابتلاء والاختبـار ، ومن ثم فإنه جعل الإنسان يتقلب فيها بين المنشط والمكره ، والرخاء والشـدة ، والخـير والشر ، لـيرى سـبحانه كيف يصــنع هـؤلاء العبــاد ، وكيف يطلبون مراضيه في جميع الأحـوال ، { ونبلـوكم بالشر والخـير فتنة } [الأنبياء : من الآية35] .
ولعلنا نقبس من نور هذه الآية المباركة في الوقفات التالية :
1- الناظر في النُظُم العامة التي تحكم مسيرة الحياة يجد أن جوهر (الابتلاء) يقـوم على (التشـتيت بين المتقـابلات) حيث يـؤدي عـدم القيـام بحق الحالة الراهنة أو ما سـماه القـدماء بـأدب الـوقت إلى الإخفـاق في الامتحـان الـذي يعـني تحـول الخـير إلى شر أو ارتفـاع

وتيرة الشر والتدهور ، ولعلنا نميط اللثام عن هذا المعـنى من خلال نموذجين اثنين :

(أ) يسـعى كل مجتمع إلى إيجـاد أكـبر قـدر ممكن من التماثل بين أفــراده بنية المحافظة على قيمه وخصوصــياته وزخمه الحــركي ، وهـــذا التماثل من الخـــير ولا ريب لأن البـــديل عنه هو الشـــقاق والاحتراب الـداخلي لكن التجربة الاجتماعية أثبتت أن الحـرص على التماثل التـام بين أفـراد المجتمع يـؤدي إلى انقسـامه على نفسه ، حيث يتشوف أعضـاؤه ولاسـيما الصـفوة منهم إلى النفـاذ إلى واقع المجتمع على نحـــوٍ منفـــرد ومنعهم من ذلك يـــؤدي إلى التـــوتر الاجتماعي ، ويجعل (التمـاهي) الظـاهر عبـارة عن شـكل فـارغ من المضـمون ، فينتشر النفـاق الاجتمـاعي والازدواجية في السـلوك ، ومن ثم فـإن المطلـوب هو قـدر من التنـوع الاجتمـاعي واحـترام الخصوصـيات في إطـار النظم الكـبرى للمجتمع وفي إطـار أهدافه ومبادئه العامة .

(ب) حث الإسلام على صلة الرحم وأداء حقـوق القرابة ، ورتب في ذلك أحكاماً وآداباً عديدة ، والالتزام بها ورعايتها من الخير العظيم ، لكن ذلك لابد أن يوقف عند حدود رعاية مسائل أخرى لا تقل أهمية وحيوية من مثل احـترام النظم الـتي تتـولى توزيع وتـرتيب الحقـوق والواجبـــــــات في المجتمع ، حيث لا يصح لعامل القرابة أن يمس العدالة الاجتماعية أو يضــغط عليها ، الملحـــوظ أن ما تســمى بـــ (سيادة القانون) لم تأخذ أبعادها بشكل جيد في العصـور الحديثة إلا حيث اضــمحلت العلاقــات الأســرية والقرابية كما هو الشــأن في المجتمعــات الغربية أما في المجتمعــات الإســلامية حيث التواصل الأسري والعـائلي أمتن وأفضل ، فـإن من الملحـوظ أنه يتم الكثـير من التجاوز والتفلت من النظم العامة في سبيل إعطـاء الأقربـاء ما ليس لهم من مكتسـبات ظنـاً أن في ذلك صـلة للـرحم ! لكن هـذا يعني عدم النجـاح في الابتلاء والتشـتت بين المتقـابلات ، إن إكـرام الأقرباء لا ينبغي أن يتم على حساب الآخرين ولا بخرق النظام العام ، وإلا كان شراً وبلاءً .

ولعلنا لا نبـالغ إذا قلنا إن من أشد ما عانـاه التمـدن الإسـلامي في تاريخنا الطويل كــان نقل العــرب من مرحلة (القبيلــة) إلى مرحلة (الدولــة) حيث يتم الفصل شــبه الكامل بين العلاقــات والحقـــوق الشخصية وغير الشخصية ، ونجد إلى جانب هـذا في سـيرة النـبي - صـلى الله عليه وسـلم- وسـلوك أصـحابه الكـرام موازنة دقيقة في

هــذا الشــأن ، فــالنبي -صــلى الله عليه وســلم- هو الــذي قــال : يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت فإني لا أغـني عنك من الله شيئاً [1] وهو الذي قال : .... لو أن فاطمة بنت محمد سـرقت لقطعت يدها [2] .
2- النجــاح في الابتلاء يقتضي نوعــاً من اليقظة لجميع قوانا العقلية والروحية، حتى لا نقع في أسر اللحظة الحاضـرة ونستسـلم لخيرها وشرها رضائها وكربها ، وهذا يعـني نوعــاً من الاسـتعلاء على الواقع وعـدم الركــون إليه ، والــذوبان فيه ، وذلك إنما يقع عند الغفلة عن (نواة) الابتلاء الكامنة فيه ، على نحو ما حدث من غفلة الرمـاة يـوم أحد عن نــواة الابتلاء في أمر النــبي -صــلى الله عليه وســلم- لهم بالبقــاء في مــواقعهم مهما كــان اتجــاه المعركة ، فــأدى ذلك إلى تحويل النصر الذي كان يلوح في مستهل المعركة إلى هزيمة ! لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يدع المسلمين يستسلمون لمرارة الهزيمة ، ويغرقون في التلاوم والندم ، وإنما انــدفع بهم إلى ســاحة ابتلاء جديد بــــأمره لهم بالتوجه إلى حمـــــراء الأسد حيث تحــــولت مشاعر الفرّ والانكسار إلى مشاعر المبادأة والمطاردة للعـدو ! [3] .
ولعل مما يعصم عن الغـــرق في الحالة الراهنة تعـــود الاستبصـــار وتقليب النظر في الحالة الراهنة خيرها وشـــــــرها ، ومحاولة فهم المنطقية والآلية الــتي أدت إلى ولادتها وتجســدها ، وإذا ما تم ذلك أمكن أن نسـيطر على تلك الحالة ، ونتصـرف إلى اتجاهـات سـيرها وتطورها ، فإذا كان الابتلاء عبـارة عن خـير أي خـير أصـابه المـؤمن ثمـــرة لجهـــده وكفاحه وجب عليه أن يســتمر في ذلك الجهد على نفس الوتيرة التي كان عليها ، وإذا كان قد أصابه من غير تعب كمن ورث مالاً وفْراً وجب عليه أن يشكر الله على ذلك أولاً ، وأن يقوم ثانيــاً ببحث الأســباب والعوامل الــتي تــؤدي إلى المحافظة عليه وتنميته وتزكيته ، حتى لا يشعر يوماً ما أن النعمة الـتي هبطت عليه لم يكن يستحقها ! .
وإذا كان ما أصاب المؤمن من شر ومحنة بسبب أخطائه وخطاياه ، فـــإن النجـــاح في مواجهة ذلك الابتلاء لا يكـــون إلا بـــالخلاص مما اقترفت يداه ، وبذلك يستحق تغيير الله تعالى له كما قال سبحانه : { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } [الرعد : 11] .
وإذا كان ما أصابه بسبب ما جناه غيره فإن عليه أن يصبر ، ويحـاول أن يتجــاوز ما هو فيه من بلاء بتحوله من (صـالح) إلى (مصـلح) لأن

البلاء حين يعم بسبب انتشـار الفسـاد لا يتأهل للنجـاة منه إلا الـذين يسـعون إلى تحجيمه وتطهـير المجتمع منه ، كما قـال سـبحانه :] فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السـوء وأخـذنا الـذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون [ ] الأعراف : 165[، ولابد للتوطئة لكل ذلك من ســـيادة روح المفاتحة والمكاشـــفة والنقد المنصف البناء حتى لا تندغم الذات في الموضوع ، ونصبح كمن كان يدفع العجلة إلى أن أصبح يجري وراءها مستسلماً لقوة اندفاعها .

3- إن مبـدأ (الزوجيـة) ملحـوظ في الكثـير الكثـير من المخلوقـات والموجـودات ، وهـذا المبـدأ كما أنه سـبب في تكـاثر الكـائن الحي ونمو النوع كذلك هو سبب في تحول حالات الرخـاء والشـدة ، ففي رحم كل رخـاء (نـواة) لمحنة ، كما أن في أحشـاء كل شـدة نـواة لرخـــاء ومنحة وهـــذا واضح في قوله جل وعلا : { فـــإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا } (الشرح : 5 ، 6) إن فهم هذه المسألة يقتضي منا أن نضع الحالة الراهنة التي نعيشها في السياق التاريخي والسببي ، حتى يتبين لنا أنها ليست أكثر من حلقة في سلسلة غــير متجانسة من النجود والوهاد والنجاحات والإخفاقات .

إن هـــذه الـــدنيا ليست هي الظـــرف المناسب لتموضع (الأحـــوال النهائية) في خير أو شر ، وإنما هناك دائماً خلف البــاب محنة تنتظر إذا ما نحن أسأنا التصرف بالإمكانات التي بين أيـدينا ، وفي المقابل فـإن الشـدائد والمحن تفجّر روح المقاومة والإصـرار والعنـاد ، تلك الروح الـتي كثـيراً ما تظل هاجعة خامـدة إلى أن تأتيها صـدمة قوية توقظها من سباتها ، وهكذا فـالمطلوب دائمـاً أن نكـون في الموقع الصحيح لمواجهة الابتلاء .

إن طبيعة الابتلاء تقوم على قاعدة من التوازنات العميقة والدقيقة ، والإنسان المبتلى يشبه في كثير من الأحيـان الـذي يسـير على حبل مشـــدود فهو يطـــالب حـــتى لا يقع بـــأن يســـتنفذ كل قـــواه العقلية والجسمية على نحو دقيق ومتوازن وإلا ...

4- تمتلك أمة الإســلام بحمد الله عــدداً من المنظومــات المعيارية والرمزية التي تمكنها من اختراق الحالة التي تعايشها ومعرفة أوجه الابتلاء فيها ، بل وتمكن الصـــفوة الممتـــازة من أبنائها من معرفة نسب الخير والشر وحجم الإيجابيات والسلبيات في الواقع المعـاش ، وهذه المعرفة تنظم أيضـاً ردود أفعالنا على الطـوارئ والوافـدات الجديدة رفضاً ومدافعة وتعديلاً وتهذيباً وقبولاً وترحيباً ، وهذا يعـني أن كل ابتلاء جديد لا يـــدخل في حيـــاة الأمة (الحيـــة) إلا بعد أن يمر

بمصـفاة قيمها ومبادئها و (عقيـدتها الاجتماعيـة) [4] أيضـاً ، وكلما كـان وقع الابتلاء الجديد حـاداً ومكشـوفاً اسـتطاع أن يسـتفز ردود أفعال الأمة عليه بصورة قوية وسريعة ، فظاهرة الردة الأولى كانت ابتلاء كبـيراً جـداً واجهته دولة الخلافة الوليـدة في زمـان أبي بكر رضي الله عنه بـالقوة والسـرعة المكافئة ، لكن الابتلاء (المتـدرج) الـذي حصل بعد ذلك في صـورة فـرق وعقائد فاسـدة وانحرافـات سلوكية وفي صـورة تجديد أطر الدولة وفق اتسـاع أمة الإسـلام لم يستوفز الطاقـات الكامنة في الأمة ، فلم تقم بواجبها تجاهه ، ولعل هذا يدفعنا إلى القـول : إن أخطر ما يغيب الإحسـاس بـالابتلاء على مسـتوى الفـرد والجماعة معـاً ليس الكـوارث الكـبرى ولا الجـوائح العظيمة وإنما (التغيرات البطيئة) التي تـدخل من أضـيق المسـام ، فتتكيف الأمة معها سلبياً على سبيل التدرج، وهذا ما حصل بالنسـبة لأمة الإسـلام وما حـدث لـدول عظمى في عصـرنا الحـديث ، فقد بـــدأت بريطانيا العظمى تـــتراجع عن مركزها العـــالمي ، وبـــدأت الشيخوخة تدب في أوصـالها منذ أكـثر من قـرن لكن ذلك لم يظهر إلا في الحرب العالمية الثانية .

ومن الطريف أن بعض علماء (الأحياء) جاءوا بضفدع ، ووضعوه في إنـاء وأوقـدوا تحته نـاراً هادئة ، فصـارت درجة حـرارة المـاء ترتفع بمنتهى البطء ، وكـــان المـــأمول أن يقفز الضـــفدع عنـــدما يحسّ بسـخونة المـاء لكن حـدوث التسـخين على نحو بطيء أدى إلى أن يتحول (المحرّض) إلى (مخـدّر) وكـانت النتيجة أن الضـفدع انسـلق دون أن يبدي أية مقاومة !

وهنا تبرز مهمة العلماء الربانيين العظام والمفكرين المبدعين الذين يمتلكون حاسة (الاستشعار عن بعد) حيث يرون عواقب الأمور قبل فوات الآوان ، ويقومون بما تسـتحقه من مواجهة وعمل ، وفي هـذا يقول سفيان الثوري رحمه الله : الفتنة إذا أدبرت عرفها كل النـاس ، وإذا أقبلت لم يعرفها إلا العالم .

وحـتى ننجح في مواجهة الابتلاء (التغـيرات البطيئـة) فـإن علينا أن نقوم بأمرين:

أ- الانشداد إلى الأصول والثوابت في المنشط والمكره والتأبي على انصهار منهجيتنا وحاستنا النقدية في المعطيات الجديـدة مع محاولة اسـتيعاب تـأثير المسـتجدات على تلك الأصـول ومحاولة إيجـاد التكييفات والتوظيفات التي ترسـخها ، وتجعلها تـؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

ب- المتابعة الجادة والدقيقة لمجمل التغيرات التي تطرأ على حياتنا لا من خلال الحـــــدس والتخمين والملاحظة العامة ، وإنما من خلال (الــرقم) والأســاليب الكمية ، حــتى نتعــرف بدقة على ســيرورة أحوالنا المختلفة والمآلات الصـائرة إليها ، وهـذا لن يتم إلا من خلال إعـادة تنظيم حياتنا ومؤسسـاتنا المختلفة على أسس جديـدة بحيث تخصص كل جهة أو مؤسسة قســـــماً أو موظفـــــاً يتــــولى جمع المعلومات الخاصة بها ونشرها حتى ينمو إحساس الناس ب (الكم) وطريقة قياسه ، وليس من المســـتفز اليـــوم ذلك التلازم التـــام والمطلق بين درجة تحضر الدولة ودرجة تقدم الإحصاء فيها .

إن على المسـلم أن يظل يكـافح ويجاهد في سـبيل التعـرف على مراضي الله تعـالى في كل حالة من أحواله ، ويستشــرف بعد ذلك عاقبة المتقين .

----

(1) أخرجه البخاري .

(2) أخرجه البخاري .

(3) انظر الرحيق المختوم : 318 .

(4) العقيدة الاجتماعية عبارة عن جمـاع المبـادئ والمصـالح ومركز التوازن بينهما .

=================

{ وخلق الإنسان ضعيفاً }

الإنسان هذا المخلوق العجيب هو صنعة الله تعالى المحكمة الدقيقة هذا الإنسان الذي يبـدو للوهلـةالأولى في منتهى البسـاطة مشـتمل على كل أشـكال التعقيد ، إنه يبـدو قويـاً مخيفـاً مع أنه في حد ذاته ضعيف في كل جـانب من جـوانب شخصـيته ضـعفاً لا يوازيه شـيء سوى ما يدعيه من القوة والعزة والسطوة !

إن هذه الكلمات القرآنية الثلاث قد لخّصت لنا جوهر الإنسان ، لكن دون أن تضع لنا الإصبع على مفردات ذلك الضعف ومظـاهره ليظل اكتشـافها التـدريجي عبـارة عن دروس وعظـات مسـتمرة تـذكر الإنسان بحقيقته ، وسوف ينفذ العمر دون أن نحيط بحقيقة أنفســنا .

ويمكن أن نسلط الضوء على بعض ما أدركناه من ضـعفنا وبعض ما يجب علينا تجاه ذلك في الكلمات التالية :

1- تَبَصّــر بــني الإنســان عل الــرغم من التقــدم المعــرفي الكبــير بأجسامهم مازال محدوداً إلى يـوم النـاس هـذا ، فهنـاك أجـزاء من

أجسامنا مازالت مناطق محرّمة ، فعلم الدماغ مـازال علم إصـابات أكــثر من أن يكــون علم وظــائف وتشــريح ، ومركبّـات الأنســجة والسوائل المختلفة في أجسـامنا وتفاعلها مع بعضـها مـازال الكثـير منها مجهولاً ، فإذا ما دلفنا إلي مناطق المشـاعر والإدراك وصـلاتها وتفاعلاتها بـالجوانب العضـوية ، وجـدنا أن كثـيراً مما لـدينا ظنـون وتخرصات أكثر من أن يكون حقائق .
فإذا ما خطونا خطوة أخرى نحو العـالم الوجـداني والـروحي وجـدنا أنفسنا في متاهات وسـراديب ، حـتى إن الفردية لتطبع كل ذرة من ذرات وجودنا المعنوي ، مما يجعل إمكانـات الفهم ووضع النـواميس والنظم العامة أموراً قليلة الفاعلية محدودة النجاح .
إن البـاحثين في مجـالات علـوم الإنسـان يجـدون الطـرق متشـعبة ملتوية كلما تقـدموا نحو الأمـام ، على حين أن البـاحثين في علـوم الطبيعة يستفيدون من أنواع التقدم المعرفي الأفقي في إضــاءة ما بقي مظلمــاً من مسـائل الطبيعة والمـادة . وتقـدّس الله تعـالى إذ يقـول :] ويسـألونك عن الـروح قل الـروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا [[الإسراء : 85]
ويـزداد ظهـور ضـعف الإنسـان حين يـدخل الإنسـان في صـراع بين عقله ومشاعره حيث يجد نفسه عاجزاً عن دفع مشــاعره والخلاص من وساوسه والتغلب على مخاوفه أو معرفة مصــــــدرها في بعض الأحيان ، ليدرك المـرة تلو المـرة أنه مع طموحه إلي السـيادة على الأرض وغزو الفضاء قاصر عن السيطرة على نفسه !
إن فاعلية كل رأي ودقته نابعان من مجموعة العمليات الـتي يسـتند إليها فحين تكـــون تلك العمليــات ظنية وعائمة فـــإن آراءنا الطبية والنفسية سوف يظل كثير منها هشاً ونسبي الصواب .
2- هذا الإنسان الضعيف لا يستطيع أن يبصر الأمر إلا ضمن شـروط ومعطيات زمانية ومكانية وثقافية خاصة ومحدودة ، فهو لا يسـتطيع أن يتخلص من محدودية الرؤية وضـــــرورة النظر من زاوية معينة ، وهــذا هو الســرّ الأكــبر في أننا لا نملك أن نتفق حــول كثــير من ا لمســـائل والقضــــايا المطروحة . إن خصوصـــية تكويننا وظروفنا ومشاعرنا تدفع مواقفنا وآراءنا إلى التفـرد ، ومن ثم فإننا نعجز عن توحيد الرؤية وبسط الرأي الواحد في أكثر شؤوننا .
3- نحن عــاجزون عن إدراك الأشــكال النهائية لأكــثر حقــائق هــذا الكون دفعة واحدة ، فالحقائق لا تسفر لنا عن كل أبعادها وأطوارها إلا على سبيل التدرج ، ومن ثَمّ فإن الإنسان الضـعيف يظل يكتشف

عجزه باستمرار ، وكأن ما يحرزه من التقـدم اليـوم ليس إلا عنوانـاً على ما كـان يجهله بـالأمس ، وما سيصل إليه غـداً ليس إلا رمـزاً على ما يجهله اليوم ، ومن ثم فإن التغيير والتطـوير يظلان ملازمين لكل إنتاجاتنا وإبـداعاتنا علي مقـدار ما نحـرزه من تقـدم في العلم والفهم ، والمقولة التي لا يفتأ هذا المخلـوق الضـعيف يرددها : » لو اسـتقبلت من أمـري ما اسـتدبرت لفعلت كـذا، ولقلت كـذا .. ، وانطلاقـاً من هـذا فـإن من سـمات النظريـات العلمية الناجحة أن تكـون منفتحة وذات قابلية جيـدة للإضـافات الـتي تـأتي بها حركة كشف الحقائق وإدراك المجهولات .

4- هذا الإنسان الضـعيف لا يسـتطيع أن يجـزم بشـيء مقطـوع من حـوادث المسـتقبل ، فمهما أدرك المـرء الظـروف والعوامل والمؤثرات التي تحيط به لم يستطع أن يعرف ماذا سـيحدث له بعد شـهر أو يـوم أو سـاعة ، وأعظم أطبـاء الـدنيا لا يسـتطيع ضـمان استمرار حياته أو حياة غيره سـاعة من زمـان ، ومن ثمّ فـإن القلق والخـوف من المسـتقبل هما الهـاجس الجـاثم فـوق صـدر الإنسـان الحديث الذي فقد الإيمان وفضيلة الدمج بين الحياة الدنيا والآخـرة ، والمتأمل في كثـير من الأقـوال والتصـريحات والدراسـات يجد أن خـبراء الاسـتراتيجية هم أكـثر النـاس مجازفة ولا سـيما عنـدما يشـرعون في سـرد التفاصـيل للأحـداث المتوقعة ، حيث تقصر طاقات البشر وإمكاناتهم عن التنبؤ بها [2] .

5- أكـثر ما يظن فيه عجز الإنسـان وضـعفه هو الإمكانـات الـتي يمتلكها لفهم الواقع المعـاش بكلياته وجزئياته ومشـكلاته وخبايـاه ، وقد كـثرت في أيامنا هـذه الـدعوة إلى فهم الواقع وفقهه ، وهي دعـوة مهمة ، لكنها تخفي في طريقة طرحها نوعـاً من التبسـيط للمسـألة ، حيث إن فهم الواقع أو مقاربته مسـألة من أعقد ما يواجهه العقل البشري ، فالقيم الـتي نـؤمن بها تتحكم إلى حد كبـير في رؤيتنا لـذلك الواقع ، وكثـيراً ما تشـكل حـائلاً بيننا وبين رؤية حقيقة ما يجـري فيه . والعقل الإنسـاني حـتى يلامس الواقع فإنه يفـترض ثباته وجمـوده ، على حين أن الواقع يظل محطّة لتـدفق التحولات المشعثة الكثيرة والحادة أحيانـاً مما يجعل إدراكنا قاصـراً عن ملاحقته ، وبالتالي فإن أحكامنا تصـدر على أشـياء فائتة ومنتهية ومن هنا فإنه لابد من بناء (إشكالية) ، يتم من خلالها تقسـيم الواقع إلى قضايا يمكن تحديدها وتقديم إجابات وحلـول لها ، والنمط الـذي سنصـور الواقع من خلاله هو عبـارة عن صـورة عقلية مركبة تـدخل

فيها رؤانا العقدية إلى جـــانب العناصر المعرفية والقيم الاجتماعية التي ترشد حركة المجتمع ، ومادام كل ذلك متفاوتاً عند الناس فإن عجزنا عن لمّ الخلاف سوف يظهر أكثر وأكثر عنـدما نحـاول تقـويم الواقع وإصدار الأحكام عليه .

وهـذا ما سـيؤدي بالتـالي إلى اختلافـات كثـيرة في منـاهج الإصـلاح ومشروعات النهوض الحضاري ، وهنا يظهر مرة أخـرى مـأزق وهن الإنســان حيث إن التقـــدم العلمي لا يتحقق دون الإغـــراق في التخصص ، والتقــدم يســتمد مشــروعيته وأهميته من كونه يقــدم الأدوات التي تسـاعد على إصـلاح شـأن الإنسـان وترشـيد قراراته ، لكن الإغـــراق في التخصص يحـــول دون فهم الواقع ودون فهم حاجــات الإنســان المختلفة من منظــور شــامل ، إذ إن مجــال التخصصـات هو الجزئيـات ، وفهم الواقع الإنسـاني يحتـاج إلى رؤى ونظريـات كلية لا تتـوفر عـادة عند الاختصاصـيين .. ومن هنا نـدرك لماذا نرى تقدم المعرفة وتأخر الإنسان وانحـداره شـيئاً فشـيئاً نحو البربرية ! إننا عاجزون عن رعاية شؤوننا إذ اما ابتعـدنا عن الانتفـاع بالهداية الربانية .

الموقف الموضوعي مما سبق :

إذا كــان الإنســان على ما ذكرنا من العجز والقصــور فــإن عليه أن يطامن من نفسه ، ويخضع لقيوم السموات والأرض خضوع العارف بضــعته المــدرك لعظمة خالقه متخــذاً من ذلك بابــاً للأوبة والتوبة الدائمة .

وعلى الإنســان مع ذلك أن يحـــترم عقله وقدراته فلا يـــزجّ به في مجاهيل وغيوب لا يملك أدنى مقدمات للبحث فيها ، حتى لا يتناقض واقعه مع ذاته ومن المنهجية القويمة أن نعلّم أنفســنا الصــبر على الاستقراء والتأمل وعدم المسارعة إلي إطلاق الأحكام الكبـيرة قبل التأكد من سلامة المقدمات التي تستند إليها ، وحين نصل إلي حكم ظـني فإنه علينا أن نصـوغة بطريقة تُشـعر المطلع عليه بـذلك ، فلا نسوق القطعيات مساق الظنيات ، ولا الظنيات مسـاق القطعيـات .

ويـروون عن الإمـام مالك رحمه الله أنه كـان كثـيراً ما يـردد قوله تعـالى] إن نظنُّ إلا ظنَّاً وما نحن بمسـتيقنين[[الجاثية : 32] وذلك عندما يُستفتى فيفتي ، وقد عتب الإمام الجويني على المـاوردي أنه كـــان في كتابه » الأحكـــام الســـلطانية « يســـوق المظنونـــات والمعلومات على منهاج واحد « [3] . مع أن النصـوص في مجـالات

» السياسة الشـــرعية « قليلة ، وأكـــثر المســـائل فيها مبنية على الاجتهاد .
إن الوضـعية الـتي وضع الله تعـالى فيها الإنسـان تحتم أن نظل في حالة من الاستعداد الدائم لقبول الحق أياً كان مصدره والتراجع عن الخطأ وتعـديل الـرأي وامتلاك فضـيلة المرونة الذهنية ، وعلى الله قصد السبيل .
----
(1) النساء : 28 .
(2) اقرأ إن شئت ما كتبه (نيكسون) في كتابه (نصر بلا حـرب) عن المستقبل الذي يتوقعه لروسيا ثم ما آلت إليه الأمور ! .
(3) انظر الغياثي : 142 تحقيق د عبد العظيم الديب .
==================

{ ادخلوا في السلم كافة}

إن المـراد بـ » السّـلم « هنا : (الإسـلام) على ما رجّحَه عـدد من المفسرين وإن (كافّة) حال من (السّلم) على ما نرجحه ، ويكون المراد آنـذاك : الأمر بالأخذ بتكـاليف الإسـلام جميعها : ما تميل إليه النفس منها ، وما يخالف هواها .
وتصرح الآية الكريمة بـأن في عـدم الأخذ بالإسـلام كـاملاً نوعـاً من اتباع الشيطان ، حيث إن المنهج الربـاني يبـاين السـبل الأخـرى في فلسـفتها العامة ، وإن التفريط بشـيء من ذلك المنهج سـيكون فيه اتباع (آلي) لسبيل الشيطان حيث لا يوجد خيار ثالث .
ويمكن أن نستبصر في إشراقة هذه الآية المباركة المفـردات التالية :
1- إن المنهج الربـــاني يتسم بســـمتين أساســـيتين هما : التكامل والتفـرد فهو نظـراً لتكامله لا يفسح المجـال لعناصر أخـرى منافية لجــوهره ، وأما تفــرده عن المنــاهج الأخــرى فإنه يمنحه نوعــاً من الحساسـية الخاصة الـتي تجعل أي انحـراف عنه أو به عن مقاصـده وغاياته بــالغ الضــرر على أدائه وإصــلاحه للشــأن الإنســاني كله ، فالصـفاء الكلي ليس مطلبـاً من مطـالب الإيمـان النظـري ، ولكنه مطلب من مطـــالب توظيف المنهج ورسم دوائر حيويته وفاعليته ، وذلك نظراً للعلاقة الجدلية بين النظرية والتطبيق ، فسلامة الإيمان على مستوى الاعتقاد تتأثر إلى حد بعيد بالأخذ الجزئي للإسلام على مستوى التطبيق ! .

وقد حذّر القرآن الكـريم النـبي-صـلى الله عليه وسـلم-من مطاوعة المشركين في الإعراض عن بعض المنهج الرباني حين قال : { وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنــوك عن بعض ما أنزل الله إليك } [1] .

2- إن خصـال الخـير في هـذا الـدين كثـيرة ، وعلى مقـدار ما يأخذ المسلم منها يكون كمال إيمانه وإسلامه ، لكن بما أن العمر محدود والطاقــات محــدودة فــإن على المســلم إذا أخذ بعُمُد الإســلام ، واهتــدى بهديه العــام ، وقبس من كمالاته ، أن يبحث عن المجــال الحيــــوي المناسب لاســـــتعداداته وظروفه وطاقاته كي يتخذ منه محرابــاً لتعبــده وتقربه إلى الله تعــالى ، حــتى نحفظ للمجتمع الإسلامي توازنه ونسد ثغراته .

ومن هنا فإن عبادة طـالب العلم محاولة النبـوغ ، وإتقـان التخصص حتى نحقق للأمة الاكتفـاء الـذاتي ولو في حـده الأدنى على الصـعيد العلمي والفني وعبادة علماء الشرع القيـام بـالتبليغ وإحيـاء السـنن والأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر ، وتجديد وظــائف التــدين والتبصر في واقع الأمة ، وإن عبـادة الحكـام إقامة العـدل ، ورعاية شـؤون الأمة ، وحماية البيضة ، والتعفف عن الأمـوال العامة ونشر الدعوة ، وعبادة الجنـدي دوام التمـرس بفنـون القتـال ، واسـتيعاب الأسلحة الجديدة واستشـراف الشـهادة ، والاسـتعداد الـدائم للبـذل والفــداء ، وإن عبــادة الأغنيــاء وذوي الجــاه سد حاجة الفقــراء ومسـاعدة الضـعفاء على حل مشـكلاتهم والوصـول إلى حقـوقهم ، والبذل في تشييد المرافق العامة ، وهكذا ...

وإن خروج كل واحد من هؤلاء عن مجاله الحيوي سيحرمه ، ويحـرم الأمة من خير عظيم ، بل قد يؤدي إلى أضرار بالغة وخيمة العواقب ، فإذا صار هم العالم امتلاك المال بنية إعمار المساجد مثلاً تقلصت جهـوده في ميدانه الحقيقي الـذي ينبغي عليه المجاهـدة فيه ، وإذا انشغل الحـاكم بأعمـال خيرية أو أداء النوافل عن واجباته الأخـرى ، لم يكن ذلك موضع مـدح ولا نفع ذي شـأن للأمة المسـلمة ، وهكـذا ...

وهذا كله يحتاج إلى نوع من البصـيرة النافـذة بغية وضع الأمـور في نصابها .

3- إن أنظمة الإسلام يكمل بعضـها بعضـاً ، كما يفعّل بعضـها بعضـاً ومن ثم فــإن أي خلل أو ضــعف في نظــام من تلك الأنظمة يــؤثر بالسلب على أداء باقيها ، وهذا يعـود إلى ما ذكرنـاه آنفـاً من مـيزة

(التكامـل) الـتي يمتـاز بها المنهج الربـاني ، ونظـراً لأهمية هـذه المسألة وضعف الإدراك لها سنفيض القول فيها عسى أن نشعر أننا نقف على أرض صلبة .
وفي البداية فإن مبادئ الإسـلام ومنظوماته المختلفة تنضـوي تحت رؤية واحـدة مما يجعل التخلي عن أي منها هـدماً لجـزء من الرؤية الكونية الإسـلامية ويسـتوي حينئذ على الصـعيد العملي على الأقل الجهل بـذلك الجـزء مع تجاهله أو جحـده ، والنتيجة واحـدة ، وهي غبشٌ في الرؤية على المسـتوى النظـري ، واختلال في التوازنـات العميقة على مستوى الشعور ، واضطراب أنظمة الحيـاة الإسـلامية على مستوى الفعل والواقع المُعَاش ، وسنضـرب العديد من الأمثلة لجلاء هذه الحقيقة .
أ- الزكاة جزء من النظام الاقتصادي الإسلامي ، وعدم القيـام بهـذه الشعيرة يؤدي إلى عدم كفـاءة النظـام الاقتصـادي ، كما يـؤدي إلى إلحـاق الضـرر بالنظـام الاجتمـاعي والأخلاقي أيضـاً ، فالمقـدار المفروض من الزكاة في الأموال وعـروض التجـارة هو 2 ـ 5% ، وهـذا القـدر كـاف لسد العديد من حاجـات المجتمع الإسـلامي على مقتضى الحكمة الإلهية البالغة ، لكن ذلك سـيكون في الأحـوال العادية والطبيعية وفي غير الأحوال الطارئة كما في حالات الـزلازل والفيضانات ، وذلك أيضاً فيما إذا التزم أغنياء المسـلمين بإخراجها ، وإذا اسـتمر ذلك الالـتزام حقبة مناسـبة من الـزمن ، فلو قـدرنا أن 10% من الأغنياء أخرجوا الزكاة وأن التزامهم بأدائها في مجتمع ما لم يمض عليه سوى سنتين ، فإن الزكاة آنذاك لا تقوم بمهامها على الوجه المطلـوب ، حيث إن الحـالتين اللـتين ذكرناهما تجعلان الفقر يتراكم ويتفاقم إلى الحد الذي لا تفي أموال الزكاة بالتخلص منه .
ثم إن نظـام الزكـاة يـؤدي مهامه في ظل فعالية الأنظمة الأخـرى ، فإذا كانت موارد القطر شحيحة جداً ، أو كان النظـام السياسي فيه مختلاً ، وأدى ذلك إلى انتشـار البطالة والعطالة عن العمل ، فـإن نظام الزكاة بالتالي لا يوصلنا إلى الأهداف المنشودة منه .
وباعتبار الزكاة جزءاً من النظام الاقتصادي الإسلامي ، فإنها أيضاً لا تؤدي وظائفها إلا بفاعلية النظام الذي تنتمي إليه ، فمثلاً : (القـرض الحسـن) جـزء من ذلك النظـام ، وإعـراض الدولة أو الشـعب عنه يؤدي إلى نوع من تعطيل حركة المال وتداوله ، وبالتالي إلى ضعف حركة التنمية والاسـتثمار مما يفضي أيضـاً إلى قلة فـرص العمل وكثرة الفقراء والمعوزين .

ومـرة أخـرى فـإن فاعلية نظـام الزكـاة ترتبط جزئيـاً بقيـام الدولة بواجباتها من ضـمان الحد الأدنى من المعيشة للفقـير بالقـدر الـذي يحفظ كرامته ، ويجعله في وضع منتج مثمر ، فـــإذا عجــزت الدولة عن ذلك أو قصرت فيه ، فإن آلية (نظـام السـوق) سـتوجد شـريحة واسعة من المحتاجين الذين لا يمكن أن تقـوم بهم أمـوال الزكـوات والنذور والكفارات ... وينفعل كل ذلك ويتـأثر بقـوة النظـام القيمي وفاعليته ، فـإذا كـان نشـطاً انـدفع النـاس إلى التطـوع بكثـير من الأعمـال الخدمية وانـدفع كثـير من الفقـراء إلى العمل والحركة مع حسن التـدبير والتعفف عن أمـوال الآخـرين مما يخفف من غلــواء الحاجة .

ب- الضـبط الاجتمـاعي في الإسـلام يقـوم على ركـنين أساسـيين : الأسرة والمجتمع العام بما فيه من وسـائل تثقيف وتعليم ورقابة ... وإن الخلل في أي من هذين الركنين سـيؤدي إلى شـيوع الخلل في أداء الــركن الآخر . وواضح أن مهمة الأســرة أن تصــقل الفــرد من داخله بما تغرسه من قيم وآداب وبما تخطه في ذهنيته ومشــــاعره من خطــوط عميقة ، كما أن مهمة المجتمع الأرحب القيـام بالرقابة على تشجيع القيم الإيجابية وحماية أفراده من السـقوط فيما يعتـبر أعمالاً مشينة أو مُخلة .

والحالة النموذجية في هذا تتجلى في عموم الإيمان بالقيم والنظم ، وتوحد التربية الفردية مع معــايير الضــبط الاجتمــاعي على مقتضى ذلك الإيمــان ، فـإذا ما افترضـنا الاختلاف بين القيم الأسـرية والقيم التي يبثها الإعلام أو تلقنها المدرسة أو يشيعها الشارع ، فإن النتيجة هي تمزق شخصية الطفل بين مختلف هذه المؤثرات ، وحينئذ فــإن التربية الأســرية تتعــرض للخطر من قبل المجتمع الأوسع أو يــأتي الخطر مما تواضع عليه من قبلها . هــذا من جهة ، ومن جهة أخــرى فــإن الطفل يُخفي في الــبيت ما تلقفه من المدرسة أو الشــارع ، ويُخفي فيهما ما لُقنه في الــبيت ، والنتيجة هي الازدواجية والحــيرة وانطفــاء الفاعلية ، أي إجهــاض عمل الجهــات التربوية المختلفة ، وترك الناشئ لموجات الظروف .

ج- الحدود في الإسلام وسائل للـردع ، وهي بمثابة العمل الجـراحي الذي يـأتي ترتيبه في التطبب متـأخراً ، وتـؤدي الحـدود مهماتها في مجتمع تعمل فيه بـاقي الأنظمة بكفـاءة من نحو الاسـتقرار والعـدل وتوفر فرص العمل المناسبة وانعدام المغريات بالفاحشة وانسـجام التربية البيتية مع معايير الضبط الاجتماعي وانتشار العلم ... وإذا ما

فرضنا وقوع خلل فيما سبق أو بعضه ، فإن كفاءة الحدود في توفير الأمن للمجتمع سـوف تـتراجع على مقـدار القصـور الحاصل في الأنظمة الأخرى ، وهذا كله يجعل مسؤولية أمن المجتمع واستقراره مسـؤولية عامة يتحملها كل فـرد في المجتمع ، كما تتحملها الدولة على مقدار المكنة والتخصص .

4- إذا كـــانت أنظمة الإســـلام متفـــردة في رؤيتها الكونية وفي منطلقاتها وأهـدافها ، فـإن مما يضر بتماسـكها الـداخلي إدخـال العناصر البعيـدة عن طبيعتها عليها ، وهـذا ما يمكن أن نسـميه بـــ (التلفيــــق) ، وإن الثقافة الإســـلامية تقبل من الجديد ما ينشط وظائفها ، أو يوظف مبادئها ، أو يملأ فراغـات وهـوامش أوجـدتها خاصـية المرونة فيها ، فـإذا تجـاوز الأمر ذلك إلى الجـوهر والأنظمة الأساسية ، فـإن النتيجة هي ضـرب التوازنـات العميقة لتلك الثقافة مما يجعلها تنكمش كما هو الكائن الحي حين يُهاجَم وتفرز نوعاً من العطالة الضرورية كيما تحافظ على وجودها وانسجامها .

وإن ثقافتنا الإسـلامية تمر بمرحلة عصـيبة لا سـابق لها في تاريخها المديد حيث يمتلك زمام تثقيف الأمة أنـاس كثـيرون يجهلـون ثقافة الأمة ، بل إنهم رضعوا لبان الثقافة المعادية ، ولسنا هنا بصدد بيـان ذلك ولا أســبابه ، لكن ما نشــاهده اليــوم من عمليــات التلفيق والتهجين الثقـافي كـان حصـاد مراحل الركـود الفكـري والحضـاري بصورة عامة ، وإذا كان التجديد سنة من سنن الكـائن الحي فإنه إذا لم يتوَل التجديد أهله تولاه غـيرهم ، فالإنسـان بطبعه لا يصـبر على طعـام واحد ، وهو يسـتهلك الشـعارات والأفكـار والنظم الصـغرى ، فإذا لم نقم بإثراء ثقافتنا بالدراسات والخـبرات وتجديـدها وتحريرها من عـوادي الانحـراف والجمـود والتقليد فعل ذلك من لا يُحسـنه ، وصـار الانسـجام والتجديد عبـارة عن سـمات ظـاهرة جوفـاء ، أما الجوهر فيشوبه التناقض والتآكل الداخلي .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(*) من قوله تعالى :] يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين [(سورة البقرة : 208) .

(1) سورة (المائدة : 49) .

==================

{ وأن تصوموا خير لكم }

كان من منّة الله تعـالى على هـذه الأمة أن شـرع لها من الـدين ما يصـلح أمر دنياها وآخرتها ، وكـان من أهم ما شـرعه صـوم شـهر رمضان المبارك .
والعبـادات في الإسـلام تكـاليف ابتلاء ، ومقيـاس يكشف عن مـدى تمكن الإيمـان وألقه في نفس المسـلم ، وهي في الـوقت ذاته وسائل لتمكين ذلك الإيمان ، إنها له بمثابة الماء للشجر والنبات .
وآيات الصـيام لم تعـدد لنا أنـواع الخـيرات الـتي سنحصل عليها من وراء هذه العبادة ؛ ليظل عطاء هذه العبادة مفتوحاً متنوعـاً تظهـره التجربة التاريخية الاجتماعية ، والواقع المعاش ، ونسـتطيع الآن من خلالهما أن نتلمس وجوهاً من ذلك الخير في المفردات التالية :
1- إن الصيام وسيلة فعالة لتربية الإرادة الحرة :
حيث لا توجد عبادة من العبادات تكف المسلم عن شـهواته وملذاته مدة متصلة من الزمان كهذه العبـادة ، فهي تـدريب لإرادة المسـلم على مقاومة الأهـواء والملـذات ومغريـات الحيـاة . والمتأمل فيما يتفاوت فيه الناس في هذا الوجود يجد أن محور التفاوت هو الإرادة لا القـدرة ، فالقـدرات الفطرية لـدى النـاس متقاربة لكن تفـاوتهم الأساس يكون في مدى صلابة الإرادة الـتي تُسخّر القـدرة وتوجهها والتي تعين على ضـبط الـوقت ، وتكبح جمـاح الهـوى والركـون إلى الدعة وسفاسف الأمـور ، ومن هنا فـإن الصـيام جـاء لينمي تلك الإرادة وليُعَودْها التوجه إلى الخـير ومقاومة نـزوات النفس ؛ ولـذا فـإن تفريط المسـلم في أداء هـذه الشـعيرة صـار لـدى العامة من المسلمين مؤشراً إلى نقص في رجولته ، وهذا هو تفسير قيام كثير من المسلمين بالصيام مع تفريطهم في الصلاة ، مع أن أهميتها في الإسلام أعظم ! ويذكر لنا ابن الجوزي (ت 597 هـ) أن هناك صـنفاً من الناس لو ضرب بالسياط على أن يفطر رمضان ما أفطره ، ولو ضـرب على أن يصـلي ما صـلى ! وما ذلك إلا لأن النـاس عـدوا الإفطـار نقصـاً في الرجولة ، ولم يعـدوا الصـلاة كـذلك ، وقوله سـبحانه :] وأن تصـوموا خـير لكم [في أعقـاب ذكر الرخصة للمريض والمسـافر بـالفطر إيمـاءة للمسـلم بأنه من الأفضل له أن يصوم مع المرض المحتمل والسفر غير الشاق ، ليكـون في تحقيق إرادته نوع من المكابدة والمعاناة في سبيل الله عز وجل ، وحتى لا يصـير بعض النـاس إلى إيجـاد الـرخص والتـذرع بها للفـرار من الواجبات .
2- الصيام عبادة سلبية ، كيف ؟

فهو امتنـاع عن أنـواع المفطـرات ، ومن ثم فإنه بعيد عن الريـاء ، وخـرق تلك العبـادة أمر ميسـور في السر لمن أراد ذلك ، ومن هنا فإن صيام رمضان فرصة لتنمية الوازع الداخلي لدى المسـلم ، هـذا الوازع الـذي تعد تنميته محـور التربية الفردية الناجحة ، والملمـوس أن تعاظم هذا الوازع لا يتم إلا من خلال الثقة به والاعتماد عليه في شؤون عديـدة ، فهو في ذلك أشـبه شـيء بعضـلات الجسم في أن نموها في اسـتخدامها وتحريكها والاعتمـاد عليها ؛ ولـذا فإننا نـرى ضعف الوازع الداخلي لـدى أولئك الـذين يـأتون الفضـائل ويقومـون بالواجبـات من خلال قسر الأبـوين أو المجتمع ، فهم يفعلـون ما يفعلونه نتيجة ضغط خارجي ، فإذا ما ضعف ذلك الضـغط أو تلاشى أتوا من الرذائل والقبـائح وأنـواع التحلل ما يتناسب طـرداً مع حجم الضـغوط الـتي تعرضـوا لها فيما مضى ؛ وهـذا يجعلنا نسـاوق بين الرقابة الاجتماعية وتنمية الـوازع الـداخلي من خلال التربية البيتية القويمة .

3- في الصيام فوائد طبية واقتصادية واضحة :

فهو يخلص الجسم من بعض ما تـراكم فيه من الـدهون ، ويـريح المعدة من العمل الشاق الذي تقـوم به على مـدار السـنة مع فوائد طبية أخرى معروفة .. وفي الصـيام توفـير إجبـاري لنحو 40 % من اسـتهلاك الأطعمة والأشـربة الـذي تعـوده النـاس في أيـام الفطر ، وفي هـذا نـوع من التعظيم للمالية الإسـلامية ونـوع من المحافظة على الموارد الغذائية للأمة المسلمة .

4- من خيرات رمضان أنه أضحى ظرفاً لأداء أنواع من القربـات لله :

فقد تجـاوز صـيام هـذا الشـهر مفهـوم التلبس بعبـادة من العبـادات ليصبح نوعاً من الامتثال لمفردات كثـيرة في المنهج الربـاني ، ففيه قيـام الليل والإكثـار من قـراءة القـرآن والاعتكـاف في المسـاجد ولزوم الجماعات من قبل كثير من المسلمين وإخراج صدقة الفطر والاستبشـار بعفو الله وكرمه بما تظهر الأمة من البهجة والسـرور في يـوم عيـدها ، فكـأن شـهر رمضـان مناسـبة لازدحـام العبـادات والقربات في حياة المسلم على نحو لا يتوفر في أي وقت آخر .

5- يمثل الصيام نوعاً من الاتصال والتواصل الاجتماعي :

حيث ترسم الظـروف اليومية والمصـالح والأوضـاع الاجتماعية والطموحات الخاصة مجموعة من الأطياف العازلة لكل إنسـان عن غـيره مما يـؤدي إلى فقد الاتصـال أو ضـعفه ، وفقد الاتصـال في

مجتمع ما من أكبر المعوقات له عن النمو والتجـانس والصـمود في وجه الكوارث وألوان العدوان الخـارجي ، ومن ثم فـإن امتنـاع أبنـاء المجتمع المسلم عن الطعـام في وقت واحد مهما كـانت أوضـاعهم الاجتماعية وتنـاولهم له في وقت آخر محـدد ، إلى جـانب الشـعائر الجماعية الأخرى التي تعودها المسـلمون في هـذا الشـهر المبـارك من أهم ما يوحد الشـعور بالتجـانس ، ومن أهم ما يزيل الحـواجز التي تولدها الظروف المختلفة .

الصيام اليوم :

إن مهمة المبـادئ العليا أن تكيف حيـاة النـاس وتوجهها وفق مضـامينها ومعطياتها ، لكن تلك المبـاديء لا تعمل في فـراغ ، وإنما تشـتبك مع أمـور عديـدة من جملتها : العـادات الموروثة والظـروف الضاغطة والأهواء والشهوات الجامحة والتـأويلات والأفهـام الخاطئة للمنهج والمبـاديء ، وهـذا كله ينتهي إلى شـأن اجتمـاعي معـاش يلخصه ميل الناس بصـورة دائمة إلى جعل النهج الربـاني جـزءاً من ثقافتهم ، وقد يكون جزءاً صلباً ، وقد يكون جزءاً رخواً على مقـدار إقبـال النـاس على الإسـلام وهي الـتي تجعل من المنهج موجهـاً للثقافة ومهيمنـاً عليها . ومن هنا فـإن أخطر علل التـدين هي تلك الـتي تصـيب الأمة في مكانة منهجها ومبادئها من ثقافتها العامة ، فتكف المبادئ عن توجيه الفعل ، أو تنحرف عن غاياتها ومقاصدها ، فلا تحقق الحكم المقصودة في تشريعها ، ويكون الجهـاد الـدائم هو محاولة الإبقاء على المنهج الرباني ساطعاً متألقاً متميزاً عما تواطأ عليه الناس من عادات وتقاليد .

ومـازال بحمد الله في مجتمعنا المسـلم من يحـرص على الصـيام على الوجه الأكمل ، وهم في تزايد مستمر لكن الأكثرية الكاثرة من هـذه الأمة انحـرفت بالصـيام عن مقاصـده الـتي ذكرنا أهمها آنفـاً ، فعلى حين كان السلف يعدون رمضـان فرصة سـانحة يغتنمونها في صـنوف الطاعـات ، نجد كثـيراً من المسـلمين يسـهرون الليل في ضروب من اللهو المختلفة حتى إذا اقـترب وقت السـحر تنـاولوا ما لذ وطـاب من الأطعمة ، ثم نـاموا قبل أداء صـلاة الفجر ، وإذا كـان هذا النائم موظفاً فإن وقت بداية العمل في رمضان يكون متأخراً ، فيقوم متثاقلاً إلى عمله ليكمل نومه هنـاك ! وإن كـان غـير موظف فـإن رمضـان هو شـهر النـوم عنـده فيسـتغرق في نومه إلى قبيل المغـرب ، فيفـوت عليه أكـثر من فريضة صـلاة ! ! ومع هـذا فـإن

الشعار المرفوع لدى كثير من الموظفين هو أن رمضان شهر عبادة وليس شهر عمل (العبادة التي قدمنا صورة منها !) .
أما تهذيب النفس من خلال الجوع فحـدث عن هـذا ولا حـرج ، حيث إن التجـار يشـرعون في الإعـداد لمسـتلزمات رمضـان قبل مجيئه بنحو شـــهرين ، وتقـــدر بعض الجهــات أن ما يســتهلكه كثـــير من المسلمين في رمضان يصل إلى ثلاثة أمثال ما يسـتهلكونه في غـير رمضان ! ! وقد صار رمضان عبئاً ثقيلاً على الحكومـات الـتي تـوفر السلع المدعومة لمواطنيها !
وقد كان السلف يدعون الله تعالى ستة أشـهر أن يبلغهم رمضـان ، فإذا انصرم دعوا الله ستة أشهر أخرى أن يتقبل منهم أعمـالهم في رمضـان . أما اليـوم فـإن كل وسـائل الإعلام في العـالم الإسـلامي تشعر الناس بـأن رمضـان ضـيف ثقيل فكأنه شر لابد منه ، ومن ثم فإن كثيراً من البرامج ينصرف إلى الترفيه عن الناس بما يجـوز وما لا يجوز ، وانقلب الشهر المبارك إلى موسم للهو واللعب !
وما يحدث لكثير من المسلمين في هذا الشهر المبارك أمر مفهـــوم ، حيث إن الأمة حين تمر بحالة من الركـــود الحضـــاري تكف مبادئها عن الفعل وتسيطر عليها الشكليات والعادات ، فجيوشــها لا تقاتل ، ومبدعوها لا يعرفون والفضائل فيها شعارات ، والعبـادات عـادات .. وتستمر في ذلك حتى تندثر باعتبارها أمة متميزة أو يبعثها الله بعثـاً جديداً يحيي ما اندرس من سـابق عهـدها ، وما ذلك على الله بعزيز .

================

{ إن خير من استأجرت القوي الأمين }

قصّ الله جل وعلا علينا خبر موسى مع شـعيب عليهما السـلام حين جاء مدين ، ووجد ابنتين لشعيب قد منعتا غنمهما من الورود بانتظار ذهاب الرعاء وفراغ المكان ، وما حـدث من تطـوع موسى بالسـقيا لهما ، وما كـــان من أمر شــعيب حين بلغه ما قـــام به موسى حيث أرسل له يطلبه ليجزيه على ذلك وذكر لنا القـــرآن الكـــريم كـــذلك نصــيحة ابنة شــعيب لأبيها باســتئجاره ، وعللت ذلك بقـــوة موسى وأمانته ، ويذكر المفسـرون أن شـعيباً عليه السـلام أثـارت حفيظته الغيرة من كلامها ، فقال : وما علمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت له أن موسى حمل حجـراً من فـوق فوهة البـئر ، لا يحمله في العـادة إلا النفر من النـاس وتلك قوته ، وأنه حين ذهبت تكلمه أطـرق رأسه ،

ولم ينظر إليها ، كما أنه أمر المـــــرأة أن تمشي وراءه ، حـــــتى لا تصيب الريح ثيابها فتصف ما لا تحل له رؤيته وتلك أمانته .
وقد صدق حدسـها فهي ما رأت إلا نبيـاً من أولي العـزم المؤتمـنين على الوحي ، الأشداء الأقوياء ! وقد قيل : إن أفـرس النـاس ثلاثة : بنت شعيب وصاحب يوسف حين قال (عسى أن ينفعنا) [1] ، وأبو بكر حين اختار عمر لإمارة المؤمنين . [2]
وقد جمعت ابنة شـعيب عليه السـلام في تعليلها المختصر ذاك بين أمرين عظيمين ، ينضـوي تحتهما معظم الكمـالات الإنسـانية ، وهما الأمانة والقوة ، وهذه وقفات سريعة معهما :
1- ليست الأمانة هنا إلا رمزاً لما يسـتلزمه الإيمـان بالله تعـالى من المحامد كـــالإخلاص والأمانة والصـــدق والصـــبر والمـــروءة ، وأداء الفرائض والكف عن المحرمات ؛ وقد قال أكثر المفسرين في قوله سبحانه : { إنا عرضـنا الأمانة } [3] الآية : إن المـراد بها التكـاليف الشرعية عامة [4] ، وقد وصفت ابنة شعيب موسى بالأمانة لغضه طرفه ، ومشيه أمامها .
أما القوة فهي رمز لمجموع الإمكانات المادية والمعنوية الـتي يتمتع بها الإنسان.
2- الأمانة والقوة ليستا شيئين متـوازيين دائمـاً ، فقد يتحـدان ، وقد يتقاطعـان فالصـبر جـزء من الأمانة ؛ لأنه قيمة من القيم ، وهو في ذات الوقت قـوة نفسـية إرادية ، وإذا كـان العلم من جنس القـوة ، فإنه يولد نوعاً من الأمانة ؛ إذ أهله أولى الناس بخشية الله ، { إنما يخشى اللهّ من عباده العلماء } [5] والإيمان أجل القيم الإسلامية ، فهو من جنس الأمانة ، ومع ذلك فإنه يولد لـدى الفـرد طاقة روحية هائلة تجعله يصـمد أمـام الشـدائد صـمود الجبـال ، ومن ثم كـانت الظاهرة الإسلامية العالمية :
ظـاهرة (المسـلم لا ينتحر) ! . إن هـذا التلاقي بين الأمانة والقـوة يمثل بعض الأرضية المشتركة لتلاقي أهل الأمانة وأهل القـــوة ، كما يجعل التحقق من إحداهما المعبر للتحقق من الأخرى .
3- سوف يظل النمط الذي يجمع بين القوة والأمانة نـادراً في بـني الإنسان وكلما اقتربا من الكمال في شخص صار وجوده أكثر ندرة ، والقوي الذي لا يؤتمن ، والموثوق العاجز هم أكـثر النـاس ، والـذين فيهم شــيء من القــوة وشــيء من الأمانة كثـيرون ، وقد روي عن عمر رضي الله عنه : » أشـــكو إلى الله جَلَد الفـــاجر وعجز الثقة ، فكل منهما لا يمثل المسلم المطلوب ، ودخل عمر أيضاً على لفيف

من الصـحابة في مجلس لهم فوجـدهم يتمنـون ضـروباً من الخـير ، فقال : أما أنا فأتمنى أن يكون لي ملء هذا البيت من أمثـال سـعيد بن عامر الجمحي ، فأستعين بهم على أمور المسلمين ! .
4- العمل المقبول في المعـايير الإسـلامية هو ما تـوفر فيه الإخلاص والصـواب والإخلاص ضـرب من الأمانة ، والصـواب وهو هنا موافقة الشريعة ضرب من القوة ، هذا بصورة عامة ، لكن في أحيان كثيرة يكـون ما يطلب من أحـدهما أكـثر مما يطلب من الآخر ؛ فـالثواب يتعلق بـالإخلاص أكـثر من تعلقه بالصـواب ، فالمجتهد المؤهل ينـال أجراً إذا استفرغ وسعه وإن كان اجتهاده خاطئاً ، لكن لا ثـواب ألبتة على عمل لا يــراد به وجه الله تعــالى ، أما النجــاح والوصــول إلى الأهــداف المرســومة في الــدنيا فإنه مرتبط بالصــواب أكــثر من ارتباطه بــالإخلاص ، فكم من مؤسسة يــديرها أكفــاء ليس عنــدهم شــــيء من الأمانة ، ثم حققت أهـــــدافها المادية كاملة وكم من مؤسسة أدارها أخيار غير مؤهلين ، فأعلنت إفلاسها !
وقد ذكر ابن خلدون أن للنـاس مـذهبين في اسـتخدام الأكفـاء غـير الثقات وتقديمهم على الثقات غير الأكفاء ، واختار هو استخدام غـير الثقات إذا كانوا مؤهلين ؛ لأن بالإمكان وضع بعض التدابير الـتي تحد من سرقاتهم أما إذا كان المستخدم لا يحسن شـيئاً فمـاذا نعمل به ؟ ! [6]
وقد ولى النـبي -صـلى الله عليه وسـلم-أهل الكفاية الحربية مع أن في الصحابة من هم أتقى منهم وأورع ؛ لأن القوة (البســالة وحسن التخطيط) تطلب في قيادة الجيش أكـثر من الأمانة ، مع أنهم كـانوا بكل المقاييس من الأمناء الأخيار وطلب بعض الصحابة ممن عرفـوا بالزهـادة والـورع الولاية على بعض أمـور المسـلمين فحجبها عنهم لضعفهم .
5- نحن في مراجعة أخطائنا نركز على جانب الأمانة ، ونهمل جانب القـــوة فـــإذا ما أخفقنا في عمل ما قلنا نحن بحاجة إلى تقـــوى وإخلاص ، وإن اتبـــاع الأهـــواء هو الســـبب في ذلك ، ولا ريب أن الإخلاص مفتاح القبول والتوفيق وأن التقـوى تسـتنزل الفـرج ، لكن ما هي المعايير التي تمكننا من قياس درجة التقوى ومقدار الإخلاص الموجــود إذا ما أردنا التحقق منه وكيف نسـتطيع التفريق بين عمل دفع إليه الهــوى وآخر دفع إليه الاجتهــاد ؟ ! كل ذلك مما يســتحيل قياسة ، وبالتالي فإنه لا يمكن تحديده وما لا يمكن تحديـده لا يصـلح لأن يكون هدفاً .

وبإمكان الناس أن يقولوا : إلى ما شاء الله نحن أتباع هوى دون أن تستطيع أن ترد على أحد منهم رداً شافياً قاطعاً ! على حين أن قياس القوة ممكن ، وإدراك الخلل فيها يكون عادة ظاهراً يمكن وضع الإصبع عليه فحين يأتي خطيب ليتولى إدارة جيش ، أو التخطيط لمعركة ، وحين يتولى رسم سياسات العمل رجلٌ لا يعرف الواقع ، فلا يقرأ جريدة ولا يستمع إلى نشرة أخبار ، ولا يحسن قراءة أي شيء يحيط به ، فإن الخلل لا يحتاج إذ ذاك إلى شرح حيث تتولى شرحه النتائج ! . وحين يتصدى للاجتهاد في أمور خطيرة أشخاص لا يملكون الحد الأدنى من المعلومات حولها ، وتترتب على اجتهاداتهم فواجع أكبر من أي جريمة ماذا تكون الحال ؟ !

لقد آن الأوان لوضع الأمور في نصابها ، بتأهيل الشخص قبل إيجاد العمل الذي سيعمله ، بدلاً أن يوجد المنصب ثم يبحث عمن يسد الفراغ ليس أكثر !

6- عالمنا الإسلامي النموذج المثالي للقوى الكامنة ، فكل ما عندنا (خام) الإنسان والطبيعة والموارد ، ولعل لله في ذلك حكمة بالغة ؛ إذ أن تشكيل الإنسان المسلم لو تم قبل بزوغ الصحوة المباركة لكان أكثر ضرراً من بقائه على حاله .

هذه القوى الكامنة ستظل ثغرات في حياتنا أياً كان موقعها في ظل التكالب العالمي على الصعيد الثقافي والاقتصادي ، وهذه القوى الكامنة تحتاج إلى تفجير وإلى إخراج في شكل جديد يمنحها وزنها الحقيقي وإخراج القوة مهمة الدولة أولاً ؛ فهي المسؤولة عن تفجير الطاقات كافة وتوجيهها ، ومهمة صفوة الصفوة من صانعي المبادرات الخيّرة ، الذين يمتد بصرهم دائماً إلى مستوى أعلى من المستوى الذي تعيش فيه أمتهم فيوجدون باستمرار الأفكار والأطر والأجواء والآليات التي تُفَعّل القوى الخامدة المجهولة للناس حتى حامليها .

واليهود هم من أساتذة العالم في (إخراج القوة) وتوظيفها واستغلالها وصحيح أن ديننا يحول بيننا وبين وسائل كثيرة استخدموها حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، لكنني أعتقد أنه مازال في هذا العالم مكان فسيح للمسلم المبصر الأريب ..

وقد بدأت الأمة في امتلاك القوة ، وبدأ المارد الذي نام قروناً يصحو وهو الآن يتفقد أعضاءه وحواسه ، ويحاول أن يتعلم المشي في (حارة) الكرة الأرضية ، لكن بعضاً منا بدؤوا يخبطون يمنة

ويسرة قبل أن يفتحوا عيونهم وقبل أن يعقلوا الأجواء التي يصحون فيها ؛ ليغـــروا العـــدو بتوجيه الرصاصة القاتلة قبل أن يقفـــوا على أقدامهم ! .
إن فهم الحياة المعاصرة شرط أساسي يجب توفيره عند كل أولئك الـذين يريـدون توجيهها والتـأثير فيها ، ولن يكـون ذلك ممكنـاً ما لم نكن نحن من صانعي قراراتها وخياراتها ..
7- الأمانة قيد على القـوة ، فهي الـتي تحـدد مجـالات اسـتخدامها وكيفياته والقـــوة الآن في يد الآخـــرين على ما نعـــرف ، والقيـــود الأخلاقية عندهم آخذة في الضعف يوماً بعد يوم ؛ لأنها لا تعتمد على إطـار مـرجعي أعلى يمنحها الثبـات ومن ثم فـإن القـوة ليست في طريقها إلى الانطلاق من أي ضـــابط أو حسـيب ، لكنها في طريقها إلى صنع قيودها بنفسها الصناعة التي تمكنها من مزيد من الانطلاق ، وهي بذلك تجعل الآخرين يتوهمون أنها قيـود ؛ حـتى لا يشـعر أحد أن هنـاك فراغـاً أخلاقيـاً يجب ملـؤه ! وما النظـام العـالمي الجديد سوى الأحرف الأولى في أبجديات القيود الجديدة ! .
وهـــذا يـــوجب علينا المزيد من التفكـــير والتأمل فيما يجب عمله ، ونحن مع ضعفنا قادرون في هذا المضـمار على عمل الكثـير الكثـير إذا فهمنا لغة العصر ، وأحســـنا إدارة الصـــراع ؛ إننا نملك القيـــود (الأمانــة) ، وهم يملكــون القــوة ، فهل نسـعى إلى امتلاك القــوة المقيدة حتى يصطلي العالم بالنار دون أن يحترق ؟ ؟

---

(1) سورة يوسف : 21 .
(2) الكشاف 3 : 163 .
(3) الأحزاب : 72 .
(4) انظر البحر المحيط 7 : 253 .
(5) سورة فاطر : 28 .
(6) انظر مقدمة ابن خلدون 2 : 279 .

==================

{ وإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ }

أنزل الله - جلَّ وعلا - في المنافقين سورة سُميت باسمهم ، تفضح بعض مواقفهم ، وتُخبر عن بعض صفاتهم ، وكان من جملة ما نَعَتَهُمْ الله تعـالى به قوله : { وإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُـكَ أَجْسَـامُهُمْ وإن يَقُولُـوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَـبُونَ كُـلَّ صَـيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [1] .

فقد وصفهم الله - تعالى - بأن الناظر إليهم يُعجبُ بجمال أجسامهم ، ومن يسمعهم يُؤخذ بفصـاحة ألسـنتهم ، لكنهم كالهياكل الفارغة ، أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام ...
وهذه الصفات تتناسب مع حالة النفاق ، إذ إن ظاهر المنـافق دائمـاً خير من باطنه ، فظاهره الإيمان ، وباطنه الكفر ، وهو ذلق اللسـان ، لكنه يقول غـير ما يعتقد ؛ فهو كـذاب ، وهو جميل الصـورة ، لكنه عاطل من الصـفات النبيلة كالإيمـان والمـروءة والرجولة ، وكل ما يزين الباطن .
وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قـال : » كـان عبد الله ابن أبي (رأسُ النفـاق) وسـيماً جسـيما صـحيحاً صـبيحاً ذلق اللسان ، فإذا قال سمع النـبي - صـلى الله عليه وسـلم- مقالته « [2] .
ولمّا كان للظاهر سلطانه القوي في التأثير ، وانـتزاع الإعجـاب علَّم النبي - صلى الله عليه وسلم- أصحابه ضرورة تجاوزه إلى المعـاني الباطنية ؛ لأنها هي الفيصل الحقيقي في تقـييم الرجـال ؛ وقد ورد في الحـديث الصـحيح : أن رجلاً مـرَّ على النـبي -صـلى الله عليه وسلم- فقال : ما تقولـون في هـذا ؟ « قـالوا : حـري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع يُشفع ، وإن قال أن يُستمع إليه « قـالوا : » حـريٌّ إن خطب ألا يُنكح ، وإن شفع ألا يُشفَّع ، وإن قـال ألا يُسـتمع إليه « ثم مر رجل آخر ، فقـال : » ما تقولـون في هـذا « . فقـال رسـول الله -صلى الله عليه وسلم : » هذا خير من ملء الأرض مثل هـذا [3] ففضَّل النبي صلى الله عليه وسلم الفقـير على الغـني ، وذلك لا يلـزم منه تفضـيل كل فقـير على كل غـني ، إنما أراد أن يعلمهم أن التفاضل لا يقـوم أبـداً إلا على المعـاني الباطنية ، وما يتبعها من أعمال .
وتطرح هذه الآية الكريمة مسألة خطـيرة في حيـاة الإنسـانية بعامة وحياة المسلمين بخاصة ، هي قضية العلاقة بين الشكل والمضمون ، أو الجوهر والمظهر [4] .
ونعـني بـالجوهر ابتـداءً : مجمـوع الخصـائص الخُلُقِيَّة والنفسـية . والصور الذهنية ، والخبرات والموازنات العميقة للفرد .
أما المظهر : فإنه مجموع ما يحمله الفـرد من الصـفات الجسـمية ، وما يمتلكه من الأشـياء ، وما يتحمله من وظـائف ، مما لا يعد على صلة مباشرة بكينونته الذاتية .

في البداية ليس الجوهر والمظهر شيئين منفصلين انفصالاً تاماً ، بل بينهما علاقة تأثر وتأثير وأخذ وعطاء ، وقد ورد ما يدل على هـذا فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- كـان يمسح منـاكب أصـحابه في الصلاة ، ويقـول : » استووا ، ولا تختلفـوا فتختلف قلـوبكم « [5] . والمـرء حين ينشـرح صـدره يظهر ذلك على مُحيّـاه ، ومن ثم قيل : » من كثرت صلاته بالليل ضاء وجهه في النهار « .

وإذا كان بين الظاهر والبـاطن مثل هـذا التجـاذب والتلازم فـإن من البدهي ألا يزهِّد الإسلام الناس في الشكل ؛ فالصـلاة موقف روحي بحت ، ومع ذلك حرص النبي -صـلى الله عليه وسـلم- على انتظـام الصفوف فيها ، والأمر قريب من ذلك في صفوف القتال .

وحث الإســـلام على النظافة ، كما امتنَّ الله - تعـــالى - علينا بما نشعر به من التـأنق عند غـدوِّ الأنعـام ورواحها ، كما قـال سـبحانه : { ولَكُمْ فِيهَا جَمَـالٌ حِينَ تُرِيحُـونَ وحِينَ تَسْـرَحُونَ } [6]ـ ، وتلك مسألة شكلية . والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحصى .

إذن ما هي المشكلة ؟

تكمن المشـكلة في اختلال التـوازن بين الجـوهر والمظهر ، أو بين المضـمون والشـكل ؛ فالبشر متفقـون على أن اللبـاب هو الأصل ، وأنه ينبغي أن يُعطي من الاهتمـام والعناية والبلـورة القسط الأكـبر لأن كل الإنجازات الحقيقية التي تتم على السـطح نابعة أساسـاً من إنجـازات تمت على مسـتوى الكينونة والجـوهر . وهـذا يتناسب مع حقيقة تسخير الكون الذي حبا الله - تعالى - به الإنسان ؛ كيما يظل حراً طليقاً يحكم ويأمر دون أن يُكَبَّل ! بشيء من صنع يديه !

وللمجتمع وما يقره من أعراف سلطانٌ كبير على الناس ، ولما كان الحكم الاجتمـاعي منصـباً على الشـكل كـان الانحـدار نحو الاهتمـام بالشكل هو الأمر الطبيعي المتبادر إليه ، أما العناية بالجوهر فيمكن أن تنمو عن طريق التربية الخاصة في الأســـرة أو المدرسة ، لكن ذلك سيظل ضـعيف التـأثير ما لم يكن المجتمع كله خاضـعاً لمبـادئ عليا خارجة عن إنتاجه ، ولن يكون مصدر تلك المبـادئ حينئذ الأرض ، وإنما السـماء ! لكن حين يكـون الـدين عبـارة عن بعض الـرؤى الغيبية ، أو الدغـدغات العاطفية - كما هو الشـأن عند بعض الملل - فإنه لا يضع شـــيئاً في مواجهة التيـــارات الاجتماعية العاتية ؛ لأنه لا يعدو آنذاك أن يكون عنصراً رخواً من عناصر الثقافة !

وإن الذين الذي يوجِّه ويقاوم هو الذي نُمحِّص حياتنا من أجله !

وحينما يضـعف الـوازع الـديني لـدى المسـلم فـإن المـيزان يميل مباشـرة لصـالح المظهر . وبما أننا نعيش في عصر نتـأثر فيه أكـثر مما نـؤثر فقد أضـيف إلى ضـعف الـوازع الـديني عند أكـثر النـاس الوقـوع تحت تـأثير الفلسـفة الغربية في جـوانب الحيـاة المختلفة ، تلك الفلسـفة الـتي شـكَّلت من الإنتـاج غـير المحـدود والحرية غـير المحـدودة والسـعادة غـير المتناهية دينـاً جديـداً اسـمه التقـدم ! واقتضى ذلك توجهاً كلياً نحو الطبيعة لاسـتثمار كل شـيء فيها ! ثم استهلاكه بصورة جشعة لم يسبق لها مثيل ناسين أن موارد الطبيعة محدودة ، وأن الطبيعة . سوف تـرد على ذلك ، بل إنها بـدأت بـالرد فعلاً !

وعلى صـعيد الرمز فقد كـان البطل المسـيحي يسـتوحي شخصـية الشـــهيد ، وهو عيسى - عليه السـلام - حيث وهب حياته من أجل غـيره - حين صـلب كما يزعمـون - ، ثم انقلبت الأمـور رأسـاً على عقب ، حيث صار العالم الغربي يسـتوحي شخصـية البطل الوثـني ، كما يتجسد في أبطال الإغريق والرومان ، ذلك البطل الـذي يغـزو ، وينتصر ، ويدمر ، ويسرق ، وينهب . وشتان ما بين شخصية الشـهيد الذي يهب حياته من أجل غيره ، وبين المقاتل الذي غايته السـيطرة على الآخرين وتضخيم الحياة الشخصية ! ! 12

وكـــانت النتيجة ولادة مجتمعـــات تعـــاني من الوحـــدة ، والقلق ، والاكتئاب ، والـنزوع التـدميري ، والخـوف من المسـتقبل ، والأنانية الشخصية ، والتفكك الأسري...

تأثرنا - نحن المسـلمين - بهـذا كله من حيث نـدري ، ولا نـدري ، وتوجهت قوانا الفاعلة نحو الخارج ، وأهملنا الجـوهر ، وكـانت حالتنا في بعض النـواحي أسـوأ ممن تأثرنا بهم ؛ لأن القـوم صـاروا إلى الشكل بعد أن حققوا ذواتهم بطريقة فعَّالة وإن كان انحرافها يحمل في النهاية بـذرة موتها ؛ أما نحن فقد غادرنا الجـوهر لغمر أنفسـنا بالشكليات !

والنـاظر في سـيرة النـبي -صـلى الله عليه وسـلم- والحيـاة العامة لصـحابته - رضـوان الله عليهم - يجد أن السـيطرة كـانت للكينونة الداخلية ، وليس لما يمتلكه النـاس من أشـياء ؛ لأن المحـور الأساسي للحياة الاجتماعية كان الإنسـان ، وليس الأشـياء ؛ أما الآن فقد صارت (الملكيـة) هي المحـور ، ويتجلى ذلك واضـحاً في أمـور عديدة منها :

1 - تناقصت الألفاظ المستعملة في الدلالة على الجـوهر ، في حين زاد تـداول الألفـاظ الدالة على الأشـياء ، فحـديث المجـالس لم يعد يتمحـــور حـــول البطـــولات ، والإنجـــازات ، والمواقف الكريمة ، والصـفات الحميـدة ، وإنما حـول العقـارات ، والسـيارات ، وأسـعار السلع ، وأثاث البيوت ، والأرصدة المالية ...
2 - الرغبة في مزيد من الإنتــاج لتحقيق مزيد من الاســتهلاك جعل اعتماد الناس على الآلة يتزايد يوماً بعد يوم ، وصـار الإنسـان ترسـاً من تروسها ، وصار دوره مكملاً لدورها ؛ ومن طبيعة هذا الشأن أن يزيد اهتمامنا بالمظاهر ، ويشغلنا عن الحقائق .
3 - كانت قيمة وجود الإنسان مستمدة مما يُحسن ويتقن ، وصـارت المعادلة الجديــدة : قيمة وجـودي مســتمدة من مقــدار ما أملك ، ومقدار ما أسـتهلكُ ! وهـذا ولَّد الخـوف الـدائم من ذهـاب الملكية ؛ لأن ذهابها ذهــاب لمالكها ؛ واقتضى ذلك مزيــداً من الشح والأثــرة والتقاطع ...
4 - علاقتنا بالمعرفة تبدلت ؛ فقد كان حب العلم واكتساب المعرفة من أجل الفقه في الدين وتنمية الشخصية ومعرفة الحياة ... وكانت العملية التعليمية عبارة عن انــدماج بين العلم وطالبه ، أما الآن فقد صارت علاقة طـالب العلم بما يطلب علاقة تجارية بحتة ، فهو يتعلم لينال الشهادة ؛ وحفظه للمعلومات ظاهري ينتهي عند إفراغها على الورق في الامتحان !
5 - السمات الأساسية للجوهر هي : الاستقلالية ، والحرية ، وحضور العقل النقــدي ، والاســتخدام المثمر للطاقة الإنســانية ، والنمو ، والتــدفق ، لكن العلاقــات الاجتماعية ، والسياســية ، والاقتصــادية الجديـدة جعلت أنشـطة الإنسـان عبـارة عن انشـغال دائم مفصـول تمامــاً عن قــواه الروحية ، بل يقف ضــدها ، ويحد من فاعليتها في كثـير من الأحيـان ؛ مما أدى إلى الاتكالية والسـأم والتـذمر ، وجعل الحياة تفقد طعمها الحقيقي بشكل عام .
6 - كانت عواقب الاتجاه إلى الشكل والتغافل عن المضـمون كـثرَة اللذائذ وانعدام السـعادة ! واللـذة إشـباع الرغبة على نحو لا يتطلب نشـاطاً ، مثل لـذة الحصـول على مزيد من الـربح ، أو هي : تجربة لحظة من لحظـات الـذروة يعقبها في الغـالب نـوع من الكآبة ، ولا سيما حين تكون غير مشروعة ، حيث يبدأ التقريع الداخلي .

أما السعادة فهي : شعور مصاحب للنشاط الإنساني ؛ وهي أقرب إلى أن تكون حالة من الوجود المتصل على ربوة رحبة ؛ لأنها وهجٌ لكينونة الإنسان ، ونشاطه الداخلي .
ويمكن القول : إن السعادة في مقياسنا الإسلامي تتعاظم كلما ردم المسلم من الفجوة القائمة بين معتقداته وسلوكياته ، حيث يرضى المسلم عن أدائه ، ويستشرف عاقبة المتقين .
كل هذه التحولات باتجاه الشكليات جعلت كثيراً من أمة الإسلام قوة عددية ليس إلا ؛ لأن الذي يفقد الصلة بمكوناته الأساسية لابد أن يصبح شكلياً . فهل تعيد الصحوة المباركة الأمر إلى نصابه بإعادة التوازن من جديد بين الشكل والمضمون ، والجوهر والمظهر لنستأنف رسالتنا الحضارية ؟ ! هذا ما نرجوه . وعلى الله قصد السبيل .

---

(1) المنافقون : 4 .
(2) تفسير القرطبي 18 / 124 .
(3) أخرجه البخاري .
(4) ننصح بالرجوع إلى كتاب الإنسان بين الجوهر والمظهر الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة في الكويت وقد أفدت منه هنا في بعض ما كتبت .
(5) أخرجه مسلم وغيره .
(6) النحل : 6 ومثل هذا قوله سبحانه : [والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً] .

==================

{ إنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ }

أكرم الله - سبحانه وتعالى - الخلق ، فأرسل لهم الرسل تترى حتى تظل أعلام الهداية منشورة ، وحتى لا يكون لأحد على الله حجة بعد إرسال الرسل . وينقسم الناس أزاء كل رسالة في العادة إلى فريقين فريق يصدق ، وفريق يكذِّب ، وكانت حجة المكذبين الجاحدين ما حكى الله عنهم : { وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ } [الزخرف 23- 24] .
وظاهر هذه الآية أن الرؤساء والوجهاء والمترفين هم - في الغالب - الذين قاوموا دعوات الرسل ؛ لأن أية رسالة ستحدث تغييراً في

القيم السائدة والأحوال المعاشة ، وهذا التغيير سيمس مصالحهم ومكاسبهم ، ومن ثَمَّ فإن موقفهم هو التأبي والمعاندة . وبما أن الحياة الجمعية لا يمكن أن تستقيم ، وتنتظم من غير ضوابط عرفية تؤمِّن نوعاً من التعاون ، وتَحُوْل دون بغي الخلطاء على بعضهم بعضاً كان الجواب دائماً : أن ما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية هو ما وَرِثوه عن آبائهم وأجدادهم من الأعراف والعادات والتقاليد ، وما حياتهم إلا استمراراً لحياة سلفهم الذين يفاخرون بهم .

والخلف لا يكتفي عادة بالتلقي الأصمّ عن السلف لكنه ينشئ من الفلسفات والمقولات والخرافات ما يمنح ما ورثه - من تقاليد - القداسة والاحترام مما يجعلها محوراً للمنظومات العقدية والفكرية والرمزية والتاريخية ! وهذا كله طبيعي ؛ لأنه في حالة اندراس معالم المنهج تصبح السوابق التاريخية هي المنهج ، ومن ثم كان من مهمات المصلحين وضع السوابق التاريخية في إطارها الصحيح .

ماذا تعني الآبائية ؟

ليس كل ما يرثه المرء عن آبائه وأجداده رديئاً - لأنه لا يوجد جيل مختص بالرذائل - لكن الرديء هو أن نفقد القدرة على الحكم على تلك الموروثات ، ونُحلها محلَّ القبول والاقتداء ! وإذا تأملنا قضية التقاليد الموروثة وقبولها دون تبصُّر ولا تمييز وجدنا أنها تعني أموراً عديدة منها :

- إن الإنسان قادر على امتلاك منهج يُسَيِّر حياته من خلال خبرته التراثية دون مرشد خارج عن حدود ذاته ، وهذا ما نجده واضحاً في جواب المترفين للرسل حين قالوا لهم : { أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟ } [الزخرف 24] ، وكان الجواب : { إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ } [الزخرف 24] . وفي هذا الجواب القاطع الخالي من أي تدليل أو برهان توصيف آخر للآبائية هو أن التقليد وإن بنى حوله بعض الفلسفات التسويغية إلا أنه يظل مع الدليل والبرهان على طرفي نقيض ، فهو ظاهرة لا دليل لها سوى وجودها فحسب !

ومما تعنيه الآبائية أن البشر امتلكوا ناصية الحقيقة كاملة فيما يتعلق بشؤون حياتهم الاجتماعية . والشعور بامتلاك الحقيقة مع أنه غير صحيح إلا أنه يدفع إلى الجمود ؛ لأن حركة الفكر والعلم لا تنشط إلا عند الإحساس بأن هناك حقائق خافية أو مشكلات تحتاج إلى حل . ومن هنا كانت متابعة الآباء والأجداد من غير ميزان عبارة

عن حركة إلى الــوراء تصــادم منطق التــاريخ ، وتجعل أصــحابها مخلفين بكل ما تحمله هــذه الكلمة من معــنى ! وإذا كــان المنهج الحق يسـعى إلى تجديد ذوات معتنقيه ونقـدها واسـتيعاب العظـات والعــبر من حيـاة الأولين فـإن الآبائية تعـني تعطيل تـراكم الخـبرة البشرية وتقويمها ؛ لأن ذلك يخلُّ بالمكانة التي أنزلوا آباءهم فيها !
وتعـني الآبائية أيضـاً إحالة العـادات والأخلاق إلى إطـار مـرجعي لا منطقي ومتحجّر ، يحكم النـاس في حـالات اجتمـاعهم ، ويـتيح لهم الانطلاق الحر في خلــواتهم ، أي : يؤسِّــس الحيــاة على نــوع من الازدواجية ، على حين أن الــدين يجعل الــوازع الــداخلي أساســاً للانضباط الفردي والجماعي . وإن التفسير المستمر في كل شؤون الحياة يجعل تقليد الآباء فارغاً من مضامينه في أحيان كثـيرة ، فـإذا كان الآبـاء يتقلـدون السـيف - مثلاً - لمواجة حيـوان مفـترس ، فما معنى حمل الأبناء له وهم يركبون الطـائرة ؟ ! وإن الآبائية بعد هـذا أو ذاك توجد نوعاً من الانحباس الاجتمـاعي المصـادم لسـنّة التغيـير الــتي بثها الله - تعــالى - في الكــون ، ومن ثَمَّ فــإن الانغلاق على مــــواريث بالية لابد أن يعقبه انفلات غــــير مــــتزن يطيح بصــــالح الموروثات وطالحها .
المصلحون والآبائية :
لا نبعد النجعة إذا قلنا : إن الآبائية هي أخطر مشكلة واجهت الأنبيـاء - عليهم الصلاة والسلام - وتواجه أتباعهم من المصلحين على مــدار التاريخ حيث تمتلئ الساحة الاجتماعية بتركة الآباء ومخلفات الأجداد مما يجعلهم يحتاجون إلى تزييف الموروثــات أولاً ، ثم إحلال المنهج الربــاني محلها . وإن حملة الهــدى الربــاني يصــطدمون بالآبــائيين صداماً مباشراً حيث يـرون أن ما بأيـديهم من الهـدى يجعل الـتراث مملوكـاً خاضـعاً للمحاكمة على حين يـرى الآبـائيون أن الـتراث هو مالكهم والقاضي في حياتهم لا المتهم !
لكن السـؤال الـذي يطـرح نفسه هو هل بإمكـان البشر الفـرار من الارتهـان للماضي بـدون منهج منفصل عن خـبرة الإنسـان ، أي : لا زمــاني ؟ الواضح أن ذلك غــير ممكن ؛ لأننا باعتبــارٍ ما جــزء من الماضي ومكوناتنا الثقافية أكثرها موروث ، فنقده وتجـاوزه بمبـادئ وأدوات منه غير ممكن . ونحن حينئذ كالجرَّاح الذي مهما كان ماهراً فإنه عـاجز عن استئصـال زائدته أو مرارته بنفسه ! وعلى المهتمين بصلاح الأمة الغيـورين على مسـتقبلها أن يخوضـوا معركـتين في آن واحد : معركة الحياة العامة وتنقيتها من الرواسب والشـوائب الـتي

تولدها حركة الأيام ، ومعركة داخلية في مجال الحيـاة الفكرية ، وما فيها من مشكلات التجديد والتقليد والاجتهاد وحـدود سـلطان العقل والنقل الخ ..
إن معالم المعركة الأولى تتمحـور حـول (مفاصـل) التقاليد والسـنن والتوزيع الصحيح للاهتمام بمفرادت التكـاليف الشـرعية ، وما يتصل بها مما يحفظ كيان الأمة . وعلى هذا الصـعيد نلاحظ أن المسـلمين منتشرون في بقاع الأرض ؛ ولذا فإنهم يعيشون في ظروف شـديدة الاختلاف تـؤدي إلى تفـاوت عظيم في معـرفتهم بالـدين ، كما أن الثقافـات الأجنبية الـتي تـأثروا بها مختلفة أيضـاً ، والمـؤثرات المدرسـية والمناهجية الـتي تعرضـوا لها متفاوتة ، وهـذا كله يجعل إمكانات إقامة التوازن بين متطلبات الدين ومتطلبات الـدنيا مختلفة ، كما يجعل تحرير الخلاف وترجيح الصواب مختلفاً أيضاً ! ولا ننسى في هـذا السـياق الآثـار الكثـيرة الـتي تتركها توجهـات الحكومـات المختلفة في إبراز أجـزاء من الـدين وضـمور أجـزاء أخـرى بحسب المصلحة !
ونسـتطيع القـول : إنه كلما خمـدت حركة الفقه في دين الله ، زحفت العادات والتقاليد والبدع لتحل مكانه في حيـاة النـاس ، ذلك لأن من شأن البشر أن يجعلوا الدين - الـذي هو منهج ربـاني مطلق فوق الزمـان والمكـان - واحـداً من عناصر ثقـافتهم بـدل أن يكـون الموجّه لتلك الثقافة والحاكم عليها ، وذلك ميسـور عليهم ولا سـيما حين تكون هناك بعض الملابسـات بين العـادات وحقـائق الـدين في الكُنْـهِ أو المظهر ، وقد ذكر ابن الجـوزي - رحمه الله - " أن من النـاس من لو جلدته حـتى يصـلي ما فعل ، ولو جلدته حـتى يفطر رمضـان ما فعل ! " مع أن أهمية الصـلاة أعظم . وفي زمننا صـار إنكار الناس لتعدد الزوجات في كثـير من بلاد المسـلمين أعظم من إنكـارهم للزنا ! كما صـار هنـاك اسـتغراب من إقبـال الشـباب على المساجد لأن المساجد خُلقت لمن أكل الدهر عليهم وشـرب ، على ما تعـودوه في عقـود مضت . وفي زماننا تُشْـتَنْكَرُ الفاحشة من البنات ويغضُّ النـاس الطـرف عنها إذا وقعت من الرجـال ولا سـيما الشباب ! !
وفي زماننا يُتَّخذ الاهتمـام بليلة القـدر والمولد النبـوي وليلة النصف من شـعبان وإغـراق الأسـواق بالسـلع في رمضـان قناعـاً وسـتاراً مشهوداً ومن خلف السـتار لضـرب ركـائز الإسـلام ومبادئه الكـبرى وجعل الداعين إليها غلاة متشددين إرهابيين ! !

ويــزداد الطين بلة حين يُســهم في هــذا الخلل أشــخاص تثق بهم العامة لما عنــدهم من العلم والتقــوى . والعامة غــير قــادرين على مناقشة الأفكـــار ولا التميـــيز بين الأدلة ؛ مما يجعلهم تبعا للأعلى صـوتاً والأكـثر تابعـاً . وهـذا كله يجعل مسـألة تحجيم الآبائية أكـثر صعوبة وتكلفة . لكن لا خيـار : فإما المنهج وإما المنهج ، وإلا فكيف يكون خلود الرسالة ، وكيف تستمر أنوار النبوة في العالمين ؟ !

المعركة الثانية لا تبتعد في منطلقاتها وعقابيلها [*] عن المعركة الأولى ؛ إذ أنّ تقديس القديم لمجـرد أنه قـديم هو الطاقة المحركة لأبطالهما ، لكن الخصـوم يختلفـون فـإذا كـان الخصـوم في معركة الحياة الاجتماعية من العامة والدهماء وأنصـاف المتنـورين فهم في الثانية ممن يحمل العلم ، ويحسب نفسه من المصـــــــلحين - وقد يكــون كـذلك - لكن بُنَى ثقافتــهِ العميقة لا تختلف كثـيراً عما لــدى العامة !

هذه المعركة هي معركة الاجتهاد والتقليد ، والاجتهاد هو بــذل الجهد لمد ســلطان النصــوص إلى كـــلّ الحـــوادث والحالة المســتجدة المشابهة في علة الحكم لحالات ورود النص وتطبيقاته لدى السلف ، على حين أن التقليد يحجم من فاعلية النصـوص ، ويجعل مجـالات الاهتـداء بها تتضـاءل يومـاً بعد يـوم ؟ ذلك لأن أية مرحلة سـابقة لا تَتَّسِع في تنظيماتها وآلياتها ومعطياتها الجزئية لمرحلة لاحقة ، وهـذا ما دعا الصحابة والتـابعين من بعـدهم إلى الاجتهـاد ، وهو ما يـدعونا أيضاً إليه .

لعل نقطة الخلاف الأساســية ليست في تجــويز الاجتهــاد والتقليد لشــرائح محـــددة من الأمة ، وإنما تكمُنُ في نـــزع (صـــفة دوام الصـــواب) عن المجتهد ، ومع أن الجميع يُصَـــرِّحون بـــأن المجتهد يُخطئ ويُصيب ، إلا أننا نجد في الممارسة العملية مواقف لا تحصى لا تدلّ إلا على اعتقاد أصحابها العصمة في بعض الأئمة والمجتهـدين لاعتقادهم أن إحاطة أولئك الأئمة بالأدلة وَحِـدَّةِ ذكـائهم وفهمهم مع ما أكـــرمهم الله به من التوفيق يجعل وقـــوع الخطأ منهم نــادراً أو معدوماً ! وقد رأينا كثيراً من طلاب العلم يلتزم الواحد منهم مـذهباً واحــداً في كل دقائقه ، ويحــاول الــدفاع عن ذلك بكل ما أوتي من قوة ، ويـوالي ويُعـادي في ذلك ، ويخسر إخـوة في الله ، وهو يظنّ أنه يخوض معركةً لِنُصرة دين الله !

وهذا يـدل على جهـلٍ فاضح في العملية الاجتهادية المعقَّدة ، والـتي تلتحم فيها عناصر أربعة ، هي مجـــــــــــال رحب ، للاختلاف بين المجتهدين ، هذه العناصر هي :
الإمكانـات الذهنية الـتي أكرمنا الله بها والنصـوص والأدلة المتعلقة بالقضــية موضع الاجتهــاد والخلفية الثقافية للمجتهد (وهي ما كــان يُسْمّى بالأهلية) بالإضافة إلى الواقعة نفسها والظـروف والخلفيـات المحيطة بها . وتَمَكُّنُ المجتهدين من كل ذلك متفاوت إلى حــدًّ بعيد ، وهـذا كله ينفي عن المجتهد دوام الصـواب في كـلّ ما ينظر فيه .
وأن من المفيد أن ننظر إلى المجتهد بعيــــون أبنـــــاء زمانه حيث تخلصــوا من وَهْمِ التقــديس بســبب من المعاصــرة والمعاشــرة ومعرفة الخفايا والإمكانات لبعضهم بعضاً .
إننا إذا لم نتمكن من التجديد الذاتي فسنعرِّض أنفسنا إلى غــزو من الخارج ، أو انحبـاسٍ داخلي يعقبه انفجـار لا ينبع معه الـترقيع ! وإن تجاوزنا المعطيــات مراحل عديــدة في حيــاة المتقــدمين لنلتصق بالادلة في إطارٍ من مقاصد الشريعة العامة أمر حيوي للغاية ؛ حتى لا نقعَ ضحيةً للغرق في مراحل الانحطاط والتـدهور الـتي مـرت بها هذه الأمة في قرونها المتأخرة ! وعلى الله قصد السبيل .

(*) العقابيل : الدواهي .
==================
{ وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً}
قصّ الله - تعـــالى- علينا في كتابه العزيز نبأ لقـــاء موسى بالعبد الصالح الخضر -عليهما السلام- ، وما جـرى بينهما من إخبـار الخضر لموسى بعــدم صــبره على ما ســيراه من أعماله ، وتعهد موسى بالسمع والطاعة وعدم العجلة حـتى يكـون الخضر هو الـذي يخـبره بكنه ما يراه وعواقبه ، كما تضمنت القصة عدم تمكن موسى -عليه السلام- من الصبر الذي التزم بمكابدته . وفي ثنايا هذه الواقعة عبر ودروس عديدة نجلوها في النقاط التالية :
1- أراد الله -تعالى- أن يُعلّم موسى وجوب تفـويض ما لا يعلمه إليه ؛ فقد ورد في الصــحيح أن رجلاً ســأل موسى على ملأ من بـــني إسرائيل : هل تعلم أحـداً أعلم منك ؟ قـال : لا . فـأوحى الله إليه : بل عبــدنا خضر أعلم منك [1] . وفي هــذا إرشــاد لأولي النهي أن يقفــوا الموقف المنهجي مما لا يعرفونه ؛ فنــبي الله موسى كــان رسولاً من أولي العزم ، وهو كليم الله ومبلغ رسالته ، ومع هذا بين

الله له وجوب تفــويض ما لا يعلمه إليه ؛ فهو لم يجتمع بكل البشر ، ولم يعرف مقادير ما خصَّ الله به من شاء من عباده .
وفي هذا الزمان تشعبت العلوم ، وتفـرغت حـتى صـار من العسـير على الواحد منا أن يحيط بفـرع من فـروع المعرفة فضـلاً أن يحيط بها جميعــاً . وأمانة العلم تقتضي الـــتريث بـــالفتوى والتحـــرز من التطاول على ما لا نحسن حتى لا تجتاحنا الفوضى العلمية ..
2- في هـــذه الرحلة المباركة وقف موسى موقف المتعلم ، ووقف الخضر في موقف الأســـتاذ ، مع أنه لا خلاف في أن موسى أفضل من الخضر ، وهـذا يـدل على أن الأفضـلية العامة لا تقتضي التفـوق في العلم ، وهـــــــذا يحثنا على أن نرجع لأهل الاختصـــــــاص في اختصاصـاتهم ، وألا نرهق أهل الفضل بالسـؤال عما لا يعرفونه ، ولا يحســنونه فيســقطون من أعيننا لعــدم معــرفتهم ، أو يســقطون ويُسقطوننا معهم إذا ما هم قالوا بغير علم ! ورحم الله الإمام مالكاً حين كان يقول : (إن من شيوخي من أطلب منه الـدعاء ، ولا أقبل روايته) .
3- الـتزم موسى - عليه السـلام - في البداية بالصـبر على ما يـراه وعدم العصيان حين قال : { سَتَجِدُنِي إن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً } [الكهف 69] . وهذا الالتزام كان بنــاء على ما يعرفه من نفسه من الحـــرص على طلب العلم ومعرفة الخـــير . وكـــان تأكيد الخضر له أنه لن يصبر معه على ما يراه لما يعرف عنه من الحرص والالتزام بما شرع الله من حرمة الأنفس والأموال ، وكـانت النتيجة إنكـار موسى على الخضر ، كما توقع الخضر . وموقف موسى كـان على النهج العـام الـذي ينبغي على المسـلم سـلوكه ، وهو إنكـار ما خـالف الشـرع وعـدم السـكوت عليه ما دام ذلك ممكنـاً ، ولا يعكر صفو هذا خصوصية الموقف والحادثة [2] .
وقد أنكر موسى على الخضر مع علمه بقــــــدره وعلمه لأن المنهج فوق الأشخاص أياً كـانوا . وقد ابتليت هـذه الأمة في تاريخها المديد بأقوام أصيبوا بداء تقديس الأشخاص وإقامة البراهين على خيرية ما يفعلونه وتسـويغ ما يرتكبونه من منـاكر ومخالفـات قطعية التحـريم لما يعتقدونه فيهم من الصلاح ! .
وأدى ذلك إلى غبش عظيم في الرؤية ، وقد حطوا من قــدر المنهج المعصوم على قدر ما رفعوا من شأن من يعظمـون ! وما زال هـذا مستمراً إلى يوم الناس هذا والله المستعان .

4- كان الخضر موقناً بعدم صبر موسى على ما يراه منه ، وعلل لذلك بقوله : { وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } [الكهف 68] . وهذا يشير إلى ظاهرة ثابتة في حياة البشر ، هي عدم الصبر على رؤية أحداث وأعمال تخالف ما استقر عندهم من الأعراف والمعايير ، أو على بذل جهود لا يرون لها نتائج تنسجم معها .
وقد وقف الصحابة - رضوان الله عليهم - موقفاً مشهوراً من شروط صلح الحديبية التي كانت في ظاهرها مخالفة لمصالح المسلمين ، ولولا أن الذي ارتضى تلك الشروط النبي -صلى الله عليه وسلم- المؤيد بالوحي لكان هناك شأن آخر . لكن الله - تعالى - جعل فيها من الخير والبركة ما حمل أكثر المفسرين على القول : إن المراد بالفتح في قوله - سبحانه - : { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً } [الفتح 1] صلح الحديبية [3] . وسبب ذلك الموقف أن الصحابة ما كانوا قادرين على إبصار مآلات تلك المعاهدة ونهاياتها .
واليوم نجد رغبة جامحة لدى كثير من الدعاة والعاملين في حرق المراحل والقفز فوق الحواجز بدافع من الصدق والإخلاص ، والسبب في ذلك أنهم ما أحاطوا خُبْراً بجوانب العملية التغييرية الكبرى التي يتصدون للقيام بها . ونجد ذلك بشكل واضح لدى الشباب الذين يغلي في دمائهم حب هذا الدين والغيرة على هذه الأمة .
وسبب الاستعجال عند الشباب يعود - في أكثر الأمر - إلى أن كثيراً من قادة الدعوات يوهمون الشباب بأن التمكين في الأرض وبسط سلطان الدين هو قاب قوسين أو أدنى ، وذلك رغبة في كسبهم وإغرائهم بالعمل الدعوي ، حتى إذا مرت السنين تلو السنين أدرك أولئك الشباب أن الطريق أطول بكثير مما قيل لهم ، فيؤدي ذلك - عند أية هزة - إلى الإحباط والانزواء والسلبية أو إلى تسفيه القيادات واتهامها بالقصور وتجاوز المرحلة لها ثم الاندفاع خلف قيادات شابة تفتقر في أكثر الأوقات إلى الحكمة والخبرة والعلم والنتيجة معروفة !
وسبب ذلك أن الشيوخ ما بصَّروا الشباب بطبيعة طريق الدعوة وتكاليفه ومشاقه ، مع أن النصوص ، الواردة في ذلك كثيرة جداً .
أما الجوانب التي لم نحط بها خُبْراً فهي عديدة ، نذكر منها ما يلي :
أ- المنهج الرباني الذي نحمله ، منهج مشتمل على أجزاء صلبة راسخة لا يجوز أن تتطور أو يُغض الطرف عن شيء منها كي تؤدي وظائفها في الهداية والإصلاح ، وفيه أجزاء مرنة تقبل شيئاً من

الموازنة لتحقيق خـــير الخـــيرين ودفع شر الشـــرين ؛ وكل أجـــزاء المنهج خـير ، ومطلـوب التحقق بها ؛ لكن الظـرف هو الـذي يعطي الأولوية لبعضها على بعض ؛ فأعمال الخـير كثـيرة جـداً لكن الحـال المعاش يرجح شيئاً على شيء ، فـإذا كـانت في المسـلمين مجاعة كـان مجـال إطعـام الطعـام أولى بالبـذل من مجـال التنفل بـالحج والعمـرة ، وإذا اجتـاح العـدو بلاد المسـلمين كـان تجهـيز المقـاتلين أولى من بنــاء مســجد أو تــأثيث مكتبة عامة وهكــذا .. وإذا كــان المــريض الــذي نعالجه يشــكو من أمــراض عديــدة وجب أن نبــدأ بالأخطر منها كالنزيف مثلاً .

ب - ومما لم نحط به خُبْـــراً على الوجه المطلـــوب الواقع الـــذي نتحرك فيه ، وهو واقع مفعم بالمؤثرات المختلفة حيث صار من غير الممكن معالجة أية قضية من قضايانا الكبرى على أنها شـأن محلي خاص ، فوسائل الاتصال العجيبة المتاحة وتشابك المصالح وتـداخلها ونفـــوذ الثقافة العالمية ، كل أولئك يجعل ما نظنه داخليـــاً خاضـــعاً لاعتبارات دولية وإقليمية إلي جانب الاعتبـارات المحلية . وفهم تلك الاعتبـارات ما عـاد ممكنـاً عن طريق التأمل والشـفافية ، وإنما عن طريق الدراسات المتقنة والصلات والعلاقات والمعايشــات الداخلية .. وفهم طريقة التفكير لصانعي الخيارات والقرارات .

ج - ومما لم نحط به خُبْراً الإنسـان موضع الـدعوة ، وهـذا الإنسـان صار يخضع لمزيج كبير من المـؤثرات الثقافية المتضـادة - في كثـير من الأحيــان - مما يجعل تفكــيره مختلفــاً عن تفكــيره في القــرن الماضي ، ومفـــاتيح اهتمامه أيضـــاً تبـــدلت ، والطريق إلى حفز مشــاعره صــارت أكــثر التــواء . ولم يصــاحب ذلك التعقيد كله ما يحتاجه من الفهم العميق القـــائم على معرفة النفس البشـــرية والسـنن الإلهية الـتي تحكمها . وآية ذلك جمـود خطـاب كثـيرين منا دون أدنى تحسين أو تحوير .

د- ومما لم نحط به خُبْراً سنن الله - تعالى - في تغير المجتمعـات ، ذلك التغير الذي لا يتوقف أبـداً لكنه لا يخـرج عن الأحكـام والأنظمة الإلهية الــتي تســيره ، وهو تغــير أساسه الحركة البطيئة الــتي إن تسارعت لم تصل أبداً إلى حد الطفرة المناقضة للفطـرة . وبما أن عمر الإنســان قصــير فهو متشــوق أبــداً إلى معرفة نتــائج أعماله ومجهوداته قبل أن يرحل عن هذه الدنيا لكن سنن الله - تعــالى - لا تخضع للرغبـات والأهـواء ، ومن ثم فـإن الله - تعـالى - قـال لنبيه :

{ وإمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وعَلَيْنَا الحِسَابُ } [الرعد 40]
وإذا كان الوقوف على مفاتيح شخصية الفرد صار معقداً ، فإن الوقوف على مفاتيح شخصية المجتمع أكثر تعقيداً ؛ لأن أبناءه ينتمون إلى شرائح متعددة وكل شريحة منها تخضع لمؤثرات مغايرة ، وهذا يجعل التعامل معه غاية في التعقيد !
إن الحل الوحيد لحالات الاستعجال على قصف الثمار قبل نضجها هو الإحاطة المبصرة بكل جوانب التغيير المنشود وآلياته ، وإلا فإن كثيرا من الجهود ستكون جهاداً في غير عدو ، بل ستكون أخطر على الدعوة من أعدائها !
إن فقه التحرك بالمنهج أشق من فقه المنهج نفسه ؛ لأنه يقوم على ركائز عائمة ، وتراكم الخبرة فيه ضعيف لتنوع أحواله وكثرة خصوصياته . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

----

(1) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء .
(2) ورد في البخاري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : يرحم الله موسى لو كان صبر لقصّ الله علينا من أمرهما .
(3) فتح القدير .

==================

{ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ }

يقول الله سبحانه وتعالى : { فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وجُنُودِهِ قَالَ الَذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة 249] ، تسلط الآية الكريمة الضوء على قضية مهمة من حياتنا ، هي قضية (الكم والكيف) ، وعلى العلاقة الجدلية بينهما ؛ فحين خرج طالوت لحرب جالوت خرجت معه الألوف المؤلفة من الجند (كم) فأراد أن يعرف عن نوعية الرجال الذين سيقاتل بهم فابتلاهم بالشرب من النهر ، فشرب منه السواد الأعظم منهم ، ولم ينجح في ذلك الامتحان سوى ثلاثمائة وبضع عشر رجلاً - كعدة أصحاب بدر - وكان موقف هذه القلة القليلة من جيش جالوت الموقف الذي يتناسب مع كيفهم ، فقالوا : { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللَّهِ } ، هذه الفئة القليلة هي الغالبة لما نالت من تأييد الله ونصره ؛ لنصرها دينه واستحواذها على شروط النصر .

وفي ختم الآية :] واللَّهُ مَـعَ الصَّـابِرِينَ [إشـارة إلى أن هـذه الفئة كـانت تتحلى - في جملة ما تتحلى به - بالصـبر الضـروري لمجالـدة العدو .
إن للكيف شـأناً وأي شـأن في أوقـات الأزمـات عامة ومصـارعة الأعداء خاصة ؛ حـتى إن الرجل ليغـالب العشـرة من الرجـال { إن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُـوا مِـائَتَيْنِ } [الأنفـال 65] . وهـذه الدنيا دار ابتلاء ، ومن ثم فإن بني البشر محاطون بكل ما من شأنه أن يكون ابتلاءً لهم ، الزمان والمكان والأشياء والأفكار والأعـراض ، وكل ما نتركه غفلاً على حالته الفطرية فهو (كم) يتحـدى ، ويضـايق ، وقد يشـوه ، ويقتل ! ! ومن ثم فإننا نمتلك من القـدرة والحرية على مقدار ما نكيفه من تلك الفطريات .
ونحن بـني البشر محـدودو الطاقـات والإمكانـات ، ومن ثم فـإن توسعنا في الكم لا بد أن يكون على حساب الكيف ، كما أن التوسع في الكيف لا بد أن يكـون على حسـاب التوسع في الكم ، وهـذا يـوجب علينا أن نتعلم كيف نركز على الكم ، وكيف نركز على الكيف ، ومتى يكون هذا ، ومتى يكـون ذاك ؟ وإلا فربما ذهب كثـير من جهدنا هباءً !
وعلى سـبيل المثـال فـإن الظـواهر الاجتماعية تتكـون على سـبيل التدرج ، وإذا ما استقرت ، وصارت عرفاً ضغطاً على الناس ضغطاً شديداً ، وهي لا تعتمد في سـيرورتها على الكيف ، لكن على الكم ، ومن ثم فـإن القـول السـائر في صـددها يكـون باسـتمرار : النـاس يعيبون هذا ، والناس يحبون هذا ، بقطع النظر عن توعية القـائلين ، ومن هنا جاء الحديث الشريف : (من كثر سـواد قـوم فهو منهم) [1] حيث إن تكثـير السـواد في بعض المواقف ، كـالمؤتمرات والتظاهرات - مثلاً - يكون هو الهدف مهما كان القصد ! وهذا يعـني أن جهـداً كبـيراً ينبغي أن يبـذل في اتجـاه جعل الـدين ثقافة عامة للنـاس يؤصـلون أعـرافهم عليها ؛ فلا يصـبح المعـروف منكـراً ولا المنكر معروفاً ..
وعلى صعيد الكيف فإن باحثاً واحداً يعد مرجعاً في فـرع من فـروع المعرفة أجدى على التقدم العلمي من ألوف الملقنين المدرسيين . ونحو من هـذه الوظـائف الإدارية والقيادية العليا ، فـإن شخصـاً موهوبـاً مـؤهلاً واحـداً أنفع من مئـات الأشـخاص (الخـام) الـذين يحتاجون إلى من يصرف أمورهم ..

وفي قضـايا الفكر والـرأي والالـتزام قد ننظر للكم تـارة وقد ننظر للكيف تـارة أخـرى ؛ فـإذا كـان الحق الـذي نتبعه قطعيـاً - أي ليس مناطاً للاجتهـاد - فـإن الكم مهـدور حينئذ ، وهـذا معـنى قـول بعض السـلف : الجماعة أن تكـون على الحق ، ولو كنت وحـدك . وحين يكون الحق اجتهادياً فإن الكم حينئذ معتـبر ، ومن هنا نشـأت أهمية كلمة (جمهور) عند الفقهاء وغيرهم .

إن أمتنا اليـوم لا تعـاني اليـوم من نقص في (الكم) على أي صـعيد من الصعد ، لكنها تعاني من نقص شديد في (الكيف) ؛ فنحن اليـوم أكـثر من خمس العـالم ، وأراضـينا واسـعة شاسـعة وخيراتنا كثـيرة وفيرة ، لكننا إلى جانب هـذا في حالة معيشـية مأسـاوية على أكـثر الأصعدة ، فأكثر بلدان العالم الإسلامي مصنفة مع البلدان الفقيرة ، وكثير من شـعوبنا يعيش تحت مسـتوى الفقر ! وأعلى نسـبة للأمية موجـودة عنـدنا ! أما الـوزن الـدولي فنحن جميعـاً على الهـامش موزعــون ما بين شــرق أوسط وأقصى وأدنى ، أي أننا نُصــنف باستمرار تبعاً لموقعنا في المركز ! !

ومع أن الوحدة ظلت المحور الذي يجذب مشـاعرنا وأدبياتنا ، إلا أن حالتنا الراهنة تتجه باستمرار إلى مزيد من التمزق والتفكك ، مع أن العـالم من حولنا يسـير إلى التوحد والانـدماج ! أما حقوقنا وكرامتنا وأراضينا فوضعنا ووضع العـالم منها يلخصه المثل العـربي القـديم : (أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل) !!

ولا أريد أن أتمـادى في (النبش) وتتبع المواجع حـتى لا نقع فريسة اليأس القاتل لكن ما أريد أن أقوله هو أن وضعنا الحـالي قد جـاءت به النذارة في نصوص كثيرة منها : حـديث [2] القصـعة المعـروف ، والــذي وصف حالة الأمة بالغثائية ، والتضــاؤل على المســتوى الظاهري : غثاء كغثاء السيل ، وعلى مستوى المضمون (الوهن) : (حب الدنيا وكراهية الموت) .

وللغثـاء سـمتان أساسـيتان : خفة الـوزن وعـدم الترابط ، ويـترتب عليهما نتيجة مخيفة ، هي فقد الاتجـاه الحر ، فالغثـاء يسـاق دائمـاً إلى حيث يريد ، وإلى حيث لا يريد ؛ وفي مــوازين عديــدة يعد فقد الاتجاه فقداً للوجود ذاته ! !

وهذا كله يعني أن أحوالنا الثقافية والسـلوكية والاقتصـادية إذا ظلت على ما هي عليه فلن تفرز إلا التبعية للآخـرين ، والـتي سـتفرز من جهتها باستمرار صراعات في بُنانا العميقة تؤكد الغثائية وتؤصلها ! !

كيف نحول الكم إلى كيف ؟

نحن في حركتنا اليومية نقـوم باسـتمرار بتحويل (الكم) إلى (كيـف) فلا مشـــكلة في الممارسة العملية ، لكن الإشـــكال يكن في فقد التـوازن بين الكم والكيف ، أو بعبـارة أخـرى في الكم الهائل الـذي نستطيع تكييفه ؛ مما يحوله إلى عبء ثقيل وعقبة كـأداء في طريق نجاحنا ؛ فالأمي والجائع والمريض والمنحرف والفوضـوي والكسـول ، كل أولئك يشـدون الأمة بعنف نحو الـوراء ، ويقفـون في وجهها ، وهي تخطو نحو الخلاص من الغثائية ، وليس هـــــذا فحسب بل إن هذه الهلاميات تسـتطيع أن تتـأبى على أي قـالب تشـكيل تصـادفه ، مما يجعلها دائماً نقاط ضعف في جسم الأمة ونقاط ارتكاز ورؤوس جسور للمتربصين بها الدوائر ! !

ويكون السؤال حينئذ : كيف نحد من نسـبة هـؤلاء لتكـون قريبة من الطبيعية ؟ ؟ إن هناك كلاماً كثيراً يمكن أن نقوله في هـذا الشـأن ، لكنني أود أن أشير إشارة عابرة إلى محاور أربعة أحسبها منطلقات مهمة في هذه السبيل :

1- أن نشـــيع في الأمة روح التوحد على الأصـــول والحق القطعي ، وذلك يسـتلزم جهـوداً دائمة في بلـورة ذلك ؛ وأن نشـيع إلى جـانب ذلك روح التعـاذر في الفـروع والحق الاجتهـادي ، ونضـرب للنـاس الأمثلة العملية الــتي تنــير لهم الســبيل ، وأن نبقي في الحـــالتين هامشاً للتواصل والتبشير والإنذار .

2- أن نوسع في تربيتنا وحياتنا اليومية من مفـاهيم العبـادة لتشـمل مجالات النفع العـام ، كالأخذ بيد أولئك الـذين قعـدت بهم ظـروفهم وإمكانـــاتهم عن أن يعيشـــوا حيـــاة كريمة طبيعية (الســـاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القـائم الليل الصـائم النهار) [3] وذلك بغية التخفيف من المعاناة الـتي يكابـدها كثـيرون من أفراد الأمة .

3- رعاية النـابهين وإعطـاؤهم ما يسـتحقونه من الاهتمـام والمتابعة والبذل ، والنابهون هم أولئك الذين آتاهم الله - سبحانه - من المكنة ما جعلهم محاور يدور في فلكهم الآخرون ، والنابه قد يكـون طالبـاً عبقرياً ، وقد يكون وجيهاً يـأتمر بـأمره كثـيرون ، وقد يكـون واحـداً من ذوي رؤوس الأموال الطائلة ، وقد يكـون ويكـون ... ، وهـذا من باب إنزال الناس منازلهم .

4- إقامة المؤسســـــات الكـــــبرى على مختلف الصـــــعد ، وتلك المؤسســــات تؤصل فينا روح الفريق ، كما تــــوفر الأطر الإدارية والفنية والعملية لأولئك الـذين يملكـون روح الإخلاص والعطـاء . إن

المؤسسـات تمثل مهمة المحـرك للسـفينة تـارة ومهمة المراسي تارة أخرى ، أي : تؤمن حركة راشدة متزنة .
وإذا ما فعلنا ذلك أو بعضه نكـون قد سـاعدنا الأمة في الخـروج من نفق (الغثائية الكميـــة) المظلم ، ودفعناها نحو امتلاك أهلية قيـــادة العالم وهدايته . وعلى الله قصد السبيل .

---

(1) من حديث لابن مسعود يرفعه انظر فتح الباري 13/37 .
(2) أخرجه أحمد وأبو داود .
(3) أخرجه الشيخان وغيرهما .

===================

{ إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً }

في هذه الآية خير عظيم ، إذ فيها البشارة لأهل الإيمان بأن للكـرب نهاية مهما طـــال أمـــده ، وأن الظلمة تحمل في أحشـــائها الفجر المنتظر . وتلك الحالة من التعاقب بين الأطـوار والأوضـاع المختلفة تنسجم مع الأحوال النفسية والمادية لبني البشر والـتي تتـأرجح بين النجاح والانكسار والإقبال والإدبـار ، كما تنسـجم مع صـنوف الابتلاء الذي هو شرعة الحيـاة وميسـمها العـام . وقد بثت هـذه الآية الأمل في نفــوس الصــحابة - رضــوان الله عليهم- حيث رأوا في تكرارها توكيداً لوعود الله - عز وجل - بتحسن الأحوال ، فقال ابن مسعود : لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حـتى يـدخل عليه . وذكر بعض أهل اللغة أن (العسر) معرّف بأل ، و (يسراً) منكر ، وأن العرب إذا أعادت ذكر المعرفة كانت عين الأولى ، وإذا أعـادت النكـرة فكـانت الثانية غــير الأولى [1] . وخرجــوا على هــذا قــول ابن عبــاس : لن يغلب عسر يسرين [2] .
وفي الآية إشارة بديعة إلى اجتنان الفرج في الشـدة والكربة مع أن الظـاهر أن الرخـاء لا يـزامن الشـدة ، وإنما يعقبها ، وذلك لتطمين ذوي العسرة وتبشيرهم بقرب انجلاء الكرب .
ونحن اليـوم أحـوج ما نكـون إلى الاستبشـار بهـذه الآية حيث يـرى المسـلمون الكثـير من صـنوف الإحباطـات والهـزائم وألـوان القهر والنكد ؛ مما أدى إلى ســيادة روح - التشـــاؤم واليـــأس ، وصــــار الكثيرون يشعرون بانقطاع الحيلة والاستسلام للظروف والمتغيرات . وأفرز هـذا الوضع مقـولات يمكن أن نسـميها بــ (أدبيـات الطريق المسدود) ! هـذه الأدبيـات تتمثل بالشـكوى الدائبة من كل شـيء ،

من خذلان الأصدقاء ، ومن تآمر الأعداء ، من تركة الآبـاء والأجـداد ، ومن تصرفات الأبناء والأحفاد !
وهؤلاء المتأزمون يسلطون أشعة النقد دائماً نحو الخارج ؛ فهم في ذات أنفسـهم على مـايرام ، وغـيرهم هو الـذي يفعل كل ما يحـدث لهم ! وإذا رأوا من يتجه إلى الصـــيغ العملية بعيـــداً عن الرسم في الفـراغ أطفـؤوا حماسـته بـالقول : لن يـدعوك تعلم ، ولن يـدعوك تربي ، ولن يدعوك تمسي عملاقاً ، ولن يدعوك ...
وكل ذلك يفضي إلي متحارجة (كـذا) تنطق بالصـيرورة إلى العطالة والبطالة ، إلى أن يأتي المهدي ، فيكونون من أنصاره أو يحدث الله - تعالى - لهم من أمره فرجاً ومخرجاً !
ولعلنا نلخص الأسباب الدافعة إلى تلك الحالة البائسة فيما يلي :
1- التربية الخاصة الأولى التي يخضع لها الفرد :
وتلك التربية قد تقوم ببث روح التشاؤم واليـأس من صـلاح الزمـان وأهله ، كما تقـوم ببث نـوع من العـداء بينه وبين البيئة الـتي ينتمي إليها فـإذا ما قطع أسـبابه بها وانعـزل شـعورياً بحث عن نـوع من الانتماء الخاص إلى أسرة أو بلدة أو جماعة حتى ينفي عنه الشـعور بـالاغتراب . لكن يكتشف أن ما كـان يعتقد فيه المثالية ، ويتشـوق إلى تحقيق أماله من خلاله لا يختلف عن غـــيره كثـــيراً ، مما يورثه الإحباط واليأس حيث يفقد الثقة بكل ما حوله وتكـون النتيجة الـبرم والتـأفف من كل شـيء وردود الأفعـال السـلبية تجـاه التحـديات المختلفة .
2- التعامل مع الواقع على أنه كتلة صلدة :
يميل أكثر الناس إلى النظرة التبسيطية التي لا ترى لكل ظاهرة إلا سبباً واحداً ، ولا ترى في تركيبها إلا عنصراً واحـداً . وهـذه النظـرة الخاطئة تفضي إلى معضـلة منهجية كـبرى ، هي عـدم القـدرة على تقسيم المشكلة موضع المعاناة إلى أجـزاء رئيسـية وأخـرى ثانوية ، كما تـؤدي إلى عـدم القـدرة على إدراك علاقـات السـيطرة في الظـاهرة الواحـدة ، وعـدم القـدرة بالتـالي على تغييرها أو تبـديل مواقعها .
والنتيجة النهائية هي الوقـوف مشـدوهين أمـام مشـكلة متكلسة مســتبهمة لا نـــرى لها بداية ولا نهاية ، والمحصـــلة النهائية هي الاستسـلام للضـغوط وانتظـار المفاجـآت ، مع أننا لو باشـرنا العمل الممكن اليوم لصار ما هو مستحيل اليوم ممكنا غداً .
3- عدم الانتباه للعوامل الداخلية للمشكلة :

يندر أن نـرى اليـوم ظـاهرة كـبرى لا تخضع في وجودها واشـتدادها واتجاهها لعـــــــدد من العوامل الداخلية والخارجية ، ويظل العامل الخارجي محـدود التـأثير ما لم يسـتطع إزاحة أحد العوامل الداخلية والحلــول محله . ونسـتطيع أن نطبق ذلك على أية مشـكلة كـبرى نواجهها اليوم . وقد أشار القرآن الكـريم إلى هـذه الحقيقة البـاهرة حين قال :] وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً [[آل عمران 120] .

والذي يحدث أننا كثيراً ما نبصر المؤثرات الخارجية - وهي مــؤثرات قــاهرة حقــاً - ونغض الطــرف عن العوامل الداخلية ؛ فنحن مثلاً لا نملك إقناع الأعداء بأن يخففوا من غلوائهم في عدائنا ، كما لا يملك بنو البشر جميعــاً أن يمنعــوا الثلــوج من التســاقط ؛ لكن الــذي نسـتطيعه هو تقوية أنفسـنا حـتى لا نكـون لقمة سـائغة ، كما يفعل الناس في مواجهة ظروف المناخ . لكن المشـكلة أن أصـعب أنـواع المواجهـات هي مواجهة الــذات ، وأن أرقى أنــواع الاكتشــاف هي اكتشاف الذات !

4- عدم إدراك حركة الجدل بين الأحوال :

تتعاقب الأحـوال كما يتعـاقب الليل والنهـار ، وما بعد رأس القمة إلا السـفح وما بعد السـفح إلا القـاع . وإن دفع أية قضـية إلى حـدودها القصوى سيؤدي في النهاية إلى كسر ثورتها أو إنهائها بصورة تامة . وحين تصل تجربة أو نظرية أو منهج إلى طريق مسدود فإن النــاس لن يتلبثوا إلا قليلاً حتى يجدوا المخرج الذي قد يكـون مناسـباً ، وقد لا يكون .

وهنا يــأتي دور الثلاثي النكد من الأذكيــاء والعملاء والبلهــاء الــذين يحــاولون - على اختلاف القصــود - عــدم وصــول أي مشــكلة إلى مرحلة الانفجـار حـتى تظل مسـتمرة إلى ما لا نهاية ! والمشـكلات في عالمنا الإســـلامي لم تـــدم تلك القـــرون المتطاولة إلا نتيجة الهندسة الإخراجية لذلك الثلاثي ! ! وهنا يـأتي أيضـاً دور المفكـرين الــذين يمتلكــون رؤية نقدية شــاملة ينقلــون من خلالها مشــكلات مجتمعاتهم إلى حس النـاس وأعصـابهم حـتى لا يتكيف النـاس معها سلبياً ، وحتى يتاح بالتالي تجاوزها .

{ فإنَّ مَعَ العُسْـرِ يُسْـراً * إنَّ مَـعَ العُسْـرِ يُسْـراً } ، وإن النصر مع الصـــبر وإن الفـــرج مع الكـــرب ، وإن في رحم كل ضـــائقة أجنة انفراجها ومفتـــاح حلها ، وإن لجميع ما نعانيه من أزمـــات حلـــولاً

مناســبة إذا ما تــوفر لها عقل المهنــدس ومبضع الجــراح وحرقة الوالدة .. وعلى الله قصد السبيل .

---

(1) انظر البحر المحيط 8/488 .
(2) السـابق , وبعض المحـدثين يرفعه إلى النـبي -صـلى الله عليه وسلم- .

====================

{ ولَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }

كان من جملة تسخير الله - تعالى - الكون لهذا الإنسـان أن بثّ فيه سنناً تتسم بـالاطراد والثبـات والشـمول . وهـذه السـنن مبثوثة في الكون والأنفس والمجتمعات .
وإن وجود السـنن رحمة من الله - تعـالى - بنا ؛ إذ أننا تمكنا بسـببها من اختصار كثير من الجهود التي كان علينا أن نبـذلها لفهم ما حولنا والتعامل معه . ولنتصور أن قانون إحراق النار ، أو قـانون الجاذبية ، أو قـانون تغـير الحـال إلى الأحسن أو الأسـوأ تبعـاً لجهد الإنسـان وسلوكه لم يكن ثابتاً ولا مطرداً فكيف ستكون الحال إذن ؟ !
ومظهر آخر للرحمة في اطــراد السـنين هو أن التحـول في أكـثر الظواهر الاجتماعية يتم ببطىء ؛ وعمر الإنسـان قصـير إذا ما قيس بعمر الحضـارات ؛ مما يجعله يبصر مقـدمات الحـدث دون نتائجه ، ونتائجه دون مقدماته وأسبابه . وحينئذ فإن من السـهولة بمكـان أن يصاب المرء بغبش الرؤية وضلال الأحكام .
والسنة بتجسـيرها للعلاقة بين الماضي والحاضر والمسـتقبل جعلت في إمكــان المســلم أن يعــرف النتــائج من خلال الوقــوف على الأســباب ، والمقـــدمات من خلال رؤية نتائجها ، أي جعلت الأزمنة كتلة واحدة ، وهي بهـذا الاعتبـار تكـون قد أمنّت للمسـلم نوعـاً من التواصل عــبر حقب الزمــان المختلفة ، فالماضي لم يغادرنا حــتى ترك في حاضرنا ثقافة عصرنا وصفات وراثية محددة وظروفاً تؤطر مســاحات حركتنا اليــوم . إن الماضي ســيظل يظهر في الحاضر بصـورة ما ، وإن الحاضر سـيظل يظهر في القابل بصـورة ما ، وإن فيزياء التقدم عبارة عن حديث الحاضر مع الماضي عن المستقبل .

السُنَّة : إلتحام بكل الأبعاد ..
إذا كانت السنة هي الناموس العام الذي يؤمن الاستقرار والانسجام بين جزئيــات الظــاهر الواحــدة إذا ما تــوفرت بعض الشــروط

الموضوعية فإن هذا يعني أن المسـلم مـأمور بعبـور الماضي ليفهم جذور حاضره ، ومأمور بتجـاوز الحاضر ليمد النظر نحو المسـتقبل ؛ كيما يفقه الخطوة المناسـبة . ونجد نصوصـاً كثـيرة في هـذا الأمر ، كقوله سـبحانه : { قَـدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُـنَنٌ فَسِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ المُكَـذِّبِينَ } [آل عمـران : 137] . وقوله سبحانه : { قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَـدَأَ الخَلْـقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِـرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ } [العنكبـوت : 20] . إنها دعــوة للسـير في الأرض والخـروج من سـجن المكـان المألوف لرؤية خلق الله وإبصـار سـننه فيه . وبما أن المكـان يـرث دائماً الزمان فإننا سـوف نبصر من خلال السـير في الأمكنة الكثـير من الأزمنة الماضية وما خلفته لنا من آثار خلق الله تعالى .

وقد كانت هـذه الأمة تحتل في يـوم من الأيـام مكـان الصـدارة بين الأمم ؛ فـإذا بها تبحث عن مكـان في الـذيل ، فلا تجد ! والخطـوة الأولى نحو اسـتعادة بعض ما فـات تتمحـور حـول بحث الأسـباب التاريخية الـتي أدت بنا إلى هـذه الحالة المنكـورة . وهـذا يعـني أن علينا أن نثـابر في قـراءة التـاريخ المـرة تلو المـرة حـتى نقف على جذور الواقع الذي نعيشه إذا ما كنا جادين في تغييره نحو الأحسن .

إن ظــواهر كثــيرة في حياتنا ســتظل غــير مفهومة ما لم نعد إلى جــذورها العميقة الضــاربة في القــدم ؛ فــإذا ما نظرنا - مثلاً - في ظاهرة » ذل المسـلم وخضـوعه « لم نسـتطع أن نفهمها ما لم نعد إلى الماضي ، فـإذا عـدنا رأينا ما يسـوِّغ ذلك ، فقد صُـب عليه من صـنوف التعـذيب النفسي والجسـدي ، ومن صـنوف الإذلال والإهانة وسياسة » اسحق الذبابة بالمطرقة « ما لا يفرز إلا مسلم اليوم ! ذلك باستمرار باسم المصلحة العامة وأمن الأمة والاستقرار العام ! ! لكن لا بد من القول إن انفتاح العـالم على بعضه حـتى تحـول إلى » قرية إعلامية « - كما يقولـون - قد جعل فهم الواقع اليـوم أكـثر تعقيداً . والسبب أن جزءاً من هذا الواقع هو الذي يمكن مسُّه ، أما الباقي فجذوره وخيوطه ربما كانت خارج أرضي المسلمين كلها ! ! لكن مهما يكن من أمر فـإن السـنة ترسم لنا المسـار العـام إن لم تتحفنا بالتفاصيل .

السنة وعلوم المستقبل :

هنـاك اليـوم حركة محمومة في الغـرب لدراسة المسـتقبل ، حـتى صـــار لـــديهم علم اســـمه » علم المســـتقبل « . وهم يصـــنفون المســتقبل إلى مباشر ، وهو يغطي مســاحة زمنية قــدرها عــام ،

ومســـتقبل أقـــرب وهو يغطي مســـاحة قـــدرها خمسة أعـــوام ، ومستقبل قريب يغطي مسـاحة قـدرها عشـرون عامـاً ، ومسـتقبل بعيد يمتد إلى نحو خمسين عاماً ، ومستقبل أبعد يتجاوز الخمسين . وهم لخبرتهم الحسنة بـالواقع يسـتطيعون مد البصر نحو المسـتقبل في المجـــــالات التقنية والتنموية المادية بصـــــــورة خاصة . لكن لاعتقادهم أن العلم هو الذي يكيف سلوك البشر ، وليس الدين فإن كثيراً من توقعاتهم سوف تكون مخيبة للآمال . وتـاريخ البشـرية هو تـاريخ الرسـالات والشـرائع وما تحدثه من دوائر الاسـتجابة وردود الفعل ؛ وسيظل مستغلق الفهم على من نظر إليه على غير ذلك .

وإذا كانت وظيفة الإنسان في الحياة هي الالتزام بشرع الله والقيام بإعمار الأرض فإن القرآن الكريم يحدثنا أن هلاك الأمم الماضـية لم يكن أبداً بسبب القصور العمراني ، وإنما بسبب التقصير في جـانب العبودية لله تعـالى والانحـراف عن منهجه . وهـذا ما لا يسـتطيع الغربيون اليوم فهمه ؛ ومن ثم فـإن كثـيراً من دراسـات المسـتقبل لديهم سيظل جهاداً في غير عدو !

ونستطيع القول : إن الإسـلام يـربي المسـلم على النظر دائمـاً نحو الأمـــام ؛ فهو منذ البلـــوغ إلى أن يلقى الله - تعـــالى - يرنو نحو المســتقبل بــالآخرة - بل يجعله حكمـــاً في حاضــره بكل حركاته وسـكناته . وهنـاك نصـوص كثـيرة تتحـدث عن المسـتقبل ، وهـذه النصوص منها ما يقدم الإطار العام كقوله - سبحانه - : { إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَــوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِــهِمْ } [الرعد : 11] . وكقوله - ســبحانه - : { فَقُلْتُ اسْــتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إنَّهُ كَـانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِـلِ السَّــمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً (11) ويُمْــدِدْكُم بِــأَمْوَالٍ وبَنِينَ ويَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ويَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً } [نوح : 10-12] .

ومنها ما يقدم بعض التفصيلات كإخباره -صلى الله عليه وسلم- عن أن الفتنة سـتأتي من قبل المشـرق ، وإخبـاره عن فشو الأمـراض الغريبة في الــذين تفشو فيهم الفاحشة [1] إلخ .. وقد أوجــــدت معرفة السنن عند السلف حساً خاصـاً بالتعامل مع الواقع من خلال إفرازاته المستقبلية ؛ فهذا أبو بكر - رضي الله عنه - يقول :

» لا تغبطوا الأحياء إلا على ما تغبطون عليه الأمـوات « وهـذا تعبـير مركز ينمُّ عن رؤية الأشياء المادية ونهاياتها في لحظة واحدة ! !

وهذا عمر - رضي الله عنه - يأتيه خبر فتح خراسان ، فيقول للنـاس في المدينة : » لا تبـدلوا ، ولا تغـيروا ، فيسـتبدل الله بكم غـيركم ،

فإني لا أخاف على هـذه الأمة إلا أن تـؤتى من قبلكم « [2] . وهـذا هو يؤتى إليه بغنائم » جلولاء « ،
فيرى ياقوته وجوهره ، فيبكي ، فيقـول له عبد الـرحمن بن عـوف - رضي الله عنه - : ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهـذا مـوطن شـكر ؟!
فيقــول عمر : » والله ما ذاك يبكيــني ، وتاالله ما أعصى الله هــذا أقوامــاً إلا تحاســدوا وتباغضــوا ، ولا تحاســدوا إلا ألقى الله بأســهم بينهم « [3] ! وقد كان ما خافه رحمه الله !
لماذا التعرف على السنن :
السنن ماضية قاهرة ، ونحن لا نتعلمها من أجل تغييرها أو تحييدها ، وإنما من أجل الانسـجام معها والعمل بمقتضـاها وتلافي الاصـطدام بها . والســــــنن مع جبريتها لا تمنعنا من الحركة ؛ إذ إن بين جبرية الســنن ووسع المســلم وطوقه مســاحات واســعة تصــلح للتحــرك والعمل ؛ فــــــالقوانين الفيزيائية والكيميائية ثابتة ، لكننا من خلال فهمها اسـتطعنا إيجـاد الألـوف من الصـناعات الكيميائية والفيزيائية مستغلين ما بينها من خلاف وتنوع .
ومشكلتنا في هذه القضية ذات رؤوس متعددة :
فهنــاك من هو غــارق في الماضي غــريب عن الحاضر ، فهو يــرى مقدمات الأحداث وجذورها ، دون أن يرى النتائج ، فهو مغترب أبــداً .
ومنا من غرق في الحاضر دون أن يعرف عن بـدايات الخلق لأزماته ومشـكلاته شـيئاً ؛ فهو يـدور في حلقة مفرغة لا يـرى مخرجـاً ، ولا يهتدي سبيلاً .
ومنا من شــــهد جبرية الســــنن ، ولم يشــــهد مســــاحات التكليف وإمكانــات الحركة ، فوقف عــاطلاً عن العمل هاجعــاً في إجــازة مفتوحة ، لكنه أثـرى أدب الشـكوى من الزمـان والظـروف وتواطؤ الأعداء بما لا مزيد عليه ! !
ومنا من غرق في الأحلام الوردية ؛ فهو لا يـرى ما هو كـائن لينطلق به إلى ما ينبغي أن يكـون ؛ فهـذا شـاق ، ويقتضي عملاً ، فوجد أن التعامل مع ما حوله على ما ينبغي أن يكــون أســهل وأجمل فصــار إليه !
ومنا من لم يســمع بالســنن فتفكــيره إلى الخرافة أقــرب ، وعلمه بــالإرادة الكونية والإرادة الشــرعية هبــاء ، والحيــاة أمامه بعد واحد ينتهي بطريق مسدود !
واجبنا اليوم :

1 - التركيز في معارفنا العامة على الدراسات التاريخية والنفسية والتربوية والاجتماعية ؛ لنتمكن من استجلاء أكبر عدد ممكن من سنن الله تعالى في الأنفس والمجتمعات .
2- بلورة مناهج للعمل الدعوي تتناسب مع تلك السنن في أساليبها وأدواتها .
3- تربية أبنائنا وطلابنا على التفكير السنني ؛ ليحل محل الأوهام والخرافات التي عششت في أذهان كثير منهم .
4 - محاولة القيام بتقويم سنني للأحداث الكبرى في تاريخنا والمعالم البارزة في واقعنا المعاش .
5- القيام بدراسات علمية مستقبلية تعتمد على ما فقهناه من سنن الله تعالى في حركة الفرد والمجتمع .
وإذا ما فعلنا ذلك فسوف نجد الخلاص من كثير من مشكلاتنا ، كما سنجد ساحات ودروباً للحركة والعطاء . وعلى الله قصد السبيل .

---

(1) انظر هذه الأخبار وكثيراً نحوها في كتاب الفتن من صحيح البخاري .
(2) الطبري 4/173 .
(3) السابق 4/30 .

====================

{ وقل اعملوا .. }

خلق الله تعالى الجنة داراً لتكريم أوليائه ، فوفر فيها كل شروط التكريم ؛ وخلق النار داراً لإهانة أعدائه ، فوفر فيها كل شروط الإهانة ؛ وخلق الدنيا داراً لابتلاء الفريقين ، فوفر فيها كل شروط الابتلاء .
إن هذا الدين يعلمنا أن كل ما يحيط بنا في دائرتي الزمان والمكان يمثل بالنسبة لنا ضرورة تتحدانا ، وعلينا أن نعيه ، ونتصرف معه التصرف اللائق بالإنسان المكرم المبتلى .
إن كل لحظة تمر على الإنسان في هذه الحياة هي لحظة اختبار ، وهي في الوقت ذاته ضرورة تتحدى ، وهي (كم) يتطلب منا تكييفاً مناسباً ، فإذا لم نستطع تكييف تلك اللحظة مضت تاركة وراءها قيداً على حرياتنا ووجودنا ! وإن التكييف في موازين هذا الدين السمح قد يأخذ في بعض الأحيان صورة اعتبارية محضة ، كما هو الشأن مع الذي يبادر إلى فراشه فيما يتمكن من حضور صلاة الفجر مع الجماعة ؛ فإنه قد كيف كل لحظه نوم بما انطوت عليه

سريرته من قصد . وعلى هذا فـإن البطالة والنـوم - غـير المكيف - ضربان من ضروب الفناء والعبودية المكبلة بالأغلال !

إن كل ما حولنا من فكر ومـــادة وضـــرورات هي الأخـــرى تنـــادي الإنســـان المبتلى كي يتحـــرر من قيودها بتكييفها ؟ إن الفكـــرة الصـحيحة تتحـدانا كي نعممها ، وإن الفكـرة الخاطئة تتحـدانا كي نفندها ونحجمها ، وإن الفكرة الغامضة تتحدانا ؛ لننفذ إلى جوهرها ، كما أن الفكرة القاصرة تتحدانا لنطورها .
إن الأرض تتحدانا لنزرعها ، فإذا قبضنا على منتوجها تحدانا هو الآخر كي نصنعه على الوجه الأمثل . إن نديف القطن يتحدى النسـاجين ، فـإذا ما صـار قماشـاً دخل في طـور من التحـدي جديد ، فلئن كـان النسـاجون قد تحـرروا من قيـود النـديف فقد وقع الخيـاطون في ضرورة النسيج إلى أن يحيلوه ثوباً جميلاً . فـإذا ما عجـزت أمة عن أن تخيط نسيجها بين يديها ، أو تزرع أرضاً خصبة تملكها تحـول ذاك وهـذا إلى قيـود على حريتها ووجودها ، وإن من القيـود ما يقتل ، ومنها ما يشل ، ومنها ما يشوه ...
وليس انتقال الإنسان من ضرورة إلى أخرى انتكاساً أو زجـاً له في دائرة مغلقة - كما قد يتوهم - فنحن إذ نـتردد بين مشـكلاتنا وحلولها إنما نمضي في حركة لولبية صـــــــاعدة تمنحنا المزيد من الحرية والقدرة والتأنق .
إن كل سلعة مصـنعة نسـتوردها هي عبـارة عن ضـرورة نطـوق بها أعناقنا ، وإن أشد المستوردات خطـراً على حريتنا تلك الـتي تكـون أكـثر إلغـاء للعمل عند مسـتوردها ؛ لأن العمل هو الحرية ، والـذي يلغيه يلغي الحرية . ذلك لأن السلعة المصـنعة كـانت من قبل مـادة غفلاً وكـان لإمكاننا أن نمـارس حريتنا في تصـنيعها وتحويلها ، وقد صودرت هذه الحرية حين قام بتشكيلها غيرنا .
وقد أدركت الأمم المتقدمة هـذه الحقيقة فتسـابقت إلى اسـتيراد المواد الخام ، ووضعت القيود على استيراد السـلع المصـنعة ؛ فهي لا تبادل الدول الأخرى منها إلا قدراً بقدر حتى تمـارس حريتها كاملة ؛ وترى ثمار ما عملته أيديها ..
إن حرية الفـــرد في المجتمع على قـــدر عمله ، فـــإذا ما أخذ من الآخرين أكثر مما يعطيهم فقد من حريته مقدار ما يزيد لهم عنـده . وإن أقسى ما يواجهه الحر الكريم أن يـرى نفسه غارقـاً في عطـاء

الآخــرين دون أن يكــون لديه ما يعطيهم ؛ لشــعوره بــأن ذلك على حساب حريته ، أي : على حساب وجوده ! !
إن العمل هو طريق الخلاص ، وهو طريق تحقيق الـذات ؛ ولكن هل كل حركة بركة ، وهل كل عمل هو كسر للقيود وإعتاق للرقاب ؟ ؟
لاريب أن الأمر ليس كذلك ، فالسكون في أيـام الفتن - مثلاً - خـير من الحركة ، ورب حركة متعجلة قصد منها كسب الحرية أدت إلى الرسف في أغلال العبودية سنين طويلة ، ذلك لأن العمل عبارة عن غـزو الصـورة للمـادة ، وإذا ما شـكلت مـادة ما على صـورة خاطئة فإن هذا قد يعني الحرمان منها باعتبارها كماً ، وباعتبارها كيفاً ؛ لأن أشياء كثـيرة قد لا تقبل أن تتشـكل إلا مـرة واحـدة ! ! إنه لا بد من توفر شرطين أساسيين في العمل الكريم ، هما الصـواب والإخلاص ، أي القـوة والأمانة ، أو القـدرة والإرادة ، وإن كـان بعض الأعمـال يعتمد على أحـدهما أكـثر من اعتمادها على الآخر ؛ فأعمـال الآخـرة تعتمد على الإخلاص أكــــثر من اعتمادها على الصـــــواب ، وإن يكن الصـواب أساسـياً . وأعمـال الـدنيا تعتمد على الصـواب أكـثر من إعتمادها على الإخلاص ، فكلما كــان الإخلاص أعظم كــانت المثوبة أكبر ، وكلما كان الصواب أكبر كان النجاح أكـثر ، تلك هي سـنة الله .
وتقـــاس حيوية المجتمع بقـــدر ما يمـــور به من حركة الفكر واليد ؛ وعلى هذا الصعيد فقد فجر الإسلام طاقـات المسـلم على مسـتوى القيم ، وعلى مستوى الأداء بصورة قل نظيرها في التـاريخ ، فشـيد المسلمون في قرن من الزمان حضارة زاهرة ظلت تعطي وتقــاوم عوامل الفنــاء نحــواً من عشــرة قــرون ، ثم صــارت المجتمعــات الإســلامية ، من أقل مجتمعـــات الأرض حراكـــاً وعطـــاء ، فما هو السبب الذي أفضى إلى هذه الحالة المنكورة ؟
في مقاربة أولية للوقوف على جـواب هـذا التسـاؤل الكبـير ، يمكن أن نقول أولاً : إن ظاهرة كبرى كظاهرة الركود الحضاري أكــبر من أن تفسر بعامل واحد ؛ ولكن بإمكاننا أن نســلط الضــوء على عامل نحسب أنه كان على جانب كبير من التأثير في هذه الظـاهرة ، هـذا العامل هو انخفــاض مســتوى الإيمــان بالله - تعــالى - أو انخفــاض جوهر ذلك الإيمان ، أعني (الصلة بالله تعالى) . حقاً لقد ظلت قيمة الإيمان في أعلى السلم القيمي للمسلمين ، ولكن ذلك وحـده غـير كــاف لإطلاق الطاقــات وتوجيهها نحو بــؤرة محــددة ما لم تتــوفر شروط موضوعية في الإيمان نفسه ، وفي البيئة التي يعمل فيها .

وإنما كـان ذلك هو السـبب في تصـورنا ، لأن بنية الثقافة الإسـلامية تتمحور داخلها العلاقات حـول ثلاثة أقطـاب هي : الله - سـبحانه - ، الإنسان ، الطبيعة .

وإذا أردنا تكـثيف هـذه العلاقـات حـول قطـبين اثـنين لكانا : (الله ، الإنسان) .

وأما الطبيعة فإنها هامشــية نســبياً ما أن وظيفتها تــتركز في كونها إحــدى الــدلائل على وجــود الله ، وكونها مجـالاً للابتلاء ؛ فالمســلم يكتشـفها ويعمرها امتثـالاً لأمر الله تعـالى ، وهـذا على خلاف ما هو مستقر في العقل اليوناني الأوربي الذي تتمحور العلاقــات فيه على الإنســان والطبيعة . أما فكــرة (الإلــه) فيه فهي عــون على كشف الطبيعة ، أي إنها تقوم بالوظيفة نفسها الـتي تقـوم بها الطبيعة في الثقافة الإسلامية .

ومن هنا فــإن تعامل المســلم مع الطبيعة ليس مباشــراً ، ونظرته إليها معيارية قيمة ؛ فعلى مقدار ما يتوهج الإيمان في صـدره يكـون تفاعله مع الطبيعة ويكـون عطـاؤه الحضـاري ، فـإذا ما خبا الإيمـان في صدره - لسبب من الأسباب - انحبس جهده في البناء الحضاري ، أو فتر . وليس كذلك الشأن عند أهل الحضـارة المادية . ولا يكفي أن يتـوهج الإيمـان في صـدور أفـراد قليلين في المجتمع الإسـلامي لاســتئناف مســيرة الحضــارة الإســلامية ؛ لأن الحضــارة ظــاهرة اجتماعيه لا ظاهرة فردية .

ونلمح هذا المعنى شائعاً في الخطاب القرآني كله ؛ فكثيراً ما تفتتح آيات الأوامر والنواهي بـ { يَا أَيُّهَا الَـذِينَ آمَنُـوا .. } وكثـيراً ما تختتم بـ { إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .. } { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .. } ؛ تذكيراً بأن الايمــان المتـألق هو الـذي يطلق طاقـات المسـلم ، ويفعل القيم لديه . ولم تشذ الآية الكريمة الـتي نحن بصـددها عن هـذا النسق حيث يقــول سبحانه : { وقُلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ورَسُـولُهُ والْمُؤْمِنُـونَ وسَـتُرَدُّونَ إلَى عَـالِمِ الغَيْبِ والشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُـونَ } فقد ربطت العمل برؤية الله تعـالى لهـذا العمل ومجازاته عليه في الآخرة .

وقد أدى الضعف في فاعلية المسلم وحركته اليومية إلى وجود خلل كبـير في حيـاة المسـلمين فصـارت بلادهم أفقر بلاد الله ، كما أن نظامهم الرمـزي الـذي كـان في يـوم من الأيـام أغـنى نظم العـالم بالأبطال العظام صار اليوم مجدباً على مستوى الكم والكيف ! !

ولم يقتصر الأمر على هــذا ، بل إن الأزمة على صــعيد الفعل أدت إلى وجود أزمة خطيرة على صعيد (الفكــر) ؛ ذلك لأن العقل عقلان على حد تعبير (لالاند) عقل فاعل ، وعقل ســائد . أما العقل الفاعل فهو النشــاط الــذهني الــذي يقــوم به الفكر حين البحث والدراسة ، وهو الذي يصوغ المفاهيم ويقــرر المبــادئ . وأما العقل الســائد فهو مجمــوع القواعد والمبــادئ الــتي نســتخدمها في اســتدلالاتنا . فليس العقل السائد شيئاً غير الثقافة . والعقل الفاعل أشبه شيء بالرحى ، والعقل السائد أشبه شيء بالقمح يلقى فيها ؛ وماذا تصــنع رحى لا قمح فيها ؟ ! ومن أين ســتأتي الثقافة لأمة لا تحــرك يــداً ، ولا تبــني نموذجــاً إلا في نطــاق الضــرورات إن كل انحبــاس في حركة اليد ســيؤدي الى انحبــاس في حركة الفكر ، وكل انخفــاض في وتــيرة الإيمان سيؤدي - لدى المســلم - إلى انخفــاض في تــردد اليد . فهل كتبنا الحرف الأول في أبجدية البداية ؟

====================

{ وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ..}

يقرر المتخصصون في علوم الأحياء والسلوك ووظائف الأعضــاء أنه - وفي كثير من الأحيــاء - يفــوق الإحســاس بــالألم جميع الأحاســيس الأخــرى ، مثل الإحســاس بــالجوع والعطش والمتطلبــات العضــوية الأخرى .

بمعــنى آخر ، أن هــذه الأحيــاء قد يوقفها الألم عن طلب ما تسد به جوعها وعطشها حــتى عند الضــرورة ، يقــررون ذلك بنــاءً على عــدد كبير من التجارب على حيوانات مختلفة وحــتى الإنســان . وعــادة ما تتم هذه التجارب بوضع حاجز يسبب ألماً شــديداً للكــائن الحي عند محاولة اجتيازها للوصــول إلى الطعــام والشــراب . فقد لوحظ أن كثيراً من هذه الأحياء تتردد كثيراً قبل اجتياز هــذه الحــواجز ، وقسم كبير منها أدى به الجــوع والعطش إلى محاولة هجر المكــان تخلصــاً من هذا الضغط العضوي ، وعند الفشل بمغادرة المكــان ، قد يقــرر الكائن الحي اجتياز الحاجز وتحمل الألم في ســبيل سد هــذه الحاجة العضوية المهمة . في حين أن هناك قسماً من الأحياء تصل به عدم القدرة على تحمل الألم إلى الموت .

نفهم من هذا السلوك أمراً مهمــاً هو أن أي مطلب أو حالة عضــوية تؤدي بالكائن الحي إلى تجاهل أو تحمل الإحســاس بــالألم فلابد وأن يكون ذلك المطلب أو تلك الحالة العضوية من القــوة بحيث تعطل ،

ولو مؤقتــاً ، أو تقلل - على أفضل تقــدير - إحســاس الكــائن الحي بالألم .
وفي تجربة شخصية على عدد من الأحياء البحرية ، وُجد أنها تتوقف تماماً عن تناول الغذاء في حالة حصــول عطب شــديد . أو لا عــادي في الظروف المحيطة بالأحياء . وقد يتوقف الكائن الحي عن القيام بعدد غير قليل من الوظائف العضوية تؤدي به إلى الموت التدريجي إذا زاد العطب والفساد في المحيط من حوله .
ونظــرة تفكر فيما تقــدم وفي قوله - تعــالى - يصف حــالاً مشــابهاً لحال الأحيــاء الــتي تتجــاوز مرحلة الإحســاس بــالألم للحصــول على شيء أكــثر أهمية ، أو قل أكــثر إلحاحــاً ، هو قوله - عز من قائل - : { فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } [يوسف : 31] ؛ إذ تشير الآية إلى واقع حال تجاوز فيه الإحســاس بمطلب معين (وهو هنا الانبهــار برؤية النبي يوسف - عليه الصلاة والســلام -) الإحســاس بــألم قطع اليد ، هذا الألم الذي يعرف الجميع ضرورة شدته بســبب تركز خلايا الحس في هــذا الجــزء من الجسم . إذاً فقد أدى ذلك المــؤثر إلى تعطيل إحساس النسوة بألم قطع السكين ولو جزئياً ..
والواقعة - كما هي معروفة من القــرآن في ســورة يوسف - تخــبر عن مراودة امرأة العزيز لفتاها المملــوك عن نفسه . تلك المــراودة الــتي خطط لها أحسن تخطيط وتحــرز لها كل الحــرز على أن تتم بــدون علم بشر { وغَلَّقَتِ الأَبْــوَابَ وقَــالَتْ هَيْتَ لَــكَ } [23] ولكن خــبر المــراودة والمحاولة انكشف بــإرادة الله واطلع عليه مَن اطلع داخل الــبيت وخارجه . فطــار الخــبر للخــارج - من غــير جهة يوسف عليه السلام - بســرعة حــتى أن نســاء المدينة أصــبحن يلُكن وينقلن الخــبر في كل مكــان ومجلس { وقَــالَ نِسْــوَةٌ فِي المَدِينَــةِ امْــرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَــدْ شَــغَفَهَا حُبــاً } [30] ؛ حــتى رجع الخبر إلى مصدره الأصلي الــذي بُهت فيما يبــدو من عظم ما يُحــاك من مكر في الخارج { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ } [31] ، وكــأن حــال لسان نسوة المدينة يقول إننا لا نجد لها عذراً ؛ فهي مَن هي مركزاً ومقاماً وجاهاً ، وأنه لابد وأن يكون قد أصابها شيء إذ تفعل ذلك { إنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ } [30] ، أي أننا لنستقبح منها ذلك الفعل ، فما كــان من امــرأة العزيز إلا أن صــممت أن تجــرب بهن نفس السـلاح الـذى عطل عنـدها أو أفقـدها الإحسـاس بكل القيم العليا .
وفيما يبدو من سياق الآيات الكريمة أن امرأة العزيز لم تزل قــادرة على مــراودة يوسف - عليه الســلام - والخلــوة به مع علم زوجها ،

الـذي كـان قليل الغـيرة أو عـديمها ، ولهـذا لما اطلع على مراودتها أول مرة قال { يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا واسْـتَغْفِرِي لِـذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخَاطِئِينَ } [29] ، فلم يعاقبها ولم يفرق بينهما ، وهو كان له دور في تيسير دعوة يوسف للفاحشة من قبل نسوة المدينة . وكان أن كانت نتيجة التجربة أنهن قطعن أيـديهن بسـبب الرغبة الجنسـية الـتي فـاقت إحساسـهن بـالألم ، تلك الرغبة الجماعية منهن جميعـاً والتي بيَّنها يوسف - عليه السلام - في قوله (تعالى) { وَإِلاَّ تَصْـرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ } [33] ، وقوله { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْـأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } [50] ، فهن قد راودنه عن نفسه لأنفسهن ولامرأة العزيز !

سـبحان الله ! ، إن رؤية الرجل الحسن مـؤثر عظيم القـوة عطل لدى المرأة الإحساس بالطهر والعفـاف وكل معـايير إكـرام المثـوى وحسن الضـيافة وحفظ الـزوج وحقوقه . هل يبقى شك بعد هـذه الآيـات بخطـورة الاختلاط وعـدم غض البصر ؟ هل يبقي بعد هـذا تسـاؤل عن المقصـود من قوله - تعـالى - : { وقُل لِّلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـارِهِنَّ } [النـور : 31] ، أو قوله { قُل لِّلْمُـؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } [النـور : 30] ، أو قوله - عز من قائل عليم - : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وبَنَاتِكَ ونِسَاءِ المُؤْمِنِينَ يُـدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ } [الأحزاب : 59] .

ومن فوائد هـذه الآيـات من سـورة يوسف أن الله - تعـالى - يـروي للأمة تفاصـيل قصة حصـلت في السر أو هكـذا خُطط لها بصـورة فردية أعقبها فتنة عظيمة على مستوى نساء المدينة وبصورة علنية وعامة . وقد بلغت السـرية كمالها عند إغلاق الأبـواب والـتي كـانت سبعة أبواب (القرطبي) ، حيث الإرادة أن يتم المنكر معها وحـدها ، لكن إرادة الله شـاءت أن يطلع على ذلك الشـهود وزوجها ونسـاء المدينة وكأنه - تعالى - أراد لهذا الدرس عنواناً آخر هو أن مَن يهتك السـتر الـذي بينه وبين الله يهتكِ الله السر الـذي بينه وبين النـاس وأن من يتقِ الله يجعل له مخرجاً .

هذا ليعلم أن الفتنة والمكر قد يبدأ بصورة فردية أو حالة سـرية هنا وأخرى هناك أو تساهل في مسألة ومسامحة في أخرى ، ولكن شر الفتنة لابد أن يعم المجتمع جُله إما بصـورته المباشـرة ، كما هو في كثـير من المجتمعـات متمثلة بانتشـار الأمـراض الـتي يعم شـرها الصـالح والطـالح ، ذلك إذا لم يؤخذ على يد الفتنة والمكر من أوله وحال حدوثه ، والضابط في ذلك كله الشرع الإسلامي .

ومن الفوائد الأخـرى ملاحظة خطـورة إهمـال الـبيوت والمجتمعـات مما يجلبه الاختلاط والســـفور والتـــبرج من فتن يمكن أن تعصف بالمجتمعـات المسـلمة ، فإنه من بـاب تشـابه الميـول والطبع بين النساء كما فطرهن الخالق كذلك ، فـإن تـرك بـاب الاختلاط والفتنة مفتوحاً على مصراعيه وإهمال الضوابط الشرعية في ذلك سـيكون له - كما كـان الحـال مع امـرأة العزيز - ردود فعل قد لا يسـلم منها كثير من نساء ورجال المجتمع المسـلم مما يـودي إلى انتشـار ما لا يحمد عقباه من أمور تضيع الدين وتخل ببنيان وحدات بنــاء المجتمع .

وكطباع الصالحين الذين وقـاهم الله السـيئات ، فـإن يوسف - عليه السلام - عندما تعرض للفتنة ، فإنه انـدفع ليهجر مكـان الفتنة لينجو بدينه وعفته . ونسـتفيد من ذلك درسـاً عظيمـاً هو أن هجر المكـان الـذي يشـاع ويظهر فيه الفسـاد - خصوصـاً عند عـدم القـدرة على ردها أو اصلاحها أو إنكارها عملياً - قد يكون واجباً بحق الكثـير منا . على أن هجر المنكر وداره ليس دائمـــاً مســـتطاعاً للجميع ؛ فـــإن الطواغيت غالبـاً ما تلجأ إلى سد المنافذ { قَـالَتْ مَا جَـزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [25] .

أليس هذا ما يعمله طواغيت اليوم بالصالحين من سد منافذ الهجرة وفتح أبواب السجون وسد الأفواه والعيـون بـالأموال والآمـال . وأما مَن لم يسـتبق البــاب - وهو قــادر على ذلك ورضي أن يكــون في مكان السوء والفحشاء واطمئن من غير أن يحرك سـاكناً وهو قـادر على ذلك - فأخشى أن يكـون ممن قـال فيهم خـالقهم { إِنَّ الَـذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَــةُ ظَــالِمِي أَنفُسِــهِمْ قَــالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَــالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِـعَةً فَتُهَـاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِـيراً } [النسـاء : 97] . ولكن حسبنا الله ، فحتى من يملك القوة على الهجرة قد سد الطغـاة في الأماكن الأخرى أبواب أرض الله الواسـعة فسُـقط في أيـدي الكثـير من الصالحين وإلله المستعان .

ثم إن أساليب الطغاة تتجدد ولا تتبدل . فإن نـبي الله يوسف - عليه الســلام - لما أنجــاه الله من الفتنة الأولى وأظهر طهــره وبراءته نصبوا له فخاً آخر أشد قوة ومعه التهديد بأن يكون من الصـاغرين ، فما كـــان منه -عليه الســلام - إلا أن قـــدم نفسه للســجن { رَبِّ السِّـجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ } [33] . وكـانت له المكافـأة هناك في السجن حيث قيض الله - تعالى - له جـواً مناسـباً للـدعوة

وإيصال دين الله لمن لم يمكن له - لولا السجن - طريقاً للوصول إليه . ذلك ليعلم طواغيت اليوم أن تكميم أفواه الدعاة أمر مستحيل حتى داخل الزنزانات والحديد . ولنا في أئمة الإسلام - بعد رسل الله - أسوة حسنة .
وعودة إلى نبي الله يوسف نلاحظ أنه - عليه الصلاة والسلام - قد حقق كل مراحل الهجرة ، فقد هجر الكفر { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [37] وهجر الكبائر { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [23] وهجر الصغائر { قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [92] .
وفائدة عظيمة أخرى أن وعد الله متحقق بأن يجعل لمن يتقيه رزقاً من حيث لا يحتسب ؛ فهذه براءة يوسف - عليه السلام - تأتي من عدة وجوه وطرق :
فيشهد له خالقه أولاً أنه من عباده المخلَصين وأنه صرف عنه السوء ، ويشهد شاهد من أهلها ، وتشهد نسوة المدينة ، ويشهد الملك فيما بعد وفيما قبل ، ثم هي تشهد ببراءة ونزاهة نبي الله . فقد سخر الله هذه الجنود لتقدم دليلاً تلو الآخر على حفظ الله لنبيه وعباده الصالحين عموماً { ومَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ } [المدثر : 31] ، ذلك إذا علم الله منهم صدق القلوب ثم كان التمكين في الأرض لدين الله وعباده وهي الجائزة التي يرجوها كل مَن يشري مرضاة الله .
==================

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }

طالما وقفت خاشعاً في محراب هذه الآية وطالما غمرني ضياؤها بأشعته الهادية حيث أودع الرحمن عز وجل في كلمات قليلة من المعاني الكريمة الفياضة ما يمدنا بالمفاهيم النيرة كلما اتسعت مساحات الوعي لدينا وكلما تعاظم رصيدنا من التجارب .
وسأقف مع القارئ الكريم وقفات عدة في إشراقة هذه الآية نغرف من معينها النمير .
الوقفة الأولى :
تمثل هذه الآية مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالى حين رضي منهم أن يطيعوه على قدر طوقهم وقدرتهم ؛ وهذا الأمر أحد أهم الأسس التي يرتكز عليها التشريع الإسلامي ، وهو في الوقت ذاته أحد دعائم خلود الشريعة الغراء إذ أن تصرف الأيام والليالي يأتي

بما لا يحصى من الظـروف والأحـوال ، وحينئذ فـإن قـدرات النـاس على القيام بأمر الله تتفاوت تفاوتاً كبيراً ، خاصة لا يجد المفـتي لها حكمـاً تفصـيلياً يغطيها ، وتـأتي هـذه الآية لتمثل المنطلق الـرحب والناموس الأعلى الذي يحكم فقه الضـرورات ، وفقه ارتكـاب أخف الضـررين ودفع شر الشـرين ، وتشـعر هـذه الآية الكريمة المسـلم الذي وقع في ظروف حرجة ضـاغطة بالطمأنينة بالسـلامة من الإثم ما دام اتقى الله ما اسـتطاع ، كما أنها تستنهضه لمقاومة الظــرف الطارئ وبذل الوسع في الاقتراب من المركز أكـثر فـأكثر ، وهتو إذ يفعل كل ذلك يشعر برقيب ذاتي منبعه خشية الله سبحانه وتعالى .

الوقفة الثانية :

إن دوائر الاســـتطاعة تتسع على صــــعيدي القيـــام والعمل كلما استطاعت الأمة أن ترقى صعداً في سلم الحضارة . أما على صعيد القيم فإن التقـدم المـادي والتقـني يهـيئ الظـروف المناسـبة لنشر القيم وحملها ، وإذا أخذنا قيمة (الحرية) باعتبارها واحــدة من أخطر القيم المتفق عليها بشكل عـام لوجـدنا أن هـذه القيمة ليست حالة يتصف بها الفـــــرد أو دعـــــوى يطلقها ، وإنما هي عملية مواكبة للإمكانات التي يحصل عليها ؛ فإذا ما امتلك الواحد منا ثـروة كبـيرة من المفردات اللغوية وجد نفسه حراً في اختيار الألفاظ والأساليب المتعددة التي تمكنه من نقل المعلومة التي يريد إيصـالها لمخاطبيه مهما تفـاوتت مسـتوياتهم الثقافية . ومن تـوفرت في بلاده فـرص كبير للعمل بشـروط ميسـرة وجد نفسه قـادراً على رفض ما يمكن أن يتعـــرض له من ظلم أو حيف من أربـــاب العمل وعلى رفض ما يعـده مهنة شـاقة أو غـير مناسـبة ، وهو بـذلك يجد أمامه مجـالات واسعة للحركة وقدراً أكبر من الخيارات المريحة ، وقد عبر العـــرب قديماً عن هذه الحالة بمثل شائع حين قالوا : (من أخفض تخيّر) .

وفي المقابل فكيف يمكن لمن بحث عن فرصة للعمل سنوات عدة حتى عثر عليها أن يتصرف كما تصرف الأول ، وأن يشـعر بأنه قـادر على أن يكون حراً يأبى الظلم ويعيش بعيداً عن القسر والقهر ؟ ! !

وأما على الصـعيد العملي فـإن أكـثر المخترعـات أعطت جــوارح الإنسان نوعاً من الامتداد في سـلطانها وقـدراتها ؛ فالآلة مـدت في سـلطان اليد والطـائرة في سـلطان الرجل والهـاتف في سـلطان السمع و(الرائي) في سلطان العين وهكذا ..

ويـترتب على اتسـاع دوائر الاسـتطاعة تعـاظم المسـئولية ووجـود إمكانــات جديــدة للمزيد من التقــوى وبهــذا الاعتبــار فــإن العمل لتحسين المناخ العام الذي يعيش فيه المسلم عبادة لله تعالى تهيئ النــاس لمزيد من الطاعــات والعبــادات ، وإذا ما حــدث خلل في الارتبـاط بين الاسـتطاعة والتقـوى فـإن ذلك يعـني نوعـاً من البغي الممقوت الذي يخل بالتوازنات العميقة بـالفرد كما يسـتنزل المحن والعقوبات له .

وقد أشار النبي -صـلى الله عليه وسـلم- إلى عقوبة شـيء من ذلك الخلل حين ذكر الملك الكـــذاب في جملة من لا يكلمهم الله يـــوم القيامة ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم إذ أن السلطان ذو قدرات كبيرة فــإذا لم يواكبها الصــدق أحــدث من الضــرر ما لا تنفع معه رقابة الرقباء ! ولذلك استحق العقوبة التي تتناسب مع فعله .

الوقفة الثالثة :

لكل منا طاقات محـدودة ، ولكل منا طموحاته وأهدافه الـتي يـرمي إلى تحقيقها في هـــذه الحيـــاة قبل أن يرحل وتنهي الإمكانـــات والطموحات ؛ ومهما كانت قـدرات الإنسـان كبـيرة فهي محـدودة ، ونشاهد في كثير من الأحيان أن طموحاتنا أكـبر من طاقاتنا ، وكثـير منا يصاب حينـذاك بـالعجز والإحبـاط ويـؤدي بنا هـذا إلى البقـاء في إجازة مفتوحة ! !

وهذا مع علمنا أن التكليف على قـدر الوسع ، ولو أننا باشـرنا ما هو ممكن اليوم لصار ما هو مستحيل اليـوم ممكنـاً غـداً ، ولنوضح هـذا بمثال صـغير ، فلو أننا عمـدنا إلى طفل في الخامسة من عمـره لم يـدخل المدرسة ، وطلبنا منه كتابة اسـمه لوجد أن ذلك بالنسـبة له مستحيل ، فإذا علمناه كتابة حروف اسمه حرفاً حرفـاً ، ثم علمنـاه الوصل بينهما لوجد أن ما كان مستحيلاً قبل ساعة صار الآن ممكنـاً وهكذا ...

ونحن في كثـير من الأحيـان نطـوف في المجلس الواحد في أنحـاء العالم الإسلامي متألمين لما يحدث للمسلمين ، وشاكين من التـآمر عليه ، ثم ينفض المجلس على نحو ما انعقد عليه دون أن يســـتفيد مســلم من شــيء مما قلنــاه ، وذلك لأننا لم نباشر الممكن ، وإنما أذهبنا أوقاتنا في الحديث عن أمور لا حـول لنا ولا طـول في التـأثير فيها ! !

ولو أننا تحــدثنا بما يصــلح أمــراً من أمــور الحي أو في كيفية جعل فلان من النــاس يرتــاد المســجد لكــان ذلك أنفع للمســلمين وأبــرأ للذمة من شيء مشغولة به .

الوقفة الرابعة :

إن النبي -صلى الله عليه وسلم- تركنا على المحجة البيضــاء ، ووقع التكليف من الله تعالي باتباع ذلك المنهج والتزامه على قــدر الوسع والطاقة ، وهذا التكليف سنة الله تعالى في الأنبياء -عليهم الســلام- وسنة أممهم ؛ فقد مكث نوح -عليه الســلام- يــدعو قومه ألف ســنة إلا خمسين ، وكانت حصيلته في ذلك وصف الله تعــالى :] وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ [[هود 40] نعم إنهم قليل حملتهم سفينة واحــدة ومع ذلك فإن نوحاً ظل رسولاً من أولي العزم الأبرار ، ذلك لأن المنزلة على مقــدار الجهد الموافق للمنهج المــنزل ، وليس على مقــدار ما يحقق من نجاح وفلاح .

ولكن الــذي يحــدث في بعض الأحيــان أننا نضع أهــدافاً معينة نريد الوصول إليها عاجلاً ، ولو كانت هذه الأهداف تستدعي الضغط على المنهج أو القفز عليه أو الانحــــراف عنه ، وحين يحــــدث ذلك تفقد الدعوة انسجامها الذاتي كما تهتز الفلسفة النظرية التي تستند إليها ؛ وربما أدى ذلك إلى استعمال وسائل غير مشروعة .

ولا يعني هذا أن نعفي أنفســنا من عمليــات المراجعة ، بل يعــني أن المراجعة المطلوبة هي التأكد من موافقة أســاليبنا ووســائلنا للمنهج الرباني الذي تعبدنا الله تعالى باتباعه والحركة على هديه .

==================

{أَصْلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}

ســيظل للكلمة أثرها الفعــال في تغيــير أفكــار النــاس وأمــزجتهم ومشــاعرهم وواقعهم ، وذلك إذا اســتوفت شــروطاً معينة . وليس أدل على رفعة مكانة الكلمة في حيــاة البشر من أن الأنبيــاء- عليهم الصلاة والسلام -كانوا يجيدون اســتخدامها في التعبــير عن الحقــائق الراســخة والربط بينها وبين واقع البشر ورصــيد الفطــرة المتبقي لديهم .

فهذا نوح -عليه الســلام - يجــادل قومه باستفاضة ، حــتى ضج قومه من ذلك حين قــالوا : { قَــالُوا يَا نُــوحُ قَــدْ جَادَلْتَنَا فَــأَكْثَرْتَ جِــدَالَنَا } [هــود : 32] ، وهــذا إبــراهيم - عليه الســلام- يكرمه الله تعــالى ، فيهبه من قــوة الحجة ما يفحم قومه :] وَتِلْــكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْــرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَــاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [[الأنعــام :

83] . وهــذا موسى -عليه الســلام- يقــول : { واحْلُــلْ عُقْــدَةً مِّن لِّسَـانِي * يَفْقَهُـوا قَـوْلِي } [طه : 27 ، 28] ، ثم يطلب من الله تعــالى أن يتفضل عليه بإشــراك هــارون معه في التبليغ لفصــاحة لسانه حين يقـول : { وأَخِي هَـرُونُ هُـوَ أَفْصَـحُ مِنِّي لِسَـاناً فَأَرْسِـلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَـدِّقُنِي إنِّي أَخَـافُ أَن يُكَـذِّبُونِ } [القصص : 34] . والله تعالى يقوم لخاتم أنبيائه : { وقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَـوْلاً بَلِيغـاً } [النســاء : 63] . وكل هــذا قبس مما نســبه البــاري -جل وعلا- لنفسه حين قال :] قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [[الأنعـام : 149] وحجج النبــيين ومضــامين خطــابهم للخلق -في الأصول - واحدة أو تكاد ، مما يجعل جذور الكلمة الطيبة ضاربة في أعماق الزمن من لدن نوح -عليه السلام- إلى خاتمهم محمد -صـلى الله عليه وسـلم- ، وهـذا يجعل حركة التـاريخ كلها في سـياقٍ عـامٍ واحدٍ ، هو : التأكيد على أهمية الكلمة الطيبة في إنقاذ البشـرية من الضلالة .

ونحن في كثــير من الأحيــان نســتخف بقيمة الكلمة ، ومع أهمية العمل إلا أن لكل منهما مجاله الــذي لا يصــلح فيه غــيره ، وفى تاريخنا الإسلامي أمثلة كثيرة جداً غيَّرت فيها الكلمة مسـار شـخص أو مدينة ، بل قـارة ، فمما يـذكرون في هـذا الصـدد أن وفـداً من بعض بلاد أفريقية وفد حاجاً ، فالتقى بالإمام مالك بن أنس صــاحب المذهب ؛ فأثنى مالك على والي ذلك البلد خـيراً ، وتمـنى لو رزقت المدينة مثله في عدله وصلاحه . فبلغ ذلك والي ذلك البلد الإفـريقي ، فأمر بتدريس كتب مالك في بلده ، وأدى ذلك إلى انتشار المذهب المــالكي في أرجــاء أفريقية ! . وما أظن أن ما حــدث كــان يخطر للإمام على بال .

وقد تغـني الكلمة الواحـدة غنـاء جيش أو جيـوش ، كما حـدث في غزوة الأحـزاب حين أسـلم نعيم بن مسـعود ، واسـتخدم عـدم علم المشــركين بــذلك في تبديد الثقة بين قــريش واليهــود على ما هو مشهور . وقد أدركت الشـركات والمؤسسـات التجارية قيمة الكلمة في التـأثير على المشـتري ودفعه إلى شـراء ما لا يحتـاج له ، قـال أحدهم :

لو كان لى عشرة دولارات لتـاجرت بواحـدٍ وصـنعتُ دعاية بالتسـعة الباقية .

وإذا أردت أن تشل فاعلية شــخص ما ، فيكفى أن تقنعه : أن عمله غير ذي فائدة .

والآية التي نحن بصددها زاخرة بالمعاني والصور الـتي تجعل الكلمة في أرقى حال جمالاً وكمـالاً ونفعـاً . ولنقـرأ الآية وما تلاها لنقتبس شـيئاً من نورها ، قـال الله -جل وعلا- : { أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْـلُهَا ثَـابِتٌ وفَرْعُهَا فِي السَّـمَاءِ * تُـؤْتِي أُكُلَهَا كُـلَّ حِينٍ بِـإِذْنِ رَبِّهَا ويَضْـرِبُ اللَّهُ الأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ } [إبـراهيم : 24-25] ، لقد شـبه البـاري -عز اسـمه - الكلمة الطيبة بشـجرة طيبة ، وهـذه الشـجرة الطيبة تتصف بثلاث صـفات أساسـية : ثبـات أصـلها وعمق جـذورها ، ثم ذهـاب فروعها وأفنانها في السماء ، ثم نفعها الدائم للخلق باسـتمرار أكلها وثمارها . ولنفصل القول في تنزيل هذه الصفات على الكلمة الطيبة .

1 - ثبات الأصول :

حين نعـرف أن أصـول دعـوات الأنبيـاء -عليهم السـلام- واحـدة ، تركزت في الدعوة إلى التوحيد الخـالص وعبـادة الله تعـالى وإقامة الحق والعدل في الأرض وإعمارها بما يسـمح بإقامة مجتمع التوحيد ؛ نـدرك أي جـذور ضـاربة تمتلكها الكلمة الطيبة على اتسـاع أمـداء الزمـان والمكـان ، ونـدرك أي رصـيد من المنطق العـام الـذي بنـاه الأنبياء تستند إليه ، وأي رصيد ضخم من الفطرة يؤازرها في عملية البلاغ المبين .

وقد أخـرج البخـاري عن أبي هريـرة -رضي الله عنـه- قـال : قـال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : » أنا أولى النـاس بعيسى ابن مـريم في الـدنيا والآخـرة ، والأنبيـاء إخـوة لعلات ، أمهـاتهم شـتى ودينهم واحد « . قـال ابن حجر : ومعـنى الحـديث أن أصل دينهم واحد ، وهو التوحيد وإن اختلفت فـروع الشـرائع -[فتح البـاري 489/6]

فالكلمة الطيبة إرث موروث متصل بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- . ولكن المشـكلة أن التفريق بين الأصـول والفـروع قد لا يتهيأ لكل النـاس مما يجعل الخلط بينهما وارداً ، وحينئذ فقد يجمد ما ينبغي أن يتطور ، وقد يتطور ما ينبغي أن يثبت .

واليـوم نتيجة لعلميـات الضـغط الفكـري الـتي تمارسـها التيـارات المادية ، نجد أن كثـيراً من الكتـاب والمفكـرين الـذين لهم صـبغة إسلامية بدأوا يتزحزحون عن كثير من مـواقعهم ، مصـطحبين معهم أفكاراً أو أحكاماً عليها الإجماع ، أو السواد الأعظم من علماء المسلمين ، بل بعض الأصول التي ليست موضع نزاع .

ويحضــرني هنا ما كتبه أحد الــذين لهم نفس إســلامي عن لقائه مع القسس الـذين يعيشـون في بعض بلـدان العـالم الإسـلامي ، حيث أثنـوا على كتاباته ، وسألوه عن الوضع الـذي ينبغي أن يكونـوا عليه وهم يعيشون بين المسلمين ؟ وقد أجابهم بقوله :

أول ما نطلبه من النصـــــــراني الــــــذي يعيش بيننا أن يتمسك بنصــرانيته... ! ! وهــذا المطلب عجيب غــريب ، وهو غــني عن كل تعليق . فهل يصح لهــذا و أضــرابه أن يــدعي أنه يكمل مهمة نبيه - صلى الله عليه وسلم - في تبليغ الرسالة وهداية الخلق ؟ ! .

وقريب من هـذا الفتـاوى الـتي صـفق لها كثـيراً الـذين في قلـوبهم مرض ، من أمثال : إباحة الربا الذي تتعامل به البنـوك اليـوم ، ومن مثل : القــول بعــدم وجــود حد للــردة في الشــريعة... . الخ . وإذا استمر هـذا النهج على ما هو عليه اليـوم فسـنجد أنفسـنا أمـام دين يقبل كل إضافة كما يقبل أي حذف ، ويصبح قابلاً للتشـكيل على ما يشتهي أهل الأهواء والشهوات ، لأنه صار شـيئاً ليس بـذي طعم ولا لــون ولا رائحــة... ولكن ذلك لن يكــون -بــإذن اللــه- ما نشط أهل الحق في توضيحه والذود عن حياضه .

2 - مرونة الأساليب وتنوعها :

على مقــدار ما تكــون جــذور الكلمة الطيبة وأصــولها راســخة ثابتة تكون أساليبها مرنة نامية منوعة ، وهـذا في حد ذاته أحد مقتضـيات ثبــات الأصــول ؛ فــأحوال البشر وأفهــامهم مختلفة ، ولــذلك تعــدد الأنبيـاء -عليهم الصـلاة والسـلام- وتنـوعت شـرائعهم ، وصـدق الله العظيم إذ يقول : { ومَا أَرْسَـلْنَا مِن رَّسُـولٍ إلاَّ بِلِسَـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [إبراهيم : 14] ، فالرسول يكلم الناس بلغتهم التي يتكلمون بها على أوسع ما تحمله هــذه الكلمة من دلالات ، والهــدف هو : أن يبين لهم ما يدعو إليه ، وقد أخذ الأسـلوب القـرآني من العـرب كل مأخذٍ ، وتحداهم وطاولهم في التحدي ، وأقام عليهم الحجج الدامغة الــتي تناسب أوضــاعهم الفكرية آنــذاك . واللغة في أبسط تعاريفها هي :

مجموعة الإمكانات التعبيرية في بيئة من البيئات ، وهـذه الإمكانـات التعبيرية تتسع باتساع حضارة اللاغين بها ، واتسـاع غـنى الخلفيـات الثقافية لديهم ، وهـذه الإمكانـات دائمة التغيـير والتشـكل تمر بعين الأطوار التي يمر بها الكائن الحى من الولادة إلى المـوت وما بينهما من مراحل . ولغتنا الفصحى تنمو ضـمن أطر صـارمة ، فالفاعل لن ينمو ليصبح مجروراً ، والمضاف إليه لن ينمو ليكون مرفوعاً ، ولكن

بين تلك الأطر مساحات واسعة شاسعة تتحرك فيها اللغة على مستوى التراكيب والدلالات والأصوات ، وتلك الحركة تساير وتناغم شلالات الثقافة في الأمة في تنوعها ودرجة عنفها .

لغة العصر :

من سمات حركة التاريخ أن دور العبادة تظل كهوفاً لنوعٍ أو لأنواعٍ من العلم مهما ساءت أحوال الأمة الثقافية ، وعلى امتداد تاريخنا الإسلامي كان علماء الشرع يشكلون السواد الأعظم من الكتاب والباحثين والمفكرين ، مما جعل اللغة التي يتكلم بها الصفوة من الناس هي عين اللغة التي يتحدث بها الدعاة ، لأنهم هم الذين شكلوها ، وعلى ألسنتهم تطورت ونمت ... ولكن الزمان قد اختلف ، حيث إن اللغة التي يتكلم بها النخبة اليوم تكونت من جهد ثقافي متنوع ، فأجهزة الإعلام والجرائد والمجلات والقصص والروايات والكتب التي صنفها باحثون تنوعت ثقافاتهم مضامين وأساليب ، وبفعل وسائل الاتصالات الحديثة صار العالم بمثابة قرية صغيرة تكثفت فيها الآراء والاتجاهات والثقافات ...

وكان في هذا تحدٍ عظيم لكل من يريد مخاطبة الناس والتأثير فيهم ، إذ أن الخلفية الثقافية للمخاطبين صارت أكثر تعقيداً بسبب ثراء الساحة الثقافية وتنوعها ، مما أسفر عن وجود حواجز كثيرة ، على الكلمة أن تتجاوزها قبل الاستقرار في الذهن أو العاطفة ، كما صار التزام الدقة في أداء الكلمة شرطا أساسيا للحيلولة دون أن يساء فهمها ، كما صار اختيار العبارات المناسبة للحقيقة التي يُراد إيصالها للمخاطب أمراً ضرورياً جداً .

فإذا كانت الحقيقة التي نريد توصيلها أدبية أو حضارية فإن العبارة القادرة على اختراق الحجب هي التي تحمل في تركيبها قابلية تعدد المعاني عند مختلف الدارسين ، بحيث يكون لكل منهم فيها خطة من التفسير و التأويل ، بشرط أن يكون ذلك ضمن طاقة التركيب اللغوي الذي بين يديه . أما الحقيقة العلمية الكونية أو العقدية أو الفقهية : فينبغي أن تصاغ بعبارة غاية في الدقة لا تدع مجالاً إلا لمعنى واحد ، كما أن في تلك المعنى لا يجد دقة صياغته إلا في تلك العبارة .

فإذا لم يراع المتحدث أو الكاتب هذا أحدثت عباراته للناس فتناً ، وأوقعته في الريبة مع سلامة قصده ، وفتحت عليه من نوافذ النقد ما لا قبل له به .

من خصائص لغة العصر :

يتمخض عن تلاطم الأفكـار والثقافـات المختلفة قناعـات ومفـاهيم عند السواد الأعظم من الناس ، وهذه المفاهيم قد تكون صـحيحة ، وقد لا تكـون لأنها لا ترتكز في أكـثر الأمر على حقـائق موضـوعية بقدر ما تنبع من قـوة الفعاليـات على السـاحات الثقافية والفكرية ، وهذه القناعات تشكل مفردات التركيب الـذهني لـدى النـاس ، مما يجعل امتصاصهم للمعلومات الـتي يطلعـون عليها ذا سـمات خاصة تنسجم مع ذلك التركيب . وحينئذ فـإن الداعية مطـالب بمعرفة تلك القناعـات والمفـاهيم ، كما أنه مطـالب بتحسس الـتركيب الـذهني السـائد في عصـره حـتى يخـاطب النـاس بلسـانهم ، ومن هـذه الخصائص :

أ- اعتماد الإحصاء بدلاً عن الفلسفة :

كـانت الفلسـفة تسـمى ملكة العلـوم ، وذلك بسـبب تـأثير منهج أرسـطو في منحنيـات الفكر البشـري ومسـاراته ، وقد كـان النـاس إلى عهد قريب يسمون من أوتي فيهم مقدرة خاصة على التعبير بـــ (الفيلســوف) ، بل إن بلـــداً مثل بريطانيا مـــازال يســتخدم كلمة (فلســفة) في شــهادات التخصصــات العليا لديه . وقد تــأثر الفكر الإســلامي قـــديماً بـــالمنطق الأرسطاليسي ، وتســـربت مقولاته وأقيسته إلى كثير من كتب الأصول والفقه والعربية ، بل والعقيدة . ذلك الفكر الـــــــــــذي لا يقيم للتجربة أدنى وزن ، ومن الطرائف المتناقلة في هذا : أن أرسطو كان يزعم أن أسنان الرجل أكـثر من أسنان المـرأة ! ولو أن زوجته فتحت فمها وعـدَّ أسـنانها لعـرف أن زعمه حديث خرافة ..

وقد أدركت أوربة في أوائل عصر نهضتها ألا نهضة ولا تقدم قبل نبذ الفكر الأرسـطي القياسي ، ثم الاتجـاه إلى التجـريب لتتويجه ملكـاً على العلـوم المادية ، ومن ذلك اليـوم بـدأت قناعـات النـاس تنحو منحى لغة الـرقم لاسـتفتائها والبنـاء عليها ، وهـذه نقطة إيجابية إذا أحسـنا التعامل معها ، ولكن كثـيرين منَّا مـازالوا غـير واعين لهـذه الحقيقة ، مما يجعلهم يستمرون في سـوق الحجج العقلية مع تـوفر أرقام واقعية تدعم قوله ، وتؤيده ، فعلى سبيل المثال : فإن تقـديم نمـاذج واقعية ذات أرقـام محـددة على ما يكن أن ينتج من الأمن والرخاء نتيجة تطبيق الحدود والنظام الاقتصادي الإسـلامي - أجـدى وأنجع بكثـير من سـرد مجلـدات من العلل والحجج العقلية الـتي تشـرح فوائد الالـتزام بالإسـلام ، أو تلك الـتي توضح سـلبيات الربا وتطبيق القوانين الوضعية .

ومن المفيد هنا أن نقـــول : إن أرســـطو أنشأ فن الجـــدل ليسد الثغـرات الـتي يتركها الاسـتقراء النـاقص للأحـداث والأفكـار ؛ كما أنشئت فلسفة التاريخ فيما بعد لتسد النقص في التفاصيل التاريخية ، أما اليوم فقد أضحى الإحصاء إحدى أهم سـمات عصـرنا البـارزة ، مما يسهل استخدامه حتى نخفف من الجـدل والمماحكـات اللفظية العقيمة .

ب- رفض التعميم :

لقد تعقـدت الحيـاة وكـثرت التفاصـيل فيها إلى درجة جعلت تعميم الأحكام في أكـثر الأحيـان أمـراً بعيـداً عن الحقيقة ؛ وصـار التعميم في لغتنا في إحــدى أهم الثغــرات الــتي ينفذ منها لهــدم ما نقوله وتمييع القضايا التي نعرضها .

على أن التعميم مرفوض في المنهج الإسلامي بصــورة عامة ، ومن ثم كـثرت الآيـات في الكتـاب العزيز الـتي تـرد فيها كلمة (أكـثر) ، وكلمة (كثير) بمعنى أكثر ، كما أن في السنة ما ينسجم مع هـذا من مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - : (إن أعظم الناس فرية لرجلٌ هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها) [1] .

والمحدثون الذين يتسم عملهم بالدقة والإتقان كـانت لهم تفريقـات رائعة في أبـواب نقد الرجـال والحكم على الأحـاديث من مثل قـول مالك - رحمه الله - : » إن من شيوخي من أتــبرك بدعائه ، ولكن لا أقبل روايته « ، ومن مثل قولهم : فلان صدوق إلا أنه غير ضابط .. فالتعبير بـ (الاتجاه العام ، أو الانطباع العام ، أو الأقرب أو الأكـثر) هو الأدنى من الحق والأكثر انسجاماً مع لغة العصر .

ج - النفور من الوعظ المباشر :

عكر النسيج الثقافي القائم اليوم الرؤية عند كثـير من النـاس ، كما أفسد الكثير من الفطر السليمة ، كما أدى نمو الخصـائص ا الفردية في صـــورة مرضـــية في بعض الأحيـــان ، كما أدى إلى تضـــخيم الخصوصيات لتنسحب على كثير من شؤون الحياة العامة الــتي هي أقرب إلى العموميات ، وقد أدى ذلك كلته إلى تكوين مزاج لا يرتاح للوعظ المباشر ، وصار ينظر إليه في بعض الأحيـان على أنه خـروج عن اللباقة والآداب الاجتماعية المرعية ، أضف إلى هذا أن انخفاض نوعية الـدعاة -كما هو شـأن أكـثر الأمـة- في جـانب الالـتزام يجعل قبول الناس للموعظة أمراً غير سهل .

ومن ثم فلابد من الاعتماد على الإيحاء والتلميح وضرب الأمثال وغيرها أسلوباً للخطاب وزكانة الداعية تفتح له في كل يوم آفاقاً جديدة في هذا .

د - الاختصار :

الناس اليوم في عجلة من أمرهم ؛ حيث إن المستوى المادي الذي يطمحون إليه جعل الوقت يضيق عن الشروح الطويلة وتكرار البديهيات واستخدام المترادفات ، مما يقتضي الإيجاز - غير المخل - في إيصال الأفكار والمعلومات إليهم ، وصار الإطناب من فضول القول .

هـ - الضيق بالمبالغات :

مرت على أمتنا بعض الفترات التاريخية التي سادت فيها المحسنات البديعية ، وصار إطلاق الألقاب الفخمة يجري دون أي اعتبار أو تحاكم إلى الواقع ، ويقف المرء على هذا في مقدمات بعض الكتب ، وما يطرز به أسماء مؤلفيها من الصفات التي تبتعد عن الحقيقة قليلاً أو كثيراً ؛ لأنها لا تستند إلى قاعدة من المعلومات الصحيحة كما في قولهم :

البحر العلم المجدد جمال الدين فريد عصره ووحيد دهره الذي لم تقع العين على مثله ... وتطلق هذه الأوصاف على عشرات من العلماء الذين يعيشون في عصر واحد أو في بلد واحد في بعض الأحيان . وكانت هذه الإطلاقات مجافية لما عرف عن سلف هذه الأمة ، بل لما عرف عن منهجه - صلى الله عليه وسلم - حيث أثنى على كثير من أصحابه ، ووصفهم بصفات محددة ، فواحد أعلمهم بالقراءة ، وآخر بالقضاء ، وثالث بالصدق ، وهكذا ..

ولم تقتصر المبالغة على إطلاق الألقاب ، بل تجاوزت ذلك إلى أن أصبحت جزءا من الاعتبارات الذهنية والعلمية عند كثير من الناس ، وقد عاد الأمر إلى نصابه في لغة العصر ، وصارت المبالغة مملولة ممجوجة .

و - التجديد :

كان من خلق بني إسرائيل أنهم لا يصبرون على طعام واحد ، وقد انسحب هذا الخلق اليوم على كثير من جوانب الحياة في المسكن وترتيب أثاثه ، والملابس وأشكال تفصيلها ، والمراكب وأنواعها ، وشأنهم في القضايا المعنوية نحواً من ذلك ، فهم تواقون إلى الجديد من المعاني والأفكار والأساليب ، وصاروا يشعرون بجمود من لا يواكبهم في ذلك وقصوره ، وليس في التجديد ما يذم إذا تم

مع المحافظة على الأصول والثـوابت ، بل قد لا تتم المحافظة على الأصول إلا من خلال التجديد في الوسائل والأساليب ، حيث تعـرض بأشكال تنسجم مع روح العصر .

ز- المعالجة العملية :

تقدم العلوم على الصعد العملية شكل حس الناس ومنطقهم العـام ، في الميل إلى الواقعية والارتيـاح في الصـيغ العملية ، ونظـام الخطـوات المتتابعة ، الـتي تسـلم كل واحـدة منها إلى الأخـرى في الوصـول إلى هـدف أو حل مشـكلة ، وصـارت الحاجة ملحة إلى (كيف) ، ولم يعد طرح المبادئ كافياً وحده ، فما عـاد كافيـاً الترديد لنحو :

لابد من رفع المستوى الخلقي لدى الفرد ، أو لابد لنشر الدعوة بين الناس ، بل أنت مطـالب بـأكثر من هـذا ، مطـالب ببيـان الإمكانـات المتاحة ، ثم بيان المنهج والخطط والأدوات الـتي يمكن اسـتخدامها في الاستفادة من تلك الإمكانات ؛ وذلك لأن تعقد الأشياء وتشـابكها يحتـاج إلى نـوع مكـافئ من تعقد الفاعلية على مسـتوى الخطط والأساليب والأدوات .

ح -عدم قبول تفسير الظواهر الإنسانية بعامل واحد :

الإنسان ذو أبعاد فسيحة وأغـوار عميقة ، وكل الظـواهر الـتي تتصل به على درجة عالية من التعقيد في الأفكـار والمبـادئ والمواقف والعـادات ، وفي الاجتمـاع والاقتصـاد ... كل أولئك يتشـكل ويتبلـور نتيجة نسيج معقد من العوامل .

وإذا كان هذا هو الواقع فإن تفسير أية ظاهرة إنسـانية وتعليلها بعلة مفـردة غـير صـحيح ولا دقيق ؟ فلا يمكن أن يقـال مثلاً إن الشـعب الأفغـاني صـمد في وجه المحتلين بسـبب إيمانه أو بسـبب صـعوبة تضاريس أرضه من جبال وكهوف ، أو بسـبب رصـيد الفطـرة لديه ، أو بسبب العون الخارجي ..

إنه لم ينفرد سبب واحد من هذه الأسباب بـولادة ظـاهرة الصـمود ، بل إنها جميعـاً مع أسـباب أخـرى أسـهمت في إيجـاد وضع متمـيز يستمد تميزه من خصوصية شروطه وأسبابه . وهكذا ...

كيف نمتلك لغة العصر ؟

في العـالم اليـوم ما يسـمى بثـورة المعلومـات مما يفـرض على المثقف المسلم أن يرسم لنفسه خطة تثقيفية خاصة تناسب رغباته واختصاصه العلمي ، والمهمة الـتي نـدب نفسه لها . والمشـكلة الكـبرى في عـزوف كثـير من النـاس عن القـراءة فأمة (اقـرأ) ما

عادت تقرأ مما خلق نوعاً من الخلخلة الثقافية في ساحتنا الفكرية ، وجعل كثيراً من أهل الخير عاجزين عن فهم لغة العصر ، وإذا عزم المرء على القراءة فلابد له من القراءة الواسعة في شتى أنواع المطبوعات ، وعليه أن يقرأ لكل المدارس حتى لا يقع فريسة للانغلاق الفكري أو ضحية للأفكار الفقيرة التي تظهر في أساليب شتى .

ولابد لمن يريد أن يسير في طريق الانفتاح الثقافي من ثقافة شرعية أساسية يتمكن بها من تحديد الثوابت التي أكبر فضائلها دوامها واستقرارها ، حتى لا ينجرف مع نتاج المدارس والتيارات التي يقرأ لها .

كما لابد له من محاولة امتلاك منهج في التفكير يستند إلى وعي صحيح بأحداث الماضي ، ووعي جيد لظروف الحاضر ، حتى يتمكن من امتلاك رؤية واضحة لكيفية عمل سنن الله في الأنفس والآفاق . إن الذي يملك شذرات من المعلومات كمن يملك قطعاً من الذهب ، أما الذي يملك منهجاً ذا نماذج خاصة ، فإنه يمتلك مفتاح منجم من الذهب ، فإذا حصل على هذا وذاك فإن الانفتاح في الاطلاع يكون خيراً كله ، وحينئذ يتجاوز الداعية مرحلة السيطرة على اللغة ليصبح من موجديها ومؤهليها ، ولكن لابد قبل الانهماك في القراءة من اختيار ما نقرأ ، فلنقرأ للعباقرة ، ولأولئك الذين يقدرون مسؤولية الكلمة ، والذين لا يدفعون بكتابهم إلى المطبعة إلا بعد الاعتقاد بأنه يشكل إضافة جديدة للفكر الإنساني .

3 - دوام نفعها :

إن الشجرة الطيبة التي ضربها الله تعالى مثلاً للكلمة الطيبة دائمة الثمار ، وديمومة عطائها نابعة من تناسق الصفتين السابقتين : ثبات الجذور ، وبسوق فروعها في جو السماء ، والكلمة التي لا جذور لها لا تستطيع أن تصنع شيئاً .

والأفكار التي تبثها قصيرة العمر كزهور الربيع ؛ والكلمة التي لا تنسجم مع لغة العصر لا تستطيع ملامسة أعماق الإنسان الذي تقرع سمعه ، والذي وصفناه بأنه بالغ التعقيد . وقد ملكتنا هذه الآيات الكريمة المقياس الذي نتعرف به على الكلمة الطيبة ، وهذا المقياس هو :] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ [، فنحن إذا أردنا من هذا المنظور أن نقيس أداء خطب الجمعة في عالمنا الإسلامي وآثارها في ترقية فهم الناس للإسلام والتزامهم به وجدنا أن أطناناً من

الـورق تكتب أسـبوعياً دون أن تـؤتي الثمـار الـتي تتناسب مع حجم ذلك الجهد المبذول ، ونعني به خطأ الأسلوب .
إن مهمة المسـلم أن يعيش عصـره ويكـون مـؤثراً لا متـأثراً ، وأن يكون له دور في صياغة لغة العصر .
----
(1) أخرجه ابن ماجه والبيهقي قال الهيثمي : رجاله ثقـات وإسـناده صحيح .
=================
{ فاعتبروا يا أولي الأبصار}
هــذه آية جليلة الشـأن في الكتـاب العزيز سـرت مسـرى المثل ، وذاعت على الألسـنة والأقلام ؛ لأنها تعــني وجــوب الاسـتفادة من تـراكم الخـبرات البشـرية ، وأخذ العظة والعـبرة من أحـوال الأمم السابقة ، والمعاصرة ، وتوفيراً للجهد ، واختصاراً للطريق ، وفـراراً من عذاب الله تعالى ...
وقد قص الله تعالى علينا في سـورة الحشر قصة جلاء بـني النضـير من المدينة إلى خيـبر والشـام مبينـاً وقـوع ما ليس في الحسـبان ، فقال تبـاركت أسـماؤه : { هُـوَ الَـذِي أَخْـرَجَ الَـذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْـلِ الكِتَـابِ مِن دِيَـارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْـرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُـوا وظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِـبُوا وقَـذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وأَيْدِي المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ } [الحشر : 2] .
لقد كـان خـروج بـني النضـير في تلك الصـورة المهينة الذليلة حـدثاً بعيداً عن أذهان بني النضير وأذهان المسلمين لأن الأسـباب المادية الـتي أخذ بها القـوم كـانت على درجة من الإتقـان والإحكـام تحـول دون تصور ما وقع ..
ولكن العزيز الجبار الذي لا رادَّ لأمره ، ولا معقب لحكمه أتــاهم من حيث لم يحتسبوا أتـاهم من الـداخل ، فـألقى في قلـوبهم الـرعب ، فخارت عزائمهم ، وأدركوا أن قوتهم ما عادت تغني عنهم شيئاً .
وما أشبه الليلة بالبارحة ! !
فهذه هي النظرية الشيوعية تنهـار اليـوم في أسـرع مما كـان يـدور في خلد البشر ، وهذه هي مئات الألوف من الكتب والمجلدات التي سـطرت في فلسـفة النظرية وترويجها وتكـييف البشر معها تغـدو رمــاداً تسـفوه ريــاح التغيــير العاتية في وجــوه السـدنة والكهنة والمرتزقة والأذناب وأشباه الأذناب ..

لقد كان سقوط النظرية الشيوعية أمراً لا مفر منه ، ولكن المـذهل هو انهيـار البنـاء الـذي أنفق فيه ثلاثة أربـاع القـرن من الـزمن مع ملايين الأنفس وما لا يحصى من الآلام والعذابات وصـنوف المعانـاة الإنسانية في أسرع من لمح البصر .
قد كـانت أفكـار (كـارل مـاركس) رد فعل لحرمـان طويل ومعانـاة شخصـــية قاســية . والنــاموس العــام لــردود الأفعــال البعد عن الموضوعية وفقدان الاتـزان . وقد قبل أفكـار (كـارل مـاركس) في البداية صنفان من البشر :
صنف طحنه الظلم والحرمـان ، وتقلب دهـراً في التعاسة ، وطـرق كل باب للخروج من نفق الظلمات الذي ولد فيه فـإذا بنظرية تعـده بجنة على الأرض تنسيه طعم كل ما مضى من العنـاء والبلاء ، فهبَّ إلى اعتناقها والترويج لها على أنها الحل الأخير والمخرج الوحيد .
والصــنف الآخر - وهم الكــثرة من الأشــياع - وجد في الســلطات المطلقة التي تركزها النظرية في قبضة الحـزب الشـيوعي والدولة الماركســية ما يلــبي من خلاله كل طموحاته الشخصـية من الجــاه والمال والتسلط ، وما يتفرع عن ذلك من شهوات
وملذات ومصالح ..
ولم يمض وقت طويل حتى أدرك الذين كانوا يحلمون بالفردوس أن الخبر غير الخبر وأن المحصول غير المأمول ..
ولكن إدراك الشعوب كثيراً ما يأتي متأخراً بعد فوات الأوان ..
فقد ركزت الحكومات البلشفية المتعاقبة على صـناعة السـلاح دون بـاقي الصـناعات حـتى تتمكن من كسر شـوكة أي معارضة محتملة للثورة على حين أنها لم توفر لشعوبها أحذية جيدة تنتعلها ..
وجمعت إلى ذلك تجنيد عشـرات الألـوف من المخـبرين السـريين الذين يحصون أنفاس الشعوب ويعدون نبضات قلوبهم .
ولجـأت الشـعوب إلى سـلاحها الماضي وحيلتها الأخـيرة ، فشـرعت في المقاومة الســـــلبية ، وأدارت ظهرها لخطط التنمية المتعاقبة التي كانت تضعها الحكومـات الشـيوعية . ومن البـدهي أن الحكومة تخطط وأن الشعب ينفذ فـإذا لم ينفذ الشـعب كـانت الخطط حـبراً على ورق أو صرخة في واد ، وهـذا ما جـرى لقد كـان كل عـام يمر يعنى مزيداً من الفروق المعيشـية والحضـارية بين أتبـاع الشـيوعية وأتبــاع الرأســمالية ، وحين انهــار جــدار (بــرلين) أدرك الألمــان الشرقيون - الـذين كـانوا يُـدلُّون بأنفسـهم على أشـياعهم من أبنـاء أوربا الشرقية- الفجوة الضخمة التي تفصلهم عق الألمان الغربيين ،

فالـدخل عند الغربـيين عشـرة أضـعاف الـدخل عند الشـرقيين ، والهواتف عشـرة أضـعاف وأعـداد السـيارات مضـاعفة وهكـذا على هذه اللازمة ..
وفى اعتقادي أن الأحـزاب الشـيوعية انهـارت بهـذه الصـورة ؛ لأنها عجـزت عن بنـاء حضـارة مناسـبة للعصر تغـني شـعوبها عن تكفف الآخرين وتوجد الثقة بالأسس النظرية الـتي قـامت عليها ، وأسـباب أخرى من هذا القبيل لا نقصد هنا إلى تعدادها .
هل من معتبر ؟
كانت الأحزاب الشـيوعية والحكومـات التابعة لها بحاجة إلى نـوعين من المراجعة :
الأول : مراجعة أصـول النظرية وقواعـدها الأساسـية والـتي أثبتت السنين أنها خيالية ومتناقضة .
الثـاني : قيـاس آراء النظرية من خلال الواقع الـذي أفرزته التجربة الطويلة ، لمعرفة مكـــــامن الخلل ومواضع الــــــداء في النظرية والتطـبيق . ومع أن (برجـنيف) كـان يقـول : إذا لم نسـتطع كشف الأخطـاء قتلتنا ، فـإن سـدنة الأحـزاب الشـيوعية بـدءاً بقائل هـذه الحكمة لم يســتطيعوا الكشف عن أي خطأ ذي شـــأن فضـــلاً عن القـدرة على الإصـلاح . وكـان الشـغل الشـاغل هو التـبرير والـدفاع والثناء بالجملة على الوضع القائم .
وفى عالمنا الإسـلامي اليـوم الكثـير الكثـير من الأخطـاء وأصـناف القصور على المستويات كافة . ووجـود الأخطـاء أمر طـبيعي ؛ ذلك لأن حركة الـزمن تـدع الكثـير من الجديد باليـاً ، وتـوجب اسـتمرار الاجتهاد والتكييف بين المبدأ والمصلحة ، وبين الوسـائل والغايـات ، وبين الأسـاليب والأهـداف . وخلال عمليـات التكـييف هـذه تحصل مفارقات تحسب للأمة تارة وعليها تارة أخر ى .
والأمة الحية اليقظة لا تكف أبداً عن عمليات المراجعة وقيـاس أداء المنــاهج والأســاليب والأصــول ، كما لا تمل من بحث المعوقــات وطرح الحلول لها .
وإذا كان الآخرون يحتاجون إلى نوعين من المراجعة فإننا بحمد الله نســير في طريق لاحبة رســمها الأصــفياء الأولــون من رسل الله وأوليائه ، ومن ثم فإننا بحاجة إلى نــــوع واحد منها ، وهو التأكد من موافقة خطانا لروح الشريعة الغراء ونصوصها ومدى توفر الشروط النفسية والاجتماعية الـتي يجب توفرها في حيـاة خـير أمة أخـرجت للناس .

وتتشخص هذه المراجعة في المفردات التالية :
1 - امتلاك الشجاعة الكافية للاعتراف بالأخطاء وأنواع التقصـير في مسيرتنا الحياتية .
2 - التفريق الدقيق بين الأمراض وأعراضـها حـتى لا نعـالج مظـاهر المرض وأعراضه ونترك حقيقته ، فيكون العلاج مؤقتاً .
3- البحث في البنى التحتية لتلك الأخطاء للوقوف على عللها الأولى وأسـبابها الحقيقية اهتـداء بقوله تعـالى : { قُـلْ سِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ } [العنكبوت : 20]
4- التغيــــير في برامجنا وأســـاليبنا بما يتناسب مع نتـــائج تلك المراجعات .
5- وضع صـمام الأمـان الـذي يحـول دون تكـرار الوقـوع في تلك الأخطاء .
6- غـــرس روح تحمل المســؤولية في أفـــراد الأمة والتربية على الشـجاعة الأدبية الباعثة على محاصـرة الخطأ والنقد البنـاء ، وتنمية روح المبادرة الفردية لديهم .
وإذا فعلنا هذا فإنا نكون قد ضمنّا اسـتمرار الثقة بأصـولنا الاعتقادية والفكرية ، وأوينا إلى ركن شـــديد يعصـــمنا من الأعاصـــير العاتية والانهيارات المدمرة .
وليس هذا على وارثة تـراث الأنبيـاء والمكلفة بتبليغ الكلمة الأخـيرة بعزيز .
ولله الأمر من قبل ومن بعد .
==================
{ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ }
يشكل انهيار العلاقات الاجتماعية إحدى أهم المشكلات الـتي تعـانى منها المجتمعـــــات الحديثة حيث نما الشـــــعور بالفردية والتوحد ، وحُكمت المصالح الخاصة في كثـير من شـئون الحيـاة ، وقد أصـاب أمة الإسلام شيء من ذلك ، فاضـمحلت ضـوابط التربية الاجتماعية التي تشكل الحس الجماعي لدى الفرد المسلم مما أشـاع الفوضى الفكرية والاجتماعية ، وضـخم مشـاكل المسـلمين الاقتصـادية لأن عمليـــــــات التنمية لا تتم على ما ينبغي في مجتمع واهي الروابط مختلف الأفكار والمفاهيم .
ومن هنا شـــددت تعـــاليم الإســـلام على ضـــرورة المحافظة على العلاقات الاجتماعية وإقامتها باسـتمرار على هـدي الرسـالة الخاتمة التي تعد استمراراً لدعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وتحقيقاً لـذلك التواصل قصَّ الله تعـالى علينا أخبـار الأمم السـابقة والعواقب الوخيمة الـتي انتهـوا إليها حين شـاعت فيهم الانحرافـات والمخالفــات دون أن يرفع أحد منهم رأســاً أو يقــول كلمة لأولئك الذين يستعجلون أيـام الله لأنفسـهم ولأممهم فقـال تعـالى : { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَـدُونَ ، كَـانُوا لاَ يَتَنَـاهَوْنَ عَن مُّنكَـرٍ فَعَلُـوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [المائدة : 78-79] .

فقد أجرم القوم مرتين : مرة حين وقعـوا في الآثـام ، وأخـرى حين تركوا المعاصي تشيع فيهم دون أن تسود فيهم روح التناهي عنها .

وقد جاء في الحديث ما يفسر تـدرجهم نحو الحـال الـتي اسـتوجبت لهم اللعن ، فقد روى ابن مسعود عن رسـول الله -صـلى الله عليه وسـلم- أنه قـال : » إن أول ما دخل النقص على بـني إسـرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هـذا اتق الله ودع ما تصـنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقـــــــاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكـون أكيله وشـريبه وقعيـده ، فلما فعلـوا ذلك ضـرب الله قلـوب بعضهم ببعض ثم قال : { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. } « [1]

لقد طـال العهد بصـالحي بـني إسـرائيل فبـدأت المنـاكر تزحف إلى حيـاتهم عن طريق أهل الأهـواء والشـهوات ، وكـان فيهم صـالحون فقاموا ونهوا أصحاب المعاصي ووعظـوهم ولكن هـؤلاء تأصل فيهم المنكر وصـار الـنزوع عنه أمـراً عسـيراً ، وكـان الأمر يتطلب من صـالحيهم جلـداً وصـبراً ومفاصـلة إلا أن درجة التـوتر الحيـوي عند أولئك الصـالحين لم تكن كافية بحيث يشـعرون بـالتميز ويشـكلون تياراً نشطاً يحاصر أولئك العصاة ويشعرهم بالشذوذ والإثم ...

وكـانت المرحلة التالية سـيطرة شـعور العجز والضـعف على أولئك الصـــالحين مما جعلهم يخــــالطون أهل المعاصي ويرضـــون عن أعمالهم أو يظهر للناظر أنهم كـذلك فضـاعت معـالم الحق وجـاءت أجيـال تالية فنشـأت في الانحـراف وشـبت فيه وصـار التفريق بين المعروف والمنكر أمراً غير متيسر لكل الناس .

وكانت العاقبة أن ضرب الله قلـوبهم بعضـهاً ببعض ، وهـذه العبـارة في الحديث النبوي ترمز إلى حالة من الفوضى المصحوبة بالعــذاب حيث فقـدت تجمعـاتهم الشـروط الضـرورية لبقـائهم واسـتمرارهم المادي والمعنوي فكانت أيام الله في خاتمة المطاف جزاء ما فعلوا .

إن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والرقي لا يستغنى عن شريحة فيه تتمثل فيها المثل العليا لـــذلك المجتمع تحفظ عليه وجـــوده المعنـــوي المتمثل في عقيدته وأخلاقه وضـــوابط علاقاته وهـــؤلاء يمثلون الخيرية في ذلك المجتمع كما قال عليه الصلاة والسلام : » ما من نــبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كــان له في أمته حواريـــون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بـأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ... « [رواه مسلم] .

إن هؤلاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر يملكون من التـوهج في أرواحهم والحيوية في نفوســـهم ما يجعل همَّ مجتمعهم همهم الأكــــبر ، فيســـعد بهم ذلك المجتمع إذ يحفظـــون عليه توازنه واستقامته وشروط استمراره ، وكما لا يشترط لصحة المجتمع جسمياً وبيئياً أن يكون كل أفراده من الأطباء كـذلك لا يشترط في المجتمع المسلم أن يكـون كل أفـراده من الـدعاة الناصحين ولكن ينبغي أن تتوفر نسبة كافية في المجتمع مسموعة الصـوت واضحة التأثير تملأ الفـراغ الثقـافي وتملك من الوسـائل المـؤثرة ما يسـمح باستمرار وضـوح جـادة الحق والخـير والصـواب ويسـمح باسـتمرار سنة المدافعة بين الحق والباطل على وجه مكافىء وهـذا ما يشـير إليه قوله عز اسمه : { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ } [آل عمران : 104] .

وقد جـرت سـنة الله في الابتلاء أن تلقى هـذه الفئة الطيبة الخـيرة المُحَارَبة دائمـــاً وتلقى الأذية والعنت وما ذلك إلا لأنها تســـير في الاتجاه المضاد لأهل الشهوات والأهواء الذين يمكن أن نسميهم بــ (المختزلة) حيث يكثفون هموم البشرية كلها في هم واحد هو همهم ، ويتجـاوزون رغبـات الخلق ومصـالحهم مهما عظمت إلى رغبـاتهم ومصالحهم هم ، وعلى كل حال فـإن الـذي يظن أنه باستطاعته أن يسـير في دروب الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام مقومـاً للمعـوج ومحارباً للأهواء والشهوات وناصراً للمظلوم ثم لا يلحقه شـيء مما لحق بهم فهو واهم في ذلك وإلى هـذا أشـار لقمـان وهو يعظ ابنه حين قال : { يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُـرْ بِـالْمَعْرُوفِ وَانْـهَ عَنِ المُنكَـرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ } [لقمان : 17] فقد أشعر ابنه بما يلحقه من الأذية إذا هو قـام بـواجب الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر .

ولكن نظـراً للأخطـار الـتي تهـدد الأمة بخلوِّها من هـذه الشـريحة المباركة الـتي تعد قلبها النـابض وبصـيرتها النافـذة فـإن الله تعـالى قرن محاربة هذه الفئة بالكفر به وقتل رسله حيث قال جلَّ وعلا :] إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُـرُونَ بِآيَـاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُـونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْـرِ حَـقٍّ وَيَقْتُلُـونَ الَّذِينَ يَـأْمُرُونَ بِالْقِسْـطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّـرْهُم بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ [[آل عمران : 21-22] .

واليوم والأمة تسعى جاهـدة إلى الخـروج من نفق الظلمـات نافضة عنها غبـــار الضـــعف والفرقة والتبعية والتخلف ؛ تكـــثر المشـــاريع الحضارية المطروحة في البلاد الإسلامية من قبل أهل العلم والفكر ، كما يكـثر الضـرب في الأرض لدراسة التجـارب الحضـارية الحديثة والمعاصرة للأمم الأخرى ، والنتيجة الملموسة إلى هذه الساعة من وراء كل ذلك ســـلبية والســـبب في ذلك - والله أعلم - أننا نـــأتي الـبيوت من غـير أبوابها ذلك لأن التخلف المـادي الـذي يعـاني منه المسلمون ليس هو المرض ولكنه من أعراض المــرض ، والمعالجة الصـحيحة تكــون بتفحص المــرض وأســبابه وجــذوره فــإذا عالجنا المرض ذهبت كل أعراضه ، أما المرض فهو كـامن في الخلل الـذي أصاب رؤية المسلمين للدنيا والآخرة ، والخلل الذي أصـاب أخلاقهم ومقاصدهم وعلاقاتهم ببعضهم بعضـاً ، مما تـرتب عليه مفاسد جمة قعدت بالسواد الأعجم من المسلمين عن أن يكونـوا لَبِنَـاتٍ صـالحة في أي بناء حضاري فـذٍ متمـيزٍ ، وغـاب عنا روح الفريق حين التفت كلٌّ إلى مصلحته الخاصة ضـارباً عـرض الحائط بكل شـيء وراءها . ولابد من وقفة متأنية عند هـــذه النقطة نظـــراً لخطورتها وكـــثرة المشكلات الناشئة عنها .

إن كثـيراً من مجتمعـات المسـلمين اليـوم لا يتـوفر فيه ما يجعله صـــالحاً لإطلاق اسم (مجتمـــع) عليه لأن التفلت من الواجبـــات الشـرعية والوقـوع في المحظـورات - والـتي في مجملها تشـكل الحس الجمـاعي عند المسـلمين- يجعل صـفة الفردية طاغية على هـذه التجمعـات وإن بـدت حسب الظـاهر في صـورة مجتمعـات منظمة متحدة ..

إن المجتمع - كما يقول مالك بن نـبي - الـذي يعمل فيه كل فـرد ما يحلو له ليس مجتمعــاً ولكنه إما مجتمع في بداية تكونه وإما مجتمع بدأ حركة الانسحاب من التاريخ فهو بقية مجتمع .

واليهود حين أرادوا تدمير المجتمعات الغربية خططوا لتضخيم جانب الفردية على حساب الحس الجماعي حتى كثرت القضايا التي يعدها العرف هناك خصوصيات تخضع بمزاج الفرد ومصلحته ، وكانت النتيجة التي انتهوا إليها تفكك تلك المجتمعات على نحو مخيف ذهب بأمن الحياة وروائها وسيعصف بكل الجهود العزيزة التي بذلت في بناء الحضارة الحديثة في يوم من الأيام .
وقد انتقلت هذه العدوى إلى بلاد المسلمين فصار كثير من المسلمين غير مستعد لقبول نصيحة من أحد بحجة أن ما يلاحظ عليه يعود إلى خصوصياته التي لا تقبل أي نوع من التدخل . وهذا الصنف من الناس - وهو يمثل اليوم في المسلمين الأكثرية - على غير دراية بفلسفة هذا الدين في إقامة المجتمعات وإنشاء الحضارات مما يجعل رؤيتهم للحياة كثوب ضم سبعين رقعة مختلفة الأشكال والألوان .
وبإمكان المسلم من خلال نظرة سريعة في بعض النصوص أن يتعرف وجهة الشريعة في هذا ، وإليك حديث السفينة الذي وضع النقاط على الحروف في هذه المسألة بصورة مدهشة ، فقد روى النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : » مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم . فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن اخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً « [رواه البخاري] .
إن هذه السفينة تمثل المجتمع الإسلامي الذي توحدت عقائده وتوحد اتجاه سيره وتوحدت غاياته والمخاطر والتحديات التي تواجهه ، وإن القائم في حدود الله تعالى هو تلك الفئة الصالحة الملتزمة بشرع الله الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر ، وإن الواقعين فيها هم أولئك الذين ينتهكون حرمات الله من ترك الواجبات والوقوع في المحرمات ، والحديث يقرر أن ما يتوهمه بعض الناس من خصوصياته ليس كذلك كما أن الذين احتلوا أسفل السفينة كانوا واهمين قي ظنهم أن لهم الحرية الكاملة في التصرف في أرض السفينة .
وذلك لأن تصرفهم فيها بخرقها يمس مصالح الذين فوقهم بل مصائرهم .

ولنضـرب لما يتوهمه بعض النـاس من خصوصـياتهم مثلاً من حياتنا المعاشة حيث وقع في خلد كثير من النـاس أن الصـلاة عبـادة بدنية تعـــبر عن صـــلة خاصة بين العبد وربه ، وأن المقصر في أدائها لا يــؤذي جــاراً ولا ينتهك لمجتمعه حرمة ، وبــذا تكــون الصــلاة من المسائل الخاصة بالمرء ، يؤديها كلما حلا له ذلك ، ويتركها كلما عنَّ له ذلك ، ومن ثَمَّ فإن مساءلة الناس له عنها يعد ضرباً من الفضول الـــذي ينفر منه ذوق الإنســـان المعاصر ذي الإحســـاس المرهف والرسوم الاجتماعية الدقيقة .

ولكن الأمر في نظر الشريعة الغـراء ليس كـذلك إذ إن فقهـاء الأمة مجمعون على أن الصلاة ليست من خصوصيات الإنسان الـتي يقف المجتمع المسلم تجاه تاركها صامتاً غير مبال ولا مؤاخذ ، لذلك رأى بعض الفقهاء أن تاركها (كسلاً) مقراً بفرضيتها يقتل كفراً ، وبعضهم قال يقتل حداً ، وبعضهم ذهب إلى أنه يسـجن إلى أن يصـلي ، وهم في هذا يصدرون عن فهم صحيح لطبيعة عمل هذا الدين في تسيير دفة الحيـــاة الاجتماعية ، لأن المعصـــية حين تشـــيع في النـــاس يستوجبون نزول العقوبة وذهاب الـريح ، ولا تشـيع الفاحشة إلا حين يغض المجتمع الطرف عنها وطالما أجهض الجهد الإنسـاني الضـخم في إعمـار الأرض بسـبب التقصـير في جـانب العبودية لله تبـارك وتعــالى وشـــواهد الماضي والحاضر ناطقة بـــذلك ، وكيف لا والله تعـالى يقـول : { وَاتَّقُـوا فِتْنَـةً لاَّ تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنكُمْ خَاصَّـةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ } [الأنفال / 50] . وكيف لا والرسول -صــلى الله عليه وســلم- يقــول مجيبــاً لمن ســأله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ : » نعم إذا كثر الخبث « [أخرجه الشيخان] .

نعم إن الأمن حين يضـــطرب حبله لا يضـــطرب على الطـــالحين وحدهم ، وإن الأسعار حين تغلو لتفوق طاقة الناس لا ترتفع بالنسبة للطـالحين فقط ، وإن العـدو حين يسـتبيح الحمى لا يسـتثنى أحـداً وهكذا ...

وإذا كـان أصـحاب الأهـواء والشـهوات لا يبصـرون أكـثر من مواقع أقـــدامهم ولا يعبـــأون بحاضر ولا مســـتقبل فـــإن على المجتمع أن يتحمل المسؤولية تجاه حاضره ومستقبله وآخرته .

----

(1) أخرجه الترمذي وحسنه .

=================

{ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ }

هـذه آية عظيمة القـدر في كتـاب الله - عز وجل -حيث إنها تسـهم إسهاماً كبيراً في تشكيل رؤية المسلم إلى أشـياء كثـيرة في عـالم الأحياء وترتب على عدم الاهتداء بهدي هذه الآية كثير من الخلل في حياتنا المعاصرة .

وما اخترناه ليكون عنوانا لهذه المقالة جزء من آية هي قول شـعيب عليه السلام لقومه] يَا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إلَـهٍ غَيْـرُهُ قَـدْ جَـاءَتْكُم بَيِّنَـةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَـأَوْفُوا الكَيْـلَ والْمِـيزَانَ ولا تَبْخَسُـوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [[الأعراف : 85] .

وسياق الآية وإن كان يدل في ظاهره على أن المقصـود المباشر بـ (أشياءهم) هنا ما يتبادله الناس في معاملات هم من المتـاع ، إلا أن ما يملكه النــاس ويتمتعــون به من أخلاق وأفكــار وتــاريخ ... أولى بإقامة العدل وإنزاله في منازله من غير وكس ولا بخس ولا شـطط لما يـترتب على الإخلال بـذلك من الحقد والقطيعة والفرقة وذهـاب الريح ...

ولما كانت أصول دعوات الأنبياء - عليهم السلام - واحدة فـإن الأمر بإقامة الموازين والحكم بالعدل والإنصاف ظل الوصية الخالدة التي يوجهها كل نبي إلى قومه ؛ لأنه بالعدل قامت السماوات والأرض ...

وقد أوصى الله تعـالى رسـوله محمـداً -صـلى الله عليه وسـلم- أن يعلن لأمته أمر الله له بإقامة العدل فيها ، فقـال :] وقُـلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ [[الشورى : 15] .

وأوصى المؤمنين بإقامة العدل مع الناس كافة حـتى الأعـداء الـذين يبغضونهم ويحـاربونهم ، فقـال تعـالى :] يَا أَيُّهَا الَـذِينَ آمَنُـوا كُونُـوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْـوَى واتَّقُـوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَا تَعْمَلُـونَ [[المائدة : 8] .

وقد كان -صلى الله عليه وسلم- يقوم لله بالشهادة فيعطي كل ذي حق حقه ، وفي سـيرته العطـرة مئـات الشـواهد الـتي تفيد التزامه المطلق بإنزال النـاس منـازلهم ، وذكر محاسـنهم ومـيزاتهم ، مهما كان انتماؤهم وحيث كان مـوقعهم فهـذا هو يقـول : » أصـدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل « .

مع أن لبيد وقتها كان كافراً [1]، وكان بإمكانه عليه الصلاة والسلام أن يثني على شعر بعض أصحابه المملوء حكمة وهـدى بـدافع حصر

الخير فيهم ، ولكن الالتزام بالحق والإنصـاف وعـدم بخس أحد حقه يأبى ذلك فأثنى على كلام رجل كافر .
ومن الجدير بالذكر هنا أن عثمـان بن مظعـون رضي الله عنه سـمع لبيداً ينشد البيت فلما قال :
ألا كل شيء ماخلا الله باطل
قال له عثمان : صدقت ، فلما قال :
وكل نعيم لا محالة زائل
قال له عثمان : كذبت نعيم الجنة ليس بزائل .
وإن المــرء ليعجب لهـذا الإنصـاف أيضـاً من عثمــان المقتبس من مدرسة النبــوة حيث أثــنى في النصف الأول على لبيد ، ويكذبه في النصف الثاني ! ! .
وجاء المسـلمون بسـفانة بنت حـاتم الطـائي في السـبي ، فـذكرت لرسول -صلى الله عليه وسلم- من أخلاق أبيها ونبله فقال لها :
» يا جارية هذه صـفة المؤمـنين حقـاً لو كـان أبـوك مؤمنـاً لترحمنا عليه ، خلـوا عنها فـإن أباها كـان يحب مكـارم الأخلاق والله تعـالى يحب مكارم الأخلاق « [2]
لقد وقف رسـول الله -صـلى الله عليه وسـلم- من حـاتم الموقف الذي تمليه شريعته الغراء الـتي جـاء بها فـأثنى عليه وأطلق سـراح ابنته وأكرمها ولكنه لم يـترحم عليه لعـدم إيمانه لتهتـدي الأمة بهـذا الهدي النبوي العظيم ! ! .
ونبه -صـلى الله عليه وسـلم- النسـاء على ما يجـري على ألسـنتهن من انتقــاص أزواجهن وجحد معــروفهم عند أدنى خلاف فقــال : » أريتُ النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن ، قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط « [3] .
وإن هذا الحـديث يـبرز قضـية العـدل إبـرازاً يقل نظـيره حيث جعل عليه الصلاة والسلام جحـوده سـبباً كبـيراً لكـثرة وجـود النسـاء في النار ، وكأن كفران العشير يحـدث في الحيـاة الزوجية من الشـروخ والندوب ما يوازي الجرائم الاجتماعية الكبرى .
وعلى هـذا المنـوال نسج الصـحب الكـرام رضـوان الله عليهم حين إصدار الأحكام على الخصوم فضلاً عن الإخـوة والرفـاق ، فقد قاتل علي رضي الله عنه الخوارج وقاتلوه ثم قتلوه ، ولما سـئل من قبل بعض الناس عنهم أمشركون هم ؟ قال : من الشرك فروا ، فقــالوا : أفمنــافقون ؟ قــال : إن المنــافقين لا يــذكرون الله إلا قليلاً - أي

هؤلاء يذكرون الله كثيراً - قيل : فما هم يا أمـير ألمؤمـنين ؟ قـال : إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا ! ! [4] .
فهل بعض إنصاف أبي الحسن من إنصـاف ؟ وهل هنالك كلام يقوله شاهر سيف أرق من هذا الكلام ؟ ! .
وظل روح العدل والإنصاف سـارياً في الأمة قرونـاً عديـدة ، وتجلى ذلك بشــكل واضح جـداً في القواعد الــتي صــاغها المحــدثون في الجرح والتعديل حيث وضحوا الجوانب المختلفة لشخصـية الـراوي ، وحكموا على كل زاوية على حـدة ، ثم انتهـوا إلى حكم عـام حوله ، وصـار عنـدهم من الظـواهر المألوفة أن يطلب أحـدهم الـدعاء من رجل فإذا جاءه حـديث عن طريقه حكم على الحـديث بالضـعف لأن طلب الــدعاء مبــني على اعتقــاد الصــلاح ، أما قبوله روايته فيعتمد على شيء آخر كضبط الراوي وعلمه ونباهته ، وغير ذلك ...
ولكن تــــراجعت هــــذه الرؤية الموضـــوعية الفـــذة فيما تراجع من الجــوانب المختلفة من حيـاة المسـلمين وصـار المنصـفون الـذين يجردون الشهادة لله ، ويضـعون الأمـور في مواضـعها دون بخس أو تزيد من القلة الذين يشار إليهم بالبنان ، ولنذكر بعض النماذج الــتي ضربت بجذورها في حياة المسلمين اليوم ، وصارت تشكّل ظــاهرة مرضــية مزمنة ، وذلك نتيجة التطفيف في المكاييل وبخس النــاس أشياءهم :
1- يقوم شاعر ماجن أو ملحد بنظم قصيدة عصـماء تتـوفر فيها كل العناصر الفنية المجمع عليها ، فيتصـــدى لنقـــده بعض أهل الخـــير ، فيسقطه ويشنع عليه غاضاً الطرف عن كل إبداعه الفني ، وما ذاك إلا لأن اتجاه ذلك الشاعر لا يروقه فاتخذ منه موقفاً ثابتـاً ، حـتى لو كان مضمون تلك القصيدة لا يمس أصولنا الاعتقادية ، ولا مسـلماتنا المذهبية .
والواجب في مثل هذا أن يثـنى على جـوانب الإبـداع في القصـيدة ، وينتقد المضمون إن كان فاسداً نقداً أصولياً هادئاً عفيفاً .
ومن الـواجب كـذلك أن يفـرق بين إنتـاج الرجل الواحد فيثـنى على الصالح منه وينتقد ما فيه دخن ، يقدم أحد الكتاب أو الشعراء خدمة جلى للمسلمين في كتاب أو قصيدة ويتعثر في كتاب أو كتب أخـرى فيعطى حقه في كل منها دون بخس أو شـطط ، وحين يكـون النقد أو الخلاف في وجهات النظر على هذا المنهاج يكون إمكان الإصـلاح أقوى ، ونكون أقرب من الصواب ، وأقرب للتقوى .

والرؤية التي يشكلها الإسلام لدى المسلم السـوي في مثل هـذا أن يشجع الأعمال الإيجابية ، ويثني عليها ، ويكون عوناً فيها ، فـإذا رأى خللا نبه عليه ، وحذر منه وقام بـالبلاغ المـبين ، ولو جـرى مثل هـذا في المجتمع لساد الانطباع بالإنصاف لدى الفـريقين ومَن بينهما من الناس ولأدى ذلك إلى تفتيت كتل المتشنجين والمتحـاربين الـذين لا يرون لغيرهم فضلا ، ولا يظنون فيمن خالفهم إلا سوءا .
2 - يتـآخى بعض أهل الخـير في الله ويسـعون جهـدهم لخدمة هـذا الدين وأهله صفاً واحداً ، ثم تحـدث اجتهـادات أو أخطـاء تـؤدي إلى تبـاين وجهـات النظر ، فتنشأ في الصف الواحد تيـارات ومـدارس ، وقد يتطور الأمر فيجد بعضـهم الاسـتمرار مسـتحيلا مما يجعله يقعد أو ينحو منحى آخر يجده أجدى وأنفع .
وســرعان ما يختلف اتجــاه الريــاح ، فيصــبح الأخ الناصح أو القائد المحنك أو الصـادق المخلص جبانـاً ، أو بخيلاً أو صـاحب مصـالح بل قد يصـبح عميلاً أو منافقـاً ... إلى آخر ما يجـود به قـاموس (عمى الألوان) من الأوصاف الشنيعة والاتهامات المقذعة ، ويصـبح اللقـاء بين الحميمين العــدوين ضــربا من المســتحيل مع أن نظــرة متأنية منصـــفة في ســـاعة إنابة لله جل وعز كفيلة بتبديد الغيـــوم وإذابة الثلوج . وإنما يحدث مثل هذا لخلل في التربية الاجتماعية وأسـلوب التلقي وغيــاب المنـــاهج والمعـــايير الدقيقة الـــتي يتحـــاكم إليها المتنـازعون ، وما غـابت المنـاهج النـيرة إلا كـان البـديل هو الاتهـام وسوء الظن وطمس الحقوق .
3- قد يحدث أن يسـوق الله طـالب علم إلى أحد المدرسـين فيأخذ عنه بعض ما عنده من العلم في بعض الفنون ، ويشعر الطـالب في بعض الأحيان أن ما عند هذا الشيخ في تخصص ما لا ينقع الغلة ، ولا يـروي الصـادي فيتجه إلى شـيخ آخر يلتمس ما عنـده ، وهنا يشـعر الأسـتاذ الأول أن ما فعله هـذا الطـالب فيه نـوع من إسـاءة الأدب وعدم الوفاء بل قد يشعر أن هذا الطالب يوحي بـأن ما عند الشـيخ في هذا الفن ضـئيل الفائـدة وحينئذ يبـدأ تقطيب الوجه ، والتصـريح والتلميح والإشادة بأقران ذلك الطالب الذين يمثلـون الأدب والوفـاء والعبقرية ، ثم تكون الجفوة والقطيعة ....
ونحن الآن في زمـان تـرك فيه الحلاق الحجامة ، وقلع الأضـراس ، وترك فيه الطبيب الفلك والحساب بل إن إحاطة المرء بكل فن من الفنون صار متعذراً نظراً للتراكم الثقافي العظيم ، والانفجار الهائل في المعلومات .

وهذا الداء قـديم عنـدنا ، وما لم تحـرر النيـات لله تعـالى فسـتقطع رحم العلم ، ويحل الجفاء موضع الدعاء ، والإزورار موضع الـتزاور .
وكم تختلف الصــورة لو أن هــذا الأســتاذ أرشد تلاميــذه إلى أولى الاختصاص ليفيـدوا منهم إذا لقارضه الثنـاء الأسـتاذ الآخر ولاتصـلت الأنساب العلمية وأثـريت الحيـاة الثقافية ، وقبل هـذا وذاك حصـول الالتزام بمنهج لله تعـالى الـذي لا يرضى لعبـاده التبـاغض والتحاسد وبخس الحقوق ...
والخلاصة أن هــذه الآية الكريمة مما عطل به العمل عند كثــير من المسلمين ، ونشأ عن هـذا التعطيل مـرض اسـمه : (عمى الألـوان) ولكنه في البصيرة دون البصر ، فأطفئت ألوان كثيرة لا تكاد تحصى كـانت تتـوهج بين الأبيض والأسـود ، وكـثر النمط الـذي يقـرظ ب : (وحيد دهره وفريد عصره) والنمط الذي يقول فيه (الرجال) ما رأينا منه خيرا قط ...
----
(1) فتح الباري 7/1530 .
(2) البداية والنهاية 2/198 .
(3) صحيح البخاري 1/24 .
(4) البداية والنهاية 7/300 .
================

نبض العصر
(1)

د. عبد الكريم بكار 5/7/1428
19/07/2007

لا أسـتطيع في مقـال أو مقـالين أو حـتى عشـرة مقـالات -وكـذلك غــيري- رصد التطــورات الــتي بــاتت تشــكل نبض الحقبة الزمنية الراهنة، فالموضـوع كبـير جـدًا، لكن سـأركز حـديثي عن شـيء من المســتجدات الــتي تتعلق بتنمية الشخصــية في مجــال الوظــائف والأعمال وفي الحياة العامة أيضًـا، وهـذا مما يهم الشـباب الطـامح والساعي إلى تغيير وتحسين وضعه الوظيفي، ولعلي أشير في هــذا السياق إلى الملاحظات الآتية:
1- نحن الآن قد غادرنا الأدبيــات الــتي كــانت ســائدة في العصر الصــناعي، مع أن كثــيرًا من المســلمين وغــيرهم لم يــدخلوا ذلك العصــر، وهـذا مما يثـير الحــزن! والعصر الجديد هو عصر المعرفة والمعلومات وعصر الخدمات، حيث تحل الخـدمات والمنتجـات غـير

الملموسة محل المنتجات والسلع، مما يشير إلى شيء من التحـوّل في حاجـات النـاس، وأنت تـرى كيف أن الفـرد الواحد ينفق سـنويًا على تجديد حاسبه الشخصي وعلى جواله الألـوف، مع أن ما يحصل عليه من وراء اسـتخدام هـذا وذاك شـيء لا يـرى، ويصـعب تقويمه وتثمينه كون قطاع الخدمات أصـبح هو القطـاع المهيمن على حركة الإنتاج في كل الدول المتقدمة، والمتجدد والنامي بسرعة في بـاقي دول العـالم -يعـني أن الإنسـان اليـوم بـات على ارتبـاط وثيق ليس بـالآلات ولا بـالمواد الأوليـة، وإنما بالنـاس من حولـه؛ إذ سـيجد كل واحد نفسه في المستقبل غير البعيد إما في موقف مقدم الخدمــة، وإما في موقف المتلقي لها، ولهذا شرح طويل لسـنا في حاجة إليه الآن، لكن الذي تعنيه هذه الوضعية هو أن كل واحد منا صـار محتاجًا إلى وقفة طويلة يتفحص فيها ذاتـــه، ويراجع مـــدى ما يتمتع به من لياقة ذهنية وأخلاقية وشـــعورية واجتماعيـــة، فالتعامل المكثف مع الناس يثير الكثـير من التـوترات، ويحتـاج إلى الكثـير من الشـفافية والتهذيب والانضباط الذاتي، وهـذا كله لا يتم إلاّ إذا اسـتطاع المـرء وضع يده على الزوائد الضّارة والسلبية في شخصيّته كي يشـذّ بهـا، ويتخلّص منهـا، ومن المعـروف أن النـاس كلّما درجـوا في سُـلّم التحضر صاروا يتوقّعون ممن يخالطونهم، وممن يقـدمون الخـدمات لهم درجة أكـبر من اللطف والحساسـية الأخلاقيـة، ودرجة أكـبر من التقدير لظروفهم الشخصية، وهذا يعني أن مسـألة الارتقـاء بالـذات ليست شيئًا نتفكّه به، أو شيئًا ترفيهيًّا، وإنما هو شـيء جـوهري لكل من يريد النجاح في عمله وفي حياته الاجتماعية على نحو عام.

2- فيما مضى كنا نتحدث عن مسألة الـتزام الموظف بالحضـور في الوقت المحدَّد وانصرافه كذلك في الوقت المحـدد، كما كنا نتحـدث عن ضرورة عدم التشـاغل بـأي شـيء خـارج عن طبيعة عمله أثنـاء وجوده في ذلك العمـل، والحـديث في هـذا الشـأن مـازال مسـتمرًا لـدى الكثـيرين، لكن يُلاحظ أن الوضـعية الجديـدة للوظـائف بـاتت تتطلب شـيئًا أكـثر من مجـرد الحضـور والانصـراف، إنها تتطلب ألاّ يفكر الموظف في مســألة الــدوام والعمل عامة على أنه طـــرف متعاقد مع جهة لها مصـلحة مختلفـة، إن عليه أن يعمل كما لو كـان هو صاحب العمل أو شريكًا فيه، وهناك جهود كثيرة تُبذل وعلى أكثر من صـعيد من أجل ترسـيخ شـعور جديد بالمسـؤولية لـدى العمـال والمـوظفين تجـاه أعمـالهم، هـذا الشـعور يسـتهدف سـلوكًا وظيفيًا جديــدًا يتعامل مع العمل وكأنه شـــيء مصـــيري، في نجاحه نجـــاح

الجميع ونجاتهم، وفي إخفاقه إخفاق الجميع وغرقهم؛ إذ من السهل جدًا أن يجد المرء نفسه في العراء من غير أي دخل، فالفصل اليوم يتم عن طريق الكمـبيوتر وحسـاباته، كما أن كثـيرًا من المؤسسـات والشـــركات بـــاتت تُغـــرق موظفيها بـــالرواتب العالية والمكافـــآت والميزات السخية، وبعضها يخصص للعاملين لديها جزءًا من الأرباح، وهذا كله يتطلب من الشاب الذي يريد بناء سيرة ذاتية جيدة، ويريد الارتقاء في السـلم الـوظيفي أن يغضّ الطـرف عن مسـألة الـدوام والعمل ســـاعات محـــددة في اليـــوم، وأن يغضّ الطـــرف عن المناسبات الاجتماعية التي تعوّد حضورها، حتى شؤون أســرته، فقد يكــون عليه أن يبحث عمّن يســاعده في تــدبير بعضــها... هــذا هو المنطق الجديد، وسواء أكان عادلاً أو ظالمًا، صحيحًا أو خاطئًا، فـإنّ على ذوي الطموحــات العالية أن يراعــوه، ويتعــاملوا معه باهتمــام بالغ.

3- التربية الـــتي تلقيناها كـــانت تؤكد من غـــير ملل على البطولة الفردية والنجاح الشخصي، ومع أن ذلك ينافي الـروح الإسـلامية إلاّ أن النجاح في الحياة والأعمال لم يكن يتطلب تأهّل الإنســان للعمل ضمن فريق أو بوصـفه جـزءًا من منظومة متكاملـة، أما اليـوم فـإن الأمر مختلف جدًا؛ إذ إن قطـاع الخـدمات -الـذي يشـكل كما أشـرنا القطاع الحي والرئيس بين قطاعات الإنتاج -حساس جدًا للخلافــات والنزاعات التي يمكن أن تقع بين أفراد المجموعة الواحــدة، كما أن تقـديم أفضل خدمة يتطلب درجة عالية من الانســجام الـروحي بين أفراد الفريق الواحد ودرجة عالية من الصبر والتعاون والتضحية غير المشروطة، ولهـذا فـإن الشـركة أو المؤسسة الممتـازة تحـارب بلا هوادة المكايدات والمناكفات التي يمكن أن تنشأ بين بعض العاملين لـديها، ولعل من أهم سـمات الشـخص الصـالح للعمل ضـمن فريق هي السمات الآتية:

1- قدرة عالية على الإصغاء وسماع النصح.
2- مساعدة بعض أعضاء الفريق في بعض مهامهم.
3- المحافظة على أسرار العمل.
4- الشعور بأن الفريق كله في مركب واحد.
5- غضّ الطرف عن الأخطاء والهفوات.
6- الجدية في معالجة الأخطاء.
7- البعد عن التحزبات والشللية داخل الطريق.
8- تكوين خلفية ثقافية جيدة عن جميع أعضاء الفريق.

العصر الجديد يتيح الكثير، ويتطلب الكثـير، وعلى من أراد أن يكـون معاصرًا أن يعي كل ذلك، وأن يكون مستعدًا له.
كنت قد تحــدّثت في المقــال الســابق أن الحقبة الــتي نعيش فيها تتميز تميزًا واضحًا بـالتركيز على المعرفة والخدمـة، كما ذكـرت أن الفاعلية في الأعمــال والوظــائف صــارت مرتبطة بما يتم إنجــازه، وليس بمسألة الدقة في الحضـور والانصـراف، كما كـان عليه الأمر في السابق، وذكـرت أيضًـا أهمية إعـداد المـرء نفسه للعمل ضـمن مجموعــة؛ واليــوم أتحــدث عن مفــردات وملامح أخــرى، أعتقد أنها تشكل نبض عصرنا، وذلك عبر النقاط التالية:
1- نستطيع القـول: إن الحـرص الشـديد على الإنجـاز العـالي وعلى مواجهة المنافسة المتصاعدة في سوق العمل وفي الإنتاج على نحو عام، قد جعل الناس عمليين أكثر، ودفعهم إلى تحييد قـدر كبـير من عواطفهم واعتباراتهم الشخصـية، وذلك لصـالح الكفـاءة الشخصـية والقدرة على التفوق في العمل وأداء المهـام، وعلى سـبيل المثـال فإن توظيف الأقارب كان أمرًا أخلاقيًا في الدرجة الأولى؛ إذ من غير المفهوم أن يكون رب العمل محتاجًا إلى موظف، وله أخ أو ابن عم يصــلح مبــدئيًا أو تقريبيًا لأن يكــون ذلك الموظــف، ثم لا يقــوم رب العمل بتوظيفــه، إن ذلك يعبِّر عن نــوع من العقــوق والجفــاء الــذي يطلق ألسنة الأقرباء بالذم واللوم.
الأمر اليوم صار مختلفًا جدًا، فمصـلحة العمل فـوق الجميـع، وهنـاك عزوف عام عن توظيف الأقربـاء، بل إن بعض المؤسسـات الكـبرى ترفض أن يكون لديها موظفان يربط بينهما نــوع من القرابــة، وذلك منعًا للتكتلات الضارة بسير العمل، ومنعًا للاستغلال غـير المشـروع، ومن هنا فإن على المرء ألاّ يدخل في حســاباته الوظيفية كـون أحد أقربائه يملك مؤسسة كبرى، أو يدير شركة عملاقة؛ حــتى لا يُصــدم ويعاتب دون مُعْتِب.
في الماضي أيضًا كان بعض الموظفين والعمال يعتمدون في البقــاء في وظائفهم وأعمالهم، وفي الترقي في تلك الوظائف على التملق والمديح، وتقديم الخدمات الخاصة، أي على أنشطة غير موضـوعية، وعلى مــؤهلات لا يمكن الحــديث عنهــا، ولا تعــود على العمل بــأي فائدة، وقد عبّر عن هذه الحالة واحد من هـؤلاء حين بــدأت الــدوائر الحكومية بإدخال الحاسب الآلي واستخدامه في أعمالها، فقال: هذا الجهاز الجديد ينجز أكثر مما ينجزه عشــرة من أمثــالي، وأخشى مع الأيـــام أن يحل محلي، وأبقى من غـــير أي عمـــل، فأجابه زميل له

بقوله: كن مطمئنًا فلن يجدوا حاسبًا منافقًا مثلـك، ولهـذا فـإنهم لن يستغنوا عنك!

لا شك أن هـــذه الحالة في طريقها إلى الانقـــراض، لكنْ لها ذيــلٌ طويل جــدًا، وسـيظل للنفـاق والتملّق دور في تعامل النـاس وفي توظيف المــوظفين، لكن هــذا سيتضــاءل في الشــركات الكــبرى والمؤسسـات المحترمـة، وسـيظل موجـودًا في الـدوائر الحكومية حيث لا تجد من يتألم لانخفاض الإنتاجية أو توظيف غير الأكفـاء، كما أنه سيظل موجودًا في المؤسسات والشركات المهترئة التي تعيش خارج العصر، وخـارج سـياق أي منافسـة، لكن مع هـذا فـإن النفـاق والتملق سـيتراجع على نحو عـام، ولن يكونا في المسـتقبل بابًا لأي ارتقـاء كبـير أو تقـدم حقيقي، وسـيكون الـدور الحقيقي في النجـاح لأمرين مهمين:

أ – المبــادئ والقيم الــتي لــدى الموظــف، وذلك من نحو الصــدق، والأمانة، والدقة في العمل، وإنجاز الأشياء في موعـدها، إلى جـانب الرقة، واللطف، والدماثة، واستيعاب الآخرين على نحو ممتاز.

ب – القــدرة الكبــيرة على اســتثمار الطاقة والقــدرة على متابعة المهام من غير كلل ولا ملل.

وهــذان الأمــران إيجابيــان جــدًا، ويشــكلان العــودة إلى المعــايير الصحيحة في شغل الوظائف.

2- في الماضي كـانت الأمـور في العمل والأسـرة وحـتى العلاقـات العامة –تُدار على أساس الترغيب والترهيب واعتماد سياسة (العصا والجـزرة)، وقد كـانت تلك السياسـات مبنية على معطيـات تاريخية وتجـارب غـير مكتملـة، وهي جـزء من فلسـفة قديمة تعتمد التحكم المطلق بكل بشــيء، وذلك يأخذ بعين الاعتبــار هــواجس الطبــائع والمصالح المتنـافرة. أما اليـوم فـإن الأمر بـدأ يختلف شـيئًا فشـيئًا؛ والحقيقة أن نظـام المكافـآت والعقوبـات سـيظل سـاري المفعـول لــدى بعض الأسر والمؤسسـات على الأقـل، لكن يُلاحظ توجه جديد على صـعيد التربية والعلاقـات والتوظيـف، وهـذا التوجه يقـوم على أساس الثقة بالناس وإطلاق إمكاناتهم الداخلية، وإيجاد صيغ جديــدة تؤدي إلى توحيد المصالح عوضًا عن تنافرها وتصـادمها، وهكـذا فـإن على رب الأســرة وعلى الأم كــذلك العمل على تعزيز ثقة الأبنــاء بأنفسهم، وعلى تـدعيم الـوازع الـداخلي لـديهم وحفـزهم على أداء واجبــاتهم دون الحاجة إلى المتابعة والرقابــة، وقــلّ مثل هــذا في قطاع الأعمال والوظائف، وهذا أيضًا تطوّر إيجـابيّ، وهو يتناسب مع

تكريم الله -تعالى- للإنسان ومع طبيعة الإيمان الذي من شأنه دائمًا حفز المسلم على فعل ما هو أحسن وأفضل، والكفّ عن كل ما هو سـيّئ وشـرير، وإن علينا أن نطـوّر في أفكارنا وأسـاليب تربيتنا وإرادتنا بما يسـتجيب لهـذا اللـون من نبض العصـر، إذا ما أردنا أن نظل قريبين من التطورات الحديثة المتتابعة، وأردنا أيضًا أن نستفيد منها على الوجه الصحيح.

الـتراكم المعـرفي والتقـدم التقـني السـريع والمنافسة الحـادة في الأسـواق، أمـور ثلاثة غيّـرت نبض العصـر، وأدّت إلى بداية حقبة حضارية جديدة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. ومن المهم جدًا لكل الشباب أن يفتحوا أعينهم جيـدًا على ملامح هـذه الحقبة وعلى نوعية نبضها حتى يكونوا أشخاصًا فاعلين ومؤثرين ونـاجحين، ونحن ما زلنا نحاول استكشاف تلك الملامح؛ والله المستعان.

في البيئات المتخلفة تتطـور المصـالح الشخصـية، ويحقق كثـير من الناس الكثير من أهدافهم المادية وغير المادية بسرعة وبجهد أقـل، وذلك لأن الحركة في سوق العمل وفي مجال كسب المال عامة، لا تأخذ في اعتبارها النظم السارية، فالإهدار القانوني، يتيح للنـاس أن يقومـوا بكل حسـاباتهم وبرسم كل أهـدافهم على أسـاس حرية الحركة واستخدام القـوة والنفـوذ والرشـوة والوجاهـة... في تحقيق الأمنيـات وبلـوغ الرغبـات، ويكـون الثمن طبعًا هو انحطـاط الأخلاق وفقر الحياة الثقافية والاجتماعية. هـذه الوضـعية بـاتت غـير مقبولة في ثقافة النهضة الحديثـة؛ إذ بـات على من يريد بلـوغ وضـعية (العملقة) والريادة أن يبحث دون كلل عن صـيغ للتوفيق بين أهدافه وبين النظم والقـوانين السـارية ومتطلبـات التنمية المسـتدامة؛ لابد من الحصـول على المشـروعات والأعمـال بطريقة مشـروعة وصـحيحة، ولابد من دفع الضـرائب للدولـة، كما أنه لابد من مراعـاة نظافة البيئة والوضع التنظيمي العام. وهذه الأمـور قد تجعل النجـاح صعبًا، كما تجعل تحقيق تراكم مالي سريع أمرًا غـير متـاح في كثـير من الأحيان، لكن يشعر الإنسان مع مراعاته لهذه الضوابط والقيـود أنه لا يكسب المال على حساب دينه وخلقـه، ولا يجمع الـثروة على نحو يـؤدي إلى إضـعاف الدولة الـتي تحكمه والمجتمع الـذي يعيش فيـه. لاشك أن النـاس مفطـورون على حب التحلل من القيـود والإفلات من النظم والتكاليف، لكن الإصرار على تحقيق تقـدم بعيد المدى، وتحقيق ازدهار روحي ومادي وثقافي في آن واحد هو الـذي يحمل النـاس على تحمل التكـاليف الـتي ذكرناهـا. وإذا نظرنا في

أوضاع الشركات العملاقة التي مر على إنشائها أكثر من مئة عام، وما زالت تحقق النجاح تلو النجاح، فإننا نجد أنها تستجيب فعلاً لنبض العصر في معظم الأحيان. وهكذا فإن على الواحد منا أن يحذر من النجاح الذي لا يتحقق إلاّ على حساب الاستقامة الخلقية، ولا يتحقق إلاّ عندما تتدهور البيئة القانونية والطبيعية التي يعيش فيها.

وأعتقد أن هذه الوضعية تستجيب وتتماشى مع التعاليم الإسلامية في مجال العمل على نحو مدهش!

من جملة ما نعتقد أنه جزء من نبض العصر (التركيز) في العمل، والحقيقة أن للشمول والتنويع إغراءات، تصعب مقاومتها، لكن إذا دقَّقنا النظر في الشأن الإنساني، فإننا سنجد أن الإنسان مفطور على أن يتقن ويؤدي عملاً واحدًا في وقت واحد، والتشتت و الجمع بين الاهتمامات المختلفة قلما يتيحان للمرء تحقيق إنجازات كبيرة. حين نقول: إن المعرفة تتضاعف كل عشر سنوات فهذا يعني أن ما هو مطلوب من العلم لتحقيق تفوق كبير بات أضعاف ما كان مطلوبًا قبل خمسين سنة، كما أن كثرة المنافسين في كل مجال من المجالات جعلت المقاعد الأولى محجوزة للأشخاص ذوي التخصصات الدقيقة، أي لأولئك الذين استطاعوا تركيز جهودهم في مجال أو عمل مهم. تدل بعض الدراسات على أنه لو كان للمرء فرصة، مقدارها (80%) لتحقيق هدف واحد بامتياز، فإنه إذا أضاف إليه هدفًا آخر فإن الفرصة لتحقيق هذين الهدفين بامتياز ستتراجع لتكون في حدود (64%)، وإذا سعى إلى تحقيق خمسة أهداف في وقت واحد فإن فرصه في الحصول على نتائج ممتازة سوف تهبط إلى (33%). كثير من الشباب حائر في أمر: هل يكمل دراسته العليا أو يكتفي بالدراسة الجامعية، وينصرف إلى سوق العمل لكسب رزقه، و منهم من يود أن يشتغل بالدعوة إلى الله -تعالى- إلى جانب أنه يعمل مهندسًا في إحدى الشركات، وبعضهم يودّ أن يجمع بين طلب العلم والتجارة... ومع تقديري وتفهمي للحالات الصعبة لكثير من الشباب إلاّ أن من المهم أن تكون معالم الوضعية الصحيحة واضحة بالقدر الكافي: إذا وجد المرء فرصة لأن يكمل دراساته العليا في جامعة جيدة، فلا ينبغي له أن يقدِّم على هذا أي شيء آخر؛ لأن الدراسات العليا تتيح له التركيز الذي نتحدث عنه. وإذا استطاع الإنسان أن يتفرغ للدعوة، فليفعل، وإذا استطاع أن يدعو إلى الله -تعالى- من خلال إتقانه لتخصصه فهذا شيء حسن.

وإذا كان يعمل في التجارة، وأمكنه أن يتاجر في صنف واحد حتى يصل على تصنيعه في يوم من الأيام، فهذا أحسن من أن يتاجر بعشرة أصناف وهكذا... لكن من المهم أن ندرك أن النجاح لا يأتي من وراء أي تركيز، وإنما يأتي من وراء التركيز على أمور تشكل أهمية قصوى للمجتمع، كما أن الشخص الذي يقوم بها يملك الرغبة والقدرة على إنجازها على نحو مبدع، فقد تجد من قضى عمره في زراعة أرضه أو في صناعة الأحذية أو في طهي الطعام... لكنه لم يحقق أي تقدم استثنائي من وراء ذلك؛ لأنه لم يهتم بتوفير الشروط التي أشرنا إليها، ولم يكن الامتياز العالي هدفًا من أهدافه في أي يوم من الأيام.

===============

حول تنمية الشخصية

نبض العصر (1)

د. عبد الكريم بكار 5/7/1428

19/07/2007

لا أستطيع في مقال أو مقالين أو حتى عشرة مقالات -وكذلك غيري- رصد التطورات التي باتت تشكل نبض الحقبة الزمنية الراهنة، فالموضوع كبير جدًا، لكن سأركز حديثي عن شيء من المستجدات التي تتعلق بتنمية الشخصية في مجال الوظائف والأعمال وفي الحياة العامة أيضًا، وهذا مما يهم الشباب الطامح والساعي إلى تغيير وتحسين وضعه الوظيفي، ولعلي أشير في هذا السياق إلى الملاحظات الآتية:

1- نحن الآن قد غادرنا الأدبيات التي كانت سائدة في العصر الصناعي، مع أن كثيرًا من المسلمين وغيرهم لم يدخلوا ذلك العصر، وهذا مما يثير الحزن! والعصر الجديد هو عصر المعرفة والمعلومات وعصر الخدمات، حيث تحل الخدمات والمنتجات غير الملموسة محل المنتجات والسلع، مما يشير إلى شيء من التحوّل في حاجات الناس، وأنت ترى كيف أن الفرد الواحد ينفق سنويًا على تجديد حاسبه الشخصي وعلى جواله الألوف، مع أن ما يحصل عليه من وراء استخدام هذا وذاك شيء لا يرى، ويصعب تقويمه وتثمينه كون قطاع الخدمات أصبح هو القطاع المهيمن على حركة الإنتاج في كل الدول المتقدمة، والمتجدد والنامي بسرعة في باقي دول العالم -يعني أن الإنسان اليوم بات على ارتباط وثيق ليس بالآلات ولا بالمواد الأولية، وإنما بالناس من حوله؛ إذ سيجد كل

واحد نفسه في المستقبل غير البعيد إما في موقف مقدم الخدمــة، وإما في موقف المتلقي لها، ولهذا شرح طويل لسـنا في حاجة إليه الآن، لكن الذي تعنيه هذه الوضعية هو أن كل واحد منا صـار محتاجًا إلى وقفة طويلة يتفحص فيها ذاتـــه، ويراجع مـــدى ما يتمتع به من لياقة ذهنية وأخلاقية وشـــعورية واجتماعيـــة، فالتعامل المكثف مع الناس يثير الكثـير من التـوترات، ويحتـاج إلى الكثـير من الشـفافية والتهذيب والانضباط الذاتي، وهـذا كله لا يتم إلاّ إذا اسـتطاع المـرء وضع يده على الزوائد الضّارة والسلبية في شخصيّته كي يشـذّ بهـا، ويتخلّص منهــا، ومن المعــروف أن النــاس كلّما درجــوا في سُــلّم التحضر صاروا يتوقّعون ممن يخالطونهم، وممن يقـدمون الخـدمات لهم درجة أكـبر من اللطف والحساسـية الأخلاقيـة، ودرجة أكـبر من التقدير لظروفهم الشخصية، وهذا يعني أن مسـألة الارتقـاء بالـذات ليست شيئًا نتفكّه به، أو شيئًا ترفيهيًّا، وإنما هو شـيء جـوهري لكل من يريد النجاح في عمله وفي حياته الاجتماعية على نحو عام.

2- فيما مضى كنا نتحدث عن مسألة الـتزام الموظف بالحضـور في الوقت المحدَّد وانصرافه كذلك في الوقت المحـدد، كما كنا نتحـدث عن ضرورة عدم التشـاغل بـأي شـيء خـارج عن طبيعة عمله أثنـاء وجوده في ذلك العمـل، والحـديث في هـذا الشـأن مـازال مسـتمرًا لـدى الكثـيرين، لكن يُلاحظ أن الوضـعية الجديـدة للوظـائف بـاتت تتطلب شـيئًا أكـثر من مجـرد الحضـور والانصـراف، إنها تتطلب ألاّ يفكر الموظف في مســألة الـــدوام والعمل عامة على أنه طـــرف متعاقد مع جهة لها مصـلحة مختلفـة، إن عليه أن يعمل كما لو كـان هو صاحب العمل أو شريكًا فيه، وهناك جهود كثيرة تُبذل وعلى أكثر من صـعيد من أجل ترسـيخ شـعور جديد بالمسـؤولية لـدى العمـال والمـوظفين تجـاه أعمـالهم، هـذا الشـعور يسـتهدف سـلوكًا وظيفيًا جديــدًا يتعامل مع العمل وكأنه شـــيء مصــيري، في نجاحه نجـــاح الجميع ونجاتهم، وفي إخفاقه إخفاق الجميع وغرقهم؛ إذ من السهل جدًا أن يجد المرء نفسه في العراء من غير أي دخل، فالفصل اليوم يتم عن طريق الكمـبيوتر وحسـاباته، كما أن كثـيرًا من المؤسسـات والشـــركات بـــاتت تُغـــرق موظفيها بـــالرواتب العالية والمكافـــآت والميزات السخية، وبعضها يخصص للعاملين لديها جزءًا من الأرباح، وهذا كله يتطلب من الشاب الذي يريد بناء سيرة ذاتية جيدة، ويريد الارتقاء في السـلم الـوظيفي أن يغضّ الطـرف عن مسـألة الـدوام والعمل ســـاعات محـــددة في اليـــوم، وأن يغضّ الطـــرف عن

المناسبات الاجتماعية التي تعوّد حضورها، حتى شؤون أسـرته، فقد يكـون عليه أن يبحث عمّن يسـاعده في تـدبير بعضـها... هـذا هو المنطق الجديد، وسواء أكان عادلاً أو ظالمًا، صحيحًا أو خاطئًا، فـإنّ على ذوي الطموحـات العالية أن يراعـوه، ويتعـاملوا معه باهتمـام بالغ.

3- التربية الـتي تلقيناها كـانت تؤكد من غـير ملل على البطولة الفردية والنجاح الشخصي، ومع أن ذلك ينافي الـروح الإسـلامية إلاّ أن النجاح في الحياة والأعمال لم يكن يتطلب تأهّل الإنسـان للعمل ضمن فريق أو بوصـفه جـزءًا من منظومة متكاملـة، أما اليـوم فـإن الأمر مختلف جدًا؛ إذ إن قطـاع الخـدمات -الـذي يشـكل كما أشـرنا القطاع الحي والرئيس بين قطاعات الإنتاج -حساس جدًا للخلافـات والنزاعات التي يمكن أن تقع بين أفراد المجموعة الواحـدة، كما أن تقـديم أفضل خدمة يتطلب درجة عالية من الانسـجام الـروحي بين أفراد الفريق الواحد ودرجة عالية من الصبر والتعاون والتضحية غير المشروطة، ولهـذا فـإن الشـركة أو المؤسسة الممتـازة تحـارب بلا هوادة المكايدات والمناكفات التي يمكن أن تنشأ بين بعض العاملين لـديها، ولعل من أهم سـمات الشـخص الصـالح للعمل ضـمن فريق هي السمات الآتية:

1- قدرة عالية على الإصغاء وسماع النصح.
2- مساعدة بعض أعضاء الفريق في بعض مهامهم.
3- المحافظة على أسرار العمل.
4- الشعور بأن الفريق كله في مركب واحد.
5- غضّ الطرف عن الأخطاء والهفوات.
6- الجدية في معالجة الأخطاء.
7- البعد عن التحزبات والشللية داخل الطريق.
8- تكوين خلفية ثقافية جيدة عن جميع أعضاء الفريق.

العصر الجديد يتيح الكثير، ويتطلب الكثـير، وعلى من أراد أن يكـون معاصرًا أن يعي كل ذلك، وأن يكون مستعدًا له.

حول تنمية الشخصية

نبض العصر (2)

د. عبد الكريم بكار 26/7/1428

09/08/2007

كنت قد تحـدّثت في المقـال السـابق أن الحقبة الـتي نعيش فيها تتميز تميزًا واضحًا بـالتركيز على المعرفة والخدمـة، كما ذكـرت أن

الفاعلية في الأعمــال والوظــائف صــارت مرتبطة بما يتم إنجــازه، وليس بمسألة الدقة في الحضـور والانصـراف، كما كـان عليه الأمر في السابق، وذكـرت أيضًـا أهمية إعـداد المـرء نفسه للعمل ضـمن مجموعــة؛ واليـوم أتحـدث عن مفـردات وملامح أخـرى، أعتقد أنها تشكل نبض عصرنا، وذلك عبر النقاط التالية:

1- نستطيع القـول: إن الحـرص الشـديد على الإنجـاز العـالي وعلى مواجهة المنافسة المتصاعدة في سوق العمل وفي الإنتاج على نحو عام، قد جعل الناس عمليين أكثر، ودفعهم إلى تحييد قـدر كبـير من عواطفهم واعتباراتهم الشخصـية، وذلك لصـالح الكفـاءة الشخصـية والقدرة على التفوق في العمل وأداء المهـام، وعلى سـبيل المثـال فإن توظيف الأقارب كان أمرًا أخلاقيًا في الدرجة الأولى؛ إذ من غير المفهوم أن يكون رب العمل محتاجًا إلى موظف، وله أخ أو ابن عم يصــلح مبـدئيًا أو تقريبيًا لأن يكـون ذلك الموظـف، ثم لا يقــوم رب العمل بتوظيفـه، إن ذلك يعبِّر عن نـوع من العقـوق والجفـاء الـذي يطلق ألسنة الأقرباء بالذم واللوم.

الأمر اليوم صار مختلفًا جدًا، فمصـلحة العمل فـوق الجميـع، وهنـاك عزوف عام عن توظيف الأقربـاء، بل إن بعض المؤسسـات الكـبرى ترفض أن يكون لديها موظفان يربط بينهما نــوع من القرابــة، وذلك منعًا للتكتلات الضارة بسير العمل، ومنعًا للاستغلال غـير المشـروع، ومن هنا فإن على المرء ألاّ يدخل في حسـاباته الوظيفية كـون أحد أقربائه يملك مؤسسة كبرى، أو يدير شركة عملاقة؛ حـتى لا يُصـدم ويعاتب دون مُعْتِب.

في الماضي أيضًا كان بعض الموظفين والعمال يعتمدون في البقـاء في وظائفهم وأعمالهم، وفي الترقي في تلك الوظائف على التملق والمديح، وتقديم الخدمات الخاصة، أي على أنشطة غير موضـوعية، وعلى مــؤهلات لا يمكن الحــديث عنهــا، ولا تعــود على العمل بــأي فائدة، وقد عبّر عن هذه الحالة واحد من هـؤلاء حين بـدأت الـدوائر الحكومية بإدخال الحاسب الآلي واستخدامه في أعمالها، فقال: هذا الجهاز الجديد ينجز أكثر مما ينجزه عشـرة من أمثـالي، وأخشى مع الأيــام أن يحل محلي، وأبقى من غــير أي عمــل، فأجابه زميل له بقوله: كن مطمئنًا فلن يجدوا حاسبًا منافقًا مثلـك، ولهـذا فـإنهم لن يستغنوا عنك!

لا شك أن هـــذه الحالة في طريقها إلى الانقـــراض، لكنْ لها ذيـــلٌ طويل جــدًا، وسـيظل للنفــاق والتملّق دور في تعامل النــاس وفي

توظيف المــوظفين، لكن هــذا سيتضــاءل في الشــركات الكــبرى والمؤسسـات المحترمـة، وسـيظل موجـودًا في الـدوائر الحكومية حيث لا تجد من يتألم لانخفاض الإنتاجية أو توظيف غير الأكفـاء، كما أنه سيظل موجودًا في المؤسسات والشركات المهترئة التي تعيش خارج العصر، وخـارج سـياق أي منافسـة، لكن مع هـذا فـإن النفـاق والتملق سـيتراجع على نحو عـام، ولن يكونا في المسـتقبل بابًا لأي ارتقـاء كبـير أو تقـدم حقيقي، وسـيكون الـدور الحقيقي في النجـاح لأمرين مهمين:

أ – المبــادئ والقيم الــتي لــدى الموظــف، وذلك من نحو الصــدق، والأمانة، والدقة في العمل، وإنجاز الأشياء في موعـدها، إلى جـانب الرقة، واللطف، والدماثة، واستيعاب الآخرين على نحو ممتاز.

ب – القــدرة الكبــيرة على اســتثمار الطاقة والقــدرة على متابعة المهام من غير كلل ولا ملل.

وهــذان الأمــران إيجابيــان جــدًا، ويشــكلان العــودة إلى المعــايير الصحيحة في شغل الوظائف.

2- في الماضي كـانت الأمـور في العمل والأسـرة وحـتى العلاقـات العامة –تُدار على أساس الترغيب والترهيب واعتماد سياسة (العصا والجـزرة)، وقد كـانت تلك السياسـات مبنية على معطيـات تاريخية وتجـارب غـير مكتملـة، وهي جـزء من فلسـفة قديمة تعتمد التحكم المطلق بكل بشــيء، وذلك يأخذ بعين الاعتبــار هــواجس الطبــائع والمصالح المتنـافرة. أما اليـوم فـإن الأمر بـدأ يختلف شـيئًا فشـيئًا؛ والحقيقة أن نظـام المكافـآت والعقوبـات سـيظل سـاري المفعـول لـدى بعض الأسر والمؤسسـات على الأقـل، لكن يُلاحظ توجه جديد على صـعيد التربية والعلاقـات والتوظيـف، وهـذا التوجه يقـوم على أساس الثقة بالناس وإطلاق إمكاناتهم الداخلية، وإيجاد صيغ جديــدة تؤدي إلى توحيد المصالح عوضًا عن تنافرها وتصـادمها، وهكـذا فـإن على رب الأســرة وعلى الأم كــذلك العمل على تعزيز ثقة الأبنــاء بأنفسهم، وعلى تـدعيم الـوازع الـداخلي لـديهم وحفـزهم على أداء واجبــاتهم دون الحاجة إلى المتابعة والرقابــة، وقــلّ مثل هــذا في قطاع الأعمال والوظائف، وهذا أيضًا تطوّر إيجـابيّ، وهو يتناسب مع تكريم الله –تعالى- للإنسان ومع طبيعة الإيمان الذي من شأنه دائمًا حفز المسلم على فعل ما هو أحسن وأفضل، والكفّ عن كل ما هو ســيّئ وشــرير، وإن علينا أن نطــوّر في أفكارنا وأســاليب تربيتنا وإرادتنا بما يسـتجيب لهـذا اللــون من نبض العصــر، إذا ما أردنا أن

نظل قريبين من التطورات الحديثة المتتابعة، وأردنا أيضًا أن نستفيد منها على الوجه الصحيح.

حول تنمية الشخصية

(مزيد من الوعي)

د. عبد الكريم بكار 27/3/1428

15/04/2007

تنطلق جهود تنمية الشخصية من نقطة جوهريــة، هي التعـرف على الذات والوعي بها، وهذه المهمة تبدو لي وكأنها من السهل الممتنع، وذلك يعود أساسـاً إلى هشاشة المعـايير والمقـاييس الـتي نتعـرف على أنفسنا من خلالهـا؛إذ إن كل واحد منا يظل قـادراً على القـول: إنه أدرى بنفسه، وأعلم بعلله ونقاط ضعفه، وهذا صحيح إلى حد ما، لكن حين نعــرف أن الواحد منا لا يعيش في جزيــرة معزولــة، وأن إنجازاته وعلاقاته تتعرض للتقـييم والنقد من قبل الآخـرين، ونعـرف أن هناك معايير دقيقة للتعرف على كفاءة الشخصية، وتلك المعايير قد لا تكـون معروفة لـدينا على نحو جيـد، حين نعـرف كل ذلك يبـدأ اكتشافنا لتعقيدات الوعي الذاتي والتبصر الشخصي. السـؤال الـذي يطـرح نفسه بقـوة، هـو: أين بداية رحلة التعـرف على الـذات، وما الأدوات التي يمكن أن نستخدمها في ذلك؟

وأقول في الإجابة عن الشق الأول من السؤال ما يلي:

(1) من المهم أن نــدرك أن الحصــول على أكــبر قــدر من الــوعي الذاتي يشكل شيئاً مهماً على طريق القيـام بـأمر الله تعـالى وعلى طريق إصـــــــــلاح النفس، ومن الواضح أن من يغلب عليه الجهل والطيش، يعـاني من فقر مـدقع في القـدرة على نقد الـذات وبيـان محاســنها وعيوبهــا، وحين تطلب من أحد الأمــيين أن يحــدثك عن نفسه، فإنه يطلب منك أن تتحدث عما تراه فيه، أو يتحـدث بحـديث لا يخلو من السطحية والتحيز والتفاهة. إذاً هل أسـتطيع القـول: إن ما لـدى المـرء من مسـتوى معـرفي ومن تحصـيل علمي هو الـذي يتحكم بقدرته على رؤية ذاتــه؟ هــذا هو الظــاهر، والقــرآن الكــريم يــؤنب في غــير موضع أولئك الــذين فقــدوا الإحســاس والشــعور بأوضاعهم وبما يدور حولهم، وفي هذا يقول سبحانه: (وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ لا تُفْسِــــدُوا فِي الأَرْضِ قَـــــالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْـــــلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ). [سورة البقرة:11-12].

ويقول سبحانه:(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [سورة البقرة:19]، وقال: (وَالَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُـونَ أَمْـوَاتٌ غَيْـرُ أَحْيَـاءٍ وَمَا يَشْـعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) [سورة النحل:20-21].
نحن نتوقع أن يتحسن وعي النــاس بأنفســهم بســبب الحــوارات والنقاشات الكثيرة التي نراها في الفضـائيات وبسـبب تراجع نسـبة الأمية في كثير من البلدان.
(2) إن السـعي إلى المزيد من الـوعي الـذاتي كثـيراً ما يتطلب منا الاعـتراف بـأن ما نجهله عن أنفســنا أكـثر مما نعرفــه، والغــرور والعجب هو الــذي يصـرفنا عن هـذا الاعـتراف، وحـتى نتأكد أننا لا نعرف عن أنفسنا إلاّ القليل، فليحاول كل واحد منا أن يتســاءل عن نقاط القوة في شخصيته وعن نقاط الضعف، وليحـاول العثـور على خمس نقاط في كل جانب، وسيجد أن ما سيقوله غـير واضح وغـير قطعي، ويقبل الكثير من الجدل والأخذ والرد.
(3) بنـاء على هـذا فإننا في حاجة إلى اعتمـاد أسـلوب التـدرج في اكتشـاف أنفسـنا، وعلينا الاسـتمرار في ذلـك، وهـذا يحتـاج إلى أن ننمي في داخل أنفسنا درجة عالية من النفور من الغموض والعماء، وأن نكافح بعناد من أجل رؤية أنفسنا ورؤية الأشـياء من حولنا على النحو الصحيح. وأقول في الإجابة عن التسـاؤل حـول الأدوات الـتي يمكن استخدامها في الوعي الذاتي ما يلي:
1- على المـرء أن يصـوغ ما لديه من أفكـار ومشـاعر وانطباعـات وملاحظــات ومشـــاعر في تعبـــيرات وجمل واضـــحة ومنظمة ومسلسـلة، وذلك بغية الرجـوع إليها عند إرادة التفكـير في الشـأن الشخصي تمامـــاً، كما تفعل مؤسسة تجارية حين تعد تقريـــراً عن أوضــاعها العامة من أجل مناقشــته في اجتمــاع من الاجتماعــات المهمة. وقد كـان كثـير من الشـباب يسـجلون ذكريـاتهم في دفـاتر صغيرة ليستمتعوا بقراءتها في يـوم من الأيـام، ونحن نريد أكـثر من ذلك وأنفـــع، نريد بيانـــاً واضـــحاً عن انطباعاتنا وطموحاتنا وعن مشاعرنا تجاه أنفسـنا وتجـاه الآخـرين، لنجعل من ذلك البيـان دليلاً للعمل الشخصـــي، وهـــذا ليس بالعســـير، ولكن علينا أن نعتقد أن البيان الذي سنصوغه هو بيـان اجتهـادي تم الوصـول إليه باسـتخدام أدوات قاصرة، ولهذا فهو قابل للتعديل والمراجعة والتطوير.
2- نــوع اللــوم الــذي يتلقــاه المــرء من نفسه على أعماله يؤشر بوضــوح إلى أحواله وأوضــاعه، فهنــاك مســلم تلومه نفسه لأنه لا يصلي، وهو يشعر بالتقصير الشديد، وهناك مسلم تلومه نفسه على قلة ذهابه إلى المســجد، وهنـــاك من تلومه نفسه لأنه لم يـــدرك

تكبيرة الإحرام.. أيضاً هناك طالب يعنّف نفسه لأنه رسب، وطالب يعنف نفسه لأنه لم ينجح بتقدير ممتاز، وطالب يعنف نفسه لأنه لم ينل شهادة تقدير في آخر العام وهكذا.. وفي إمكان المرء أن يتعرف على مدى ما يحرزه من تقدم على صعيده الشخصي من خلال فحص حركة لوم نفسه له، فإن وجد أنها تتجه نحو التوبيخ على أشياء صغيرة ودقيقة فليحمد الله تعالى، وإن وجد أنها تتجه نحو التوبيخ على التقصير في فرائض وواجبات ونحو الوقوع في كبائر وموبقات فليتوقف فوراً وليعمل على إنقاذ نفسه من غضب الله ومقته.

3- تشكل المقارنة وسيلة أساسية في فهم الوجود عامة وفهم الذات خاصة؛ إذ إن في إمكان المرء أن يقارن أوضاعه وإنجازاته بأوضاع وإنجازات أشخاص آخرين يعيشون في ظروف مشابهة لظروفه، ولديهم معطيات قريبة من المعطيات التي في حوزته: طالب من أسرة فقيرة يقارن نتائج اختباراته بطالب من أسرة فقيرة – مثلاً- مع ملاحظة مستوى الذكاء والخلفية الثقافية، وموظف في مؤسسة يقارن إنجازاته ووضعه الوظيفي ومدى نجاحه ورضا رؤسائه عنه.. بما لدى زميل له في ظروف مشابهة وهكذا..

إن زيادة الوعي الذاتي تتطلب أن نطور حساسيتنا تجاه سلوكنا اليومي لنعرف ما فيه من عمل يدعو إلى الحمد والاعتزاز، وما فيه من عمل يتطلب المراجعة والتوبة والإصلاح. الاهتمام والملاحظة واليقظة الذهنية والشعورية أدوات مهمة في فهم أنفسنا وفهم العالم، وعلينا أن ننمي هذه الأدوات، ونستخدمها من أجل الحصول على أعلى درجة من الاستبصار الذاتي، والله ولي التوفيق.

حول تنمية الشخصية (4)

(مقاومة التهميش)

د. عبد الكريم بكار 16/4/1428

03/05/2007

نحن نعيش في عصر المعادلات الصعبة؛ إذ إننا كثيراً ما نجد أنفسنا مخيرين بين أمرين، أحلاهما مر، وهذا بسبب التغير السريع الذي يحتاج كل شيء، وبسبب كثرة العوامل المؤثرة في حياتنا العامة.

حين كان الناس يعيشون في الصحارى والقرى الصغيرة، كانوا مغمورين بمشاعر العزلة، لكن تلك العزلة كانت تمنحهم شعوراً قوياً بالاستقلال والسيطرة على البيئة المحلية، كما أن العزلة كانت

توفر حماية طبيعية لكل العناصر الضعيفة. اليـوم اختلف كل شـيء؛ إذ إن ثورة الاتصالات جعلت العالم أكثر ترابطـاً، وصـار من الممكن أن يجوع إنسان في أقصى الشرق بسـبب قـرار اتخـذه إنسـان في أقصى الغــرب! من المهم أن نــدرك أننا نعيش في عــالم مملــوء بالأخطـار، وليس هنـاك وضـعية آمنة على نحو كامـل، كما أنه ليس هنـاك قـرار ليس له سـلبيات، والتحـدي يكمن في أن نتخذ القـرار الأكثر إيجابية ونفعاً والأقل ضرراً.

إذا اتخـذنا قـراراً بالانفتـاح على العـالم وبالانـدماج مع أفكـار العصر وتطلعاته فإننا نواجه مخـاطر الـذوبان وفقد الهوية وإضـاعة الاتجـاه والأهـداف الكـبرى، كما أننا نكـون قد أسـلمنا قيادنا لقـوى غاشـمة ليس لبغيها وشرورها حدود، وإذا سـرنا في طريق الانعـزال، وركزنا أكثر على الخصوصية، وسيطرت علينا هواجس الخـوف من الأشـياء الجديـدة، فإننا نعـرض أنفسـنا لمخـاطر التهميش، فنصـبح أشـبه بسكان قرية على طريق سريع، نزحوا منها إلى السـكنى في مكـان بعيد لا يــرون فيه غريبــاً ولا يــراهم أحــد. نحن لا نــؤمن بالانفتــاح المطلــق؛ لأنه يعـرض شـبابنا ومصـالحنا لمخـاطر هائلـة، لا يمكن مقاومتها، ولا نؤمن بالعزلة؛ لأنها ستخرجنا من سياق العصر، وتؤدي بنا إلى الضـعف الـذي يـأتي بمخـاطر الـذل والاسـتعباد من قبل من يملكون روح العصر وأدواته.

إذاً ما الذي علينا أن نعمله؟ وما الموقف الصحيح في هذه المسـألة الشائكة؟

الجواب يكمن في ضرورة الاتجاه إلى الانفتاح المحـدود وإلى قبـول تحديات العصر والتفاعل معها عبر فهم دقيق لما يجري حولنا وعــبر محاولة امتلاك الأخلاقيات التي تمكننا من أن نعيش زماننا في إطـار مبادئنا، وهذه بعض الملاحظات السريعة:

(1) قالت العرب قـديماً: إن المحاصر لا يـأتي بخـير، أي إن الـذي لا يملك ســوى الــدفاع عن نفسه من غــير أي قــدرة على الحركة والمنــاورة والمبــادرة لا يُتوقع منه شـيء عظيم أو اسـتثنائي، وكل ســاعة تمر عليه وهو محاصر تقلل من قدرته على الاســتمرار في الــدفاع وصد الخصــوم والأعــداء.. أيضــاً المهمش والــذي أدمن المواقف الدفاعية والمتــترس خلف نظــام لا يــرى أن في إمكــان العقل البشـري إبـداع أفضل منه كل هـؤلاء سـيجدون أنفسـهم في نهاية المطاف أشبه بالمحاصر، وهذا ما استوعبه المسـلمون الأوائل على نحو جيد، فاتخذوا من نشر الإسـلام في الأرض وسـيلة لجعلهم

في موقف المبـادر وفي قلب الأحـداث العالميـة، وبـذلك تجـاوزوا موقف الجامد والمحاصر والمهمش والخائف من الجديد.
(2) مقاومة التهميش تتم من خلال الاعتقاد بأن ما لدينا من أوضـاع ونظم ومعطيـات ليس كـاملاً، ولهـذا فإننا نشـعر أن في إمكاننا أن نتعلم من غيرنـا، وأن لـدى الآخـرين شـيئاً مفيـداً يمكن أن نتعلمـه، وهـذا الاعتقـاد يشـكل نقطة البدايـة، ويـأتي بعد ذلك تأهيل النفس للسباحة في تيار قوي وسريع، وهذا التأهيل يقوم على الآتي:
? تعلم جيد والإنفـاق بسـخاء على الدراسة في مـدارس وجامعـات جيدة والحصول على أعلى الشهادات المتاحة.
? اسـتقامة خلقية عاليـة، تجعل من صـاحبها نموذجـاً في الأمانـة، وأهلاً للثقة، ومثالاً للمصداقية.
? محاولة العمل في مؤسســات وشــركات (متعلمــة) وذات تنظيم ممتاز؛ إذ إنها تكون أشبه بالجامعات التي تمنحك تـدريباً عاليـاً، وإن العمل في بيئــات مهترئة ومتخلفة يضع صــاحبه في خانة المحاصر والمهمش سواء بسواء.
? العمل على فهم روح العصـــر؛ إذ إن كل حقبة زمنية تعد مجـــالاً لحركة أفكـار وقيم وقـوى معينـة، وحين يسـتوعب المـرء ذلك ولو على نحو منقــوص فإنه يــدفع عن نفسه شــيئاً من التهميش على مســتوى الــوعي وعلى مســتوى المعرفـــة. وأعتقد أن (الإعلام) المكتوب والمنظور والمسموع يشكل القوة الرئيسة الضاربة اليوم؛ وقد كـان اليهـود يقولـون قبل قـرن: من يملك المـال يملك العـالم، وهم يقولـون اليـوم: من يملك الإعلام يملك العـالم، ومن هنا فـإن المسلم المعاصر والذي يعيش فعلاً داخل تيار المعاصرة يحـاول أن يســـتخدم الإعلام على أفضل وجه ممكن، وإذا لم يســـتطع، فإنه يحاول الاستفادة الشخصية من الإعلام على قدر الوسع والطاقة.
? الفاعلية والإنتاجية العالية شـرطان مهمـان لتفـادي التهميش في زماننـــا؛ إذ إننا نعيش معركة شرسة على كل صــعيد، وفي ســـوق العمل هناك عـرض كبـير وطلب قليـل، والإنسـان الفعّـال جـداً وذو الإنتاجية العالية يســتطيع الحصــول على عمل جيــد، أما العــاديون فسيجدون وظائف هامشية ليجدوا أنفسهم في نهاية المطـاف على هامش الحياة.
? العلاقات الحسـنة مع النـاس مصـدر رزق والأخلاق الحسـنة أيضـاً مصدر رزق، والقدرة على العمل ضمن فريق صفة مهمة اليـوم من

صـــفات ذوي الإنجـــاز العـــالي، ولا بد من فهم كل هـــذا والعمل بمقتضاه.
والله الموفق.

حول تنمية الشخصية (5)
(الفكاك من الأسر)

د. عبد الكريم بكار 2/5/1428
19/05/2007

الارتقـاء بالـذات أمر ممكن لجميع النـاس دون اسـتثناء، وذلك لأن الكمال والتقدم العقلي والروحي والاجتماعي لا منتهى له، وليس له حـدود صـارمة توقفه عند وضـعية معينـة. إذاً لمـاذا نجد أن معظم النـاس غـافلون عن تنمية شخصـياتهم، بل إن بعضـهم يعـاني من تدهور في بعض جوانب حياته الخاصة؟!
الجواب ببساطة هو: أن الواحد منا يأتي إلى هـذه الحيـاة وهو يملك عـدداً كبـيراً من (القابليـات) الإيجابية والسـلبية، وهو في نشـأته وانتقاله من طـور إلى طـور أشـبه بمن يمشي في صـحراء مترامية الأطـراف شـديدة الظلمـة، وطرقها مملـوءة بـالحفر والأشـواك والحجـارة والوحـوش.. ومن خلال الأهـوال والمشـاق الـتي يمر بها تتحـول القابليـات إلى انطباعـات وتصـوّرات وسـلوكات تشـكل شخصـيته، وتحـدد نظرته إلى نفسه وإلى العـالم من حولـه، وتلك النظـرة كثـيراً ما تميل إلى السـلبية، لكن مع هـذا لا يفقد الإنسـان مرونته واستعداداته للاتجاه نحو ما هو أحسن وأكرم والاتجاه إلى ما هو أسـوأ، لكن الـزمن لا يسـير في صـالحه على هـذا الصـعيد، فهو كلما تقدم في السن زادت صـلابته الذهنية وتحـولت القابليـات لديه إلى انطباعـات وعـادات وصـار تخلصه من عاداته السـلبية أشد صعوبة، إن في إمكـاني أن أقـول: إن لكل واحد منا نفسـين: نفسـاً صـغيرة نـاجزة لكنها مكبلة بالأوهـام والخـوف واليـأس والعجـز... ونفساً كبيرة تحت التأسيس، لا تظهر ولا ننعم بها إلاّ إذا قمنا بإثارة عاصـفة كـبرى من خلال طموحاتنا الكبـيرة ومن خلال ما نملكه من جدية وعزيمة وإصـرار وتصـميم.. والمطلـوب هو أن نبعد نفوسـنا الصغيرة عن طريق نفوسنا الكبيرة؛ إذ إن ذلك الإبعاد يشكل شرطاً لظهـور إمكاناتنا الكـبرى المتوارية والمتربصة والمتوثبة نحو التجسد في أشياء عظيمة ملموسة ومنظـورة. السـؤال الـذي يطـرح نفسه الآن هو: ما سمات النفوس الصغيرة التي علينا أن نتخلص منها؟
إن سمات نفوسنا الصغيرة تتلخص في الآتي:

(1) احتقــار الــذات والنظــرة الدونية إلى النفس، ومن العجيب في هذا الشأن أن كثـيرين منا لا ينظـرون إلى ما متعهم الله -جل وعلا- به من صحة ومال ووقت وذكاء.. ولا يقيمون له وزناً، ولهذا فإنهم لا يشـعرون بالامتنـان لله تعـالى، ولا يتخـذون منه منطلقـاً لتحسـين أحـوالهم، وهـذا يسـبب إشـكالية كبـيرة في الحقيقـة. إذا تأملنا في تاريخ كل العظماء الـذين بنـوا أمجـادهم بجهـودهم، وقـدموا للعـالم أفضل الأفكـار والمشـروعات والخـدمات، فإننا نجد شـيئاً مشـتركاً بينهم هو الثقة بالإمكانـات الصـغيرة الـتي بين أيـديهم واسـتثمارها بفعالية عالية، مما جعل التوسع والانتقال إلى ما هو أكبر ممكنـاً. إن الذين يعيشون في بيئات جاهلة ومحطمة وبائسة يعدون متخصصين بل بـارعين في تلقين مفـاهيم احتقـار الـذات، ولهـذا فـإن الأجيـال الجديدة التي تعيش في تلك البيئات تواجه تحدياً ضخماً، لا تسـتطيع الانتصار عليه من غير رؤية نماذج ممتـازة تسـتلهم منا معـاني الثقة والكفاح والسباحة ضد التيار، والمتعلمون والـدعاة والشـباب الخـير الناجح هم المسؤولون عن تقديم تلك النماذج.

(2) الطموحــات الصــغيرة والرضا بالفتــات والعيش على هــامش الحياة، سمة أخرى من سمات النفوس الصغيرة، بل إني أقـول: إن الطموحات الصغيرة تعني نفوساً صغيرة، ونتائج متواضعة ومستقبلاً عادياً. إن على الأسـرة أن تعمل جاهـدة في دلالة أبنائها على نقـاط القوة لديهم وعلى المميزات الـتي يتمتعـون بها والظـروف الحسـنة التي يعيشون فيها، وذلك من أجل توفير قدر جيد من الثقة بالنفس، وعلينا إلى جـانب ذلك أن نقـدم لهم كل الـدعم الممكن في إكمـال دراساتهم وإقامة مشـروعاتهم وتمويل اختراعـاتهم، وتقـديم العـون لما يحتاجون إليه من دورات وكتب وأسفار هادفة... ويـأتي بعد ذلك دور المدرسة، وهي بما تملك من رؤية ووعي وخبرة تستطيع تقديم الـبرامج والوسـائل والتفاصـيل الـتي تفتح المجـالات والآفـاق أمـام الطلاب ذوي الطموح العالي من أجل تشكيل بيئة جديدة فيما بعد.

النـاس إذاً من جنس طموحـاتهم ومن جنس اهتمامـاتهم أيضـاً، وإن في إمكـان كل واحد منا أن يتعـرف على نفسه وهل هي صـغيرة أو كبـيرة، من خلال تعرفه على الأشـياء الـتي تثـير اهتمامه وتشـكل مصدر همومه، فإذا كانت كبيرة ومتصلة بــالآخرة ونفع الأمة فإنه ذو نفس كبيرة، وإذا كانت صغيرة وأنانية ومادية، فهو ذو نفس صغيرة، وأظن أنني لست بحاجة إلى القـول: إن الـدنيا صـغيرة وكل ما فيها صـغير، وإذا كـانت طموحاتنا دنيوية محضة ومادية خالصـة، فإنها لن

تكون أبداً كبيرة؛ إذ لا يمكن لجلد الشاة أن يتسع لناقة، ولهـذا فـإن من المهم جداً أن نراجع النيات، وندقق في المعايير حتى لا ننسـاق خلف الأوهام، ونسير في طريق الأقزام!

(3) صاحب النفس الصغيرة يبـدو دائمـاً وكأنه في عجلة من أمـره، خططه قصيرة المدى، ونفسه في العمل أيضاً قصيرة، وهو يريد أن يـرى كل آماله وقد تحققت بين عشـية وضـحاها، وإذا صـادفه بعض العقبـات، فإنه يغـير طريقـه، وينتقل إلى مشـروع جديـد، وقد يغـير بعض أهدافه الأساسـية والكـبرى.. على حين أن صـاحب النفس الكبـيرة يعـرف أن طريق الكمـال والإمامة والمعـالي طريق طويل أولاً، ومملوء بالعقبـات والأشـواك والمنغصـات ثانيـاً، وإلاّ لصـار كل الناس عظماء. لا أستطيع في هذا المقال أن أتحدث عن كل سمات النفوس الصغيرة، لكن أجدد الدعوى إلى مساعدة نفوسـنا الكبـيرة على الظهور والتألق من خلال إبعادنا لنفوسنا الصـغيرة بكل ما فيها من نقص وعلل عن طريقها.

والله ولي التوفيق.

حول تنمية الشخصية(6)

د. عبد الكريم بكار 17/5/1428

... ...03/06/2007

حين يحاول المرء صـيانة ذاته وتطويرهـا، فـإن من المهم أن يعـرف الطبيعة الثقافية والحضـارية للعصر الـذي يعيش فيـه، وهي طبيعة مختلفة عن طبـائع كل العصـور الماضـية، وليس في هـذا الكلام أي نـوع من المبالغـة، في الماضي كـان النـاس في بلـدانهم وأمـاكنهم المختلفة يعيشـون وفق معطيـات عقدية وثقافية محلية وموروثـة، ولهـذا فـإنهم كـانوا يكيِّفـون كل شـيء في حيـاتهم وفق تلك المعطيات، ومنها سلوكاتهم ومواقفهم المختلفة؛ أما اليوم فإن على معظم الناس –وبعد ثلاثة عقـود.. كل النـاس- أي يتكيفـوا مع أفكـار ومفاهيم ومعتقـدات قادمة من قـارات أخـرى، أو من أمـاكن بعيـدة داخل قـارتهم، وهـذا يعـني أن علينا أن نتوقع دائمًا أن نواجه ما يصدمنا، أو يشكّل امتحانًا حقيقيًا لنا؛ وعلى سبيل المثال فإن المواد الثقافية الواردة من الغرب مثل الأفلام والبرامج التلفازية والقصص والروايـات والكتب والمجلات والـدوريات الفكرية والسياسـية.... تنشر أفكار ومفاهيم (ما بعد الحداثة) والتي تعني في جملة ما تعنيه تشـجيع الانفلات العـام من أي أصـول أو ثـوابت أو كليـات أو مرجعيات، والتنظير للفكر السائل والنسبي، فالتطور في كل شـيء

ودون حدود، هو شـرعة الحيـاة. كما أن فكر عصر (ما بعد الحداثـة) يجنح إلى (التفكيك) فلكل مجـال قيمه الخاصة بـه، ولا مجـال للقيم العامـة، وعلى سـبيل المثـال فـإن (عـالم الاقتصـاد) يحكم بقيم من داخلــه، وهي القيم الــتي تـؤدي إلى نمــوه وتعامل النــاس فيه مع بعضهم على نحو لا يثير الكثـير من الـنزاع، أما قيم الحلال والحـرام وما يتصل بالربا والجشع والعقود الفاسدة وكل ما شاكل ذلك، فهي قيم وافدة من مجال المعتقدات الغيبية، ولهذا فإنها غير ذات قيمـة. وفي مجـال الجمـال وإظهـاره وتوظيفه والاسـتمتاع بـه... لا معـنى لقيمة (الستر) والاحتشام لأنها ورادة من مجـال آخـر، على حين أن الإســلام يعلمنا على أن الســتر يشــكل أولوية أو إطــارًا للجمــال فالمرأة المسلمة تتزين في إطار السـتر وعـدم إثـارة الآخـرين، ولا أريد أن أســـتطرد في شـــرح مفـــردات عصر (ما بعد الحداثـــة) واستعراض التحديات الـتي تسـببها لنـا، لكن أقـول: إن المسـلم لم يمر في تاريخه الطويل بظـــروف وأوضـــاع ثقافية تســـتدعي منه اليقظة الفكرية والشـعورية... كـالظروف والأوضـاع الـتي يمـرّ بها اليوم، وهو يحتاج إلى درجة عالية من اليقين بصــواب منهجه ودرجة عالية من الصـــلابة في التمسك بقيمه ومبادئه الإســـلامية، وهـــذه الصلابة تتوفر له من خلال الآتي:

1- التصميم والعزم الأكيد على ألا يقبل أي نوع من المسـاومة على مبادئه، ولاسـيما في مجـال المـال والأعمـال، حيث إن عصر ما بعد الحداثة هو عصر محو المحرمـــات والمقدســـات، والمســـتفيدون للعولمة يروجـــون لـــذلك بغية تجريد النـــاس من أي قيم يمكن أن تمنحهم التـأبي والتمنع في وجه زيـادة الأربـاح وزيـادة الاسـتهلاك والحراك المالي والاقتصادي عامة. الإنسان لم يكن إنسـانًا بمكوناته الجسـمية أو بصـورته، وإنما بروحه ووجدانه وخُلُقـه، ومن ثم فإنه لا يعادل خسارة المرء لنفسه شيءٌ سوى خسرانه للمبادئ التي يؤمن بها، وإن الذي يبيع دينه، ويعمل ضد عقيدته ورؤاه وقيمه، لا يصح أن يقال فيـه: إنه حقق أي مكاسب أو نجاحـات، يمكن أن يغبط عليهـا. وحــتى لا يــدخل في اختبــار أي مســاومة، فــإن عليه أن يبتعد عن المجالات والمواقف المشبوهة، والمناطق الرمادية التي يختلط فيها الخــير بالشر والحق بالباطــل، كما ورد من قوله –صــلى الله عليه وسلم-: "فمن اتقى الشبهات فقد اسـتبرأ لدينه وعرضـه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كـالراعي يـرعى حـول الحمى يوشك أن يرتع فيه" (متفق عليه).

2- الصلابة الداخلية تعـني كـذلك أن يتخذ المسـلم من مبادئه ملهمًا له ومحرِّكًا على مسرح الحياة وفي شأنه كله، كما يتخذ منها مرشدًا وموجهًا، فهو يُقْدِم ويبذل ويضحي في هدي تلك المبادئ، وهو كذلك يحجم ويتأبي ويقاوم في ضـوئها وبحسب مـدلولاتها، والحقيقة أنه لا يعادل صفاء العقيـدة سـوى صـياغتها لسـلوك صـاحبها. إن المبـادئ تظل هشة وغائمة واحتمالية ما لم تُدعَّم بالمواقف الصلبة، والحاجة إلى هـذا شـديدة اليـوم لأن كثـيرًا من المسـلمين صـار يعـاني من ازدواجية بغيضة في أعمـاق شخصـيته، فهو يعتقد أن الصـواب في كـذا وكـذا، لكن تطلعاته وطموحاته ومسـاعيه تمضي في سـياق مضاد! حين يتقاعس الناس عن المبادرة نحو أنواع من الخـير، فـإن المبـادئ تسـتحث صـاحبها على أن ينطلق ولو كـان وحـده، وحين يتدافع الناس في اتجاه الاستحواذ على شيء من متـاع الـدنيا، فـإن المبادئ تدفع بصاحبها نحو الانشغال بشيء مختلـف؛ فالمبـادئ تلهم وترشد وتحفِّز، وتكبح... إنها فعلاً نظـارة يـرى المـرء من ورائها الوجود، وقوة تحركه في تحقيق ما يراه!

3- رجل المبـادئ يـبرهن على تمسـكه بمبادئه من خلال تمحـوره حولها، واعتزازه بها، على حين أن الذين لا تشكل المبـادئ بالنسـبة إليهم أكـثر من تكميل شـكلي أو ظـاهري (ديكـور) يـذهبون في التمحـور مـذاهب شـتى، فهـذا يتمحـور حـول المنصب الـذي احتلَّه، وذاك يتمحور حول الأسـرة الـتي ينتسب إليهـا، وآخر يتمحـور حـول الثروة جمعها... إنهم جميعًا يعتزون بأشياء صـنعها غـيرهم أو أشـياء يستعملونها بأيديهم... أما الذين يتمحورون حول مبادئهم فإن مصدر اعـتزازهم هو تلك الأشـياء العظيمة الـتي صـنعوها لأنفسـهم في أنفسـهم! إن الحيـاة لا تكـون ثرية وسـعيدة وقيِّمة إلا إذا كـان في قلـوب الـذين يحيونها معـان ورمزيـات يُضـحّى بالحيـاة نفسـها من أجلها، وهذا هو الدرس البليغ الذي يلقيه علينا الشهيد!

حول تنمية الشخصية (7)

د. عبد الكريم بكار 4/6/1428

19/06/2007

فشل النجاح

كثـيرون أولئك الـذين يملكـون المقومـات والمعطيـات الكافية لأن يكونوا رجالاً عظماء، لكنهم لم يصبحوا عظمـاء، ولكل منهم أسـبابه الخاصـة. يقـول (أرنولد توينـبي) أشـهر مـؤرخي بريطانيا في العصر الحـديث: "إن في إمكانك أن تلخص بشـكل جيد تـاريخ المجتمع

ومؤسسـاته في أربع كلمـات: "لا شـيء يفشل مثل النجـاح". هـذا القول من ذلك المؤرخ المفكر يلخّص مشكلة كبرى وعامة يقع فيها عادةً خواص الناس والبـارعون منهم، وهي تسـتحق فعلاً أن نسلّط الضوء عليها لعلنا نجد مدخلاً للتعامل معها. وهذه مقاربة أولية لها:
1- معظم أنشطتنا ليس عبارة عن مبـادرات ذاتية نطلقها بنـاء على رؤية شاملة وواضحة لما ينبغي أن نقـوم بـه، وإنما هي ردود أفعـال على التحـديات المحيطة بنـا. هـذا رجل لديه ثلاثة من الأولاد، عـزم في وقت مبكر على أن يعلمهم التعليم الجيـــد، وبما أن ذلك الرجل كـان يعيش في منطقة نائيـة، ومسـتوى التعليم فيها منخفض، فـإن أعلى شـهادة سـمع بهـا، وكـان يطمح إلى أن يحصل عليها أبنـاؤه الثلاثة هي (الثانوية)، وقد بذل الرجل جهدًا مشـكورًا في تمكين ابنه البكر من الحصـــول على تلك الشـــهادة، وقد نجح فعلاً في ذلـــك، وأحدث استجابة جيدة للتحدي الذي كان أمامـه. بعد خمس سـنوات انتقل الرجل إلى السـكن في العاصـمة حيث الجامعـات والمعاهد العليا، وحيث الكثير من الشباب والرجال الحاصـلين على الإجـازات الجامعية وما فوقها، لكن صـاحبنا لم يلتفت إلى ذلـك، وظلت أمنيته العظمى أن يحصل أولاده على الثانوية، وقد حـدث ذلك فعلاً، وذهب الثلاثة للبحث عن وظـائف، وكـانت المفاجـأة المؤسـفة؛ فشـهادة الثانوية تعني في البادية أن صاحبها يمتلك نوعًا من الريادة الثقافية، وهو أكـــبر من كل الفـــرص والوظـــائف المتاحة هنـــاك، لكنْ في العاصـمة الأمر مختلف جـدًا، وأخذ الثلاثة يبحثـون عن عمل يمكّنهم من العيش الكريم عند حدوده الدنيا، فلم يجدوا، وصـاروا عالة على أبيهم! وهكـذا فـإن السـكنى في العاصـمة تتطلب من الأب وأبنائه إطلاق استجابة جديدة من خلال الحـرص على نيل أعلى الشـهادات المتاحة في العاصـمة، وهـذا ليس من بـاب الكماليـات، وإنما هو ضـروري جـدًا من أجل الحصـول على مـرتب يكفي لسد نفقـات العيش في العاصمة.
هـذا يعـني أن الفشل يولد من رحم النجـاح، وذلك حين يقف نجاحنا عند مستوى معين، وحينئذ فإن الناجح يتحول إلى فاشل أو مخفق!
2- قد رأينا في الجامعـات شـبابًا ممتـازين جـدًا، وعلامـات النباهة والنبـوغ ظـاهرة عليهم، وقد تخرّجـوا فعلاً بتقـديرات عاليـة، ونـالوا الأوسمة والـدروع... لكن بعد التحـاقهم بوظـائفهم أفل نجمهم، ولم نعد نسـمع عنهم أي شـيء، وبعضـهم صـار أقل من عـادي! وهنـاك خطباء لامعـون أثّـروا في مرحلة من المراحل في أعـداد كبـيرة من

النـــاس، ثم انطفـــؤوا كما تنطفئ الشـــمعة، وصـــاروا في حكم المنسـوخ، بسـبب قـدوم جيل جديد من الخطبـاء الشـباب، وهنـاك مؤلفون أتحفونا بكتب ممتازة، تكشف عن موهبة وقدرة عالية على الفهم والتحليل، ثم غابوا عن الساحة من عشرات السنين، فلم نعد نطّلع على أي جديد نتيجة قـرائحهم... أمثلة كثـيرة تفـوق الحصـر، وهي تـــدعو إلى الأســـى؛ لأن الأمة في أمس الحاجة إلى هـــؤلاء وأولئك ولكن....

3- قـالوا قـديمًا: ليس المهم أن تصـعد إلى القمـة، لكن المهم كم تستطيع أن تمكث هناك. اليوم صـار الصـعود إلى القمة أمـرًا عـالي التكـاليف بسـبب كـثرة المنافسـين وتشـعب المجـالات وكـثرة المسـتويات، لكن الفـرص أيضًـا زادت والوسـائل المسـاعدة على الارتقاء والتقدم في زيادة مستمرة، أما البقـاء في المقدمة المحلية أو الإقليمية فهو ممكن لمن يدفع ثمنـه، وربما كـان من جملة الثمن الآتي:

أ – التمييز بين الظروف والقـدرات الشخصـية؛ إذ إن معظم النـاس يخضعون لظروفهم، وهي في أكثر الأحيـان ليست مثالية أو مواتيـة، أما الـذين يريـدون البقـاء في القمـة، فـإن لهم شـأنًا مختلفًـا، إنهم يحـاولون دائمًا اكتشـاف طاقـاتهم الكامنة واسـتثمارها على أحسن وجـه، ويحـاولون في الـوقت نفسه ممارسة نـوع من التمـرد ضد الظروف الصعبة، ونجد هـذا المعـنى واضـحًا في سـيرة نبينا –صـلى الله عليه وسلم- وسـيرة إخوانه من الأنبيـاء والمرسـلين، ومن جـاء بعـدهم من عظمـاء هـذه الأمة وعظمـاء كل الأمم، إن المهم دائمًا ليس الاستهانة بالعقبات الموجودة، وإنما كيفية التعامل معها وكيفية الدوران حولها، وإني أعتقد ان أي واحد منا سـيكون شخصًـا مختلفًا جدًا إذا قطع نصف المسافة بين ما يفعله الآن وبين ما في مقـدوره أن يفعله. ما هو كـامن من ا لإمكانـات والظـروف الجيـدة والفـرص العظيمـة... هو دائمًا أكـثر وأكـبر مما هو ظـاهر، وهـذه فعلاً حقيقة مذهلة!!

ب- لو تأملنا في سيرة كل أولئك الذين ذبلوا قبل الأوان أو من غـير أسباب واضـحة لوجـدنا أن ما حققـوه من نجـاح وتـألق هو السـبب، وذلك لأن النجـاح كثـيرًا ما يولّد لـدى أصـحابه درجة عالية من الثقة بالنفس، والتي قد تصل إلى حد الغرور، وهذا يجعلهم لا يلتفتـون، أو لا يهتمون بالتغيرات السـريعة الـتي تحيط بهم، والـتي تتطلب منهم تطـــوير أنفســـهم على نحو ملائم. أضف إلى هـــذا أن النـــاجحين

يتمسكون في العادة بالأسباب الـتي سـاعدتهم على النجـاح –وهـذه الأسباب قد تكون أفكارًا وقد تكـون عـادات وعلاقـات- ويظنـون أن الاسـتمرار في النجـاح لا يكـون من غـير ذلـك. وهـذا ليس بصـحيح؛ فنحن في حاجة إلى التخلي عن الأفكـار الناجحة مثل حاجتنا للتخلي عن الأفكـار الفاشـلة؛ في مرحلة من المراحل قد يكـون المزيد من التثقف والاطلاع وجمع المعلومـــات هو أســـاس النجـــاح، لكن في مرحلة أخـرى قد يكـون الفهم والتحليل وبلـورة النمـاذج واكتشـاف أدوات جديـــدة للتفســـير... هو المطلـــوب لتحقيق نجـــاح جديد أو الحصول على تميّز فريد. إن مما لا ننتبه إليه في أحيان كثـيرة كـون الإنســـان مخلوقًا مســـتهلكًا يســـتهلك الأشـــياء والنظم والأفكـــار والمعلومــات والتقاليــد، وكثــيرًا مما يُحسب في عــداد المقــولات الحكيمة والنيرة، ولهذا فإن التطوير المستمر هو أهم شرط للنجـاح المستمر.

حول تنمية الشخصية (8)

د. عبد الكريم بكار 20/6/1428

05/07/2007

الحياة ليست ورطة

الحيـاة نعمة من الله –تعـالى- وحياتنا نحن البشر نعمة مضـاعفة؛ إذ كرّمنا الله –جل وعــز- وسـخر لنا ما في السـماوات وما في الأرض حتى نسعد ونعمل ونتمتع ونشكر ونعبد، ونحن في كل ذلك مبتلـون، وإذا نجحنا في الاختبــار، فــإن ما ننتظــره من كرامة الله –تعــالى- شيء يفوق كل خيال، ولهـذا فإنه مهما سـاءت الظـروف، واشـتدت الكروب، فإننا نملك ما نغتبط به، ويمكن أن نوجه مشاعرنا بطريقة، تعود علينا بالكثير من الأمل والكثـير من الارتيـاح، لكن مع هـذا لا بد من القول: إن الإنسان بوصفه كائنًا محتاجًا ومستهلكًا ومتجددًا، فإن المعطيـات الملموسـة، تظل ذات معـنى وذات قيمـة، فـالمرء حين يجوع، ويعرى، ويعاني من الأمراض والآلام المبرّحة يصـعب عليه أن يشعر بالسعادة إلاّ إذا كان صاحب شفافية روحية عالية جـدًا، وهـذا في الناس نـادر، ومن وجه آخر فـإن الإنسـان يجد نفسه في أحيـان كثيرة عاجزًا عن إدراك أوضاعه الخاصة، من أفق مستقل ومنفصل، مما يحمله على مقارنة نفسه بغيره، وهـذه المقارنة كثـيرًا ما تجلب ازدراء النعم الـتي أسـبغها الله –تعـالى- عليـه، ومن هنا ورد التوجيه الكـريم من النـبي –صـلى الله عليه وسـلم- بـأن ينظر المسـلم في أمور الدنيا إلى من هم دونه حتى يشــعر بما تفضل الله به عليه من

الخير والبركة والنعمة. السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يستطيع الواحد منا أن يحمي نفسه من مشـاعر البـؤس والحرمـان، وكيف يستطيع بلورة رؤية شخصـية، خلاصـتها: أن الحيـاة فرصـة، ومقدمة لخير عظيم؟
الجواب على هذا التساؤل طويل، وله ذيول وامتـدادات كثـيرة، لكن أود أن أشير إشارة سريعة إلى ثلاث نقاط جوهرية:
1) إن في إمكـان المسـلم أن يسـتظل بأمـان الله ورحمته ولطفه وأن ينتظر حسن موعـــوده من خلال المزيد من التنفل والتقـــرب والتذلل والإخبات والمناجاة، وحين يسلك المؤمن هـذا المسـلك في إغنـاء الـروح فسـوف يُفاجأ بحجم المسـرات الـتي سـتغمره، وما أعظم قول الله تعالى في الحديث القدسي:"وما تقـرب إليّ عبـدي بشـيء أحب إلي مما افترضـته عليـه، ولا يـزال عبـدي يتقـرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الـذي يسـمع به وبصـره الـذي يبصر به ويـده الـتي يبطش بها ورجله الـتي يمشي بهـا، ولئن سـألني لأعطيّنــه، ولئن اســتعاذني لأعيذنّــه" رواه البخــاري. إن العبارات لتعجز فعلاً عن وصف كرم الله -عز وجل- ورحمته بعباده، وليس علينا إلاّ أن نباشر العمل لنقطف الثمر.
2) نحن في حاجة إلى ألاّ نقع أسرى الأوهام: أوهام الشهرة والثراء والقـوة والسـعة والسـيطرة... لأن الواحد منا إذا وقع في مصـيدة شـــيء من هـــذا، فإنه ســـوف يقع ويلقى حتفه وهو يـــركض خلف السراب. لنبدأ والنهاية في أذهاننا، وهي نهاية واضحة، ولا نحتاج إلى ذكـاء كبـير كي نـدركها، الـدنيا محـدودة، ومحـدود كل ما فيها من مسرات وآلام وأمجاد وأزمات.. كل ذلك محدود ومؤقت وزائل، وإن إدراكنا لهذه الحقيقة سـيخفف من الجـزع الـذي يسـيطر على بعض منـا، كما سـيخفف من الأشر والبطر الـذي يسـيطر على كثـيرين، ولنتأمل قول الله تعـالى: (ما أصـاب من مصـيبة في الأرض ولا في أنفسـكم إلا في كتـاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسـير* لكيلا تأسـوا على ما فـاتكم ولا تفرحـوا بما آتـاكم والله لا يحب كل مختال فخور) [الحديـد:22-23]. التـوازن مصـدر لخـير عظيم، لكنه يحتـــاج إلى وعي واجتهـــاد وشـــيء من الســـيطرة على الأهـــواء والرعونـــات النفســـية، التـــوازن فضـــيلة من أعظم الفضـــائل؛ لأن الشخص المتوازن شخص نجح في إيقاف فضائله عند حدود معينــة، فلم تنقلب إلى رذائل، إنه كريم كرماً لا يصل إلى حد التبذير، ومدبر لأموره تدبيراً لا يصل إلى حد الإمساك، ومقبل على الآخرة إقبالاً لا

ينسيه الدنيا، كما أنه يكسب رزقه ويحسّن أوضـاعه المعيشـية على نحو لا يصرفه عن آخرته..
3) هذا الزمان هو زمان الإبـداع والفكر والابتكـار والمرونة والتكيف وإدارة المـوارد والإمكانـات، هو عصر عـاد فيه الاعتبـار للإنسـان وإمكاناته الهائلة بعد أن تم اســتعباده في عصر الضــعافة، ويكفي لتأكيد هذا ما ذكره بعض الباحثين من أن تكلفة المنتجات قد اختلف توزيعها اليوم عما كان قبل ثلاثين سنة، فقد كـان 20% من التكلفة يذهب للإبداع والابتكار و80% للمواد الأوليـة، أما اليـوم فقد اختلف الأمـر؛ إذ إن 70% من التكلفة يعـود للمعرفة والإبـداع الإنسـاني و 30% للمـواد الأولية وهـذا يعـني أن الـذين لن يعلّمـوا ولن يتعلمـوا بطريقة ممتازة سيجدون أنفسهم فعلاً في ورطة كبيرة مهما كـانت وفـرة المـواد الأولية لـديهم كبـيرة، وذلك لأن دورها في صـناعات المسـتقبل وفي كسب المنافسة العالمية سـوف يـتراجع يومـاً بعد يوم!
ماذا يعني هذا بالنسبة إلينا؟
إنه يعني الآتي:
أ- الحرص على تلقي العلم في جامعات مرموقة.
ب - اعتماد التعلم مدى الحياة مبدأ في اكتساب المعرفة.
جـ - اكتساب المهارات المتجددة، والسخاء في دفع تكاليف ذلك.
د - تأهيل النفس للعمل ضمن فريق.
هـ- الاستفادة القصوى من الوقت.
و- العمل على النفس الطويل، وامتلاك الرؤية الإستراتيجية.
كل شـيء في العـالم يتغـير ويتجـدد بسـرعة كبـيرة، وعلينا أن نفتح أعيننا على ذلك جيدًا حتى لا نجد أنفسنا في أزمات خانقة، لا نعـرف السبيل إلى الخروج منها.
وعلى الله قصد السبيل..
=================

مكافحة العماء

د. عبد الكريم بكار 27/11/1427
18/12/2006
يـأتي الواحد منا إلى الـدنيا وهو لا يعلم شـيئًا، ويخـرج منها بعد عمر مديــد، وهو لا يعــرف إلاّ القليــل، ويجهل الكثــير الكثــير، وهو بين القدوم النضر المتفتح، وبين الأفول الذابل الواهي، ويبذل الكثير من الجهــد، ويلاقي الكثــير من العنــاء في ســبيل امتلاك رؤية حســنة

لمحيطه ورؤية الجديد المــؤثّر في معيشــته، وفي ســبيل مكافحة العمــاء (اللاتكــوّن). هــذا الإنســان المحــدود، يواجه على نحو دائم مشكلة إدراك الأشياء على ما هي عليه، ومشكلة التعامل معها على النحو الصـحيح. والمشـكلة الأكـثر تعقيـدًا تكمن في جهله بقصـوره وضـعف إمكاناتـه، مما جعله المخلـوق الأكـثر إسـرافًا في الادعـاء والتبجّح في هذا الكون!

نحن في حاجة حقيقة إلى إنشــاء (علم الطــرق المســدودة) أو ما يمكن أن يُسمّى بـ (علم القصور الذاتي) أو (علم الجهل)، أي نحتاج إلى تنظيم معرفة تمكننا من أن نتحـدث كثـيرًا عن الأشـياء الـتي لا نعرفها والغوامض التي لا نفقهها، والفنون والمهارات التي لا نتقنهـا، كما تمكننا من تلمس الحــــدود الفاصــــلة -على نحو مقبــــول- بين القـريب والبعيـد، والصـعب والسـهل، وما نسـتطيع تغيـيره، وما لا نسـتطيع، وما نملكه وما لا نملكـه... ونحن في حاجة إلى هـذا العلم حـتى نقلل من إمكانـات الخطـأ، وحـتى نقلل من الـنزاع والجـدال العقيم، كما أننا في حاجة إليه من أجل توفير الجهد والــوقت، فنحن حين نعـرف الطـرق المسـدودة، نمضي في الطريق المفتـوح بثقة وطمأنينة، وحين نعرف ما لا نستطيع فعله، نُعرض عنه، وحين ندرك ما لا نستطيع دفعه، نسلِّم لله -تعالى- به، ونحتسب فيه. لدينا مئات الآلاف بل عشـرات الملايين من العلمـاء والبـاحثين الـذين يتحـدثون عما يعرفـون وليس لـدينا إلاّ الـنزر القليل من الـذين يتحـدثون عن المشكلات غير المحلولة وعن المعلومات الناقصة والخبرات الفجة، وقد أدى هذا إلى وجود ضـعف شـديد في تـراكم الخـبرات المتعلقة بالموضوعات الشائكة والمسائل المستعصـية، كما أدى إلى أن يبـدأ البـاحثون الجـدد من نقطة الصـفر، كما يبـدأ الطفل رحلة المعرفة بتعلم كتابة اســمه! لهــذا فنحن في أمس الحاجة إلى أن ننشر كل المفاهيم والمعـارف والخـبرات ذات الصـلة بما نجهلـه، وبما أعيـان أعيانا فهمه، وأتعبتنا الإحاطة به.

دعونا نتساءل في البداية عن الأسباب الجوهرية لقصورنا في الفهم وارتباكنا في التعامل المعــرفي مع الكثــير من القضــايا والمســائل المتنوعــة، ثم نتحــدث بعد ذلك عما يفرضه علينا ذلك القصــور من مواقف وسلوكات.

1- البشر بمجملهم لا يعرفون تفاصـيل كل ما يجـري، فأنا لا أعـرف مـاذا يجـري الآن في أوروبا أو إفريقيــة، والــذين هنـاك لا يعرفــون تفاصيل ما يجري في آسـيا، بل إن أبنـاء القرية الواحـدة لا يعرفــون

تفاصيل كل ما يجري في قريتهم على نحو مباشرين نقل وإخبار من بعضهم إلى بعضهم الآخر. أضف إلى هذا أن العلم الذي تراكم لــدى البشــرية لم يتوصل إلى كشف كل العناصر المكونة للبيئــة، ولا إلى كشف العلاقات التي تربطها والتفـاعلات الـتي تجـري بينهـا، كما أن البشر لا يعرفون أسباب ما يجري أو كل ما يجـري على وجه دقيـق، وعلى سبيل المثال فإن هناك حزمة كبيرة من الأمراض التي تصيب الإنسان والحيـوان، وليس هنـاك من يعـرف أسـبابها، ولا من يعـرف العلاقات التي يمكن أن تربط بين عشرة أعشاب نـادرة في الصـين ومرض نادر وغامض في إفريقية. إن الجهل بما يجري وببعض أجزاء وجودنا على هـذه الأرض وبالعلاقـات الـتي تتبادلها الأشـياء... جعل مجـال الظن والشك والـوهم والتخـرص والإدعـاء والتقـول واسـعًا للغاية، وهذا وحده كافٍ لجعل رؤى أفضل النـاس عقـولاً تضـطرب، وتحار حيال أعداد كبيرة من الظـواهر والقضـايا الطبيعية والإنسـانية والحضارية.

2- من الواضح أن القصــور الــذاتي هو الطــابع الأساسي للوجــود الإنسـاني، وسـمة القصـور الـذاتي هـذه دفعت النـاس دفعًا إلى أن يعتمدوا على بعضهم في فهم الوجود؛ فهنــاك من يعلِّم، ومن يتعلم، وهناك من يستشير، ومن يُشير، ومن يـرى الشـيء، فيحـدِّث به من لم يره، ومن يعقل الشيء، ويدرك تفاصيله وخفاياه، فيشــرحه لمن لم يسمع عنه إلاّ القليل. هذه العلاقات الاعتمادية تقوم أساسًا على (اللغة) المنطوقة والمكتوبة، حتى الرموز والإشـارات -مثل لوحـات التحذير وإشارات المـرور- تعتمد في دلالتها على اللغـة، وهنا تـدخل البشرية في تعقيد جديـد؛ إذ إن اللغة منتج بشـري، وما أنتجه البشر يظل قاصرًا، ولهذا فإن لدى علماء اللغات في أنحـاء العـالم إجماعًا بــأن النظم اللغوية نظم قاصــرة في التعبــير عن حاجــات البشــر، وقاصرة عن تحقيق التواصل الكامل بينهم، وهـذا القصـور يـأتي من قصــور نظم الكلام؛ حيث إننا في أحيــان كثــيرة لا نجد الكلمــات والتعبيرات التي تترجم أفكارنا ومشاعرنا على نحو دقيق، وكما نريد بالضبط، وكثيرًا ما نقول حين نراجع في بعض ما نطقناه: إننا لم نرد هذا، وإنما أردنا كذا، ولكن خاننا التعبـير؛ كما أن قصـور اللغة يتجلى في قصـور نظم الفهم والتعبـير والتأويل لما نسـمع، ونقـرأ ووجـود عشــرات التفاســير المطولة والمختصــرة لكلام الله العزيز دليل واضح على ما نقـول، والخلافـات الذائعة بين الفقهـاء الدسـتوريين على مسـتوى العـالم وبين القضـاة والمحـامين، تقـدم أدلة إضـافية

على حقيقة ما نقول. وشـيء من إشـكال اسـتخدام اللغة يعـود إلى طبيعة تــــركيب (المخ البشـــــري)؛ إذ إنه يتعامل مع اللغة الكمية والدلالات الرقيمة والإحصائية بكفـاءة عاليـة، لكنه يُبـدي الكثـير من الارتبـاك حين يتعامل مع ما هو من قبيل اللغة الكيفيـة، فنحن نعـبر عن الصدق والأمانة والشجاعة والاجتهاد والخمول والفرع والرضا... بتعبيرات كثيرة، يتلقفها الـدماغ على أنها تعبـيرات غـير دقيقة وغـير جادة وغـير وافيـة، ولهـذا فإنه يسـمح لنفسه بتأويلها على نحو شـبه احتياطي، مما يجعل التواصل العقلي والشعوري لـدينا واهيًا وموضع تسـاؤل. ولا أعـرف أي دواء حاسم لمعالجة هـذه المشـكلات، لكن يمكن عن طريق إعادة تكوين العادات الكلامية لدى الناس أن نحرز بعض التقدم على هذا الصعيد

مكافحة العماء (2)

د. عبد الكريم بكار 21/12/1427

11/01/2007

تحدثت في المقـال الأول عن أن الإنسـان يظل طيلة عمـره يكـافح من أجل رؤية الأشــياء على ما هي عليــه، ومن أجل الاهتــداء إلى الأسلوب الأمثل في التعامل معها، واليوم أكمل الحديث عن أسباب هـذه المعضـلة وعن بعض ما يحسِّـن من سـوية التعامل معها عـبر المفردات الآتية:

1- عقولنا لا تتعامل مع القضــــايا والمشـــــكلات وكل أشـــــكال الموجودات على نحو مباشر وإنما من خلال تجسـيدها في مجموعة من الصــــور المترابطة والناشـــئة عن الرمـــوز والمصـــطلحات والتعريفات والتقسـيمات والأحكـام ذات الصـلة بكل قضـية من تلك القضايا... إن من الواضح أن شدة الذكاء وضخامة التحصيل العلمي والاحـتراف المنهجي في البحث- لم تكن كافية في يـوم من الأيـام لقطع دابر الـنزاع حـول أي مما ذكرنـاه، وعلى سـبيل المثـال فـإن اختلاف الناس حول الكثير من (التعريفات) جعلهم يقفـون عـاجزين أمام حسم القضايا المرتبطة بها، وسأذكر هنا مثالاً سريعًا لذلك من خلال ذكر التسـاؤلات الـتي تـدور حـول تعريف (الالـتزام) وتعريف الشخص (الملتزم): حين نقول: هذا مسلم ملتزم، فماذا يعني ذلك؟ هل يعني أنه يؤدي الواجبات والفرائض ويتجنب الوقـوع في الكبـائر والموبقــــات، أم أنه يعــــني أيضًـــا أداء النوافل وفعل الســـنن والمسـتحبات، واجتنـاب ما هو من قبيل المكـروه والمرغـوب عنه وخلاف الأولى؟ وإذا وقع الملــتزم في كبــيرة، فهل يخرجه ذلك من

دائــرة الالــتزام؟ وإذا كــانت التوبة من الكبــيرة تعيد صــاحبها إلى مصاف الملتزمين، فما الموقف من الذي يقع كل أسبوع في كبــيرة ولا يلبث أن يُتبعها بتوبــة؟ وكل هــذا مبــني على أن تعريف الكبــيرة متفق عليه، وليس الأمر كذلك على ما هو معروف ومشهور! ونظرًا لغموض كل ذلك، فإن الناس يحاولون دائماً التشبث بأي شــيء من أجل العثور على معيار يستعينون به على إصـدار الحكم الملائم. وأنا أذكر كيف أن الناس في كثير من أصقاع العـالم الإسـلامي ينظـرون إلى من أدى فريضة الحج على أنه قد بلغ مرتبة عالية جــــــداً في التمسك والالتزام، ولهذا فإنهم يظلــون يسـتهجنون منه الوقــوع في أي مخالفة شرعية، ولطالما سمعنا من يقـول: حـاج، ويكـذب! حـاج ويأكل حقــوق النــاس! حــاج ويســمع الأغــاني!.. ولطالما رأينا من يغضب إذا لم تقرن اسمه بلقب حـاج، لأنك بـذلك تـنزع منه وسـاماً عظاماً، أو تبدو في صورة المسـتخف بـه! وهـذا كله مع أن شـعيرة الصــلاة أعظم حرمة عند الله تعـالى من شــعيرة الحج أو الزكــاة.. ومع أن المحافظ على الصـــلاة يقـــوم بعمل عظيم، ويبـــذل جهـــداً مستمراً أكبر بما لا يقارن من الجهد الذي يبذله الحـاج، لكن النـاس نظروا -بحسب أمـزجتهم واجتهـاداتهم- إلى أن الحج يشـكل فاصـلاً كبيراً جداً بين تـاريخين أو مرحلـتين من مراحل العمـر، ولهـذا فـإن الشخص بعد الحج يجب أن يكون شخصاً مختلفاً جداً عما كان عليه قبله!

ويختلف النـــاس في الملــتزم من وجه آخر حيث ينعته بعضـــهم بأنه متعصب، وينعته آخرون بأنه متشدد، وينعته فريق ثـالث بأنه منغلـق، وأضــاف الغــرب في الســنوات الأخــيرة والحــاطبون في حباله من قومنا، نعوتـاً جديـدة لمن عليهم ملامح الالـتزام، ومن تلك النعـوت: (إرهـابي)، (متطـرف)، (أصـولي)، (ظلامي)، (رجعي)، (متخلـف)... والعجيب أن كثــيراً ممن يطلقـــون هــذه الألقــاب على المتــدينين، يمتنعون عن مناقشـتها والتـداول في مـدى انطباقها على من يمكن أن نسـميه (المسـلم الصـالح) أو (المسـلم الملـتزم). وعلى سـبيل المثال فإن الولايات المتحـدة تـرفض رفضـاً باتـاً عقد مـؤتمر دولي من أجل تحديد مفهوم (الإرهاب) حتى يعرف العالم: هل ما يقوم به الفلسـطينيون ضد اليهـود هو من بـاب مقاومة المحتل أو من بـاب الإرهاب والعدوان على الأبرياء؟!

وهذا يعني ببساطة أن القـوى النافـذة تضر من دفع ضـريبة وضـوح المصطلحات والتعريفات، وتستغل غموضها للبطش بأعدائها، وهـذه

القوى قد تكون داخل البلدان الإسلامية، وقد تكون قوى مناوئة ومعادية لها.
قد تقول لي: قد عرفنا الداء، وعرفنا حجم العماء الرابض في هذا التعريف، فما العمل؟
الجواب يتمثل في الآتي:
أ - حين نضع تعريفاً لأي شيء، فإن من المتوقع أن يعبر ذلك التعريف عن مدى إحاطتنا بما نعرِّفه، وعن اعتقادنا فيه ورؤيتنا له وبما أن كل ذلك يتفاوت بين أمة وأمة وأحياناً بين شخص وآخر، فإن من غير المستغرب أن نجد لكثير من القضايا الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية والحضارية عدداً من التعريفات المتباينة. وحين يوجد للشيء الواحد أكثر من تعريف فإن المجال يصبح مفتوحاً أمام الانتقاء والتحيز ومتابعة الأهواء وتمرير المصالح المشروعة وغير المشروعة. الخلاصة المستفادة من هذا هي أن الحسم الكامل للخلاف في التعريفات سيظل مفقوداً. وأن الاستغلال السيئ لذلك سيظل مستمراً.
ب - مصطلح (الالتزام) و (الملتزم) مصطلح جديد، حيث لا أعرف أن أحداً من السلف استخدمه كما نستخدمه اليوم، وهذا يعني أن تعريف الالتزام هو أيضاً جديد في هذا الحقل، ولهذا فإن علينا أن نتساءل ما المصطلح القديم الذي استخدمه السابقون في سياق الدلالة على الاستقامة الدينية. هل هو مصطلح (صالح) أو (تقي) أو (ورع)؟ أو ماذا؟ وإذا استطعنا إلحاق مصطلح (ملتزم) بواحد من هذه المصطلحات فهل نستطيع الاستفادة من مدلول المصطلح القديم في توضيح المصطلح الجديد؟ أو يكون الخيار هو إلغاء المصطلح الجديد؟ أو ماذا؟
ج - أحياناً قد نستطيع التغلب على مشكلة غموض التعريفات والمصطلحات من خلال وضع التقسيمات والتنويعات، كما فعل بعض نابهي علماء العقيدة والأصول والفقه حين قالوا: هناك: نفاق عقدي ونفاق عملي، وهناك إيمان دون إيمان، وكفر دون كفر، وفسق دون فسق، ومن ثم فإننا نستطيع أن نقول: إن الالتزام درجات، وبذلك نكسر حدة الغموض والخلاف.
د - تفتيح الوعي الإسلامي على أهمية الوضوح في كل المسائل التي نبحث فيها فنتعلم كيف نصبر على بذل الجهد في تحديد المصطلحات والتعريفات، وتحرير مواضع النزاع، وذكر ما ليس مختلفاً فيه. وقد كان بعض علمائنا القدامى يذكرون عقائدهم في

بدايات كتبهم، فليتنا نفعل نحواً من ذلك بـذكر أكـبر عـدد ممكن من الأطر والمنطلقـــات والمفـــاهيم والمصـــطلحات والتعريفـــات والاحـترازات الـتي تسـاعدنا على حصر دوائر النقـاش في حـدود ضيقة، كما تساعد من يسمعنا ويقرأ لنا على فهم تعبيراتنا بأقل قدر ممكن من الوهم والالتباس

مكافحة العماء (3)

د. عبد الكريم بكار 6/1/1428

25/01/2007

من المهم أن نـدرك أن الأصل في النـاس هو الجهل حـتى يتعلمـوا، كما أن الأصل في أنمـاط تفكـيرهم هو الاعوجـاج والفجاجة إلى أن يدرّبوا أنفسهم على التفكير القويم، وقد صرّح القرآن بهذه الحقيقة الناصعة حيث قال –سبحانه-: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ) [سورة النحل: 78].

إن من الواضح جدًا أن الناس يكرهون العمـاء، ويكرهـون الجهل بما يجري حولهم، كما تكره الطبيعة الفراغ، ولهذا فإنهم يسـارعون إلى إصـدار الأحكـام وتقرير المسـائل مهما كـانت مرتكـزاتهم المعرفية ضـئيلة، وسـطحية، وهم بـذلك يزيـدون الطين بلـة، ويفـاقمون المشكلة.

كثـير من النـاس لا يعرفـون أن (العقـل) من غـير معرفة هبـاء، وأن الـذكاء من غـير معرفة جيـدة لا يكـون كافيًا لتشـكيل التصـوّرات الصـحيحة وإصـدار الأحكـام الرشـيدة... وهـذا التـوهّم يفسِّـر جزئيًّا تقاعس كثير من بني جلدتنا عن القـراءة واصـطحاب الكتـاب، وعن البذل السخي على التعلم واكتساب المعرفة. وهذه إشارات سريعة في هذه المسألة:

1- إن من معـايير التقـدم الحضـاري مـدى ما يتـوفر لـدى البلد من معطيات ومعلومات وأرقام وإحصاءات... ذات صـلة بالحيـاة اليومية للناس، وذات صلة باهتماماتهم ومشروعاتهم المسـتقبلية. إنّ تـوفّر القـدر الكـافي من المعلومـات والأرقـام يحسِّـن درجة الـوعي لـدى الناس، ويساهم في ارتقـاء مسـتوى تفكـيرهم، وهو إلى جـانب ذلك يوفر لهم قدرًا من الأمان ضد الغش والتزوير والتزييف الـذي ينتشر اليوم في كل مجالات الحياة، وعلى نحو لم يسبق له مثيل!

في الدول الفقيرة والنامية شح كبير في المعلومات، وذلك لأن بنـاء الهياكل المعلوماتية مكلف جـــدًا، ويحتــــاج إلى درجة من التنظيم

ليست متوفرة لدى كثير من الدوائر والجهات والمؤسسات الحكومية والأهلية. وهذا الفقر المعلوماتي يشجِّع الكثيرين على الكذب واللعب بعقول الناس وخداعهم، وفي بلدان إسلامية كثيرة تتحكم الحكومات وموظفوها بإدارة المعلومات والإحصاءات، وفي ظل ضعف المسألة والمحاسبة الشعبية فإن موظفي الدولة يستطيعون نشر ما يريدون من أرقام، وحجب ما لا يريدون نشره على مقتضى مصلحة الحكومة ومصالحهم الخاصة، وهذا جعل الثقة بما يُنشر ضعيفة، وأحيانًا معدومة، وقد قال أحد الكتاب يومًا: إننا لا نحصل على أي أرقام صحيحة؛ حتى درجات حرارة الطقس هناك مَن يتلاعب بها! وهذا الكلام مع أنه لا يخلو من المبالغة إلاّ أنه يشير إلى الإحباط الذي يعاني منه كثير من الناس على هذا الصعيد. ومن هنا فإنه لم يعد من المستغرب ما يُلاحظ من ذلك الارتباط الوثيق بين تدني مستوى الشفافية والإفصاح وبين الرشوة والفساد الإداري والمالي وخراب الأخلاق والذمم، وإن التقارير السنوية لمنظمة الشافية الدولية، تضع معظم الدول الإسلامية في ذيل الدول على مستوى النزاهة والاستقامة الإدارية والمالية؛ وهذا على مقدار ما هو مخجل، محفّز لنا على التحرك من أجل فهم الأسباب الموضوعية والتفصيلية لذلك، ومحاولة معالجة تلك الأسباب.

2- لم يستطع علماء الأمة ومثقّفوها الشرعيون ودعاتها نقل الإنجازات الضخمة لعلماء الحديث على مستوى التثبّت والتدقيق في الأخبار والآثار المروية، لم يستطيعوا نقلها من الإطار (الأكاديمي) والتنظيري إلى الثقافة الجماهيرية العامة؛ إذ لا نجد إلاّ القليل من التحرّز تجاه تداول الشائعات والأخبار الكاذبة، وإلاّ القليل من التبصُّر في مضمون ما يتم تداوله ومدى وثاقته وصحّة نسبته إلى قائله، ولهذا فإن لدينا الكثير الكثير من الخرافات، والكثير من المعطيات اللينة التي لا تصمد في وجه أي تمحيص أو اختبار. إن العقل البشري في بنيته العميقة يقبل الخداع والتضليل على نطاق واسع، ولهذا فإن الأكاذيب التي يتم نشرها تؤثر في أحكامنا وطروحاتنا على نحو هو أكبر مما نظن، وهناك شريحة واسعة من الناس يمكن وصفها بأنها ضحية حقيقية للمراوغة اللغوية وصناعة الكذب المتعاظمة!

ليس هناك من حل لهذه المعضلة سوى إيجاد ثقافة الاهتمام بالأرقام والإحصاءات، وعلى الجماعات والمؤسسات والجامعات الإسلامية أن تجعل من نفسها قدوة في الشفافية والإفصاح

والصدق، فتؤسس أقسامًا للإحصاء والمعلومات تابعة لها، وتكون مستعدة لمناقشة ما يُقال حول المعلومات التي تنشرها. وعلى الدول أن تُلزِم الدوائر الحكومية والشركات والمؤسسات الخاصة بالقيام بنحو من ذلك. إن المعلومات مثل السياسة أكبر من أن تُسنَد إلى جهة واحدة، وإن وجود معلومات وأرقام واردة من جهات مختلفة، يساعد الناس على تشكيل رؤى معتدلة للقضايا الحياتية المختلفة، ويساعدهم في الوقت ذاته على النجاة من مآسي الأرقام المغلوطة.

3- من أمن العقوبة أساء الأدب، ومن أمن الفضيحة تمادى في السوء والرذيلة، هذه هي طبيعة الناس، وهذا هو حال كل الذين لا يجدون رادعًا من دين أو خلق متين. ومن الواضح أن ضعف النقد الثقافي والاجتماعي لدى الكثير من الشعوب قد جرّأ من لا يعرف على قول الخطأ والباطل، وشجع المنحرفين على المضي في طريق الانحراف. ومن هنا فإن تنشيط سوق النقد وتوسيع مجال حرية التعبير يشكلان نقطتين مهمتين على صعيد مكافحة تزوير المعلومات، والحد من الشائعات وسيطرة الرؤى الأحادية. إن الاستقامة المعرفية تحتاج إلى اعتماد أسلوب نقد الفكرة بالفكرة، ومقارعة المعلومات بالمعلومة، وتمحيص البحث بالبحث، ومواجهة الاقتراح باقتراح آخر.... وما لم يتم اعتماد هذا الأسلوب، فإن من المتوقع أن يستمر الإنتاج الثقافي الرديء، والقادر على طرد الإنتاج الجيد، ومحاصرته كما تفعل العملة الرديئة بالعملة الجيدة!

مكافحة العماء (4)

د. عبد الكريم بكار 24/1/1428

12/02/2007

السؤال الذي يطرح نفسه بعد كل ما ذكرناه هو: ما الذي يمكن لهذا الإنسان المسربل بالنقص والقصور أن يفعله من أجل فهم الأحداث والأشياء والأوضاع، ومن أجل تفسير وقائع الماضي، واستشراف اتجاهات المستقبل؟

لا شك في أننا نستطيع أن نفعل الكثير، كما أننا سنجد أنفسنا عاجزين عن فهم الكثير، وهذا مما لا جدال فيه؛ فالرشد المطلق والوعي الكامل والرؤية المحيطة ليس من شأن الإنسان الظفر بها، وذلك ببساطة لأنه ليس مؤهلاً لذلك في تركيبه العقلي واستعداده الفطري، فما الذي يمكن أن نفعله، أو ما ملامح ما يمكن أن نفعله؟

لعلي أشــير على نحو مــوجز إلى بعض الأسس المهمة على النحو الآتي:
1) قد يكــون من المفيد أن ننظر إلى معــارف النــاس وخــبراتهم المتعلقة بأي قضية من القضايا على أنها ناقصة وغير ناضجة، وليس في هذا أي غمط لأحد، أو استخفاف بأي خـبرة؛ فما من أحد يعـرف شيئاً أو يـدّعي الإلمـام بشـيء إلاّ وهنـاك من هو أدرى وأعلم منـه، كما قـال جل شـأنه:(نَرْفَـعُ دَرَجَـاتٍ مَنْ نَشَـاءُ وَفَـوْقَ كُـلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) [سورة يوسف: من الآية 76]. هذه النظرة الموضـوعية لأهل العلم والخبرة تبيح لنا أن نتساءل ونناقش كل كاتب ومتحدث، وتبيح لنا أن نضع أفكاره وأطروحاته واجتهاداته على طاولة التشـريح، ولِمَ لا والمفكـرون والبـاحثون المتخصصـون حين يخرجـون علينا بشـيء جديـــد، فـــإنهم في الحقيقة يعـــبرون على نحو ما عن وجهة نظر شخصية أو فئوية، ومن حقنا أن نبحث ذلك ونقدم وجهة نظرنا فيـه. هـذه الرؤية المنهجية للمعرفة تسـاعدنا على أن نكـون شـركاء في تطـــوير الفكر والعلم عوضـــاً عن أن يكـــون دورنا مجـــرد التلقي والاستسلام للباحثين والخبراء، وهذه النظـرة هي نظـرة الراسـخين من العلماء وأهل البصـيرة العـارفين بعمليـات تكـوين الـرأي، ورحم الله تعالى الإمام مالك بن أنس حين كان يقرأ قوله تعالى:(إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) (سـورة الجاثيـة: من الآية 32): عنـدما يفتي في بعض المسائل العويصة.
2) نحن في الصحوة الإسـلامية نحتـاج من أجل مكافحة العمـاء إلى أن نصغي بتركـيز شـديد إلى ما يقوله عنا المخـالفون لنـا، ومن هم خارج دائرة الصحوة مهما كـانت اتجاهـاتهم ومنطلقـاتهم، وذلك لأن الإنسان أي إنسـان يـرى الأشـياء ويفسر الأحـداث من أفق عقائـده ومسلّماته وأفكاره وخلفيته الثقافيـة.. ونحن حين نسـتخدم كل ذلك في صياغة الرؤى الجديدة لسنا معصومين، ولسنا دائمـــاً في أحسن أحوالنا، بل هنـاك قصـور منهجي ومعـرفي واضح لـدى كثـيرين منـا، استماعنا باهتمـام لما يُقـال فينا وعنّـا، ليس بسـبب أننا غـير واثقين من منطلقاتنا، ولكن لأننا نريد أن نوسع دوائر الرؤية لدينا، ونريد أن نسـتفيد من أدوات النقد والتحليل الـتي يسـتخدمها الآخـرون، ومن الواضح في هذا السياق أن كثـيرين منا حصـروا إطلاعهم في دائـرة الثقافة الشرعية والتراثية عامة، ولم يقرؤوا شيئاً ذا قيمة في علوم الحضارة والمستقبليات، ولم يطلعوا على كتب المنطق الحـديث ولا على شيء من كتب الفلسفة الإسلامية وغير الإسلامية، ولهـذا فـإن

طروحاتهم تكـون محـدودة بسـبب ارتكازها على ألـوان محـددة من المعرفة، إنهم يفكرون داخل الصندوق، ولا يعرفون شيئاً مهمـاً عما يجـري خارجـه، مع أن الأحـداث الجارية تتـأثر إلى حد بعيد اليـوم بتوجّهـات القـوى النافـذة على الصـعيد السياسي والإعلامي والاقتصـادي، وكثـير من تلك القـوى لا ينتمي لا إلى العروبة ولا إلى الإسـلام، نحن نعتـبر معرفة الحقيقة هي الأسـاس في كل جهد إصـلاحي ونهضـوي، ويجب أن نحـرص عليها حـتى نسـتطيع وصف العلاج الناجح الناجع للواقع الإسلامي.

3) ثمة شـيء أساسي على طريق وضـوح الرؤيـة، وهو البحث المخلص والصادق عن الخطوط العريضة التي يتحرك فوقها الناس، ومحاولة فهم أكـبر قـدر ممكن من سـنن الله تعـالى في الخلـق، ومحاولة فهم طبائع الأشياء التي فطرها الخـالق سـبحانه عليهـا، إن لكل مجال من مجالات الحياة سننه وقوانينه التي تحكمـه، وله قيمه وأخلاقياتـه، كما أن له تداعياته وضـروراته الخاصة بـه.. وفهم كل ذلـك، يسـاعدنا مسـاعدة كـبرى على تحصـين أنفسـنا وعقولنا من سيطرة الرؤى المبتسرة والمعلومـات المزيفة والمـزورة وسـيطرة الرغبـات والأهـواء المضـلة المضـللة، وقد كـان علي رضي الله عنه يقـول:"رأي الشـيخ ولا رؤية الصـبي" أي أن حـدس كبـار السن وتخمينهم واجتهـاداتهم أولى بالصـواب والقبـول من رؤية الصـبي للأشياء بعينه، وما ذلك إلاّ لأن الخبرة التي لدى الشيوخ تمكنهم من امتلاك فهم أعمق للنظم والقوانين الكونية، وفهم أعمق للوضـعيات التي أوجد الله تعالى فيها الأشـياء، وعلى سـبيل المثـال فـإن الـذي نخافه على الشركاء هو البغي والعدوان، والذي نخافه على الفقـراء هو الـذل والهـوان، أما الـذي نخافه على الأغنيـاء، فهو الطغيـان والاسـتعلاء، كما أننا نخـاف على الوُعّـاظ من الوقـوع في الكـذب والمبالغة، ونخـاف على العسـكريين من التفكـير الحـرفي، ونخـاف على المفكـرين من الجفـاف الـروحي وعلى العبـاد من التفكـير الخرافي.. إننا نخـاف على هـؤلاء من الوقـوع في هـذه المشـكلات؛ لأننا نعرف طبيعة هذه المجـالات والاختصاصـات والوضـعيات، ومما يؤسـفني على هـذا الصـعيد أن أقـول: إننا لم نبـذل إلاّ القليل من الجهد المطلوب لفهم هـذه الأمـور، مما أوجد لـدينا قـدراً غـير قليل من الاضـطراب المنهجي، مع أن المتأمل في آيـات الـذكر الحكيم يجد الكثير الكثير من الأنوار الهادية إلى السنن والدالّة عليها!

مكافحة العماء (5)

د. عبد الكريم بكار 4/2/1428
22/02/2007
لـدينا اليـوم عـدد كبـير من المؤشـرات المعرفيـة، وكم ضـخم من المعلومات المتعلقة بكل جانب من جوانب الحيـاة، وهـذه الوضـعية تمكن كل مــدعٍ أن يقــول الكثــير مما يريد قولــه، مما جعل معرفة الصـواب والحقّ على جـانب كبـير من التعقيـد، وليس لـدى أحد من الناس حلول كاملة لذلك، لكن هناك محاولات ومقاربات جيدة، ومن تلك المقاربــات الســعي إلى فهم الأمــور عن طريــق(النمــاذج)، والحقيقة أن ما سـنه الله -تعـالى- من سـنن في الخليقة بالإضـافة إلى ما فطر عليها الأشـياء من طبـائع، إلى جـانب تشـابه كثـير من ردود أفعال الناس على التحديات التي يواجهونهـا، إن كل ذلك يـتيح لنا بناء(هيكل) من الأفكار والمشـاعر والصـور الذهنية والانطباعـات ... نتمكن من خلاله فهم الأوضــاع والأحــوال في بلد من البلــدان أو مؤسسة من المؤسســات... إننا في بنــاء ذلك الهيكل أو النمــوذج نستثمر المعلومـات المتاحة في تكـوين رؤية لحقيقة ما يجـري على نحو استشرافي مجمل وحـذر، فلا نغـوص في التفاصـيل، ولا نمضي مع الأقاويل والشائعات، ونعرف كيف نتعامل مع المعلومات الزائفة والمجازفة. وهذه بعض الأمثلة الشارحة لما نريد الوصول إليه:

السلوك المستعمر:

حين تقوم دولة بغـزو دولة أخـرى واحتلال أراضـيها، فما المحـددات العامة لسلوك الدولة الغازية؟

الجواب باستخدام (النموذج) وهو الآتي:

تقـوم الدولة الغازية بحملة إعلامية تهـيئ النفـوس والعقـول لقبـول الاحتلال، ولهذا فإن كل الحملات الاستعمارية تبدو في نظر القائمين بها مشروعة؛ فهي إما لاسترداد حقوق مغتصبة، وإما لنصرة حليـف، وإما للوقاية من خطر محتمل، وإما استجابة لنداء استغاثة من بعض أهل البلد المغـزوّ.... أعـذار كثـيرة تُسـتخدم بغية جعل شـريحة من الناس -على الأقل- تقتنع بمنطقية الغزو أو الاستعمار. وهـذا يهـدف إلى إحـداث جـدل داخلي وخـارجي يخفف من وحـدة المعارضة ضد المستعمِر.

يحاول المسـتعمِر التحـالف مع بعض أهل البلد المسـتعمَر من خلال تـــوظيفهم في خدمتـــه، ومن خلال منحهم بعض الامتيـــازات، أي تحـويلهم من أنـاس يحملـون روح المقاومة إلى أنـاس يجـدون في استمرار المسـتعمِر فائـدة لهم. ومن هـؤلاء الحلفـاء يكـون الحكـام

المحليون والمرتزقة والجواسيس، وكل أولئك الذين يقومـون بتلميع صورة المستعمِر.
يحاول المستعمِر إيجاد مادة يتحـدث عنها الإعلام، ويتحـدث بها أهل البلد المسـتعمَر، وتلك المـادة تشـتمل في العـادة على صـور من رحمة المسـتعمِر وعدله وإنصـافه وتمدّنه ورقيّـه، كما تشـتمل على بعض المنجزات العمرانية، مثل الطرق والجسور والسدود وما شابه ذلك.
يسـعى المسـتعمِر إلى التـواري خلف بعض عملائه المحلـيين في الأمور المشـينة، فيوكل إليهم إصـدار بعض القـرارات السـيئة الـتي تثير حفيظة الناس، فيوكل إليهم كثيراً من أعمـال التعـذيب وفـرض الضرائب، وذلك لخلق شعور ليرى الناس بـأن مشـكلتهم الأساسـية ليست مع المستعمِر، وإنما مع بعض بني جلـدتهم، وهـذا يجعل أهل البلد مهيـئين لخـوض حـرب أهليـة، تضـعف الجميـع، وتجعل البعض يطلب النصـرة من المسـتعمِر على أبنـاء بلـده وإخوانـه. ويسـتفيد المسـتعمِر من هـذا فائـدة جُلّى تتمثل في تراجع حـدة المقاومة لوجوده، وفي شـعور بعض أهل البلد بضـرورة بقائه من أجل توفـير الحماية لهم، أو من أجل الحيلولة دون مزيد من التـدهور في الأمن والاقتصاد.
يربط المسـتعمِر الغـازي بين أبنـاء النخب في البلد المسـتعمَر وبين مؤسسـاته الثقافيـة؛ فيوفد البعثـات إلى جامعاته لتكـون عبـارة عن حوامل ثقافية من بلاده إلى بلادهم، وذلك من أجل تعزيز ارتبـاط المسـتعمَرين بالمسـتعمِرين، ومن أجل ضـمان اسـتمرار نفـوذه الثقـافي حـتى بعد رحيله عن البلاد المسـتعمَرة، وهـذا ظـاهر جـداً اليوم، فبعد مرور ما يزيد على نصف قرن على رحيل المسـتعمِرين مـازالت النخب الثقافية في البلاد المسـتعمرة قبل رحيله (......)بتغيـير ما يمكن تغيـيره من منـاهج التعليم، ويُعلي من مقـام لغته في المـدارس والجامعـات، كما أنه يربط أهل البلد المسـتعمَر بعقود واتفاقيـات طويلة الأجل تضـمن له الاسـتمرار في التـأثير في أوضاع البلاد التي انسحب منها.
قد يقول قائل: ما ميزات (مكافحة العلمـاء العمـاء) عن طريق بنـاء النماذج؟
أقول الميزات كثيرة وعديدة ففي مثالنا هذا نجد الآتي:
أ-حسم ما يمكن أن ينشأ من خلاف حـول تحديد ماهية تـدخل دولة في شؤون دولة أخرى، كما هو الشأن في العـراق وفلسـطين حيث

ترفض أمريكا وإسرائيل وصفهما بالمستعمرتين أو المحتلتين، وحين نفهم النموذج ونطبقه عليهما نجد أنهما دولتان مستعمِرتان بتوحش.
ب-فهم وتفسـير أنشـطة المسـتعمِر، فنحن من خلال فهم النمـوذج نستطيع فهم ونقد وتحليل سلوك المستعمِر، بل إننا نسـتطيع توقعه والتنبؤ بـه، وهـذا يسـاعد أهل البلد المسـتعمَر على عـدم الانجـرار خلف المستعمِر، كما أنه يوحّد صفوفهم في مقاومته.
ج-الاهتداء إلى أسلوب معالجة ظـاهرة الاسـتعمار ومعالجة أسـبابها والنتائج التي تترتب عليها.
د-العمل على تحصـــين البلاد من دخـــول الاســـتعمار، أي تحســـين أوضاعه حتى لا يكون قابلاً للاستعمار.

مكافحة العماء (6)

د. عبد الكريم بكار 18/2/1428

08/03/2007

ذكرت في المقال السـابق ضـرورة مكافحة العمـاء عن طريق بنـاء هيكل من الأفكـار والتصـورات والمعطيـات المتصـلة بسـنن الله –تعالى- في الخلق وما نعرفه من طبائع الأشياء، وقلت: إنه يمكن أن نسـمي هـذه الطريقة في مكافحة العمـاء بطريقة الفهم بوسـاطة (النماذج)، وذكرت مثـالاً لـذلك يتعلق بسـلوك المسـتعمر، ووعـدت بـذكر مثـال أو مثـالين من أجل توضـيح الفكـرة، وأنا الآن أنجز ما وعدت به:

الأخلاق والسلوكات الناجمة عن الزحام:

كيف يتصرف الناس حين يعيشـون في مكـان ضـيق ومـزدحم مـدةً طويلة من الزمان؟

هـذا السـؤال يتعلق بإحـدى الظـواهر الاجتماعية المهمـة؛ إذ إن من الملاحظ أن للمكان تأثيرًا كبيرًا في إبـراز أنـواع معينة من السـلوك وإثارة أنماط محـددة من المشـاعر، وسـيكون من المفيد جـدًا فهم ذلك عن طريق (نموذج) واضح المعالم. وهـذه محاولة صـغيرة على هذا الصعيد:

1- فطر الله -تعــالى- النــاس على حب التملك وحب الاســتقلال، ولهـذا فـإنهم يحـاولون الاسـتحواذ على أوسع مسـاحة ممكنة من الفضاءات المعنوية والمادية، فلا تكاد تـرى شخصًـا سـويًا يبحث عن الدونية والمكانة المنخفضة، كما أنك لا تكاد تجد شخصًا سـويًا يبحث عن مكــان ضــيق يقيم فيــه، أو يبحث عن شــخص يشــاركه في المســاحة المملوكة لــه. والــذي يبــدو أن هــذا الميل ليس خاصًــا

بالإنسان؛ فهناك دلائل عدة، تشير إلى أن كثيرًا من الكائنات الحيـة، يسعى إلى امتلاك حـيز خـاص بـه، وينظر إلى من يتجـاوزه على أنه عــدو، تجب مقاومتــه. وقد ذكر بعض البــاحثين أن بعض الأســماك يطلق رائحة كريهة من أجل منع أي كائن من الاقتراب من المساحة التي يعدها مجالاً حيويًا له!

2- هذا يعني أننا حين نضع عشـرة من الرجـال أو الأولاد في حجـرة ضــيقة يســكنها في العــادة شــخص أو شخصــان، فإننا نعرضــهم لصعوبات ومشاكسـات، تشـبه ما يتعـرض إليه المسـاجين في دولة متخلفة! ما النموذج الذي يقدمه هؤلاء العشرة على الصعيد الخلقي والاجتماعي؟ في ملامسة الجواب يمكن أن نقول الآتي:

أ - سيشعر كل من في المكان بالضيق وشيء من الاكتئاب والملل، وذلك لأن هــذه الوضـعية مخالفة لما فُطر عليه الإنســان من بسط ســلطانه ونفــوذه على أوسع مســاحة ممكنــة. وقد دل العديد من الدراســات على أن النــاس حين يعيشــون في مكــان واسع وأنيق يتبـادلون فيما بينهم مشـاعر أكـثر حميميـة، ويكونـون أشد تعاطفًـا. وحين يعيشــون في مكــان ضـيق أو قــذر أو فوضــوي قد بُعــثرت محتوياته، فإنهم يتبادلون مشاعر الضجر والتقزز والضيق.

ب - سيشــعر كل واحد من ســكان المكــان أن الــذين يســاكنونه يزيدون في ضيق المكان، ويشـكلون ضـغطًا عليـه، أي أن وجـودهم غــير إيجــابي، ويتمــنى لو كــان عــددهم أقــل، حــتى لو كــان أولئك الساكنون أخيارًا وطيبين أو كانوا إخوة وأقرباء، فالناس عند ازدحـام المصالح يقـدمون مصـالحهم في الأعم الأغلب، والإيثـار هو الشــيء القليل الذي يشبه الاستثناء والشذوذ.

ج - المــنزل الــذي يســكن فيه أولئك العَشَــرة ســيفقد قدرته على القيــام بوظائفــه؛ فالمكــان ككل الأشــياء يفقد الكثــير من ميزاته ووظائفه إذا حمّلته فوق طاقتـه: الجلـوس في ذلك المكـان والنـوم والحركــة... كل ذلك ســيكون غــير جيد ولا مــريح، وأمــاكن الخدمة الملحقة بالمنزل ستكون أيضًا في حالة سيئة...

د - سيتعرض كل مَن في المكان المشار إليه إلى امتحان صعب؛ إذ إن المطلــوب منهم جميعًا أن يظهــروا بمظهر المســرور المطمئن والراضي بما هو فيــه، مع أن واقع الحــال ليس كــذلك، ولهــذا فــإن معظمهم ســيخفق في هــذا الامتحــان، وســتجد الأنانية والأثــرة والمحاصّة والتبرم، وستجد التوتر والــنزق... والســبب وراء كل ذلك

أنهم لا يعيشـــون في وضع طـــبيعي بســـبب عـــدم أهلية المكـــان لاستيعابهم.

هــ- في هـذا المكـان الضـيق يحـدث نـوع من الانكشـاف الثقـافي المؤذي، فنحن نقدِّر بعضنا، ونتعاذر لعدد من الأسباب، من أهمها أننا نســتطيع من خلال قلة الاحتكــاك بيننا أن نحجب عن بعضــنا بعض المواقف والوضعيات والتصـرفات الـتي تعكر الصـورة الذهنية الـتي رســمها كل واحد منا عن معارفه وإخوانه وزملائــه... أما في هــذه المعايشة الصعبة فإن قـدرة السـكان على الظهـور بـالمظهر اللائق على نحو مسـتمر سـتكون محـدودة؛ إذ إنهم سـيفقدون الكثـير من طاقتهم الروحية على التصنع والتجمل. ولهـذا فـإن كل واحد منهم - وهذا في الغالب- سيشـعر أن التقـدير المتبـادل بينه وبين مَن حوله هو أقل من المعتاد والمألوف. وربما تقع بينهم عـداوات يصـعب في المستقبل تجاوزها.

و- قل مثل هذا في شأن ازدحـام السـيارات في الشـوارع ولاسـيما في أوقات ارتفاع درجات الحرارة؛ إذ يشتد نزق الناس حين انقضاء الإشـارة الخضـراء مـرات عديـدة وهم في أمـاكنهم لم يتحركـوا إلاّ مسافات قصيرة، ولذا فإن من الصعب الالـتزام بأنظمة المـرور في حـالات الزحـام الشـديد، حين يشـعر النـاس أنهم فيما يشـبه حالة الطوارئ، ولذا فارتكاب المخالفات ليس شنيعًا!

ولك أن تقول مثل هذا في حالة الازدحام على الخـدمات العامـة؛ إذ إن من المؤذي جـدًا للمـرء أن يجلس على بـاب عيـادة طـبيب أربع ســاعات وهو يعــاني من الألم دون أن يحظى بالــدخول. في هــذه الحال يمكن للناس أن يستسيغوا دفع الرشوة واسـتخدام الوسـاطة والتحايل على بعضهم من أجل الدخول في وقت مبكر...

إن فهم هــذا النمــوذج على نحو جيد يسـاعدنا على تقـدير مخـاطر (الزحــام) والعمل على تلافيهــا، كما يســاعد الآبــاء والأمهــات على القيام بدورهم التربوي في حالة ازدحام مسكنهم الضيق بالكثير من الأبناء والبنات.

إن المزيد من الفهم يعــني المزيد من الاقتصـــاد في الجهد والمزيد من التقدم، والله ولي المتقين.

============

صياغة القوة

د. عبد الكريم بكار 2/7/1427
27/07/2006

لاشك أن الوعي المسلم يمر بمرحلة عصيبة في هذه الأيام دون أن يرى سـبيلاً عمليًا للخـروج من الأزمـة. في فلسـطين شـعب بأكمله يعـاني من الجـوع والـذي والقهر والقتل اليـومي وصـعوبة الحركة وكسب الرزق.. ويتعرض لبنان للتدمير الشـامل حيث يتم حـرق كل شيء وتهجير الناس، وتعريضهم أيضًا للجـوع في بلد تعـوّد كثـير من العرب أن يأكلوا من خضاره وفاكهتـه! هبَّ المسـلمون كما يفعلـون في كل مــرة: مظــاهرات في كل مكــان، وهتافــات واحتجاجــات واتهامـات، وفضـائيات تعجّ بكلام المحللين السياسـيين... والنتيجـة: جمع شيء من المال لمواساة بعض المنكوبين. لكن اليهود حاصروا الشعبين، ومنعوا دخول أي شـيء. وقد اجتمعت أمـوال جيـدة لـدى جامعة الدول العربية، وهي عـاجزة عن إدخالها إلى المحتـاجين إليها داخل فلسطين!! وضع صـعْب للغايـة، ومعظم النـاس عـاجزون عن فهمه واستيعابه، وعاجزون عن عمل شيء يشفي الصـدور، ويخفف من الكـروب. لعلي هنا أضع بعض العلامـات في محيط هـذه الحالة المأساوية، وذلك عبر النقاط الآتية:

1) هناك حقيقة قديمة وراسخة، نقول: حين يصطدم طرفـان، فـإن كل واحد منهما يسـتخدم أعظم ما لديه من قـوة ونفـوذ في سـبيل تحقيق الغلبة، وفي ظل تحالف الغرب مع اليهود وسكوت قسم من العالم على ما يجري يجد القسم الثالث -وهم العـرب والمسـلمون- أنفسهم عـاجزين عن عمل أي شـيء. هـذه الحقيقة يجب أن تكـون واضحة تمام الوضـوح، فـالرادع الأخلاقي اليـوم في أضـعف حالاتـه، واليهود يخافون من أن يسجل أعـداؤهم أي نصر حقيقي عليهم؛ لأن هذا يعـني تصـدع المجتمع اليهـودي، وربما انهيـاره، لأن معظم أبنـاء ذلك المجتمع من جنســيات أخــرى، وباســتطاعتهم العــودة إلى أوطانهم الأصلية في أي وقت، ولهذا فإن قادة اليهود في فلســطين يتبعون مع أعـدائهم سياسـة: "اسـحق الذبابة بالمطرقـة"، وهـذا ما يفعلونه اليوم في فلسطين ولبنان.

2) الأزمات لا توجد مشكلات جديـدة، بمقـدار ما تعبِّر عن مشـكلات قديمة، أي نتيجة مشكلات متراكمة، كما أنها تجلو للناظرين ما كـان خافيًا عليهم من أمـرهم، حين تـأتي موجة شـديدة من الحـر، فـإن بعض مرضى القلب يموتون؛ لأنهم لا يتحملـون تلك الموجــة، وليس لأنها أوجدت لديهم مشكلة جديدة، وهكـذا نحن اليـوم. حين نشـرت بعض الصحف في الدنمارك وغيرها رسومًا تسيء إلى النبي -صـلى الله عليه وسـلم- هبّ العـالم الإسـلامي عن بكـرة أبيـه، وأظهر من

نبل المشاعر ومن الولاء شيئًا مشرقًا وباهرًا، وحدثت مقاطعة واسعة للدنمارك، والآن هدأت العاصفة -وهذا طبيعي- ولم يبق منها إلا الأعمال التي تم تأسيسها من أجل المستقبل أو من أجل مواجهة أزمة جديدة حين نتعرض لأزمة خطيرة نتساءل: أنحن فقراء أم أغنياء؟ أنحن مترابطون أم متفرقون؟ أنحن أقوياء أم ضعفاء؟ أنحن أعزة أم أذلة؟.... وتأتي أجوبة لا حصر لها، وكثير منها متناقض. والجواب هو: أننا فقراء وأغنياء في آن واحد، كما أننا أقوياء وضعفاء أيضًا... وهنا تخطر في بالي المقولة الذائعة في بعض الأوساط الشعبية، عن المزارع والفلاح، وحالهما في الفقر والغنى، يقول الناس: الفلاح يعيش فقيرًا، ويموت غنيًا. وهم يشيرون بذلك إلى أن الفلاح يمتلك أرضًا، قد تساوي الملايين، لكنه يعيش على الكفاف بسبب أن الأرض لا تعطي من الإنتاج ما يتناسب مع قيمتها المرتفعة. هل ذلك الفلاح فقير؟ نعم لأنه -حسب الظاهر- مرتبك في تدبير قوت يومه. هل هو غني؟ نعم لأنه يملك أرضًا تساوي الكثير. هل يصحّ إعطاؤه من الزكاة؟ قد يقول الفقيه: مادام لا يملك النصاب، فإنه يصح إعطاؤه منها. والأرض التي في حوزته هي بمثابة المصنع، أو عتاد المهنيين... هذا هو وضعنا تمامًا، وهذا هو وضع الكثير من دول العالم النامي. وعلى مدار التاريخ كانت الدول التي تعاني من التخلف تملك الإمكانات والثروات والمواد الخام، لكنها تجد نفسها عاجزة عن استغلالها على النحو الأمثل.

3) هل نستطيع بعد هذا أن نقول: إن المشكلة التي تعاني منها أمة الإسلام لا تتمثل في أنها لا تملك المعطيات، بل تتمثل في أنها لا تملك إدارة المعطيات التي في حوزتها؟ وهل نستطيع القول: إن زماننا لا يعبأ كثيرًا بالقوة الكامنة، ولا يُعدّ ذلك شيئًا خطيرًا، وإنما يهتم بما تملكه الأمم من أدوات وأساليب تستخدمها في إخراج تلك القوة من مكمنها لتصبح شيئًا ملموسًا، وذلك لأن التقدم الحضاري يتمثل أساسًا ليس في إيجاد ما ليس موجودًا، وإنما في الاستفادة من الموجود عن طريق التصنيع والتطوير والتوجيه والتركيز... وإن قارة إفريقية تقدم ألف دليل على صحة ما نقول، كما تقدم دول محدودة الثروات والإمكانات مثل اليابان وسنغافورة واليهود في فلسطين ألفًا آخر من الأدلة على ذلك. إذن نحن في حاجة إلى أن نكفّ وقبل كل شيء عند التحدث عن الإمكانات الهائلة التي لا نعرف كيف نستفيد منها، ونتّجه عوضًا عن ذلك إلى الحديث عن كيفية الاستفادة من تلك الإمكانات في خدمة وجودنا وقضايانا وحل

مشـــكلاتنا، وإذا لم نفعل ذلـــك، نستشـــعر بالمزيد من خيبة الأمل والمزيد من مرارة الذل والإنكسار.

صياغة القوة 2

د. عبدالكريم بكار 16/7/1427

10/08/2006

شيء مهم أن نعتقد أنّ من سـنن الله -تعـالى- في الخلق أنّ هنـاك أشياء لا تُحصى تحتاج إلى صياغة، وإلى إعادة صياغة، وأشياء كثيرة أيضًا لا تُحصى تحتـاج إلى تأهيل وإلى إعـادة تأهيـل. كل مـادة خـام تتحـدّانا كي نخرجها في شـكل ينتفع به النـاس. القطن يتحـدّى من يحوِّله إلى خيـوط، فـإذا صـار خيوطًـا، أخـذت الخيـوط تتحـدّى من يحوِّلها إلى قماش، فإذا قبلنا التحـدّي، ونسـجناها، وصـارت قماشًـا، صار القمـاش يتحـدّى الخيـاطين ليحوّلـوه إلى ثيـاب تـدفع عنا الحر والبرد، وتحسِّـن مظهرنـا، كما تسـتر عوراتنـا، هكـذا كلما نجحنا في تحـدٍّ، وجـدنا تحـدّيًا آخر ينتظرنـا، ومع كل نجـاح نـرتقي، ونتقـدم، ونتخلص من عبء المواد الخام التي تشـكّل مصـدر اسـتفزاز لأولي الألبـــاب. هل تريد أن تعـــرف الفـــارق بين الأمم القوية والأمم الضعيفة؟ إذا كنت تريد ذلك، فانظر إلى ما يصـدّرونه ويسـتوردونه: الأمم القوية تستورد المواد الخام، وتصـنّعها، ثم تصـدّرها في شـكل سـلع ومنتجـات باهظة الثمن، يشـترون المـواد الخـام بالقنطـار، ويبيعونها في شكل حبوب ومعلبـات صـغيرة وقطع دقيقة ومتقنـة... أما الدول الضعيفة والآخذة في النمـو، فإنها على العكس من ذلـك؛ إنها تصدّر المواد الخام، وتسـتورد السـلع والآلات والتجهـيزات... أي أنها تستورد ما صدَّرته بسبب عجزها عن تصنيعه.

الفـرد المسـلم هو القـوة الهائلة الأساسـية الـتي تحتـاج إلى إعـادة صـياغة، أي يحتـاج إلى تحويل من قـوة كامنة إلى قـوة ملموسة وفاعلة ومؤثرة، إعادة صياغة الفرد تستلزم الكثير من العمـل، لكن يمكن أن نذكر بعض الملامح الأساسية في هذا الشأن:

1- الإنسان الحر هو الإنسان القوي؛ لأن الحرية تسمح له بـأن يـبرع وينطلق ويتعلم، ويعـــبر، ويتحمل المســـؤولية، ومع أن معظم المسلمين في الأرض يعـانون من قـدر من القهر والإذلال والكبت -على درجـات مختلفـة- إلا أن كلمة (الحريـة) تخيفنا أكـثر مما تخيفنا كلمـات (الظلم) و(العسـف) و (الإكـراه) و(الاسـتبداد) لمـاذا هـذه الوضعية؟ لا أريد أن أدخل في متاهات صغيرة وفي تحليلات جزئيـة؛ لكن ربما كـان ذلـك؛ لأن كثـيرين من أهل الغـيرة يخشـون من أن

تـؤدي الحرية إلى الفوضى وانتشـار الإلحـاد والفسـاد والعـري وكل أشــكال الانحلال. وهــذا اعــتراف صــريح أو اهتمــام بــأن الــبيوت والمدارس لا تربي، وبأن الضمير والـوازع الشخصي لـدى الشـباب، هو ما بين ضعيف ومعدوم، وأن ما نراه من الانضـباط في الشـوارع والأماكن العامة لا يعدو أن يكون الوجه الجيد من العملية، أما الوجه الرديء، فهو قابع في البيوت، حيث لا خـوف من نقد النـاس ولا من عقاب الله -تعالى- وإذا كان هذا صحيحًا، فهـذا يعـني أننا نعـاني من نوع من السرطان القاتل الذي يدفع بصاحبه إلى مرحلة (اللاعــودة) من غير أن يشـعر بـأي ألم!! لا أحد يسـعد بـأن يفهم النـاس الحرية على أنها الفوضـــى، أو الخـــروج على الأخلاق والقيم والفضـــائل والثــوابت، إنما المــراد بــأن يكــون الأصل في ســلوكات النــاس وتصرّفاتهم وعلاقاتهم وتعبيراتهم ومواقفهم واختياراتهم هو الجــواز، كما قالت القاعدة الفقهية الشـهيرة: "الأصل في الأشـياء الإباحـة"، فإذا منع مانع شرعي واضح ومتفق عليه، أو كان تصرف الناس يضر بمصلحة وطنية عليا وواضحة، فـإن على الدولة والمجتمع أن يتعاونا على منع ذلك التصرف. لا شك أن اعتماد هذا التوجُّه يستلزم الكثير من التطبيقات الجديدة والتغييرات المهمة، ولا شك أن بعض الناس سوف يستغلون منـاخ الحرية اسـتغلالاً سـيئاً، لكن الأضـرار سـتظل أقل بكثير من شعور الناس بالاختناق وبالقيود الثقيلة، التي تجـرّدهم من روح المبـــادرة وتحمّل المســؤولية، وتضــعف لـــديهم الرقابة الشخصية، وتحوّلهم إلى أناس خـائفين حـذرين، يتجرّعـون الهمـوم، كما يصـبحون عبـارة عن كائنـات اسـتهلاكية بامتيـاز! والنتيجة طبعـاً مجتمعـات ضـعيفة وأمة مسـتخذية! إنك فعلاً لا تسـتطيع أن تبـني مجتمعاً أقوى من مجموع أفراده، تماماً كما أنك لا تستطيع أن تبني من لبنات هشّـة جـداراً صـلباً. لنعد إلى التربية في الـبيوت من أجل تأسـيس شخصـية (الطفل الحـر) من خلال اعتمـاد أسـلوب الرفق واللطف والحـــوار في التربيـــة، ومن خلال معاملة الطفل على أنه كائن محترم، والعمل على أن يكون رجلاً كريمـاً ومسـؤولاً وعزيـزاً وصادقاً وأبياً.. في المستقبل.

2- لا يمكن للفرد أن يكون قوياً أو بداية مشروع لأمة قوية وعزيـزة إذا كان جاهلاً. نعم من لديه علم قد يكون قويـاً، وقد يكـون ضـعيفاً، لكن الجاهل لا يكـون إلا ضـعيفاً. نحن في هـذه المسـألة نعـاني من مشكلة ذات رؤوس ثلاثة هي:

أ- إعــراض معظم الناشــئة عن القــراءة، ونفــورهم من الكتــاب، وانصرافهم عن كل ما يشكّل اهتماماً معرفياً.
ب- ضـعف أكـثر المؤسسـات التعليمية في كل المراحـل؛ ولا سـيما الجامعية.
ج- عـدم وجـود التنـوّع الكـافي في المعاهد والكليـات العليا بما يلي حاجات الشباب الراغب في إكمال دراسته، وبما يتلاءم مع رغبــاتهم وظروفهم.
وهذه المشكلة جعلت الارتقاء بنوعية الوظائف والمهن التي يشغلها الجيل الجديد أمراً صعباً، مع أن من الصعب اليوم الارتقــاء بأمة من الأمم من غير جعل نسبة عالية من الوظـائف على صـلة بالمعـارف المتقدمة والتقنية الدقيقـة. الفـرد القـوي فـرد حـرّ ملـتزم ومتعلم ومتـدرب، وإذا اسـتطعنا أن نحـدث اختراقـاً على هـذين الصـعيدين، فإن لنا أن نتفاءل بولادة أمة قوية وعزيزة.
صِياغة القوّة (3)
د. عبد الكريم بكار 30/7/1427
24/08/2006
المواهب الفطرية والقدرات الخلْقية التي زوَّد بها البارئ -عز وجـل- بني البشر تكاد تكون ثابتة على مـدى التـاريخ. وقد ظل النـاس في كل زمـان ومكـان يحـاولون الاسـتفادة من تلك القـدرات وتوظيفها وصقلها... لكن يبدو أن محاولاتهم كانت دائمًا تحقق نوعًا من النجاح النسبي والمحدود. وربما أمكننا القول: إن النـاس كـانوا يسـتفيدون من قدراتهم الكامنة على مقدار حاجتهم وعلى مقـدار تطـور وعيهم ومعارفهم؛ ولذا فإن استغلالنا اليوم لطاقاتنا يُعدّ –في الجملة وعلى نحو عام- ممتازًا إذا ما قسناه إلى ما كان السابقون يفعلونـه، وهـذا لا يحتاج إلى برهان. السؤال الذي أطرحه، وأحاول الإجابة عنه هو:
ما أكـثر الأشـياء تـأثيرًا في تحويل القـوى والقـدرات الكامنة لتصـبح مكونات قوية وظاهرة في أسلوب حياة جديدة؟
الجـــواب فيما أظن يكمن في شـــيئين: المكـــان الـــذي يعيش فيه الإنســـان، والمهنة أو الوظيفة الـــتي يكسب منها رزقـــه. وقبل أن أشـرع في شـرح هـذين الأمـرين أود أن أقـول: إننا هنا لا نتكلم عن حالات فردية أو شاذة، وإنما نتكلم عن ظواهر ومعطيات ووضـعيات عامة فقد نجد في البيئة المثقفة والراقية عناصر في منتهى السوء، كما أننا قد نجد في أماكن العمل المعقدة أشخاصًا غـير مـؤهلين، أو يفكرون بطريقة رديئة، أو يعملون على نحو تخريبي...

مكان العيش:
نعني بمكان العيش هنا تلك السلسلة من الدوائر التي ينفتح بعضــها على بعض، وتـؤثر على نحو ما في صـياغة روح الإنسـان ومشـاعره وأفكاره وأخلاقه وعاداته... والتي تتمثل في الأســرة والحي والقرية والمدينة والدولة والإقليم. إن أضيق الدوائر هي الأقوى تـأثيرًا، وهي الأسرة ثم الأوسـع، فالأوسـع. لكن ينبغي أن يُقـال أيضًـا: إن المـرء يتأثر في بعض جوانب حياته بالمدرسة والجامعة الـتي يـدرس فيهـا، وذلك على مســتوى طــرق التفكــير وفهم الحيــاة والتطلع إلى المستقبل. إن للأسرة الدور الأكـبر في رسم الخطـوط العميقة في شخصية الطفل، لكن قيامها بذلك الدور على نحو يجعل منه شخصًا متميزًا، يحتاج منها إلى أن توفر جوًا تربويًا يختلف كثيرًا عن الأجــواء السائدة لدى معظم الأسر الإسلامية اليوم. وأودّ في هذا السياق أن أبدي الملحوظات الآتية:
1- إن أول ما تحتاجه الأســرة المســلمة من أجل تنشـئة جيل جديد هو الاعتقـاد بـأن التربية الناجحة لا تتحقق من غـير اكتسـاب معرفة تربوية جيـدة، فقد أَصبْنا في الأزمنة الغـابرة بأفـدح الأضـرار حين اعتقدنا أن تربية الإنسان تتم على نحو تلقائي وفطري كما تتم تربية الحيـوان في الـبراري، ولـذلك فـإن معظم الآبـاء والأمهـات يبـذلون الكثير من المـال والجهد من أجل تهيئة أنفسـهم لاسـتقبال المواليد الجدد، ويملك الكثيرون منهم العزيمة لإنجاب عشـرة من الولد دون أن يخطر في بالهم شراء كتـاب في التربيـة، أو سـماع محاضـرة أو شريط (كاسيت)، أو سؤال خبير من أجل معرفة الطرق والأسـاليب التربوية الصــحيحة، ومعرفة نوعية القيم والمفــاهيم الــتي ينبغي زرعها في نفوس الأطفال وعقولهم! لهذا فـإن نشر الثقافة التربوية الجيدة يشكل أولوية كبرى على صعيد صياغة قوة الأمة.
2- ينظر كثــــيرون منا إلى التربية على أنها عملية تعليميــــة، فهم يعتقدون أنهم إذا وضّحوا للطفل الخطأ من الصـواب، فـإن سـلوكه سـوف يتغـير؛ لأن مشـكلته كـانت الجهل بـذلك، وهـذا غـير صـحيح؛ فالتربية في جوهرها عبـــارة عن تفاعل الصــغار مع المعطيـــات الراسخة في بيئتهم، وليست عملية تلقين يقوم بها الكبـار، أو عملية اسـتفادة معرفية ينجزها الصـغار. الأطفـال يتفـاعلون مع اتجاهاتنا ومشاعرنا وسلوكاتنا، ومع أسلوبنا في الحياة. ولعلي أقرّب المسألة عن طريق هذا المثال: لو كان أمـامي نبتتـان محتاجتـان إلى المـاء، وقمْت بســقي إحـــداهما دون أن أتكلم، أما الثانية فناشـــدتها أن

ترتــوي، وأن تكــبر وتنمــو، وحــدثتها عن فوائد المــاء وضــرورة الانتعـاش... ما النتيجة المتوقعة لـذلك؟ النتيجة معروفـة، وهي نمو الأولى وذبول الثانيـة. وذلك لأن الأشـجار لا تتفاعل مع النصـائح كيلا تيبس وتمــوت، وإنما تتفاعل مع المــاء العــذب. هكــذا الأطفــال يحتــــاجون إلى بيئة يتشــــربون مفاهيمها وقيمها وعاداتها الكريمة والعظيمـة، ولا يغـني عنها فصـاحة الفصـحاء ولا علم العلمـاء. مـاذا يعـني هـذا الكلام؟ إنه لا يعــني ســوى شــيء واحد هــو: أن التربية الجيدة تحتاج إلى بيئة جيـدة، والبيئة الجيـدة تتطلب مـربين جيـدين. وأعتقد أن علينا إيقــاف التــداعيات والإحــالات المترتبة على ســوء أوضــاعنا الســلوكية عن طريق عقد العــزم على شــيء جــوهري وعظيم، هو أن نجتهد ونحن نربي أبناءنا في تهذيب أنفسـنا وإصـلاح أوضـاعنا الأسـرية. إن الـذي نحتاجه ليس الالـتزام بـآداب الشـريعة الغراء والوقوف عند حدود الله -تعـالى- فحسـب، وإنما توفـير البيئة الأسـرية المدرسـية الـتي تسـاعد الصـغار على اكتشـاف أنفسـهم واسـتثمار نقـاط التفـوق لـديهم،كما تولّد في نفوسـهم روح الأمل والمبادرة وخُلُق التضحية والعطاء والمثابرة.

إن الطريق إلى إخــراج الأمة من حالة (الــوهن) الــتي أشــار إليها حديث (القصعة) صار واضحًا، لكن نحتـاج من أجل المسـير فيه إلى الإخلاص والصــدق والعزيمــة، وإلى شــيء من المعرفة بمتطلبــات العيش في زمان كزماننا.

صياغة القوة (4)

د. عبد الكريم بكار 18/8/1427

11/09/2006

المكان الذي يعيش فيه الإنسان هو أسرته أولاً، والمدرسة والجامعة التي يدرس فيها ثانيًا؛ إذ إنه يقضي في المؤسسـات التعليمية جـزءًا مهمًا من حياتــه، وقد كنت أشــرت في المقــال الســابق إلى أهمية الأســرة في صــياغة الإنســان، وأتحــدث اليــوم –بحــول اللــه- عن المؤسسة التعليمية على نحو موجز عبر النقاط الآتية:

1- من المهم ألاّ نفصل بين العمل التربوي الذي تقوم به الأسر في البيوت وبين العمل التعليمي والتربوي الذي يقـوم به المعلمـون في المدارس، مادام الجميع يعمل على إيصال رسالة واحدة، ويستهدف صـياغة جيل جديد وفق مواصـفات موحــدة. إن مدارسـنا لن تعمل على نحو جيد إذا لم تتلق الــدعم من الأســر، من خلال ســلوكها الــتربوي. وفي هــذا الســياق أود أن أشــير إلى أن القضــاء على

الازدواجية في شخصيات الناشئة، يتطلب العمل الجاد والمستمر على صعيد تكوين (المجتمع العلمي). المجتمع العلمي ليس هو المجتمع الذي يبني المدارس والجامعات؛ إذ إن كل المجتمعات اليوم تفعل ذلك، إنما المجتمع العلمي هو الذي يحاول جعل سلوكاته في حركته اليومية قريبة مما يلقنه لصغاره في المدارس، فإذا كان يعلِّمهم الحرص على الصدق والعدل والنظام والنظافة والجدية... فإنه يحاول من خلال النظم والقوانين التي يسنّها، ومن خلال العادات والتقاليد التي يتمسك بها- يحاول تمثّل تلك القيم وتجسيدها في سلوكاته وعلاقاته. كما أن الناس في المجتمع العلمي يتجاوبون مع ما يلقّنونه لأطفالهم في المدارس فيما يتعلق بالرذائل والمعاصي والسلبيات، حيث الحرص على تجنب الكذب والظلم والفوضى والكسل والتسويف وخلف الوعد... وأعتقد أن هذا هو التحدي الأكبر الذي يواجه مجتمعاتنا اليوم.

2- يتحدث المصلحون ومفكرو النهضة اليوم عما يمكن أن نسميه (المجال القائد) أي المجال الأكثر جدارة بالتركيز وباستثمار الإمكانات المتاحة فيه بسبب محوريته، وقدرته على قيادة باقي المجالات على طريق التقدم والازدهار، ويرى كثير من الباحثين في المجال الحضاري أن قطاع (التعليم) بكل مراحله هو أولى القطاعات بأن يكون نقطة الانطلاق، ومحل التركيز والاهتمام. وهذه الرؤية صحيحة؛ لأن هذا الكمّ الضخم من المعرفة المنظمة قد أتاح للتعليم مكانة فريدة على صعيد التغيير والإصلاح، بل إن كل مجالات الحياة من السياسة والاقتصاد إلى الصناعة والاختراع، إلى العلاقات الدولية... إن كل هذه المجالات لا يمكن اليوم إدخال تحسينات مهمة عليها من غير أشخاص متعلمين تعليمًا ممتازًا، يقومون بتحديد نظمها، وبعث الروح فيها، قد ثبت اليوم بما لا يدع مجالاً للشك أن التقدم المادي بكل أشكاله سيقف في نهاية المطاف عند حدود لا يتعداها، ثم يصير إلى التراجع، تمامًا، كما هو شأن أجسامنا. أما التقدم العقلي والروحي والفكري والخلقي، فلا حدود له يتوقف عندها، وليس هناك قيود تحدّد إيقاعه، وهذا ما ينبغي أن يعمل عليه التعليم في مراحله المختلفة. إن هناك من الدراسات ما يشير إلى أن البشرية لم تستخدم من طاقاتها الذهنية التي زوّدها الخالق –جل وعز- بها سوى 1% ! ولا شك أن بعض الشعوب لم تستخدم من تلك الطاقات سوى واحد في الألف أو واحد في العشرة آلاف!

3- لـــدينا إجمـــاع بأننا لا نعلِّم بالطريقة الـــتي ينبغي أن نعلم بهـــا، وأسـباب ذلك متنوعة تنوعًا كبـيرًا، ولا أريد الخـوض في هـذا الأمر الآن، لكن أود أن نركِّز على بعض الإجـراءات الأساسـية والكـبرى التي تساعد على تطوير المناخ العام للتعليم.

من هـذه الإجـراءات تشـجيع القطـاع الخـاص على الاسـتثمار في التعليم، وتقديم الإغراءات له، مثل تقديم قطع كبيرة من الأرض من أجل تشـييد المـدارس والجامعـات –مجانًـا، ومثل تقـديم قـروض لا ربويـة، وتقـديم المشـورة الفنيـة... لكن لابد مع هـذا من أن تقـوم الحكومـات والجهـات المانحة من وضع معـايير صـارمة وواضـحة للجـودة، مع ممارسة الرقابة المسـتمرة، وإلاّ تحـوّلت هـذه المهنة الإنسـانية العظيمة إلى مجـال يجـذب الجشـعين والمـزوِّرين وكل أشـكال الطفيلـبين، كما هو حاصل الآن في كثـير من البلـدان؛ مع الأسف الشـديد! لمـاذا لا نقـوم بوضع معـايير ومواصـفات لأداء الجامعـات والثانويـات والمعاهد في المرحلة الأولى، وعلى أساسـها يعرف الناس أن الجامعة الـتي يـدرس فيها أبنـاؤهم هي الثالثة على مستوى البلد أو الأولى أو العاشـرة... وقُـلْ مثل هـذا في الثانويـات والمعاهـد. إن مثل هـذا التصـنيف سـيوجد حـافزًا قويًا للـرقي، وسيحمي الأهـالي والطلاب من ألـوان الخـداع الـتي تمارسـها بعض المؤسسـات التعليميـة. كما نجحنا في تصـنيف الفنـادق والنـوادي الرياضية، فإن من الممكن أن ننجح في هذا. وقد سبقتنا أمم كثـيرة إلى هذا، وقد أثبت نجاعتـه، وإذا كنا سـنكِل تطـبيق مثل هـذا العمل لبعض الموظفين الـوالغين في الرشـوة والمـال الحـرام، فلنسـتعِن ببعض المنظمـات والهيئـات والمؤسسـات العالمية ذات الخـبرة العريقـة، ومع ما في هـذا من اتهـام الـذات إلاّ أنه يظل أفضل من الانتقال من مستنقع إلى مستنقع آخر!

4- لا تصبح المؤسسات التعليمية مكانًا جيـدًا لصـياغة القـوة وتحرير الطاقـات الكامنة من غـير تعزيز التـدريب وورش العمل وتحسـين مسـتوى التفاعل بين الأسـاتذة والطلاب. والحقيقة أن المؤسسـات التعليمية الـتي تقـدم تـدريبًا تعليميًا لـدينا ضـئيلة جـدًا، والـتي تقـدم تدريبًا ممتازًا شبه معدومة، وهـذا يعـود أحيانًا إلى التكـاليف الباهظة للتـدريب، وأحيانًا إلى الفهم الخـاطئ للأسـلوب الأنجع في التكـوين العلمي. حين يشرح طبيب حالة أحد المرضى لخمسـين من طلابـه، فـإن لك أن تقـول: إن الـذين يسـتفيدون من ذلك الشـرح هم في حدود العشـرة، أما البـاقون، فهم أشـبه بـالمتفرجين! وحين يتخـرج

طـالب الإعلام، وقد قـرأ الكثـير عن النظريـات الإعلامية لكن لم يمارس الكتابة الصحفية، ولم يتدرب في أي مؤسسة إعلاميـة، فإنه يكون الشبه بمن قرأ عشـرين كتابًا في الإعلام، وهو في بيت أهلـه، لكن له ميزة الشهادة الـتي يحملهـا، وإن كـانت موشّـاه بـالكثير من اليـأس والإحبـاط! إذا كنا غـير قـادرين على الإبـداع، فسـيكون من فضائلها الاعتقاد بأن لدى الآخرين شيئًا يمكن أن نتعلمـه، فهل نفعل ذلك

صياغة القوّة (5)

د. عبد الكريم بكار 12/9/1427

05/10/2006

إذا تأملنا في واقعنا وجـدنا أننا نملك عـددًا جيـدًا من الأشـخاص المتفوقين على المستوى الفردي، وذلك لأن التربية في الأسر وفي المدارس تركز على النجاح الفـردي، وليس على النجـاح الجمـاعي، وهـذا يشـكل معضـلة كـبرى في زماننـا؛ لأن النظم المعيشـية الـتي ترسِّخها العولمة، تساعد على وجود الكثير من الضعفاء والكثـير من المظلومين والمهمّشين، أي يكـثر لـدينا أولئك الـذين لا تهتم بهم أي جهة حكومية، ولا يعرف الأفراد الغيورون كيف يساعدونهم، ومن هنا فإن صياغة القوة التي أفاء الله –تعالى- بها على هـذه الأمة تتطلب ما يشبه الثورة الكـبرى في إنشـاء الأطر والجمعيـات والمؤسسـات والاتحـادات والمنظمـات الطوعية و(اللاربحيـة) الـتي تهتم بالارتقـاء بمختلف جـوانب الحيـاة، كما تهتم بمسـاعدة النـاس الـذين نسـيهم الناس، وبالأمور التي لم يرتق وعي الأفـراد إلى إدراكها والعمل من أجلها؛ ولعلي أشير في هذه المسألة المهمة إلى النقاط التالية:

1- من المهم أن نـدرك أن الخلاص الفـردي بين أمـواج البشر الغارقين في الهموم والأزمـات، وأن العيش في جزيـرة معزولة في وسط محيط من البائسـين والمحـرومين –هو أمر غـير ممكن في زماننا وفي كل زمان؛ فالهناء والازدهـار والأمـان والاسـتقرار إما أن تكون جماعية أو لا تكون، ولهذا نجد أن القـرآن الكـريم يشـدّد حين يعرض لذكر النعيم الأخروي على معنى الحيـاة الجماعية في الجنـة، على ما هو واضح ملمـوس، وإن الـذين يحلمـون بـالتفرّد بالرخـاء والسرور على حساب وجود أعداد كبيرة من الضـعفاء والمجتهـدين- هم من مرضى القلـوب والنفـوس، ومن ذوي الاضـطراب العقلي؛ لأن ما يحلمـون به غـير ممكن التحقـق، ومن المؤسف القـول: إن الصيرورة إلى هذه الوضعية تكاد تكون حتمية بالنسبة إلى الجماهير

العريضة، ما دامت الأطر التي تساعدهم على التخلص من التمحــور حول الـذات، غـير موجـودة، وفي بعض المجـالات غـير كافيـة. ومن المؤسف مرة أخرى أن الخوف لا يزال يسيطر على الكثيرين تجــاه تنسيق أي جهد جماعي، في أي مجال وعلى أي صـعيد، وكـأن أبنـاء الأمة عبارة عن لصوص أو مجـرمين، لا يكـون اجتمـاعهم إلا شـريرًا ومؤذيًا ومع أن بعض الناس هم كذلك إلاّ أن هؤلاء هم الشذوذ الذي يؤكد القاعدة، أما معظم المسـلمين فـإنهم توّاقـون إلى بـذل الجهد في ســبيل الإصــلاح وتحقيق النفع العــام، ونشر الخـــير، وإعانة الضعفاء.

2- إننا في حاجة إلى ما يحمي أنفســنا من أنفســنا؛ إذ إن الفــراغ الذي يشعر به كثير من الشباب، هو مصـدر أساسي لحـدوث الكثـير من الانحرافـات والجـرائم، فالطاقة الغائضة الـتي لا تُوظّف بطريقة صـحيحة تتحـوّل إلى طاقة مـدمرة لصـاحبها، وتصـبح سـببًا أساسـيًا للشـعور بالتفاهــة، كما أن العطالة والبطالة تولد الشـعور باحتقــار الذات.. ولهذا فإن حاجتنا إلى المؤسسـات الخيرية لا تكمن في سد الخلات الاجتماعية فحســــــــب، وإنما تكمن قبل ذلك في حماية المنتمين إليها من داء الأنانية، وفي مسـاعدتهم على تحقيق ذواتهم، وتلبية حاجاتهم إلى السمو الروحي والخلقي.

3- إن علينا أن نفــرِّق بين ما يســتحق لقب (مجتمــع) وبين ما هو عبــارة عن حشد أجســاد، وُجد بســبب الضــرورة من غــير قيم ولا مبـــادئ ولا مقاصـــد... والمعـــوّل عليه في هـــذا التفريق هو حجم الشريحة التي تهتم بالشأن العام، وتقتطع من وقتها وجهــدها ومالها ورفاهيتها جــزءًا، تســتخدمه في تخفيف لأواء العيش عن الآخــرين، وفي الارتقاء بهم، ومن هنا ورد الكثـير من النصـوص المحفِّزة على فعل الخــير وعلى البــذل والعطــاء والتضـحية، وقد مثّلت ظــاهرة (الوقف الإســلامي) على مــدار التــاريخ معيــار تفاعل الأمة مع تلك النصــوص، كما أن تفاعل أي مجتمع إســلامي مع الإرشــاد الربــاني لعمل الخــير كـان يشـكل معيــارًا لخيرية ذلك المجتمع واسـتقامته، ومن هنا فإنه ورد في بعض الآثــار أنه ما من صــحابي إلا وقد وقف شيئًا في سبيل الله: هذه امرأة وقفت شــيئًا من حليها لتلبسه بعض المسلمات الفقيرات في المناسبات، وهـذا رجل يقف ثوبًـا، أو يقف فأسًـا أو سُـلمًا أو دارًا أو أرضًـا.. إن مجتمع الصـحابة –رضـوان الله عليهم- هو أكــرم مجتمع إســلامي، وهو في الــوقت نفسه أكــثر

المجتمعات الإسلامية اهتمامًا بالصدقة والتطـوّع والوقف ومسـاعدة الضعفاء وهو بالتالي أجدرها باسم (مجتمع).
4- المرحلة التي تسبق ولادة المجتمع الجـديد بلقب (إسـلامي) هي المرحلة الـتي يولد فيها ذلك العـدد الضـخم من المؤسسـات ذات النفع العـام، وأهم تلك المؤسسـات على الإطلاق تلك المؤسسـات التي تساعد الإنسان المسلم على الارتقـاء بروحه وفكـره وثقافتـه، وهي مؤسسـات محـدودة جـدًا في معظم المجتمعـات الإسـلامية، ونحن في الحقيقة نتشـوف إلى رؤية مؤسسـات قوية تهتم بإنعـاش الجانب الروحي والخلقي في حياتنا؛ لأن هذا الجانب هو أكثر جوانب الحيـــاة تضـــررًا من عمليـــات العولمـــة، كما أننا نطمح إلى رؤية المشـــروعات الوطنية العملاقة الـــتي تحفز النـــاس على القـــراءة والبحث وتكـوين النظـرة العلمية للحيـاة والأحيـاء. ونحن كـذلك في حاجة إلى إقامة المؤسسات التي تساعد الأسر الإسـلامية على حل مشكلاتها التربوية المتصاعدة. ولست أريد أن أعـدد هنا ما نحن في حاجة إليه من المنظمات والجمعيات الخيرية، لكن أود أن أؤكد على أن المسـلمين في أمس الحاجة إلى أن يكونـوا في وضـعية، يكـون انتماء الواحد منهم إلى ثلاث أو أربع مؤسسات ومنظمات خيرية هو القاعدة، وهو الأصل والمألوف، كما يكون وجـود أفـراد غـير منتمين إلى أي منها هو الشـيء الشـاذ والغـريب وغـير المفهـوم... وهـذا يتطلب من الدول أن تحفز الناس، وتسـاعدهم على المسـاهمة في الارتقـاء بالشـأن العـام، مع الاحتفـاظ بحقها في الإشـراف والرقابة والتنظيم، ولن ترى مثل هذه الأمنية النور إذا لم يكن لدينا عـدد من الـرواد الـذين يعملـون في الظـروف الصـعبة، ويفتحـون الأبـواب المغلقة، ويرسـمون للنـاس ملامح الوضـعية الـتي يجب أن يصـيروا إليها، وأعتقد أن كثيرين منا يستطيعون أن يكونـوا من أولئك الرهط العظيم والمنقِـذ، لكن بشـــرط امتلاك شـــيء من التفتح الـــذهني والكفِّ عن احتقار الذات. والله الموفق.

صياغة القوة 6

د. عبد الكريم بكار 12/10/1427

03/11/2006

إن جزءًا مهمًا من صياغة قـوة الأمة يتعلق بتقليل الهـدر من الطاقة المتوفرة الآن، والحقيقة أن أمة الإسلام وعلى مدار تاريخها الطويل كـــانت تبـــدي نوعًا من الارتبـــاك حيـــال منع الانقســـام الثقـــافي والاجتماعي الذي ينتج عن أي حركة حـرة في أي مجتمـع؛ وقد كـان

الإخفاق في تخفيف التـوتر الاجتمـاعي يـؤدي إلى الاقتتـال الـداخلي والاحتراب الأهلي في بعض الأحيان، أما في أكثر الأحيان فإن هنـاك نوعًا من الحـــرب البـــاردة الـــتي لا تكـــاد تتوقف على العديد من الأصعدة، وهذه بعض الملاحظات السريعة في هذا الشأن.

1- كثير من الأوقات والجهود يضيع هباء على مسـتوى أبنـاء الـدعوة والصـحوة بسـبب الانشـغال بأخطـاء الآخـرين، وتفنيد مقـولاتهم، ومحاصرة نفوذهم، والكل يـدّعي أنه من خلال جهـوده، يحافظ على نقـاء الإسـلام وسـلامة الوجهة العامة للـدعوة... ونحن لا نحاسب الناس على نواياهم، ونعتقد أن معظم من ينشغل بالرد على إخوانه مخلص في مسـاعيه، ولا تنقصه الغـيرة، لكن المشـكل يكمن في منهج التعامل مع تعددية الرؤية والاختلاف الثقافة والبيئة والخلفية.

إن أبناء الصحوة الإسلامية في أي مجتمع مسلم باتوا يشكّلون تياراً عريضاً للغاية، وصار لديهم بنى اقتصادية وتعليمية لا بـأس بهـا، لكن تـأثيرهم في نهـوض مجتمعـاتهم، لا يـزال محـدودًا وشـيء من ذلك يعود إلى فرقتهم المنهجية والثقافيـة، وإلى المكايـدات والمناكفـات الـتي تجـري بينهم، وإلى اسـتغلال الخصـوم لكل ذلك وتوظيفه في تشويه صـورتهم وتفريق النـاس عنهم وأعتقد أننا على هـذا الصـعيد في حاجة إلى أن نتشرب المفاهيم التالية:

أ - علينا أن نعترف بأننا نعيش حالة من الصـدام بين أبنـاء الـدعوات والحركـات والتيـارات الإسـلامية، وأن هـذه الحالة لا يمكن التخلص منها على نحو كامـــــل، لكن يمكن أن نخفف الكثـــــير من لأوائها وشرورها.

ب- الخلاف في وجهـات النظر ليس شـيئًا مقبـولاً فحسـب، لكنه شـيء مطلـوب، لأننا حين نحصل على خمسة حلـول لمشـكلة من المشكلات نكون قد ملكنا خيـارات أكـثر لمعالجتهـا، كما أن اختلاف الدعاة في تقويم الواقع وتشخيص العلل ووصف العلاج، يشبه عمل الأطبـاء، كما يشـبه عمل الفقهـاء، وكما أن من غـير الممكن جمع هؤلاء وأولئك على رأي واحد في كثير من الحالات والمسـائل، فـإن من غـــير الممكن كـــذلك جعل المصـــلحين والـــدعاة والجماعـــات الإسلامية، يتفقون على رؤية واحدة لأوضـاع الأمـة، وعلى رأي واحد لأفضل الطرق لتحسينها.

جـــ- إن أســوأ ما يمكن أن يجعل الاختلاف بين أهل الخــير -ظالمًا وغير موضوعي- هو اتهام النيات، ومحاسـبة النـاس على مقاصـدهم وخفايـاهم. إن الله –سـبحانه وتعـالى- وحـده هو الـذي يعـرف نوايا

العبـاد ودوافعهم، وحين نـدعي ذلك نكـون قد تجاوزنا حـدودنا إلى البغي والعدوان. ومن المؤسف أن كثيرًا من مجالس أبناء الدعوات، لا يكاد يخلو من اتهام الشيخ الفلاني أو الجماعة الفلانية بالوقوع في محظور، أو فعل ما لا يليق دون أن يكون هناك أي دليل أو برهان أو مسـتند! وهـذا إن دل على شـيء فإنه يـدل على نقص في الديانة وقلة في الـورع، وعلى الـذين يفعلـون ذلك أن يتـذكروا أن الله – تعالى- سيسألهم عن ذلك وعن الآثار السيئة وأحيانًا المدمرة –الـتي ترتبت على طعنهم في بعض الرموز والعاملين في الدعوة-.

د – شيء آخر سيِّئ واسع الانتشار في بعض المجتمعات الإسـلامية، هو الإسـراف في (التصـنيف)؛ فهـذا الكـاتب سـلفي، وذاك صـوفي، والثـالث إخـواني، والرابع تحريـري، والخـامس مـوالي للسـلطة، والسادس متعاطف مع هؤلاء أو أولئك... ويفعلون مثل هـذا مع أئمة المسـاجد والخطبـاء وأبنـاء الجماعـات والعـاملين في المؤسسـات والمنظمات الخيرية والدعويـة... والمشـكل هنا أن كل أبنـاء جماعة يكوِّنون صـورة ذهنية سـلبية عن الجماعة المنافسـة، وحين يريـدون تشـويه صـورة أي إنسـان، فيكفي أن يقولـوا: إنه من جماعة كـذا، وبعـدها يفسِّـر كل كلامه وكل تحركاته على ذلك الانتمـاء المزعـوم! والمتربصـون بكل أبنـاء الـدعوات يصـبون الـزيت على النـار، ويساعدون كل جماعة على تشويه سمعة الجماعات الأخـرى، حـتى لا يبقى في السـاحة الإسـلامية مرجعية موثوقـة، ولا يبقى داعيـة، يمكن أن يقود أعمالاً إصلاحية كبرى. هنـاك أشـخاص كـانوا ينتمـون في يـوم من الأيـام إلى جماعة من الجماعـات، ومنذ عشـرين سـنة اختلفوا معها، وتركوها. وهناك أشـخاص مـازال على علاقة مع بعض الجماعـات، لكن علاقـاتهم شـكلية، وهم على خلاف واسع مع جماعـاتهم، أضف إلى هـذا أن بعض الجماعـات الإسـلامية الكـبرى تشـتمل على مـدارس وتيـارات، وبينها العديد من التباينـات على المستوى التنظـيري وعلى مسـتوى الحركة والممارسـة؛ وليس من الصـواب تجاهل ذلـك. حاسـبوا النـاس على أقـوالهم وأعمـالهم ومواقفهم، وليس على انتماءاتهم، فذلك أقرب للموضوعية وأقـرب للتقوى، وأنفع للجميع.

هـ- نحن بشر، ونفوسنا ليست زكية بالقدر الكافي، لذلك فقد يحسد بعضنا بعضًا، وقد نحمل على بعضنا بعض الرواسب القديمـة، وبعض الأحقاد، وقد نتحسس من بعض الأمـور الـتي لا تسـتحق التحسـس، وقد نسـيء فهم بعض العبـارات، وتفسـير بعض التصـرفات كما أن

وعينا بالمناهج الدعوية التي تميزنا عن بعضنا ليس كـاملاً؛ وهـذا كله يؤدي إلى الجفاء والقطيعة والفرقة، والمطلـوب أن نعـترف بوجـود كل ذلك، وألا نُلبس تضارب المصالح والمنافسة على مناطق النفوذ ثـوب الخلاف المنهجي، و ألا نبـالغ في الأمـر، فنجعل زلة المنـافس عبارة عن نكبة تحيق بالإسلام وأهله.

و- حـتى نخفف التـوتر، فنحن في حاجة إلى أن نعمق لـدى الأتبـاع ثقافية التعـاذر والتسـامح والفهم المتبـادل، ولنعلم أن مناهجنا مهما تباينت فلن تجد أحدًا من خارج ساحة الصحوة أقرب إلينا من بعضنا لبعض، ولهـــذا فلنتقِ الله في الأمانة المنوطة بنـــا، وفي أعـــراض المسـلمين، ولنكن دائمًا ممن يجمـع، ولا يفـرِّق، ويقـرِّب، ولا يباعد ويهدِّئ ولا يثير، فذاك خير وأبقى

صياغة القوة (7)

د. عبد الكريم بكار 29/10/1427

20/11/2006

تحدثت في المقال السابق عن بعض الأمور الـتي تثـير التـوتر داخل التجمعات الإسلامية، وسأركز الحديث اليوم عن بعض ما يثير التـوتر في الساحات الإسلامية عامـة، وعن بعض ما يمكن أن تسـاعد على خفض ذلك التـوتر. وأود أن أقـول في البداية إن تاريخنا الإسـلامي مملوء بالتوترات والثورات والمنـاوءات الخطـيرة، ولم يكن ذلك من غر أســباب ومقـــدمات، ولاشك في أن الوضع الآن أفضـــل، لكننا نعيش في زمان يتطلب التقـدم فيه درجة عالية من الأمن والسـلام والاطمئنان والتواؤم والنظام، وهذه لا تتوفر من غير إصلاح كثير من الأمور, ومعالجة الكثير من المشكلات حين نتحدث عن الضـروريات والحياة على أي وجهٍ كان، فإن ما يطلب من شروط يسيرٌ ومحـدود ما دامت البهـــائم تجد ســبيلاً للعيش، لكن حين نتحـــدث عن أمة عزيزة منيعة وحياة هانئة مزدهرة ومسلم ناجح مبدع مؤثّر، فــإن ما نحتاج إليه من الشـروط والأوضـاع والأسـباب سـيكون شـيئًا كبـيرًا، وهذا هو الذي يحملني على الاسـتمرار في الكتابة وعلى الاسـتمرار في محاولة بلورة المفاهيم الحياتية المختلفة. ولعلي ألمس في هذا السياق المعاني الآتية:

1-إن اجتماع الناس بعضهم مع بعض يشكل مصدرًا كبـيرًا للمؤانسة والأمـان والتعلم.. لكنه في الـوقت نفسـه، مصـدر للتـوتر والـنزاع والصدام، وما ذلك إلا بسبب ما بين العباد من الاختلاف في العقـول الأمزجة والأهواء والـرؤى والعـادات والانتمـاءات والمصـالح.. وبهـذا

يكون الإنسـان هو أكـثر من يُسـعد أخـاه الإنسـان، وأكـثر من يخيفه ويزعجـه. وإذا صح هـذا –وهو صـحيح إن شـاء اللـه- فإنه يتطلب أن نعمل بجد على توفـير أرضـية عريضة للتفـاهم والمفاتحـة، وأرضـية عريضة للعدل والنزاهة والشفافية وإحقاق الحق ومقاومة الباطل.

2-إذا أردنا أن نحافظ على قــوة مجتمعاتنــا، وان نصــوغها صــياغة جديـــــدة فلابد من أن نؤسس في تربيتنا وفي تعليمنا وفي علاقاتنا الاجتماعية لما يمكن أن نسميه (السلوك الأنيق) وهو السلوك الـذي يملك صاحبه درجة عالية من رهافة الإحساس نحو الذين يحتك بهم، إنه يحسب حساب الكلمة والإشـارة والموقـف.. ويحـاول أن يكـون دائمًا في موقع المعطي والمحسن والمســـامح والمتغاضـــي.. إنه يتنازل عن بعض حقوقه، ويمارس شيئًا من الضــغط على نفسه في سـبيل توفـير شـيء من الراحة والأمـان لأولئك الـذين يختلط بهم، ويعـاملهم والنصـوص الكريمة الـتي تشـير إلى هـذا المعـنى كثـيرة ومعروفة.

3-الوضوح شيء أساسي في مسألة خفض التوفر وتوفير الاستقرار والازدهار؛ والحقيقة أن الغموض والالتباس يشـكل قاسـمًا مشـتركًا بين جميع الدول النامية والـتي تتطلع إلى النمـو، هنـاك غمـوض في مفاهيم أساسية مثل: الالـتزام والحرية والوطنية والانتمـاء والكرامة والتضحية والتعـاون.. وهنـاك إلى جـانب هـذا قـوانين كثـيرة مكتوبة لكنها غــير مطبقــة، بل إلى جانبها قــوانين عرفيــة، يُعمل بها على نطاق واسع... ومنها فـإن المطلـوب أكـبر قـدر ممكن من الوضـوح في كل شـــيء، مـــتى يتـــبين الصـــالح من الفاسد والمحسن من المسيء. إن الغموض الذي نعاني يكون في بعض الأحيان أحد نواتج التخلف، ويكون في أحيان أخرى مقصودًا حتى يتمكن أصحاب القوة الغاشـمة والأطمـاع غـير المحـدودة من التحـرك بحرية تامـة، وهـذا يوغر الصدور، ويوهن اللحمة الاجتماعيـة، ويجعل اغتصـاب الحقـوق أمرًا ميسورًا.

4-إن النــاس يصــبرون على القلــة، ويكنّــون كل مشــاعر الــولاء لأوطـانهم مهما كـانت مواردها شـحيحة، وظروفها صـعبة، لكنهم لا يرضـون عن الفسـاد المتعمـد، ولا يهنأ لهم عيش وهم يـرون الظلم الفادح والعـدوان السـافر على الحرمـات والحقـوق؛ ومن المؤسف جــدًا أن تقــارير منظمة الشــفافية الدولية تضع كثــيرًا من الــدول العربية والإســلامية بين الــدول الأكــثر فســادًا على حين أنها تضع أساتذة الجشع في العـالم (اليهـود) وعبـاد البقر في الهند في مرتبة

أفضل بكثير، وهذه الوضـعية فحجلـة، وتكشف عن قصـور هائل في الاســتقامة الخلقيــة، وفي النزاهة والضــبط الإداري، ولهــذا فــإن مكافحة الفساد وتضييق موارده وسـالكه عن طريق حرية الصـحافة واسـتقلالية القضـاء واختيـار أهل الصـلاح للمناصب العليـا، تشـكل عوامل مهمة على طريق تخفيف التـــــــوتر داخل المجتمعـــــــات الإسلامية، حيث لا يحدث الحـراك الاقتصـادي، ولا الأمن الاجتمـاعي في بلد تضـيع فيه حقـوق أقـوام جهـارًا ونهـارًا، ويأخذ فيه أقـوام ما ليس لهم من غير خوف من أحد؛ وقد قال -عليه الصـلاة والسـلام-: "إنه لا قُدِّست أمة لا يأخذ الضـعيف فيها حقّه غـير متعتـع". (حـديث صحيح أخرجه ابن ماجة).

5-نحن نخشى من النقد ظنًا منا أنه يثير الفتن والقائل، وهذا صحيح في ظل عــدم وجــود نظم واضـحة لمحاسـبة المفـترين ومــدمني القــذف والغمز واللمــز، لكن حين يكــون هنــاك نظــام لمحاســبة المتحدث عن حديثه في إطار الأحكام الشرعية والأعراف الصـحفية والإعلامية المعتـبرة، فـإن النقد لا يـأتي بـالفتن، وإنما يُصـبح سـيفًا مسلطًا فوق رؤوس الفاسدين والمرتشـين والمجـرمين؛ وإن كثـيرًا من اســتقامة الحيــاة المالية والإدارية في الــدول المتقدمة مــدين لحرية التعبـير وحرية الصـحافة مع ما يصـاحب ذلك من مشـكلات لا تخفى إن الناس يخافون من الفضـيحة، ويجب أن يظل الشـعور من التلـوث بها شـيئًا حاضـرًا في أذهـانهم، وإلا فـإن الـذي سنشـاهده سيكون قريبًا مما تعاني منه شـرائح واسـعة من مجتمعـات العـالم؛ والله المستعان في كل حال.

صياغة القوة (8)

د.عبدالكريم بكار 11/11/1427

02/12/2006

يخاطر كثير من الكتّاب والدعاة المسلمين بما تملكه الأمة من مواد خام وثروات ومـوارد طبيعيـة، وينظـرون إليها على أنها من مكـامن القوة الكبرى لدينا؛ وهذا الكلام حق، وإن كان لا يخلو من المبالغــة، و وجه المبالغة فيه أنه يتجاهل بعض الحقــائق المــؤثرة في هــذا الشأن، ومن تلك الحقـائق تراجع دور المـواد الخـام في ثـراء الأمم بسبب البدائل التي تـأتي بها التقنية المتقدمـة، وبسـبب تعـرّض تلك الثروات للنفاد عبر عقود محدودة، وتُقـدّم (إندونيسـيا مثـالاً واضـحًا في هذا السياق حيث أدّى ازدياد حاجتها إلى (النفط) وتراجع إنتاجها إلى إيقاف تصديرها لهذه المادة المهمة.

ومن تلك الحقائق ذلك العجز الظاهر لـدى معظم الـدول الإسـلامية عن استغلال المواد الخام الـتي حباها الله –تعـالى- بها فهي بسـبب تخلفها الصــناعي، تعتمد اعتمــادًا كبــيرًا على الــدول المتقدمة في استخراج المـواد الخـام الـتي لـديها وفي تصـنيعها واسـتثمارها على الوجه الأمثـل، وهـذا يجعلنا نتحـدث في هـذا المقـال عن الصـناعة وأهميتها في قــوة الأمــة. والحقيقة أن مســألة التخلف الصــناعي مسألة بالغة الحساسية للإنسان المسلم؛ إذ إنه ينظر حوله فيجد أن كل أو معظم ما بين يديه من مصـنوعات هو من إنتـاج أولئك الـذين كانوا يسـتعمرونه في يـوم من الأيـام، أو من نتـاج شـعوب ودول له إشكالية معينة معها، وقد صـار يشـعر بالضـآلة والعجـز، بل وصل به الحــال إلى اتهــام نفسه بالغبــاء أو الإعاقة العقليــة؛ لأنه لا يجد أي تفسير للحالة المزرية التي تعيش فيها الدول والشـعوب الإسـلامية، أليس من المؤسف ألاّ يكــون لــدينا إلى هــذا اليــوم ســيارة عربية خالصة مع أن العرب يملكون العقول والأموال والأيدي العاملة، ومع أن دولاً صــغيرة نســبيًا مثل كوريا تصــنع اليــوم العديد من أنــواع السـيارات إلى جـانب عشـرات الآلاف من أنـواع المعـدات والآلات المختلفة؟!

والأمر يتجاوز هـذا كله فنحن إلى هـذه اللحظة نعتمد على الآخـرين في طباعة المصاحف وتشـييد المـآذن؛ إذ لا نصـنع آلات الطباعة ولا الرافعات المستخدمة في البناء. العالم الإسلامي لديه زيادة سكانية عالية، وملايين الشباب بل عشرات الملايين، يبحثـون اليـوم عن أي فرصة للعمــــل، فلا يجــــدون، والحل لن يكــــون في المشــــروعات السياحية التي يتهافت عليها رجال الأعمال اليوم، ولا في الزراعة أو في المــواد الخــام، وإنما هي التقنية والصــناعة. وتتبــوأ الصــناعات المعدنية اليوم قمة الهـرم بين الصـناعات المختلفـة، وتُعـدّ مقياسًـا رئيسًـا للتقـدم الاقتصـادي والصـناعي لـدى الـدول، وقد أثبتت بعض الدراسات المسحية الـتي قـامت بها معاهد متخصصة أن كل مكـان عمل في صناعة الحديد والصـلب وصـناعة المعـادن غـير الحديدية - يوفر ثمانية أماكن عمل جديدة في صـناعات لم تكن لتوجد لـولا أن هــذه الصــناعة تمــدها باحتياجاتها من المعــادن. وأنا لا أدري مَن سأخاطب بكلامي حـول النهضة الصـناعية؛ إذ إن معظم قـرائي من الشباب الذين لا يملكون قرارات التحوّل الاقتصـادي، ومن ثم فـإني سأشير إلى أمرين، يمكن أن يثيرا اهتمام الشباب:

الأول: إن التقنية الـــتي تناسب العـــالم الإســـلامي ليست التقنية المتطـــورة جـــدًا، ولا الموافقة لأرقى المواصـــفات العالميـــة، ولا المصــانع المجهــزة بأحــدث الآلات، وذلك لأن الأيــدي العاملة لــدينا وفيرة، ونحتاج إلى الكثير من فرص العمل، والمصانع المتقدمة جدًا عالية (الأتمتــة)، ولهــذا فإنها تحتــاج إلى القليل من الأيــدي العاملــة، وهي باهظة الأثمان، وصــيانتها معقــدة، وقطع غيارها عالية التكلفــة.
نحن لدينا القليل من المــال والكثــير من الأيــدي، كما أننا نحتــاج إلى مصانع أقل تعقيدًا حتى يتدرب شبابنا على صــيانتها، ومن هنا قــامت دعوات في البلدان النامية إلى اســتخدام التقنية المناســبة، وهي قد تقتضي استيراد معدات مستعملة وإنشاء ورش جيــدة لصــيانتها، كما تقتضي ضغطًا كبيرًا للإنفاق على أشكال المباني وأثاثها والســيارات المستخدمة، وجعلها أقل جودة وأناقة، أضف إلى هــذا القيــام بإنتــاج سلع غير ذات جودة عالية؛ لأن الجودة العالية تحتــاج إلى مــال أكــثر وتقنية أعلى... والهــدف من كل هــذا تشــجيع الشــباب على إنشــاء بعض المشــروعات الصــناعية ذات الكلفة المنخفضة من أجل وضع بلادنا على طريق التصــنيع ومســاعدة الأفــواه الجائعة على أن تجد شــيئًا تأكلــه. إن كثــيرًا من الشــباب يعزفــون عن اســتخدم الآلات المستعملة بسبب نقص المعلومات والخوف من التــورّط في شــراء معدات تالفة، وهنا يبرز دور الدولة ودور مجالس تطوير الصناعة؛ إذ إن بإمكانها توفير معلومات جيدة عن نوعيات المعــدات المســتعملة وعن صيانتها، والبلاد التي يمكن استيراد أصناف معينة منهــا، ويمكن للدولة كذلك أن تجعل سوق الآلات المستعملة أكثر حيوية وتنظيمًــا.
لابد من اعتماد عقلية (البداية المتواضعة) ثم التطوير المســتمر من أجل توطين التقنية، وإن كل الدول الصناعية والدول التي تسير في طريق النمو الصناعي بدأت بــدايات متواضــعة، ثم تحسّــن مســتواها شيئًا فشيئاً.
الثاني: هو المشروعات الصغيرة الــتي يمكن أن يقــوم بها الشــباب، ودورنا نحن الكبار أن ننشئ الأطر والمؤسسات التي توفر أكبر قدر ممكن من المعلومــات والاستشــارات عن المشــروعات الصــغيرة وتوفير الصناديق والمؤسسات المالية التي يمكنها مشاركة الشــباب في مشروعاتهم أو تقديم القــروض اللاربوية لهم، وعلينا أن نعــترف أننا لم نبــذل أي جهد في هــذه الســبيل! وعلى الشــباب أن يتعلمــوا فضيلة الادخار من أجل الاستثمار، وعلى الأسر أن تنمي هذا المعنى في نفـــوس صـــغارها، وقد ذكر ابن الأثـــير في النهاية أن عمر بن

الخطاب -رضي الله عنه- سأل أحد أفراد رعيته عن حال الناس في الإقليم الذي جاء منه، فحدّثه عن جزالة عطاء الوالي لهم، حــتى إن الواحد منهم يصرف المال فيما ينبغي، و لا ينبغي؛ وكـان توجيه عمر لهم: "فلو أنه إذا خــرج عطــاء أحد هــؤلاء، ابتـاع منه غنمًـا، فجعلها بسوادهم، فإذا خرج عطاؤه الثانية ابتاع الـرأس والرأسـين فجعلهما فيــه، فــإني أخــاف عليكم أن يليكم بعــدُ ولاةٌ، لا يُعــدّ العطــاء في زمانهم مالاً. فإن بقي أحد منهم أو أحد من ولده، كان لهم شيء قد اعتقـدوه، فيتكئـون عليـه، فـإن نصـيحتي لك وأنت عنـدي جـالس، نصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين".
ألا ما أشبه الليلة بالبارحـة، وما أجـدرنا بـأن ننتفع بكلام أعظم رجل إستراتيجية في الإسلام

===============

البنية العقلية

د. عبد الكريم بكار 26/9/1427
19/10/2006

في البنية العقلية العميقة لبـني الإنسـان أمـور غـير مواتيـة. ونظـراً لعـدم وجـود وعي بها فإننا نسـتجيب لهـا، ومن خلال تلك الاسـتجابة نحصل على الكثير من النتائج السيئة. ومن ذلك -على سبيل المثال- الميل إلى رؤية السلبيات والعزوف عن رؤية الإيجابيات. وكـأن هـذا نــابع من الرغبة الدفينة في النقــد، أو هو نــابع من عجز بــنيوي في رؤية الأشياء الجيـدة. ومهما يكن السـبب، فإنه قد تـرتّب على هـذه الوضــعية المختلة خلل آخر على مســتوى المعالجــة. وهــذه بعض الأمثلة التوضيحيّة:

1- في البيوت تعوَّد كثير من الآباء الصّمت المطبق، فهم لا يقومون بالتحادث مع أبنائهم، ولا ببذر بعض الأفكار الجيـدة في عقـولهم، ولا بتوضيح القيم والمثل السامية التي ينبغي أن يتشـربوها. وربما كـان ذلك منهم بسبب الاعتقاد بأن أمور أبنائهم تمضي على ما يُرام، وأنه ليس هنـاك شـيء جديد أو زائد يمكن إيصـاله إليهم. ويسـتمر الأمر على هذه الحال إلى أن يقع أحد الأولاد في مشكلة كبرى، أو يسبب لأسرته ما يشبه الفضيحة.
حينئذ تتفجر ينابيع الحكمة على لسـان الأب، ويبـدأ حملة كـبرى من التقريع والتوبيخ واللوم، ويتمادى في ذلك إلى الضـرب والطـرد من المنزل..

لو كـانت البنية العقلية للأب بنية إيجابية فلربما حـدث العكس، وهو أن يتحدث في الأحوال العادية -أوقات الرخـاء- بما يبـني الاتجاهـات الجيدة، وبما يرسّخ في نفسه القيم الإسـلامية والمُثل السـامية. إنّه يحـاول أنْ يمـدَّ جسـور الثقة بينه وبين ابنـه. ومن خلال هـذه وتلك ينمو الـوازع الـداخليّ لـدى الأبنـاء، وتسـهُل المفاتحة بينهم وبين آبـائهم، وبـذلك يتمّ حفر خطـوط متقدمة تحـول دون وقـوعهم في مشكلات كبرى. وإذا حدثت مشكلة فإن علاجها يكون سهلاً، ويكـون طريق الأوبة معبّـداً، ويجد الأب حينها أنه لا يحتـاج إلى الكثـير من الهياج ولا الكثير من الصياح.

2- بات من المعـروف في كثـير من المـدارس أن المـدير الجيد هو المدير الحازم الذي يضبط إيقاع الحركة في مدرسـته، ويقضي على ما يمكن أن يظهر من شـذوذات في ملابس الطلاب وهيئـاتهم. ومع أننا لسـنا مع التسـاهل حيـال هـذه الأشـياء إلا أن الجهد الأسـاس لا ينبغي أن يُبذل فيها؛ لأنها ليست أكثر من أعـراض للمـرض، وليست المـرض ذاتـه. إن الجهد ينبغي أن ينصـبّ على بنـاء عقـول الطلاب وبناء عواطفهم ومشـاعرهم على النحو الـذي يعمّق معـنى الالـتزام والفضـيلة في نفوسـهم ليكـون صـلاح المظهر شـيئاً يعكسه جمـال المخبر.

إنّ من المهم أنْ ندرك أن الأعمال الحضاريّة والإصـلاحيّة الكـبرى لا تقوم على المنع والحجر والتضييق، وإنما تقوم على العطـاء والبـذل والإبداع والمبادرة، وفي ظل ذلك تتم معالجة المشكلات الـتي تنشأ نتيجة الحركة والتقدم.

وإن كثـيراً من انحرافـات الأبنـاء والطلاب ما هو إلا صـدى لنقص البنـاء، وصـدى للفـراغ الـروحي الـرهيب الـذي يجتـاحهم. الأعمـال الإيجابية تـدفع في اتجـاه التفتح الـروحي والـذهني، على حين يـدفع الحظر وفرض القيود في اتجاه الاختناق والذبول، وبينهما من الفرق ما يشبه الفرق بين الحياة والموت.

إن الضـعيف اليـائس المحاصَـر لا يحتـاج إلى ما يزيـده ضـعفاً، وإنما يحتـاج إلى ما يحـرّر طاقاتـه، ويحـرّك المعـاني الراكـدة في ذاتـه. والمؤمن القويّ خير من المؤمن الضـعيف وفي كـلٍّ خـير؛ كما قـال الصادق المصدوق.

===============

رمضان: فرصة للتجديد

د. عبد الكريم بكار 28/8/1427

21/09/2006

حظي رمضـان باهتمـام المسـلمين في القـديم والحـديث وفي كل أرض من أرض الإسـلام، وقد تجـاوز اسـتعداد المسـلمين لاسـتقباله كلّ ما هو مألوف في التعامل مع العبـادات؛ بل إن لـدى المسـلمين دوافع خفية لجعل هذا الشهر عبارة عن احتفالية كاملة، تُتوّج بأفراح العيــد؛ وقد ذكر ابن الجــوزي أن في مســلمي زمانه مَن إذا جلدْتَه حتى يفطر في رمضان ما أفطـر، ومن إذا جلدْتَه ليصـلي ما صـلّى! إنها فعلاً مفارقة عجيبة؛ لكن يبدو لي أن كثيرًا من النـاس ينظـرون إلى الفطر في نهار رمضان على أنه نقص في الرجولة وضـعف في الشخصية، ولهذا فإنهم يحرصـون عليه هـذا الحـرص المميـز. وهـذه بعض الخواطر التي تتعلّق بهذه الشعيرة العظيمة.

1- شرع الله -تعالى- العبادات في الإسلام من أجل صـقل الإنسـان المسلم وتهذيبه، ومن أجل تدعيم صلته بالله -تعالى- فضلاً عن أنها أدوات ابتلاء واختبـــــار، فمَنْ أدّاها على وجهها وبآدابها نجح وأفلح، ومن ضـيّعها أضـاع نفسـه، وعرّضـها لأشد العقوبـات. هـذا يعـني أن علينا أن نتلمّس ما تتركه عبادة الصيام من تأثير في جـوهر التـديّن، والذي يقـوم على الإخلاص وحبِّ الله -تعـالى- ورجائه والشـوق إليه والحياء منـه، والسـعي الصـادق والـدؤوب في تلمّس مراضـيه، وإن الذي صام رمضان، وقام ليله، واعتاد ارتياد المساجد فيه، جدير بـأن يشعر بأن تغييرًا جيدًا قد طرأ على ذاته، وأنه قد أعاد شـحن طاقاته الروحيّة الـتي اسـتنفد كثـيرًا منها في الفـترة الواقعة بين رمضـان ورمضــان. الــذي أريد أن أقوله هنا هــو: أن ثمــرة الصــيام يجب أن تظهر في حسن عبودية المسلم لله -عز وجـل- على صـعيد الرجـاء والخـوف والثقة والتـذلّل والحب والـولاء... إنه يشـعر بمشـاعر من كان تائهًا عن أهله وبيته، ثم وجده ووجــدهم! ويجب أن تظهر ثمــرة الصيام أيضًا على صعيد السـلوك العملي من الالـتزام بحـدود الله -تعــالى- والعمل بــآداب الشــريعة الغــراء... إننا نريد أن نــرى بعد رمضان تحسنًا يطرأ على رؤيتنا للدنيا والآخرة، أي أن تترجم حركتنا اليومية اعتقادنا بأن الدنيا مزرعة الآخرة.

2- يؤسـفني القـول: إن معظم الوسـائل الإعلاميـة، تقـوم بتشـويه الوجه الحقيقي لرمضــان، وتغيــير ملامح رســالته للأمــة، وذلك عن طريق تصويره للناس بأنه ضيفٌ ثقيل، يحتاج مستضيفوه إلى الكثير من الـترويح عن النفس حـتى يسـتطيعوا تحمّل وطأتـه، وحـتى يمر بسلام، مع أن الرؤية الإسلامية الأصيلة والموروثة نسبيًّا، هي أن هذا

الشـهر الكـريم هو فرصة عظيمة لمن يوفقه الله -تعـالى- لصـيامه وقيامه؛ ومن هنا كـان كثـير من السـلف يـدعون الله -تعـالى- سـتة أشـهر قبل قـدوم رمضـان أن يبلِّغهم رمضـان، فـإذا انتهى رمضـان دعـوا الله -تعـالى- سـتة أشـهر أن يتقبل منهم صـيامه. والتشـويه الثـاني الـذي تقـوم به وسـائل الإعلام هو تصـوير رمضـان على أنه مناسبة كبرى وطويلة للهو والتمتّع بأصـناف الأطعمة والسـهر ولعب الورق وتجمعـات المـراهقين والشـباب في الشـوارع.. مع أن الـذي نعرفه من أسـرار مشـروعية الصـوم هو أن المسـلم في رمضـان يهذِّب نفسه من خلال حرمانها من ملذاتها وشهواتها، كما أن الجـوع الذي يعانيه، يجعله يتـذكر الجيـاع، فيبسط يـده بالإحسـان للفقـراء، أضف إلى هذا أن الناس في رمضان يتنـاولون وجبـتين في رمضـان عوضًا عن ثلاث وجبات، وهذا يعني وجود نوع من التوفـير فيما يُنفق على الطعـام، مما يسـاعد على التصـدّق، ومما ينعش رأس المـال الوطـني... لكن الواقع يشـهد أن ما ينفقه النـاس على المأكل في رمضـان، يتجـاوز ما ينفقونه في أي شـهر آخـر! هكـذا يتم إجهـاض الشعائر العظيمة، وهكذا يتم صرف المبادئ عن وجهتها الشريفة!

إنني أدعو نفسي وإخـواني إلى تقليل مشـاهدة التلفـاز في رمضـان إلى أدنى حد ممكن حتى يعود لرمضان ألَقُه، وحـتى يعـود كما كـان فرصة للتنقّل والذكر وقراءة القرآن وبذل المعروف...

3- رمضـان يصـلِّب لـدينا روح المقاومـة، ويقـوّي الإرادة والعزيمـة، وينبغي أن نسـتفيد من ذلك في جعل شـهر الصـيام مناسـبة لتغيـير بعض العـادات غـير المرْضـيّة واكتسـاب بعض العـادات الحميـدة؛ والحقيقة أن الذي يجعل الإنسان ملتزمًا ومتفوقًا ليس سوى صفات قليلة، كما أن ما يجعل سلوك الإنسـان، يوصف بالسـيّئ أيضًـا ليس بالكثير، إنه يكفي أن يتخلص المرء في كل رمضان من عادة واحدة سيئة وإحلال عادة حسنة مكانها حتى يجد نفسه بعد خمس سـنوات وقد انتقل من شخص سيّئ إلى شخص عادي، أو من شخص عـادي إلى شخص جيد أو ممتاز، تصـوّر معي شخصًـا تـرك في سـنة عـادة التسويف، وفي الـتي بعـدها عـادة الفوضى في التعامل مع الـوقت، وفي ثالثة عــادة المبالغة في الكلام، وفي رابعة عــادة التــأخّر عن صـلاة الجماعــة، وفي خامسة عــادة جفــاء الأهل والأرحــام.. كيف سيكون حاله؟!

4- نحن نعيش في وضـــعيّة كونية جديـــدة آخـــذة في التشـــكل والانتشـار، وهـذه الوضـعية، تُعطى فيها الأولويـةُ للمحسـوس على

المعنوي، وللمباشر على غير المباشـر، وللآني على الآجـل، وللقـوة على الرحمـــة، وللنجـــاح على الفلاح، وللمتغــير على الثـــابت. إنها وضـعيّة مخيفة ومقلقة حقًـا، وإذا ما اسـتمر الوضع على ما هو عليه الآن، فهذا يعـني أن الأجيـال القادمة سـتنظر بعين الاسـتخفاف إلى كثير مما نعدّه الآن شيئًا عزيـزًا وعظيمًـا، والحل لهـذه المعضـلة لن يكـون فلسـفيًا أو إرشـاديًا، وإنما هو حـلٌّ عملي يقـوم على أن نحيا رمضـان كما كـان المسـلمون الأوائل يحيونــه: صـيامٌ عن الطعـام والشراب وعن المعاصي والذنوب، وإحياءٌ لليـالي المباركة وللأرواح والقلوب، وتقرّبٌ إلى الله -تعالى- بأصناف القربات، إن هـذا وحـده هو التعبـير الحقيقي عن رفضـنا للتحلّل الـداخلي والغـزو الثقـافيّ القادم من كل مكان.
والله الموفق.

==============

التعصّب

(1)

د. عبد الكريم بكار 5/5/1427
01/06/2006

في السـاحة الإسـلامية العامة دعـوة عريضة لتوحيد الأمة في كيـان سياسي واحـد، وفي سـاحة الصـحوة والـدعوة هنـاك دعـوة مماثلة لتوحيد العمل الإسـلامي، أو على الأقل العمل على تقـريب توجهاته ومناهجـه، ولكن الواقع يشـهد أن الاسـتجابة لكلتا الـدعوتين تقـترب من العـدم، مع أن ولاء المسـلمين قاطبة كـان على مـدار التـاريخ للأمـة، وليس للدولة القطريـة، ومع أن لـدى الإسـلاميين الكثـير من النصــوص والمقــولات الــتي تؤكد على وحــدة الكلمة ونبذ الخلاف والفرقة، فلماذا لم تتحقق هذه التطلّعات؟
في البداية لا بد من القـــول: إنـــني لا أحكم هنا على مـــدى واقعية الــــدعوة إلى توحيد الأمة تحت لــــواء سياسي واحــــد، ولا توحيد الجماعـات الإسـلامية في أي بلد من البلـدان الإسـلامية تحت إمـرة قيادة واحدة، فهذه مسألة تحتاج إلى نقــاش معمَّق، لكن أود هنا أن أشير إلى مرض اجتمـاعي واسع الانتشـار على صـعيد الأمة بشـكل عام، وعلى صعيد الجماعات الإسلامية على نحو خاص.
وهذا المرض والذي هو (التعصـب) يشـكّل عائقـاً أساسـياً أمـام كل أشكال التقارب بين الأفـراد والجماعـات والشـعوب والمؤسسـات.. وذلك لأنه يكرِّس أسـباب الفرقـة، ويهـدم ما هو موجـود من أركـان

اللقاء والوحدة والتعاون. وهذه بعض الملاحظات الجوهرية في هــذا الشأن:
للتعصّــب علاقة لغوية بـــ (العصــبيّة)، ومعناها أن يــدعو الرجل إلى نصـــرة (عُصـــبته) -أي قرابته من جهة أبيه الـــذين يتعصّـــبون له وينصـــرونه- والتـــألّب معهم على من ينـــاوئهم ظـــالمين كـــانوا أو مظلومين.
إن المتعصّـــب لشـــيء أو ضـــده يتسم بالعاطفة الشـــديدة والميل القوي، فهو في حالة التعصب لقومه أو جماعته أو وطنه أو أفكاره.. لا يرى فيما يتعصّب له إلا الإيجابيات والمحاسن، وفي حالة التعصّب ضد شيء مما ذكرناه، فإنه لا يرى المعايب والسلبيات، وهـذا يعـني أن المتعصّب مصاب بـ (عمى الألوان). والمتعصّب إنسان غارق في أهوائه وعواطفه، على مقدار ضعفه في اسـتخدام عقلـه، ولا يعـني ذلك أنه لا يفكر، إنه يفكر، ولكن الأفكـار الـتي تتمحض تتمخض عن تشـغيل عقلـه، يتم إنتاجها في إطـار العواطف الجامحة الـتي لديـه، وتكـون مهمتها الأساسـية ليس ترسـيخ الاعتـدال والإنصـاف، وإنما التسـويغ للميـول والعواطف العميـاء الـتي تغلي في صـدر الإنسـان المتعصّب!
لا يحبّ المتعصّب المناظرة؛ لأن التعصّب الذي لديه يــوحي إليه بأنه على الحق الواضح الـــذي لا يقبل النقـــاش، لكن المتعصّـــب يحب الجدال بالباطل الذي يقوم على أسس غير موضوعية وغير عقلانية.
والإنسـان المتعصّـب بعد هـذا وذاك إنسـان عجـول، يُصـدر الأحكـام على النـاس من غـير فحص للأدلة والـبراهين والأسس الـتي تقـوم عليها تلك الأحكام، إنه مع قومه فيما يحبون ويكرهـون، ومع جماعته فيما تقـدم عليـه، وفيما تحجم عنـه، وهم في كل ذلك على صـواب، ولا يحتاج ذلك إلى أدلة، على حد قول الشاعر:
لا يسألون أخاهم حين يندبُهم ... ...
في النائبات على ما قال برهانا
ومن لوازم التعصّب ومكوناته -بالإضافة إلى ما أشرنا إليه- الآتي:
الجمود؛ إذ إن المتعصّب يلازم الأفكار الموروثة حول ما يتعصّب لـه، فإذا كـان يتعصّـب لبلـده، فإنه يحفظ كل ما قيل في فضـائله بقطع النظر عن صحته، ولا يفتح عقله للتعامل مع المقولات الجديدة حول ذلك البلـد؛ فهو بلد الصـدق والأمانة والشـهامة والكـرم.. وإن كـان الناس من حوله يلاحظون أن وجـود هـذه الفضـائل نسـبي، وأن بين أبناء بلده من ليس صادقاً ولا أميناً ولا كريماً...

من مكونـات التعصّـب ولوازمه التفكـير غـير المنطقي؛ إذ تنطمس الأسباب عند الحديث عن المشـكلات، ويختل الربط بين المقـدمات والنتـائج، فـإذا حـدثت محنة عظيمة لجماعة المتعصّـب فـإن تلك المحنة ليست بسبب سوء تقديرها للأمور، أو بسـبب أخطـاء تربوية أو تنظيمية أو بسبب أخطاء إستراتيجية.

إن كل هـذه الأخطـاء لا يسـتطيع المتعصّـب رؤيتهـا، ولهـذا فالمحنة التي وقعت هي بسبب مؤامرة كبرى تعرّضت لها الجماعة أو بسبب وشـاية من جماعة منافسـة، أو بسـبب عـدم الـتزام بعض أبنائها بالتعليمات.. وحين يُنبَّه المتعصّـب إلى أن السـلوك الفلاني سـيؤدي إلى كذا وكـذا، فـإن المتعصّـب يفسر ذلك بالحسد والحقد والجهـل؛ وذلك لأن في سلسلة المعقولات لديه حلقات مفقـودة، لهـذا فإنه لا يستطيع رؤية التداعيات المنطقية بين الأشياء.

التعميم المفـرط داء وبيل يُبتلى به المتعصـبون عـادة، ونحن نقـول دائماً: إن التعميم المفـرط من أكـثر أخطـاء التفكـير شـيوعاً، وذلك بسـبب عجز معظم النـاس عن إصـدار أحكـام مبنية على رؤية تفصـيلية منصـفة، إن أي فضـيلة تثبت لواحد من أفـراد قبيلة المتعصّب، يعمّمها على بـاقي أبنـاء القبيلـة، وإن أي رذيلة تثبت عن قبيلة منافسة يقوم بتعميمها على جميع أبنـاء كل تلك القبيلـة، وفي هـذا من الظلم ما لا يخفى. وهكـذا فالمحابـاة والتحامل صـفتان أساسيتان لدى الإنسـان المتعصّـب، وهاتـان الصـفتان توجـدان خللاً كبيراً في الشخصية، ولهذا فإن المتعصّب يكون في الغالب محروماً من التوازن العقلي والانفعالي الذي يتمتع به الأسوياء

التعصّب (2)

د. عبد الكريم بكار 19/5/1427

15/06/2006

نتابع في هذا المقال الحديث عن التعصّب الـذي بـدأناه في المقـال السابق.

2- التعصّب حين يطول أمده، فإنه يؤثر في الشخصـية تـأثيرًا بالغًـا، إنه يصبح عبارة عن مصنع للنظـارات الـتي يـرى المتعصّـب الأشـياء من خلالهـا، فهو في كل موقف يتعلق بمن يوجه التعصّـب ضـدهم، يفكر، ويفهم، ويدرك، ويعي، ويشعر، ويسلك ويتصـرف ويحكم وفقًا للصـورة الذهنية الـتي شـكّلها عنهم؛ وعلى سـبيل المثـال فـإن المتعصّـب حين يعتقد أن القبيلة الفلانية قبيلة منحطّة في نسـبها أو سـجلها التـاريخي أو مكانتها الاجتماعية الحاضـرة، فـإن نظرته إلى

تصـــرفات أفرادها وأحكامه عليهم ومشـــاعره نحـــوهم، تتجسد في الآتي:

o إذا رأى واحدًا من أفراد القبيلة، فإنه ينظر إليه نظـرة دونيـة، فهو غير جدير بالتفوق الظاهر، وإذا احتل منصبًا كبـيرًا نظر إليه على أنه أصغر من أن يحتل ذلك المنصب، وإذا طالب بحق ثابت له، رأى أنه يبالغ في طلب ذلك الحق.

o إذا حـدثت سـرقة أو جنايــة، أو وقعت فعلة شـنيعة، ولم يُعـرف مرتكبها فـإن المتعصّـب يتهم واحـدًا من أبنـاء تلك القبيلة -لا على التعـــيين- بفعل ذلـــك، ويبعد التهمة عن أبنــــاء القبائل الشـــريفة والرفيعة.

o حين يقع ظلم على رجل ينتمي إلى قبيلة وضيعة فـإن المتعصّـب لا يجد في نفسه الحماسة للدفاع عنه ومناصرته، ربما لأنه يعتقد أنه لا يُعقل أن يكـــون مظلومًـــا، أو يعتقد أن من المؤكد أنه هو الـــذي تسبّب في إيقاع الظلم على نفسه.

o يحـــاول المتعصّـــب الابتعـــاد في معاملاته وعلاقاته الاجتماعية عن أفراد القبيلة المنحطة وذلك خوفًا من العار أو الأذى أو الخيانة.

o ينظر إلى ابن القبيلة المنحطة على أنه غـــير موثـــوق في كلامـــه، ويفسر الغامض منه تفسيرًا سيئًا.

إن كل ما ذكرنـــاه يتم من خلال الرؤية الاجماليـــة، ومن غـــير أدلة وبراهين يمكن الاعتماد عليها. وأنت ترى أنما أشرنا إليه يشـــكل في الحقيقة نوعًا من التميـيز الشـبيه بـالتمييز العنصـري الـذي مارسه الـبيض في جنـوب إفريقيـة، ويمارسه اليهـود اليـوم في فلسـطين السليبة. إن التعصّب والذي يعزز التمييز بالصورة التي رأيناها يقسِّم أبنـاء الملة الواحـدة إلى طبقـتين متمـايزتين: طبقة القبائل النبيلة ذات الحسب والنسب والتفـــوق والشـــرف وطبقة القبائل الدنيئة الوضيعة التي لا تمت إلى المكرمات بأي صلة!

وفي هذا من الحيف والظلم والنجس الـذي تمقته الشـريعة الغـرّاء، حيث يقول الله -تعالى-: (ولا تبخسوا النـاس أشـياءهم، ولا تفسـدوا في الأرض بعد إصـلاحها) [الأعـراف: 85]، وقـال -صـلى الله عليه وسـلم-: "إن أعظم النـاس جرمًا إنســان يهجو القبيلة من أســرها، ورجل تنفَّى من أبيـــه" (رواه ابن ماجـــة). وقـــال: "لا يُؤخذ الرجل بجريرة أبيه، ولا بجريرة أخيه" (رواه النسائي).

3 – من الواضح من خلال ما ذكرنـــــاه عن التعصّـــــب ضد (القبيلة المنحطة) أن المتعصّب يقوم بعملية (تنميـط) لجميع أفـراد القبيلـة؛

فهم جميعًا لديه يتخلقون بأخلاق واحـدة، ويفكـرون بطريقة واحـدة، ولهم تطلعات واحدة... وهذه العملية (التنميـط) هي النتيجة الحتمية لعجزنا عن العيش في عـالم واسع الأرجـاء كثـير التعقيـدات، فنحن غير مهيئين للتعامل مع كل الأحداث الموجودة بشكل مباشر، ولهـذا فإننا نعيد بناءها في نمـاذج بسـيطة كي تصـبح سـهلة الإدراك. ومن المشاهَد أن (التنميـط) يقـوم على الاختصـار والتعميم، فالجماعـات الإســـلامية –مثلاً- حين تحـــاول ملامح بعضـــها بعضًـــا، تعمد إلى (الاختصـــار): هـــذه الجماعة تشـــتغل بالـــدعوة، واهتمامها بـــالعلم الشرعي محدود، المثقفون فيها قليلون، وهي لا تشتغل بالسياســة، ولا تهتم بالجهاد (قتال الأعداء) ولديها بدع كثيرة. هذه الســمات هي ما توصف به إحـــدى الجماعـــات الإســـلامية العاملة على الســـاحة والمنتشـرة في شـبه القـارة الهندية على نطـاق واسـع. الصـفات المذكورة هي كل ما تتصف به في نظر الجماعات المتعصّـبة ضـدها والمناوئة لها. ولا يُـذكر في العـادة ما لـديها من أعمـال عظيمة في الـــدعوة، ولا يـــذكر ذاك العـــدد الضـــخم من النـــاس الـــذين تغيّـــرت أحوالهم إيجابًا بسبب دعوتها لهم.

بعد الاختصار يأتي التعميم، فكل من ينتمي إلى تلك الجماعة وسواء أكان من أعمدتها وأركانهـا، أو كـان يتحـرك في هامشـها –كل أولئك يتســمون بالســمات العامة لتلك الجماعــة، وعند معاملته ومناظرته وتقويمه... يُعامل وكأنه فعلاً متمثل لكل صفات جماعته، ومتشــرب على نحو كامل لكل مبادئها و أخلاقهـــــــــــــا، ويحمل كل عيوبها ونقائصها... وإذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن في أفراد تلك الجماعة، من يمضي معهـا، وهو لا يعـرف إلاّ القليل عن إيجابياتها وسـلبياتها، ومنهم من يمضي معها، وهو يناقشها في بعض ما يُؤخذ عليها، وهـذا موجود في الحقيقة لـدى كل التجمعـات والجماعـات والأحـزاب، بل هو موجود بين أفراد الأسرة الواحدة، حيث يظهر أبناء الأسرة أمــام النـــاس، وكـــأنهم شـــيء واحـــد، مع أن بينهم الكثـــير من التبـــاين والاختلاف. التعصّب يقوم على الاختصار المخلّ والتعميم المحجـف، أي هو مولود لأبوين غير شرعيين، ولذا فإنه مذموم بمعـايير الشـرع والمنطق والإنسانية.

التعصّب (3)

د. عبد الكريم بكار 3/6/1427

29/06/2006

في هذا المقال من حديثنا عن التعصب سنتحدث بحول الله -تعالى- عن الأسباب التي تدفع الأشخاص والجماعات في اتجـاه (التعصّـب) على أمل تكوين ثقافة واضحة حول هذه العلة الأخلاقية والاجتماعية المنتشرة على نطاق واسع؛ ولعل من أهم تلك الأسباب الآتي:

1- الجهل سـبب رئيس بين أسـباب التعصـب؛ إذ إن الشـخص أو الجماعة أو القبيلة أو الحـزب حين يجهل حقيقة ما عليه الآخـرون فإنه يقع بسـهولة فريسة لأحـاديث المجـالس غـير الموثوقة والمتحاملـة، كما يقع فريسة للدعاية المضـادة، وتـدل بعض الدراسات على أن الناس كلّما عرفوا أكثر وأكثر عن بعضهم خفّت حـدة التعصب لـديهم، وذلك لأن تلك المعرفة تظهر لهم زيف الشائعات المغرضة الـتي يتـداولونها عن بعضـهم من غـير أي تثبّت؛ وفي هـذا الإطـار نفهم حكمة العديد من التشـريعات والعبـادات الإسـلامية ذات الصـبغة الاجتماعيـة، مثـل: الحج وصـلاة العيـدين والجمعة والجماعـة، ومثل الحثّ على الـتزاور وعيـادة المـريض، وصلة الأرحام، والتعـاون على الـبر والتقـوى.... والله –تعـالى- يحثنا بطريقة واضـحة على التعـارف والتواصل حين يقـول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ). [الحجـرات:13]. إن انتشـار الذرية وتنـوع الانتمـاء القبلي من الأمـور الـتي تبعث على الفرقة والتناحر والتعصـب، لكن القـرآن الكـريم يـذكّرنا بثلاثة أمـور أساسية:

أ – الناس مهما اختلفوا وتباعدوا، فإن عليهم أن يتذكّروا أنهم جميعًا من أب واحد وأم واحدة، فهناك دائمًا شيء مشترك.

ب- هذا التنوع قد يُستغلّ للعـداء والتجـافي، لكن الله –تعـالى- يريد من عبـاده أن يتخـذوا منه أداة للتواصل والتـآلف والتعـارف على قاعدة "نختلف لنأتلف".

جـ- لا ينبغي لهـذا التنـوع أن يُتّخذ طريقًا للكـبر وهضم الحقـوق والشـقاق، فالإنسـان يكـون أفضل من غـيره بشـيء من واحـد، هو (التقوى). ومن التقوى رحمةُ العباد والرفق بهم وجلب النفع لهم.

2- يجد العنصريون والأنـانيون ومحـدودو الأفق في التبـاين الفكـري والثقـافي والعـرقي... مرتعًا خصـبًا لإنعـاش التعصب وزيـادة حـدة الاختلاف. إن هـؤلاء يجعلـون من أنفسـهم ومن مجموعـاتهم محـورًا أوحـد، فكل ما لـديهم هو الأصـل، وكل ما لـدى الآخـرين ينبغي أن يكون صورة، وإلاّ تعرضوا للنبذ والعدوان والاضـطهاد، مع أن الواقع

يشهد أنه ليس هنـاك قبيلة ذهبت بكل المكرمـات، ولا جماعة ذهبت بكل النجاح، كما أنه ليس هناك تيـار أو مـذهب ذهب بكل الصـواب، ونحن نعـرف أن أحد فقهائنا القـدامى أطلق قاعـدة ذهبية في هـذا الشـأن حين قـال: "مـذهبنا صـواب، يحتمل الخطـأ، ومـذهب غيرنا خطأ، يحتمل الصواب" لكن الذي كـان يجـري – ومـازال في معظم الأحيان – هو أن مدرسي كل مذهب كانوا مشغولين باستمرار ببيان فضائل مذهبهم والدفاع عن أصوله وفروعه دون ممارسة شيء ذي قيمة من النقد والمراجعة والتمحيص. ووقع في مثل هذا الجماعـات وأحزاب وتيارات عديدة. إن النقد الذاتي يخفف من حـدة التعصـب، ويقلل من إمكانية استغلال العواطف المتاجرة بها، لكنّ هـذا يحتـاج إلى قدر كبير من الإخلاص والشجاعة الأدبية والرؤية الموضوعية.

3- تشـتد حـدة التعصب في المجتمعـات الـتي فيها قـوانين غـير منصفة، وذلك كأن تنـال طبقة أو فئة أو مجموعة امتيـازات خاصـة، دون بقية الناس؛ هـذه القـوانين تعمل على توليد ثقافة التعصب من أجل إيجاد منطلق لإقناع المحظوظين باستحقاقهم للامتيـاز، وإقنـاع المظلـومين بـأن ما يجـري لهم هو شـيء طـبيعي، ومن هنا فـإن الشريعة شدّدت كثيرًا على مسألة العدل ومقاومة الظلم. والحقيقة أن الفئة التي تنال ما ليس لها تُصاب بنـوع من التشـوّه في أرواحها وعقولها وأخلاقها، وهذا من عدل الله –تعالى- بين عبادة!

4- المنافسة على طلب الـرزق تـذكي نـار التعصـب، فحين يجد السكان الأصليون أن الوافـدين إلى بلادهم صـاروا يزاحمـونهم على الأعمـال والوظـائف، فـإنهم يسـعون إلى إيجـاد آلية لكسر حـدة منافستهم، ويجـدون في التعصب وسـيلة جيـدة لـذلك، والمفـروض لحل مثل هـذه المشـكلات النظر بعين الإنصـاف للإيجابيـات والسلبيات التي تترتب على وجـود أولئك المنافسـين، والسـعي إلى إيجـاد نظم وقـوانين عادلة ومريحة تحكم وتنظم العلاقـات بين الجميـع، ولاسـيما أننا نعيش في عصر العولمة حيث كل شـيء يتداخل ويتواصل بوتيرة متصاعدة.

5- أحيانًا تتعصب جماعة أو قبيلة ضد جماعة أو قبيلة أخـرى من أجل تقوية نسـيجها وتقوية صـفوفها، وهـذا ما يفعله اليهـود في فلسـطين المحتلـة، فهم يحتقـرون العـرب والفلسـطينين خاصـة، ويشـنون الحـروب المتتابعة من أجل تقوية الروابط الاجتماعية والأيدلوجية القائمة بين اليهـود، ولاشك أن اللجـوء إلى التعصب

بوصـفة مـورد تضـامن ينطـوي على انحطـاط أخلاقي، ويـدلّ على فساد الأسس التي قام عليها الكيان أو التجمّع.

التّعصُّب (4)

د. عبد الكريم بكار 17/6/1427

13/07/2006

بعد أن تحدثنا عن ظـاهرة التعصّـب وعن أسـبابه، آن لنا أن نتحـدث عن سـبل مقاومة هـذه الظـاهرة السـيئة والمنحطـة، وذلك عـبر المفردات الآتية:

(1) التعصّــب ليس شــيئاً وراثيــاً، لكنه يُكتســب، ويُتعلم من البيئة المحيطـة، وهـذا يعـني أن الإنسـان كما يتعلم التعصّـب، يمكنه أن يتعلم التساهل والتسامح. وقد دلت الكثير من البحـوث والدراسـات على أن الشعوب والجماعات تتغير اتجاهاتها عبر الأجيال، كما تتغـير أنماط التفكير لديها، فالإنسـان كـائن يتعلم باسـتمرار، لكن الخلاص من العيــوب لا يتم عن طريق المصــادفة، وإنما عن طريق القصد والتخطيط والمجاهدة.

(2) للتخلص من أي ظاهرة نحتاج إلى تركيز الضوء عليها، بل نحتاج في الحقيقة إلى تشريحها. وظاهرة التعصّب من الظـواهر الشـديدة التعقيد؛ لأنها تقوم على عقائد وأفكار ومفـاهيم راسـخة ومترابطـة، وذات مسـحة منطقية أو نصف منطقيـة. ومن الواضح أن التعصّـب يشكل نوعاً من حب الذات، ويشـتمل على درجة كبـيرة من الأنانية والتمحور حول النفس، وذلك لأن المرء يحب الذين يشـبهونه، وينفر من الذين يتبين له أنهم مغايرون لـه، وهـذا ينم عن غفلة شـديدة أو وعي زائف، أو نفس مريضة!

(3) انتهت نظريات التفوّق العـرقي والـتي سـادت فـترة طويلة من الزمــان، وعــادت الأمم المتحضــرة إلى المعيــار الإســلامي في التفاضل، وهو الاستقامة والنفع العام والتفوّق في الأداء، وصـار من الواجب علينا نشر هذا المعنى على أوسع نطاق.

(4) كثيراً ما يقوم التعصّب على التعميم الخاطئ، فنحن حين نحكم على شـعب بأنه أحمق أو كسـول أو غـدّار أو غـبيّ.. نقـوم بتعميم ملاحظة أو معلومة جزئية عن أفـراد قليلين لنجعلها شـاملة لأعـداد كبــيرة قد تبلغ مئــات الملايين من البشــر، وفي هــذا من الظلم والتجـني ما لا يرضى الله تعـالى بـه، وما لا يليق بالإنسـان العاقل والموضـوعي الحـريص على وضع الأمـور في نصـابها، ولهـذا فـإن مقاومة التعصّب تحتاج إلى تقوية الـوازع الـديني، والـذي يـدعو إلى

التوقي من ظلم الناس، وإلى تدعيم التفكير الموضوعي والمحاكمة العقلية العادلة لدى الناشئة، وهذا من مسؤوليات الأسر في البيوت، ومن مسؤوليات المدارس ووسائل الإعلام.

(5) يدفع التعصّب في اتجاه العداوة والعزلة، ولهـذا فـإن كثـيراً من التعصّب سببه الجهل وضـعف الاتصـال، ومن هنا فـإن علينا التفكـير في الوسـائل الـتي تسـاعد على الاتصـال الفعـال، والوسـائل في الحقيقة كثيرة منها:

أ - الحوار وتبادل الأفكار، ومناقشة القضـايا والمشـكلات الـتي تثـير التعصّـب، وتلك القضـايا كثـيرة، فقد تكـون المعتقـدات والمفـاهيم الخاطئة عن أولئك الذين يجري التعصّب ضدهم، وقد يكون التنافس على طلب الرزق، وقد يكون سـيطرة فئة على بعض القطاعـات أو بعض الموارد.. إن الحوار يكون أشـبه بفتح جـرح التـأم على فسـاد، فتح الجرح مؤلم، ولكن حتى نطهّره لا بد من تحمل الألم.

ب - فِـرَق اللعب تسـاعد في تعريف الشـباب على بعضـهم، وهـذا واضح جـداً في الألعـاب ذات الصـبغة العالميـة؛ إذ يتم اختيـار الأكفأ لتمثيل البلاد بقطع النظر عن لونه ودينه وعرقـــــــه، وكم رأينا من مشاعر الجماهير الإيجابية والحميمة تجاه لاعبين ينتمـون إلى فئـات لها مشكلة مع تلك الجماهير!!

ج - للتعليم دور أساسي في التخفيف من مشـــاعر التعصّـــب عن طريق الاتصـال الفعّـال، وقد قـامت بعض الـدول الـتي تعـاني من العنصرية باتباع سياسات تعليمية بنّاءة في هذا المجال، وعلى سبيل المثال فقد كُلّف الطلاب بإجراء بحـوث متنوعة على أن يقـوم بعض الطلاب السود بكتابة جزء من البحث، ويقوم الطلاب البيض بإكماله أي لا يكتمل البحث إلاّ من خلال تبـادل المعلومـات والتحـدث حـول منهج البحث بين الطرفين.

د - الاتصـــال الفعّـــال المـــؤثر، هو اتصـــال عفـــوي حر بعيد عن الرسـميات، وهـذا يتحقق خلال اللعب والبحث والتسـوّق والاختلاط بين الجـــوار.. لكن لا بد مع هـــذا من شـــيء مهم جـــداً هو عدالة القوانين؛ إذ إنّ كثيراً من الفوقية والنرجسيّة والتميّز الأجـوف يـأتي من وراء القـــوانين الظالمة الـــتي تمنح فئة أو فئـــات من الشـــعب امتيازات لا تسـتحقها، وقد ثبت أن للقـوانين قـدرة فائقة على توليد الثقافة التي تمنحها الشـرعية، وتضـفي عليها المنطقية والانسـجام. العـدل يـدفع في اتجـاه الإخـاء، والظلم يـدفع في اتجـاه التعصّـب والتنابذ والعدوان. هذه حقيقة راسخة، يجب أخذها بعين الاعتبار.

(6) تسليط وعي الناس على التناقضـات الأخلاقية الـتي سـبّبها لهم التعصّب؛ إذ إن كثيراً من الذين يتعصّبون ضد غيرهم يؤمنون بالعدل والمساواة وكرامة الإنسان، ويحفظون الآيـات والأحـاديث والأقـوال التي تـدل على ذلـك، لكنهم لا يسـتفيدون منها شـيئاً، وهم من وجه آخـــر، يحبـــون من غـــيرهم أن يعـــاملهم على أنهم بشر أســـوياء محترمون، لكنهم لا يفعلون ذلك مع الآخرين. إن توعية الناس بهـذه المعـــاني على نحو مســـتمر، قد تســـاعد فعلاً في تخفيف غلـــواء التعصّب.

(7) نشر الـروح الإيجابية والتفكـير الإيجـابي مهم أيضـاً على هـذا الصعيد؛ إذ إن على المسلم أن يركز على رؤية الإيجابيات، وعلى ما لـدى النـاس من فضل وخـير، ويتعلم غضّ الطـرف عن النقـائص والهفوات، فذلك أسلم لقلبه وأفضل لدينه، وأعـون له على مواجهة مشاق الحياة.

إن التعصّب مرض عُضـال مـزمن، عـانت منه البشـرية على امتـداد تاريخها الطويـل، وما زالت تعـاني، وسـتظل تعـاني، ولهـذا فـإن المطلوب ليس استئصال شأفة التعصّـب وإنما التخفيف من لأوائـه، وهذا يحتاج إلى علاجات مركبة وعلى النفس الطويل.

والله الموفق.

==============

جزء من كل

د. عبد الكريم بكار 6/4/1427

04/05/2006

يحكم وجودنا وشـــؤوننا مجموعة كبـــيرة من النظم المتشـــابكة والمتداخلـة، وتلك النظم تمنح في التحليل النهـائي الحيـاة البشـرية طبيعتها العامـة. إن من المهم ونحن نحـدد المواقف وآليـات العمل في أي مجال من المجـالات أو مشـروع من المشـروعات أن نـدري أن ما نريد معالجته يخضع لنـوعين من النظم: نظم تحكمه بوضـعه شيئًا ذا مواصفات محددة وشخصية مسـتقلة، ونظم تحكمه بوصـفه جزءًا من ظاهرة أكبر، أو بوصفه شيئًا سـيتأثر ببيئته وبعوامل أخـرى خارجة عن طبيعتـه. إننا حين نمتلك مثل هـذا المـدخل لفهم الأمـور بوضوح، نكون قد بدأنا بـامتلاك ما نسـميه (الرؤية الشـاملة للواقـع) وهـــذه الرؤية ضـــرورية للغايـــة، إذا ما أردنا أن نفهم المحفـــزات والمساعدات الإضافية التي يمكن أن تأتينا من هنا وهناك، وأن نفهم

الانسدادات والتأزمات الخفيّة التي تعترض سبيلنا، ولعلي أضرب بعض الأمثلة التي توضح هذه القضية.
1- هنـــاك اتفـــاق بين أمم الأرض على أهمية القـــراءة ومجالسة الكتــاب، لكن الواقع يكشف تباينًا كبــيرًا بين شــعب وشــعب؛ فقد ذكرت بعض الدراسات أن متوسط القراءة في اليوم لـدى العـربي، هو في حدود ست دقـائق. على حين أن الأوروبي يقـرأ وسـطيًا في اليــوم حــوالي ثمــانٍ وثلاثين دقيقــة. هــذا مع أننا أمة (اقــرأ) وأمة التراث الذي دعا إلى الاهتمام بالكتاب والعلم والعلماء. لماذا يحدث إذا نظرنا إلى القـوانين الداخلية الـتي تحكم قضـية القـراءة، فقد لا نجد فوارق تذكر بين العربي والأوروبي، الكل يـدرك أهمية القـراءة، وعلى الجميع بـذل جهد معين من أجل الاسـتمرار فيهـا، لكن الـذي يصـنع الفـرق، هو البيئة والنظم الخارجيـة. إن الإنسـان على مـدار التاريخ لم يجد مشكلة في الاستجابة للمحفزات والدوافع الأساسية، فالكل يحـاول الحصـول على ما يحميـه، ويـؤمِّن له الاسـتمرار في الوجـود؛ لكن المشـكلة الـتي طالما واجهها الإنسـان هي الاسـتجابة للدوافع والحاجـات الثانويـة، مثل القـراءة وتـدعيم الـذات والتفـوق وتهذيب النفس، وما شاكل ذلك، نحن نعرف أن الجلوس سـاعة من زمان من أجل قراءة كتاب يحتاج إلى شيء من راحة النفس وراحة الجسد، أي إلى (مزاج) مواتٍ لاستخدام العقل وبذل الجهد من أجل الحصول على معرفة، قد لا نعرف في أحيان كثيرة مـاذا نصـنع بهـا، ولا كيف نستثمرها. ومن ثَمّ فـإن النـاس لن يقبلـوا على الكتـاب إلا من خلال وجود دواعٍ ومحفزات خارجية، وفي هذا السياق نجد شـيئًا يستحق الاهتمام، وهو أن الدول الـتي سـجل أبناؤها سـاعات طويلة من القراءة سنويًا، هي دول وفرت عـددًا كبـيرًا من الوظـائف الـتي تتصل بالجهد العقلي، وتـوفر الجهد الفصـلي، أي أن جـزءًا مهمًا من اقتصادها، يقوم على المعرفة والبحث والتطـوير والتعليم. إن الـذي يكسب رزقه عن طريق عمل غــير مجهد بــدينًا، من جهــة، ويجعله على صلة بالمعرفة من جهة أخرى، وتكون لديه ألفة وعلاقة حميمة مع الكتــاب إلى درجة أن يصــبح العلم جــزءًا من هواجسه اليوميــة، ومغذيًا أساسيًا لنشاطه العقلي على مدار الساعة. في المقابل فإن الشعوب المعرضة عن القـراءة -كـأكثر شـعوبنا- هي شـعوب تعمل في الزراعة والحرف اليدوية والأعمـال الخدمية الـتي تحتـاج الكثـير من الجهد البـدني، وعلاقتها بـالتفكير والبحث والمعلومـات محـدودة للغاية، وهذا يؤثر في التوجه إلى الكتاب من ناحيتين جوهريتين:

أ- عدم المساعدة على توفير (المزاج) الذي تتطلبه القـراءة والـذي يحتاج إلى بدن غير مجتهد.
ب - عـــدم قيـــام ألفة بين الواحد منا وبين القـــراءة وأجوائها وبين الكتاب وإيحاءاته ومسرّاته.
وحتى تتغير هذه الوضعية فـإن على الأمة أن تتخذ قـرارات حاسـمة على صعيد تغيـير وجهة الاسـتثمار، وذلك بالتوجه إلى إنشـاء المزيد من البني المعرفية والصـناعية الـتي يتطلب العمل فيها درجة عالية من التأهيل على مستوى التعليم والتدريب. وهـذا يكـون في التوسع في إنشـــاء الجامعـــات والمعاهد والأكاديميـــات ومراكز البحـــوث والدراسات لتستوعب أعـدادًا كبـيرة من الطلاب، كما أن من المهم على هـذا الصـعيد إيجـاد جامعـات ومعاهد رائـدة، تخـرج قيـادات وكفاءات علمية وإدارية عالية، تتولى قيـادة حركة التنمية والتطـوير. بالإضافة إلى هذا فلابد من التوسع في الصناعة الإلكترونية، وصناعة الحاسبات والبرمجيات، والتوسّع في الصناعات الدقيقة في مجالات الأشـعة والأدوية والأجهـزة الطبيـة، وما شـاكلها مما يتطلب اتصـالاً قويًا بالبحث والمعرفة. هذا يعني أن نسـتهدف أن يكـون لـدينا خلال ربع قرن نحو من 40% من الوظائف التي يحتاج أداؤها إلى الازدياد من العلم وخوض غمار البحث والتجريب. وبهذا وحده سيقرأ الكثـير من النـاس، وستتضـاعف لـدينا أعـداد المنتجين للمعرفة مع القليل من الحث على القراءة. لكن الـذي يثـير الأسف أن الكثـير من دول العالم الإسـلامي تسـير في الاتجـاه المعـاكس، بمعـنى أنها لا تصـنع شـيئًا ذا قيمة إلا أنها تتوسع في إقامة المطـاعم والفنـادق الترفية الفخمة والمنتجعات السياحية والملاهي... والـتي تتطلب المزيد من الشباب غير المؤهل، وهي بهذا تشجع على وجـود مسـتويات متدنية من التعليم والتأهيل، فالسوق غلاّب، يُجلب إليه ما ينفق فيه.

جزء من كل(2)

د. عبد الكريم بكار 20/4/1427

18/05/2006

كنت قد تحدّثت في المقال السابق عن أن كل شيء يخضع لنوعين من النظم: نظم داخلية ونظم خارجيـة، وضـربت لـذلك مثـالاً بـــ (القراءة)، واليوم أحاول تقديم مثال ثانٍ ومثال ثالث إن أمكن:
أ- التربية عمل كبـــير وخطـــير، تحكمه شـــروط داخلية وشـــروط خارجية، وهـذا ما يجعلها عبـارة عن جهد جـزئيّ في محيط كلّيّ. أما الشروط الداخلية، فهي تعود إلى شخصية المربي وأسلوبه الـتربوي

ومــدى قدرته على التــأثير في من يربيــه؛ كما تعــود إلى شخصــية المتلقي للتربية ومدى قابليته للتفاعل مع المــربي ومــدى انســجامه معه، وهي شــروط ليست بــالكثيرة. وإذا كــان التغيــير في خصــائص متلقي التربية ليس بالأمر اليسير، فإن الأمر كله يعود إلى شخصــية المربي وبراعة أسلوبه وحسن تأتّيه...

أما الشــروط الخارجية المــؤثرة في نجــاح العمل الــتربوي، فهي عديدة منها:

أ - وضع الأسرة والأقرباء والجيران والأصدقاء والزملاء الــذين يحتك بهم الطفل والفــتى الــذي يتعــرض للتربيــة،؛ إذ إن هــؤلاء يقومــون بإرســال رســائل مســتمرة ذات مضــمون تربــوي، وهــذا المضــمون يشــكل رافــدًا مهمًا بين الروافد الــتي تصــبّ في الجهد الــتربوي للأبوين، وعلى ســبيل المثــال فــإن الأبــوين إذا كانا صــالحين جــادّين وعارفين بالأســلوب الــتربوي الصــحيح الــذي عليهما اتباعه في تربية ابنهما، فإن المتوقع أن يتــأثر الابن بهما تــأثرًا كبــيرًا، لكن الــذي يغيّر طبيعة هــذا التوقع تلك الرســائل الــتي يرســلها الأقربــاء من إخــوة وأعمــام وأخــوال... والرســائل الــتي يرســلها الأصــدقاء والجــيران والزملاء... فإذا كــانت منــاظرة أو مقاربة للمضــمون الــتربوي الــذي يقدمه الأبوان، فإن المأمول أن تكون نتائج جهدهما التربوي بــاهرة، لكنْ يحدث شيء ســيئ إذا كــانت رســائل هــؤلاء تحث الصــغير على التساهل تجاه العبادات، وتهوِّن عليه الوقــوع في الموبقــات... إذْ إن هذا يعني أن ينظر إلى ما يقوله له أبــواه على أنه لا يخلو من تشــدّد وتزمّت، أو أنه غير ملائم لروح العصر.. ومن ثم فــإن الطفل -وعلى نحو غــير شــعوري- يُحــدث اســتجابات مختلطــة، فيها ما يلــبي رغبة الوالــدين، كما أن فيها صــدى لما يــراه الأصــدقاء والأقربــاء.. أي أن سلوكه خضع لشروط داخلية وخارجية في آن واحد.

ب - الإعلام المشاهد والمقــروء والمســموع مــؤثر هائل في تكــوين الأبناء، لما يتمتع به من حضور وجاذبية واتقان... والمشكل اليوم أن الأطفال لا يتعرضون لتأثير إعلام واحد صادر عن جهة واحــدة، يمكن التفاهم معها من أجل التقريب بين مفــردات الرســائل الــتي يوجهها للأطفــال، ومفــردات الرســائل الــتي توجهها الأسر والمــدارس. إن الوسائل الإعلامية تنتمي إلى أكثر من (130) بلــدًا في العــالم، وهي تعكس ثقافات وديانات وتطلّعات متباينة أشدّ التباين. وإن نسبة غير قليلة من الناس قد أسلمت أبناءها للفضائيات من غــير قيــود تُــذكر، ولهذا فإن ما يقوله الأبــوان بــات يُفهم لــدى هــؤلاء الأبنــاء في ضــوء

الخلفية الثقافية العميقة والمتماسكة التي بناها الإعلام بشتى صوره ومكوّناته، وبهذا فعلاً يصبح ما يقوله الأبوان جـزءًا مرتهنًا للكل أكـثر من أن يكون بعضًا منه.
جــ - لا يمكن ونحن نتحـدث عن المـؤثرات في تنشـئة الصـغار أن نتجـاوز الـدور الـذي يقـوم به المـدرّس، وهو دور يسـاند -على نحو عام- دور الأسرة، وقد يكون في بعض الأحيـان أسـمى وأرقى منـه، لكنه على كل حال ليس مطابقًا له. إن الأطفـال يتـأثرون أسـاتذتهم أكثر من تأثرهم آباءهم؛ لأنهم يرون آباءهم في كل أحوالهم -الجيـدة والســيئة- ولا يــرون أســاتذتهم إلا في أكمل أحــوالهم، لكن من الصـحيح أيضًـا أن بعض المـدارس، تقـدم تعليمًا متهالكًا ومتـدني المستوى، وبذلك فإنها تـزرع اليـأس والإحبـاط في نفـوس الطلاب؛ وتخفِّض من مستوى طموحاتهم. وبعض المعلمين، يجعلون الطـالب يشعر بالظلم أو التمييز العنصري والطبقي، وبـذلك يشوّشـون على الجهد الــتربوي المبــذول في الــبيوت، وكم من طفل كــان متوقد الذكاء شـديد التطلع والتجـاوب!! وبعد أن دخل المدرسـة، أخذ يخبو شيئًا فشيئًا إلى أن أصبح أقل من عاديّ، وذلك بسـبب رداءة التعليم الذي تلقاه، وهبوط سويّة المعلمين الذين أخذ عنهم. وهـذه معضـلة من المعضلات الكبيرة.
3 - يقدم العمل الدعوي نموذجًا واضـحًا لعلاقة الجـزء بالكـل، وذلك لأن الداعية يريد توجيه عقــول المــدعوين وقلــوبهم نحو قيم ومثل وسلوكات ومفاهيم معينة، وهو يخـاطب أقوامًا تلقّـوا الكثـير الكثـير من الرسـائل المختلفـة، ورسـائل من الأهـل، ومن المدرسـة، ومن الإعلام ومن أماكن العمل، ومن النظم والقوانين السائدة، بالإضـافة إلى الرسائل التي ترسـلها التحـديات المعيشـية المماثلـة، وتكـاليف رعاية الأبنـاء والإخـوة... إننا كثـيرًا ما نشـكو من ضـعف اسـتجابة الناس، وذلك لأننا لا نـدرك أننا ونحن نخـاطب شخصًـا، ونـدعوه إلى شيء ما، يكون ما نقوله له بمثابة لون في لوحة أو مـادة في طبخة مكونة من عـدد من المـواد، ومن ثم فـإن تأثيرنا لابد أن يكـون في النهاية جزئيًا.
الرســالة الــتي أودّ إيصــالها من وراء كل هــذا الكلام، هي أن على المصــلح والمهتم بتحســين أوضــاع الأمة أو أوضــاع أســرته أو مؤسسته، أن يكون له عينان مفتوحتان بقوة: عين على الجهد الذي يبذله والمخطط الــذي يضــعه، وعين على المــؤثرات البيئية

والمساهمات الخارجية البعيدة عن متناول يده؛ إنه بهذا وبهذا وحـده يستطيع أن يطوِّر أداءه، ويحسِّ سوية توقعاته.
والأمر الثاني الذي أودّ التذكير به، هو الاستثمار في البيئة التي تـؤثر في كل جهودنا الخاصة وفي كل المجالات. إن أي جهد إيجـابي بنّـاء يُبـــذل في تحســـين حياتنا الاجتماعية والأخلاقية والسياســـية والاقتصـادية والتربويـة... يحسِّـن في نتـائج جهودنا الشخصـية على الصعيد التربوي والتعليمي والدعوي..
إن العمل وفق هذا المنطق يولّد لدينا الروح الجماعية، ويجعلنا نهتم بكل شيء، ولا نزهد بأي جهد يُبذل في أي مجال مهما كان قدره.
والله ولي التوفيق...

=============

المعادلات الصّعبة

د. عبدالكريم بكار 8/3/1427
06/04/2006

نحن نعيش في عـالم يـزداد ازدحامًـا، حيث تتكـاثر الأشـياء غـير المطلوبة، وأنا اليوم لا أريد أن أتحدث عن المدن المليونيـة، ولا عن الأجـواء المزدحمة بالطـائرات والأقمـار الصـناعية، كما لا أريد أن أتحدث عن المحلات التجارية المزدحمة بالسـلع والأشـياء، إنما أريد أن أتحـدث عن ازدحـام القـوانين والنظم والمعـادلات. كلما زادت معرفتنا بسنن الله -تعـالى- في الخلـق، وتحسـنت بصـيرتنا في فهم طبـــائع البشر والأشـــياء أدركنا على نحو أعمق أننا في حركتنا واختياراتنا ومواقفنا محكومـون بـالكثير من السـنن والكثـير من المعادلات الصعبة. وحين نُحـرم من التأمل نجد أنفسـنا منطلقة في خططنا ورغباتنا دون حذر ولا اسـتعداد لمعرفة الثمن الـذي علينا أن ندفعه حين نتجه إلى اختيـار وضـعية من الوضـعيات. وسأضـرب سألقي عددًا من الأسئلة لتوضيح هذه الحقيقة المهمة:
1- النـاس دون اسـتثناء يُـذكر يميلـون إلى سـعة العيش والرفاهية والدعة، إنهم من خلال وفرة الأشـياء بين أيـديهم يشـعرون بالأمـان من الفقر والعـوز، ويشـعرون بالقـدرة على بلـوغ الرغبـات والتمتع بالمرفهات والمشتهيات، لكن الناس يغفلون -في العادة- عن السنة الـتي تحكم حيـاة المـرفهين، وهي التعـرض للإصـابة بـداء الترهل والكسـل، وضـعف روح المقاومـة، والوقـوع في أسر الأشـياء الـتي يحبونها. إنك لا تستطيع أن تستمتع بالأشـياء دون الشـعور بالضـعف أمام سلطانها، والنظر إليها على أنها قد تحـوّلت من أشـياء ثانوية لا

مشـكلة مع فقـدها، إلى أشـياء أساسـية يصـعب الاسـتغناء عنهـا. والنفوذ المتزايد للمرأة في الحياة الأسـرية والحيـاة العامة نـابع من هذه المعادلة؛ فالنـاس حين يـدرجون في سـلم الحضـارة يتـذوقون طعم الرفاهية وليونة العيش، والمــرأة بالنســبة إلى الرجل مصــدر أمن واطمئنــان وترفيــه، وبما أن المــرأة تنظر إلى الرجل على أنه أيضًـا مصـدر أمن وترفيه بالنسـبة إليهـا، فـإن الرجل لا يسـتطيع أن يترفّه بها دون أن يرفّهها، ومن جملة ترفيهها الانصياع لها، والســعي في تحقيق رغباتها. وأنا لا أسوق هذه الفكـرة على سـبيل الاحتجـاج أو الانزعـاج، وإنما أسـوقها على هـذا النحو لنشـرح للـذين ينكـرون الوضعية الجديدة للمرأة، ونوضح أسبابها، وكيفية التعامل معها.

حين يختار الإنسان حياة الزهد والتكشف التقشف والتقلل من متاع الدنيا، فإنه يكـون في الحقيقة منسـجمًا -بحسب الرؤية الأوليـة- مع الرؤية الإسلامية في التعامل مع الحياة الدنيا وزينتها على أنها أشـبه بالمنــاظر الجميلة الــتي يراها المســافر في طريقــه، إنه يتجاوزها قاصدًا وجهته التي أنشأ مسفره من أجل بلوغها... لكن هذا الاختيـار على ما فيه من رشـد، له ثمن يجب دفعه عن طيب خـاطر. الفقـير يواجه مشكلات مغـايرة -طبعًـا- للمشـكلات الـتي يواجهها الموسـر، لكن ربما كـانت أشـد. إن الفقـير المقـلّ، لا يسـتطيع وصل أرحامه وجيرانه وأصدقائه بالمال؛ لأنه لا يملكه، وهذا ما يجعله -في الغالب- موضـعًا لإشـفاق النـاس، ومصـرفًا من مصـارف الزكـاة، وهي -كما ورد- أوســاخ النــاس، لــذلك لم يكن لرســول الله -صــلى الله عليه وســلم- ولا لآله قبولهــا. والفقــير مع هــذا قد يُصــاب بــداء الحسد والتطلع لما في أيـدي النـاس، وقد يدفعه الفقر إلى قبـول الرشـوة بحجة ضرورات العيش وإلحاح مطالب الحياة. ويجد الفقــير نفسه - في أحيـان كثـيرة- مقـودًا ومـدفوعًا إلى وقـوف مواقف لا يرتضـيها لنفسه، لكن لا يستطيع فعل شيء بسبب ضعف إمكاناتـه. وقد قـال الله -تعـالى- مقـررًا قضـية الابتلاء في السـراء والضـراء: (وَنَبْلُـوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَـةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُـونَ). [سـورة الأنبيـاء: من الآية 35]. وإعفـاف الفقـير لأسـرته والحصـول على شـعور أولاده بالرضا عن وضــعهم العــام، لا يكــون في العــادة جيــدًا على ما هو معــروف وملاحظ. ومن هنا يمكن القول: يصيب يطيب أن يعيش المــرء -كما يقولون- بالطول والعرض، يعطي نفسه كل ما تشتهيه وتتـوق إليـه، ومع ذلك يحافظ على لياقة وسـلامة جسـمه من الأمـراض والعلـل،

فإما أن يختار هذا أو ذاك، وعلم الصحة كله قائم على شرح هذه المعادلة.

2- يميل بعض الناس إلى الضبط الشديد في تربيته لأولاده وإدارته لموظفيه، ويرى أن هذا هو الأسلوب الأمثل لحفظهم من الانحراف، والأسلوب الأمثل لجعل العمل يسير في الاتجاه الصحيح وبالكفاءة المطلوبة. هؤلاء الناس يتخذون من الرقابة والمتابعة والمنع والزجر الأداة التي يضبطون بها ما يريدون ضبطه. والحقيقة أننا حين نحيِّد وعينا عن فهم طبيعة العمل التربوي والإداري. فإننا نندفع إلى مسالة مسألة الشدة والمنع على نحو بدهي وغريزي، ولهذا فإن هذا الأسلوب هو الأكثر شيوعًا في البيئات التي يغلب عليها الانحسار المعرفي والحضاري. الثمن الذي يُدفع نتيجة اتباع هذا الأسلوب هو ضعف الثقة بين الطرفين، وعدم السماح للوازع الداخلي (الضمير) بالنمو الكافي؛ لأن هذا الوازع لا ينمو إلا حين يمنح صاحبه الحرية، ويُحمّل المسؤولية. أضعف أضف إلى هذا شيوع النفاق لدى من يطبق معه هذا الأسلوب؛ إذ يصبح له سلوكان، خيرهما الذي يظهر لنا، كما أن الموظف يعمل حينئذ بالحدود الدنيا من طاقته، أما الإبداع فلا تسأل عنه؛ لأنه لن يكون موجودًا. هناك أناس آخرون يميلون إلى منح الثقة، وإلى التدليل والنظر إلى الابن والموظف على أنهما قادران على اكتشاف أخطائهما وتصحيحهما، وينظران إلى الضبط التربوي والإداري على أنه أسلوب عقيم وضارّ. الثمن الذي يُدفع عند الجنوح لهذا الأسلوب هو التمزق والتمرد وضعف الشعور بالمسؤولية؛ لأنه ليس هناك من يسأل، إلى جانب التمادي في الخطأ أحيانًا دون أن يشعر أحد؛ لأنه ليس هناك من يتابع ويحاسب.

لعلي في المقال القادم -بإذن الله- أسوق المزيد من الأمثلة، وأوضح فقه التعامل مع هذه الحالات.

والله الموفق.

المعادلات الصعبة (2)

د. عبد الكريم بكار 22/3/1427

20/04/2006

تحدّثْتُ في المقال السابق عن معادلتين من المعادلات الصعبة، وسأحاول اليوم إلقاء الضوء على اثنتين منها:

3- لا تستطيع على المستوى الحضاري أن تنال ميزات الانفتاح والانغلاق في آن واحد؛ إذ لابد لك من أن تختار، وتوازن وتدفع

الثمن، وتتحمّل التّبعـــــات. إذا جنحنا إلى الانغلاق ووضع الحـــــدود والحـــــواجز بيننا وبين الأمم الأخـــــرى، فوقفنا في وجه دخـــــول المطبوعات، وكل المواد الإعلامية السيئة وغير الملائمـة، وخضـنا ما يشبه الحرب الباردة على المستوى الثقافي مع المخـالفين، فزهّـدنا الناس في منتجـاتهم الفكرية والثقافيـة، وأثرنا الشـكوك والشـبهات حول رموزهم وأعلامهم... إذا فعلنا هذا، فماذا نكسب؟

قد نكسب شـيئًا من تماسك موقفنا الثقـافي والمعـرفي والفكـري، وقد نستطيع المحافظة على مكوناتنا الثقافيّة والعقديّة من الذوبان، وقد نسـتطيع تنشـئة جيل يفخر بالانتمـاء إلى الإسـلام، وينظر بحـذر إلى الأديـان والأيـدلوجيات الأخـرى، هـذه المكاسب مهمة ونفسـية، فالتجـانس الثقـافي ووحـدة المعتقد والرؤية من أسس وحـدة الأمة وأصول قوتها ونهضتها. لكن ماذا نخسر في هذه الحال؟

إن الانغلاق ووضع الحــواجز يحــرم ثقافتنا من الاتصــال بالثقافــات الحية المتجــددة والمبدعــة. ومن الواضح أننا في هــذه الحقبة من التاريخ لسنا الذين يبدعون ويجـدّدون، ولسـنا الـذين يخـترعون، وإذا كنا لا نبدع، ونسدّ السبل أمام الاقتبـاس من المبـدعين، فهـذا يعـني أننا نعمل على زيــادة الفجــوة بيننا وبين الأمم الأخــرى. إن التــاريخ يعلمنا أن الأمم التي تنعزل عن تيار الحضارة تعـرّض نفسـها للتعفن الداخلي، وتصـاب بـداء الاجـترار بسـبب فقد المحـرض على التنويع والتجديــد.. وتقــدم الــدول الإفريقية الفقــيرة، كما يقــدم الســكان الأصـليون (الهنـود الحمـر) للولايـات المتحـدة الأمريكية نموذجًا حيًا على هــذا. إن الثقافة تقــوى من خلال التبــادل، وتحمي نفســها من ويلات القصــور الــذاتي من خلال اكتســاب بعض عناصر القــوة من الثقافات القويّة.

الخلاصة لهذا كله هي: أن الانفتاح ينفع، لكن يهـدّد بتشـويش الرؤية وهدم مكونات الهويّة والخصوصيّة الثقافيّة، أما الانغلاق فإنه يسـاعد على التمــيز والترابط والوضــوح، لكنه يهــدّد بــالتخلف والاقتتــال الداخلي والعقم والاجترار، فما العمل؟

4- كـثر الناقـدون للعمل الجمـاعي على صـعيد الـدعوة إلى الله –تعالى- وخدمة الإسلام، وألّف الكثـير من الكتب الـتي توضّـح عيـوب بعض الجماعات، وتشنّع على الانضمام إلى أي جماعة إسـلامية. في المقابل فــإن كثـيرًا من أتبــاع الجماعــات الإســلامية ينظــرون إلى الدعاة والناشطين الإسـلاميين الـذين يعملـون فـرادى على أنهم لم يدركوا فوائد العمل الجماعي، ولم يدركوا الأخطار التي تتهدد الأمة،

والتي تقتضي من الجميع رص الصـفوف ووحـدة الكلمـة، ويصـاحب ذلك نــوع من الإزدراء للمنجــزات، وقد يصل الأمر إلى حد الاتهــام بالتخذيل وإذهاب الريح.
حين يعمل الإنســان مع جماعــة، فإنه يكسب الكثــير من الأشــياء، فهناك من يخطط له، ويشجعه، ويوفر له الإطـار للعمـل، كما يـوفر له درجة من الانتمـاء الملمـوس والمحـدد، وكثـيرًا ما يكـون العمل الجماعي حرزًا للشباب من الانحراف والعطالة.
وحين يعمل الإنســان بمفــرده، فإنه يشـعر بالحريـة، ولا يجد نفسه ملزمًا بسياسات وخطوات ليس مقتنعًا بها، كما أنه يتحمل مسؤولية أعمالــه، ويختــار قراراتــه. وبالإضــافة إلى هــذا فإنه يســلم من داء التحزّب والتعصّب الذي ابتُلي به كثير من أتباع الجماعات الإسلامية، ويسلم بذلك من الكثير من الغيبة والنميمة...الخ.
كيف نتعامل مع المعادلات الصعبة؟
1- يجب أن نعترف أن التعامل مع مثل هـذه الأمـور شـاق وصـعب، وهذا كثيرًا ما يكون بسبب عدم اكتشافنا لجميع العناصر التي تـدخل في تركيب هذه المعادلات، فنحن لا نـرى كل أجـزاء الصـورة، ولـذا فهناك دائمًا إيجابيات وسلبيات لا نراها، ولا نحسب حسابها.
2- إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن تعاملنا مع المعادلات الصـعبة، يقـوم على الموازنة بين ما نأخـذه وندفعـه، والموازنة لا تقـوم دائمًا على معطيات واضحة، ولهذا فستظل موازناتنا موضع جـدال وأخذ و ردّ، وفي هـذه الحـال فـإن علينا أن نتعـاذر مادمنا نظن أن مواقفنا تقوم على اجتهاد، فالاجتهاد لا يُحسم باجتهاد آخر.
3- أهم شـــيء في التعامل مع المعـــادلات الصـــعبة هو معرفة المكاسب والخسائر التي ستنشأ عن اختيار وضـعية من الوضـعيات، ولهذا فيجب رصدها واعتبارها بدقة، ويجب أن نحاول ضبطها بضابط شرعي وضابط مصلحي معتبر.
4- إذا اخترنا وضــــعية من الوضــــعيات، فعلينا أن نفتح عينًا على المنهجية الــتي اخترناهــا، وعينًا على ما عزفنا عنــه، وعلى ســبيل المثال، فإن على من اختار العمل الفردي أن يدرك أن أمورًا كثـيرة لا يستطيع القيام بها بنفسـه، ومن ثم فـإن عليه أن يكـون مسـتعداً لطلب المعونة ممن يســـاعده فيهـــا، كما أن عليه ببـــذل النصح والمشورة لمن يحتاجها من الجماعات والمجموعات الدعوية. وعليه إلى جانب هـذا أن يحـذر من أن تصـبح الفردية لديه فردية مرضـية، تعبر عن الأنانية والعجز عن التلاؤم والرؤية الضيقة. وعلى من اختار

العمل مع جماعة أن يحافظ على قــدر من حرية الــرأي والاختيــار والمبادرة، كما أن عليه أن يكـون متسـامحًا مع الـذين يخالفونه في المنهج، وبعيدًا عن التحزّب والتعصـب، ومسـتعدًا لسـماع النصح من خارج جماعته، فقد يكون لدى فرد من الأفراد من سداد الرأي ونفاذ البصيرة ما ينفع به جماعة كبيرة.

سيظل التعامل مع المعادلات الصعبة صعبًا، وسـتظل النتـائج موضع شك أو جــدل، ولكن لابد من أن نحــاول لنصل إلى أفضل ما يمكن الوصول إليه.

ولله الأمر من قبل ومن بعد

===============

الإنسان الحكيم

عبد الكريم بكار 23/2/1427

23/03/2006

قالوا كثـيرًا في الحكمـة، واختلفـوا في شـأنها اختلافًا واسـعًا؛ وذلك بسـبب اتصـال الحكمة بعـدد من العلـوم والقـوى الخلقية والعقليـة. وحين يقف الإنسان الموقف الذي عليه أن يقفه، فإنه يكون قد أنجز إنجازًا ليس بالقليل. في بعض الأحيان يكون هناك نوع من الغمــوض والالتباس أو نوع من التقاطع بين المعطيـات المعرفيـة، أو نــوع من ضعف الإدراك للمنـافع والمضـار، وحينئذ فـإن قلّة قليلة من النـاس هي التي تتمكن من فهم المحيط واتخاذ القرار الصحيح.

قبل أن أتحــدث عن بعض ســلوكات الرجل الحكيم ومواقفه أود أن أوضح مكونــــات الحكمــــة، وما يحتاجه الموقف الحكيم. لعل أصح تعريف للحكمة هو ذلك التعريف الــذي يقــول: إن الحكمة هي وضع الشيء في موضـعه. وحـتى نضع الشـيء في موضـعه، فإننا نحتـاج إلى أمرين أساسيين:

الأول: هو معرفة ما يجب علينا قوله أو فعلــه، وما يجب علينا تركه أو رفضه أو تجاهله... وهذا يعني أننا نحتاج إلى معرفة جيدة وخــبرة ممتازة بما نحن مقدمون على التعامل معه.

الثــــاني: هو الإرادة والعزيمة الــــتي نحتاجها كي نقــــاوم رغباتنا وشهواتنا، وما لدينا من طموحات غير مشـروعة وأمـور غـير لائقـة، وكي نتجاوز ما لدينا من قصور ذاتي. وقد نحتاج حتى نكــون حكمــاء فعلاً إلى شـيء ثـالث هو الرضا والقناعة بما قسـمه الله -تعـالى-، والنظر إلى كل ما لم نستطع الوصـول إليه بعد بـذل الجهد على أنه

شيء ليس لنا، وبالتالي فإننا لا نتحسر عليه، ولا نحسد من ظفر به، ونشعر أن ما جرى لنا شيء طبيعي وجيد.
من المهم أن نتـذكر دائمًا أن ما لـدينا من معرفـة، يظل دائمًا أقل مما هو مطلوب، أي أن مواقفنا ستظل تفتقد في بعض الأحيان إلى المعرفـة، الـتي لا نعـرف كيف سنحصل عليهـا. ومن وجه آخر فـإن سيطرتنا على رغباتنا ومشتهياتنا، تظل هي الأخـرى غـير كاملـة، أي أننا نرى الصواب في موقف مـا، لكننا لا نفعل ما نـراه بسـبب عـدم امتلاكنا للطاقة الروحية المطلوبة لـذلك. والخلاصة لكل هـذا، هي: أنك لا تجد حكيمًا هو حكيم في كل المواقف وكل التصـــــــرفات، فالنقص ملازم لبني البشر مهما كان شأن الواحد منهم.
مواقف وسلوكات حكيمة:
1- المسـلم الحكيم هو المسـلم التقي الملـتزم الـذي يتحـرّج أشد التحـرّج من التقصـير في واجب أو الوقـوع في محـرّم. إنه يعـرف واجبه تجاه خالقه -جل وعلا-، ويملك الإرادة والعزيمة على الامتثـال لـذلك الـواجب. إن المسـلم الـذي يعيش أزمة مفارقة بين معتقـده وسلوكه لا يمكن اعتباره حكيمًا مهما كانت براعته المعرفيـة، ومهما كـانت مقدرته الإدارية ومهارته في القيـادة والاتصـال... لأنه بعـدم التزامه خسر أكـبر ميـدان يمكن للحكمة أن تتجسد فيـه. كلما ازداد المسلم شفافية، وكانت معاييره في التعامل مع الأشياء والأحداث.
2- لا يكـون الإنسـان حكيمًا إذا لم يعـرف الحـدود الفاصـلة بين ما يعلمه، وبين ما يجهله. إن هذه المعرفة ضرورية جـدًا لتجلي الحكمة في حياتنـا. إننا من خلال تلك المعرفة نسـتطيع التوقف عن الكلام والجدال والإعلان بأننا لا نعرف أكثر مما قلنـا، أو الإعلان بـأن الكلام لم يعد مفيدًا؛ لأنه صار عبارة عن مراء، يُظهر أمراض النفوس أكـثر مما يُظهر إشراقات العقول.
3- من علامات حكمة المرء معرفته بقدر نفسه، فلا يرفعها فـوق ما هي عليه حقيقة، ولا ينزل بها عن ذلك. حين يرفع المرء نفسه فـوق قدرها فإنه يقع في الكبر والغرور والـوهم، وتأتيه الصـدمات من كل مكـان، وحين يسـتخفّ بهـا، وينظر إليها نظـرة احتقـار فإنه يـذلّها، ويحرمها الكثير من الخير. لا يكفي كي يكون المرء حكيمًا أن يعرف ما هو نـاجز في حياته وفي شخصـيته، وإنما عليه أن يعـرف أيضًـا الطاقـات الكامنة لديـه، أي الصـورة العقلية والثقافية والاجتماعية والمهنية الـتي يمكن أن يكـون عليها إذا بـذل جهـده في الاهتمـام بنفسـه. وتلك المعرفـة، لا تكـون كافية إذا لم يصـاحبها تفتّح عقليّ

على الجديـد، وعمل متواصل على الارتقـاء. وإذا كـان هـذا المعيـار صحيحًا -وهو صحيح إن شاء الله- فإن معظم الناس ليسـوا حكمـاء؛ لأنهم راضـون بأوضـاعهم، وكثـيرًا ما يكونـون خـائفين من التغيـير، متهيّبين لتكاليف الإصلاح.
4- من الحكمة أن نتعــرف على اتجاهــات النــاس، وأن نأخذ بعين الاعتبار ظروفهم وأشكال معاناتهم. إن أعقل الناس أعذرهم للناس -كما كــان يقــول عمر بن الخطــاب رضي الله عنــه- وإن المعرفة الكاملة صفح كامل. إن من المهم أن نـدرك أن كثـيرًا من عبـاد الله يعانون من مشكلات لم يصنعوها بأيديهم، ويعيشون في بيئـات وفي ظـروف لم يختاروها لأنفسـهم؛ ومن ثم فـإن إعـذارهم والإشـفاق عليهم ومـؤازرتهم إن كل ذلك يـدل على حساسـية أخلاقية عاليـة، ويدل على رؤية واسعة وحكيمة.
شـيء من الحكمة هو فيض يجـود به الله -تبـاركت أسـماؤه- على عبــــــاده، وشــــــيء آخر نصل إليه عن طريق المعرفة المدققة والمجاهـدة الحسـنة لنفوسـنا، وبداية كل خـير كثـيرًا ما تكـون في الاعتراف بالقصور والتقصير والسعي في مـدارج الكمـال على قـدر المستطاع.

=============

الاختراق القيمي

د. عبد الكريم بكار 9/2/1427
09/03/2006

كـان ضـعف الاتصـال بين أجـزاء العـالم في الماضي يـوفر حماية طبيعية للثقافـات الضـعيفة من اجتيـاح الثقافـات القويـة؛ لكن هـذا الوضع آخذ في التغـير اليـوم على نحو مـدهش ومتسـارع، فثـورة الاتصالات والبث الفضـائي وتـداخل مصـالح الأمم والشـعوب، يـدفع في اتجاه إيجـاد تجـنيس واسع النطـاق للاهتمامـات والقيم والـرؤى والعلاقـات، ومن هنا فـإن على الكثـيرين منا ومن غيرنا أن يقبلـوا بأشـياء كثـيرة كـانوا يسـتنكرونها من قبـل، كما أن عليهم أن يهـيئوا أنفسهم للمزيد من التغير في النظر إلى كثير من الأمور.
القيم هي كل ماله قيمة مادية أو معنوية واعتباريــة، وتشــكل القيم لدى الإنسان المرشد الأكـبر له في دروب الحيـاة الملتويـة، كما أنها تعلمه كيف ينظّم ردود أفعاله تجاه الأشياء والأحداث المختلفة.
تقول إحدى قواعد التواصل الأممي: إنه إذا التقى قويّ وضعيف فإن اللقـاء يكـون في الأعم الأغلب لصـالح القـويّ، إذ يمكّنه اللقـاء من

إبراز جاذبيته وفـرض شـروطه. وإنّ كثـيرًا من القيم لا يسـتمد قوته من مشــروعيته أو عظمته أو ســماحته، وإنما يســتمدّها من قــوة حضـوره. وذلك يعـود إلى أن وعي الإنسـان بعظمة القيم الـتي لديه ووعيه بما يحتاجه من قيم، يظل ناقصًـا وميـالاً إلى الغمـوض. ومن هنا فإن الناس يطربون في نهاية الأمر للصوت القادر على الوصول إلى آذانهم.

نقصد بالاختراق هنا إجبار منظومةٍ قيمية منظومةً قيميةً أخرى على التعـرّف على ذاتها من جديد وعلى إعـادة تـرتيب درجـات سـلّمها الخـــاص، كما تجبرها على إحـــداث بعض التغيــــيرات في إطارها المـرجعي. الثقافة السـائدة في ديـار المسـلمين تقـوم في جوهرها على تعاليم الإسلام وأدبياته، وهي تتعرّض اليوم لضغوط متنوعة من الثقافات السائدة في الـدول الصـناعية الـتي تقـود مسـيرة التطـوّر التقني والاقتصادي، وهذه الضغوط لا تُمـارس على ثقافتنا فحسـب، بل تُمــارس على كل الثقافــات الــتي لا يتمتع أصــحابها بموقع في غرفة القيـادة الأممية والدوليـة، ولعلي أوضح معـالم هـذا الاخـتراق عبر المفردات الآتية:

1- تكون القيم اليومية على نحو حسـن؛ إذ إن تجسـيد القيم يشـكل لها شريان الحيـاة الـذي لا تسـتطيع البقـاء من غـيره. كما أن القيم تكـون ضـعيفة إذا لم تتمكن من توفـير قـدر من الإقنـاع والإرضـاء للأجيال الجديدة المتطلعة إلى الجديد والعملي والمريح.

2- يتخذ الاختراق الثقافي والقيمي في بعض الأحيان إجبار الشعوب المخترقة على وضع قيمها أو بعض قيمها موضع تســاؤل واســتفهام وشرح؛ بغية تأويلها أو تجاوزها. إن القيم أشبه شيء بالصحة، نسأل عنها ونتحسّسها حين نشعر أنها باتت في خطر، ونحن اليـوم نطـرح على أنفســنا العديد من التســاؤلات المتعلقة بعـدد من القيم، وذلك مثل:

- هل نحن عاطفيون أكثر مما ينبغي؟
- هل لـــدينا نظـــام حكم إســـلامي كامل أو مبـــادئ توجه الحـــاكم المسلم؟
- ما أسباب انتشار الاستبداد في كثير من بلدان العالم الإسلامي؟
- ما أسباب ما لدينا من نقص من جدية ودقة ومصـداقية في مجـال الأعمال؟
- ما أسباب ضعفنا العام، وتمزّق شعوبنا ودولنا على هذا النحو؟

وهكذا فإن لدينا عشرات الأسئلة من هـذا القبيـل، والـتي سـنختلف في الإجابة عنها، وهذا الاختلاف يشكل الدليل الملموس على وجـود الاختراق القيمي.

3- إذا تأمّلنا في القيم السـائدة في العـالم لما وجـدنا كبـير اختلاف فيما بينها، وإنما يمكن التباين في ترتيب السُلّم القيمي، وفي مقدار الاهتمام الذي يوليه شعب ما لقيمة من القيم. وعلى سـبيل المثـال فإن إكرام الجـار وبر الوالـدين وصـلة الأرحـام والصـدق في القـول والوفاء بالعهد من القيم العالمية المعترف بها في كل مكان. والذي يُظهر الخصوصـيات القيمية هو تعـارض هـذه القيم مع قيم أخـرى، فإذا كانت -مثلاً- رغبة الزوجة في أن تسكن في بيت منفرد، وكـانت رغبة الأبــوين أن يقيم ابنهم الوحيد مع أســرته معهم فــإن مــدى الاهتمام بقيمة الوالدين هو الـذي سـيتحكم في قـرار الـزوج. ونحن نعرف كيف يحدث التبـدّل الآن بالنسـبة إلى هـذه القيمـة، فقد كـان من غير المقبول قبل خمسين سـنة أن يـترك الشـاب بيت أبويه إذا تزوّج، ثم صار ذلك مقبولاً. وصارت إقامة الأبوين عنده شيئاً معقولاً. والآن فإنّ كثيراً من الأبناء يفضلون إسكان آبائهم وأمهـاتهم في دور منفصلة والإنفاق عليهم، أو التخلّص منهم بإلجائهم إلى الـذهاب إلى بيوت كبار السن...!

ولعلنا نلاحظ اليــــــوم أننا نركز في تثقيفنا وفي تربيتنا على امتلاك المزيد من (القوة) على حساب الاهتمام بقيمة (الرحمة)، كما صــار للنجاح والثراء مساحة متسعة على حساب مساحة التقوى والـورع؟ اليــوم مســاحة الاهتمــام بخدمة الــذات على حســاب قيمة خدمة الناس، ومساحة اللهو و (الفرفشـة) والمتعة وإرواء حاجـات الجسد على حسـاب مسـاحة الاهتمـام بالسـمو الـروحي والتـأنّق الخُلُقي، وصار الحديث عن الفضيلة والمروءة يلقى نوعاً من الاستهجان لدى بعض الناس... وهكذا.

إن هذه القضية ليست واضحة في ذهني بالقدر الكافي، لكن أحببت إثـارة الاهتمـام حولها بغية توليد وعي جديد بمسـألة التبـدّل القيمي حــتى نسـعى إلى تجديد قيمنا وتحصـينها بالطريقة الـتي تتلاءم مع مبادئنا ومثلنا العليا. والله الموفق

==============

شبابٌ حائِر

د. عبد الكريم بكار 26/12/1426
26/01/2006

ليست الحيرة شرًا محضًا؛ فالجزم في حالات الغموض والأوضاع المتنازع في شأنها يعبر عن الجهل وضعف الوعي، لكن ذلك يجب أن يظل محدودًا بمستويات معينة، وإلا أصبح عامل شلل ومصدر يأس وإحباط.
لدى الشباب همة وتطلّع وطموح ورؤى وأحلام... وكل هذا أساسي في كل المراحل العمرية؛ لكن محدودية الخبرة وضعف المعرفة بحدود الواقع ومدى ممانعة المجالات المتاحة... تجعل الفواصل بين الممكن والمستحيل غير مدركة، وهذا يؤدي إلى السقوط في الكثير من الأوهام، ويُحدث بالتالي الكثير من الصدمات النفسية والانعكاسات السلبية. هل كل هذا طبيعي، وشيء لابد منه، أم أن هناك خللاً ما يجعل ذلك شيئًا خارجًا عما ينبغي أن يكون؟ وما أسباب هذه الوضعية الصعبة؟ وكيف يمكن التخفيف من لأوائها؟ هذا ما أريد أن أتحدث عنه؛ ولكن دعوني أشرح أولاً ما قصدته من حيرة الشباب عبر المفردات الآتية:
كثير من شبابنا حائر بين الماضي والحاضر، فهو دائم المقارنة بين ما عرفه عن الماضي المجيد والحضارة الإسلامية الزاهية، وبين واقع مفعم بالمغريات والإنجازات التقنية وألوان المرفهات، لكن شوكة الأمة فيه مخضودة، وراياتها منكسة، وهي عالة على أعدائها في جلّ ما تستهلكه، وتتنعم به حتى طباعة المصاحف وتشييد المآذن، فإن الأمة تعتمد فيهما على العتاد الذي صنعه أعداؤها أو منافسوها، شبابنا حائر بين الركون إلى ماض يمده بالاعتزاز والكبرياء وبالطمأنينة والانتماء، لكنه لا يساعده في الحصول على وظيفة مرموقة، كما لا يساعد الأمة على بناء حاملة طائرات أو صناعة حاسوب صغير، وبين حاضر يجافي -أو هكذا يشعر الشباب على الأقل- مضامين الإيمان، ويبتعد كثيرًا عن متطلبات التقوى والصلاح والسعي إلى الآخرة، لكن القوى التي تشكّل هذا الواقع هي التي تأتي بالجديد، وتطوّر القديم، وتمنحه التصريح "بالولوج إلى ساحات الشهرة والمال والنفوذ والسرور". الشباب حائر في أمره بين المضي مع قلبه وبين الاستسلام لمصالحه، وهنا يأتي من يقول له: لا تناقضَ بين الولاء للماضي والانتفاع بالحاضر، وهو يقتنع بهذا لكنه عند التنفيذ العملي يجد نفسه مثل الذي يمشي على حبل مشدود، يخشى أن يسقط ذات اليمين أو ذات الشمال، وكلما مضى في مسيرته وجد أن الكلام سهل، وأن الممارسة وحدها هي التي تكشف عن الصعوبات والتحديات.

كثـير من الشـباب الصـالح حـائر في اختيـار التخصص والعمل الـذي يشبع من خلاله رغباته وحاجاته، ويحقق مصالحه، وفي الوقت نفسه يخدم من خلاله دينه وأمته ودعوتـه. في الإغـراق في التخصص يجد مزية الإتقــان والنجــاح، ويجــني الــثروة، ويشــعر بــالتفوق. وفي التخصص الشرعي وممارسة العمل الـدعوي يجد أنه يعمل لآخرتـه، ويستجيب لأشواق روحه وتطلعـات قلبـه، كما أن النجـاح في العمل الـدعوي قد يجعل منه شخصـية عامـة، يُشـار إليها بالبنـان، وتخفق خلفها النعال، كثير من الشباب يشعر بالندم وشيء من الإحباط لأنه درس تخصصًـا، لا يحبـه، ولا يجد نفسه فيـه. وكثـير منهم يغبطـون غيرهم على تخصصاتهم، في الوقت الذي يكونــون فيه موضع غبطة وحسد من غيرهم. وبعض الشباب درس شيئًا، ثم تركه، وصار يعمل في مجالٍ، لا يمت إليه بـأي صـلة. ومن هنا فـإن كثـيرًا من الشـباب يتمنى لو أنه يسـتطيع التخصص في أكـثر من مجـال، والسـعي فيما يعمر دنياه وآخرته.

شــباب كثــيرون حــائرون ومــترددون بين العمل الفــردي والعمل الجمـــاعي، ومنهم ســـمعوا كثـــيرًا عن إنجـــازات الجماعـــات والمجموعات، كما سمعوا كثيرًا عن عقم الأعمال الفردية والصغيرة وقلة جـــدواها في مواجهة الطغيـــان العـــالمي والمشـــروعات والمخططـات والإمكانـات العملاقـة؛ كما أنهم سـمعوا عن أخطـاء الجماعات وسلبياتها وأمراضها وانشقاقاتها... مما يضعف الرغبة في العمل معها. وهم أيضًا يرون أفرادًا كثيرين ينجزون للأمة الكثـير من الأعمـال العظيمة دون أن يكـون لهم ارتبـاط بـأي جماعة أو تنظيم. ومن المؤسف أن هـذه الوضـعية تنشر في بعض البيئـات الإسـلامية معادلة الاستهجان والاستخفاف المتبادل، فأبناء الجماعات ينظــرون إلى الشـاب الـذي يعمل بمفـرده نظـرة مشـوبة بالاسـتغراب: كيف غابت عنه فضائل العمل الجمـاعي؟ وكيف نسي الآثـار الـواردة في التحذير من الفرقة والابتعاد عن الجماعة؟ والشاب الذي يعمل على نحو منفـرد، ينظر فـيرى ذهابًا وإيابًا لشـباب كثـيرين حولـه، ويـرى صولات وجولات، ثم يقـول في نفسه ما قاله الأول: "أسـمع جعجعة ولا أرى طحنًا". فمن هو يا ترى المصيب ومن هو المخطئ؟!

حيرة كثير من الشباب من نـوع آخـر: أنهم سـمعوا من يقـول: نحن نعيش صـحوة إسـلامية حقيقية وشـاملة، والشـواهد عليها كثـيرة وكثيرة جدًا. ولهذا فنحن في خيرٍ، يشوبه بعض الشر. وسمعوا أيضًـا من يقــول: لم نمر في مرحلة أســوأ من المرحلة الــتي نعيش فيها

اليـــوم، وقد لا تشـــبهها إلا مرحلة احتلال التتـــار لكثـــير من بلاد المسـلمين، ولهـذا فنحن في شـر، يشـوبه بعض الخـير، والعولمة فعلت فعلها فينا؛ إذ فكّكت عـرى وحـدتنا، وضـيّعت شـبابنا، وأغـوت بناتنا ونساءنا، وليس أمامنا سوى الانطواء والاعتزال وإغلاق النوافذ والأبواب، ونتيجة كل هذا اضطرب عـريض في تقـييم الواقـع، حـتى إنك لـترى أهل المجلس الواحـد، وقد انتقلـوا من المبالغة في ذم زماننا وأوضـاعنا إلى مديحه ومـديحها دون الشـعور بـالوقوع في أي تناقض!

ما أسباب هذه الحيرة، وكيف نعالجها؟

شباب حائر- 2

د. عبد الكريم بكار 10/1/1427

09/02/2006

الشباب حائر في أشياء كثـيرة جـدًا، وهـذه حقيقـة. والحقيقة الثانية هي أن قدرًا من هذه الحقيقة يُعـدّ شـيئًا طبيعيًـا، فنحن البشر مهما بلغنا من العلم تظل معارفنا ومــدركاتنا محــدودة، كما أن مقــدرتنا على الجمع بين الحقائق المتقاطعة ووزن المعطيـات المتباينة أيضًـا محـدودة، وينتج من كل هـذا نـوع من الخـوف من القـرارات الـتي تتعلق بالمستقبل، ومع الخوف يكون التردّد وتكون الحيرة.

ما أســباب حــيرة الشــباب في تقــويم الماضي وتقــويم الأوضــاع الحاضـرة؟ وكيف يمكن التخفيف من حــدة هــذه الحــيرة؟ هــذا ما سنحاول الإجابة عنه.

1- كل تصــوراتنا، وكل الأحكـام الـتي نصـدرها في أي مسـألة من المســائل، وحــول أي قضــية من القضــايا، تعتمد على التعريفــات والمصطلحات التي نستخدمها أثنـاء عمليـات التفكـير. وعلى سـبيل المثـال، فإننا حين نقـول: إننا في حـال هزيمة وضـعف، أو في شـرٍ غالب يشوبه بعض الخـير، فـإنّ علينا أن نتسـاءل: ما الـذي نقصـده بالهزيمة والضـــعف بالنســـبة إلى أمة الإســـلام؟ هل نقصد أننا لا نســيطر على العــالم فلــذلك نحن ضــعفاء؟ أو نقصد أنّ لنا أرضًــا مغتصبة في فلسطين لا نستطيع تحريرها، فلهذا نشعر بالضعف؟ أو نقصد أن صــوتنا في المحافل الدولية خــافت؟ أم نقصد أن ســلوك معظم المسلمين لا يتطابق مع تعـاليم الإسـلام، ومن هنا تـأتي غلبة الشر؟ أم ماذا نريد؟

واضح أن هذه التسـاؤلات نابعة من تصـورنا لأضـدادها، أي أن الـذي يطــرح هــذه التســاؤلات يتصــور أن غلبة الخــير علينــا، وأن حكمنا

لأنفسـنا بالنصر والغلبـة، إنما يكونـان إذا تطـابقت سـلوكات معظم المســلمين مع تعــاليم الإســلام على نحو كامــل، وإذا تحكّمنا في القرارات العالمية، وبسـطنا نفوذنا على أراضـينا وثرواتنـا، والحقيقة أن كل تصوّر من هـذه التصـورات يرتبط بعـدد كبـير من التعريفـات والمصـطلحات الـتي تحتـاج إلى تحرير وإلى مراجعة وتـدقيق. نحو مثلاً حين نقـول: إننا في عصر من أزهى عصـور الإسـلام نقارنه مع عصـور سـلفت، سـاد فيها الجهل والتقليـد، وانتشر فيها الفقـر، كما انتشـرت الخرافة والعقائد الفاسـدة، ومع كل هـذا ينتشر الانحـراف السلوكي والخروج على تعاليم الإسلام بالجملة والمفرق. أما اليــوم فــالأمر قد تحسّــن في كثـير من هــذه الأشــياء. أما مســألة الغلبة والسيطرة، فالعالم اليوم ليس عبارة عن قلعة كـبرى، والمنتصر هو الــذي يســتولي على مفاتيحهــا، الأمر ليس كــذلك، اليابــان وألمانيا مقيدتان في مسـائل إنتـاج السـلاح بسـبب هزيمتهما العسـكرية في الحــرب العالمية الثانيــة، وهما لا تشــعران بالذلة والتبعيــة؛ لأنهما تسـيطران في مجـالات أخـرى، مثـل: الاقتصـاد والتقنيـة.. الـدول الغربية كافة مرتبكة ارتباكـاً عظيمـاً في الشـأن الاجتمـاعي، حيث المعاناة الشديدة من التفكك الأسري، ومن انتشار الجريمة الفردية والمنظمـة، وهي تعـاني أكـثر وأكـثر من فقـدان الأهـداف الكـبرى والغايـات النهائية للحيـاة. والهند –مثلاً- يبلغ عـدد سـكانها قريبـاً من خمس سكان العالم، وليس لها نفوذ دولي، لكن لها نفـوذ اقتصـادي متصاعد. العالم الإسلامي من جهته يتمتع بمواقع إستراتيجية كثـيرة، ويتحكم بالطاقــة، ولديه مشــكلات اجتماعية أقل مما لــدى غــيره، والأهم من كل ذلك أنه يملك مرجعية للتقــــنين والتشــــريع وتوجيه القيم، كما يملك معايير واضـحة للخـير والشر والحق والباطـل، كما يملك رؤية واضــحة لما ينبغي أن تكــون عليه علاقة الإنســان بالله سبحانه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وإذا كـان لـدينا جـرح نـازف في فلسطين العزيزة، فهناك عشرات الملايين من الأميــال المربعة الــتي تحت ســيطرة المســلمين... إذاً علينا أن نــدرك أن مســألة التعريف هي مســـألة في غاية الأهميـــة، وعلى الشـــباب قبل أن يندفعوا في إطلاق الأحكام الحضارية الكبرى أن يتأملوا وأن يسمعوا من أهل العلم والخـــبرة والفهم الصـــحيح. كل أمم الأرض لـــديها ميزان، ولـديها مشـكلات، وينبغي أن يكـون اتجـاه تفكيرنا ليس نحو اليأس والإحباط، ولكن نحو التعلم من الآخرين من أجل تكثير الخـير الذي لدينا.

2- انقسام الموجهين، وغلـوّ بعضـهم في الانحيـاز إلى رؤية اجتهادية محـــدودة من أهم الأســـباب الـــتي توقع الشـــباب في الحـــيرة والاضطراب، ومن المؤسف هنا أن أقـول: إن كثـيرين ممن يتولـون توجيه الشـباب وتـوعيتهم، ينظـرون إلى رؤاهم وتوجهـاتهم الخاصة على أنها قطعية وصـائبة على نحو حاسـم، أي لا ينظـرون إليها على أنها نابعة من اجتهـاد وخـبرة خاصـة، فـإذا كـان الموجّه سـوداويّ المـزاج متشـائماً أو مأزومـاً، فإنه يسـلك كل سـبيل حـتى يلقي في روع الشباب بأن الأمة في أسوأ حال، وليس من حيلة سوى انتظـار المهـدي! وإذا كـان ينتمي إلى جماعة معينة فإنه يزهّق الشـباب في العمل الفردي، ويجعل العمل الجماعي هو سفينة نوح لأمة مشـرفة على الغـــرق! وإذا كـــان الموجّه متشـــبعاً بمنهج إصـــلاحي معين، كالإصـــلاح عن طريق التربية الروحية أو نشر العلم الشـــرعي، أو العمل في الميـدان السياسـي.. فإنه يغمط بـاقي المنـاهج حقهـا، ويحمل الشباب على الإيمان بوجود منهج واحد للإصـلاح هو منهجـه! وكثـير من الشـباب -مع الأسـف- لا يملك المعيـار الـذي يفـرق من خلاله بين ما هو حقيقة متفق عليها وبين ما هو رؤية شخصـــــية، وخاصة أن كثيراً منهم لا يملك قوة الفكر وقـوة الـروح الـتي يتمكن بها من النظر الثقـافي والـتربوي والمنهجي الـذي نشأ فيـه، مع أنه يرى في صندوقه الكثير من الأشياء الـتي لا تعجبـه، لكنه يخـاف من الخروج من الصندوق أو البحث عن بديل أو المطالبة بالإصـلاح؛ لأن الـذين أشـرفوا على تربيته جعلـوا منه مقلـداً وتابعـاً من الطـراز الرفيع.

شباب حائر (3)

د. عبد الكريم بكار 24/1/1427

23/02/2006

آن الأوان بعد أن استعرضنا نماذج من حيرة الشـباب و أسـبابها لأن نتحدث عن أمور تساعد على تخفيف تلك الحيرة، وهي في الحقيقة كثيرة، لعل من أهمها:

1- الواقع أوسع من الخـبرة وأوسع من التجربـة، ولهـذا فـإن كل ما يُقـال لنا يعـبر عن بعض أجـزاء الصـورة، ويجب أن نتقبله على أنه نـاتج اجتهـاد. لا شك أن هنـاك أشـياء قطعية كثـيرة وخطوطًا متّفقًا عليها، لكن هـذه الخطـوط في مسـائل تفسـير التـاريخ وفهم الواقع والتخطيط للمستقبل يميل معظمها إلى أن يكون ظنيًا تقديرًا.

2- حـاول دائمًا أن تستشـير، وتسـأل وتنـاقش، وتسـتفيد من كل الخـبرات المتاحـة، لكن اتخذ القـرار بملء إرادتك ومن غـير تبعيّة لأحد، ودرِّب نفسك على ضرب الآراء ببعضـها لتسـتخرج منها الـرأي المعتدل والمتزن، وحاذر من الانحراف مع الغلاة في أي اتجـاه وفي كل شأن.
3- في مسألة اختيار التخصص حاول أن تتخصّص في علم أو فن أو مجال يتناسب مع ميولك وقدراتك. لك أن تتذكر في هذا السياق أن المهم كثـــــيرًا ليس التخصص ونوعيتـــــه، وإنما موقعك في ذلك التخصص. إذا كنت من الأوائل المبرزين في تخصص غـير مهم، فقد يكـون ذلك أنفع لك وللنـاس من أن تكـون شخصًـا عاديًا أو أقل من عادي في تخصص مهم؛ جغرافي أو مؤرخ على مستوى عـالٍ أفضل وأهم وأنفع من طبيب خامل وهكذا...
4- خدمة الدعوة إلى الله –تعالى- والمساهمة في الإصلاح العام قد يتمّـان بطريقة مباشـرة، كما هو الشـأن في خطيب الجمعة والـذي يوجه الشـباب في حلقة دعوية .. وقد يتمـان بطريقة غـير مباشـرة من خلال إتقـان التخصص وتقـديم خدمة متمـيزة للنـاس وتحسـين اقتصـاد البلد المسـلم، وتقـديم قـدوة حسـنة للناشـئة، وقـول كلمة الحق في المنشط والمكـره وتربية الأولاد تربية حسـنة ومسـاعدة العناصر الضـعيفة في المجتمـع... كل هـذا من عمل الـبر والخـير؛ والأمة محتاجة إلى كل هـذه الألـوان من الأنشـطة. ونحن نعـرف ما يُسمى بـ (الفروض الكفائية)، والقيام بهذه يُسقط الإثم عن مجموع الأمـة، ويكـون للمشـارك في القيـام بها الثـواب والفضل العظيم. تصـور معي مجتمعًا من غـير أطبـاء أو مهندسـين أو ممرضـين أو معلمين أو تقنـــيين... إنه مجتمع مرتبك في شـــؤونه ومفتقر إلى معونة غـــيره، ومن خلال الحاجة إلى المعونة يكـــون الضـــعف والاسـتخذاء، ومعهما يتولد الشـعور بالدونية والتخلـف، ولهـذا فـإن الفضل والأجر لا يكونـان في نفس الانتمـاء إلى تخصص أو في عين القيام بعمل معين، وإنما يكونان في مدى نفع ما يُقدَّم ومـدى حاجة النـاس إليـه؛ وعلينا أن نتخلص من وهم الألقـاب وضـجيج الأسـماء والشهادات.
5- بعض الشـباب لديه تطلعـات واسـعة، ورغبة قوية في أن يحصل على الكثـير الكثـير من الأشـياء؛ فهو يريد أن يكـون داعية وتـاجرًا ومفكراً وكاتبًا... ولا يعرف كيف يجمع بين كل هذه الأشـياء. وأعتقد أن من المهم أن ندرك أننا لا نستطيع الحصول على كل شيء، ولأن

نتقن بعض الأشياء، ونحصل عليها بجـدارة أفضل من أن نتنـازل عن أشـياء أخـرى. زماننا هـذا زمـان التخصـص، ومن الصـعب أن يصـبح المرء بارعًا جدًا في أشـياء عديـدة. وأود هنا أن أشـير إلى أن كثـيرًا من الشباب لا يحقق نتائج عالية، ولا يلمع نجمه بسـبب افتقـاره إلى التركيز. التركيز هو أكـبر مفتـاح للإتقـان اليـوم. ولا شك أن التركـيز سـيحرمنا من مـيزات الشـمول، لكن علينا أن نتقبل ذلـك؛ لأن ما سنحصل عليه من وراء التركيز أكـبر بكثـير مما نفقـده. المهم دائمًا أن يصب التفـــوق البـــاهر في محيط تحقيق الغاية العظمى الـــتي نسعى إليها، وهي الفوز برضوان الله تعالى.

6- ما من وضـــعية من أوضـــاعنا الفردية وأوضـــاع أمتنا إلا ولها إيجابيـات كما أن لها بعض السـلبيات، وهـذا من سـنن الله –تعـالى- في الخلــق. واسـتيعابنا لهـذه السـنة العظيمة يخفف من الشـعور بالمرارة الذي ينتاب الكثير من الشـباب. للفقر بعض الإيجابيـات؛ إذ تتعـــزز روح التواصل والاعتمـــاد المتبـــادل بين النـــاس، وله بعض السـلبيات؛ فهو يثـير الكثـير من المشـكلات والحـزازات. وللـثراء والرخاء إيجابيات أيضًا، فهو يساعد على توفـير قـدر من الهنـاء، كما يسـاعد على حل العديد من المشـكلات، لكنه يضـعف روح التواصل على المستوى الشعبي وينشر الاستقلال المرضي، ويصـرف النـاس عن تطـوير الكثـير من المهـارات. عـزة الأمة وتمكنها وسـيطرتها العالمية، يفتح عليها باب الابتلاء بالترهل الذاتي والنزاعات الداخلية، أما الضغوط التي تواجهها أي أمة، فإنها تثير الخوف والانزعاج لكنها تقـوّى شـبكة العلاقـات الداخليـة، وتسـاعد على رصّ الصـفوف، وتسـتنفر روح المقاومة والممانعـة، وهكـذا.... المهم هو أن نبحث عن مُرادات الله –تعالى- منا في الحالة التي نكون عليها حـتى ننجح في مواجهة ابتلاءات السراء وابتلاءات الضراء.

7- لستَ مسؤولاً عن صلاح الأمة ولا عن تقدّمها، فلا تشـغل نفسك كثيرًا بهذا الأمر، لكنك مسؤول عن صـلاح نفسك وأسـرتك، ومكلف بنصح جيرانك وإتقـان عملـك. وحين تقـوم بهـذه الأشـياء على نحو جيـد، فـأنت ممن يسـاهم عمليًا في تقـدّم الأمة وازدهارهـا. بعض الشـباب يشـغل نفسه وتفكـيره بالأشـياء الصـعبة ويفـرط في عمل الأشياء السهلة، وهذا من قلة التوفيق.

8- مظلة (أهل السنة والجماعة) تتسع لنا جميعًا: الذي يعمل ضـمن جماعة والـذي يعمل على نحو مفـرد. والعمل الجمـاعي ليس غاية في حد ذاته، لكنه وسيلة لإنجاز ما لا يمكن إنجازه على نحو منفـرد.

والمهم دائمًا هو النتـائج. بعض النـاس يضـيع الكثـير من الواجبـات وتفتر همته إذا عمل بمفرده، فهذا يسعى إلى التعاون مع غـيره، مع أن عليه أن يكــون يقظًا لأمــراض العمل الجمــاعي من التحــزّب والعصبية ومـديح الـذات وإثـارة النزاعـات مع الجماعـات الأخـرى... وبعض الناس يستطيع أن يبدع إذا كـان بمفـرده، فلا حـرج عليه في ذلك، لكن ليكن مستعدًا للتعـاون مع غـيره عند الحاجة وبـذل النصح لمن يحتاجه. ولا مانع من أن يتعاون الإنسان مع عدد من الجماعـات والجهات في آن واحـد؛ لأن المطلـوب ليس ارتباطًا يشـبه الارتبـاط الأســري، لكن المطلــوب هو تحقيق أفضل النتــائج والعمل بفاعليّة وهمّة ونشاط.

لنجعل من اكتشاف أنفسنا واكتشاف محيطنا العمل الذي لا يتوقف، ولا نملّ منه، ومن خلال ذلك سـوف نتخلص من الكثـير من أشـكال الحيرة. والله الموفّق.

===============-

المراجعة الشخصية

د. عبد الكريم بكار 27/11/1426
29/12/2005

سـيظل وعي الواحد منا بنفسه منقوصًـا ومحـدودًا بحسب غمـوض التعريفـات، ونسـبية المعـايير، وضـعف قـدرة النـاس على مواجهة أنفسهم بصرامة وصراحة، ولكن مع هذا فلا بد من السعي المستمر إلى مراجعة الصـورة الـتي كوَّناها لأنفسـنا عن أنفسـنا، وتلك الـتي كوّنها الآخـرون لنـا، ثم تلقفناها على أنها صـورة صـحيحة وصـادقة. وتستمد هذه المراجعة مشـروعيتها من كـون عقولنا لا تـدرك أبعـاد الحقائق إلا على سبيل التدرّج. وإذا حاولنا التبصّر بالأمور التي نحتاج إلى تدقيقها لوجـدنا الكثـير الكثـير مما ينبغي التوقف عنـده وإعـادة تقييمه. وحسبي هنا أن أقدم نماذج لما أعده مهمًا في هذه السبيل، وعلى القــارئ الفطن أن يقيس ما لم يُقل على ما قيــل، وما هو متوارٍ على ما هو ظاهر:

1- كثـيرًا ما يلتقي المـرء بأنـاس محبطين متشـائمين، ضـاقت بهم الأرض، وظنوا أن ما هو قادم من الأيـام لن يكـون بحـالٍ أفضل مما مضى. وإذا دقق الإنسان في أسباب ما هم فيه فسـيجد أن مشـكلة (التعميم) غير الموضوعي وغير الرشيد هي التي أوقعتهم في ذلــك. قد يخفق الواحد منهم في مشروع تجاري، فيعمم الإخفـاق على كل ذاته، وتتكـون لديه قناعة بأنه لا يصـلح للنجـاح في أي شـيء؛ ويبـدأ

في توقع الإخفــاق في كل مجــالات الحيــاة؛ مما يدفعه في اتجــاه الخوف والخمول واحتقار النفس... وبعض هـؤلاء المتشـائمين يـرى اثنين أو ثلاثة في محيطة، وقد أخفقوا في مساعيهم في مجــال من المجالات، فيدفعه ذلك إلى القول: إن ذلك المجـال سـيِّئ، ولا خـير فيه، ويبدأ في التدليل على ذلك بإخفاق فلان وفلان وهكذا..

المراجعة لهـــذه الحالة وغيرها تعتمد على محاولة توســيع قاعـــدة الفهم والتخلص من أسْر الصور الجزئية، ومحاولة رؤية الوقائع عــبر مفاهيم جديدة ومغايرة للمفاهيم السابقة. وعلى سبيل المثـال فـإن الاعتقــاد بـأن لـدى كل واحد منا نقـاط قـوة ونقـاط ضـعف، يبعث صـاحبه على رؤية الإخفـاق في مجـال من المجـالات بوصـفه نتيجة لضــعف الأهلية في ذلك المجــال أو قلة الاســتعداد وعــدم إحكــام الأسباب والمقدمات. وعليه عوضًا عن اليأس والتشـاؤم أن يكتشف نقاط القوة لديه، ويحـاول الانخـراط في الأعمـال الـتي تنسـجم مع تلك النقـــاط. والواقع والتـــاريخ يشـــهدان من خلال ألـــوف الأمثلة والوقائع على صحة هذا المفهـوم، فكم من رجل غيّر مجـال عملـه، فأصاب نجحًا منقطع النظير بعد الإخفاق الـذريع. وقُل مثل هـذا في النظر إلى مجال من المجالات على أنه مجـال صـعب أو ضـعيف أو قليل الجدوى أو خطر... حيث يدلّ عدد غير متنـاهٍ من النمـاذج على أن الناجحين في أي مجال من المجـالات اليـوم هم أكـثر بكثـير من المخفقين، وفي إمكان المرء أن يطلع على قصص نجاح مثـيرة في كل المجالات الـتي يظن المتشـائمون أنها مجـالات ميتـة. وقد قـال أحدهم: ليس هناك مشروع مخفق، وإنما هناك إدارة مخفقة. وقــال آخر: ليس هناك إخفاق بمعنى الكلمة، وإنما هنـاك نتـائج غـير جيـدة بسبب وجود مقدمات واستعدادات سيئة. وهذا حق.

إن على كل واحد من أولئك الـــذين أصــدروا على أنفســهم أحكامًا قاســية ونافــذة بعــدم الأهلية لإنجــاز الأشــياء العظيمة أن يقفــوا ليتلمسوا خطيئة (التعميم) التي وقعـوا فيهـا، وحينئذ سـيجدون آفاقًا جديدة تتسـع، وأبوابًا موصـدة تنفتح. ولن يسـتفيد أي من هـؤلاء من هذه النصيحة إذا كـان اتخذ من سـوء ظنه بنفسه متكأ للهـروب من تحمل المسؤولية، أو وجد فيه ملاذًا من التعب وبذل الجهد!

2- تعــني المراجعة الشخصــية أننا نأمل من درأ اســتعراض تاريخنا الخاص أن نتعلم وننضج أكـثر مما يمكن أن نحصل عليه من ذلك إذا ما نظرنا في تاريخ الآخـرين وسـيرهم الخاصـة. إن سـجل حيـاة كل واحد منا مملـوء بالمؤشـرات ذات الـدلالات الكبـيرة والواضـحة. إذا

تأمل الواحد منا في مجموعة الرؤى التي كانت تشكل نظرته للحياة والأحيـاء، فسـيجد أن كثـيرًا من تلك الـرؤى انتهى إلى غـير رجعة بسبب الوعي الذي حصلنا عليه عـبر معانـاة شـؤون الحيـاة؛ كما أنه سـيجد أن بعضـها قد تبلـور أكـثر وتعمـق، بل تحـوّل إلى معتقـدات ومسلّمات راسخة. وسيجد قسمًا ثالثًا مـازال موضع نظر وتمحيص. وإن هـذه الأقسـام الثلاثة على ما بينها من تبـاين تعمل على خط واحد، هو جعل المرء يعتقد أنه مازال في حالة من النمو والصيرورة والانتقال من حال إلى حال. وهذا الاعتقـاد هو الـذي يحفزنا على أن نتحسس مآلات أوضاعنا وتسليط نـور الـوعي عليهـا؛ كي نشـعر أننا نتقـدم في مـدارج الصـلاح والازدهـار، وأننا نحـرز نوعًا من التفـوق المستمر على أنفسنا. ومن وجه آخر فـإن من الصـعب على الواحد منا أن يقـوم بـدوره الـتربوي تجـاه أبنائه من غـير أن يتـذكر الوضع السـلوكي والعقلي والـروحي الـذي كـان فيه في مرحلة الطفولة والمراهقـة. إن كثـيرًا من الأسر المسـلمة يشـهد نوعًا من (صـراع الأجيـال) بسـبب فقـدان الوسـيط الثقـافي الـذي ينقل عـبره الآبـاء أفكـارهم ومشـاعرهم وقيمهم إلى الأبنـاء، وبسـبب الجهل بطبيعة المراهـق، وما يتعـرض له من ضـغوط، وما يواجهه من أزمـات ومشكلات. المراجعة الشخصية تـتيح الفرصة لمقارنة ما عليه أبناؤنا اليـوم بما كنا عليه يـوم كنا في مثل أعمـارهم، ومن خلال المقارنة ندرك كُنْه المواقف التي علينا أن نقفها تجاه أوضـاعهم وتصـرفاتهم المختلفة.

3 - من خلال التبصر الـذاتي سـندرك أن كثـيرًا من الأخطـاء الـتي وقعنا فيها كـان بسـبب الجهـل: جهل بعظمة من نعصـيه، وجهل بالطريقة الصـحيحة الـتي علينا أن نعـالج بها الأمـور، وجهل بـأنواع قصورنا وضعفنا. ونحن نريد من خلال معرفة كل هذا أن نتعلم كيف نحمي أنفسنا في المستقبل من الوقوع في مثل ما وقعنا فيه. وهذا الغـرض النبيل لا يتحقق من غـير تحليل عميق لطبيعة الطموحـات والتطلعـات الـتي تحركنـا، وطبيعة الحـوافز والمحطـات الـتي تنظم ردود أفعالنا تجـاه الأحـداث المختلفـة. وسـيظل مثل هـذا التحليل ممكنًا إذا تحلّينا بالهـدوء، ومنحنا أنفسـنا الفرصة الكافية للقيـام بذلك، إلى جانب امتلاك ما يكفي من الإرادة والاهتمام.

المراجعة الشخصيّة 2/2

د. عبد الكريم بكار 14/12/1426

14/01/2006

تحدثت في المقال السابق عن ثلاث نقـاط تتعلق بمسـألة المراجعة الشخصية، وفي هذا المقال أعرض لباقي ما لديّ في هذا الشأن:

4- سيظل من مهامنا الشخصية الأساسية العمل على إدراك الفـرق بين ما هو كـائن في أوضـاعنا الشخصـية، وبين ما ينبغي أن نكـون عليه. وتنبع أهمية هذه المسألة من كونها المصـدر الأسـاس لبلـورة وعينا بالطموحات والتطلعات والأحلام التي تحركنا، وتحدد اتجاهاتنا. البداية سـتكون في محاولة تحديد الوضـعية القائمة الآن، وذلك من خلال طـرح عـدد من الأسـئلة، من مثـل: كيف أقيّم درجة الـتزامي بأمور ديني؟ هل أنا ممن يستفيدون من أوقاتهم على نحو جيد؟ هل رؤيتي للمستقبل واضـحة؟ هل أوظف طاقـاتي على نحو جيـد؟ هل أعطي علاقاتي مع الناس حقها من الرعاية والاهتمام...؟ هل ...؟

ليست عملية تقـييم الحالة الراهنة لأي واحد منا بـالأمر السـهل كما نرغب أن تظهر في معظم الأحيان، لكن أعتقد أن المرء مهما كانت معاييره غامضة، يظل يمتلك من الأحاسيس والمشاعر والمؤشرات ما يمكّنه في النهاية من الحصول على أشـياء ذات قيمـة؛ والله -عز وجل- يقول: (بَـلِ الْإِنْسَـانُ عَلَى نَفْسِـهِ بَصِـيرَةٌ وَلَـوْ أَلْقَى مَعَـاذِيرَهُ) (القيامـة:14-15). بعد هـذا ننتقل إلى تحديد ملامح الوضـعية الـتي نتطلع أن نكون عليها في مختلف شؤونها ومن الواضح جدًا في هـذا السياق أن معظم الناس لا يعرفون مـاذا يريـدون؛ إن لـديهم أحلامًا وتطلعات، لكنها غير محددة، ولا يملكون للوصول إليها أي بـرامج أو توقيتات زمنية معينة، وهـذا هو السـبب الـذي يـدفعهم إلى التحـدث عما لا يريـدون، وعن الأشـياء الـتي لا تعجبهم، ولا يرتـاحون إليهـا. الذين يعرفون مـاذا يريـدون تشـكل طموحـاتهم ما يشـبه الهـاجس، وهم باسـتمرار يسـألون، ويستشـيرون، ويتعلمـون. قد يكـون مما يسـاعد على تحديد الوضـعية الـتي نتطلع إليها -السـعي إلى تحديد عــدد من المجــالات المتعلقة بحياتنا الشخصــية، مجــال السـلوك الشخصـي، مجـال الحيـاة الأسـرية، مجـال العمـل، مجـال الحيـاة الاجتماعية، مجال الصحة الجسـمية، مجـال الثقافة والصحة العقلية والنفسية الخ... وفي كل مجال من هذه المجالات وغيرها نحاول أن نحـدد ما الـذي نريد الحصـول عليـه. من خلال معرفة ما هو كـائن ومعرفة الـذي نريـده أن يكـون تتضح لنا المسـافة الفاصـلة بينهمـا. وهي مسافة تشبه المساحة الفاصلة بين الصحة والمرض.

5- تتضمن عملية مراجعة الحالة الشخصية العمل على محاولة فهم القناعات التي يحملها كل واحد منا ومراجعتها على نحو دقيـق. حين

نكون في المرحلة العمرية الأولى فإننا نكون مستعدين لتصديق كل ما نـرى، وكل ما نسـمع، ومع الأيـام تـتراكم لـدينا الخـبرات، ونبـدأ بتشــكيل قناعاتنا حــول مختلف المســائل المطروحــة. والــذي أود التأكيد عليه، هو أنه ليس هناك أي ضمانة لصحة وصـواب ما تشـكّل لدينا من قناعات ومسلّمات حول أسـاليب العمـل، وحـول المجـدي من غير المجدي من محاولات التجديد والإصلاح؛ وذلك لأن الأسـاس الــذي نبــني عليه قناعاتنا في هــذه القضــايا، يظل يتسم بالنســبة والهشاشــة. وهــذا يعــني أن نعتقد أن المراجعة دائمًا ممكنــة، وقد تكـون مفيـدة. والـذي يهمنا هو مراجعة القناعـات الـتي تسـبب لنا القـوة والقناعـات الـتي تسـبِّب لنا الضـعف. إن عقولنا وهي تحـاول إنتـاج المفـاهيم الـتي تسـاعدها على معالجة الأشـياء، كثـيرًا ما تنتج الأوهام والمقولات الزائفة، وهذا من القصور المســتولي على جملة البشر. ومن واجبنا التحرر من الأوهام وامتلاك المفاهيم التي نحاكم إليها القناعات. من القناعات التي تسبِّبُ لنا القوة الآتي:

- لم أستخدم بعدُ كل إمكاناتي، ولم أستثمر كل طاقاتي الكامنة.
- ما من حالة ولا وضعية إلا وهي درجة من التحسين.
- من خلال المثــابرة في العمل أســتدرك على ما يكــون لــديّ من نقص.
- العلاقات الحسنة مع الناس باب من أبواب الرزق.
- في فضل الله -تعالى- ما يكفي الجميع، ولذلك فلا داعي للحسد.
- ما أكتســبه من معــارف وخــبرات أهم مما ورثته عن آبــائي من إمكانات.
- ما عند الله -تعالى- يُنال بطاعته، وليس بمعصيته.
- ما يُغلق باب إلا ويُفتح باب آخر.

ومن القناعات التي تسبب الضعف:

- لست مؤهّلاً لاحتلال مناصب قيادية.
- لا فائدة من كثرة المحاولة مع معظم المشكلات التي تواجهني.
- الذين حولي يكرهونني من غير سبب واضح.
- العمل مع الناس متعب والأفضل الاستقلالية.
- أنا لا أفهم إلا في المجــال الفلاني، ومن الصــعب تعلّم شــيء في غيره.
- لم يبق في العمر ما يستحق البدء بمشروع جديد.

6- لا يكتمل وعينا بأنفســــنا، ولا نســـــتطيع مراجعتها على النحو المطلوب إذا لم نقيّم الأساس الـذي تقـوم عليه سـلوكاتنا على نحو

عـام. وذلك الأسـاس قد يكـون راشـدًا، وقد يكـون سـيئًا، يعـبر عن الضياع والضعف. ومن هنا فـإن على الواحد منا أن يحـاول إدراك ما يكون من تصرفاته عبارة عن استجابة لأحكـام الشـرع والعقـل، وما يكون منها عبارة عن استجابة لأحكام الغريزة والشـهوة والمصـلحة. بهذا التساؤل اليـومي والمسـتمر تنتعش الرقابة الذاتية لـدى الواحد منا، كما تقوى حاسّة النقد الذاتي. وإذا استجبنا لهذا الوعي الجديـد، وبدأنا في تكثير الاستجابات الراشدة، وتقليل الاستجابات الغريزيــة، فإننا نكـون قد وضـعنا أنفسـنا في سـياق الارتقـاء الـذاتي وإصـلاح الأخطاء الشخصية التي طال أمدها.

من خلال الوعي والعزيمة والمثابرة ومن خلال المحاسـبة والتـدقيق والمراجعة نحصل -بإذن الله تعالى- على ثمرات كنا نعدها من جملة الأحلام والأمنيات؛ بفضل الله.

وقد أعود إلى هذا الموضوع في يوم من الأيام

============

...ولكن...

د. عبد الكريم بكار 15/10/1426
17/11/2005

إذا تأملنا في بنية الخطـاب الإسـلامي الحـالي وجـدنا أنه يتجه شـيئًا فشـيئًا نحو التعقيد والـتركيب، حيث الخـوض في التفاصـيل، وحيث اسـتخدام الاسـتدراكات والاسـتثناءات والاحـترازات على نحو واسع ومتسـع. وهـذا يشـكل علامة إيجابية على تطـور الفكر الإسـلامي واكتسابه المزيد من الحساسية حيال التنوع العظيم الـذي فطر الله -جل وعلا- عليه الأشـياء والأحـداث. كما أنه يعـبر عن شـعور أعظم بالمسؤولية تجاه التفاصيل الحياتية الكثـيرة. هـذا كله لا ينفي وجـود شـريحة إسـلامية ليست قليلـة، من الكتـاب والمتحـدثين، مـازالت مفتونة بـالتقريرات الجازمة والأحكـام الصـارمة؛ ظنًا منها أن ذلك يعـبر عن التمكن العلمي، كما أنه يحفز النـاس على العمل الصـالح؛ إذ يحشـرهم في الزاوية الضـيقة! والخـبر السـارّ هنا هو أن هـذه الشريحة تسير في اتجاه التقلص وليس في اتجاه التمدّد والاتسـاع.

ولعلنا نلقي بعض الأضواء على هذه المسألة عبر المفردات الآتية:

1- إننا حين نستخدم أدوات مثل (لكن) و (إلا) و(ربما) فإننا نعبِّر في الحقيقة عن عـدد من المعـاني، قد يكـون أهمها الشـعور بقصـور النظام اللغوي الذي نسـتخدمه. ونحن نعـرف أنه ليس هنـاك نظـام لغوي كامل، وذلك القصور كثيرًا ما يتجلى في قصـور القواعد الـتي

نعـبر من خلالها عن الظـواهر، مما يلجئنا في النهاية إلى اسـتخدام أدوات تدل على الاستثناء، ونحن نعبر عن ذلك القصور بقولنا: "لكل قاعدة شواذ"، إلى جانب الشعور بعدم كفاءة النظام اللغـوي نشـعر أننا نتحدث عن ظواهر مركبـة، يصـعب التعبـير عنها بجمل جامعة أو بجمل بسيطة ومختصرة، ولهـذا الشـعور دلالة على النضج الفكـري الـذي يتجسد في الـوعي على امتلاك الـرؤى المركبة ذات الأبعـاد المتعــددة. إن الأطفــال ومَن في حكمهم ممن حُــرم من الــتزوّد بالمعرفة الجيـدة يقنعـون بـأي تعبـير، ويسـارعون إلى تصـديق أي مقولــة؛ لأنهم لا يملكــون من النضج العقلي والــثراء المعــرفي ما يجعلهم يبحثــون عن المهمل والمسـكوت عنه والشـاذ والقليل من الظواهر المطروحة للبحث والتـداول. ولك أن تتخذ من هـذا معيـارًا للتقدم العقلي، فالذين يكثرون من الاسـتدراك والتحـرز في كلامهم ويحـــاولون نقد المقـــولات والقواعد العامة يكشـــفون عن وعي بالطبيعة المركبة لمعظم ظواهر الوجود، والـذي يحفـزهم من جهته على الأناة في إصدار الأحكام واقتراح طرق المعالجة. أما الـذين ما زالوا في أول طريق النضج، فإنهم يفرحـون بحفظ القـوانين العامة والجمل ذات الدلالات المطلقة، ويتضايقون ممن يجادلهم في شيء منها. وإن المتعمق في كثـير من الحكم والأمثـال الموروثة والحديثة يجد أنها تنزع إلى التعمق والتعبير المبسّـط عن قضـايا كـبرى، لكنها تُتَلقّى من لدن كثيرين بشيء من الفهم الحرفي، مع أنها في الأصل رؤى وخـبرات لأشـخاص معيـنين، أي أنها نابعة من نظـرة خاصة أو جزئية. وأتمنى أن يتفرّغ لإعـادة النظر فيها بعض البـاحثين النـابهين بغية وضع الأمور في نصابها.

2- الرشد الفكـري يعـني أشـياء عديـدة، ومن أهم ما يعنيه وضـوح الرؤيـــة، وينبغي أن نفـــترض ابتـــداء أن المعرفة النامية والخـــبرة المتراكمة تتيح للمتأخر أن يرى مـيزات الأشـياء وسـلبياتها على نحو أفضل من رؤية المتقدم لها. إن المتأخر أشـبه بمن يقف على كتفي عملاق، فهو يـرى ما يـراه العملاق، وما لا يـراه. لكن هـذا لا يتم إذا اعتقدنا أننا محرومون من المـواهب الـتي حبا الله بها السـابقين، أو اعتقـدنا أن كل ما قاله السـابقون يظل أقـرب إلى الصـواب؛ على حين يظل ما نقوله نحن يظل أقـرب إلى الخطـأ. إن الله -سـبحانه- أتاح للمتأخرين من الاطلاع على قوانين الكـون أضـعاف أضـعاف ما أتاحه للسابقين؛ ولا مانع يمنع من أن نتمكن من كشف سنن نفسية واجتماعية وإصـلاحية وتربوية كـانت غائبة عن اسـتيعاب معظم من

سبقنا؛ فالمعطي الوهّاب رب السابقين واللاحقين، ولا على حاجر على فضله. إن هذا الكلام قد يثير الوحشة لدى بعض الناس، مع أن كثيرًا مِن تقدّمنا اليوم ربما كان مرتبطًا بالعمل وفق معطياته ولوازمه.

3- الرؤية السطحية تتشكل من مجموعة كبيرة من المسلمات والمقولات البسيطة والمستعجلة وذات الطابع الشخصي. أما الرؤية المتعمقة المدققة فهي رؤية مركبة. والرؤية المركبة هي رؤية تفصيلية بامتياز، والمتأمل في الذكر الحكيم يجد توجيهًا قويًا نحو تعميم هذه الرؤية وترسيخها في العقلية الإسلامية. وهذا التوجه يتجلّى تارة في الاستثناء، وتارة في إطلاق تعبيرات غير حاسمة، وتارة في تعبيرات تؤسس إلى المحاسبة والاحتزاز من التعميم والشمول. وهذه بعض النماذج لما يدل على ذلك. يقول الله – سبحانه-: (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [سورة العصر]. وقد تلقى الوعي الإسلامي الاستثناء في هذه السورة على أنه محورها والمقصود الأكبر منها؛ حيث إننا نستشهد بها في معظم الأحيان للدلالة على الأهمية الكبرى للتواصي بلزوم الحق والصبر. ويقول – جل وعلا-: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً) [آل عمران: 75]. إن أهل الكتاب متفاوتون في أماناتهم، كما أنهم متفاوتون في صدقهم وفي درجات انحرافهم، وفي مدى عداوتهم للمسلمين. والرؤية التفصيلية هنا تحرضنا على أن ننظم تجاههم ردود أفعال مختلفة، ونتوقع منهم مواقف وسلوكات متباينة. وفي هذا نفع ومصلحة للجميع. ويقول سبحانه: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) [يوسف: 103]. وقال: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) [سبأ: 13]. مهما بذلنا من الجهود الدعوية، ومهما كانت الغلبة للمسلمين في الأرض فإن أهل ملة الإسلام سيظلون أقلية، وهذا تشهد به كل مراحل التاريخ، وهذا ما يشهد به الواقع المعيش. وهذا الشأن في الشاكرين القائمين بحقوق النعمة. إننا لا نستطيع تعميم حكم الإيمان أو الكفر أو الشكر أو الاستقامة في أي عصر من العصور. وعلينا قبل إصدار الأحكام أن ندقق ونتحقق. ثم إن جهود الأمة المسلمة بناء على هذا استهدف زيادة عدد المؤمنين والشاكرين وتقليل أعداد الكافرين والجاحدين، ليس أكثر من ذلك. والانطلاق من هذا المقصد يعرض

علينا التحلّي ببعض الأخلاق والآداب، واســـتخدام بعض الوســـائل الخاصة

ولكن ... (2)

د. عبد الكريم بكار 29/10/1426

01/12/2005

ذكـرت في الحلقة السـابقة الاهتمـام بمسـألة التفصـيل والاسـتثناء والاستدراك في الخطاب الإسـلامي، وأنه يعـبر عن نـوع من اتسـاع الرؤية وتقدّم الخبرة. وسأكمل هذا الموضوع اليـوم عـبر المفـردات الآتية:

1- حين نتحدث عن ظـواهر كـبرى أو أوضـاع عامـة، فـإن المشـكلة التي قد تواجهنا كثيرًا ما تتمثل في تحديد المستثنى والمسـتثنى منه أو الخط العـام، وما هو شـاذ عنه أو دخيل عليـه: هل الأمة الآن في حالة صـحوة، يتخللها بعض الإشـكالات والسـلبيات؟ أو أن الأمة في غفـوة على الـرغم مما نشـاهده من بعض الإشـراقات والمبشِّـرات والإنجـازات؟ هل أوضـاعنا تسـير نحو الأحسن أو أنها تسـير نحو الأسوأ؟

عشرات الأسئلة التي نطلقها هنا وهناك من أجل توفير نقطة ارتكاز للفهم أو توفير مـدخل للـوعي. ويكـون الجـواب في معظم الأحيـان متعددًا ومتباينًا. وحين يصل الأمر إلى هـذا الحد من التشـويش فـإن كل أشكال البحث والنقاش تصبح من غير معنى، ومن غـير جـدوى، كيف يكـون في إمكاننا التغلب على هـذه المشـكلة والصـيرورة إلى درجة من الوضوح تسمح بالمعالجة الجيدة؟

في اعتقـادي أن الوصـول إلى وضـعية متألقة ينقطع معها الجـدل، ليس في حيز الممكن؛ لأسباب معروفـة، لكن يمكن أن نحصل على شيء جيد إذا خطونا الخطوات الآتية:

أ – تحديد التعريفـات والمصـطلحات المـراد اسـتخدامها في عملية (التقـييم)، ومحاولة الاتفـاق عليها قـدر الإمكـان. وأذكر في هـذا السياق أنني طالما سمعت من الشباب الغيور الخيّر من يقول: متى النصر؟ متى نرى رايات الإسلام خفاقة في كل مكان؟

وأذكر أنـني في إحـدى المـرات ردَدْت على سـؤال أحـدهم بسـؤال جديد، هو: ما الذي تعنيه بالنصر؟ هنـاك نصر عسـكري، وهنـاك نصر سياسي وآخر تربـوي ورابع تعليمي وخـامس اقتصـادي.... فعن أيّ نصر تسأل؟ ولم يجد ذلك الشاب ما يجيب به.

حين يقول قائل: ما أسباب سقوط العـالم الإسـلامي اليـوم؟ فلنقل قبل أن نتحدث عن أسـباب السـقوط: ما المقصـود بالسـقوط؟ وما المكان الشاهق الذي كـانت تحتله الأمة في المجـالات الـتي أشـرنا إليها؟ وما الشواهد والإحصاءات التي تـدل على تراجع الأمة في كل ذلك؟

لو أننا اتخذنا هذا المنهج في تنـاول الأشـياء، فسـوف نجد أن معظم الناس يتحدثون عن أشياء كثيرة, لا يعرفـون عنها إلا القليـل. وكثـير من الناس يقـول ما يقوله من بـاب التقليد بعيـدًا عن أي مناقشة أو محاكمة!

ب - تقسيم الظواهر موضع البحث إلى أصغر أجزاء ممكنـة. إن من الصعب ومن غير الموضـوعي أن تقـول: إن التعليم لـدينا ينتقل من سيئ إلى أسوأ، أو من حسن إلى أحسـن؛ إذ إن هـذا الحكم يشـمل عشرات الألـوف من المـدارس والمؤسسـات التعليميـة. وإذا نظرنا بتأمل إلى واقع المدارس، فإننا سنجد قطعًا أن بعضـها يقـدم تعليمًا متمـيزًا جـدًا، ربما كـان أفضل مما تقدمه المـدارس المنـاظرة في العديد من الـدول المتقدمـة. كما أننا سـنجد أن بعضـها يسـيء إلى عقول الطلاب ونفوسهم أكثر مما تفعله مدارس مناظرة في الكثير من دول العالم. لكن السؤال الذي يُطرح بعد هذا هو: ما الذي يمنح للتعليم في هـــذا البلد مســـحته العامة أو وضـــعه الطـــبيعي: أهي المـــدارس الســـيئة أم الممتـــازة؟ وما الـــذي يشـــكل الشـــاذة والاسـتثنائي؟ وللإجابة عن هـذا السـؤال فإنه لا منـاص من الخـوض في التفاصيل والقيام بإجراء المسوح والدراسات المساعدة.

إن الإنسـان يصـدر دائمًا عن رؤية محـدودة وجزئيـة، وإن الإحصـاء المنهجي هو الذي يحول دون الفرق في ذلك.

جـ - المقارنة مساعد آخر على كشف المطِّرد من الشاذ والمستثنى من المسـتثنى منـه. يمكن لنا حـتى نتعـرف على الوضـعية الحقيقية لمؤسسة أو جماعة أو هيئـــــة... أن نقـــــوم بمقارنتها بنظيراتها المعاصرة، أو التي كـانت موجـودة في مرحلة تاريخية معينـة. ولكن علينا أن نحذر في هذا السياق من المقارنات الخاطئة؛ إذ تعوّد كثـير من الناس أن يقارنوا أشياء بأشـياء لا تناظرها ولا تماثلهـا. من خلال المقارنة نصل إلى بعض التحديد، ونوفر أساسًا لإصدار الأحكـام. إن مقارنة الأشـياء المحسوسة بـأخرى مثلها تـأتي بنتـائج واضـحة؛ لأن الأسس التي تقوم عليها المقارنة تكون محـددة بشـكل جيـد؛ فنحن اليوم نقارن مثلاً بسهولة الناتج القـومي لأي بلد إسـلامي مع أي بلد

آخر، ونحصل على نتائج ذات مغزى، وذلك لأن حساب الناتج يقوم على أساس متّفق عليه، وهو جمع قيم السلع والخدمات التي ينتجها القطر، وتقسيم حاصل الجمع على عدد السكان، لكن من الصعب أن نقارن مقارنة جيدة بين الناتج الأدبي والدعوي والتربوي لجماعة إسلامية وجماعة مسيحية. يمكن -بالطبع- أن نقارن تنظيم إحداها بتنظيم الأخرى، أو نقارن الإتقان في الأداء أو سرعة الحركة لمعالجة الأخطاء.

2- الخطاب الوعظي والتعليم التلقيني مسؤولان إلى حد بعيد عن تشكيل (التفكير الحدِّي) الذي يطرب للمطلقات والكلمات الكبيرة، وينفر من التقييد والاستثناء والاستدراك. إن كلاً من الواعظ والمعلم الملقِّن يظن أن مَن أمامه غير صالح للنقاش والحوار، وغير صالح لاستيعاب التفاصيل؛ كما أن الرغبة الجامحة في خروج المتلقي بشيء محدّد وصارم تدفع في اتجاه تناسي الشذوذات -والتي قد تشكل ظواهر كبرى- والإعراض عن الاستثناءات.

أما الخطاب المشوب بالنقد والحرص على بيان العلل والأسباب وكشف العلاقات فإنه يساعد على بناء العقل المركّب القادر على رؤية الأشياء من زوايا مختلفة، وعلى مستويات متباينة، ومن شأن التعليم القائم على الحوار والتساؤل والاستنتاج إشاعة ثقافة تهمّش الاستبداد الفكري، وتحبّذ البحث والتأمل والاهتمام بالمستثنى والمهمل والمنزوي.

3- سيظل للخطاب الحدِّي العاطفي الجانح إلى التعميم و(البيع بالجملة) تأثير واسع في الجماهير العريضة، وسيظل كل ما يخرج عن القواعد العامة مصدرًا للمضايقة، ما لم يرتقِ المستوى المعرفي للناس، وما لم تنتشر فيهم المفاهيم الدقيقة والمعبِّرة عن حساسية فكرية عالية. إن أصحاب الثقافة الشفهية يعتمدون على الذاكرة في حفظ ما يحصلون عليه من معرفة، ولهذا فإنهم يميلون إلى المختصرات والعبارات المقننة خوفًا من النسيان. مع التبحّر في المعرفة وانتشار الثقافة الكتابية تنفتح شهية الناس إلى الشرح والتوضيح والتفاصيل المملّة. وإلى أن يحدث هذا لدى الجماهير المسلمة، فإن علينا مراقبة تعبيراتنا ونشر وعي جديد بأهمية (لكن وأخواتها).

==============

بِنْيةُ التخلّف

د. عبد الكريم بكار 13/11/1426

15/12/2005

ليس على وجه الأرض أمة تستطيع أن تدّعي أن كل ما لـديها حسن جميل أو متقــدّم متفــوّق؛ كما أنه ليس على وجه الأرض أمة يمكن أن تُوصم بأن كل ما لديها سيّئ أو منهار. وهـذه الوضـعية تعـود إلى تعقيد نسيج التقدّم والتخلّف وكثرة العوامل والمظـاهر المكونة لكلّ منهما. نحن في هذا المقال ومقالات أخرى تليه -بحول الله- سنركّز على هذه المسألة سيراً خلف الصـحابي الجليل حذيفة بن اليمـان -رضي الله عنه- والذي كان يسأل الرسول -صـلى الله عليه وسـلم- عن الشــر، على حين كـان غـيره من النـاس يسـألونه عن الخـير، وكــأني به أراد تكميل اللوحة واســتكمال المشــهد؛ إذ إن الخـــير المنشــود لا تتم المعرفة به من غـير معرفة الشــر، إذ يُظهر الضـدّ حسن الضدّ أو قبحه، وأودّ قبل الخوض في غمار هـذا الموضـوع أن أوضح عدداً من الأمور المهمة.

1- نحن المسلمين ننظر إلى الأشـياء من أفق عقيـدتنا وأفق المنهج الرباني الأقوم الذي نؤمن به، ونسعى إلى تكـييف حياتنا مع مقولاته ومدلولاته، ومن هنا فإننا قد نرى في بعض الأمـور ما لا يـراه غيرنـا. إن عبادة البقر -مثلاً- تشكل مؤشراً قويـاً إلى تخلّف من يقـوم بهـا، ولو كـــان يـــترّبع على كرسي رئاسة دولة عظمى أو مركز أبحـــاث متقدم.

2- إلى جــانب ما نجــده في معاييرنا من خصوصــية، فــإن علينا أن نقــرر أن ما هو مشــترك بين الأمم في تأســيس النظر إلى التخلّف والموقف منه يُعـدّ واسـعاً وكبـيراً، وهـذا في الحقيقة يعـود إلى ما فطر الله ســبحانه عليه العبــاد من الطموحــات والحاجــات، وإلى الظروف والتحدّيات المتشابهة، والتي يعيش فيها معظم الناس.

3- من خلال ما هو عـــام وما هو خـــاص في تكـــوين النظـــرة إلى التخلّف يـبرز شـيء مهم، هو سـلم الأولويـات لـدى كل أمـة. نحن المسلمين ننظر إلى إنعاش التـدين والالـتزام والسـير وفق مراضي الله تعـالى على أنه يشـكل أولوية الأولويـات وغاية كل الإصـلاحات التي نُـدخلها على نظمنا الحياتية المختلفـة، على حين أن كثـيراً من أمم الأرض وشعوبها ومفكريها لا يعطون لهذه القضية أي اهتمام؛ إذ يســيطر على الاهتمــام دفع عجلة الاقتصــاد، ومكافحة الأمــراض، وتحسين التعليم، وتحقيق المزيد من الرفاهية.

4- من المهم -ونحن نتحـــدث عن بنية التخلّــف- ألاّ نميّع القضـــية ونهوّن من خطورة ما نحن فيه بدعوى الخصوصـية، مما يـدفعنا إلى

غضّ الطــرف عن المعــايير العالميــة، وعن تطلعــات المســلم للمشاركة في صياغة عصره والعيش في ظلاله.
إن الفساد والتعذيب والاستبداد وأكل الحقـوق والكسل والفوضـى، والخروج عن القوانين، وتشغيل الأطفال، والتسـرب من المـدارس، والإعراض عن القراءة، والقسوة في تربية الأبنـاء، وتفكك الأسـرة، وانتشـار المخـدرات، إلى جـانب الفقر والتخلّف التقـني.. إن هـذه الأمور مكروهة في كل معيار ولدى كل الأمم، ويجب أن نتعـاون مع العـالم في القضـاء عليهـا. إن التقـدم في تقليل هـذه الشـرور يُعـدّ مطلبــاً عالميــاً، وينبغي أن يكــون مطلبــاً لأمة الإســلام، ولا يصح التهاون حيالها لأي سبب من الأسباب.
حين نقول: إن هذا الشعب متخلّف أو هذا النظام غير متقـدّم، فعلى أي أساس نبني هذا الحكم؟
نحن المسلمين ننطلق في حكمنا من اعتبارين:
الأول: هو مدى القـرب والبعد مما نعتقد ونـؤمن أنه وضع صـحيح أو خاطئ، أي الخضوع لأدبيات الإسلام وتقريرات الفقهاء.
الثــاني: ما نعتقد أنه يســاعد المســلم على عيش زمانه بكرامة وكفـاءة وفاعليـة، وما نعتقد أنه يـؤدي إلى الانسـجام مع المعـايير الدولية المتفق عليها.
ومن هنا فإن معظم مفردات التخلّف تعود إلى نوعين منه:
1- تخلّف عن السويّة التي يتطلبها الالتزام بالمنهج الربّاني الأقوم.
2- تخلّف عن ركب الحضـارة المعاصـر، ومقتضـيات ريادته والتـأثير فيه. ومن المهم أن أؤكد على شيء جـوهري في هـذا الشـأن، وهو أن التخلّف الذي نعاني منه يمنعنا من بلورة رؤية جيدة ودقيقة حول الوضعية العامة للمسلمين وحقيقة المعاناة التي يعيشونها على نحو يومي، وهذا يعود إلى أنك حتى تتعـرف على الواقع فإنك بحاجة إلى معرفة ومعلومة جيدة. والحقيقة أن العالم الإسلامي يعـاني من شح الأرقــام الــتي يســتدل بها على فهم ما هو فيــه، كما أن الأرقــام المتوفرة كثيراً ما تكون غير دقيقة، بسـبب عـدم نزاهة المصـدر، أو بسبب ضعف الإمكانات المطلوبة للقيام بمسوحات إحصائية جيدة!
هذا يعني أن ما سنقوله عن التخلّف وبنيته ومظاهره سـيظل قائمـاً على الظن والمقاربـة. إننا حـتى نقلل من التحيّز الناشئ من طبيعة صياغة التعريفات والمصطلحات نحتاج إلى المعارف الكميـة، وهـذه بعضها متقادم وبعضها مبـنيّ على أسس لا تسـاعد في الكشف عن ظـاهرة التخلّف لـدى الأمـة، ولهـذا فـإن الحـديث عن التخلّف يظل

مزعجاً لكثـير من النـاس، وذلك بسـبب ما ينشـره من تشـاؤم أولاً، وبسبب ضـعف قدرته على الحسم ووضع النقـاط فـوق الحـروف أو تحتها ثانياً. لكن مع كل هذا فإن من الثابت أن الحـديث عن المـرض يسـبق دائمـاً الحـديث عن العلاج. وإذا أراد المفكـرون والمصـلحون إغـــراء النـــاس بـــالحلول الـــتي يقـــدمونها إليهم فلا بد من جعلهم يسـتيقنون أن أحـوالهم ليست على ما يُـرام، وأنهم فعلاً بحاجة إلى ما ينهض بهم، ويحسّن أوضاعهم.

إذا تلقينا الحـديث عن المآسي بعواطفنا ومشـاعرنا، فإننا سـننزعج كما ينزعج المريض حين يسمع من طبيبه عن تشخيص مرض خطير لديه، لكن إذا تلقيناه بعقولنا وما نحمله من تشـوّق إلى السـعي نحو الأفضل والأحســن، فــإن الأمر ســيكون مختلفــاً؛ إذ ســنكون مثل المــريض الــذي ينتظر بعد ســماع الأخبــار الســيئة ما سيفضي به الطبيب عن إمكانات العلاج والمعاناة.

المحذور في الحـديث عن التخلّف هو أن نبـالغ في جلد أنفسـنا إلى درجة اليــأس، ونفض اليد من كل معالجـــة، والحقيقة أن المعادلة صــعبة للغايـــة؛ إذ إنه لا يمكن الحـــديث عن التخلّف من غـــير نقد للذات، ولا يمكن نقد الذات من غير ظن البعض أننا نقوم بجلدها!

ما الحلّ؟

ليس هناك حل حاسم؛ ولكن خلط الحـديث عن الـدّاء بالحـديث عن الدّواء قد يرطّب الأجواء، ويبعث على التفاؤل

=============

بداية تقدّم

عبد الكريم بكار 1/10/1426

03/11/2005

انتهى رمضان (كل عام وأنتم بخير)، وصار جزءًا من الماضي، ونحن نشـعر جميعًا أن هـذا الشـهر المبـارك كـان يشـكل احتفالية روحية ضخمة شارك فيها المسـلمون: صـغارهم وكبـارهم في سـائر أنحـاء المعمـورة. إننا لا نعـرف عبـادة من العبـادات تسـتحوذ على اهتمـام المسـلمين على النحو الـذي نجـده في عبـادة الصـيام. لقد تعـود المسلمون التعامل مع شهر رمضان على أنه شهر اسـتثنائي، وهـذا يعود في الأسـاس إلى ما لمسه الصـحابة -رضـوان الله عليهم- من إقبال نـبيهم -عليه الصـلاة والسـلام- على العبـادة في كل رمضـان، ولاسيما العشر الأواخر منه، فقد كان يعتكف في المسـجد، ويعـتزل نســاءه، ويشد مــئزره إيــذانًا بالانصــراف الكلي إلى مناجــاة الله -

تعالى- والتقرب إليه. ولـدى كثـير من المسـلمين اليـوم شـعور بـأن رمضان مناسبة مهمة لتخصص حركة المسـاعي الدنيوية في سـبيل توفير المزيد من الـوقت للإقبـال على الله -سـبحانه-؛ ومن ثم فـإن كثيرًا من الأعمـال يُـؤخر إلى ما بعد رمضـان، ولهـذا دلائله الإيجابية الكثيرة!

إن المتتبع لحملة الآداب والسـنن والمشـروعات في شـهر رمضـان المبارك -يجد أنها مجتمعة توجد بيئة روحية فريدة، ففي هذا الشـهر المبـارك يرتـاد المسـلمون المسـاجد بكـثرة، وتشـهد صـلاة الفجر حضــوراً لافتــاً مع أنها في غــير رمضــان شــبه مهملة من معظم المسـلمين. ونجد إقبـال المسـلمين على قـراءة القـرآن حـتى إن بعضهم ليختم في هذا الشهر خمس ختمات أو سـتًا. وتنبسط الأكف بالصدقة والعطاء، وتكـثر الموائد الـتي يجتمع عليها الفقـراء.. وهـذا كله يجعل الوضـعية الوجدانية والروحية لـدى معظم المسـلمين في حالة ممتازة.

لا أريد أن أسترسل في الحديث عن فضائل رمضان وبركاتــه، ولكن أود أن أقول: لماذا يعود السواد الأعظم من المسلمين بعد رمضــان إلى ما كانوا عليه قبله من تقصير في أداء الفرائض وهجر للمساجد وغوص في الشأن الدنيوي..؟!

هل يحــدث هــذا لأن المســلمين ينظــرون إلى رمضــان على أنه (موسم)، ودائمًا تكون المواسم طارئة وغير عادية، ويكون ما بعـدها مثل ما قبلها؟

أو أن هذا يحـدث لأن تـأثير رمضـان في نفـوس المسـلمين لم يكن جذريًا إلى درجة إغرائهم بالتمسك بالمسرات الروحية الـتي خبروها في رمضان والعمل على استمرارها؟

هل يكون السـبب هو كـثرة المشـاغل الدنيوية الـتي تجـذب النـاس بعيدًا عن الاهتمام بالمعنى والمشاعر والرفاه الروحي؟

أعتقد أن سـبب ذلك هو خليط من كل هـذا، وهنـاك أسـباب أخـرى ربما تعــود إلى طبيعة النفس البشــرية وميلها إلى الملــل، والتنصل من المسؤوليات.

إننا ونحن مهمومون بشجون الإصلاح، وغارقون في شـؤون التنظـير العقلي، نسينا شـيئًا جوهريًا هو أن المكمن الحقيقي لـذات الإنسـان هو روحه وليس عقله. ونسـينا كـذلك أن علاقتنا الشـفيفة بالله -جل وعلا- هي مصــدر السـعادة الحقيقية في هــذه الـدنيا، وهي مصــدر الوقـود الحيـوي الـذي نحتاجه من أجل الاسـتمرار في العطـاء ومن

أجل مقاومة الضـغوط الهائلة الـتي تتـوارد علينا من كل اتجـاه. إن حب الله -تعـالى- ورجـاءه وخوفه واستحضـار عظمته وفضـله علينا ولطفه بنا.. هي المحصلة النهائية لكل قربة من القرب، وكل عبـادة من العبادات. وإن المطلوب أن تشكّل هذه المعـاني الصـبغة العامة لكل هواجسنا، وأن تصوغ سـلوكاتنا وقبل ذلك أمانينا وتطلعاتنـا. إن علينا أن نقوم بحركة توعويّة كبرى تسـتهدف تعليم النـاس الطريقة الــتي تمكّنهم من جعل رمضـــان نقطة لبداية تغيــير على الصــعيد الشخصـي. لعل مما يرمز إلى هـذا ما سـنّه النـبي -صـلى الله عليه وسـلم- من إتْبـاع صـيام رمضـان بصـيام سـتة أيـام من شـوال؛ إذ المحاولة الواضحة للتشـبث بالصـيام ونقل بعض قـرب رمضـان إلى شوال.

في رمضـان تعـوّد النـاس الاسـتيقاظ قبل الفجر من أجل السـحور، ومن المهم أن يحاولوا الاستيقاظ مدى الحياة في وقت السحر، ولو مـرة واحـدة في الأسـبوع. وفي رمضـان ذاق النـاس معـنى التلاوة اليومية لكتاب لله -تعالى- ومن المهم أن يرتّب كل واحد منهم على نفسه وردًا أو حزباً يوميًا من التلاوة حتى يظل على صلة بكلام الله. وفي رمضان تعوّد النـاس البـذل، وسـيكون من الحيـويّ أن يوطّنـوا أنفسهم على مساعدة غيرهم على نحو يومي ولو بشيء زهيد.

سـنعرف قـدر رمضـان، وسـنقوم بحق عبـادة الصـيام حين نحـاول استصــحاب ظلال الصــيام وإيحاءاته وإشــراقاته لتكــون جــزءًا من السـلوك العـام والأجـواء العامة لأمة الإسـلام. بـالتثقيف والحـوار والقدوة وزيادة الوعي قد نسـتطيع الوصـول إلى كثـير مما نريد في هذا الشأن.

والله ولي التوفيق.

================

من أجل المثاقفة

د. عبد الكريم بكار 3/9/1426

06/10/2005

حين يشتبك الناس بالأيدي، وحين يشهر بعضـهم السـلاح في وجـوه بعض فإن ذلك يعني اصطدام بُنى ثقافية متناقضة وعقليات متباينـة. ويبـدو أن النـاس يـرون في حسم الأمـور عن طريق القـوة والقهر الوسـيلة الأسـرع للتخلص من الشـقاق الفكـري والثقـافي. ومع أن تكاليف اسـتخدام القـوة دائمـاً باهظة إلا أن كثـيراً من النـاس يراها أسـهل من مناقشة خصم عشـرين سـنة دون أن تكـون متأكـداً من

إقناعه أو تغيير بعض أفكاره. ولا شك أن هذا يشكل خطأ فادحاً في الرؤية الإسلامية وفي الرؤية الوضعية المعاصرة.
حين ترى انغلاقاً في الفهم واعتزازاً بالاجتهاد والرأي، ففتش عن بنية التربية وأسلوب التعليم؛ إذ إن من شأن التربية المتسلطة أن تدفع في اتجاه التسلط، والذي يعني رؤية مريضة للذات وللغير. كما أن أسلوب التعليم القائم على فرض المعلومات وإلغاء دور الطالب، يؤسس لعقلية ترى في الجدل والحوار مدخلاً لهدم المعتقدات وتقويض ركائز المعرفة. مع أن المنهج القرآني يؤكد أن كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اتخذوا من المجادلة أداة لنشر الدين والشرائع وترسيخها في نفوس الناس وعقولهم.
ولعلي أسوق في هذا الشأن الملحوظات الآتية:
1- إن عقولنا لا تدرك الحقائق دفعة واحدة، وإنما على دفعات متعددة، وقد تنقضي الأعمار، دون أن نشعر أننا استحوذنا على كل أبعاد حقيقة من الحقائق أو أدركنا كل ميزات شيء من الأشياء، وهذا يعني أن أبواب التطوير والتحوير لآرائنا ورؤانا ستظل مشرعة. والدليل على صحة ما نقول استمرار العالم في إنتاج أشكال جديدة من كل المصنوعات التي تمكّن من إنجازها عبر القرون، ولم يقل أحد: إن هذا الشكل أو هذا الطراز من هذا الشيء هو آخر ما يمكن إبداعه، بل إن الحاصل هو العكس من ذلك تماماً؛ إذ يحث كل خبراء التقنية على رصد المزيد من المال من أجل دفع عجلة التطوير، والذي كثيراً ما يعني تخفيض التكاليف وتحقيق مستوى أعلى من الجودة وتوسيع الوظائف. وكثير من هذا يتوقف على اكتشاف المزيد من الخصائص التي زوّد الله تعالى الأشياء بها، كما يقوم على معرفة المزيد من العلاقات التي تربط بينها. وتقليد ما لدى الآخرين واستعارة بعض ما لديهم من أفكار وأساليب، من الطرق اللاحبة المطروقة في كل ذلك. هذا كله يعني أن نعدّ الكثير من اجتهاداتنا شيئاً مؤقتاً وقابلاً للتغيير في أي وقت. ومثل هذا الاعتقاد هو الذي يحمينا من شرور التصلب الذهني والتكلس الثقافي، ويدفع بنا في اتجاه الانفتاح على ما لدى الآخرين، ومحاولة اقتباس شيء مما لديهم. وهذا في الحقيقة أحد الأسس المهمة في مسألة المثاقفة.
معظم مشكلاتنا، من صنع أيدينا، وبعضها مما صنعه الآخرون لنا، لكن سيظل لدى أولئك الآخرين جزء من الحل لما صنعوه لنا ومما

صنعناه لأنفسنا، وإنكار هذه الحقيقة، أو التقليل من شأنها، يـدفع بنا نحو العنصرية الثقافية، ويدخلنا في نفق الارتباك والركود.
2- كثيراً ما ننسى أننا محدودون وضعفاء، وكثيراً ما نذهل عن كـون أدواتنا الفكرية والمعرفية غـير كاملـة، مما يجعل ما نبلـوره من آراء وننضـــجه من أفكـــار ومواقف موســـوماً بالخلل والقصـــور. إن المصـطلحات والتعريفـات الـتي نسـتخدمها في صـياغاتنا الفكرية والثقافية غير حاسمة، ومعرضة دائماً للإصابة بوباء التحيز والانتقـاء، كما أن النظـام اللغـوي – أي نظـام لغـوي- الـذي نعـوّل عليه في تأسيس الوعي بالذات وبالأشياء هو نظام غير مكتمل، وعلى الـرغم من عدم اكتماله ونقصان كفاءته، فإن سيطرتنا عليه تظل محدودة!
الوضعية الناتجة عن كل هـذه المعطيـات هي أننا سـنظل نبحث عن الحقائق، وسـنظل نُواجه بأسـئلة لا إجابـات عنهـا؛ لأن الحقيقة ذات طبقــات عديــدة، وكلما اخــترقت طبقة وقفت أمامك طبقة جديــدة تتحـداك، لتشـعر بالتـالي أن طريق الاكتشـاف يبـدأ ولا ينتهي، هـذه الحالة الصعبة تجعل نتائج بحوثنا ودراساتنا للظاهرة الواحـدة تتبـاين وتتقاطع في كثير من الأحيان؛ مما يجعلنا قادرين على القـول: لـدينا جــزء من الحقيقة ولــديكم جــزء آخــر، فكيف الســبيل إلى المــزج بينهما؟ أو كيف السبيل إلى جعل ما لدي من خـبرة ومعرفة يشـكل مع ما لـــديك منهما طريقـــاً إلى الـــدنو معـــاً من الحقـــائق الثابتة والمعارف القطعية؟
قد يكون الدخول في حوار على أساس ما أصّله سـلفنا وأئمتنا حين قــالوا:" مــذهبنا صــواب يحتمل الخطــأ، ومــذهب غيرنا خطأ يحتمل الصــواب" هو الــذي يجعل من المثاقفة شـيئاً لا بـديل عنه لتضـييق دوائر الجهل وتوسيع دوائر الاستنارة والفهم.
إن لدى الناس شعوراً غريزياً يدفعهم إلى الاعتقاد بأنهم دائمــاً على صواب، وعلينا أن نتعلم كيف نقاوم هذا الشعور، ونتخلص من قيوده وعقابيلـه، وكلما كـان الشـعور قويـاً وراسـخاً لـدى الواحد منا كـان الشعور بخيبته بنفسه أكـبر وأشـد، لكن إدراك هـذا قد لا يتم إلا بعد فوات الأوان!
3- لا ينبغي للتثاقف أن يكون عبارة عن اقتباس واستعارة فحســب، بل ينبغي أن يــوفر مســاراً لنقد الــذات. علينا أن نقف من بعضــنا الموقف الصحيح القائم على الاحـترام المتبـادل المصحوب بنشـاط محموم من أجل الوعي بالذات والآخـر، وهـذا لا يكـون إلا من خلال بعث حركة نقدية شاملة تسـتهدف توفـير الكثـير من وجهـات النظر

المختلفة في المسـائل الإصـلاحية الكـبرى، ونحن في الحقيقة في حاجة إلى نظــرة جديــدة للنقــد؛ إذ ارتبطت النظــرة القديمة إليه بـالنزاع والشـقاق والتسـفيه والعـدوان.. النظـرة الجديـدة لا تقـوم بوصف النقد وسيلة لإبراز العيوب والمسـاوئ فحسـب، وإنما تقـوم بوصفه أداة للكشف عن مساحات الصواب والجمـال والخـير أيضـاً، وعلى عـده مصـدراً لإضـاءة الواقع من أجل النهـوض بـه. إنك حين تنقـدني تـوفر لي مـادة تسـاعدني على نقد ذاتي من خلال منظـار جديـد، وحين أنقـدك أفعل مثل ذلـك. وهـذا مشـروط بلـزوم الحق والإنصـاف والتحلي بـالأدب الإسـلامي الرفيع في هـذا الشـأن حين يعلمـني شـخص كيف أنقد ذاتي، فإنه يقـدم لي هدية قد لا أعـرف الحصـول عليها من غـير أي طريق آخـر، ومن هنا فـإن مثاقفة النقد تكتسب أهمية فريدة.

من أجل المثقافة (2/2)

د. عبد الكريم بكار 17/9/1426

20/10/2005

كنت قد تحـدثت في المقـال السـابق عن بعض الأفكـار الـتي تتعلق بمسـألة المثاقفة والتبـادل الفكـري والمعـرفي، وفي هـذا المقـال سـأتحدث عن المزيد من النقــاط المكملة بغية المزيد من البلــورة لهذه المسألة المهمة.

4- سيظل الشعور بالحاجة إلى المثاقفة واهياً ما لم نعتقد على نحو راسخ أن مساعينا إلى معرفة الحقائق لا تكون أبداً منتجة على نحو كامــل، بمعــنى أننا لن نحصل على اليقين الكامل في كثــير من القضايا التي نتداول فيها الرأي.

وهذا يعود أساساً إلى أن الله – جل وعلا- جعل في كل ظـاهرة من الظــواهر عنصــراً غيبيــاً اســتأثر بعلمــه، وليس للبشر ســبيل إلى معرفتـه. وهـذا العنصر حين يُكتشف يـؤثر في فهمنا للظـاهرة وفي موقفنا منهــا. حين نتحــدث عن المخــاطر المحدقة وعن الفــرص المتاحة والأحــداث المتوقعــة، فإننا في الحقيقة نتحــدث ونحن في منطقة بين العلم والظن، أو بين الظن والشك أو بين الشك والــوهم. وإن نظــرة فاحصة على تحليلاتنا للأحــداث الكــبرى منذ عشــرين ســنة إلى اليــوم تكشف -على نحو جليّ- عن دقة هــذه الرؤيــة. وإذا كـان واقع الحـال على ما نصـوّره -وهو إن شـاء الله كـذلك- فـإن من المتوقع أن يعـرف شـخص متخصص أو بـاحث في مسـألة من المسـائل كـالفقر أو البطالة أو التلاحم الاجتمـاعي ما لا

يعرفه بـــاحث متخصص في المســـألة نفســـها، وهـــذه المعرفة الشخصية حين تمتزج بخلفية فكرية وثقافية خاصة، فإنها تسـفر من غـير ريب عن رؤية مغـايرة وتحليل مختلـف. وهـذا كله يـدعونا إلى عــدم التصـلب في اجتهاداتنا وإلى عــدم المبالغة في الاعــتزاز بما تبلور لدينا من أفكار واتجاهات، بل إن هذا يتطلب منا أن ننتظر من بعضــنا الأفكــار الــتي تســاعدنا على اكتشــاف جــوانب الخطأ في نظرياتنا.
تعــالوا في هــذه المرحلة لنعمل على بلــورة الأخطــاء في طــرق تفكيرنا، وعلى إعطاء هذه البلورة الأولوية على تصحيح ما نعتقد أنه خاطئ، وأنا أعتقد أن الباحثين في الفكر الإسـلامي والناشـطين في ساحات الصحوة محتاجون اليوم إلى إعلاء شأن تحديد نقــاط الخلل في طروحاتهم؛ فالذي يكتشف أنه وقع خلال مسيرته الإصلاحية في عشـرين خطأ أرفع مقامــاً وأولى بالتقـدير من الـذي لم يكتشف إلا خمسة أو عشــرة أخطــاء؛ وذلك بقطع النظر عمّا قــام به كل واحد منهما من تغيير وتجديد في مسـيرته الفكرية والعمليـة، وإنما نقـول هذا لأن اكتشاف الخطأ في المجـال الفكـري كثـيراً ما يكـون ناتجـاً عن إصــلاح طريقة التفكــير، وعن امتلاك رؤية جديـــدة للتعامل مع المعطيات المختلفة. إن الضعف يحيط بنا إحاطة الثوب بالبدن، وإن معلوماتنا محدودة، لكن جهلنا غير محـدود، حـتى إنه من القـول: إن العلم الذي لدى كبار الباحثين والمتخصصين هو علم ظرفي ووقتي، ووثاقته مرتهنة بالوقوف على المزيد من المجهول منه، وأنا أعتقد - على نحو جــــازم- أنه لو قُـــــدّر لنا أن نطلع على كل الحقـــــائق والمعلومات والمعطيات المتعلقة بقضية من القضـايا، فـإن أحكامنا عليها سوف تتغير، وقد تنقلب رأساً على عقب!
من خلال الحـــوار والتفــاهم العقلاني ومن خلال الإحســاس بعـــدم الكمــال، قد نصل إلى تصـحيح أخطائنا أو زيــادة الــوعي بها – على الأقل- وبذلك نقترب معاً على ما بيننا من تباين من معرفة الحقيقة.
5- نحن لا نهتم بــالبحث عن أوجه القصــور في تفكيرنــا، كما أننا لا نهتم كثيراً بالجرم الذي يرتكبه أولئك الذين يتسترون على الأخطاء، ولا أدري لماذا يحـدث هـذا. ربما كـان اعتقادنا بسـلامة نياتنا وحسن مقاصـدنا يـدفعنا إلى الظن بأننا مجتهـدون، وما دمنا مجتهـدين فإننا مأجورون على اجتهادنا، ومن ثم فإننا لســنا في حاجة إلى المراجعة والبحث عن الأخطاء، ولا شك أن هذا خاطئ؛ إذ إن الـذين يحملـون نوايا سـيئة ضد مصـلحة الإسـلام أو ضد مصـلحة المسـلمين أو ضد

مصلحة أوطـانهم هم نـادرون جـداً، لكن الـذين يسـيئون إلى كل ما ذكرناه يفوقون الحصر!
إن معظم ما نقع فيه من أخطــــاء ليس ناشـــئاً عن حب الأذى أو الإسـاءة وإنما ناشئ من القصور: القصـور في الفهم والقصـور في العلم والقصــور في أدوات البحث وملكــات الاجتهــاد، ولهــذا فــإن استماعنا إلى بعضنا بعضاً باحترام واهتمـام هو الـذي يسـاعدنا على تقليل الضرر الناشئ عن الأخطاء غير المقصودة.
6- نحن في حاجة إلى إرســاء تقاليد ثقافية تسـهّل علينا الاعـتراف بالخطأ، وتسهّل علينا بالتالي الاستفادة من خبرات بعضنا، وأظن أن من أهم ما يحـول دون إرسـاء تلك التقاليد ذلك التسـابق المحمـوم نحو اســتعراض ما نعــرف، وما نتقن، الكل يريد أن يثبت أنه يملك من الرؤية والفهم والمعرفة ما ليس لــدى غــيره، ومن كــان هــذا شأنه، فإنه يجد صـعوبة بالغة في الاسـتفادة من غـيره أو الاعـتراف بأخطائه، نحن في حاجة إلى أن نتعـوّد التحـدّث عما لا نعـرف، وعن المشكلات غير المحلولة، ووجهـات نظرنا القاصـرة وغـير الناضـجة، لنتحـــــدث عن هشاشة معرفتنا ببعض المســــائل، وعن عجزنا عن تقليب النظر في بعض القضــايا، وســنجد أننا بهــذا الأســلوب من احترام المنهج واحترام عقول النـاس نكـون قد وضـعنا أنفسـنا على بداية طريق المثاقفة وتلقيح الفكــــر، وما أجمل قــــول الله - جل وعلا-:(قُــلْ لا أَقُــولُ لَكُمْ عِنْــدِي خَــزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ...) [الأنعام: من الآية50] ، وقوله:(...وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْـتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّـوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَـذِيرٌ وَبَشِـيرٌ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ) [الأعـراف: من الآية188]. إنه التأسـيس لتقليد الأعـراف بمحدودية العلم والقدرة، وهذا ما نحتاج إليه في سياق اسـتعراض تشخيصـاتنا وعلاجاتنا للمشكلات العالقة
==================

التفكير الشبابي

د. عبد الكريم بكار 18/8/1426
22/09/2005

يتضح لنا يوماً بعد يوم أن معظم المشكلات التي يعاني منها الناس، لا يعــود إلى ما هو موجــود في الواقــع، ولا إلى ضـعف الإمكانــات والمعطيات الماديـة، وإنما يعـود إلى قصـور في الذهنيـة، وإلى خلل في رؤية الأشياء، وإلى خلل في آلية التفكـير وعتـاد العقـل. ولو أننا تأملنا في طريقة تفكير الشباب لوجـدنا أن لها طابعـاً خاصـاً يميزها

عن طريقة تفكـير الشـيوخ. وبما أن التعميم في كل شـيء يشـكل خطأ في الحكم، فإنه يمكن القول: إن هنـاك من الكهـول والشـيوخ من يفكر بنفس طريقة الشــباب؛ لأنه يملك روح الشــباب وحيويته وتوقّد ذهنيّته. وهناك أيضاً من الشباب من لا يفكر كما يفكر الشاب الــذكيّ، وذلك ليس لأنه يفكر بلــون آخر من منهجية التفكـير، وإنما لأنه لا يفكر أبداً! فما معالم تفكـير الشـباب؟ وما وجه المفارقة بينه وبين تفكير الشيوخ؟

1- تتعاظم الخبرة لـدى الكبـار في السـن، وتنضج التجربة والـرؤى، وتكتمل القناعـات. ولهـذا -ولا شـك- ميزته الكـبرى، بل هو إحـدى الثمار اليانعة للمعاناة الطويلة والأخطاء المتكـررة، لكن لهـذا أيضـاً مشكلاته وعقابيله العديدة، والتي منها كـثرة الحـديث عن الماضـي، والإغراق في تحليله وبيان أزماته وممانعاته. بمعـنى آخر يجد الكبـير في السن نفسه وكأنه صـار مكبلاً مرتبكـاً بأثقـال التجربة الكبـيرة التي خاضها.

إن الخيال ينقل الوعي من بؤرة الخبرة ويجعله على حوافها؛ ليكون متصـلاً بـالمظنون والمجهـول والمتـوهم والمحتمـل. وحين تكـون الخبرة عريضة وعميقة، فـإن مغـادرة الخيـال لحـدودها تصـبح أمـراً شاقاً. وهذا يجعل المرء يبدو وكأنه يدور حول نفسه.

أما الشباب، فـإن لـديهم القليل والقليل جـداً مما يمكن أن يتحـدثوا عنه، ولهـذا ميزاته وسـلبياته. حين يفكر المـرء من غـير خـبرة يتكئ عليها فإنه يكـون مهـدداً بـالتهور وبالبعد عن الحـدود الـتي يرسـمها الواقـع، وخطـورة مثل هـذا التفكـير تتمثل في اتخـاذ قـرارات غـير عملية، والتطلع إلى الحصـول على أشـياء لا يمكن الحصـول عليهـا، مما يجعل الشـــاب يتعـــرض في النهاية إلى موجـــات من اليـــأس والإحباط، لكن التفكير الإبداعي يتطلب من المرء أن يكون مستعداً لرؤية الأشـياء خـارج الأنمـاط المألوفـة، وبعيـداً عن الارتباطـات السببية المعهودة والمعمول بها، ومن هنا فإن معظم المبـدعين هم من الشباب، ومن يكبرهم قليلاً.

إن السذاجة كثيراً ما تكون عبارة عن محـرّض لبـذل أعظم الجهـود وتحمّل أكبر المشاق، وهذا ما نجده لدى الشباب ونجده أيضـاً لـدى الكتـاب، إننا -معشر الكتـاب- نتمتع بسـذاجة كسـذاجة الأطفـال؛ إذ نعتقد أن ما نكتبه يؤثر تأثيراً بالغاً في حركة المجتمـع، ومع أن هـذا قد لا يكون صحيحاً في كثير من الأحيـان، وهو مبـالغ فيه في معظم

الأوقات إلا أنه يشكل الوقود الحيوي للاستمرار في الكتابة بوصفها عملاً عظيم التكاليف وقليل الجدوى.
2- يحلم الشباب بالأحلام العريضة الطويلة، ويمدون أبصارهم نحو الآفاق البعيدة؛ لأن اعتقادهم بطول المدة المتاحة لهم في هذه الحياة، يحملهم على التفكير والاستثمار في قضايا ومشروعات بعيدة الأمد وذات بعد إستراتيجي، وهذه ميزة كبرى على صعيد تطوير الأمم والشعوب؛ وعلى صعيد تأمين مساقات للعمل والعطاء على صعيد الأفراد، أما الشيوخ فإن إحساسهم بدنو الأجل ونفاد الطاقة يجعلهم يفكرون فيما يمكن أن يحدث على المدى القصير، كما يدفعهم في اتجاه التقليل من الحديث عن التغيير والتطوير، مع أن الله تعالى قد ينسأ في الأجل، ويمدّ في الطاقة، مما يمكّن المرء من القيام بالكثير من الأشياء العظيمة. وإنه لدرس بليغ ذلك الذي نستخلصه من قوله عليه الصلاة والسلام:"إذا قامت الساعة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها". إن علينا أن نفكر في المستقبل البعيد، وأن نؤسس الأعمال الجيدة والمطلوبة بقطع النظر عما إذا كنا نحن سنقطف ثمارها، أو كان من يفعل ذلك من الأبناء والأحفاد.
3- يتسم تفكير كثير من كبار السن بالتشاؤم، ويتّشح بالسواد، ولا ندري تماماً لماذا يكون ذلك؟ هل هو بسبب تراجع القوى والشعور بالضعف والشعور بالخوف من الموت وما بعده؟ أو أن ذلك يكون بسبب التربية والبيئة اليائسة والمحبطة حيث بلغ التشبع بمعطياتها أقصى مداه؟
أما الشباب فله شأن مختلف حيث الآمال الغضة والنفوس المتطلعة إلى الأفق البعيد، وحيث الترقب للأشياء السارة والمدهشة، تفكير الشباب تفكير يتسم بسمتين مهمين هما التفاؤل والمرح.
ضعف الخبرة بظروف الحياة وقيودها يساعد الشباب على التفاؤل ويدفعهم دفعاً في انتظار مباهج الحياة ومسراتها. والمرح شيء طبيعي في النفس البشرية حين تسلم من الشعور بوطأة التكاليف وثقل الأعباء، وهذا موجود لدى الشباب؛ إذ تكون مسؤولية إعالتهم على أهلهم، وأعتقد أن في إمكان الشيوخ أن يستفيدوا من الشباب، ويتعلموا منهم هذه الميزة، وذلك بشيء من إدارة الإدراك ومحاولة رؤية الأشياء بطريقة جديدة.

4-الشباب أكثر مواكبة للجديد وأقدر على التلاؤم معه، وهذا يجعلهم يعتقـدون أن هنـاك معطيـات جديـدة في كل مجـال من المجـالات، ووجودها طبيعي ومألوف، والاستجابة لها لا تحتاج إلى تفريغ الــذهن من معطيات قديمة ومتقادمة؛ إذ لا قديم يذكر لـدى الشـباب ولهـذا فإن الشباب يعملون وفق قاعدة (الجديد صحيح حـتى يثبت خطـؤه) أما الشـيوخ فيعملـون وفق مقولة (الجديد يُعامل بـتريّث وحـذر إلى أن يثبت صـوابه). ومع أن أيـاً من المـوقفين لا يكـون مناسـباً في بعض القضـايا إلا أن الانفتـاح على الجديد يظل أقـرب إلى الصـواب في معظم الأحيان.

5- شـبابنا يـرون اليـوم بـأم أعينهم الطفـرات المتتابعة في مجـال التقنية والاتصال والكماليات والمرهفات، وهذا يدعوهم إلى التفكـير وفق المقولة (كم ترك السابق للاحق)، أما كبار السن فإن امتلاءهم من القــديم وعــدم تفتّحهم على الجديــد.. يجعلهم يفكــرون وفق المقولة الذائعة (ليس في الإمكان أبـدع مما كـان) ووفق مقولة (ما ترك الأول للآخر شيئاً)، وهذا يعبر عن التوجّس من الجديد، كما يعبر عن التعلّق بالقديم.

نحن في حاجة إلى العمل وفق معادلة صـعبة، تقـوم على أفضل ما لـدى الشـيوخ من الأنـاة والخـبرة وعمق التجربـة، كما تقـوم على أفضل ما لدى الشباب من توثّب ذهنيّ وتفتح عقليّ وانطلاق روحيّ، ومن يستطيع الجمع بين هاتين الفضيلتين فإنه يستحق بجـدارة لقب (شيخ الشباب).

============

التاريخ والتجديد

د. عبد الكريم بكار 4/8/1426
08/09/2005

من المشـهور بين النـاس أننا نقـرأ التـاريخ من أجل الاسـتفادة من عظاته ودروسه، وحتى نتمكن من مقارنة أحوالنا بأحوال من سبقنا، فنزداد بصيرة وخـبرة بما يجب أن نفعلـه، وبما يجب أن نتركه وهـذا المشهور لا شكّ في صحته، وإن كـان من يسـتفيد من عـبر التـاريخ دائمــاً قلة لكن هنــاك لفهم التــاريخ ووعي معطياته فوائد أخــرى مهمة، في مسائل التربية والإبداع والتجديد واستشـراف المسـتقبل والتعمق في فهم العلوم...

ولعلي أشير إلى شيء من هذا عبر الملحوظات الآتية:

- الأمم العظيمة تستخدم التاريخ أداة للتوجيه وأداة للتربيـة؛ إذ تتخذ من إنجازات الآباء والأجداد ومن سير العظماء محفّزات على السمو والعطاء والاستقامة، وهذا -إذا سلم من المبالغة والتهويل والقـراءة المنحـازة- يُعـدّ شيئاً مفيـداً وجيـداً. المربـون والمعلمـون والـدعاة يختلفـــون اختلافـــاً واســـعاً في توظيف ما يُعد مصـــلحة معرفية وأخلاقيـــة، فمنهم من يســـتخدم تلك الحصـــيلة للبرهنة على فضل الســـلف وانحطـــاط الخلــف! ومنهم من يســـتخدمها من أجل تعليم الناشئة الإذعان للمجتمع والتكيف مع الظـروف الحاضـرة، وقليلـون أولئك الــذين يوظفــون المستخلصـات التاريخية في إيقــاظ الــوعي وتــدعيم الحس النقــدي والحفز على الوصــول إلى شــيء جديــد، وسبب ضآلة هذا النـوع من التربية والتعليم يعـود إلى أننا حين نقـرأ التاريخ لا نتوقع منه أن يساعدنا في فهم واقعنا وتطوير هذا الواقــع، إن كثيراً من شبابنا منغمســون في تلبية الرغبـات الآنية أو غـارقون في هموم تـأمين الحاجـات الضـرورية، وبعض منهم حـائر في أمـره ومســتقبله! ومن مهــام التــاريخ حين يُـدرّس بطريقة صــحيحة أن يساعد الناشئة على الانفصال عن الواقـع، وأن ينقـذهم من الضـياع في معطياته. إن التاريخ يدرس الآن على أنه سلسلة أحداث التاريخ عبر ســرد متماســك، يربط المعاصـرين بأسـلافهم، ويســلط الضـوء على سلسلة التطورات الإيجابية والسلبية الـتي صـنعت الفـرق بين مرحلة ومرحلة، وبين جيل وجيل. وهذا يتطلب أن ندرس مع التاريخ فلســفته وفقهــه، وأن نثـير الأسـئلة حــول أسـباب وقائعه وأحداثــه، ونبحث عن العلل والمقــدمات والجــذور، ونكتشف ســنن الله -جل وعلا- في الاجتمـــاع البشـــري، ونجلو طبيعة النفس البشـــرية في إقبالها وإدبارهــا، إن التــاريخ حين يُـدرس بهــذه الطريقــة، يحسّــن مستوى البصيرة لـدى المتعلمين، ويمكنهم من امتلاك الأدوات الـتي ينقــدون بها الواقع الــذي يعيشــون فيه عوضــاً عن أن ينجرفــوا مع تياراته العاتية من غــير أي قــدرة على التــأبّي والممانعــة، إن نقد الواقع يساعدنا على بلورة ملامح الهوية الـتي تميّزنا عن غيرنـا، كما أنه يفتح الســبيل أمــام تطــوير هــذا الواقع وإخراجه من ســياق التداعيات والتحوّلات العمياء التي تصنعها العولمة بإمكاناتها الهائلة.

- إن الهم الذي يسيطر على المدارس والجامعـات اليـوم هو إعـداد خرّيجيها لسـوق العمـل، أي مسـاعدتهم على أن يكرّسـوا عقـولهم وطاقـاتهم، وأن يكيّفـوا اتجاهـاتهم وميـولهم مع ما يسـاعدهم على كسب لقمة العيش، أو بعبـارة أخـرى تعـدّهم لأن يكونـوا مسـماراً

صالحاً في الآلة الكبرى التي يـديرها رجـال المـال والأعمـال، وهـذا الاتجاه في التعليم مطلوب وإيجابي، لكن ينبغي أن نكون على وعي بالتــأثيرات الجانبية الســيئة لهــذا التوجيه في التعليم وفي إعــداد الناشـئة للحيـاة. إننا حين نعـدّ الأجيـال للتكيف مع سـوق العمل عن طريق تلقينهم معلومات تجعل منهم أشخاصـاً تقنـيين تنفيـذيين كما يجري الآن، فإننا نجعل منهم أشخاصـاً عـاجزين عن المسـاهمة في إيقاف التدهور الذي تتعـرض له مجتمعـاتهم. إن التطـور الاجتمـاعي يتم بطريقة غير واعيـة، ومن مهـام المثقفين على اختلاف درجـاتهم أن يساعدوا الأمة على تجاوز الأزمات الكبرى الـتي تتعـرض لها من خلال تراكم الأخطاء والخطايا الصغيرة والكبيرة للأجيـال المتعاقبـة، ولا يسـتطيع المثقفـون والمتعلمـون عامة القيـام بهـذا الـدور إلا إذا تلقّـوْا العلم على أنه تحرير وعتق من الاسـتكانة للقـوى الغاشـمة، ومن التقليد الأعمى للآبـاء والأجـداد، وإلا إذا تلقّـوْه على أنه وسـيلة للتكيف مع الواقع ووسيلة لترشيده وتحسينه أيضاً، ومما يساعد في بلــوغ هــذا العمل على إضــفاء الطــابع الأخلاقي والإنســاني على المعرفة والتقنية، فـالعلم للعمل ولخدمة النـاس ونصـحهم وتصـحيح أوضاعهم. يجب أن نعلم الناشئة الدور التاريخي الـذي قـام به العلم في بناء الأمة وتشييد الحضارة الإسلامية، بالإضـافة إلى توضـيح دور العلم في تكوين الرجال العظام على امتداد التاريخ الإسلامي. يجب أن يطلع الناشـئة على تـاريخ الحركـات الإصـلاحية الكـبرى وعلى العوامل والأسـباب الـتي تسـاعد على نشـوء الأفكـار العظيمة ذات الطبيعة الاختراقيــة، إذا ما كنا نريد للتــاريخ وللعلم أن يســاهما في تجديد الأمة ودفعها نحو الأمام.

- في بنائنا المعــرفي ثغـرات واضـحة، لا تخطئها عين الناقــد، وتلك الثغــرات كثــيرة، ولعل من أهمها إهمــال تــاريخ العلــوم، وإهمــال اكتشاف مقاصد التشريع بالإضافة إلى التقصير الظاهر في التعـرف على سنن الله تعالى في الخلق، والتقصير في معرفة طبائع الأشياء ولا سيما الطبيعة البشرية، إن العلوم الإنسانية والعلوم البحتة كذلك تُقدّم للناشئة مبتورة من بعدها التـاريخي؛ فتبـدو وكأنها تكـونت منذ البداية على الصورة التي عليها الآن حيث لا يعرف الدارسون تـاريخ نشوئها ولا الأطوار التي مرت بها، كما لا يعرفون شــيئاً ذا قيمة عن العلماء الكبار الذين تركوا بصماتهم عليهـا، ولهـذا فإنك لا تشـعر أن ما نقدمه في المـدارس والجامعـات يبـني عقـولاً منهجيـة، أو يبـني شخصيات تتمتع بالاستقلال الفكـري والمعـرفي، وما ذلك إلا بسـبب

شعورهم بضآلة ما يتلقونه وغموضه. إننا في الحقيقة لا نسـتطيع أن نفهم أي علم على نحو عميق إلا إذا فهمناً تاريخه وخارطة تكوينه وتحوّلاتـه، ومن المؤسف أننا لا نبـذل جهـداً يـذكر في شـرح كيفية تحـدّر الجديد من القـديم، وليس لـدينا أي جامعة أو كلية أو معهد يقدم شيئاً متميزاً في تاريخ أي علم من العلوم!
إن التجديد المعـرفي والاجتمـاعي سـيكون صـعباً من غـير الاطلاع على الأطوار السابقة لعلومنا وأوضـاعنا، إننا من خلال قـراءة تـاريخ العلوم نتعرف على بواعث الاجتهاد وبيئاته والعقبـات الـتي تواجهـه، كما أننا ننمي لـديـنا حاسة المقارنـة، ونكتسب المزيد من المرونة الذهنيـة، والمزيد من القـدرة على رؤية الأشـياء من زوايا مختلفـة، وقد صـدق من قـال:"إذا أردت أن تعـرف المسـتقبل فـانظر إلى الماضي"؛ إذ تمكننا معرفة الماضي من اكتشاف السنن التي تجسد العلاقة بين ما فـات وبين ما هو آت، ومن خلال هـذا وذاك نكتشف آفاقاً جديدة للتطوير، ونفتح حقولاً جديدة للممارسة، وقد آن الأوان للعمل على اسـتدراك بعض ما فـات، والعمل على توظيف التـاريخ في تغيير نوعية الحياة لمئات الملايين من المسلمين.

============

نوعيّة الحياة

د. عبد الكريم بكار 20/7/1426
25/08/2005

وصفوا القـرن التاسع عشر بأنه كـان قـرن (التفـاؤل) بسـبب كـثرة الفتوحات العلمية التي حـدثت فيـه. ووصـفوا القـرن العشـرين بأنه كان قرن (التشاؤم) بسبب اشتماله على حربين عالميتين وأكثر من مئة حرب إقليمية ومحلية. أما القرن الحادي والعشـرون -والـذي ما زلنا في بدايتـه- فلا نـدري الاسم الـذي سـيكون لائقًا به في نهاية المطـاف، لكن بعض أصـحاب الـرؤى الإسـتراتيجية يـرون من الآن المسـارعة إلى تسـميته بقـرن (التعقيـد). وأعتقد أنهم محقـون في هـذه التسـمية. والسـبب في وجاهة هـذا الاسم هو أن أبـرز ملامح التطورات المتسـارعة الـتي نشـاهدها على كل صـعيد هو (التنـوّع): تنوّع في الطّرز وتنوّع في العناصر المكونة للمصنوعات، وتنـوّع في الفهم وفي التفسـير للنصـوص والأحـداث، وتنـوّع في الأمـراض والمشـكلات والأزمـات، يصـحبه تنـوّع في الحلـول والأدوية والعلاجات... وإذا تساءلنا عن أكثر الأشياء ملازمة للتنوع فسنجد أنه (التعقيد). وإذا تساءلنا مرة ثانية: ما الذي يـترتب على التعقيد أو ما

الذي يلازمه؟ لوجدنا العديد من الأشياء التي يمكن أن نتحدث عنهـا؛ لكن لعل ما يهمنا منها ثلاثة، هي:

1- ارتباك الوعي؛ إذ إن الـوعي الأكـثر قـدرة على اسـتيعاب الأمـور المعقدة هو الـوعي الـذي تشـكل ونما في بيئة صـناعية. أما الـوعي الـذي تشـكل في بيئة رعوية أو زراعيـة، فإنه يجد صـعوبة بالغة في فك رموز التركيبـات الشـديدة التعقيـد. وهـذا هو حـال الـوعي لـدى معظم المسـلمين؛ إذ إنه ليس هنـاك أي دولة إسـلامية يمكن أن توصف بأنها (دولة صناعية) بمعنى الكلمة!

2- صعوبة العجز عن إدارة الأشياء المعقـدة والتحكم التـام بهـا. خذ مثـالاً على ذلك السـيطرة على التـدفق الثقـافي الأجنـبي. وخذ السـيطرة على موضـوع (الاستنسـاخ)، هـذا العمل البـالغ الخطـورة والذي يمكن أن يتم في شقة مستأجرة! وخذ السيطرة على تلـوث البيئة وارتفـاع حـرارة الأرض. إن كل هـذه الأشـياء ومئـات الأشـياء على شاكلتها باتت خارج السيطرة، وهذا شيء مقلق ومخيف.

3- المرونة؛ إذ إن من شأن كثرة العناصر الـتي أدّت إلى التعقيد أن تتيح قدرًا كبيرًا من المرونة في التعامل مع الأشياء على صعيد إيجاد تكوينات جديدة، وعلى صـعيد إيجـاد حلـول للمشـكلات القائمـة. إن بعض العطـور اليـوم مكـوّن مما يزيد على سـتين عنصـرًا كيميائيًـا، وهـذا التعقيد والتنـوّع يـتيح الحصـول على مئـات الـروائح من خلال التغيـير في كميـات العناصر المكوّنـة. ولهـذا فـالتنوع يـأتي بالتعقيد ويأتي بالمرونة في آن واحد، وهذه معادلة غير مألوفة.

الـــذي نخلص إليه من وراء هـــذه المقدمة هو أن العيش في عصر سِـمته (التعقيـد) يتطلب منا أن نطـوّر منهجيـات معقــدة إذا أردنا القيـام بمواجهة ناجحة للمشـكلات الـتي أخـذت تغـير ملامح حيـاة الإنسان المسلم، وتسـبب له الكثـير من الألم والأذى. إن ما نواجهه من مشـكلات لم يحـدث بمحض الصـدفة، ولا بوصـفه ناتجًا طبيعيًا لتفاعلات بريئة هي جزء من ثمن التحضر... إن هنـاك جهـات كثـيرة تسـعى إلى تحقيق مصـالح خاصـة، وطبيعة تلك المصـالح تقتضي إدخال تغييرات سيئة على الحياة الشخصية لأعداد كبيرة من البشر. وتلك الجهـات تسـتثمر أمـوالاً وخـبرات عظيمة وهائلة في سـبيل الوصول إلى أهدافها، ومن ثمّ فإن ردود الفعل العشـوائية والخجولة الـتي تصـدر من هنا وهنـاك، سـتكون قليلة الجـدوى. إن التخـريب الواعي والمنظم يجب أن يُقابل بإصـلاح على شـاكلته، وإلا كنا كمن يحاول علاج السرطان بــ (الإسـبرين) أو إسـقاط طـائرة بمسـدس.

نحن في حاجة إلى قيام مشروع وطني في كل قطر إسلامي يكون همه الأكـــبر مراقبة (نوعية الحيـــاة) ورصد التطـــورات الإيجابية والسـلبية الـتي تطـرأ على سـلوكات النـاس وعـاداتهم ومـواقفهم المختلفة. هذا المشروع يحتاج حتى يخدم الأغـراض الـتي أنشئ من أجلها إلى تشـكيل عـدد كبـير من الهيئـات والجمعيـات والأنشـطة المتخصصـة. وسـتكون المهمة محاولة بلـورة معـايير ومواصـفات للحياة الطيبة التي تليق بالمسلم المعاصر على المسـتوى الـروحي والخلقي والاجتمـاعي والصـحي والمعنـوي... ثم العمل على نشر الوعي بها في أوساط الجماهير بشـتى الوسـائل والسـبل المتاحـة. أما المهمة الثانية فهي العمل على تنظيم حملات متتابعة وأنشـــطة مسـتمرة لمقاومة أنـواع الأخلاق والسـلوكات السـيئة الـتي يسـببها العيش في هـذا الزمـان؛ إذ المحـرك الأساسي لسـلوك البشر هو المادة والمتعة واللهو والإرواء المباشر للرغبات، وسيكون على تلك اللجـان أيضًـا متابعة التقصـير في الواجبـات الشـرعية والخلل في التواصل الاجتماعي وما شابه ذلك مما هو مشاهد اليوم.
نحن في حاجة إلى جمعيات تتابع إعراض الشـباب عن الـذهاب إلى صلاة الجماعة في المساجد، والإعراض عن القراءة واقتناء الكتاب، وجمعيـات تتـابع التغـيرات الثقافية والسـلوكية مثـل: الإدمـان على التدخين والخمور والمخدرات والإسراف في الإنفاق وسوء استخدام المـوارد مثـل: المـاء والكهربـاء بالإضـافة إلى العـادات الشخصـية السلبية مثل: السـهر والنـوم المتـأخر والأكل في المطـاعم والبدانة واستخدام المنبهات والمنشطات..... إن هذا ما هو إلا عادة محدودة للأشياء الكثيرة التي تحدّد نوعية الحياة لدى الأمة والـتي تحتـاج إلى الاهتمام.
السؤال المطروح هنا هو: لمن نقوم بتوجيه هذا الكلام؟
الحقيقة أنني أوجه الكلام لكل أولئك الذين يملكون الـوعي والغـيرة على مسـتقبل هـذه الأمـة، وهم بحمد الله كـثر. الأمة تتملك اليـوم ملايين الشـباب التـوّاقين لعمل شـيء إيجـابي يصب في المصـلحة العامـــة، وإن على الكهـــول والشـــيوخ أن يـــوفروا لهم الأطر والمؤسسات والجمعيات الـتي يتمكنـون من خلالها من عمل شـيء جيـــــد. إن رصد الواقع وقراءته عن طريق المسح والإحصـــــاء والاسـتبيان عمل كبـير وحيـوي في هـذا المشـروع، وإن في إمكـان مجموعة مكونة من خمسة شــباب أن تقــوم بعمل مســحي منظم ومنهجي لظـاهرة من الظـواهر تحت إشـراف أسـتاذ متخصـص، ثم

تقوم بنشر نتائج ذلك المسح على الإنـترنت وغـيره من أجل إيقـاظ وعي النــاس ورفعهم للاهتمــام بتلك الظــاهرة والتعامل معها بما يلائم. ولابد من التنســيق مع الجهـــات الإعلامية والتربوية في كل خطوة من خطوات مشروع (نوعيّة الحياة). إن الإصلاح الذي تحتـاج إليه الأمة له ألف رأس وألف ذراع وألف ذيــــل، وإن من المهم أن نمتلك القناعة بأن التقدم الشـامل لا يتم من خلال عمل كبـير يقـوم به فلان أو فلان أو هذه الدولة أو تلــك...، وإنما يتم من خلال ملايين المبادرات الصغيرة التي تصدر عن ملايين الأبطـال الصـغار، وأعتقد أننا نستطيع أن نتعلم من الغرب في هذا الشأن الكثير من الدروس البليغة والمفيدة.

==============

إدارة الثقافة

د. عبد الكريم بكار 28/2/1426
07/04/2005

لو عدنا إلى أدبيّاتنا عبر القـرون الماضـية لوجـدنا أن معظم تنظيرنا للشـؤون الثقافية كـان ينصـبّ عليها بوصـفها علومـاً واختصاصـات معرفيّة منظمة.

وربما سـادت تلك النظـرة بسـبب قلة ما في أيـدينا من المعـارف والمعطيات المتعلقة بالإنسان باعتباره كائناً متعدّد الجوانب ومتعـدّد الاحتياجات.

أما اليـوم فـإن المفهـوم (الأنـثروبولوجي) للثقافة آخذ في الانتشـار والرسـوخ؛ حيث إن هنـاك اعتقـاداً متزايـداً بمحدوديّة تـأثير (العلم المجـرّد) في صـياغة السـلوك الإنسـاني، وفي توجيه حركة الحيـاة اليومية. الثقافة كما بلورها علماء الإنسان هي ذلك النسيج المكــون من العقائد والمفــاهيم والنظم والعــادات والتقاليد وطُــرُز الحيــاة السائدة في بقعة محدّدة من الأرض. إنها طريقة عيش شعب بعينه، أو هي ما يجعل الحياة جـديرة بـالعيش، وكثـير من مكونـات الثقافة يستعصي على التخطيط والتنظيم؛ لأنها تشـكل الخلفيّة (اللاواعيـة) لكل تخطيط وتنظيم. إن تنـوع العناصر المكونة للثقافة يمنحها قـوة هائلة في مواجهة الوافـدات الأجنبيّـة، وما يمكن أن تتعـرض لها من ضـغوطات داخليّـة. إنه حين يتعـرض أحد أنسـاق الثقافة للهجـوم أو الهــون، فإنها تعتمد في اســتمرارها واســتعادة حيويّتها على بــاقي أنساقها، لكن نقطة قوة الثقافة هذه هي أيضـاً نقطة ضـعفها؛ حيث يعرّضها تنوّع مكوّناتها في أحيان كثيرة إلى ما يشـبه الانقسـام على

الذات بسبب التصـادم بين بعض أنسـاقها؛ وهـذا ما يجعلنا في حاجة إلى ما سميناه (إدارة الثقافة).
أودّ هنا أن أدلي بالملاحظتين الآتيتين في هذه القضية:
1- في كل مجتمع نوعان من الثقافة: ثقافة عليـا، وثقافة شـعبيّة أو ثقافة نخبة وثقافة جماهيريّـــة. الثقافة العليا تتكـــون بطريقة واعية وتكـــون أكـــثر دراية ببنيتها العميقـــة، وذلك لأننا نتملكها عن طريق القـــراءة والتأمل والحـــوار الرفيع والمقارنة وطـــرح الأسـئلة.. أما الثقافة الشـعبيّة فإنها ليست كـذلك، إنها تتكـون بطريقة غـير واعية وغـــير مقصـــودة، حيث يتشـــربها أبنـــاء المجتمع ويتشـــبعون بها كما يتنفســـون الهـــواء. ونقطة ضـعفها هـذه هي نقطة قوتهـا؛ حيث إن اختراقها من قبل الثقافات الأجنبية يكون عسيراً بسـبب عشـوائيّتها وكتامتها ورقابة المجتمع المشـــدّدة عليهـا. أما الثقافة العليا والـتي نبدأ بنشرها منذ الصف الأول الابتدائي إلى ما لا نهايـة. هـذه الثقافة هي التي تمثل الأمة أمام الأمم الأخـرى، وهـذا ما يجعلها على درجة حســـنة من المرونة والقـــدرة على التكيف وتمثل الرمـــوز الثقافية الأجنبيـــة، أي أن كثـيراً من الاقتبـاس والتطـوير يـأتي عن طريقهـا. تنظيمها وتمثيلها الخارجي لثقافة الأمة يعرّضها لأمرين مزعجين:
الأول:ســـهولة اختراقهـــا؛ حيث إن طريقة اكتســـابها الواعية تفتح الطريق لغزوها وبالتالي تحويرها وتهجينها.
الثاني:جفول الوعي الشعبي من أصحابها والشعور بـأنهم يتجـاوزون حدودهم إلى درجة يسوغ معها اتهـامهم بخيانة الأمة وبيعها للغربـاء. ومع أن شــــيئاً من هـــــذا ينطبق فعلاً على بعض المثقفين إلا أن المشكلة أن الثقافة الشعبيّة لا تملك المعايير المنهجيّـة، ولا الأسس المنطقيّة التي تمكنها من الحكم الراشد على تصرفات النخبـــة، مما يجعل موقفها شـاعرياً أكـثر من أن يكـون عقلانيـاً. وهي بـدافع من الخوف من الانقطـاع تلجأ في كسب قضـيتها إلى التيـارات النخبويّة الأكثر محافظة وتقليديّة لتقـدم لها العـون في كبح انـدفاع التيـارات المتحرّرة والمتطلعة إلى التحديث. وهذا يجعل من الثقافة الشـعبيّة عاملاً مهماً في زيادة الانقسام بين تيارات الثقافة العليا.
يمكن القـول: إن تطـوير الثقافة الشـعبيّة وتخليصـها من العـادات والسلوكات الخاطئة يقع على عاتق الصفوة أصـحاب الثقافة العليـا، لكن من الصعب أن يحصلوا على الاستجابة لمناشداتهم وطروحاتهم ما داموا موضع شك وريبة من أولئك الذين يحتاجون لخدماتهم.

في العالم الإسلامي قامت الثقافـات الوطنية والمحلية منذ أمد بعيد بإفراغ طاقاتها على الحضّ والكفّ في الثقافة الإسـلاميّة المسـتندة إلى الكتـاب والسـنة، واجتهـادات الفقهـاء، وصـار من غـير الممكن المضي قدماً في تطـوير أيّ شـأن محلي بعيـداً عن مـدلولات هـذه الثقافة ورمزيّاتها وتحديداتها. وهذا يعني أن ثقافة النخبة لا تسـتطيع أن تصبح قوة محرّكة للناس ما لم تتشرب روح الدين، وما لم تلتزم بقطعياته وأطُـره العامـة. إننا في مرحلة حرجة يحتـاج فيها كل من يروم الإصلاح إلى ولاء الناس وحماستهم وتضـحياتهم؛ لأن المفكر لا يملك أكـثر من ناصـية التنظـير، والجمـاهير الـتي سـتتحمل عبء التنفيذ؛ ولهذا فلا بدّ من الاستحواذ على رضاها وإعجابهـا. وسـتكون النخبة في وهم كبير إذا ظنّت أنها تسـتطيع إحـداث تغيـيرات كـبرى من غير مساندة حقيقية من طيف واسع من أبنـاء الأمـة. وقد أثبتت التجارب الكثيرة الإسـلاميّة وغـير الإسـلاميّة أن كل حمل يتم خـارج رحم الأمة هو أشـــبه بالحمل الكـــاذب. وحين يجـــافي أهل الرؤية والخـبرة روح الـدين فـإنهم يسـلمون زمـام الأمة إلى عناصر تملك الكثـــير من الحماسة والانـــدفاع والقليل من البصـــيرة والفهم لمتطلبات المرحلة.

إن طاقة ثقافة الأمة تكمن في المسـتوى الشـعبي منهـا، على حين أن عقلها ورشدها في المستوى الصـفوي. وهـذا التفـاوت هو دائمـاً مصدر للتوتر والنزاع، لكن في الـوقت ذاته يمكن أن يكـون مصـدراً للتطوير نحو الأحسن والأقوم إذا أدرنا العلاقة بينهما بما هو مطلوب من الذكاء والوعي.

2- إن تنوع الأنساق المكونة للثقافة يحيل دائماً على إمكانية حدوث الصدام والـنزاع، كما هو الشـأن في التنـوّع والتعـدّد. ويبـدو أن أشد أنواع التوتر تلك التي تقع بين الثقافة بوصفها (هُوِيّة) وسمات خاصة بالأمـــة، وبين الثقافة بوصـــفها تعبـــيرات عن نَزَعـــات اســـتهلاكية أو تعبيرات عن تحرّكات لتلبية حاجات الجسـد، أو تعبـيرات عن التكيف مع ظــروف ومعطيــات شــديدة القســوة. وكلّما أوغل النــاس في مدارج الحضارة اشتد أُوار الصـراع بين هـذين النسـقين من أنسـاق الثقافة؛ ذلك لأن ثقافة الهُويّة تتسم بالتعالي عن الانشغال بــالواقع، وتـــنزع نحو المطلـــق. على حين أن التحضر يزيد وعي النـــاس نحو مصـــالحهم، ويفتح شـــهيّتهم على الاســـتهلاك، مما يفضي في نهاية المطاف إلى تضخم الثقافة المتعلّقة بتسيير الحيـاة اليومية وتحقيق المنافع الشخصية، وهذا يجعل الناس يشعرون ويظهرون بأنهم أكـثر

دنيويّة، وهو ما يثير حساسـيّة الترمـيزات العميقة للهُويّة في الثقافة الإسلاميّة.
من الواضح اليـــوم أن ثقافة ما بعد الحداثة تشـــجع على انبعـــاث الهُويّـات في كل أنحـاء العـالم من خلال عمل غـير مقصـود، وهو المناداة بالنسـبيّة الثقافيّة والتأكيد على انعـدام الأطر والمرجعيّـات، وجعل الحقيقة شـــيئاً تابعـــاً للثقافـــة. وتكمّل العولمة المهمة حين نعتمد نظام التجارة أداة أساسية في تسليع كثير من مظاهر الحياة، وجعلها أموراً جاهزة للمتاجرة والمساومة. إن هذا الدفق الهائل من الرموز والصور الاستهلاكيّة يساعد -على نحو استثنائي- على انتشار الهُويّــات المقاتلة دفاعــاً عن الوجــود، وقد لا يكــون أمامنا لإدارة الصـراع المحتـدم في عمق الثقافة على هـذا الصـعيد إلا أن نـدعم الأنشطة الروحيّة والأدبيّة والاجتماعيّة ذات النفع العـام، وأن نحـاول إضـــفاء المعـــنى على الأنشـــطة الدنيويّة من خلال الحـــرص على شـرعيتها، وشـرح ما يمكن أن يجعلها موصـولة بالأعمـال الأخرويّـة. وما لم نفعل ذلك فإننا سـنعاني من الانقسـام والتمـزق في أعمـاق ثقافتنا، وسنشعر بالكثير من تشتت الجذور وضياع الأهداف الكبرى.

==========

هدايا الغرباء

د. عبد الكريم بكار 1/1/1426

10/02/2005

الشـــاغل الأول للثقافة الشـــعبيّة بما هي عـــادات وتقاليد ونظم ورمزيّـــات يتمثل في تحقيق أكـــبر قـــدر ممكن من التلاحم الأهليّ والتواصل الأخويّ وهي في سـبيل تحقيق ذلك تجد نفسـها مضـطرّة إلى التغاضي عن كثير من الأخطاء الاجتماعية، والقبـول بـالكثير من الأوضاع والأشـياء السـيئة والضـارة. إنها تجعل من نشـاطها مركـزاً للتسويات، وتبدي براعة نـادرة في إبـداع أنصاف الحلـول وإمسـاك العصا من الوسط.
إن الناس يلوذ بعضـهم ببعض في الـرأي والموقف كما تلـوذ الطـير ببعضها أيام الصقيع.
إن التقليد والحـرص الـدائم على التوافق والتطـابق، يعطي دائمـاً إشارات الرّضا عن الأوضـاع السـائدة؛ لأنه يسـاعد على ذبـول ملكة التميـيز والتفريق بين الأشـياء، ويجعل القـدرة على النقد في أوْهَى حالاتها.

إن الثقافة الشعبية السائدة في أي مجتمع تدفع بالنـاس نحو التوحّد الشكلي بسبب الصندوق الذي تضعهم فيـه. وذلك الصـندوق مملـوء بـالتّحيّزات والأهــواء والــرؤى الجزئيّة المبتســرة، كما أنه مملــوء بالمعــايير والمقــاييس غــير العلمّية وغــير الموضــوعيّة. وفي كل الحـالات يكـون الخـروج من ذلك الصـندوق أو محاولة النظر إلى ما في خارجه -على أقل تقـدير- شـرطاً أساسـياً لامتلاك رؤية أصـيلة ونظرة جديدة للذات وللعالم.
إن الوحي بما هو شيء منفصل عن إنجـازات البشـر، يُخـرج أفـذاذاً من النـاس من صـناديقهم الثقافيّـة، ليقومـوا بعد ذلك هم وأتبـاعهم بكسر الاتّساق والمنطق الشكليّ الذي يشـعر به سـكان الصـندوق؛ لكن ذلك لا يكـون من غـير ثمن، يقـول الله - جل وعلا-:(إِنَّ الـدِّينَ عِنْـدَ اللَّهِ الْإِسْـلامُ وَمَا اخْتَلَـفَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ إِلَّا مِنْ بَعْـدِ مَا جَـاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيـاً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُـرْ بِآيَـاتِ اللَّهِ فَـإِنَّ اللَّهَ سَــرِيعُ الْحِسَابِ) [آل عمران:19].
العلم هو الذي أخرج إبراهيم -عليه السـلام- من التّبعيّة لأبيه ليصـبح هاديـاً له ومرشــداً (يَا أَبَتِ إِنِّي قَـدْ جَـاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِـكَ فَـاتَّبِعْنِي أَهْـدِكَ صِـرَاطاً سَـوِيّاً) [مـريم:43]. والثمن الـذي يدفعه الأنبياء -عليهم السلام- وكل أولئك الذين يسـيرون على منهجهم في الخروج على المألوف وإرساء قواعد جديدة للحياة -إن الثمن الــذي يدفعونه هو القتل والإيذاء والاضطهاد والطّرد من الديار.
والحقيقة أن التفكــير العميق والمنهجي هو الآخر يقـــوم بخلخلة ما يبدو متصلاً ومنسجماً، ويقوم بإيجـاد الفراغـات وفتح الفجـوات فيما يبدو ممتلئاً ومتماسـكاً، إنه يـزرع روح التحـديث في جسد التقليـديّ والمستمر. وبذلك يلتقي نتاج الفكر بثوابت الوحي وحقائق العلم، أو قل: يعمل العقل، ويشتغل على قطعيّات الوحي ومسلمات العلم.
حيث تغادر بلدك بجسدك، فإنك تكـون أمـام فرصة حقيقيّة للتخلص من كل المفــاهيم البالية والضـغوط الاجتماعيّة الخاطئــة، ومن كل الأهواء التي تُشبع بها أولئك الذين ما زالوا يقيمون في ذلك الوطن، وتُتــاح لك فرصة أقل من هــذه الفرصة حين تملك فضــيلة التــأبي وفضـيلة التميـيز بين الصـواب والخطأ والحسن والقـبيح، ولو كنت تعيش بين أهلك وفي مدارج صِباك. إنه الانفصـال العقليّ والـروحيّ الناتج من الامتلاء بالهدي الرّبانيّ: في كلتا الحـالتين سيشـعر المـرء بالغربة، وبشيء من العُزلة والتفـرّد، وسـيواجه ضـغوطاً وأزَمـات لا يجــدها أولئك المقيمــون في أوطــانهم، وأولئك المشــتغلون بلقمة

يومهم، الراضون بالفُتات والفاقدون للتّميز. وقد قـال عليه الصـلاة والسلام: "بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء".
دين واحد بمفــــرده يحتفظ بنقائه واتجاهه وأهدافه بين عشــــرات الأديــان والمــذاهب والتيــارات؛ إنه لشــرف عظيم ومهمة صــعبة. ومسلمون غرباء، يحاولون الاحتفاظ بنقـائهم -أيضـاً- ويعملـون على إصلاح ما تفسده الجماهير العريضـة. هـؤلاء المسـلمون طـوبى لهم ثم طوبى!!
حين تغترب ببدنك أو بعقلك ومشاعرك فإنك تضع نفسك على رأس طــريقين: أن تعيش على الهــامش تجــترّ آلام الغربـــة، وتبكي من الوحـدة، وتبـذل كل جهـدك من أجل الاسـتمرار في الحد الأدنى من العيش تأكل وتشـرب وتتكـاثر وتتنفس، وإلى جـانب ذلك تغـرق في الحديث عن محاسن وطنك الذي فقدته ومساوئ البلد الذي حلّلتــه، أو تغـــرق في ذكر مثـــالب النـــاس الـــذين يخالفونك في اتجاهك وانتمائك ورؤيتك للحيـاة. وتغـرق في الحـديث عن العامة والـدهماء والغوغاء، وما أنعم الله -تعالى- عليك به إذ لم تكن واحداً منهم.
أما الطريق الثـاني: فهو أن تنطلق من نعمة الخـروج من الصـندوق والتحرّر من قيـود الاسـتكانة لما هو سـائدٌ وطـاغٍ. وحينئذ فستشـعر أنك تملك ما لا يملكه غــيرك من ثقــوب النظر والقــدرة على رؤية الأشياء من زوايا مختلفة. وستشعر أن في إمكانك أن تكون صاحب رسـالة، تعيش من أجلهـا، وتعيش بهـا، وبهـذا وحـده يكـون للغربة -بشقّيها- معنى، وتكون لها ميزة.
إن المسـلم الملـتزم والـواعي بشـجون عصـره سـيواجه من الآن فصـــاعداً المزيد من الشـــعور بالغربـــة، وإن عليه أن يعـــدّ نفسه للاسـتفادة من هـذا الشـعور كي يجعل منه وقـوداً روحيـاً في حركة التحرير: تحرير الذات وتحرير الأمة وبناء المستقبل.
أمّة الإســلام -على كــثرة عــددها- غريبة بين الأمم، وأصــالتها في غربتها ودورها المسـتقبلي في تقـديم شـيء للعـالم يكمن في هـذه الغربــة. فكيف يمكن لها أن تقـدّم هـداياها للنــاس، وما طبيعة تلك الهدايا؟
هدايا الغرباء
د. عبد الكريم بكار 15/1/1426
24/02/2005
في ظل الاتصـــال العـــالمي، وفي ظل ســـيطرة العولمة وانتشـــار مفاهيمها أخـــذت مشـــكلات العـــالم شـــرقاً وغربـــاً في التجـــانس

والتشـــابه، أي يمكن القــول: إن حاجة الإنســـان في الغـــرب على المســتوى الــروحي والعقلي والأخلاقي لا تبتعد كثــيراً عن حاجــات مسلم يعيش في الشرق، لكنه ضعيف الالــتزام وغـارق في شـؤونه اليوميــة. وعلى هــذا فإننا يمكن أن نقــول -مع شــيء من التجــاوز والتعميم- : إن ما يمكن أن يقدمه الداعية والمفكر المســلم لإخوانه في ديــار الإســلام يقــترب شــيئاً فشــيئاً مما يمكن أن تقدمه أمة الإسـلام للأمم الأخـرى مع بعض الخصوصـيات والاسـتثناءات. وعلى هذا فإن هـدايا الغـريب المسـلم تتقـارب مع هـدايا الأمة المسـلمة.
شيء مهم أن نعرف ماذا نهدي، لكن حتى نعرف ذلك فـإن علينا أن نعرف شيئين: ما الـذي لا نسـتطيع إهـداءه، وما الـذي يحتاجه أولئك الذين سنقدم إليهم هـدايانا ومن حسن الطـالع أن يكـون -في أغلب الأمر- ما لا نستطيع إهداءه هو ما لا يحتاجه الآخرون.
من الواضح أننا لا نملك بإمكاناتنا وأوضـــاعنا الحالية أن ننشئ دورة حضارية عالمية ذات صبغة إسلامية تعقب الدورة الحضــارية الغربية السـائدة الآن، وتعكس هيمنة القيم والأفكـار والاعتقـادات ومنـاهج العمل والتفكـير الإسـلامية. نحن لا نسـتطيع هـذا الآن لأننا لا نملك الوسائل والقوى المطلوبة لذلك.
أيضــاً نحن لا نســتطيع الآن أن نُحــدث طفــرة علمية وتقنية وبحثية تدفع بما هو متوفر عالمياً نحو الأمام، ونسدي بذلك للإنسانية خدمة تحسِّــن في رفاهيتها واسـتغلالها لخـيرات الأرض؛ لأننا لم نسـتوعب إلى الآن ما هو موجــود ولا نســهم إلا على نحو محــدود جــداً في تطويره.
ونحن اليوم لا نستطيع أن نقـدم نظامـاً تربويـاً أو تعليميـاً أو إداريـاً يتفوق على النظم الموجودة حالياً، لأننا لم نطور نظمنا القديمة، ولا استخدمنا الموجود بكفاءة. لكن في إمكـان الفـرد المسـلم المتمـيز أن يقدم لأمة الإسلام أشـياء مهمة في كل ما ذكرنـاه، إذا عـرف أن (الغربــة) تعــني التفــوق والتقــدم على الصــفوف، وليس الضــعف والعزلة.
العـالم الـذي تبنيه العولمة اليـوم، وتبشر به الرأسـمالية والليبرالية يفتقر إلى رؤية تركيبية توليفيـــــة، يشـــــعر الإنســـــان من خلالها بالاطمئنــان إلى مصــيره بعد المــوت، وتــوفر له في الــوقت نفسه الإطار التوجيهي في حركته اليومية. ونحن الذين نملك هذه الرؤية.
وعـالم اليـوم مشـبع بالوحشة والنفـور واليـأس والاسـتقلال الـذاتي العــدائي والعنجهيــة. وهو يحتــاج حــتى يتخلص من هــذه الوضــعية

البائسة إلى من يقـــدم له قيم الأخـــوة والمباشـــرة والمؤانسة والتواضع والتضـحية والتعـاون. وهـذا ما تؤكـده المنهجية الاجتماعية الإسلامية.
عالم اليوم يسـتثمر أمـوالاً هائلة في السـياحة والترفيه واللهو وكل ما من شأنه خدمة البدن. ولم يخطر في باله أن ينفق أي شيء في خدمة (الـروح) وذلك لأنه أسـلم قيـاده لثقافة لا تعـرف عن الـروح شـيئاً، سـوى أنهم يعـدون (الخمـر) مشـروباً روحيـاً!! والمسـلمون الملتزمون هم الذين يعرفون كيف يكـون غـذاء الـروح، وكيف يُبـنى الإشـراق الـروحي المسـلمون مشـغولون بـأداء حقـوق الله تعـالى والبحث عن مراضيه، ويفهمون حقوق الإنسـان والحيـوان في إطـار فهمهم لحقـوق خـالق الإنسـان والحيـوان وعلى هـدي تعاليمـه. أما حضـارة اليـوم فإنها تتحـدث عن حقــوق المــرأة والطفل والعامل والسـجين، كما تتحـدث عن حقـوق الكلاب والقطط ونظافة البيئـة، لكنها لا تتحــدث أبــداً عن حقــوق الله تعــالى ولا تقيم لها أي وزن. ونحن نملك الرؤية الكاملة لتوجيه الحضارة في هـذا الشـأن. العـالم الذي اتخذ من الصراع ناموساً للبقـاء يملك ويكتسب الكثـير الكثـير من (العلم)، ويفقد مع الأيـام ما تبقى لديه من (حكمـة) عـالم كثـير علماؤه قليل حكماؤه. وما ذلك إلا لأنه لا يعادل غناه بالوسائل سوى فقره في الغايات. وأمة الإسلام وحـدها هي الـتي تعـرف الغاية من وجود البشر على هذه الأرض، كما يجب أن تكون المعرفة.
إن قـــارة (أوروبـــا) أسست الحضـــارة الحديثـــة، وما زال لها موقع متقدم في قيادتها، وهي تقدم الـدليل تلو الـدليل على قصـور البنـاء الذي وضـعت قواعـده، وشـيدت أركانـه. وهل هنـاك دليل على ذلك أقوى من أن يستحي أي زعيم من زعمائها وأي رئيس من رؤسـائها من أن يجري اسم (الله) على لسانه؟!
إن عالم اليوم لا يحتاج إلى التسامح فحسب، لكنه يحتـاج أيضـاً إلى من يدله على طريق الهدايـــة، ويســاعده على أن يقــترب من الله تعالى شبراً أو ذراعاً، وهذا ما نملك القيام به.
هذه الوضعية تحملنا مسـؤولية كـبرى لأننا نملك فعلاً ما العـالم في أمس الحاجة إليه.
لكن يجب أن نكون على وعي بأننا لن نستطيع أن نقدم للعالم على طبق من ذهب شـيئاً نسـتخرجه من الكتب، ونسـطره على الـورق، ثم نذيعه في فضائية أو ننشره على شـبكة (الإنـترنت)، إننا لو فعلنا ذلك فحسب فإننا نكون كمن لم يفعل أي شيء.

إن القيم والأسس والمبادئ والمعاني التي لدينا، مهما كانت عظيمة وسامية فـإن العـالم لن يتقبلها إلا إذا تفاعلنا نحن معها أولاً، وقـدمنا البرهان تلو البرهان على أن المنهج الذي استطاع إنقاذ أمة الإسلام وارتقى فعلاً بهــا، قــادر على أن يفعل ذلك مع الأمم الأخــرى. إن العــالم يحب أن يــرى شــيئاً على الأرض، ولا يأبه كثــيراً للكلام، فلنساعده على أن يرى.
هنا يــأتي دور الغربــاء، وهنا يتجسد جهــادهم العقلي والــروحي والسـلوكي فهل نسـتطيع أن نجعل من (الغربـة) هوية قـادرة على بعث حركة ريادية داخل أمة الإسـلام؛ كي نـرى الأمة وقد أصـبحت القوة العظمى التي تقوم بالدور نفسه على مستوى العالم؟ هـذا ما نرجوه ونطمح إليه.

==============

الكرامة الجريحة

عبد الكريم بكار 20/8/1424
16/10/2003

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسـلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.
نحن أهل كرامة جريحة، وهذا الشعور بذلك يأتينا من مصدرين:
من التاريخ أولاً؛ إذ إننا أمة ظلت صاحبة حضارة مهيمنة مـدة لا تقل عن سبعة قرون، واستمرت إشعاعات عطاءاتها ثلاثة قرون إضافية، ويزيد في إحساســنا بالإهانة أننا في منتصف القــرن الرابع عشر الهجري واجهنا -بوصـفنا "أمة ذات منهج ورسـالة"- تيـارات عديـدة، يرمي جميعها إلى طمس هذا المعـنى، وجعل وعي الأمة ينفتح على معــان وطنية وإقليمية وقومية وعلمانية ....، بوصــفها بــديلاً عن الانفتاح على أخص خصائصنا، وهو العبودية لله - تعـالى - والاحتكـام إلى الشــريعة في الشــؤون العامة والخاصــة، وفي مواجهة هــذا الاستلاب اجتهد المثقفون والغيورون في تلك المرحلة - وكـانوا فيما ذهبــوا إليه على صــواب إلى حد بعيد - في كيفية مواجهة ذلــك، وانتهـوا إلى قـرار بالـذهاب إلى التـاريخ على اعتبـار أنه الـذاكرة الحضارية للأمة والخزان الأساسي لأمجادها وبطولاتهـا. ونـذكر كيف نشـطت في تلك المرحلة الكتب الـتي تتحـدث عن العبقريـات وعن سير الرجال العظماء والنماذج التاريخية الفذة، والمعارك المظفرة، والإنجـازات العلمية البـاهرة، بالإضـافة إلى بلـورة شـيء من حكمة التشريع وكون الإسـلام لا يتنـاقض مع العلم... وأسـدل السـتار على

نحو شبه تام على كل الألوان الرمادية والباهتة التي كانت جزءاً من ألوان ذلك التاريخ، كما تم الإعراض عن الحديث عن الأسـباب الـتي أدت إلى توقف الحضـارة الإسـلامية عن العطـاء؛ لأن الكشف عنها في تلك المرحلة كـان سـيؤدي إلى الإحبـاط، ويجعل النـاس شـبه مجردين من أسلحة المقاومة للتيارات التي أشـرت إليهـا. وقد أدت تلك القـراءات المبتسـرة والجزئية دورها بكفـاءة واقتـدار في إنقـاذ الـذات لمسـلمة والثقافة الإسـلامية من هزيمة نكـراء. وهكـذا فقد ترسخ في وعي الأجيال الحاضرة وفي حسَّها مشاعر عميقة بالظلم الذي يلحقه بنا الآخرون اليوم، وبالهوان إذ خسرنا معظم الإنجـازات التي كنا نفاخر بها في الأيام الخالية.

وأعتقد أن شـيئاً من العلاج لهـذا سـيكون في إعـادة قـراءة التـاريخ على نحو متوازن وبمنهجية سببية واستقصائية ذكية ومتقنة.

المصدر الثـاني لإحساسـنا بجـرح كرامتنـا؛ هو الواقع الـذي نعيشـه، فنحن أمة تملك أفضل منهج - على مســـتوى الأصــــول والأسس والمنطلقـات الكـبرى على الأقـل- لإصـلاح العـالم، لكننا نعيش في أوضـــاع سياســـية واجتماعية واقتصـــادية عليلة ومتخلفة عن المنهج الذي نؤمن بـه، وعن متوسط السـائد من كثـير من أوضـاع عصـرنا، ونحتــاج إلى الكثــير من الفكر والعمل والجهد حــتى نتجــاوز هــذه الأوضاع.

المسلم اليوم يشعر أولاً أنه يعيش على هامش الحضـارة، حيث إننا دخلناها من بـــاب الاســـتهلاك والتمتع ليس أكـــثر، وينقضي عصر صـناعي بعد عصر دون أن نلج أيـاً منهـا، ومعظم الـدول الإسـلامية مـازال ما لـديها من إمكانـات صـناعية وتقنية أقل مما كـان متـوفراً لـدى أوروبا في القـرن التاسع عشـر. ويشـعر من وجه آخر أنه غـير قادر على حماية أرضه وحقوقه، وغير قادر على تفادي الصفعة التي يوجهها الآخرون إليه ولا على ردهـا، بل يشـعر أحيانـاً أنه غـير قـادر على الشكوى من الألم الذي يشعر به، أو غـير قـادر على جعل تلك الشكوى مسموعة لتكون ذات معنى!!

وهكذا؛ فالإحساس المتضخم بالأمجاد الغابرة جعل إحساسنا بالإهانة الـتي نتلقاها - وهي أشـكال وألـوان- شـديداً أو متفجـراً، لكنه مبهم وغامض حيث لا تعرف الأكثرية الصامتة من هذه الأمة أي تحديـدات لأسـباب ما نحن فيه على نحو منطقي، فضـلاً عن أن تعـرف سـبل الخلاص منه.

وأود هنا أن أبدي الملحوظتين التاليتين:

1-شـيء أساسي أن نشـعر بالإهانة والدونيـة؛ لأننا إذا فقـدنا هـذا الإحسـاس فـإن ذلك يعـني خللاً بنيويـاً في رؤيتنا لأنفسـنا وللواقع وللعالم من حولنا. وبعض المسـلمين حصل على مواقع اجتماعية أو اقتصـادية جيـدة، فهو مغتبط بـالتمتع بثمـرات الحضـارة وعقد الصفقات وحصد المزيد من المنافع. وينظر إلى الـذين يشـكون من سوء الأحوال نظرة استغراب، فالأمور تمضي على أحسن ما يـرام، وأن يكون بينك وبين الغرب سبب أو تواصل ما، فهـذا يعـني انفتـاح أبواب إضافية للنعيم والنجاح. هذه الفئة من المسلمين ضعُف لـديها الإحسـاس الجمـاعي إلى حد التلاشـي، وهي تشـعر في أعماقها بالدونيـة، لكنها تجد دائمـاً ما يوجه وعيها نحو همومها ومكاسـبها الشخصية. وهذه الفئة في ظل موجـات اللهو والمتعة والأنانية الـتي تبعث بها العولمة - مرشحة للاتساع - ولا ندري كيف سيكون الحـال بعد عشر سنوات من الآن ؟!

2-من المهم أن نتخذ من كرامتنا الجريحة محفـزاً على المقاومة واكتسـاب المنعة والارتقـاء والفكـاك من أسر التخلف لا أن نجعل منها منهجاً للعمل. وهذه القضية لا تخلون شيء من الدقـة، وتحتـاج إلى شيء من التوضيح.

حين يشتعل إحساسـنا بـالهوان، ونسـتجيب في توجهاتنا واسـتخدام الإمكانـات الـتي لـدينا لتلك الأحاسـيس والمشـاعر على نحو بـدائي ومتسـرع ووفق رؤية جزئية ومبتسـرة -؛ فإننا نكـون آنـذاك غـير مـؤهلين لمـداواة الكرامة المجروحـة، ولا اسـترجاع الحقـوق المسلوبة؛ بل إن الاسـتجابة على هـذا النحو سـتجعل جروحنا تـزداد تقرحاً، وتجعل حقوقنا أكثر تعرضاً للاغتصاب والنهب. ولنا فيما جرى خلال العامين الماضـيين من المضـايقة والتحجيم للـدعوة الإسـلامية والمحاربة للمؤسسـات الخيرية والمطـاردة للـدعاة... عـبرة إن كنا قادرين على الاعتبار!

وأي شيء أسوأ من أن يصـبح ذكر الإسـلام والمسـلمين شـيئاً يثـير مشـاعر الخـوف والاشـمئزاز لـدى كثـيرين من أبنـاء أمريكا وأوروبا وغيرهما؟!

إن أمريكا أحسَّـت بجـرح عميق في كبريائها حين تعرضت رموزها الاقتصادية والعسـكرية للهجـوم، وردت على ذلك الجـرح الغـائر في كرامتها باتخاذه منهجاً للـرد، فقـابلت الصـفعة بصـفعات في أمـاكن عـدة من العـالم، وما زالت مسـتمرة في ذلك إلى هـذه اللحظـة، فماذا جرى؟

إنها تنتقم من بعض خصومها على نحو ساحق، لكنها لن تسـتطيع أن تحـول دون تكـرار ذلك الهجـوم عليها مـرة أخـرى؛ لأنها لم تسـتطع التوقف لقراءة الأسباب الجوهرية التي أدت إلى الهجوم عليهـا. إنها تربح معركة هنا ومعركة هنـاك إلا أنها تخسر جاذبيتها الحضـارية من خلال عـدوانها على النمـوذج الـذي كـانت تقدمه للعـالم، وتخسر مع كل ذلك الانسجام الداخلي مع القيم التي تروج لها.وهذا ما علينا أن نستفيد منه على نحو جيد.

أما إذا اتخذنا من جرح الكرامة وكؤوس الإهانة حافزاً على الخلاص؛ فـإن سـلوكنا آنـذاك سـيكون مختلفـاً. وأتصـور أننا آنـذاك سـنفكر ونتصرف على النحو الآتي:

-إن حالة ارتباك الوعي التي نعـاني منها ليست جديـدة، ولم تتكـون في مرحلة واحدة، وجرحنا الغـائر لم يحـدث بسـبب ما فعله ويفعله بنا الغرب، وإنما بدأ الأمر قبل ذلك بقرون عـدة. وحين انفـرط عقد الدولة العباسـية لم يكن ذلك بسـبب غـرب أو شـرق، وإنما بسـبب الانحراف عن المنهج الرباني الأقـوم الـذي أكرمنا الله بـه، وبسـبب عدم القدرة على التجدد وحل المشكلات المتأسنة .

ولهذا فإن ما نلقاه اليوم من ازدراء لا يعود إلى أحـوال هـذا الجيـل، وإنما بسـبب الوضـعية العامة للأمـة، وهي وضـعية صـنعتها أخطـاء وخطايا القرون.

-كما أن على أمريكا أن تسـأل بصـدق واهتمـام : لمـاذا يكرهها الآخـرون؟ ولمـاذا يكـون هنـاك شـباب في عمر الـورود مسـتعدين للموت من أجل إلحاق الأذى بها؟. فإن علينا أيضـاً أن نسـأل: لمـاذا يجري كل هـذا لنـا؟ ولمـاذا نحن عـاجزون عن الـدفاع عن أنفسـنا؟ ولماذا لا نساهم في توجيه الحضـارة الحاليـة، ولا نـؤثر في مـوازين القوى فيها؟.

إذا نحن تصـرفنا ضد أعـدائنا وضد أولئك الـذين يوقعـون الظلم علينا بعين الأسلوب الذي يستخدمونه معنا، فما المـيزة الـتي تجعلنا أكـثر أهلية لوضع أسس لحضارة جديدة ومختلفة عن الحضارة السائدة؟

إننا في حاجة إلى أن نعمل على المـدى الطويل حـتى نكـون في وضعية لا يفكر معها أحد في إهانتنا والعدوان علينا؛ لأن ذلك سيكون بالنسبة إليه مكلفاً جداً. والأرقى من ذلك أن يحترمنا الآخرون للقيم والمنجزات التي لدينا، فينشغلون بكيفية الاقتباس والتعلم منا، بـدل الانشـغال بإيـذائنا وظلمنـا. والأرقى من هـذا وذاك أن نفكر ونـدعو ونعمل على تحويل أعـدائنا إلى أوليـاء يـدخلون في ديننـا، وينشـرن

مبادئنا وقيمنـا. وهـذا ما قـام به المسـلمون الأوائل حين انتهـوا من مشكلة الآخر الوثني في جنوب شرق آسيا عن طريق نشر الإسـلام وجذب الناس إليه. وإن الغرب على المسـتوى الشـعبي – ينتظر منا هذا الأداء، وهو في أمس الحاجة إليه.

وأنا هنا لا أرمي إلى تمـييع الأمـور، ولا إلى إخمـاد روح المقاومـة؛ لكنني أريد لأعمالنا وجهودنا أن تكون في السـياق المنتج، وأن تعـبر قبل ذلك عن رؤيتنا الكونية للعالم، وليس عن انفعالاتنا ومشاعرنا.

-الصـــراع بيننا وبين أولئك الـــذين يجرحـــون كرامتنا ليس صـــراعاً عسكرياً، ولا يمكن للقوة اليوم أن تحسم أية قضية على نحو نهـائي.

وإن أي نصر عسـكري سـيكون مؤقتـاً ومجوّفـاً إذا لم يرتكز على تفوق حضـاري. وإن شـروط الاحـترام ونوعية الـرد المطلـوب على الإهانة – لا تستمد من أدبيات حقبة تاريخية ماضية، ولا يضعها الناس بحسب أهـوائهم وأمـزجتهم، ولا بحسب معتقـداتهم ومبـادئهم، وإنما يصـوغ ذلك ويحـدده أولئك الـذين يضـعون بصـماتهم على الحضـارة الراهنة، مهما كـانت هـذه الحضـارة ضـالة أو ناقصة أو خاوية وهـذه نقطة جوهرية.

-إن كرامتنا لم تمتهن بســـــبب اســـــتلاب حقوقنا أو نهب ثرواتنا فحسب؛ وإنما هناك أمور أخرى لا تقل أهمية، فـالتخلف الـذي يخيّم على العديد من جوانب حياتنا أوجد ندوباً ناتئة في نفس كل مسـلم، حيث صار هناك ما يشبه الاعتقاد بأننا غـير مـؤهلين لإنتـاج التقنيـات المتقدمة ولا لتصـــميم النظم المعقـــدة. وإن كثـــيراً من العمـــال المســـلمين في الغـــرب لا يجـــدون فرصـــاً لكسب أرزاقهم إلا في الأعمال الوضيعة أو الشاقة أو غير المجزية، والتي يـترفع عنها كثـير من أهـالي تلك البلاد، وإن مسـلم اليـوم يشـعر أن الأمة عالة على الأمم الأخرى في كل شيء حتى طباعة المصاحف وتشـيد المـآذن! وإن النقلة النوعية في التقنية والصـــناعة وحـــدها هي الـــتي تجعل المســـلم يشـــعر بأنه لا يعيش على هـــامش العصـــر، كما أنه ليس محروماً من الذكاء ولا المواهب التي يقر للآخرين بامتلاكها.

-سيظل من المهم دائماً أن نـدرك أن علاقتنا بالأعـداء والمنافسـين والأغيار ستظل فرعاً عن الوضعية العامة التي نؤسسـها في بلادنـا، وإن العلاقـات الدولية أشـبه بسـوق يعـرض النـاس فيه بضـائعهم، ويأخذون منه على مقدار ما في جيوبهم، ولن نستطيع أن ندافع عن حقوقنا ولا أن نرسخ وجودنا على الصـــــعيد العـــــالمي عن طريق

(الفهلوة) والإدعاء والشعارات، فهامش المناورة أمامنا ضيق جداً؛ وإن الناس يحبون أن يروا؛ فلنجعلهم يرون إذا ما كنا نريد لموقعنا العالمي أن يتحَسَّن.

-علينا أن ندرك على وجه جيد نقطة الضعف الأساسية في علاقتنا مع الآخرين؛ لأننا من غير إدراكها سنكون كمن يصرخ في واد، أو ينفخ في رماد. وأظن أن تلك النقطة لا تتجسد في نقص إمكاناتنا وقدراتنا مع أنها محدودة، وإنما في تكبيل إرادتنا؛ لأن أصحاب الإرادة المسلوبة يظلون يشعرون بالعجر والانهزام مهما كانت قوة الأوراق التي بين أيديهم.

إن تحرير الإرادة من الخوف والتبعية والاستخذاء أمام الأجنبي سيظل شرطاً جوهرياً لتحريك إمكاناتنا في الاتجاه الصحيح، وشرطاً جوهرياً لاتخاذ قرارات تاريخية ومصيرية .

والله ولي التوفيق.

==============

تجنب ردات الفعل غير المدروسة

9/1/1428

28/01/2007

هل تربية الشباب تربية صالحة هي أخضاعهم للحكومة دائماً ؟

- هل خسرت الحكومات رهان المصالحة مع شبابها ولماذا ؟
- طوفان الغضب لدى الشباب هل تكفيه مظاهرة تمثيلية ؟

خلفية المبادرة

يرى الدكتور ناصر العمر أن حماس الشباب تجاه المواقف التي تتخذها الحكومات، يتبع لمواقف تلك الحكومات من القضايا المصيرية الداخلية والخارجية، ففي حالة عمل الحكومات العربية والإسلاميَّة على تطبيق الإسلام التطبيق الصحيح، كما أنزله الله تعالى على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وإتباع سنة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، ترى الشباب يخضع لحكوماته، ويتفانى في الإخلاص لها، أما في حالة عدم تطبيق الشريعة الإسلاميَّة في الحكم، ومخالفة الشرع، فإن الشباب يندفعون للوقوف في وجه حكوماتهم. إن المواجهات الحماسية لبعض الشباب ناتجة عن خلل ما، وأرى أن الخلل عائد إما إلى:

- نوعية التطبيق الإسلامي من قبل الحكومات.
- نوعية تربية الشباب.
- نوعية من يُربي الشباب ويقودهم.

• وجود معضلات لدى الحكومات الإسلاميَّة لم يستوعبها الشباب.
ويؤكد فضـيلة الشـيخ الـدكتور عـائض القـرني على ضـرورة تربية الشباب على الاستقلالية في التفكير، وطلب الدليل، وعدم التحـزب والتبعيـة، والرجـوع إلى أهل الـرأي والخـبرة والتجربـة، إذ إن تربية الشباب على التبعية المطلقة للحاكم تقتل شخصيته, وتلغي وجوده؛ كما أن التربية على العــداء والمعارضة تجعل من الشـــاب إنســـاناً ناقمـــاً لا يرضى بـــالحق، ولا يحسن رؤية الجـــانب المشـــرق في المجتمع.
وقد قـال علي -رضي الله عنـه-: (اعـرف الحق تعـرف أهلـه، ولا تعرف الحق بالرجال).
أما الشيخ جودت سعيد فيعقد مقارنة بين حمـاس وإخلاص الشـباب حالياً لإسلامهم في العالم الإسلامي، وبين حماس وإخلاص الخـوارج الـــذين خرجـــوا عن جماعة الخليفة علي بن أبي طـــالب رضي الله عنه.
فعلى الرغم من خـروجهم عليه - رضي الله عنه - فهو لم يكفـرهم، بل قال عنهم: إن هؤلاء ليسـوا منـافقين، لأنهم يـذكرون الله كثـيرا، وهم قد أخطئـــوا في الفهم فقـــط، وليس في الإخلاص للإســـلام. مجملاً ذلك بقوله - رضـــــــوان الله عليه -: " ليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه"
ويأتي الشيخ بأمثلة حية لاندفاع وحماس الشـباب تـدل على إخلاص الشباب وحماسهم، وعدم تأييدهم حكوماتهم في كثـير من المواقف التي تسيء إلى أوطانهم، مثل اندفاعهم في فلســطين المحتلة إلى تفجير أنفسهم وسط الصهاينة، المحتلين لأراضـيهم ، هـادفين بـذلك الشـهادة وطـرد الغاصـبين. ويسـتدرك الشـيخ في تعليقه على ذلك بـالقول بأنه مع ذلك "لا يحق للشـباب، ولا لغـيرهم تفجـير أنفسـهم واســتخدامهم القــوة في تغيــير الحكم في بلادهم، وإجبــارهم على القتال ضد من لم يحن الأوان لقتاله لأسباب مختلفة".
الــدكتور عبد الكــريم بكــار يــرى بــأن فكــرة البطولة والانتقــام من المعتدي تبرز لدى الشباب كلما ضعفت إنجـازات أمتهم، فهم يـرون أن ضرب المعتدي من خلال الأعمال الحماسية والانتقامية السـريعة عبارة عن تعويض سريع عن نقص الإنجـاز، وتخـاذل الحكومـات عن القيام بواجبهــا. ويوضح أن مقاومة المعتـدي ظـاهرة أممية عامَّة، و ليست خاصة بالمســلمين، ولكنها تظهر بطولاتهــا، وبالتـــالي أثرها

وقسوتها عندنا أكثر من غيرنا، لأننا أمة كبيرة والتحامل عليها شديد، وحكوماتها شديدة التقصير.
إن هـذه الـرؤى لا يفهم منها إعـذاراً لمن يقـوم بـترويع الآمـنين ، أو الاعتــداء على الــذميين والمعاهــدين ،وإنما يعــني ضــرورة فهم الإشـــكالية بصــــورة صـــحيحة تمكن من التعامل معها برشـــاد وموضوعية.
المحاور الرئيسية للمبادرة
- الجهد التربوي في العلاقة مع الشباب
- تفعيل الحوار البنّاء مع الاتجاهات الفكرية المختلفة
- إصلاح الأوضاع الداخلية وإشاعة التعددية الفكرية والتعبيرية
ضمن المِحوَر الأول للمبادرة ثمة العديد من الاستراتيجيات منها:
يرى الدكتور ناصر العمر التأكيد على الجهد التالي:
1. تربية الشــباب تربية صــالحة، وعمليّة وضــمن بيئة مكشــوفة واضحة، للتعرف على من يقـودهم، والتحـاور معهم بشـكل مباشـر. هـذا يقتضي التسـامح مع مختلف الأفكـار حـتى لا تنمو في الخفـاء وتأخذ أكبر من أثرها الطبيعي.
2. إيجـاد (ودعم وجـود) القـادة الحكمـاء من العلمـاء، والمصـلحين، ومثقفي المجتمع (من غـير الرسـميين)، الـذين يوضـحون للشـباب حقيقة تطبيق شريعة الله، أي " أن الأمور لا تعـالج إلا بتحكيم شـرع الله ". ويعملـون على التبصـير بنتـائج الأمـور لـدى الشـباب، وعـدم التسرع في الحكم، فالعجلة قد تعطل عملاً إسلامياً ناجحاً.
3. الـتيقن بأننا لا نسـعى إلى نـزع خاصـية العـداوة من أفئـدة بعض القادة الغربيين، وأن عدو المبادئ لا يتحول إلى صـديق، ولكن يجب أن نعمل على تحييده ومهادنته، وإحراجه أمـام المنصـفين من قـادة الفكر والسياسة في الدول الغربية ، والدول والقوى الأخرى .
4. تربية الشـباب على ترشـيد ردود الأفعـال على إسـاءات الغـرب، وإدراك أن المواجهــات العنيفة مع الغــرب ســتعطي الحكومــات الغربيَّة وإعلامها فرصة لتشويه صورة الإسـلام والمسـلمين. كما أن المواقف المتشــددة مع الغــرب ســتعطيه فرصة ســانحة، وذريعة لتحريض الحكومات ضد الشعوب المسـلمة، ومن ثم ممارسة مزيد من الضـغط على الـدول الإسـلاميَّة، لـذا لابد من الانخـراط في " خطط عمل بعيـدة المـدى " لكسب الـرأي العـام الغـربي لصـالح قضايانا.

5. التربية على طـول النفس في العلاقة مع الآخــرين أســاس مهم كــذلك، حيث يجب أن يــتربى عليه العــاملون في الحقل الــدعوى بشــكل عــام، إذ يــرى جــودت ســعيد أنه على الــرغم من أن حكم الحكومات الإسلاميَّة، ليس حكماً إسلامياً صحيحاً، فإن تغيــير الحكم يبــدأ حاليا بالمصــالحة مع الآخــرين (أيا كــان الآخــرون) حــتى يوجد الاحترام, فيحافظ كل فريق على حدوده وحقوقـه. ويؤكد على أن لا نحاول حل جميع الإشكالات بأنفسنا -في ضوء عمرنا القصــير- وإنما نعمل بهــــدوء وبالاتجاهــــات الصــــحيحة، حسب أمر الله بالصــــبر والمصــابرة، ولنــترك المشــكلات العالقة الحساسة للأيــام، فالــذين سيأتون مستقبلا، هم وحدهم سيحلون تلك المشكلات.

وفي ذات السياق يعتبر الدكتور عائض القرني أن التربية مســئوولية مشــتركة بين الأب والداعية والســتاذ في المدرســية ، وكــلٌّ عليه حمت من هـذا بحسب إمكانـه، ولا يُعفى أحد من المســئولية البتة ، حتى الشاب هو مسئول عن نفسه ، كما قال سبحانه:(قُوا أَنفُسَــكُم وَأَهلِيكُم ناراً) ، وكما قال صـلى الله عليه وسـلم "كلكم راعٍ وكلكم مسـئول عن رعيتـه" والحـديث الآخر " مـروا أولادكم بالصـلاة وهم أبناء سبع سنين ...."، ويدخل في ذلك :مسئولية الحاكم ، والــرئيس ، ورجل الإعلام ، وغيرهم).

وضمن المحور الثاني للمبـادرة تقـوم رؤية العديد من البـاحثين، من أمثــال الــدكتور حسن الهويمل والشــيخ ســلمان العــودة ، لتجــنيب الشعوب الإسلاميَّة (خصوصاً فئات الشباب) ردات الفعل الحماســيَّة وغير المدروسة على التالي:

1. إيجاد المشروعية للجهات والهيئات الشرعية في البلاد الإســلاميَّة وتــدعيمها، لتقــوم بــدورها الراشد في تحديد المســؤولية، ولتهيئة فرص القبول لها لدى الشباب المتحمس. هذا يعني ضـرورة انعتـاق المؤسســات الدينية من الارتبــاط المباشر بالتوجهــات الحكومية والقــرار السياسي للدولــة، وتمكين تلك المؤسســات من اتخــاذ قناعاتها بذاتها، دون إملاء أو تدخل مباشر من الإرادة السياسية. هذا الأمر ســيعطي المؤسســات الدينية القابلية الكافية لـدى المجتمـع، ويمكنها من فتح خطـوط حـوار مجدية مع فئـات الشـباب، وبالتـالي التأثير الإيجابيّ فيهم.

2. الاعـتراف بـأن ثمة مشـكلة لا بد من التعامل معها بكل أبعادهـا، وهــذا يســتلزم الاعــتراف، ومن ثم محاولة التعــرف، على أطرافها والتعامل مع تلك الأطراف بأريحية وهدوء.

3. الحوار المتكافئ، والصريح والمباشر والاستماع الإيجابيّ للشباب المتحمس، بصورة معادلة وبكل حرية، لتمكينه من سـماع الخطـاب من الآخرين، وبالتالي تكـوين القناعـات الراسـخة لـديهم، مع توفـير الأمن للطرف الآخر (الشباب المتحمس)، و إبلاغه مأمنه.
4. إتاحة الفرصة الإعلامية للاتجاهـات الفكرية المغالية والمنحرفة ، حيث أن ظهورها سيكشف انحرافها وخطأها لأتباعها في المقـــــام الأول ، وللجمهـور بشـكل عـام . بما يـؤدي إلى تحجيمها ، والقضـاء عليها بإذن الله .
ويعتبر الـدكتور عـائض القـرني الحـوار حق مشـروع للجميع ، حـتى الطفل الصـغي ، فضـلاً عن الراشد ، يبتـدىء بحـديث الجارية الـتي سـألها النـبي صـلى الله عليه وسـلم :"أين الله ؟" وينتهي بحـديث اليهودي الذي قال له النبي في مرض المـوت:"قل لا إله إلا الله " ، والحوار يشعر الإنسان بقيمته ومكانتـه, ولا يلغي عقلـه، ويعفينا من مأساة التقليد الأعمى, وقتل المواهب والقدرات.
والقــرآن حفل بالعديد من المحـاورات، ورسـولنا -صـلى الله عليه وسـلم- أسس الحـوار بمكة في قصـته مع الوليد بن المغـيرة, لما انتهى من سياق كلامـه؛ فقـال صـلى الله عليه وسـلم: انتهيت يا أبا المغيرة ؟ كما في كتب السيرة).
ضـمن المِحـوَر الثـالث والمتعلق بإصـلاح الأوضـاع الداخلية وإشـاعة التعددية الفكرية ،وثمة العديد من الاستراتيجيات، أهمها:
1. توفر القناعة بضرورة الإصلاح الداخلي لأوضاع الـدول الإسـلاميَّة والعربية بشكل خاص هو أسـاس مبـادرة الـدكتور عبد الكـريم بكـار القائمة على الوعي بأسس "التفكير الموضـوعي " لحقيقة الصـراع بين المسلمين والغرب. فهو يرى أن هذا الصراع " صراع حضاري " في مقامه الأول، ويرتبط هـذا الصـراع بأوضـاعنا الداخليـة، " فـإذا تحسن موقف الحكومـات في الـداخل، تحسـنت صـورة الحكومـات في الخارج"، وأصـبح هنـاك نـوع من التكـافؤ في العلاقة مع الغـرب مما سـيقلل بشـكل طـبيعي وهـادئ من الأعمـال الحماسـية، ومن المواجهات غير المدروسة.
2. العمل على إشـاعة التعددية الفكرية إزاء النـوازل، وتفعيل الأداء والعمل في إطار الممكن لمؤسسات العمل الإسلامي، والاجتماعي، والإعلامي، في البلاد الإسـلاميَّة، من أجل خـروج الأفكـار إلى النـور، وبالتالي ترشيدها، والتعامل معها بشكل ناضج.

3. إتاحة الفرصة الكافية للأعمـــال الاحتجاجية وقبـــول الأشـــكال المختلفة للتعبـــــــير، بما فيها تنظيم الاحتجاجـــــــات العلنية مثل المظاهرات والمسيرات، مع الـتريث وانتظـار الـوقت المناسب لأي عمل احتجاجي. إننا إذ ندعو إلى التريث باندفاع الشباب ومطـالبتهم حكوماتهم بالتطبيق الصحيح للشـريعة الإسـلاميَّة، ولكننا في الـوقت نفسه لا ندعو إلى إلغـاء الاحتجـاج، أو تكميم الأفـواه، حـتي لا يبعث ذلك على اليـأس وبالتـالي ظهـور أنـواع من الأعمـال العنيفة وغـير المدروسة لدى الشباب.

4. إن أكـثر الاحتقانـات الموجـودة لـدى الشـعوب العربية نابعة من الشعور بالقهر من جهة، والإحباط من الجهة الأخرى . هـذا الأمـران هما السـمة الغالبة في من يتجه إلى الأعمـال العنيفة ، وهنا أيضـاً الأرض الخصبة التي تنبت فيها أعمال العنف والتطـرف الفكـري في العالم الإسلامي .

وفي ذات السـياق يشـير الـدكتور عـائض القـرني إلى حاجتنا في العالم الإسلامي بحاجة عملية إصلاح شاملة؛ في السياسة والاقتصاد والتعليم والإعلام والفكر والمجتمـــع؛ لأن الجمـــود والتخلف الـــذي ضرب العالم الإسلامي سببه غياب روح الإصـلاح والتجديـد؛ فعقمت الأمة عن إنجاب القدرات ومواكبة الأمم الأخـرى في عمـارة الأرض واستثمار المواهب وتنمية الإبداع.

والإسلام يحترم الرأي الناضج، وكان رسولنا -صلى الله عليه وسلم- يربي الناس على هذا، فكـان يسـمع آراءهم، ويقـول: « أَشِـيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ » وهو المعصوم، وربما تـرك رأيه لـرأي غـيره؛ كما في بدر, في قصة الحباب بن المنذر.

وقد ذم القرآن التفرد بالرأي والاستبداد بـالأمر، وحكى عن فرعـون قولته المشهورة (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى) (غافر: من الآية29)

================

(كيف نوحد الصف بين الدعاة والجماعات الإسلاميَّة ؟)

* دائرة الإسلام أوسع من خلاف .
* هل هناك أزمة ثقة بين الإسلاميين أم أزمة حوار ؟؟
* مـتى تراجع الجماعـات الإسـلامية مناهجها ومواقفها الدعوية ؟؟ قبل الانهيار أم بعده ؟؟

خلفية المبادرة

لعل مما يسـلِّم به الجميع الأثر الملمـوس لما قـامت به الجماعـات والاتجاهـات الفكرية الدعويـة، من جهد كبـير في تكـوين صـحوة

إسلامية قوية خلال القرن الماضي، والخمسين سنة الماضية بشكل خاص. بل وحسب تعبير الدكتور خالد الطراونه فقد شكلت "صـحوة تغييرية شـاملة سـاهمت فيها أطـراف مختلفـة، ومشـارب متنوعـة، وأيديولوجيات متعددة هدفها " التمكين "، وإخراج بلدانها من " ربقة الاستعمار و "التخلف والتبعيـة" و "الاسـتبداد "، إلى أحضـان الحرية والعــدل والازدهــار. مع ذلك فلا يخفى على أحد الواقع الأليم الــذي يعيشه العمل الــدعوي في العــالم الإســلامي حاليــا، نتيجة لتعــدد الجماعات الإسلاميَّة المتناحرة، والآثـار السـيئة الـتي تجلبها للنـاس، والتي ربما تولد نوعا من الإحباط بين صفوف المسلمين، كما يحدث حاليا في باكستان وفي إيـران، وفي الاتجاهـات الإسـلاميَّة والدعويَّة في العراق. ولعله يجلب الأسى فـور تـذكرنا أن المسـلمين في بلاد الكفر على الــــرغم من قلتهم، وضــــعف حيلتهم، تكــــثر عنــــدهم الجماعات الإسلاميَّة المتناحرة، إذ يذكر أحد الدعاة حـال المسـلمين في أيرلندا، حيث يبلغ عدد المسـلمين فيها ما بين (850 -ـ 1000) مسلم فقـط، ومع ذلك يوجد ثلاث جماعـات إسـلامية متنـاحرة، مما يولد إحباطاً لهم، وربما صدا عن الدين لدى غيرهم.

مع ذلك يؤكد الـدكتور عبـدالكريم بكـار أنه يجب الإدراك منذ البداية أن " مناط الخلاف " بين الجماعات الإسـلاميَّة هي الفـروع، وليست الأصول- في أكثر الأحايين -، ونظراً لذلك فإن كل جماعة تشعر أنها على الحق، وبالتالي فهي تشعر أنها من مركز الدائرة، وأنه لا معنى بــــأن يطلب منها أن تتبع غيرها (كما هو شــــأن المــــذاهب الفقهية تماماً)، أو حتى التنسيق معهـا، وهـذا سر إخفـاق معظم المحـاولات التي تبذل لجمع كلمة الإسلاميين.

يــرى الشــيخ محمد العبــده أن توحيد الجماعــات والــدعاة توحيــداً انــدماجياً هو من الصـعوبة بمكـان، إن لم يكن مسـتحيلا. ويجب أن نكون أكـثر واقعية وعمليّـة، إذ أن عـدم قـدرتنا على "جمع الكلمـة" أمر معـروف ومتوقـع، "فكلمة الإنسـان وموقفه وأولوياتـه" هي في الواقع جزء من "شخصـيته"، وانعكـاس مباشر لتفـرده وخصوصـيته، والـتي يسـتحيل أن يتفق عليها البشـر. لـذلك فـإن المبـادرة الحالية تعتمد الواقعية منهجـا، ولـذا لا تطمح إلى جمع الكلمـة، بين الـدعاة والجماعات، وإنما تسـتهدف "جمع الصـف" بين الإسـلاميين. من هنا يؤمن الشيخ سلمان العـودة بضـرورة وإمكانية "توحيد الصـف"، في الــوقت الحــالي، حيث لا يقصد به أن ينســبك الجميع في وحــدة أو مجموعة واحــدة، لأننا نــدعو إلى التعددية الآن، ســواء داخل الصف

الإسـلامي، أو خارجـه. وإنما يمكن اتخـاذ خطـوات عمليّة تقـرب وتساعد على الوحدة والعمل في الساحة بأهداف بعيدة المـدى، مع الإقرار بوجود الخلاف والتعامل معه بأريحية وإيجابيّة. هذا ما يفرضه الواقع الآن، وتمليه الظـروف العمليّة والقناعـات الراسـخة حاليـا. بمعنى أنه عنـدنا إطـار شـرعي عـام، وما سـوى ذلك لا يفـرض أحد على أحد ذوقه الخـاص، أو رؤيته الخاصـة، فالنـاس لم يُتعبـدوا إلا بمحكمـات الكتـاب والسـنة، وقطعيـات الإجمـاع الـتي مضت عليها الأمـة، وما وراء ذلك فيه مجـال واسع وخصب لأن يتفق النـاس وأن يختلفوا، وأن يتعاذروا فيما بينهم.

ثمة مسألة هامـة، إذ يشـير بعض الـدعاة إلى أنه لا يوجد في الأصل "أزمة حوار"، ولا "أزمة مبادئ" بين الـدعاة والجماعـات الإسـلاميَّة، بل أن المشـكلة الرئيسة أن ثمة "أزمة ثقـة" بينهم. من هنا وحيث أن الدعاة صادقون جميعهم، ومخلصون لـدينهم، كما نحسـبهم والله حسيبهم، فإن الأمر كله لا يحتـاج إلا إلى واقعيَّة حقيقيَّة في النظـرة والتصـور، ثم إلى رجـال مخلصـين مهمتهم التقـريب والتوفيق بين مواقف الدعاة والعلمـاء، وجمع الصف على كلمة سـواء. هـذا الأمر ليس مستحيلاً بل سيتحقق عن قناعـة، إذا صـدقت العـزائم والنوايا بإذن الله تعالى.

المحاور الرئيسية للمبادرة

تعتمد هـذه المبـادرة على عـدد من الاسـتراتيجيات ضـمان المحـاور التالية:

* إدراك ونشر المفهوم الحقيقيّ لوحدة الصف الإسلامي
* تعظيم استخدام الآليات الإيجابيّة في التعامل مع الآخرين
* استخدام وسائل وآليات واحدة وتنفيذ مشروعات مشتركة
* مراجعة الغاية الأساسـية من وجـود الجماعـات والاتجاهـات الإسلامية

ضمن المحور الأول ثمة العديد من الاستراتيجيات حسب وجهة نظر العديد من الكتاب والمثقفين، أبرزها ما يلي:

1. إدراك أن المقصود بوحـدة الصف ألا تتحـول الاختلافـات الجزئية بين الجماعـات، إلى ألـوان من الصـراعات الـتي تسـتنزف الجهد الإسلامي. هذه الاستراتيجية يطرحها الشيخ سـلمان العـودة معتقـدا أن المهم هو تكوين نضج وتربية: تتفاهم مع الآخرين، وتقبل عذرهم، وتتفق معهم، وتختلف معهم أيضا، لكن لا تجعل من هذه الاختلافـات مجـال للتخنـدق، والتباعـد، والصـراع. إن المشـكلة في كثـير من

الأحــوال أن يستشــعر كل فريق أنه يجب أن يبــدأ بــالأقربين الــذين يخشى أن يكونــوا منســوبين إليــه، لــذلك لابد أن ينفيهم عنــه. لقد سمعنا من يقـول: "البعيد معـروف أنه بعيـد، المشـكلة في القـريب الــذي يتلبس بــه"، ورأينا بعض الإســلاميين يتحولــون إلى كائنــات مشغوفة بافتعال الصراع مع الأقرب فالأقرب.

2. الدكتور عبد الكريم بكار يؤكد على أن حقيقة وجود الاختلاف في الكلمة بين المسـلمين حقيقة شـرعية وتاريخيـة. لـذا يجب ألا يـدعو ذلك إلى اليأس في "توحيد صفوف المسلمين"، بل يجب الاستمرار في استهداف توحيد الطرح الإصلاحي أو تقريبــه، حـتى وإن اختلفت رؤانا الجزئية، وتنوعت أولوياتنا الدعوية والعمليّة.

3. الإيمــان الجــازم بــأن جُل الخلافــات بين الجماعــات الإســلاميَّة اجتهادية، وهذا قد يقربها إلى القلب وليس إلى العقل فحسب.

4. اعتبار أن الخلاف في أصله ضرب من التنوع، والتخصص وترتيب الأوليات لكل جماعة أو اتجاه. وهذا ما يراه الشـيخ محمد مصـطفى المقــرئ / لنــدن، ويــدعم رؤيــاه بأنك تجد في كل جماعة إســلامية قائمة، العديد من التقسـيمات التخصصـية، وهـذا دليل على اقتناعها بــأن هــذه التقســيمات تحقق التكامل فيما بينهــا، وهــذا – لا ريب – أصل لا غــنى عنه في تعامل الجماعــات مع بعضــها؛ كي تتمكن من أداء رســـــالتها، بغض النظر عن طبيعة منهجها الحـــــركي، وتوجهها الفكري، فالكل في هذا الأصل سواء.

5. الــتزام الشــرع في العلاقــات التعاونية والتكامليــة، مــراعين أن الـدواعي المصـلحية تُسـوِّغ اعتمـاد التقـارب مع المختلفين أصـولياً. فمن باب أولى التجاوب مع الدواعي الشرعية الملزمة بالتقارب مع المختلفين فروعياً.

ضمن المحور الثاني (تعظيم استخدام الآليــات الإيجابيّة في التعامل مع الآخــــرين) يــــرى مجموعة من العلمـــاء والـــدعاة التأكيد على الاستراتيجيات التالية:

1. نشر الصـدق مع الله تعـالى لـدى الأفـراد والجماعـات والعلمـاء وطلاب العلم ، وتجنيد ولاء الناس لله سبحانه وتعالى، وليس لنصرة الجماعة ورفعتها، وسمعتها.

2. التربية الإيجابيّة على البعد عن التعصب، والإصرار على الموقف، مهما كان السبب أو الباعث، ومهما بلغت قوة القناعة لدى الإنسان. فالتعصب مذموم في كل حـال من الأحـوال، حـتى لو كـان لصـواب بيِّن وواضح، فكيف حينما يكون التعصب لخطا، أو لما يحتمل الخطأ.

إن مبعث التعصب لدى الكثيرين يكـون بسـبب تجميد بعض الأشـياء المتحركة، أو تحريك بعض الأشياء الثابتة التي هي في الحالين تقبل الأخذ والـرد، لكنه أخـذها بنـوع من الصـرامة والنظـرة الحـادة من وجهة واحدة.

3. تجنيد المسلمين لله سبحانه وتعالى فقط، والعمل على أولويـات الرأي العام الإسلامي، الذي يجتمع على كلمة سواء.

4. التعامل الحازم مع "مظاهر التفريق "، و"إثارة النعرات"، ورفض أدبيات "التجريح الشخصي".

5. تأسـيس منهج "فقه الائتلاف"، والعمل على تطبيقه في العـالم الإسلامي؛ من أجل إشاعة ثقافة الألفة والتآخي والنصح بين أصحاب المـذاهب المختلفـة، بـدلا من ثقافة البغض والتجهيل والأحكـام المسبقة على الآخرين.

6. العمل على صرف الوقت والجهد من طرف كل جماعة متنـاحرة مع غيرها لخدمة الإسلام الصحيح، بدلاً من التناحر لأهداف شخصـية لا تمت – في أكثر الأحايين – إلى الإسلاميَّة بصلة.

7. الـدكتور عبد الكـريم بكـار يؤكد على اسـتراتيجيات التعامل الإيجابي بين العلماء ورؤوس الجماعات الإسلامية وفق التالي:

• الكف عن النقد الجـارح والغمز واللمز العلـني، والاستعاضة عنه بالمراسلات والنصح في السر.

• إرسـال كل جماعة إشـارات دورية إلى الجماعـات الأخـرى، عن طريق زيارة المسؤولين الكبار فيها، والثنـاء عليها في مجلس عـام، ومواساتها في شدة، والوقوف إلى جانبها في أزمة.

• الحـوار المسـتمر المبـني على حق الآخر في الخلاف والرؤيـة، وذلك لبلورة رؤى ومواقف إصلاحية مشتركة.

• وضع خطوط حمـراء لا يصح تجاوزهـا، وإن حـدث خلاف لا يجـوز التشهير بها أو التجسس عليها، أو منافستها في مجالها.

8. الشـيخ محمد مصـطفى المقـرئ / لنـدن يـدعم اعتمـاد الجـانب الإقنـاعي في تنمية روح الجماعة في التعامـل، ولـذا يؤكد على الاستراتيجيات التالية:

• إدراك الأخطـار المحيطة بالعـالم الإسـلامي، واعتمـاد الجماعـات الإسـلاميَّة صـيغة التعـاون فيما بينها (علاقـات تكاملية لا تصـادمية)، والسـعي إلى نبذ العلاقـات التصـادمية وكف الصـراع – ولا سـيما – ونحن نعيش عصر التكتلات، تلك الـتي لم تجتمع على شـيء قـدر اجتماعها على حرب الإسلام.

• العمل على نبذ الفرقة والمنابـــذات الحزبية بين الجماعـــات الإسلاميَّة – حيث ثبت بالـدليل القـاطع – أنها تُغيب الـوعي الـتربوي بين الجماعـــات الإســـلاميَّة، وتـــؤدي بها إلى ألـــوان من الفتن والصـراعات والسـباب، حـتى وصـلت في بعض الأحيـان إلى شـهر السنان.

أما أهم الاسـتراتيجيات ضـمن المحـور الثـالث (اسـتخدام وسـائل وآليات واحدة وتنفيذ مشروعات مشتركة) من وجهة نظر الكثير من المقصودين بالدراسة فهي:

1. نظر كل جماعة إلى نجـاح الأخـرى على أنه نجـاح لهـا. والإيمـان بـأن السـاحة تتسع للجميـع، وتحتـاج إلى جهـودهم جميعـا، وارتبـاط المسلم مع أي جماعة هو التزام بالدين.

2. بلـــورة أعمـــال تعاونية مشـــتركة في مجـــالات الـــدعوة والتعليم والإغاثة والإصـــلاح عامَّة. وعـــدم الالتفـــات مطلقـــاً إلى الخلفيـــات الفكرية أو الدعوية في تنفيذها أو في تحديد القائمين عليها.

3. الدكتور ناصر العمر يركز على تقريب وتوحيد الوسائل والآليـات؛ لجمع موقف العلمـاء والجماعـات الإسـلاميَّة في العـالم الإسـلامي، ويؤكد أهمية تقديم مشروعات استراتيجية ناجحة، لا تقـدم نظريـات افتراضـــية، ويشـــترط لتلك المشـــروعات أن تطبق عمليّـــا، بحيث تتوافق الأقوال مع الأفعال.

أما المحــــــور الرابع للمبــــــادرة الحالية فيتضــــــمن العديد من الاســــتراتيجيات المتعلقة بمراجعة الغاية الأساســـية من وجـــود الجماعات والاتجاهات الإسلامية، وأهمها حسب ما توصل إليه فريق البحث من رؤى ومشاركات، للعديد من العلمـاء والـدعاة والبـاحثين ما يلي:

1. مراجعة كل جماعة لأدبيتها ومناهجها ومواقفها الدعويـــة، بحيث تقف الجماعـات الإسـلاميَّة مع نفسـها، و تفتش عن مكـامن الخلل فيهـــا، وتبحث عن الأنقى منهجـــاً والأكمل تجربـــة، و تقبل " بفقه المراجعات "، وتجعله قيد التطبيق بشكل صريح ومباشر وعمليّ.

2. الإقتداء بسنة النبي ?، الداعية إلى الابتعـاد عن دعـوى الجاهليـة، وأن يتـداعى المسـلمون فيما بينهم " بالمسـلمين" و "المؤمـنين" و "عبـاد الله "، بحيث يهجـروا الانتسـابات المحدثـة، الـتي لم ينتسب إليها الرســــــول ?، ولا الرعيل الأول بما فيها ما يفهم منه تزكية للمنهج، أو ادعاء شمولية أو أسـبقية معينـة، أو انتسـاب إلى جيل أو

فئة راشدة. إن الله سبحانه وتعالى سمانا المسـلمين " هو سـماكم المسلمين من قبل وفي هذا " وحسبنا ما رضي الله لنا .
3. على الفصائل والجماعات الإسلاميَّة أن تعتبر نفسها روافد تصب في نهر الإسلام العظيم، مراعين قوله تعالى: ? ولا تنازعوا فتفشلوا وتـذهب ريحكم واصـبروا?( )، وقوله سـبحانه أيضـاً: ? ولتكن منكم أمة يـدعون إلى الخـير ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر وأولئك هم المفلحون? ( ).
4. العمل على تقليل أهمية الاعتمـاد على الاتجاهـات الفكريـة، والجماعات والتجمعات والمحاضن الإسلاميَّة الحالية. في هذا الصدد يجب أن لا ننسى ما قـامت به تلك الجماعـات من جهـود عظيمـة، ونجاحات رائعة هيمنت على العمل الإسـلامي فـترة من الـزمن. مع كل هذا ففي هذا الوقت بالـذات، ومن فقه المرحلة أن نسـعى إلى تقليل الاعتمـاد على آليـات وأطر تلك الجماعـات والتجمعـات ، والتيـارات الحركية والفكريـة، بحيث نعتبرها بمثابة بيـوت محمية (Green Houses)، نجحت في تنضـيج الخطـاب الإسـلامي. ومن استكمال نجاحها، أن تتيح الفرصة للأمة بمجموعها للعمل والتقـارب والتطـوير. إننا بـأمس الحاجة أن نعتـبر أن الحركة الإسـلاميَّة هي الأمة، بجسمها الفاعل وفي امتـدادها وتنوعها وإيمانها ووعيهـا، قـال تعالى: ?إن الـذين فرقـوا دينهم لست منهم في شـيء، إنما أمـرهم إلى الله ثم ينـبئهم بما كـانوا يفعلـون?( ). هـذا لا يعـني العمل على إلغاء بعض الجماعات الإسلامية، فالجماعـات الموجـودة ربما تنتظم ملايين الأفـراد، كجماعة التبليغ مثلا، وجماعة الإخـوان، والجماعـات السلفية. لـذلك يـرى الشـيخ سـلمان العـودة أن فكـرة السـعي في إلغاء هذه الجماعات أو تفكيكها، -خصوصـاً أن هـذه الفكـرة تسـعى إليها مجموعـات داخل العـالم الإسـلامي وخارجـه، لأغـراض أخـرى- ليست من الأولويات حاليا، بل ولا يحبذ ذلك. إذ على الـرغم من أننا يجب أن نضـخم دورهـا، فهي واقع ينبغي التعامل معـه، ومحاولة استثمار الجوانب الإيجابيّة فيه، والسعي للتصحيح والتنمية، والتدارك بقدر المستطاع.
5. في هـذا الإطـار يقـول الشـيخ سـلمان العـودة: " إن الخطأ أن نختصر الأمة في جماعة أو حـتى جماعـات الـدعاة. جمهـور المسـلمين، هم ثـروة هائلة للإسـلام، وبالتـالي ينبغي أن يتم إعـادة الاعتبار لهذه الأمة في أنفس كثير من الـدعاة، بحيث لا يتم التعامل معهم على أنهم مسـلمون من الدرجة الثانيـة، لا، فكثـير من هـؤلاء

عندهم إمكانيات واستعدادات كبيرة جدا، تفوق غيرهم من المنتمين إلى تيـارات فكرية أو حركيـة. إن مما ينـدى له الجـبين أن المواجهة تكون أحياناً بين المسلمين وبين الإسلاميين، وهذا خطأ كبير وخطير جداً. لذا ينبغي إعادة أو تجسير العلاقة بين ما نسـميهم بالإسـلاميين وبين المسلمين.

6. العمل على ألا تقـدم الجماعـات نفسـها على أنها هي الإسـلام، وإنما هي رؤية داخل المجتمع الإسـلامي، وبالتـالي ليس من المهم لكل أحد أن ينتمي إلى هــذه الجماعــات مهما كــثرت. إذ رغم ما للجماعــات من جهــود وأتبــاع، فإننا ينبغي أن نــدرك أن العــالم الإسلامي بحاجة إلى كثير من الجهود المؤسسـية، والفكرية الـتي لا تكون مرتبطة أيضاً بتنظيم ولا باجتهاد محدود

=============

قراءة في وقائع مأساة

د. عبد الكريم بكار

ليست قــراءة التــاريخ والوقــوف على حقائقه بدقة بــالأمر الهين. وليس تحديد عوامل سقوط أمة أو حضـارة شـيئاً في متنـاول اليـد؛ فالأمر في الحقيقة أشق بكثير مما نظن. ولا تأتي صعوبة هـذا الأمر من مــدى إمكانية التحقق من حــدوث الوقــائع التاريخية فحســب، ولكن من إمكانية قراءتها قــراءة راشــدة دقيقــة؛ فالنــاس حين يقــــرؤون التـــاريخ لا يقرؤونه على نحو مباشـــر، وإنما من خلال (إشكالية) كوّنوها لأنفسهم، ولـذا فـإن تفسـير الحقـائق يتوقف إلى حد بعيد على المعتقدات والمبـادئ والخلفيـات الثقافية للمفسـرين. وهــذا يعــني أن علينا أن نرضى بموضــوعية ناقصة ونتــائج نســبية الصواب. ومشكلة التاريخ أنه يتأبى على الخضـوع للتجربـة، فنحن لا نستطيع أن نجـزم هل لو أن أهل الأنـدلس لم يغرقـوا في النعيم أو لم ينقسموا على أنفسهم، أو لم يصيروا من الهجـوم إلى الـدفاع... هل كانت أعمار دولهم ستطول أكثر مما كانت عليه؟

وذلك لأن أســباب السـقوط عديــدة، ولا نعــرف على وجه التحديد شكل النتائج إذا تخلَّف واحد منها.

وتــدل شــواهد الماضي والحاضر على أن قــراءة التــاريخ عقيمة بالنســبة إلى الســواد الأعظم من النــاس، حــتى إن بعض الكتــاب المسلمين والغربيين يرون أن أخذ العبرة من أحداث التـاريخ عبـارة عن خرافة كبــيرة. لكن هــذا القــول لا يخلو من المبالغــة. والرؤية الإســلامية في هــذا الشــأن واضــحة فهنــاك فئة قليلة من النــاس

يتعظـون بوقـائع التـاريخ، ويأخـذون منها العـبرة، كما قـال -جل وعلا-:"لقد كـان في قصصـهم عـبرة لأولي الألبـاب". وأولو الألبـاب المعنيون هم أولئك الذين اسـتطاعوا الطفو فـوق أمـواج الانحطـاط والاحتفـاظ بالرؤية المنهجية الصـحيحة في وسط يمـور بـاللاهثين خلف الشهوات والمصالح الضيقة.
إن الخيال الخصب ليغرينا بتعداد الكثير من الأسـباب الـتي أدَّت إلى خروج المسلمين من الأندلس، لكن ذلك لا يتحصل منه كبير فائـدة، كما لا تتحصل فائـدة جيـدة من قاعـدة بلغت اسـتثناءاتها الثلاثين أو الأربعين، ولذا فإن من الأولى الاقتصار على أهم ما يـراه المـرء من أسباب.
إن سـقوط الأنـدلس يشـكل مأسـاة كـبرى، لأن سـقوطها لم يكن سقوط دولـة، وإنما سـقوط حضـارة كـان يمكن لها أن تكـون نقطة انطلاق لتمدين العالم في تلك الحقبـة، كما أن سـقوطها قلع شـعباً مسـلماً من جـذوره وعرَّضه للضـياع الكامـل؛ ومن هنا تـأتي فـرادة النكبة التي حلت بالإسلام والمسلمين في الأندلس.
وقد رأيت هنا الاقتصـار على ذكر خمسة أسـباب جوهرية سـاهمت في حصول ما حصل، أسوقها موجزة في السطور الآتية:
1- إن التقدم العمراني المذهل الذي حـدث في الأنـدلس يـدل على أن المسـلمين هنـاك كـانوا يمتلكـون الكثـير من المعـارف والعلـوم والخبرات المتقدمة بالنسـبة إلى ما كـان سـائداً في محيطهم -على الأقـل- وهـذا ليس موضع جـدال. لكن هل كل تقـدم عمـراني يعد تمدناً وتحضـراً، وهل من اللائق أن نقتصر على الـدلالات المباشـرة للإنجازات الحضارية، أم لا بد من البحث عن دلالات أخرى قد تكـون ذات شأن فيما نحن بصدده؟
إن القـرآن الكـريم يعلمنا أنه ما من أمة من الأمم السـابقة هلكت بسبب قصور عمـراني، وإنما بسـبب الحيـدة عن منهج الله -تعـالى- واستدبار رسالات الأنبيـاء -عليهم السـلام-. وبنـاء الأبنية الفخمة في الأندلس قد تجاوز حدود الخيال بسـبب الأمـوال الهائلة الـتي أنفقت فيها، وكان ذلك مصادماً للبنية العميقة للتدين الحـق، ومخالفـاً لكل الأدبيـات الـتي تهـوِّن من شـأن الـدنيا وتـرغِّب في الآخـرة. ولنا أن نسأل عن أعداد الفقراء الذين تم اقتطـاع تكـاليف أشـكال الرفاهية من قوتهم اليومي، ومن حصتهم من ناتج البلاد الأندلسية وخيراتها؟!
لا ريب أن أعداداً ضخمة من الناس كانوا يشعرون بـالظلم والجـور، وهـذا من عوامل تفكيك المجتمع وذهـاب الـريح، وتعجيل الهزيمـة.

أضف إلى كل هــذا أن الرؤية الإســلامية للمنجــزات العمرانية تلح دائمــاً على الســياق الــذي تمت فيه والمقاصد الــتي دفعت إليهــا. ونستطيع أن نقرر هنا أن كثيراً من الأبنية والمشـروعات العمرانيـة، تمت في سـياق التنـافس في إثبـات الـذات والغلبة على النظـراء وسياق التفاخر والتكـاثر، فهي بالتـالي شـواهد تراجع حضـاري أكـثر منها أمارات نهوض وتقدم؛ فقصر الزهراء -مثلاً- والـذي اشـتغل فيه عشـرة آلاف رجل وثلاثـون ألف دابـة، والـتي كـانت سـواريه -كما زعمــوا- من المرمر والحجر الشــفاف، وكــانت رؤوســها مرصــعة بـــاللؤلؤ واليـــاقوت، هـــذا القصر منســـوب إلى الزهـــراء حظية عبـدالرحمن الناصـر. إنه آية في الإتقـان، والجمـال لكن لا صـلة له بتدين أو رجولة أو إصلاح.

2- المـال الـذي تـدفق على الأنـدلس من خلال غـزوات الفـاتحين الأولين، ومن خيراته الذاتيــة، جعل إمكانية غــرق أعــداد كبــيرة من الناس في النعيم الواسع أمـراً ميسـوراً. وذلك النعيم مـزَّق الوحـدة الشعورية العميقة لأفراد المجتمع، حيث إن فخامة القصور والمباني وكثرتها أتاحت لكثير من أبنـاء النخبة والصـفوة أن يشـكلوا ثقـافتهم الخاصة، وأن يصنعوا عـالمهم الخـاص الـذي يعج بالنسـاء والغلمـان والخمور والمغنين وهناك لا يكون هم إسلام ولا مستقبل ولا أنـدلس ولا أعداء!

وظل الســواد الأعظم من النــاس بين متشــوق إلى الحصــول على مثل ذلك وباحث عن ثغرة للدخول إلى ذلك العــالم، وبين مهمش لا حول له ولا طول. وفي مثل هذه الوضعية يضيع الإحســاس بشــرف الانتماء للوطن وتضيع الحماسة المطلوبة لمناهضة أعدائه، والــدفاع عنه. وتعلمنا تجارب الأمم وشـواهد الأيـام أن كل قضـية يُعـزل عنها الســواد الأعظم من النــاس هي قضــية خاســرة، وأن كل حمل يتم خـارج رحم الأمة هو كالحمل الكـاذب. وآنـذاك يسـهل بيع الشـعوب والمتـاجرة بقضـاياها ومصـيرها من لـدن حفنة من الخونة (والخيانة فنون) الذين لا يجدون أي رادع يحول بينهم وبين ما يشتهون.

وترينا بعض الوثـــائق أن الـــوزيرين أبا القاسم المليح ويوسف بين كماشة كانا عميلين للأعــــداء، ومع ذلك فإنهما كانا يفاوضـــــان عن المسـلمين من قبل أبي عبدالله الصـغير آخر ملـوك الأنـدلس. وقد ذكروا أن أبا القاسم المليح خاطب الملكين الكاثوليكين (إيرناندوري نـافرا) بقولـه: أقسم بالله وبالشـريعة أنـني إذا اسـتطعت أن أحمل غرناطة على كتفي لحملتها إلى أصــحاب الجلالــة؛ وهــذا برغبــتي

وليقض الله عليّ إذا كنت كاذباً كما أتمنى أن ينتهي هذا الأمر (أي تسليم غرناطة للأسبان) على خير. وأرجو أن تكونوا على يقين بأنني خادم شريف ومخلص لأصحاب الجلالة!!

3- مما ذهب بريح الأندلسيين أنهم خربوا بأيديهم الأرضية المشتركة التي كانت تمكنهم من تجاوز الانقسامات العنصرية والقبلية. وإن بقاء شوكة المسلمين في الأندلس كان متوقفاً على اتخاذ الإسلام والالتزام بمبادئه وقيمه قاسماً مشتركاً أعظم بين عناصرهم وقبائلهم المختلفة، وقد كان ذلك في بدايات وجودهم هناك حيث كان القائد البربري أو العربي يقود جيشاً جراراً خليطاً من البربر والعرب، وكانت مظلة الإسلام تتسع للجميع، وتغنيهم بالتالي عن الاحتماء بالتنوعات العرقية. لكن لما ضعف الشعور بالوحدة الإسلامية ثارت النعرات العنصرية والقبلية (كما حدث في المشرق تماماً) إلى حد يثير الاشمئزاز، وقد بلغ الانقسام حداً دفع بعض ملوك وأمراء المسلمين أن يعقدوا مع النصارى أحلافاً ومعاهدات ضد إخوانهم المسلمين، بل بلغ الانقسام إلى درجة إرسال الكتائب لمساعدة الأسبان ضد بعض الإمارات الإسلامية، على نحو ما حدث في سرقسطة في عهد ابن هود وما فعله أبو زيد ملك بلنسية وابن الأحمر في غرناطة... بل إن النزاع بين المسلمين أخذ في بعض الأحيان شكل التصفيات الشاملة، وعلى سبيل المثال فقد ولي محمد بن هشام أمر قرطبة عام 399 م وقد رحَّب به أهل قرطبة، وأقاموا الولائم احتفاء بولايته؛ وقد كان الرجل يبغض البربر بغضاً شديداً، فأمر أن يُنادى في الناس: من أتى برأس بربري فله كذا؛ فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه، ولم يبق تاجر ولا جندي إلا اجتهد في القتل والنهب. وقد نُهبت ديار البربر وهُتكت حريمهم، وسبيت نساؤهم وبيعت في السوق، وبُقرت بطون بعض الحوامل!!

مع هذا السلوك الإجرامي ومع هذه الروح العنصرية لا يبقى أي شيء مقدس، كما لا يمكن للوحدة السياسية إلا أن تكون في مهب الريح، وهذا ما حدث فقد تحللت الدولة الأموية هناك إلى اثنتين وعشرين دولة، يحارب في كثير من الأحيان بعضها بعضًا (هل هذا هو عدد دول جامعة الدول العربية؟!) ويبحث كل منها عن مصالحه الخاصة والنجاة بنفسه.

وهكذا يثبت التاريخ المرة تلو المرة أن العصبيات العنصرية والأنانيات الصارخة كانت تشكل دائماً معول هدم في جسد

الإمبراطورية الإســلامية في المغــرب كما في المشــرق على حد سواء.

4- كان الـوعي الأندلسي مرتبكـاً؛ فهنـاك ما لا يحصى من الشـواهد على أن التقـدم العمـراني والرخـاء في العيش في الأنـدلس كـان يلازمه على نحو شبه مستمر انخفاض في مستوى التدين والالتزام؛ وحتى لا نجـور على القـوم فـإن الأندلسـيين لم يكونـوا اسـتثناء من القاعـدة، فتـاريخ الأديـان في العـالم كله نـاطق –مع الأسـف- بهـذه الحقيقة. أصـيب الأندلسـيون بمـرض (الانهيـار البطيء) حيث كـانت صـورة التـدين لـديهم تبتعد رويـداً رويـداً عن جـوهر التـدين الحـق، وصـارت البيئة العامة أشـبه بحبل غليظ جُمعت خيوطه إلى بعضـها خيطاً وراء خيط إلى أن استحال قطعه، وصار أهل الإصلاح والصلاح والغـيرة يشـعرون باتسـاع الخـرق عليهم. وقد حـاول بعض كبـار علمائهم مثل المنذر بن سعيد وابن حـزم وابن عبد الـبر وأبي الوليد البـاجي قد حـاولوا إيقـاف التـدهور، ورد طبقة الصـفوة إلى سـبيل الرشاد، لكن الأمر كان أكبر منهم.

إن مشكلة المترفين أنهم كلما حصلوا على درجة من درجات الترف شـعروا أنها حق مكتسب لهم، وعـدوا التنـازل عنها نوعـاً من الفقر والعوز، وهكذا كان الأندلسيون عاجزين عن أن يخطوا خطوة واحدة إلى الوراء، مع أن العدو يتحين الفرص للانقضاض عليهم، فـأدركتهم أيام الله.

قد انتشـرت بينهم الـذنوب والمعاصـي، وصـارت المبـادئ السـامية عبـــارة عن شـــعارات فارغة لا توجه الســـلوك، بل تتخذ للـــتزيين والتكميل الشكلي، وقد كان ابن حزم يقسم بأن ملـوك الطوائف لو علموا أن في عبـادة الصـلبان تمشـية لأمـورهم لعبـدوها! وانعـدمت الغيرة الدينية لدى كثير من العامة، فصار إنكار المنكرات من الأمور المنسية، وقد ذكر بعض المؤرخين أن رجلاً نصرانياً وقف في شارع عام في قرطبة أيـام ابن عبـدالجبار، وشـتم النـبي -صـلى الله عليه وسـلم- بألفـاظ نابيــة، فلم يكلمه أحد من المسـلمين بكلمــة! وقد تحركت غيرة أحد المسلمين، فقال مستنهضاً لمن حوله: ألا تنكرون ما تسمعون! أما أنتم مسلمون؟ فقال جماعة منهم: امض لشغلك!

وانتشــرت في العديد من المــدن الأندلسـية أشـياء تخـدش صـفاء العقيدة، فقد كـانت قرطاجة -كما وصف بعض المـؤرخين- مملـوءة بأقواس من الحجـارة المزخرفة بالصـور والتماثيل وأشـكال النـاس وصور الحيوانات، مما يدهش الأبصار.

إن كل شكل من أشكال المعصية موصول على مستوى ما بشكل من أشكال الهزيمة والانكسار، وهذا ما لم يكن واضحاً لدى القوم!
5- إن مصير المسلمين في الأندلس كان مرتبطاً بالخطة التي ينتهجونها في التعامل مع أعدائهم، وفي وضع كوضعهم كان الخيار الصحيح بالنسبة إليهم هو الاستمرار في الجهاد حتى يوجهوا فائض القوة نحو الخارج، وحتى يحافظوا على وحدتهم الداخلية، بالإضافة إلى أن ذلك يمكنهم من فتح خطوط متقدمة في أرض أعدائهم حتى يتمكنوا من الحفاظ على أرضهم (كما فعل اليهود) وقد كان بإمكانهم فعل ذلك؛ وربع الأموال التي أنفقت على أشكال الترف والسرف كان كافياً لتزويد الحركة الجهادية بما تحتاجه من نفقات؛ لكن القوم ارتضوا لأنفسهم الخطة الدفاعية في مواجهة عدو له عمق استراتيجي ضخم هو أوربا كلها. وليت القوم أحسنوا الدفاع إذن لخرجوا بشيء ما، لكنهم كانوا طوائف وشيعاً فلم يستطيعوا الوقوف صفاً واحداً، وقد كان حسم المواقف وتحديد الوجهة هو أهم ما ينقصهم، كما هو شأن كل المخذولين.
إن المسلمين بإعراضهم عن الجهاد وإدامة الهجوم وضعوا أنفسهم في وضعية المدافع المحاصر وقد قالت العرب قديماً: المحاصر لا يأتي بخير. وعلى كل حال فدولهم الكثيرة التي كانت تتطاحن في مساحة محدودة من الأرض -لم تكن مهيأة لأكثر مما فعلت، فقد كان بين معظمها وبين الحكم بما أنزل الله -تعالى- فجوة كبيرة، وهي كما وصفها ابن حزم -رحمه الله- :"نظم مستبدة مستهينة بالدماء مكثرة من أسباب الترف وضروب العمران واستجلاب المنافقين من الكتاب والوزراء والشعراء، وقد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعه، واستحكم ضرره" كلما قرأت في تاريخ الأندلس السلبية تذكرت صراعنا مع اليهود، وأبصرت من أسباب الهزيمة هنا ما أبصرته هناك! ولله الأمر من قبل ومن بعد
==============

شيء شخصي

د. عبد الكريم بكار
ليس هناك من شك في أننا نعيش في ظل حضارة تمارس أكبر عملية تنميط للأذواق والرغبات والأفكار والرؤى والمفاهيم على نحو مستبدٍ وطاغ، من أجل تعبيد الطريق أمام الإنتاج العظيم والتسويق الكبير، ومن أجل إزاحة كل الخصوصيات والتنوعات الدينية والعرقية التي تعوق حركة العلولمة.

في ظل الحضارة الحديثة يتم نشر الشـروط الموضـوعية المطلوبة للحياة الطيبة؛ ومعظم تلك الشروط - إن لم نقل جميعها- لا يتحقق من غـير المـال. وبما أن المعـروض منه دائمًا دون ما هو مطلـوب، فقد اشـتعلت منافسة ضـارية من أجل الحصـول عليـه. والمنافسة الحامية تتصل على نحوٍ ما بشكلٍ من أشكال انحطاط المدنية. وبما أن الحضـارة المعاصـرة رسّـخت في وعي النـاس أن المـال هو كل شيء، فقد صارت كل طرق تحقيق الذات تمرّ عبر امتلاك أكبر قدر ممكن منــه، ومن شــدة تعمق هــذا الفهم صــار كثــير من النــاس مستعدين لعمل أي شيء من أجل المزيد من الاستحواذ عليــه، إلى درجة أن صار الهامش الفاصل بين النجاح على الصعيد المالي وبين اللصوصية ضيقًا لا يكاد يرى!

الحضارة الحديثة تؤكد أيضًـا على الحقـائق بوصـفها الأساسي الـذي يقــوم عليه كل تطــوير وكل مراجعــة، وتهمل مســألة (القيم) وما يمكن أن يكون لها من دور إرشـادي في اسـتخدام الحقـائق وتوجيه السلوك.

وهي مرة ثالثة تؤكد على العلم بوصفه حقـائق تم اختبارهـا، وأثبتت صــلاحيتها في بنـــاء التقـــدم، في الـــوقت الـــذي أهملت فيه دور (الحكمة) بوصفها شيئًا خاصًا وخيارًا شخصيًا؛ ولهـذا فقد صـار لـدينا اليوم عدد كبير من العلماء، وعدد قليل من الحكماء!

وأخيرًا فإن الحضارة الحديثة تـروّج لثقافة الصـورة وثقافة الشـكل، وأخذ يسـتقر في أذهـان النـاس شـيئًا فشـيئًا أن الرجل السـعيد هو دائمًا شاب، والمرأة السـعيدة هي دائمًا جميلـة، ويتم غض الطـرف عن كل مــوروث البشــرية الــذي يؤكد على دور الفضــيلة والإيثــار والتقــوى والقناعة والثبـات على المبـدأ في الحيـاة الهانئة واللياقة الاجتماعية!

من الواضح في ضـوء كل هـذا أن على الـذين يرغبـون في إعـادة الأمــور إلى نصــابها أن يعيــدوا اكتشــاف هــذا المهمل والمهمّش والســكوت عنــه، أي القيم والحكمة والجــوهر وتوجيه الإدراك نحو تلمس موارد غير مادية للأمن والسعادة والطمأنينة والنهوض.

وأود هنا أن أركز على نقطة هي أن في إمكاننا من خلال رؤية مغـايرة لبعض الأشـياء وتفسـير بعض الأحـداث على نحو يسـتجيب للرؤية الإسلامية للحياة -أن نخفف من الطلب على المال والشهرة والنفـوذ؛ بوصـفها أدوات لتحقيق الوجـود المعنـوي، والمـادي وأن نخفف من وطأة منغصات الحياة أيضًا.

وليس في هذا أي قفز على الشروط الموضوعية للحياة السوّية ولا أي تجــاوز للحقــائق الثابتــة، بل إنه على العكس من ذلك يشــكل التصاقاً بالحقائق الأشد عمقًا والأقوى رسوخًا.

إن العالم ليس إلا ما نراه، وإن جـوهر الأحـداث يكمن في تفسـيرنا لها وفي تحديـدنا لعلاقتها بنــا، وإن للحقيقة الواحــدة عشـرين ظلاً، ورسم تلك الظلال من شأننا نحن بني آدم، وكما يتم تلـوين السـائل بلون الإناء الذي نضعه فيه كـذلك يمكن أن تتفاعل مع الأشـياء وفق الظلال التي نرسمها لها والأصداء التي نضعها.

يسـاعد في هـذا أن عالمنا الـداخلي لا يتـأثر بالشـروط الموضـوعية الخارجيــة، ولا بالحقــائق الملموسة فحســب، فالأوهــام والأحلام والذكريات والمخاوف والأمنيات والخيالات تؤثر في ذلك العالم على نحو قد يكـون أشد وأعمق من تـأثير الحقـائق الصـلبة. وحين يقـول إنسان: إنه سعيد، فينبغي أن نصدقه، ويجب عليه هو ألا يتساءل عن أسـباب سـعادته، وليست الـدعوة إلى توجيه الإدراك شـيئًا جديـدًا نبتدعـه، فهنـاك نصـوص وآثـار وأقـوال تؤكد على نجاعة هـذا الأمر ومشـروعيته، وهنـاك ممارسة يومية له من كثـير من النـاس لنتأمل في قوله -سبحانه-: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَـالُ وَهُـوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُــونَ" [البقــرة:216]. وقولــه: "وَعَاشِــرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَـلَ اللَّهُ فِيـهِ خَيْراً كَثِيراً" [النساء: من الآية19]. إنها دعـوة إلى عـدم الحكم على الأمور بناء على عواطفنا على ما يلـوح لنا من ظواهرها أو بـداياتها؛ لأن ذلك ينطـوي على العجلة والسـطحية، فمعرفة مـآلات الأشـياء تحتاج إلى علم مطلق، وهو غير متاح لنـا، ولهـذا فـإن على المسـلم ألا يغالي في حب الأشياء وكرهها؛ لأنه لا يعـرف كيف سـتكون عليه الحال في النهاية. وكان أبو بكر -رضي الله عنه- يقـول: "لا تغبطـوا الأحياء إلا على ما تغبطون عليه الأموات" فما دمنا نحن -وما نملـك- شيئًا عابرًا في هذه الدنيا فإن ما يسـتحق الغبطة فعلاً هو ما يـذهب معنا وليس ما يبقى هنــا، وهو شــيء وحيد لا أشــياء، إنه باختصــار العمل الصالح.

إن المــرء من خلال توجيه إدراكه يســتطيع أن يســتخرج من عمق الأزمة والمصيبة شـيئًا يسـتدعي الحمد والشـعور بالرضـا، كما كـان يفعل عمر بن الخطاب -رضي الله عنـه- حيث عبّر عن ذلك بقولـه:

"ما أصبت بمصيبة إلا تذكرت فيها ثلاثة أمور: أنها لم تكن في ديني، ولم تكن أكبر مما هي عليه، وذكرت مثوبة الله فيها".
إن المـوت الـذي يشـكل هاجسًـا مقلقًا يمكن أن ينظر إليه نظـرة، وينظر إلى العيش في هـذه الحيـاة على أنه عـائق يحـول بيننا وبين الحياة الحقيقية المنتظرة، وقد قال أحد فقهاء النفس والشرع: "إن المسلم إذا أدى ما افترضه الله -تعالى- عليه، وانتهى عما نهـاه عنه لم يكن بينه وبين أن يدخل الجنة إلا أن يموت" بهـذه اللفتة والرؤية المختلفة تصبح الحياة شيئًا معوِّقًا، ويصبح الموت جسرًا إلى مأمول عظيم!
وكتب رجل في الثمـانين إلى رجل في السـتين مهنئًا له ببلـوغ تلك السـن، كتب يقـول: "قد بـدأت تعيش بعد سـتين سـنة من التـأهب، وأنت الآن من الحكمة بحيث يمكنك أن توجه نفســـك، وتســـاعد الآخـرين، ولهـذا فـأنت مقـدّر لك أن تكتشف كما اكتشـفت أنا من قبلك أن أفضل شطر في الحياة هو بين الستين والثمانين. لا تتصور أبـدًا أنك تقـترب من النهايـة، بل من بداية جديـدة، وإن مثل هـذا الموقف سـيغير كليًا استشـرافك للمسـتقبل؛ وإن هـذه الحيـاة وإن كانت تحتـاج إلى أن نتحملها في بعض الأحيـان إلا أنها تقـدم أساسًـا وإلى الأبد الوعد بحياة أسمى وأجمل".
إنه لشيء مدهش أن نمتلك من نفـاذ البصـيرة ما يجعلنا نبصر خـطّ النهاية ونحن عند خط البداية، فنـوفر على أنفسـنا الكثـير من الجهد والعناء، والكثير من صدمات الوعي وظلمات الطرق المسدودة!
المنغصات والمتـاعب ومضـيّ الأمـور على غـير ما نشـتهي لها دائمًا وجه آخر يتجلى في كونها جزءًا من تـوازن الحيـاة، وبفضـلها تتـألّف المسـرّات والملـذات؛ إذ إن من الواضح أن لا سـبيل إلى الشـعور بكمال الهناء إن لم يسبقه شـعور بشـيء من العـوز والشـقاء؛ فألذ الطعام ما كان بعد جوع، وأهنأ الشراب ما كان بعد عطش...
وحين يأتي ما يقطع بهجة من مباهج النفس، فإن تلك البهجة تتحول إلى ذكرى، وبـذلك التحـول تصـبح مصـدرًا لاسـتمتاع نقي نسـتدعيه متى ما شئنا!
السـأم الـذي يشـكل ألد أعـداء الحيـاة الهانئـة، له هو الآخر وجهه المشـرق، حيث إنه يشـكل أفضل عـازل لنفوسـنا عن التفاعل مع الأشياء السيئة التي تضر بصحتنا النفسية والعقلية. والكسل الذي لا يلقى أي مـديح من أي أحد كثـيرًا ما يمهد لانطلاقة روحية وحركية

عظيمـة، كما أنه يعيد للحيـاة توازنها من خلال صـرفنا عن النشـاط المسرف والجدية المبالغ فيها.
المال الذي في أيدينا هو وسـيلة تحرير لنا من ذل الحاجـة، ووسـيلة تحرير من عـالم الضـرورات، لكن مواصـلة الرحلة لاكتسـاب المزيد منه دون أي حدود قد تحوله إلى شيء يستعبدنا وينهكنا.
هكذا بـالتفكير اللانمطي بالبراعة الشخصـية في النظر إلى الأشـياء من منطلق شخصي وخـــارج قواعد ما تشـــيعه العولمة للحيـــاة المرفهة يمكن لنا أن نسـتلهم الحقـائق الكـبرى في الوجـود؛ ليبـدأ فصل جديد في الحياة هو أكثر غنى وإمتاعًا وأمنًا من كل ما عهـدناه وخبرناه.

==============

مدى

1-

د. عبد الكريم بكار

لو تأملت في حياة كثير من الناس لوجدت أن أهم مفقود لـديهم هو التوازن والاعتدال، وهذا يعود -كما أشرت في المقـال السـابق- إلى أن الميل إلى التطـرف هو الأصـل. أما التـوازن فشـيء يكتسـب، ويبحث عنـــه، إنه مثل العلم من طلبه ظفر به وإلا ظل على الجهل الذي هو الوضع الأصلي لبني الإنسان، والسـؤال الملحّ والمهم دائمًا هو كيف وبم نحصل على التوازن؟
في تصوري أن من أهم ما يفيد في هذا الشأن الآتي:
1- النظر إلى أي وضـــــــعية متوازنة نصل إليها على أنها اجتهادية ونســـبية ومؤقتـــة. إننا حين نســـعى إلى الاتـــزان في موقف من المواقف أو في تعبـــير من التعبـــيرات أو في علاقة من العلاقـــات نتخيل في العـادة وضـعيتي الإفـراط والتفريـط، ونحـاول أن نتخذ بينهما مسلكًا وسطًا، ونحن في هذا على صواب، لكن من المهم أن نـــدرك أن تخيلنا للإفــراط والتفريط والنقطة الــتي تتوســطهما هو تخيل نـــاقص وإدراكنا إدراك نســـبي، بمعـــنى قد ينظر غيرنا إلى ما نعـــده وســـطًا على أنه يميل إلى التشـــدد أو التســـاهل. وفي عصر التفسير السريع صار كل توازن يأخذ طـابع المـؤقت؛ وذلك لأننا في توازننا نعتمد على إدراك أشياء متغيرة، والذائقة الثقافية للناس في حالة من التغير المستمر والمتسـارع، وهـذه الرؤية للتـوازن تحفزنا على إعادة النظر في كل أشكال التوازن لدينا.

2- الإيغال في أي شيء -مهما يكن جيـداً وحميـداً وضـرورياً- يـؤدي إلى تضييع أشياء مهمة وضرورية. وقد أكد -صـلى الله عليه وسـلم- صـواب رؤية سـلمان الفارسي حين قـال لأبي الـدرداء -رضي الله عنهمـا-:"إن لربك عليك حقـاً وإن لنفسك عليك حقـاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه". إن لكل شيء ثمناً ولكل اهتمـام زائد بأي شيء سلبية خطيرة هي نسيان أشـياء أخـرى مهمـة. والتـوازن في كل ذلك جـزء من الابتلاء في هـذه الحيـاة. الجـود جيـد، لكن الإيغـال فيه يتصل بالسـفه والتبـذير. الجـرأة جيـدة لكنها تتصل بالوقاحة. الحذر جيد لكنه إذا تجاوز حدوداً معينة صـار خـوراً وجبنـاً. الشجاعة جيـدة، لكنها إذا لم تقيد ببعض الحسـابات العقلية تحـولت إلى تهور وهكذا... ولذا قالوا: الفضيلة وسط بين رذيلتين.

3- من المهم أن نراقب ردود أفعالنا؛ إذ إن كثيراً من الشـطط ينشأ حين نتخذ موقفاً أو نسلك مسلكاً بنـاءً على الانفعـالات الـتي تعتمل في صدورنا.

والحقيقة أن أكـثر من 70% من أنشـطتنا اليومية هو في جـوهره ردود أفعـال على مثـيرات متنوعـة، وحين تخف رقابة وعينا على عواطفنا فإننا نقابل الخطأ بالخطأ والتطـرف بتطـرف مماثـل؛ لكن حين نركز ليس على ما قيل لنا ولكن على ما يليق بنا أن نفعله أو نقولـه، فإننا نكـون قد تحررنا من وطـأة رد الفعل العشـوائي والفوضوي، وما أجمل قول الله - عز وجل-:"وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" [فصلت:34].

4- كثيراً ما يكون الشطط والبعد عن القصد ناتجـاً عن فقر الخيـال وقصر النظـر، فنحن في كثـير من الأحيـان نعلِّق كل توازننا على شيء من الأشياء ظانين أنه يشكل بالنسبة إلينا شـيئاً مصـيرياً، وإذا فقدناه فلا معنى للحياة بدونـه، ونضـيف إلى هـذا الاعتقـاد بـأن ذلك الشـيء سـيظل شـيئاً اسـتثنائياً في نظرنا في كل الأحـوال وكل الأزمنـة؛ ولهـذا فإننا نفعل من أجله ما لا يصح فعلـه، ونهمل في سـبيل المحافظة عليه ما لا يصح إهمالـه. ويكفي الواحد منا لفهم هذا الأمر أن يتأمل في تاريخه الشخصي، وكيف كان ينفض يـده من أشياء وصداقات وعلاقات كـانت بالنسـبة إليه شـيئاً أثـيراً وخطـيراً. ولنتأمل مليـاً في قوله -عليه الصـلاة والسـلام-:"أحبب حبيبك هونـاً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك يوماً مـا، عسى أن يكون حبيبك هوناً ما".

مدى - 2

د. عبد الكريم بكار

إذا كـان (التفكـير المـوقفي) يعـبر عن الـوعي المتـأخر والجهد الاستدراكي، فإن (التفكـير الوقـائي) و(التفكـير الاسـتراتيجي) يعـبر عن الرؤية الشـاملة للواقع بطبيعته ومعطياتـه، ولمنطق الأشـياء ممتدة في الماضي والمستقبل.

حين نكف عن التفكـير وعن بـذل الجهد المطلـوب في الاتجـاه الصحيح فـإن أزماتنا ومشـكلاتنا تأخذ في التصـاعد، حيث إن كثـيراً منها ذو طبيعة تفاعلية.

وآنذاك نجد أنفسـنا وقد أحيط بنـا، ودخلنا في نفق مظلم، لا نعـرف كيف نخرج منه.

إن اسـتراتيجية كل مسـلم ينبغي أن تقـوم على الحيـاة من أجل الإسلام، أملاً في الفـوز برضـوان الله -تبـارك وتعـالى-. وقد قـال -عليه الصلاة والسلام-:"خياركم أطولكم أعمـاراً وأحسـنكم أعمـالاً"، وقـال:"لا تتمنـوا لقـاء العـدو وإذا لقيتمـوهم فاصـبروا" وإن من الإنجازات الكبـيرة لأسـلافنا أنهم اسـتطاعوا بلـورة المسـائل الكلية الـتي تـدور حولها فـروع التشـريع، وهي حفظ الـدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ العرض وحفظ المـال. وقد ذكـروا أن (الـدين) أعلاها حظاً بالرعاية والصيانة إلى درجة التضحية بالأنفس والأمـوال من أجله. ولهذا شرع الجهـاد بـالنفس والمـال، كما أن المـال يُبـذل من أجل حفظ النفـوس، ولهـذا يجـوز دفع المـال للعـدو من أجل تخليص أسرى المسلمين.

إن كون حفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول مقصداً عظيمـاً من مقاصد الشريعة الغراء يمنح رؤيتنا الاسـتراتيجية توازنـاً وعمقـاً جديرين بالتأمل.

إن بقاء الدين عزيزاً كثيراً ما يشترط وجـود أوطـان عزيـزة، وعـزة الأوطان كثـيراً ما تتوقف على وفـرة الرجـال المخلصـين الشـرفاء، وعلى وفرة الأموال بوصفها الأداة التي لا يمكن الحصـول من غيرها على أي أداة، وهكذا فإن الحفاظ على نفوس المسـلمين وأمـوالهم هو بمعنى ما يشكل نوعاً من الحفاظ على الدين، ولهـذا فـإن بـذلها في أي اتجاه - ولو كان نصرة الدين وصيانة الأوطـان- يظل خاضـعاً للموازنة والاعتبار والنظر.

لو اجتاح العدو بلداً مسـلماً، ورأت حكومته أو أهل الحل والعقد فيه وجود إمكانية لدفعه دون أن تستأصل شأفة المدافعين عنـه، فإنه لا

منـاص من القيـام بـذلك، أما إذا غلب على ظنهم أو تيقنـوا بـأن مدافعة العـدو سـتؤدي إلى ذهـاب النفـوس والأمـوال دون أمل في النجـاح فـإن المهادنة جـائزة، وذلك لأن المحافظة على إمكانـات المسلمين في وقت الضعف تشكل المقدمة لاستخدامها في نصـرة الدين، والدفع عن الأوطان في وقت لاحق.

العيش من أجل الإسـلام هو الخط الاسـتراتيجي الـذي يتسع لكل المسـلمين، والمـوت في سـبيل الإسـلام هو (المنـاورة أو التكتيـك) الذي يتَّسع لفئة من المسلمين في بعض الأوقات، وإن (التكتيك) إذا لم يكن في سياق عمل (استراتيجي) كان عبارة عن انتفاضة مؤقتة تعقبها حسرة وندامة.

إن مهمة العمل الاسـتراتيجي تـتركز في أن نحل مشـكلاتنا الداخلية بأقل قدر من العنف، ومن غير إراقة دماء، وهذا يقتضي أن نتشـرب روح السـلم والعمل على النفس الطويـل، وإلا فإننا سـنظل نجد أنفسنا غارقين في الدماء دون أن نحل أي مشكلة.

إن كـثرة الطـوارئ في حياتنا وفي علاقاتنا مع أعـدائنا تـدل على ضعف أبنيتنا الحضارية واختلال نظمنا الأساسية في التفكير والعمل.

الموت من أجل الإسلام سهل، وفيه مغريـات. والشـاق حقـاً هو أن نعـرف تمامـاً مـتى يكـون ذلك سـبيلاً إلى إنعـاش الإسـلام وعـزة المسلم

مدى-3

د. عبد الكريم بكار

إن التطورات السريعة التي شملت كل المجـالات والـتي لم يسـبق لها مثيل، وفرت -ولا شك- الكثير من الفـرص والكثـير من الأوضـاع الإيجابيـة، لكن النـاس ليسـوا مهيـئين للتعامل معها على الوجه الصحيح.

إن جملتنا العصـبية ومرونتنا الذهنية وقـدرتنا على الاسـتيعاب، إنها جميعـاً تتعامل دائمـاً مع المتغـيرات البطيئة على نحو أفضل من تعاملها مع التغيرات السـريعة، ولهـذا فـإن لنا أن نقـول: كلما زادت سرعة التغير كـان لنا أن نتوقع تزايـداً في اختلال منظومة الأنسـاق التي تشكل حياتنا العامة والخاصة. ومن ثم فـإن علينا أن نفتح عينـاً على التطور وفوائده ومكاسبه، وعيناً على الأضرار الـتي يسـببها لنا على مستوى التوازن بين جوانب حياتنا المختلفة.

قبل الثورة المعلوماتية وثورة الحاسوب كنا نشـكو من الخلل الـذي همَّش الإنسان لصالح الآلة، لكن اعتمـاد تقـدم منجـزات الحاسـبات

على البرمجة والـتي تعتمد بـدورها على الـذكاء والمجهـود الـذهني المركز أعــاد الاعتبــار للعنصر البشــري في التنمية لكن ذلك كــان للعقل لا للــروح. ولهــذا فــإن من الملاحظ أننا مشــغولون اليــوم بالحديث عن الذكاء والإبداع والتفوق والنجاح والقـوة والقـدرة على الاحتمـال، وما شـابه ذلك مما يرتبط بالعقل والـدور الـذي يمكن أن يؤديه في النهـوض العـام، إلى جـانب التركـيز على النشـاط العقلي الذي فرضته ثورة الحاسوب، يتم التركـيز على النشـاط الاقتصـادي الــذي تفرضه العولمة بقــوة. وهكــذا فقد غــدا (المــال) المحــور الأساسي في الحيــاة، وصــار الحصــول على المزيد منه يشــكل الهاجس الأقوى الذي يجتاح الخواطر. وبما أن المعـروض دائمـاً من المـال هو أقل من المطلـوب، فقد أثـارت شـدة الطلب عليه ما لا يحصى من التـوترات الاجتماعيـة، وفسد بسـببه الكثـير من الـذمم. وصــاحب كل ذلك ضــمور وتراجع في الأنشــطة الدعوية والروحية والأدبية والإنسـانية، وكـانت حصـيلة ذلك ذبـول في عـالم المعـنى وخمــود لتـألق الــروح، واجتاحنا شـعور باليـأس وانســداد الآفــاق، وبالغربة بين الأهل والأحباب!

إن البشر عبارة عن مخلوقات عاطفية، ومكمن وجودنا الحقيقي هو الــروح وليس العقــل. وســعادتنا لا تتوقف على امتلاك المزيد من المال – كما نتوهم- فالمال مخلوق لقضاء الحاجـات، وليس لتفجـير ينابيع السرور العميق.

إن رمضان يشكل فرصة لاستعادة شيء من أمجاد الـروح السـليبة، وهو فرصة لترميم ما طرأ على توازننا الشخصي من اختلال.

إن في إمكاننا اليوم أن نسقي شجرة الإيمان بماء المناجاة والتـذلل بين يــدي الله –تعــالى- كما أن في إمكاننا أن نتأمل في الهــدف النهائي لخطواتنا اللاهثة. إن المستقبل الحقيقي لا يكون أبداً مؤقتاً، ولذلك فإنه أكبر وأوسع من أن يتحقق في حياتنا الفانية والمحدودة، إن ترك نفوسنا تنشغل بما تصادفه على السجية دون توجيه سيعني دائمــاً الانشــغال بكل ما هو صــغير ومــؤقت، وهــذا ما تفعله في الحقيقة العولمة حين تغـرق وعينا بتفاصـيل لا نهاية لهـا، وهي في الـوقت نفسه تطمس على رؤيتنا للأصـول والكليـات، وأعتقد أنه قد حـانت السـاعة الـتي يعـاد فيها رسم الأولويـات وتحرير الـوعي من جملة الارتباكـات والتخبطـات، وحين نأخذ بالعمل في هـذا الاتجـاه، فسنكون قد بدأنا بكتابة تاريخ جديد لانتصار الحقيقة على الوهم

مدى-4

نســتطيع القــول: إن أمامنا على المســتوى الثقــافي تحــديًا بين أساسين: التحـدي الأول، وهو يتمثل في توليد أكـبر عـدد ممكن من الأفكار والمفاهيم المطلوبة لإطلاق نهضة إسلامية شاملة. إن المثل والمبـادئ والقيم العليا هي أسـاس كل نهضـة؛ وإننا إذا تأملنا بعمق فيما هو مشترك إنسـاني منهـا، وما هو خـاص بأمة دون أمة لوجـدنا أن المشترك أكبر من الخاص؛ لكن المبادئ الكبرى لا تستطيع إيجاد واقع نـاهض من غـير وسـيط أو أداة تسـتعين بهـا، وتلك الأداة هي الأفكار والمفاهيم الصغرى ذات البعد التقني.

إن الرغبة في تحسـين المسـتوى الصـناعي –مثلاً- موجـودة في كل مكان من الأرض، لكن أممـاً بعينها هي الـتي اسـتطاعت إنجـاز ذلك بسبب الكم الهائل من الأفكار والأطر والنظم الـتي تـراكمت لـديها، بالإضــافة –طبعــاً- إلى إرادة صــلبة في التحــول من التجــارة إلى الصــناعة بوصــفها القاعــدة الأساســية للتنمية الحديثــة. وما ينتجه المجــال الصــناعي من أفكــار كــان في الماضي هو عمــاد التقــدم التقني، ثم صار للجامعات ومراكز البحث العلمي والتطوير وأقسـام الجودة في الشركات دور بارز في ذلـك. ومن المؤسف القـول: إننا على صعيد هذا التحدي لم نسجل إلا القليل من النجاحات!

أما التحــدي الثــاني فإنه يتمثل في تعميم المبــادئ والأفكــار والقيم على النــاس، من أجل إيجــاد صــبغة ثقافية واحــدة تجنس الرغبــات والتطلعـات والمعـايير داخل المجتمع الإسـلامي الواحـد. وأعتقد في هذا السياق أن الدعوة إلى الله تعالى تشـكل أوسع الأطر المطلوبة لحركة تعميم الثقافة وتوفــير الســمات العامة الضــرورية لتوحيد الأمـة، ويلاحظ في هـذا الشـأن تراجع الهم الـدعوي لـدى كثـير من طلاب العلم، إلى درجة أنه يمكن لنا أن نقـول: إنه مع مـرور المزيد من الوقت يصبح لدينا الكثير من الباحثين والمتخصصين والقليل من الـدعاة والحريصـين على نشر العلم بين النـاس، وهـذا في الحقيقة يشـكل خطـورة على الصـفوة المثقفة وعلى النـاس العـاديين، إن قيمة المعرفة مرتبطة على نحو أساسي بالتحامها بــأكبر عــدد من الناس ومرتبطة بما يمكن أن تقدمه من حلول للمشكلات السـائدة، وبما تفتحه من حقول للمارسة، وهذا لا يتأتى من غـير نشر الأفكـار والمعارف على أوسع نطاق ممكن.

إن المــال حين يرتكز في يد فئة محــدودة تتداوله بينها بعيــداً عن الدوائر الشـعبية، يتحـول إلى أداة إفسـاد لأصـحابه وللمجتمع أيضـا،

وهكـذا العلم فإنه حين يتضـاءل نشــره بين النــاس يفسد أصـحابه ويحـولهم إلى طبقة تسـتغل ثمراته لمصـالحها الشخصـية، ويعـزلهم عن القاعــدة الشــعبية العريضة بما يــوفر لهم من مفــاهيم التمــيز والاستعلاء على من يسمون أحيانـاً بالعامة والـدهماء! على حين أن ممارسة الدعوة توفر لطالب العلم روح التفاوض وأخلاق التلاؤم مع غـيره، أي أن الـدعوة تـوفر تواصـلاً اجتماعيـاً يقـوم على السياسة عوضاً عن شيوع الصراع القائم على استخدام القوة.

إن قوله –صلى الله عليه وسلم-:"بلغوا عني ولو آية". وقولـه:"نضر الله امرأ سـمع مقـالتي هـذه فوعاها فأداها كما سـمعها فـرب مبلغ أوعى من سامع" يستهدف تكوين اسـتنارة عامة لـدى الأمة وإيجـاد وعي عام بما يجب أن تصير إليه في أمر دينها ودنياها.

وقد أثبتت التجربة الحاجة الماسة إلى ذلـــــك، حيث إن القيـــــادة الثقافية المســتنيرة لا تســتطيع اســتثمار معارفها واســتخدامها في ترشــيد الحركة الاجتماعية إذا لم تتمكن من إيجــاد قاعــدة شــعبية عريضة متشعبة بأفكارها وطروحاتها.

إن العلم للعمـل، وإن عمل المثقف لا يقتصر على انسـجام سـلوكه مع معارفه، وإنما يتجاوز ذلك إلى جعل تلك المعارف شموعاً يهتدي بها السارون في عصر شديد الاضطراب

مدى - 5

د. عبد الكريم بكار

لو تساءلنا: ما أهم ما تفقده مجتمعاتنا اليوم لأمكننا أن نـذكر العديد من الأشياء، وأظن أنه سيكون في مقدمتها شيء خطير هو (الثقة)، الثقة جــزء مهم من رأســمال المجتمــع، وحين تفقد من مجتمع من المجتمعـات فقد لا يسـتطيع ذلك المجتمع اسـتعادتها إلا عـبر قـرون من العمل، هذا إذا كانت اسـتعادتها ممكنـة. وإن العولمة تلعب دورًا جوهريًا في ذلـك، حيث إنها تنشر أخلاقيـات (الصـفقة) بما تنطـوي عليه من المسـاومة والمبالغة والخديعـة، وإن الأداة الرئيسـية الـتي تســتخدمها العولمة في ذلك هي فن الدعاية والإعلان، حيث بـــاتت الدول المختلفة تنفق من أجل الترويج للسـلع ما يزيد على أربعمائة مليــار دولار ســنويًا! الثقة تعــني وجــود درجة عالية من الطمأنينة الاجتماعية والـتي ترتكز أساسًـا على المصـداقية والشـفافية ومتانة الخلـق. وأعتقد أن من المسـؤوليات الأساسـية للخطـاب الإسـلامي اليــوم، القيــام بتقــديم نمــوذج تطــبيقي في إشــاعة الثقة وبنــاء المصـداقية، هـذا النمـوذج يقـوم على السـعي إلى الـتزام الصـدق

وخدمة الحقيقة وتقـديم النصح الخـالص للنـاس فيما يصـلح أمـور دينهم ودنياهم.
أدنى درجـات الصـدق يتمثل في موافقة كلام المـرء لمعتقـده؛ فـإذا كـان صـانع الخطـاب يعتقد -مثلاً- أن الأمة تمر بمرحلة حرجة جـدًا وجب عليه أن يصـرح بهـذا ولو كـان بـذلك يعـرّض نفسه لأن يوصم بأنه متشـائم، وإذا كـان يعتقد أن الجـانب الـروحي من حيـاة الأمة يحتاج إلى عناية خاصة كان عليه أن يجهر بذلك، ولو كان بهذا سوف يثير عليه بعض من يرى أن الحديث في المسـائل الروحية كثـيرًا ما ينمّ عن انحراف عقدي وهكذا...
أما درجات الصدق الأكثر سموًا ورقيًا فإنها عديدة، ولعل من أهمها:
1- تحري مدى مطابقة الكلام للواقع، إذ إن كثيرًا مما نعتقد وجـوده قد لا يكون موجودًا في واقع الأمر، حيث إن آراءنا ومعتقـداتنا كثـيرًا ما تكون نتيجة قراءات ناقصة للواقع أو للتاريخ.
2- العثـور على درجة ملائمة من التكـافؤ بين اللفظ والمعـنى؛ حيث إن من الملاحظ اليوم الاهتمام بأناقة الكلمـات ورنينها على حسـاب عمق المضـمون، مما يجعل وصف السـامعين لكثـير من الكلام بأنه (كلام فارغ) شيئًا صادقًا ودقيقًا.
إن الاهتمام بالاتساق الشكلي للتعبير بأن شيئًا ملموسًا، إذ إنه جـزء من (ثقافة الصورة) الذي ترسخه الحضـارة الحديثـة. ولا يعـني هـذا بالطبع أن نسوّغ لأنفسنا استخدام التعبيرات المبتذلة، لكنه يعني أن نجعل توضيح الحقيقة على ما هي عليه بالضـبط همنا الأساسي في التبليغ.

3- السـكوت عند العجز عن قـول الحق وإذاعة الحقيقـة، حيث لا ينسب لساكت قول. وإن ما يجعل المرء موثوقًا حرصه على اختيـار المجال الذي يستطيع أن يتحدث فيه عن كل أو جل ما يعتقد.
4- اسـتخدام اللغة الكمية في التعبـير؛ لأنها أكـثر دقة ولأن العقل البشري يتعامل معها بكفـاءة عالية على خلاف التعامل مع الكيف أو ما نسـميه (الصـفات)، حيث يبـدي العقل في اسـتيعابها الكثـير من الارتباك.
إن بلاغة الرقم هي بلاغة العصر الحـديث، لكن علينا أن ننتبه إلى ما يمكن أن نسميه (المتاجرة بالأرقام) حيث قابليتها الشـديدة للـتزوير والتزيد والمبالغة.

قال الصادق المصدوق: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن الـبر يهـدي إلى الجنــة، وإن الرجل ليصــدق حــتى يكتب عند الله صــديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجـور يهـدي إلى النـار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا".
بالصدق ومجاهدة الأهواء ونبل المقاصد نبني الثقة، ونحافظ على ما تبقى من معاني الطمأنينة والاتصال النقي
مدى - 6
د. عبد الكريم بكار
إذا تأملنا بعمق في الحيــاة العامة للأمة فإنه ســوف يثــير انتباهنا شيئان مهمان:
الأول: هذا العـدد الهائل من الشـباب الغيـور والمهتم بتحقيق شـيء جيد يصب في رصـيد هـذه الأمـة. وأعتقد -من غـير تـردد- أنه ليس على وجه الأرض أمة من الأمم تملك من الشــباب الراغــبين -في نصرة قضاياها العامة والقادرين على التضـحية في سـبيلها بـالنفس والنفيس- مثل ما تملك أمتنا.
الثاني: هو الارتباك في توظيف هذه الرغبات والقدرات واسـتثمارها على النحو المجدي.
إن موقف الغرب المنحاز لليهود، وإن محاولته السيطرة على العالم الإسـلامي بالشـكل الفجّ والبعيد عن الالـتزام المبـدئي والمسـحقة الأخلاقية –قد ولّد لدى شباب الإسلام شـيئين كبـيرين: روح الانتقـام والثأر من الظالم المعتدي، واللجوء إلى الإسـلام والالـتزام بتعليماته بوصفه أكبر مصدر لتـأمين المحافظة على الهويـة، وبوصـفه القـادر على إيجاد قاعدة مشتركة لمقاومة العدوان.
روح الثأر والالتزام بصرامة بتعاليم الإسلام يشـكلان الشـرارة الـتي تشـعل الطاقـات الهائلة المـذخورة في دمـاء شـبابنا اليـوم. ونظـرًا لعدم وجود (رؤية حضارية) قـادرة على توظيف هـذه الطاقـات فقد نما لـدينا على نحو سـريع ما يمكن أن نسـميه (التفكـير المـوقفي)، والذي يعني حشد كل الأفكـار وكل الإمكانـات من أجل سد ثغـرة أو خدمة قضية محـدودة. التفكـير المـوقفي هو تفكـير طـوارئ لا يهتم كثـيرًا بأسـباب القضـية موضع الحشـد، كما لا يهتم بما يـترتب على النجاح أو الإخفاق الذي يمكن أن ينشأ من الجهود العزيزة المبذولة. وهذا موروث عن قـرون سـلفت، حيث كـان مفهـوم (النصـر) شـبه محصور في النصر العسـكري، وحيث كـان تحقيق الغلبة في معركة من المعارك يشكل حـدثًا فاصـلاً وواسع التـأثير في مسـيرة الأمـة،

كما هو الشأن في مثل غزوة بدر أو الأحـزاب أو حـنين... وكثـيرًا ما أُسـأل عن شـروط تحقيق النصـر، أو يقـال لي: لمـاذا أبطأ النصر علينا؟ أو يقال: إن هذا التصـرف يـؤخر النصـر... وهـذه التسـاؤلات، وما ينسل منها تدل على أن كثيرًا من النـاس ينظـرون إلى مسـيرة أمة المليـار ومئـتي مليـون نفس، كما ينظـرون إلى مسـيرة قافلة مكوّنة من مئة نفس، تعرضت لهجمة من اللصوص وقطاع الطـرق؛ فكما أن التغلب عليهم يشكل نصـرًا لأمة الإسـلام، يمكن أن يشـكل مرحلة جديدة في تاريخها.
ولا شك أن الأمر ليس كـذلك. قلت مـرة لواحد ممن سـألوني عن (شروط النصر) قبل أن نتحـدث عن الشـروط والأسـباب والعقبـات عـرّف لي النصر الـذي تريـده، ونبحث عنـه، وطبعًا لم يسـتطع ذكر تعريف لـه؛ لأن تعريف نصر أمة يختلف كثـيرًا عن تعريف الانتصـار في معركة.
إن من المهم أن ندرك أن الصـراع بين الأمم سـنة من سـنن الله - تعـالى- في الخلـق، وهو مظهر مهم من مظـاهر (الابتلاء) في هـذه الحيـاة، ولهـذا فسـيظل لكل عصر صـراعه، ولكل صـراع منطقة وأدواته وأسـاليبه وتحدياتـه. وإن أول خطـوة على طريق الفـوز في أي صراع تتمثل في فهم هذه الأمور على نحو جيد.
في زمان كثـير التعقيـد، وفي قضـايا معقـدة التكـوين يكـون تحقيق النصر النهائي شيئًا غـير وارد، ويكـون العمل المترابط والممتد على ما فيه من مشـاق ومن ضـعف الجاذبية هو المـورد الـذي يسـاعدنا على أن نـراكم النجاحـات الصـغيرة، وهو السد الـذي حـول دون انتشار الإحباط الذي يسببه التفكير الذري والحشد والجهد المعزول.
مدى (1/2)
د. عبد الكريم بكار
كنت دائماً أتساءل: لماذا لا نلمس إلا القليل من التقـدم العقلي مع كـثرة ما ينشر ويطبع من كتب ومجلات، ومع كـثرة ما يـذاع من برامج في الوسائل الإعلامية المختلفة؟
وقد تـبين لي أن ذلك يعـود في أكـثر الأمر إلى ما يسـتهدفه النـاس من وراء القـراءة والاسـتماع والمشـاهدة, كما يعـود إلى طريقة القـراءة وطريقة التلقي، وإلى كيفية التعامل مع ما يتحصَّـل من معرفة من وراء ذلك.
إذا تساءلنا: لماذا يقرأ الناس ولماذا يسـتمعون ويشـاهدون الـبرامج الثقافية، فإننا سنجد أن الناس في هذا الشأن ثلاثة أصناف:

صنف يقرأ من أجل التسلية والتخلص من وطأة الإحساس بـالفراغ. وهذا الصنف يشـكل من المسـتوى العـالمي ما يزيد على 60% من القراء. ولا يخلو هذا النوع من القراءة من بعض الفائدة.
صنف ثانٍ يقـرأ من أجل الاطلاع والحصـول على بعض المعلومـات، كمن يبحث عن حكم فقهي لمســـألة من المســـائل، أو ينظر في المعجم لمعرفة معـنى كلمة من الكلمـات. وفائـدة هـذا النـوع من القـراءة أكـبر من فائـدة النـوع الأول. وكثـير من القـراء لا يعـرف للقراءة فائدة سوى ذلك.
صـنف ثـالث –وهو قليل جـداً- يتطلع من وراء القـراءة إلى تحسـين قاعـدة الفهم لديـه، والارتقـاء بمسـتواه الـذهني، وإحـداث تعـديل مسـتمر في رؤاه وطروحاته ومنهجية تعامله مع الأحـداث والأشـياء، هـذا الصـنف من النـاس هو الـذي يسـتفيد أحسن فائـدة ممكنة من وراء القراءة ومن وراء الاستماع والمشاهدة أيضاً.
سيكون في إمكان كل واحد منا أن يكـون من هـذا الصـنف إذا قـام بشيئين أساسيين:
الأول: أن يقـرأ الكتـاب بطريقة جـادة وواعيـة. والحقيقة أن القـراء الممتـازين لا يقـرأون كتابًا كثـيرة، لكن حين يقـرأون كتابـاً فـإنهم يقرأونه بطريقة جيدة.
القراءة الجيدة تعني نوعاً من التفلية للكتـاب، أو نوعـاً من الحـرث له. والقارئ الجيد يحـاول معرفة الخلفية الثقافية والانتمـاء الفكـري للكاتب، كما يحـاول تشـكيل رؤية جيـدة حـول قيمة المصـادر الـتي اعتمد عليها في تأليفه. وهو إلى جانب هذا يطرح الكثير من الأسئلة حول معالجة الكاتب ومدى وفائه بـالغرض الـذي أخـرج الكتـاب من أجله، كما أنه يحاول تكـوين رؤية خاصة حـول القضـايا الـتي عالجها الكتاب.
الثــاني: التفكــير في مضــمون الكتــاب، وما يمكن أن يُحدثه من (خلخلة) في أنساقه الفكرية المختلفة. إن الكتاب الجيد يتطلب من قارئه ثلث ســاعة تفكــير –على الأقــل- بعد كل ســاعة قــراءة. وسنرتكب خطأ فاحشاً إذا فكرنا من غير قراءة ومن غير معلومات. كما سـنرتكب خطأ ممـاثلاً له إذا اسـتغنينا بـالقراءة عن التفكـير أو وجدنا في القراءة مهرباً من عناء التفكير.
ليكن تفكيرنا بعد كل قـراءة في المحصـلات النهائية الـتي يمكن أن تغير في منهجية التفكير لدينا: هذه فكرة تـدعم رؤيتنا للواقـع. وتلك فكرة توجب عليَّ أن أكون أكثر حذراً حيال التعميم في الحكم على

الاتجاه الفلاني. وهذه فكرة ثالثة تُظهر سطحيتي في رؤية القضية الفلانية وهكذا...
إن الذي يملك معلومة أشبه بمن يملك قطعة ذهبية. أما الذي يملك منهجاً في رؤية العالم، فإنه أشبه بمن يملك مفتاح منجم من الذهب. ولك أن تتخيل الفرق بينهما!
===============

الوطنية: انتقال من الغريزة إلى العقل

د. عبد الكريم بكار
مفهوم الوطن من أكبر المفاهيم التي تتغلغل في طبقات وجودنا غير الواعي. ويبدو أنه راسخ في التراث الجيني للبشرية، كما أنه كذلك بالنسبة إلى الحيوان.
المجال الحيوي الذي يرسمه كل واحد منا لنفسه، يعمق مفهوم الوطن واقتحام ذلك المجال يثير فينا مشاعر عدوانية لا يثيرها أي تصرف آخر. الأعلام والرايات التي ترفعها الدول فوق أراضيها تحمل معنى الاختصاص بمكان والتمسك به والذود عنه. وللمكان عبقريته الفذة القادرة على توليد ما لا يحصى من المشاعر والمفاهيم والخلفيات المشتركة بين كل أولئك الذين يقطنون فيه، ومنها جميعاً تتشكّل معاني (المواطنة) على نحو مبهم وغير مرئي.
ولعلي أقف مع مسألة الوطنية الوقفات التالية:
1- الوطنية ذلك المعنى النبيل شيء أسمى من الحضور في مكان والانتماء إليه؛ إنها كيان معنوي يبنيها الأفراد الصالحون من خلال التضحيات التي يقدمونها من أجل صلاح المجموع وسلامتهم وكرامتهم. وهذه التضحيات تتعاظم لتبلغ حد التضحية بالحياة نفسها؛ ولذا فإن (الشهيد) يمثل رأس الهرم في البناء الوطني، ولن يكون المواطن صالحاً إلا إذا حمل بين جوانحه معنى من معاني الشهادة، والتي تمثل قمة العطاء غير المحدود، وغير المشروط. والذين لا توحي إليهم (الوطنية) بمعنى من هذا القبيل يشكلون عبئاً على أوطانهم.
2- حب الوطن والساكنين فيه ومناصرتهم، غريزة لدى الإنسان، يندفع للعمل بمقتضاها دون وعي منه؛ لكن من الثابت أيضاً أن اجتماع الناس بعضهم مع بعض، يولِّد في حد ذاته توترات كثيرة بسبب ضعف المفاهيم الجامعة، وتصادم المصالح وانتهاك الفضاءات الخاصة. وهذا يعني أن على أبناء كل وطن أن يبحثوا عن صيغة للتعايش إذا ما أرادوا تحقيق درجة من التقدم الحضاري.

وهـذه الصـيغة لا يمكن لها أن تنشأ من غـير توفـير الحد الأدنى من القيم المشـتركة والفهم المتبـادل. وهـذا من جهته يتطلب أن ننمي في العقلية الجماعية رؤية واضـــحة لمعطيـــات الواقع وآفـــاق المستقبل. إن ما لدينا من غرائز ودوافع فطرية، يظل كافيـاً لتوجيه وتنظيم أوضاعنا البدائيـة، مما هو على شـاكلة النمو والتكـاثر والحد الأدنى من البقاء؛ لكن الإنسـان الـذي كرّمه الله -تعـالى- وجعل منه خليفة ومتعه بالخيال والطمـوح والإرادة الحـرة -لا يسـتطيع أن يحيا بكامل خصائصـــه، كما لا يســـتطيع توفـــير كل حاجاته إذا ما خضع للـدوافع الغريزيـة، بل عليه دائمـاً أن يتخذ قـرارات صـعبة وشـاقة، ومن تلك القرارات تنبثق إنسـانيته حيث تنشط دوافعه العدوانية في ظل نظم قيمية تكسر حدتها، وتجعلها جـزءاً من حيـاة طيبة متوازنة تُلـبي فيها الرغبـات في إطـار من المشـروعية والتعـاون والتضـامن الأهلي.

3- على مـدار التـاريخ، وفي كل مكـان من الأرض ظلَّت (الوطنيـة) تعـــاني من معضـــلتين اثنـــتين، همـــا: فوضى المشـــاعر، وعـــدوان الطموحـات غـير المحـدودة. ونجد في سـياق المعضـلة الأولى أن سعي الكائنات الحية -بدءاً بـالفيروس وانتهـاء بالإنسـان إلى المزيد من الاســـتقلال- قد أجَّج مشـــاعر الأنانيـــة. والبحث عن الخلاص الشخصي لـدى كثـير من النـاس بعيـداً عن التفكـير في شـجون الآخـرين. وجـاءت (العولمـة) لتعـزز هـذه النزعـة، فهي تزيد في مشاعر الفردية، وتدمر أحاسيس التعـاون والانتمـاء بما تمارسه من خلع للفـرد من أسـرته، وللأسـرة من المجتمـع، وللمجتمع من أمته الكبرى. وهذا ما أشاع في الناس هواجس الخوف من المستقبل.

ونجد إلى جانب هذا مشاعر الـولاء المتطـرف للـوطن والتعلق بكل ما فيـه، والحـرص الشـديد على عـدم مغادرته مهما كـان الثمن، ومشـــايعة أهله على الحق والباطـــل. وقد تضـــخم ذلك عند بعض الشعوب، حتى أفرز حركات قومية وعنصـرية (النازية نموذجـاً) غاية في التطرف وتمجيد الذات واحتقار الآخرين. وهي تطل برأسـها من جديد اليوم في أكثر دول العالم إحرازاً للتقدم التقني. وهذا كله يتم بـدافع من الغريـزة، بعيـداً عن مـوازين الحق والعقـل. وقد قـال الشاعر العربي قديماً:

وهل أنا إلا من غُزيَّة إن غوت ...غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

وقال الآخر:

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظــالم ...على القــوم لم أنصر أخي حين يُظلم

إن مجال الوجـدان يستعصي أكـثر من أي مجـال آخر على سـلطان العقل؛ مما يجعل الفوضى والاختلال من سماته الأساسية.

حين جاء الإسلام رشّد قضية الولاء للوطن ومشـايعة أهله في جملة ما رشّد من شؤون الحياة. ونجد في هذا الصدد أن الله -تعالى- أخذ على المنافقين أنهم متشبثون بالإقامة في أوطانهم إلى حد عصـيان أمر اللــه، حيث يقــول: "وَلَـوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُـوا أَنْفُسَـكُمْ أَوِ اخْرُجُـوا مِنْ دِيَـارِكُمْ مَا فَعَلُـوهُ إِلَّا قَلِيــلٌ مِنْهُمْ وَلَـوْ أَنَّهُمْ فَعَلُـوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً" [النسـاء:66]، وذكر أنه قد يكون في مغادرة الأوطان والهجرة في سبيل الله سـعة في الـرزق وإرغام للعدو: "وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ يَجِـدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمـاً كَثِيراً وَسَعَةً" [النساء: من الآية100].

وفي الحديث الصحيح: "أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا". فقال رجــل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًـا؛ أفـرأيت إذا كـان ظالمًا كيف أنصره؟ قـال: "تحجـزه عن الظلم فـإن ذلك نصـره". وقد كـان من جملة بنود الوثيقة التي أنجزها النبي -صلى الله عليه وسلم- لتنظيم العلاقة مع اليهـــود في المدينة نصـــرة المظلـــوم والأخذ على يد الظالم. إنها صياغة جديدة للمشاعر والمواقف وردود الأفعال.

المعضـلة الثانية الـتي أضـرت بالمشـاعر الوطنية هي الطموحـات الجامحة لـدى كثـير من النـاس، والـتي تـدفع على نحو صـارخ إلى اختراق المجال الخاص للآخرين والعدوان على حقـوقهم وحرمـانهم من فرص الترقي الاجتماعي والاقتصادي. إن الشعور بالواجب تجاه حقوق الوطن والمواطنين، لا يتولد لدى المـرء إلا إذا شـعر بشـرف الانتماء لـذلك الـوطن، وهـذا من جهته لا يتـوفر إلا إذا أحسَّ النـاس بأنهم ينالون ما يستحقونه دون عناء. وقد قـال أحـدهم: لمـاذا أدافع عن وطن لم يطعمني من جوع، ولم يؤمِّني من خوف"؟!

انخفاض سوية الالتزام لدى كثـيرين منا بالإضـافة إلى أزمة (قصـور المفاهيم) التي نعاني منها على أكثر من صعيد -يجعل الشـأن العـام بعيدًا عن بؤرة الاهتمام-.

ويبدو أن ما أحرزه الفرد من وعي أعلى بكثير مما أحرزه المجتمـع، مما يجعله يندفع نحو أهـداف وغايـات غامضـة، ويجعل نمو المعـاني والمفاهيم الجمعية بطيئًا.

لا يمكن توليد مشاعر وطنية صادقة من غير توفر كتلة حرجة من النماذج الخيرة التي تعلم الناس بسلوكها معاني الاستقامة والتضحية، ومن غير امتلاك شفافية جديدة نحو العدل (بكل مستوياته ومظاهره) ومن غير مراقبة جيدة لاستثمار التفوق حتى يظل ضمن أطر مشروعة، وإلى أن يتم ذلك، فإن لنا أن نتوقع الكثير من أنماط الإساءة للمعاني الوطنية، والمزيد من الاستغلال الجائر لها.

==============

القليل الدائم

د. عبد الكريم بكار

تدعيم الذات عمل كبير. وهو ينبع أساسًا من اعتقاد المرء أن ذاته ليست معطى نهائيًا جامدًا -كما كان سائدًا لدى الفكر التقليدي القديم- وإنما هي مفاهيم ومشاعر واتجاهات وعزائم وعادات ومواقف. وحين ننظر إلى ذواتنا على هذا النحو فإننا سنتعامل معها على أنها شيء قابل للنمو، كما أنه قابل للذبول والاضمحلال.

الإنجاز المتتابع -مهما كان محدودًا- يعزز ثقة الإنسان بنفسه ويخلصه من مشاعر الإحباط والخذلان. وعلى هذا فإن كثيرًا من الناس يملكون المؤهلات لأن يكونوا عظماء، لكن مؤهلاتهم كامنة، ولا يبرزها سوى العمل والعطاء غير المشروط. خطرت لي هذه الأفكار وأنا أتابع بعض الحملات الخيرة لتقديم المعونة لإخواننا في فلسطين السليبة. وقد رأيت في تلك الحملات من مشاعر النبل والكرم والخير والمروءة ما يدل على أن هذه الأمة تحتفظ بدرجة عالية جدًا من الحيوية والقدرة على التضحية! مشكلتنا التي تحتاج إلى تنظير وإلى حلول عملية، هي كيف نحوّل الفورات العاطفية والمشاعر النبيلة الفياضة إلى نوع من الالتزام المستمر بدعم قضايانا الكبرى، وعلى رأسها القضية الفلسطينية. أعتقد أن المشكلة تتمثل أساساً في تعميم الوعي بالأهمية الفائقة للعطاء المستمر الدائم الذي لا يرهق أحدًا، لكنه يشكل بالنسبة إلى قضايانا الكبرى -نظرًا لكثرة عدد المسلمين- شيئًا عظيمًا- إن الله -جل وعلا- يحب من عبده الثبات والاستمرار في طريق الخير على قدر الوسع والطاقة؛ وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا. وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه".

إن العـــــالم الإســـــلامي مليء بحمد الله بالجمعيــــــات الخيرية والمؤسسات الإغاثية الـتي تقـوم بـدور ضـخم جـدًا في سد حاجـات المحتاجين، وتوفير الخدمات المختلفة للفقراء والمســاكين. ومع أن بعضــها يقــوم بــبرامج رائعة تتسم بالديمومة والاســتمرار في جمع المال وإنفاقه إلا أن هناك أموراً كثيرة إضـافية يمكن أن تقـوم بهـا. وأود هنا أن أقـترح بعض المقترحـات الـتي تفعّل (العطـاء الـدائم) بالنسبة لإخواننا في فلسطين، وهي على النحو الآتي:

1- قيــام وســائل الإعلام المختلفة ببث الــوعي لــدى كافة شــرائح المسلمين بضـرورة الالـتزام بشـيء ما -مهما كـان يسـيرًا- يخصص لـــدعم صـــمود إخواننا في فلســـطين، ومســـاعدتهم على مقاومة عدوهم وإعمار بلادهم.

2- دعوة الجمعيات الخيرية والهيئات الإغاثية المـوظفين في العـالم الإســلامي وكل من له دخل ثــابت على أن يتــبرعوا بـــ ½%ـ من دخولهم الشهرية أو السنوية لصالح أسرة شـهيد أو أسـير أو لصـالح أرملة أو يتيم أو عاطل عن العمل.

3- قيام البلديات بالتبرع بـــ ½%ـ من ميزانياتها لـدعم البلـديات في فلســـطين، ويمكن عقد نـــــوع من (التوأمـــــة) بين كل بلدية في فلسطين وبين عدد كبير من البلديات في الدول الإسلامية.

4- قيام الجامعات والمدارس في العالم الإسـلامي بـالتبرع بـــ ½% من ميزانياتها أو دخولها لصالح الجامعات والمدارس الفلسطينية.

5- حث التجار والصـناعيين والمسـتثمرين المسـلمين عامة على أن يجعل الواحد منهم 2% من اسـتثماراته ومشـروعاته في فلسـطين المحتلة؛ حتى لا يضطر الناس هناك للعمل عند اليهود.

6- قيـام الجمعيـات الخيرية بإيجـاد دائـرة خاصة فيها اسـمها (وقف الأرض المباركـة) تقـوم تلك الـدائرة باسـتقطاب الأوقـاف المختلفة لصالح بناء المساجد والمـدارس في فلسـطين، وتقـوم تلك الـدائرة بالإشراف على الأوقاف وإدارتها وتنميتها.

7- متابعة الجمعيات الخيرية والهيئات الإغاثية الموجــودة للشــركات والمؤسسات لتقوم بتخصـيص أسـبوع من أرباحها أو يـوم من دخلها في السنة لصالح دعم المسلمين في فلسطين المحتلة.

إن هناك الكثير الكثير من الأطر والأساليب التي نستطيع من خلالها إنجاح فكرة (القليل الـدائم). وأنا أعـرف أن هـذه الأعمـال سـتواجه العديد من الصعوبات والعقبات، وربما تتعرض لبعض أشكال إســاءة

التصــرف، لكن من خلال العمل والمتابعة تــزول العقبــات وتصــحح المسارات، وتؤتي الجهود الخيرة ثمراتها المرجوة.
إننا من خلال هــذه الأعمــال المباركة لا ننفع إخواننا فحســب، وإنما ننفع أنفســـنا أولاً من خلال ما نرجـــوه من مثوبة اللـــه، ومن خلال الشـعور بأننا أمة قــادرة على النهـوض بمســؤولياتها، وقــادرة على التصدي للمهام الصعبة.
والله ولي التوفيق.

==============

بالعلم لا بالذكاء

د. عبد الكريم بكار

في تاريخ الأمم جدل قديم حول علاقة العقل بــالعلم، وحــول القــدر المطلوب من كل منهما للإبداع والإنجاز المتفـوق. وكثـيراً ما كـانت ترجح كفة الذين يقدمون العقل على العلم، وربما كـان ذلك بســبب الاعتقـــاد بإمكانية الحصـــول على العلم ويسر ذلـــك، على حين أن الموهبة والذكاء من الأمور التي لا يمكن اكتسابها. وعــزز من مكانة المقدمين للعقل تعاظم نفوذ المنطق اليوناني في العديد من علــوم الثقافة الإسلامية، والذي يُنظر إليه على أنه إنجاز عقلي محض. وقد وصل الأمر إلى النظر إلى تفضـيل العلم على العقل على أنه اتجـاه سوقي لا يليق بمثقف رصين! وأعتقد أن ذلك الجدل سـيظل قائمـاً، وسيظل حسمه صعباً ما دام الغموض والالتباس يلف نظرتنا لطبيعة العقل وطبيعة عمله وطبيعة علاقته بــالخبرة والمعرفــة. ومع أن كل هذا لم يتضح بالقــدر الكــافي الــذي يــتيح لنا الشـعور بأننا نقف على أرض صُـــلبة إلا أنه من الممكن أن نبلـــور بعض العلامـــات الـــتي تساعدنا على السير في هذا الطريق الشائك. ولعل منها الآتي:

1- ليس هنـاك خلاف معتـبر في أن الإنجـاز العـالي والمتقـدم جـداً يفتقر إلى كل من الــذكاء والعلم. الخيــال الخصب ينقلنا إلى خــارج حدود الخبرة، أو يضـعنا -على الأقــل- على حافتهــا. والقــدرة العالية على التحليل والـــتركيب تمكننا من القيـــام بعملية (خض) واســـعة النطاق للمعرفة المتحصــلة لــدينا. وذلك الخض هو الــذي يمكننا من تنظيم تلك المعرفة واستثمارها في الوصول إلى شيء جديد.

الذكاء العالي والعقل المتـوهج يصـدر ومضـات إبداعية فـذة، تمكننا من التعـــرف على بداية طريق لم يُســـلك من قبـــل، لكن الســـير المظفر حــتى بلــوغ الغاية لا يمكن أن يكــون من غــير بحث وعلم بالدقائق والتفاصيل. وهذا هو الذي يفسر الوضعية العالمية الســائدة

اليوم، فمع أن البارئ -عز وجل- وزع الذكاء على الأمم والشعوب -وليس الأفراد- بالتساوي إلا أن الأمم التي استطاعت توليد المعرفة الثرة هي التي تبدع، وتخترع اليوم.
الذكاء من غير معرفة ملائمة قليل الجدوى. وعقل متوسط في إمكاناته مع معرفة جيدة وبيئة علمية مناسبة -يمكن من غير شك- صاحبه من التفوق والنجاح والتميز.
2- إن الاعتزاز بالدور الذي يمكن للعقل أن يقوم به نابع في جزء منه من انتشار الأمية وضآلة المعارف المطلوبة للتقدم الحضاري، فحين يتقارب الناس في محصلاتهم العلمية فإن الذي يلفت النظر آنذاك هو الذكاء الفطري، ولا سيما سرعة البديهة والخيال الخصيب؛ لكن الأمر يختلف على نحو كبير حين تتراكم المعارف والمعلومات وتنشط آليات صناعتها. والقاعدة العامة في هذا الشأن وفي كل شأن هي أنه كلما أوغل الناس في الحضارة صارت قيمة ما هو مكتسب أهم مما هو فطري حتى المواد الخام والموارد الطبيعية المختلفة تتراجع قيمتها الفعلية لصالح التقنية والتصنيع والتدريب والإدارة، ومما يذكر في هذا السياق أن اليابان تستورد من بعض الدول العربية (طن) الألمنيوم بما يعادل (800) دولار. وبعد تصنيعه وإدخال الخبرة المرموقة في إعادة تشكيله تبيع الطن الواحد بما قيمته (مائة ألف دولار)- وهكذا مع مرور الأيام ستتراجع قيمة الذكاء المحض ليصبح أحد عناصر التفوق والنجاح عوضاً عن كونه العنصر الأهم فيه. ومن المهم جداً لنا جميعاً أن ندرك طبيعة هذه التحولات، وننسجم معها. وإن الاعتقاد الشعبي السائد بمطابقة الذكاء للإبداع زهّد الناس باكتساب العلوم والمعارف. وقد ورثنا تقاليد ثقافية سيئة، يقوم العديد منها على إعطاء دور مبالغ فيه للعقل في تصور المشكلات وإيجاد حلول لها من غير الشعور بأي حاجة لاستقراء الواقع والبحث في معطياته.
وليس لدينا إلى هذه اللحظة ما يشير على نحو حاسم إلى أننا اعتمدنا المعرفة المنظمة والدقيقة مدخلاً ضرورياً للفهم والتقدم والثراء، فقطاع التعليم وقطاع البحث العلمي هما في نظر الكثيرين من القطاعات الخدمية، التي تأخذ ولا تعطي. إن البلدان المتقدمة تنفق على البحث العلمي ما يزيد على 2% من ناتجها القومي الضخم، على حين أننا ننفق من النواتج القومية لدينا ما لا يزيد على 2 أو 3 بالألف مع ضآلة تلك النواتج! وليس السبب في هذه المفارقة أننا لا نملك القدرة على الإنفاق –كما ندعي دائماً- وإنما

يكمن الســـبب في أننا لا نملك الإرادة. ونحن لا نملك الإرادة لأننا لا نعرف قيمة توجيه المال إلى الحقول المعرفية.

3- قد يكون من المفيد أن نعمق النظر إلى مجال عمل العقل وإلى المجــال الــذي تعد فيه مســاندة المعرفة شــيئاً جوهريــاً. ومع أن المشـهد لا يخلو من شـيء من الغمـوض والتعقيد بسـبب العلاقـات المتدرجة بين المجـــالات المختلفة إلا أنه يمكن القـــول على نحو مجمل: إن العقل يرتبك ارتباكاً عظيماً حين يُطلب منه تحديد مبادئ كبرى أو غايات نهائيـة، فعلى مـدار التـاريخ اشـتغلت عقـول عملاقة على تحديد أسـباب وجودنا على هـذه الأرض، كما اشـتغلت بالغاية النهائية للخلـــق، ولم تخـــرج من كل ذلك إلا بالمزيد من الأقـــوال المتضاربة والغارقة في الظن والوهم. بل إن العقل كثـيراً ما يُبـدي العجز عن تحديد بعض مفـردات الخـير والشـر، والنـافع والضـار، والآمن والخطـر، والمهم وغـير المهم... والسـبب في كل ذلك أن البـارئ –جل وعلا- فطر العقل على العمل ضـمن أطر ومحـدِّدات معينة. كما أنه ليس في الـدماغ (خانـة) تقـدم له المعونة في تحديد الأشياء التي أشرت إليها. إن الوحي هو الذي يحدد كثـيراً من ذلـك. وما هو في منطقة (العفـــو) أو الفـــراغ القـــانوني تحـــدده الثقافة والأعراف والتقاليد. وعقولنا ترتبك كثيراً في التعامل مع (الكيف) أو ما نسميه (الصـفات) على حين أنها تنجز على نحو بـاهر في الأمـور الكمية، وكل ما يمكن التعامل معه عن طريق القيم الرقمية.

لا أريد أن أعطي انطباعاً بانعدام وجـود قيمة حقيقية للتأمل والنظر المجرد، فهذا غير صحيح؛ حيث إن للتفكير التجريدي دوره الأساسي في اكتشـاف جميع الحقـائق والقـوانين الرياضـية، وله دور مهم في فهم الأحـداث التاريخية والإيحـاء بإمكانـات واحتمـالات جديـدة، لكن ذلك يتم على أنه من الأمـــور الظنية وغـــير المؤكـــدة. لكن العقل البشـــري لا يســـتطيع أن يخطو خطـــوة واحـــدة واثقة في (علم الاجتمــاع) دون أن تُجمع له المعلومــات الملائمة حــول أمــور مثل وضعية التواصل الاجتمـاعي في بيئة مـا، ومثل دور الثقافة الشـعبية في استمرار المجتمع والعوامل الأكثر تأثيراً في تطوره... كما أنه لا يســتطيع أن يحــرز أي تقــدم في (علم الاقتصــاد) دون البحث في مسائل مثل إنتاج السـلع وتوزيعها ومثل النـدرة والبطالة والتضـخم. وهو في كل هـذا يفتقر افتقـاراً كليـاً إلى المعلومـات والإحصـاءات الفنية والدقيقة.

إني أعتقد أنه قد آن الأوان لتقرير مـــــواد دراســـــية في المرحلة الثانوية والمرحلة الجامعيــة، تــتيح لأبنائنا الطلاب المفــاهيم الــتي تســاعدهم على معرفة الــدور الحقيقي للعقل في الاكتشــاف، إلى جانب إسهامات المعارف والتجارب في ذلك، بالإضافة إلى الأخطـاء والأوهام التي تقع نتيجة إعمال العقل وتشغيله، والأخطـاء الـتي تقع بسبب تشغيل العقل من غير زاد كاف من المعرفة والخبرة.
إننا نقف على أعتـــاب عصر جديد يحتل فيه الفهم للســـنن الربانية والفهم لطبائع الأشياء وانفتاح الذات على العلاقـات –مكانة خطـيرة وحاســمة- ويجب ألا نقف متفــرجين إلى أن نجد أنفســنا في زاوية أكثر حرجاً وأشد ضيقاً. والله الموفق.

================

الامتحان الصعب

د. عبد الكريم بكار

يحكم شـؤوننا العامة والخاصة نوعـان من النظم: نظم ثقافية تقـوم على العقائد والأفكار والقيم والرمزيـات والعـادات والتقاليـد، ونظم حضـارية، تنبثق من مبـادئ وحاجـات الإنتـاج والاسـتهلاك والتبـادل المـادي، وما يـدور في فلك ذلك ويقتضـيه. النظم الثقافيـة، تشـكل روح الحضارة وعقلها المـدبر، على حين تـوفر النظم الحضـارية كل ما من شأنه الارتقاء بالهياكل والأوضـاع المعيشـية. وبين هـذه وتلك من الجــذب والنفــور والتــأثير والتــأثر ما بين الشــكل والمضــمون والروح والجسـم. ونحن نشـهد اليـوم دفقـاً ثقافيـاً هـائلاً، لم يسـبق للبشــرية عهد بمثلــه، وهــذا الــدفق مع أنه ســيظل وثيق الصــلة بالفلسفة العميقة للأمم التي تقود الحضارة اليوم إلا أننا عند التأمل نجد أنه يشــكل ما يمكن أن نعــده منتجــاً ثقافيــاً ثانويــاً للتقــدم الحضاري المادي على صعيد الإنتاج والاستهلاك والتبـادل. وقد أشـار إلى هذه الوضعية مدير شركة (سـوني) حين سـئل: ألا تراعـون في منتجـاتكم الخصوصـيات الثقافية للـدول والشـعوب الـتي تصـدرون إليها؟ أشار بقوله: نحن هنا نصنع ثقافات، ولا نجد حاجة إلى مراعاة خصوصيات أو تنوعات ثقافية!
هـذه الوضـعية تكـاد تكـون فريـدة في تـاريخ البشـرية؛ إذ إن بطء التطور الحضـاري في الماضي كـان يسـمح بـدور مـؤثر للثقافة في توجيه النمو المـــادي، أو يســـمح -على الأقـــل- بدرجة من التكيف والتلاؤم بينهما.

وفي اعتقــادي أن كل الأيــدلوجيات والقيم، وكل ما كــان متصــلاً بـالرمز والمعـنى والعـادة يتعـرض لامتحـان هو الأصـعب من نوعـه، حيث ينفتح وعينا اليوم -كما لم يحـدث من قبـل- على تلمس ما هو من قبيل اللـــــذة والمتعة والراحة والمنفعـــــة، وما هو من قبيل المحسوس، والعاجل والسطحي؛ وتتقـدم فنـون التسـويات الفكرية والحلـول الوسـطى وتـذويب الثنائيـات على نحو مـدهش ومخيـف. وصار ما كان يُعد من قبيل المحرمات والممنوعات الثقافية يتضاءل على نحو مستمر ومتصاعد، مما قد يعـني في نهاية المطـاف ضـياع المرشـدات العليا لحركة الحيـاة! وقد دلت الشـواهد التاريخية على أن الحضارة تغلب الثقافة، وأحياناً تقتلها كما يقتل المكـانُ الزمـانَ، وكما يقتل الامتـدادُ الاتجـاه. ولا أدري لمـاذا يحـدث ذلـك؟ هل لأن الحضارة تعبر عن ذاتها بلغة أوضح من اللغة التي تعـبر بها الثقافـة؟ أو لأن المنتجات الحضارية على صلة بالملموس وعلى صلة بالأهواء والرغبـات على حين تـنزع الثقافـات إلى المجـرد والمتعـالي؟ أو أن ذلك يحدث لأن تعميم المنتجات الحضارية أسـهل من تعميم الرمـوز الثقافيــة؟ أو لأن المشــتغلين بتنمية الحضــارة يشــكلون أضــعاف المشتغلين بتنمية الثقافـة؟ أو لهـذه الأسـباب كلهـا. وعلى كل حـال فإن تجربتنا الحضارية الخاصة تـدل على أن التقـدم العمـراني كـان يقترن في معظم الأحيان بتراجع في سوية التدين والالـتزام الخلقي العميـق، وكـأن الـوعي البشـري يرتبك حين يكلف بـإدارة منتجـات حضارية ضخمة من أفق أصوله وثوابته ورمزياته. وهذا يجعل التقدم الحضاري يشكل خطـورة كخطـورة هيكل وضـعنا له محـرك سـيارة وكوابح دراجة. وإنها لمغامرة كـبرى تلك الـتي نقـوم بها اليـوم حين نحفز على النجــاح بكل وســيلة إلى درجة جعله غاية في حد ذاتــه، على حين يخفت الصوت الأخلاقي والقيمي إلى درجة الاستحياء من رفعه!

العربية الـــتي ســـطرنا في بيـــان فضـــائلها وعظمتها الكثـــير من الصفحات تتراجع في كل يـوم بوصـفها شـيئاً يتصل بالثقافة لصـالح اللغات الأجنبية بوصفها شيئاً يتصل بالحضارة. والتربية بوصفها ناقلاً للقيم والعـادات والتقاليد تـتراجع هي الأخـرى، ويترسخ (التـدريب) بوصفه متطلباً للانخراط في سوق العمل. التجـارة بوصـفها هندسة التبـادل المـادي تكسب في كل يـوم أرضـاً ثابتة على حسـاب قيم النزاهة والصدق والنقاء والشفافية بوصفها مؤشرات أخلاقية...

القـــوانين والنظم الســـارية تشـــكل في الأصل منتجـــات حضـــارية تستهدف التقليل من ابتعاد المسار الحضاري عن مسـار المـدلولات الثقافية؛ وتشهد هذه كلها في بقاع كثيرة من عالمنا الإسلامي نوعـاً من الانهيار بسـبب انتشـار الأنانية والفسـاد والرشـوة والتهـرب من الضـــرائب، مما يعـــني جمـــود القيم وانحســـار فاعليتها عن توجيه المناشط الحضارية كافة!

مع إيماني العميق بأن لـدى الآخـرين أشـياء كثـيرة يجب أن نتعلمها منهم، إلا أنني أؤمن أيضاً أن العقل الغربي يقود العالم إلى الـدمار، حيث حصر نفسه في البحث عن الوسـائل بوصـفها غايـات في حد ذاتها.

وأخذت حكمة الغرب -بما هي بحث في الغايـات- تـتراجع في حياته على نحو مخيف؛ بل إن حكمة الغرب تظل محدودة النجاعة؛ لأنها لا تستطيع بوصفها منتجـاً عقليـاً بعيـداً عن الاهتـداء بنـور الـوحي -أن تهتـدي إلى علة أولى أو إلى غاية نهائيـة. العلم يبحث في الأسـباب والحكمة تبحث في الغايـات، وهما معـاً في حاجة إلى بعد ثـالث هو (الإيمان) والإيمان يبدأ عند انتباه الـوعي البشـري إلى محدودية كل من العلم والحكمـة، لأن الإيمـان عقل بلا حـدود، ينهل من علم غـير محدود.

ليس من اللائق إذا كانت لدينا عيـوب وأخطـاء وانكسـارات، وإذا كنا في حاجة إلى كثـير من المراجعـات -ليس من اللائق أن نستسـلم تجـاه تراجع الثقافة أمـام الحضـارة؛ لأن الاستسـلام سـوف يعـني خسارة لرأسمال فكري ومعنوي، قد لا نسـتطيع تعويضه على مـدى قـــرون! وتبـــدأ المقاومة حين نتمكن من بلـــورة مرجعية فكرية ومعرفية وأخلاقية مسـتنبطة من مجمـوع أهـدافنا النهائية وواجباتنا الكبرى.

والله الموفق.

===============

لمن هذه الخيمة؟

د. عبد الكريم بكار

في عقول كثـير من النـاس أفكـار لأعمـال خيرية وإصـلاحية كثـيرة، لكن الذي يرى النور منها قليل جداً. والأقل من القليل هو ذاك الذي يحقق نجاحاً ملحوظاً! كلما نشبت أزمة إكتشف كثير من المفكـرين والدعاة أن لدى الأمة قصوراً أو انحباسـاً أو مشـكلة في جـانب من جـوانب حياتهـا. ويبـدأ كل واحد منهم بالتعامل مع ذلك على طريقته

الخاصة: واحد يلقي محاضرة وثان يصدر فتوى، وثـالث يؤلف كتابـاً، ورابع يشــكِّل لجنة وهكــذا... أصــحاب الفتــاوى والكتب والخطب يشعرون أن مهمتهم انتهت، وفعلوا ما عليهم أن يفعلوه.

ويبقى أولئك الذين يشكلون اللجـان والمجموعـات للبحث والتنظـير ورسم الخطط.. إنهم كثيراً ما يشعرون أن مهمتهم كبيرة، وأن الرد على تلك الأزمة، أو معالجة ذلك القصـور قد يتطلب ما هو أكـثر من فتوى أو خطبة.

ويمضي القوم في اجتماعـاتهم الأسـبوعية أو الشـهرية أو الفصـلية، ويستفرغون جهدهم وطاقتهم في إجراء الدراسات المطلوبة، وكلما فرغوا من دراسة جزئيـة، نسل البحث جزئية أخـرى. وفي كثـير من الأحيان يُنسى الهدف الأساسي الذي اجتمعوا من أجله، وتجد لديهم أهداف صغيرة يبحثون عن وسائل وأطر لبلوغها وهكذا.. ومع مــرور الأيام تأتي الصـوارف والشـواغل، وتفـتر العـزائم، ويسـود نـوع من الشـعور بانســداد الآفـاق وبعـدم وجـود الأهلية لمعالجة ما تصـدوا لمعالجتــه. وربما جــاءت أزمة جديــدة، أنســتهم القديمــة، ودفعتهم للانشغال بها! كثير من أولئك المجتمعين يبحثون في مسـائل خـارج اختصاصهم، ولـذلك فـإنهم يبـذلون جهـداً هـائلاً ووقتـاً طـويلاً حـتى يسبروا أغوار الأزمة أو القضية التي تصدوا لها، وحتى يوجدوا قاعدة للفهم المشترك بينهم. وكثيرون منهم يشعرون بأنهم يحملون الكثير من الأعبـاء، وأنه ليس لـديهم أي طاقة لتحمل أعبـاء جديـدة، ولـذا فإنهم يفيضـون ويطولـون في المناقشـات النظريـة، وفي نفس كل واحد منهم تــوجس خفي من أن ينتهي البحث إلى تكليفه بشــيء عملي. ولذا فإن تلك المناقشات تنـدفع بـالغريزة بعيـداً عن ميـادين العمل. وإذا أفضت إلى شـيء عملي، فينبغي أن يقـوم به أشـخاص من غـير المجتمعين، فـالمجتمعون خلقـوا للتنظـير، وعلى أشـخاص أقل سوية أن يتولوا التنفيذ!

ثم لا يجــدون أولئك المنفــذين، وتنتهي العاصــفة بمجموعة من الأمنيات والمقترحات التي ما تفتأ أن تسقط بالتقادم.

قد يكون من المفيد أن نوضح أن أهم ما يُطلب في هذه المبـادرات الخــيرة، هو أن يعتقد في كل مجموعة أو لجنة شــخص واحد على الأقل أن الوصول إلى شيء عملي يُعد أولوية مطلقة بالنسبة إليــه، وكأنه يقول: أنا صاحب هذه الخيمة والمسـؤول عنها وحاميهـا، ومن أراد التعـاون معي فأنا موجـود، وإن لم أجد فسـأتابع العمل وحـدي. إنه بــذلك يجعل من نفسه محــوراً يجــذب إليه كل أولئك الــذين

يشاركونه هموم ما تصدى إليه. أولوية واحدة تُخدم بشكل جيد خـير من أولويـات كثـيرة، لا يجد صـاحبها أي طاقة كافية لخدمة أي منها على الوجه الصحيح. والله الموفق.

===================

"المرأة: نقطة مفصلية"

د. عبد الكريم بكار

كلما تفتح وعي النـــــاس على واقعهم، وكلما تفتح وعيهم على ما بينهم من تباينـات وتنوعـات قفـزت (قضـية المـرأة) لتكـون أحد المحـاور الأساسـية في كل نقـاش، بل إن كثـيراً من الاتجاهـات والأحزاب الإسلامية وغير الإسلامية يجعلون من موقفهم من المـرأة أحد أهم الـدلالات على طبيعة اتجـاههم وطبيعة نظـرتهم للمسـائل الوطنية الكـبرى، ولهـذا فـإن تنـاول مسـائل إصـلاح المـرأة، يتسم بحساسية خاصة لدى الجميـع، ولا يكـاد يطـرح حـتى يثـير العواصف والزوابع الإعلامية في كل اتجـاه وعلى كل مسـتوى، ولهـذا فـإن التنـاول له يتسم دائمـاً بالحيطة والحـذر، ويحتـاج إلى الكثـير من الاحترازات.

ومن وجه آخر فـــإن كل الأمم -على ما يبـــدو- تجعل من المـــرأة المنـاط الأساسي لشـرفها، كما تجعل منها ما يشـبه المـؤتمن على تواصل الأجيال على المستوى الأسري، وكأن هزّ المرأة للمهد جعل منها القيّم الأول على عملية نقل التقاليد الشعبية واسـتمرارها عـبر العصور.

لا أستطيع في هـذا المقـال أن أقـول كل ما يجب قوله فلأقتصر إذاً على ما أراه أكثر أهمية، وذلك عبر الحروف الصغيرة الآتية:

1) لا يسـتطيع أحد فينا أن يـزعم أن أحـوال المـرأة المسـلمة على خير ما يرام فنحن نشكو من سوء حال المرأة المسلمة، كما نشـكو من سوء حـال الرجل المسـلم؛ بل إنه ليس في الغـرب أو الشـرق من يسـتطيع أن يـدعي أن أحـوال نسـائه ورجاله مسـتغنية عن الإصـلاح، وإذا كـان في الـدول الغربية من يتخذ من الحـديث عن أوضاع المرأة المسلمة عامة والمرأة العربية خاصة وسيلة للضـغط علينا ووسيلة للتدخل في شؤوننا، فـإن هـذا لا ينبغي أن يـدفعنا إلى التباطؤ في تنمية المرأة المسلمة ودفعها نحو الأمام.

نحن من حيث المبدأ مع كل من يـدعو إلى الإصـلاح كائنـاً من كـان، ولكل من يساعدنا عليه الشكر والعرفان.

2) من المهم أن نعـترف أنه على مـدار العقـود الخمسة الماضـية -ولك أن تقول القرون- كان جل اهتمامنا مصروفاً إلى صيانة المـرأة المســـــلمة والتفكــــير في المحافظة عليها ومنعها من الاختلاط بالرجال. قد صرفنا 80% من جهودنا في ذلـك، وصـرفنا 20% منها على صعيد تنميتها وإعدادها للمهمات الملقاة على كاهلها.

وكـــان علينا أن نفعل العكس من ذلـــك. إننا لا نختلف في أهمية حجاب المرأة وأهمية إبعادها عن مواطن الفتن وإبعاد مواطن الفتن عنها، لكن هذا يجب أن يتساوق مع توفـير الـبرامج والأطر والآليـات الـتي تسـاعدها على أن تكـون الزوجة والمربية والداعية والمواطنة الصالحة والمنتجة، ولو أننا تساءلنا عن المؤسسات الـتي تـوفر ذلك لم نجد إلا القليل والقليل جداً مما يمكن أن نتحدث عنه.

3) إن الغرب حين يطالب بإصلاح أوضاع المـرأة المسـلمة -وكـذلك الذين يحتطبون بحبالـه- ينظر إلى واقع المـرأة لـدينا، وإلى ما يجب أن تكـون عليه من أفق ثقافته ورؤاه الحضـارية، وبما أن الغربـيين يجعلون من ثقافتهم ومن منجزاتهم مرجعية كونية شاملة ومتفـردة، فإنهم لا يستطيعون أن يدركوا أن العالم وإن كان يسـتظل بحضـارة واحدة، هي حضارتهم إلا أنه يحتفظ لنفسه بتنوع ثقافي هائل. ونحن المسلمين لسنا راضين عن وضع المرأة الغربية، كما أن ما اقتبسته بعض الـدول الإسـلامية من الغـرب على صـعيد المـرأة سـبَّب لنا مشكلات كثيرة، ولم ننتفع منه بشيء ذي قيمة؛ ومن ثم فإننا لا نجد لدى الغرب النموذج المنشور للمرأة المسلمة.

إن أمة الإسلام وهي تحاول النهوض بأوضاع المـرأة لـديها لا تنطلق من فـراغ تشـريعي أو معـرفي، كما أنها ليست الأمة الطارئة على التاريخ، ولا الأمة التي تشكو العوز على مسـتوى الأعـراف والتقاليد والـدلالات الرمزيـة. إننا بمعـنى آخر نملك على مسـتوى الفلسـفة وعلى مستوى التشريع منظومة من القيم والمفاهيم والأحكام الـتي توجه كل حركات النهوض والتقدم على الصـعد كافة بما فيها صـعيد المرأة. وإننا بالتالي نعتقد أن الإصـلاح الـذي يـرمي إلى نـزع قضـية المـرأة من تلك المنظومة ليس بإصـلاح، وإنما هو تخـريب. تحـريم الله -تعـالى- للزنا يسـتلزم بداهة تأسـيس أوضـاع، تسـاعد الرجـال والنســاء على العفــاف من نحو البعد عن اختلاط الجنسـين وسـتر المـرأة لمفاتنهـا، والبعد عن كل ما يهيج الغرائـز. وإن كـون المـرأة تـرث نصف نصـيب الرجل من المـيراث في بعض الحـالات -مرتبط بتشريعات أخرى مثل كون الرجل هو المكلف بالإنفاق على الأسرة،

ومثل كونه هو الـذي يـدفع المهر وهكـذا...، إن كثـيراً من الـذين يطـالبون بإصـلاح شـؤون المـرأة وفق ما هو سـائد لـدى العـالم الصـناعي لا يعـيرون أي إنتبـاه لمسـألة مهمـة، هي أن التقـدم على النحو الممتاز يظل مرتهناً للانسجام بين معتقدات المـرء وسـلوكاته وأوضـاعه العامـة. كما أن التوجيهـات والتشـريعات الإسـلامية تعمل مجتمعة في إطار منظومة واحدة، وإن إدخـال أي تعـديلات جوهرية على أي جزء من أجزاء المنظومة يعوق آداءها الكلي.

4) إذا تركنا الثوابت التي لدينا في القضايا المتعلقة بشؤون المـرأة، فإننا سنغادرها إلى اجتهادات وتجـارب بشـرية قاصـرة وصـادرة من رؤى إقليمية وجانبية محـدودة (والعقل لا يصـدر دائمـاً إلا عن رؤى جزئيـة)، وتلك الاجتهـادات متغـيرة ومتجـددة والارتبـاط بها لا يعـني التبعية لما هو مـرحلي ومتطـور فحسـب، لكنه يعـني أيضـاً إحـداث تصـــدعات في البـــنى العميقة داخل مجتمعاتنا وتشـــتيت القـــوى الاجتماعية بين متمسك بالقديم ولاهث خلف الجديد، وليس في هذا مصلحة لأي أحد فينا.

حين غزا الأوربيون أفريقيا في القرن التاسع عشر أبدوا اسـتهجانهم لتكشف المرأة الأفريقية وعدم اهتمامها بستر جسـدها، حيث كـانت المرأة الأوربية آنذاك تلبس ثياباً طويلة سابغة، كما كانت تضع شيئاً على رأسـها، واليـوم تجـاوز العـري الأوربي كل مقـاييس الحشـمة، وصـار ما هو دارج حجة أخلاقية وقانونية يمكن الاتكـاء عليها بعيـداً عن أي نصـوص دينية أو موروثـات ثقافيـة. وتجـاوز الأمر ذلك أيضـاً إلى أنه يضيق بلد ذرعاً بقطعة قماش تضـعها مسـلمة على رأسـها، وتصدر القوانين الحـاظرة لـذلك، مع أن ذلك البلد يوصف بأنه مركز التنوير والإشعاع الحضاري والديموقراطي الأول!!

5) إن الاختلاف التشريحي والفزيولـوجي بين الرجل والمـرأة، حـدد في الحقيقة إلى مـدى بعيد الـدور الأساسي لكل منهما في الحيـاة، فكون المرأة هي التي تحمل وتلد وتُرضع، جعل من الأمور الطبيعية أن تهتم هي بشؤون الأسـرة وليس الرجـل، كما جعل من الطـبيعي أيضاً أن تمكث في البيت أكثر من مكـوث الرجـل، وهـذا يـؤثر على مجمل خبراتها الحياتيـــة، ويجعل آراءها لكثـــير من الأعمـــال خـــارج المنزل لا يتم بالكفاءة التي تبدو في أداء الرجل، ولهذا فـإن المـرأة لم تستفد من تشريعات المساواة المطلقة مع الرجال في كثير من بلدان العالم سـوى القليـل، ولا سـيما على صـعيد الوظـائف العليـا؛ فنسـبتهن بين رؤسـاء الـدول والـوزراء والأمنـاء والمـدراء العـامين

متدنية جداً، ولا تقدم الدول المتقدمة شيئاً زائداً في هذا عما تقدمه الـدول الناميـة. ثم إن كـون المـرأة أخف وزنـاً من الرجل وأصـغر حجمـاً منـه، جعلها غـير قـادرة على مباشـرة الأعمـال الـتي تتطلب درجة عالية من القوة البدنية. وهكذا فالدول التي جندت النساء في جيوشــها تكل إليها القيــام ببعض الأعمــال الإداريــة، ولا تكلفها في الغــالب بمباشـــرة القتــال. وفي الولايــات المتحـــدة انتهت بعض الدراسات والإحصاءات إلى أن الشرطية الأمريكية تستخدم السلاح، وتقتل من المطاردين أكثر مما يفعله الشرطة الذكور بسبب ضـعف القوة البدنية لدى النساء وتوفرها لـدى الـذكور. ولا يخفى أن بعضـاً من سـوء معاملة المـرأة وبعضـاً من الظلم الـذي يقع عليها في كل أنحاء المعمورة، يعود إلى ضعفها البدني مقارنة بالرجـل. وإن تـأجج العاطفة لـدى المـرأة إلى حد السـيطرة شـبه الكاملة على القـرار الشخصي وعلى المحاكمة العقلية –لا ســيما في أوقــات الغضــب- يفسر حكمة إعطـاء إدارة الأسـرة والقوامة للرجـل، وجعل الطلاق في يده على نحو عام وليس في يدها. إن كثيراً من الخديعة للنساء والكثــير من التلاعب بهن وتــوظيفهن من قبل بعض الرجـــال في أعمــال لا أخلاقيــة، يتم بوصــفه حصـيلة نهائية لكل العوامل الــتي أشرت إليها. وقد أشـارت أحصـائية حديثة إلى أنه للمـرة الأولى في التـاريخ تتجـاوز نسـبة المواليد غــير الشــرعيين في بريطانيا نسـبة المواليد الـذين ولـدوا داخل مؤسسة الـزواج. وفي هـذا عـبرة لمن يستطيع أن يعتبر!

6) نحن ننظر إلى الاختلاف بين الرجل والمـــــــــــــرأة على كل المســـتويات، وفي كل الملامح على أنه جـــزء من عملية التناسق الكـبرى الـتي بثها البـارئ –سـبحانه- في هـذا الكـون، فكـون قيـام الأســـرة يشـــكل أحد أبـــرز معـــالم الحيـــاة الاجتماعية في الرؤية الإسـلامية –اقتضى وجـود الاختلاف بين الرجل والمـرأة، حيث يـأتي الانسـجام هنا من التبـاين، وليس من التنـاظر على قاعـدة:"نختلف لنأتلف" فزيادة العاطفة لدى المرأة ترطب أجـواء الأسـرة، وتلطف العلاقـات داخلهـا، كما أنها ضـرورية جـداً لآداء الخدمة الشـاقة في تربية الأطفـال. وزيـادة درجة المحاكمة العقلية لـدى الرجل تسـاعد على ترشـيد قـرارات الأسـرة، وتوجهها الوجهة الصـحيحة. ويحـدث الكثـير من الخلل حين تـتراجع العاطفة لـدى المـرأة، وحين تطغى لدى الرجل.

كما أننا ننظر من وجه آخر إلى الاختلاف بين الجنســــين على أنه معقد الابتلاء في الحيـــاة الاجتماعيـــة، إذ على الرجل أن ينظر إلى التبـاين بينه وبين المـرأة على أنه أداة اختبـار لـه، وعلى المـرأة أن تفعل مثل ذلك، وهذا هو البديل الجيد عن أن ينظر كل منهما لنفسه على أنه محور وعلى الآخر الدوران في فلكه.

7) إن أحد أهم المنطلقـات في مسـألة النهـوض بـالمرأة المسـلمة يتجسد في النظر إلى أن الأصل في واجبـــات الرجـــال والنســـاء واحتياجاتهم وحقـوقهم وآفـاق نمـوهم والفـرص الـتي يجب أن تتـاح لهم هو التوحد والتشـــابه، وليس الخصوصـــية والتبـــاين إلا ما دلت النصوص الصحيحة الصريحة والأحكام المعتمدة على الاختلاف فيـه. وهــذه النظــرة مخالفة على نحو جــذري للنظــرة الــتي تجعل من التبـاين بين الجنسـين أصـلاً، ومن ثم فـإن على من يـدعي التماثل الإثبــات بالأدلة والــبراهين. يقــول الله تعــالى:" وَمَنْ يَعْمَــلْ مِنَ الصَّـالِحَاتِ مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً" [النساء:124]، وقال:"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَــى اللَّهُ وَرَسُــولُهُ أَمْــراً أَنْ يَكُــونَ لَهُمُ الْخِيَــرَةُ مِنْ أَمْــرِهِمْ" [الأحــزاب:36]، وقــال ســبحانه:"إِنَّ الْمُسْــلِمِينَ وَالْمُسْــلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَـانِتِينَ وَالْقَانِتَـاتِ وَالصَّـادِقِينَ وَالصَّـادِقَاتِ وَالصَّــابِرِينَ وَالصَّــابِرَاتِ وَالْخَاشِــعِينَ وَالْخَاشِــعَاتِ وَالْمُتَصَــدِّقِينَ وَالْمُتَصَــدِّقَاتِ وَالصَّــائِمِينَ وَالصَّــائِمَاتِ وَالْحَــافِظِينَ فُــرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِـيراً وَالـذَّاكِرَاتِ أَعَـدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِـرَةً وَأَجْراً عَظِيماً" [الأحزاب:35] وقال:" وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَـيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [التوبة:71].

إن حاجــات المــرأة البدنية والروحية والنفســية والترويحية والأدبية والمعيشية لا تختلف عن حاجـات الرجـل، وينبغي العمل على تلبيتها في إطار خصوصية المـرأة ووفق حـدود الشـريعة الغـراء. وللمـرأة على الرجل حقـوق كما أن للمـرأة على الرجل حقوقـاً، وقد قـال – سبحانه-:"ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجــة" [البقــرة:228]. وقد كـان ترجمـان القــرآن ابن عبـاس –رضي الله عنهما- يقول انطلاقـاً من هـذه الآيـة:"إني لأحب أن أتـزين لزوجـتي كما أحب أن تتزين لي". وذُكر أنه قال في تفسير الآية:"أي لهن من حسن الصحبة والعشرة بـالمعروف على أزواجهن مثل الـذي عليهن

من الطاعة فيما أوجبه الله عليهن لأزواجهن". وقد اختلف المفسـرون في تفسـير كلمة (الدرجـة) على أقـوال، وقد ذهب ابن عباس إلى أن الدرجة إشارة إلي حض الرجال على حسن العشـرة، والتوسع للنساء في المال والخُلُق، أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه. قال ابن عطية وهذا قول حسن بارع.

إن للمـرأة المسـلمة الحق في أن تتطلع إلى تحقيق ذاتها وإثبـات وجودها والقيام بدور ريادي في المجتمع عن طريق الدعوة إلى الله –تعـالى- وتثقيف الجيـل، والمشـاركة في الحركة الإصـلاحية والمساهمة في تنمية الاقتصاد، ودفع عجلة التقـدم بما لا يـؤثر على وظائفها القائمة بها فعلاً من رعاية الأسرة وتنشئة الطفولة، وبما لا يتعارض مع الأطر الشرعية المعروفة في هذا الشأن. إننا لا نستطيع –كما لا يستطيع غيرنا- أن نفصل للنساء الأمور التي تتطلع إليهـا، أو تحقق ذاتها عن طريقها، فهذا شيء يشرطه الزمان الحاضر ونوعية الحالة الحضـارية السـائدة. ولا تختلف المـرأة في هـذا عن الرجـل، المهم دائماً مشروعية الأهـداف ومشـروعية الوسـائل بالنسـبة إلى كل منهما.

والحقيقة أن الأمة اليـوم -بما تعانيه من ضـعف في كل المجـالات- بحاجة ماسة إلى جهـود كل أبنائها وبناتهـا، مما يجعل كثـيراً مما أشرت إليه على أنه حقوق نوعاً من الواجبات الحضارية التي ينبغي إعداد المرأة للقيام بها والنهوض إليها.

8) يقول علماؤنا: الخـير المحض نـادر والشر المحض نـادر، ومعظم الأمور عبارة عن خير يشوبه بعض الشر، وشر يشـوبه بعض الخـير. وإننا انطلاقاً من هذا سنجدد دائماً بعض الميزات والإيجابيـات لكثـير من الأنشطة النسـائية، كما سـنجد أيضـاً بعض المثـالب والسـلبيات لكثير من ذلك. وعلينا من خلال معرفتنا بموازين الشـريعة السـمحة ومعرفتنا بسنن الله –تعالى- في الخلق بالإضـافة إلى فهمنا لطبـائع الأشياء ومنطقها أن نقوم بـ (تقييم) الإيجابيات والسلبيات لكل عمل من الأعمـال وكل نشـاط من الأنشـطة الـتي تحتـاج إليها المـرأة، وينبغي أن تساهم هي على نحو فاعل وواسع في توضـيح الحاجـات وتقييم الأنشـطة، فما غلبت إيجابياته على سـلبياته صـارت سـلبياته في حكم العدم، وما غلبت سلبياته إيجابياته، صـارت إيجابياته كـذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أن تقديرنا للمزايا والنقـائص كثـيراً ما يكـون اجتهاديـاً يقبل الخلاف والجـدل والرؤية المتعـددة. وإذا كـان هـذا صـحيحاً فـإن على الأمة أن توحد كلمتهـا، وتتعـاون على تطهـير

المجتمع من السلوكات والأوضاع المتفق على تجريمها والمتفق على سلبياتها وضآلة إيجابياتها، كما أن عليها أن تُبقي الباب مفتوحاً للحوار في الأمور المختلف فيها، وأن تتعلم مع ذلك كيف تتسامح فيما يحتمل تعدد الرؤية وتباين النظر والتقدير من أفق الحكم الشرعي أولاً ومن أفق النظر العقلي والخبرة المتراكمة ثانياً.

ومن الملاحظ في هذا الإطار أن كثيرين منا لا يُظهرون أي استعداد للمناقشة في المزايا والعيوب، ولا ينفتحون على أي رأي مغاير لآرائهم في قضايا (المرأة) وقد استسهلوا حظر أي نشاط أو عمل أو إطار لمحوا فيه سلبية من السلبيات غير مدركين للأضرار الخلقية والنفسية والاجتماعية التي تتعرض لها المرأة بسبب كبح روح المبادرة لديها وتضييق المجال الحيوي لنشاطها وحركتها. إن على أهل الخير والغيرة على المرأة المسلمة أن يدركوا أن الزمان ليس ممتداً أمامهم إلى ما لانهاية، وأنهم إذا لم يسعوا على نحو جاد لإصلاح شأن المرأة من أفق مبادئهم ومنطلقاتهم ورؤاهم، فإن غيرهم سينجز المهمة وفق ما يراه، وعليهم آنذاك ألا يلوموا إلا أنفسهم.

9) من المهم في كل مشروعات الإصلاح العامة وتلك الخاصة بالمرأة أن نركز على التثقيف والتربية بوصفهما المورد الأكبر لبناء الإنسان من الداخل، وبوصفهما الأداة الأكثر فاعلية لتأسيس ذات حرة كريمة، تحركها المبادئ والقناعات الذاتية، ويكبح جماحها الوجدان والضمير والوازع الداخلي. وقد بات هذا الأمر اليوم أكثر إلحاحاً؛ حيث أخذت العولمة تهمش كل السلطات: سلطة الدولة والمجتمع والأسرة والمدرسة، وسينتج عن كل ذلك تدهور في سلطة الأعراف والعادات والتقاليد، مما يعني أهمية استثنائية للرقابة الذاتية والمبادرة الخاصة، والتثقيف الجيد القائم على الحوار وتوسيع الأفق وقبول النقد والنظر إلى الأشياء من زوايا متعددة، يساعد الأجيال الجديدة على الشعور بالمسؤولية من خلال شعورها بحرية الاختيار. ومن الشعور بالمسؤولية تنبثق الشخصية، ويبزغ فجر الإنسان المبادر والمنضبط ذاتياً. وإن من المؤسف أننا على مدار التاريخ لم نكن نواجه انحرافات المجتمع وأمراضه وأشكال قصوره بتحسين مستوى التثقيف أو تطوير البنية التربوية، وإنما كنا نواجه ذلك بالإفراط في استخدام القوة وسن المزيد من النظم والقوانين الكابتة للنشاط والمقيدة للحركة، وقد عبر عن هذه الوضعية عمر بن عبدالعزيز –رحمه الله- حين قال:"يحدث للناس

من الأقضـية على مقـدار ما يُحـدثون من الفجـور". ولم نحصل من وراء كل ذلك إلى على أقل القليل من الصلاح والاستقامة والتقـدم، لكننا خرجنا أجيـــالاً من الإمعـــات والمهمشـــين وأجيـــالاً من ذوي السلوكات المتناقضة والنفوس الناقمة والتطلعات المرتبكة.

إن التثقيف الجيد يحتـــــاج إلى وقت وإلى جهد وصــــبر لكن نتائجه مذهلة! وإن طبيعة التدين الحق والالتزام الصحيح تتأبى على القسر والإكراه، وتنمو وتنتعش مع التحفيز والتشجيع والعناية الفائقة.

10) تواجه المـــرأة المســـلمة العديد من المشـــكلات النفســـية والاجتماعية والاقتصـادية، وهـذه المشـكلات منها ما هو خـاص بهـا، ومنها ما هو مشترك بين النساء جميعـاً. وإن من سـنة الله –تعـالى- في الابتلاء أن الـــذي يتحـــرك في إطـــار مبادئه وقيمه يجد نفسه تتحرك في مدى أضيق من المدى الذي يتحرك فيه من يمضي وفق رغباته وشـــهواته المطلقـــة. وهـــذه القيـــود والتكـــاليف تثقل كاهل الإنسان؛ لكنها في الوقت نفسه تشكل وسـائله وسـبله إلى الـرقى والســـمو والنجـــاة. ومثلها في ذلك مثل جنـــاحي النسر يثقلانه حين يكون على الأرض، لكن بهما يبلغ طبقات الجو العليـا. وأنا أشـعر أن إحسـاس الرجـال بحجم معانـاة النسـاء ضـعيف؛ وقد تعودنا إصـدار الأحكام العامة دون الـدخول في التفاصـيل، مع أن الشـياطين –كما يقولون- تكمن في التفاصيل، وهذا بعض ما أعتقد أنه يشكل أزمات عامة للمرأة المسلمة؛ على نسب متفاوتة:

- كثير من النساء يعانين من السأم والملل والفراغ بسبب أن لديهن في البيت من يخدمهن ويحمل عنهن عناء رعاية المنزل. وهناك عدد كبير آخر من نساء المدن والأرياف يجدن أوقاتاً كثيرة في المساء لا يعرفن كيف يملأنهـا. ونظـرت المـرأة إلى نفسـها فوجـدت أنه ليس لـديها رسـالة سـامية تسـعى إلى نشـرها وليس لها اهتمـام بخدمة اجتماعيـــة، تقـــوم بتأديتهـــا، كما أنه ليس لها هواية نافعة تقـــوم بممارستها.. وكانت النتيجة ضيق الصـدر وتـراكم الهم. وكـان الملاذ في الخلاص من الفراغ هو الجلوس أمام الفضائيات ومتابعة ما فيها من غث وسمين، واللجـوء إلى التسـوق والتجـول في الأسـواق وقد نمت النزعة الاستهلاكية لدى المـرأة المسـلمة والنزعة نحو الـتزين على نحو سـبقت به المـرأة الأوربيـة! إن المـرأة عنـدنا تتعامل مع المنتجات الاستهلاكية كما يتعامل السـجين مع الطعـام، حيث لا يجد ما يمارس حريته تجاهه سواه!

- كثـيراً ما نقـول: إن الوظيفة الأساسـية للمـرأة هو رعاية شـؤون الأسـرة وتربية الأطفـال. وهـذا حق لا جـدال فيـه، لكن مـاذا تعمل العوانس اللواتي لم يـتزوجن؟ ومـاذا تعمل امـرأة لم تنجب؟ ومـاذا تعمل امرأة كبر أولادها ووجـدت نفسـها وحيـدة بين أربعة جـدران؟ وماذا تعمل امرأة تزوجت وطلقت؟ إن هذه الفئات تشـكل نسـبة لا يستهان بها بين النساء.

هذه الوضعية تحتاج إلى حلـول مركبـة، قد يكـون أولها حفز المـرأة على تكـــوين رســـالة دعوية أو اجتماعية أو خدمية تحـــاول تأديتها والعمل من أجلها. وهذه مهمة وسائل الإعلام في المقام الأول.

ومن تلك الحلول إيجاد أماكن للتسوق خاصة بالنسـاء، ويمكن داخل تلك الأمـــاكن إيجـــاد أنشـــطة تربوية وتعليمية وترفيهية في إطـــار المبـاح، فـذلك يسـاعد على شـغل الـوقت بشـيء نـافع بعيـداً عن مواطن الفتن. ويظل الحل الأكثر نفعاً، والأكثر إمكاناً هو إنشاء ما لا يحصى من المؤسســات والأطر الخيرية والتدريبية والتعليمية الـتي تسـاعد المـرأة على تنمية ذاتها وعلى أداء دورها في خدمة الأمـة. ونحن مقصرون في هذا تقصيراً كبيراً، وإن من المؤسف أن المـرأة تكـاد تكـون المـرأة الوحيـدة بين نسـاء الـديانات المختلفة الـتي لا تذهب إلى مكان العبادة مع صريح قوله –صلى الله عليه وسـلم-:"لا تمنعوا إماء الله مسـاجد اللـه" وقولـه:"إذا اسـتأذنت أحـدكم امرأته إلى المسـجد فلا يمنعهـا" أخـرج الحـديثين مسـلم في صـحيحه. ولا خلاف في أن على المــرأة المســلمة إذا خــرجت إلى المســجد أن تـــترك الـــتزين والتطيب، وأن تلبس اللبـــاس الســـاتر. إن معظم مساجدنا ليس فيها أي مكان مخصص للنسـاء، والأمـاكن المخصصة في بعضها كثيراً ما تكون ضيقة ومهملـة. والعجيب أن كثـيرين ممن يخشـــون من وقـــوع نســـائهم في الفتنة إذا ذهبت إلى المســـجد لا يجدون حرجاً في تجول نسائهم في الأسواق الساعات الطـوال من غـير رجل يـرافقهن، ولا يجـدون حرجـاً في الـذهاب مع أهليهم إلى الحدائق العامة والسفر بهن إلى البلاد الأجنبية!!

إن حضور المرأة إلى المسجد ليس من أجل الصلاة فحســب، وإنما من أجل الانتفـــاع بالموعظة وممارسة نشـــاط دعـــوي وتربـــوي وتعليمي، يمكن أن ينشأ في دوائر النســـاء إذا ما نحن ملكنا الرؤية الصحيحة لتنمية المرأة المسلمة.

- إن كثـيرات من النسـاء يعـانين الأمـرين من مشـكلة الاختلاط في الـــدوائر والشـــركات والمؤسســـات، ويتعرضن للكثـــير من الأذى

والتحـرش الجنسـي، ولا أحد يهتم بهـذا، ولا يسـلط الضـوء عليـه. وبعض النساء يعانين من انحراف أزواجهن وسـلوكهم طريق الرذيلة واستسهال الخيانة الزوجية، كما أن بعضـهن يعـانين من زوج مـدمن على المسـكرات أو المخـدرات. وبعضـهن يعـانين من الـزوج الـذي يسهر مع شـلته إلى الفجـر، ثم يعـود إلى الـبيت لينـام سـويعات ثم يـذهب بعـدها إلى عملـه، ثم يعـود لينـام ويأكـل، ثم ينصـرف إلى أصدقائه وهكذا..!
هناك نساء كثيرات يعانين من ضـرب أزواجهن لهن، والاعتـداء على أمـوالهن ورواتبهن، وهنـاك وهنـاك.. إن كثـيراً من هـذه المشـكلات جاءت به أو زادت في تفاقمه الظروف الحضـارية الراهنـة، وإن كل هذا يحتاج إلى مواجهة شجاعة وحلـول ناجعـة. وأتصـور أن علينا أن نقلل من الاختلاط إلى الحد الأدنى وأن ننشئ أعـــداداً كبـــيرة من الجمعيـات والمؤسسـات واللجـان الـتي تسـعى إلى تثقيف الرجـال والنساء بأصول الحياة الأسرية وآدابها، كما تقوم بإصـلاح ذات الـبين وحل المشـــكلات المتفاقمة بين الـــزوجين. كما أن علينا أن ننشئ محـاكم مسـتعجلة جـداً أو ذات شـفافية عالية من أجل الأخذ على أيدي الأزواج الظالمين والفاسدين والمهملين.
- لا بد أن ننشئ المزيد من الأطر لتوظيف المـــرأة للاســتفادة من مؤهلاتها. ونحن نقول منذ البداية: إن الوظيفة الأساسية للمـرأة هي الأمومة والقيام بأعباء البيت والأسرة، لكن هناك نســاء تعلمن ونلن أعلى الشـــهادات والأمة في حاجة إلى علمهن وخـــبراتهن، وهنـــاك نساء لم يتزوجن والوظيفة بالنسبة إليهن باب للرزق وملء للفـراغ. وفي ظل تراجع دخل الفرد في معظم الدول الإسلامية صـار معظم الموظفين غير قـادرين على توفـير المـال المطلـوب لحيـاة أسـرية كريمة، ويحتاجون إلى مشاركة زوجاتهم في تغطية نفقـات الأسـرة وهنـاك وهنـاك.. إن الارتقـاء بالحيـاة يـوفر دائمـاً المزيد من فـرص العمل، وإن بعض الدول خاض في تجـارب ناجحة في توفـير أعمـال كريمة من خلال مشروعات (الأسر المنتجة) كما أن بعض الشـعوب الإسلامية تتبع تقليداً حميـداً في توفـير معلمين ومعلمـات ومـؤدبين ومؤدبـات على مسـتوى عـالٍ من الاسـتقامة والمعرفـة؛ من أجل تهـــذيب وإرشـــاد الأولاد والبنـــات في الـــبيوت. وأتصـــور أن سن تشريعات -في المدن على الأقل- لجعل الذهاب إلى رياض الأطفال منذ سن الرابعة إلزاميـاً سـوف يقـدم خدمة كبـيرة للأسر وللنسـاء الباحثات عن عمل.

إننا حين نملك ما يكفي من العزيمة والــوعي، فســنجد الكثــير من الحلــول، وســننجز إنجــازات ضــخمة للمــرأة المســلمة والمجتمع المسلم، ومن الله الحول والطول.

=================

في كل الأحوال (1/2)

أ.د. عبد الكريم بكار 5/9/1424

30/10/2003

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن إنجازاتنا وعطاءاتنا تخضع لثلاثة عوامل أساسية، هي:

1- ما ورثنــــاه عن آبائنا وأجــــدادنا من خصــــائص عقلية ونفســــية وجسمية.

2- البيئة الــتي نعيش فيها بما تشــتمل عليه من مفــاهيم وأعــراف وتقاليد وبنى تحتية ومرافق عامة...

3- الجهود الشخصية والخاصة التي نبذلها في تثقيف عقولنا، وتزكية نفوسنا وصقل مهاراتنا، واستثمار الفرص المتاحة لنا.

ولا يخفى أن بين هذه العوامل الثلاثة علاقة جدلية مستمرة، فالذكاء المتفوق والقدرات الذهنية الممتازة تسـاعد المـرء على أن يسـتفيد على أحسن وجه من المعطيـات الـتي توفرها البيئـة، كما أنها تجعله يدرك بسرعة حدود إمكاناته الحقيقية وطبيعة التحديات الـتي يلاقيها والطريقة المثلى لمواجهتها والتصرف حيالها.

البيئة الجيدة تجعل عمل النـاس أسـهل، وتـوفر لهم الظـروف الـتي تساعدهم على التفوق والارتقاء وهكذا..

والــــذي نســــتفيده من هــــذا هو أن التفــــوق في الجهد أو البيئة أو المـوروث الجيـني، سـوف يخفف من أضـرار القصـور في الجـانبين الآخــرين. وأن أي قصــور في أي جــانب أو عامل من هــذه الثلاثة سيؤثر سلباً في أداء العاملين الآخرين، وأعتقد أن التكامل والتفاعل بين ما ذكرنا يشكّل مظهراً من مظـاهر ابتلاء الله -جل وعلا- لنا في هذه الحياة؛ حيث إن إمكانات الارتقاء والتقدم ستظل موجودة مهما كان المـوروث الجيـني سـلبياً وضـعيفاً، أو كـانت البيئة صـعبة وغـير مواتيـة؛ وذلك من خلال تنمية الإمكانـات الشخصـية وبرمجة الـوقت وتحديد الأهداف واكتساب المهـارات، وقبل ذلك كله العبودية الحقة لله -تعالى- والاستعانة به، والتأهل لتوفيقه وفيوضاته غير المحدودة.

ولو أننا تأملنا في سير أولئك الذين صاغوا أمجاد هذه الأمة، وشيّدوا صرح حضارتها لوجدنا صدق ما نقول.
وأحب هنا أن أبلور المفهومات الثلاث الآتية:
أولاً: ما دامت المحصــلات النهائية لكل جهودنا الدعوية والإصــلاحية والتعليمية خاضعة لموروثاتنا عن الآباء والأجداد، وخاضعة للبيئة التي نعيش فيها وللجهد اليومي الذي نبذله، وما دامت كل هـذه الأمـور لا تكون أبداً حدِّية وكاملة؛ فإن المتوقع آنـذاك أن تكـون النتـائج الـتي نحصل عليها مشوبة دائماً بالنقص والقصور، وستظل دائماً أقل مما نريـد؛ فـأنت لا تسـتطيع أن تصل إلى حلـول كاملة في وسط غـير كامــل، وســتظل هنــاك فجــوة بين طموحاتنا وبين ما يتحقق على الأرض. هـذا يعـني أيضـاً أننا سـنظل نشـكو ونشـكو، وكـأن الـوعي البشري اخترع الشكوى من سوء الأحوال، ليتخذ منها محرضـاً على التقدم.
وإذا تتبعنا هـذه السلسـلة من الإحـالات والاسـتنتاجات فسنصل إلى الاعتقـاد بأنه لن يكـون في هـذه الـدنيا لأي أمة من الأمم أو جماعة من الجماعــات أو فــرد من الأفــراد - نصر حاسم ونهــائي- لا يقبل الجدل ولا الشك والنقد. ولهذا فإن الـذين يحلمـون بانتصـارات نقية وتامة سيظلون يصابون بصدمات الإحباط وخيبات الآمال!.
ثانياً: إذا كان الأمر على هذه الصورة؛ فهـذا يعـني أننا لن نصل أبـداً إلى اليـوم الـذي نعتقد فيه أننا قد حصـلنا على البيئة المثلى للعمل والإنجاز، ولا على الأدوات الـتي نحتاجها لتحقيق أقصى الطموحـات، وسنظل نشعر بوجود درجة من المجازفة والمخاطرة عند اتخــاذ أي قرار حاسم في أي اتجاه. وهذا يجعلنا نبلور مفهومـاً جوهريـاً، هـو:" اعمل ما هو ممكن الآن، ولا تنتظر تحسن الظروف".
وهذا المفهوم يقوم على مسلّمتين هما:
1- هناك دائمـاً إمكانية لعمل شـيء جيد لأنفسـنا وديننا والنـاس من حولنا.
2- مهما تحسنت الظروف؛ فإنه سيظل هناك من يمكنه أن يظن أن الظرف المطلوب توفره من أجل الإنجاز لم يتهيأ بعد.
ثالثاً: هناك مسلمون كثيرون مصـابون بفقر شـديد في الخيـال، فهم خاضــعون لمقــولات مســتعجلة أطلقها أعلام ومشـــاهير لم تنضج رؤيتهم لفيزياء التقدم ولا لطبيعة العلاقات التي تحكم قوى التحــدي والاستجابة، ومن ثم فـإنهم قد صـاروا أشـبه بمن وضع القيد بنفسه في رجليه في أجواء عاصفة وخطرة!.

إن الخيال نعمة كبرى من الله -جل وعلا-، وقد كـان نـابليون يقـول: "إن مؤسساتنا مصابة بمحدودية الخيال، ولولا الخيال لكان الإنســان بهيمــة". ويكفيــني هنا لفت النظر إلى مســألة تتجلى فيها محدودية الخيال وعقمه الشديد:

من الواضح أن جمهـرة غـير قليلة من أبنـاء الجماعـات والـدعوات الإسـلامية يعتقـدون أن تطـورات مذهلة سـوف تطـرأ على الحيـاة الإسلامية إذا قامت الدولة (الحلم) التي تسيّر شؤون النـاس، ولهـذا فإنهم عطلوا الكثير من الجهود، وأضاعوا الكثير من الفرص، وعلّقوا توازن أعداد هائلة من الناس على تحقيق ما يتطلّعـون إليـه!؛ بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى ما هو أسوأ، وهو الاعتقاد بـأنهم لا يسـتطيعون إنجـاز أي شــيء ذي قيمة إلا في ظل دولة إسـلامية راشـدة. وتلك الدولة ينبغي أن تكون من الطراز العمري، فـإذا كـانت من مسـتوى الحكومــات الأموية أو العباســية، فربما كــانت لا تســتحق أقل من الثورة!.

هؤلاء الناس يتخيلون أن الحكومة الراشدة التي يحلمـون بها سـوف تكـون على درجة عالية من الإخلاص والخلق والعلم وحسن التـدبير والحنكة في تحفيز الجماهير على الكدح والعطاء، وعلى درجة عالية من الخـــبرة في حل المشـــكلات الداخلية ومواجهة التحـــديات الخارجية، مع أنهم لا يقولون لنا: أين ستكتسب (الدولة الحلم) هـذه الخــبرات الخطــيرة؟ وفي أي بيئة ســتتكون لــدى أعمــدتها هــذه الصفات والأخلاق والمهارات الفذة والعجيبة؟ وهم ما فتئوا يشـكون من سوء الأحوال وتدهور الزمان!.

في ظل هـذه الدولة سـوف يحـدث ما يشـبه الزلـزال في النفـوس والمجتمعـات والعلاقـات والتوجهـات السـائدة: في ظل تلك الدولة العجيبة سوف ينشط الكسول ويتعلم الجاهل، ويبذل الشحيح، ويقلع بذيء اللسان عن التفوه بالألفاظ القبيحة، ويكفّ مدمنو المخــدرات والمكيفات عن تناولها، وسوف يحـاول المـدرس غـير الكفء صـقل مهاراته وإثـراء ثقافتـه... كما أن العلمـانيين والليبرالـيين وأصـحاب المصالح المضادة سـوف يسـلمون لتلك الدولة (المعجـزة) بالنزاهة والكفـاءة معـاً، ولـذا فـإنهم سـوف يسـلمون لها القيـادة. والـدول المناوئة في الخارج سترى أنه لا فائدة ترتجى من وراء مقارعة تلك الدولة؛ ولذا فإنها سوف تتجاهلها أو تهادنها...

وهكـذا سـتحدث تغـيرات كونية هائلة لم تحـدث في أي مرحلة من مراحل التاريخ! وحتى يحدث كل ذلك؛ فإن مما لا شك فيه أن طينة

تلك الدولة ينبغي أن تكــون خاصــة، ولا مثيل لها ما دامت ســتحقق إنجازات عديمة المثيل!.
وأنا أجزم أن تلك الجمهرة من الحالمين ستنقسم تجـاه أفضل دولة إسلامية يمكن أن تقوم في أي مكـان من الأرض إلى أقسـام عـدة: قسم يعمل معها بكفـاءة وإخلاص؛ وهـذا القسم قليل في أي زمـان وأي مكان. وقسم يتمتع بالكفاءة؛ لكن ينقصه الإخلاص والاسـتقامة. وقسم ثالث يخلص؛ لكنه لانعدام خبرته لا يعـرف كيف يخـدم الدولة والأمة. أما القسم الرابع؛ فهو قسم منتفع وصولي، ليس من هــؤلاء ولا أولئـك. والقسم الخــامس قسم معــارض يــرى أن الدولة الــتي سـعى إلى إقامتها قد خـانت رسـالتها، وانحـرفت عن مبادئهـا؛ فهو منهمك في ردها إلى المسار الصحيح.
أما القسم الأخير؛ فهو القسم الثائر الذي صارت أمنيته التخلص من تلك الدولة بـأي وسـيلة من الوسـائل، ولو كـانت اسـتخدام الصـنف وإشعال الحرب الأهلية!!.
هذه الأقسام لم نـأت بها من نسج الخيـال؛ بل هي مما عرفنـاه من سـنن الله -جل وعلا- في الخلـق، ومما فهمنـاه من طبـائع الأشـياء، وما وجدناه ونجده عند قراءة أي ثورة من الثورات الـتي تمكنت من الوصول إلى الحكم في بلاد إسلامية أو غير إسلامية.
ولعلي في المقال القادم أشرح شـيئاً مما يمكن القيـام به "في كل الأحوال"، ومن الله تعالى الحول والطول
في كل الأحوال (1/2)
أ.د. عبد الكريم بكار 5/9/1424
30/10/2003
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
فإن إنجازاتنا وعطاءاتنا تخضع لثلاثة عوامل أساسية، هي:
1- ما ورثنــــاه عن آبائنا وأجــــدادنا من خصــــائص عقلية ونفســــية وجسمية.
2- البيئة الــتي نعيش فيها بما تشــتمل عليه من مفــاهيم وأعــراف وتقاليد وبنى تحتية ومرافق عامة...
3- الجهود الشخصية والخاصة التي نبذلها في تثقيف عقولنا، وتزكية نفوسنا وصقل مهاراتنا، واستثمار الفرص المتاحة لنا.
ولا يخفى أن بين هذه العوامل الثلاثة علاقة جدلية مستمرة، فالذكاء المتفوق والقدرات الذهنية الممتازة تسـاعد المـرء على أن يسـتفيد

على أحسن وجه من المعطيـات الـتي توفرها البيئـة، كما أنها تجعله يدرك بسرعة حدود إمكاناته الحقيقية وطبيعة التحديات الـتي يلاقيها والطريقة المثلى لمواجهتها والتصرف حيالها.
البيئة الجيدة تجعل عمل النـاس أسـهل، وتـوفر لهم الظـروف الـتي تساعدهم على التفوق والارتقاء وهكذا..
والـــذي نســـتفيده من هـــذا هو أن التفـــوق في الجهد أو البيئة أو المـوروث الجيـني، سـوف يخفف من أضـرار القصـور في الجـانبين الآخــرين. وأن أي قصــور في أي جــانب أو عامل من هــذه الثلاثة سيؤثر سلباً في أداء العاملين الآخرين، وأعتقد أن التكامل والتفاعل بين ما ذكرنا يشكّل مظهراً من مظاهر ابتلاء الله –جل وعلا- لنا في هذه الحياة؛ حيث إن إمكانات الارتقاء والتقدم ستظل موجودة مهما كان المـوروث الجيـني سـلبياً وضـعيفاً، أو كـانت البيئة صـعبة وغـير مواتيـة؛ وذلك من خلال تنمية الإمكانـات الشخصـية وبرمجة الـوقت وتحديد الأهداف واكتساب المهـارات، وقبل ذلك كله العبودية الحقة لله –تعـــالى- والاســـتعانة بـــه، والتأهل لتوفيقه وفيوضـــاته غـــير المحدودة.
ولو أننا تأملنا في سير أولئك الذين صاغوا أمجاد هذه الأمة، وشيّدوا صرح حضارتها لوجدنا صدق ما نقول.
وأحب هنا أن أبلور المفهومات الثلاث الآتية:
أولاً: ما دامت المحصــلات النهائية لكل جهودنا الدعوية والإصــلاحية والتعليمية خاضعة لموروثاتنا عن الآباء والأجداد، وخاضعة للبيئة التي نعيش فيها وللجهد اليومي الذي نبذله، وما دامت كل هـذه الأمـور لا تكون أبداً حدِّية وكاملة؛ فإن المتوقع آنـذاك أن تكـون النتـائج الـتي نحصل عليها مشوبة دائماً بالنقص والقصور، وستظل دائماً أقل مما نريـد؛ فـأنت لا تسـتطيع أن تصل إلى حلـول كاملة في وسط غـير كامــل، وســتظل هنــاك فجــوة بين طموحاتنا وبين ما يتحقق على الأرض. هـذا يعـني أيضـاً أننا سـنظل نشـكو ونشـكو، وكـأن الـوعي البشري اخترع الشكوى من سوء الأحوال، ليتخذ منها محرضــاً على التقدم.
وإذا تتبعنا هـذه السلسـلة من الإحـالات والاسـتنتاجات فسنصل إلى الاعتقـاد بأنه لن يكـون في هـذه الـدنيا لأي أمة من الأمم أو جماعة من الجماعــات أو فــرد من الأفــراد – نصر حاسم ونهــائي- لا يقبل الجدل ولا الشك والنقد. ولهذا فإن الـذين يحلمـون بانتصـارات نقية وتامة سيظلون يصابون بصدمات الإحباط وخيبات الآمال!.

ثانياً: إذا كان الأمر على هذه الصورة؛ فهـذا يعـني أننا لن نصل أبـداً إلى اليـوم الـذي نعتقد فيه أننا قد حصـلنا على البيئة المثلى للعمل والإنجاز، ولا على الأدوات الـتي نحتاجها لتحقيق أقصى الطموحـات، وسنظل نشعر بوجود درجة من المجازفة والمخاطرة عند اتخـاذ أي قرار حاسم في أي اتجاه. وهذا يجعلنا نبلور مفهومـاً جوهريـاً، هـو:" اعمل ما هو ممكن الآن، ولا تنتظر تحسن الظروف".

وهذا المفهوم يقوم على مسلّمتين هما:

1- هناك دائمـاً إمكانية لعمل شـيء جيد لأنفسـنا وديننا والنـاس من حولنا.

2- مهما تحسنت الظروف؛ فإنه سيظل هناك من يمكنه أن يظن أن الظرف المطلوب توفره من أجل الإنجاز لم يتهيأ بعد.

ثالثاً: هناك مسلمون كثيرون مصـابون بفقر شـديد في الخيـال، فهم خاضــعون لمقــولات مســتعجلة أطلقها أعلام ومشــاهير لم تنضج رؤيتهم لفيزياء التقدم ولا لطبيعة العلاقات التي تحكم قوى التحــدي والاستجابة، ومن ثم فـإنهم قد صـاروا أشـبه بمن وضع القيد بنفسه في رجليه في أجواء عاصفة وخطرة!.

إن الخيال نعمة كبرى من الله –جل وعلا-، وقد كان نـابليون يقـول: "إن مؤسساتنا مصابة بمحدودية الخيال، ولولا الخيال لكان الإنســان بهيمــة". ويكفيــني هنا لفت النظر إلى مســألة تتجلى فيها محدودية الخيال وعقمه الشديد:

من الواضح أن جمهـرة غـير قليلة من أبنـاء الجماعـات والـدعوات الإسـلامية يعتقـدون أن تطـورات مذهلة سـوف تطـرأ على الحيـاة الإسلامية إذا قامت الدولة (الحلم) التي تسيّر شؤون النـاس، ولهـذا فإنهم عطلوا الكثير من الجهود، وأضاعوا الكثير من الفرص، وعلّقوا توازن أعداد هائلة من الناس على تحقيق ما يتطلّعـون إليـه!؛ بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى ما هو أسوأ، وهو الاعتقاد بـأنهم لا يسـتطيعون إنجـاز أي شـيء ذي قيمة إلا في ظل دولة إسـلامية راشـدة. وتلك الدولة ينبغي أن تكون من الطراز العمري، فـإذا كـانت من مسـتوى الحكومــات الأموية أو العباســية، فربما كــانت لا تســتحق أقل من الثورة!.

هؤلاء الناس يتخيلون أن الحكومة الراشدة التي يحلمـون بها سـوف تكـون على درجة عالية من الإخلاص والخلق والعلم وحسن التـدبير والحنكة في تحفيز الجماهير على الكدح والعطاء، وعلى درجة عالية من الخـــبرة في حل المشـــكلات الداخلية ومواجهة التحـــديات

الخارجية، مع أنهم لا يقولون لنا: أين ستكتسب (الدولة الحلم) هـذه الخـبرات الخطـيرة؟ وفي أي بيئة سـتتكون لـدى أعمـدتها هـذه الصفات والأخلاق والمهارات الفذة والعجيبة؟ وهم ما فتئوا يشـكون من سوء الأحوال وتدهور الزمان!.
في ظل هـذه الدولة سـوف يحـدث ما يشـبه الزلـزال في النفـوس والمجتمعـات والعلاقـات والتوجهـات السـائدة: في ظل تلك الدولة العجيبة سوف ينشط الكسول ويتعلم الجاهل، ويبذل الشحيح، ويقلع بذيء اللسان عن التفوه بالألفاظ القبيحة، ويكفّ مدمنو المخـدرات والمكيفات عن تناولها، وسوف يحـاول المـدرس غـير الكفء صـقل مهاراته وإثـراء ثقافتـه... كما أن العلمـانيين والليبرالـيين وأصـحاب المصالح المضادة سـوف يسـلمون لتلك الدولة (المعجـزة) بالنزاهة والكفـاءة معـاً، ولـذا فـإنهم سـوف يسـلمون لها القيـادة. والـدول المناوئة في الخارج سترى أنه لا فائدة ترتجى من وراء مقارعة تلك الدولة؛ ولذا فإنها سوف تتجاهلها أو تهادنها...
وهكـذا سـتحدث تغـيرات كونية هائلة لم تحـدث في أي مرحلة من مراحل التاريخ! وحتى يحدث كل ذلك؛ فإن مما لا شك فيه أن طينة تلك الدولة ينبغي أن تكـون خاصـة، ولا مثيل لها ما دامت سـتحقق إنجازات عديمة المثيل!.
وأنا أجزم أن تلك الجمهرة من الحالمين ستنقسم تجـاه أفضل دولة إسلامية يمكن أن تقوم في أي مكـان من الأرض إلى أقسـام عـدة: قسم يعمل معها بكفـاءة وإخلاص؛ وهـذا القسم قليل في أي زمـان وأي مكان. وقسم يتمتع بالكفاءة؛ لكن ينقصه الإخلاص والاسـتقامة. وقسم ثالث يخلص؛ لكنه لانعدام خبرته لا يعـرف كيف يخـدم الدولة والأمة. أما القسم الرابع؛ فهو قسم منتفع وصولي، ليس من هـؤلاء ولا أولئـك. والقسم الخـامس قسم معـارض يـرى أن الدولة الـتي سـعى إلى إقامتها قد خـانت رسـالتها، وانحـرفت عن مبادئهـا؛ فهو منهمك في ردها إلى المسار الصحيح.
أما القسم الأخير؛ فهو القسم الثائر الذي صارت أمنيته التخلص من تلك الدولة بـأي وسـيلة من الوسـائل، ولو كـانت اسـتخدام الصـنف وإشعال الحرب الأهلية!!.
هذه الأقسام لم نـأت بها من نسج الخيـال؛ بل هي مما عرفنـاه من سـنن الله -جل وعلا- في الخلـق، ومما فهمنـاه من طبـائع الأشـياء، وما وجدناه ونجده عند قراءة أي ثورة من الثورات الـتي تمكنت من الوصول إلى الحكم في بلاد إسلامية أو غير إسلامية.

ولعلي في المقال القادم أشرح شـيئاً مما يمكن القيـام به "في كل الأحوال"، ومن الله تعالى الحول والطول

==============

على المدى البعيد

(1)

أ.د. عبد الكريم بكار 10/10/1424
04/12/2003

كنت قد تحدثت في مقالين سابقين عما يجب عمله في كل الأحوال والظروف إيماناً مـني بـأن هنـاك شـيئاً ما يمكن القيـام به من أجل نجاح العبد وفلاحه في أمور دنياه وآخرته. وأود في هـذا المقـال وما يليه من مقـالات أن أتحـدث عن نوعية الوسط أو البيئة الـتي يجب العمل على المـــدى الطويل من أجل بنائهـــا؛ كي يتـــوفر للإنســـان المسـلم الجو الملائم لأفضل عطـاء وأفضل إنجـاز ممكن. والحقيقة أن أية أمة لا تستطيع استنفار طاقاتها والسـيطرة على أوقاتها على وجه مقبول من غير رؤية (اسـتراتيجية) لماهية البيئة الـتي يجب أن تحيا فيها أجيالها القادمـــة. ونحن بوصــفنا أمة مســلمة لها منهجيتها ورؤيتها وتطلعاتها الخاصـــة، نعتقد على نحو جـــازم أن كل أشـــكال التنمية وكل أشكال التغيير والتطوير يجب أن تستهدف شيئاً واحــداً هو توفير بيئة تساعد الإنسان المسلم على القيام بأمر الله -تعـالى- على أفضل وجه ممكن، وهذه الرؤية نهائية وواضحة، وهي مستمدة من مجموعة العقائد والمفـاهيم الكـبرى الـتي نحملهـا، وهي رؤية متفردة، ليست لأي أمة من أمم الأرض اليوم، وهي إحدى سنن الله علينا.

إذا كان من غير الممكن -في عالم الأسباب- توقع حصـول مسـتقبل مغاير مغايرة كبيرة للواقع؛ فإن علنا - إذا ما أردنا تكوين البيئة التي نريد - أن نحسَّــن ونرشّــد القــرارات اليومية الــتي نتخــذها في كل صـــعيد وعلى المســـتويات كافـــة؛ إذ إن تشـــييد البنيـــات الثقافية والأخلاقية والاجتماعية يحتـــــاج إلى أزمنة متطاولة وهو لا يتم على النحو الصحيح إلا من خلال العمل الحكيم والجذري والمتدرج.

البيئة تعــني مجموعة المفــاهيم والأخلاقيــات والتقاليد والظــروف والمعطيات والنظم المتوفرة والسائدة في بلد من البلدان .

وإن البيئة ذات دوائر متسعة منفتحة، والدائرة الأضـيق بالنسـبة إلى كل واحد منا هي الأكثر تأثيراً في حياته؛ فالأم هي أكثر من يؤثر في الطفل ثم الأسرة عامة، ثم الأقرباء وأهل الحي وهكذا...

والبيئة من وجه آخر أشــبه بحبل غليظ مكــوَّن من ألــوف الخيــوط والشعيرات الدقيقة، وكل عـدد من تلك الخيـوط والشـعيرات ينتمي إلى مجال من المجـالات الروحية والمعنوية والماديـة. وقد دخل في نسيج ذلك الحبل في مرحلة من مراحل تكوّن ثقافة الأمة والأوضاع العامة التي تحيا فيها. وهناك تقريب للفكـرة وإشـارة إلى بعض تلك الخيوط والشعيرات في عدد من الأحاديث النبويـة، منها قوله صـلى الله عليه وسلم: "كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يـوم تطلع في الشــمس تعــدل بين الاثــنين صــدقة، و تعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشـيها إلى الصـلاة صـدقة، وتميط الأذى عن الطريق صـدقة"، وقوله : " الإيمـان بضع وسـبعون أو بضع وسـتون شـعبة، فأفضــلها قــول: لا إله إلا اللــه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريــق، والحياء شعبة من الإيمان" وقوله: "كل معروف صدقة".

إن قول الله - جل وعلا -: (فمن يعمل مثقال ذرة خـيراً يـره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يـره) يـدل على رؤية النـاس لجـزاء أعمـالهم في الآخرة، ويمكن أن نهتدي به في القول: إن ما يفعله النــاس من خـير وصـلاح ومعـروف وتنمية جيـدة - إن كل ذلك يرونه في نوعية الأوضاع والظروف العامة التي يعيشـون فيهـا، والـتي سـتعيش فيها ذراريهم من بعدهم؛ كما أنهم جميعاً سيرون آثار ما يصـدر عنهم من شــرور وآثــام وأخطــاء وخطايا على شــكل صــعوبات ومشــكلات ومعوقات في وجه الحياة الطيبة التي يسعون إليها.

وإني أعترف هنا -وقبل كل شيء- أنني لا أملك الإمكانية الذهنية ولا المعرفة الكافية لرسم ملامح خطة شاملة وبعيدة المـدى تسـتهدف توفـير بيئة تسـاعد الفـرد المسـلم والدولة المسـلمة على النهـوض بأعباء الاسـتخلاف في الأرض، لكـني سـأبذل جهـدي في وضع بعض النقــاط على بعض الحــروف الكبــيرة، ومن الله - تعــالى- الحــول والطول.

1-قلما وجّه الـدعاة والمصـلحون لـدينا اهتمـامهم إلى نوعية البيئة الـتي يحتـاج إليها المسـلم كي يحيا زمانه بفاعلية ودرجة من الراحة في إطار العقيدة والقيم والآداب التي يؤمن بها، فقد كان الاهتمام -وما زال- بما يجب قوله أو بشــروط الداعية النــاجح دون النظر إلى الشروط الـتي تجعل المـدعوين أقـرب إلى التفاعل والاسـتجابة مع أن تأثير الظروف والمعطيات السـائدة في توفـير خيـارات الحركـة،

وفي حفز الناس على تحديد اتجاهاتهم ومواقفهم تأثير هائـل، وأكـبر بكثير مما نظن.
إن الفـرق بين البيئة المعاكسة والبيئة المواتية للاسـتقامة والرشـاد والعطاء كالفرق بين من يسبح عكس التيـار، ومن يسـبح مع التيـار؛ حين نطلب من شـاب أن يبـدع ويصـبح باحثـاً متمـيزاً في فـرع من فروع العلم، ونجد أنه يعيش مع خمسة من إخوته في حجرة واحدة، وليس معه ثمن مرجع يشـتريه، ولا تكـاليف تجربه يجريهـا، كما أنه ليس في البلد الـــذي يقيم فيه مكتبة عامة ولا مركز تـــدريب ولا جمعية خيرية تمد يد العــون في شــيء.. حين نطلب ذلــك؛ فــإن الاستجابة ستكون في منتهى الصعوبة، وستكون في معظم الأحيـان هزيلــة، وسـيكون المسـتجيبون من الشـباب للتحفـيز على البحث والإبــداع قلة قليلــة، أما البــاقون فــإنهم سيرضــخون للظــروف وسيرضــون بأقل القليل من الإنجــاز. وهــذا ما هو حاصل فعلاً الآن في كل أنحـاء العـالم، وفي كل مجـالات الحيـاة. البيئـات المحطِّمة والهشة والجاهلة تحطم قـــوى من يعيش فيهـــا، وتحطم تطلعاته وطموحاتــه، وتجعل آفاقه محــدودة. ولهــذه القاعــدة شــذوذات ملموسة ، لكن الــذي يمنح الحيــاة ملامحها ليست الأمــور الشــاذة والنادرة وإنما الأمور الغالبة والكثيرة.
إن بلداً صغيراً مثل هولندا أو بلجيكا يسجل من براءات الاخـتراع ما يعــادل نصف ما يسـجله العــالم الإسـلامي بطوله وعرضــه!، وإن بـراءات الاخـتراع الـتي تسـجل في (إسـرائيل) سـنوياً يزيد على ما يسـجل في الـوطن العـربي ذي الثلاثمائة مليـون!!، وإن ما تنشـره جامعة (هارفارد) من بحوث سـنوياً يعـادل ما تنشـره كل الجامعـات العربية مجتمعة!!.
2-إذا تأملنا في ردود أفعال الأمة على جملة الانحرافات التي كـانت تحدث فيها لوجدنا أننا على مـدار التـاريخ - مع اسـتثناءات مقـدَّرة - كنا نعالج مشكلاتنا بوسيلتين؛ هما: سنّ المزيد من النظم والقـوانين التي تقيّد حركة الناس وتحدّ من اندفاعاتهم، وقد عبّر عن هـذا عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- حين قال: " يحـدث للنـاس من الأقضـية على مقدار ما يُحدثون من الفجور" أي يحدث نوع من التشــديد في الأقضــية والجــزاءات على مقــدار ما يصــدر منهم من تصــاعد في الانحراف.
والوسيلة الثانية هي: (القـوة) بكل ما تعنيه هـذه الكلمة من معـنى، وقد أشـــار إلى ذلك عثمـــان - رضي الله عنه - حين أطلق مقولته

الشهيرة: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"، ولو أن أبا بكر - رضي الله عنه- قال ذلك لما قُبل منه ولما كـان دقيقـاً؛ لأن الـردع في زمانه كان بـالقرآن (وهو ما نعـبر عنه اليـوم بالثقافـة) أكـثر من الــردع بالســلطان (وهو ما نعــبر عنه القــوة)، ومع اضــمحلال دور الثقافة والوازع الداخلي كان اللجوء إلى استخدام الشــدة في إدارة الحياة العامة يتعاظم وينتشر، وقد نقل ابن حجر في فتح الباري عن الشـعبي قولـه: " كـان عمر فمن بعـده إذا أخـذوا العاصي أقـاموه للناس ونزعوا عمامته، فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسـياط، ثم زاد مصـعب بن الزبـير حلق اللحيـة، فلما كـان بشر بن مــروان سمر كفَّ الجـاني بمسـمار، فلما قـدم الحجـاج قـال: هـذا كله لعب فقتل بالسيف".

النتيجة النهائية لهــذه وتلك هي إخــراج المســلم الخــائف والخــانع والسلبي والإمعة وإخـراج المجتمع الـذي يُظهر ضـروباً من الامتثـال للنظم السارية في الوقت الذي يضمر فيها روح التمرد والتبرم، كما يضـمر الكثـير من السـلوكات والأعمـال السـيئة. ومع إيماننا بأنه لا يمكن لمجتمع أن يعيش من غــــير نظم وقــــوانين توجه الحركة الاجتماعية وتشــــكل المرجعية الأخلاقية والتنظيمية للنــــاس، ومع إيماننا بأن الدولة مهما كانت عادلة وفاضـلة وناجحة لا تسـتغني عن استخدام شيء من السـلطة والقـوة؛ إلا أن علينا أن نـدرك أن هـذا الأسلوب في معالجة الأخطاء ليس هو الأسـلوب الصـحيح من وجهة النظر الإسـلامية، ولا هو بالأسـلوب العملي والمنتج والملائم لبلــوغ الأهداف التي نسعى إليها.

على المدى البعيد لابد من العمل على توسيع مجال عمل (الثقافــة) في تحديد مســارات المجتمع وفي كبحه عن الانحــراف والرذيلة . فجـوهر الإيمـان والإسـلام لا يقـوم على الإكـراه ولا على الامتثـال للضـغط الخـارجي، وإنما يقـوم على الاختيـار والمبـادرة الشخصـية والشـعور بالمسـؤولية. والدولة الفاضــلة هي الــتي تــدير شــؤون مجتمعها بأقل قــــدر من القــــوانين ومن أدوات القهر والإكــــراه، والفضيلة لا تكون لذلك إلا بتعشق الناس لها واسـتعدادهم للتضـحية من أجلها.

إن كــثرة الســجون وتصــاعد الرقابة الصــارمة، وسن المزيد من القــوانين؛ هو دليل على قصــور التنشــئة الاجتماعيــة، كما أنه دليل على ضـعف الإيمـان وأدبيـات التـدين السـائد في تشـكيل مواقف الناس وسلوكاتهم، ودليل على ضــعف جاذبية الدولة في كسب ولاء

الناس وتجاوبهم. وقد آن الأوان للتفكير العميق والعمل الجاد من أجل تشكيل بيئة يمتنع فيها الناس عن الانحراف والفساد بدافع من إيمانهم وخوفهم من الله –تعالى- وليس بدافع من خوف الدولة أو كلام الناس. ومداخل مثل هذا الاتجاه واضحة لدى أهل البصيرة والخبرة.

على المدى البعيد (2)

أ.د. عبد الكريم بكار 24/10/1424

18/12/2003

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن وضع الأمة في بيئة تساعدها على تحسين إنتاجيتها وتحرير طاقاتها واكتشاف إمكاناتها الحضارية الكامنة؛ يتطلب أن نعطي لمسائل الأمن والاستقرار والسلام والوئام الاجتماعي جلَّ اهتمامنا وعنايتنا.

حين يضطرب حبل الأمن فإن الفرصة تصبح متاحة لظهور كل أشكال التوحش والهمجية التي اختفت تحت قشرة رقيقة من طلاء الحضارة. وقد دلت شواهد التاريخ ومعطيات الواقع أن أشد الحاجات إلحاحاً تتمثل في اهتداء الناس إلى طريقة ناجعة لإدارة العنف والتوتر الذي ينشأ نتيجة تصادم رغباتهم ومصالحهم؛ حيث إن اجتماع الناس بعضهم مع بعض على مقدار ما يوفر من المباهج والمسرات والمشاعر الحميمة يوفر إمكانات التناحر والتحارب.

حاجة الناس إلى أن يتعايشوا في إطار نظم وقوانين توضح مبادئ حقوقهم وواجباتهم حاجة ماسَّة؛ لكن هذه الحاجة لا يمكن تلبيتها في أجواء الحرب الأهلية والتطاحن الاجتماعي.

إن القانون السائد مهما كان غير عادل وغير مكتمل فإنه يظل خيراً من الوضعيات التي لا يحكم فيها أي قانون حيث يتحول المجتمع إلى غابة ليس فيها إلا مفترِس ومفترَس وظالم ومظلوم!.

ليست إدارة العنف داخل المجتمعات بالأمر السلس واليسير، فهذه القضية دوَّخت العالم من أدناه إلى أقصاه، والتقدم الذي تحقق على صعيدها نسبي وغير مرضٍ في معظم الحالات، ولعلي أقف مع هذه المسألة الوقفات التالية:

1-هناك تشوق إنساني عميق إلى ما يمكن أن نسميه (تحقيق الذات) حيث يتطلع الإنسان إلى أن يؤكد لنفسه وللآخرين قدرته على القيادة والتأثير واستحقاقه للريادة والتسامي نحو المعالي.

وهو في سـبيل ذلك مسـتعد للتضـحية والبـذل كما أنه مسـتعد عند الحاجة لتجاوز كل المبـادئ والقيم؛ بل ارتكـاب الجـرائم إذا اقتضت الضـرورة ذلـك!. الأنشـطة الروحية والأدبية والتطوعية والاجتماعية تساعد المرء على تحقيق ذاته والكشف عن إمكاناته؛ فهذا يحقق ما يتطلع إليه عن طريق تأسـيس رابطـة، وذاك يحققه عن طريق رئاسة جمعية، وثالث يحققه عن طريق الانخـراط في حركة لحماية البيئة وهكذا..، لكن بما أن كل جماعي يؤسس لسلطة جديدة، ويثير حساسية معينة لدى بعض الجهات؛ فإن هنـاك رغبة قوية في ابتعـاد الناس عن كل الأنشطة الجماعية والحرة مهما كانت نبيلة الأهـداف وعظيمة الفوائد والنتائج. ومن هنا فإن انسداد الآفاق أمام الأنشطة المشار إليها أو تضـييقها وانحسـارها إلى حد كبـير؛ دفع بالنـاس إلى أن يجعلـوا تحقيق ذواتهم يتم عن طريق جمع الأمـوال والـثروات واقتنـاص الوجاهة وإظهـار السـيطرة عن طريق التفنن في إنفاقها واسـتخدامها. وبما أن المعـروض من (المـال) هو دائمـاً أقل من المطلوب –حيث لا يملأ فم ابن آدم إلا التراب- فـإن منافسة ضـارية قد اشـتعلت في كل مكـان من ديـار المسـلمين وعلى كل المستويات، وعلى مـدار التـاريخ كـانت المنافسة متصـلة بانحطـاط المدنية وسـوء الأخلاق، حيث يـدفع الحـرص على جمع المزيد من المـال نحو الكـذب والغش والخـداع والرشـوة والتضـحية بالكرامة وارتهـان الـذات.. وقد صـرتَ تلتقي بأشـخاص كثـيرين لا تـرى فيهم أبـداً ما يـدل على أنهم يرجـون الله والـدار الآخـرة، أو يقيمـون أي اعتبار لمبادئ الإسلام وقيمه! وفقدت الحيـاة بـذلك أجمل معانيهـا!. إن إطلاق الأنشـطة الروحية والأدبية والتطوعية المختلفة والتحفـيز عليها وتيسـير سـبلها، يخفف إلى حد كبـير من الطلب على المـال، ويخفف بالتالي من حدة التعانف الأهلي والتوتر الاجتماعي.

وأعتقد أن علينا أن نبتكر في إيجاد الأطر والأوعية والنظم التي تتيح للناس الشعور بتحقيق الـذات وإشـباع التطلعـات على نحو لا يتصل بالمال أو أي اعتبار آخر.

2-لن يتحقق السـلام في مجتمعاتنا ولا الأمن ولا الاسـتقرار ولا الشـعور بالانتمـاء للـوطن ما لم يسد العـدل وتكـافؤ الفـرص ونفـاذ القوانين عل الناس دون اسـتثناء ودون اعتبـار خصوصـية لأي كـان. والحقيقة أن الإسـلام عـانى طـويلاً مع العـرب ومع كل المجتمعـات التي تقـوم فيها الروابط على أسـاس العـرف والنسـب؛ وكـان الهمُّ المسـيطر خلال تاريخنا الطويل – على المسـتوى السياسي

والقــانوني- هو نقل المجتمعــات الإســلامية من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الدولــة، أي من مرحلة الــولاءات والتكتلات وتبــادل المنــافع على أساس الولادة ومعطيات التاريخ إلى مرحلة الخضـوع للأحكـام الشرعية والقوانين والنظم السارية. ويجب أن نعترف أنه لم تسجل اختراقــات ذات شــأن على هــذا الصــعيد. وعلى نحو عــام فــإن النجاحات كانت محدودة جداً وهذا الإخفـاق في الانتقـال من مرحلة الدولة كـان السـبب الجـوهري وراء كثـير من الفتن والثـورات الـتي كــانت تجتــاح الأمة في العديد من فتراتها التاريخيــة. وهو نفسه السبب الكامن خلف سلبية الإنسـان المسـلم عامة والعـربي خاصة تجاه المخـاطر المحدقة الـتي تتعـرض لها بعض الأوطـان الإسـلامية إلى درجة أن يقــوم النــاس ويحتجــوا في الغــرب ضد ممارسة حكومـاتهم تجاهنـا، ونحن سـادرون غـافلون ومنهمكـون في همومنا الشخصية، وكأن الأمر لا يعنينا من قريب أو بعيد!!.
حين سرقت امرأة من بني مخزوم – فخـذٌ من أنبل أفخـاذ قـريش- أهمّ ذلك قريشــاً: كيف تُقطع يــدُ مخزومية ؟! وقــالوا: من يكلّم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا أسامة بن زيد حبُّ رسـول الله؟ فكلّمه أسامة في ذلك، فقـال الرسـول: " أتشـفع في حد من حدود الله ؟! ثم قـام – عليه الصـلاة والسـلام – خطيبـاً في النـاس ليعلن لهم مبدأ من أهم المبادئ التي تقوم عليها الأمم والحضــارات العظيمة حيث قال: " إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضـعيف أقـاموا عليه الحـد!. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".
ربما نكون قد قدَّمنا نموذجاً واحداً ثابتـاً وشـاملاً في مسـألة تكـافؤ الفـرص وإشـاعة العـدل والتعامل على أسـاس الكفـاءة الشخصـية وليس على أي أســاس آخــر؛ ذلك النمــوذج هو ما يتم في تشــكيل المنتخبات الوطنية التي تمثل بلاد المسـلمين في الألعـاب الرياضـية الدولية. هنا يتم تحري الأكفأ والأليق دون حساسيات ودون حسابات خاصة ودون اعتبار لمنافع جانبية؛ في الأعم الأغلب. وأنت تلاحظ ما يثـيره هـذا السـلوك الجيد من حمية النـاس وحماسـتهم وتعـاطفهم حيث ينقلب الشخص غير المكترث بذهاب وطن إلى إنسان مشتعل حماساً إلى درجة لا تُصـدَّق بسـبب دخـول كـرة فريقه الوطـني في شباك مرمى المنـافس!، وإني لا أشك أن النـاس سـوف يتفـاعلون ويبـذلون ويهبّـون تجـاه كل المسـائل الكـبرى إذا شـعروا أن الأمـور تجـري فيها على ما ينبغي، ووجـدوا الإطـار الـذي يعـبرون من خلاله

عن ذلك؛ فالخير متأصل في النفوس والولاء لأمة الإسلام وللمجتمع الإسلامي ضارب أطنابه في أعماق شخصية المسلم.
الوطنية في جوهرها شعور بشرف الانتماء لبقعة من الأرض تحكمها نظم وقوانين واحـدة، ويجمع النـاس الـذين يعيشـون عليها الالـتزام بمبادئ وقيم موحدة، والسعي إلى أهداف متقاربة ولا معنى للانتماء إلى أرض لا تتوفر فيها هذه المعاني. وقد قال أحـدهم : لمـاذا أدافع عن وطن لم يؤمّــني من خــوف، ولم يُطعمــني من جــوع، ولم يساعدني على ارتجاع حقي المغتصب؟!.
3-يتطلب اسـتتباب الأمن والشـعور بالسـلام والاسـتقرار إحسـاس الناس بأن لهم نوعاً من المشاركة في إدارة الشـأن العـام. أما في الأمور اللصيقة بهم؛ فلا يُتخذ قرار دون موافقة أغلـبيتهم عليـه. وإن قــول ا لله – جل وعلا- (وأمــرهم شــورى بينهم) يوضح أن بعد الشـورى ليس سياسـياً فحسـب؛ وإنما لها أبعـاد أخـرى: أخلاقية وتربوية واجتماعية.
على المستوى السياسي من المهم جداً أن يعـرف النـاس أنهم من خلال الشــورى يســتطيعون تحقيق ولايتهم على أنفســهم ، ويستطيعون أن يثقوا أنهم إذا ابتلـوا بحكومة سـيئة، فـإنهم قـادرون على التخلص منها من غــير إراقة دمــاء أو تخــريب للمرافق والممتلكـات العامـة؛ فالسـلم الاجتمـاعي لا يـأتي من خلال الـدعوة إليه، وإنما من خلال فتح طـرق للتغيـير والتطـوير والتحسـين، تبتعد عن التآمر والقتل والتخريب. إننا أحيانـاً نمتنع عن استشـارة النـاس خوفاً من أن يـأتوا بعناصر سـيئة تسـيء للـدين والمصـلحة العامـة، وهذا الخوف مقـدَّر ومعتـبر وقد يحـدث هـذا فعلاً في بعض الأحيـان ولاسـيما في البـدايات أو عند فسـاد التربيـة، لكن هـذا لا يشـكل القاعدة، فالولاء للدين وللصلاح والكفاءة قوي جـداً في الأمـة؛ وفي الإمكـان وضع ضـوابط تحد من مخـاطر هـذا الأمـر. وعلى كل حـال فلن نستطيع أبداً العثور على صيغة في إدارة العنف وتسيير الشـأن العام، تخلو من السلبيات أو الأخطاء. ولا بد في سبيل أن تنال بعض الأشياء من أن تخسر أشياء أخرى. هذا هو حـال الإنسـان الـذي يجد نفسه أبــداً عــاجزاً عن الصــدور عن رؤى كلية وبنــاء تنظيمــات وترتيبات كاملة.
إننا في حاجة ماسَّة حـتى ننهض ونتخلص من أشـكال العنف إلى أن نجعل الشــورى تقليــداً محترمــاً في بيوتنا ومدارســنا ودوائرنا ومؤسســاتنا وكل مناشط حياتنــا؛ فالقضــايا الكــبرى تظل قضــايا

خاســرة ما لم تتصد الأمة لحملها والمســاهمة في إنجاحهــا. وكل حمل يتم خارج رحم الأمة هو أشبه بالحمل الكـاذب. لكن الأمة غـير مستعدة للتضـحية ما لم تشـعر أنها تشـارك في صـنع القـرار، وأنها ليست عبـــــارة عن أدوات للتنفيذ فقـــــط. وعلى علمائنا ومفكرينا وخـبراء التشـريع والقـانون فينا أن يبـدعوا في إيجـاد صـيغ تنظيمية تجعل الشورى أسلوب حياة، كما تجعل منها أداة للإصـلاح والارتقـاء في إطار الأصول والثوابت التي نؤمن بها.

4-إنني أتساءل دائماً: هل يمكن للأمن والنظام والسلام والاسـتقرار والتعايش السلمي أن يتم في أي مجتمع من المجتمعات دون وجود تنظيم جيد للنقد والمعارضة وتضارب الرؤى والآراء والاتجاهات؟

ليس من المقبول في اعتبـار العقل والشـرع أن يقـول من شـاء ما شاء دون خوف المساءلة القضائية عن صحة ما يقـول، ولا أن يفعل النـاس ما يعنّ لهم ولو كـان ضـاراً بالمصـلحة العامـة. كما أنه ليس من المقبــول أن تكمم الأفــواه، فلا يتمكن أي أحد من إبــداء وجهة نظره في شأن عام، مهما كان رأيه سديداً ورشيداً، فالقرآن الكريم شجّع الناس على ممارسة النقد من خلال معاتبة النبي – صـلى الله عليه وسـلم- على بعض اجتهاداته ومعاتبة الصـحابة – رضـوان الله عليهم- على بعض ما وقع منهم؛ حيث يُعد التستر على الأخطاء أكبر مشـجع على تكرارها واسـتمرارها، وحيث يُعـدّ النقد والبحث عن أشـكال القصـور وأنـواع الأخطـاء والخطايا من أفضل الوسـائل المسـاعدة على الإصـلاح وتخليص النـاس من كثـير من المشـكلات والأزمات ومحاصرة المفاسد والشرور.

إن تراثنا الفقهي لم يســتوف التنظــير والتعقيد لضــوابط النقد والمعارضة وتضـارب الآراء على نحو يغنينا عن النظر والاجتهـاد، بل إن كثيراً من التفاصيل والحيثيات ما زالت غامضة، وأعتقد أن كثـيراً من الاضطرابات الهوجاء والأزمات الخانقة التي مرت بها الأمة كـان بسـبب التطـرف في التعامل مع هـذه المسـألة؛ فالحريصـون على بقاء كل شـيء على ما هو عليه مهما كـان غـير ملائم وغـير صـحيح ضـيقوا أبـواب النقد إلى حد إسـكات النـاس عن قـول أي شـيء. والذين كانوا يشكون من سوء الأحوال كانوا يريدون قلب كل شـيء رأسـاً على عقب بعيـداً عن الرفق والتـدرج والمجادلة بـالتي هي أحسـن. وقد آن الأوان لأن تتلاحم الصـفوف، وتتشـابك الأيـدي بين الجميع ومن كل المسـتويات والمجـالات من أجل العمل الـدؤوب على إرسـاء التقاليد وسـنّ القـوانين وتشـييد المؤسسـات وإبـداع

الأفكار التي تنشر الأمن والسـلام وحب النظـام والالـتزام بالأحكـام الشرعية والأعراف الصالحة والقوانين السارية، وتساعد في الوقت نفسه على نبذ التعـانف والتقاتل واللجـوء إلى القـوة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

على المدى البعيد 3

د. عبد الكريم بكار 9/11/1424

01/01/2004

فـإن لـدى كثـير من أهل الخـير حساسـية خاصة نحو الحـديث عن الاقتصـاد والتنمية والزيـادة السـكانية والبطالـة؛ فهم يشـعرون أن الاهتمـام بهـذه الأمـور لا يخلو من نـزوع نحو الدنيوية والماديـة، وإعطاء الاعتبارات المعيشية أكثر مما تسـتحق من العناية والانتبـاه. وفي تصـوري أن هـذه الحساسـية لم تعد سـائغة اليـوم، فأنا مع اعتقـادي بضـرورة تـوخي الحـذر من الوقـوع في شـرك الحسـابات والاعتبارات المادية البحتة بعيداً عن المبادئ والأهداف الإسـلامية إلا أنني أعتقد أن من شأن التقدم الحضاري أن يضـعف إرادة المقاومة لـدى النـاس تجـاه المغريـات، ومن ثم فـإنهم يُظهـرون المزيد من الاسـتجابة لضـغوط البيئة ومتطلبـات العيش، وكثـيراً ما يكـون ذلك على حساب مبادئهم وقيمهم؛ مما يعني أن تحسـين شـروط العيش إلى حدود مقبولة، سيسـاعد النـاس على أن يحققـوا مصـالحهم في إطار مبادئهم وأخلاقياتهم؛ والعكس صحيح.

إن كثيراً من سقم التفكير وتخلف الخطط والمناهج الإصلاحية يـأتي من خلال الانغلاق وصرف الاهتمـام عن التطـورات المتسـارعة فيما يتعلق بحاجات الناس وضرورات وجودهم، ومن خلال عدم الاكتراث بالتحولات في ذائقتهم الثقافية ونظـرتهم إلى الضـغوط والمرفهـات والحقوق والواجبات، وإن مفتاح فهم كل ذلك يكمن في شيء واحد هو الانفتـاح على الواقع والتأمل في تداعياته وإحالاته واتجاهاتـه؛ إذ ما فـتئ فهم الواقع واستكشـافه بإيجابية مصـدراً لتطـوير الذهنية وتوجيه المعرفة ومصدراً لإعادة ترتيب الأولويات.

لا بد من هـذه اللحظة وعلى المـدى البعيد من العمل على إيجـاد تنمية اقتصادية تكافئ الزيادة السـكانية في العـالم الإسـلامي. ومن المهم أن نـدرك أن كل الأمم الـتي اعتمـدت في معيشـتها على الزراعة والرعي خلال القرنين الماضـيين تواجه مشـكلات اقتصـادية متفاقمـة؛ فالنـاس يزيـدون، لكن الأرض لا تزيـد، فهي مع كل جيل تشهد نقلة في التفتت والتضاؤل؛ وعلى سبيل المثال فـإذا قلنـا: إن

زيداً من النـاس يملك مئة فـدان من الأرض، وله خمسة من الولـد، فإنه بعد وفاته ستقسّم ليكون لكل واحد عشرون فداناً. فـإذا تـوفي أولئك الخمسة، وترك كل واحد منهم أيضاً خمسة (فيكون المجموع خمسة وعشرين ولداً) فإن نصيب الواحد منهم سيكون أربعة أفدنة. فإذا قلنا إن أولئك الخمسة والعشرين من الأحفاد توفـوا، وتـرك كل واحد منهم أيضاً خمسة من الولد، فإن عددهم سيكون مئة وخمسة وعشـرين، وسـيكون نصـيب الواحد منهم من تلك الأرض 80% من الفـدان. وعليه أن يأكل من هـذا القـدر الضـئيل وأن يـبيع على نحو يمكنه من شـــراء كل حاجاته المتســـعة ودفع تكـــاليف تعليم أبنائه وتطبيبهم وكسوتهم، حيث إن العولمة تدفع الحكومـات نحو التخلص من كل الخـدمات المجانية الـتي تقـدمها؛ ليواجه كل واحد مصـيره على نحو منفرد!.
وهكذا فعبر قرن من الزمان تنخفض حصة الشـخص من الأرض إلى أقل من 1%! وليس هـذا من صـنع الخيـال، بل هو الواقع المشـهور والملموس وليس الذين يعملون في الـرعي بأحسن حـالاً؛ فالأرضي المخصصة للرعي هي الأخرى تتفتت وتزدحم فيها الماشية، ويزحف عليها العمران، ويقل عطاؤها بسبب تراجع كمية الأمطار في معظم أنحاء الوطن العربي.
إن نسبة الزيادة السكانية في العالم الإسلامي بشـكل عـام مرتفعة إذا ما قسـناها بما لـدى الـدول الأخـرى، فعلى سـبيل المثـال يزيد السكان في الدول العربية سنوياً بنسبة 3% في الحد الأوسط على حين أن الزيـــــادة في بريطانيا تبلغ 1.% وفي فرنسا 6.% . أما بلد مثل روسيا؛ فإنه يعاني من نقص في السكان يصل إلى نحو مليــون إنســان في الســنة، وينقص عــدد ســكان ألمانيا نحــواً من مئة ألف شخص في السنة. وحـتى نعـرف حجم الزيـادة السـكانية، وتطورها السريع؛ فإن من المفيد أن نعلم أن إجمالي سكان الـوطن العـربي كـان عـام 1400هــ نحو من 160 مليـون نسـمة. ويتوقع أن يكـون وصل عام 1420هـ إلى 300 مليـون نسـمة، وإن بلـداً مثل الجزائر يتضـــاعف ســـكانه كل 25 ســـنة، ومن المتوقع أن يرتفع إلى 285 مليون نسمة خلال قرن!.
ويجب أن نأخذ بعين الاعتبـار أن الشـعوب الإسـلامية شـعوب فتيّـة، حيث إن حوالي نصف السكان هم من الأطفـال والأشـبال دون سن الخامسة عشرة. وهذا يعني أن لـدينا أعـداداً هائلة تحتـاج إلى تربية

وتعليم واستيعاب نفسي واجتماعي، ثم إلى فرص عمل وخدمات عامة كثيرة.
ليست الزيادة السكانية في حد ذاتها مشكلة .. على العكس إنها ميزة؛ حيث لا يمكن اليوم لدولة أن تصبح دولة عظمى إذا لم يصل سكانها إلى الخمسين مليوناً على الأقل . لكن علينا أن ندرك من وجه آخر أن الازدحام على موارد محدودة وعدم القدرة على تأمين الحد الأدنى من الحاجات الضرورية، وتأمين تعليم وتدريب جيدين؛ سيجعل من هذه الأعداد الغفيرة من الفتيان والشباب أشبه بجيش جرار لم يتلقَّ من التدريب ولم يجد من التنظيم ولا من التسليح ما يكفيه؛ إنه في هذه الحالة يصبح هدفاً سهلاً للعدو، إنه يصبح أرقاماً غير ذات معنى، وبعض العنصريين من الغربيين يقولون باستخفاف: إن في العالم خمسة مليارات من البشر، منهم مليار – أي أبناء العالم الصناعي- مواطنون والباقون سكان.
في حديث القصعة وصف واضح للكثرة العددية الفاقدة للكيف والمضمون. فقد قال صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أو من قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟! قال: لا. أنتم يومئذٍ كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل...".
إذاً مشكلة المسلمين في آخر الزمان ليست مشكلة (كم) ولكن مشكلة (كيف) و (نوعية).
عدم وجود تنمية جيدة في معظم أنحاء العالم الإسلامي دفع بأبنائنا وإخواننا إلى الهجرة إلى الغرب، حيث يشتغل معظمهم في مهن وضيعة يترفع الأوروبي عن العمل فيها. وهناك يضيع نصف الجيل الثاني ومعظم الجيل الثالث، حيث الانسلاخ شبه الكامل عن العقيدة والهوية. وعيش أبنائهم في الغرب على هامش المجتمع، دفع بهم إلى الجريمة والرذيلة وإدمان المخدرات، فصاروا يشكلون نسبة مخيفة من نزلاء السجون هناك!
وتوجُّه فرنسا إلى منع الحجاب يشكّل نوعاً من التعبير القانوني عن الضيق من جاليات باتت تشكل عبئاً على المجتمع، وهي بادرة خطيرة، وربما تحدو دول غربية أخرى حذوها، ويصبح الملتزمون من المسلمين في الغرب في وضعية أشبه بوضعية من وجد نفسه بين المطرقة والسندان.
ومن واجبنا جميعاً أن نحول دون ذلك بكل وسيلة ممكنة.

لا أريد أن أتحدث أكثر من هذا عن الحاجة إلى تنمية اقتصادية تعتمد على أسس ومنطلقــات جديــدة، وإنما أحب أن أركّز على نقطــتين هنا:

الأولى:حتى يتحسن وضع فرص العمـل، وحـتى تفتح حقـول جديـدة لكسب الرزق، فإنه لا بد من الارتقاء بـالتعليم وتشـجيع النـاس على أن يتخذوا من التدريب المنهجي مـدخلاً لاكتسـاب المهـارات وتنمية الشخصية.

إن التعليم في معظم أنحاء العـالم الإسـلامي يعد بالمعـايير العالمية قاصـراً عن الوفـاء بحاجـات العصـر؛ فالفصـول مكدسّـة بـالطلاب، وأسلوب التدريس مبني على أن يقوم المـدرس بكل شـيء، ويظل الطالب في موقع المتفرج وليس المشارك والمتفاعل. والتجهيزات المدرسـية معدومة أو عند حـدها الأدنى. والأهم من هـذا وذاك فقد المدرسين والطلاب للحماسة المطلوبة لنجـاح العمل التعليمي . ولا يختلف التعليم الجـامعي في هـذا كثـيراً عن التعليم الأساسـي، مع استثناءات قليلة.

ولا شك أن هنـــاك الكثـــير من الاقتراحـــات والحلـــول المطروحة للنهـوض بـالتعليم، لكن سـتظل الأمـور تـزداد سـوءًا ما لم تحـدث تحـــولات جذرية في أوضـــاع المـــدارس وفي العلاقة بين الـــبيت والمدرســـة. وقد آن الأوان ليســـاهم الآبــاء في تــأمين تعليم جيد لأبنائهم من خلال تشكيل عدد كبير من مجـالس التعليم في الأحيـاء والقرى، ويكون لها صلاحيات واسعة جداً في بحث أوضاع المدارس وتوجيهها ومحاولة النهـــوض بهـــا، ولا بد من الآن فصـــاعداً من أن يخصص كل واحد منا جزءاً من ميزانيته الخاصة لمـؤازرة المـدارس في القيام برسـالتها من خلال التوسع في مبانيها وتـدعيم مختبراتها وتجهيزاتها المختلفة.

التعليم الجيد وحـــده هو الـــذي يوجد في نفس الطـــالب الـــولاء لمدرسته ومن خلالها لوطنه وأمتـه. والتعليم السـيئ يجعل الطـالب زاهداً في كل ذلك، وإلى جانب تطوير التعليم لا بد من إرساء تقاليد ثقافية تمجد التدريب على اكتساب المهارات والطـرق الجديـدة في إدارة الأعمال وتنفيذ المهام، فالتطور السـريع الحاصل الآن في كل مجالات الحياة سيجعل كل ما لدى الواحد منا من مفـاهيم وخـبرات ومهارات محدود مدة الصلاحية، حيث تتسـارع إليه الشـيخوخة، وهو ما يزال في طور الصبا. وقد أدركت الأمم المتقدمـة، وصـارت تنفق بسخاء بالغ على التـدريب انطلاقـاً من هـذه الحقيقـة. إن مجمل ما

تنفقه اليابـان على التـدريب يزيد على 80 مليـار دولار في السـنة .
أما الولايـات المتحـدة فإنها تنفق ما يـتراوح بين 120 مليـار دولار و 180 مليار. ولا بد من الآن فصاعداً من أن نسلك كل سـبيل لإقنـاع الناس بأهمية التدريب لدخول سوق العمل ثم الاستمرار فيه. ولا بد أن يكون واضحاً في العقود الجديدة تحديد ما ستقدمه المؤسسة أو الشركة أو المصنع أو الجامعة من تدريب وتعليم لمن سيعمل فيها.
الثانية: من المهم أن ندرك أننا في زمان فريد، بات ارتقاء الإنســان فيه منوطـاً إلى حدٍ بعيد بنوعية المهنة الـتي يعمل والتخصص الـذي تعمق فيـه، فنظـراً للتنظيم والتصـنيف المتنـامي للأعمـال والمهن، ونظراً لتحسّن وعي الناس بواجباتهم الوظيفية، صار الناس يبـذلون جهـوداً كـبرى للوفـاء بمتطلبـات الوظيفة والمهنـة، وما تفرضه من تعليم وتــدريب وتنظيم للحيــاة الشخصــية. ونســتفيد من هــذا أن تحســين البيئة ورفع مســتوى النــاس يتطلب تأســيس توجــهٍ إلى الأعمال المتصلة بالمعرفة الرفيعة والجهد الـذهني المركّـز. ولك أن تقارن بين العـاملين في القطاعـات المهنية الـتي لا تتطلب أي جهد ذهني أو معرفة راقية مثل قطاع بيع التجزئة وقطاع الزراعة وقطاع الإنشاء... وبين العاملين في قطاع التعليم الجامعي والبحث العلمي وتقنية المعلومات والتدريب... وستجد صدق ما أريد توضيحه.
إن المجال الواعد اليوم هو مجال (تقنية المعلومـات) وكل ما يتصل بمجال الحاسب الآلي وتطبيقاته المتسعة، وهذا المجـال بـات اليـوم القطـــاع الصـــناعي الأول حيث تزيد قيمة الأعمـــال فيه على (التريليون) دولار. ونحن أمة غنية بـالموارد البشـرية. وهـذا المجـال يحتــاج أساســاً إلى العنصر البشــري المتعلم وإلى البيئة المنظمة تنظيماً جيداً. ولا يحتاج هذا وذاك إلى أموالٍ طائلة.
إن العالم كله اليوم يخوض سـباقاً محمومـاً نحو ترسـيخ أقدامه في هذا المجـال، وقد وضـعت بريطانيا خطة لتطـوير البلد تقنيـاً، قيمتها خمسون مليار جنيهاً. وعلى ضخامتها فقد ذكر أحد الباحثين أنها غـير كافية وجاءت متأخرة !.
ووصــفت إحــدى المنظمــات الدولية الــدول العربية بأنها جائعة معلوماتيًا على حين أنها وصــــفت (إســــرائيل) بأنها دولة نَهِمَة معلوماتيًــا. وقد أضــحت (إســرائيل) اليــوم الدولة الأولى في أمن المعلومــات، وهي تصــدر منتجــات معلوماتية إلى أوروبا وأمريكا والصين في غاية التطور والتعقيد، وتقبض أثماناً عالية لها.

إن من المهم جداً ألا نتأخر أكثر مما حدث عن الاستثمار في قطـاع المعلومـات والتقنية المتقدمة من أجل الارتقـاء بالمسـلم المعاصر ومن أجل إيجاد فرص عمل للأجيال الجديـدة في مجـال هو الأسـرع نمواً بين مجـالات العمل المختلفـة. وإذا لم نفعل ذلك فـإن الأعـداد المتزايدة من هؤلاء الذين تدفع بهم الأرحام سوف تتحول إلى قنابل موقوتة تدمر نفسها وبيئتها في آن واحد.

ومسـؤولية التقـدم في هـذا الشـأن ملقـاة على عـاتق الأسـرة والمدرسة والدولة ورجال الأعمـال. وعلى كل راشد فينا أن يحـاول مساعدة نفسه والارتقاء بذاته حيث أعرض الآخرون عن مساعدته على المدى البعيد (4/4)

د. عبد الكريم بكار 23/11/1424

15/01/2004

فقد كان مالك بن نبي – رحمه الله- لاحظ أن المجتمعات الإسلامية تعاني من (فـرط تسـييس)، حيث إن هنـاك ميلاً عارمـاً إلى مطالبة الدول بـأن تقـوم بكل شـيء على حين يظل معظم النـاس غـافلين عــاطلين. وملاحظته – في ظـــني- في مكانها حيث إن كثـــيراً من الإصلاحيين على اختلاف مشـاربهم يركـزون باسـتمرار على ما على الحكومات أن تقوم به من إصلاح نفسها، وإصـلاح غيرهـا، على حين أن كثـيراً منهم لم يسـتطيعوا المسـاهمة العملية في نهضة الأمـة؛ وكــأن اعتقادنا بــأن كلام المــرء جــزء من عملــه، جعلنا نظن أننا بـــالخطب الرنانة والمقـــالات البليغة والكتب ذوات المـــئين من الصــفحات نسـتطيع أن نحل مشــكلاتنا المســتطيلة في الزمــان والمستعرضة في المكان!.

في البداية أحب أن أؤكد أن من المهم أن يشـتغل بعض النـاس في العمل السياسي من خلال نشر الــوعي بطبيعة هــذا المجــال ومن خلال ممارسة النقد ودخــول الانتخابـات وتشـكيل الأحـزاب؛ إنـني لست ضد هذا، ولا أهوّن أبداً من شـأنه، ولكن الشـيء الـذي لا أرى أنه صـــواب هو الظن بأنه حين تقـــوم دولة حسب المواصـــفات المطلوبة سوف نتخلص من كثير الأزمات والمشكلات الموجودة.

إن هذا أحد أكـثر الأوهـام انتشـاراً. وكثـير من الجماعـات الإسـلامية المشـتغلة بالسياسة علقت كل توازنها على الحكومة العظيمة الـتي ستشــكلها في المســتقبل حين تصل إلى الحكم. وبما أن المجــال السياسي، لا يتسع لكل الناس، ولا يستطيع كثيرون العمل فيه، فإن

أعداداً كبيرة من شبابها عـاطلون عن أي عمل دعـوي أو اجتمـاعي نافع!.
وجــود الدولة في الأصل شــيء مكــروه من النفــوس؛ لأنها تمثل سلطة وقوة، وهي - على المستوى الـوظيفي – أميل إلى أن تكـون كابحة وضابطة أكثر من أن تكـون بانية أو مُصْـلحة. وإذا اسـتطاعت الدولة حماية النظم السـارية وتطبيقها دون تحــيز إلى جـانب دعم استقلالية القضاء وتسـهيل حركة الفـرد مع حد مقبـول من المرافق العامــة؛ فإنها تكـون قد قـامت بأشـياء عظيمة جـداً. ومعظم دول العالم ما زالت تخفق في تحقيق ذلك.
العمل الأساسي الــذي يُنْتَظر من الجميع المســاهمة فيه هو العمل الاجتمــاعي - بأوسع ما تحمله هــذه الكلمة من دلالة –. في العــالم اليـوم قطـاع يسـمونه (القطـاع الثـالث) أو (القطـاع اللاربحي)، إنه شيء غير القطاع العـام الـذي تكـون مؤسسـاته ملكـاً للدولة وغـير القطـاع الخـاص المملـوك للأفـراد، إنه القطـاع الـذي تملكه الأمـة. مهــام هــذا القطــاع أوسع بكثـير مما نتصـوره وإن الأمم من خلاله تستدرك على قصور النظم المختلفـة، إنه يشـكّل كـرة أخـرى على طريق العدالة الاجتماعية وإيصـال الحقــوق لأصـحابها. إن أنشـطته تغطي حاجــات أولئك النـــاس الـــذين لا يقع الاهتمـــام بهم تحت مسؤولية أي وزارة أو مؤسسة حكومية، وإنه يهتم بالقضـايا الـتي لا تهتم بها أي جهة حكومية. وأستطيع أن أقول دون أن أشعر بالحرج: إن اتسـاع هـذا القطـاع يـدل على نحــوٍ قـاطع على خيرية المجتمع وتضامنه وفاعليته واسـتحقاقه باسم (مجتمـع). وعلى مقـدار ضـيق هذا القطاع وضـعفه يكـون ضـعف المجتمع وتفككه وخمولـه. وقد لا يستحق لاسم (مجتمع) ويكون جديراً باسم (تجمع)!
إن ما ينشر من إحصاءات عن هذا القطـاع يـدل دلالة واضـحة على أن العالم الصـناعي يتمتع بمجتمعـات غنية بالمؤسسـات والأنشـطة اللاربحية. وقد استطاع هذا القطاع أن يجمع من الناس في الولايات المتحـدة الأمريكية عـام (2002) مبلغـاً قـدره (212) مليـار دولار. وهو رقم فلكي لا يمكن جمع نصفه أو ثلثه في أي دولة من العــالم. في أمريكا مليـــون ونصف مؤسسة لاربحية وثلاثة وعشـــرون ألف مؤسسة وقفيـــة. وفي فرنسا ســتمئة ألف مؤسسة لاربحيـــة. وفي (إســـرائيل) ثلاثـــون ألف مؤسسة لا ربحية ويســـتوعب القطـــاع اللاربحي 11% من القــوة العاملة هنـاك في العــالم الغــربي لكل ثلاثمائة شخص تقريباً مؤسسة لاربحية من نوع ما وعندنا في العالم

العربي لا يحصل الـ (5000) شخص على أكثر من مؤسسـة، أي إن الفارق يتمثل في خمسة عشر ضـعفاً. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبـار إلى جـانب هـذا أن الـذين يحتـاجون إلى العـون في مجتمعاتنا أكـثر بكثير من المحتاجين في مجتمعاتهم.

إن هناك أشـياء مشـتركة بين الأمم، وهنـاك أيضـاً خصوصـيات لكل أمـــة. إن المجتمعـــات الإســـلامية بحاجة إلى الكثـــير الكثـــير من المؤسسات اللاربحية وسأذكر منها هنا نماذج فقط:

- مؤسسـات ومشـروعات لـدعم الالـتزام والمحافظة على الأخلاق والوقـــوف في وجه التحلل الخلقي عن طريق الاتصـــال المباشر والحوار مع الناس ووضع لوحات في الطرق وإعلانات في الصـحف. بل إن القطـاع اللاربحي يحتـاج في الحقيقية إلى فضـائية وإذاعـات خاصة حتى نؤصل حب العمل الخيري في نفوس النـاس. أضف إلى هـذا تأسـيس جمعيـات لمحاربة العـادات السـيئة مثل الإدمـان على التدخين والخمور والمخـدرات ومثل عـادات الإسـراف والتبـذير في المأكل والمشـرب والملبس والمسـكن وإرشـاد النـاس إلى بعض الطرق الاقتصادية في كل ذلك، كما هو الشأن في كثير من الدول.
- مؤسســـات للاهتمـــام بالأســـرة وتوجيهها في مســـائل التربية ومسـاعدتها على حل المشـكلات الـتي تواجهها وتوفـير مرشـدين تربويين ومرشدات تربويات لإصـلاح العلاقـات الأسـرية وتنمية وعي الناس بأهمية التضامن الأسـري، وتوضـيح مسـؤولية كل طـرف في ذلـك، ونشر عـدد كبـير من الكتيبـات والنشـرات الـتي تعلم النـاس أصول التربية الجيدة، كما توضح لهم الأخطـاء التربوية الـتي يقعـون فيها.
- مؤسسات وجمعيات وروابط لدعم العلم والتعليم، حيث إن الدول ما عـــادت تســـتطيع توفـــير ما يكفي من المـــدارس والتجهـــيزات المدرسـية لهـذه الأعـداد المتدفقة من الأطفـال والفتيـان. والتعليم الخـــاص الحـــالي هو أقل في كثـــير من الأحيـــان من المســـتوى المطلوب، وهو إلى جانب ذلك ينشر الطبقية الاجتماعية والمعرفية، فأبنـاء الأغنيـاء يجـدون مـدارس ممتـازة لأنهم قـادرون على الـدفع، وأبناء الفقراء لا يجدون في بعض الأحيـان حـتى المـدارس السـيئة. وبعض الدول الإسلامية – مثل باكستان- لم تستطع إلى الآن إصـدار تشريعات لجعل التعليم الابتدائي إلزاميـاً بسـبب عـدم قـدرة الدولة على توفير المدارس الكافيـة. وهنـاك دول لا تسـتطيع توفـير الكتب

المدرسية لأبنائها – كما هو الشـأن في بلاد عديـدة مثل إندونيسـيا – وهكذا..
قد آن الأوان ليقوم الناس بـدعم التعليم الحكـومي والمسـاهمة في توجيه أنشـطته وممارسة نــوع من الرقابة عليه بما يخــدم التقــدم العلمي في البلـد. كما آن الأوان لتأسـيس عـدد كبـير من المـدارس الخيرية التي يجد فيها أبناء الفقراء فرصاً للتعلم. وفي بعض الــدول – مثل تركيـا- أنشـئت مجـالس كثـيرة جـداً لـدعم التعليم الجـامعي وتوفــــير منح للطلاب الفقــــراء، حيث إن الجامعــــات الحكومية لا تستوعب سوى 10% من المحتاجين للتعليم الجامعي.
إن من المهم أن تنظم حملات واســـعة من أجل قيـــام الأثريــــاء بتأســيس شــبكات من المــدارس والمعاهد العلمية والتقنية لأبنــاء الفقــراء والمعــدمين والإنفــاق عليها عوضــاً عن تبــذير المــال في السياحة في الغرب أو إنفاقه على مظـاهر كاذبة لا تزيد صـاحبها إلا خبالاً وسأماً!.
- في الأمة اليوم مظالم كثيرة، ولا يكـاد يخلو مجلس من المجـالس من ذكر مظلمة من المظالم! وقد صارت مهمة المحامين في كثــير من الدول الإسـلامية- مع الأسف الشـديد- طمس الحقيقة وإضـاعة الحقــوق والعمل على تأجيل المحاكمــات إلى ما لا نهاية وتســربت الرشوة إلى سلك القضاء مع استثناءات مقـدرة! إن هـذه الوضـعية تستلزم قيام مؤسسـات وروابط ومنظمـات لنصـرة الضـعيف ورفع الظلم عن المظلوم ومؤازرة المضطهد وفضح أشكال الحيــف. وقد أثــنى - صــلى الله عليه وســلم- على حلف الفضــول الــذي أقامته قريش في الجاهلية، وحضره - عليه الصـلاة والسـلام- وقـال: " ولو دعيت إلى مثله لأجبت". وقــال أيضــاً في حــديث صــحيح: " إنه لا قُدِّست أمة لا يأخذ الضعيف حقه فيها غير متعتع".
إن التعليم والقضاء يشكلان محورين أساسين في حيـاة أي أمة وإن في فسادهما فساد الحيـاة كلهـا، فعلينا أن نصـلح من شـأنهما قـدر الاستطاعة ولن يكون ذلك إلا من خلال توفير رقابة شـعبية واسـعة، ولن تكون تلك الرقابة فعالة إذا لم تنظم وتؤطر على نحو جيد.
- الأمية في العــالم الإســلامي ضــاربة أطنابهــا، ومــازال المعــدل الوسطي لها يدور في فلك الـ(40%) وهذا شــيء مخيف في زماننا فقد احتفلت اليابان بتعليم آخر أمي في أواخر القرن التاسع عشــر. ولدينا أناس يعرفـون القـراءة والكتابة لكنهم لا يقـرؤون. وكما قـال أحدهم: ما الفـرق بين الأمي وبين من يحسن القـراءة والكتابة لكنه

لا يقـــرأ؟! إن حالة القـــراءة وطلب العلم والحـــرص على معرفة الجديد في حالة من التردي المستمر في عالمنا الإسلامي. والكتاب يفقد في كل يوم جزءاً من أرضه لصـالح ما يمكن أن نسـميه (اللهو المطلي بالمعرفة) وهذا يلقي علينا مسؤولية هائلة. إني أفـترض أن يكون لدينا في كل حي من الأحيـاء مكتبة عامة يضـعها أحد الأثريـاء في زاوية من داره ليرتادها أهل الحي وتكـــون مكانـــاً لالتقـــائهم ومناقشة أمور حيهم. وأتعشم أن يكون هنـاك بـرامج لـدعم الكتـاب الجيد وأن يكـون هنـاك من حانـات للقـراءة ومكتبـات متنقلة لنشر العلم وإعارة الكتاب. وقد سبقتنا دول كثيرة إلى هذا، ولم يعد لـدينا وقت لإضـاعته. إن من غـير شـغف حقيقي بـالعلم واتخـاذه أساسـاً للتطوير لن نستطيع أن نتجاوز الأوضاع الصعبة التي نعيش فيها.

- العولمة تشجع الحكومـات على أن تنفض يـديها من كل الخـدمات المجانية والرخيصة التي تقدمها، ومنها (العلاج الصحي). والخــدمات الصحية الحكومية في كثير من بلدان العالم الإسـلامي في حالة من التدهور حيث يلجأ الناس إلى الطب الخاص، وهناك تجد أشكالاً من التحايل والابـتزاز مما يـوجب قيـام مؤسسـات طبية لا ربحية يعمل فيها الأخيار من الأطبـاء وتتقاضى أجـوراً تكفي فقط لتشـغيلها. وقد قامت تجارب رائـدة في بعض البلـدان الإسـلامية في هـذا المجـال، إنها تقـــدم أفضل علاج، لكن بســـعر لا يزيد على 30% مما لـــدى غيرها. إني أتصور أن يكون هناك جمعيات للعناية بأصحاب الأمراض المزمنة والمستعصـــية وجمعيـــات لتوفـــير الـــدواء لمن لا يجد ثمنه وجمعيات لدعم المستشفيات الحكومية بالأجهزة وهكذا.

ولا أريد هنا أن أتحدث عن قضية الفقر لأنني سأفرد لها حديثاً خاصاً في المستقبل بإذن الله.

إن العمل الخيري التطوعي يستهدف أولاً الارتقاء بنفوس فئة كبيرة من المجتمع وربطهم بالله - تعـــالى- وهـــذه الفئة هي العـــاملون والمحتسـبون في المجـال اللاربحي. ويسـتهدف ثانيـاً سد حاجـات العناصر الضعيفة في المجتمع، وهي في عالمنا الإسلامي كثيرة جداً بل تشـكل النسـبة الأكـبر من النـاس. وسـنظل نعيش على هـامش العـالم ما لم نبـدع في إيجـاد الحلـول للمشـكلات الـتي جـاءت بها الحضارة المعاصرة . والله ولي التوفيق.

==============

مقابلة مع مجلة المنار

د. عبد الكريم بكار

*
ثمة قطيعة معرفية في البنيان الثقافي للعقلية الإسـلامية بين مـواد تكوينها والـراهن المعـاش. كيف نؤسس لثقافة واعية ناضـجة تهتم بالتراث ولا تخاصم العصر والواقع؟
*
دعنا في البداية نحاول العثور على تعريف للعقلية حتى نوجد محوراً للحديث عنهـا. في تصـوري أنه يمكن تعريف العقلية بأنها "مجموعة المفـاهيم المترابطة الـتي نــدرك من خلالها الواقــع، ونتعامل في ضـــوئها مع الأحـــداث، كما تتبلـــور من خلالها ردود أفعالنا على التحديات المختلفة. وهذه المفاهيم مرتبطة بمجموعة المبادئ الـتي تشكل العقل الفطـري أو الأول لـدى الإنسـان. ولا يخفى أن جـوهر العقلية يتكــون من أمــور مكتســبة، تفد إلى الإنســان عن طريق التربية الأســـرية والمعايشة الاجتماعيـــة، وعن طريق التعليم في المدارس والمطالعة الخاصة، وما تبثه وسائل الإعلام المختلفة...
هـذا يعـني أن التربية والتثقيف يشـكلان الوسـيلة الأساسـية لبنـاء العقليـــة. أما كيف نحصل على العقلية الـــتي تجمع بين الأصـــالة والمعاصـرة، فحـديث هـذا الموضـوع يطـول، لكن يمكن أن نـذكر بصدده عدداً من الملاحظات:
1- بمجرد أن تتحدث عن الجمع بين أمرين مختلفين، فـإن عليك أن تتوقع حـدوث خلل بالميل إلى أحـدهما على حسـاب الآخـر. وكـأني أشعر أن التطرف شـيء راسخ في الـتراث الجيـني للبشـرية. وفي ضـوء هـذا فإننا نجد اليـوم من جعل المعلومـات التراثية المكـون الـرئيس لعقليتـه. واطلاعه على تيـارات الثقافة المعاصـرة ضـحل ومحـدود جـداً. ونـرى إلى جـانب هـذا الصـنف من تشـبع بالثقافة والأفكار المعاصرة، لكن حظه من الثقافة الإسلامية الأصيلة ضـعيف أو شـــبه معـــدوم. وقليل أولئك الـــذين يجمعـــون بينهما على نحو متوازن.
2- أعتقد أن التثقف بطريقة مشـــوهة هو الـــذي يولِّد القطيعة بين الأصـــالة والمعاصـــرة. وقل مثل ذلك في أســـاليب التربية الـــتي تستخدم في تنشئة الأجيال.
إن تلقي المـرء لكل مفـردات الثقافة الإسـلامية على أنها مسـائل قطعية يقينية انقطع حولها الجـدل، ينمي لديه عقلية البعد الواحـد. وفي المقابل فإن الذي يُفتن بالمعارف والأفكار المعاصرة، ويتعامل

معها على أنها مسلّمات لا يسعه إلا الانصياع لها، سوف يزهد بكل ما هو قديم، وينصرف بالتالي عنه.
3- ليس من السهل تكوين عقلية تجمع بين الأصالة والمعاصرة على نحو معتدل ومتوازن، ولن يكون هناك كمال في هذا الشأن، نستحوذ عليه، ثم نرتاح، وإنما نحتاج إلى نوع من المجاهدة الدائمة.
إذا عرفنا ما نريد من الثقافة الإسلامية بالضبط، وما نريده من علوم العصر بالتحديد أمكننا الجمع بينهما على نحو جيد. وفي هذا الإطار أظن أن مساهمة الثقافة الإسلامية سوف تكون حاسمة في تكوين الذهنية الحديثة في مجال العقائد والمبادئ الكبرى التي تشكل رؤية المسلم للحياة، كما أنها حاسمة في مسائل الحلال والحرام والسنن والآداب الفردية والاجتماعية.
أما الثقافة المعاصرة فإننا بحاجة إلى أن نتزود منها بما يساعدنا على فهم الواقع الذي نعيش فيه وفهم الفرص والإمكانات المتاحة، بالإضافة إلى التحديات التي يجابهها كل من يعيش في عصر بالغ التعقيد كعصرنا. التشبع بالثقافة المعاصرة، يساعدنا على فهم محاور الصراع والمنافسة بين الأمم، كما يساعدنا على التسلح بالأساليب والأدوات التي تساعدنا على كسب لقمة العيش، وحل المشكلات الإدارية والاجتماعية التي تجابهنا.
4- إن علينا أن نشرح للأجيال بوضوح أن ماضينا ليس مجموعة من الأمجاد والانتصارات، وأن تراثنا ليس مجموعة من الأقوال والنظريات المعصومة.
إنه فيه الأمجاد والانكسارات، وعلى مقدار ما فيه من أعمال ومواقف تجسد أوامر الشريعة السمحة، فيه أعمال ومواقف أملاها الهوى، أو قامت على اجتهاد خاطئ. حين نتجاوز الكتاب والسنة إلى باقي المعطيات التراثية فإننا سنجد أقوالاً وآراء لرجال بذلوا جهدهم في إدراك الحق، لكن ليس هناك أي ضمان لإصابته في كل مرة. وفي المقابل فإن المعلومات والمعطيات المعاصرة، هي الأخرى عبارة عن اجتهادات لا نشك في أن بعضها صحيح، كما أننا لا نشك أن بعضها فاسد أو خاطئ، وبعضها غامض لم يستبن وجه الحق فيه. وبعضها بعيد عن الحق لدخول عنصر التجارة في ترويجه وإشاعته. ومن هنا فإنه لا ينبغي أن نزهد في شيء بسبب قدامته أو حداثته. ولا أن نحترم شيئاً بسبب شيء من ذلك. ما وافق قطعيات الشريعة الغراء أخذنا به، وما حقق مصلحة للأمة دون أن يخالف مبادئها أخذنا به سواء أكان قديماً أم حديثاً. وعلينا بعد هذا وذاك أن

نبدي مرونة وتسامحاً في الأمور الخلافية والظنيـة، فالقطعيـات هي التي تشكل ثوابت الحياة الإسلامية.
ونحن مع كل ذلك نعـرف أننا نعيش في مرحلة تخلف وضـعف، وأننا بحاجة إلى أن نســتفيد مما لــدى الآخــرين، ولا غضاضة في ذلك ما دام ما نقتبسه ينســجم مع البنية الأساســية للشخصــية والحيـــاة الإسلامية.
*
الإفقار الروحي للمجموع الإنساني يتطلب ملطفات وجدانية وتربوية وسلوكية إسلامية معاصرة. ما أولوياته حسب رؤيتك؟
*
يطــرح هــذا الســؤال قضـية في غاية الأهميــة، حيث إننا في عالمنا الإسلامي بدأنا في السنوات العشر الأخيرة ننجذب على نحو ســريع في اتجـاه الوضـعية الغربية على مسـتوى الاهتمـام وعلى مسـتوى السلوك والعلاقات.
ومن الواضح في هذا الإطار أن لـدينا اليـوم ميلاً عامـاً إلى التنظـير العقلاني والاشـتغال بمسـائل الفكـر، إلى جـانب سـيطرة الاهتمـام بشؤون المـال والترفيـه، والعيش على أحاديثنا في الـبيت والشـارع والمدرســة... ومن المؤسف أن الحــديث عن الــذكر والاســتغفار والتوبة ونقاء السرائر صـار مسـتغرباً في كثـير من الأوسـاط لـدينا. وربما أثــار الإشــفاق على صــاحبه. وهــذا تغيــير ســيئ جــداً في حساسيات المسلم نحو عالم الروح، والقضية في نظري تحتـاج إلى أكثر مما يمكن أن نسميه بالمنعشات والملطفات... فتصـحر الـروح وقسوة القلب وتبلد المشاعر وتدني مستوى الاهتمامات والانغماس في المـادة، ليست أمـوراً صـغيرة، وإنما هي من المسـائل الكـبرى في الرؤية الإسلامية.
الوضـعية الـتي أشــرنا إليها هي نتيجة طبيعية للنفــوذ الهائل الــذي تمارسه الحضارة الغربية في العالم الإسلامي. وهي حضـارة لا تقيم أي وزن للحياة الروحية والوجدانية من المنظور الإســلامي. كما أنها تســـاوي على نحو متزايد بين الـــثروة المادية والقيمة الشخصـــية للإنسان. وتوهم الصغار والكبار بأن السـعادة شـيء يمكن الحصـول عليه من خلال المال.
أما علاج هــذه المشـكلة الكـبرى، فإنه يجب أن يتم على المسـتوى النظري والمستوى العملي.

أما على المســـتوى النظـــري فـــإن على المـــربين والمـــوجهين والإعلاميين أن يثروا السـاحة بالأفكـار والمفـاهيم الـتي تشـجع على إثراء الذات وتنمية الشخصية، عوضاً عن المفاهيم التي تحث الناس على التملك والتمتع والاستهلاك والترفيه.

ويأتي في قمة تلك المفاهيم مفهوم الارتباط بالهدف الأسمى الـذي نعيش من أجلــه؛ إذ إن كــثرة مشــاغلنا قد تنســينا المهم، وتجعلنا ننهمك في حاجات مؤقتة وتافهة. والهدف الأسمى لوجود كل مسلم هو الفوز برضـوان الله –تعـالى- وإن كل تحركاتنا وأنشـطتنا اليومية وأهـــدافنا المرحلية يجب أن تســـاعد على نحو ما على بلـــوغ ذلك الهدف. وآنذاك فقط سوف نشعر أن لوجودنا قيمة ومعـنى؛ كما أن طاقــات إضــافية ســوف تنفجر في أعماقنا مع الأمل ببلــوغ النهاية بأمان وسلام.

ومما ينفع في ترسيخ مفاهيم إنعاش الروح وتصحيح مسار المشاعر –صحبة الصالحين الذين لا تسيطر على مجالسهم الأحاديث الدنيوية وهموم العيش.

كما أن من المفيد في هذا الدخول إلى عالم عظماء هــذه الأمة من العلمــاء الربــانيين والعابــدين المتبتلين من خلال قــراءة ســيرهم وأخبــارهم والتأسي بهم، والتفاعل مع المفــاهيم الــتي كــانت توجه سلوكهم.

أما على الصــعيد العملي فإنه مما لا خلاف فيه أنه لا شــيء ينعش الروح، وينمي مشـاعر الإنابة والـورع والإقبـال على الله –جل وعلا- مثل الأنشطة التعبديـة. والمسـلم حين يكـثر من النوافل بأنواعها لا يدعم الناحية الروحية لديه فحسب، وإنما يرتقي بكيانه كله؛ فالصلة بالله –تعالى- والتي هي الثمرة المباشرة للعبـادة لا تغـير من مـزاج الإنسان فحسب، وإنما تنير له طريق الهداية أيضاً. والشـرط الوحيد الذي لا بد منه هو انضباط كل أشكال القربـات بهـدي النـبي –صـلى الله عليه وسلم-؛ إذ من طبيعة الأنشطة الروحية أنها تغري صــاحبها بنوع من الاندفاع والحماسة وجيشـان العاطفة الـذي قد يحرفها عن سنيتها، ويدخلها في باب الابتداع، وأحياناً فيما هو أسوأ!

ما يمكن أن يــثري مشــاعرنا ووجــداننا، ويحــرر الطاقــات الروحية الكامنة، كثير منه الدعاء والاسـتيقاظ في السـحر شـعار الصـالحين. وقد ورد في حديث الشيخين أنه إذا كان الثلث الأخير من الليل قال الله –جل وعلا- من يدعوني فأستجيب له،من يسألني فأعطيــه، من يستغفر لي فأغفر له. وهذه الفرصة العظيمة لا يضيعها إلا محروم.

ومنه الــذكر والاســتغفار والتهليل والتحميد والتكبــير، حيث إن أثر الذكر في جلاء القلوب عظيم جداً. وقد فتح الله –تعـالى- للـذاكرين أبوابـاً من الخـير العظيم ترغيبـاً للنـاس في الإكثـار من ذكـره؛ فقد أخرج مسلم في صـحيحه عن رسـول الله –صـلى الله عليه وسـلم- أنه خـــرج من عند جويرية بكـــرة حين صـــلى الصـــبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال:" ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم. فقـال: والله لقد قلت بعـدك كلمات ثلاث مرات، ولو وزنت بما قلت منذ اليوم لـوزنتهن: سـبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته".

وهنـاك إلى جـانب هـذا الصـدقة وصـلاة النافلة وخدمة المسـلمين وطلب العلم ونصح النــاس وتعليمهم... والمهم دائمــاً هو الانتظــام في ذلك وشـعور المـرء أنه لا يشـكو من جفـاف روحي، ولا من بعد عن خالقه؛ سبحانه.

إن من واجب الجماعات والمجموعـات أن تـولي هـذا الجـانب الحي من شخصية المسلم الاهتمـام الـذي يسـتحقه، وأن تسـاعد أفرادها بكل وسـيلة على صـقله وتنميتـه، حـتى يجـدوا مـوارد من الطاقة والعزيمة لأداء الواجبات والكف عن المحـارم والانـدفاع في أعمـال الخير والإحسان.

*

ثمة ثلاثية خادعة تسيطر على مناحي ومساحات كبيرة من الخارطة الفكرية العربية والإسلامية، وهي (نافق، فارق، وافق).

كيف نؤسس لعقلية تســتوعب الآخر دون تهميشه ودون الانـــدماج فيه؟

*

موقف النــاس بعضــهم من بعض أشخاصــاً وأفكــاراً، تحــدده البنية الثقافية السـائدة ويمكنـني أن أقـول: إن الثلاثية الـتي ذكرتها –وهي بالطبع ثلاثية مريضة- هي سمة عامة لكل الأمم والشـعوب الناميـة، الإسلامية منها وغير الإسلامية، وذلك لأسباب جلية في أذهان علمـاء الإنسان والمهتمين بالشأن الثقافي.

فحين تشــكل الأمية ظــاهرة واضــحة في مجتمع ما أو حين يكــون مسـتوى التثقيف متـدنياً، كما هو الشـأن في معظم الـدول الناميـة، فـإن الـذي يوجه مواقف النـاس وسـلوكاتهم آنـذاك هو عـواطفهم، وليس أفكـارهم بسـبب أن العاطفة موجـودة لـدى الجميـع، وليس كذلك الفكر. أضف إلى هذا أن هيمنة (الثقافة الشعبية) تتمـدد حيث

تنحسر الثقافة العليا. وعلى حين أن الثقافة العليا لدى كل أمة تضع المعايير العقلانية التي تحدد مواقف النـاس بعضـهم من بعض، فـإن الثقافة الشـعبية تسـتهدف أساسـاً توفـير التضـامن الأهلي والتلاحم القبلي والوطني مهما كان بعيداً عن الحق والصـواب. ولا نختلف أن مساحات السيطرة للثقافة العليا في مجتمعاتنا في الـوقت الحاضر ضيقة. ودور المثقفين الكبـار في توجيه الحيـاة العامة هامشـي. ولا نسـتطيع هنا أن نغفل ما يسـببه الجهل من (عمى الألـوان) حيث إن العلم يوسع مـدى الرؤيـة، ويسـمح بإمكانية الفهم المتعـدد للأشـياء والأحـــداث، على حين أن الجهل يولد التصـــلب الـــذهني والرؤية العمشــاء، حيث يظن محــدود المعرفة أن النـــاس ينقســـمون إلى فريقين: فريق معه وفريق ضـده؛ وبما أنه لا يملك المقـدرة الكافية على التفريق بين الصـواب والخطـأ، فإنه يتجه إلى جعل الـذين معه على الحق والـذين ليســوا معه على الباطـل. وحالة النفــاق الــتي أشرت إليها هي نتيجة ضمور الشخصية وعدم وجود ضــمانات كافية لإيصال الحق إلى أهله وإيقاف المبطلين عند حدود معينة.
وإيجـاد حل لهـذه القضـية صـعب جـداً في ظل التـوتر الاجتمـاعي الموجــود الآن، وفي ظل التخلف العلمي الـذي نعيشـه؛ ولكن على مثقفي الأمة أن يحـاولوا إبـراز مظـاهر العصـبية للـرأي، والمواقف التي يتجلى فيها التحـيز وضـيق الأفق وتجـاوز الحق والحقيقـة، وأن يشـجعوا في النـاس روح الموضـوعية والمصـارحة والحـوار وقـول الحق. وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن تقوم مدارسـنا وجامعاتنا بـدورها في هـذا الشـأن، فتقـرر بعض المـواد الدراسـية الـتي تـثري ثقافة الطلاب بمبادئ التفكير المستقيم، وتفضح أشـكال التفكـير المعـوج الذي يسيطر على كثير من الناس.
*
عبر التـاريخ الإسـلامي اختلط لـدى بعض النـاس المقـدس (القـرآن والســنة) بالتــاريخي (أقــوال وآراء الشــراح) مما أدى إلى ظهــور أمراض فكرية خطيرة، تجاوزت الدلالات القرآنية وصحيح السنة إلى آراء وأقـــوال معينـــة. ما هي الضـــوابط الفكرية والعقلية للتعامل بمنهجية مع القرآن الكريم والسنة النبوية الصـحيحة، ومع اجتهـادات وآراء السابقين؟
*
لا أعتقد أن القضية التي أشرت إليها هي قضية إسلامية، إنها قضـية بشرية عامـة، عـانت منها الأمم في الماضـي، وما زالت تعـاني منها

في الحاضر. ولا يخفى أن المشتغلين بـالقوانين والأمـور التشـريعية يختلفون اختلافـاً واسـعاً تجـاه تفسـير كثـير من المـواد الدسـتورية والقانونيـة، مع أنه أخذ عند صـياغتها احتياطـات كثـيرة لمنع الوقـوع في اللبس والفهم المتعـدد والمتنـاقض. وهـذا يعـود أساسـاً إلى أن اللغة ناقل غير كفء وغير شفاف، ودلالة الألفـاظ على معانيها غـير حاســمة في كثــير من الأحيــان. وحين تــدخل اللفظة في تــركيب تعبيري، فإنها تتيح مجـالاً أوسع للقـارئ والسـامع كي يفهم المعـنى على غـير ما أراد صـاحب النص. وفي نصـوص الـوحي يـزداد الأمر تعقيـداً عند إرادة الوصـول إلى حكم من الأحكـام، حيث يسـهم في تقرير ذلك الحكم عـدد من النصـوص، بالإضـافة إلى فعل النـبي –صلى الله عليه وسـلم- وإجمـاع الأمـة... وهـذا كله يسـمح بالتجـاوز والخلط.

ولا نستطيع هنا إغفـال دور بعض الأمـور الجانبية الخارجة عن نظـام اللغة في إحداث الخلط الذي أشرت إليه، والتي منها:

1- حماسة العالم أو الكاتب للموضـوع الـذي يعالجـه، تدفعه إلى أن يتجــاوز طاقة النص اللغوية والدلالية إلى تقرير معــان وأحكــام، لا يقررها غيره من أهل العلم الـذين يفقـدون تلك الحماسـة. وكم من عالم قرر بفعل الحماسة قضايا خلافية على نحو يشعر القـارئ بأنها مما انقطع فيه الخلاف والجـدل. وقد كـان الإمـام الجويـني قد عتب في كتابه (غيـاث الأمم) على المـاوردي أنه أورد في كتابه (الأحكـام السـلطانية) المسـائل الظنية في مـوارد المسـائل القطعيـة، مع أن أكـثر المسـائل الـتي يجـري تناولها في بـاب (السياسة الشـرعية) مسائل اجتهادية نظراً لقلة النصوص في هذا البـاب، والـذي خصص له الماوردي كتابه.

2- التعصب المذهبي الذي ابتلي به عدد غـير قليل من طلاب العلم؛ فقد دفعهم إلى صرف النظر عن الوهن الذي قد يكــون في أدلتهم، كما جعلهم يغضون الطـرف عن حجج الخصـوم، وهـذا كله يتم على حساب الفهم الأصيل والدقيق والمتوازن للنصوص.

وقد أدرك علماء المسلمين منذ وقت مبكر المشـكلات الـتي سـيقع فيها الناس حيال فهم النص القرآني والنص النبـوي، فوضـعوا علمـاً كــاملاً هو علم (أصــول الفقــه) من أجل تأســيس معقولية لغوية وثقافية، تسـاعد على إنـارة طـرق التعامل مع النصـوص الشـرعية، وتضع ما يحتاجه ذلك من الضبط والتقعيد والتأطير.

وقد اهتم علماء الأصول بتوضيح معاني الحقيقة والمجاز والمطلق والمقيد والمتواتر والآحاد، وما تفيده صيغ الأمر والنهي والاستفهام من معان ودلالات... وفي اعتقادي أن الجهود التي بذلها علماء المسلمين في سبيل ترشيد فهم نصوص الوحي لم تبذلها أي أمة من الأمم، وهي حقيقة مدعاة للفخر والاعتزاز. ومع ذلك فإن التاريخ يحدثنا عن أشخاص كثيرين رفضوا الالتزام بأي قواعد للفهم، وجعلوا قائدهم لذلك الهوى الشخصي والمعطى الثقافي الخاص الذي لا يحتمل أي نقاش جاد، وفي زماننا هذا تصدَّى لتفسير النصوص الشرعية أطباء ومهندسون ومحامون بعيدون عن معاناة اللغة وأصول الفقه، متجاهلين العمل وفق أي أصول استدلالية؛ بل متجاهلين الطاقة اللغوية للنصوص، فجاءوا بالعجائب، ومارسوا دوراً تضليلياً وتخريبياً مؤذياً، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولا يخفى إلى جانب هذا أن كثيراً من أدبائنا تأثروا بالاتجاهات النقدية السائدة في الغرب، فأشاعوا في البيئة الإسلامية مفاهيم تقلل من شأن صاحب النص في تحديد مضامينه ودلالاته، كما تقلل من شأن أي ضوابط يمكن أن تؤطر الخلاف في فهمه. وصارت تلك المفاهيم تعطي دوراً أكبر للقارئ والمجتهد في تحديد معاني النص ومراميه، وما يمكن أن يُستنبط منه. إن من شأن وضع كهذا أن يهيئ للدخول في مرحلة من الفوضى الفكرية ومرحلة من الترهل والانفلات في وضعية العلاقة بين النص الشرعي المعصوم، وبين المعنيين بفهمه واستخراج الأحكام والدلالات منه. وعلى كل حال فإن مشكلتنا الأساسية في التعامل مع النصوص ستظل قائمة مع فئتين من الناس: الجهلة وأهل الأهواء. أما إذا تجاوزنا هاتين الفئتين فإن الخلاف بين علماء الشريعة في قضية التعامل مع النصوص ليس بعيد الشقة، وما يجري بينهم من نزاع في ذلك يجري بين كل المختصين وفي جميع العلوم. وأنا مطمئن إلى متانة موقف علمائنا، حيث إنهم كانوا على دراية جيدة بطبيعة الأحكام التي يتوصلون إليها عبر الاجتهاد، ولذا قالوا: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب. ومن الواضح أن الله اللطيف الخبير بشؤون عباده قد مهد سبيل الاجتهاد والتفاعل مع النصوص، إذ إن ما كان من مسائل الشريعة ثابتاً لا يتغير بتغير الزمان والمكان -كالعقائد والعبادات- جاء مفصلاً في الشريعة الغراء غاية التفصيل؛ ولذا فإن مناط الاختلاف فيه بين الفقهاء هو الفروع، وليس الأصول. وما كان يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة جاء في الشريعة مجملاً، وليس فيه

أكـثر من خطـوط توجيهية عريضـة، والقليل من الضـوابط العامة – وذلك مثل طرق إقامة العدل والشورى وإدارة الحياة العامة للأمــة- ولـذا فـإن مجـال الاجتهـاد والتجديد فيه واسع جـداً، والخلاف فيه لا يضر ما دام في دائـرة مقاصد الشـريعة ووفق الإرشـادات العامـة، وما دام يحقق المصـالح المرجـوة. ومع كل ذلك فـإن على علمـاء الشـريعة ألا يقفـوا مكتـوفي الأيـدي حيـال ما يحـدث، وأن يقومـوا بالمبادرة المناسبة. وربما كـان مما يفيد في ذلك إغنـاء علم أصـول الفقه بالأمثلة الحديثـة، إلى جـانب إثرائه بالمؤلفـات السـهلة، حـتى يتيسر فهمه لعدد كبير من الناس، بالإضـافة إلى محاولة حسم بعض الخلافات الشكلية أو اللفظية التي تشتت ذهن المطلع عليه. وأعتقد أنه يمكن من خلال الانفتـــاح على الأســـلوبية الحديثة ومن خلال الانفتاح على محصلة البحوث اللغوية الحديثة، تعزيز جهود السابقين في تشكيل آليات جيدة للفهم والتعامل مع النصوص عامة، ونصوص الكتاب والسنة خاصة.

*

ما معــالم الثقافة والفكر الــواعي الناضج الــتي يمكن أن نقتحم بها الألفية الميلادية الثالثة؟

*

هذا سؤال خطير، والجواب المعمق عليه قد يحتاج إلى كتاب. ولكن لعلي أشــير هنا إشــارات ســريعة إلى نوعية الثقافة ونوعية الذهنية التي نجابه بها المستقبل. إن من المؤمل حقاً أن أمة (اقــرأ) لم تعد تقرأ، فنحن في العالم الإسـلامي لا نعـاني من متوسط أمية يتجـاوز نسبة الــ 40% فحسـب، ولكن نعـاني أيضـاً من أن الـذين يعرفـون القــراءة لا يقــرأون، وحينئذ فـإن علينا أن نتســاءل: ما الفــرق بين الأمي، وبين شخص يعرف القراءة لكنه لا يقرأ؟

نعاني من هجر الكتـاب في زمـان تـزداد فيه أهمية المعرفة الراقية والمنظمــة، حيث يــتراجع دور الــذكاء في التقــدم الحضــاري، كما يــتراجع دور المــال والـثروات الطبيعية لحسـاب ما يملكه الأفــراد، وكـــذلك الأمم من دوافع واهتمامـــات وأفكـــار ونظم ومعلومـــات. وسيظل معظم المسلمين يعانون من الفقر والضـنك وذل الوقـوف على أبواب الآخرين ما لم يغيروا نظرتهم للمعرفة، وما لم يستعيدوا ما فقــدوه من حب القــراءة والبحث والاكتشــاف. وعلينا في هــذا المقــام أن نعــترف أن مؤسســاتنا التعليمية بكل مقوماتها أخفقت

إخفاقاً مريراً في إرساء تقاليد الثقافة، تمجد الكتاب، وتدفع الناشئة إلى اعتبار العلم السلاح الأمضى في مواجهة تحديات الحياة.
دعنا الآن نوصّف بإيجاز شـديد نوعية الثقافة الـتي نحتـاج إليها –كما قلت- في اقتحام الألفية الثالثة، ثم نصير إلى توصيف نوعية العقلية التي يجب أن تتمثل تلك الثقافة وتتفاعل معها.
سـيظل الـرقي المعـرفي شـيئاً نسـبياً، وما دمنا في زمـان يشـهد انفجاراً معرفياً هائلاً، فإن السعي إلى الاسـتزادة من العلم يجب ألا يتوقف في يوم من الأيام؛ إذ إن من شأن البنى المعرفية الموجودة لـدى أي أمة أن تفـرز على نحو دائم نقائصـها وعقابيلهـا، كما تفـرز الأسباب والمحرضات التي تحفزها على الاتساع والنمو.
لا يخفى أن هناك قـدراً من المعرفة يعد ضـرورياً لصـحة إيمـان كل مسـلم، كما أن هنـاك قـدراً ضـرورياً من العلم لاسـتقامة عباداته ومعاملاته وعلاقاته وتحديد أهدافه الكبرى. وهذا القدر ضـروري لكل مسـلم مهما كـان تخصصه ومهما كـان عملـه. والمفـترض أن تـوفر التربية البيتية والمنـاهج المدرسـية هـذا اللـون من المعرفة في المرحلة الابتدائية والمتوسطة.
إن الأصـول الـتي يجب أن تـدور معرفتنا في فلكها لا تقتصر على الأصول العقدية والتشريعية، وإنما تتسع لتشمل الأصـول والفـروض الحضـارية الـتي تسـاعد أمة الإسـلام على الالـتزام بـدينها وعيش عصـرها بكرامة وكفـاءة، من نحو العـدل والحرية وكرامة الإنسـان وحقوقـه، وتكـافؤ الفـرص والإبـداع والاعـتزاز بالانتمـاء الإسـلامي، والتحصن ضد اسـتلاب الشخصـية وما شـاكل ذلك مما هو أساسي ومحـوري في تبلـور ذاتية الأمة وتحقيق ولايتها على نفسـها. ثم إننا بوصفنا أمة مسلمة تدين لله بالعبودية، فإن من المهم ألا يسود فينا أي لـون من ألـوان المعرفة الـتي تخـدش الانتمـاء لهـذا الـدين، أو تصطدم بإطـار من أطـره العامـة، أو تشـوه الرؤية العامة للأمة في تعاملها بعضها مع بعض، أو في إدراكها لأهدافها وواجباتها.
من خصـائص المعرفة المطلوبة لاقتحـام الألفية الثالثة (التـوازن)، والـذي نعـني به عـدم التركـيز على جـانب من جـوانب المعرفـة، وإهمال الجوانب الأخرى، ونجد في هـذا الإطـار أنماطـاً عديـدة، ولا يخلو كل نمط منها من شيء من الخلل.
كثـيراً ما يحـدث أن يركز بعض طلاب العلم على النقل المحض، وتكديس العلـوم والأخبـار دون أي محاولة لفقهها أو الاسـتنباط منها وتوظيفها في بلورة رؤية حضـارية معاصـرة. في الـوقت نفسه نجد

من يعتمد على العقل والتجربة ومعطيـــات الدراســـات الحديثة في تكـوين الـرؤى والأحكـام دون أي محاولة لـدعمها بالنصـوص، ودون السؤال عن مدى ملاءمتها لأطر الشريعة الغراء ومبادئها الأساسـية.
بعض طلاب العلم يعتمد في توجهه الثقـافي وبنـاء هيكله المعـرفي معطيـــات محلية بحتـــة، ولا يحـــاول تطعيمها بخـــبرات الآخـــرين ومعارفهم، فيضـيق على نفسه واسـعاً، ويحـرم فكـره من كثـير من التفتح والتجدد. ونجد في جوار هـذا الصـنف من انغمس في الثقافة الغربية، وظن أنه سوف يستخرج منها الدرر ونـوادر الأفكـار، مع أن كثيراً من ذلك موجود بصورة واضحة ومؤصلة في تراثنا وأدبياتنا.
نحن بحاجة إلى معرفة تستفيد من الخبرة الإنسانية كاملـة، مع نـوع من الانفتاح وممارسة النقد الذاتي في إطـار أصـولنا ومبادئنا ورؤانا الكليـة. ونحن مع هـذا مطـالبون في أن نكـون صـرحاء في نسـبة الفضل لأهله ولو كـان عـدواً لنـا؛ ولو كـان ذلك سيضـعف موقفنا أمامه. ولا ينبغي أن يمنعنا جحود الجاحدين -من الغربـيين وغـيرهم- من أن نشيد بالأفكار والإسهامات الممتازة كائناً من كـان مصـدرها؛ فالمسألة ليست مسألة مصلحة وإنما مسـألة مبـدأ، كما قـال الله – جل وعلا-:"يا أيها الذين آمنوا كونوا قـوامين لله شـهداء بالقسط ولا يجـرمنكم شـنآن قـوم على ألا تعـدلوا اعـدلوا هو أقـرب للتقـوى" [المائدة:8].
هناك سمة مهمة للمعرفة المنشودة هي سـمة (التجـريب) والـنزوع نحو محاورة الطبيعة. وهـذه السـمة جـزء أصـيل من المنهج العلمي الإسلامي.
وحين أخـذنا بـذلك المنهج حققنا تقـدماً علميـاً ضـخماً في مجـالات الكيميـــاء والفيزيـــاء والفلك والطب والجغرافيـــا... ولكن يبـــدو أن السـابقين لم يسـتوعبوا بشـكل جيد مـرامي المنهج الإسـلامي في الحث على السير في الأرض، وإجراء التجارب واسـتخلاص المعرفة منها، ومن ثم كان الـتراجع عن ذلك المنهج سـهلاً. وقد أدى الـتراجع عن التجـــريب في البحث –مع أســباب أخـــرى- إلى جمـــود الواقع الحضاري، ثم تدهوره، وصعوبة النهوض به بعد ذلـك. ولست أعـرف اليـوم سـبيلاً لتحريك المعرفة لـدينا وفتح نوافـذها للتجديد سـوى الاتجاه نحو التجربة واسـتقراء الواقع عن طريق الإحصـاء والمقارنة والاهتمام بجزئيات الوقـائع وربطها بأصـولها، ثم اسـتخلاص الأحكـام والنتائج منها، وذلك يساعدنا على فهم أفضل لسنن الله في الخلق،

وتلمس وجـوه الانسـجام بين الكتـاب المقـروء (القـرآن) والكتـاب المفتوح (الكون) بكل ما فيه.
لن يحدث شيء من هذا إلا إذا أدركنا أن التقدم التقني بـات يشـكل مفصـلاً مهمـاً من مفاصل حيـاة الأمم. ولن يحصل شـيء من ذلك التقـــدم إلا من خلال البحـــوث الأساســـية والتطبيقية ومن خلال الاهتمام بالواقع. ومشكلة الأمة في التعامل مع كل أشكال المعرفة أن من طبيعة التخلف أنه يمد الناس عـادة بأجوبة وهميـة، ويضـعف شــهيتهم نحو التســاؤل مما يجعلهم يشــعرون بــالامتلاء الكــاذب، ويتجشأون من غير شبع
لا يمكن للمعرفة أن تظل معاصرة وحية وفاعلة إذا لم تكن متجددة ومواكبة للإنتـاج العلمي والثقـافي المتجـدد؛ فـالتغيرات المتسـارعة في البـنى الثقافية المختلفـة، جعلت الشـيخوخة تـدرك المعلومـات وهي في عز صباها.
وتفيد بعض التقــديرات أن نحــواً من 90% من المعلومــات قد تم تحديثه خلال العقود الثلاثة الماضية.
إن تقادم المعلومـات يتجلى في أشـكال متعـددة، فتـارة يتجلى في زيف المعلومة أو عــدم دقتهــا، وتــارة في عــدم ملاءمتها للخطط الجديدة، وأحياناً بتحول الاهتمام عنها، لأنها لم تصـبح ذات قيمة في البناء المعرفي الجديـد... ولا ريب أن المعلومـات الأساسـية في كل فن تستعصي على التغيــير الســريع، لكن ليس هنــاك أي وســيلة لصونها من القراءة الجديدة والتي قد تغير بالتالي الكثير من دلالاتها ومعطياتها. كما أن توظيفاً جديـداً للمعلومـات القديمة قد يغـير في النتائج المستقاة منها. هـذا يعـني أن من الـواجب على كل واحد منا أن يتابع الاطلاع والقراءة المنظمة الواعية؛ حـتى لا يشـعر في يـوم من الأيام أن المعلومات الـتي لديه صـارت بمثابة نقـود سُـحبت من الأسواق، ولم تعد صالحة للتداول.
لا أريد أن أتوسع أكــثر من هــذا في هــذه النقطــة؛ ولكن أحب أن أقول: إن ممارسة الاطلاع على نحو جيد سوف تساعد كل واحد منا على تعريفه على حاجاته المعرفيــة؛ ولكن لن نقــرأ بحماسة وعمق وجدية إلا إذا قرأنا بنية الإضــــافة إلى المعرفة وإثرائهــــا، أي إلا إذا كانت القراءة لدى الواحد منا جزءاً من مشروع كتابة.
أما توصــيفي للعقل الــواعي الناضج الــذي ورد في ســؤالك فإنه يتلخص في النقاط الآتية:

1- العقل الناضج هو العقل الـذي مر بـالكثير من حـالات التـدريب والتجريب والصقل؛ مما جعله في النهاية يمتلك عـدداً من المفـاهيم المترابطة والممتـازة الـتي تمكنه من التعامل الراشد مع الأشـياء والأحداث والأشخاص.
والنضج العقلي لا يـأتي في حقيقة الأمر من كـثرة المفـاهيم الـتي يمتلكها الواحد منـا، وإنما من نوعية تلك المفـاهيم. ومن المؤسف حقـاً أن مدارسـنا وجامعاتنـا، لا تـولي مسـائل تكـوين الشخصـية، ومسـائل تكـوين العقـول الواعية أي اهتمـام يـذكر. كما أن معظم الأسر الإسـلامية غـير مؤهلة على النحو المطلـوب للقيـام بـدورها التربوي، ولا سـيما ما يخص تنمية العقلية وتصـحيح التصـورات لـدى الأطفال والفتيان.
2- ليس من المبالغة القـول: إن إنسـان العصر الحـديث مشـرق الوجه مظلم الـروح، كثـير الـذكاء قليل العقـل. وهـذه مفارقـات مزعجـة، لا تنم عن نضج متزايد كما قد يظن- كما لا تـدل على أن وعينا بالصورة الكلية للوجود قد بات على ما يـرام. العقل في عمق ثقافتنا لا يعني القدرة على الاكتشـاف بمقـدار ما يعـني طاقة جيـدة على تحقيق التـوازن الشخصي وتـوازن المـرء مع بيئته إلى جـانب انسجام سلوكه مع مبادئه وأهدافه. وبهذا الاعتبار فإن التقدم التقني المـذهل الـذي نشـاهده اليـوم لا يـبرهن على وجـود تقـدم حقيقي مؤطر بالعقل والحكمة؛ ذلك لأن تجسيدات الذكاء البشري ومنتجاته لا تتصل بمفاهيم الاستقامة والانحراف والسعادة والشـقاء، والحيـاة والمـوت. بل إن الأمر صـار أكـثر سـوءاً، حيث يتم تحييد العقل والمنطق من اعتبـارات قبـول كثـير من المبـادئ والأفكـار. وصـار الاهتمـام منصـباً على مـدى ما تحققه من سد للحاجـات وتلبية للرغبـات. وهـذا لا يخلو من الانـزلاق إلى الهمجية والبربريـة، وصـار على الدعاة والمثقفين أن ينبهوا الناس إلى الأخطار التي تحيق بهم من خلال الصـدوع والشـروخ بين الـذكاء وطروحاتـه، والعقل ومقتضـياته؛ أي من خلال انفلات الـذكاء من ضـوابط العقل ومقتضيات التناسق العام.
3- لا بد أن نبحث عن الآليـات الـتي تمكن المسـلم المعاصر من امتلاك المفـاهيم الـتي تسـاعده على أن يفكر تفكـيراً يلتصق بالحقائق بعيداً عن الأهواء الداخلية والضـغوطات الخارجيـة، وهو ما نسميه بـ (التفكـير الموضـوعي) ومن أهم المفـاهيم الـتي يشـتمل عليها هـذا النـوع من التفكـير: التحـرر من سـيطرة الأهـواء، وعـدم

التعامل مع الأمــور الظنية على أنها أمــور قطعيــة، بالإضــافة إلى إنصاف الناس، وعـدم هضـمهم حقـوقهم، ونبذ التقليد والإبائيـة، إلى جـانب احـترام التخصص ومراعـاة الدقة في إطلاق الأحكـام، والبعد عن التعصب للمـذهب أو الجماعـة، ورفض التزيد والمبالغـة، وعـدم الوقوع في فخ تفسـير أحـداث الكـون على أنها أجـزاء من مـؤامرة كبرى تستهدف الإسلام والمسلمين، وعدم إسقاط القاعدة بالمثـال الشاذ... ولا بد أن نعلم أن الموضوعية المطلقة شيء غـير موجـود، وذلك لأســباب إنســانية وفنيــة. وكل ما نســتطيع أن نفعله هو الاســتمرار في المجاهــدة حـتى نحصل على أكــبر قــدر من الفهم الموضوعي، وأقل قدر من الانصـياع لأهـواء الـذات. ونحن من خلال الاعـتراف بالتقصـير، ومن خلال الانفتـاح والإنصـاف والحـوار ورؤية الأشــياء بعيــون عديــدة، ومن زوايا مختلفة نســتطيع –بمعونة الله تعـالى- أن نبصر مواقع أقـدامنا، وأن نعـرف مـدى موضـوعية رؤانا وأحكامنا ومواقفنا.

4- نحن نخاف من الجديـد، ونحـار في التعامل معـه، وننقسم تجاهه ونتشـرذم. وهـذا كله طـبيعي، لكن علينا أن نـدرك أن من الخطأ أن نفرح بكل جديدة، ونمنحه تأشيرة دخول نظـراً لحداثتـه. كما أن من الخطأ تقديس القـديم لا لشـيء إلا لقدامتـه؛ فنحن مسـلمون نحكم عن الأشــياء من واقع انســجامها مع مبادئنا ورؤيتنا العامة للحيــاة بقطع النظر عن تاريخهـا. وعلينا بعد هـذا أن نحـاول الحصـول على رؤية مركبة للأحداث والمعطيـات الجديـدة؛ فـنرى وجهها المشـرق، كما نرى وجهها المظلم. وفي تصوري أن الجديد هو دائماً مزيج من الخـير والشـر، ومـزيج من الفـرص والتحـديات والتعقيد والبـدائل، فخبرة البشرية تقول: إن كل أزمة تمنح فرصة لمن كان في الموقع الصحيح. وإنه ما يغلق باب إلا ويفتح باب آخر، لكن قصورنا الثقـافي والـتربوي، يجعلنا ننشـغل بالبـاب الـذي أغلق عن البـاب الـذي فتح، ومصداق هذا في قول الله –جل وعلا-:"فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً" ولذا فإني أرى أن فرص العمل أمام الشـباب لا تظهر للعيان، لعدم وجود الناس المؤهلين لشغلها. وعلى هذا فـإن معانـاة الناس من البطالة لا تعود إلى عوامل اقتصادية، فحسب، وإنما تعود أيضاً إلى تقاعس الناس عن النهوض للتكيف مع الفرص الجديدة.

ليس من السـهل أن نحيط بكل ملامح العقل الجيد وشـروطه، ولـذا فإني أنصح بتكثيف القراءة في هذا المجال؛ فـالهوة الـتي بيننا وبين الأمم الأخــرى تتســع، وإن من شــروط ســدها تكــوين بنية عقلية

ممتـازة، تـدرك شـروط العيش في زماننـا، وتعـرف كيف تسـتجيب لتحدياته.
*
كثر الحديث اليوم عن الإيجابية والإنسان الإيجابي، فما رؤيتكم لهذه القضية؟
*
كثـير من المسـلمين –ولا سـيما المثقفين منهم- يشـعرون بانسـداد الآفـاق، ويسـيطر عليهم الإحبـاط والإحسـاس بـالقهر، وذلك نتيجة سـوء الأحـوال السياسـية والاقتصـادية والأخلاقيـة... ونتيجة تـدهور مكانة الأمة بين الأمم الأخـرى. ولـذا فـإن أكـثر أحـاديث النـاس في مجالس السـمر وأوقـات الفـراغ يتمحـور حـول الشـكوى من سـوء الأحوال، وحول غرائب وعجـائب ما يفعله بعض النـاس، مما لا يمت إلى الإسلام أو العروبة أو الإنسانية بأي صلة. ولا يخطر في بال أحد منا أن يراجع حصيلة ذلك، وهل دفعت بالأمة أي خطوة نحو الأمام؟
صـحيح أنه لا بد للمصـدور أن ينفث –كما قـالوا- ولكن سـيكون من الخير للمصدور أن يبحث عن علاج لعلته أيضاً عوضاً عن الاسـتمرار في رفع العقـيرة بالتـأوه والتوجـع. مهما سـاءت الأحـوال، فسـتظل هناك هوامش للتحسن والتقدم. ومن واجب الدعاة والمثقفين عامة أن يشتغلوا بتوليد الأفكار والنظريات التي تدل النـاس على الطـرق المفتوحـة، وتسـاعدهم على تجـاوز اليـأس الـذي يسـيطر عليهم. وأعتقد أن كل نظرية توصل النـاس إلى طريق مسـدود هي نظرية خاطئة، أو لا يصح أن تسمى أصلاً نظرية؛ فنحن نعتقد أن الله –جل وعلا- ما أنزل داء إلا أنزل له دواء؛ كما ورد في الحديث الشريف.
الإيجابية صـفة مغـايرة للسـلبية. وإن من المؤسف حقـاً أن يفهم بعض الناس الإيجابية على أنها تعني نوعاً من الاستسلام للخصوم أو التنـازل عن المبـادئ، أو الـتراخي في الاستمسـاك بـالحق. إن هـذا تشويه غير مقصود لهذا المعنى العظيم!
الإيجابية في نظري تعني الآتي:
1- القدرة على التحكم بالعواطف، حيث يستطيع الإنسـان الإيجـابي من خلال تحكمه بعواطفه تجاوز خطوط الغريزة. وهذا التجاوز يعـبر في اتسـاع مـداه عن مـدى اسـتطاعة صـاحبه تحقيق إنسـانيته من خلال بعده عن (الحيوان) الذي لا يسـتطيع السـيطرة على غرائـزه، ولا تأجيل رغباتـه، والـذي لا يقـوى أيضـاً على المخـاطرة... ونعـني بالسـيطرة على العواطف أن يلبس المسـلم لكل حالة لبوسـها؛ إذ

ليس من الإيجابية أن يحمل الموظف هموم بيته ومشــكلاته الخاصة إلى مكتبه أو مدرســته؛ فــالأداء الكفء يتطلب موظفــاً في أحسن أحواله وأعلى درجــات لياقته النفســية والبدنية والعكس صــحيح. والحصول على هـذه الوضـعية يتطلب تـدريب العاطفـة، وتقوية آلية الضبط الداخلي.

2- الفهم العميق لتحـــديات العصر ومطالبه وأشـــكال الاســـتجابة المطلوبة للعيش فيه، إلى جانب الشعور بالقدرة على التغيير. تغيير النفس وتغيــير المحيط وتغيــير الرؤية للأشــياء. وينطلق الشــعور بإمكانية التغيــير وضــرورته من خلال إدراك أن الله –تعــالى- قضى على الكــون بــالتقلب والتحــول، وأن يظل في حالة من الصــيرورة المســتمرة، كما ينطلق أيضــاً من مبــدأ ضــرورة الاســتفادة من التجــارب الســابقة حلوها ومرهــا، ومن مبـدأ ضـرورة الانتقـال من العمل الخارج عن دائـرة الـوعي إلى مرحلة اسـتلهام الحق والخـير والفضيلة، وتمثلها في السلوك الجديد.

إن الرتابة نوع من العدم، وإن الاستسـلام للأخطـاء والقنـوع بالحالة الحاضرة نوع من الخروج من المحيط الحي إلى محيط الجماد.

3- الصـحة النفسـية ركن أساسي من أركــان الإيجابيــة؛ إذ لا يمكن للمــرء أن يكــون في وضع إيجــابي وهو يشــعر بنــوع من (الســأم الوجـــودي) ومن ثم كـــان لتزكية النفس وتنقية الســـرائر المكانة العظمى في الإسلام.

ما من إنسان إلا يعتريه أوضاع يفقد فيها لياقته النفسية، لكن المهم ألا يسـتمر ذلـك، ويصـبح صـفة ملازمة لـه. وللخلاص من تلك الحالة شــرع الله –تعــالى- التوبة لغسل الشــعور بالــذنب، وشــرع كــذلك النوافل وأعمال الخـير والـبر من أجل تجـاوز المصـالح الضـيقة إلى أفق أرحب، ومن أجل تجديد المعاني الروحية، ونفض غبار التقاعس والخمول عن نفس المسلم.

4- الإنسان الإيجابي يتمتع برؤية جيـدة للفـرص المتاحة مهما كـانت محــدودة، ولــذا فــإن شــعاره الــدائم: أعمل ما هو ممكن الآن، ولا أنتظر تحسن الظـروف والإمكانـات. إن الإنسـان الإيجـابي يعتقد أن مباشــرة الممكن توسِّــع دائــرة العمل وتــذلل عقباتــه. ومن خلال مباشرة الممكن يصبح ما هو مستحيل وعسيرٌ اليومَ ممكنــاً وســهلاً غداً.

5- لا يكون المسلم إيجابياً إذا لم يملك روح المبادرة الفرديــة. وفي نظري أن المبادرة الفردية كثيراً ما تكـون في منزلة سـفينة النجـاة

في حالة انحطـاط الأمم. تعـني المبـادرة الفردية تجـاوز أفـراد من الأمة لمسـتواها العـام ولسـقف حيويتها وانـدفاعهم نحو تحقيق ما يتمنى الناس حصوله، لكنهم يفقدون العـزم والإرادة للبـدء بـه. وقد علمتنا التجربة أن معظم النـاس يحبـون الخـير، ويقـدرون فاعليـه، وهم على استعداد للمشاركة في مشـاريعه، لكن المشـكلة الكـبرى هي أن المستعدين منهم لخطو الخطـوة الأولى، ووضع أول لبنة قلة قليلـة. وهـذه القلة هي ملح المجتمع وبركتـه. المبـادرون هم أنـاس يحبون الخير، ويثقون بأنفسـهم، ويحبـون خدمة جمـاعتهم. وهم إلى جانب ذلك مسـتعدون لتحمل نتـائج مبـادراتهم، وما قد تجـره عليهم من مشكلات ومتـاعب، على حين أن بـاقي النـاس يرفعـون شـعار: (ليبدأ غيري) وشـعار:(علينا أن ننتظر النتـائج)! ليسـأل كل واحد منا نفسه: كم مبادرة خيرة في رصيده، وليحـاول تـبين موقعه في هـذه المسألة.

*

الملاحظ في كتاباتكم التركيز على فكرة الاستجابة للتحديات عوضاً عن الانهزام أمامها. فما الذي تحبـون أن تقولـوه لقـارئ المنـار في هذه القضية؟

*

من غير الوعي العميق بطبيعة الحياة، ومن غير معرفة جيدة بسـنن الله -تعالى- في الخلق فإن النـاس ينـدفعون بفطـرتهم نحو التكيف مع الصعوبات الـتي يواجهونهـا. وذلك التكيف غالبـاً ما يكـون سـلبياً حيث يـتراجع معظم النـاس تجـاه التحـديات، ويتخـذون منها ذريعة للتكاسل والتقاعس. وقد كـان هـذا في الماضـي، وما زال مسـتمراً لدى أناس كثـيرين. لكن بـدأ اليـوم يتبلـور لـدى بعض الأمم مفهـوم (التحدي والاستجابة)، حيث صار كثير من أبنائها يتلمس فهم قـوانين ردود الفعل كما يتلمس قـوانين الفعـل. وتحـولت الرؤية للصـعوبات والمحن، فلم تعد مصدراً لشقاء لا ينتهي، وإنما صار ينظر إليها على أنها ربما كـانت نعمـاً يـؤدي فقـدانها إلى الترهل والمـوت والانـدثار. وقد قال أحد كبار السن: كنت أحلم باليوم الذي أترك فيه وظيفتي، وأخلد فيه إلى الراحة الـتي لا يعكر صـفوها الجـدل مع النـاس والجلوس الطويل خلف المكتب في العمـل. وحين نلت ذلك أدركت قيمة ما فقدته، حيث صرت أعاني من نفسية الاسـترخاء والإهمـال، وتبدد الكثير من علاقات الزمالة وعلاقتي الاجتماعية، وصرت أشـعر أكثر فأكثر أن الحياة ليست بحاجة إليّ! إن هـذا الرجل بعد أن تـرك

عمله فقد الفضـائل الـتي كـان يتمتع بها من وراء العنـاء الـذي كـان يجده في عمله اليومي. حياة الرخاء والعيش السهل كثيراً ما تخون أصحابها؛ لأنها لا تولِّد المثير الـذي يحفـزهم على الإبـداع والتطـوير. ويـذهب بعض البـاحثين إلى أن من الأسـباب المهمة لتخلف أفريقيا عدم وجود تحديات تدفع الأفارقة إلى العمل، فقد كان الماء والغذاء متوفرين، ومع اعتدال المنـاخ لم يكن النـاس يشـعرون بالحاجة إلى وقود للتدفئة.

ووفــرت لهم الغابــات ســهولة منقطعة النظــير لبنــاء المســاكن والعشش والأكواخ. هذا كله جعل الإنسان الأفريقي يشـعر ألا شـيء يــــدعو إلى العجلـــــة، ولا إلى الكد والنصب ما دام الحد الأدنى من الحياة متوفراً.

العلاقـات الجدلية تقتضي دائمـاً التنـافس والتعـاون، فحين تصـطدم فكرة بفكـرة يتولد عنها فكـرة ثالثة هي أعلى منهما مسـتوى، حيث تكون قد تجاوزتهما معـاً، وصـارت خلاصة لأجمل ما فيهمـا. علاقـات التنـافس والتعـاون هـذه تتم في نطـاق توازنـات مسـتمرة لا غـنى للحياة عنها، ومنها تولـدت مفـاهيم كثـيرة في القـرن التاسع عشـر، منها: التكيف والصراع من أجل الحياة، والتوتر والمقاومة والمجابهة والأزمة واسـتيعاب وجهة نظر الآخر والكمـون والتجـاوز والهـروب والاختيــار والتنــازل. وقد اســتطاع (توينــبي) المــؤرخ الإنجلــيزي المشـهور أن يسـتثمر المحصـلة الـتي تـوفرت لـدى البشـرية نتيجة نظرية التحدي والاستجابة في تفسير نشوء الحضارات وتحللها.

وأدرك توينبي أن التحدي الشديد يكون عميقـاً؛ لأنه يخـرج من كونه تحدياً إلى كونه شيئاً معجـزاً أو محبطـاً. كما أن فقد التحـدي يـؤدي إلى الذبول والترهـل. ومن ثم نشـأت فكـرة (الوسط الـذهبي) وهو عبارة عن مجموعة الظروف الـتي تحـرض النـاس على العمل دون أن تشكل عائقاً كبيراً في سبيل وصـولهم إلى ما يريـدون. ومن هنا أيضـاً نشـأت فكـرة ضـرورة قيـام الدولة ببنـاء المرافق العامة من طرق ومطارات ومدارس ومشاف... حتى تؤمن للناس المناخ الذي يسـاعدهم على الانطلاقة الصـحيحة. لكن مع هـذا لا بد من القـول: إننا في اللحظة التي نكتشف فيها تحـدياً من التحـديات نجد أنفسـنا شبه عاجزين عن القيام بأي شيء، كما يجد طفل في الخامسة من عمـره نفسه عـاجزاً عن كتابة اسـمه قبل أن يـدخل الروضـة. لكن حين نستخدم ما لدينا من فكر، ونحرك وننظم ما لدينا من إمكانـات

فإن صعوبة المواجهة تتراجع، ويصبح تجاوز التحدي أسهل شيئاً فشيئاً.
من هنا فإن المطلوب منا أن نحمد الله –تعالى- على الشدائد، لأنها تفتح لنا دروباً للرقي والتقدم والعمل قد لا نجدها في حالة اليسر. وإذا عمقنا النظر في تاريخ البشرية وجدنا أنها كانت تتقدم عن طريق الأزمات والشدائد أكثر من تقدمها عن طريق الرخاء وسهولة الحياة. وكل مرادي من هذا أن نحاول تأسيس عقلية المواجهة للصعوبات، وأن نطرد روح الاستخذاء والهزيمة التي تسيطر على كثير من الناس بمجرد أن يجدوا أنفسهم وسط صعوبات شديدة. لو أن نبينا –عليه الصلاة والسلام- استسلم للضغوط الشديدة والمغريات الكبيرة التي لاقاها في مكة إذن لوئدت الدعوة في مهدها، ولكن صلابته الشديدة واستمساكه المطلق بمبادئه وصبره المنقطع النظير على البلاء... فتح له ولهذه الأمة أبواباً من الخير ستستمر –إن شاء الله تعالى- إلى يوم القيامة.
إني أنصح نفسي وإخواني بمحاولة التقليل من الشكوى والتأفف قدر الإمكان، والانصراف إلى العمل الإيجابي المثمر مهما كان صغيراً؛ ومن خلال الأعمال الصغيرة المتراكمة تنهض الأمة، ويتغير وجه الحياة، لكن ذلك يحتاج إلى وقت، وعلينا أن نتعلم كيف نعمل على النفس الطويل.

*

هل توافقون على أن معظم كتب التربية لم تتعد كونها حشداً مكثفاً من الدلائل والشواهد والنقول، وتفتقر إلى البرامج الواعية، والقنوات الناقلة لأهل زماننا؟

*

علوم الإنسان في العالم عامة –ولدينا خاصة- لم تتقدم بالشكل المطلوب؛ نظراً للتعقيد البالغ الذي يواجهه كل من يشتغل بها، وأيضاً لقلة الاستثمارات في البحث العلمي المتعلق بها. وفي هذه الحال فإن التحليل العميق يكون ضعيفاً، مما يدعو الناس إلى الاتجاه إلى حشد القصص والحكايات والأمثلة التي تشير إلى بعض المعاني التربوية، لكن جدوى ذلك مع ضعف البنية المفاهمية ستكون قليلة. التربية في نظري تعني تنمية الجوانب المختلفة في شخصية الطفل من أجل تأهيله ليحيا الحياة الطيبة التي تليق بالمسلم الحق. ولذا فإن على الباحث التربوي أن يأخذ في تحديده

للأهـداف التربويـة، وفي توليـده للمفـاهيم والأسـاليب التربوية بعين الاعتبـار المعطيـات الجديـدة في المجـالات السياسـية والاجتماعية والمعيشــية... لأنه يســعى أساســاً لتوفــير بنية معرفية يعتمــدها المربــون في الــبيوت والمــدارس في تربية جيل ينشأ ويعمل في أجواء تلك المعطيات.

الحقيقة أن معاناتنا التربوية ذات رؤوس عديدة، لكن أهمها ثلاثة:

1) ضـعف ما ينفق على البحث الـتربوي، وقلة أعـداد البـاحثين في مجالات التربية. وهذا لا يشكل استثناء من وضعيتنا العامـة، حيث إن ما ينفق على البحث العلمي في العالم الإسلامي، لا يشكل أكثر من 5% مما ينفق في الدول المتقدمة! وهـذا يـؤدي إلى أن نعتمد على البحث التربوي الـذي يقـوم به الآخـرون، وذلك يسـبب لنا مشـكلات كثيرة بسـبب اختلاف كثـير من منطلقاتنا ومفاهيمنا الكـبرى عما هو سائد في الغرب، وبسبب اختلاف البيئة أيضاً، مما يؤدي بالتـالي إلى اختلاف نوعية الأدواء ونوعية العلاج أيضاً.

2) وجــود فجــوة كبــيرة بين البـاحثين الـتربويين وبين المـربين في الــبيوت والمــدارس؛ فنحن لا نملك الأطر والآليــات الــتي تحــول البحــــوث التربوية إلى مشـــــروعات وبــــرامج، تعمل عليها الأسر والمدارس.

3) هناك إعراض عام من قبل معظم الآبـاء والأمهـات عن الاهتمـام بالثقافة التربوية ظنــاً منهم أنهم يســتطيعون القيــام بواجبــاتهم التربوية بالأسلوب نفسه الذي مارسه آباؤهم من قبل.

ولـذا فـإن الأخطـاء التربوية ما زالت تتكـرر عـبر قـرون كثـيرة؛ لأن الجيل اللاحق ورثها عن الجيل الســــابق. وإنها لمفارقة مؤلمة أن ترى الرجل في دولة متقدمة إذا اشترى طائراً أو قطاً اشــترى معه كتيبـاً يرشـده للأسـلوب الأمثل في تربيته وتغذيتـه... على حين أنك تجد لــدينا من أنجب عشــرة من الولد دون أن يقــرأ أي كتــاب في التربيــة، أو يســتمع إلى أية محاضــرة، أو يســأل أي متخصص في التربية، مع ضخامة العمل التربوي الذي تصدى له!!

إن من واجب الباحثين التربويين أن يثروا الساحة بالكتب التي تعالج المشكلات التربوية المتفاقمة، والكتب الـتي تيسر الثقافة التربويـة، وتنشــرها. ومن واجب الآبــاء أن يغـيروا نظــرتهم للعمل الـتربوي، فيجعلــوه قائمــاً على العلم والمعرفة عوضــاً عن أن يظل أســيراً لعادات وتقاليد مملوءة بالأخطاء الجسيمة.

*

من أجل تنمية الشخصية وصقل المهارات لا بد من نقد ذاتي يتجاوز العثرات ويتطلع إلى الارتقاء. فهل لديكم أفكار جوهرية يرتكز عليها إحياء روح النقد في الأمة؟
*
النقد مظهر من مظاهر استيقاظ الوعي، فالحضارات حين تدخل في مرحلة التراجع والأفول يسيطر على مثقفيها الانشغال ببيان الإنجازات التي حققها عظماؤها بدل البحث في مسألة استعادة ما فقدوه وتعويض ما فات. يعني النقد وعي الوعي بذاته وقدرته على تجاوز النماذج الشائعة، والعودة إلى الأصول والأهداف الكبرى في كل المسائل التي تحتاج إلى إعادة نظر. ويعني النقد كذلك أن الوعي ما زال يحتفظ بطاقة التمنع على الاندماج في الموضوع، كما يعني أنه متحرر إلى حد ما من أسر البرمجة التي يهيئها الأعداء والعملاء والمنتفعون من وراء انتشار الفساد، وغياب موازين الحق والعدل.
لا يشكل النقد أمراً ثانوياً أو ترفيهياً في حياة الأمم، وليس غيابه شيئاً يمكن الاستعاضة عنه بأعمال أخرى؛ إن النقد هو جزء أصيل من أي عمل عظيم يراد له الاستمرار والارتقاء؛ فنحن بشر نصيب ونخطئ، والتخلص من الأخطاء لن يبدأ إلا من خلال تسليط أشعة النقد عليها، لكن مما يؤسف له أن الذين يمارسون النقد يلقون الكثير من المشكلات، مما دفع جل الناس إلى إيثار الصمت. وتجاوزه بعضهم إلى تزيين الخطأ وتلميعه، مما جعل المشكلات في عالمنا الإسلامي تتراكم وتتناسل، لتصبح بمثابة أوبئة مستوطنة، إن كثيراً من الأخطاء والخطايا التي نقع فيها ليس مصدره الجهل وقلة الخبرة، وإنما مصدره الهوى والرغبة الجامحة في تحقيق المصالح الخاصة، مما يعني أن تكرارها هو المتوقع نظراً لديمومة أسبابها. والذي يساعد على تحجيمها هو الاستمرار في نقدها بشتى الوسائل وشتى الطرق؛ فالأخطاء لا تتبدى دائماً للعيان، ولا تتلبس بلبوس واحد؛ مما يعني ضرورة الاستمرار في كشفها ومواجهتها.
ومن وجه آخر فـــــإن أبنيتنا الفكرية ومقولاتنا وملاحظاتنا النقدية والإصلاحية لا تحتفظ بقوتها وطفوها على سطح الوعي من غير رعاية وحياطة وتدعيم؛ فالتجارب الحضارية للأمم تدل بوضوح على أن البناء الفكري –على خلاف ما يبدو- هش، ويمكن لما تركمه حركة الزمان من تقاليد وعادات، وما تطوره من ثقافات أن يشوه أي بناء فكري مهما كان في الأصل راسخاً وشامخاً؛ والنقد هو الذي

يجـــدد الأبنية الفكرية حين يصـــقلها، ويجعلها في حالة من التـــوهُّج واللمعان. ولنا أن نذكر في هـذا السـياق أفـول الإشـراقات الفكرية الرائعة الـتي كـانت تضـيء سـماء الحيـاة الإسـلامية في القـرون الخمسة الأولى من تاريخ الإسلام؛ ولما ساد التقليد وحورب التجديد وركـدت سـوق النقد أخـذت الأمية الفكرية والحضـارية تسـتعيد ما فقدته من أرض ونفوذ.

دعني الآن أشير إلى بعض الجوانب التي لم تنل حظها من النقد في الساحة الإسلامية. ولا يعـني أن ما سـنذكره هو أهم الجـوانب، لكنه من أهمها:

1. كثيراً ما نشعر أن المجال الحيوي الصالح لحركتنا ضـيق ومملـوء بالعقبــات... والحقيقة أن هــذا الشـعور لا يحكي الواقع بمقــدار ما يحكي انطباعاتنا، وهذه الانطباعـات سـببها ضـعف (الـروح العمليـة) لــدينا، فنحن نملك قــدرة على التنظــير وشــهية للتمــني غــير قابلة للاستنفاد. الخيال قد يتيح لنا ارتياد آفاق الممكن، لكن الـذي يكشف احتياجــات العمل والحركة والعقبــات الــتي تقف في طريقنــا، وما يمكن أن نؤمله من تحركنا هو العمل نفسه والحركة ذاتها.

إن العمل هو الذي يعقل جموح الخيال، وهو الذي يدلنا على الطرق المســدودة، إلى جــانب أنه يحطم أغلال الأوهــام. وهو في الــوقت نفسه الذي يفتح أبواباً للنمو والتغيـير كنا نظن أنها مغلقـة. ويقـترب من هـذا ما نجـده لـدى الكثـير من الأخيـار من الحماسة المشـتعلة للقيــام بــالكثير من الأعمــال، لكن دون محاولة التأهل لأداء القليل منها. وكثيراً ما يغيب عن أذهاننا أن لكل عمل أسـلوبه الفـني الـذي يجب أن يتبع في أدائه وتنفيذه. إن مشكلة كثير منا أنه لم يــدرك ما طــرأ من تعقيد وصــعوبة على شــروط الأداء النــاجح في أجــواء المنافسة العالمية المحمومة، ولذا فإنه يتصور أن ما كان كافيــاً من كفاءة وأهلية ووسائل قبل ربع قرن هو كاف الآن!

ربما كنا بحاجة إلى تقاليد ثقافية تؤكد على أن قيمة الفكـــــــــرة وصــوابها لا ينبعــان من تناســقها ومــدى إقناعها فحســب، وإنما من مدى توفر الأسلوب والإطار والوسائل المطلوبة لتنفيذها. وهــذا من مهمة النقد الاجتماعي.

2. قد نجد بعض الرســائل الــتي توجه النقد إلى بعض الانحرافــات العقدية أو الخلقية، لكن من النادر أن نجد كتاباً ممتـازاً يضع أصـبعه على العلل والأخطاء الخفية الـتي أدت إلى تشـويه المـركب العقلي لكثير من الأفـراد والجماعـات، وحـرمت الأمة بالتـالي من عطـائهم

وحيـــويتهم. وقلما تجد كتابـــاً ينظِّر لكشف الفســـاد المتأصل في السلوك، والبحث عن جذوره وقواعـده الفكرية والأخلاقيـة، وكشف القوى الداعمة له والمستفيدة منه.
وأعتقد أن حجم انتشـــــار الفســـــاد الإداري والسياسي والأخلاقي والمهـني في العـالم الإسـلامي يحتـاج إلى مئـات الكتب والـبرامج والمقررات الدراسية حتى يمكن الحد منه وإيقافه عند حدود معينة!
3. العقلانية شــيء نســبي، وللرجل العقلاني العديد من الســمات، لكن هناك سمة مهمة جداً، هي أن الرجل العقلاني يحاول دائمــاً أن يوفق بين درجة الشــدة الــتي يستمسك بها في منطلقاته وأفكــاره المختلفــة، وبين حجم الــبراهين والأدلة المتــوفرة لكل منطلق وكل فكرة. وعلى هذا فإن (اللا عقلانية) تعني التمسك بأفكـار لا تسـندها البنية والمعطيات المعرفية القائمة. وإذا سـلطنا الضـوء على واقعنا وجــدنا أن غلبة العاطفة علينا وســيطرة ســرعة التصــديق وضــيق مسـاحات المفاتحة والمصـارحة... كل ذلك جعل الكثـير من النـاس ينــدفعون على نحو مثــير إلى اســتخراج نتــائج عامة من معطيــات جزئية، ثم السعي إلى تعميمها وإقناع النـاس بهـا. ونحن إلى جـانب هذا مولعون بسن القوانين، وإطلاق التعريفات الجامعة المانعة -كما يقول المناطقة- دون استقراء جيـد، ودون وعي بخطـورة ذلك على طلاقة الخيال وأثره في إغلاق الأبواب المفتوحة. النقد الـذاتي يجب أن يوجه إلى هـــذا النـــوع من القطع في الآراء والأحكـــام دون الإحساس بالوقوف على أرض صلبة.
الملكة النقدية تحتاج إلى حماية، وخير حماية لها تكمن في ممارسة النقد والاحتفـــال بـــه. إن النقد لا يحيا إلا بالنقد ومجادلة الفكـــرة بـالفكرة والطريقة بالطريقــة، كما أن الأخطـاء النقدية تصـحَّح من خلال ممارسة المزيد من النقد.

==============

الرسالة -حول أداء الصحوة في المرحلة الماضية.

د. عبد الكريم بكار

*

حول أداء الصحوة في المرحلة الماضية.

*

إن الصحوة الإسلامية المباركة أو حركة الإحياء الإسـلامي -كما يحلو للبعض أن يسميها- رحمة عظمى من الله -تعالى- لهذه الأمـة، حيث انبعثت معاني التدين في نفوس النـاس بعد خمـود دام قرونًـا، ونشأ

وعي عميق بأهمية الإيمان والالـتزام والعمل للآخـرة. وإذا أردتَ أن تتعرف على أهمية شيء فقم بحـذف وظائفه ومنجزاته حـتى يتـبين لك حجم الفراغات التي كان يملؤها ذلك الشيء. ولو أنك أسـقطت من هيكل الأمة هـذه الملايين من الشـباب الملـتزم النقي والجـاد، وأسقطت منه العمل الخيري والدعوي والإغـاثي، وتخيلت تـدينًا أقل عمقًا وانتشارًا في الأمـة.. لو أنك فعلت ذلك لأدركت حجم الإضـافة الذي تمثله الصحوة لهذه الأمـة. هـذا لا يعـني -بـالطبع- أن الصـحوة على ما يـرام، كما لا يعـني أنها فعلت كل ما يمكن فعلـه، فـالنقص ملازم للبشــر، ورضــانا عن أداء فــرد أوجماعة أو شــعب يجب أن يتشكل في ضوء الظروف والإمكانـات والأدوات المتاحـة.والصـحوة نشأت، واستمرت في ظروف داخلية وخارجية صعبة، ومع هذا فــإن عطاءاتها لا تعد قليلة في أي معيـــار من المعـــايير. وقد حـــافظت الصحوة على ذاتية الأمة في وجه الفكر الليبرالي والفكر الشيوعي، على الـرغم من ضـعف وسـائلها وكـثرة المعوقـات الـتي تقف في طريقها.

*

حول تجديد خطاب الصحوة:

*

يمكن القول : إن الصحوة الإسـلامية المعاصـرة بـدأت بعد هزيمة (1967م) أمام اليهود، فبتلك الهزيمة النكراء نفض الناس أيديهم من التيـارات العلمانية والاشـتراكية والقوميــة، واتجهــوا إلى الإســلام بوصـفة الملاذ والخيـار الأخـير؛ وهـذا يعـني أن مشـروعية الصـحوة وجاذبيتها في نظر النـاس سـتظل مرهونة بإنجازاتهـا، وإلا انصـرف النـــاس عنها إلى غيرهـــا. وهـــذا شـــيء يجب أن يولّد فينا الحـــذر والحرص والغيرة.

تجديد الخطاب الإسلامي يعني تجديد المفـاهيم والـرؤى والمقـولات التي يعبر عنها الخطاب الدعوي والإصلاحي، حتى الجوانب الشـكلية من ذلك الخطـاب لا تتطـور إلا إذا طوّرنا رؤيتنا للأسـلوب الـدعوي، واكتشفنا العناصر الـتي تجعله أشد تـأثيرًا وأكـثر فاعليـة. ويؤسـفني القول هنا: إن لدينا فقرًا لافتًا في أعداد ومستويات الذين يشـتغلون على توليد المفاهيم وتعميقها. وفي ظروف بالغة التعقيد والالتبــاس يكون إبداع المفاهيم عن طريق التأمل والاستبصار الذاتي بعيدًا عن البحث المنهجي المحــترف والأصــيل - عــاملاً في بلبلة الخطــاب وطمس مشــكلاته الجوهرية عوضــاً عن الكشف عن آفــاق نمــوه

وتطويره. وإذا تساءلنا عن مراكز البحوث والدراسات التي يتم من خلالها فهم الصحوة وإمكاناتها وفرصها وأزماتها لما استطعنا وضع اليد إلا على القليل منها. وهذا يشكل في حد ذاته قضية مهمة تستحق التوقف والاهتمام.

سيكون في إمكاننا التحدث عن خطابين للصحوة:

الأول: خطاب داخلي موجّة لأبناء الصحوة، ويعنى بشؤونها وشجونها الخاصة. وأتصور أن هذا الخطاب ينبغي أن يقوم على الأسس التالية:

1- اعتماد النقد الذاتي بوصفة الوسيلة الأساسية لإصلاح عيوب الصحوة وتجديد أبنيتها.

2- تلمس أسباب الفتور الذي اعترى كثيرًا من الدعاة أثناء العقد المنصرم والعمل على علاجها.

3- النظر إلى سوء الفهم المتبادل بين الجماعات التي تشكّل الصحوة على أنه تعبير عن عجز الصحوة عن فهم المشكلات الواقعية التي تهدد الأمة، وعن عجزها عن تقديم الحلول الناجعة لها على المستوى الأخلاقي والسياسي والاجتماعي.

4- العمل على معالجة تراجع مركز الروح في حياة أبناء الصحوة والانفتاح أكثر فأكثر على إيقاع المصالح الخاصة، مما يشكل تهديدًا حقيقيًا للوقود المعنوي المطلوب لبذل الجهد الإصلاحي.

5- النهوض بالجانب الفكري والعقلي، وتفنيد المقولات المتداولة بين أبناء الصحوة وإخضاعها للتمحيص والنظر المتعمق.

6- يشكو أبناء الصحوة من ممارسة الإرهاب الفكري ضد بعضهم، والمسارعة إلى الاتهام الذي يصل إلى حد التكفير، مما جعل كثيرين يحجمون عن قول الحق، وجعل كثيرًا من مرشدي الصحوة ومفكريها يرون في المزيد من التشدد والاحتياط وغموض الطرح صمام أمان من طعون المشنعين من أبناء الصحوة ولاسيما الشباب، ولذا فإنه لابد للخطاب الدعوي من التشجيع على الاجتهاد والتجديد وتسمية الأشياء بأسمائها.

7- كثير من أبناء الصحوة منغلقون ثقافيًا، فهم لا يقرؤون إلا في الكتب التي تؤيد ما يتعتقدونه، ويذهبون إليه، وهذا جعل ثقافتهم وآفاق الرؤية لديهم محدودة، وقد انعكس ذلك على خطابهم، وجعله يبدو غير متفهم للأحداث الجارية والمتسارعة؛ ولذا فإن المزيد من الانفتاح على ما لدى الآخر من أجل مزيد من الوعي والفهم يعد

شيئًا مهمًا للغاية، كما أن الانفتاح على الواقع يعد مصـدرًا مهمًا لكل تجديد وتطوير، وهذا ما علينا أن نقوم به.
الثـاني: يمكننا أن نتصـور مقومـات التجديد في الخطـاب الخـارجي للصـحوة (أي الخطـاب الموجّه لأبنـاء الأمة المسـلمة خاصة والأمم الأخرى عامة) في النقاط الآتية:
1- خطابنا في حاجة ماسّـــة إلى التخلص من المبالغة والتهويل في وصف الخـير والشـر، كما أنه في حاجة إلى التخلص من التحليلات السطحية والتعليلات الفاسدة، وذلك من خلال التصاق أشد بـالحكم الفقهي وبالتفكير الموضوعي والعلمي.
2- إن المراهنة على العمل الـدعوي والخطـاب الـوعظي من غـير تحسين البيئة التي يحيا فيها الناس، وجعل شروط حياتهم أكثر يسرًا عن طريق الحلول الذكية -هي مراهنة خاسرة إذ مع انتشـار البطالة والفسـاد الإداري وضـعف مراقبة اسـتثمار التفـوق، وضـعف أداء التعليم وأداء الأسر في الـبيوت - يكـون من الصـعب توقع اسـتجابة جيدة للجهود الدعوية من قبل الناس.
3- مع إيماننا بضرورة حدوث نوع من الإصـلاح في كل المجـالات إلا أن التوظيف الأساسي للجهد الـدعوي يجب أن يكـون في النهـوض بالفرد المسلم، من أجل زيادة درجة استقامته ورفع مستوى كفاءته وإنتاجيته. والخطاب الدعوي في هذا الصـدد مطـالب بتحفـيز الفـرد المســلم بشــكل دائم على القيــام بــأكبر عــدد من المبــادرات الاجتماعية، وبتحفيز المجتمع على تسلُّم زمام المبادرة تجاه قضاياه المصيرية والحية.
4- على الجماعات الإسلامية أن تدرك أن الصـحوة بـاتت أوسع منها بكثــير، وقد كــان لتلك الجماعــات فضل كبــير في انطلاق عربة الصحوة، لكن إمكانات الصحوة اليوم باتت أكبر بكثـير من إمكانـات تلك الجماعــات، ويجب أن تنعكس هــذه الحقيقة على الخطــاب الدعوي تواضعًا واعترافًا لأهل الخير والفضل والعطاء، ولو كانوا غير ملتزمين بأي إطار جماعي.
5- علينا أن نعــترف أن خطــاب الصــحوة في كل أنحــاء العــالم الإسـلامي مصـاب بارتبـاك شـديد تجـاه نوعية الإصـلاح السياسي المطلوب، ونوعية الخيار الأكثر ملاءمة لتنظيم العلاقة بين الشـعوب والحكومات. ومن المهم تسليط الضوء على ذلك الارتبـاك ومعالجته عوضًا عن تجاوزه والقفز عليه أو طمسه وتجاهله.

6- من المهم للخطاب الدعوي أن يركز على ضرورة اعتماد التغيـير السلمي والإصلاحي المتدرج، وإشاعة أدبيات الوئام الأهلي والسلام والاستقرار داخل المجتمعات الإسـلامية، كما أن على ذلك الخطـاب أن يقف بقـوة وبوضـوح شـديد ضد أولئك الـذين يعرّضـون سـمعة الإسـلام الدولية للخطـر، ويـدفعون ببلادهم تجـاه الوقـوع في فتن داخلية وحروب أهلية، وهذه المسألة من المسـائل ذات الأولوية في المعالجة.

7- في ظل العولمـة، وفي ظل ضـياع الأهـداف الكـبرى من أيـدي الشـعوب، والأمم، بـات على خطابنا الـدعوي أن يؤكد على معـاني الرحمة في مواجهة القوة، والمبـدأ في مواجهة الوسـيلة، والجـوهر في مواجهة المظهـــر، والآجل في مواجهة العاجـــل، والعطـــاء في مواجهة الاسـتحواذ. وسـيكون الكلام في هـذا قليل الجـدوى ما لم يقدّم أبناء الصحوة نماذج عملية من حياتهم اليومية.

8- من المهم أن يؤكد خطابنا الدعوي على القيم والمثل التي تجعل -في العـادة- ثقافة أشد جاذبية من ثقافة أخـرى، وتلك القيم مثـل: الرحمة والعـدل والإحسـان والتعـاون والتسـامح والوفـاء والجدية والدقة والشـورى والانفتـاح والكفـاءة... وما لم تتمثل الأمة هـذه القيم على نحو ملائم وكافٍ، فإن أبناءها سيظلون معرضين للوقـوع في أوحـال الفتن الثقافيـة، والوقـوع في مصـايد إغـراءات العولمة والليبرالية.

*

حول تأطير الخطاب الدعوي بالثوابت:

*

إن الخطـاب الـدعوي والإصـلاحي يجب أن يخـدم الثـوابت، ويقـوم بترسيخها لا أن يكون فقط في إطارها. والقائمون على صـياغة ذلك الخطـــاب يـــدركون من خلال فهمهم العميق أن المحافظة على الثـــوابت قد لا تتم إلا من خلال التعامل بمرونة مع المتغـــيرات والفرعيات والخلافيات والشـكليات. وإن الخطـاب الـذي يخـرج عن ثوابت الأمة يعرّض نفسه للتلاشي التام، ويوقع الأمة في بلبلـة، وقد يحرفها عن مسارها الأصلي والصحيح. وعلينا أن نكـون حـذرين أشد الحذر من أن نمضي مع إغراءات التجديد والتحديث بعيدًا عن أصول الشـريعة وعن قطعيـات النصـوص ومـواطن الإجمـاع، وإلا فإننا سنخسر الثوابت دون أن نحصل على أي شيء.

ولكن مع هـذا علينا أن نـدرك أن العلاقة بين الثـوابت والمتغـيرات ليست صلبة ولا واضحة دائمًا بالقـدر الكـافي، فهنـاك أمـور وقضـايا ذات لون رمادي وطبيعة رجراجة ، ويسـودها الالتبـاس، ولابد آنـذاك من التعامل معها بحسّ المجتهد الموثوق والخبير.
والله ولي التوفيق.

==================

أنا والفشل

د. عبد الكريم بكار

شـكراً لمجمع اللغة العربية بالقـاهرة الـذي أنقذ الجمـاهير العريضة من مثقفي العرب وعامتهم من اللـوم على الوقـوع في اللحن حين وافق على استخدام كلمة (فشل) بمعنى أخفـق، أو لم يبلغ مـراده، على الرغم من نص المعـاجم اللغوية القديمة على أن (الفشـل) هو الجبن أو الكسل أو الخـوف أو الضـعف، وليس الإخفـاق أو عـدم النجاح، كما هو شائع اليوم.

والشكر ثانية لمجلة (المعرفة) التي تحـاول أن تسـاعد القـراء على رسم صـورة أكـثر اكتمـالاً لأشـخاص لا يعرفـون عنهم سـوى جـزء صغير من حياتهم أو من أشكال معاناتهم.

-أخفقت في تعلم العـــروض؛ وحين كنت طالبـــاً في معهد الفتح الإسلامي بدمشق رسبت في تلك المادة، وفي الـدور الثـاني دخلت الاختبار ونجحت. وما زلت أعتقد أن أسـتاذ المـادة قد نجّحـني بغـير حق؛ لأنني لا أشعر أنني أستحق أكثر من 20% من العلامة الكبرى، لكن أسـتاذي –حفظه اللـه- أراد أن يخفف على ما يبـدو من قسـوة نظـام الاختبـارات، فالرسـوب في الـدور الثـاني في أي مـادة –ولو كـانت العـروض- يعـني إعـادة السـنة كاملـة، وأظن أنه وجد من الصعب أو غير المقبول أن يضيع طالب -هو الأول على زملائه- سنة كاملة من أجل مادة طالما قـال عنها ذلك الأسـتاذ أمـام طلابـه: إنها علم شهر وعلاك دهر!

وهكذا تكون قسوة النظام سـبباً في تجـاوز ذلك النظـام، وفي ذلك عظة بالغة يمكن الاستفادة منها في كل مجالات الحياة.

- أخفقت في إنقاص وزني ليكون مثالياً أو قريباً من المثـالي، وإني أعتقد أن معركة (الخسخســة) على وزن (الخصخصــة) هي أقسى وأطـــول معركة يخوضـــها المبتلـــون بزيـــادة الـــوزن أو البدانـــة، والمهزومـون في تلك المعركة أكـثر بكثـير من المنتصـرين. وأكـثر الــذين تــراهم في وضع جيد ليســوا منتصــرين، وإنما لم يقــدر لهم

دخول الحرب، ولو دخلوها لما اختلف شأنهم كثيراً. قـرأت مـرة أن معظم الــذين يلــتزمون الحمية ينجحــون في التخلص من أحمــال الشحم واللحم التي على أكتـافهم. ففـرحت بـذلك, وقلت: "هـانت" ثم قــرأت أن معظم أولئك المصـابرين يعـودون لما كـانوا عليه من قبـل، بعد مــدة من الــزمن حين يواجهــون بــإغراءات الطيبــات و (عزومات) الأصدقاء؛ فحزنت لـذلك، وأصـابني ما يشـبه اليـأس. ثم قرأت أن معظم هؤلاء العائدين يحاولون مـرة أخـرى الحصـول على الرشاقة، فانبعث في نفسي شيء من الأمل، والذي سـيعني تكـرار المحاولة وتكرار الهزائم، لكن ذلك سيظل خيراً من الاستسلام.
وأعتقد أن بعض النـــاس من أهل وأصـــدقاء يتحملـــون جـــزءاً من المسـؤولية في هـذا الإخفـاق، فقد قـال لي طـبيب من أصـدقائي. البــدين أحسن من النحيف وأوفر حظـاً. فقلت: كيف يرحمك اللــه؟ قال: لأن البدين يستطيع إنقاص وزنه، أما الهزيل فلا يستطيع زيـادة وزنـه، فأشـعرني أن الأمـور إلى خـير، وأن هنـاك ما هو أسـوأ، لكن صاحبي لا يعرف كل الحكاية!
-أشعر في بعض الأحيان أنني أكـثر من الكلام في المجـالس العامة وفي كل مرة أقول: هذا غـير ملائم، وقد يكـون فيه نـوع من الهضم لحقوق الآخرين ممن هم قادرون على الكلام. وربما كان ذلك نتيجة إغراء بعض الحاضرين لي بأن أتكلم أكثر وأكثر من خلال تشــجيعهم وتفــاعلهم، ولكن هــؤلاء دائمــاً قلة وأغلبية الخلق عنــدنا صــامتون، وربما كان لهم رأي آخــر, وأحيانــاً أتكلم بكلام يكـون فـوق مسـتوى الحاضرين، فتضيق عليهم الأرض بما رحبت، ويتلمسون مخرجـاً مما هم فيه، وأعتقد أن أحـوالهم بـاتت أحسن من السـابق، والبركة في الجوال!
- أخفقت في تعلم اللغة الإنجليزية على الــــرغم من محــــاولاتي المتكــررة، ويبــدو أن ذلك يعـود إلى عــدم إدراكي في مقتبل العمر (وهو وقت تعلم اللغـــات) لأهمية معرفة لغة حية ومهمة للغاية في التضلع من المعرفـة. وربما كـان ذلك لأنـني درست سـنوات طويلة في معاهد شــرعية، وهي في تلك الأيــام على الأقل لا تشــجع على تعلم اللغات الأجنبية.
ويضــاف إلى ذلك أنــني رجل يفتقر إلى الصــبر والجلد على معانــاة الحفظ والصم عن ظهر قلب (وهو ما يتطلبه تعلم أي لغــــة) فقد تعودت خلال مسيرتي العلمية أن ألتقط الفكرة العميقــة، ثم أدخلها إلى مصنعي الخاص؛ لأجعل منها نموذجاً في خطـاب أو عنصـراً في

تشكيل رؤية. وربما كان هذا هو السبب أيضاً في إخفـاقي في حفظ القـرآن الكـريم. وإني إلى هـذه اللحظة أشـعر بنـدم شـديد بسـبب إخفاقي في هذا أو ذاك (وعلى الله العوض).
- أخفقت في أن أحب قراءة كتـبي، بل في الرجـوع إليها لأسـتخرج منها شــيئاً أســتخدمه في بعض ما أكتب إلا إذا ألجــأتني الحاجــة، واضــطررت إلى ذلك اضــطراراً ولست أدري لــذلك ســببًا ســوى الشعور بـأن ما فيها صـار من الأمس الـدابر، وأنه يمكن العثـور في الجديد من النتاج الثقافي للآخرين على ما هو أنفع وأجود، فأنا رجل مشغوف بمعرفة الجديد إلى حد الولـه. وأظن أن من الصـعب علي أن أطالع في كتبي ولو سجنوني معها!
- أخفقت في الانتظـام في ممارسة الرياضـة، ومع أنـني أجيد بعض فنونها إلا أنــني لم أتمكن من الالــتزام بــأي منها مــدة طويلة من الـزمن على الـرغم من شـعوري بأهميتها القصـوى لصـحة البـدن. وربما كـان ذلك عائـداً إلى الكسل تـارة، وإلى الاعتقـاد بـأن هنـاك أشــياء أهم يمكن بــذل الجهد والــوقت فيهــا، وأنا في هــذا مخطئ ولكن...!
- أشعر أنني أخفقت أن أكون محاوراً ناجحـاً، فأنا مع سـعة صـدري مع محاوري، إلا أنني لا أسوق حججي في كثـير من الأحيـان بشـكل جيـد، مع اعتقـادي أن الحق إلى جـانبي. فأنا أحيانـاً أدلي بها دفعة واحـدة، فيأخذ محـاوري أضـعف تلك الحجج، ويـرد عليـه، ثم ينقلب الحديث إلى قضية فرعية أو مسألة أخرى دون أن يجيب على أدلتي القوية، وقد يتدخل في الحـوار أحد الحاضـرين ليقلب الأمـور رأسـاً على عقب.
وأحياناً أقول في نفسي: الأفضل أن أترك أقوى الـبراهين لـدي إلى آخر النقاش؛ حتى تكون أشبه بالضـربة القاضـية! لكن يخـذلني أحد صغار المحاور ليقول له: (أمي تقول مشينا)، فأشعر آنذاك بنوع من الإحباط والهزيمة غير المسوغة.
- كنت أحلم من مــدة بعيــدة في أن يتــاح لي فــراغ مغطى بــدخل كاف، حتى أملأ ذلك الفراغ بما أراه أهم وأنفع، وحتى لا أضـطر إلى العمل من أجل الــرزق في مجــال لا يســتهويني. ومن أجل تحقيق ذلك كنت كلما توفر لدي شيء من المال وضعته مع شخص أو جهة من أجل تثمــيره لعلي أبلغ ما أرجــوه، لكن بعد مــدة أكتشف أني ابتعـدت عن الهـدف خطـوات عوضـاً عن أن أقـترب منه خطـوة، وصرت مع الأيام أشعر بأنني واحد ممن تصح فيهم المقولة الحكيمة

الـتي أطلقها أحد خـبراء السـوق:"في كل دقيقة يولد مغفـل، ويولد اثنان للمتاجرة به".
وفي كل مرة أقول هذه آخر محاولة، فإذا لم تنجح فلن أحاول مـرة ثانية، وتخفق المحاولـة، لكن يبقى الطمـوح إلى النجـاح في محاولة ثانية. وإذا أردت أن أحدس بالمسـتقبل من خلال خـبرتي بالماضـي، فليس هناك ما يشجع على التفاؤل!
- أخفقت في مقاومة (التســويف) وتأجيل بعض الأمــور المهمــة، فهناك دائماً أمور ينبغي إنجازها في أوقات محـددة وإلا فـات المـرء خير كثير، لكنني مع هذا أؤجلها، ولدي بصورة مسـتمرة الحجج الـتي أقنع بها نفسي بـأنني مشـغول بما هو أهم. وهـذا لا يكـون في كثـير من الأحيان صحيحاً. ما من مرة شـعرت فيها بالضـرر الـذي لحقـني من وراء تأجيل شيء مهم إلا عقدت العزم على ألا أعـود إلى ذلـك، لكن بعد مدة يتكرر المشهد مرة أخـرى، وكـأن النصر معقـود دائمـاً للطبع على التطبع!
هنـاك لا ريب إخفاقـات أخـرى في حيـاتي لا أذكرها الآن، أو لا أرى فائــدة في ذكرهــا، لكن كل ما ذكرتــه، وكل ما لم أذكــره هو من الأمور العادية والشائعة، والتي قد لا تستوقف أحداً، ولا تلفت نظراً؛ وذلك لأن نجاح الشخص حين يكون عادياً، فإن إخفاقاته لا تكــون إلا كذلك.
وأسأل الله التوفيق لما هو خير وأبقى.

===============

إدارة التعانف (1 ـ 2)

د. عبد الكريم بكار

إن الله ـ سبحانه ـ قد فطر الإنسان على الاسـتئناس بأخيه الإنسـان كما فطر الخلق ورتّب شؤونهم على الاحتيـاج العـام بعضـهم لبعض، لكن من الثـابت أيضـاً أن اجتمـاع النـاس يولّد العديد من التـوترات والصـدامات؛ وذلك بسـبب اختلاف أمـزجتهم وأفهـامهم وأهـوائهم ومصـالحهم... ومن وجه آخر فـإن من الثـابت أيضـاً أن التقـدم الحضاري الـذي يشـهده العـالم اليـوم لم يهـذِّب الطبـاع على النحو المأمول، ولم يقرِّب المسافات العقلية والروحية والنفسية الفاصـلة بين الناس؛ حتى إن أحد الباحثين يرى أن التقدم الحضاري هو تقدم في الطلاء والشكل أما في الأعماق فإن هناك وحشاً كاسراً يتربص وينتظر للفتك والافـتراس، والحقـيقة أن لـديـنا شـواهد لا تحصى وفي كل مكان من العالم على صحة ذلك.

ويبدو لي أن الناس على مستوى العامة كانوا يدركون هـذه الحقيقة أفضل من إدراك بعض الخاصة لهـــا؛ حيث إننا نجد أن الهمّ الـــذي يســـيطر على (الثقافة الشـــعبية) ليس الإنجـــاز ولا الرؤية أو الموضـوعية أو وضع الأمـور في نصـابها... وإنما تحقيق أعلى درجة من التضـــامن الأهلي والتلاحم الأخـــوي؛ وذلك بغية سد الطـــرق والأبواب في وجه الصدام والتعانف والعدوان.

انطلاقاً من كل ما سبق فإنّ مصطلح (إدارة العنف) يعني الاعتراف بوجـوده كامنـاً وظـاهراً، كما يعـني نوعـاً من الاعـتراف بـالعجز عن محـوه والقضـاء عليـه؛ حيث لا سـبيل سـوى إدارته والتعامل معـه، والسعي إلى التخفيف منه قدر الإمكان وإلى إبقائه تحت السيطرة.

وإذا أردنا أن نستقصي التشريعات والآداب والإجـراءات الـتي أقرها الإسلام وحفَّز عليها من أجل إدارة العنف ـ فإننا سنجد أمامنا الكثير الكثـير مما يمكن أن نتحـدث عنـه؛ فلا بـأس إذاً أن أشـير على نحو خاطف إلى ما هو مهم منه، وذلك عبر النقاط الآتية:

ـ امتنَّ الله ــ تعـالى ــ على قـريش بما حباها به من الأمن بسـبب مجاورتها لبيته العتيق؛ فقال ـ سـبحانه ــ: {لإيلافِ قُـرَيْشٍ * إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ *} [قريش: 1 - 4].

والأمـن يوم القـيامة وفـي الجـنة أحــد مـوعـودات الـله ــ تعـالى ــ لعباده المؤمنين: {مَن جَـاءَ بِالْــحَسَنَةِ فَلَـهُ خَيْـرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَـزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [النمل: 89].

إن شرح قيمة الأمن والاسـتقرار والشـعور بالهـدوء والسـكينة يفتح وعي النـــــاس عليها ويحفِّزهم على المحافظة عليهـــــا، ويحمِّلهم مســؤولية رعايتها من خلال الاســتقامة على أمر الله ـــ تعــالى ـــ والتأدب بآداب الشريعة الغراء.

ـ مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - الرفقَ؛ والذي يعـني: اللطف وسهولة الخلق ويسر التعامل؛ فقال - صلى الله عليه وسلم - : «ما كـان الرفق في شـيء إلا زانـه، وما نُـزع من شـيء إلا شـانه»(1).

واللطيف اسم من أسماء الله ـ تعـالى ــ والرفق من محابِّه؛ قـال ــ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويرضــاه، ويعين عليه ما لا يعين على العنــف»(2). إن كل الأشــياء يمكن أن تــؤدَّى بطريقـة خشـــنة وعـــسرة وجافــة، ويمكن أن تــؤدَّى بطريقة لينة وسهلـة وجميلة، وإن عـلى المسلـم أن يجـنح إلى الثانيــة؛ لأنها هي الـتـي ترضي الله سبـحانه، وهـي التي تدل على سُــموِّ الخلق ورُقي

النفس. ودعا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأصحاب الأخلاق والمعـاملات والمواقف السهلة والسمحة بقوله: «رحـم اللـه عبـداً؛ سمـحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى»(3).
ـ إن من المتوقع دائماً أن يقع النـاس في الأخطـاء والتجـاوزات من كل الأشكال والأنواع، وهـذا يحفِّزهم على مقابلة الإسـاءة بالإسـاءة والعـدوان بالعـدوان..؛ لكن الله ـــ جل وعلا ـــ يريد من عبـاده أن يكسروا هذه المعادلة الرديئة حتى لا يدخلوا في دوائر العنـف؛ الـتي قد لا يعرفون كيف يخرجون منها، ومن هنا جاء قوله ـ تعالى ـ: {وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُـرْبَى وَالْـمَسَاكِينَ وَالْـمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْـفَحُوا أَلا تُحِبُّـونَ أَن يَغْفِـرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور: 22].
وقـال ـــ سـبحانه ـــ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإن تَعْفُـوا وَتَصْـفَحُوا وَتَغْفِـرُوا فَـإنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَّحِيمٌ} [التغابن: 14].
ـ إن الزحام يثير حـفائـظ النـاس، ويزعجهـم، ويُظـهر ما لـديهم من سوء كامن؛ وهذا بسبب أن كل واحد مِنّا يرسم فضاءً وهميـاً لنفسه على مسـتوى النظر وعلى مسـتوى اللمس؛ فـإذا اعتـدى أحد على ذلك الفضـاء فإنه يشـعر بالخطــر، ولهــذا فــإنه يــنزعج ويــتأهب للــدفع؛ الـذي يصل إلى القتل عند الحاجـة. ويبـدو أن رسم الفضـاء الخاص والحـيِّز الشخصي ليـس خـاصـاً بالإنسان، بل إن الحيـوان ـــ أو بعضه ـ يفعل ذلك؛ فقد دلّت بعض الدراسات على أن بعض أنواع الأسـماك تطلق روائح كريهة من أجل طـرد الأسـماك الـتي تـدخل على ما تعده مجالاً حيوياً لها!
ومن هذا الأفق نفقه مغزى قـول الله ـــ عـزَّ وجـلَّ ـــ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْـمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَـحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَـعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: 11].
================
الفكر طبيعته وأهميته
الاستشارات - استشارات دعوية

الكاتب: د . عبد الكريم بكار | 16/01/2006
كلمة (الفكـر) والتفكـير والأفكـار من الكلمـات الشـائعة جـداً على ألســنة العامةوالخاصة اليــوم ؛ وعند عودتنا إلى معــاجم اللغة نجد

أنها تعـرف الفكر بأنه : (إعمـال العقل في المعلـوم للوصـول إلى معرفة مجهول) .
ويقولون : فكّر في مشكلة : أعمل عقله فيها ليتوصل إلى حلها [1] .
ولعلنا نعــرف التفكــير بأنه (إعمــال الإنســان لإمكاناته العقلية في المحصول الثقافي المتوفر لديه بغية إيجـاد بـدائل أو حل مشـكلات أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء) [2] .
ومن خلال هذا التعريف ندرك أن الفكر ليس شيئاً مطابقـاً للأحكـام والمبادئ ، ولا مطابقاً للثقافة أو العقل أو العلم ، وإنما هو استخدام نشط لكل ذلك بغية الوصـــول إلى المزيد من الصـــور الذهنية عما يحيط بنا من أشـياء وأحـداث ومعطيـات حاضـرة وماضـية وتوسـيع مجال الرؤية لآفاق المستقبل .
وبناء على هـذا فـإن العـالم غـير المفكر ، فقد يكـون المـرء عالمـاً ولايكــون مفكــراً . وقد يكــون مفكــراً ولايكــون عالمــاً ، وذلك لأن الميدان الأساس للعلم هو الإلمام بالجزئيات ؛ أما ميـدان الفكر فهو إبصار (الكليـات) والاشـتغال عليها ؛ وقليل أولئك الـذين يسـمح لهم الاشـــــتغال بالجزئيـــــات بالتوجه إلى النظر الكلي ، كما أن طبيعة الاشتغال بالقضايا الكبرى (تزهد) المفكرين في الاهتمـام بالمسـائل الجزئية ، حيث يرون أنها مندرجة في أنظمة أشمل تتحكم فيها .
ومع افـتراق الطبيعـتين إلا أن هنـاك خطوطـاً عريضة تجمع بينهما أهمها : أن كلاً من المعطيـــات الفكرية العامة والجزئيـــات العلمية الصغيرة يميل إلى الظن والتخمين والبعد عن اليقين ؛ وذلك بسـبب أن الجزئيات هي مناط الاجتهاد ، ونتـائج الاجتهـاد تكـون في الغـالب ظنية ، كما أن وفـرة العناصر والمعطيـات الـتي تسـاعد في تكـوين الـــرؤى الكلية تجعلها بعيـــدة أيضـــاً عن الصـــلابة والجـــزم ؛ لكن (الإحـالات الثقافيـة) والخـبرات المتراكمة تنقلها إلى حـيز اليقين أو الرفض أو التعديل بعد مدة زمنية معينة .
لكن هــذا لايهــوّن أبــداً من شــأن المعطيــات الفكرية ؛ فقد أثبتت التجربة التاريخية أنه (لاشيء يضـيع) ؛ فـالفكرة مهما كـانت ، تـترك انطباعا معينـــاً ســـلبياً أو إيجابيـــاً ؛ فقد تشـــكك في مســـلمة من المُسلّمات ، وقد تعزز ظناً من الظنون ، وقد تنبه إلى شيء منسي ، وقد تنقذ أمة من كارثة محققة ! !
وكثيراً ما يحدث أن تأتي الفكرة قبل أوانها أو في غير محيطها ؛ فلا تحـــدث اضـــطراباً في الواقع العملي ، وهي أيضـــاً لا تضـــيع لأنها

ستشكل الخميرة الـتي سـوف تنبت يومـاً ما أفكـاراً أو حلـولاً حين تجد المناخ المناسب [3] .
وهناك إلى جانب هذا سمة أخرى أساسية للأفكار ، وهي أن الأفكار الــتي نســتخدمها في حركتنا الاجتماعية تكــون في العــادة ملائمة للظروف والأحوال المحيطة بها ، ومهمة الأفكار إحداث تغيـير نـاجح في تلك الظروف نحو الأفضل والأسمى ، وهذا التغيير الـذي يحـدث يوجب علينا تغيير الأفكار التي نحجت كما تغير الأفكار الــتي أخفقت ، وذلك لأن تغيير الأفكار للظروف يوجـدها في ظـروف جديـدة غـير ملائمة لها ، وهذا مشاهد في الأعمال الإصلاحية الكثيرة التي حدثت في العـالم ؛ فحين تطـرح أفكـار وأسـاليب لتحقيق النظافة العامة مثلاً فإن تلك الأفكار تفقد وظيفتها
وأهميتها حين تصبح النظافة عادة للنـاس ، ويصـبح الحث عليها غـير ذي معنى ، وحين تبلور أفكار في ضرورة إرسـال الأولاد إلى التعليم الجامعي ، ثم تنجح تلك في تحقيق مقصدها يصبح الحـديث عن تلك الضرورة غير مفهوم وهكذا .. وهذا يعني أن كثيراً من الأفكار تنتهي صــلاحيته ليس في حالة إخفاقه فقط وإنما في حالة نجاحه أيضا .. وهـذا مغـاير بـالطبع لحقيقة المبـادئ والقيم العليا الـتي تتـأبى على التحقق الكامل ، ويظل بينها وبين التمثل الــواقعي هــوة دائمة مما يصونه من الاسـتنفاد ، ويجعل الحاجة إليها مسـتمرة ، ويكمن مقتل النهضة الفكرية في كثير من الأحيان في
التشـبت بأفكــار حققت غايتها ، وفقــدت وظيفتها ، والزهــادة في مبـادئ تـوجب طبيعتها الخاصة وجـوب المحافظة عليها ؛ لأنها تمثل محور الحياة الفكرية التي لاقوام لها بدونه .
أهمية الفكر :
صدّ تأكيد كثير من مفكـري المسـلمين على أهمية الفكر كثـيراً من الشيوخ والشباب عن الاهتمام بمناهج الفكر وقضـاياه ظنـاً منهم أن ذلك الاهتمام سيكون على حساب العمل والتربيةوالأخلاق والسلوك .. وسـبب هـذا الظن أننا حين نتبـني توجهـاً معينـاً في الإصـلاح نلح عليه إلحاحاً يوهم الأخرين بأننا لانرى سواه . ، وأننا نهمل ماعــداه ؛ ومن ثم فـإنني أبـادر إلى القـول : إن اسـتقامة الفكر ونقـاءه ليس بـديلاً عن التربية ولا الأخلاق ولا أعمـال الخـير ولا الحركة الدعوية ، ولكنه الشــرط الأســاس لصــوابها ورشــدها ، فمهمة الفكر رسم مخطط الحركة وجعلها اقتصـــــادية ، بحيث تتكافأ نتائجها مع الجهد والوقت المبـذول فيها ، كما أنه يحيّد كل الوسـائل والأسـاليب الـتي

ثبت قصــــورها ويكثف الخـــبرات والتجـــارب المكتســـبة في بعض المقولات والمحكات النهائية ، ويساعد على طرح البدائل والخيارات في كل حقل من حقـول العمل ، وهـذا كله لايتـأتى عن غـير طريق الفكر . ويمكننا إلى جانب هذا أن نستجلي
مسوغات أخرى للاهتمام بالفكر في المفردات التالية :
1- إن الحضـــارة الغربية ذات منظومـــات متكاملة في المجـــالات الثقافية
والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولها تصورها الخاص في جميع شؤون الحياة ، وهي (الآخر) بالنسـبة لنا ، وملاحظاتنا على أنسـاقها المختلفة ستظل محدودة الأهمية مالم نبلور البـديل الأصـلح والأنفع والأكمل في تلك المجـــالات كافة من منظورنا الخـــاص لنا [4]ـ ، ولاسيما أنه الأجهر صـوتاً والأكـثر عتـاداً وعـدة ، وإذا كنا نملك قـوة الحق فإنهم يمتلكون حق القوة ، ويطالبون بدفع استحقاقاتها .
وبإمكاننا أن نكون محنة وتحـدياً حقيقيـاً لهم في حالة واحـدة ، هي أن نسـتطيع تقـديم رؤيتنا الكونية بشـكل واضح ، وأن نطـرح بعض الحلول الجذرية المتميـزة لبعض الاختناقـات الحضـارية الـتي يعـاني منها بنو البشر اليـــوم ، وهـــذا لايتم إلا من خلال فيض من الخطط والدراســات والنمــاذج المتقنة ؛ وهــذا كله ســبيله الرؤية الفكرية الناضحة والشاملة .
2- من الممكن لكل الأنشـطة الحضـارية أن تمضي في سـبيلها إلى حد معين ؛ فالاقتصــاد في أســرة ، والنشــاط الــزراعي في حقل ، ومسـاعدة ضـعيف في مجتمع ، كل ذلك من الأنشـطة الـتي يتيسر القيام بها دون الحاجة إلى عناء التفكير ، لكن عندما يصل الأمر إلي تنشيط اقتصاد دولة أو التخطيط لمجتمع كبـير أو حل أزمـات حركة أو جماعة في ظروف حاسمة ، فإن التفكـير المركز والمعقد يكـون هو الآلية التي ينبغي استخدامها .
وإني أعتقد أن معانـــاة الأمة من بعض المشــكلات لمــدد تصل إلى قــــرون كــــانت بســـبب إهمالها للفكر والنقد والمتابعة والمراجعة باعتبارها مبادئ أساسية في التغيير والإصلاح والارتقاء .
إن من المؤسف حقاً أن بعض الإسـلاميين ينعت الحـديث عن الفكر بالحديث البارد ؛ حتى إذا طرحت مشكلة وطلبت حلاً لها لم تجد إلا الوجوم أو الهروب ! !
3- إن العالم الإسلامي لايعاني من نقص في الإمكانات ولا الوسـائل ، فما هو متوفر لديه إن لم يكن أكثر مما عند كثـيرين لم يكن أقل ،

لكن مشــكلته تكمن في أن فاعلية وسـائله ونجاعتها مرتكـزة على الأساليب والطـرق الـتي تسـتخدم تلك الوسـائل ؛ والأسـاليب تظل محـدودة الكفـاءة مـالم تسـتند إلى قاعـدة فكرية صـحيحة ، ترسم خطة
واضــحة للعلاج والاســتطباب من خلال تشــخيص الــداء وتعــيين الأسـلوب الأمثل ومقـدار التـداخل الجـراحي المطلـوب إلى جـانب تحديد أولويات العلاج وتكاليفه وإفرازاته ، وفي هـذا المقـام نجد أن الأراضي الـتي تكفي لإشـباع قـارة لاتشـبع بلـداً ، وأن وفي الطاقة البشرية الهائلة صارت عبئا بدل أن تكون ميزة تمامـاً كجيش ضـخم لم يلق التـدريب ، ولم يجد السـلاح ، ولا الخطة القتالية الناجعة فهو أكوام من الكتل البشرية المستهدفة للعدو !
إن قليلا من الإمكانـــات والوســائل مع كثــير من الفكر والتخطيط والفاعلية التنظيمية والحركية أعـــود على الأمة بـــالخير والنفع من أكداس الأشياء الضائعة والمهملة .
4- عصــرنا هــذا هو عصر الاكتشــاف ، وقد اكتشف الإنســان من الحتميـات والسـنن مـالم يكتشـفه في أي زمن من الأزمنة ، ولكنه إلى جانب ذلك اكتشف من الفرص والخيارات الشـيء الكثـير ، وإن كثـيراً مما كـان يفـرض فرضا صـار اليـوم موضع خيـار ، وإن وجـود حتميات وضغوط وخيارات كثيرة يلزمنا باللجوء إلى التفكـير الفعـال ؛ حتى لانصل إلى طرق مسدودة ، وحتى لا نضـيّع فرصـاً متاحة ، إذ إن كل فرصة بحاجة إلى قرار ، وصاحب ذلك ضعفُ وضمورُ ماكـان يســتخدم في الأصل بــديلاً عن التفكــير مثل العــادات والتقاليد والمذاهب التي توفر في العادة
استخدام العقل [5] .
5- الاستقرار النسبي كان سيد الموقف في العصور الماضـية ، وبما أن الأشياء لا تتغير كثيراً فإن التكرار كان البديل الصالح عن التفكير ، كما أن قلة قليلة من الصفوة كانت تملك اتخاذ القرارات ، وكـانت تقوم بالتفكير عن الباقين ، وكان صنع القرارات الشخصية ميســوراً ومحدوداً لكن المجتمع اليوم لاينعم بالاستقرار بسبب معدل التغيـير الذي تغذيه (التكنولوجيا (والطموحات الاجتماعية [6] .
6- حينما تصاب أمة بدمار شديد أو زلـزال مـاحق فإنه يبقى لها بعد انهيــار بنيانها شــيئان : مبادئها الســامية الكامنة في شخصــيتها الاجتماعية ، وأفكارها وخبراتها التاريخية والحضارية ، وهي تسـتطيع من خلالهما استعادة كل ما فقدته

عندما تتوفر إرادة تجاوز المحنة ، فقد دمرت الحرب كل شــيء في ألمانيا ، ولم يبق لــديها إلا مخـــزون الأفكـــار وعزيمة الانتصـــار ، فتمكنت من إعـادة بنـاء مصـانعها على ضـوء الشـموع بعد انـدحار الهتلرية [7] وهكــذا فــإن أمة كأمتنا تســتطيع بتوفيق الله أن تنجز الكثير ، وتستعيد الكثير إذا ما استطاعت صـياغة أفكارها من جديد ، وتلمس
سبل النجاة والفلاح .
وهكذا نستطيع القول بعد كل ما مضى : إن توسيع آفاق الفكر لـدى المســلم ســوف يــؤدي إلى توســيع مجاله الحيــوي ، ويقلل من ضرورات حركته .

---

(1) المعجم الوسيط ، مادة فكر .
(2) انظر تعريفا آخر في : الأزمة الفكرية المعاصرة : 27 .
(3) كثير من أفكـار ابن تيمية وابن خلـدون جـاء في غـير أوانه وفي غـير محيطه ، وقد وجد الآن كثـيرا مما افتقـده ، أصـبح يـؤتي أكله أشكالاً وألواناً .
(4) ماتصادمت حضارتان إلا كانت كل منهما محنة للأخرى .
(5) انظر تعليم التفكير : 28 .
(6) السابق : 28 .
(7) مشكلة الثقافة : 61 .

================

بناء المرأة الداعية وتكوينها

مع الدكتور عبد الكريم بكار. وصف الحوار:
ضيف الحوار: الدكتور عبد الكريم بكار .
....
إن سبب قصور الدور الدعوي للمرأة هو عدم الاهتمام بإعدادها، وعدم وجود تقاليد علمية واجتماعية تـدفع بـالمرأة إلى القيـام بنشر العلم الشرعي على نطـاق واسع بين بنـات جنسـها، حيث إن هنـاك تخوفاً مستبطناً وغير مبرر من أن يؤدي قيام المرأة بدور اجتمـاعي وثقافي واسع إلى إهمالها لواجباتها الأسـرية، وإلى تجـاوز الضـوابط الشرعية الخاصة بحركة المرأة في المجتمع...
حول رأي الـدكتور بكـار في سـبب قصـور الـدور الـدعوي للمـرأة المسلمة ... وطرق علاجه .. وكيفية تكوين المرأة المسـلمة فكريـاً واجتماعياً لتكون داعية بإذن الله تعالى...كان هذا الحوار ...

السؤال الأول: بداية أستاذنا الفاضل:
هلّا حدثتنا عن بطاقتك الشخصية، والمؤهلات العلمية التي حصلت عليها، بالإضافة للمؤلفات، والأنشطة الفكرية والدعوية .
عبد الكريم بن محمد الحسن بكّار - سوري الجنسية.
بالنسبة للدراسة والشهادات العلمية التي حصلت عليها :
- إجازة في اللغة العربية - درجة البكالوريوس، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.
- درجة الماجستير، قسم "أصول اللغة"، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.
- درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى، قسم "أصول اللغة"، كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وكان عنوان الرسالة: "الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي ".
التدرج الأكاديمي :
- محاضر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بريدة – المملكة العربية السعودية.
- أستاذ مساعد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بريدة – المملكة العربية السعودية.
- أستاذ مشارك، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بريدة – المملكة العربية السعودية .
- أستاذ مشارك، جامعة الملك خالد، أبها – المملكة العربية السعودية .
- أستاذ، جامعة الملك خالد، أبها – المملكة العربية السعودية .
- أستاذ، الجامعة العربية المفتوحة، الرياض – المملكة العربية السعودية.
مقالات وفعاليات ثقافية:
- أكثر من 150 مقالة علمية ومقالة رأي في مجلا ت وصحف عربية ،منها:
مجلة الفيصل (الرياض)، المجلة العربية (الرياض)، مجلة البيان (لندن)، مجلة المعرفة (الرياض)، مجلة الدعوة(الرياض)، جريدة المسلمون (لندن).
- أكثر من 50 محاضرة عامة ومتخصصة في عدد من الجامعات والمراكز الثقافية، ومنها:
جامعة أم القرى (مكة المكرمة)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (بريدة وأبها)، كلية المعلمين (المدينة المنورة)، جامعة

الملك خالد (أبهـا)، جمعية الإصـلاح الاجتمـاعي (الكـويت)، المراكز الصـيفية في المملكة العربية السـعودية، النـدوة العالمية للشـباب الإسـلامي (الريـاض)، صـندوق الحج (ماليزيـا)، نـادي أبها الأدبي (أبها)، الغرفة التجارية الصناعية بالقصيم (بريدة).
- أكثر من 80 حلقة تلفازية وإذاعية بثت في كل من:
المملكة العربية السـعودية: التلفزيـون السـعودي (بريـدة)، إذاعة القرآن الكريم (الرياض)، قناة المجد (الرياض).
مصر: قناة المجد (القاهرة).
تركيا: إذاعة بورصة (بورصة).
بالإضافة إلى الكتب والدراسـات المتخصصة الـتي تصل إلى ثلاثين إصدار .
الهيئات والجمعيات:
- عضو المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسـلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض).
- عضو الهيئة الاستشارية بمجلة "الإسلام اليوم" (الرياض).
شهادات التقدير:
وقد حصلت على عدد من شـهادات التقـدير من عـدد من الجهـات على مشاركتي في مختلف الأنشطة، ونلت لقب (الأستاذ المثـالي) عـام 1995م/ 1415هــ على مسـتوى كلية اللغة العربية والعلـوم الاجتماعية بجامعة الملك خالـد(أبهـا)، ومن الجهـات المصـدرة لشهادات التقدير: جامعة الإمـام محمد بن سـعود الإسـلامية، جامعة الملك خالد، جامعة أم القرى.
السؤال الثاني: قضـية بنـاء الداعية وتكوينهـا، هل أخـذت أهمية جِديَّة في حياتنا ؟
نحن لا نختلف أن المـرأة المسـلمة لم تنل من الاهتمـام بتوعيتها وتهيئتها للمجال الـدعوي- ما تسـتحقه، وهـذا يعـود إلى تهميش دور المـرأة في الحيـاة العامـة، والخـوف من تعليمها في بعض الأحيـان، كما يعـود إلى سـيطرة العـادات والتقاليد بعيـداً عن هـدي الـدين الحنيف.
ولا ننسى أن الأمة حديثة عهد بأميـة، وكثـير من أوضـاعنا يميل إلى التخلف، وهذا كله يؤثر في مسألة إعداد الرجال والنساء معاً للقيام بالدعوة إلى الله تعالى .
السؤال الثالث : ما أهمية التكـوين العلمي والثقـافي للداعيـة، وهل يتم هذا التكوين في الجامعات ؟

لا شك أن المدارس والجامعات تقدم في مسـألة تكـوين الداعية الكثــير من الثقافــة، والكثــير من المعرفة وأدوات الفهم، وعلينا أن ننظر إلى الــدعوة على أنها اختصــاص يجب أن يُــدرس، ويُتعلم كما تدرس باقي التخصصـات، لكن الجامعـات لا تقـدم كل شـيء، حـتى كليـات الشـريعة والـدعوة، ولابد من الاهتمـام الخـاص قبل التخـرج وبعده، وهذا الاهتمام يجب أن ينصب على شيئين:

1- المعرفة النظرية.

2- التدريب والحماسة.

ولا حاجة إلى شـرح أهمية التكـوين الثقـافي للداعيـة، لأن الداعية كثيراً ما يجد نفسه مرشـداً ومصـلحاً اجتماعيـاً ومفتيـا، ولهـذا فـإن عليه أن يعد نفسه إعداداً جيداً للقيام بهذه المهام.

وأنا شخصـيا أفضل للداعية بعد الاطلاع العـام على علـوم الـدعوة وبعد تحصيل حد مقبول من المعرفة بالأسلوب الدعوي وعموميــات الإسلام... أن يتخصص في شيء يهتم به:

فهذا يهتم بدعوة النساء، وهذا بدعوة طلاب الجامعات، وهذا بــدعوة الأطفال، وهذا بدعوة التجار والصناعيين وهكذا...

فالإتقان والتميز يحتاج إلى التركيز، والتركيز يحتاج إلى التخصـص، ولاسيما في ظل الاتساع المستمر للعلوم والخبرات.

السـؤال الرابـع: يُلاحظ انخفـاض المسـتوى العلمي عامة لخـريجي الجامعــات وخريجاتها .. مــاهي الأســباب؟ وألا ينعكس هــذا على مستوى الداعية العلمي والثقافي ؟

قد لا يكــون من المهم أن نتحــدث هنا عن أســباب انخفــاض المسـتوى العلمي لكثـير من جامعاتنـا، فهـذا حـديث طويـل، لكن لا نختلف أن انخفاض مستوى الجامعات، يؤدي إلى انخفـاض مسـتوى خريجيها، هذا شيء ملموس ومفهوم.

و لا بد من أن يخضع المشــتغلون بالــدعوة والــذين يتم إعــدادهم لممارستها إلى بـرامج خاصـة، إذ إن الجامعـات لا تقـدم كل شـيء، ولابد من تدريب وتعليم مكمل لما تفعله الجامعات.

السؤال الخامس: تطرقتم في كتـابكم (تجديد الـوعي) إلى تنمية المــرأة، هل يمكن إعطــاء القــراء فكــرة مــوجزة عما تقصد بتنمية المرأة ؟

أشرتُ في كتابي تجديد الوعي إلى أننا قصرنا في مساعدة المرأة على ممارسة واجباتها الشرعية الاجتماعية، وعلى القيام بدور فعال في تقدم المجتمع، والمقصود بتنمية المرأة:

عمل كل ما من شأنه الأخذ بيدها لتكون زوجة صالحة وأماً فاضلة، وداعية ناجحة، وساعية في صلاح المجتمع .

إن على المـرأة أن تخـدم الأمـة، وتخـدم الملة والـدين، كما يفعل الرجـــل، ولكن ضـــمن الضـــوابط الشـــرعية المعروفة في مجـــال الحجـاب، والاختلاط بالرجـال، وفي نطـاق مسـؤولياتها الأسـرية... والمسألة واضحة.

السـؤال السـادس: ألا تـرى، ونحن في عصر العولمـة، والغـزو الفكري، أنه من المهم أن تكون الداعية على وعي كامل بما يجــري حولها ؟

لا نستطيع أبداً أن يكـون وعينا كـاملاً بما يجـري حولنـا، فمعرفة البشر بالواقع ستظل منقوصة، لكن تحسين وعي الداعية بما يجري حوله شـــيء مهم جـــداً لأن التطـــورات الكثـــيرة الـــتي تجـــري في المجالات المختلفة ــ تغيِّر في تـرتيب الأولويـات وتوزيع الاهتمامـات لدى الدعاة ولدى غيرهم.

وهـذا يجعلـني أؤكد على موضـوع التخصـص، حيث إن من الصـعب فهم الواقع من غير تخصص.

وأعني هنا بفهم الواقع على نحو مركَّز:

فهم واقع المـدعوين واحتياجـاتهم الدعوية والحياتية العامـة، وفهم الظـــروف الـــتي تـــؤثر في توجهـــاتهم واختيـــاراتهم، إلى جـــانب فهم المشكلات التي يعانون منها، وامتلاك رؤية لمساعدتهم في حلها.

السؤال السابع: من وجهة نظركم: هل تؤيد أن الكلام النظـري هنا وهناك حول المرأة والثقافة و...إلخ لا يستطيع أن يقف أمام التدفق الإعلامي، والفضائيات الفاسدة ؟ و ما هي الحلول العملية تجاه هـذا الواقع المؤلم ؟

الكلام النظري جيد من أجل تكوين الوعي والمعرفـة، لكن حين يكون مصدر بياناتك هو قنوات فضائية سـيئة ومتكـاثرة، فـإن مجـرد الكلام طبعاً لا يكون كافياً.

في معالجة الـــدفق الإعلامي الســـيئ لابد من اتبـــاع ما نســـميه (الحلول المركبة) مثل:

عدم إدخال القنوات السـيئة إلى الـبيوت، وتقليل سـاعات الجلـوس أمـام التلفـاز، وتكـثيف الـبرامج الـتي تسـاعد الناشـئة على تنمية شخصياتهم بعيداً عن التلفاز، والعمل على إيجاد بدائل إعلامية نقية.

إن إقبال كثير من الناس على مشاهدة الفضائيات نابع من الفـراغ الفكري والروحي الذي لـديهم، وما لم يتم ملء هـذا الفـراغ بشـيء جيد، فإن مشاهدة القنوات لن تتراجع.

السـؤال الثـامن: ألا تلاحظ أن دور المـرأة في الـدعوة إلى الله فيه قصور كبير، ما هو السبب في رأيك ؟

سبب قصـور الـدور الـدعوي للمـرأة هو عـدم الاهتمـام بإعـدادها، وعدم وجود تقاليد علمية واجتماعية تـدفع بـالمرأة إلى القيـام بنشر العلم الشرعي على نطـاق واسع بين بنـات جنسـها، حيث إن هنـاك تخوفاً مستبطناً وغير مبرر من أن يؤدي قيام المرأة بدور اجتمـاعي وثقافي واسع إلى إهمالها لواجباتها الأسـرية، وإلى تجـاوز الضـوابط الشرعية الخاصة بحركة المرأة في المجتمع.

ثم إن (الكيف) لا يــأتي إلا بعد (الكم)، فما دام عـــدد الـــداعيات محـدوداً، فمن الصـعب أن نـرى تفوقـاً ظـاهراً لأعـداد كبـيرة من الداعيات.

ولكل قاعدة استثناء.

السـؤال التاسـع: ما نصـيحتك، وأنت المفكر والداعيـة، للمــرأة الداعية، حتى تكون على مستوى جيد وعياً وفكراً وثقافة ؟

الـــذي أود أن أقوله هـــو: أن علينا أن ننشر فكـــرتين أساســـيتين، الأولى:

أن الدعوة إلى الله تعالى شـرف عظيم، ومنة كـبرى يمن بها الله على من يشـاء من عبـاده، وهي إلى جـانب ذلك مهمة عامـة، حيث ينبغي على كل مسلم أن يـدعوا إلى الخـير، وينشر المـودة، ويهـدي إلى الرشـــاد، ويعمل على محاصـــرة الشر والمنكر على قـــدر استطاعته وحسب ظروفه.

الثانية:

هي أن حاجة الأمة ماسَّة إلى دعـاة وداعيـات يحملن رؤية شـاملة وعميقة للمهام الدعويـة، حيث إن عـدم وجـود خـبرات دعوية عالية في الساحة، يلحق أشد الأضرار بالعمل الدعوي وبالمسلمين عامة.

ونحن نحتاج في هذا السياق أن نركز على عدد من الأمور:

1- الثقافة الشاملة، والخلفية التاريخية والفقهية، وفهم الواقع على قدر الإمكان شيء مهم جداً بالنسبة إلى الداعية.

2- معرفة ممتازة بسنن الله تعالى في الخلق، وفهم جيد بطبائع الأشياء، وخصائص كل مجال من مجالات الحياة.
3- إخلاص وصدق وعزيمة وثقة بالله تعالى وبكرمه من غير حدود، إلى جانب الصبر على مشاق الطريق وتكاليف الدعوة.
4- حب الناس، والعطف عليهم، والحرص على هدايتهم.
5- دماثة الخلق والرقة واللطف واحترام الآخرين.
6- البعد عن العصبية الحزبية، وإشاعة روح التعاون والإعذار، وتقدير الاجتهادات المختلفة.
7- التركيز والتخصص والتعمق في شيء ما، أمور مهمة للنجاح.
8- تدعيم الجانب الروحي؛ لأن طبيعة العمل الدعوي استهلاك للطاقة الروحية لدى الداعية، وليس أحب إليَّ في هذا من الإكثار من الثناء على الله تعالى ومناجاته والتذلل بين يديه وتملقه وطلب كل شيء منه قل أو كثر.
السؤال العاشر: هل من رسالة تود أن توجهها للمرأة المسلمة من خلال موقع دعوتها ؟
أختي المسلمة:
هذه الدنيا دار ابتلاء، ووجودنا فيها عابر ولا ندري متى تنتهي الفرصة الممنوحة لنا، فلنجتهد في تقديم شيء نجده نوراً بين يدينا يوم نكون بين يدي الله تعالى .
وأنت أختي المسلمة ضمير هذه الأمة وروحها وسر جمال الحياة، وسر تراحم مجتمعها، فكوني عند حسن الظن بك، ولا تحتقري نفسك، فأنت شيء كبير جداً، وتستطيعين فعل الكثير الكثير.
والله مولانا ونعم المولى ونعم النصير.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
==================
(كيف) مصدر هموم
عبد الكريم بكار - 27/04/2005 - [قضايا الأمة] - عدد القراءات:«345»
شيء مهم أن نعرف ماذا نقول، وأن نعرف ماذا نريد؛ لأن كثيراً من الناس لا يعرفون ما الصواب الذي عليهم أن يتحدثوا عنه، ولا الأشياء التي يريدون لها أن تتحقق. وأعتقد أن المفكر الذي تعود التفكير والتنظير والتعليل تنتهي مهمته عندما يشعر أنه وضع النقاط على الحروف فيما يجب أن يجلوه من مسائل، وقل نحو ذلك في

الداعية الذي جعل شعاره في التبليغ: (قل كلمتك وامش) فإنه يقنع بقول ما يود قوله. والأمة بحاجة إلى هذا وذاك؛ لكن الإصلاح يتطلب في الحقيقة ما هو أكثر من ذلك: إنه يتطلب توفير الشروط والنظم والقوانين والأساليب والظروف التي تساعد الناس بطريقة أو بأخرى على الاستقامة وعلى الاستجابة لنداءات الدعاة وتوجيهات المربين ومناشدات المخلصين...

توفير الأمور التي ذكرناها يعني توفير (بيئة صالحة) بأوسع ما تحمله هذه الكلمة من دلالات. دعونا نقول: إنه على مدار التاريخ كان لدينا نقص مريع في التنظير للبرامج والكيفيات والوضعيات والأطر التي تجعلنا ننتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل؛ في الوقت الذي نشكو فيه من فائض في القوة عما يجب فعله، وعما يجب تركه والإقلاع عنه، وربما كان ذلك بسبب تأثير من بعض المفاهيم الجاهلية والفلسفة اليونانية حيث الجنوح إلى الحلول النظرية وكراهة الانهماك في التقنيات وفي الأعمال اليدوية والتنفيذية، وقد تركت هذه الوضعية أسوأ الآثار في قدرتنا على التخطيط للبرامج العملية وفي رصيدنا من الأطر والشروط التي تحوّل الكلام إلى خطوط حركة يومية! وكم رأينا من الدعاة الذين ينتزعون الإعجاب عندما يتحدثون عن القيم والمبادئ والآمال والجراحات؛ لكن سرعان ما يفقدون كل ذلك عندما يقال لهم: كيف يمكن تحويل هذه الأفكار الجميلة إلى واقع معيش؟!

السؤال عن (كيف) يشكّل مصدر همّ وقلق وإثارة للكبار الذين انتهوا من تحديد ملامح الوضعية التي يجب أن تكون فيها الأمة، وباتوا يشعرون بضرورة الانتقال إلى إيجاد الآليات والوسائل التي تساعد الناس على الارتقاء نحو الوضعية المنشودة.

المصلحون المدركون لتكاليف ذلك ومشاقه لا يكفّون عن طرح الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها، ومن تلك الأسئلة:

- كيف نستطيع أن نحول دون استثمار التفوق المعنوي والمادي بطرق غير مشروعة؟
- كيف يمكن أن نجمع بين مستوى جيد من الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية؟
- كيف نستطيع جعل الناس يبصرون الخط الضيّق الذي يفصل بين النجاح واللصوصية، والخط الفاصل بين الزهد وبين العجز والعيش على هامش المجتمع، والخط الفاصل بين القوة والثقة بالنفس وبين البغي والأنانية...؟

- كيف نسـتطيع أن نسـتفيد من تقـدم الغـرب دون أن نغـرق في ثقافته؟
- كيف نسـتطيع تحقيق معـنى الأمة الواحـدة في ظل العولمة حيث السعي إلى تمزيق كل الروابط التي تقوم على العقيدة؟
- كيف يمكن أن نوجه النقد إلى بعض إنجازاتنا التاريخية دون أن نشعر بالاغتراب وتشتت الجذور؟
- كيف يمكن للخطاب الدعوي أن يجمع بين الجاذبية والالتزام؟
- كيف يمكن الحفاظ على التألّق الروحي في ظل حياة مترفة؟
- كيف يمكن أن نضبط مقادير الضغط الاجتماعي على نحو لا يـؤدي إلى شيوع النفاق والفساد الداخلي؟
إن التساؤل حول هذه الأمور هو بداية لا بد منها لتطـوير حساسـيتنا نحوها. ومهما ظننا أن الأجوبة والسبل العملية التي نكتشـفها جيـدة وموائمة فـإن التطـبيق وحـده هو المحك الـذي يكشف عن مـدى صـوابها ونجاعتهـا، وإن كل حل عملي وكل إطـار تطـبيقي يمكن أن يفقد مع الأيام فاعليته واتزانه، ويصبح في حاجة إلى تعـديل واتـزان جديد؛ وذلك لأن العناصر المشكّلة للبيئة في حالة من التغير الـدائم، مما يجعل الحلول والأطر المقترحة لا تحتفظ بملاءمتها.
لنحاول الخلاص من التلهي بشرح ما بات معروفـاً للصـغير والكبـير، والضرورة إلى تحويله إلى شيء ملموس يسعد النـاس بـالعيش في ظلاله.
ولله الأمر من قبل ومن بعد.
* المصدر: موقع مجلة البيان
================
عقدة النسيان
/ د. عبدالكريم بكار
16-5-1425 هـ
فعقولنا تميل إلى عدم تصديق ما يطـرح من أفكـار نهضـوية وعـدم الاهتمام به والتفاعل معه ما لم نره مجسَّداً في نموذج بشري
لست أدري مـــتى سنبصر طريقنا إلى التخلص من أدوائنا القديمة التي حولتنا من أمة تقود الأمم إلى أمة تستجدي الشعوب في لقمة عيشـها وفي أمنها وفي تنظيم شـؤونها ؟ ولعل من أدوائنا القديمة الاستسلام للّحظة الراهنة ؛ فنحن نستمتع ونهجع ونأكل ونلعب كلما أتيح لنا ذلك غـير آبهين بما يـأتي به الغد ولا مكـترثين بما يتطلبه ما بعد الغد !

إن القـرآن الكـريم حين أمرنا بإعـداد العـدَّة كـان يسـتهدف إخـراج المسلم من ضغوطات الساعة الحاضرة ، لتنفتح له آفاق المستقبل . والتخطيط في حقيقة الأمر يعـني الحصـول على شـيء من هـذا ؛ حيث إنه يسـاعدنا على توظيف إمكاناتنا الحاضـرة في مشـروعات تستهدف تحسين أوضاعنا في المستقبل . وهـذا يسـتوجب ألاّ نهـدأ حين يتـاح لنا الهـدوء ، ولا نغفل في أيـام الرخـاء . وهـذا ما تفعله الدولالعظمى والأفراد المتفوقون

قد أثبتت كل الأحداث التي وقعت في العقدين الماضـيين أن أعـداء هذه الأمة ومنافسيها يعتمـدون في الكيد لها واسـتغلالها على عقـدة النسيان لديها ، وعلى كون تحركاتها لا تنبثق من رؤيتها للمسـتقبل ، وإنما من مواجهة مشـــكلاتها الآنية . ولـــذا فإننا أصـــبحنا ألعوبة في أيدي الآخـرين ؛ إذ ما عليهم حـتى يُنسـونا ما نحن منهمكـون فيه إلا أن يخـــترعوا لنا مشـــكلة جديـــدة فننسى القديمة ، وننطلق نحو معالجة الجديدة بنفس الحماسة التي كنا نعالج بها المشكلة القديمة ، وبذلك ننسى الذين ورَّطونا في المشكلة القديمة والذين ورّطناهم أيضاً ! إن كثـيراً من مشـكلاتنا الفردية والجماعية ناشئ من قصـور في المفاهيم لدينا ؛ فنحن كثيراً ما نظن أن توفير أكـبر عـدد ممكن من الأفكـار والـرؤى والطروحـات يكفي للإصـلاح والتقـدم . ومع أن مثل هذا شرط لا يستهان به ، لكنه ليس الشـرط الوحيد ؛ فنحن إذا عمقنا النظر في تجاربنا ، وفي تجـارب الأمم من حولنا ، وجــدنا أن أكثر ما يرتقي بالأمم أمران : النماذج . والمؤسسات .

فعقولنا تميل إلى عدم تصديق ما يطـرح من أفكـار نهضـوية وعـدم الاهتمـام به والتفاعل معه ما لم نـره مجسَّـداً في نمـوذج بشـري ، فينتقل ما كان يُنظر إليه على أنه مثالي جـداً أو صـعب التحقيق من حيز غير العملي إلى حيز الممكن الذي يقع ضـمن المكنة والطاقة ، ولعل هـــذه هي الحكمة من وراء عصـــمة الأنبيـــاء عليهم الصـــلاة والســـلام وتجســـيدهم لما يـــدعون إليه في ســـلوكهم . وهكـــذا المسلمون اليـوم يحبـون أن يـروا نمـاذج راقية تتحـرك على الأرض في كل اتجاه من اتجاهات الحياة : العلم والخُلُق والإدارة والسياسة والإنتـاج والعلاقـات الاجتماعية .. وعلى مقـدار ما يتـوفر من نمـاذج راقية ينـدفع النـاس في طـرق الصـلاح والإصـلاح ، وإن لم يكونـوا مفكرين أو مثقفين أو فقهاء

أما المؤسسات فإنها تشكل أطراً لتخـريج النمـاذج ، كما أنها تنسف الجهود المبعثرة ، وتتيح لكثـير من المشـروعات أن يسـتمر فـترات

طويلة . وإن في شباب الأمة الكثير والكثير من الرغبة في الخير والعمل ، ولكنهم لا يجدون المؤسسات التي ترسم الأهداف ، وتمهد الطريق ، وتوفر لهم التدريب ، وتعينهم على أنفسهم .
إذا أردنا لهذه الأمة أن تنهض فلنركز على إيجاد أكبر عدد ممكن من النماذج الرفيعة والمتفوقة ، وأكبر عدد ممكن من المؤسسات ذات الاهتمامات الجزئية والمتخصصة ؛ فبذلك وحده نتعلم العمل في أيام الرخاء لأيام الشدة ، وبذلك تتحول العواطف النبيلة من كونها فورة مؤقتة إلى وقود لإنجاز الأعمال الجليلة
قلم / د . عبد الكريم بكار
=================

التنقيب المعرفي

عبد الكريم بكار
2007-07-21

امتلاك أكبر قدر من المعارف الصلبة في كل مجال من مجالات الحياة هدفنا، وهو في الوقت نفسه وسيلتنا إلى الشعور بالأمن والاطمئنان في ظل اضطراب كوني لم يسبق له مثيل. وهو وسيلتنا أيضًا إلى جعل منة (التسخير) تتجسد في المزيد من تحكم الإنسان ببيئته ومحيطه.

كشف المجهول:

التنقيب المعرفي هو محاولة لاجتراح الحقائق المنثنية والمحتجبة، ذلك الاجتراح مهما بلغ من الحرفية والعمق، فإنه سيظل قاصرًا عن بلوغ أقصى طبقات الحقيقة حيث قضت مشيئة الله - تعالى - أن يظل في كل مخلوق عنصر غيبي تتقاصر أذهاننا عن الإحاطة به، لكن حسبنا أن نقلل نسبة المجهول في كل قضية نعاني معالجتها.

من خلال المزيد من البحث قد نصل إلى المزيد من الإدراك للموازنات العميقة التي بثها الخالق - جل وعلا - في هذا الوجود كما أننا من خلاله نحمي أنفسنا من شرور الرؤى المبتسرة والجزئية والسطحية والمغالية، حيث ينجذب عقلنا الباطن إلى ذلك على نحو عجيب! ونحن بعد هذا وذاك محتاجون إلى التنقيب المعرفي كي نكشف خصائص الأشياء، وكي نثري حياتنا بالمزيد من المفاهيم التي تمكننا من معرفة أكبر قدر ممكن من العلل والأسباب وأكبر قدر ممكن من العلاقات الأفقية التي تربط بين مفردات الوجود. وبذلك يجد العقل الكثير من الأدوات التي يستعين بها على طرح البدائل وفتح حقول جديدة للفهم والممارسة.

الحفر المعـــرفي شـــاق وشـــاق جـــدًا ولن نســـتطيع المضي فيه والاستمرار في معاناته من غير توفر بعض الحوافز والشـروط الـتي تجعلنا نشـعر بالرغبة للقيـام به أو بالاضـطرار إليـه، وتلك الحـوافز والشروط متعددة، لعل من أهمها:

الحقيقة أكثر عمقاً:

حب اكتســاب المعرفة والشــغف بالوصــول إلى طبقــات الحقيقة الأكــثر عمقًــا، حيث يفقد معظم النــاس ذلك الشــغف، ويكتفــون بالمعطيــات والمــدركات الأولية لكل قضــية يبحثونهــا، فيكــون ما يحصلون عليه أشبه بما يحصل عليه صـياد يلقي بشـباكه في الميـاه الضحلة قرب الشواطئ. أما الـدرر والصـيود الثمينـة، فلا يصل إليها إلا أولئك الذين يبحرون في الأعماق، ويركبون لذلك الأخطار.

أهمية التخصص:

من غير التخصص والتخصص الدقيق لن يكون هنـاك تنقيب معـرفي حقيقي، حيث يتطلب بلوغ قاع الحقيقة ـ إن كان لها قاع ــ نوعًا من التوظيف الرأسي المكثف للعقل والخـــــــــــبرة. لا ريب أن على المتخصص أن يتزود بالكثير من المفـاهيم والمعلومـات الـتي تنتمي إلى علوم شتى، لكن منطقة العمل ينبغي أن تكون محددة وصغيرة وإلا فلن يستطيع الحصول على شيء ذي قيمة.

أدوات التنقيب المعرفي:

على مدار التـاريخ كـان الوصـول إلى الحقـائق العميقـة، وكـان حل المشــكلات المعقــدة منوطًا بــالعثور على المنهج الملائم والأدوات الملائمة للتعامل معها. المنهج المطلوب لمعالجة مشـكلة البطالة ــ مثلاً ـ غير المنهج المطلوب لمعالجة قضية فقهية أو لغوية أو تقنيـة. والأدوات والوســائط المعرفية والتقنية الــتي يجب اســتخدامها هي الأخرى مختلفة ومتباينة.

من المؤسف أن حلقة (مناهج البحث) من أضعف حلقـات سلاســلنا العلمية. والجهود المبذولة لدينا لبلورة مناهج بحث جديـدة محـدودة للغايـة. والنتـائج تـدعو إلى الإحبـاط. وذلك قد يعـود إلى قلة الـذين يشتغلون بالتخصصـات المعرفية الدقيقـة، وإلى ارتباكنا في التعامل مع المسائل المتصـلة بالفلسـفة وتلك الـتي تتطلب خلفيـات ثقافية عريضة ومنوعة.

معرفة السنن:

معرفة الســنن الربانية المتعلقة بالقضــية موضع البحث أمر حيــوي للغايـة، حيث إن من شـأن السـنن أن توضح لنا الثـوابت الـتي تمنح

الأشياء طبيعتها، كما توضح لنا منطق الأشياء، أي اتجاهات تطورهـا. ومع أن امتلاك أكبر قدر من المعلومـات حـول الظـاهرة أو القضـية موضع التنقيب يعد أمـرًا في غاية الأهمية إلا أن معرفة السـنن تظل أهم، لأنها تمنح رؤية كليــة، على حين تمنح المعلومــات رؤى جزئية مشتتة، ولأنها أيضًا تظل أبعد عن قبـول الـتزييف والمتـاجرة، وليس كذلك الشأن في المعلومات.

المقارنة تغني الوعي:

من أدوات التنقيب المعـرفي (المقارنـة) حيث تتوقف درجة الـوعي بالكثير من الأشياء والظواهر والمشكلات على درجة وعينا بالأشــياء المماثلة والمضــادة، فعقولنا ليست مؤهلة لإدراك الوجــود الأعمق للأشــياء المعزولة عن أمثالها وأضــدادها، فنحن لا نســتطيع إدراك مستوى الفقر أو الأمية أو التنظيم أو العدل الموجـود لـدينا من غـير مقارنته بما لدى الأمم الأخرى. من شـأن المقارنة التأسـيس لعلـوم جديدة، ومن شأنها كذلك تشغيل الجهاز العقلي لإنتاج مستويات من الإدراك أكثر عمقًا وشمولاً لكثير من القضايا موضع البحث والنظر. التنقيب عن المفاهيم والمعاني والحفر حول الجذور والعلل والنتائج والعلاقـات وخصـائص الأشـياء أهم من التنقيب عن النفط والـذهب، وقد بـاتت هـذه الحقيقة أشد تألقًا حيث بـاتت المفـاهيم والمعـارف تشكل رأسمال التقدم الإنساني بكل أشكاله وأبعاده.

=================

كيف تصبح معلما ناجحا ؟

مرحبا بالجميع

حضـرت نـدوة أقامتها المنطقة التعليمية بعنـوان(كيف تصـبح معلما ناجحــا؟)، حاضر فيها موجه اللغة العربية الأســتاذ الفاضــل: أحمد أبوطالب، وسأنقل لكم بعض ماجاء فيها لتعم الفائدة إن شاء الله.

حتى تصبح معلما ناجحا عليك أن تحرص على أمور منها:

1- الإلمام بعلم النفس التربوي.

أ- معرفة خصـــــائص مراحل نمو التلميذ في كل مرحلة لتقـــــديم الخبرات في الوقت المناسب.

ب- التعــرف على دافعية الســلوك وكيفية الاســتفادة من دوافعه المختلفة لتحسين إقبال التلاميذ على التعلم بشوق،

جــــ - دراسة الفــــروق الفردية بين المتعلمين من حيث النشــــأة الاجتماعية والاقتصادية.

د- القــدرة على حل المشــكلات ، بحيث يتعامل مع التلاميذ كأبنــاء ويبتعد عن الندية والجفاء والعنف.
2- ســـيكولوجية المعلم.تنعكس شخصـــية المعلم واتزانه وحسن تصرفه سلبا أو إيجابا على تلاميذه.
3- الحس الطــبيعي للتــدريس.على المعلم أن يكــون قــادرا على تحقيق الأهــداف العامة والخاصة للتربيــة، وأن يكــون أداة توصــيل فاعلة بين الهدف والمتعلم.فالمعلم الناجح يولد ليكون معلما.
4- إعداد المعلم تعليميا وتربويا .يجب أن يكون المعلم مـؤهلا ليصل إلى مرحلة الإعـداد المناسب مهنيـا، ويكـون مـدركا لأصـول التربية الحديثة ليستطيع تحقيق جوانب التربية.
5- فاعلية المعلم وتقويم عمله وقياس مدى نجاحه في مهمته.يقوِّم المعلم نتــاج عمله ويحـــدد الإيجابيــات الــتي نجح في تحقيقها أو السلبيات التي قصر في أدائها.
يقول الطنطاوي في ذكرياته 6/237(ثلاثة شروط لنجاح المعلم :
أولها : استيعاب المادة التي يدرسـها ، والإحاطة بها ، والرجـوع إلى كل كتاب يصل إليه من كتبها ، لا يقتصر على الكتاب المقرر .
أما في الجامعات فلا يجوز أن يقرر للطلاب كتـاب بعينه لا يرجعـون إليه ولا يأخـــذون إلا منه ، ومن يفعل ذلك من الأســـاتذة يكن معلم مدرسة ابتدائية لا أستاذا في جامعة.
الثاني : أن يسلك إلى أفهام الطلاب كل سبيل فـإن سـاق المسـألة بعبــارة لم يفهموها بــدّل العبــارات حــتى يصل إلى العبــارة الــتي يســـــتطيعون أن يفهموها ، وما دامت مســـــائل العلم في ذهنه ، وكلمات اللغة بين يديه ، سهل ذلك عليه .
لما جاءتنا هــذه الرياضـيات الحديثة نقل بعض الأســاتذة منا ما قاله غيرنا ، فما فهمنا عنهم ، وما أحسب أنهم هم فهموا ما نقلوا ، فجاء أخي الدكتور عبد الغني فشـرحها في كتابه الـذي وضـعه لطلابه في جامعة دمشق من أكثر من عشرين سنة فإذا هي مفهومة واضحة .
أما الشرط الثالث فهو : أن يكون طبيعيا ، فـإن لم يعـرف المسـألة قال للطلاب : إني لا أعرفها ، وإن أخطأ قال لهم : إني أخطأت فيها . أهـ
وقد أضاف الشيخ رحمه الله في الرائي (التلفزيون) شرطا آخر وهو : أن يكون عادلا فلا يحابي أحـدا لا لجماله ولا لغنـاه ولا لوجاهة أبيه ...

تتكـــون العملية التعليمية من عـــدة عناصر منها المعلم والطـــالب والمنهج وغيرها، وإذا كان المســتهدف من العملية التعليمية كلها هو الطـالب، فـإن أهم عوامل نجـاح هـذه العملية هو المـدرس الكفء الــذي يــؤدي مهمته بأمانة وعلم وقــدرة، و مهما أُنفق على العملية التعليمية من مال وهُيئت لها من أسباب إلا أنه لا يمكن الحديث عن أي تقدم للمجتمع دون النهوض بالمعلم ورفع كفاءته، فللمعلم دوره الأساسي في العملية التربوية والتعليميــة، ولأهمية دور المعلم كـان لا بد من توافر شروط ومميزات في شخصيته ليستطيع القيام بهذه المهمة بصورة جيدة تؤدي إلى تحقيق الأهداف المرجوة.

حول صفات المعلم الناجح يقول الدكتور/ عبد الكـريم بكـار: إن من بين الصفات الواجب توافرها في المعلم:

1- الثقافة:

حيث إن العمل الأساسي للمعلم هو نقل المعرفة من مصـــــــادرها ومراجعها إلى الطلاب بشــكل منظم؛ لــذا فالمعرفة بالنســبة إليه كالبضاعة بالنسبة للتاجر؛ فالمعلم بحاجة إلى المعرفة الواسـعة من أجل إثبات وجوده وتحقيق ذاته.

2- القدوة:

ذلك أن وثوق الناس بالمعرفة يرتبط كثـيراً بمـدى ثقتهم بمن يحمل هـذه المعرفـة، وانطلاقـاً من هـذا؛ فـإن انسـجام المعلم مع طبيعة المعرفة التي يقـدمها ومع طبيعة المهمة الـتي نـدب نفسه إليها يعد شرطاً لا غنى عنه لنجاحه في عمله.

فالقدوة تتمثل في كل جوانب السلوك، وفي كل تصرفات المدرس مع طلابه وغير طلابه. ذلك لأن المعلم مرب.

3- التربية:

وحتى ينجح المعلم في أن يكون مربياً؛ فإن عليه أن يتمثل شخصـية الأب الــواعي، ويحـاول أن يتصـرف مع طلابه كما يتصـرف الأب مع أبنائه.

أما الشيخ محمد بن عبد الله الدويش فيقــول: "إنه ينبغي للمعلم أو المربي لكي ينجح في أداء مهمته أن يتوافر فيه عـدد من الصـفات، من أهمها:

* القدرة على بناء العلاقات الإنسانية:

ذلك أن التلقي فــرع عن المحبــة، وللعلاقة بين التلقي والمحبة من الاتصال قدر كبير مما قد نتصور أحيانــاً، فمن لم يغـرس المحبة في

نفوس الطلاب فكثير مما يقوله ستكون نهايته عندما يتلفظ به، ولن يأخذ طريقه نحو القلوب فضلاً عن أن يتحول إلى رصيد عملي.
* الاستقرار النفسي:
حيث إن المربي يتعامل مع الناس ومع الطبيعة الإنسانية المعقدة فلا بد أن يملك قدراً من الاستقرار النفسي فلا يكون متقلب المزاج سريع التغير مضطرباً أو يعاف من وحدة انفعالات أو سوء ظن وحساسية مفرطة، فضلاً عن بعده عن الأمراض النفسية.
* التوازن الاتصالي:
حيث إن التربية ليست عملاً من طرف واحد، وليست تعاملاً مع آلة صماء ومن غير المقبول أن يحول المعلم الطالب إلى شخص مهمته أن يحسن الاستماع والاستقبال فحسب،بل لابد من قدر من التوازن الاتصالي؛ فالتربية عملية اتصال بين طرفين.
أخي المعلم: هذه بعض الصفات التي يرى خبراء التربية ضرورة توافرها في من يتصدر لحمل مهمة ورسالة النبي - صلى الله عليه وسلم- "إنما بعثت معلماً".
ويفصل الأستاذ/ علي لبن (الخبير التربوي، وعضو مجلس الشعب المصري) ؛ فيقسم صفات المعلم إلى قسمين:
صفات شخصية، وصفات مهنية.
فمن الصفات الشخصية التي يجب توافرها في المعلم الناجح:
1- أن يكون محباً لمهنته، ولوعاً بها، يؤدي عمله بشوق وشغف ونشاط، فيتابعه تلاميذه بنفس الشوق والنشاط.
2- أن يكون متواضعاً في غير ضعف، عطوفاً في حزم وكياسة، متحرراً من عقدتي الدونية والتعالي، يعرف متى يكون مرحاً، ومتى يكون جاداً.
3- صحته الجسمية وحيويته، وسلامة حواسه، وغير ذلك مما يساعد على تأدية رسالته.
4- صحته النفسية واتزانه الانفعالي، بحيث لا يسهل مضايقته، ولا تبدو صورته المزاجية هوجاء منفرة؛ لذلك يجب على المدرس أن يجاهد نفسه من أجل إكسابها فضيلة الصبر وسعة الصدر والجلد والوقار والاطمئنان وغيرها، مما يبعث في نفوس التلاميذ السكينة والإشراق.
5- أناقته ونظافته، وطيب رائحته، وحسن هندامه، وجاذبية مظهره؛ تعظيماً للعلم والعلماء.

روى الإمام مالك أن النبي _صلى الله عليه وسـلم_ أشـار إلى رجل ثائر الشعر واللحية وكأنه يأمره بإصلاح شعره، ففعل الرجل ثم رجع في هيئة حسنة فقـال النـبي - صـلى الله عليه وسـلم-: "أليس هـذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان".
6- فصاحته وجودة نطقه، ووضوح صوته، وقوة بيانه، وجمال تعبيره، وتسلسل حديثـه،وإخراجه الحـروف من مخارجهـا، وتنـوع نبراتـه، ولهجته الطبيعيـة، وخلـوه من "اللازمـات" وحبسه اللسـان... وغـير ذلك.
7- ذكاؤه وفطانتـه، وسـعة أفقـه، وبعد نظـره ويقظة عقلـه؛ ليمكنه معالجة مشكلات التدريس بحكمة.
8- فهمه لتلاميـــــذه، ومعرفته بأســـــمائهم ومشـــــاركته في حل مشـكلاتهم، وسـعيه في مصـالحهم، وعـدم التحـيز في معـاملتهم، خاصة عند فض منازعاتهم، استجابة لقـول رسـول الله - صـلى الله عليه وسلم-: "اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم"،كل ذلك يوطد علاقته بهم،ويكون من أهم أسباب نجاحه.
وفي هذا يقول الإمام ابن جماعة: "إذا غاب بعض الطلبة غياباً زائداً عن العادة سأل عنه معلمه أو قصد منزله بنفسه؛ فإن كـان مريضـاً عاده، وإن كان في حاجة أعانه، وإن كـان في غم خفض عليـه، وإن لم يكن شيء من ذلك تودد إليه ودعا إليه.
9- تمكنه من مادته؛ لأن أخطاءه تقلل من ثقة تلاميذه بــه، وتجعلهم لا يهتمون بالتحضير لمادته.
10- ســعة اطلاعـــه؛ فلا يكتفي بالكتــاب المدرسي حــتى لا يهبط مســتواه إلى مســتوى تلاميــذه، بل عليه مداومة الاطلاع على كل جديد، أو ما يدعم مهنته؛ كعلم النفس والتربية، أو طرائق التــدريس وغيرها، حتى يظل دائماً في مستوى ثقافة عصره.
11- المحافظة على مواعيد المدرسة واحــترام لوائحهــا، والالــتزام بمتطلبات مهنته عن حب ورغبة داخل الفصل وخارجه.
12- التـودد مع زملائه والبعد عن المشـاحنات؛ دمث الخلـق، متأدبـاً في ألفاظه بعيــداً عن الغيبة والقــول الــذي يــؤذي الآذان؛ لقولــه_ تعـالى_: "قل لعبـادي يقولـوا الـتي هي أحسن إن الشـيطان ينـــزغ بينهم...".
13- الاختلاط بالناس ومشاركتهم في الحياة الاجتماعية، ولذلك يرى الإمـــــــــام ابن جماعة "أنه ليس أضر على المعلم من الزهد في مصاحبة الناس، والبعد عن حركة الحياة العامة".

14- أن يكـون عارفـاً بـأمور دينه متمسـكاً، بها محافظـاً على تأدية الشعائر آمراً بالمعروف، ناهيـاً عن المنكـر، لا يخشى في الله لومة لائم، وفي ذلك يقول أبو اسحق الجبنياني: "لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الـدين؛ لأن دين الصـبي على دين معلمـه". كما يقـول الصـحابي عتبة بن أبي سـفيان لمعلم ولـده: "ليكن أول إصـلاحك لولـدي إصـلاحك لنفسـك؛ فـإن عيـونهم معقـودة بعينـك، فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت".

15- أن يكـون مخلصـاً؛ فيجعل تدريسه ابتغـاء وجه الله _تعـالى_، ودوام ظهور الحق وخمـود الباطـل، وكـثرة العلمـاء؛ فيضـحي بوقته وراحته في سـبيل رسـالته؛ كيف لا وهي أشـرف رسـالة عرفتها البشرية رسالة الأنبياء والمرسلين؟!

وقد أشاد القرآن الكريم برسـالة المعلم في قوله _تعـالى_: "ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمـون الكتـاب وبما كنتم تدرسـون" فـانظر كيف كرم الله المعلم فنسبه إليه _تعالى_، فسماه ربانيـاً، والربـاني هو المنسـوب إلى الـرب - كما يقـول سـيبويه-، والإخلاص هو الـذي يجعل المعلم ربانياً، وبالتالي يجعل طلابه ربانيين، يـرون آثـار عظمة الله في كل ما يدرسون، ويخشونه ويحسبون الحساب ليوم الجزاء.

أما الصفات المهنية للمعلم؛ فمنها (والكلام للأستاذ علي لبن):

1- احـترام شخصـية التلميـذ؛ وذلك بمراعـاة حاجاته واهتماماته وحقوقه وأيضاً، معرفة قدراته وإمكانياته ليمكن توجيهه على أساس ذلك.

2- القدرة على ضبط الفصل.

3- إتاحة الفرصة للتلاميذ كي يتحـدثوا هم معظم الـوقت؛ فحـديثهم يفوق حديث المدرس في أهميته؛ لأنهم يتعلمون من أخطـائهم أكـثر من تعلمهم من المدرس وهم صامتون.

4- تشـجيع التلاميذ على المسـاهمة في النشـاطات المدرسـية؛ لأن شخصـــية الطفل تظهر على حقيقتها أثنـــاء انطلاقه في اللعب والنشاط الحر، وذلك مما يساعد في التعـرف على خلفياتـه، وتفهم مشكلاته وتحريره من المخاوف والضغوط.

5- مراعاة الفروق الفردية.

6- حسن التعامل مع السلوكيات غير اللائقـة، وفي هـذا يقـول عتبة بن أبي سفيان لمعلم ولده: " قومه ما استطعت بالقرب والملاينـة؛ فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة"

7- التشـجيع على حسن الأدب والجد والاجتهـاد في الدراسـة؛ وذلك بالشكر والثناء والقبـول والاستحسـان، وغـير ذلك مما يـدفع التلميذ إلى المزيد من النجاح.
8- لا تكتفي بتـدريس مـادة الكتـاب النظرية معزولة عن تطبيقاتها في الحياة العملية؛ بل تضيف إليها النشاطات التي يمكن بواسـطتها تحويل معلومات الكتاب النظرية إلى سلوكيات عملية.
9- تزويد الـدرس بمروحـات عن النفس؛ كـالمرح والطرائف وبعض المزاح لإنعاش التلاميذ، وبث الحيوية فيهم وتجديد نشاطهم على أن يتم ذلك بدون إسراف أو إسفاف، ليكون الجد هو الأصل، وفي هـذا يقول الإمام علي: "أعط الكلام من المزح بمقدار ما تعطي الطعـام من الملح".
ويـذكر الـدكتور عبد الكـريم بكـار بعض الأنمـاط السـلبية للمعلمين، منها:
1- المعلم المهمل:
هو إنسان دخل مهمة التعليم على سـبيل الخطـأ، وعلاقته بها علاقة شـكلية وسـطحية؛ فـأنت لا تكتشف وأنت تتحـدث معه أن له أي اهتمامات بالثقافة أو التعليم أو مستقبل الأجيـال. ويظهر إهماله في تحضـيره لدروسـه، وفي تصـحيحه لواجبـات الطلاب وأوراق امتحاناتهم، ولا يلقي بالاً لشكواهم، ولا يفكر في أحوالهم.
2- المُعلِّم المستبد:
من سمات هذا الصنف من المُعلمين أنه يفتقر إلى الروح الرياضـية والمرونة الذهنيـة، وهو قـوي الإحسـاس بمركـزه وسـلطته، ويغلب عليه طـابع الحرفية والتمسك بالأنظمة دون أن يأخذ بعين الاعتبـار الظـروف الخاصة الـتي يمر بها بعض الطلاب، والهم الـذي يسـيطر عليه هو إنهـاء المنـاهج؛ فلا يعطي للثقافة العامة وتنمية شخصـيات الطلاب ما تستحقه من عناية واهتمام.
3- المُعلِّم الفوضوي:
يسير المُعلِّم الفوضوي في الاتجاه المعـاكس للمُعلِّم المسـتبد، فهو لا يأبه بتوجيهـات الإدارة، ولا يلـتزم بـالنظم المرعيـة، كما لا يهتم بإنهاء المناهج، ولا يكترث بما يسمى الأهـداف التعليميـة. وهو يحمل في نفسه نوعاً من الرفض للتقاليد التعليمية المعترف بها. إن الذي يسـيطر عليه هو العلاقـات الإنسـانية مع الطلاب. وحرصه على رضا طلابه ومسـامرتهم يقع عنـده في المرتبة الأولى، ولهـذا فـإن

المحصـــلة العلمية الـــتي يحصل عليها طلابه من وراء تدريسه تعد متواضعة.
4- المُعلِّم العادي:
نمط المُعلِّم العـــادي هو النمط الســـائد في معظم المـــدارس، ومسـتوى ما هو عـادي وغـير عـادي تحـدده البيئة التعليمية العامـة؛ فـالمُعلِّم العـادي في دولة متقدمة يختلف كثـيراً عن المُعلِّم العـادي في بلد متخلف فقير. يحرص المُعلّم العادي على إنهاء المناهج، كما يحرص على تنفيذ التعليمات العليا، لكنه مع هـذا يـتيح للطلاب نوعـاً من المشـاركة، كما يـتيح فرصة محـدودة لطـرح الأسـئلة، ومعرفته بمادته عادية، واهتمامه بتنمية شخصـيته وتحسـين فاعليته ضـئيل أو دون المتوسط.
فهل ترضى لنفسك أيها المعلم المـــربي أن تكـــون من بين هـــذه الأصناف السلبية؟
نربأ بك عن هذه الحالة
قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل
(ملاحظة ليس هذا البحث للدكتور عبد الكريم بكار فقط بل مشترك)
====================
أفكار يجب أن تتغير
(*).. أ.د/ عبد الكريم بكار
للشباب يحيا كل إنسان في بيئة مشحونة بالأفكار والعقائد والتقاليد والرموز والمعلومات، ومن مجموع تلك الأمور تتكون ثقافته العامة، ومن تلك الثقافة تتولد رؤيته لأمور كثـيرة، كما تتشـكل لديه الصـور الذهنية التي يرى من خلالها نفسه والعالم من حوله، وإن كل صورة ذهنية تبدأ بالتشكل نتيجة الخـواطر الـتي يتكـرر ورودها على الواحد منهـا، وكثـيراً ما تـأتي الأحـداث اليومية لتؤكد صـحة تلك الخـواطر، ومن هنا فـإن الواحد منا مطـالب بـأن يعي الصـور الذهنية الخاطئة حتى يتمكن من مجابهة الخواطر التي تؤدي إلى تشكيل تلك الصـور وقطع الطريق عليها.

تؤكد الكثير من البحوث التي أجريت في علم النفس المعرفي على أن تتغير الأفكار هو المدخل الصـحيح لتغيـير الاسـتجابات الشـعورية والسلوكية لـدى الإنسـان، والحقيقة أن الصـور الذهنية الـتي تحتـاج إلى التغيير، أو نحتاج إلى التخلص منها على نحو نهـائي كثـيرة جـداً؛

لكن أكثرها حيوية وتأثيراً في مسار حياتنا الشخصية هي تلك الصور التي كوّناها عن أنفسـنا وذواتنـا؛ إذ إنها تـؤثر على نحو جـوهري في أسلوب رؤيتنا للحياة وفي نوعية مبادراتنا ونوعية ردود أفعالنا.
ولعلّي أشير هنا إلى بعض تلك الصور والمفاهيم في الآتي:
1 – كثيرون أولئك الذين تسيطر عليهم مشـاعر الإحبـاط، ومشـاعر عدم الأهلية للقيـام بالأعمـال الـتي يقـوم بها نظـراؤهم من النـاس؛ ولـذا فـإنهم بالتـالي يشـعرون أنهم لا يسـتحقون النجـاح والتفـوق، وينعكس هذا الشعور بالضآلة على نفسياتهم وسـلوكاتهم، حيث إنك تجد الواحد منهم فاقـداً للحيويـة، فهو يـؤدي أعماله بتثاقل وتبـاطؤ ومن غير أي حماس أو اندفاع، وإذا بدأ بإنجاز عمل أو مشـروع فإنه قلّما ينهيـه، وإذا أنهـاه لم ينجـزه على الوجه المطلـوب، وحين يفكر الواحد منهم، فـإن تفكـيره يفقد المسـحة الإبداعيـة، ويتسم بالرتابة والتكـرار؛ إذ لا حـافز يـدعو إلى التجديـد، وهـذا الصـنف من النـاس كثيراً ما يحدثك عن العقبات التي تعـترض سـبيله، وكثـيراً ما يـزعم أنها عقبات طارئة وغير متوقعة.
وأخيراً فإن الذين يفقدون الشعور بالأهلية للقيـام بالأعمـال الجيـدة يحملـون في نفوسـهم الكثـير من مشـاعر اللـوم للآخـرين والعتب عليهم؛ لأنهم في توهمهم يخذلونهم ويحجبون عنهم العون الذي كان ينبغي أن يقـدموه إليهم؛ وهـذا يـؤدي إلى عـزلتهم، وابتعـاد النـاس عنهم مما يضاعف في مشكلاتهم، ويشعرهم بالاغتراب.
أنا لا أشك أن مـواهب النـاس وإمكانـاتهم وظـروفهم متفاوتـة، لكن أعتقد مع هـذا أن هنـاك دائمـاً أكـثر من طريقة ووسـيلة لإدخـال تحسينات على كل ذلك، لكن السـلبية الـتي ورثها الكثـيرون منا من بيئـاتهم تمنعهم من رؤية الآفـاق الممتـدة الـتي أمـامهم، وأظن أن تخفيض الطموحـات سـوف يقـرب المسـافة بين الأهـداف وبين الإمكانات المتوافرة، مما يحفز الإنسان على العمل والدأب، كما أن توضيح ما يريـده الإنسـان على نحو جيد يسـاعد هو الآخر على إزالة الأوهـام الـتي تعشش في أذهـان النـاس، وتصـبح مصـدراً لتوليد الإحساس بصعوبات غـير موجـودة، ومن المؤسف في هـذا السـياق أن معظمنا يفكرون غالباً في الأشياء الـتي لا يريـدونها، مما يجعلهم يشعرون بالمشكلات أكثر من شعورهم بالنتائج الجيدة.
أخيراً فإن العزيمة على إنجاز أشياء محددة في زمان محـدد، تجعل المـرء يضع قدمه على بداية طريق النجـاح، وبمجـرد أن يشـعر بأنه

بـدأ يتقـدم تتولد لديه طاقـات جديـدة، تسـاعده على المضي نحو الأمام باطمئنان وثبات.
2 – بعض النـاس يحملـون صـوراً ذهنية مبالغـاً فيها حـول الكفـاءة الشخصـية والإنجـاز العـالي، ويعتقـدون أن الإنسـان إذا لم يحقق نجاحات كبرى، فإنه لن تكون له قيمة بين الناس، وهذا غير صـحيح، فالمرء لا يحترم لإنجازاته فحسب؛ بل إن هناك الكثـير من السـمات الـتي ترفع من قـدر الواحد منا في عيـون إخوانه أكـثر مما يرفع النجـاح، وذلك مثـل: الطيبة والتعفف وحب الخـير للنـاس وبـذل المعروف والاستقامة على أمر الله – تعالى – وما شابه ذلك.
3 – يغلب على كثير من الناس مفهوم يقضي بأن تسير الأمور على ما يشتهون ويرغبون، وإذا لم يحدث ذلك فإن الحيـاة تصـبح شـيئاً لا يطاق، وهـذا وهم كبـير، فنحن لا نملك زمـام الأحـداث، ولسـنا نحن الذين نحرك الأشـياء، ولـذا فـإن علينا أن نتوقع دائمـاً أن يحـدث ما ليس في الحسبان.
ومن وجه آخر فمن الذي يزعم أن عدم حدوث ما نرغب فيه يشكل كارثة أو انتكاسة؟ إن الله – جل وعلا – وحده هو الذي يعلم خـواتيم الأمـور وعـواقب الأحـداث والأوضـاع، ولـذا فإننا طالما خشـينا من وقـوع الكثـير من الأحـداث، لكن بعد أن تقع نلمس فيها من لطف الله – تعالى – ورحمته وخيره، ونرتاح لـذلك ونسـرّ بـه، وإذا تـأملت حيـاة النـاس وجـدت أعـداداً لا تحصى منهم اسـتاؤوا – مثلاً – عند فصلهم من وظائفهم، وعدُّوا ذلك مصيبة كبرى، لكن بعد أن انطلقوا في الأعمـال الحـرة عـدوا وقت فصـلهم بداية رائعة لمرحلة مثمـرة وعظيمة.
يقول الله – جل وعلا – معلماً لنا هذه الحقيقة الناصعة: "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ" (البقرة: من الآية216)، ثم إن الله – تعالى – أعطانا قـدرة هائلة على التكيف مع الأمـور الصـعبة، وحين يقع ما لا نحبه أو نتوقعه، فإننا إذا استطعنا امتصـاص الصـدمة الأولى، سـنجد أنفسنا متوافقين مع الأشياء الجديدة، وسنجد إذا استخدمنا البصـيرة أنها لا تخلو من إيجابيات وحسنات.
4 – الحضـارة الحديثة مكّنت الإنسـان من السـيطرة على الكثـير الكثير من مظاهر الطبيعة، ورسـخت في عقله ومشـاعره أن هنـاك دائمـاً العديد من الخيـارات، كما أن من حقه أن يتطلع إلى ما هو أكثر وأمتع وأرفه وأجود... وهذا كله جعلنا كلما واجهنا مشـكلة طلبنا

لها حلاً مثالياً كاملاً، وإذا لم نجد ذلك الحل، فإننا نشـعر بـالكثير من الأسى والفجيعة!
لا ريب أن التطلع إلى ما هو أحسن وأكـثر، شـيء ليس خاطئـاً من حيث المبدأ؛ لكن يجب علينا أن نـدرك أن ذلك لا يخلو في كثـير من الأحيان من المثالية والمبالغة، ولذا فإن الإصرار على الحصول على الأفضل دائمـاً يجب أن يصـحب بالاعتقـاد أن لله – تعـالى – الكلمة العليا والنهائية في هذا الوجـود، وأنه لن يحـدث إلا ما أراده وقـدَّره، وهذا الـذي أراده قد يوافق رغباتنـا، وقد لا يوافقهـا، ثم إن الوصـول إلى أي حل عاجل أو آجل لمشكلة صغيرة أو كبـيرة، لا يمكن إلا أن يظل خاضـعاً للبيئة والمعطيـات السـائدة، وبما أن شـروط حياتنا الشخصـية وشـروط الحيـاة العامة تظل دائمـاً دون طموحاتنا وتطلعاتنـا، فإننا سـنظل نشـعر أن الوسط الـذي نعيش فيه هو أقل مما نريـد، وأقل مما ينبغي أن يكـون؛ وهـذا يعـني أننا لن نصل أبـداً إلى حلـول كاملة ومثاليـة؛ لأن الحل الكامل يتطلب وسـطاً كـاملاً، ولـذا فـإن علينا دائمـاً أن نتوقع حلـولاً منقوصة ونتـائج محـدودة، والنـاس الـذين لا يعرفـون هـذا المعـنى سيظلون يشـعرون بالخيبة والسخط!
5 – لو تسـاءلنا لمـاذا يعيش أشـخاص في مركز الضـوء وفي لُجَّة الأحداث، على حين يظل آخرون على هـامش الحيـاة أخـذاً وعطـاءً وتأثراً وتأثيراً، لوجـدنا أن لـذلك العديد من الأسـباب، لكن قد يكـون من أهمها أن كثـيرين منا يختـارون تجنب المشـكلات والتحـديات، والابتعـاد عن دائـرة الضـوء قـدر الإمكـان، ولهم في ذلك فلسـفتهم الخاصة، وأعتقد أن هذا المفهوم يحتـاج إلى تغيـير، حيث إن مواجهة الصعوبات والقيام بالمهمات والمسؤوليات، كثيراً ما يكـون السـبيل الوحيد لتنمية الشخصية وبلورة الإمكانات والقـدرات، وفتح مجـالات جديدة للعطاء والنفع العام، تصور معي ماذا كان يحـدث لو أن رجلاً مثل أبي بكر أو عمر – رضي الله عنهما – رفض إمـرة المؤمـنين، ولو أن رجلاً مثل خالد بن الوليد رفض قيادة جيوش المسلمين، ولو أن رجلاً مثل الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة اشتغل بالزراعـة، ولم يدخل المجال العلمي...؟؟
إن المتوقع آنذاك أن يكون كل واحد من هؤلاء العظماء في وضـعية أقل أهمية وأقل ملاءمة للعطاء الكبير الذي قدموه. إن التاريخ يُصنع من وراء التصـدي للمهمـات الجليلـة، ومن وراء التغيـيرات الكبـيرة الــتي نُـدخلها على حياتنا الشخصـية من أجل الاضـطلاع بالأعمـال

العظيمـة. لا ريب أن البعد عن تحمُّل المسـؤوليات والإعـراض عما يسبب الصعوبات، يجلب لنا الكثير من الراحة والهـدوء، ويجعلنا أقل احتياجاً لاستنفار الإمكانـات وتحرير الطاقـات، كما أنه لا يتطلب منا كثيراً من التعديل في برامجنا الخاصة؛ لكن علينا أن نتـذكر أن البعد عن مركز النشاط الحضاري والرضا بالعيش الهادئ الهانئ، كثيراً ما يتسبب في الضمور والترهل، وفقدان البيئة التي تمكِّن الإنسان من النمو والعطاء، وعلينا ألا ننسى أيضـاً أن تـواري الصـالحين والأكفـاء عن محـاور الحركة في الحيـاة، يـتيح للآخـرين التقـدم إليها وملء الفراغ الذي تركه الأخيار بالأمور السيئة والضارة.

6 – لو سألنا الناس الـذين لم يحققـوا إنجـازات جيـدة عن الأسـباب الـتي حـالت دون ذلـك، لوجـدنا أن السـواد الأعظم منهم يُحيل ذلك إلى عوامل وأسـباب خارجية لا يسـتطيع الإنسـان السـيطرة عليهـا، وتلك الأسباب قد تكون مادية أو اجتماعية أو أسرية... وقليلون جـداً أولئك الذين يقولون: إنهم لم يحققوا تقـدماً أو تفوقـاً على أقـرانهم بسبب عدم امتلاكهم الاهتمام أو التنظيم الذاتي أو العـادات الجيـدة أو الآفاق الرحبـة... وهـذا يعـود على ما يبـدو إلى أن إدراك العوامل الحسية أسهل من إدراك العوامل المعنوية؛ ثم إن لدينا ميلاً غريزيـاً إلى جعل أســباب قصــورنا أو إخفاقنا تتعلق بــالآخرين، أو بأشــياء خارجة عن سيطرتنا أو مسؤوليتنا، وهذه الفكرة تحتـاج إلى تعـديل، فنحن مع أننا لا نتجاهل تـــأثير العوامل البيئية والظرفية إلا أنا نعتقد أن المشكلة الأساسية تكْمُن في عقولنا ونفوسـنا وسـلوكاتنا، وحين يحدث تحسن جيد على هذه الأصـعدة، فـإن تـأثير العوامل الخارجية يتضاءل، بل إن الظروف المعاكسة تتحول من معوقات للتقـدم إلى محفـزات ومحرضـات عليـه، وكثـيرون أولئك الـذين صـنعت منهم الأوضاع الصعبة رجالاً عصاميين من الطراز الرفيع.

7 – نحن – على نحو ما – جـزء من الماضـي، وكثـير مما نحمله من أفكـــار ومشـــاعر وعـــادات موروثة من أزمنة الطفولة والمراهقة والشباب، ونحن نتمسك بـذلك المـوروث؛ لأننا نـرى فيه اسـتمرارية وجودنا ورسـوخ ذواتنـا، وهـذا يجعلنا نعتقد أن الماضي بكل أحداثه ومؤثراته ومعطياته هو الذي يصـوغ سـلوكنا في الحاضـر، وربما في المســتقبل، والحقيقة أن معظم النـاس يخضـعون لتـأثير أحـداث الماضي وما أبقته في النفوس من مشاعر وصور وانطباعات، وربما تعاملوا معها على أنها نوع من الخبرة العزيزة التي يجب الاسـتفادة منها والسير على هديها.

ويمكن القـول: إنه كلما امتـدت المسـاحات الـتي أفلتت من قبضة الـوعي، فصـار التعامل معها عن طريق (اللاشـعور)، وجـدنا أنفسـنا في أَسْـر المشـاعر والأفكـار القديمـة، المشـكلة تتمثل في أن تلك المشاعر والانطباعات كثيراً ما تكون غير صـحيحة، أو غـير ناضـجة، أو تكون قد تكـونت في ظـروف مغـايرة كثـيراً لما نحن فيه اليـوم، وتؤدي الأمثال والمقولات الشعبية المأثورة عن السابقين دوراً سيئاً في هـذا المقـام؛ لأن كثـيراً منها كـان عبـارة عن إطلاقـات بَدَهية لا تستند إلى خبرة عريقة، ولم تتعرض لأي دراسة أو تمحيص جيد.
إن انطبـاعي عن زيد من النـاس بأنه مهمل أو حقـود أو كـذاب أو سـريع الغضـب، قد يكـون تولد من موقف واحد معه أو نتيجة إخبـار بعض النـاس لي، ويكـون ذلك الموقف اسـتثنائياً، لا يمثل وضـعيته العامة، أو يكون الذي أخبرني غـير صـادق أو غـير دقيق فيما يقـول، وقد يكـون الرجل أقلع عما كـان عليـه، وحسن حالـه، وحينئذ فـإن انطباعاتي وأحاسيسي عنه قد تكون متخلفة وظالمة!
بعض الأفكار الموروثة نشأ بسبب وجـود الأميـة، أو بسـبب أسـلوب متصلب في التربية، أو بسـبب عـرف اجتمـاعي غـير صـحيح؛ وعلى سبيل المثال فإن قول العامة: "أكبر منك بشهر أعـرف منك بـدهر" نشأ نتيجة انتشار الأمية، حيث يكون لكبر السن أثر كبير في حصيلة الإنسان العلمية، أما اليوم فـإن العلم الغزير ليس مرتبطـاً بالأعمـار على نحو مطرد... إلخ.
نحن في حاجة ماسة إلى غربلة ما ورثنـاه من مفـاهيم ومقـولات ومشـاعر وانطباعـات عن طريق النقد الـدقيق والتأمل العميق والتحـاكم إلى الخـبرات الجديـدة، وأعتقد أننا إذا فعلنا ذلك فإننا سنكتشف زيف الكثـير من ذلـك، كما أننا سنكتشف أن خضـوعنا له قد غمرنا بالكثير من الأوهام!
إن جوهر التقدم العقلي يرتكز إلى حدٍّ بعيد على مـدى قـدرتنا على امتحان الأفكار والمفاهيم والمشاعر الموروثة، والتأكد من الوضـعية المناسبة لها في منظوماتنا الثقافية والقيمية الجديدة.

===============

وصايا لحل المشكلات

الحمد لله وحـده والصـلاة والسـلام على من لا نـبي بعـده أما بعد :
فهـذه الكلمـات أنقلها إليكم من كتـاب الرحلة إلى الـذات (فصـول في التفكـير الموضـوعي) أ . د . عبد الكـريم بكـار ، وله درس أسبوعي كل ثلاثاء في قناة المجد ما بين صلاتي المغرب والعشاء .

يقول أ.د. عبد الكريم بكار (ص 37 -40) بتصرف واختصار :
وفي إطار ممارسة التفكير لحل مشكلة ما يمكن أن نـذكر الوصـايا والإجراءات التالية :
1- إذا كان الإعداد لحل مشكلة أو اختيار موضوع للبحث يحتـاج إلى الكثـير من الصـبر والتـؤدة حـتى لا تكـون البداية غـير مناسـبة فـإن الحماسة والاندفاع في مواصلة العمل أمر ضروري لإنجاز شيء ذي قيمة ، إذ إن العقبات التي تعترض الطريق كثيرة وشاقة ، وقد يتخذ الباحث قراراً بالعـدول عن التفكـير في تلك المشـكلة ، أو البحث ، ولا بد حينئذ من اتخاذ قـرارا شـجاع ، إذ إن ما أنفقه من جهد ووقت في جمع المعلومـات والإعـداد للحل قد يمنعه من ذلك . وقد يكـون من المناسب في بعض الأحيان أن نوقف التفكير في المشـكلة إلى أن نتمكن من استكمال أدوات البحث .
2- يعود أكثر التشتت العقلي والتبـاطؤ في العمل إلى عـدم القناعة بجـدوى المشـكلة الـتي نحلها ، أو اعتقادنا أن هنـاك مشـكلة أولى بالعناية منها ، ومن ثم فـإن امتلاك القناعة أمر جـوهري لاسـتمرار العمل .
3- كثـير من المشـكلات الـتي نمر بها على صـعيد الفـرد ، أو على صعيد الأمة مرّ بها غيرنا ممن هم أكثر تقدماً منا ، ومع الاعتقاد بـأن لكل مشكلة ظروف نشأة وظروف اسـتمرار مما يمنحها خصوصـية الحل ، إلاّ أن معرفتنا بالأسـباب الـتي اتبعت عند الآخـرين في معالجتها سوف تسـاعدنا في حل مشـكلاتنا ، حيث تصـبح المشـكلة أكثر إضاءة ، كما أننا سنسـتوعب إمكانـات عـدة تفيـدنا في تـركيب حل مناسب .
وإن كل العظمـاء من العلمـاء لم يبـدؤوا من الفـراغ ، ولكنهم اسـتطاعوا أن يسـتوعبوا ، ويهظمو كل الحلـول والملاحظـات الـتي أدلى بها من سبقهم من العلماء والباحثين ، ولولا ذلك لما كان هناك تراكم معرفي . وقد سئل (نيوتن) عن إنجازاته الضخمة فقال : قد وقفت على أكتاف العمالقة الذين جاؤوا قبلي .
4- قد يكون حل المشكلة التي نريد حلها متوقفـاً على حل مشـكلة أخرى ، مما يجعل عملنا فيها يشبه عمل من يريد بناء طابق خامس ولم يبن الطابق الأول !.
فإذا أردنا - على سبيل المثال – أن نحل مشكلة كساد سوق الحوار والنقد البنّـاء في أكـثر بلـدان عالمنا الإسـلامي وجب علينا أن نبحث

في حل مشـكلة الحرية الـتي لا يمكن للمـرء بـدون حلها أن يقـول الحقيقة كاملة ، والتي تجعل الناقد في خطر .
5- قد تكون هناك آراء سابقة حول المشكلة ، وهـذه آراء قد تكـون خاطئة فتشكل عاملاً من عوامل الإعاقة أمامنا ، وربما تُسقط بعض الإمكانات المتاحة للحل .
فإذا ما أردنا أن ننطلق أحـراراً فعلينا ألا نخضع لكل ما يقـال ، وإنما نخضعه للدرس والتمحيص .
6- من الحيوي للباحث أن يتحلى بفضيلة المرونة الذهنية ، لأن كثرة التفكير في مسألة ما لا تعـني دائمـاً الوصـول إلى حل مـرض ، لأن لكل جيل من الأجيال سقفاً معرفياً لا يستطيع أن يتجاوزه ، فالناس يفكـرون في الطـيران من قـرون بعيـدة ، ربما من أول ما شـاهدوا الطائر يخترق كل الحواجز ، ولكن تحقيق ذلك لم يتم إلاّ بعد تكامل علوم وتجارب مع مواد بعينها هيأت ولادة الطائرة .
وهكـــذا فقد يكـــون أفضل نصر لقائد معركة هو الانســـحاب بقوته ســـالمة ، كما فعل ســـيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه في موقعة مؤتة .
7- هنـاك خطر ينبغي أن يتجنبه البـاحث ، وهو عــدم اسـتغراق كل الاحتمالات باتجـاه أو طريق ما ، أي : الانتقـال من بضـعة احتمـالات في اتجاه معين إلى احتمالات أخرى في اتجـاه آخر ، إلى احتمـالات جديدة تصل باتجاه ثالث .
إن هــذا الأســلوب ضــار بعملية الإنتــاج الفكــري . ومن الممكن أن يسجل ملاحظة يحتفظ بها أن اتجاهاً ما جـدير أو غـير جـدير بإعـادة النظر فيه مرة أخرى .
8- إذا كانت المشكلة موضع التفكير تتطلب تفكيراً جماعيــاً ، فلا بد حـــتى نصل إلى الحل الأمثل أن تكـــون القناعة بأهمية المشـــكلة متجانسة ، أو متقاربة ، ولا بد أن يكون إلمـامهم بها كـذلك ، كما أنه من المفضل أن يكون هناك تقارب في مستواهم الفكري والثقــافي ، و إلاّ كان التفكير فردياً أكثر كفاءة وجدوى .
إصدار الحكم :
كل ما قلنـــاه من قبل عبـــارة عن مقـــدمات وخطـــوات من أجل الوصول إلى حكم ناضج أو رأي سديد ، ولا يشترط حتى يكون الحل ناجحــاً أن يتوصل إلى حل دائمــاً ، إذ إن ولادة أي حل قد تحتــاج – كما قــدمنا – إلى مقــدمات وظــروف ومراحل لا يملكها البــاحث أو المفكر ، ولذا فإنه قد يكون من قبيل الحلول الناجحة – بمعيــار ما -

الوقوف على جذور المشكلة ، أو إعادة صـياغتها ، أو إسـقاط بعض الفرضـيات القائمة في حلها ، أو طـرح فرضـيات جديـدة لحلها ، أو تقسـيمها إلى أجـزاء رئيسة وأخـرى ثانوية ، وقد يتخذ الحل صـورة إيجاد أدوات جديدة لمبدأ من المبـادئ العليا ، أو قيمة من القيم ، أو إيجاد أدوات جديدة لها لم تكن من قبل .
أن كل هذا عبارة عن ضروب من الحلول ، وكمالها مقترن باستنفاد كل وسائل الحل وإمكاناته .
((هذا ليس للدكتور فقط))

=================

بين مأزق الأزمة وأزمات التفكير

بدر بن يوسف الحمدان

انقشعت غيوم عمليات (منهاتن وواشـنطن) مطلقـةً رصاصة البداية (لمـارثون) المصـالح العـالمي ، وابتـدأت الـدول باسـتنفار جميع الطاقات والإمكانات لتكسب أكبر قدر من الجولات في هذا السباق الطويل ، وكـان الرهـان الأكـبر على الجهـود الاسـتخباراتية المكثفة والاتصـالات الدبلوماسـية الواسـعة ، مما جعل الغمـوض يتضـاعف ، الذي أدى إلى تخبط في اللغة السياسية، واضطراب وكـالات الأنبـاء العالمية!!

بـدأ هـذا السـباق "في ظل سـيادة منـاخ دمـوي شكسـبيري يطيح بالروحـاني لمصـلحة الانتهـازي ، لكي تسـود اصـطفافات قرصـنية جديـــدة تلعب فيها السياسة الأمريكية دور العـــرّاب في تصـــدير المعـايير والأحكـام محـوّلين النظـام العـالمي الجديد إلى بدلة على مقاسـاتهم النفعيـة"(1) مسـترجعين بـذلك خلفيتهم الذهنية لرعـاة البقر (الكاوبوي) في صحاري تكساس .

وشـعـــوبٍ ضعيفة تتلظّى**في جـحيم الآلام عاماً فعاما
والقــوي الظلوم يعصر من**آلامـــها السود لـذةً ومُداما
يتحـــــسّاه ضاحكاً لايراها**خلقت في الوجود إلا طعاما

وهكذا بـدأت الأيـدي تمتد لنيل أكـبر قطعة من كعكة (الحـادي عشر من سـبتمبر) ؛ فبعضـها امتـدت بطـرق مشـروعة وبعضـها بطـرق ميكافيللية حمـــراء ... فلا تسل عن الخيانـــات ، ونقض العهـــود ، وجزاءات سنمّار !! ...، وبـالطبع كـانت هـذه الأجـواء هي المفضـلة لدى اليهود والنفعيين البراجمـاتيين عمومـاً ، الـذين لا يـردعهم خلق ولا دين؛ لذلك كانت مغانمهم كبـيرة، واسـتغلوا الكثـير من المواقف لصالحهم بخبث ...وذكاء أحياناً!

في هذا الجوّ الاستنفاريّ العارم ، وفي هـذا الـوقت بالـذات ، الـذي تحتاج فيه الأمة أن تقف على قدميها ، نجد أمراضـاً تفشت بوضـوح في هـذا الكيـان ، من أجل مزيد من العرقلة والتقهقر ... كصـاحب الصدر المـريض ، قد يتنفس الصـعداء في الأجـواء السـليمة ، ولكن الرياح والأغبرة تكشف عن مرضه وتكرّس تدهوره.

ومن تلك الأمراض التي ظهرت في هذه الأزمة أمراض التفكير ، بل قل إن شئت أزمات التفكير ... أزمات تتكرر من مأزق لآخـر، وكأننا لم نسمع يوماً بحديث الهادي البشير صلى الله عليه وسلم : (لايلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين). (2)

فـالتفكير السـليم هو الخطـوة الأولى للتصـرف السـليم بـإذن الله ، وبعد معرفة مكـامن المـرض تبقّى توصـيفه بدقّة ثم معالجته ؛ ومن تلك المكامن المريضة :

1- وهم الكمال :

إننا لم نــرث عصا موسى ولا ملك ســليمان ، ولا نملك صــناديق سحريّة نخرج منها مانشاء ... وليس لدينا (سوبرمان نيتشوي) يملك جميع الحلـول لجميع المشـاكل ، ولا يصح أن يعتقد إنسـان أنه حـاز كمـال الـدين والـدنيا ، ولا يمكن أن يخطىء وليس بحاجة لتصـويب أحد أو تعليم من الآخرين ...

هكذا البشر ليسوا كاملين مستغنين عن التفكر والاعتبار ، والإنسـان يبقى متعلّما "من المحبرة إلى المقبرة" كما قال الإمام أحمد رحمه الله ؛ وإن من أهم ســلبيات "الفلســفات التقليدية القديمة - من أفلاطون إلى كنْت- اعتبار العقل حائزاً على استعدادات ذهنية لا أثر للتجربة ولا حتى لتطور المعارف عليها"(3) ، ونحن اليوم "كثير من تصــرفاتنا وســلوكاتنا ومواقفنا محكومة بميولنا ورغائبنا وأحيانــاً بأوهامنا ! ... لأننا غــير مهتمين ببــذل الجهد في كشف ســنن الله الكونية"(4) والاستفادة والاعتبار منها.

ألم يحثنا الله تبـارك وتعـالى في كتابه العزيز على التفكّر والاعتبـار ؟!

(وأنزلنا إليك الـذكر لتـبين للنـاس مـانزّل إليهم ولعلهم يتفكّـرون) النحل 44 ، (إن في ذلك لآية لقــوم يتفكّــرون) (النحل 69)، (فاعتبروا يا أولي الأبصار) (الحشر 2)، (قل سـيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (الأنعام 11)

وهنا تتمـايز المواقف : فالتصـرفات والسـلوكات المبنية على سـنن الله تأخذ طريقها للنجــــاح تلقائيــــاً ، أما المبنية على العواطف

والرغبات المجرّدة فتأخذ طريقها للإخفاق ؛ فإلى أي الفريقين نميل ؟!

2- أزمة اختزال :

هذا الكون الواسع الكبـير بتنوّعه وثرائه ، وما دار على مسـرحه من تـاريخ البشـريّة المديد ، يـوحي للإنسـان بعظمة الخـالق سـبحانه وتعالى ومـدى التنـوّع الهائل الـذي قـامت عليه هـذه الحيـاة ... فلو نظرنا لمخلوق مثل الإنسان ، نجده ذلك الكائن المعقّد المركّب من : عقل وشهوات وغرائز وميول وعواطف وقيم ومبادىء ...إلخ.

لـذلك فـالمنطق الصـحيح يقتضي أن يـرى الإنسـان حـوادث البشر ويقيّمها من أكثر من جهة حاسباً حساب هـذا التنـوّع والاختلاف ، أما الرؤية الاختزالية ذات الجهة الواحــدة فهو منطق خـاطىء مصـيره الفشل لأنه مخالف لسنن الله تبارك وتعالى في هذا الكون.

فالأزمة الواحـدة قد تشـتمل على عـدة حـوادث ، وهـذه الحـوادث تختلف نسب الخير والشر فيها ، فبعضها يغلب فيه الخـير ، والبعض الآخر يغلب فيه الشر ، وقد يتسـاويان ، وقد يجهل الإنسـان الكثـير من المعطيات لسبب أو لآخر ...فهل من المنطق السليم أن يقـال: إن الأزمة الفلانية كلّها خير أو كلّها شر ؟!

إن التعميم والإطلاق أدوات غـير مؤهلة لتنـاول الظـواهر الكـبرى بشكل إيجابي فعّال ، وقد جاءت الأزمة الراهنة لتنادينا بصـوت عـالٍ وتقـول : إن الألـوان ليست أبيض وأسـود فقط ... بل هنـاك ألـوانٌ أخرى كثيرة!

3- الانشغال بالقشور :

"في عـام 1946م أجـرى (سـلومون أش) تجربة سـأل فيها بعض الناس رأيـاً في شخص وصـفه بأنه : ذكي ، مجتهد ، منـدفع ، ميـال للنقد ، عنيد ، حسود. وسأل أناسـاً آخـرين السـؤال نفسه لكنّه بـدأ بالصفات السلبية : حسـود ، عنيد ، ميـال للنقد ... .، وكـانت النتيجة أن الفريق الأول كـوّن آراءاً أكـثر إيجابية عن الشـخص من الفريق الثـاني" (5) ذلك أن الصـفات الأولى كـانت إيجابية فـأثّر الانطبـاع الأولي (القشرة) على الحكم النهائي (اللبّ).

ولعبة المصـطلحات من أهم أسـاليب التـأثير على الصـورة الذهنية للإنسـان ، ففـرق بين كلمة "قُتـل" و"استُشـهد" وفـرق بين "رجل دين" و"عالم شـرعي" وفـرق بين "الإرهـاب" و"الأمن القـومي" ... وغيرها الكثـير من ألاعيب المصـطلحات الـتي تصـرف الإنسـان عن تصوّر (لبّ) المسألة تصوّراً سليماً.

ومن أساليب توجيه العقول للقشور ، أسلوب تأثير الهالة ؛ فقد ننظر لموضوع معيّن من خلال زاوية واحدة من زواياه ضُخّمت عن حجمها الفعلي وأعطيت هالة كبيرة وبرزت بفعل فاعل ، فصرفتنا عن النظر للموضوع بزواياه مكتملة ... أو لأن تلك الزاوية المبرزة أشبعت عواطفنا ، أم لأنها لامست أنساقاً معينة لدينا ...إلخ.

هذه الألاعيب (الانطباع الأولي، لعبة المصطلحات، تأثير الهالة) وغيرها تمارس علينا بشكل يومي خصوصاً من قبل وسائل الإعلام ، وتستخدم كثيراً في لغة الاتصال السياسي ، فعلينا الانتباه لهذه الحيل ، لأنها كثيراً ماتنجح وتبعدنا عن (لب) القضايا وتصرفنا نحو (القشور).

إن هذه التوصيفات البسيطة ماهي إلا غيض من فيض ونحن بحاجة دائمة للمراجعة المستمرة ، والنظر في التاريخ والاستفادة منه ، والنظر في سنن الله تعالى في هذا الكون والاعتبار بها ، من أجل وعي إيجابي أكثر ، لرفعة هذه الأمة المباركة وتمكينها.

ولاتأس من حادثات الدهور **فخلف الدياجير فجر جديد

ولولاغيوم الشتاء الغضاب **لما نضّد الروض تلك الورود

ولولا ظلام الحياة العبوس**لما نسج الصبح تلك البرود

----

(1)الحياة ، الملحق السنوي ص 18

(2)رواه مسلم ، المختصر برقم 44

(3)سالم يفوت ، العقلانية المعاصرة ص 65

(4)عبد الكريم بكار ، تجديد الوعي ص 40

(5) عبد الكريم بكار ، العيش في الزمن الصعب ج2 ص 68

=================

العمل المؤسسي... معناه، ومقومات نجاحه

عبد الحكيم بلال

لعل من أخطر ما تعانيه الأمة الإسلامية: غياب الروح الجماعية.

ولقد انعكس هذا الواقع على الفكر - كما للأخير انعكاس عليه - فصار من عللنا الفكرية: ممارسة التفكير بطريقة فردية، ومنها أيضاً: نمو التفكير في شؤون الفرد على حساب التفكير بشؤون المجتمع. وعليه: فإن الفقه المتعلق بشؤون الفرد وحركته وحقوقه وواجباته ظل أكثر نمواً من الفقه الذي يهم الجماعة، ففُصِّلت الفروض العينية، وبقيت الفروض الكفائية - والتي تصير عينية بالتقصير فيها - بقيت عند بعضهم عائمة، كمسألة: كفاية الأمة في

كل جوانبهـا، وكـمـســـألة: أهل الحل والعقــد، وبيــان تشــكيلهم، ودورهم.. وبقيت الدراســات الــتي تتنــاول أبنية المجتـمـعــــات الإســلامـيــة التاريخية ومشكلاتها وأطوارها محدودة؛ ونتيجة لـذلك فقد رأينا سجل التاريخ حافلاً بالـمـآثـر الفردية ضـامراً في الأعمـال الجماعية.
والســبب أن الــوعي المــدني لم يتم تنظيمه بشــكل كــافٍ، فهو بحــاجــــة إلـى الـمــؤسـسـات المختلفة(1).
ولقد تأصلت فكرة الفردية اليـوم، ثم تـأزم الموقف حين ورث كثـير من الـدعاة إلى اللـه- تعـالى - ذلـك المـرض من أمـراض التخلف الحضاري، فلا تزال ترى اليوم كثيراً من التـجـمـعـــات الإسـلامـيـة محكومة بعقلية الفرد، تعيش مركزية القرار، رغم ازدياد التحـديات، وتوالي المحن، وتفاعل الأزمات.
ولئن كـان بعض الـدعاة في العقــود الماضـية يسـعون إلى مجــرد الانتشار الأفقي للدعوة، فإنه لا يقبل من أحد اليوم التفـكــير بعقلية تلك المرحلة؛ فلقد صارت الصحوة اليوم معادلة صعبة في الموازين العالـمـيـــة، والخطر الأوحد أمـــام الأنظمة الغربيـــة، بل نســتطيع القـول: إن كـثرة الأتبـاع غـير الـواعين أصـبح يمثل هاجسـاً للـدعاة والمصلحين أنفسهم.
وعليه فلا بد من مراجعة أســالـيـب الـعـمـل الدعوي اليوم. كما أنه من الضـــروري العناية بتنمية الفكر الجمـــاعي، وأســـلوب العمل المؤسسي المحكم الـذي صـار أسـلوب القـوة والتحـدي في هـذا الزمـان، ويكفي برهانـاً من الواقع أن الـــدول الكـبرى في الـوقت الحـــالي دول مؤسســية ليست مرتبطة ارتباطـــاً كليـــاً بـــالأفراد؛ فالولايات الـمـتـحــــدة الأمريكية مثلاً هي بجملتها مؤسسة ضـخمة تضم في ثناياها عدداً هائلاً من المؤسسـات مختــلفة التخصصـات، ولا تتغير استراتيجياتها الرئيسة بتغير أفــراد حكوماتها إلا من منطلق جماعي.
وفي هـذه المقالـة: محاولة لتأصـيل الفكر الجمـاعي، وبيـان معـنى الـعـمـــل المؤسسي، وتحديد المراد به، ثم عرض شيء من مزايـاه وفوائده، وبعض أسباب تقصير الدعاة في الأخذ به، ثم ذكر مقومات نجاحه. وما هذا الطرح إلا إثـارة للموضـوع؛ ليأخذ طريقه إلى حــوار جاد(2).
نحو وعي أعمق للروح الجماعية:

إن تغيير واقع الأمة يتطلب في المستوى الأول تغيير النفـوس، ومن عناصر ذلك التغيير: تعميق الفهـم، وتجديد الفكر، وتصحيح المفاهيم التي من أهمها: مفهوم الفرد، والجماعة، وهو - بحمد الله - مفهــوم في غاية الوضوح.

إن الفرد هـو العـنـصر الأسـاس في بنـاء الأمـة، ولكن شـرط قيامه بدوره الأكمل هو تعاونه مع بقية أفراد الأمة.

والأمـة التي يتعاون أفرادها هي أمة الريادة؛ لأن تعاونهم يضيف كل فــرد إلى الآخر إضــافة كيفـــية لا كميـــة، ومن ثم تتوحد الأفكــار والممارسات من أجل تحقيق رسالة الأمة، وقد كـان النـبي - صـلى الله عليه وسلم - يربـي صـحابته على الروح الجماعيـة، روح الأمـة، كما ضـرب مثلاً - للمجتمع - بقـوم أقلَّتهم سفيــنة، إن أراد أحـدهم خرقها وجب على الجميع الأخذ على يــده، وإلا غرقــوا جميعــاً(3)؛ فالمسؤولية في بلـوغ الريـادة تقع على الأمة جميعـاً في مقابل أمة الكفر.

والـعــــودة بالنـاس إلى روح الأمة يسـتدعي إجـراءات، أولهـا: فك الارتباط القـائم بين العمل الإسلامـي والأُطُــر الحزبـيـــة الضـيقة(4)؛ ليتقبل العمل الإسـلامي الاسـتراتيجية الصـائبة الموصـلة إلى الهدف، سواء انبعثت من داخله أو خارجه.

وهذا يجرنا إلى الإجـراء الثـاني الـمـتمــثل في تنمية الصـفات الـتي تحقق التفاعل بين الأفراد وتعميقها، كالأخوة، والشــورى، والتواصي بالحـق وبالصبر، والعطاء المتبادل، والقدرة على التجميع، مع موالاة الأمة، لا الحزب.

ولا بـد فـي ذلـك مـــن تحقيق التوازن بين الـروح الفرديـــة والـروح الجماعية، وهذه مهمة التربية المتوازنة التي لا تحيل الأفراد أصفاراً، وأيضـــاً لا تنمي فيهم الفردية الجامحـــة، بل تـــوفر لهم المنـــاخ المناســــب لتنمية شخصـياتهم، مع اختيــار أسـاليب العمل الــتي تحول دون التسلط، وتنمي المبادرات الذاتية، وترسخ الشورى.

ويكفل كلَّ ذلك إجراءٌ ثالـثٌ يـحــــوِّل العمل من أسـلوب المركزية في اتخـاذ القـرار وتطبيقه ومراقبة تنفيـذه إلى أسـلوب المشـاركة الـتي تُحسِّـن الأداء وتنمي الشخصـية، فيلتقي نموها مع روح الفـرد التي أثمرها التعاون فيزداد التفاعل وتتكامل الجهود.

إن الجماعة والتنظيم في الإسـلام يعـني كـلٌ منهمـا: "التعـاون" و "العلميـــة" أي تعــاون الجهــود في خطة يضــعها العلم؛ فجــوهر الجماعـــــة وحقيقة التنظيم إنما هو التعــــاون بين المســـلمين،

والتكامل بين نشـاطاتهم في طريق التمكين لشـريعة اللـه، وإقامة دولة الإسلام، وإحياء الأمة الإسلامية"(5).

تعريف العمل المؤسسي:

كل تجمع منظم يهدف إلى تـحـسـيـن الأداء وفـعـالية العمل، لبلـوغ أهداف محددة، ويقوم بـتوزيع العمل على لجـان كـبرى وفـرق عمل وإدارات مـتخـصـصـة: علمـيــة، ودعــويــــة، واجتــماعية؛ بحيث تكون لها المرجعية وحرية اتخاذ القرار في دائرة اختصاصها... يعتبر عملاً مؤسسياً.

وليس المـراد بالعمل المؤسسي العمل الجمـاعي المقابل للعمل الفردي؛ إذ مجرد التجمع على العمـل، وممارسـته من خلال مجلس إدارة، أو جمعية أو مؤسسة لا يجعله مؤسســـــياً، فكثـــــير من الـمـؤســســات والمنظمات والجمعيات الـتي لها لـوائح ومجـالس وجمعيـــات عمومية إنما تمـــارس العمل الفــــردي؛ لأنها مرهونة بشخص منهـا؛ فهو صـاحب القـرار(6)، وهـذا ينقض مبـدأ الشـورى الذي هو أهم مبدأ في العمل المؤسسي.

مزاياه وفوائده (7):

1 - تحقيق مبــدأ التعــاون والجماعية الــذي هو من أســمى مقاصد الشريعة.

2 - تـضـيـيـق الفـجــوة بين عمل الدعاة، وردم الهـوة بينهم بتحقيق ذلك المبـدأ، وتأسـيس الأعمـال المشـتركة بـيــنهم؛ فـإن ذلك يقلل التصــادم والــنزاع، وهي الطريقة المتبعة بين الــدول في تأســيس اللجــان والمجـالـس الـمــشتركة، وهو ما لم يشــعر بعض الــدعاة بأهميته وضرورته بعد(8).

3 - تحـقـيـق الـــتكامل في العمـــل، وذلك في عمل الفـــرد عزيـــز، فكثيراً مما يحصل من القصور في عمل الفرد يـتـلاشــى في عمـل المؤسسة؛ إذ المفترض حدوث التكامل باجتماع الجهود، والمواهب، والخبرات، والتجارب، والعلوم، مع التزام الشورى، والتجرد للحق.
وأيضاً: فإن العمل الفردي يصـطـبـغ بصـبغة الفـرد، بينما المفـترض أن يخلو العمل المؤسسي من ذلك(9).

4 - الاســتـقـرار النسبي للعمل، بينما يخضع العمل الفـردي للتغـير كثيراً - قوة وضعفاً أو مضـموناً واتجاهـاً - بتغـير الأفـراد، أو اختلاف قناعاتهم.

5 - القـرب مـــــــن الموضـوعية في الآراء أكـثر من الذاتيـة؛ حيث يسود الحوار الـذي يَفْـرض قيامُه وضـعَ معـايير محـددة وموضـوعية

للقـرارات تنمو مع نمو الحـوار، في حين ينبـني العمل الفـردي على قناعة صاحبه.
6 - دفع العمل نـحـو الـوسـطـيـة والـتـوازن؛ إذ اجـتـمـــاع الأفراد المختلفين في الأفكار والاتجاهات والقـدرات يـدفع عجلة العمل نحو الوسط، أما الـفــرد فلو توسط في أمر فلربما تطرف - إفراطــاً أو تفريطاً - في آخر.
7 - توظـيـف كـافة الجهود البشرية، والاستفادة من شـتى القـدرات الإنتاجية؛ وذلك لأن العمل المؤسسي يوفــر لها جو الابتكـار والعمل والإســهام في صـــنع القـــرار، بينما هي في العمل الفـــردي أدوات تنفيذيــة رهن إشارة القائم بالعمل، ويوم أن أعرض المسلمون عن هـذا العمل خسـروا كثـيراً من الطاقـات العلمية والعمليـة، فـانفرد أصحابها بالعمل، أو فتروا عنه(10).
8- ضمان استمرارية الـعـمــــل - بإذن الله - تعـالى - لعـدم توقفه على فرد يعتريه الضـعف والنقص والفتـور، ويوحشه طـول الطريق وشدة العنت وكثرة الأذى.
وللمثال: فقد كان من أقـوى أســـبـــاب اسـتمرار التعليم قويـاً في الدولة الإسلامية - حتى في عصور الضـعف السياسي -: قيامه على المؤسسـات العلمية القوية الـتي تمـدها الأوقـاف، كما تمد ســائر الجهـود الدعوية والإغاثــيــة - الـتي لـم يُـتــجرأ عليها إلا في العصر الحديث - واليوم نـرى اسـتمرار المؤسسـات الغربية قوية تسـاندها جمعيات كثيرة(11).
9- عمـوم نفعه للمسلمين؛ لعـدم ارتباطه بشخصـية مؤســــســـه، وهــذا بدوره ينمي الروح الجماعية الفاعلة، ويحيي الانتماء الحقيقي للأمة، وهذا مكمن قوتها.
10- مواجهة تحـديات الواقع بما يناسـبها؛ فـإن الأمة اليـوم يواجهها تحــدٍّ من داخلهــا، في كـيـفـيـــة تطـبـيـق مـنهـج أهل الســنة مع الاستفادة من منجزات العصر، دون التنـازل عن المبـادئ(12)، كما يواجـهـهـــا تحــدٍّ من خارجها مؤسسي منظم؛ والقيــام لهــذا وذاك فـرض كفاية لا ينهض به مجـرد أفـــراد لا ينظمهم عمل مؤسسـي، كما لا ينهــض أفــراد الناس لتحدي العمل المؤسسي في مجــالات الحيـــاة الاقتصاديـــة، أو السياسيـــة، أو الإعلامية، أو غيرها.
11- الاسـتـفـــــادة من الجهـود السـابقة والخـبرات التراكميـة، بعد دراستها وتقويمها بدقة وإنصاف وحياديـــــــة، وبــذلك يتجنب العمل تكرار البدايات من الصفر الذي يعني تبديد الجهود والعبث بالثروات.

لماذا الإحجام عن العمل المؤسسي؟
ولسائل أن يقول: عَمَلٌ بهـذه المزايا ما الـذي حـدا بالأمة اليـوم أن تحجم عنه؟
ويجاب: بأن للأمر خلفيات وأسباباً، منها:
1 - طــبيعة المجتمعـات الإسـلامية المعاصـرة عامـة، وعـدم ترسخ العمل المؤسسي في حياتها؛ لما اعتراهـــا من بُعد عن الــدين أدى إلى تأصل الفرديــة، وضـعف الـروح الجماعيـة، والحـوار والمناقشة والمـشــــاركة، ولما حــلّ بها من تخلف حضــاري أقعــدها عن الأخذ بأسباب الفاعلية والنجاح، فأصابها التأخر وتبدد الطاقات.
2 - ضـــعف الملكة الإدارية لـــدى كثـــير من العـــاملين في الحقل الإسلامي، بسبب إهمال العلوم الإنسانية التي أفـــــاد منها الغـرب، وهذا مما ورثه العاملون عن مجتمعاتهم. وقد أدى هـذا الضـعف إلى الجهل بالـعـمـل المؤسسي ومقوماته وأســـــــباب نجاحه فتلاشت الخطـط، وأغلقت دراسة الأهـداف وإقامة المشــاريع، وصـار العمل مجرد ردود أفعال غير مدروسة أو عواطف غير موجهة(13).
3 - حــاجـــة الـــدعوة إلى الانتشــــار، مع قلة الطاقـــات الدعوية المؤهلـــة؛ مما حـــدا بكثـــير من الـــدعاة إلى التركـيـز على الكم لا الكيف، والغفلة عن قدرة العمل المؤسسي على الموازنة بين الكم والكيف، وتحقيق أكبر قدر منهما.
4 - الخلط بين الـعـمـــل الجماعي والمؤسسي، والظن بـأن مجـرد قيـــام الجماعة يعـــني عملاً مؤسســـياً، في حين أن كـــثيراً من التجمعات والمؤسسات لا يصدق عليها حقيقة هذا الوصـف؛ لانعـدام الشورى، والمركزية في اتخاذ القرار.
5 - الشـــبهات العارضة الـتـي يـتـــذرع بـهــا المـــانعون من العمل الجمــاعي، بحجة بدعيتـــه؛ فــأحجموا بـــذلك عن العمل المؤسسي انطلاقاً من هذه الشبهة.
6 - حداثة العمل الإسـلامي المعاصــر، فإنه إذا مـــا قـــورن عمــره بعمر المؤسســات الغربية بـان قصـيراً جـداً. يقـال هـذا لئلا تُهضم الحقـوق، ولكي نقـتــرب بـالـحـديـث مـن الإنصـاف لهـذه الصـحوة المباركة؛ حيث نرى بوادر الاهتمـام بالمجـالات الإدارية أكـثر من ذي قبل.
لكي ينجح العمل المؤسسي:

للتربية الإيمانية المتكاملة أكبر الأثـر فـي بـنـــاء الطاقات، وتنميتها، واستثمارها استثماراً مناسباً، وهذا عمـاد العمل المؤسسـي، ويمكن تفـصـيـل المقومات اللازمة لنجاحه على النحو الآتي:
1 - تـوفـــــــر القناعة الكافية بهـذا الأسـلوب من العمــل؛ بـإدراك ضـرورته، وخاصة في زمن القـوة، وبمعرفة مزايـاه وثمراتـه، وفهم مقومات نجاحه للوصول به إلى المستوى المطلوب.
2 - صـدور القـــــرارات عـــن مـجـالـس الإدارة، أو اللـجـــــان ذات الصــلاحية، حرصــاً على خروجها من أدنى مســتوى ممكن، لتكــون أقرب إلى الواقـعـية وقابلية التنفيذ، ولا يجوز أن يكـون المصـدر هو الفـــرد أو المـــدير؛ فإنه يســتمد صـــلاحياته - هـــــو أيضـــاً - من المجـالس، لا العكس، ويجب أن تملك المجـالس واللجـان صـلاحية مراجعة قــرارات المديرين ونقضها.
3 - أن تكــون مجــالس الإدارة أو اللجــان غــير محصــورة في بيئة واحدة محكومة بـأطر تنشـئة وتربية وتفكـير محـددة مما يـؤثر على طبيعة اتخـاذ القـرار، فوجـود أفـراد من بيئـات مختلفة ضـمن هـذه المجــالس يـثري العمل المؤسسي بتوسـيع أنمـاط التفكـير وتعديد طرق التنفيذ(14).
4 - أن تسود لغة الحوار، حتى تتلاقح الآراء للخـروج بأفضل قـــرار، وأيضاً حتى يخضع الرأي الشخصي لرأي المجموعة.
ويذكر هنا بالمناسبة: نزول النبي - صلى الله عليه وسلم - على رأي أصحابه في أحد، وخروجه من المدينة تلبية لرغبتهم، مع ميله للبقـاء في المدينة، وتأييد رؤياه لرأيـه(15)، وبـعـدمـــا حصل ما حصل لم يصدر منه لَوْم لأولئك المقترحين للخروج.
5 - تحديد ثوابت ومنطلقات مشتركة للعاملين في المؤسسة تكـون إطاراً مرجعياً لهم، توجه خطة العمل، وتناسب المرحلة والظـروف التي تعيشها المؤسسة.
6 - الـتــسامي عن الخلافـات الشخصـية، وتقـديم المصـلحة العامة على المصـلحة الشخصـية، وهـذا يتم بتحـسـيـن الاتصـال والتواصل بين أفراد المؤسسة بعضـهم مع بعض، وبينهم وبين سـائر العـاملين في الحقل الإسلامي.
وهذا أسـاس قـوي للـنـجـــاح؛ فـفـي اسـتفتاء لعـدد من القيـاديين الناجحين اتضح أن الصفة المشتركة بينهم هي القـدرة على التعامل مع الآخرين(16)، ولن يتم ذلك لأحد ما لم تتربَّ أنفسنا على العدل

والإنصـــاف، ومـعـرفـة ما لـــدى الآخـــرين من حـــق، ومحاولة فهم نفسياتهم من خلال نظرتهم هم لأنفسهم، لا من خلال نظرتنا نحن.
7 - الاعتـدال في النظـرة للأشـخاص؛ فـإنــه فـي حـيـن يصل الأمر لدى المنحـرفين عن أهل السـنة والجماعة في نظـرتهم للأشـخاص إلى حد الغلو والـتقـديس، فإنَّا نجـده عند بعض أهل السـنة - الـذين سلموا من الغلو - بالغاً إضفاء هالة على بـعـض الأشـخـــاص تـؤثـر في مــدى اســتعدادهم لمناقشة رأيهم، أو احتمــال رفضه مع بقــاء الاحـــترام الشخصـــي، وهـــؤلاء يشـكــــلون ضـــغطاً على العمل المؤسسي وتوجيهاً غير مباشر للآراء(17).
وكأن هذا ما أراده عمر - رضي الله عنه - حين عـزل خالد بن الوليد - رضي الله عنه - خشـية تعلق النـاس بـه، وربطهم النصر بقيادتـه(18).
8 - إتـقـــان التخطيـط، وتحديد الأهـداف لتنفيـذها، وتوزيع الأدوار، وهـذا يتطلب مسـتوى جيـداً في إعـــداد الـقـــادة والمسـؤولين، وتـدريب العـاملين مع الاسـتفادة من كل الإمكانـات، وتوظيف جميع الطاقات، بعد التعرف عليها جيداً(19).
والمهم هو التركـيز في جــــداول الأعـمـــال على الـمـــنطلقات والأسس والخطوط العامـة، دون الانهمـاك في المسـائل الإجرائيـة، والـتي قـد لا تحـتـاج إلا لمجـرد قـــرار إداري أو إجـــراء تقليـدي، ودون المسائل التي يكثر الجدل والخلاف حولها.
ولضبط الخطط، وإتقان تنفيذها، وبلوغ الأهداف، يراعى الآتي:
أ - الأنـــاة في التخطيـــط، والحماسة في التنفيــذ(20)؛ فــالأول: لمراعاة القدرات والإمكانـات، ومعرفة الـتـحـديـــات وحسن تقـدير العـواقب، وتحاشي مخـاطر السـرعة، والثـاني: لاسـتباق الخـيرات، وكسب الزمان، واغتنام الهمة، ومبادرة العزيمة.
ب - أهمية قيام المــؤسسات بـأداء أعمالها بأسـاليب علمية حكيمة تكفل اسـتمرارها وأداءها لعملها على الوجه المـطلـــــوب، وحـتى لا تتعـرض لكيد الكائـدين وأسـاليب المغرضـين، ولا ينبغي أن يكـون أهل النفـاق أكـثـر حـنـكـة منـا؛ فكم نـالوا أهـدافهم من جمعيـاتهم وأعمالهم حـتى بلغـوا منـاهم(21). اللهم ألهمنا رشـدنا، وأعـذنا من شر أنفسنا(22).

الهوامش:

(1) انظر: مقدمات للنهـوض بالعمل الـدعوي، د. عبد الكـريم بكـار، ص39.
(2) بعد إعداد هذه المقالة اطلعت على رسالة قيمة ـ لما تطبع بعد ـ بعنوان: العمل المؤسسي الإسلامي ودوره في التغيـير الشـمولي، د. سامي الدلال ـ جزاه الله خيرا ـ.
(3) انظر الحديث في البخاري، كتاب الشركة، باب (6)، 3/11.
(4) التي تحبس صاحبها في بوتقة ضيقة، فيحصر ولاءه في الحزب، ولايعـرف الـدعوة إلا بمفاهيمـه، بغض النظر عن مـدى التوافق مع الشريعة.
(5) انظـر: مقـالا بعنـوان: روح الفريق والمبـادرات الذاتيـة، لمحمد بدري، في مجلة البيان، العدد83، ص42.
(6) انظر: مقالا لعبد الله المسـلم، مجلة البيـان، العـدد: 118، ص 18.
(7) انظر: مقال: لعبد الله المسلم، في مجلة البيـان، العـدد: 117، ص38.
(8) انظر: مقدمات للنهـوض بالعمل الـدعوي، د. عبد الكـريم بكـار، ص 238.
(9) انظر: العمل الجماعي، د. عبد الوهاب الديلمي، ص 35.
(10) انظر: خواطر في الدعوة، محمد العبدة، ص165.
(11) انظر: خواطر في الدعوة، ص147.
(12) انظر: خواطر في الدعوة، ص37.
(13) انظر: البيان، العدد: 110، ص4.
(14) الفكـرة مقتبسة من: المسـار، لمحمد الراشـد، ص62ــ66، فليراجع.
(15) كما في مسند أحمد: 3/351، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي، ص269.
(16) انظر: دليل التدريب القيادي، ص142.
(17) انظر: مقالأ لعبد الله المسلم، في مجلة البيـان، العـدد: 118، ص18.
(18) راجع البداية والنهايــة، 8/115، وقد يوجه الأمر توجيها آخــر، انظره في الفتاوي لابن تيمية: 28/256.
(19) انظـر: مشـكلات وحلـول، للبلالي، ص183، ودليل التـدريب القيادي، ص137 وما بعدها، والمسار للراشد، ص166ـ167.
(20) انظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. بكار، ص162.

(21) انظر مقالا لعبد القادر حامد، البيان، العدد: 31، ص96.
(22) الموضـوع بحاجة ماسة إلى إثـراء، ويمكن الاسـتفادة فيه من كتب الإدارة، مثـل: الخطـوات الذكيـة، الإدارة، مثـل: الخطـوات الذكيـــة، الإدارة بضـــمير، (مترجمـــة)، وتنظيم العمل الإداري في النظام الإسلامي، د. محمد الأغبش.

مجلة البيان، العدد (143)، رجب1420، نوفمير 1999.

================

التربية من خلال الحوار

من الواضح أن العولمة تقـوم بعملية تهميش واسـعة النطـاق لكثـير من السلطات التقليدية الموروثة، إنها تهمش سلطة الدولة وسلطة المدرسة وسـلطة الأسـرة والمجتمع والقبيلـة، وتوسع في الـوقت نفسه من مدى الحرية الشخصية على حساب الرقابة الاجتماعية.

وليس من المهم السـؤال: لمـاذا يحـدث هـذا، وكيف يحـدث، إنما المهم أن نبحث عن الصـــيغة الملائمة لمواجهة هـــذه الوضـــعية الجديدة.

لا يخفى إلى جـانب هـذا أننا ورثنا من عصـور الانحطـاط عـادات وتقاليد تربوية لا تتفق مع الرؤية الإسلامية في بناء الفـرد والنهـوض به، فقد كان يسود في الأسرة في كثير من البيئات الإسلامية نظـام شـبه عسـكري، حيث يُسـكت الرجل المـرأة، والأخ الأكـبر الإخـوة الصغار، ويُسكت الصبيان البنات... أضف إلى هذا اللجوء العـام إلى الصمت ما لم تحدث مشكلة، فينتبه الأبـوان إلى ضـرورة الكلام من أجل العلاج! أما في الكتـاتيب والمـدارس، فقد سـاد التلقين وقل البحث والتنظير، كما ساد الكبت والضـرب، وكـان من المـألوف في العديد من البيئات الإسلامية، أن يقول الأهل لشيخ الكتَّاب إذا دفعوا إليه الصبي:"لك اللحم ولنا العظم"، أي لك أن تضـرب حـتى لو أدى ذلك إلى تمـزق اللحم، أما العظم فليس من حقك كسـره. وكـأن الوالد هو الـذي سـيقوم بتلك المهمـة، لتكتمل دائـرة العنف على الطفل المسكين!

وساد كذلك لدى بعض التيارات والتوجهات الإسـلامية المهتمة بتربية النفوس الاستسلام للشيوخ والتماس الأعذار والتأويلات لما يقومون بـه، ولو كـان ينطـوي على مخالفة شـرعية ظـاهرة. ومن العبـارات المشـهورة في هـذا قـولهم:"من قـال لشـيخه: لم لم يفلح أبـداً"! وكانت نتيجة تلك التربية تخريج أجيالٍ يسيطر عليها اليأس والخـوف والاتكالية وانتظـار المسـاعدة عوضـاً عن تقـديمها. أجيـال لا تحسن

التعبير عن أفكارها وحاجاتها وآرائهـا. ولا تشـعر بـذواتها وإمكاناتهـا. وكـانت عاقبة كل ذلك انحـدار مكانة الأمة بين الأمم وطمع الأعـداء فيها وانتشـــار التعـــانف والتقاتل في ديارها عوضـــاً عن الـــتراحم والتعاون والتناصح والتدافع بالتي هي أحسن وأرفق.
لـدينا مصـطلح (الحـوار) ومصـطلح (الجـدال) ولهما دلالة مشـتركة على دوران الكلام بين طـرفين وترجيعه بين شخصـين أو فـريقين. لكن نلمح في العديد من النصـوص والأدبيـات أن الجـدال كثـيراً ما يميل إلى الخصـومة في الكلام، كما ينطـوي على حـرص كل واحد من المتجـادلين على غلبة خصـمه وإفحامه وإلزامه الحجة وبيـان خطئـه. ونتيجة لهـذا فـإن من المـألوف أن يقع خلال الجـدل بعض الظلم والادعـاء والكـذب والتطـاول واسـتخفاف أحد المتجـادلين بـالآخر. وقد قـال الله –جل وعلا-:"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلا هُـدىً وَلا كِتَـابٍ مُنِـيرٍ" [الحج:8]، ومن هنا وجهنا –سبحانه- إلى أن نجادل المجادلة المقيدة بـالأدب الإسـلامي الرفيـع، والمجادلة بـالحق السـاعية إليـه؛ حيث قـال:"وجـادلهم بـالتي هي أحسن" [النحل:125]، وقال:"وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [العنكبوت:46]، أما الحـوار فمع دلالته على تـردد الحـديث بين اثنين إلا أنه لا يحمل صفة الخصومة وإنما يحمل صـفة الحـرص على العلم والفهم والاطلاع. إن الـــدافع الأساسي للمحـــاور الجيد ليس إقنـاع من يحـاوره بوجهة نظـره وجعله يقف إلى جانبـه، وإنما دافعه الأساسي أن يُري محاوره ما لا يـراه، وأن يظفر من محـاوره أيضـاً بـأن يكشف له غمـوض أمـور لا يراها ولا يعرفهـا، إن كلاً من المتحاورين يطلب الوضوح ومعرفة الحق والحقيقة. ولا شك في أن بعض الحوار قد ينقلب عند الانفعال وتوفر اعتبارات معينة إلى جدل عقيم ومقيت. كما أن بعض الجدل قد يتسم بالرفق والحكمة.
إن الحـــوار لا ينبغي أن يكـــون أســـلوباً نســـتخدمه داخل الأسر والمدارس من أجل تربية الصغار وتعليمهم فحسـب، وإنما ينبغي أن يكون أسلوب حياة، يسود في الأسرة والمدرسة والمسجد ووسـائل الإعلام وفي الشـركة والمؤسسة والـدائرة الحكوميـة.. إن الحـوار الحيوي للجميع، وإن غيابه عن حياتنا سوف يؤذي الجميـع؛ وذلك لأن البـديل سـيئ جـداً، وهو كثـيراً ما يكـون القهر والكبت والانعـزال والأنانية، واتباع الهوى وتصلب الذهن ومحدودية الرؤية، وإعجاب كل ذي رأي برأيه!

يمكن القـول إنه لا يكـاد يخلو بيت أو مؤسسة أو مدرسة من شـيء من الحوار، لكن السؤال هو: هل كل حـوار يـؤدي إلى تربية جيـدة؟ وهل أي حوار -مهما كان- يعد كافياً لزرع المفاهيم والقيم والعادات الجيدة في شخصيات الصغار والكبار؟ طبعاً لا.

إن الحوار الـذي يـربي فعلاً هو الحـوار الجيد والعلمي والموضـوعي والقائم على أسس أخلاقية جيدة. حين يتـوفر الحـوار الجيد والمديد والمستمر فإنه يولد، ويقتضي بطريقة غير مباشرة عدداً ممتازاً من الأفكار والمفاهيم والرؤى والمبادئ والعادات والسلوكات الصـحيحة والرائدة.

وإذا تسـاءلنا عن الشـروط الـتي يجب توفرها من أجل حـوار نـاجح ومثمر أمكننا أن نعثر على الآتي:

1- الإيمان العميق بأن لكل إنسان أن يعبر عن ذاته، وأن يـدافع عن قناعاته في إطـار المبـادئ الكـبرى المجمع عليهـا، وإتاحة الفرصة للمرء كي يعـبر عن قناعاته ومزاجـه... شـرط جـوهري لنمو الحيـاة العقلية والروحيـــة، كما أنه مشـــروط لشـــعور الطفل بكرامته وإنسانيته.

2- حتى يصبح الحـوار أسـلوب حيـاة يجب أن نـؤمن بـأن الواحد منا مهما بلغ من التحصيل العلمي، ومهما كانت عقليته ممتـازة فإنه في نهاية الأمر لا يستطيع أن يصدر إلا عن رؤية جانبية محـدودة. وذكـاء الجماعة أكبر من ذكاء الفرد. ومن خلال الحوار نستطيع معرفة رأي الجماعات والمجموعات، والاستفادة من أكبر قدر ممكن من الآراء.

3- من المهم -حتى يصبح الحـوار أسـلوب حيـاة- أن نـوطن أنفسـنا لقبـول النقـد. فقد يوجه التلميذ في المدرسة أثنـاء الحـوار انتقـاداً لأسلوب التدريس، أو ينتقد عدم كفاية اسـتخدام المـدرس لوسـائل الإيضاح. وكذلك يتعرض الأبوان في الأسرة إلى شيء من الاعتراض والمراجعة حول مجمل قراراتهما في إدارة شؤون الأسـرة ومعالجة مشـــكلاتها. وحين نفقد روح التســـامح والمرونة الذهنية المطلوبة لذلك فإننا سننظر إلى الحـوار على أنه بـاب لإسـاءة الأدب من قبل الصغير مع الكبير، وسيكون البديل آنذاك هو التعسف والاستبداد.

حين نحـاور الأطفـال في الـبيوت والمـدارس، وحين نعتمد أسـلوب الحوار في مجالسنا وإداراتنا ومؤسساتنا نحرز عـدداً لا بـأس به من النجاحــات التربوية على الصــعيد الفكــري وعلى الصــعيد العقلي، وأيضاً على الصعيد الاجتماعي.

من خلال الحــوار النـاجح والموضـوعي والمسـتمر نتمكن من تنمية الحس النقدي لدى الأطفال في البيوت والمـدارس. والحقيقة أن ما يتم من مراجعــات ومجــادلات بين المتحــاورين يعد وســيلة مثالية للوصول إلى هذا الغرض.
لا يعــني النقد اكتشــاف الســلبيات فحســب، بل يعــني اكتشــاف السلبيات واكتشـاف مسـاحات الخـير والحق والجمـال في الأقـوال والمواقف والعلاقات والأشياء.
حين يسمع الأطفال وجهات نظر متباينة ومتعـددة في الموضـوعات والقضايا المطروحة للنقاش، فإنه تنمو لديهم القدرة على المقارنة، والمقارنة –كما يقولـــون- هي أم العلـــوم. ومن خلال نمو المقارنة تتشكل رحابة عقلية جديدة لا يمكن بلوغها عن غير هذه السبيل.
حين نــدير حوارتنا على نحو جيد فإننا من خلال الحلــول الوســطى والآراء المعدَّلة والملقحة نشــيع في حياتنا الــرؤى المتدرجــة، كما نشـيع القابلية العقلية لإدراك ما في الأشـياء من نسـبية. وأعتقد أن تخفيف الاحتقان والتوتر الاجتماعي وكذلك تخفيف التوتر السائد في علاقاتنا مع المنافسين والخصوم على المستوى الدولي –يتطلب أن نؤسس في نفـوس وعقـول الصـغار والكبـار أن الخـير في النـاس، وكذلك الشر ليس مطلقاً؛ حيث لم يجعل الله –جل ثناؤه- الفضــائل حكـراً على أمة أو جيل أو مجتمـع، كما أنه لم يجعل الرذائل كـذلك. ويتطلب كـذلك أن نؤسس في الأذهـان أن هنـاك واجبـاً دون واجب وحراماً دون حرام وأذى دون أذى ونجاحــاً دون نجـاح وإخفاقـاً دون إخفاق... وأعتقد أنه في زمـان شـديد التعقيد وكثـير الغمـوض بـات الأطفـــــال –على نحو أخص- بحاجة إلى تربية تنمي لـــــديهم فقه الموازنات، وهذا الفقه يقوم على عدد من المبادئ المهمة، منها:
- لكل شيء ثمن، وهذا الثمن قد يكون وقتاً، وقد يكــون جهـداً، وقد يكون مالاً، وقد يكون سـحباً مما لـدى المـرء من رصـيد الالـتزام أو الكرامة أو السمعة...
- من تلك المبادئ أيضـاً ضـرورة العمل على تحقيق خـير الخـيرين، ودفع شر الشرين، فقد نفـوِّت خـيراً أصـغر من أجل الحصـول على خير أكبر. وقد ندفع شـراً أكـبر بـالوقوع في شر أصـغر. وقد نحتمل الضرر الأصغر من أجل تحاشي الوقوع في ضرر أكبر.
من خلال الحــوار بوصــفه صــبغة عامة للاتصــال والمعايشة نتبــادل رسالة عظيمة قائمة على نفسية الرخاء وعقلية السعة، حيث يـوقن الجميع أن في إمكــان المــرء تحقيق ذاتــه، والوصــول إلى أهدافه

وبلـورة آرائه على الـرغم من إتاحته الفرصة للآخـرين بـأن ينقـدوه ويجـادلوه، ويعترضـوا على بعض ما يقـول. وعلى العكس من هـذا فإنه حين ينعـــدم أو يضـــعف الحـــوار في مؤسسة أو أســـرة أو مدرســـة... فــإن كل واحد من الــذين يعيشــون في تلك المحاضن يشعر بالعوز والضيق وقلة الفرص، ويسـود اعتقـاد بـأن تقـدُّم فلان ونجاحه لا يتم إلا على حسـاب الآخـرين، كما أن نجـاح أي واحد من الأقران والزملاء لا يتم إلا إذا تضرر وتراجـع! وهـذا بسـبب سـيطرة فلسفة خفية توحي للناس بأنه ليس في الأرض من الخـير ما يكفي لإسـعاد الجميـع، فتسـيطر عقلية الشح حـتى في الأفكـار والآراء، فالأمور محسومة، فإما أن يكون الحق معي أو معك. وإما أن أكـون أنا على الطريق الصـحيح، وإما أن تكـون أنت، حيث لا يتـوفر لـدينا طريق ثالث!

أما حين يسود الحوار فسيدرك الناس -ولو بطريقة غير واضـحة- أن هناك دائمـاً طريقـاً ثالثـاً وفكـرة معدلـة، حيث إنه ما احتك مفهـوم بمفهـوم منـاقض إلا أمكن أن يتولد عن هـذين المفهـومين مفهـوم ثـــالث، هو أرقى منهما لأنه ثمـــرة لرؤية مشـــتركة، ونتيجة لتلاقح العقول الفذة.

ولنتأمل في قول الله –جل وعلا-:"الشيطان يعـدكم الفقر ويـأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم".

إننا من خلال الحــوار نكتشف القواسم المشــتركة، ونجد أن الــذي يقف في أقصى اليمين يتواصل على نحو ما مع الــــــذي يقف في أقصى اليســار؛ لأن الحــوار يتطلب بطبيعته بلــورة قواعد جديــدة واكتشـاف أرضـيات لم يسـبق لنا عهد بهـا. إن الحـوار بالنسـبة إلى الكبار أشبه باللعب بالنسـبة إلى الصـغار، ولو أنك أعطيت مجموعة من الأطفـــال دراجة –مثلاً- ليلعبـــوا عليها فإنك ســـتجد أنهم خلال دقائق توصلوا إلى بلورة قاعدة لتداولها والاستمتاع بها، وهكـذا نحن الكبـــار فإننا في حوارنا المتواصل مع بعضـــنا ومع أســـرنا وأطفالنا نستطيع بلورة العديد من المبادئ والأدبيـات والرمزيـات الـتي تجمع بيننا، وتقربنا من بعضنا.

إن الحـوار يحجم الخلاف في العديد من الأمـور، ويزيل سـوء الفهم وسوء التقدير وسوء الظن الذي يسود في حالات التدابر والتجـافي. وهذا يمهد الطريق للتعاون والتعاضد والعمل معاً وكأننا فريق واحد.

ولا بد هنا أن أشـير إلى نقطة مهمــة، وهي أن الحــوار يُنعش فيمن نربيهم ونعلمهم الشهية لطرح الأسئلة، حيث إنه بطبيعته يتضــمن ما

لا يحصى من الأسئلة، إن المحاور يستفهم من محاوره عن بعض الغوامض، ويطلب منه الدليل على بعض ما يورده من أقوال وآراء ومسائل، كما أنه كذلك يعترض من خلال الأسئلة على بعض ما يقوله محاوره... وهذا كله يمرن الأطفال والناشئة والشباب والكبار على أن يفضوا بما في أنفسهم، وأن يسألوا عن الأشياء غير المنطقية وغير المستساغة مما يرون ويسمعون. والحقيقة أن كثيراً من ينابيع الحكمة يتفجر، وكثيراً من شرارات الإبداع والابتكار ينقدح ويتوهج من خلال الأسئلة التي يطرحها النابهون والسائرون في دروب النجاح والتفوق.

إن طريق الحوار هو طريق المستقبل وهو طريق النهوض وطريق الفهم العميق والرؤية الثاقبة، كما أنه طريق التآخي والتعاون، وإذا لم نسلك هذا الطريق، فقد يكون الطريق الذي نسلكه هو طريق التباغض والتجافي والتعانف والانغلاق وسوء الفهم، وهذا ما لا يتناسب مع الرؤية الإسلامية للمستقبل، كما لا يتناسب مع الأدبيات الإسلامية في العلاقات الاجتماعية.

والله من وراء القصد.

كاتب المقال: د. عبد الكريم بكار

المصدر: موقع الدكتور عبد الكريم بكار

================

المناخ الأسري السليم وسِماته

من حكمة الله ـ عز وجل ـ أنه جبل الإنسان على حاجات نفسية تساعده على البقاء، وتحميه من الهلاك، ويتعدى دورها في أحيان كثيرة إلى الحماية من الانحراف والضياع.

وهذه الحاجات قد تكون ظاهرة ومعلومة للجميع، مثل: الحاجة إلى الغذاء أو الحاجة إلى النوم ونحو ذلك؛ إلا أن الكثير من الحاجات النفسية المؤثرة في حياة الإنسان لا تكون معلومة إلا للمتخصص مما يعظم دوره في النفع العام وخدمة المجتمع، ويُعْظِم كذلك المسؤولية الواقعة على كاهل كل منا في تثقيف الذات ورفع مستواها في المجالات المؤثرة في مسيرتها في الحياة.

ومن رحمة الله بعباده أن جعل بعض السلوكيات والعادات الإنسانية خادمة لاحتياجات كثيرة ومتعددة في وقت واحد، بل من رحمته أن جعل هذه الحاجات متداخلة ويشبع بعضها بعضاً.

ومن الطباع البشرية المشبعة لاحتياجات نفسية متعددة: الأسرة؛ فهي مغذية لحاجة الأبوة والأمومة والحب والحنان والجنس بالنسبة

للزوجين، والخبرة والتقدير والمسؤولية والسلطة الضابطة والانتماء والإنجــاز؛ إلى آخر القائمة من الحاجــات. وليس هــدفنا من هــذا المقـال تفصـيلها وبيـان كيفية إشـباعها، بل الهـدف بيـان السـمات الأسرية المعينة والمحققة للدور الأسري الفعال.
ولعلنا نذكر تلك السمات على شـكل نقـاط فيكـــون أوضـح للمـراد وأخصـــر للمقال، ولا يعني ترتيب السمات تسلسل الأهمية، بل كل السـمات مهمـة، وتوافرها متكاملة يعطينا المنـاخ الأسـري السـليم، وبحسب النقص فيها يحصل الخلل في مناخ الأسرة:

■ السمة الأولى: تتسم عملية التأديب والتربية في المناخ الأسـري السليم بالإيجابية:

وجوانب الإيجابية هنا متعددة، ومن ذلك:

1 - الحب والقبول غير المشروط:

أخرج الشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قـال: قَبَّلَ النـبي - صلى الله عليه وسلم - الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ــ فقـال الأقــرع بن حــابس: إن لي عشــرة من الولد ما قبَّلت منهم أحـــداً. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - : «من لا يرحم لا يُرحم».
التقبيل ما هو إلا مؤشر من مؤشـــــــرات الحب والرحمة من الوالد لولــده، ودلائل هــذه المحبة كثــيرة ومتعــددة، والأصل ظهورها من الوالد لولده ومعرفة الولد لها، والبعد عن وضع الشروط والمقاييس لمنح هذه المحبة للولـد. والشـرط الوحيد الـذي من الممكن دخوله في هـــذا الأمر هو القـــرب والبعد عن الإســـلام أو الطاعة كما في عقيدة الولاء والبراء؛ فهـذا المقيـاس يـدخل فيه جميع الخلق سـواء كانوا من الأقارب أو الأباعد؛ ولـــذا قــال الله ــ عز وجل ــ لنـوح ــ عليه السلام ـ الأب الذي يرجو ربه أن ينقذ ابنه من الغرق: {وَنَـادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإنَّ وَعْـدَكَ الْـحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْـحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْـرُ صَالِـحٍ فَلا تَسْـأَلْنِ مَا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ إنِّي أَعِظُـكَ أَن تَكُـونَ مِنَ الْـجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وإلاَّ تَغْفِـرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْـخَاسِرِينَ} [هود: 45 - 47].
فمن القــوة في التفريق والإبعـاد نفي كونه من أهلــه، والسـبب في ذلك الفرق الاعتقادي بين الوالد وولده.
أما في غير هذا الشرط فالأصل أن يُعطَى الولد مطلق المحبــة، ولا نقيدهـا بنجاح أو إخفــاق، ولا بموافقـة أو مخالفـة، ولا بحسن مظهر أو سوئه. يقول الدكتور عبد الكريم بكار: «يحبنا أطفالنـا؛ لأننا نقـدم

لهم حباً غـير مشـروط، وهـذا ما علينا أن نفعلـه؛ فـالأولاد هدية من الله ـ تعالى ـ وعلينا أن نتقبل تلك الهدية مهما كان شأنها».
ويقول الدكتور كمال دسوقي: «يحتاج الأطفال من الناحية الانفعالية أول ما يحتــاجون إلى الشــعور بالأمــان العــاطفي؛ بمعــنى أنهم محبوبـون كـأفراد ومرغـوب فيهم لـذاتهم وأنهم موضع حب وإعـزاز الآخرين».
وتقــول الــدكتورة هــدى قنــاوي: «ولا شك أن تقبُّل الطفل غــير المشروط على ما هو عليه يؤثر في فكرة الطفل عن نفسه، وتوجد علاقة وثيقة بين تقبل الـذات وتقبل الآخـرين، ومن ثم يمكن القـول إن تقبل الطفل على ما هو عليه يعزز إيجابية مفهوم الفرد عن ذاته وتقبله لها وتكيفه مع الآخرين مما يؤثر في النهاية على سلامة صحة الطفل النفسية»).
ولا يعني الحب غير المشروط التسليم بالأخطاء، بل السعي لعلاجها بالطرق التربوية الإيجابية مع توافر ذلك الحب.
2 - التركيز على الإيجابيات:
يقول علماء الهندسة النفسية: «ما تركز عليه تحصـله»، وهـذا الأمر ينطبق على النظرة إلى الذات وكذلك النظـرة إلى الآخـرين، ومنهم أعضاء المجتمع الأسري. فتركيز النظرة على الجـوانب الإيجابية في أعضاء الأسرة يزيل بالتدريج ـ ومن غير أن نشعر ـ الجوانب السلبية لديهم. عن أبي هريـرة ــ رضي الله عنه ــ قـال: قـال رسـول الله - صلى الله عليه وسلم - : «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلُقــاً رضي منها آخـر»، فلا يخلو إنسـان من إيجابيـات تسـتحق التشـجيع والثناء، وهذا التركيز هو نـوع من أنـواع التعزيز للصـفة الإيجابية مما يوسع دائرة الإيجابيات على حساب دائرة السلبيات. يقـول الـدكتور عمر المفـدى خلال كلامه عن تكـوُّن مفهـوم الـذات لـدى الأطفـال: «أما كيف تنشأ هذه الأفكار التي تشـكل مفهـوم الـذات؟ فإنها تنشأ من خلال ردود أفعــال الآخــرين تجــاه الشــخص أو تجــاه ســلوكه؛ فالطفل الـذي يكـرر عليه الآخـرون أنه جيد وحلو وذكي وغيرها من الصــفات الإيجابية من المتوقع أن يتجه مفهومه عن ذاته للإيجابيــة؛ بينما الطفل الذي يكرر على مسـامعه بأنه طفل سـيِّئ أو شـرير أو غـــبي وغيرها من الصـــفات الســـلبية؛ فمن المتوقع أن يتجه في مفهومه لذاته نحو السـلبية». ومن مشـاكل النظـرة السـلبية أنها لا تــؤثر على المــتربي أو الآخر فقــط، بل تــؤثر على نفس المــربي فتجعله يغفل أو لا يستطيع أن يرى الإيجابيات، بسبب الغشاوة التي

وضـعها على عينيه لعـدم عدله بـالتركيز؛ ويوافق هـذا الأمر قـول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

3 - الحماية المسبقة من السلبيات:

فالوقاية خير من العلاج، والعلاج في القضايا التربوية والنفسية قد لا يستطيع إزالة العلة أو المـرض أو المشـكلة التربوية تمامـاً، بل في أحيـان كثـيرة لا بد من بقـاء نسـبة ولو قليلة من آثـار ومظـاهر تلك المشـكلة؛ وهنا تكمن الخطـورة؛ ولـذا أصـبح البحث عن الـدروع الواقية والمانعة من وجود السلبيات من أقوى طرق التربية. وعندما رأى النبي -صلى الله عليه وسلم - مع عمر صـحيفة فيها شـيء من التـوراة غضـب، وقـال: «أمُتَهَوِّكـون فيها يا ابن الخطـاب؟ والـذي نفسي بيـده! لقد جئتكم بها بيضـاء نقيـة، لا تسـألوهم عن شـيء فيخـبروكم بحق فتكـذبوا بـه، أو بباطل فتصـدقوا بـه، والـذي نفسي بيـده! لو أن موسى ــ عليه السـلام ــ كـان حيـاً ما وسـعه إلا أن يتبعني»، وما كان النبي -صلى الله عليه وسلم - ليفعل ذلك مع مثل عمر إلا من أجل حماية ذلك الجيل ومن بعـدهم من دخـول سـلبيات الأمم الأخـــرى عليهم أو وقـــوعهم في الخلل في مصـــدر التلقي، فكانت الشدة في أول الأمر مع ما يُتصور أنه سـهل ويسـير للحماية مما هو أشد وأعظم.

ومن جوانب الحماية المسبقة من السلبيات ما يلي:

أ - تنمية الانضباط الداخلي:

عن ابن عبـاس ــ رضي الله عنهما ــ قـال: كنت خلف رسـول الله يوماً، فقال: يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجـده تجاهـك، إذا سـألت فاسـأل اللـه، وإذا اسـتعنت فاسـتعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضـروك بشـيء لم يضــــروك إلا بشــــيء قد كتبه الله عليــــك، رُفِعَت الأقلام وجفَّت الصحف». في هذا الحديث يُعلِّم النبي -صلى الله عليه وسلم - هـذا الغلام الصـغير قواعد أساسـية في الانضـباط الـداخلي يحتـاج إليها الكبير قبل الصغير.

فمن أقـوى جـوانب تنمية الانضـباط الـداخلي لـدى الإنسـان تقوية مراقبة الله في قلبه، ووسائل تنمية ذلك متعددة وكثيرة، وليس هذا موضع بسطها.

ومن جوانب الانضباط الـداخلي معرفة المعـايير الاجتماعية ومعـايير الأسرة وغرس الاهتمام بها وتقديرها لدى المـتربي. وسـيأتي الكلام عنها في السمة الثانية.

ب - اختيار البيئة الصالحة لأفراد الأسرة:

أمر النبي -صلى الله عليه وسلم - أصحابه بـالهجرة إلى الحبشة لما اشـــتد بهم الأذى وفتنـــوا في دينهم، فكـــان اختيـــاره للحبشة كبيئة جديدة للمهـاجرين معللاً بـأن فيها ملكـاً عـادلاً لا يُظلم عنـده أحـد، وبناءً على ذلك سيكون لـديهم القـدرة على أداء عبـاداتهم والتمسك بدينهم ومنع أي مؤثر خارجي على هـذا الجـانب. ولم يكتف النـبي - صلى الله عليه وسلم - بتلك البيئة المناسبة لوجـود بعض السـلبيات فيها، بل ما زال -صـلى الله عليه وسـلم - يبحث عن بيئة أفضل من تلك البيئة، فعرض نفسه على قبائل العرب حتى تحققت له الفرصة وبـايع الأنصـار وهـاجر إلى المدينـة؛ ومن هنـاك تحققت الانطلاقة الكـبرى للـدين الجديد وبلغ الآفـاق، وتـربى أتباعه في بيئة إسـلامية صـافية وسـالمة من كل سـمات الجاهليـة. وهـذا الأسـلوب ــ وهو أســـلوب البحث عن البيئة الصـــالحة ـــ من أهم أســـاليب التربية الاستباقية ـ إن صح التعبـيرـ ــ إذ فيها تربية جماعيـة، واختصـار لجهد المربي وبعد عن الانشغال ببُنَيَّات الطريـق. فعلى رب الأسـرة لكي يحمي أسرته من السـلبيات أن يختـار لهم البيئة الصـالحة. والمـراد بالبيئة هنا الحي والمدرسـة، بل ما يشـاهد وما يسـمع وما يقـرأ، بل يتجـاوز الأمر ذلك إلى اختيـار أقـارب الأسـرة الـذين يسـتطيع رب الأسرة قبولهم أو رفضهم وهم أخـوال أبنائـه؛ إذ عليه أن يختـار لهم أماً من بيئة صالحة تساعد أبناءه على الاستقامة والنجاح؛ إلا أن هذا الاختيـار محصـور بما قبل الـزواج ومجيء الأولاد؛ فـإذا تم ذلك فقد انتهى الاختيار.

4 - الاتفاق بين الأبوين على طرق التربية وتبادل الأدوار:

فوســائل التربية متعــددة وما يناسب أســرة قد لا يناسب أخــرى، والأدوار المطلوبة من كلا الوالدين مختلفة، وعلى الوالدين تحديـدها وعقد الاجتماعـات الخاصة بينهما من أجل مناقشة قضـايا الأسـرة، وحل المشــاكل الــتي قد تطــرأ بينهما بعيــداً عن نظر بقية أفــراد الأســرة. ومن الأخطــاء الــتي تقع فيها كثــير من الأمهــات إخفــاء الجــوانب السـلبية لـدى الأولاد عن والــدهم: إما خوفــاً عليهم من سـطوة والـدهم، أو ظنـاً منها إمكانية الحل دون علمـه، أو مخالفته بسلبية هذا الجانب. ومما يقع فيه الآباء ويسبب هذه المشـكلة لـدى

الأمهـات الشـدة والغلظة الدائمة أو اللامبـالاة والانشـغال عن بيته بصحبه وجلسائه أو أعماله، وتتعـدى دائـرة الاتفـاق الأبـوين ويـدخل فيها الإخوة الكبار والأقارب الذين لهم احتكاك دائم بأفراد الأسرة.
يقول الدكتور عبد الكريم بكار: «ولا ينبغي أن ننسى أهمية التنسيق بين بـاقي أفـراد الأسـرة؛ فالأجـداد والجـدات والعمـات والخـالات والإخوة الكبار يسـتطيعون إجهـاض العديد من السياسـات والجهـود التربوية للأبـوين»، ويقـول الـدكتور مـأمون مـبيض: «إنه لأمر معين ونافع أن يكون لك أقرباء جيدون يسكنون بقربك؛ حيث يقدمون لك المسـاعدة العملية والمعنويـة، ولا شك أن هـذا الـدعم المعنـوي والنفسي أمر مفيد جـداً؛ لأنك قد تتعـرض لبعض القلق وانشـغال البال وأنت تعمل على تنشئة ولدك».
■ السمة الثانية: تتضح فيه معايير المقبول والمرفوض:
عن وهب بن كيسان قال: أُتي رسول الله -صلى الله عليه وسـلم - بطعـام ومعه ربيبه عمر بن أبي سـلمة فقـال: «سَـمِّ اللـه، وكُـلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك».
وعن أبي هريـرة ــ رضي الله عنه ــ أن الحسن بن علي أخذ تمـرة من تمر الصـدقة، فجعلها في فيـه، فقـال النـبي -صـلى الله عليه وسلم - بالفارسية: «كخ كخ! أما تعرف أنَّا لا نأكل الصدقة؟».
في هذين الحديثين يبين النـبي -صـلى الله عليه وسـلم - للصـغيرين معايير عليهما الالتزام بها.
ووضـوح هـذه المعـايير لـدى أفـراد الأسـرة له دور في الاسـتقرار النفسي كما أن له دوراً في المشـــاركة العملية والإنجـــاز داخل الأسـرة وخارجهـا؛ لأن الفـرد قد عـرف ماله وما عليـه؛ فتـبين له المراد، وسهلت عليه المنافسة، واستطاع تحقيق حاجة أساسية من الحاجات النفسية وهي الحاجة إلى إرضاء الآخرين وإرضاء المجتمع.
يقول الدكتور حامد زهران: «ويحتاج الطفل إلى مساعدة في تعليم المعايير السلوكية نحو الأشخاص والأشـياء. ويحـدد كل مجتمع هـذه المعايير السلوكية، وتقـوم المؤسسـات القائمة على عملية التنشـئة الاجتماعية ـ مثل الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام وغيرها ـ بتعليم هذه المعايير السـلوكية للطفل مما يسـاعد في توافقه الاجتمـاعي. إن الطفل يحتاج إلى المساعدة في تعلم حقوقـه، وما له وما عليـه، وما يفعله وما لا يفعلـــه، ما يصح وهو في خلـــوة وما يصح وهو في جماعـــة، ما يصح وهو في حـــدود الأســـرة وما يصح وهو خـــارج

نطاقها... إلخ. ويحتاج إشباعُ هذه الحاجة من جانب الكبـار إلى كثـير من الخبرة والصبر والثبات والفهم).

■ السمة الثالثة: له مواعيد منضبطة وقواعد واضحة:

عن أبي برزة أن رسول الله -صـلى الله عليه وسـلم - «كـان يكـره النوم قبل العشاء والحديث بعدها».

وعن جـابر ــ رضي الله عنه ــ عن النـبي -صـلى الله عليه وسـلم - قال: «إذا استجنح الليل ـ أو قال: جنح الليل ـ فكفُّوا صـبيانكم؛ فـإن الشــياطين تنتشر حينئــذٍ؛ فــإذا ذهب ســاعة من العشــاء فخلُّوهم، وأغلق بابك واذكر اسم اللـــه، وأطفئ مصـــباحك، واذكر اسم الله وأوْكِ سـقاءك، واذكر اسم اللـه، وخمِّر إنـاءك، واذكـراسـم الله ولو تعرض عليه شيئاً».

هذا جانب من تنظيم الإسلام للحياة الأسرية؛ وما اهتم الإسلام بهـذا الجانب إلا لدوره وأثره النفسي والتربوي.

يقول الدكتور عبد الكريم: «من مسؤوليات الأم إشـاعة النظـام في بيتها، فتجعل وقتـاً محـدداً لتنـاول وجبـات الطعـام، كما تجعل وقتـاً لنوم الأطفال وأوقاتاً يُنهون فيها مذاكراتهم وواجباتهم؛ إن مثل هذه الترتيبــات والتنظيمــات ترسِّــخ في حس الأبنــاء معــنى الانضــباط والاهتمام بالوقت».

ويقول الدكتور إبراهيم الحارثي: «تَعَوَّدْ وضع قــوانين لك ولأســرتك، وأشــرك جميع أفــراد أســرتك في صــياغة القــوانين العائليــة. اعقِد جلسات أسرية لمناقشة القانون الذي تضـعه لحل مشـكلة مـا، ركِّز دائماً على الالتزام بالقوانين الأسرية التي تضعونها جميعاً».

ومن القواعد الـتي لا بد من وضـوحها لـدى أفـراد الأسـرة عـواقب السـلوك وما يـترتب عليه من ثـواب أو عقـاب؛ إذ في ذلك شـعور بمسـؤولية الفـرد عن تصـرفاته وتحمله ما يـترتب عليها وتقبُّله لتلك العــواقب عند وقوعهــا؛ إذ يشــعر الكل أن ما تم هو نتيجة طبيعية ترتبت على سلوك معين؛ فلا يـترتب على العقـاب الشـعور بـالظلم والقهر والتسلط، ولا يترتب على الثواب الغيرة أو الشـعور بتفضـيل أحد أفراد الأسرة على حساب الآخر.

ولكي تحقق هذه القواعد والضوابط أهدافها لا بد من وجـود سـلطة ضابطة يشعر أعضاء الأسرة بوجودها، وهذه السلطة حاجة أساسية من الحاجـات النفســية في الطفولة والمراهقــة، والنــاس فيها بين إفــراط وتفريــط، وكلا طــرفي قصد الأمــور ذميم، والزيــادة في

السلطة والتشديد فيها يؤدي إلى وجود الصراع بين الكبار والصغار في الأسرة، بل ويؤدي إلى انفراط السيطرة في النهاية.
والإخلال في السلطة وعدم القيام بها يؤدي إلى الضياع والفوضى داخل المجتمع الأسري، والمطلوب سلطة ضابطة تجمع بين الحزم والحنان والرحمة، وتراعي مراحل النمو وتندرج نحو الاستقلال والحرية.
■ السمة الرابعة: تتبادل فيه المسؤوليات والأدوار:
عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته. قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ، وأحسب النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته؛ فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».
ولو تتبعنا منهجية النبي -صلى الله عليه وسلم - في تربية أصحابه لوجدنا توزيع المهام والمسؤوليات واضحاً وجلياً؛ فمنهم من تولى جانباً عملياً، ومنهم من أعد لجانب علمي، ومنهم من تولى شأناً من شؤون النبي -صلى الله عليه وسلم - وخدمته.
والأدوار التي من الممكن تبادلها داخل الأسرة كثيرة ومتعددة، ومن الممكن تجزئتها أو دمجها حسب عدد أفراد الأسرة، ويأتي على رأس القائمة الوالدان وتبادلهما للدور التربوي والقيادي في الأسرة واتفاقهما على ذلك كما ذكر في السمة الأولى.
وإنه لمن المحزن في هذا العصر أن تجد شباباً قد قاربوا سن الزواج ولَمَّا يستطيعوا إدارة شؤونهم وحوائجهم الخاصة، فلا توجد لديهم قدرة على بيع أو شراء، ولا إنجاز معاملة في دائرة أو جهة، بل ولا القدرة على اختيار ما يناسبهم من ملبس ونحوه.
والفتيات ليس لديهن القدرة على إدارة منزل من طبخ أو غسل أو تربية أو استقبال ضيوف.
يقول الدكتور مصطفى فهمي: «يؤكد كثير من علماء النفس أهمية العمل في تكامل الشخصية؛ فهو وسيلة ومن وسائل التعبير عن الذات يحاول بها الفرد أن يحقق أهدافه وأن يشبع رغباته وحاجاته، وأن يحيل قيمه ومثله حقيقة واقعة، وأن يعبر عن دوافعه وصراعه

وقلقه بصـــورة مقبولة منه ومن المجتمع في معظم الأحيـــان، وهو في أثناء التفاعل مع الوسط الذي يعمل فيه ينمو وتتكامل شخصيته وتتحقق ذاته ويشــعر بقيمته وإنســانيته. وذكر الـــدكتور عبد العزيز النغيمشي عند كلامه عن التهيئة لتحمل المســؤولية أن من ضـــمن المجالات التي تعين على ذلك المشاركة الأسرية، وعلل ذلك بقوله: «إذ إن الأسرة كالمجتمع الصغير لها أعضاء وأنظمة وقيادة وميزانية وبـــرامج وعـــادات، ويمكن من خلالها ممارسة كثـــير من الأدوار والمسؤوليات. والأسرة هي المحضن الأول للفرد الذي فيه يـترعرع وينشأ؛ ووفق كيفية النشأة والتربية في الأسرة تكـون اسـتقلاليته أو تبعيته وإقدامه أو إحجامه».

إلا أن إعطـاء هــذه الأدوار والمســؤوليات لا بد أن يكــون بتــدرج وتـــدريب مســبق ومراقبة من المـــربي لئلا يـــؤدي ذلك إلى نتيجة عكسية.

■ السمة الخامسة: يشجع المشاركة الاجتماعية:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسـول الله -صـلى الله عليه وسلم - : «كل سـلامى من النـاس عليه صـدقة كل يـوم تطلع فيه الشــمس: يعــدل بين الاثــنين صــدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صـــدقة، والكلمة الطيبة صـــدقة، وكل خطـوة يخطوها إلى الصـلاة صـدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

وقال -صلى الله عليه وسلم - : «المسلم أخو المسـلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فــرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

إن تحميل الهم العــام للأمـــة، وغـــرس حب خدمة الآخـــرين وتقوية الشـعور بالانتمـاء للمجتمع الـذي يعيش فيه الفـرد كل ذلك يسـاعد الفـــرد في اكتشـــاف الـــذات، وتحقيق الإنجـــاز الـــذي هو حاجة من الحاجات النفسية التي يحتاج الإنسان إلى إشباعها، وهي في الوقت نفسه وسيلة من وسائل بناء وتطوير الذات وتوسع دائـرة العلاقـات لدى الفرد.

ومن المجالات المتاحة في المشاركة الاجتماعية النشـاط المدرسي اللامنهجي من توعية إسلامية، ونشاط كشـفي، وجماعـات النشـاط الطلابي المتنوعة؛ ففي هذا المجال غرس البذرة الأولى للمشــاركة الاجتماعية لــدى أفــراد الأســرة ممن ينتمــون إلى التعليم بــاختلاف

مراحلـــــه، ومن المجـــــالات المتاحة في المشـــــاركة الاجتماعية المؤسسات والجمعيات الخيرية النفعية أو الدعوية أو العلمية.
وعلى الوالدين إعانة أولادهم على المكـان الأنسب لهم من بين تلك المجالات وفتح المجال لهم للاختيار.
وانــدماج أفــراد الأســرة في الــبرامج الاجتماعية المتنوعة يســاعد الأسرة في صقل شخصيات أفرادها وقوة الارتبـاط الأسـري، والبعد عن سفاسف الأمــور والانشــغال بالترهــات الملهية مما يرفع قــوة الطرح في الجلسات الأسرية، ويفتح المجال لتبـني مشـاريع أسـرية مشتركة، بل يـؤثر تـأثيراً ظـاهراً في الأجيـال المتتابعة من الأسـرة الواحدة.
يقول الـدكتور أمين أبو لآوي مبينـاً مكانة المشـاركة الاجتماعية في التربية الإســلامية: «تتجه التربية الإســلامية إلى زرع بــذور التعاضد والتماسك والتضــامن في نفــوس الناشــئين من أجل تحقيق اتجــاه العمل الجمــاعي والشــعور بالمســؤولية عن الجماعــة؛ وذلك عن طريق إبراز أهمية العمل المنظم والهادف إلى رصِّ الصف وتنسيق الجهود الفردية لخدمة الأهداف العليا في المجتمع الإسلامي».
■ السمة السادسة: يشجع النجاح والتميز:
قال رسول الله -صلى الله عليه وســلم - : «نِعْمَ الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل. فكان عبد الله بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً».
وعن عبد الرحمن بن سمرة ـ رضي الله عنه ــ قـال: «جـاء عثمـان إلى النــبي -صــلى الله عليه وســلم - بــألف دينــار حين جهز جيش العسرة فينثرها في حجره. قال عبد الرحمن: فـرأيت النـبي -صـلى الله عليه وسلم - يقلبها في حجره ويقول: «ما ضر عثمــان ما عمل بعد اليوم».
وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قـال: قـال رسـول الله -صـلى الله عليه وســـلم - للأشـــج، أشج عبد القيس: «إن فيك خصـــلتين يحبهما الله: الحلم والأناة».
ولو تتبعنا سيرة النبي -صلى الله عليه وسـلم - لوجـدنا فيها مواقف متعددة لاستنفار الطاقات وتشجيع المواهب.
وهذا الجانب يعطي الشعور بالثقة وتقدير الآخرين للمتربي، ويقــوي فاعليته وانتمـــاءه للجهة الـــتي منحته الفرصة لإظهـــار ما لديه من قدرات، ويساعد في تكرار النجاح والحرص عليه.
يقول الـدكتور مـأمون مـبيض: «من الأهمية بمكـان أن يبـذل الآبـاء بعض الجهد في تعلم أســاليب التشــجيع فهو من أهم الأمــور الــتي

يمكنهم استعمالها في التربية وهو من الأمور المؤثرة في الأنواع الأخرى من السلوك».
وتشجيع النجاح والتميز في الأسرة لا يكون عن طريق التمييز في الحقوق بين أعضائها أو الاهتمام ببعضهم وإهمال الآخرين، بل يكون بغرس المفاهيم الصحيحة للنجاح، وفتح المجال للإنتاج والإبداع، وتوفير الوسائل المساعدة على ذلك والتحفيز المدروس والصادق الواقعي لمظاهر النجاح لدى أفراد الأسرة.
■ السمة السابعة: لديه أوقات للمرح والفكاهة والاستجمام:
عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أنها كانت مع النبي -صلى الله عليه وسلم - في سفر قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك السبقة».
وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: «رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم - يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا التي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو».
وعن عبد الله بن شداد عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في إحدى صلاتَي العشاء وهو حامل حَسناً أو حُسيناً، فتقدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فوضعه، ثم كبَّر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها. قال أبي: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الصلاة قال الناس: يا رسول الله! إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك. قال: «كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أُعَجِّله حتى يقضي حاجته».
وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: «إني لا أقول إلا حقاً».
إن إغناء أفراد الأسرة عن الالتفات إلى خارج الأسرة أو البحث عمن يشبع حاجة من حوائجهم أمر مهم، وعلى قائد الأسرة الاهتمام به. والمرح والفكاهة والاستجمام من الأشياء المهمة المهملة من الكثير من الآباء لعدم الاقتناع، أو لكثرة مشاغله، وقد اعتبر الكثير من التربويين اللعب والمرح وسيلة من وسائل التربية، بل أُلِّف في ذلك كتب متعددة ورسائل متخصصة.

يقول خالد العودة: «للـترويج دور مهم في التربية الخلقية والروحية إضافة إلى دوره في الجوانب الأخـرى، والأسـرة محتاجة إلى اللعب والترويح حاجة أساسية كحاجتها للطعام والشراب أحياناً».

ووسائل الترويح في الأسـرة المسـلمة متعـددة، ومن ذلك المداعبة والمـزاح والنزهة والرحلة الأسـرية، وتوفـير لعب الأطفـال الهادفـة، والتجمعات العائلية، وزيـارة المتـاحف والمعـارض المفيـدة، وتوفـير الكتب والأشرطة السمعية والمرئية وبرامج الحاسب الآلي التعليمية والترفيهية ووســائل الإعلام؛ إلى آخر القائمة من الوســائل الــتي بإمكان الأب توفيرها لأسرته وفق الضوابط الشرعية.

يقـول خالد العـودة: «وإدارة الـترويح المـنزلي تتمـيز بكونها شـأن أسري خاص يصعب التحكم فيه من خارجهـا، ولـذا تـزداد مسـؤولية الوالدين في اختيار الأنماط والتطبيقات المناسبة».

■ السمة الثامنة: يتسم بالمرونة ومراعاة الظروف:

الأسرة محضن تربـوي يسـتمد مكانته من النصـوص الشـرعية الـتي هــي بدورهــا منضبطة بقواعـد مــن ضمنها: «لا ضرر ولا ضرار» و «المشقة تجلب التيسير» وعدم المؤاخذة عند الجهل أو النسـيان أو الإكراه.

ولا يخلو عضو من أعضــاء الأســرة من ظــروف تمر به وتمنعه من تحقيق الأهـداف العامة للأسـرة من مـرض ومشـاغل وتعكُّرِ مـزاجٍ وقلة ذات اليد، ونحو ذلك.

فلا يعني وجود خطط أو أهـداف أو اتفاقيـات محـددة داخل الأسـرة أن نكـون صـارمين في تحقيقهـا؛ فقد تضـطر الأسـرة لتأجيل بعض برامجها أو إلغائهــــا، أو قد تضـــطر للتعامل بطريقة معينة مع أحد أفرادها؛ لأنه يمر بمرحلة نمو معينة، أو قد تتنازل الأســرة عن بعض مطالبها لصعوبات مالية تمر بها.

ولو تتبعنا سنة النبي -صلى الله عليه وسلم - في ذلك لوجدنا اليسر والسهولة والبساطة.

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي -صلى الله عليه وسلم - عند بعض نسائه، فأرسـلت إحـدى أمهـات المؤمـنين بصـحفة فيها طعـام فضـربت الـتي النـبي -صـلى الله عليه وسـلم - في بيتها يد الخادم فسقطت الصـحفة، فـانفلقت، فجمع النـبي -صـلى الله عليه وسـلم - فلق الصـحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعـام الـذي كـان في الصحفة، ويقـول: غـارت أمكم. ثم حبس الخـادم حـتى أتى بصـحفة

من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرَت».
قـال أنس ــ رضي الله عنه ــ: «كـان رسـول الله -صـلى الله عليه وسلم - من أحسن الناس خُلُقاً، فأرســلني يومـاً لحــاجــة فقلت: واللـــه! لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمــرني به نــبي الله - صلى الله عليه وسلم - قال: فخـرجت حـتى أمـرَّ على صـبيان وهم يلعبون في السوق؛ فإذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قـابض بقفـاي من ورائي، فنظـرت إليه هو يضـحك، فقـال: يا أُنَيْسُ! اذهب حيث أمرتـك! قلت: نعم أنا اذهب يا رسـول اللـه! قـال أنس: واللـهِ لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين ما علمت قال لشـيء صـنعتُ: لِمَ فعـلتَ كذا وكذا، ولا لشيء تركتُ: هلاَّ فعلتَ كذا وكذا!».
ولا يعني ذلك اللين أو المداهنة في المحرمات، بل على رب الأسرة حمايتها من كل ما يخـالف الشـرع، والإنكـار على من وقع في منكر منهم مع اعتبار الآداب الشرعية في ذلك.
عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن قريشــاً أهمهم شــأن المــرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسـول الله -صـلى الله عليه وسلم - ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسـامة بن زيد حب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ؟ فكلمه أسـامة فقـال رسـول الله -صلى الله عليه وسلم - : «أتشـفع في حد من حـدود اللـه؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلكَ الـذين قبلكم أنهم كـانوا إذا سـرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سـرق فيهم الضـعيف أقـاموا عليه الحـد، وايم الله! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».
ومن المرونة في الحيـاة الأسـرية النظـرة الإيجابية للمشـكلات؛ فلا يخلو تجمع بشــري منهــا. والإيجابية هنا في تقبُّل وجــود المشــكلة، وأنها أمر طـبيعي لا يعـني انتهـاء العلاقة الأسـرية أو فسـادها. ومن الإيجابية في النظرة إلى المشكلات الأسرية السـعي لعـدم ترسـبها في الأسرة واستغلالها كحدث تربوي.
■ السمة التاسعة: يسود فيه الأدب والاحترام المتبادل:
عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: قـال رسـول الله -صـلى الله عليه وسلم - : «ليس منا من لم يرحم صـغيرنا ويـوقر كبيرنا ويـأمر بالمعروف وينهى عن المنكر».
يتصور الكثـيرـ من النـاس أن الأدب والاحـترام عنـدما يُطلق يـراد به احترام الأصـغر لمن هم أكـبر منه سـواء كـان ذلك في العمر أو في غـيره؛ مع أن الاحـترام قضـية تبادلية لا يمكن أن توجد من الإنسـان

تجاه من لا يحترمه، ولكي يكون الاحـترام سـمة من سـمات أسـرنا علينا أن نسعى لتوفير سمات المناخ الأسري السليم في أســرنا؛ إذ بتوفيرها يشعر عضو الأسرة بالانتماء إليها والحـرص على مصـالحها ومحبته لأعضائها، وعلينا كذلك أن نحرص على توفير أمــرين مهمين لهما أثرهما في الاحترام المتبادل.

أ - العدل بين أفراد الأسرة:

في الحقوق والواجبات وعدم إشعار أحد منهم أن غـيره مقـدم عليه أو أفضل منه.

يقــول الــدكتور عــادل رشــاد: «إن عطاءنا لأبنائنا يجب أن يكــون متوازنــاً بشـكل عـام؛ فلا ينبغي أن يشـعر الأبنـاء بأنك تفضل بعض أطفالك على بعضـهم الآخـر، وأي اختلال لهـذه القاعـدة كفيل ببعث الغيرة والكراهية ومن ثَم تهيئة أسباب الـنزاع بين الإخـوة». ويقـول مجاهد ديرانية: «إن التفضـيل في المحبة بين الأولاد خطأ فـادح؛ أما إظهار ذلك والتصريح به فهو خطيئة، بل هو جريمة لا تغتفر ولا تعود أضرار ذلك على المفضولين فقط بأن ينشؤوا ساخطين أو معقَّدين، بل إن الضرر يكون أوسع من ذلك؛ بحيث يسود بين الإخوة أنفسهم روح الحسد والضغينة ومشاعر الكره المتبادل».

وهذا العدل لا يكون في العطاء أو العاطفة فقط، بل حتى بـالتكليف والمطالبة بالمشـاركة في أعمـال الأسـرة؛ فبعض الآبـاء يركز على أحد أبنائه لسرعة استجابته أو لإتقانه العمل، ويظهر ذلك في تركـيز الوالــدين على الابن الأول أو البنت الأولى، فتجد هــذين يقومــان بالكثير من أدوار الوالدين في الأسرة، وهذا الأمر يؤدي إلى سلبيات تربوية متعددة من أقلها الحقد والكره بين الإخوة؛ فـالمكلف بالعمل يرى أنه قد أثقل عليه بالعمل وفتح المجال للآخـرين للهو وإنجـاز ما يريدون من أعمـال، والآخـرون يـرون أن والـديْهم لا يثقـان بهم كما يثقان بالمكلف بالعمل.

ب - فتح باب الحوار داخل الأسرة:

إن تنفيــذك للأمر وأنت مقتنع فيه لا شك أنه ســيكون أفضل وأتقن مما لو فعلته بالإكراه وقوة السلطة. ومن المحال أن يتقبل الإنسان فكـرة من الأفكـار عن طريق الإكـراه والسـلطة التعسـفية حـتى لو أظهر خلاف ذلك تجنباً للضـرر الـذي قد يلحق به عند المخالفـة، ولا يقف الأمر عند هـذا الحــد، بل يــؤدي إلى التفكك ونشــوء النجــوى والثللية داخل الكيان الواحد، ولـذا فمن الخـير للأسـرة ولكي تسـود

فيها الشفافية والجماعية في اتخاذ القرار أن يفتح فيها بـاب الحـوار لنقاش المشكلات.
يقول سلمان خلف الله: «للحوار قيمة حضارية وإنسـانية، وعلينا أن نعمل ونأخذ به في حياتنا وممارسـاتنا التربوية والأسـرية، ويجب أن تـؤمن به كل أمــة. والحــوار يخلق التفاعل الــدائم بين الطفل من ناحية وبين المنهج والمعلم من ناحية أخرى؛ فلا بد أن يوصل الحوار إلى كشف الحقيقة وخاصة إذا كانت غائبة؛ فهو الوسيلة المهمة في بنـاء شخصـية الطفل كفـرد وكشخصـية اجتماعيـة، وهو يخلق أيضـاً روح المنافسة بين الأطفــال، فيحملهم على الــدخول في ميــادين المناقشة العلمية. وكـذلك يثبت فيهم روح الجماعة والتعـاون، ويبعد عنهم الأنانية وحب الذات المفرط، ويبث فيهم روح الألفة والمحبــة، ويعــودهم على النظـام والتعـاون، ويسـاعد على الابتكـار واحـترام الطفل لذاته».
ومن صـور الحـوار الـتي أدت إلى المحبة والألفة والاقتنـاع، ومنعت من التمادي في الخلل ما رواه أبو أمامة قـال: «إن فـتى شـاباً أتى النبي -صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله! ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجـروه قـالوا: مَـهْ مَـهْ! فقـال: ادْنُـهْ! فـدنا منه قريبـاً قـال: فجلس. قـال: أتحبه لأمــك؟ قـال: لا، واللـه! جعلنـي فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبــه لابنتك؟ قال: لا، والله! يا رسول الله! جعلني الله فداءك. قال: ولا النـاس يحبونه لبناتهم. قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا، والله! جعلني فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا، والله! جعلـني فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتك؟ قــال: لا، واللـه! جعلـني فـداءك. قـال: ولا النـاس يحبونه لخـالاتهم. قـال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّـن فرجـه! فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء».
فلو تعسف النـبي -صـلى الله عليه وسـلم - ــ وحاشـاه ذلك ــ لما حصلت هذه النتيجة الجميلة.
ومشــكلة الكثــير من المــربين مع الحــوار هو عــدم معرفة آدابه وأساليبه، بل إن الكثير من صور الحوار لــدينا تنقلب إلى موعظة أو تحقيق أو مناظرة، ومع ذلك نظن أننا نؤدي الكم والكيف المطلــوب من الحوار مع من نربي، وأن الخلل أتى من قِبَلهم وليس من قِبَلنـا.
يقــول الــدكتور عبد الكــريم بكـار: «لم تترسخ بعــدُ تقاليد الحــوار الصحيح في حياتنا الاجتماعية والأسرية، ولهذا فـإن من الملاحظ أننا

كثيراً ما نبدأ حديثنا مع من نربيهم من أبناء وطلاب على أنه محاورة تتجلى فيه النِّدِّية، ثم ينتهي إلى أن يكـون منـاظرة خشـنة يملى فيه الـرأي إملاءً مباشـراً؛ فهل نتخذ من العثـور على طريقة جديـدة في التفاهم هدفاً نسعى إليه؟.

■ السمة العاشرة: يشعر كل فرد فيه بالانتماء والاندماج والتحمس لتحقيق أهداف الآخرين والتعاون معهم:

هـذه السـمة هي نتيجة لتـوفر السـمات السـابقة ومن الغـريب أن يطالب بعض المربين مَنْ تحت يده بهذا الأمر وهو قد فـرط بـالأمور السابقة. وجزء من هذه السـمة هو حاجة نفسـية أساسـية لا بد من إشــباعها وإلا أدى ذلك إلى العزلة والشـعور بالوحشة والاغــتراب. يقـول الـدكتور أحمد راجح: «يـزداد شـعور الفـرد بـالأمن والتقـدير الاجتمـاعي كما يـزداد اعتـداده بنفسه واعـتزازه بها حين ينتمي إلى جماعة قوية يتقمص شخصيتها، ويوحد نفسه بها كالأسرة القويـة، أو النـادي، أو النقابـة، أو الشـركة ذات المركز الممتـاز، وتنبت هـذه الحاجة في أحضان الأسرة من علاقة الطفل بأمه وأفراد أسرته، ثم تعززها أو تحبطها بعد ذلك التجــارب الــتي يمر بها الفــرد، ومــتى أرضـيت هـذه الحاجة وشـعر الفـرد بالانتمـاء إلى جماعة معينة زاد ولاؤه لها وشعوره بأنه جزء منها يصيبه ما يصـيبها على أن إرضـاءها يتوقف على تقبُّل الجماعة للفـرد؛ لأنه يعمل من أجلهـا، وعلى تقبُّل الفـرد للجماعـة؛ لأنها تُرضي حاجاته ومطالبـه». وتقـول الـدكتورة هدى قناوي: «المرء في حاجة إلى أن يشـعر بأنه فـرد من مجموعة تربطه بهم مصــالح مشــتركة تدفعه إلى أن يأخذ ويعطي، وإلى أن يلتمس منهم الحماية والمسـاعدة؛ كما أنه في حاجة إلى أن يشـعر بأنه يستطيع أن يمد غيره بهذه الأشياء في بعض الأحيان».

وعندما يتحقق الشعور بالانتماء للأسرة لدى أعضائها سـيترتب على ذلك الاندماج بين أفرادها والتعاون والسـعي لتحقيق أهـداف الجميع لشعورهم بأهمية وأثر ذلك على حيـاتهم الخاصـة، وعنـدما يسـتطيع المــربي تقوية الجــوانب الإيمانية وغــرس أهمية الجــانب الأخــوي وتقـديم ما عند الله على ما عند النـاس لـدى المـتربين ــ عند ذلك تزول النظرة للمصلحة المادية الدنيوية في هذا الجانب أو تعظيمها.

وأخيراً: فإن الوصول لإصلاح الأمة على المسـتوى العـام يحتـاج إلى إصــلاحات كثــيرة على المســتويات الفردية والمؤسســية، ومن المؤسسات الأولى المؤثرة في هذه الجانب كيـان الأسـرة، وما ذكر

في هـذا المقـال هو جـزء من الإصـلاح الأسـري الـذي نسـعى إليـه، وأرجو من الله ـ عز وجل ـ أن أكون قد وفقت للصواب فيه.
بقلم / حسين بن عجاب العوفي

الفهرس العام